كتاب
منتخبات التواريخ لدمشق

تأليف

محمد أديب آل تقي الدين الحصني

قدم له

الدكتور كمال سليمان الصليبي

١ - ٣

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

كتاب

منتخبات التواريخ لدمشق

١ ـ ٣

كتاب
منتخبات التواريخ لدمشق

تأليف

محمد أديب آل تقي الدين الحصني

قدم له

الدكتور كمال سليمان الصليبي

الجزء الأول

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

الطبعة الأولى
١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

مقـــدمة

بقلم كمال سليمان الصليبي

لدمشق بين مدن العالم الإسلامي مكانة خاصة تميزت بها على مـــرّ العصور . تاريخها قبل الإسلام عريق في القدم ، وهناك من يعتبرها أقدم مدن المسكونة . والعرب الفاتحون عرفوا قيمتها ، فاهتموا بالمحافظة عليها ورفعوا شأنها . حتى أصبحت دار الخلافة وقاعدة الدولة الإسلامية النامية ، الغازية ، المتوسعة في عهد بني أمية . ثم جار عليها الزمن في عهد بني العباس ، وتواترت فيها الفتن ، فتداعت معالمها الأموية واضمحلت ، ولم يبق منها قائماً الا الجامع الكبير عند باب البريد ، والعنفوان « الأموي » (على حدّ تعبير المؤرخين) الذي حافظ عليه أهل دمشق على الرغم من حيف السلطان وتعاقب المحن . وهكذا استمرّت المدينة العريقة ، في ظل الدولة العبّاسية ، ثم الفاطمية ، الواعية لشرف منزلتها ، تعيش على هامش التاريخ الاسلامي ، حتى دخلت تحت حكم آل سلجوق في غضون القرن الخامس للهجرة ، وهو الحادي عشر للميلاد . فجعلها تاج الملوك تتش مركزاً للدولة السلجوقية التي أنشأها في بلاد الشام . ولم يمض زمن يسير على دخول دمشق تحت حكم السلاجقة ، والملوك الأتابكة من بعدهم ، حتى أخذت المدينة تستعيد مكانتها في عالم الإسلام . فاصبحت كبرى قواعد الجهاد ضد الفرنجة في بلاد المشرق ابتداء بالقرن السادس للهجرة ، وهو الثاني عشر للميلاد ، وذلك في ظل الدولة الأتابكية البورية ، ثم النورية

(وهي دولة الملك الأتابكي نور الدين محمود بن زنكي) ، ثم الأيوبية (وهي الدولة التي أسسها الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب الذي نشأ في دمشق وتوفي ودفن فيها) .

وفي الوقت ذاته الذي أخذت دمشق تستعيد مكانتها السياسية والعسكرية في العالم الإسلامي ، عاد اليها النشاط التجاري ، وازدهرت فيها الصناعات والحرف ، وتجدّد فيها البنيان . وبرزت في المدينة الغنية بقديم التراث معالم حضارة إسلامية مستجدّة تمثلت أكثر ما يكون في حقول الدين ، والتصوف ، والعلم ، والادب .وسرعان ما أصبحت « قبة النسر » في الجامع الأموي الكبير محجة العلماء وطلاّب العلم من مشارق البلاد الإسلامية ومغاربها . وبلغت المدينة ذروة أهميتها كمركز للحضارة الإسلامية المشرقية في عهد المماليك ، بين القرنين السابع والعاشر للهجرة (الثالث عشر إلى السادس عشر للميلاد) . ولم تقتصر الحركة العلمية فيها ، في تلك الفترة ، على مجالس « قبة النسر » بل تعدّتها إلى المدارس والزوايا ودور الكتب التي أنشأها الملوك ونوّاب السلطنة في المدينة ابتداء بالعهد الاتابكي ، ومروراً بالعهدين الأيوبي والمملوكي ، حتى القرون الأولى من العهد العثماني . وما زالت دمشق تحتفظ بالكثير من معالم وآثار النهضة الحضارية التي تميزت بها في تلك العهود ، من أسواق وحمامات وجوامع ومدارس وزوايا وبيمارستانات وقصور وخانات تحمل إلى اليوم أسماء كبيرة من الماضي وتخلد لها الذكر .

وعلى هامش هذه النهضة الإجتماعية والعلمية التي قامت في دمشق في ذلك الوقت ، ظهر عند علماء دمشق اهتمام جديد بتاريخ المدينة ، وبتاريخ الحركة الحضارية الإسلامية المترامية الأطراف التي اعتبر الدمشقيون مدينتهم مركزاً ومنطلقاً لها ، وكان رائد مؤرخي دمشق ، في القرن السادس للهجرة ، إبن عساكر صاحب « تاريخ دمشق » ، يليه إبن القلانسي صاحب « ذيل تاريخ دمشق » ، وابن شدّاد صاحب سيرة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب . ثم جاء القاضي إبن خلكان ، كبير علماء المدينة

في أوائل عهد المماليك ، فوضع تاريخه الشهير « وفيات الأعيان » الذي ركز فيه الإهتمام على تراجم مشاهير الرجال في دمشق ، وبلاد الشام والعالم الإسلامي ، على الأخصّ في شطره المشرقي . فجاء هذا الكتاب نموذجاً لما وضع بعده من كتب « التراجم » ، أو « الوفيات » ، أو « الطبقات » ، في الأزمنة اللاحقة . والجدير بالذكر أن هذا النوع الشامل من أدب « الطبقات » ما لبث أن أصبح تقليداً لم يخرج عنه علماء دمشق إلاّ في القرنين التاسع والعاشر للهجرة ، عندما كانت القاهرة في عهد المماليك القاعدة السياسية والحضارية الأولى في الشرق الإسلامي . ففي غضون القرن الثامن وضع خليل بن أيبك الصفدي كتاب « الوافي بالوفيات » ، ووضع معاصره محمد بن شاكر الكتبي كتاب « فوات الوفيات » . ثم أخذ المؤرخون القاهريون عن زملائهم الدمشقيين مهمة تصنيف التراجم ، فوضع إبن تغري بردي كتاب « المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي » ، وإبن حجر العسقلاني كتاب « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة » ، والسخاوي كتاب « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » . وما لبث الدور أن عاد إلى دمشق بعد سقوط دولة المماليك ، واستمر فيها طيلة العهد العثماني . ومن أهم كتب الطبقات التي وضعت في دمشق بعد القرن العاشر « الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة » للغزّي ، و« ذخائر القصر في تراجم أبناء العصر » لإبن طولون الصالحي الدمشقي ، و« خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » للمحبي ، و « تراجم الأعيان في أبناء الزمان » للبوريني ، و « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » للمرادي ، و « حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر » للبيطار . ويبدو للواقف على هذا الأثر الغني في كتب التراجم والوفيات أن مؤرخي دمشق ، بوعيهم لأهمية مدينتهم كمركز للمدنية الإسلامية ، أخذوا على عاتقهم تسجيل أثر هذه المدنية جيلا بعد جيل حتّى جاء العصر الحديث وأخذت المؤثرات الحضارية من الغرب تفرض التغيير على العالم الإسلامي وتعبث بتقاليده الموروثة .

ولم تكن كتب التراجم والوفيات والطبقات ، على الرغم من عظيم أهميتها — وهي أثر يندر مثيله في حضارات العالم — إلاّ جزءاً من نتاج مؤرخي دمشق في عهد الملوك الأيوبيين والمماليك وآل عثمان . أضف إليها كتب الأخبار ، والمصنفات الكثيرة التي تركز فيها الإهتمام على وصف معالم دمشق والبلاد الشامية وآثارها و « مزاراتها » و « محاسنها » . وكتب « المزارات » و « المحاسن » هذه — وهي لا تحصى عدداً — تعكس بوجه خاص وعي أهل دمشق وعلمائها لمكانة مدينتهم الحضارية في العالم الإسلامي .

والجدير بالذكر أن بعض علماء دمشق استمرّ في وضع كتب الأخبار والتراجم و « المحاسن » بالطريقة التقليدية بعد زوال الدولة العثمانية ، وحتى الأمس القريب . وما الكتاب الذي بين يدي القارىء اليوم إلاّ نموذجاً ممتازاً من نتاج دمشق المتأخر في هذه الضروب من الآداب التقليدية. وقد تم تأليف الكتاب في السنوات الأولى من عهد الإنتداب الفرنسي ، فطبع الجزء الأول منه في المطبعة الحديثة بدمشق عام ١٩٢٧ ، ولحقه الجزء الثاني عام ١٩٢٨ ، ثم الجزء الثالث عام ١٩٣٤ . وجاء الكتاب جامعاً بين الأخبار والتراجم و « المحاسن » ، وكأن واضعه شاء أن يجمع خيوط التراث الحضاري الدمشقي كما وصلت إليه حرصاً منه على حفظها في خضم التطوّرات الحديثة ، قبل أن يطويها النسيان . وقد ارتأت « دار الآفاق الجديدة » إعادة نشر هذا المؤلف القيم ، الغني بالمعلومات ، طبق الأصل المطبوع الذي سهر على نشره المؤلف بنفسه .

مؤلف الكتاب هو محمد أديب بن محمد بن عبد القادر آل تقي الدين الحصني ، ولد عام ١٢٩٢ هـ/ ١٨٧٥ م في دمشق ، وتوفي بها عام ١٣٥٨هـ /١٩٤٠ م . اسرته من السادة الحسينية ، تنتسب إلى الأمام علي الرضا ، وهو الإمام الثامن حسب عرف الشيعة الإثني عشرية ، ونسبتها « الحصني » تعود إلى قرية الحصن من قرى حوران (منطقة أربد) ، والبلدة تقع حالياً في الجزء الشمالي من المملكة الأردنية الهاشمية . أما الشهرة « آل تقي الدين »

فنعود إلى الشيخ تقي الدين أبو بكر بن محمد عبد المؤمن ، الفقيه الشافعي (٧٥٢ – ٨٢٩ هـ / ١٣٥١ – ١٤٢٦ م) الذي قدم دمشق من الحصن واستقر فيها . وكان الشيخ تقي الدين هذا يميل إلى التقشف والتصوّف ، ويجمع بين « العلم والعمل » ، فاشتهر بكراماته ، وعمّر رباطاً داخل باب الصغير في محله الشاغور عرف بعده بزاوية الحصنّي . وتسلم الرباط بعد وفاته أبناء أخيه محب الدين محمد . واستمر بعض أعقاب محب الدين مستقرّين في هذا الرباط ومنتفعين بأوقافه حتى العصر الحديث . وبسبب الشهرة التي كانت للشيخ تقي الدين ، و « جلالة قدره » ، ووفرة أوقافه ، عرف ورثته الذكور من أبناء أخيه محب الدين باسمه . وذلك أن الشيخ تقي الدين لم يعقب إلاّ البنات ، وقد تزوج إحداهن واحد من أبناء أخيه محب الدين ، فامتزجت ذرية الأخوين بحيث أصبح بعض أحفاد محب الدين أسباطاً لتقي الدين ، ومن أوقاف آل تقي الدين الحصنّي ، من سلالة محب الدين ، في دمشق والغوطة ، في ما عدا زاويتهم في حي الشاغور ، سوق الدق الكائن في شارع مأذنة الشحم ، وخان الكشك قرب قرية الحيارة . هذا ما يستخلص عن أصل أسرة مؤلف « منتخبات التواريخ لدمشق » من كتابه (أنظر الكتاب ص ٥٥٣ – ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٧١ ، ٥٩٩ ، ٦٢١ – ٦٢٢ ، ٨١٧ – ٨١٩ ، مع ذكر المصادر) .

واذن فأن قدم آل تقي الدين الحصنّي في دمشق يعود إلى أواسط عهد المماليك . وأساس شهرة الأسرة يعود إلى مكانتها المرموقـة في حقل التصوف ، وكذلك إلى مكانة مؤسسها الشيخ تقي الدين ، وبعض المتقدّمين منها ، في حقل الفقه الشافعي . والمعروف إن المذهب الشافعي كان له اعتبار خاص من قبل في عهد المماليك . وقد عرف الشيخ تقي الدين في زمانه بتعصبه للمذهب الشافعي ، وبمناهضته الشديدة للحنابلة في دمشق . كما عرف شمس الدين محمد ، إبن أخيه محب الدين ، من بعده ، بتحامله الشديد على مذهب إبن حنبل . واستمرّ آل تقي الدين الحصنّي على المذهب

الشافعي حتّى القرن الثالث عشر للهجرة ، وهو التاسع عشر للميلاد ، عندما تحوّل بعض أفراد الأسرة إلى المذهب الحنفي ، وهو مذهب الدولة في عهد آل عثمان . وكان آخر من برز من آل تقي الدين في حقل الفقه الشافعي السيّد حسن بن تقي الدين آل تقي الدين الحصْني الذي ولي منصب الإفتاء في دمشق في غضون القرن الثالث عشر للهجرة وتوفي عام ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨ م (انظر متن الكتاب ، ص ٦٤٨ — ٦٥٠ ؛ البيطار ، « حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر » ، دمشق ١٩٦١ ، ج ١ ، ص ٤٨٨ — ٤٨٩ ؛ محمد جميل الشطي ، « أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر ، ١٢٠١ — ١٣٥٠ هـ » ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٨٥ — ٨٦) . وفي أواخر العهد العثماني ولي بعض أفراد الأسرة ، ومنهم مؤلف هذا الكتاب ، نقابة الإشراف بدمشق . وقامت في الوقت ذاته صلة قربى بينهم وبين أشراف مكة عن طريق زواج شقيقة السيّد حسن بن تقي الدين ، الآنف الذكر ، بالشريف فاخر بن الشريف سلطان (أنظر متن الكتاب ، ص ٨١٩) ، فزاد ذلك في مكانة الأسرة بين أعيان دمشق .وكان هناك بين المتأخرين من أفراد الأسرة من اشتغل بالتجارة ، أو اهتمّ بالزراعة ، كما كان يفعل غيرهم من أعيان دمشق في عصرهم .

ويذكر صاحب الكتاب الذي نحن بصدده أن والده ، وهو محمد بن عبد القادر آل تقي الدين الحصْني « حضر كثيراً من مجالس العلم ، ولازم شيخ علماء دمشق الملاّ بكر الكردي الكلالي مدرّس جامع الورد ؛ وكان اتخذه خليلاً وصاهره ، وأخذ الطريقة النقشبندية الخالدية عنه . وقد اشتغل في بادىء أمره بتجارة مال الفاتورة ؛ ثم ترك التجارة واشتغل بخدمة أمامة الحنفي في الجامع الأموي مدة طويلة تزيد عن نصف قرن ... مات سنة ١٣١١ (١٨٩٣ — ١٨٩٤ م) ، وقد أعقب جامع هذا الكتاب وأخي الشيخ ياسين حلمي » (متن الكتاب ، ص ٨١٧ — ٨١٨) .

وفي ترجمة شقيقه الوحيد ياسين حلمي ، يقول المؤلف أن شقيقه «نشأ

في حب طلب العلم بعد أن تخرج في المكاتب الإبتدائية الأهلية . على أساتذة فضلاء كالشيخ الجليل أحمد دهمان،والشيخ المرشد الكامل محمد عبد السفر جلاني . ثم قرأ مبادىء العلوم على علماء دمشق منهم الشيخ عبد المحسن المرادي ، والشيخ نجيب كيوان ، والشيخ عبد القادر المالكي ، والشيخ أمين السفر جلاني ، والشيخ عبد المحسن الاسطواني ، والشيخ رشيد سنان قزيها . جد ّ واجتهد في النحو والصرف والفقه والفرائض والمنطق ... مات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف (١٩١٥ – ١٩١٦ م) وكان ... تولّى نقابة الاشراف في قضاء دوما ، ثم صار كاتباً في محكمة الشرعية الكبرى بدمشق ، وأحسن إليه برتبة كبار المدرّسين العلمية (الكتاب ، ص ٨٠٠ – ٨٠١) .

ويبدو أن نشأة محمد أديب ، صاحب كتابنا هذا ، لم تختلف كثيراً عن نشأة أخيه . ولد ، كما ذكرنا ، عام ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٤ – ١٨٧٥م ، وتلقى علومه الابتدائية في مدرسة الباغوشية الأميرية ، ثم انتقل إلى المدارس الأهلية — المدرسة الريحانية،ومدرسة الشيخ أحمد دهمان شيخ القراء ، ومدرسة الشيخ محمد الحطابي ، والمدرسة الجقمقية — فدرس اللغتين التركية والفارسية بالإضافة إلى « العلوم العربية » . ويثبت المؤلف نصوص الإجازات التي حصل عليها من مشايخه في خاتمة كتابه (ص ١٣١٤ – ١٣١٨) . وعهدت إلى المؤلف وظيفة والده – وهي أمامة الحنفي في الجامع الأموي – بعد وفاته ، بالإضافة إلى وظيفة مشيخة الحفاظ في التكية السليمانية . وفي العام التالي توجّه إلى الإستانة ، ونال من السلطان عبد الحميد الثاني تعييناً لوظيفة نقابة الاشراف في قضاء دوما ، وبعد مدّة ، تحوّل إلى لواء الكرك ومعان . ثم زار الاستانة ثانية عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨ م ، في أواخر عهد السلطان عبد الحميد ، فأوكلت إليه نقابة الاشراف في دمشق ، وبقي في هذه الوظيفة إلى أن عزل عنها بعد احتلال الحلفاء لبلاد الشام عام ١٩١٨ .

وفي الوقت ذاته ، استمر المؤلف في وظيفة أمانة الحنفية في الجامع الأموي ، ولم يعزل عنها بعد الإحتلال . ووضع مؤلفه الوحيد ، وهو كتابنا « منتخبات التواريخ لدمشق » ، وهو لا يزال فيها . هذا ما يستخلص من كلام المؤلف عن نفسه . وللقارىء أن يعود إلى الأصل للمزيد من التفاصيل (متن الكتاب ، ص ١٣١٤ — ١٣٢٧) .

* * *

سمّى المؤلّف كتابه في الخطبة التي قدّمه بها « غاية المرام في منتخبات تاريخ دمشق الشام » (ص ١٣) . لكنه اقتصر على التسمية « منتخبات التواريخ لدمشق » في صفحة العنوان . أما متن الكتاب ، فيتألف ، بعد الخطبة والمقدّمة ، من أحد عشر باباً وخاتمة هي بمثابة الباب الثاني عشر . وعناوين أبواب الكتاب مدرجة في الخطبة (ص ١٠ — ١٢) ، وللقارىء أن يراجعها هناك . وتشمل هذه الأبواب ، باستثناء الباب الأول (في مبدأ عمارة دمشق) والرابع (فيما ورد في فضلها في الآيات والأحاديث والآثار والخامس « فيمن بعث ودفن فيها من الأنبياء والصحابة ، الخ) ، على معلومات تقليدية استقاها المؤلف من الكتب القديمة ، وعلى وجه العموم دون ذكر المصادر ، وعلى معلومات أخرى تختصّ بعصر المؤلف . وفي هذا الصنف الثاني من المعلومات تكمن قيمة الكتاب الفريدة كمصدر تاريخي ومن هذه المعلومات ما يأتي :

أولاً : المعلومات التاريخية عن الأحوال السياسية في دمشق « منذ استيلاء العثمانيين عليها إلى عصرنا هذا » ، في الفصل السادس من البـــاب الثاني . وأهم هذا الفصل الجزء الأخير منه ، ص ٢٥٥ — ٢٩٧ .

ثانياً : المعلومات عن « حالة دمشق العلمية والإجتماعية» في العهد العثماني ، التي يشتمل عليها الباب الثالث (ص ٢٩٧ — ٣٥١) .

ثالثاً : المعلومات عن « من نشأ في دمشق من مشاهير الرجال » في القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر للهجرة ، في القسم الأخير من الباب السادس (ص ٦٤٠ — ٧٠٢ ، ٧٠٢ — ٨٠١) .

رابعاً : المعلومات عن تاريخ الاسر (أو « البيوت ») الدمشقية العريقة ، في الباب السابع (ص ٨٠٤ – ٩١٦) .

خامساً : المعلومات الواردة عن أعيان بغداد (ص ٩١٦ – ٩١٨) والبصرة (ص ٩١٨) والموصل (ص ٩١٨ – ٩١٩) وحلب (٩١٩– ٩٢٢) وحماة (ص ٩٢٣ – ٩٢٥) وحمص (٩٢٥ – ٩٢٧) من معاصري المؤلف ، كذلك في الباب السابع .

سادساً : المعلومات الواردة عن أوصاف دمشق : معابدها ومدارسها وأوقافها في الباب الثامن . ص (٩٢٩ – ١٠٥٦) ، وأسماء القرى المحيطة بها وأوصافها في الباب التاسع (ص ١٠٥٧ – ١٠٧٠) ، وصناعاتها في الباب الحادي عشر (ص ١١٢٣ – ١١٥٠) .

سابعاً : المعلومات التي يوردها المؤلف عن أوائل عهد الانتداب في دمشق ، وعن نكبة المدينة عام ١٩٢٥ ، في خاتمة الكتاب (ص ١٢١٦– ١٣١٣) .

ثامناً : سيرة المؤلف الذاتية ، كذلك في خاتمة الكتاب (ص ١٣١٣– ١٣٢٧) .

فإذا كان لنا أن نحصي المعلومات الواردة في كتاب « منتخبات التواريخ لدمشق » ، مما لا يرد في غيره من المصادر ، أو مما يصعب وجوده في مصادر أخرى ، لوجدنا أن ثلث صفحات الكتاب على الأقلّ تحتوي على مثل هذه المعلومات . وفي ذلك ما يجعل من الكتاب ثروة لا بد من الرجوع إليها في دراسة تاريخ دمشق وما يليها من بلاد الشام في أواخر العهد العثماني وأوائل عهد الانتداب . وفي ذلك أيضاً ما يجعل الباحث في هذا الموضوع اليوم يصرف النظر عن الطريقة غير العلمية التي أورد فيها محمد أديب آل تقي الدين الحصني معلوماته عن ماضي دمشق ، لما في الكتاب من قيمة كبيرة كسجل لخبرة المؤلف فيما يتعلّق بأحوال عصره .

فهرس المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن فضل بعض البلدان على بعض كما فضل بعض الانام . وشرف الشام بما احتوت عليه من الفضائل وبمن سكنها من الانبياء العظام . وميزها بعد ما ميز بلده الامين وبيته الحرام فله تعالى في مخلوقاته شئون وخواص تظهر في الاماكنة والازمنة والاشخاص . فحفظها بالملائكة المقربين وجعلها في كفالة رب العالمين . وجعل من اهلها قوماً على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم الى يوم الدين . وجعلها معقل المؤمنين وملجأ اللاجئين سيما دمشق الموصوفة في القرآن المبين بانها ذات قرار ومعين وبغوطتها عند الملاحم فسطاط المسلمين . وقد وفر الله سبحانه وتعالى حظ دمشق بما اجراه فيها من الانهار وسلسل من مياهها خلال المنازل والديار وانبت بظاهرها من الحبوب والثمار والازهار وجعلها موطناً لعباده الاخيار وساق اليها صفوة الاسرار والصلاة والسلام على اشرف المرسلين وخير الانام . القائل وهو الصادق الامين عليكم بالشام وعلى آله واصحابه الذين بذلوا انفسهم في سبيل الاستيلاء عليها لبث الوحدة والوفاق . ففتحوها كما فتحوا غيرها من اقاصي اليمن الى سواد العراق .

اما بعد فيقول افقر العبيد الى مولاه واغناهم به عمن سواه محمد اديب الشهير بتقي الدين الحصني الدمشقي نقيب السادة الاشراف في زمن الدولة العثمانية بها وامام الغر الاحناف بجامعها تقبل الله اعماله وبلغه من خدمة اهل البيت المطهرين آماله آمين

قد تاقت نفسي منذ امد بعيد الى استجلاء محاسن بلدتي دمشق التي هي

مسقط رأسي والتنقيب عن تاريخها منذ قدر لها العمران في هذا الوجود وما اعتورها من الاطوار وتعاقب عليها من الادوار ومن قطنها من الامم وحكمها من الملوك في دوري سعادتها . وهما دور انبعاث اشعة الشرائع السماوية اليها اولاً ونشأة الكثير من انبياء الله من تربتها المقدسة وهجرة رسله اليها وانطواء ثراها على الكثير منهم ودور ازدهائها بالدين الاسلامي الحنيفي ثانياً . اذ لايوازيها بعد البلاد الثلاثة بلد على وجه البسيطة في تينك السعادتين ولشدة ولوعي بالبحث عن هذه الغاية كنت متفانياً في جمع الكتب المسطورة في هذا الشأن وبذل الوسع في تحصيلها سواء كانت مقصورة عليها بخصوصها ومنعوتة باسمها كالتاريخ الكبير بل البحر المحيط للحافظ ابي القاسم ابن عساكر وغيره من كتب المتأخرين المختصرة او فيما هو اعم منها مما لم يختص بها من كتب التاريخ وانما جرى ذكر دمشق في تضاعيفها وغضونها اذ كان موضوع الكتاب يشملها وذلك كالتواريخ العامة وكتب الرحالين حتى تحصل لدي في هذا الصدد مجموعة احسب انها لم تجتمع عند غيري ولما حصلت على الضالة المنشودة والبغية المطلوبة من تلك الكتب وهي الاطلاع على محاسن هذه البلدة والجمع بين مبتدئها ومنتهاها وسبرت غور تلك المؤلفات وقتلت اهمها تصفحاً وامعاناً وجدت الكاتبين مختلفة مذاهبهم متفاوتة مشاربهم فمنهم من وجه وجهه الى فضائلها الشرعية وما ورد فيها من الآيات والاحاديث والآثار ومنهم من اقتصر على مافيها من المدارس والمساجد والخوانق ومنهم من تصدى لذكر مزاياها الطبيعية من انهارها ومتنزهاتها ومناظرها ومنهم من وقف قصده عند ذكر مزاراتها ومدافن الانبياء والصحابة وصالحي هذه الامة فيها ومنهم من قصر بحثه على ذكر اعيان رجال القرون بها ولكل وجهة هو موليها والكل محسنون فاما من جمع فاوعى وجرى في هذا الميدان عنقاً فسيحاً كالحافظ ابن عساكر فلا كلام لامثالنا مع امثاله وقد اتت بعده اجيال يستحق كل جيل منها لتاريخه مجلدات وعليه فقد حدا بي حب الانخراط في سلك هؤلاء الجهابذة المؤرخين والخالدين المخلدين وان كنت قاصراً عن

عباراتهم معترفاً بعدم الاقتدار على مباراتهم لكني اقتفيت اثر السلف الصالح في تكثير السواد بالمحبة التي هي غاية المراد وبالتشبه بهم وهو من الاسباب الموصلة الى طرق الرشاد فاستعنت ببعض اهل الفضل والسداد واردت ان اجمع كتاباً يشتمل على الالماع الى ماتفرق في تلك الكتب على منهج مختصر نبذاً للسأمة واخذاً بالتوسط الذي هو اقرب للسلامة وزدت ما اغفلوه واكملت ماانقصوه والممت باطراف مقاصدهم المتفرقة وجمعت اشتات فوائدهم المغربة والمشرقة واخذت من كل بحر دره ومن كل روض زهره . ولئن قيل ان هـذا لايخرج عن نظمهم على التحقيق فحسبي اني جمعت وفرقوا ولشتان مابين الجمع والتفريق وكانا منجز لطلبته مجزي بنيته . على ان فائدة التاريخ العامة الوقوف على احوال من سبق والتنصح بها والاعتبار بتقويم معوج الطباع والاميال والتحرز مما سقطت به الامم الماضية من الاعمال والاقتداء بخيار اعمالهم ولما كان علم التاريخ علماً شريفاً فيـه العظة والاعتبار وبه يقيس العاقل نفسه على من مضى من امثاله في هذه الدار وقد قص الله تعالى اخبار الامم السالفة في ام الكتاب فقال تعالى لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب وجاء من احاديث سيد المرسلين كثير من اخبار الامم الماضين كحديثه عن بني اسرائيل وما غيروه من سيرة سلفهم الصالح وغير ذلك من اخبار العجم والعرب مما يفضي بمتأمله الى العجب وقد نقل بعضهم ان التاريخ من حيث ذاته قديم قد صاحب العالم في سائر ادواره غير ان طرق تدوينه مختلفة باختلاف رقي العصور واول من اشار بتدوينه في الملة الاسلامية عمر بن الخطاب وقد اتفق مع اهل الحل والعقد من الصحابة على ان يكون مبدؤه من الهجرة ، وورد في وصية الامام علي كرم الله وجهه لابنه الحسن مامعناه : انك مااستطعت ان تعيش مع من تقدمك لتعلم ما كانوا عليه ، ولكن عليك ان تنظر في تاريخهم فتكون كمن عاصرهم . واقول كما قال جمال الدين ابن ظهيرة القرشي في كتابه فضائل مكة ان التأليف في هذا الوقت ليس هو الا كما قال بعضهم جمع ما تشتت ورمّ ما تفتت مع زيادة فوائد كثيرة ولطائف

غزيرة وتحرير عبارة وتقرير اشارة ، وانا اثبت ذلك على قدر الفتوح حسبما هو موجود في الاسفار شارحاً عازياً كل قول غالباً الى قائله ومبينه لطالبه وسائله ليكون للواقف عليه عمدة واخرج بذلك عن الدرك والعهدة ، انتهت عبارته الرائقة . ولله در قطب الدين النهرواني حيث قال في تاريخ مكة مانصه : تشوقت نفسي الى الاطلاع على علم الآثار وتشوفت الى فن التاريخ وعلم الاخبار لاشتماله على حوادث الزمان وما ابقاه الدهر من اخبار وقائع الدوران واحوال السلف وما ابقوا من الآثار والاحداث بعدما صاروا الى الاجداث فان ذلك عبرة لمن اعتبر وايقاظ لحال من مضى وغبر واعلام بان ساكن الدنيا على جناح سفر . ومفاكهة للفضلاء وافادة لمن يأتي بعد من البشر . فان من ارخ فقد حاسب على عمره ومن كتب وقائع ايامه فقد كتب كتاباً الى من بعده بحوادث دهره ومن قيد ما شاهد فقد اشهد احوال اهل عصره من لم يكن في عصره ومن كتب التاريخ فقد اهدى الى من بعده اعماراً وبوأ مسامعهم وابصارهم دياراً ما كانت لهم دياراً . واعلم اهل الآفاق باخبار بلاد ما كانت لهم مستقراً ولا داراً . ثم قال رحمه الله تعالى :

فانني ان ارى الديار بعيني فلعلي ارى الديار بسمعي

ومن الطف قوله ايضاً « ولقد أفادنا الامم الماضون باخبارهم واطلعونا على ما دثر وبقي من آثارهم . فابصرنا ما لم نشاهده بأبصارهم وأحطنا بما لم نحط به خبراً بأخبارهم . »

لقد غرسوا حتى أكلنا واننا لنغرس حتى يأكل الناس بعدنا

ثم ختم مقدمة كتابه بقوله :

لم يبق منا غير آثارنا وتمحي من بعد اخلاقي
وكلنا مرجعنا للفنا وانما الله هو الباقي

وقال بعضهم :

ليس بانسان ولا عاقل من لم يع التاريخ في صدره
ومن وعى اخبار من قد مضى أضاف أعماراً الى عمره

انتهى كلامه وبهذه المناسبة اقول ما احلى ما ورد في الاثر : « الدنيا خبر فكن خبراً حسناً لمن وعى » وما الطف قول الشاعر في هذا المعنى :

ولا شيء يدوم فكن حديثاً جميل الذكر فالدنيا حديث

وقال آخر :

انما الناس حديث كلهم فلتكن خير حديث يستمع

وقد لخص شيخ الاسلام البدر الغزي أبيات القاضي الارجاني بقوله :

ومن عرف التاريخ أخبار من مضى وخلف علماً او جميلاً من الذكر
كمن عاش كل الدهر بالعز فاغتنم بعلم وجود في الدنا اطول العمر

وقد قيل بهذا المعنى :

اذا عرف الانسان اخبار من مضى توهمته قد عاش من اول الدهر
وتحسبه قد عاش آخر دهره الى الحشر ان ابقى الجميل من الذكر

وقال ابن كثير في تاريخه :

تمر بنا الايام تترى وانما نساق الى الآجال والعين تنظر
فلاعائدصفو الشباب الذي مضى ولا زائل هذا المشيب المكدر

ولئن كان الباعث الاكبر على تسطير ما سطرناه الحب للوطن والشغف البالغ حده في بث مآثر بلاد بها نيطت علي تمائمي . واول ارض مس جلدي ترابها. فلنا بمن تقدمنا من جهابذة العلماء وأساطين الجهابذ اسوة واي اسوة . هذه مكة والمدينة الحرمان المحترمان كم اهما من مؤرخ من قطانهما قديماً وحديثاً وهذه بغداد دار السلام وهذه الموصل الحدباء وحلب الشهباء واربل والري وسمرقند وهراة وتبريز وهمدان ونيسابور والبصرة وبيروت والكوفة مصر العرب ومصر القاهرة ايوان الاسلام والاسكندرية وبرقة وتونس وفاس وبلاد الاندلس حاضرة حاضرة ايام دولها الاسلامية لم تعدم واحدة منها في جيل من الاجيال واحداً من بنيها يعطيها حقها من تخليد الذكر ويوفيها .

وقد جعلت الكتاب على مقدمة واحد عشر باباً وخاتمة . فالمقدمة في ذكر من الف في تاريخ دمشق وفضائلها قديماً وحديثاً :

الباب الاول — في تاريخ عمارتها وتجديدها ، واول من اسسها ودعاها بهذا الاسم ، متحرياً الاخذ باصح الاقوال .

الباب الثاني — فيمن سكنها من الامم وفيمن ملكها من الملوك واتخذها قاعدة ملكه ، وفيمن قام بها من الدول ، وفيه ستة فصول : (الفصل الاول) في الامم التي تعاقبت على سكناها وعمارتها . (الفصل الثاني) فيمن وليها من الملوك وساسها قبل العرب . (الفصل الثالث) في دخولها في حوزة العرب الغسانيين الى ان جاء الاسلام والسبب في ذلك ، اذ هي ليست من جزيرة العرب . وفي الحالة الاجتماعية المشهورة عن أحوال العرب قبل الاسلام . (الفصل الرابع) في الفتح الاسلامي والامراء الذين حكموها من قبل الخلفاء الراشدين ، وتشكل الدولة الاموية فيها ، وما له المام بذلك من الاسباب والتأثرات في المجتمع وله تتمة في الحالة الاجتماعية والعلمية اذ ذاك في دمشق . (الفصل الخامس) في حالتها ايام الدولة العباسية من اولها الى اول الدولة العثمانية ، وعمالها المتغلبين عليها من الامراء قبل دخول الدولة العثمانية اليها ، والمشهور من آثارهم على وجه الاجمال . (الفصل السادس) في حال دمشق منذ استيلاء العثمانيين عليها الى عصرنا هذا ، وما تركت من الآثار في النفوس وكيفية توصلها اليها والى غيرها من الممالك العربية . مع ذكر ولاة دمشق وبيان مآثرهم في هذه المدة من الحوادث الى خروجهم منها .

الباب الثالث — في حالة دمشق العلمية والاجتماعية منذ دخولها تحت ظل هذه الدولة والتي هي عليه اليوم وعوائد اهلها وازيائهم التي اقتبسوها بالواسطة من الافرنج والمقارنة بينها وبين العوائد السالفة والنهضة الادبية التي حدثت بها وما كانت عليه قديماً من نمو العلوم وازدهارها بالمعارف والصنائع مما لا تزال آثاره باقية عند غيرنا شاهدة بان الفضل المتقدم . وبعض كلمات على الاوقاف وفوائدها .

الباب الرابع — فيما ورد في فضلها من الآيات والاحاديث والآثار وانها ارض المحشر ونزول عيسى عليه السلام وفيه فصلان : (الفصل الاول) في

ذكر ما ورد من الآيات والاحاديث والاخبار عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المؤرخين بفضل الشام عموماً وبالخصوص دمشق وفي فضل الجبال وما يكون من الملاحم بدمشق وانها الفسطاط والمحشر وانها من مدائن الجنة وتعرف اهلها بالثياب الخضر وان الابدال بالشام وما ورد في غوطة دمشق وانها تكون اكثر المدن ابدالاً وزهاداً ومساجد واهلاً ومالاً ورجالاً ووصف اهلها بالديانة وان البركة فيها . (الفصل الثاني) في ذكر ما يحدث في آخر الزمان بدمشق من نزول عيسى بن مريم عليه السلام ثم خروج الدجال وبيان فضل جبلها المشهور والدعاء والصلاة فيه . وفضل الفراديس ومغارة الدم والربوة ومهد عيسى وبردى ومقام ابراهيم عليه السلام الذي في برزه.

الباب الخامس — فيمن بعث بها من الانبياء ومات فيها على ارجح اقوال المفسرين والمؤرخين ومن دخلها من الصحابة والتابعين وغيرهم وأقام بها الى ان مات وفيه اربعة فصول : (الفصل الاول) فيمن بعث بها ودفن بجوارها من الانبياء : (الفصل الثاني) فيمن دخلها من مشاهير الصحابة واخبارها سكناً ودفن بها . (الفصل الثالث) فيمن استوطنها من التابعين وتابعي التابعين . (الفصل الرابع) في ذكر من دفن بها من النساء الطاهرات من آل البيت وذرياتهم وفي مزاراتهم الشهيرة .

الباب السادس — فيمن نشأ من اهلها بها من الحفاظ والمحدثين والقراء والفقهاء والمتكلمين والادباء والحكماء والاطباء والصناع من العصر الاول الى عصرنا هذا مع بيان مشاهير رجال طبقات المذاهب الاربعة بدمشق .

الباب السابع — في ذكر بيوتات دمشق القديمة ومشاهير مغربها الذين ورثوا المجد عن اسلافهم او اكتسبوه حديثاً وبينهم بيوتات العترة الطاهرة ومن ينتمي منهم الى احد من الصحابة ومصير امورهم وما بقي من آثارهم .

الباب الثامن — في ذكر مساجدها الشهيرة وكنائسها ومعابدها ومدارسها الكثيرة ومعاهد العلم وآثارها القديمة التي تقصد من اقاصي البلدان لشهرتها وذكر تكاياها وربطاتها وفي ذكر الجامع الاموي وماحواه من البدائع وتاريخ

عمارته وما طرأ عليه من الحريق قديماً وحديثاً وما تعاقب عليه من التجديد والاصلاح وذكر بقية المساجد والمدارس والكنائس والاديرة وبيان ما بقي من ذلك وما غيرته الحوادث وطرأت عليه الكوارث .

الباب التاسع — في ذكر معالمها المشهورة ومعاهدها المأثورة وأقوال المؤرخين في وصفها وبيان تقسيم أنهارها وذكر حماماتها وأسواقها ومتنزهاتها وحدائقها وما فيها من الظلال والثمار والازهار التي تفوق الحصر مما قد لا يوجد له نظير في سائر الاقطار وفي ما فيها من الآثار القديمة الباقي أثرها التي يقصدها المستشرقون الى اليوم .

الباب العاشر — فيما اشتهر به اهلها منذ القديم من التفنن في اختراع الصناعات اليدوية ودقتها والذوق اللطيف في سائر مرافق الحياة تجارة وفلاحة وفي الصناعات التي كانت اخترعت بدمشق ونقلت عنها ونسبت اليها وفي الصنائع الكثيرة التي كانت رائجة بدمشق وفقدت منها وفي الصنائع الموجودة لهذا العهد وفيه بيان فضيلة الصناعة والحث على تعليمها وان لاحياة للمجتمع الا بها .

الباب الحادي عشر — في اسماء القرى المحيطة بها . وقد تقدم معنا ذكر من تخرج ببعضها من العلماء ومن دفن فيها من اكابر الرجال . وسنبين لك عدد سكانها ودورها بوجه الاجمال وما في بعضها من الهياكل والآثار وفيه ثلاثة فصول : (الفصل الاول) فيما اشتملت عليه الغوطة البهجة من اسماء القرى وعدد سكانها ودورها تقريباً . (الفصل الثاني) فيما اشتمل عليه وادي بردى من القرى . (الفصل الثالث) في اسماء القرى التي هي على ضفاف وادي معربا الى نهايته .



الخاتمة

في ذكر ماجرى على السنة الشعراء من محاورات نظمية ونثرية ومساجلات خيالية في مدحها والتغزل بمتنزهاتها وازهارها وانواع ثمارها ووصف حدائقها وانهارها من منتخبات اقوالهم واني على مثل اليقين باني وان كتبت وكتب الكاتبون ما شاؤا ووصل اليه سعيهم لم نحط من محاسن هذه المدينة الزاهرة الا بالنزر اليسير بعد ما انشده الامام حافظ المغرب ابو العباس المقري في كتابه نفح الطيب لبعضهم :

فضائل الشام جلت   عن ان تقاس بمجد
لولا التغالي لقلنا   ولم نقف عند حد
كأنها معجزات   مقرونة بالتحدي

واني لارجو ان يكون كتابي هذا سلوة للخواطر ونزهة للنواظر وصيقلا للاذهان وسمراً للخلان . ونديماً لاخوان الصفا لا يقابل منهم بجهم ولا جفا . يستحليه قارئه وان كثر تكراره ويستملحه سامعه وان اعيدت اخباره . يستعذب ترتيبه ويستحسن ترصيفه وتبويبه . وقد سميته :

غاية المرام

« في منتخبات تواريخ دمشق الشام »

واسأل الله تعالى الاعانة والهدى الى صوب الصواب والابانة . انه سميع مجيب وما توفيقي الا به عليه توكلت واليه انيب . وانا لنرجو ممن اطلع عليه وحل بمحل القبول لديه . ان لا ينساني من صالح دعواته وان يغضي عما عثر عليه من هفواته



المقدمة

اشرنا في الخطبة الى ان من سنن الله في هذه الخليقة ان قيض لكل بلد في كل جيل عظيما من حملة العلم ينشر مطوي حسناته ويبرز مكنون مخبآته فتبقى اخبارها خالدة وان تلاشت آثارها ويحيط الغريب عنها خبراً بمعالمها كما يعرفها الناشئ فيها وحيث كانت هذه البلدة الزاهرة في مقدمة حواضر الاسلام متصلة العمران على مدى الازمان وسوق العلم فيها نافقة واعلام الصنائع والفنون بها خافقة كان حظها من تسطير اخبارها على صفحات التاريخ اوفر ومن اجلة من كسا عطفها برود الفخار بتنسيق الاخبار الحافظ ابن عساكر الدمشقي المتوفى سنة ٥٧١ الف تاريخ دمشق الكبير في سبعين مجلداً على طريقة لم يسبق لها نظير الا ان طريقته في التأليف طريقة الاقدمين من ذكر جميع المسائل والحكايات والاحاديث والآثار بالسند منه الى من يؤثر عنه وترجم لكل من وردها من العلماء والشعراء فضخم بذلك كتابه وتوعرت على السالك شعابه وقد عارض بتاريخه او ضارع به تاريخ بغداد للحافظ الخطيب البغدادي وتوجد من ابن عساكر نسخة في مكتبة الملك الظاهر في دمشق في ثمانية عشر مجلداً ضخماً وانا في شك من كونها تامة وقد هذبه بعض معاصرينا من علماء دمشق بحذف الاسانيد والمكررات فاحسنوا عملاً وقد ذيله ابن القلانسي الدمشقي وطبع هذا التاريخ في بيروت سنة ١٣٢٧ هـ ولكن ويا للاسف لم يبق الطابع منه نسخاً للانتفاع بها واطلاع اهالي البلاد عليها بل اخذها الى بلاد اوربا وبقيت هذه البلاد محرومة من تاريخها . وكنت اود ان اذكر جميع ما وقفت عليه اثناء مطالعاتي في كثير من الكتب على اختلاف انواعها ومواضيعها بحق دمشق . وكنت ارغب ايضاً ان ازين كتابي هذا بذكر اسماء الكتب المؤلفة قديماً وحديثاً في حقها وابين اعصر مؤلفيها لولا ان خطة كتابنا الاختصار وجدت الانسب عدم ذكرها لانها كثيرة العدد .

كلمة في اختصار الكتب وفي الطباعة

على ذكر اختصار التاريخ الكبير للحافظ بن عساكر وطبعه نذكر هنا نبذة مفيدة عن اختصار المتأخرين لكتب من تقدمهم والاسباب الداعية لذلك والسبيل التي يجب سلوكها في الاختصار ثم نرسل كلمة على الطباعة المستجدة في عصرنا هذا فنقول :

من يتأمل مؤلفات المتقدمين في اصناف العلوم والصنائع منذ دونت العلوم وانقضى عصر الامية يرها كبقية المستحدثات في هذا الوجود تنتقل من طور الى طور . ومعلوم ان العلوم انما توضع اولاً قواعدها البسيطة ثم تتكامل على التدريج شيئاً فشيئاً بقدر الاحتياج اليها والعلوم والكتب المؤلفة فيها تابعان لاطوار الدول من قوة وضعف وعمران وضده وبداوة وحضارة فهي تتلون بلون الدولة واذا نظرنا الى احوال الدول الاسلامية في اول امرها نجد قوة وحضارة دولة الرشيد وبنيه وبني بنيه . فلذلك كانت العلوم الموجودة لذلك العصر آخذة مأخذها في الانتشار والتفرع والتكامل . والمؤلفات آخذة كمالها في البسط والاتقان والتفريع ومتانة الاسلوب . وغير خاف ان الكتب العلمية انما يقصد منها افهام الغير من المتعلمين وغالبهم عن ليست لهم ملكة في العلم ولا اقتدار على استخراج الغوامض والمكنونات فالواجب ان تكون عبارات الكتب العلمية مبسوطة كل البسط واضحة غاية الوضوح حتى يمكن للناس تناول معلوماتها الى ما تجب مراعاته من اختيار المفردات السهلة المتداولة في الاستعمال واختيار التراكيب الغير المعقدة وتقريب الاشياء بالامثلة الحسية وهذه كتب الاقدمين كلها على هذا المنوال في سائر انواع العلوم واعتبر ذلك من كتاب سيبويه في النحو والطبقة التي تليه ككتب الفارسي وابن جني والسيرافي والزجاج والزجاجي ومن بعدهم الى طبقة ابي علي الشلوبين وابن عصفور وابي الربيع من نحاة الاندلس وابن باشاذ وغيره من نحاة العراق

ومن كتب اللغة من كتاب الخليل بن احمد وابن الاعرابي وابن السكيت وابن دريد والانصاري وابي عبيدة واللحياني ، ومن كتب الادب من كتب الجاحظ ومن قفا اثره . ومن كتب التاريخ بكتب الطبري وابن عساكر والخطيب البغدادي وابن السكن وغيره من اصحاب تواريخ البلدان خاصة . وقايسها بمؤلفات المائة السادسة والسابعة تجد الفرق ظاهراً والبون بيناً في البسط والاشباع . نعم هناك طريقة للاقدمين من موجبات التطويل وهي نقلهم لجميع مسائل العلوم كيفما كانت بالسند الى المنقول عنه وهي طريقة لاتحمد في كل عصر وان كانت حسنة في اسناد العلم الى قائليه والعلم امانة كما يقولون ، غيرانه استغني عن تلك الطريقة في العلوم التي تقررت ولم يبق مجال للشك فيها ولا سيما الحديث لاجماع الامة الاسلامية على تلقي امهاته بالقبول الذي لايطرقه شك في نسبة تلك الامهات الى اصحابها الثقات واستقرار رأيهم على ذلك فلم يبق لهم الا خدمة تلك الامهات بالحفظ والتفهم والعمل وقد قلنا ان العلم يتلون بتلون الاجيال والعصور وقد اخذت المؤلفات العلمية بعد المائة الخامسة شكلاً غير الشكل الذي كان لها ولم تزل تنتقل من شكل لآخر الى يومنا هذا والمؤلفون منهم من يستقل بالتأليف بما يراه الاصلح والانسب لاهل عصره في العلم الذي اختص بالتأليف فيه ، حتى يكون له مجال في ابداء افكاره الخاصة في ذلك العلم . ومنهم من يقعد به الجمود او قصر الباع عن هذه الدرجة او يرى ان كتب المتقدمين كافية في تحصيل الغرض من ذلك العلم ولكن فيها مالا يناسب ذوق اهل عصره فيعمد الى تجريد ذلك الكتاب مما لايوافق حتى تمكن الاستفادة منه ويقرب تناوله وينقل من الاهمال الى الاستعمال . وقد تفنن الناس في هذه الطريقة وتغالوا فيها وهي طريقة لاتحمد من جميع الجهات ولا تذم كذلك ، ورأينا في هذه المسألة انه ينظر اولاً الى اهمية الكتاب في ذات العلم المؤلف فيه وموافقته بصورة عمومية وملائمته لجميع الاذواق ، وثانياً الى رتبة مؤلفه ومبلغه من ذلك العلم واصابة آرائه وافكاره وكونها بحيث تؤخذ منها نتائج وتنشأ عنها استنباطات ترقي ذلك العلم .

و: لنا الى ان الكتاب لايمكن الانتفاع منه بحالته التي هو عليها فيختصر بازالة ما كان مانعاً من الاستفادة ويحذف ما استغني عنه ولم يعد لذكره فائدة ويحذف المكرر وباختصار العبارات الطويلة التي يمكن استيفاء مؤداها في عبارة اقصر وبسط ما يحتاج الى البسط وتوضيح ما يحتاج الى الايضاح وشرح افكار المؤلف الاول وآرائه واقرار الصواب منها وانتقاد ماهو قابل للانتقاد مع المحافظة على نسبة كل فكر لصاحبه ولا يظن ان الاختصار كما يؤخذ من مفهومه اللغوي لايكون الا بتبديل العبارة الطويلة بعبارات موجزة فان هذا ربما كانت مضرته اكثر من نفعه كما وقع لكثير من المختصرين بل لكثير من المؤلفين المستقلين انهم يبالغون في تقليل الالفاظ وحشر المعاني الكثيرة فيها حتى تضيق عن تأديتها ويجيء التكلف والغموض والاغلاق وتقوم الاشكالات والاحتمالات في فهم المقصود حتى يضيع برمته وانما المختصر الحاذق يعطي كل مقام ما يناسبه فالعبارات الطويلة الدالة على معنى بسيط يمكن ان يؤدى باقل من ذلك يختار له من التراكيب على قدر معناه من غير اخلال ورب مقام يحتاج الى بسط العبارة فيبسطها ولو زاد على الاصل وحسبه ان يتبع سبيل البلاغة بتعريفها المقرر في علم البيان . فاما الاختصار بحذف المكرر وما لا فائدة فيه وما لا يوافق اذواق اهل عصرنا وما استغني عنه كالاسانيد مثلاً فهذا مما يستحسن ولا يستهجن . واما ماخرج عما ذكرناه سواء كان من المختصرات او من المؤلفات المستقلة فما هو الا نسخ للتأليف وتسويد للقراطيس والحامل عليه في الغالب حب الظهور والشهرة وهو من اكبر الآفات التي اصيب بها العلم العربي في العصور المتأخرة . وبهذه المناسبة نذكر شيئاً عن الطباعة فنقول : واما صناعة الطباعة التي حدثت في القرن الماضي فلا ينكر احد انها خففت العناء العظيم الذي كان عائقاً للعلم عن الانتشار فهي من اكبر المسهلات والممهدات للعلم ولكن لاتكفي وحدها زيادة على ما دخلها من الخلل والخبط والخروج عن دائرتها والعلل التي اصابتها . واذا تأمل المتأمل حال العلم والعلماء قبل وجود الطباعة رأى العجب العجاب فان

العلماء كانوا يكتبون جميع مؤلفاتهم ومنها مايبلغ المجلدات الكثيرة ويكتبون جميع كتب العلم التي يحتاجون اليها . وربما تجد عند بعضهم المكتبات العظيمة وكلها من خط يده ، وكثيراً ما يعتاش بعضهم من صناعة النسخ . ومن طالع تراجم علماء الاندلس وبغداد عرف مقدار عنايتهم بجمع الكتب النفيسة وكلها خطوط وهذا متن صحيح البخاري الذي يعكف المسلمون على دراسته في مشارق الارض ومغاربها كان لايكاد يخلو طالب علم من نسخة منه على الاقل باجزائها المتعددة . وكم من حلقة حديث تضم المئات من طلاب الحديث وبيد كل واحد نسخة قد اعتنى بتصحيحها حرفاً حرفاً وشكلة شكلة ونقطة نقطة ، وقد تتوارث النسخة الواحدة اجيالا متعددة وكل يأخذها بالتصحيح والتنقيح على مقتضى الرواية التي اخذ بها . ولولا ذلك الاعتناء والحرص على حفظ العلم بامثال تلك المجالس الممتعة كمجالس الحافظ اليونيني بدمشق ومباحثاته في الاوجه العربية مع الامام ابي عبدالله بن مالك الاندلسي صاحب التسهيل والالفية لما وصلت الينا روايات المتقدمين للاحاديث النبوية صحيحة سالمة مميزاً غثها من سمينها وقس على الحديث سائر العلوم واعتبر تلك العناية التي كانت لهم في نسخ الكتب . ذكر الشيخ مرتضى الزبيدي شارح القاموس انه لما قرأ القاموس دراية على بعض اساتذة اللغة بمدينة زبيد كان الحاضرون بمجالس الدرس يعدون بالعشرات بل بالمئات وبيد كل منهم نسخة تامة من القاموس قد صححها بالحرف على نسخة المؤلف ، وذكر المؤرخون الاندلسيون انه كان لايوجد ببلاد الاندلس رجل يتعاطى الادب (وانت تعرف مقدار من يتعاطى الادب بالاندلس اذ ذاك) الا وعنده نسخة من كتاب الاغاني وتكون بخط يده غالباً ، وكثير منهم من يحفظ الاغاني كلها عن ظهر قلب وهكذا الشأن في امهات الحديث والنحو واللغة والادب وعلوم الاوائل . بهذه العناية الخارقة بالكتب حفظ العلم ونفقت اسواقه وراجت اعلاقه ، ولا يخفى ان الكتب هي مادة العلم ثم تناقص العلم بخمود الهمم والاعراض عن الكتب والكتابة ، وما زال التناقص يتدرج الى ان جاء دور

الطباعة . ونحن نتكلم عليها ونذكر حسناتها وسيئاتها وان كانت عارضة بالنسبة الى الاقطار الاسلامية . ذكرنا انه لاينكر التخفيف والتسهيل اللذان اوجدتهما الطباعة .

ولا ينكر احد ما لهذا الاختراع الصناعي من الفائدة الجليلة في ضروب شتى من ضروريات الحياة وكمالياته ومن اهمها العلم وقد ترقت هذه الصناعة وتنوعت شأن سائر الصنائع الى ما نراها عليه اليوم واكبر فائدة فيها نزول اسعار الكتب وامكان اقتنائها لكل طالب ولا يخفى ان اول قطر اسلامي انتشرت فيه هذه الصناعة بالحروف العربية هو مصر ومنها انتقلت الى سائرها كالاستانة والهند والعجم والمغرب . وصادف ظهورها ضعف العلم في مصر وفتور الهمم عن اقتناء الكتب النفيسة . الا ما ابقته الحوادث بزوايا التكايا والجوامع والمدارس من كتب الوقف . وكان تقليد المشايخ في العلوم بالغاً منتهاه في ذلك الوقت . فاول ما تناولته المطابع بالطبع كتب ومؤلفات اولئك العلماء جهلاً من اصحاب المطابع بالنفيس النافع . وحباً للشهرة والظهور من المشايخ وتلاميذهم فقذفت لنا المطابع المصرية الملايين من هذه الكتب التي ملأت الخافقين وتسارع الناس وتراموا على اقتنائها وحيازتها تقصياً من عناء النسخ . وميلاً للرخيص المبتذل واصبحت الكتب النفيسة مهجورة لهجران المطابع اياها واقدامها على طبع الرائج للبيع منها . واصبحت العلوم الدينية وآلاتها والعلوم العقلية تؤخذ طوعاً او كرهاً من مؤلفات المتأخرين . وهي اكبر بلية على العلم صادفت قلباً خالياً فتمكنت . زد على ذلك جهل القائمين على المطابع حتى بقواعد الرسم وعدم عنايتهم بتصحيح الاصول . فجاءت تلك الكتب مشوهة ممسوخة مملوءة من التحريف والتبديل بحيث لا يمتاز فيها حق من باطل . حاشا تلك المطابع التي لا تجاوز عدد الاصابع والتي كانت تستحضر النسخ الخطية المتعددة وتصححها بمراجعة الاصول المنقول عنها بمعرفة رجال ذوي خبرة ودراية ونباهة .كالمطبعة الاميرية بمصر ومطبعة الجوائب في اول نشأتها بالاستانة وغيرها لهذه الاسباب اصبح السواد الاعظم

يجافي عن اقتناء الكتب الخطية التي لم تطبع والتي فيها كل العلم الصحيح ويرى ان ما طبعته المطابع كاف للحاجة العلمية ، مع ان جميع ما طبعته المطابع على علاته وعدم غنائه واخذه من العلم بالقشور التي لا تسد نهمة ولا تبل غلة قطرة من بحر بالنسبة لما الفه اسلافنا وافادوه من العلم الصحيح ، وتدارك الافرنج وعرفوا بعض ما تضمنته تلك الكتب من النفاسة والجواهر والكنوز التي ضمتها بين دفتيها . فانحنوا يلتقطونها من بين ايدينا بالنفيس والخسيس حتى كادوا يأتوا على البقية الباقية منها وحالوا بيننا وبينها وعمدوا الى حفظها في اصون جامعة ، ثم استخدموا قواهم في استخراج خباياها وعزوا اكثرها لهم . وما هذه الانوار المتألقة للعلم في ديارهم ، الا بارق من سناء تلك الكتب، واصبحنا نمد ايدينا لاقتباس القليل من العلم من عندهم ، ويوشك ان نرجع اليهم حتى في اخذ الضروري من امور ديننا ان بقينا على ما نرى من الفتور والتغافل والتقاعس . ولئن قالوا ان وقعة التتر ببغداد ووقايع الغرب بالاندلس وتونس قضت على الكتب العربية . فما اجلاب جمعيات الكتب الافرنجية على ما بقي من كتبنا باقل نكاية واخف ضرراً من تلك الوقائع وان كان الفرق ان تلك الوقائع اتلفت اعيان الكتب ومات بسببها كتاب البارع في اللغة والموعب والعين ونظائرها في جميع انواع العلوم والافرنج يأخذون كتبنا فيبالغون في حفظها واكرامها والاستفادة منها معرفة بقدرها . واينا الملوم يا ترى ؟ نحن الملومون بلا شك ونحن المغبونون بلا ريب ، بل نحن الخاسرون . فرطنا واجتهدوا . وضيعنا وحفظوا ، وجهلنا فعلموا .

اترى المأمون كان مخطئاً او توجهت عليه لائمة حين استجلب كتب اليونان وبعث في المدائن حاشرين لترجمتها وتصيير ثمراتها ونتائجها على طرف الثمام رغبة في انتشار العلم ومعرفة بقدر الحكمة والحكماء وما حالنا وحال الافرنج الا كما قال ابن زريق البغدادي :

أعطيت ملكاً فلم تحسن سياسته وكل من لا يسوس الملك يخلعه
ومن غدا لابساً ثوب النعيم بلا شكر عليه فان الله ينزعه

الباب الاول

في الكلام على مبدأ عمارتها وذكر الاقوال في اول من اختطها واسمها والسبب في تسميتها دمشق وجيرون وجلق وذكر حدودها

اعلم ان المؤرخين ونقلة الاخبار اختلفوا في اول من بناها . ومنشأ اختلافهم اختلاف من نقل عنهم ذلك من علماء اهل الكتاب وسواهم . اذ هم العمدة في مثل هذا وعنهم يؤثر علمه وفطاحل المؤرخين الاسلاميين انما يرجعون في تاريخ المدن والدول التي ليست للعرب الى اخبار الكتابيين ومن قبلهم من المؤرخين . لما تقرر ان العرب الاول لم يكونوا اهل علم وتسطير بمقتضى سذاجة البداوة والعروبية . ولئن حفظوا انسابهم ووقائع اسلافهم ومفاخرهم فان ذلك لم يكن عن كتابة . اذ هم اعرق الناس في الامية وانما كانوا يحفظون تلك الاخبار بتلقي الآخر عن الاول وهو امر شهير فيهم وبقي المؤرخين من اهل الاسلام تمحيص اخبار اهل الكتاب وتنقيحها بعرض بعضها على بعض . وعلى ماجاء من ذلك في الكتاب العزيز وتزييف الفاسد اما بمناقضته او لكون راويه غير ثقة . ونحن الآن نورد ماحكم المؤرخون الاثبات بقربه الى الصحة ونعرض عن بقية الاقوال المنتشرة فنقول :

يؤخذ مما ذكره الثقات من اهل السير والاخباريين في قصة هبوط آدم وحواء عليهما السلام وهابيل وقابيل واختصاص كل واحد منهم بمحل قريب من دمشق وانها عمرت من عهد آدم عليه السلام

ويذكر عن كعب الاحبار ان اول حائط وضع على وجه الارض بعد الطوفان حائط حران ودمشق ثم بابل العراق بعدها . وقيل ان اول مدينة عمرت بعد الطوفان هي صنعاء اليمن . نقل حاكم البقاع في كتابه الابصار في ذكر الاقاليم وملوك الامصار ان آدم عليه السلام كان ينزل في موضع بغوطة دمشق يقال له الآن بيت الآبار . وحوا بيت لهيا . وهابيل في مقرى وكان

صاحب غنم ، وقايل في قينة وكان صاحب زرع . وقسمت الاوائل الشام خمسة اقسام : الشام الاولى فلسطين واوسط بلدها الرملة ، والشام الثانية حوران ومدينتها العظمى طبرية . والشام الثالثة الغوطة ومدينتها العظمى دمشق ، والشام الرابعة حمص ، والشام الخامسة قنسرين ومدينتها العظمى حلب . قال المدائني وفي كتاب الرشاطي قسم جزيرة العرب خمسة اقسام : تهامة ونجد والحجاز وعروض يعني مكة وما حولها واليمن . وقال ابن الكلبي المفسر والمؤرخ الشهير اول من بناها دمشاق ابن قاني بن لامك بن ارفخشد بن سام بن نوح عليه السلام . وقيل ان الذي بناها جيرون بن سعد بن عاد بن ارم بن سام بن نوح وسماها ارم ذات العماد وباسمه سميت . وقيل ان هوداً عليه السلام نزل دمشق واسس الحائط الذي في قبلي جامعها واثره بالجامع الاموي موجود لعهدنا هذا . وقال وهب بن منبه ان العازر غلام ابراهيم عليه السلام بنى دمشق وكان حبشياً وهبه له نمرود بن كنعان حين خرج ابراهيم من النار وكان الغلام يسمى دمشاق فدعيت باسمه . وقال غيره سميت بدماشق ابن نمرود بن كنعان وهو الذي بناها . وقال آخرون سميت بدمشق بن ارم بن سام بن نوح وهو اخ لفلسطين وايليا وحمص والاردن بنى كل واحد موضعاً فسمي به . وقيل اول من بناها بنو ارياسف الكنعاني الذي اشتهرانهم بنوا مدينة بابل وصور ودمشق . وقيل بنيت دمشق على رأس ثلاثة آلاف ومائة وخمس واربعين سنة من جملة الدهر الذي يزعمون انه تسعة الاف سنة ، وولد ابراهيم الخليل بعد بنائها بخمس سنين . وقيل انما سميت دمشق بالرومية وان اصل اسمها دوما سكس ومعناه مسك مضاعف وذلك لطيبها وكثرة ازهارها قلت والى الآن تستعمل بعض امم الافرنج هذا الاسم الاصلي . وقال بعضهم نقلاً عن التوراة انه لما قتل قايل اخاه هابيل سأله الله تعالى اين هابيل اخوك قال لا اعلم . العلي حارس لاخي فقال سبحانه وتعالى ان صوت دم اخيك صارخ اليَّ من الارض ومن المحقق ان اسم دمشق في اللغة السريانية معناها الارض التي شربت الدم . وروى

بعض الاقدمين ان مكان دمشق كان داراً لنوح وان خشب السفينة من جبل لبنان وان ركوبه بالسفينة كان من عين الجر بناحيــة البقاع . ونقل صاحب عيون التواريخ ان الذي بناها غلام للاسكندر اسمه دمشقش فسميت باسمه واختط المدينة وجعل لها ثلاثة ابواب باب البريد وباب جيرون وباب الفراديس . ايد ذلك ابن عساكر بقوله قال ماملخصه : بلغني انه لما رجع ذو القرنين من المشرق وعمل السد بين اهل خراسان وبين يأجوج ومأجوج وسار يريد المغرب لمع الشام وسار على عقبة دمر احد متنزهات دمشق اليوم ابصر الموضع الذي فيه دمشق الآن وكان هذا الوادي الذي يجري فيه نهر دمشق اليوم غيضة الارز وهو شجر عظيم مثل شجر الصنوبر . وقد فقد اليوم وبقي القليل منه في جبل لبنان . فلما نظر ذو القرنين الى تلك الغيضة والى ذلك الماء الذي يجري في هذه الانهار مفرقاً مجتمعاً في واد واحد اخذ ذو القرنين يفكر كيف يبني في هذا المكان مدينة . وكان اكثر فكره وتعجبه انه نظر الى جبل يدور بذلك الموضع وبالغيضة كلها فكان له غلام يقـال له دمشق جعله اميراً على سائر ملكه . فلما نزل ذو القرنين من عقبة دمر سار حتى نزل في موضع القرية المعروفة « بلدا » على ثلاثة اميال من دمشق (وهي معروفة بهذا الاسم الى اليوم وسنذكرها مع قرى دمشق) فأمر ان يحفر له في ذلك الموضع حفرة ففعلوا ذلك . ثم امر ان يرد التراب منها اليها فلما رد لم تمتلئ الحفرة . فقال لغلامه دمشق ارحل فاني كنت قد نويت ان ابني في هذا الموضع مدينة فلما بان لي هــذا علمت انه لايصح ان يكون هنا مدينة . فقال له غلامه ولم يامولاي . فقال ان بنيت ههنا مديــنة كان زرعها لايكفي اهلها (والذي يثبت ذلك ان اهل الغوطة في زمننا هــذا لاتكفيهم غلالهم للاكل والزرع حتى يشتروا بقية لوازمهم من المدينة) . ثم سار ذو القرنين حتى وصل الى حوران فاشرف على تلك البقعة ونظر الى تلك الربوة الحمراء فأمر ان يناول من التراب فلما صار بيده اعجبه لانه وجده كالزعفران فامر ان ينزل هناك ويحفر في ذلك الموضع حفرة . فلما حفرت امر برد

ترابها اليها فلما فعلوا بقي منه تراب كثير فقال ذو القرنين لغلامه ارجع الى الموضع الذي فيه الارز فاقطع ذلك الشجر وابن على حفة الوادي مدينة وسمها باسمك فان ماينقص اهلها من زرعها يجرونه بما يزيد على اهل هذه الارض من غلاتهم فرجع ورسم المدينة وبناها وعمل لها حصناً والمدينة التي كانت على ذلك الرسم هي المدينة الداخلة في السور وعمل لها ثلاثة ابواب كما تقدم ، ثم زيد فيها بعد ذلك . قلت فان صح هذا الذي نقله ابن عساكر كان ذلك من عجائب ذي القرنين في تخير البقاع وتطلبه في اختيار الاصقاع وخوارقه في سياسة الدنيا والايام تنادي بصدق فراسته بعد مرور آلاف من السنين عليه وليس ذلك بعجيب منه بعد قوله تعالى فيه « انا مكنا له في الارض وآتيناه من كل شيء سبباً » .

واقتضت الحكمة الالهية ان صارت ابوابها المستعملة ثمانية على عدد ابواب الجنة لانها جنة الدنيا . وكان قد بني له معبد وهو الموضع الذي هو الجامع الاموي اليوم . وقال بعضهم ان الذين بنوها اليونان . ونقل ابن عساكر ايضاً عن اسحق بن ايوب القرشي ان شيطانين يقال لهما بريد وجبرون بنيا لسليمان ابن داود عليهما السلام سقيفة مستطيلة على عمد وبنيا حولها مدينة لطيفة فسمي المكان باسمها او باسم احدهما جيرون . قال الحافظ البكري في كتابه معجم ما استعجم من اسماء البلدان جيرون بفتح اوله واسكان ثانيه بعده راء مهملة على وزن فعلون او فيعول . قال الحسن بن احمد الهمداني نزل جيرون بن سعد بن عاد دمشق وبنى مدينتها فسميت باسمه قال وهي ارم ذات العماد ويقال ان بها اربعماية الف عامود من الحجار الضخمة اقول (وقد عثر على بعض تلك العواميد في زمننا هذا تحت الارض فظهرت على شكل شارع مستطيل تكتنفه العواميد من الجانبين وذلك لما احترق الجامع الاموي واخذ بعضها لعمارته في سنة ١٣١١ . ودل ذلك على ان دمشق محتفظة بغالب آثارها تحت الارض وان الغوائل محت ماظهر منها) ومن قال وزن جيرون فعلون فهو من لفظ جير ، ومن قال وزنه فيعول فهو من جرن على

الامر اي مرن وهذا القول اقرب الى الصواب لانه لو كان فعلون لوجب ان يضم ماقبل النون في الاعراب وتلزم النون الفتحة فتقول هذا جبرون ومررت بجبرين . قال ابو دهبل :

طال ليلي وبت كالمحزون وملت الثواء في جيرون

وفي تاريخ الرازي ان الله تعالى بعث نبياً الى اصحاب الرس يقال له حنظلة ابن صفوان فكذبوه وقتلوه فسار عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح بولده من الرس فنزل الاحقاف واهلك الله تعالى اصحاب الرس وانتشر ولد عاد في اليمن وفشوا بعد ذلك في الارض حتى نزل جيرون وسميت باسمه وقال بعض المؤرخين ان جيرون وبريد ابنا سعد سكنا دمشق فسمي باب جيرون وباب البريد بهما . وفي هذا القول والذي سبقه مايدل على ان المدينة كانت موجودة من قبل وانما سمي باب البريد وباب جيرون بهذين الواردين نسبة لهما كما يسمون الآن جادة فلان وجامع فلان والاسمان محفوظان الى يومنا هذا . وفي كتاب فضائل الفرس لابي عبيد انه بناها سوراسب ملك الفرس والذي يظهر بانه تعدد بناتها انتهى كلامه . وفي كتاب الزيارات للسائح الهروي الشهير انه من جملة الاقوال التي قيلت في الذي بناها الضحاك او بيوراسب . وقيل التنور فار من جبل لبنان وقد علمت مما تقدم اسباب تسميتها دمشق وجيرون . واما تسميتها جلق فهي لفظة اعجمية وضعت علماً على هذه المدينة وقيل هو اسم لكل الكورة وقيل اسم احدى قراها وقيل تمثال امرأة من احدى قراها يجري الماء من فيها وهذا الاسم قديم اذ هو مذكور في شعر حسان بن ثابت الصحابي الجليل في اواخر دولة الغسانيين وهو قوله :

لله در عصابة نادمتها يوماً بجلق في الزمان الاول

واما تسميتها بالفيحاء فلم نقف له على تعليل والظاهر انه لقب لها لاتساعها كما قيل حلب الشهباء وتونس الخضراء واما الشام فهو اسم للاقليم كله واطلق هذا الاسم في الاستعمال على دمشق بما انها واسطة عقده ودرة تاجه واجمل

مدنه واكبرها وافضلها واختلفوا في سبب تسميتها بالشام فقيل من شامة القبلة اي شمالها . وقيل لان قوماً من بني كنعان تشاءموا اليها اي تياسروا . وقيل سميت بذلك لان اصحاب نوح عليه السلام لما خرجوا من السفينة فنهم من اخذ نحو يمين الكعبة ومنهم من اخذ نحو يسارها . وقال صاحب العقد الفريد الشام خمس شامات . وقيل لان ارضها وجبالها الشاخة مثل الشامات بيض وحمر وسود . وقال ابن المبارك الشامات خمس الاولى قنسرين ومدينتها حلب وبينها اربع فراسخ وفيها اثار الخليل عليه السلام . ومن حدائقها منبج مدينة قديمة وفي ساحل حلب مدن كثيرة منها مدينة انطاكية . الشامة الثانيـة حمص واعمالها . الثالثة الغوطة ومدينتها دمشق وهي المقصود هنا . والشامة الرابعـة الاردن ومدينتها طبريا . والشامة الخامسة الرملة ومدينتها فلسطين وبيت المقدس وعسقلان وغزة والبلاد الساحلية . اما دمشق من صفات النوق اي شريفة جداً وقيل ان دمشق فارسية واصلها دم بشك . وقيل سميت بسام بن نوح لانه اول من نزلها . وقيل تطيرت العرب عمن سكنها وكرهت ان تقول سام لان سام اسم الموت . فقالت شام او لانه بالسريانية شام . وقيل بعض بني كنعان تفرقوا فتشاءموا اليها وعلى هذا فلا يهمز وهي مؤنثة وقد تذكر واستعملها الشعراء بالمد للضرورة فيقولون الشآم . ونقل العيني عن بعض الرواة ان اسم الشام قديماً سورية وكانت ارض بني اسرائيل قسمت على اثنى عشر سهماً فصار لهم منها مدينة شامرين وهي من ارض فلسطين فصار اليها متجر العرب في ذلك الوقت ومنها كانت ميرتهم فسموا الشام بشامرين ثم حذفوا آخرها فقالوا شام . ونقل ايضاً العلامة البدر في كتابه نزهة الانام مانصه : انما سميت شاماً لان بني اسرائيل قتلوا بني كنعان ونفوا ما بقي منهم فصارت لهم ثم وثب الروم على بني اسرائيل فقتلوهم واجلوا من بقي عنها الى العراق الا قليلا منهم ثم جاءت العرب فقتلت الروم وسبتهم وهرب من سلم منهم الى بلاد الروم واستمرت بيد العرب الى يومنا هذا واما تسميتها بالتين فلم نقف على تعليل للمؤرخين فيه والظاهر انه لوجود وادي

التين في سوق وادي بردى ووادي عقربا او الجبل او لوجود شجر التين في معبد المدينة وقد اشار الى ذلك بعض المؤرخين المفسرين وقال احد معاصرينا من افاضل دمشق المفكرين تحت عنوان عمران دمشق في المقتطف بمناسبة تسميتها مانصه: اختلفت الروايات في سبب تسميتها واصل بانيها بحيث انسع مجال القول للوضاعين والقصاصين واقوالهم في الباب متخالفة ولا اختلاف علماء الطبيعة في عمر الارض والصحيح الذي ينبغي ان يعول عليه ان التاريخ القديم غامض للغاية اللهم الا ما جاء من طريق معاصرينا من مؤرخي الفرنجة الذين يستدلون على الحوادث بآثار لا تقبل الانكار وقال ايضاً فيها انها عروس المشرق لوقوعها في مركز تنتهي اليه سيارة المشرقين الى الافق الغربي وقد عظم شأنها بين المدن الحافلة العريقة في القدم الباقية في لوح الوجود فروى تاريخ القرون المتوسطة عن عظمتها السالفة عجائب ما كان المرء يخالها الا مبالغاً فيها لو لم تشهد بها الآثار والاخبار انتهى كلامه

وقد تكلف الباحثون عن اشتقاقات الاعلام من اللغويين ارجاع اسم دمشق الى اصل تشتق منه . فذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان انها مشتقة من الدمشقة وهي الاسراع قال لانهم اسرعوا في بنائها وذكر الامام احمد بن فارس اللغوي صاحب كتاب الجمل انها مأخوذة من قولهم ناقة دمشق اي سريعة قال الشاعر :

صاحبتي ذات هباب دمشق كأنها بعد الكلال ذورق

وقال دمشق الضرب دمشقة اذا اضرب ضرباً سريعاً خفيفاً وقال بعض اهل اللغة اشتقاق دمشق من قولهم ناقة دمشق اللحم اذا كانت خفيفة اللحم والدمشقة هي الخفة ولقد ذكرها كثير من العرب بهذا الاسم منهم ابو عبادة البحتري بقوله:

اما دمشق فقد ابدت محاسنها وقد وفى لك مطريها بما وعدا

اذا اردت ملأت العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا

وكل هذا تكلف تأباه القواعد العربية كما قالوا ان بيروت من البرت وهو الرجل الذليل وجلق من جلق رأسه اذا حلقه وجيرون من جرن الشيء

اذا صار امدس والحق كما قال ابن دريد انهما اسماء عجمية عربتها العرب واستعملتها اما بتصرف قليل كما هو شأنهم في غالب ما عربوه او بابقائها على الاصل فلا تكلف لها اشتقاقاً اذ ليس من مفردات كلامنا

واعلم ان المؤرخين في تاريخ بناءدمشق ومن بناها اقوالاً غير التي ذكرناها لاتنبئ عن حقيقة الامر ولا توصل الى المراد وكلها متناقضة وما باني هذه المدينة وتاريخ بنائها الا من الاسرار التي تعجز الباحثون عن الوصول الى حقيقتها ولا يصل المتأخرون الى حيث لم يصل المتقدمون وغاية ما يمكن في ذلك ان المدينة قديمة العهد وجدت قبل زمان الخليل عليه السلام بشهادة التوراة حيث يقال ان ابراهيم اسرلوط ابن اخيه الى حوبه الواقعه في شمالها وكانت هذه الواقعة سنة ١٩١٣ قبل المسيح فعلى هذا تكون دمشق قد بنيت منذ اكثر من ٣٧٩١ واذا كانت في زمن ابراهيم مدينة عظيمة فنقدر ان نقول من باب الظن انها وجدت قبل ذلك الوقت بمئات من السنين وان اخطأ الظن فلا اقل من كون اليعازر غلام ابراهيم او اسلافه وضعوا اساسها ولحسن موقعها وجودة هوائها وصلاحية ما حولها من الاراضي خطت بالتقدم خطوة سريعة حتى صارت وقت حادثة لوط مدينة عظيمة وربك اعلم بتصاريف عباده وهو وارث الارض ومن عليها

اما حدود المدينة فالذي يفهم من الاخبار الماضية ان مساحة سطحها كانت قليلة لانهم قالوا انها واقعة على ضفة نهر بردى الجنوبية بيضية الشكل طولها من الشرق الى الغرب نحو ميل ومن الشمال الى الجنوب نحو ميل ونصف وان السور محيط بها وان قلعتها المشهورة واقعة في زاوية السور الشمالية الغربية فيكون حدها الغربي القلعة المذكورة وآثارها باقية الى الآن يأتي معنا البحث عليها في موضعه وحد دمشق الشرقي باب الفراديس وجنوباً باب الجابية وباب الشاغور او باب الصغير مما يلي المقبرة التي سميت باسمه وحدها شمالاً وادي بردى هذه حدودها القديمة وشكلها حيث كانت مسورة .

اما الآن فان محيطها اكثر من تسعة اميال وكانت تنقسم الى قسمين الواحد

داخل السور والآخر خارجه والاول قديم جداً والثاني بني بعد ان فتحها المسلمون وتلاحقت عماراته وهو عبارة عن الاحياء المسماة بالشاغور والميدان التحتاني والفوقاني والقنوات والبحصة والحارة الجديدة والعقيبة والعمارة الداخلية والبرانية ومسجد الاقصاب وقسمها العثمانيون الى ثمانية اقسام وهي القيمرية المنسوبة الى الامير ناصر الدين الحسن بن الامير عزيز بن ابي الفوارس القيمري وهو الذي عمر المدرسة الموجودة الى اليوم في محلته المشهورة به وكان من اعيان الامراء في الدولة الصالحية وفيها حي النصارى وحي الاسرائيليين وابنة باب توما الجديدة والشاغور والميدانان والقنوات وسوق ساروجة والعمارة والصالحية وسيأتي في بعض تراجم الرجال اسباب تسمية كل حي من هذه الاقسام وشهرتها به وكل ثمن منها ينقسم الى احياء معلومة الاسماء وللقسم الذي هو خارج السور منافذ كثيرة لاتعتبر ابواباً للمدينة وللذي في داخل السور ثمانية ابواب قديمة جداً في شمالها باب توما رممه تنكز سنة ٧٢٤ هـ وتوما هو زوج ابنة هرقل ملك الروم وهذا الباب منسوب اليه وكان له عليه كنيسة.

وباب السلام رمم سنة ٦٤١ هجرية والمشهور ان نور الدين الشهيد احدثه او سيف الدين . سمي بذلك لان جميع داخلي دمشق من البر يدخلون منه للسلام على خلفاء الامويين . نذكر ما قاله في وصف هذا الباب الشيخ حسن بن محمد العطار لما اتى دمشق وكان اصله من الغرب وانتقل الى مصر مع اسرته وولد بها.

بوادي دمشق الشام جز بي اخا البسط وعرج على باب السلام ولا تخط
فان على باب السلام من البها ملابس حسن قد حففن من المط

وباب العمارة ويقال له باب الفراديس وبعده باب بين السورين وقد ازيل حديثاً في سنة ١٣٣٧ وكان الامر بازالته خطأ كبيراً على آثار دمشق .

وباب البوابجية رمم سنة ٦٠٦ هجرية ويقال له باب الفرج والمشهور ان نور الدين جدده . وما الطف ما قاله العارف النابلسي :

قل ما تشا عن جلق وانسب لها ولا حرج
فالخير والتين بها وبابها باب الفرج

ثم وجدت مكتوباً على هذا الباب انه امر بتجديده سنة ٦٨٩ هـ في رمضان الملك ابو بكر بن ايوب نصير ومساعد امير المؤمنين .

وفي غربيها بابان باب السرايا هدم سنة ١٨٦٢ مسيحية عند صدور القرار في اصلاح الطرق وباب الجابية رمم سنة ٥١٠ هجرية وقريباً منه باب النصر ويعرف بباب دار السعادة وكان بناؤه مجدداً وسمي بالجابية لان سكانهما كانوا يدخلون دمشق منه وهي قرية من قرى البلقا وحوران وكانت في الجاهلية مدينة عظيمة .

وفي جنوبها باب الشاغور ويسمى باب الصغير مما يلي المقبرة التي سميت باسمه.

وفي شرقها الباب الشرقي وهو من عهد الرومان وبالقرب منه باب آخر مسطوم يسميه النصارى باب بولس اذ يؤثر عندهم ان بولس الرسول دلى نفسه من نافذة فوقه خوناً من الاضطهاد ويسميه المسلمون باب كيسان الذي جدد في زمن الملك المنصور الصالحي وهو منسوب الى كيسان مولى معاوية قال بعض اهل الادب :

دمشق في أوصافها جنة ارض راضية
أما ترى أبوابها قد جعلت ثمانية

فاما حد الشام فمن الغرب البحر المالح وعلى ساحله عدة مدن منها طرابلس وبيروت وصيدا وعكا ومن الجنوب مما يلي البحر العريش ثم التيه وطور سيناء ثم تبوك ومن الشرق برية سماوة وهي كبيرة ممتدة الى العراق ينزلها عرب الشام ومن الشمال مما يلي الشرق ايضاً الفرات الى بلاد الجزيرة كما افصح به الحافظ الذهبي ولقد حددها العارف عبد الغني النابلسي الدمشقي بقوله :

وحد الشام طولاً من عريش الى ارض الفرات المستجاد
ومن جسر المسيح يقال عرضاً الى طرسوس للبلد المراد
ومن يافا كذاك الى معان فشام كل ذلك من بلاد

وقيل لسكان هذا القطر الاراميون تغليباً نسبة الى آرام وهو ابن سام بن نوح الذي اشتهرت فيه قبائله ولا سيما انها كانت آخر سكان دمشق القدماء عند

فتح اليونانيين فبقي اسمهم متداولاً ولكن اليونانيين والرومانيين سموا ذلك سورية والعرب جاروهم بذلك ثم غلبوا اسم الشام .

ومما يؤثر عن هذا القطران الملك هرقل لما غادر انطاكية الى القسطنطينية على اثر فتح العرب في عهد خلافة الامام عمر بن الخطاب . ودع البلاد بلغته اليونانية قائلاً : « سوزه سورية » اي « كوني بسلام ياسورية » وكانت عاصمتها منذ القديم دمشق .



الباب الثاني

في ذكر من سكنها من الامم وفيمن ملكها من الملوك وقام بها من الدول وفيه خمسة فصول

قد قدمنا في الباب الاول ان الخلاف في تاريخ بناء هذه المدينة واول من بناها قائم متضارب بين حملة التاريخ حتى لا يقدر المقلب لصحائفه ان يقف على حقيقة . وبينا السبب في ذلك على ان ذلك ليس خاصاً باخبار هذه المدينة بل هو عام في جميع اخبار الامم الغابرة وسيرها التي وصلت الينا بالنقل لاينعقد القلب على صحة خبر منهـا ولا تثق النفس به . وكذلك اخبار الدول التي تعاقبت على هذه المدينة واتخذتها مقراً لسلطانها اكثرها غامض . ولم يسطر المؤرخون عنها في تلك المدة الا القليل واهم اخبارها مذكورة في التوراة وهي في الحقيقة اخبار لمملكة اسرائيل التي لها الفضل الاكبر في حفظ تاريخ هذه المدينة ولولاها لم يبد المؤرخون شيئاً ولم يعيدوا في اخبار ما قبل الفتح الاسلامي . وها نحن اولاً نذكر ما هو شرط الكتاب مما قارب الصحة من اخبار تلك الدول وطبقات الامم الى الفتح الاسلامي ثم نقفيه بالدول الاسلامية عاقدين لكل واحدة فصلاً نلخص فيه اخبارها فنقول .

الفصل الاول

في الامم التي تعاقبت على سكناها وعمارتها

من اغمض الغوامض واشكل المشكلات عند المؤرخين المحققين تحقيق اصول الامم التي استوطنت هذه البلاد قديماً لما ذكرناه من غموض تاريخها القديم.

واول من استوطنها من الشعوب نسل حام بن نوح وبنو سام اخيه . وبعد ازمنة متطاولة هاجر اليها الكنعانيون بعد ما طردهم بنو اسرائيل من فلسطين ثم اختلط بهم الآشوريون ثم المصريون ثم اليونان ثم الرومان ثم العجم ثم العرب .

فلهذا الاختلاط بين الشعوب التي نزلت من اقدم الازمنة في هــذه البلاد عموماً ومنها دمشق اصبح من العسر جداً تمييز اصول سكانها وارجاع الفروع الى تلك الاصول بصفة محققة .

ومن اسباب هذا الابهام والغموض ان اغلب تلك الشعوب نزلت هــذه البلاد بصورة قهرية وبعبارة اخرى دخلتها فاتحة واستوطنتها مستعمرة .

ومعلوم من مجاري الطبيعة في هذا الوجود ان الضعيف يتلون بلون القوي طوعاً او كرهاً . والامم المغلوبة لاتلبث ان تصبغ بصبغة الامة الغالبة لها وتكتسي اخلاقها وعاداتها وآدابهــا ولغاتها . ثم لا تلبث عوائد المغلوب ومميزاته ان تمحي وتتلاشى . وهذا شيء مشاهد محسوس الى يومنا هذا . ناظرين اليه بعين الاعجاب .

ولكثرة ما تعاقب على هذا الاقليم من الامم الفاتحة ضاع التمييز بين اصول عناصره وشعوبه .

وما جرى للاقليم السوري في ايامه الاولى جرى عليه بعد الفتح الاسلامي فان العرب وان سحقوا جميع القوات منها وشيدوا سلطانهم على ربوعهــا واستوطنها منهم الكثير وكان الاسلام اكبر عامل في تغيير الاخلاق والعادات القديمة استعاضت عنها بآدابه واخلاقه واعظم داع لتقارب الامم وتآخيهــا واشتراكها في الضروريات المدنية مما صح معه ان يقال بعد قليل ان سورية بلاد عربية وقطانها عرب فقد جاءت بعد الصدر الاول امم اخرى من الاعاجم تداولت الحكم والتسلط على هذه الديار وابدلت الآثار العربية بآثار اخرى من لغات وآداب واخلاق وعوائد مثل الافرنج ايام الحروب الصليبية وآثارهم في الاجتماعيات التي غرست من ذلك العهد لم تزل موجودة الى اليوم يعرفها ذو البحث والتنقيب وكذلك التتر والاكراد والاتراك ومع ان صبغة الجنسية العربية اقوى الصبغات المتأصلة فيهم واشدها تمكناً منهم واكثرهــا تأثيراً على الآداب القومية فان لتلك الجنسيات المختلفة آثاراً لاتنكر وان اختصت ببعض الجهات . فخلاصة مايقال عن سكان البلاد الشامية الحاليين ومنها دمشق بالنظر الى

اصولهم انهم مزيج او خليط من بقايا تلك الامم الا الغرباء الذين طرأوا عليها وكانت انسابهم محفوظة من قبل وحافظوا هم عليها فيما بعد . وان كان المؤرخون يطلقون على الكل اسم عرب فان ذلك من باب التغليب للغلبة التي ذكرناها .

وعلماء الافرنج الحاليون المستشرقون الباحثون عن اصول الشعوب وعوائدها يحكمون على الشعب السوري بانه متفرع عن خمسة اصول عامة متمايزة باللغة والعادات . الاول الاصل السوري الصميم الثاني الأصل العربي الثالث الاصل التركي الرابع الاصل اليهودي الخامس الاصل الافرنجي وتتفاوت هذه الاصول بقلة التفرعات وكثرتها واقلها الاصل التركي ثم الافرنجي لما ان زمان طروءهما متأخر ووجودهما تابع للسياسة فيضعفان بضعفها ويقويان بقوتها .

اما ما دلت عليه قواعد علم الاجتماع فهو ان الشعب كما ينسب الى سلائله الاصلية وعلى حسب تلك النسبة تتكون له قومية باسم اب تلك السلائل . فكذلك اللغات والتعاليم الالهية والآداب الاجتماعية التي تمشي عليها امة مزيج من شعوب شتى لا تلبث بعد ثلاثة اجيال على الأكثر ان تأخذ اسم قومية وشعب بالاستناد الى تلك اللغة وتلك التعاليم والآداب التي وجدتها وكانت الصق روابط افرادها بها وعليه فالسوريون في جميع سورية عرب بالاستناد على هذه النظرية الاجتماعية من غير ما شك وفوق كل ذي علم عليم .



الفصل الثاني

فيمن وليها من الملوك وساسها قبل العرب

الملك والمالك او الراعي والرعية شيئان متلازمان غالباً موجودان منذ نشأ هذا الكون فالامم التي عمرت هذه البلاد اولاً كان لهم ملوك منهم يديرون شؤونهم على مقتضى شرائعهم واعرافهم وقد دخلت سورية على الاطلاق حتى

ملكها ملوك كثيرون اولها كانت قبائل نيفليم واميم ورافايم وزوزيم وعناقيم وزمزوميم نازلة في البلاد السورية منذ بدء الزمن التاريخي . واما بنو تارح فانهم هاجروا من بين النهرين ونزلوا سورية فتسلسل منهم اسرائيل وادوم ومعراب وعمون وكانت الحكومات ترسل الوفد الديني بالصبغة السياسية واصبح في مقام المستشار لدى زعيم ملوك الفينيقيين او المساعد له على اتمام ما وسد اليه من المصالح العامة وكانت الارض ملكاً لملكها يستغلها وينعم بقطع منها على من شاء من اعيان البلاد .

اما ديانة الفينيقيين فقد ظهر من حقائقها بعض الشيء من الاثر . فتبين انهم كانوا في بدء امرهم يعتقدون بالوحدانية جرياً على النهج القويم الذي اعتقدته سائر الامم قبل ان تلوثت بمفاسد الوثنية .

وكانت الاقطار السورية مطمحاً لانظار الغزاة لتكون ملكاً لهم وبالنتيجة حملت الفراعنة على الزحف الى الديار السورية ابتغاء خفض شوكة ملوك آشور وبابل وتأييد كلمتها . وخرج توتمس الاول والثالث فدوخا البلاد السورية والشامية بل بلغا الاقطار الكلدانية واوجبا الجزية على كثير من الامم والملوك . واستفحل ملك الفلسطينيين فارتاع منهم بنو اسرائيل والفينيقيون وشرع الاراميون يضايقونهم . وفي عهد اينوبعل اجتاح آشور زينبال القطر السوري فدانت له ملوك سورية وفينيقية وادت الجزية . وفي غضون هذا الاجل زحف اشور زينبال على سورية فالتقاه جيش من الدماشقة والحمويين وحاربوه . قيل ان الفينيقيين كانوا بين المحاربين . وتواقع الجيشان فدارت الدائرة على السوريين وانسحب الفينيقيون ولكن ظلت دمشق قائمة لوحدها فعاود شلمنصر الكرة عليها فهرب قومها وتحصنوا في الجبل وعليهم يومئذ حزائل فلما جاء الآشوريون غلبوهم وخضعت سورية للسلطة الآشورية والى اداء الجزية وفتحوا دمشق وقبضوا الجزية من فينيقية واسرائيل . وبظفرهم هذا تأيد السؤدد الآشوري في القطر السوري .

وفي هذه الآونة وقع الاضطراب في بلاد اليونان ورأى السوريون بعد

حين ان الآشوريين قد استطالوا عليهم فاستنجدوا بهوشع ملك اسرائيل وبسباكوسباقون فرعون مصر فاطرح هوشع اشارات الولاء والطاعة للسلطة الآشورية ، وكانت واقعة بين امهات المدائن الفينيقية فادى ذلك بهم الى التخالف في السياسة ولو احسنوا وأدالوا من الشقاق اتفاقاً لرأيت الاستقلال عائداً الى الربوع زمن الاضطراب البابلي فظلت السيادة البابلية قائمة على ملوك فينيقية الوطنيين ثم توالت على سورية حكومة عمال الفرس حتى اشهر ميكابيزوس راية العصيان على ارتاكز رسيس الفارسي فلم يقو هذا الملك على كبح جماحه فصالحه واتحد السبارطيون مع الفينيقيين بشؤون اليونان ولم تكن هذه من عند انفسهم وانما حملوا عليها بسياسة الدولة السائدة فيهم . وحدث ان تولى عرش الماكدونيين اسكندر بن فيليب وكان باسلاً عظيماً فسعى سعي ابيه في اكتساح آسيا واخذ الثأر من الفرس الذين سبق لهم شن الغارة على اليونان . ثم اقام اسكندر بارمنيو والياً على البقاع ودمشق وسيره اليها فلما دخلها ملك منها كثيراً من المال الكسروي ووجد زوجات بعض العظماء من الفرس فسباهن .

وبعد وفاة الاسكندر صارت نيابة الدولة الاسكندرية (لانتيباتر) فاقام في سورية جنداً لخفارتها . غير ان بطليموس صاحب مصر اغار على العمالة ليضمها الى مصر فلم يرَ ممانعة الا من اورشليم ولكنه بعد ذلك استولى عليها واقام في سائر القطر السوري خفراء الى ان فتحها انتيغونس ولم تمانعه الا بلد صور فاستعان عليها بسفن الفينيقيين وظل على حصارها حتى فتحها واقتسمت مشاهير القادة الممالك وبعد حين فاز (بولوقس بن نيكانور) على انتيغونس فكانت سورية حظه فاسس الدولة السلوقية على دمشق الى ان زحف بطليموس وتواقعوا فظفر البطالة واسترجعوا فلسطين وفينيقية والبقاع ولم يرتضوا بمصالحة الدولة السلوقية بل هادنوها . غير ان بعض المصالح اضطرت بطليموس بعد حين الى التماس السلام على شرط تخلي السلوقيين عن الادعاء بتملك فلسطين وفينيقية والبقاع فتم الصلح على ذلك وبه تجزأت سورية وبذلك تم رجوع

دمشق وسورية الى الانضمام . لكن ذلك لم يدم لان بطليموس زوج (كليوبطره) بنت انطيوخس فاعطاه والدها ولايتي فلسطين والبقاع صداقاً . وتكدرت الصلات بين سورية والرومانيين وكان اينبال قد فر من امام الرومان ملتجئاً الى السلوقيين في سورية . وقد تبادل السلوقيون العهود مع الرومان فاصبحت روميا مطاعة الامر نافذة الكلمة في المملكة السورية ولما انصل الحكم بالملك (انطيوخس) بن انطيوخس الكبير اساء الى اليهود وقاتلهم ثم نهب هيكلهم وخزائنهم واسرف وبذخ في اموالهم فثار اليهود عليه . ولما عجز عنهم صالحهم سنة ١٦٣ ق م . وفي خلال هذه القلاقل ادعى ديمتريوس بتاج الملك السوري وسعى باعلاء كلمة الرومان في سورية واوجب لهم المداخلة في شؤونها فابى الرومان ذلك . ولكنهم بعثوا وفداً الى سورية يطالبون بؤدى العهدة التي كانوا قدعقدوها مع انطيوخس . فلما وصل الوفد حددوا عدد الجيش كم يكون واحرقوا بعض الحرائق واتلفوا الافيال فامتعض السوريون وهاجوا وماجوا فقتلوا رجلاً من الوفد . غير ان ملكهم بعث يعتذر الى رومية فلم يرض ملك الرومان الاعلى بل شهروا الحرب على اوباتور ملك سورية اذ ذاك الذي اعتذر لهم واتخذ ديمتريوس الحادثة سبيلا لتجديد دعواه فرفض وفر الى سورية وفاز بالقبض على اوباتور ووزيره وقتلهما . فلما علمت رومية ارسلت اليه سفارة تراقب اعماله فواعدها خيراً حتى اعترفت به ملكاً وبعده اغار (البرتيون) على سورية ولم يكن عامل الرومان فيها فارتاع الناس لهول الغارة . ثم غلب البربر فارتدوا على الاعقاب وبعده في سنة ٢٣١ ق م . قدم ازدشير بن بابك رأس الدولة الساسانية الى سورية قاصداً فتحها فالتقاه اسكندر سفيروس وحاربه حرباً اختلف الرواة في نتيجتها ولكن بقيت السلطة لملوك الساسانيين الاعاجم واستقام حكم هذه الدولة الى سنة ٤٢٦ ق م وقد تلقبوا بالساسانيين نسبة الى ساسان والد يزدجار . ثم انقرضت هذه الدولة سنة ٦٥٢ ق م بعد قتل ملكها يزدجار الثالث ثم ظهرت قبائل العرب من الغسانيين الذينهم حكموا دمشق وخلافهم كما سنذكره ملخصاً .

الفصل الثالث

في دخولها في حوزة العرب الغسانيين من قبل الرومانيين اصحاب الدولة بسورية الى ان جاء الاسلام والسبب في ذلك اذ هي ليست من جزيرة العرب، وفي الحالة الاجتماعية المشهورة عن احوال العرب قبل الاسلام .

لما تم ملك دمشق للرومانيين كما اسلفناه ، رقيت دمشق في معارج التقدم واستبحر عمرانها فصارت اعظم مدن سورية ، ولا تفوقها في ذلك الوقت الا انطاكية وامر عليها الرومانيون من قبلهم عرب غسان فاقتطعت لهم مع مابضواحيها من القرى واستمرت تحت امارتهم الى ان استلها منهم المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك سنة ثلاث عشرة للهجرة ، وكانوا قطانا ببادية الشام لذلك العهد واصلهم من اليمن من آل جفنة من بني الازد بن غوث بن نبد بن مالك بن ادد بن زيد بن كهلان بن سبا تفرقوا من اليمن بسيل العرم كما قصه الله تعالى في كتابه العزيز ، وغسان ليس من اسماء آبائه وانما هو اسم لماء نزلوا عليه فنسبوا اليه بدليل قول شاعرهم (الاسد نسبتنا والماء غسان)

وكان بالشام عرب من سليح يقال لهم (الضجاعمة) من ملوك الطوائف الذين قتل اسعد الحميري من كان منهم باليمن وقتل ازدشير كسرى من كان منهم بعراق العجم ، فقوي عليهم آل غسان واخرجوهم من ديارهم وحلوا مكانهم وقويت عصبتهم فاتخذهم الروم عمالا" لهم على عرب الشام ودخلت دمشق في حيازتهم مدة واعتنقوا النصرانية . واول من ملك منهم جفنة بن عمرو بن ثعلبة بن موزيقيا لانه لما قتل ملوك سليح دانت له قضاعة فعظمت دولته وبنى في الشام مصانع كثيرة ومات وملك بعده ابنه عمرو وبنى في الشام عدة اديرة منها دير حالي ودير ايوب ودير هند ثم ملك بعده ابنه ثعلبة وهو الذي بنى صرح الغدير في اطراف حوران مما يلي البلقاء وآثاره موجودة ليومنا هذا وكان ملكه سبع عشرة سنة . ثم ملك بعده ابنه الحارث وكان ملكه عشرين

سنة وهو الذي بنى القناطر وازرع والقسطل وهي بضواحي حوران وملك بعده ابنه الحارث وكانت امه مارية ذات القرطين الذي يضرب بها المثل في النفاسة وكان مسكنه في البلقاء فبنى بها الحفير وقصر ابير ومعان وكان ملكه عشرين سنة وملك بعده ابنه المنذر الاكبر ومات بعد ثلاث سنين من ملكه فملك اخوه النعمان خمس عشرة سنة ونصفاً ثم ملك اخوه المنذر الاصغر ثم اخوه جبلة ثم اخوه الايهم ثم اخوه عمرو وكان شديد التكبر ذميا فقطع السيرة وبنى في دمشق وضواحيها قصوراً شاهقة منها قصر الفضا وصفات العجلات وقصر منار صور فيها كثيراً من صور بعض مجالسه وارباب دولته واشكالهم فكانت من اعجب المتنزهات المنقطعة القرين في الحسن والبهاء وقد زالت اكثر هذه الآثار في زمننا هذا ومما يؤثر من قديح سيرته التي نفرت النفوس عنه والهبت قلوب العامة حقداً عليه انه جعل لنفسه كل ليلة جارية عذراء من السبايا التي تصيبها خيله المغيرة في البلاد على العصاة حتى وقعت له مع عمرو بن الصعق العدوان واقعة كانت سبباً في ارعوائه عن هذه الخطة الشنيعة وملك ستا وعشرين سنة وشهرين ثم ملك بعده جفنة الاصغر بن المنذر الاكبر الذي احرق الحيرة فسمي بالمحرق ومن يومئذ سمي بنوه آل محرق وملك بعده اخوه النعمان الاصغر بن المنذر الاكبر وبعده ملك النعمان بن عمرو بن المنذر وهو الذي بنى قصر السويدا وقصر حارب في جبل الدروز من حوران وآثارها الى اليوم ماثلة للعيان ولم يكن ابوه عمرو ملكا وانما كان من كرام العشيرة وهو ممدوح النابغة الذبياني احد شعراء العرب وكانت مدة ملكه سيعا وعشرين سنة ومات وملك بعده ابنه جبلة وهو الذي قاتل المنذر بن ماء السماء وله يوم عين اباغ الذي اوقع فيه بني لخم وتزار وكان ينزل بصفين ذات الوقعة الشهيرة بين سيدنا علي ومعاوية وبعدان ملك ست عشرة سنة ملك بعده النعمان بن الايهم بن الحارث وملكه احدى وعشرون سنة وملك بعده اخوه الحارث ثم ابنه النعمان وهو الذي اصلح صهاريج الرصافة في بغداد وكان قد خربها بعض ملوك الحيرة اللخميين

وملك بعده ابنه المنذر ثم ملك بعد المنذر اخوه عمرو بن النعمان ثم اخوهما حجر ثم ابنه الحارث ثم ابنه جبلة ثم ابنه الحارث وهو اوقع ببني كنانة وكان يسكن احياناً في الجابية جهة معان والكرك واحياناً في عمان المعروفة بالبلقا وكان ابتداء ملكه في عصر النعمان بن المنذر ملك الحيرة فكانت بينهما مغايرة في الشرف وكان الحارث كثير الغزو والغارات على قبائل العرب وكان كريماً جواداً كثير المواهب فكانت العرب تدعوه الوهاب قيل انه لم يجتمع بباب احد من الملوك في عصره ما كان يجتمع ببابه من الشعراء وكان حسان بن ثابت الانصاري شاعر النبي العربي عليه الصلاة والسلام منقطعاً اليه وله فيه مدائح كثيرة ومات الحارث وملك بعده ابنه النعمان وكان شديد الاجتهاد في انتشار النصرانية في البلاد اكثر من اجداده وكان ملكا عادلا شجاعاً فاضلا كثير الخير قليل الشر حسن الصورة وكان يحب الفضلاء ويقدمهم على اشرف الناس وكان يكنى بابي كرب ويلقب بقطام وبعده ملك الايهم بن جبلة بن الحارث وهو صاحب تدمر المشهورة والمقصودة من الافرنج وله قصر بركه وذات انمار وكان له عامل يقال له القين بن جسر بنى له بالبرية قصراً عظيما وملك بعده اخوه المنذر ويقال ان ملكه استدام ثلاث عشرة سنة ثم ملك اخوهما شرحبيل ثم ملك بعده اخوه عمرو ثم ابن اخيه جبلة بن الحارث وكان ملكه اربع سنين وملك بعده جبلة بن الايهم وهو آخر ملوك غسان وبه انتهت سلسلتهم من دمشق وكان طويل القامة نحيف الجسم يلبس الثياب الفاخرة وهو الذي بنى مدينة جبلة بين طرابلس الشام واللاذقية وسماها باسمه واسلم في زمن سيدنا عمر بن الخطاب فسار الى مكة يريد الحج بمائتين وخمسين من اصحابه فلما قرب من المدينة قلد اعناق خيله بقلائد من الذهب والفضة ووضع التاج على رأسه فلما بلغ عمر قدومه التقاه واكرم مقدمه وسار معه للحج حتى كان يوم الطواف فبينما جبلة يطوف بالبيت محرماً متزراً اذ وطئ رجل من فزارة طرف ازاره فانحل عنه الازار حتى بدت عورته فغضب جبلة من ذلك ولطم الفزاري لطمة هشم بها انفه فتعلق به الرجل وانطلق الى الخليفة

عمر ودمه يسيل على وجهه فقال له عمر انت بين امَّاان يلطمك الرجل كما لطمته او تفتدي اللطمة منه فقال جبلة افلا يفضل عندكم ملك على سوقة؟ فقال عمر كلا بل كلاهما في الحق سواء! فانف جبلة من ذلك ولما جن عليه الليل خرج بقومه حتى لحق بالشام وارتد عن الاسلام فكتب عمر الى عامله بالشام ابي عبيدة ابن الجراح ان يستتيب جبلة فان تاب والا ضرب عنقه و لم ذلك جبلة فخرج هاربا الى ملك الروم بالقسطنطينية وقصته طويلة مشهورة ليست من غرض كتابنا وذكر كثير من المؤرخين انه بقي مقيما في بلاد الروم واليه تنسب قبائل الارناؤط هناك والله اعلم. ويقال ان مدة ملك ملوك غسان ستماية سنة وقد عثرت على كتاب نشر في هذه الآونة في عرب سورية قبل الاسلام للمسيو دوسو من الاخصاء في تاريخ سورية مستخرجا اللغة الصفوية انها هي اللغة العربية واهل الصفا هم اول النازحين الى سورية وان جاء بعدهم بعض قبائل الا ان تاريخ اولئك قد عرف اكثر من غيرهم من اهل سورية الراحلين بما اكتشف من آثارهم ومصانعهم ونقوشهم على الاحجار. ومما قاله فيه انه ينبغي تصحيح الافكار الشائعة والاغلاط التي يقع فيها بعضهم بشأن العرب فان العرب ليست على اطلاقها من اهل الجزيرة العربية بل ان سكانها الرحالة في الجنوب من اصول اخرى وينبغي ان يطلق اسم العرب على سكان اواسط جزيرة العرب وشماليها وعلى القبائل الرحالة التي تطوف بادية الشام لان هذه عربية صرفة والتنقل في كل سنة يأتي هذه البلاد بقبائل من نجد وكل قبيلة تعقد مع القبائل الرحالة الاخرى عهوداً يسمونها (خوة) وتقضي بينها الربيع. والتنقل قديم يرد عهده الى اوائل التاريخ المسيحي. قال ان الصفا غير قابلة للسكنى لانها ذات براكين ولكن في جوارها بلاد تسكن خصبة ذات مياه قال فيها ياقوت الحموي انها اصل البلاد الصفوية وقال ان اللغة الصفوية هي احدى اللهجات العربية وليست فينيقية وذكر ان الآثار التي عثر عليها ليست ذات شأن من حيث علاقتها بالدين لان المسلمين عفوا آثار الجاهلية الاولى فلم يبقوا منها اثراً. وقال ان الصفويين كانوا يذكرون اسم الجلالة قبل الاسلام وقبل ان يختلطوا

بالرومانيين (وقد تقدم معنا الاشارة الى ذلك في كتابنا هذا) وان العرب لم تفتح تلك البلاد عفواً بل ان اختلاطهم بالامم المجاورة قبل الاسلام هيأ لهم سبل الفتح وان الرومانيين لم يحاولوا ان يصدوا عرب البادية عن التنقل بل كانوا يعاملونهم بسلام لئلا تتكدر كأس الراحة . وقد لخصنا هـذه الجملة عنه لمناسبتها الموضوع وقد عثرت على جملة ايضاً من تاريخ ابن الشحنة فاحببت نقلهـا قال : كانت الفترة من فترة المسيح الى مولد النبي العربي عليه الصلاة والسلام خمسماية وخمسا واربعين سنة وبدولة هذا الرسول العربي صلى الله عليه وسلم انقضت سائر الدول وانفسخت الملل .

وفي التاريخ المذكور قال وهؤلاء العرب كانوا في الجاهلية اصنافاً صنف انكروا الخـالق وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني وصنف اعترفوا بالخالق وانكروا البعث وصنف عبدوا الاصنام . فكانت ود لبني كلب بدومة الجندل وسواع لهذيل ويغوث لمذحج ونسر لذي الكلاع بحمير ويعوق لهمدان واللات لثقيف بالطائف والعزى لقريش وبني كنانة ومناة للاوس والخزرج وهبل اعظم اصنامهم كان على الكعبة واساف ونائله على الصفا والمروة وكان منهم من يميل الى اليهودية ومنهم من يميل الى النصرانية ومنهم من يعبد الجن ومنهم من يميل الى الصائبة . وكانوا يعتقـدون في الانواء اعتقاد المنجمين ، وكان منهم من يعبد الملائكة . وكانت علومهم الانساب والتواريخ والانواء وتعبير الرؤيا . وكان ابو بكر الصديق اطولهم يداً في هذه العلوم قبل الاسلام وكانوا على اشياء توافق شريعة الاسلام لا ينكحون الامهات ولا البنات ، ولا يجمعون بين اختين ويعيبون المتزوج بامرأة ابيه ويسمونه الضيزن ، ويحجون البيت الحرام على هيئـة الاسلام ويغتسلون من الجنابة ويواظبون المضمضة والاستنشاق والسواك والاستنجاء ، وحلق العانة ونتف الابط وتقليم الاظفار والختان ويقطعون يد السارق اليمنى ويفرقون رؤوسهم ويكبسون في كل ثلاثة اعوام شهراً .

هذه كانت خلاصة احوال العرب الاجتماعية قبل الاسلام ، وتتميماً للفائدة

احببت ان اذكر بحثاً لطيفاً في تكوين العائلة وتشكل الحالة الاجتماعية عند العرب قبل الاسلام فنقول :

من المعلوم ان اي مجموعة من المجموعات البشرية تتشكل من العائلة والعائلة يؤسسها اقتران الرجل بالمرأة المسمى في الازمنة الاخيرة بعقد النكاح او الاقتران وعلى رصانة هذا العقد ومتانة اخلاق المقترنين تكون السلائل والذراري ومن ذلك ينبوع حياة الامة بامرها كما هو مقرر في علم الاجتماع.

لقد كان عند العرب من اقدم ازمانها من الاصول والقواعد التي لاتقل نظاماً ومتانة عن اعظم قواعد واصول ارقى الامم في العالم لهذا العهد . فقد كان الشائع المطرد من انكحتهم مايوافق تمام الموافقة لما اقره الاسلام من النكاح المسبوق بتعارف الزوجين وتقديم المهر والخطبة وملاحظة الكفاءة بينهما . وهذا النوع هو الذي كانت تتشكل منه معظم عائلات القبائل العربية . الا انه مع ذلك كان يوجد من انواع الانكحة مايقل اعتباراً ورعاية عن هذا النوع وهو المسمى عند علماء التاريخ بالنكاح الغير الدائم وبغير الكفؤ . ويسمى الولد الناتج عنه بالولد على غير عامود النسب . وبهذا ترى فقهاء الاسلام ينصون على فساد او بطلان مثل هذا النوع من النكاح . ولم يوجد قط من انكحة العرب قبل الاسلام مايجوز اشتراك اكثر من رجل واحد في نكاح امرأة واحدة . وان وجد في اية امة مخالطة الرجال الكثيرة المرأة الواحدة يكون سفاحاً وعهراً لانكاحاً واقتراناً . وربما يوجد مثل هذا في عصر الشارعين الرسل المتقدمين عليهم الصلاة والسلام . والدليل على ماقلناه ان ضبط النظام في العرب كان يرتكز في الدرجة الاولى على عصبية العائلة ثم القبيلة ثم القومية وهكذا . ومعلوم ان الحافظ الوحيد للعائلة انما هو اختصاص الرجل بامرأة واحدة ليمكن معرفة نسله منها . وهم الذين يعتزيهم وينصرونه عند العوادي . ولقد قص التاريخ الاسلامي ان الحسن ابن الامام علي كرم الله وجهه عير عمرو بن العاص بكونه ادعاه عشرة رجال كل واحد منهم خالط والدته وانه ثبت لابيه بحكم القائف . فلو كان مايزعم

التائهون من مؤرخي الاتراك تبعاً لبعض علماء الافرنج من جواز كون المرأة الواحدة زوجة لاكثر من رجل . لما جاز هذا التصير من عظماء علماء الاسلام الواقفين على تاريخ اسلافهم حق الوقوف .

والذي ادخل الغلط على هؤلاء المؤرخين ظنهم ان الحادثة الحسية اذا وقعت في امة يتيسر لكل مؤرخ ان يستنبط منها اصلاً وقاعدة من قواعد تلك الامة المدنية او الاجتماعية وهذا لعمر الحق غلط فاضح . فان الكثير من الحوادث الحسية التي تقع من افرادها شذوذاً من غير اطراد لايصح ان يستنبط منها قاعدة يحكم بها على مجموع تلك الامة وانما الحوادث التي يحكم بها على الامم وتدون في سجل حياتهم المدنية هي ماكانت تقع على سبيل الاطراد وينصاع اليها الكل . وما من امة ظهرت على سطح الارض الا ولها قواعد مدنية حسب درجة تدرجها في الحياة للاقتران بين الرجل والمرأة . والاساس الرئيسي لتلك القواعد سماوي يرجع مبتدأه لآدم عليه السلام فمن بعده من اصحاب الشرائع .

وانما تمتاز الامم بعضها عن بعض بالوقوف عند تلك القواعد وندرة الشذوذ عنها . وهذا راجع لدرجة رقي تلك الامة في التربية العائلية ومتانة الوصلة وقوة الرابطة فيما بين الرجل وزوجته . ولقد قص علينا التاريخ ان العرب من مبدأ وجود يعرب الى صدر الاسلام كانت ابعد الامم عن العهر والفحش وكان ناموس المرأة عندهم اغلى من النفوس الرفيعة .

يدلك على هذا ماقصه علينا القرآن الكريم من قبر بعضهم بناتهم واخواتهم في الحياة زمن الجاهلية الاولى اذا خافوا عليهن فقراً او ضيماً . وقد ابطل ذلك ظهور الاسلام وما عرف ذلك في التاريخ عن امة سواهم . ولسنا بصدد مثالب ومعايب الامم الاخرى في هذا الباب وانت اذا راجعت تاريخ اي امة على حدة يتضح لك ذلك باجلى بيان .

ان العرب هي الامة الوحيدة في حفظ كرامة العرض ويدل على هذا قول سيد العرب والعجم عليه الصلاة والسلام الذي يقطع جهيزة قول كل خطيب

« ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء ما ولدني الا نكاح الاسلام » اي النكاح المدني العربي الذي يشابه في اصوله وقواعده نكاح الاسلام.

والغرض المقصود من هذا الحديث بيان رصانة ومتانة ورسوخ آبائه الاولين الى ابراهيم الخليل عليه السلام ومن ابراهيم الى آدم في الفضائل والمزايا الشخصية والعائلية التي كانت تحجز نفوسهم الابية عن الشذوذ عن قواعد الاقتران في اي دور من ادوار حياتهم وهذا الملم لما اسلفناه لك من مزية العرب في هذا الباب .

اما قضية تعدد الزوجات في الاسلام فليس حكماً جديداً جاءنا به بحيث لا نعرفه بل اقره فقط ولطفه وعدله الى العدد المعين بعد ان كان غير محصور في عدد. وقد قبل هذا المقدار من التعدد لان العرب وقتئذ كانوا بين سواهم من الامم امة قليلة العدد. وقانونها المدني الذي فاقت به سائر امم الارض يمكنها كما حصل فعلاً من الاستيلاء على ادارة شؤون اكثر المسلمين في الارض وهذا ولا ريب يحتاج لكثرة النسل من سلائل هذه الامة المحمدية ذلك ما رأيته مفصّلاً في تواريخ الدول الاسلامية في بغداد والاندلس وطبرستان وجرجان وهندستان وافريقية وغيرها من الممالك والاصقاع .

ان هذا التعدد الذي اقره الاسلام مشروط بالعدل . ولا بد ان يكون معلولاً بالحاجة . لا لمجرد الاسترسال مع الشهوة وقضاء الوطر الحيواني ، ولذلك فالشخص الذي لا يتمكن من العدل بين نسائه لا يجوز له ذلك التعدد كما نص عليه الكتاب العزيز واي شخص لجأ الى ذلك التعدد استرسالاً مع الشهوة يكون قد استعمل احكام الشرع لغير ما وضعت اليه . وخلاصة القول في هذا الموضوع انه اقره الاسلام على انه من المباحات لا من المندوبات والضروريات . فالذي ليس في قدرته القيام بشروطه لا ينبغي له الاقدام عليه.

ومن هذا يتضح لك ان لا قيمة لما يعترض به بعض مؤرخي الاتراك والاوربيين على التقاليد الاسلامية في هذا الباب .

***

الفصل الرابع

فتح المسلمين دمشق في خلافة ابي بكر الصديق رضي الله عنه

قد اسلفنا فيما مضى ان آخر دولة مدت ظلال سلطانها على الشام هي دولة الرومانيين وانهم استعملوا عمالاً عليها من قبلهم آل جفنة الغسانيين ، ثم ان الرومانيين كانوا في اوائل دولتهم سالكين سنن العدل والرفق بالشعوب التي يحكمونها سائرين على صراط العدل السوي والحق ، فعظم شأنهم واتسعت ممالكهم وانبسط سلطانهم وبلغوا في ضخامة الدولة واتساع الملك الى غاية ماوراءها غاية. ثم دبت فيهم نشوة الجبروت واسكرتهم خمرة التعاظم وانغمسوا في الملاهي والترف كما هي طبيعة الدول في أواسطها بعد ان تفارقها سذاجة البداوة ، وتكتسي ثوب الحضارة . ففشت فيهم المنكرات وساموا الرعايا جوراً وعسفاً، وتنكبوا جادة العدل وسرى داء الارتشاء ووسدت الوظائف لغير الاكفاء، فضجت الشعوب المحكومة واختل نظام المملكة ، وتأذن الله بخرابها.

في تلك الايام بعث نبينا صلى الله عليه وسلم واشرقت انوار الايمان بجزيرة العرب . فلما انتقل عليه الصلاة والسلام الى الرفيق الاعلى واستخلف الناس من بعده ابا بكر الصديق وهو اول من اسلم من الرجال كما هو معلوم، وكان الاسلام لم يتجاوز في الانتشار جزيرة العرب . فقضى الصديق الايام الاولى من خلافته في قتال اهل الردة من بني حنيفة وغيرهم . ولما فاؤا الى الاسلام ورجع الدين الى نصابه تحركت عزيمته للفتوحات ونشر الدعوة المحمدية ، فجمع وجوه الصحابة وقام فيهم خطيباً ، فكان من جملة ماقاله :

« واعلموا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عول ان يصرف همته الى الشام فقبضه الله اليه واختار لهماعنده . الا واني عازم ان اوجه ابطال المسلمين الى الشام باهليهم ومالهم ، فان رسول الله انبأني بذلك قبل موته وقال : زويت لي الارض فرأيت مشارق الارض ومغاربها وسيبلغ ملك امتي مازوي منها . فما قولكم في ذلك ؟ . » فما منهم الا من لبى مسرعاً ، ولا اشهى لنفوسهم ولا

ابرد لاكبادهم في ذلك الوقت من الجهاد نشراً للدين الاسلامي الذي اعتزوا به رضي الله عنهم . فامتلأ سيدنا ابو بكر وقتئذ سروراً وشرع من فوره في الاستعداد لفتح الشام .

فكتب الى ملوك اليمن يخبرهم بذلك ويستحثهم المشاركة فيه وكانت كتبه في ذلك نسخة واحدة على ماحكى الواقدي . وكان رسوله الى ملوك اليمن انس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوصل الكتب ورجع يبشر بقدومهم في الاثر . وفي ثاني يوم من قدومه اشرفت كتائبهم ومواكبهم متتالية بذراريهم ونسائهم . فخرج الصديق ووجوه اهل المدينة لملاقاتهم . واول قبيلة فازت بالسبق قبيلة (حمير) في احسن سلاح وابهى شكل يرأسهم ذو الكلاع الحميري فسلم على الخليفة وانشد ابياتاً يفتخر بها بقومه . فسر الصديق بهم سروراً عظيماً . واقبلت بعدها قبائل (مذحج) ورئيسهم قيس ابن هبيرة المرادي ففعل كالاول . ثم قبائل (طي) امامها حارث بن مسعد الطائي . ثم قبائل (الازد) يقدمها جندب بن عمرو الدوسي . ثم قبائل (بنو عبس) واميرهم ميسرة بن مسروق العبسي . ثم بنو (كنانة) وعليهم عيثم بن اسلم الكناني . وتقاطرت قبائل اليمن وما اليها من نجد واليمامة ارسالاً فاستعظم الصديق ذلك منهم واثنى على شهامتهم ومبادرتهم لطاعته وشكر الله تعالى على ذلك . فخيمت تلك القبائل كلها حوالي المدينة المنورة وطال مقامهم فشكوا قلة العلف لمراكبهم وجدوبة الارض وانهوا ذلك الى الصديق . وكان غرضه من ذلك تلاحق القاصية من احياء العرب فاذ تبين تضرر القوم بطول المقام امر بالنفير واشرف على التعبية بنفسه . ودعا يزيد ابن ابي سفيان وامّره على الف فارس من العامة . ثم دعا ابن عامر العامري وعقد له راية على مثل ذلك وكان من الفرسان المشهورين . واوعز اليه مع عراقة مجده وعلو حسبه بان يكون في مقدمة يزيد بن ابي سفيان وينصاع لاوامره ولا يخرج عن مشورته وحضور رأيه . فلبس الجيش سلاحه وركب خيله وسار الصديق معهم ماشياً الى ثنية الوداع غربي المدينة المنورة

من طريق الشام . واوصى يزيد بن ابي سفيان بوصية محكمة ، كل جملة منها اصل من اصول السياسة الحديثة وقاعدة من قواعـد العمران يقول فيها : « لاتضيق على نفسك ولا على اصحابك في المسير . ولا تغضب على قومك وشاورهم في الامر . واستعمل العـدل . وابعد عنك الظلم والجور . فانه ما افلح قوم ظلموا . ولا نصروا على عدوهم . واذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا شيخاً ولا ولداً ولا امرأة . ولا تعقروا بهيمة الا بهيمة المأكول . ولا تغدروا اذا عاهدتم . ولا تنقضوا اذا صالحتم . وستمرون على قوم في الصوامع رهباناً يزعمون انهم ترهبوا في الله فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم . »

فمن تأمل هـذه الجمل البليغة وغيرها من وصايا الخلفاء الراشدين لأمراء حروبهم علم جلياً محاسن هذا الدين الذي هم مؤسسوا اركانه ومشيدوا بنيانه . وان انتشاره ذلك الانتشار المدهش الغريب وانتصار الفاتحين في جميع مواقع الحروب وظهورهم على الجموع المتألبة وثلهم لعروش القياصرة والاكاسرة مع بعد مابين العددين عند المقابلة ، لم يكن الا نتيجة العمل بتلك القواعد في الحل والارتحال بعد ارادة الله بظهوره على الدين كله . ولو ان الاخلاف او الخلائف الذين جاؤا بعدهم حذوا حذوهم ونسجوا على منوالهم واستضاؤا بلمعة من ذلك النور ، لما وصلت الدول الاسلامية الى مانراها عليـه اليوم اختلالاً واعتلالاً ولا سلط الله عليهم من لا يرحمهم ولا يخافه . ولكن تلك الجمل نقرأوها في صحائف التاريخ والسير ونفهم معـانيها ونحن بمعزل عن العمل بموجباتها . ومن اسباب ذلك الاختلال والاعتلال اختلاف الشعوب الاسلامية وقيام بعضها على بعض طمعاً بالملك والامارة !. أيقظ الله المسلمين لجمع شملهم وتوحيد كلمتهم .

قال الواقدي : « ولما ودعهم الصديق ودعا لهم جد القوم في المسير . فقال ربيعة بن عامر : ماهذا السير يا يزيد . وقـد امرك امير المؤمنين ان ترفق في سيرك . فقال يزيد : يا عامر ان ابا بكر سيعقد العقود ويرسل الجيوش فاردت ان اسبق الناس الى الشام فلعلنا نفتح فتحاً قبل تلاحق الناس . فيجتمع

بذلك ثلاث خصال : رضاء الله ورضاء خليفتنا وغنيمة نأخذها . فقال ربيعة : فسر الآن ولا حول ولا قوة الا بالله » .

فروّح الله تلك الارواح الطاهرة الزكية . وامدنا بنفحة مما كانوا عليه . وهدانا الى سلوك سبيلهم . ويا لله ما ابدع ذلك الجواب الذي اجاب به يزيد ابن ابي سفيان الصحابي وما انبل مقصده وازكى نيته في تقديم رضاء الله ورضاء الخليفة على اصابة المغنم . وما احسن الدين والدنيا اذا اجتمعا .

قال : « وجدوا في السير على وادي القرى ليخرجوا على تبوك ثم على الجابية الى دمشق . واوصل قوم من متنصرة اليمن خبر خروج المسلمين من المدينة المنورة الى الملك هرقل صاحب ايليا وهو الاقليم الفاصل بين الشام والحجاز . فجمع بطارقته في عسكره وقال لهم : يابني الاصفر ، ان دولتكم قد عزمت على الانهزام . ولقد كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . وتقيمون الصلاة وتؤتون الزكاة التي امركم بها الآباء والاجداد والقسس والرهبان . وتقيمون حدود الله التي امركم بها الانجيل . لاجرم انكم ما قصدكم ملك من ملوك الوشاة ونازعكم على الشام الا وقهرتموه . ولقد قصدكم كسرى بجنود فارس فارتدوا على اعقابهم . والآن قد بدلتم وغيرتم وظلمتم وجرتم . وقد بعث اليكم ربكم قوماً لم يكن في الامم اضعف عندنا منهم . وقد رمتهم الينا شدة الجوع . وانى بهم الى بلادنا ومعهم صاحب نبيهم ليأخذوا ملكنا من ايدينا ويخرجونا من بلادنا . فقالوا ايها الملك نردهم عن مرادهم ونصل الى مدينتهم ونخرب كعبتهم بعددنا وعددنا . فلما سمع كلامهم وتبين صدقهم جرد منهم ثمانية آلاف فارس من اشجعهم . وامر عليهم خمسة من بطارقته وهم : البطاليق واخوه جورجيس . وصاحب شرطته . ولوقاً بن تمعان . وصليب بن حنا صاحب غزة . وكان هؤلاء الخمسة يضرب بهم المثل في الشجاعة والبراعة في فنون الحرب . ثم تدرعوا وصلت لهم الامة صلاة النصر وبخروهم ببخور الكنائس ورشوا عليهم ماء المعمودية . وساروا مستدلين بالعرب المتنصرة الذين اخبروهم اولاً بخروج المسلمين قاصدين تبوك . وكان

سبقهم المسلمون اليها بثلاثة ايام . وفي اليوم الرابع بينما المسلمون عازمون على الرحيل اذ اقبل عليهم جيش الروم . فلما رأوهم اخذوا على انفسهم امرهم . فكمن ربيعة بأصحابه الالف واقبل يزيد باصحابه الالف ووعظهم وحضهم على الصبر . وبينما هو يعظ الناس اذا بطلائع الروم تتلوها جيوشهم فلما نظروا الى قلة العرب طمعوا فيهم ظناً ان ليس وراءهم احد . والتحم القتال بينهم حتى خيل ان الكفار التهموهم . فخرج ربيعة بن عامر بالكمين وحمل عليهم فانكسر الروم . والقى الله الرعب في قلوبهم فولوا الادبار . وكان جملة من قتل منهم الفاً ومائتين ومن المسلمين مائة وعشرون على مارواه الواقدي» .

ثم رجع الروم املاً بالنصر . وفراراً من وصمة الغلب . ودارت بينهم وبين المسلمين محاورات طويلة في الصلح لفهم مقاصد المسلمين في طروق بلادهم ووقع في اثناء ذلك اخبار بعض قسيسهم لربيعة بن عامر بجملة من اوصاف نبينا صلى الله عليه وسلم وخصائص امته وشريعته مما يجدونه في كتبهم . ولم يذعن الكفار لشروط المسلمين فعادت الحرب كما كانت . وبينما الحرب تدور رحاها اذ وصلت نجدة ارسلها الصديق مع شرحبيل بن حسنة احد كتاب الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم . فاشتدت قلوب المجاهدين بهم واوسعوا العدو قتلاً وسبياً حكى الواقدي انهم استأصلوا في هذه المعركة ثمانية آلاف رجل عن بكرة ابيهم . ثم جمعوا الغنائم وارسلوها الى الصديق ومعها خمسماية فارس برئاسة شداد بن اوس . واستبقوا السلاح وعدة الحرب . فوصلوا الى المدينة مبشرين بالفتح والغلب . فسر الصديق سروراً عظيماً . وعلم انها باكورة فتح الشام .

ثم كتب كتاباً الى اهل مكة يستدعيهم فيه للجهاد . ويقول : ان آية انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله نزلت فيكم وانتم احق بها واهلها . وكان رسوله اليهم عبدالله بن حذافة . فلبوا سراعاً . فخرج الصحابي عكرمة ابن ابي جهل في بني مخزوم وثقيف من اهل مكة عددهم خمسماية . وكتب الصديق الى الطائف فورد عليه منها اربعماية رجل قائدهم

سعيد بن خالد بن سعيد بن العاص . ولما تكاملوا دعا الصديق عمرو بن العاص وولاه على جيش اهل مكة والطائف وهوازن وبني كلاب وقال له : اني مرسلك الى فلسطين وامره ان يشاور ابا عبيدة بن الجراح ولا يخرج عن رأيه . وان ينجده ويستنجد به ويكون احدهما ردءاً للاخر . وامر الناس بالمسير فساروا تسعة آلاف وتقدم اهل مكة فبنو (كلاب) و (طي) و (هوازن) و (ثقيف) وخرج المهاجرون والانصار تحت رئاسة امين هذه الامة ابي عبيدة بن الجراح قاصداً ارض الجابية ملتحقاً بالجيش المتوجه الى الشام ولما ساروا دعا الصديق خالد بن الوليد وجهز له جيشاً من قبائل لخم وجذام وامره بالمسير الى ارض العراق وفارس واوصاه الوصايا البالغة كما اوصى امراء جيوش الشام . فسار يؤم العراق واول ما عن له مدينة القادسية فرام فتحها وتقاتل مع اهلها اياماً ثم عرض للصديق ما اوجب استرجاع خالد بن الوليد ليمد به وبجيشه ابا عبيدة بن الجراح فرجع قبل فتح القادسية وطوى حزون بلاد العرب وسهولها . حتى التحق بالجيوش القاصدة للشام . واخذوا في فتح القرى والمدن وتعميم الدعوة المحمدية ونشر احكامها وحدودها على كل من دخل تحت حكمهم . جارين على الوصايا التي اوصاهم بها امير المؤمنين .

وكانت الوقائع الاولية التي وقعت بينهم وبين مشركي اطراف الشام تؤيد عزائمهم وتقوي قلوبهم بفتح الشام وتؤكد ضعف الروم مع كثرتهم عن مقاومة المسلمين مع قلتهم . فطمحت نفوسهم للتقدم . وجد خالد بن الوليد حتى بلغ بصرى من اواسط حوران . وهي المعروفة اليوم ببصرى اسكي شام وهي عبارة عن قرية بنيت على خرابات المدينة القديمة . وكانت عساكر الروم قد تحشدت فيها بكثرة وعليها رجل اسمه رومانوس .

سار عمرو بن العاص يريد فلسطين وايليا وسبق خبره مع بعض الساقطة الى هرقل فجمع وجوه دولته وقص عليهم ذلك وافضى اليهم بما عنده من اثارة العلم عن رجال المسلمين . وما يفتح على ايديهم وحرضهم على قتالهم .

ولما طرق عمرو بن العاص اوائل فلسطين وجد الروم له بالمرصاد في عدد كثير . فاستشار اصحابه . فتباينت آراءهم فمنهم من اشار بالرجوع الى حرز منيع حتى يلحق المدد . ومنهم من اختار مناجزة العدو . فانحط رأي القوم على ذلك . وقسم عمرو الجند وعقد الرايات على الترتيب . والتحم القتال وابلى عبد الله بن عمر الفاروق رضي الله عنهما البلاء الحسن وفعل الضحاك بن مسروق والحارث بن هشام الافاعيل تحت رايته . وكذلك سعيد بن العاص اخو عمرو . ووقعت اذ ذاك وقائع هائلة اسفرت عن نصر المسلمين وفتح فلسطين فجمع عمرو بن العاص الغنائم وارسلها مع كتاب الى ابي عبيدة بن الجراح مع ابي عامر الدوسي . فقدم عليه في اطراف الشام . وكذلك كتب خالد بن الوليد الى ابي بكر مع ابي عامر المذكور . فاستخبره ابو بكر عن حال ابي عبيدة الجراح فاخبره انه مشرف على اوائل الشام ولم يجسر على دخولها . وان جيوش الروم اجتمعت حول اجنادين فرأى الصديق ان ابي عبيدة لين العريكة لايصلح لقتال الروم فكتب الى خالد بن الوليد يأمره بالرجوع الى الشام وجعله امراً على ابي عبيدة ومن معه . وبعث الكتاب مع نجم بن مقدم الكناني فوجد خالداً قد اشرف على فتح القادسية فما وسعه الا الامتثال وسار الى الشام . وفتح في طريقه اركه وكانت هي الفاصلة بين الروم والعرب . وكثيراً ما نهب الروم فيها قوافل العرب . وصالح اهل السخنة . وانتقص اطراف حوران . ووجه قبله عامر بن الطفيل بكتاب الى ابي عبيدة فبلغه عامر الكتاب واعلم ابو عبيدة المسلمين بعزله وولاية خالد وكان ابو عبيدة وجه جيشاً من اربعة آلاف فارس مع شرحبيل بن حسنة الى بصرى وكان عليها (بطريق) من اعاظمهم وعلمائهم اسمه رومانوس . وكان من الحكماء الخبيرين . وكان مما علمه ان اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم سيغزون بلادهم ويفتحونها . وان دينهم حق . وسيظهر على الدين كله . فتقدم الى قومه بالنصيحة في قالب التحذير والتخويف من عواقب حربهم المسلمين معتمداً في ذلك على ما عنده من العلم والحكمة محتجاً بما وقع لصاحب ايليا

وجيوشه الكثيفة مع عمرو بن العاص وشرذمته وبما جرى لاهل اركة والسخنة وتدمر وحوران مع خالد ، وانه دافع بجيشه في نحورهم . فاعل بهم مافعل بمن قبلهم . فخاصوا حيصة حمر الوحش وغضبوا وهموا به فقاطلهم بانه يريد اختبارهم وعزموا على الحرب وخرجوا وتصاف الجمعان والتحموا . وفي اثناء الملحمة وصل خالد بن الوليد بجيشه .

حكى الواقدي انه لما اجتمعت جيوش المسلمين اقبل خالد على شرحبيل ولامه في التغرير بمن معه والقائهم في جيش لهم متحصن بمبناه بصرى ، فتنصل شرحبيل بانه مأمور من ابي عبيدة فصدقت فراسة الصديق فيه من لين العريكة وعدم التبصر بمكايد الحروب وغوائلها ومواقعها

وعاود رومانوس اصحابه بعد مقدم خالد بالارشاد وحذرهم المغبة فثاروا عليه وهاجوا والزموه بيته واستعاضوا عنه بغيره ، فدبر مكيدة لتسليم المدينة نكاية لقومه .

وذلك انه حفر نقباً في سور المدينة وخرج منه الى معسكر المسلمين واشار على خالد بارسال من يثق به للتسلم . فارسل معه جماعة منهم عبدالرحمن بن ابي بكر وضرار بن الازور [اشتهر هذا الاخير بنزوله الحروب عارياً بدون ثياب] . فدخلوا قصر رومانوس والبسهم من سلاحه وتفرقوا على جوانب المدينة الاربعة وفتحوا الابواب فهجم المسلمون واعملوا السيف فيمن وجدوه فطلبوا الامان فأمنهم خالد وأسلم رومانوس بمحضر رؤساء قومه واحبار ملته ايقاظاً لهم . وحضر بعد ذلك فتح الشام وولي على بصرى في خلافة عمر بن الخطاب . وقرر خالد اهل بصرى على اداء الجزية وولى عليهم والياً وكتب الى ابي عبيدة يأمره باللحوق به الى الشام ، وكتب الى الصديق يبشره بالفتح ويخبره بالتوجه الى دمشق . ثم سار حتى وصل الى موضع يعرف بالثنية فركز به راية النبي صلى الله عليه وسلم التي يقال لها العقاب فسميت ثنية العقاب ولم تزل معروفة بهذا الاسم الى الان . وارتحل منها الى الدير المعروف الى اليوم بدير خالد ، وكان اهل الاطراف قد انحازوا

الى دمشق للمحافظة عليها والتحصن بها وكان اصحاب الخيل منهم اثنى عشر الف فارس .

ووقع في بعض سياقات ابن عساكر نقلاً عن ابن اسحق « انه اجتمع في فتح بصرى خالد بن الوليد وابو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن ابي سفيان وانهم رابطوها حتى صالحت على الجزية . وكانت اول مدائن الشام فتحاً » .

وكان على دمشق من قبل هرقل قائدان عظيمان يدعى احدهما قلوس والآخر عزازير وكانا متنافسين على الامارة .

قال الواقدي : « وبلغني ان الروم كانوا يخرجون كل يوم من باب الجابية على مقدار فرسخ ينتظرون قدوم ابي عبيدة . فما راعهم الا هجوم جيوش خالد من نحو الثنية » . وجرت مصادمات ومقابلات عنيفة كان الروم في غالبها متحصنين بالاسوار حتى لحق جيش ابو عبيده فقوى هم المجاهدين وكان لهم نعم الازر . وكانت العداوة بين قائدي الروم آخذة في الاستحكام يوماً فيوماً الى ان اسرا معاً . ويقال ان حصار دمشق دام سبعين ليلة وكان الروم كلما انهزم لهم جيش بادروا الى اغلاق ابواب المدينة في وجوه المسلمين الى ان ارتأى خالد ان ينزل هو على الباب الشرقي وينزل ابي عبيدة على باب الجابية ويشددا الحصار عليهم . ثم دعا خالد القائدين عزازير وقلوس وعرض عليهما الاسلام فأبيا . ثم بعده قتلا

ولما رأى الروم اشتـداد خناق الحصار عليهم في البابين المذكورين كاتبوا هرقل بانطاكية يخبرونه بما اتفق للمسلمين من فتح البلدان وضرب الجزية وقتل القائدين ويلحون عليه في طلب المدد . فجهز الجيوش بقيادة وردان صاحب حمص وكان واحد الآحاد في الشجاعة . واوعز اليـه انه اذا وصل جلبك ينفذ الى من باجنادين من جيوش الروم ان يتفرقوا على المعابر ويدركوا المحافظة ويكونوا سداً مانعاً دون اتصال جيوش عمرو بن العاص الضاربين بفلسطين بجيوش الشام . وكان خالد يشدد الحصار على دمشق الى ان وافاه خبر

تجمهر الروم باجنادين وخشي قطع حبل الاتصال بينه وبين من بفلسطين من المسلمين والحيلولة بينه وبين المددفاستشار ابا عبيدة في التنفيس عن دمشق والاخفاف الى اجنادين حتى اذا امنوا الغائلةاعادوا الكرة اليها . فلم يستصوب رأيه واتفقوا على تجريد سرية من الجيش بامارة ضرار بن الازور فجردوها وسار بهاضرار فالتقىمع وردان وجيوشه الجرارة ببيت لهيا وهي قريةقريبةمن دمشق . ووقعت بينهم ملاحم اسر فيها ضرار بعد ما اثخن جراحاً ووصل الخبر الى خالد بدمشق فشق عليه اسر ضرار ورأى ان ارساله اياه لطوبيح في الهلكة لكثرة الروم فاستشار ابا عبيدة فاشار عليه بان يبقي في الباب الشرقي احد الرجال ممن يثق به ويدرك سرية ضرار لتخليصه من الاسر فخلف ميسرة بن مسروق العبسي في جماعة واستنفر الباقين وخالطوا جيش الروم ببيت لهيا واستخلصوا ضراراً في حكاية طويلة . وكانت خولة بنت الازور اخت ضرار ودفينة باب توما كما سنذكره حاضرة في تلك الوقائع . واتت في قتال الروم بعد اسر اخيها بما يستكثر مثله من ادهى الرجال فما القول في عصرنا هذا الذي يتخلف فيه بعض الرجال عن الجهاد .

ولما أباد خالد جيوش وردان واستخلص ضراراً عاد الى مكانه من الباب الشرقي لمحاصرة دمشق . اما وردان فقد سار بعسكره وما انجده به هرقل الى اجنادين فارسل شرحبيل من بصرى عباد بن سعد الحضرمي الى خالد يخبره بتألب جيوش الروم بأجنادين . فاستشار أبا عبيدة فقال له ان امراء المسلمين متفرقون . هذا عمرو بن العاص بفلسطين وشرحبيل ببصرى ومعاذ ابن جبل بحوران ويزيد بن ابي سفيان بالبلقا والنعمان بن المغيرة بارض تدمر واركه . فالرأي عندنا ان نكاتبهم بموافاتنا حتى نصدم العدو صدمة واحدة . فكتب خالد الى جميع الامراء يخبرهم باجتماع تسعين الفاً من الروم بأجنادين ويأمرهم بارسال الاعنة اليها فهي نقطة الاجتماع . وقوض رضي الله عنه الخيام وجمع الغنائم وشد الهوادج للرحيل عن دمشق وفك حصارها. فظن الروم ان المسلمين منهزمون فتبعوهم الى خارج المدينة وفاجأوهم بالحرب عند المرج واسروا

عدة من نساء المسلمين ونهبوا مؤخرة الجيش . فرجع المسلمون واقتتلوا مع الروم واسترجعوا نساءهم واسلابهم وقصدوا اجنادين فوصلوها . واجتمعت هناك جيوش المسلمين وامراؤهم فتراءى الجمعان . واحتدمت النيران . وكانت اياماً مشهودة أباد فيها المسلمون الالوف المؤلفة من الروم وكسروا جموعهم ، وغنموا منهم صلبان الذهب والفضة وتاج القائد وردان ، بعد ان اسر وضرب ضرار بن الازور عنقه . وكان ابتداء الوقعة ليلة ست خلت من جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة قبل وفاة الصديق بثلاث وعشرين ليلة ، وكان عدد الذين حضروا فتح أجنادين من المسلمين سبعة وثلاثين الف فارس وخمسمائة وعدد الروم تسعين الفاً كما قدمنا .

ولما تم فتح أجنادين ارسل خالد كتاباً الى الصديق يخبره باجتماع الروم واضطرار المسلمين لمبارحة دمشق وما اتيح لهم من الفتح والغنم ، وانهم آمون دمشق ، وكان رسوله عبد الرحمن بن حميد فورد المدينة بشيراً . وسر الصديق بذلك وطار الخبر في جزيرة العرب وبلغ مكة واقصى اليمن ، فهرع اهل مكة للجهاد وعليهم ابو سفيان بن حرب والقيداق بن وائل ، فنعهم الصديق اولاً باشارة من عمر بن الخطاب ، ثم الح ابو سفيان في الطلب فأجازهم ، ووفد اهل اليمن وعليهم عمر بن معدي كرب ومالك بن الاشتر النخعي . ولما اجتمعوا كتب الصديق الى خالد يهنئه ويحضه على فتح دمشق وان يخف بالمسلمين بعدها الى انطاكية ، ويقول له : يقدم عليك ابطال اليمن ومكة وناهيك بهم ، ودفع الكتاب لرسول خالد .

أما خالد فانه ولى وجهه شطر دمشق وكان اهلها قد استنشقوا أخبار تلك الوقائع المشؤومة التي اودت بوردان وجيوشه . فأعدوا ما استطاعوا من قوة المدافعة . واقبل خالد وقد تضاعفت جيوشه بما كان مع ابن العاص ومعاذ وعامر وشرحبيل ، ولما وصل الى الدير المعروف به وبينه وبين دمشق اقل من ميل ترك به النساء والذراري والمغانم . ودعى بالامراء فانفذ أبا عبيدة باصحابه الى باب الجابية وأوصاه بعدم الاستئمان للعدو ، وانفذ يزيد الى باب

الصغير وانفذ شرحبيل الى باب توما وانفذ ابن العاص الى باب الفراديس وانفذ قيساً الى باب الفرج . الذي هو بين السور بين اليوم . ونزل خالد بجيش الزحف في الباب الشرقي وامر ضراراً في الفي فارس بان يجولوا ويجوسوا خلال المدينة ويكونوا الواسطة بين الامراء . وما لبثوا ان ورد رسول الصديق بكتابه . فتهيج خالد بقدوم عمر بن معدي كرب ومالك بن الاشتر وابي سفيان بن حرب . وشدد النكاية في حصار المدينة والاخذ بخناقها الى ان كان ذات ليلة تواطأ فيها جماعة من وجوه المدينة وعقلائها على ان يرسلوا ابا عبيدة الجراح صاحب باب الجابية ويطلبوا منه الامان . فتقدموا اليه ليلاً وطلبوا منه الامان والذمام على ان يبقي لهم كنيسة ماريوحنا المعمدان وكنيسة مريم وكنيسة حنا وكنيسة النيل وكنيسة الندار . فأجابهم ابو عبيدة . وكتب لهم عهد الأمان والصلح . ولم يوقع فيه . ولا ثبت شهادة (لان امضاء الصلح يتوقف على توقيع الخليفة) . وتسلموا الكتاب منه . وقالوا له امض بنا الى البلد . فركب ابو عبيدة في خمسة وثلاثين من وجوه الصحابة ودخلوها .

وكان من غريب الاتفاق انه بينما خالد يوالي القتال وتشديد الحصار من جهته في نفس الليلة التي صالح فيها ابو عبيدة . كان في جهته قس يدعى يونس ابن مرقس وكانت داره ملاصقة للسور حيث يرى ظهور المسلمين فنقب السور واقبل على خالد وطلب الامان لاهله وماله على ان يمكنهم من الدخول فأمنوه وادخل معه مائة رجل واوصاهم بفتح الابواب ودخل خالد وجيشه واوقعوا بالروم بغتة وتوغلوا في المدينة الى ان اجتمع الجيشان . جيش ابي عبيدة وجيش خالد في نصف كنيسة مار يوحنا هـذا فاتحاً بالسيف وهـذا مصالحاً فقال ابو عبيدة لخالد : قد فتحنا المدينة صلحاً وكفى الله المؤمنين القتال . فانكر خالد ذلك وقال: وما الصلح لا اصلح الله بالهم . وقد فتحناها عنوة وخضبنا سيوفنا من دمائهم . وعدها من ابي عبيدة هفوة انتجها تغفله وعدم تبصره وعنفه عن امضاء الصلح بدون رأيه ولا مشورته وهو نائب الخليفة وكثر اللجاج بينهما . وكان اكثر الصحابة على رأي خالد حباً بنفع المسلمين من

الغنيمة ، واصر كل على رأيه حتى خشي سوء العاقبة ، واجتمع الامراء للمناظرة فقر رأيهم على امضاء الصلح ، جمعاً للكلمة وحقناً لدماء المسلمين ومحافظة على العهد ، كما اوصاهم الصديق ، واستئلافاً لبقية الروم واحتفاظاً على الجيوش لما وراء دمشق من انطاكية وغيرها ، على ان يتحاكما الى الصديق وينتظرا رأيه .

وكان ابو عبيدة قد كتب الى الصديق بعد خروج خالد في اثر المستأمنة من الروم يخبره بالفتح وبما جرى بينه وبين خالد ، وانفذ بالكتاب عقبة بن عامر الجهني الصحابي فقدم المدينة ووجد الصديق قد مات وبويع بعده عمر بن الخطاب فقرأ الكتاب وبشر الصحابة بالفتح ورد الرسول بكتاب الى ابي عبيدة بتوليته وعزل خالد وتقرير الصلح، فرجع الرسول الى ابي عبيدة قبل رجوع خالد بالسرية ، فاستكتمه ابو عبيدة خبر وفاة الصديق وكتم توليته وعزل خالد ، ولما رجع خالد الى دمشق لم يخبره ابا عبيدة فكتب كتاباً الى الصديق مع عبدالله بن قرط فورد المدينة المنورة بالكتاب ، فاذا عنوانه من خالد الى الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فانكر ذلك عمر وسأل ابن قرط: الم تبلغكم وفاة ابي بكر وعزل خالد وتولية ابي عبيدة مكانه؟ فقال لا ! فتبين في وجهه الغضب فجمع الناس وخطب فيهم بعزل خالد وتولية ابي عبيدة مكانه ، وان ذلك ليس لموجدة على خالد ولا لهفوة صدرت منه، وانما هو رعاية للاصلح وابقاء على اموال المسلمين لان خالداً كان مبذراً متلافاً ، ثم ثنى بكتاب الى ابي عبيدة يؤكد له توليته وتقرير صلحه ، وانفذ بالكتاب عامر ابن ابي وقاص اخا سعد وامره ان يجمع الناس ويقرأ عليهم الكتاب ، وارسل معه شداد بن اوس بعد ما صافحه وعهد اليه باخذ البيعة للخلافة على من بدمشق ولما وصلاها وقرأ الكتاب حزن الناس لموت ابي بكر وبايعوا رسول عمر الفاروق بالخلافة ولم يبد خالد الا الامتثال لامره .

قال الواقدي : وكان خالد بعد عزله اشد نكاية واصعب مراساً لمصلحة المسلمين ، وكانت وفاة الصديق في الليلة التي فتحت فيها دمشق وعمره ثلاث

وستون سنة وكانت بيعة عمر بالشام لثلاث خلت من شهر شعبان سنة ثلاث عشرة من الهجرة .

ولما تم ما اراد الله تعالى المسلمين على الروم من الظهور . ومدالاسلام رواقه على ربوع الشام ضربوا الجزية على جميع يهودها ونصاراها ممن لم يدن بالاسلام بمقتضى كتاب الله وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم . وقد شرط اهل الذمة على انفسهم شروطاً التزموا الوقوف عندها في مقابلة حفظ دمائهم واموالهم واقامة بعض شعائر دينهم على كيفية مخصوصة وكتبوا في ذلك كتاباً الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب فزاد فيها اشياء . فكان هو المؤسس لشروط اهل الذمة فنسبت اليه فقيل شروط عمر والمعاهدة العمرية وصارت نصاً يعمل به في معاملة هذا الصنف في الشريعة الاسلامية واليك نص هذا الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعمر بن الخطاب امير المؤمنين من نصارى مدينة دمشق وما جاورها من انطاكية وغيرها . انكم لما قدمتم علينا سألناكم الامان لانفسنا وذرارينا واموالنا وشرطنا لكم على انفسنا ان لا نحدث في مدينتنا دمشق ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا نحيي منها ما كان في خطط المسلمين ولا نمنع كنائسنا ان ينزلها احد من المسلمين في ليل ولا نهار وان نوسع ابوابها للمارة وابن السبيل وان ننزل من مر من المسلمين ثلاثة ايام نطعمهم فيها ولا نواري في منازلنا ولا في كنائسنا جاسوساً . ولا نكتم غشاً للمسلمين ولا نعلم اولادنا القرآن . ولا نظهر شركا ولا ندعو اليه احداً ولا نمنع احداً من ذوي قرابتنا الدخول في الاسلام ان اراد وان نوقر المسلمين ونقوم لهم في مجالسنا اذا ارادوا الجلوس ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم بقلنسوة ولا عمامة ولا فرق شعر . ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكنى بكناهم . ولا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا . ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع خمراً وان نجز مقادم رؤسنا وان نلزم ديننا حيثما كنا . وان نشد زنانير على اوساطنا ولا نظهر الصليب على كنائسنا ولا نظهر صلباننا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين

ولا في اسواقهم ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا الا ضرباً خفيفاً ولا نرفع اصواتنا مع موتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم » انتهى .

قال عبد الرحمن بن غنم الصحابي الجليل وهو حامل الكتاب المذكور الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب لما اوصلت الكتاب الى الخليفة زاد فيه : ولا نضر باحد من المسلمين ، شرطنا لكم ذلك على انفسنا واهل ملتنا وقبلنا عليه الامان فان نحن خالفنا شيئاً مما شرطناه لكم وختمناه على انفسنا فلا ذمة لنا وقد حل لكم منا ما حل من اهل المعاندة والشقاق . وقد اتخذ علماء الدين وحملة الشريعة هذه الشروط التي قررها الفاروق واجرى اهل الذمة عليها قانوناً يرجع اليه في معاملتهم كل حين وفرع الفقهاء وشراح الآثار واهل النظر من المفكرين عليها تفاريع كثيرة يقتضي تجدد الكوائن ومراعاة الاوفق في كل جيل وطبق الخلفاء وولاة الامر الذين اتوا بعد ذلك العهد الاحكام العملية على اهل الذمة وفقاً لتلك الشروط ولم يزل العمل بها يضعف بمقدار ضعف السلطة الاسلامية وتناقص الحدود الشرعية وتناسيها وغلبة القوانين الوضعية عليها الى ان ماتت فيها مات من الاحكام . على انه لم يعدم من ملوك الاسلام من اوقف اهل الذمة عند الحدود التي حدها الفاروق والزمهم بعدم مجاوزتها ومن هؤلاء الملوك الصالح المجاهد الناصر السلطان نور الدين الشهيد فانه بعد ان دانت له الاقطار الشامية بالطاعة اراد ان يقف بالامم النصرانية وغيرها عند الحد الشرعي فجمع علماء المسلمين في وقته وبطارقة النصارى وعلماءهم من اليعاقبة والملكية والنسطورية وغيرهم في مجلس عقد في دار المدرسة التي بناها الملك العادل وجدد معهم شروطاً مستمدة من الشروط العمرية على ما يناسب وقتهم والتزموا العمل بها والجري على مقتضاها وبقي الحال على ذلك الى اواسط الدولة الايوبية حيث اختل شيئاً فشيئاً وقد عثرنا على نسخة من تلك الشروط كتبت في عهد السلطان المذكور وعليها امضاؤه وخطه وهي زينة مكتبتنا اليوم ولله الحمد ولولا خشية التطويل لاثبتناها برمتها

ولنعلم ان نسبة هذه الشروط الى سيدنا عمر بن الخطاب من حيث انه قررها وفصلها وزاد فيها ما اقتضاه اجتهاده توكيداً لاحكامها عملا بقوله تعالى (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) فلا يقال ان كثيراً من احكام اهل الذمة ورد في القرآن الكريم في غير آية وبين صلى الله عليه وسلم المشرع المعظم عدة احكام بفعله في حياته وباقراره كما وقع في غزوة بني النضير وبني قريظة وانزالهم على حكم سعد بن معاذ وصلحه مع اهل خيبر مما هو مفصل في كتب الحديث فلا حاجة لاعادته وفي كتاب اقضية النبي صلى الله عليه وسلم لابن فرح مولى الطلاع الاندلسي نبذة صالحة اكتفينا بالالماع اليها عن ذكرها لطولها .

وقد رأينا ان نتوسع في هذا الموضوع ونبث جميع ما يختاج في الصدر لرد المطاعن التي تحيك في نفوس بعض القاصرين فيما يتعلق بمعاملة المسلمين لاهل الذمة وما هو الا قصور نظر وحكم على العموم بما فعله بعض الامراء الظالمين الذين لم ينج منهم مسلم ولا معاهد وامثال هؤلاء لاتقوم اعمالهم حجة. ولا يحمل الاسلام (وهو بريء) تبعة اوزارهم .

ثم اطلعنا في كتاب اشهر مشاهير الاسلام لعلامة النقاد البحاثة المؤرخ رفيق بك العظم الدمشقي من مفكري معاصرينا الكرام في ترجمة خالد بن الوليد عند ذكر كتبه لاهل الذمة على كلام من انفس ماكتب في هذا الموضوع دل على اقتدار صاحبه الفاضل وتحقيقه في البحث . وشغفاً بتلك الافكار النيرة رأينا ان نزين كتابنا هذا وننقل كلامه بنصه وفصه . قال : اعلم ان هذه الكتب (يعني كتب خالد لاهل الذمة) وكل من اعطى من الصحابة من كتب العهد لاهل الذمة سواء كانوا في العراق او في الشام او غيرها كانت اصولاً ثابتة في معاملة اهل الذمة والعهد من الرعية غير المسلمين . وعهوداً مكينة في جباية الخراج استمر العمل بها مدة الخلفاء من بني امية . وصدراً من خلافة بني العباس حيث صار الناس غير الناس . واختلط السكان واتسعت اصول الجباية باتساع العمران في الخلافة العباسية . وعلى تلك الكتب بنى الفقهاء كثيراً

من القواعد في معاملة اهل الذمة وعلة ذلك الحديث الشريف الذي مر معنا ذكره ، وقد جاء فيه : (ان المسلمين يسعى بذمتهم ادناهم) بمعنى ان كل ما اعطاه احدهم من عهد لاسبيل لنقضه بل يؤكده الآخر . وهذه قاعدة من اسمى القواعد في معاملة اهل الذمة التي جاء بها الاسلام لحماية الامم التي تخضع لسيادة المسلمين من اذى ارباب السيطرة ومنعهم من كل من يريدهم بسوء ما داموا في عهد المسلمين وذمتهم لا يمالئون عليهم عدواً ولا يخونون لهم جواراً ويعطونهم مافرضوه على انفسهم ورضوا به من الجزية ، او اي نوع تراضوا عليه من المال في نظير هذه الحماية . وهو تناه في العدل في حكم الامم المغلوبة لم يسمع بمثله في تاريخ الدول الفاتحة لافي ذلك الزمن وما قبله ولا الآن ، بل جرت سنة كثير من الدول الفاتحة واخصها الدول المتمدنة الغربية ان تعامل غير ابناء بلادها وجنسها وملتها معاملة الرفيع للوضيع والغالب القاهر للمغلوب الضعيف ، لا ان تشترط على نفسها حمايتهم وتكتب لهم العهود . وقد كان المسلمون يومئذ في ابان عزهم وجدة دولتهم وبسطة جاههم وقوتهم ، ولم يعملوا بتلك القاعدة لوهن في نفوسهم او هيبة من عدوهم ، بل عملاً بشرعهم واتباعاً لامر دينهم . واي عصر من عصور الفتح كان انفذ هيبة وابسط قوة واعظم سلطاناً واكثر فتحاً من عصر امير المؤمنين عمر بن الخطاب . ومع هذا فقد كانت كل البلاد التي خضعت لسلطان المسلمين بالرضاء والاختيار يومئذ يأخذ اهلها من قواد الجيوش العهود التي تتكفل بحماية نفوسهم واملاكهم واعراضهم وحرية دينهم ، ولا يستطيع احد من القواد والعمال ان ينقض عهداً من تلك العهود الا اذا خان اصحابه المسلمين .

روى البلاذري في تاريخه (فتوح البلدان) ان عمير بن سعد الانصاري احد كبار الفاتحين . قدم على عمر بن الخطاب وقال له : ان بيننا وبين الروم مدينة يقال لها (عربسوس) وان اهلها يخبرون عدونا بعوراتنا ولا يظهرونا على عورات عدونا ولهم علينا عهد ، واستشاره في امرهم . فقال عمر : اذا قدمت فخيرهم ان تعطيهم مكان كل شاة شاتين ومكان كل بقرة بقرتين

ومكان كل شيء شيئين . فاذا رضوا بذلك فاعطهم اياه واجلهم عنها واخربها وان ابوا فانبذ اليهم واجلهم سنة ثم اخربها .

فانظر كيف ان عمر بن الخطاب ابى ان ينقض عهد هؤلاء القوم مع انهم نقضوا عهدهم وخانوا دولة المسلمين الحاكمة عليهم . وقد كان في وسع هذا الخليفة العظيم ان يبدد نظامهم ويريهم جزاء عملهم باجلائهم عن بلدهم سواء كان معهم منه عهد او لم يكن . لانهم خانوا المسلمين والخائن لا عهد له . ومع هذا فقد ابى عدله ودينه ان يجليهم عن بلدهم الا بعد تعويض ما يفقدونه من المال والمتاع ضعفين .

وما زال الخلفاء في كل عصر قائمين بالوفاء بعهود اهل الذمة فيما يتعلق بنوع الجزية ومقدارها كما جاء في كتب العهود التي بايديهم من الصحابة، حتى تغير السكان ودان معظمهم بالاسلام وتنوسيت تلك العهود وفقدت .

واما مايتعلق بحماية اهل الذمة حيث كانوا وحماية أموالهم واملاكهم ومعتقدهم فهذه لما كانت لا تفتقر الى امثال تلك الكتب اذ هي قاعدة اساسية في الاسلام، فقد استمر العمل بها حتى الآن .

ولما آلت الدولة الى بني عثمان توسع بعضهم بتلك المنح الاسلامية ، واخصهم السلطان محمد الفاتح بما اعطاه لبطريرك القسطنطينية من المنح التي تشبه ترتيب دولة مسيحية داخل الحكومة الاسلامية .

ولكن ذلك لا يحمل منه على غير التلطف والمجاملة وحسن الصنيع . غير ان عمله هذا غدا اشبه بحلقة صارت بعد ذلك سلسلة كثيرة الحلقات . واخذت الدول الاوربية من ذلك الحين تستزيد لمسيحيي الشرق من امثال تلك المنح حتى توسعوا في اسمها فسموها امتيازات . وما زالت تتشعب هذه الامتيازات وتعظم حتى تساوت الذمي والمعاهد وحتى زال من نفوس الحائزين لها اعتبار كونها منحاً نالوها من الدول الاسلامية عملاً بالشرع الاسلامي لا تمييزاً لاهل الذمة عن المسلمين ولا رهبة من دولة من الدول .

وكان من ذلك ان وقع الجفاء بين المسلمين وبين الطوائف المسيحية في بلاد

الدولة الاسلامية العثمانية . وفقدت من نفوس الفريقين الثقة المتبادلة من قديم الزمان ؛ بسبب تحرش الدول الاوربية بالدولة العثمانية بحجة المحافظة على حقوق المسيحيين الاقلية . التي تكفل بالمحافظة عليها الشرع الاسلامي نفسه ؛ الذي جعل لغير المسلم من الحقوق مثل ما للمسلم .

فما احلق بتلك الدول المتمدنة ان تعطي رعاياها المسلمين ولو جزءاً مما يعطي الاسلام لرعاياه المسيحيين ، حتى يتسنى للدول الاسلامية ان تطالب بحقوق رعاياها المسلمين !!.

ولكن هيهات هيهات ان تتغلب الفضيلة على الشهوات ويبلغ العدل عند الدول الاوربية مبلغه في الاسلام . انتهى

هذا كلام الاستاذ العظمي في هذا الموضوع وهو كلام نيز لا غبار عليه ومن احسن ما كتب فيه . وقد طرق الاستاذ هذا الباب مرة اخرى فكتب فيه كلاماً مسهباً في ترجمة عمرو بن العاص عندما ذكر ان عمر بن الخطاب كتب له كتاباً يستوصيه فيه باهل الذمة خيراً . وتعرض للخبر الذي حكاه ابن الجوزي والمقريزي من ان عمر امر بختم رقاب اهل الذمة بالرصاص ، وانحى عليها بالرد والانكار بادلة قاطعة وقال ان اعمال الخلفاء مع الذميين الثابتة في كتب التاريخ البالغة مبلغ الاستفاضة والتواتر تنافي امثال ذلك الخبر وان رواه ابن الجوزي ثم بين الاسباب التي تدعو الوضاعين الى وضع تلك الاخبار المنقوضة المتناقضة وحصرها في سببين الاول ما كان الذميين من التقدم في الدول الاسلامية وتقلد الوظائف العالية النبيهة فتدعوهم مجرأة الرئاسة احياناً الى التطاول على رجال الدولة وايغار صدور الفقهاء واصحاب المناصب العلمية فيحدث الحسد والمنافسة ويدعو ذلك الى وضع اخبار في الغض من قدرهم ووجوب حملهم على المركب الخشن تشفياً وانتقاماً .

قال وانما خصصوا عمر دون غيره بنسبة تلك الاخبار اليه لكونه قدوة فيما لم يرد فيه نص من الشارع . والجواب الثاني نزوع بعض الامراء الى اعنات الرعية من مسلمين ومسيحيين وارهاقهم عسراً بالضرائب . ولما لم يروا في

الشريعة مخرجاً يتوصلون به الى الاستبداد وتحميل الذميين فوق ماجوزه الشرع من الخراج والجزية كما حملوا المسلم . مهدوا لاغراضهم السبيل بالايعاز الى بعض مقربيهم وخدام شهواتهم من العلماء والاخباريين بوضع تلك الاخبار وقد اطال في هذا الباب فاتى بما يشفي ويكفي فمن اراد التوسع في البحث فليرجع اليه .

واتماماً لهذا البحث اردت ان اذكر بعض ما نقله صاحب تاريخ التمدن الاسلامي عن اهل الذمة واحكامهم في عصر الامويين تحت عنوان عهود اهل الذمة في اول الاسلام ما نصه: الذمة في اللغة العهد والامان والضمان واهل الذمة المستوطنون في بلاد الاسلام من غير المسلمين . قيل لهم ذلك لانهم دفعوا الجزية فأمنوا على ارواحهم واعراضهم واموالهم واكثرهم من النصارى واليهود وقد دعاهم القرآن (اهل الكتاب) نسبة الى الكتاب المقدس التوراة والانجيل وقد اثنى عليهم واوصى بهم خيراً . وفي الحديث النبوي اقوال كثيرة بمحاسن اهل الذمة وخصوصاً قبط مصر . فقد روي عن النبي عليه الصلاة والسلام انه قال : « اذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فان لهم ذمة ورحماً » اشارة الى ان ام اسماعيل ابي العرب منهم . وقال ايضاً . (الله الله في اهل الذمة) الحديث مشهور . وكان الخلفاء الراشدون اذا انفذوا جيشاً للفتح اوصوا قوادهم باهل الذمة خيراً ولاسيما النصارى ورهبانهم واذا جاءهم اهل المدن بالصلح صالحوهم وعاهدوهم على الحماية في مقابل مـا يؤدونه من الجزية عن رؤسهم . ويختلف مقدار الجزية ونوعها باختلاف الاحوال . وعلى مقتضى التراضي بين المسلمين واهل الكتاب . ولكل صلح شروط تختلف باختلاف البلاد ولكنها في كل حال تقضي على المسلمين بحماية اهل الذمة والدفاع عنهم . فاذا امتنعوا عن اداء الجزية امتنع المسلمون عن حمايتهم واذا عرض للمسلمين ما يمنع حمايتهم جاز لاهل الذمة الامساك عن الدفع انتهى كلامه .

وفي تاريخ الفتوح عهود كثيرة كتبت لاهل الذمة عاهدهم المسلمون فيها بحمايتهم وتسهيل اعمالهم في مقابل ما يؤدونه من الجزية ككتاب النبي صلى الله

عليه وسلم الى صاحب ايلة في العقبة والى اهل ذرح في اثناء غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة وذكر كتاب علي ابن ابي طالب رابع الخلفاء الراشدين في السنة المذكورة وقد اكتفينا في ذكرهما فمن شاء فليرجع اليهما في فتوح البلدان للبلاذري .

ونقل ايضاً انه اقتدى بالنبي عليه الصلاة والسلام قواده في اثناء الفتح بالشام ومصر والعراق وفارس وكتبوا العهود لاهل الذمة على نحو ما تقدم في مقابلة الجزية . منها عهد خالد بن الوليد الذي كتبه لاهل الشام وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى خالد بن الوليد اهل دمشق اذا مكن من دخولها اعطاهم اماناً على انفسهم واموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لايهدم ولا يسكن شيء من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله والخلفاء والمؤمنين لايعرض لهم الا بخير اذا اعطوا الجزية »

واليك صورة عهد ابي عبيدة بن الجراح الى اهل بعلبك ، بعد البسملة « هذا كتاب امان لفلان بن فلان واهل بعلبك رومها وفرسها وعربها على انفسهم واموالهم وكنائسهم ودورهم واهل المدينة وخارجها وعلى الروم ان يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلا ولا ينزلوا قرية عامرة ، فان مضى شهر ربيع وجمادى الاولى ساروا الى حيث شاؤا ومن اسلم منهم فله مالنا وعليه ما علينا ولتجارهم ان يسافروا الى حيث ارادوا من البلاد التي صالحنا عليها وعلى من اقام منهم الجزية والخراج شهد الله وكفى بالله شهيداً . »

وقس عليه عهود سائر الفاتحين مثل عمرو بن العاص وسعيد بن ابي وقاص وغيرهما من مصر والعراق وفلسطين وفارس وافريقية والاندلس وغيرها على انهم كانوا يشترطون في الجزية ان يؤديها اهل الذمة عن يد وهم صاغرون، اما شروط الصلح فكانت تختلف شدة ورفقاً باختلاف البلاد والاحوال التي فتحت بها فصلح مصر يختلف عن صلح الشام وصلح الشام يختلف عن صلح العراق . وبين ايدي الناس نسخ عهد يقولون ان النبي صلى الله عليه وسلم كتبه الى النصارى ورهبانهم يسمونه العهدة النبوية، والنسخ المذكورة تختلف

نصاً وتتفق مغزى ويقولون ان العهد المذكور كتب بخط الامام علي بن ابي طالب ووضع في مسجد النبي في السنة الثانية للهجرة وحملت منه نسخ الى الاديار. وكانت من ذلك العهد نسخة محفوظة في دير طورسينا نقلها السلطان سليم الفاتح العثماني الى الاستانة في اوائل القرن السادس عشر للميلاد بعد ان عرضها على مجلس شرعي اترجمتها الى اللغة التركية . وقد ابقوا النسخة التركية في الدير وصورة عن الاصل العربي مع عهود برعاية حقوقهم الواردة في نص ذلك العهد . وحملوا النسخة العربية الاصلية الى الاستانة انتهى بنصه

وقد نقل صاحب كتاب « منشآت سلاطين » لا فريدون بك نص العهدة النبوية كما نقلها جرجي زيدان صاحب تاريخ التمدن الاسلامي وعلق على نص الكتاب بقوله : والغالب في اعتقادنا ان النبي عليه الصلاة والسلام اذا كان قد اعطى عهداً للنصارى والرهبان عموماً فهو غير هذا العهد او لعله كان مختصراً وطولوه او تنوسي وضاع اصله فكتبوه من عندهم او ان النصارى وضعوا هذا العهد من عند انفسهم لغرض سياسي اذ لم يذكر خبر هذا العهد احد من مؤرخي الفتوح او غيرهم من كتاب المسلمين في الازمنة الاولى فضلا عما في عبارته وبعض نصوصه مما لم يكن معروفاً في صدر الاسلام وخصوصاً في السنة الثانية من الهجرة ثم قال : وقد اكتفينا بنقل عهد عمر لاهل الشام الذي اشار اليه مؤرخو المسلمين منهم الطرطوشي في كتابه سراج الملوك .



الامراء الذين حكموا دمشق من قبل الخلفاء الراشدين الى مبدأ الدولة الاموية واستقرار كرسي ملكهم بها

قدمنا ان عمر بن الخطاب عزل خالد بن الوليد المعين من قبل الصديق عن امارة الجيوش واستخلف اباعبيدة عامر بن الجراح بدلاً عنه . وسبب هذا العزل على ما حكاه الطبري عن ابن اسحق كلام تكلم به خالد فيما يزعمون ولا ندري ماهو . ولم يزل عمر نقداً عليه مدة خلافة ابي بكر . ومن

سخطه عليه وقعته بمالك بن نويرة في قتال اهل الردة باليمامة والقصة شهيرة .

فلما ولي عمر الخلافة كان اول ماتكلم به عزل خالد وقال : والله لايلي لي عملاً ابداً ، ولم يزل ابو عبيدة اميراً على الجيوش حتى تمت فتوحات الشام فقسمها عمر قسمين قسم تحت امارة ابي عبيدة وهو القسم البري اعني حوران وحلب وما بينها ، وولى على السواحل معاوية بن ابي سفيان وجعله تحت نظارة ابي عبيدة وفي دائرة نفوذه ، واستمر الحال كذلك الى ان مات ابو عبيدة في الطاعون الجارف سنة ثماني عشرة فولى مكانه معاذ بن جبل الانصاري الصحابي احد المجاهدين فمات ايضاً بالطاعون فولى مكانه عمرو بن العاص

وفي السنة نفسها قدم سيدنا عمر بن الخطاب الى الشام حتى انتهى الى بصرى في حوران فاشرف على احوالها وتفقد الامراء وقسم مواريث شهداء الطاعون

ولما وجه عمر بن الخطاب عمرو بن العاص لفتوح مصر اضاف ولايته الى معاوية بن ابي سفيان فاستقل بولاية الشام باجمعها فسد الثغور وساس الامور وجبى الاموال ونظم الاحوال واتخذ دمشق كرسي امارته ، ولما فيه من حلم وسعة فضل وحسن اخلاق تواردت العرب من الحجاز وغيره على دمشق فتوفر عمرانها وكثر ساكنوها واعان على ذلك طيب هوائها وكثرة ثمارها وخصب تربتها .

وبقي معاوية والياً او عاملا او اميراً على الشام اربع سنين من خلافة عمر ، ولما بويع عثمان بن عفان رضي الله عنه اقره على امارة الشام مدة خلافته ، ولما بويع بعده علي بن ابي طالب رضي الله عنه وجه عماله الى الاقطار وعزم على عزل بعض عمال عثمان ومنهم معاوية امير الشام لتشيعه لعثمان الذي يمت بالنسب الى بني امية .

حكى نقلة السير انه لما تمت البيعة بالحجاز للامام علي يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين ، تخلف عن بيعته قوم لانهم كانوا امويين اي لايريدون خروج الامر من بني امية ، منهم محمد بن مسلم والنعمان بن بشير وان الثاني اخذ قميص عثمان الذي قتل فيه ملطخاً بالدم وهرب الى الشام

يريد معاوية فوصله مستصرخاً به على قتلة عثمان مهيجاً على الاخـذ بثأره . وكان كثير من ضعفاء العقول ومأفوني الرأي يحملون تبعـة قتل عثمان على بني هاشم ، وفيهم علي كما يصرح به كلام معاوية الذي امره لرسوله الى علي وحاشاه من ذلك . لان اخلاصه لعثمان طول حياته وتردده عليه ايام حصاره واستشارته اياه في قتال المحاصرين وتفريقهم عن بابه وارسال ولديه وعبيده برسم الحراسة على بابه مما تواتر واستفاض اعدل شاهد واصدق برهان على تبرئة ابن ابي طالب من تلك الوصمة وكذلك عشيرته بنو هاشم .

وتحقيق المؤرخين في مسألة قتل سيدنا عثمان والقول الفصل فيها انه كان لين الجانب هش المغمز حليماً جداً غير اهل لماحل . ولم يرزق صلابة الفاروق ولا ثبات الصديق . ولما طالت خلافته اشرب كثير من الناس الملل منها وزاد على ذلك انه كان يحب قومه ويؤثرهم على غيرهم . وكثيراً ما قلد المناصب النبيلة وخصوصاً في الحج لاحداث من بني امية ومن لم تكن له مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم صحبة . مع توافر الصحابة وفيهم جحاجحة الرأي وصناديد الحروب واساتذة السياسة . ولطالما ارتكب امراؤه ما يحفظ اولئك السادة فيستغيثون بعثمان فلا يغاثون فينشأ عن ذلك حقد الشاكي لعدم انصافه والاخذ بحقـه وجرأة المشكو بالاغضاء عنه وارخاء العنان له وعدم كبحه . وكانت صدرت منه هنات من هذا النوع لعبدالله بن مسعود وابي ذر الغفاري وعمار بن ياسر المخزومي . فانتصر بنو هذيل وبنو زهرة لابن مسعود وبنو غفار واحلافها لابي ذر وبنو مخزوم لعمار بن ياسر . وسرت فيهم عـدوى الحنق على عثمان واستثقلوا وطأة خلافته واستوبأوا مرعاها .

ولما ولي عبدالله بن ابي سرح على مصر ولم ينهج فيها مناهج العدل تواردت شكايات اهلها منه . فكتب اليه عثمان يهدده وهيهات ان ينفع تهديده بعد ما اطلق له العنان حتى ذاق حلاوة الاستبداد فلم تهز تهديدات عثمان منه شعرة واسرف في غلوائه تيهاً واستطال وربما ضرب من اتاه من قبل عثمان وقتله . الى ان قدم وفد من مصر وانهوا ظلامتهم الى اكابر الصحابة فكلموا عثمان

في ذلك ومنهم علي وقد قال له : قد سألوك رجلاً برجل وادعوا قبله دماً فاعزله وان وجب عليه حق فانصفهم منه . فقال لهم : اختاروا رجلا فاختاروا محمد بن ابي بكر الصديق فكتب له عهد الولاية وخرج معه جماعة من المهاجرين والانصار للنظر فيما بين المصريين وابن ابي سرح .

والداهية الدهياء التي اثارت اضغان الخاصة والعامة على عثمان واورت احقادهم وكانت السبب الحقيقي في سفك دمه هي مسألة الكتاب الذي لفقه مروان بن الحكم باسم عثمان وانفذ به غلامه على نجيب من نجائب عثمان على اثر خروج محمد بن ابي بكر بعهد الولاية لمصر فاتفق انه لما كان بعد ثلاثة ايام من خروجهم رأوا النجيب يطوي المفاوز وخداً وذميلاً فطلبوه واستكشفوه عن نفسه فتلجلج بين كونه غلام عثمان او غلام مروان ، ثم استوضحوه قصده فذكر انه موجه الى عامل مصر برسالة فقيل له هذا عامل مصر فقال ليس اريد هذا وانكر ان يكون معه كتاب فانعموا التفتيش فوجدوا الكتاب في اداوة دوسية يابسة فجمع محمد بن الصديق من معه من المهاجرين والانصار وفض بمحضرهم الكتاب فاذا فيه : من امير المؤمنين الى ابن ابي سرح . اما بعد اذا اتاك محمد بن ابي بكر الصديق وفلان وفلان فاحتل لقتلهم وابطل كتابه وقف على عملك حتى يأتيك امري . فختم محمد الكتاب بخواتيم نفر من الصحابة وراعهم ذلك ورجعوا الى المدينة باجمعهم فاخبروا كبار وجوه الصحابة بذلك وفكوا الكتاب وقرأوه عليهم فزاد اصحاب الاحقاد حقداً وحنق من لم يكن عنده حنق واغتم الناس لذلك وحاصروا عثمان في داره

فلما رأى علي بن ابي طالب تفاقم الامر واستشعر وخامة العاقبة استدعى طلحة والزبير وسعداً وعماراً ودخلوا على عثمان بالكتاب والعبد والنجيب فقال له علي : هذا العبد عبدك ؟ فقال نعم ، وهذا النجيب من ابلك ؟ فقال نعم ، فقال وانت كتبت الكتاب ؟ فقال لا ، وحلف بالله : ماكتبت هذا الكتاب ولا امرت به ، ولا علمت بذلك ولا وجهت العبد الى مصر (وهو صادق في يمينه امين في كلامه) فاتسع باب الانتقاد ووجد الطاعنون مكان القول ذا

سمة وقالوا خليفة ويؤخذ ختمه ويدلس كتاب باسمه لعامله يأمره فيه بالقتل ويرسل عبده على بعيره وهو لايدري . هذا هو الاهمال المبين .

وتبين ان تلك الحادثة المحزنة نتيجة اطلاق اليد لمروان بن عبدالحكم والخط خطه وهو الذي اقترف هذه الجريمة الشنعاء واتى هذا الامر النكر فطلبوا منه تسليم مروان فأبى فغضب اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينا هم على ذلك اجتمعت غوغاء من اخلاط الناس واهل مصر وشددوا الحصار ومنعوه الماء . يقال انه اشرف يوماً على الناس فقال: افيكم علي فقالوا لافقال افيكم سعد فقالوا لا فقال الا احد يسقيني ماء. فبلغ ذلك علياً فارسل له ثلاث قرب مملوءة ماء فما كادت تصل حتى جرح بسببها عدة من موالي بني هاشم وبني امية . ولما بلغ علياً انهم يريدون قتل عثمان قال اما قتله فلا وانما نريد منه مروان . وارسل الحسن والحسين بسيفيهما وقال لهما قفا بباب عثمان ولا تدعا احداً يخلص اليه . وبعث زبير وعدة من الصحابة ابناءهم يمنعون الناس عنه واشتد الحصار حتى جرح الحسن وخضب بدمائه .

يروى ان علياً دخل على عثمان في داره بعد ان حمل على الناس بسيفه وافرج على الباب فقال له ما ارى القوم الا قاتليك فمرني بقتالهم فلم يأذن له في ذلك وكرر له القول مراراً وقال بم يقتلونني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لايحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث رجل كفر بعد اسلام او زنى بعد احصان اوقتل نفساً بغير حق. فوالله ما اتخذت بديني بدلا منذ هداني الله، ولا زنيت في جاهلية ولا اسلام ولا قتلت نفساً حرم الله قتلها . فخرج علي وهو يقول: اللهم انك تعلم. ويروى انه دخل عليه مرة وقال له ما ارى القوم تاركيك فتخل لهم عن امرهم ودعهم وما يشتهون . فقال له عثمان اما والله اني لمظلوم ولست بنازل عن مركب اركبنيه الله . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ان الله سيلبسك ثوباً وانهم سيريدونك على نزعه فلا تنزعه حتى تلقاني. وكانت خاتمة الحصار انهم تسوروا على عثمان وقتلوه شهيداً مظلوماً لثمان خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين والخلاف فيمن باشر قتله شهير وغرضنا

ان نبين براءة الامام علي كرم الله وجهه ورضي الله عنهم اجمعين من المشاركة في قتله وهي تهمة كاذبة الصقها به اشياع عثمان ومن في قلبه مرض من الايمان .

وراجت تلك التهمة في صدر الدولة الاموية ، وكانت سبباً لفتن عظيمة ومشاحنات جسيمة فان معاوية لما وصله كتاب علي بن ابي طالب حين تولى امر الخلافة يستقدمه فيه لم يجبه بشيء ، وارسل له بعد ثلاثة اشهر رسولا . بطومار مختوم ليس فيه كتابة واوعز لرسوله ان يدخل المدينة نهاراً ويدفع الطومار لعلي امير المؤمنين على رؤوس الاشهاد فاذا فضه ووجده غفلا وسأل ما وراءك فقل له ورائي اقوام يقولون لا نرضى الا بالقود من خيط رقبة علي وستون الف شيخ يبكون تحت قميص عثمان . فكان جواب الامام علي: أمني يطلبون دم عثمان ؟ اللهم اني ابرأ اليك من دم عثمان !..



وذكر ابن حزم في الملل والنحل في باب رأي كبار الامة في حرب علي ومعاوية ان امتناع معاوية من بيعة علي كامتناع علي من بيعة ابي بكر فما حارب ابو بكر ولا اكرهه وابو بكر اقدر على علي من علي على معاوية. ومعاوية في تأخره عن بيعة علي اعذر وافسح مغاراً من علي في تأخره عن بيعة ابي بكر لان علياً لم يمتنع عن بيعة ابي بكر احد من المسلمين غيره بعد ان بايعه الانصار والزبير واما بيعة علي فان جمهور الصحابة تأخروا عنها إما عليه واما لا له ولا عليه وما تابعهم فيه الا الاقل سوى أزيد من مائة الف مسلم بالشام والعراق ومصر والحجاز كلهم امتنع من بيعته .فهل معاوية الا كواحد من هؤلاء في ذلك ؟ الى ان قال بشأن البيعة : فصح ان علياً هو صاحب الحق الامام المفترضة طاعته اما معاوية فهو مخطىء مأجور مجتهد قال : ولم يقاتل علي معاوية لامتناعه من بيعته فانه كان يسعه في ذلك ما وسع ابن عمر وغيره ولكن قاتله لامتناعه من انفاذ اوامره في جميع ارض الشام وهو الامام الواجبة طاعته فعلي المصيب في هذا ولم ينكر معاوية قط فضل علي واستحقاقه الخلافة لكن اجتهاده اداه

الى رأي تقديم اخذ القود من قتلة عثمان رضي الله عنه على البيعة ورأى نفسه احق بطلب عثمان والكلام فيه عن ولد عثمان وولد الحكم بن ابي العاص لسنه ولقوته على الطلب بذلك .

وذكر المؤرخون ان معاوية اغتنم هذه الفرصة السانحة في مقتل عثمان ليعيد الامر الى بني امية ويصبحوا امراء في الاسلام كما كانوا امراء في الجاهلية وكان النعمان بن بشير اتاه الى دمشق من المدينة بقميص عثمان الذي قتل فيه مخضباً بدمه وباصابع نائلة زوجته كما تقدم بيانه فوضع القميص على منبر دمشق وكتب بالخبر الى الاجناد وثاب اليه الناس وبكوا سنة وهو على المنبر والاصابع معلقة على اردانه وتعاهد الرجال من اهل الشام على قتل قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء او تفنى ارواحهم وكان ستون الف شيخ يبكون تحت قميص عثمان .

حكى ابن عساكر في تاريخ دمشق حديثاً عن امر ترتيب خلافة الخلفاء الراشدين وان يكن جميع ما ورد بهذا الخصوص هو للضعف اقرب الا اننا اوردنا هذا الحديث لمناسبته بما قدمنا يقول : « روي عن اسحق بن محمد الانصاري انه قال سألت يموت بن المزرع . كيف لم يستخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً واستخلف ابا بكر فقال سألت الحافظ عن هذا فقال قال الله عز وجل (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم) الآية وكان جبريل ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم ويحدثه بعد الوحي كما يحدث الرجل الرجل فقال يا جبريل من هؤلاء الذين يستخلفهم الله في الارض فقال جبريل ابو بكر وعمر وعثمان وعلي ولم يكن بقي من عمر ابي بكر الا سنتان فلو استخلف علياً لم يلحق ابو بكر وعمر وعثمان من الخلافة شيئاً ولكن الله رتبهم لعلمه بما بقي من اعمارهم حتى تم ما وعدهم الله تبارك وتعالى به »

وذكر ابن عساكر ايضاً انه كان عليه الصلاة والسلام جالساً يوماً في بستان للانصار وهو مدل رجله الشريفة على البئر وحاسر عن ركبته فاذا بالباب يقرع فقال

افتحوا له الباب وبشروه بالجنة فاذا هو ابو بكر فسلم وجلس ثم قرع الباب ثانياً وقال افتحوا له وبشروه بالجنة فاذا هو عمر فسلم وجلس ثم قرع الباب ثالثة فقال افتحوا له وبشروه بالجنة على بلوى تصيبه فاذا هو عثمان فلما اخبروه بذلك قال حسبنا الله ونعم الوكيل . فلما اقبل على النبي صلى الله عليه ارخى ازاره فغطى به رجله الشريفة فسأله احد اصحابه: دخل عليك ابو بكر وعمر ولم تفعل ذلك وفعلته لعثمان فقال اما استحي من رجل تستحي منه ملائكة الرحمن ، ثم قرع الباب رابعة فقال افتحوا له وبشروه بالجنة فاذا هو علي ابن ابي طالب فسلم ثم جلس

وروى ابن عساكر ايضاً في تاريخه انه قدم يوماً ابو ايوب الانصاري على معاوية بدمشق فاجلسه معاوية على السرير معه وجعل يحدث اليه ويقول : فعلنا وفعلنا ... واهل الشام حوله ثم التفت الى ابي ايوب وقال له : من قتل صاحب الفرس البلقاء التي جعلت تجول يوم كذا وكذا ؟ فقال ابو ايوب : انا قتلته اذ انت وابوك على الجمل تحملان لواء الكفر ، فنكس معاوية رأسه وقال : مه مه والا ... فلعمري ما عن هذا سألناك ولا هذا اردنا منك !.

ونقل ابن عساكر ايضاً في اثناء ترجمة خالد بن المعمر ان معاوية دعاه اليه فلما دخل عليه قال كيف حبك لعلي ؟ قال اعفني مما اكره ، فأبى ان يعفيه فقال : احبه والله على حلمه اذا غضب ، ووفائه اذا عقد ، وصدقه اذا اكد ، وعدله اذا حكم . ثم انصرف ولحق بقومه وكتب الى معاوية قصيدة طويلة منها قوله :

ودع عنك شيخاً قد مضى لسبيله ... على اي حاليه مصيباً وخاطيا
فانك لا تسطيع رد الذي مضى ... ولا دافعاً شيئاً اذا كان جائيا
وكنت امرءاً تهوى العراق واهله ... اذ انت حجازي فاصبحت شاميا

وحكى ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب قال : قدم ابو الطفيل يوماً على معاوية فقال له كيف وجدك على خليلك ابي الحسن قال كوجد ام موسى على موسى واشكو الى الله التقصير . ثم قال له معاوية : كنت فيمن حصر

عثمان ؟ قال لا ولكني كنت فيمن حضره قال فما منعك من نصره ؟ قال وانت فما منعك من نصره . اذ تربصت به ريب المنون . وكنت مع اهل الشام وكلهم تابع لك فيما تريد ؟ فقال له معاوية : وما ترى طلبي لدمه نصرة له ؟ قال : بلى ولكنك كما قال اخو جعف :

لألفينك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادا

وكان ابو الطفيل عامر الكناني من مشاهير شعراء الصحابة صحب علياً في مشاهده كلها وأقام بالكوفة وهو آخر من مات من الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين . وكان فاضلاً عاقلاً حاضر الجواب فصيحاً . وكان متشيعاً في حب علي ويفضله ويثني على الشيخين ابي بكر وعمر ويترحم على عثمان وهو القائل :

ايدعونني شيخاً وقد عشت حقبة وهن من الازواج نحوي نوازع

وما شاب رأسي من سنين تتابعت علي ولكن شيبتني الوقائع



ابتداء تشكل الدولة الاموية

مؤسس هذه الدولة ومشيد أركانها . هو معاوية ابن ابي سفيان بن حرب ابن صخر بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف . هنا يجتمع نسبه مع النبي صلى الله عليه وسلم . ويكنى بأبي عبد الرحمن كسرى العرب . والمثل السائر في علو الهمة والحلم وبعد الغور في السياسة . وهو اول من اوجد الاساطيل البحرية في الاسلام . واول من اتخذ الحرس . واول من مشى بين يديه الشرطة بالحراب . واول من احدث في دولة الاسلام البريد . واول من اظهر ابهة الملك وضخامته وكساه رونق الحضارة وتأنق في اقتناء الخيل المسومة وبث عليه مخايل الملك من اول امارته . وكان الصحابة ينقمون عليه ذلك حتى انه لما قدم عمر بن الخطاب الى الشام زمن خلافته . لقيه في موكب بابهة فائقة وشارة رائقة . فاستنكر عمر ذلك وقال : اكسروية يامعاوية ؟ فقال : يا امير

المؤمنين إنا في ثغر تجاه العدو وبنا الى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة. فسكت ولم يخطئه لما احتج عليه بمقصد من مقاصد الحق والدين .

اسلم هو وابوه عام الفتح وقدما المدينة ، وكان احد كتاب الوحي لرسول صلى الله عليه وسلم وتزوج عليه الصلاة والسلام اخته حبيبة بنت ابي سفيان ، ويؤثر انه دعا له بالتمكين في الارض . وقد تقلب في الاطوار التي ذكرناها الى ان بويع بالخلافة يوم اجتماع الحكمين وتمام المكيدة على ابي موسى الاشعري كما تقدم ، وقيل بويع ببيت المقدس بعد قتل الخليفة علي بن ابي طالب ، وبويع البيعة العامة بعد خلع الحسن نفسه وتسليم الامر اليه في العام الحادي والاربعين من الهجرة . ولما بلغ اشياع الحسن من بني هاشم خبر تنازل الحسن عن الخلافة والملك لمعاوية استاؤا منه ولاموه فقال : اني كرهت ان اقتل المسلمين في طلب الملك فتركته حباً بحقن دمائهم .

مات عمرو بن العاص في اول خلافة معاوية فولى مكانه على مصر ولده عبد الله بن عمرو بن العاص ثم عزله عنها وولى زياد بن ابيه بعدما استخلفه على البصرة ثم أضاف اليه الهند والبحرين وعمان ، وهو اول من اكد ملك معاوية ووطد أركانه ، وكان سفاكاً للدماء يأخذ بالظنة ويعاقب على الشبهة . وولى معاوية عقبة بن نافع الفهري الصحابي الجليل عمل افريقية وكان إيمان اهلها على حرف يرتدون كلما فارقهم العسكر فوضع عقبة فيهم السيف ، وكان مقر الولاية بزويلة من أعمال برقة ، فرأى نافع ان يختط مدينة بأواسط افريقية تكون مقراً لعسكر المسلمين وملجأ لهم من غارات البربر الضاربين في أصقاعها ، فارتاد الاماكن فوقع اختياره على غابة بصحراء مهدية فقطع أشجارها وبنى مدينة القيروان واسس جامعها المشهور ووضع قبلته باجتهاد جماعة من الصحابة وهي قاعدة بلاد افريقية ومنها انتشر الاسلام الى تخوم المغرب الاقصى وانبعثت أنوار السلم على الربوع الافريقية ، ويقال انه بلغ بغازيه البحر المحيط في اقصى نهاية السوس .

وفي سنة ثلاث وخمسين هلك زياد بن ابيه بآكلة في اصبعه وولى معاوية

سعيد بن عثمان بن عفان على خراسان فقطع نهر جيحون الى سمرقند وهزم الكفار وغزا مدينة ترمذ ففتحها صلحاً وفي سنة ست وخمسين حمل معاوية الناس على البيعة لابنه يزيد بولاية العهد بعده . وبايعه اهل الشام والعراق وكان عاملاً لمعاوية على المدينة المنورة مروان بن الحكم فدعا الناس الى البيعة فامتنع عن ذلك الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن ابي بكر وعبد الله بن الزبير . وامتنع الناس لامتناعهم . فقدم معاوية المدينة من دمشق بنفسه في الف فارس وشكاهم الى عائشة . فبايع اهل الحجاز كلهم الا المذكورين . ويروى ان معاوية قال لابنه يزيد : قد مهدت لك الامور ولم يبق احد لم يبايعك الا هؤلاء الاربعة : فاما عبد الرحمن فرجل كبير تهابه اليوم او غداً . واما ابن عمر فرجل غلب عليه الورع واما الحسين فله قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فان ظفرت به فاصفح عنه . واما ابن الزبير فان ظفرت به فقطعه ارباً ارباً . وكان اول من فاوض معاوية في بيعة العهد لولده يزيد والذي أشار عليه باستحسانها هو المغيرة بن شعبة .



الفتوح الاسلامية في عهد معاوية

لم يكن في الشرق على حدود بلاد الفرس الا فتوح قليلة في ايام معاوية والذي كان انما هو ارجاع الناكثين من اهل تلك البلاد . وغزا عبد الله بن صوار العبدي الذي كان اميراً على السند (بلاد القيقان) مرتين وفي المرة الثانية استعان القيقان بالترك فقتلوه . وغزا المهلب بن ابي صفرة الازدي ثغر السند فأتى مدينتي (بنة) و (لاهور) وهما بين الملتان وكابل . فلقيه العدو وقاتله فانتصر بالآخر . وكانت همة المسلمين في عهد معاوية موجهة نحو الشمال والغرب حيث مملكة الروم وكان في عهده ملكان من ملوك الروم احدهما قسطنطين الثاني بن هرقل الثاني الذي ولي الملك من سنة ٦٤١ الى سنة ٦٦٨م وقسطنطين الرابع بن بوغانيس الذي ولي الملك من سنة ٦٦٨ الى سنة ٦٨٥م

وكانت دولة الروم لم تزل فيها بقية من الحياة تغير على البلاد الاسلامية المجاورة لها كلما سنحت لها فرصة. فاهتم معاوية بالامر ورتب الغزو للبلاد الرومية براً وبحراً ، اما في البحر فكانت الاساطيل في عهده كثيرة لاعتنائه بامرها ، واحيائه ما كان الخليفة عمر بن الخطاب اهمله ، وحظر على المسلمين استعماله من وسائل ركوب البحار . وقد ساعد معاوية على انشاء الاساطيل كثرة الغابات في جبل لبنان وتهيئة الاخشاب الصالحة فيها ، ويقال ان مجموع الاساطيل على عهده بلغ الفاً وسبعمائة سفينة مجهزة بالآلات الحربية والرجال ، وهو عدد لا يستهان به ويدل على ضخامة الملك والهمة العالية في اتقان فن البحر ، وكانت هـذه السفن التي اوجدها معاوية تسير في بحر الروم المعروف اليوم بالبحر المتوسط ذاهبة آيبة وتغير على الثغور الرومية فترجع غانمة سالمة ، وافتتح بها عدة جزائر اهمها جزيرة قبرص وكثير من جزائر اليونان وجزيرة رودس التي افتتحها جنادة بن ابي امية الازدي ، ولما نزلها المسلمون خاف الروم سطوتهم واحجموا عن مكافحتهم .

هكذا كان الحال في البحر في زمان معاوية واما في البر فقد رتب الصوائف والشواتي ، فالصوائف جمع صائفة وهي الجيوش التي تغزو في فصل الصيف والشواتي جمع شاتية وهي الجيوش التي تغزو في فصل الشتاء ، وهو ترتيب في غاية الحسن والملاءمة ، ولم تزل الغزوات في ايامه متتابعة ، وثغور المسلمين محفوظة وجانبهم مرهوباً ، لم يطمع العدو منهم ولا في كراع شاة ، وان طمع فدون مناله المنايا .

وفي سنة ثمان واربعين جهز معاوية جيشاً لفتح القسطنطينية وغزاها من جهتي البر والبحر ، وكان ممن ضمه الجيش عبد الله بن عباس وابن عمر وابن الزبير وابو ايوب الانصاري وعبد العزيز بن زرارة الكلابي وغيرهم من الصحابة واكابر التابعين ، وكان امير هـذا الجيش سفيان بن عوف ، وامر معاوية ولده يزيد ان يغزو معهم فسار الجيش حتى بلغ القسطنطينية واشتب القتال بين المسلمين والروم ودامت الحرب بينهم اياماً ، وقد كان عبد العزيز

الكلابي حريصاً على الشهادة متعرضاً بنفسه عليها فتأخرت عنه لفسحة في اجله ولقدر يعلمه الله فقال في تلك الحالة :

قدعشت في الدهر اطواراً على طرق   شتى فصادفت منها اللين والبشعا
كلاً بلوت فلا النعماء تبطرني   ولا تخشعت من لأوائها جزعا
لا يملأ الامر صدري قبل موقعه   ولا اضيق به ذرعاً اذا وقعا

فلما كان في بعض الايام حمل في الجناح الذي يقوده حملة صادقة وتغلغل في جيش الروم وقتل منهم كثيراً فشجروه في رماحهم وقتلوه . فانتهى خبره الى معاوية فقال لابيه زرار : هلك فتى العرب . فقال ابني او ابنك ؟ فقال بل ابنك آجرك الله ! فقال الاب :

فان يكن الموت اودى به   واصبح مخ الكلابي زيراً
فكل فتى شارب كأسه   فاما صغيراً واما كبيراً

ومع المطاولة وشدة المنازلة لم يتمكن هذا الجيش من فتح تلك المدينة العظيمة التي كانت قاعدة الروم السياسية . وكانت من المنعة ومتانة الاسوار في الحد الذي اعجز المسلمين عن فتحها عدا ما اصاب سفنهم الحربية البحرية من الحريق . وكان الجيش بقيادة سفيان بن عوف . وفي اثناء الحصار توفي ابو ايوب الانصاري واسمه خالد بن زيد . وهو الذي نزل النبي صلى الله عليه وسلم بداره لما هاجر من مكة الى المدينة . ودفن خارج القسطنطينية قريباً من السور (وقبره الى الآن مشهور يزار وعليه جامع فخيم وفيه يتوج سلاطين آل عثمان تبركاً) . ولما أعياهم الامر اضطروا للافراج عنها والرجوع الى الشام بعد ان مات منهم ما لا يحصى كثرة وغرق من مراكبهم عدد ليس بقليل .

نقل ابن عساكر في تاريخه في ترجمة ابي ايوب الانصاري قال : هو خالد ابن زيد من بني النجار ذكر ابن سيرين قال انما سمي النجار لان جده الاعلى نجر وجه رجل بقدوم . وهو الذي بركت على بابه الناقة . والمضيف لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه . قال ابن اسحاق توفي في القسطنطينية عام

غزاها يزيد بن معاوية ودفن باصل سورها . ولما نزل به الموت جاءه يزيد فسأله ما حاجتك ؟ قال تعمق حفرتي وتخفي قبري ما استطعت . ثم قال : وقد انقرض نسله فلا نعلم له عقباً . وشهد بدراً والمشاهد كلها وهو سيد الانصار الخزرج والاوس . وقال سعيد بن عبد العزيز : أغزا معاوية ابنه يزيد في سنة خمس وخمسين مع بعض الصحابة . فاجتاز بهم الخليج وقاتلوا اهل القسطنطينية على بابها . ثم قفل الغزو راجعاً ولم يزل ابو ايوب يجاهد حتى قتل ودفن بها . وروى ان اهل القسطنطينية قالوا ليزيد ومن معه ماهذا ننبشه غداً ؟ فقال يزيد : هذا صاحب نبينا . لئن فعلتم لأنزلن بكل حبيش بارض العرب . ولاهدمن كل كنيسة . قالوا انا اردنا ان نعرف مكانه منكم لنكرمه لصحبته ومكانته . فبنوا عليه قبة بيضاء واسرجوا عليه قنديلاً . وكان الروم اذا اقحطوا كشفوا عن قبره فامطروا .



معاوية بن ابي سفيان

عاش معاوية بين زعازع الفتن وقوارع الحروب مستعيناً على بلوغ امله بدهائه واصطناع الغطاحل من قريش وغيرهم حتى بلغ الشأو الذي تحدثه به نفسه .

لم يكن طامعاً في الخلافة في اول امره ولم ير نفسه اهلاً لها لوجود ذوي السابقة والقدر من قريش ومن لا يبلغ مدهم ولا نصيفهم وانما هو رجل من عامة الصحابة ولاه عمر بن الخطاب السواحل اذ كان اهلا للعمل اسوة باخيه يزيد بن ابي سفيان الذي كان عاملا عليها من قبل ولما مات ابو عبيدة ابن الجراح اضيف له عمل الشام فاقام في عمله مدة الخليفتين عمر وعثمان نحوا من عشرين سنة وكان ميالا بفطرته الى اتخاذ ابهة الملك واظهار آثاره . باحثا عن احوال ملوك الروم الذين هم جيرانه والذين كانوا حاكمين على الشام ولم تزل آثار ملكيتهم ممتزجة في النفوس لم تتغير بعد . فاقتبس منها معاوية انموذجاً

بمقدار ما تساعده عليه الفطرة العربية والاخلاق الاسلامية فتلوث نفسه بكيفية جعلته يطمح حيناً بعد حين الى الملك وربما لم ترق بعض احواله عمر ابن الخطاب وصلابته مع العمال مشهورة . وحمله الناس على السذاجة الدينية معروف . فكان ينحي على معاوية بالنكير احياناً حتى اذا اقنعه بمقاصده وما يرمي اليه من المصلحة سكت وخلاه وسبيله ايثاراً للمصلحة العامة على انها ليست بقادحة في الدين الى درجة لا يسكت عنها عمر بن الخطاب

وانت ترى ان حلم الرجل واحتماله مما تواتر واستفاض وهو العامل القوي في اجتلاب قلوب اهل الشام وانعقادها على حبه في مدة عمله مما مهد له السبيل بعد ذلك عند منازعته علياً في الخلافة فتمكن من استفزازهم واستهوائهم حتى تفانوا في اغراضه وتهالكوا في طاعته وراجت عليهم مغالطاته وقبلوا كل ما القاه عليهم مسلماً من مشاركة علي في قتل عثمان . زد على ذلك انحياز عمرو بن العاص لجانبه واعتماده على رأيه ومشورته . على انه كان يعرف لابناء هاشم حقهم فطالما عظم ابن عباس واظهر له الاحتفاء والاعظام حتى قال فيه ما رأيت احق بالملك من معاوية . وكذلك كان يفعل مع الحسين سيد الشهداء واولاده وخلاصة القول فيه انه رجل ملك وسياسة ظهرت مخايل ذلك عليه من اوائل عمله على الشام ساس اهل الشام عاملا لغيره وعجم اعوادهم وجربهم في حالتي المنشط والمكره فعرف كيف يصرفهم في اغراضه عند الاحتياج الى ذلك فكانوا له اطوع من بنانه فبلغ ما كانت نفسه تسموا اليه من اول امره وكل ميسر لما خلق له .

عماله — من اشهر عماله الذين ابلوا البلاء الحسن في تشييد ملكه وكان لهم الاثر الحسن في الفتوحات عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وعبيد الله ابن زياد وزياد بن ابيه ومروان بن الحكم وغيرهم .

وفاته — مرض معاوية بدمشق في جمادى الثانية سنة ستين وكان ولي عهده ابنه يزيد غائباً فاستدعى معاوية الضحاك بن قيس الفهري ومسلم بن عقبه المري وادى اليهما وصيته الى يزيد . وكان فيها « يا بني اني قد كفيتك الشد

والترحال ووطأت لك الامور وذللت لك الاعداء ، واخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك ما لم يجمعه احد . فانظر اهل الحجاز فانهم اصلك ، واكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب وانظر اهل العراق فان سألوك ان تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل فان عزل عامل اسهل من ان يشهر عليك مائة الف سيف ، وانظر اهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فان رابك من عدوك شيء فانتصر بهم ، فاذا اصبتهم فاردد اهل الشام الى بلادهم فانهم ان اقاموا بغير بلادهم تغيرت اخلاقهم . واني لست اخاف ان ينازعك في هذا الامر الا اربعة نفر من قريش الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن ابي بكر . فاما ابن عمر فانه رجل وقذته العبادة فاذا لم يبق احد غيره بايعك واما الحسين بن علي فهو رجل خفيف ولن يتركه اهل العراق حتى يخرجوه ، فان خرج وظفرت به فاصفح عنه فان له رحماً ماسة وحقاً عظيما وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم . واما ابن ابي بكر فان رأى اصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ، ليس له هم الا في النساء واللهو ، واما الذي يجثم لك جثوم الاسد ويراوغك مراوغة الثعلب فذاك ابن الزبير . فان هو فعلها وظفرت به ، فقطعه ارباً ارباً واحقن دماء قومك ما استطعت »

فهذه هي الوصية التي اوصى بها معاوية ولده وهي كما ترى غرر وكلام محنك كبير مجرب لاك الناس ولاكوه وطاردهم في معترك الحياة السياسية وطاردوه وليت يزيد تبصر فيها وعمل بها . . .

ثم مات بدمشق في غرة رجب من سنة ستين فخرج الضحاك بن قيس حتى صعد منبر جامع دمشق واكفان معاوية على يديه فحمد الله واثنى عليه ثم قال ان معاوية كان عود العرب وحد العرب وجد العرب قطع الله به الفتنة وملكه على العباد وفتح به البلاد الا انه قد مات وهذه اكفانه ونحن مدرجوه فيها ومدخلوه قبره ومخلون بينه وبين عمله ثم هو الهرج الى يوم القيمة ، فمن كان يريد ان يشهده فعند الاولى فغسل وصلى عليه الضحاك ودفن قبلي

الجامع الاموي قريباً منه . تولى الخلافة سنة ؛ فتكون مدة ولايته سنة ٢٠ وعمره ٧٨ سنة

وبهذه المناسبة نذكر شيئاً في الفرق بين الخلافة والملك :

عقد ابن خلدون في مقدمة تاريخه الشهيرة فصولاً متتابعة شرح فيها ماهية الملك والخلافة وعوارضها في البشر ومراسم كل واحد منها واطوارها والفرق بينها ، وان ليست الرسوم الفارقة بين الوظيفتين بالشيء الغامض الذي يعسر ادراكه على الباحث . ونحن نلم في كتابنا هذا بطرف من ذلك تاركين الاشياء لمثل هذه المقدمة وكتاب بدايع السلك في طبائع الملك لابن الازرق الاندلسي وغيرها فنقول :

تقرر في فلسفة العمران ان الملك طبيعي في البشر لما ان الناس مضطرون في القيام بوظائفهم الاجتماعية الى استيفاء مطالب الحياة . وذلك يستدعي التعاون لان الواحد لايستقل بالقيام بجميع شؤون حياته ولا بد من معاونة غيره له في كل دقيق وجليل . وهذه القضية من الضروريات المحسوسة وعليها بني قولهم : الانسان مدني بالطبع بمعنى انه محتاج في جميع شؤونه الى مساعدة غيره . ومعلوم ان الغاية التي يرمي اليها كل فرد من افراد المجموع هي بقاؤه انساناً موجوداً مستوفياً لضروريات معيشته . فربما اتحد المطلبان الجزئيان وربما اختلفا في الحالة الواحدة . واختلاف الاغراض والميول داع بالطبيعة الى التنازع ومفضي الى الخلاف والشقاق والنفوس متطلبة بفطرتها الحصول على حقوقها الطبيعية فيقع التدافع فالتصارع فاقتضت الحكمة التي بني عليها نظام هذا العالم نصب وازع من جنس المتدافعين تكون له عليهم ميزة باستجماع الخصال المؤهلة له الى ذلك من العلم والقوة والاطلاع على دخائلهم واصالة الرأي حتى لايزيغ به الهوى عن القصد في تعرف الحق من الباطل . واقتضت ايضاً ان يكون مؤيداً بحماية من ورائه من ذوي قرابته لتدفع في صدر من اريد تسنم منصبة من غير استحقاق حتى تكون يده عالية وامره نافذاً مطاعاً . ويتم بذلك المقصود من حفظ الحقوق وهذا مايسمونه بالعصبية ويعتبرونها

ضرورية للملك . فتبين ان الملك امر لابد منه منذ بدء الخليقة الى وقت انقراض هذا العالم . وان اختلفت اطواره فحقيقته بديهية لكل عاقل

واما الخلافة فهي مستحدثة بعد الملك . ولسنا نعني حدوث لفظها فان تسميتها بهذا الاسم واطلاقها على المسمى المخصوص لايبعد ان يكون من الاوضاع الاسلامية . وانما نريد بحدوثها وكونها ثانية من الملك وان حقيقتها ومسماها ناشئ بعد الملك . وشرحه ان الملك الطبيعي يفتقر صاحبه الى قوانين مخصوصة يحمل العامة على سلوكها ويطبق على مقتضاها ما يجري منه ويفصل بها ما يجرهم اليه اختلاف الاغراض من التنازع والشحناء . وتلك القوانين لاتخلو اما ان تكون عقلية بمعنى انها منتزعة من مدارك العقل وغير خارجة عن نطاقه . والحاكم مأمور بتنفيذها وتطبيقها على افعال البشر . وهـذه اول رتب القوانين الملكية والعمدة في تشريع تلك القوانين الحكماء وذوو الرأي الاصيل . ثم تنشأ من احتكاك البشر بعضهم ببعض على اختلاف عاداتهم ومنازعهم احكام اخرى تبنى على التجاريب والعادات وهي ما يسميه الفلاسفة بالسياسة المدنية . فاذا تعاقبت الاجيال واختلفت العادات والسنن ، اختلت تلك الاحكام لما انها مبنية على رعاية عرف مخصوص وقد نسي ذلك العرف واتت عليه الانام . فتطبيق تلك الاحكام على جيل جديد له عادات جديدة ضرب من التعسف . والحيد عن جادة العدل الذي هو وضع الشيء في محله وهناك الخراب المنافي لنظام هذا الكون فبقيت تلك عرضة للتبدل والتغير في كل آن فعند ذلك تجيء القوانين السماوية الصادرة عن موجد الكائنات . ثم هي مختلفة ايضاً ومبنية في الغالب على رعاية المصالح البشرية وما ينفعهم في معاشهم ومعادهم . ومنها ما هو مقصور على تقريع الانسان بالزواجر الاخروية حتى يرتدع عن موجباتها في هذه الحياة الدنيا وبذلك ينتظم شأن الوجود كما وقع في الشرائع القديمة فانها لم تقض على القوانين الوضعية التي هي من لوازم الملك بل ابقت لها مجالا في العمل وتركت الملك في منصبه الطبيعي فالقائم به ملك . والداعي الى تطهير النفوس وامرها بالنزوع الى العالم

العلوي والتصديق بالمعاد وما يتعلق بالدار الآخرة رسول او نبي . ولم يجمع بين الوظيفتين صلاح المعاد وصلاح المعاش في قانون واحد يتكفل باجراء النظامات البشرية على تعاقب الازمان ومرور الحقب على وتيرة سديدة ومنهج سوي . الا الشريعة الاسلامية . وكتابها الكريم شاهد على ذلك . فقد جمع من أشتات الاحكام التي تتصرف على وجوه العبادات والمعاملات . ما اجهد حكماء الامم الحالية جهدهم فيه ولم تصل نتائج عقولهم الى بعضه .

ومن محاسنه انه خفف العناء بجمع الوظيفتين في شخص واحد واتحادهما في المبدأ والغاية . ولم يهمل رعاية جانب العادات المتجددة . فابقى للمسألة باباً يولج . ومسلكاً يفضي به اليها . حتى تبقى نتائجه ملائمة لجميع الفطر ومنسحبة على جميع الاجيال . ولولا ذلك لعراه ما عرى القوانين السماوية من قبله .

فمتلقي تلك القوانين عن الله تعالى هو النبي . ومن قام مقامه في حمل الكافة على العمل بها واقتفى أثره قولاً وعملاً هو الخليفة في نظر الدين الاسلامي وبسبب هذه النظرية كان امر وجوده وبقائه محتماً .

ومن قصر عن تلك الغاية او مزج الاحكام السماوية باحكام اخرى عقلية استنبطها بزعمه من مجاري الطبيعة وسننها لقصوره عن التعمق في أسرار الشريعة فهو ملك . وهذا هو الفيصل بين تلك المراتب اجمالاً .



خلافة يزيد بن معاوية

بايع له ابوه بولاية العهد من بعده بعد ان احضر وفود الامصار واستشارهم كما تقدم ذلك مستوفى وكان مؤسس هذه الفكرة المغيرة بن شعبة عامل معاوية على الكوفة .

وقد اخرج معاوية الخلافة عن اصولها وكانت لافضل الصحابة وجعلها كالملك ولذلك نقم اكثر الصحابة على هذا العمل المخالف للعهود وقد فند ابن خلدون رائيه في هذا الامر فقال والذي دعا معاوية لايثار ابنه يزيد بالعهد

دون من سواه انما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق اهوائهم باتفاق اهل الحل والعقد ... الى غير ذلك مما لا يسع كتابنا اعادة ذكره وقد استخدم المسيحيين في مصالح الملك في زمن خلافته فعهد بامور المالية الى منصور وسرجون من نصارى العرب السوريين

ولد سنة ٢٦ في ايام كان ابيه عاملاً على الشام لعثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين . ونشأ في دمشق الى ان شب فكان ابوه يرشحه للامارة فولاه على الحج مرتين وولاه الصائفة مرة وارسله في الجيش الذي غزا القسطنطينية لاول مرة كما اسلفنا . وكان مفطوراً على حب الصيد واقتناء الفهود والكلاب وهو مما نقم الناس عليه لما كانوا عليه من غضاضة البداوة وسذاجة العروبية والتشبع بالتعاليم الدينية .

وقد ذكرنا انه لم يتخلف بعد كل الجهد الذي بذله معاوية عن بيعته بولاية العهد الا عمدة اهل المدينة وهم سيدنا الحسين وابن عمر وابن الزبير وابن عباس وابن ابي بكر. ولمامات معاوية لم يكن ليزيد شاغلاً الا تأكيد بيعته بالخلافة فارسل الى امير المدينة الوليد بن عتبة بن ابي سفيان يلزمه باخذ هؤلاء النفر بالبيعة فاستدعاهم والزمهم. فاما ابن عمر وابن عباس فبايعا بعد ان بايع الناس. واما ابن الزبير فخرج الى مكة باهله وقال : اني عائذ بالبيت . وكان يطوف وحده ويفيض وحده في اصحابه . واما الامام الحسين فانه لحق بمكة باهله وبنيه بعد ابن الزبير بايام .

ذكر ابن قتيبة ان عامل المدينة الذي ارسل اليه يزيد يأمره باخذ البيعة من القوم هو خالد بن الحكم ثم عزله وولى عوضاً عنه عثمان بن محمد بن ابي سفيان وان اهل المدينة جاهروا بعزل يزيد واحتووا أموال معاوية ونخيله وازاحوا وكيله عنها وكان ابن الزبير قد نصب الحرب بمكة . فانتهت الاخبار بجميع ذلك الى يزيد . فاقلقته واستشاط غضباً . وكان تلقى بطريق الوصية من ابيه انه ان رابه من اهل المدينة شيء او انتقض عليه احد . فعليه باعور بني مرة مسلم بن عقبة . فاستدعاه يزيد وعهد اليه بقيادة الجيش المجهز على المدينة .

واوعز اليه ان يتخذ المدينة طريقاً . وان لا يقاتل احداً . فان اثابوا بالطاعة ونزعوا عن غيهم فلهم عهد الله وميثاقه . وان لهم عطائين في كل عام ميزة لهم وايثاراً على جميع الناس . وان يجمل الحنطة عندهم كالحنطة بالشام . ويزيح عنهم عشهم وتجاوزهم الى ابن الزبير . وان ابوا قاتلهم . ثم ان ظفرت بهم انهبها ثلاثاً وكتب لهم كتاباً هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم اما بعد فاني قد نفستكم حتى اخلفتكم ورقعتكم حتى اخرقتكم ورفعتكم على رأسي ثم وضعتكم . وايم الله لئن شئت ان اضعكم تحت قدمي لاطأنكم وطأة اقل منها عددكم واتركم أحاديث تتناسخ كأحاديث عاد وثمود . وايم الله ليأتينكم اولى من عقوبتي فلا افلح من ندم » .

ولما قرئ عليهم الكتاب واستبان لهم عزم يزيد على الايقاع بهم ان امكنه اجمعوا امرهم على خلعه ومناصبته العداء . ثم اتفق رأيهم على اخراج جميع من بالمدينة من بني امية بعد ان حلفوهم عند المنبر والقبر الاطهر : ان لقوا جيش يزيد يردوهم عنهم ان استطاعوا وان لم يستطيعوا مضوا الى الشام ولا يرجعون معهم . وهكذا انتهى الامر باخراج بني امية من ديارهم المدينة فتسبب عن ذلك وقعة الحرة المشهورة . التي انتهكت فيها الحرمات ومات فيها الجم الغفير من الصحابة . ولعمري انها لحادثة تنفطر لها الاكباد وينفعل من هولها الجماد وتفصيلها مذكور في كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة وغيره من كتب التاريخ فلا حاجة للاطالة بها وحاصل ما نقول فيها انها ناشئة عن عدم تدبر العواقب والتبصر في اخريات الامور . والا فاي عاقل يحكم بان شرذمة قليلة تسكن المدينة . لا حامي لهم ولا ظهير . ولا سلاح لديهم ولا عدة . تقدم على حرب هذا الطالم يزيد الذي لو شاء ان يرسل عليهم جيشاً اوله عندهم وآخره عنده لاستطاع وكان اهون شيء عليه !

ومن اشأم الوقائع التاريخية التي حدثت في عهده واحدثت تبدلاً عظيماً في السياسة وتغيراً فاحشاً في اجتماعات المسلمين . واقعة كربلا المشهورة التي دونها المؤرخون وانتهت بقتل رئيس البيت العلوي المطهر ورئيسه الامام

الحسين بن علي سيد الشهداء وجماعة من سلالته وذوي رحمه ، افظع قتل واشنعه . . .

فهذه الدهماء والنازلة الشنعاء التي تسببت عن سوء سياسة يزيد هي التي ضعضعت اركان الحكومة الاسلامية وشوشت امر جامعة المسلمين واتمت ادوار الانشقاق والاضطراب التي ابتدأت في عهد والديها وكانت احد الاسباب في تفريق الكلمة وتشتيت الوحدة وانثلام الحصن . فان المسلمين ما لبثوا من ذلك العصر ، ومن جراء تلك الحادثة المشؤومة والتي قبلها ، متفرقين طرائق ، ومنقسمين شيعاً ، خصوصاً بعد ما البسوا المسألة صبغة دينية شأنهم في جميع الحوادث التاريخية التي حدثت في ذلك العصر وقبله وبعده بقليل . . .

وحيث ان المسألة مبسوطة في تضاعيف كتب التاريخ الموثوق بهما ومجلوة على حقيقتها من الوجهة السياسية بذكر ما لكل واحد وما عليه ، ومبسوطة كذلك في بطون كتب الفقهاء والمتكلمين من الوجهة الدينية بزعمهم .

واقوال هؤلاء اعني الفقهاء في المسألة كثيرة متضاربة والكل منتصر لقوله زاعم انه الحق وما سواه الباطل وليس لغالبهم دليل يعتمد عليه فيما يقوله ، ولا حجة يستظهر بها عند الجدال بل ان الحري بالمسألة من اصلها ان لا تتردى برداء من الدين ولا تنسب له بوجه من الوجوه . فمن السداد الاعراض عن مثل هذه المسائل وعدم تضييع الوقت في مباحثها ونقلها .

نقل بعض المؤرخين عن شرح بعض الاحاديث التي فيها تبين اسامي امراء الجور واحوالهم وذمهم ، وقد كان ابو هريرة يكني ببعضهم ولا يصرح به خوفاً على نفسه منهم كقوله اعوذ بالله من رأس الستين وامارة الصبيان يشير الى خلافة يزيد بن معاوية لانها كانت سنة ستين من الهجرة فاستجاب الله دعاءه فمات قبلها بسنة .

ونقل عن رئيس شرطة يزيد هو حميد بن حريث من وجوه اهل دمشق وفرسان تحجطان ، وهو اول شرطي تولى هذه الوظيفة بدمشق ، انه لما حضر رأس الحسين مع زين العابدين والسبايا من آل البيت الكرام الى دمشق

بن يدي يزيد قالت له زوجته هند جارية امير المؤمنين علي بن ابي طالب : لقد احدثت امراً عظيما في الاسـلام ردهم الى المدينة المنورة واكرم منزلتهم واحسن رعايتهم وهي التي قامت بخدمتهم مدة اقامتهم بدمشق. ونقل بعضهم ان قبر هند في محلة القيمرية من اقسام دمشق .



خلافة معاوية الثاني بن يزيد

هو معاوية الاصغر بن يزيد بن معاوية الاكبر ثالث خلفاء بني امية من بيت ابي سفيان بويع له بالخلافة بعد موت ابيه بدمشق وكانت ولادته سنة احدى واربعين للهجرة وتقلد الخلافة سنة اربع وستين وعمره اذ ذاك ثلاث وعشرون سنة وكان عاقلا ورعاً ديناً عارياً من اخلاق ابيه وجبروته . رأى بعـد ثلاثة اشهر من بيعته ان العبأ الذي حمله عظيم وانه غير كفوء للخلافة . وان الحساب عند الله جل وعلا دقيق ولم يغلب عليه حب الرئاسة وعز السلطان وزخرف الملك فآثر آخرته على دنياه وخلع نفسه من الخلافة ولم يعهد بها لاحد من ذويه واهل بيته . بل قال للناس : دونكم امركم فمن رضيتموه فولوه . وانما اوصى ان يصلي بالناس الضحاك بن قيس الفهري حتى يجتمع الناس على خليفة. ولما قيل له لو استخلفت للناس خليفة وعهدت بالامر لمعين لكان ادعى للاجتماع كما هي سنة من قبلك . قال لا أتزود مرارتها واترك لبني امية حلاوتها . ومن دلائل سعـادته انه قبض بعد اربعين يوماً من خلعه لنفسه قبل ان زوجته قتلته .

حكى ابن الاثير وغيره انه لما ولي امر الخلافة ومكث ثلاثة اشهر وقيل اربعين يوماً وعزم على خلع نفسه امر مناديه فنادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد منبر جامع دمشق فحمد الله واثنى عليه وقال : اما بعد فاني ضعفت عن امركم فابتغيت مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه ابو بكر فلم اجده فابتغيت ستة مثل ستة الشورى الذين جعل عمر الامر اليهم فلم اجدهم . فانتم

اولى بامركم فاختاروا له من احببتم . ثم دخل داره وتغيب حتى مات مسموماً. قال المسعودي اراد ان يجعلها الى نفر من اهل الشورى ينصبون من يرونه اهلا لها .

ولما خلع اضطرب الناس في الشام اضطراباً عظيما وخشي اشياع بني امية خروج الامر عن البيت الاموي . لا سيما ودعوة ابن الزبير آخذة في الاستحكام قد عمت الحجاز والعراق وانتشرت في فلسطين والاردن الى اطراف الشام ولما مات يزيد انفضت الجيوش التي كانت تقاتل ابن الزبير بمكة . فزاد امره استحكاماً وجددت له البيعة بالحجاز . ولما خلع معاوية بن يزيد نفسه ازداد تمكن ابن الزبير ودخل في طاعته عراق العجم وخراسان واليمن ومصر وكان داعيه الضحاك بن قيس الفهري . لما رأى اختلال بني امية وانحلالهم مجتهداً في بث الدعوة الزبيرية في دمشق واخذ البيعة على اهل القرى . واوشك امر ابن الزبير ان يتم ويصفو له جو الخلافة وهو بها حقيق .

حتى ان مروان بن الحكم المفسد والمتسبب لقتل عثمان بن عفان الذي احيا الخلافة الاموية . كان بعد خلع معاوية الصغير نفسه هم بالمسير الى مكة لمبايعة ابن الزبير . لولا ان بني امية منعوه من ذلك واغروه بطلب الامر لنفسه فتم له ذلك واقاموه خليفة عليهم فبويع له بدمشق فقط سنة ٦٤ وقتلوا الضحاك ابن قيس وانفض جيشه ثم جهزوا جيشاً آخر وجمعوا جموعاً كثيرة وقصدوا مصر فاستولوا عليها وانقذوها من يد ابن الزبير وانقطعت دعوته بها لكن لم تطل مدة مروان فمات بعد سنة من بيعته سنة خمس وستين فاجتمعوا على بيعة ولده عبد الملك وكان قدريا لان عمر المقصوص كان قال له اما ان تعتدل او تعتزل .



خلافة عبد الملك بن مروان

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن العاص بن امية عبد شمس . وهو اول خليفة من بيت العاص . والعاص اخو حرب جد معاوية بن ابي سفيان

فيلتقي عبد الملك ومعاوية في امية وكانت كرسي ملكه وملك ابنائه من بعده دمشق الشام وانما قلنا انه اول خليفة من بيت العاص لان اباه مروان لم تطل مدته وقبل البيعة مكرها استرسالا مع ميل بني امية قومه وكانوا حريصين على عدم خروج الامر منهم .فبايعه امراً فكان اشبه بعامل مستقل لم تجاوز امرته يوم البيعة مدينة دمشق واحوازها القريبة منها وقراها المحيطة بها بعد اجلاء الضحاك بن قيس عنها

وكثير من العلماء يرون ان بيعة مروان غير منعقدة شرعاً لوقوعها من سكان دمشق فقط . ولسبقها بيعة ابن الزبير المنعقدة باجماع جمهور المسلمين وكذلك بيعة عبد الملك قبل قتل ابن الزبير وما صحت البيعة لعبد الملك وسلمت من القوادح الشرعية الا بعد موت ابن الزبير وفي كلامهم هذا نظر..

اذ مع اعترافهم بان بيعة ابن الزبير سابقة وصحيحة من الوجهة الشرعية كيف يعتبرون خروج عبدالملك عليه ومقاتلته وقتله جائزاً ثم يصححون خلافته بعد ذلك . ومتى جوز الخروج على الامام المستجمع لشرائط الامامة ؟ وهل عبد الملك الا باغ خارج عن طاعة الامام ؟ اللهم الا ان يكون مقصودهم بصحة بيعته لطريق التغلب من غير نظر الى منشأها وهو قول مستحدث عندهم.

ولما تمت البيعة لعبد الملك بالشام ومصر ،بدا له نشر الدعوة وارجاع الحكومة الاموية الى ماكانت عليه ايام معاوية الاول فجهز الجيوش لمحاربة ابن الزبير واستنفر الناس لذلك وابتدأ اولا بمقاتلة مصعب بن الزبير لانه كان والياً من قبل اخيه على العراق وخراسان . وخرج عبد الملك بنفسه قائداً لتلك الحملة سنة احدى وسبعين وانتهى الامر بقتل مصعب واستيلاء عبد الملك على جميع ما كان تحت امرانه . ولما استقر له الامر وانتقص مملكة ابن الزبير من اطرافها من مصر والعراق ولم يبق الا الحجاز . وجه جيشاً لمقارعته في عقر داره وقرارة مأمنه مكة المكرمة واختار لقيادة تلك الجيوش الحجاج بن يوسف الثقفي . لما علم من بلائه ونصحه وشدته في الامور فسار الحجاج حتى حاصر مكة ورمى الكعبة بالمجانيق وكانت خاتمة هذه الواقعة قتل ابن الزبير بعد الدفاع

الصادق والثبات العجيب . وبذلك تمكن امر عبد الملك والقت الخلافة اليه مقاليدها وبايعه من كان ممتنعاً من البيعة من اساطين الصحابة كأبن عباس وابن عمر وغيرهم .

وقد اشتهر الحجاج الظالم . وسيرته في بطون التواريخ شهيرة طويلة . قيل انه امر ببناء قصر له بدمشق ولم يزل اثره باقياً الى اليوم وسميت تلك المحلة باسمه . والاصح مانقله ابن عساكر في تاريخه من ان هذا القصر نسب الى الحجاج ابن عبد الملك بن مروان . وكان اميراً على دمشق وامه بنت محمد بن يوسف اخي الحجاج الثقفي كما سيأتي في فصل الآثار

وخرج في ايام خلافة عبد الملك خوارج كثيرون فكان له النصر عليهم وكان السهم النافذ الذي رمى به غارب الخوارج فاصاب هو الحجاج بن يوسف ، وهو ركن دولة عبد الملك الركين . استأمنه فكان محل الامن . ووثق به فكان محل الثقة . واستكفى به في معضلات السياسة فكفاه . وجرده على المارقين سيفاً فما نبا ولا خانته مضاربه .

وممن نازع عبد الملك في الخلافة عمرو بن سعيد بن العاص فقتله عبد الملك خديعة في قصة طويلة فيها عبر واستنباطات تاريخية مهمة يرجع اليها في كتب التاريخ المبسوطة كالطبري وابن الاثير

وانتقدت عليه اشياء انتقاداً تاريخياً . منها قتله لسعيد بن العاص المتقدم . ومنها توليته للحجاج بن يوسف او اقراره على الولاية بعد ظهور القبائح التي اجراها . وهكذا انتقد بعض الباحثين من فلاسفة التاريخ في عصرنا وهو انتقاد معقول بالنسبة لاهل عصرنا ولكن لو اردنا مقايسة احوال العصور القديمة باحوال عصرنا لوجدنا غالبها منتقداً من هذه الوجهة .

غير ان الوقائع التاريخية المبنية على اغراض سياسية يجب ان توزن بميزان عصرها وتطبق على الحالة الاجتماعية فيه ويحكم عليها بعد ذلك بقبح او حسن من غير خروج عن دائرة الزمان والمكان . واذا نظرنا الى تولية عبد الملك للحجاج على حرب ابن الزبير اولاً ثم توليته على العراق ثانياً . نظرة سياسية

تجده مسوقاً بحكم الضرورة الى تولية مثله ممن فيه الكفاءة لاطفاء تلك الفتن التي التهمت بلاد العرب. وما احسن ما قاله ابو جعفر المنصور فيما رواه الطبري. ان جماعة كانوا بباب المنصور ينتظرون الاذن وفيهم ابراهيم بن صالح ومعن ابن زائدة والحسن بن زيد فتذكروا الحجاج فكان ممن حمده معن بن زائدة وممن ذمه الحسن بن زيد. فلما دخلوا على المنصور انبرى الحسن فقال: يا امير المؤمنين ما كنت احسبني ابقى حتى يذكر الحجاج في دارك وعلى بساطك فيثنى عليه. فقال المنصور وما استنكرت من ذلك. رجل استكفاه قوم فكفاهم. والله لوددت اني وجدت مثل الحجاج حتى استكفيه امري وانزله احد الحرمين. فقال له معن يا امير المؤمنين ان لك مثل الحجاج عدة لو استكفيتهم كفوك. قال ومن هم كانك تريد نفسك. قال فلم ابعد من ذلك. قال كلا. لست كذلك ان الحجاج استأمنه قوم فادى اليهم الامانة وانا ائتمناك فخنتنا. ونقل عن الحجاج انه لم يأمر بقتل احد صلى صلاة الفجر.

ومن رأى وتصفح تاريخ الخوارج وما كانت عليه العراق من الفتن وتكالب رؤوس الخوارج على الخلفاء وصلابتهم وثباتهم على مبدأهم وغايتهم التي يرمون اليها. وما استولى على نفوس الناس من العامة والقواد اذ ذاك من الملل من الحرب وسآمة الخوض فيها بل من سماع ذكرها. علم الموقف الذي كان فيه عبد الملك وعذره في اختيار الحجاج عاملا للعراق خصوصاً مع ما عرف به اهله من التسرع للفتنة والخفة للانصياع فيها واتباعهم كل صائح اليها مع ابتلائهم واختيار انجع المؤثرات فيهم. فعلم بالاختبار الرجل فرماهم به كما اعرب الحجاج عن ذلك في اول خطبة خطب الناس بها في الكوفة

نقل ابو حاتم السجستاني حكاية لطيفة قال: انه دخل يوماً على عبد الملك بن مروان فوجد الربيع الفزاري فقال له يا ربيع اخبرني عما ادركت من الدهر ورأيت من الخطوب فقال انا الذي اقول:

اذا عاش الفتى مأتين عاماً   فقد ذهب اللذاذة والفتاء

قال وقد رويتها من شعرك وانا غلام ففصل لي عمرك. قال: عشت مأتي

سنة في فترة عيسى وستين في الجاهلية وستين في الاسلام . فذكر قصته معه وهو القائل ذلك البيت السائر :

اذا جاء الشتاء فادفئوني   فان الشيخ يهرمه الشتاء

ثم انشد المزرباني بعده :

واما حين يذهب كل قر   فسربال خفيف او رداء

وذكر ابن هشام في التيجان ان الربيع الفزاري هو جاهلي ، كبر وخرف وادرك الاسلام ، يقال انه عاش ثلاثمائة سنه .

وذكر اليعقوبي ان عبـد الملك منع اهل الشام من الحج وذلك ان ابن الزبير كان يأخذ الحجاج بالبيعة ، ووجه وجوه الناس الى مسجد بيت المقدس فبنى على الصخرة قبة وعلق عليها ستور الديباج وعين لها سدنة واخذ الناس بالطواف حولها كما تطوف حول الكعبة كما فعل بنو امية في الاندلس في الغرب مخافة ان يأخذهم العباسيون بالبيعة لهم

وعبد الملك هو اول من كسا الكعبة المشرفة بطارف الديباج ، واول من ضرب المسكوكات الاسلامية بعد ان كان المسلمون يتعاملون بالنقود الرومية قال معاوية بن يحيى : اول من ضرب الدينار والدرهم آدم عليه السلام، وقال: لا تصلح المعيشة الا بهما .

ولا يخفى ما لعمل عبد الملك من الاهمية في التاريخ الاسلامي ومبدأ تمدنه وهو لا يقل نبلاً وعظماً عن تدوين عمر الدواوين واتخاذ معاوية للبريد . اذ من المعلوم ان الدول لا تبلغ الامد الاسمى الا اذا استقلت في شؤونها واسباب عمرانها، ولم تتوقف على غيرها في جليل ولا حقير ، وامامنا اليوم جمهورية تركيا الجديدة . وقد وضع الخلفاء الراشدون الاساسات لاستقلال الدولة العربية واتم معاوية مابناه من قبله باحداثه لعدة امور من موجبات الاستقلال واستمرت في التكامل الى ان تنبه عبدالملك فاتى بهذا العامل الاكبر في استقلال الدولة ، وغير خاف ان من جملة ما يتوقف عليه بناء الدول العظيمة مسألة النقود التي تترتب عليها غالب المعاملات العمرانية الضرورية في الهيأة الاجتماعية .

وقد كان العرب في اول الاسلام يتعاملون بالنقود الفارسية من دراهم ودنانير بالوزن لا بالعدد كما هو الشأن فيهما الآن . وانما يردونها الى الوزن لان الشائع يومئذ في معاملات العرب هو الذهب والفضة وزناً . ولا يخفى ما في ذلك من الافتقار الى الغير والتوقف عليه في اهم الضروريات . لا سيما والعرب في عنفوان دولتهم . ولئن عذروا في جاهليتهم بما كانوا عليه من غضاضة البداوة وسذاجة العروبية وشتات الجامعة وغيرها مما لا يستدعي استكمال اسباب الظهور والاستقلال . فليسوا بمعذورين بعد ان جمع الاسلام شملهم وانشأوا تلك الدولة الرهيبة . التي قوضت بقوتها دعائم دولتي الروم والفرس . ولم يزالوا على ذلك الى ان كثر الغش وتفاحش في الدراهم والدنانير الفارسية لعدم وقوف الدولة على حفظها بالضرب على ايدي الغاشين .

فامر عبد الملك بضرب الدراهم والدنانير وتمييز المغشوش منها من الخالص وذلك سنة ٧٤هـ فضربها وامر بصرفها في سائر النواحي وكتب عليها الله احد الله الصمد . بدلاً مما كان في الفارسية من النقوش والصور .

ثم تعاقبت على النقود الاسلامية اطوار . وتفنن الخلفاء والملوك في ضربها ومقاديرها الى ما لا حاجة لنا بذكره . وكانوا اولاً يتحرون في ضربها المقدار الشرعي الذي تبنى عليه كثير من المعاملات مثل الزكاة والدماء والانكحة فكان مقدارها الحسي مساوياً لمقدارها الذهني المراد للشارع . ولا يخفى ما في هذا من الراحة . ثم هجر الاعتبار الحسي على تعاقب الاطوار وبقي الاعتبار الذهني . وللعلماء في مقدارها الشرعي خلاف يرجع الى تحقيقه في مثل مقدمة ابن خلدون وغيرها من الكتب الفقهية .

وقد مات عبد الملك سنة ٨٦هـ بدمشق ودفن بعدفن عليه قبة في اول باب الصغير ورجحه الكثير من المؤرخين . وقال بعضهم انه مات بالمدينة ..

خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان

وهو اول ولد لعبد الملك بن مروان بويع له بالخلافة بعد موت ابيه سنة ست وثمانين بعهد منه اليه. وكانت ولادته سنة سبع واربعين. واتسعت الفتوحات في زمنه حتى بلغت أقاصي المغرب ، وهي نهاية العمران من هذه الجهة. واهم تلك الفتوحات بل غرتها. فتح الهند والترك والاندلس التي هي منبع العلم ومطلع المعارف وقرارة الحضارة وعش التمدن الاسلامي ومنها امتد التمدن الغربي الذي نراه اليوم بعين الاعجاب..

وكان شعاع ذلك التمدن على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد.

ومن حسنات الوليد هذا على كثرتها ، عمارة المباني العظيمة كمسجد دمشق ومسجد المدينة والمسجد الاقصى. وقال الازرقي في تاريخ مكة ان الوليد عمر المسجد الحرام. وكان اذا عمر المساجد زخرفها ، وهو اول من نقل الى الحرم المكي أساطين الرخام وجعل على رؤسها الذهب ، وازر الحرم بالرخام من داخله وجعل في واجهته النوافذ وفي اعلاها الفسيفساء كما هو في مسجد دمشق. وقال قطب الدين النهرواني في تاريخ مكة : انه كتب بتوسيع مسجد المدينة وتهذيبه وهو اول من ذهب الكعبة المشرفة وفرشها بالرخام في الاسلام. قال السبكي في كتابه تنزيل السكينة في قناديل وجوهرات المدينة : ان الوليد وضع الميزاب الموجود اليوم على ظهر الكعبة ووضع على بابها الصفائح وعلى الاساطين التي في بطنها ونقل السبكي انه لم يعترض احد من بقايا الصحابة والتابعين بذلك. وقال بعض مؤرخي دمشق انه هو الذي وضع الصفائح المكتوبة على ابواب مسجد دمشق. وهو من اعظم الخلفاء قدراً واعلاهم امراً واكبرهم شهرة واقواهم سطوة واشدهم بأساً مات سنة ٩٦ دفن بدير مران بدمشق ومدة خلافته تسع سنين وثمانية اشهر وفي ايامه قدم انس بن مالك دمشق في امارة الحجاج على العراق قدمها شاكياً منه ومن اعماله للخليفة الوليد بدمشق

وقال احد المؤرخين ايضاً وكان الوليد عند اهل الشام محبوباً لانه صاحب عمارة وبناء . عمر الضياع ووضع المنائر في الطرقات واعطى المجذومين وافردهم وقال لا تسألوا احداً. واخدم كل مقعد خادماً واعطى كل ضرير قائداً وكتب الى جميع البلاد بهدم المساجد والزيادة فيها وتسهيل الطرق وحفر الانهار وان تعمل البيمارستانات التي تعالج فيها المرضى وهو اول من فعل ذلك وهو اول من اجرى على القراء وقوام المساجد الارزاق

خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان

كان عبد الملك عهد بالخلافة تعييناً لاثنين من اولاده الاربعة الذين تولوا الخلافة من بعده فاوصى ان الخليفة بعده ابنه الوليد ثم ابنه سليمان ولم يقع في زمنه من الفتوحات شيء له بال وفي آخر ايام اخيه الوليد كف موسى بن نصير عن التوغل في الفتوحات في الاندلس فرتب العمال لما افتتحه ونظم احوال المغارب الثلاثة الاقصى والاوسط والادنى وكر راجعاً الى المشرق بالهدايا والغنائم . فمات الوليد قبل وصول موسى واستخلف سليمان فاستأثر هذا بتلك الهدايا والتحف وعامل موسى معاملة سيئة . وينتقد عليه اشياء منها صنيعه مع موسى بن نصير فاتح افريقية والاندلس من سجنه وارادة قتله لولا ان انقذ نفسه بذلك المال الطائل . لمجرد هوى نفساني . ولم يرع له سابقته وبعد اثره في تلك الفتوحات العظيمة وعظيم منه على الدين وتفاصيل ذلك مذكورة في الامامة والسياسة لابن قتيبة فليرجع اليها من شاء ومن حسناته التي يحمدها التاريخ عهده بالخلافة لولد عمه عمر بن عبد العزيز وصرفها عن اخويه يزيد وهشام ابني عبد الملك اللذين توليا فيما بعد . وهو من المشهورين بكثرة الاكل ونوادره مذكورة في كتب التاريخ والادب . وكان فصيحاً بليغاً عدلا غازياً مظهراً لشرائع الاسلام غير سفاك للدماء . مات سنة ٩٩ ومدة خلافته سنتان وخمسة اشهر وخمسة ايام .

خلافة عمر بن عبد العزيز بن مروان

بويع بالخلافة بعد موت سليمان بن عبد الملك بعهد منه اليه ولم يكن راضياً بها تورعاً عنها وتفصياً من حمل اعبائها استبراء لدينه . ولد سنة إحدى وستين ونشأ نشأة صالحة فطلب العلم بالمدينة المنورة وادرك الكثير من اكابر التابعين وكان من اعظم العلماء بالحديث النبوي وحسبك بمن يحتج باعماله الامام مالك واحزابه (والذين يجعلون اقواله حجة في الدين

انتشرت في عهده العلوم الدينية واللغوية ووضع في زمانه اساس العلوم الطبيعية والفلسفية . اعاد الخلافة الى مجراها التي كانت عليه في الصدر الاول وصورها بمعناها الذي يعرفه السلف حتى عد خامس الخلفاء الراشدين ولا عجب فقد اقام العدل وحمل الناس وساسهم بتعاليم الكتاب والسنة ومحا تلك البدع والمنكرات التي سنها اســلافه من بني امية . واشنعها المجاهرة بسب علي بن ابي طالب على المنابر واستعاض عنها بقول الله عز وجل : ربنا اغفر لنـا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان الى آخر الآية . وقال بعضهم : ان الله يأمر بالعدل والاحسان الآية وعنـدها يستعذب قول الشريف الرضى في ابياته المشهورة

دير سمعان لا اغبك غاد خير ميت من آل مروان ميتك

سلك عماله طريقته واستدعى الجيش الاسلامي من حصار القسطنطينية ساعة ولي الخلافة حقناً لدماء المسلمين كما سنذكره ولم يغفل مع ذلك عن غزو الروم ولو طال اجله لأجلى المسلمين عن الاندلس لانه رأى مقامهم فيها غير طبيعي لاحاطة الاعداء بهم وقد حصل ذلك بعده ووقع

وسيرته في العدل والاحسان والعلم وخوف الله تعالى والقيام بما حمله بنفسه واداء الحقوق ومراقبة العمال والضرب على ايديهم والتقـدم اليهم في العدل مشهورة افردها كثير من العلماء بالتأليف وبها تضرب الامثال فيقال سيرة عمرية يعنون بهـا عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز . ولا غرو فسير

عظماء الرجال هي زينة التاريخ ودرره التي تترصع بها صحائفه كما انها مصقلة للاذهان ومدعاة لحسن الاقتداء بهم ويا حبذا لو اكب امراء زماننا واهله على حفظ سير رجال الاسلام الاقدمين الذين شيدوا بنيانه وايدوا اركانه ورفعوا دعائمه . حتى يحصل التأثر الموجب للاقتداء بهم وانتهاج نهجهم . ولكن ويا للاسف قل ان تجد قائماً بسيرة عمر بن الخطاب وعدله وعلي بن ابي طالب وايامه ومن كان في ايامهما وبعدهما من اكابر القواد الفاتحين والعمال السياسيين المفكرين الصادقين .

ومن جملة حسنات ابن عبد العزيز اقتدائه باعمال واقوال عمر بن الخطاب وتمسكه برسالة له في القضاء كتبها في زمن خلافته لابي موسى الاشعري مطلعها : « اما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا ادلي اليك امر فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له فواسي بين الناس في مجلسك ووجهك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك . ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من انكر . والصلح جائز بين المسلمين الا صلحاً احل حراماً او حرم حلالاً . لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك . ان ترجع فيه الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة . ثم اعرف الاشباه والامثال وقس الامور عند ذلك واعمد الى اقربها لله تعالى واشبهها بالحق فانه انفى للشك واجلى للعمى . المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلوداً في حد او مجرباً عليه شهادة زور او ظنيناً من ولاء او نسب فان الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والايمان واياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات فان الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذخر . فمن حسنت نيته واقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس . ومن تخلق للناس بما يعلم الله انه ليس من نفسه شانه الله . فما ظنك بثواب غير الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام » .

واذا قايسنا بين العمرين ابن الخطاب وابن عبد العزيز نجد وشائج القرابة بينهما ظاهرة محسوسة لتحري العدل بوظائف الخلافة الدينية الى غاية لم يطمع من جاء بعدهما في ادراك شأوهما فيها . ولا عجب فالاول جد الثاني لامه لان امه ام عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب . فذلك الشبل من ذاك الاسد واما تلك الصلابة التي كانت ديدن عمر ابن الخطاب وشعاره ودثاره فلم يكن لابن عبد العزيز ان يلحق غبار جده فيها . ومع ذلك فهو اول خليفة اموي آثر مرضاة الله على هوى نفسه ادرك ذلك منه عماله يوم بيعته وعلموا ان الرجل غير سالك مسلك اسلافه كما ادركها جميع طبقات الناس . الشعراء فمن دونهم فلم يطمع احد منهم في استفزازه ولا نيل غرض منه . وقال بعضهم لبعض : الرجل رجل آخرة فالتمسوا الرزق من غير طريقه .

وخشي بنو امية ان تكون عاقبة سيرة الرجل خروج الامر عنهم ولم يأمنوا ان يعهد به الى من يرتضي دينه وامانته من اهل البيت تبين لهم ذلك بالقرائن والامارات وما كان يبديه ابن عبد العزيز من حب اهل البيت وتعظيم ما عظم الله من حقهم والاعتراف بفضلهم ومزيتهم واول ما بدا منه من ذلك ابطاله لتلك السنة السيئة لعن ابي تراب على المنابر كما اشرنا اليه فاجمعوا امرهم على معاكسته واغتياله ان بدرت منه بادرة تؤذن بذلك وربما كانت السبب في موته على ما حكاه بعض المؤرخين وان لم يثبت من طريق تعتمد صحته

نبذة من كلامه — خطب الناس يوماً على منبر مسجد دمشق بخناصره التي هي محل موته فقال : ايها الناس انكم لم تخلقوا عبثاً ولن تتركوا سدى وان لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم وقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء وحرم الجنة التي عرضها السموات والارض . الا واعلموا ان الامان غداً لمن حذر الله وخافه وباع نافداً بباق وقليلاً بكثير وخوفاً بامان الا ترون انكم في اسلاب الهالكين وسيخلفها بعدكم الباقون كذلك حتى ترد الى خير الوارثين وفي كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً الى الله قد قضى نحبه وانقضى اجله فتغيبونه في صدع من الارض ثم تدعونه

غير موسد ولا ممهد قد فارق الاحبة وخلع الاسباب فسكن التراب وواجه الحساب فهو مرتهن بعمله فقير الى ماقدم غني عما ترك فاتقوا الله قبل حلول الموت ومجيء مواقعه . وايم الله اني لا اقول هذه المقالة وما اعلم عند احد منكم من الذنوب اكثر مما عندي فاستغفر الله واتوب اليه وما منكم من احد تبلغنا عنه حاجة الا احببت ان اسد من حاجته ماقدرت عليه . وما منكم من احد يسعه ماعندنا الا وددت ان ساواني ولحمتي حتى يكون عيشنا وعيشه سواء . وايم الله لو اردت غير هذا من الغضارة والعيش لكان اللسان مني به ذلولا عالمًا باسبابه . ولكن معنا من الله كتاب ناطق وسنة عادلة يدل فيها على طاعته وينهى عن معصيته » . ثم بكى وابكى الناس حوله ولم يخطب بعدها حتى مات .

وكتب له بعضهم يعزيه عن ولد له مات فقال لكاتبه اكتب له بعد البسملة : اما بعد فان هذا الامر امر كنا وطنا انفسنا عليه فلما نزل لم ننكره والسلام

ومن كلامه : من عمل على غير علم كان مايفسد اكثر مما يصلح . ومن لم يعد كلامه من عمله كثرت ذنوبه . والرضا قليل ومعول المؤمن الصبر . وما انعم الله على عبد نعمة ثم انتزعها منه وعوضه منها الصبر الا كان ماعوضه خيراً مما انتزع منه . ثم تلا انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب . وكتب الى عبدالرحمن بن نعيم : لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه . ولا تحدثن كنيسة ولا بيت نار ولا تجر الشاة الى مذبحها ولا تحدوا الشفرة على رأس الذبيحة ولا تجمعوا بين صلاتين الا بعذر

مات في رجب سنة احدى ومائة فعمره تسع وثلاثون سنة ومدة خلافته سنتان وخمسة اشهر . ومن احسن مارثي به قول بعض الشعراء :

اقول لما نعى الناعون لي عمر لايبعدن قوام العدل والدين
قدغادر القوم في اللحد الذي لحدوا بدير سمعان قسطاس الموازين

نقل احد المؤرخين ان ملك الروم لما بلغه وفاته وهو جالس على سرير ملكه والبطارقة عن يمينه وشماله اخبرهم بموت عمر بن عبد العزيز فبكوا

بكاء شديداً فقال لاتبكوا له وابكوا لانفسكم مابدا لكم فانه قد خرج الى خير مما خلف . قد كان يخاف ان يدع طاعة الله فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا والآخرة . لقد بلغني من بره وفضله وصدقته ما لو كان احد بعد عيسى يحيي الموتى لظننت انه يحيي الموتى . ولقد كانت تأتيني اخباره باطناً وظاهراً فلا اجد امره مع ربه الا واحداً . بل باطنه اشد في خلوته بطاعة مولاه . ولم اعجب لهذا الذاهب الذي صارت الدنيا تحت قدمه فزهد فيها حتى صار مثل الراهب . ان اهل الخير لا يبقون مع اهل الشر الا قليلا .



خلافة يزيد بن عبدالملك

بويع يوم موت عمر بن عبد العزيز بعهد من اخيه سليمان بن عبد الملك بذلك فان سليمان عهد ان الخليفة بعده ابن عمه عمر بن عبدالعزيز ثم بعده ترجع الخلافة لاخيه يزيد وكان هذا طامعاً في البيعة يوم موت اخيه فاخطأته ونالت عمر فكان يتأوه ويسترجع ويحوقل استثقالاً للخلافة وفراراً من اعبائها لورعه وديانته وخوف جانب الله وكان يزيد هذا يتأوه ويتأفف ويتحسر جزعاً عليها اذ اخطأته كل ذلك في مجلس واحد . وشتان مابين المقامين ويكنى ابا خالد . ولما ولي عزل بعض عمال ابن عبد العزيز واستبدل بهم غيرهم . وكذلك فعل بالقضاة وهو صاحب حبابة التي شرقت بحبة الرمان وماتت وهي عظة في تنغيص الصفو وتكدير السرور . وعلى حبها كان يقول كذب الذين يقولون انه لن يصفو لاحد الملوك يوم فاختل عقله عليها واخذ يقبلها ويترشفها حتى انتنت وجافت ولم يعش بعدها . وكان عاجزاً في الرأي شديد الكبر مدمن الخمر صاحب لهو . مات سنة مائة وخمس فكانت خلافته سنتين وشهراً وعمره ٢٩ سنة ودفن بدمشق وقبره مشهور ومعلوم وهو الذي اعاد سب علي رضي الله عنه على المنابر ودام ذلك الى انقضاء امر بني مروان .



خلافة هشام بن عبدالملك

بويع بالخلافة بعد موت اخيه وهو ابن اربع وثلاثين سنة ونيف . وكان يوم البيعة موجوداً بالرصافة المنسوبة اليه في بغداد . فورد عليه البريد بالعصا والخاتم وبشره بالخلافة . فركب من فوره حتى اتى دمشق . وايام خلافته على الجملة احسن وابسط من ايام اخيه يزيد وهو صاحب المد الهشامي المنسوب اليه . ووقعت في زمانه مغاز عظيمة انتجت اخضاع كثير من امم الترك وغيرهم واقتطاع اقطارهم ودخولهم في الاسلام ورضاهم بالجزية . ومن عماله نصر بن سيار وغيره من مشاهير العمال . وكان هشام حازماً شهماً سديد الرأي غزير العقل عالماً بالسياسة ومذاهبها حتى قيل ان فحول ملوك بني امية ثلاثة معاوية وعبدالملك وابنه هشام .

وفي ايامه كان ظهور زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب بالكوفة فخلع هشاماً وبايعه خلق كثير وقويت شوكته . فقاتله عامل هشام على العراق اذ ذاك وهو يوسف بن عمر الثقفي . ولما التقى الجمعان انخذل اصحاب زيد واسلموه فقتله اعداؤه سنة ١٢٢ وسبب خذلهم اياه انهم سألوه عن الشيخين فقال فيهما خيراً وانهما عملا بالحق من الكتاب والسنة فقالوا له لست بصاحبنا ورفضوه فسموا الروافض من ذلك العهد . وزيد هذا من اعلام اهل البيت واليه ينسب مذهب الزيدية . وارسل رأسه الثقفي مصلوباً الى الخليفة فنصبها بدمشق وبقيت الى ولاية الوليد بن يزيد فأمر باحراقها . وفي ايام هشام ظهر اول رجل قال بخلق القرآن وهو الجعد بن جرهم فذبحه هشام . وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وتسعة اشهر واحد عشر يوماً ومات بدمشق سنة ١٢٥ وعمره خمس وخمسون سنة .

***

خلافة الوليد بن يزيد بن عبدالملك

بويع بعد موت هشام بعهد من ابيه يزيد وذلك انه اوصى ان يكون الخليفة من بعده اخاه هشاماً ثم من بعده ولده الوليد . كان الوليد الثاني هـذا فاسقاً خبيثاً منتهكاً لحرمات الله شديدالجرأة عليها . وهو الذي يقال مزق المصحف حين تفاءل فيه فطلع قوله تعالى «واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد» فمزقه وقال :

اتوعد كل جبار عنيـد   فها انا ذاك جبار عنيد
اذا لاقيت ربك يوم حشر   فقل يارب مزقني الوليد

كانت اعماله كلها رذيلة دنيئة شراً من فرعون وكان من الشعراء الفصحاء متمكناً من اللغة ولقد كذب القائل في مدحه

رأيت الوليد بن اليزيد مباركاً   شـديداً باعباء الخلافة كاهله

مات مقتولاً سنة ١٢٦ ومدة خلافته سنة وثلاثة اشهر فعمره ٣٨ سـنة ودفن بدمشق



خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك

بويع بالخلافة يوم قتل عمه الوليد الفاسق ثم مرض وكان حسن السيرة شديد الحجب ويلقب بالناقص لانه نقص رواتب الجند وهو اول خليفة امه امة ولما حاصرته الجند في قصره لقتله اخذ مصحفاً يقرأ فيه وقال يوم كيوم عثمان فقتلوه ونصبوا رأسه بدمشق ولم يزل أثر دمه بالجدار الى سنة ٢١٥ فأمر المأمون بازالته . مدة خلافته ستة اشهر بعد توليته سنة ١٢٦ وعمره ٣٧ سنة



خلافة اخيه ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك

ولي ابراهيم هذا بعهد من اخيه يزيد وصفت له الخلافة اربعة اشهر ثم قام عليه مروان بن محمد بن مروان ابن اخي عبد الملك فخلعه وانقسم الناس فئتين فئة مع ابراهيم وفئة مع مروان بن محمد ووقعت بينهم حروب كثيرة مات فيها خلق كثير وانتهت الحال بتغلب مروان على الخلافة كما نذكره وقد قتله ابن العباس

خلافة مروان الجعدي بن محمد بن مروان الطريد

قدمنا ان شجرة البيت الاموي لها فرعان فرع ابي سفيان بن حرب ونال الخلافة من هذا الفرع ثلاثة معاوية بن ابي سفيان وولده يزيد وولده معاوية الثاني وفرع مروان بن الحكم وهو الذي تفرعت الخلافة في نسله واولاده الذين تقلبت الخلافة في نسلهم ثلاثة عبد الملك وعبد العزيز ومحمد ابناء مروان فاما عبد الملك فهو اكثرهم حظاً في الخلافة ملك هو واولاده الاربعة الوليد وسليمان ويزيد وهشام . وملك ولد ولده يزيد بن الوليد وابراهيم بن الوليد وملك ولد ولده الوليد بن يزيد . وملك بالاندلس ولد ولد ولده عبدالرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك . فالقسم الاوفر من الدولة الاموية لعبد الملك وبنيه واما اخوه عبد العزيز فلم يلِ الخلافة وانما كان عاملاً لاخيه عبد الملك وتولى الخلافة ولده عمر العادل . واما اخوه محمد بن مروان فلم يلِ الخلافة ايضاً ووليها ولده مروان بن محمد هذا

وكان مروان شهماً حازماً ابياً مطلعاً باعباء الخلافة يحق له ان يتقلدها دون بني مروان كلهم اذ لم يكن فيهم كفوءاً لها غيره وكان عالماً بطرق السياسة ومذاهبها عارفاً بتصريف الامور كلها فلذلك نازع ابراهيم بن الوليد فيها فتم

له الغلب واستقل بالخلافة لكن كل ذلك لم يمنع من انقراض الدولة الاموية للاسباب الآتي تفصيلها ...

وكان كاتبه عبد الحميد بن يحيى الكاتب رئيس البلغاء وصاحب الباع الذي لا يطاول في الكتابة وهو اول من سن الكتاب اصولاً وسنناً اتبعوها واقتفوا أثره فيها الى الآن . وكان من اليقظة والتبصر بتدبير الملك في الغاية التي لا تدرك .. ولم يجتمع في دولة بني امية خليفة كمروان وكاتب كعبد الحميد ولم يغنها ذلك فتيلاً حتى قيل انقرضت الدولة الاموية على يد ادهى خليفة وأحزم كاتب . كما قيل اذا جاءت المقادير بطلت التدابير

في ايام مروان بدأت حركة الدعوة العباسية تنتشر وتنمو يوماً فيوماً واول ما بدأت في قرى الشام ولكنها باضت وفرخت في خراسان وما يليه من وراء النهر وكان زعيمها ابو مسلم الخراساني فهو جذيلها المحكك وملهب نارها ومطير شرارها بل هو صاحب المنة العظمى على بني العباس . ولم تكن الدعوة في مبدئها مقصوداً بها بنو العباس بخصوصهم وانما كانت مبهمة وعلى وجه عمومي للاصلح من بني هاشم لتذهب كل نفس مذهبها وتتبع هواها في اختيار من توده واصطفاء من تتشيع له والامر دائر بين ابناء علي بن أبي طالب وابناء العباس بن عبد المطلب والكل راج لها والامة على وجه عمومي مبتهجة بملكة احدهما ما عدا اقواماً قليلي العدد تغالوا في التعصب والتشيع لاحد الفريقين واكثرهم غلواً شيعة آل علي بالعراق . وهذا المسلك الذي سلكه اهل الدعوة من التعمية وعدم تعيين المدعو له من المسالك العريقة في الدهاء والتبصر بعواقب الامور . ومن المنازع المؤثرة في استجلاب الكافة لان الابهام يحمل الجميع على تعلق كل نفس بما تريد وذهابها الى مشتهاها حتى اذا استحكم النفور في قلوب الناس وسئموا ملكة الدولة الاموية واستثقلوا ظلها واستوبأوا مرعاها بسبب اعمال خلفائها العاجزين وبسبب ما يلقيه اولئك الدعاة في قلوب العامة من موجبات التنفير والشقاق في عين المدعو له والنفوس متعطشة الى الجديد . فتجتمع القلوب عليه وان شذ احد فبحيث لا ينفع ولا يضر

سرت الدعوة على الصيغة التي ذكرناها سريان السم وابو مسلم ونظرائه يخبون ويضعون فيها في انحاء خراسان وهناك دعاة آخرون بالبصرة والكوفة الا انهم لم يتسع لهم مجال العمل لضيق الاقاليم وتقاربها ووجود العصبية الاموية الحامية الدافعة لكل من اراد منها بسوء بل هناك دعاة في الشام تقدها مقر ملكهم وقاعدة خلافتهم ولكن لم يؤثر واحد منهم في ثل العرش الاموي .

تأمر ابو مسلم بخراسان — وكان عمال بني امية بخراسان متى عثروا على احد الدعاة او اشتبهوا فيه عذبوه اشد العذاب وقتلوه . غير ان ذلك لم يمنع ذلك التيار الهائل من الاندفاع ولم يصدهم ما يلاقونه من الاذى والقتل وقطع الاعضاء وسمل الاعين عن اتمام الدعوة واستمالة الناس بكل وجه والمبايعة سراً للرضا من آل النبوة وتوكيدها بالايمان والمواثيق وعددهم كل يوم في ازدياد الى ان مات محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بالشام واوصى ان القائم بالامر ولده ابراهيم الملقب بالامام فكتب ابراهيم الامام الى دعاة ابيه يخبرهم بوفاته ويستحثهم على الدعوة والمبايعة سراً

ولما كثر عددهم وبلغت الدعوة شأوها امرهم ابو مسلم باظهارها . فاظهروها وجعلوا شعارهم السواد . وثاروا كالسيل على عمال بني امية يقتلونهم ويستولون على ما كان بايديهم من الاصقاع والنواحي الى ان اخلوا خراسان على طوله وعرضه من الدعوة الاموية . وكان عامل خراسان من ايام هشام بن عبدالملك الى انقراض دولتهم به نصر بن سيار الكناني ذلك الرجل العاقل البصير . ولما رأى استئساد شوكة ابي مسلم واتباعه وان لا قبل له بهم . وتغافل بني امية بالشام . كتب الى مروان يستصرخه وكتب مع الكتاب ابياته المشهورة :

اري تحت الرماد وميض نار ويوشك ان يكون له ضرام
فان النار بالعودين تذكى وان الحرب اولها كلام
فقلت من التعجب ليت شعري أأيقاظ امية ام نيام
فان يك قومنا اضحوا نياماً فقل قوموا فقد حان القيام
ففري عن رحالك ثم قولي على الاسلام والعرب السلام

ولما استحكمت حلقات الدعوة الهاشمية بخراسان انتقل ابراهيم الامام ومن كان معه من ذويه من الشام الى العراق . وتجاهروا بالدعوة اليهم واخرجوا العمال الامويين من المصرين . البصرة والكوفة ثم مات ابراهيم الامام فخلفه اخوه ابو العباس عبد الله الملقب بالسفاح . فبويع بيعة عامة بالخلافة وامرة المؤمنين فلذلك يعده المؤرخون اول خلفاء بني العباس وهو عبد الله بن محمد ابن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم .

دخلت العراق وخراسان في حوزة بني العباس ، فاشرأبت جميع الممالك الاسلامية الى اعتناق بيعتها وودت لو تعطيها صفقة يمينها . وتوليها من الولاء والاخلاص صفو معينها وتستريح من المملكة الاموية التي ساء اثرها فيهم . والسبب في نفور الامم من السلطة المروانية الاموية وتذمرهم منهم وتمني غيرها ينحصر في امور تستنتج من تاريخ دولتهم بعضها خاص وبعضها عام ، فمن اخصها واقدمها العداوة المتأصلة والنفور المستحكم في قلوب اهل العراق واهل الحجاز من ايام خلافة علي بن ابي طالب وبسببها كانت تلك الحروب الهائلة بين العراقيين . والشاميين المنقادين لأوامر معاوية . ثم لما تم الملك لمعاوية رضي هؤلاء رضاء قسر وقهر وغلبته بملكيته . وفي نفوسهم مافيها من الاحقاد والضغائن ، ولم تزل آثارها تظهر من حين الى آخر كلما هبت نسمة تذكر بالقديم .. رغماً عما كان يتوسل به معاوية ويتوصل لاطفاء تلك النيران الملتهبة في القلوب ، واماتة لتلك البغضاء الكامنة في الصدور ، تارة بالبذل والاسعاف بالرغائب ، وتارة بالحلم والاغضاء عن البوادر والهنات التي كان غيره يجازي عليها بالقتل والتمثيل وسلب المال والولد

كل هذا لم يفد معاوية شيئاً في سل السخائم وتليين الشكائم . واخذ صفو القلوب واخلاصها ، فبقي الجمر مستتراً بالرماد . والاحقاد محجوبة بمسحة من ظواهر الوداد . ولم يستفد من تلك المعاملة الحسنة والحلم المتناهي الا تسكين الثوائر موقتاً مدة حياته . ولما مات وافضى الامر الى يزيد ولده ، فر من كان قاراً لسوء سيرته وقبح سريرته . والفرق ما بينه وبين ابيه فرق ما بين

الثرى والثريا . فعمد الى الشدة بدلاً من اللين والقسوة عوضاً عن الرفق فنفرت منه النفوس حتى شيعة ابيه وبطانته . حاشا شرذمة ممن كان على مشربه من حلفاء اللهو والبطالة والقصف والعزف ومعاقرة الخمور . وهؤلاء لا يقوم بهم ملك ولا يعتز بهم مالك . فنتج عن ذلك النتائج المشهورة بل المصائب الفاقدة والبلايا المؤلمة مثل وقعة الحرة بالمدينة المنورة ووقعة آل البيت بكربلا مما هو مسطر في التاريخ ثم خروج عبد الله بن الزبير بمكة وغيره الخبر واتصل بتلك الاسباب ثم خلف بعد يزيد خلف فيهم الصالح والطالح فالصالح وان بلغ ما بلغ لا يزيد عما كان في زمن معاوية من ستر الامور وسد الفتق موقتاً والطالح يزيد الطين بلة والجرح ألماً فهدأت الاحوال وسكنت الاضطرابات قليلاً في ايام عبد الملك رضي الناس بملكه ظاهراً لما كان ينتحله من الدين ولدخوله بيوت السياسة من ابوابها . ثم ولده الوليد سليمان واكبر منفر في زمن معاوية وهلم جرا الى سليمان ما كانوا يجاهرون به من لعن ابي تراب على المنابر والتشهير بذلك في المحافل الحاشدة في مثل صلاة الجمع والاعياد

وأثر هذه السنة السيئة لا تختص بنفوس شيعة علي بن ابي طالب فقط بل تعم كل مسلم يعلم ان علياً خليفة فضلا عن صحبته وسابقته في الاسلام وما اترعنه من الدين والتقى والعلم والقرابة . ثم جاء العادل عمر بن عبد العزيز فابطل تلك السنة وغيرها حاذى في سيره سيرة جده عمر بن الخطاب مدفوعاً بدينه المتين الى ذلك فرضيت النفوس وهي ميالة بفطرتها الى العدل والاستقامة . الا نفراً اشربت قلوبهم حب الجبروت والكبرياء وتلونت بالصبغة التي كانت عليها خلفاء بني امية من قبله حتى ان شيعة اهل البيت اعترفوا بفضله وعدله وصلاحيته للخلافة كما تنطق بذلك ابيات زعيمهم الشريف الرضي نقيب الطالبين واشعر الهاشميين المتقدم ذكرهم معنا .

ثم عادت الامور بعد موته الى ما كانت عليه او اشد . نزد على ذلك المنازعات التي وقعت بينهم في تجاذب حبل الخلافة والفتن التي وقعت من جراء ذلك . وظلم العمال واعتسافهم الناشيء عن اهمال الخلفاء لشأنهم وعدم تعقبهم فانفتقت

الرتوق وطمحت النفوس الشريرة الى الشقاق والنفاق وانفجرت براكين الاحقاد القديم ووجد الاعداء السبيل الى القيام والخروج وشق العصا والنفوس اذا سئمت حالة واستحكم فيها النفور منها طلبت غيرها ومالت الى سواها كائنة ما كانت ولان قيادها لمن يريد صرفها ولمن يمنيها بتبديل الحالة كائنا من كان فما ظنك بابناء العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وابناء فاطمة بنته ومكانتهم في نفوس الامة اذ ذاك مكينة فبدأ دود الفساد ينخر في عظام الدولة الاموية حتى انهك قواها في مدة وجيزة . ودعاة الهاشميين لا يألون الجهد في بث الدعوة ومن مهارتهم ان اختاروا خراسان عشاً لاعمالهم لبعدها عن مقر الخلافة واسباب اخرى اعظمها ان قطان خراسان والسواد الاعظم منهم اعاجم من الفرس وغيرهم وهم اشد الناس نفوراً من السلطة الاموية لما آنسوا في جميع ادوارها من ايثارها للعرب عليهم في المعاملات كلها وادلال العرب انفسهم عليهم بعزة الفتح. ويضاف الى ذلك سوء سيرة العمال وقبيح اثرهم في النفوس فلا غرو ان كانت خراسان مهداً للدعوة العباسية ومجالا رحيباً لبثها وتلقي ابنائها بالقبول لها

بدأت حركة الدعوة من ايام علي بن عبد الله بن العباس في خلافة عبد الملك ولم تزل ضئيلة الى ان مات بالحميمة قرب دمشق وبقي ولده محمد متشبعاً بالفكر الذي لقنه ابوه وهو تكثير سواد شيعته وان يكون ميدانها خراسان كما ذكرنا . وكانت بالعراق وخراسان شيعة اخرى لمحمد بن الحنفية من اولاد علي كرم الله وجهه . يرون انه احق بالامر بعد اخويه الحسن والحسين ويبايعون الناس له سراً. وكلما ظهر عليهم من عمال بني امية احد عذبوا واوذوا . لكن اراد الله اتمام الدعوة العباسية

توفي محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بالحميمة ايضاً حيث مات ابوه وعهد بالامر لولده ابراهيم فقام بالدعوة الى ان قتله مروان بن محمد بهدم داره عليه فقام بالامر بعده ولده ابو العباس عبد الله السفاح وهو اول خليفة من بني العباس ووقعت في هذه المدة من موت جده علي الى زمن

المجاهرة ببيعته حروب تشيب الاطفال بين ابي مسلم ورجاله وقواده وبين عمال بني امية كنصر بن سيار بخراسان وبين اعمام السفاح كعبد الله بن علي وبين مروان بن محمد نفسه في نواحي المدائن . الى ان كانت الواقعة المشهورة بينهما على نهر الزاب بين الموصل واربل انكسر فيها مروان انكساراً شنيعاً على كثرة جيشه وقلة عدد عدوه فكانت هذه الوقعة مقدمة لفشله وادبار امره بقدر ما كانت مشددة لآمال بني العباس وآية لاقبالهم وسعودهم فرجع مروان منهزماً الى حمص لا يلوي على شيء ثم منها الى دمشق ثم الى فلسطين ثم الى مصر واعدائه يتعقبونه بقتل رجاله واغتنام امواله واقتاص ممالكه ووقعت بينه وبين صالح بن علي السفاح مقتلة في الابوصير من مصر قتل فيها مروان وانتهى امره وتقاص بموته ظل الدولة الاموية من المشرق كله وكان قتله في ذي الحجة سنة ١٣٢ وعمره ٦٢ سنة ومدة خلافته خمس سنين وعشرة اشهر ونصف وكانت مدة خلافة الامويين الف شهر وبما انقرضت دولتهم علم ما قاله الحسن بن علي من الحكمة لما قيل له لم تركت الخلافة لمعاوية فقال ليلة القــدر خير من الف شهر . كما انه عوتب على النزول عن الخلافة لمعاوية فقال اخترت ثلاثاً على ثلاث الجماعة على التفرق وحقن الدماء على سفكها والعار على النار



حالة دمشق الاجتماعية والعلمية في ايام الدولة الاموية

من مبتدأها الى منتهاها

من تصفح سير الخلفــاء الراشدين وتلك التعاليم التي لقنوها من اشرف الرسل نبينا محمد عليه الصلاة والسلام واحتــذوا حذوها في جليل اعمالهم وحقيرها . وحرصهم على اي كلمة تؤثر عنه في نازلة يستفتى عنها حتى تكون لهم حجة يبنون عليها احكامهم . ثم القى نظرة سطحية على احوال المجتمع في

اواخر ايام معاوية بعد ان يعلم انّ من السنن الطبيعية في هـذا الكون ان العامة على دين الملوك . وان الرعية تنصبغ بصبغة الرعاة كيفما كان حالها من صلاح او فساد . رأى الفرق بادياً والبون بيناً بين الحالتين والزمانين وعلم ان ليس طول الامد وحده مؤثراً في تغير احوال المجتمعات البشرية . ولكن اختلاف الملكة ونفوذ آثارها وانطباعاتها قبحاً او حسناً مما يؤثر التأثير القوي على استحالة الاحوال قبل تعاقب الاجيال . وما هي الا ثلاثون سنة بعد موت صاحب الشريعة الاسلامية كفت وحدها لذلك الانقلاب البين أثره في النفوس وليس تأثيرها في ضعف الوازع الديني وفتور العصبية الدينية باقل من تأثيرها في ذلك الانقلاب بل هما من واد واحد عند تحقيق النقد في مجرى الاحوال الطبيعية للامم في اطوارها الاولى . وقد اشتهر عنـد فلاسفة الاخلاق ان الدول وان تقاربت في الانساب فلكل واحـدة منها صبغة تخصها وهي التي يبدو أثرها في نفوس العامة . ومعلوم ان العرب ماتقدموا ذلك التقدم العظيم في تلك المدة الوجيزة وانكفأوا على مجاوريهم من الامم ذات الحول والطول وانتقصوا ممالكهم من اطرافها الا بحسن الملكة من العـدل والرفق والمساواة واحترام الاموال والاعراض والاديان والعادات وغيرها مما جبلت النفوس على الضنانة به . وتلك هي تعاليم الاسلام التي تلائم كل فطرة وتسير مع المعقول جنباً لجنب . وشواهد ذلك كثيرة في تاريخ الخلفاء الراشدين وعمالهم فقـد كانوا يأخذون الناس على اختلاف طبقاتهم بهـا حتى اشربتها قلوبهم وخالطت سهولتها ولينها بواطن افئدتهم في اقرب وقت ولم يتجاوزها رئيس ولا مرؤوس ولا تخطاها ملك ولا سوقة .

ولما انقضت خلافة الخلفاء الراشدين وخلفتها الملكية الاموية واستقرت واصطبغ الناس بصبغتها بعد ذلك العراك الطويل شوهد لآخر دولة معاوية تقدمه ضعف قليل في الوازع الديني بما سلكه الامراء من الانحراف عن تلك الجادة المثلى التي نهجها الخلفاء قبلهم وعقبوها ومخالفة تلك القوانين التي شرعوها اقتباساً من كتاب الله وكلام خاتم انبيائه عليه الصلاة والسلام وبما تدرج اليه الناس تبعاً

سلطانهم من مذاهب الحضارة وانغمسوا فيه من أحوال الترف والبذخ ١٩
وقوي هذا الضعف تدريجاً حتى اصبح بعض خلفائهم ينهي عن مراجعته في اقل الاشياء ويتوعد على ذلك بالقتل . وبعضهم يتأوه من قول اتق الله . وبعضهم يخالف في احكامه صرائح الدين . دع عنك التهاون بالشعائر الدينية في خاصة النفس وعدم الاكتراث بارتكاب المنهيات وان كان مقام معاوية ومروان وابنه عبدالملك وعمر العادل ويزيد بن الوليد في الديانة مما هو مستفيض متواتر لاينكر .

فظهرت الدولة في اول حال من احوالها بمظهر الاستبداد ونقض قواعدها المساواة بين الافراد في الحقوق دون امتياز ولا محاباة . ولا يخفى مما سطره تاريخ الاجيال الماضية والدول التي نشأت الى عهدنا هذا ان اكبر داع لانهيار الممالك العظيمة وتقويض اركانها هو الاستبداد فما سلكت سبيله دولة واتخذته شرعة لها الا وتأذن الله بخرابها وهو امر لا يحتاج الى اقامة حجة لوضوحه وكثرة شواهده مما قص التاريخ علينا نبأه بالحق . وسرعان ما انسلخت النفوس عن تلك الاخلاق العالية والآداب المرضية التي اقتبسوها من آداب الكتاب والسنة وتعاليمها . وما بذره عمر بن الخطاب من الصفات الكاملة في النفوس فصادفت منبتاً طيباً . وما عتمت ان بسقت وازهرت ثم ما لبثت ان ذوت وذبل غراسها الزاهر والزمن قليل والمدى غير متطاول

ولقد يقف الانسان حيران ويهيم في اودية الافكار مناجياً نفسه ومسائلاً خياله ما الذي اوجب ذلك الانقلاب السريع من النقيض الى نقيضه وربما كان استغرابه لهذا التبدل في الاخلاق اشد من استغرابه واندهاشه للتبدل الاول من غضاضة البداوة وجفاء الجاهلية وخشونة الطباع وشدة العرائك الى اضدادها عندما انبثق نور الاسلام لاول انصداع فجره ودعى مناديه فاسمع والعلة التي يتسائل المتسائلون عن سببها واضحة اما الانقلاب الاول فلسنا بصدد تعليله وما على المتعطش لمعرفته واستطلاع طلعه الا ان يرجع ببصره في سماء التاريخ الاسلامي لاول ظهوره ويدرك لاول وهلة سر اعتلائه الفجائي

وقد ألمعنا فيما سبق من الفصول الى بعض ذلك وان كان بطريق العرض ففيه لمحة كافية في الغرض

واما التبدل الثاني وهو انقلاب مبادئ المساواة الى الاستبداد والاخلاق العالية الى اضدادها فعللها فيما نعلم ترجع الى اصل واحد وهو زيغ الامراء وانحرافهم عن المهيع الذي سلكه من قبلهم وخرق السياج بعدم اتباع القوانين التي شرعت لاصلاح المعاد والمعاش . وشتان ما بين الحالتين حالة يغدو فيها الاعرابي الجافي وعصاه على عاتقه فيدخل على عمر بن الخطاب مستفدياً او مستجدياً فلا يخشى سيطرة حاجب ولا تجهم حارس ثم لا يزيده في معرض المخاطبة بعد مثوله بين يديه على قوله يا عمر ما شأن كذا او يا ابا بكر افعل كذا فيجد الصدر الرحيب لمقابلة جفوته بالبشاشة والاذن الواعية لتلقي نفثاته بالقبول وحالة يغدو فيها زعيم القوم وخطيبهم وحامل راية البلاغة على عامل من عمال الحجاج فيجد منال الثريا دون مناله وطرق الدخول موصدة دونه بسور من الحجاب والبوابين . ثم اذا خدمه الحظ واتفق له البخت لمقابلة الامير ضرب على لسانه باقفال من الارتياع وغربت عن فكرته اساليب المخاطبة . ونضب ينبوع بلاغته وما ذلك الا لما يتوهمه من استبداد ذلك العامل وبطشه والشواهد نصب عينيه . فمن اين تأتي النصائح والمواعظ المطلوبة من الرعايا للراعي ومن اين يصل ذو الحق الى حقه ولو كان كفلق الصبح ظهوراً اذا كان دونه سبعة اسداد

وبهذا تدرك سر الانقلاب العظيم والفرق البعيد بين الدولتين دولة الخلفاء الراشدين وتاليتها وتستطلع كنه حقيقة الحالة الاجتماعية ايام الدولة الثانية بما رسمناه لك من الامثلة وان كانت قليلة الا انها رموز تشير الى ماورائها ونحن وان كان مرمانا حالة دمشق فقط لان بحثنا مقصور عليها . الا انها لما كانت مقراً لملك تلك الدولة ومطلعاً لنشأتها الاولى فمن الضروري ان يكون حظها من صبغة الدولة اوفى . ان خيراً فخير وان شراً فشر

بقي ان لتلك الدولة امتيازات فاقت بهـا غيرها من الدول الاسلامية التي جاءت على أثرها . منها نقل بعض رسوم دول فارس والروم وقوانينهم التي ترجع الى عمران المملكة مثل ضرب النقود ونقل الديوان من الرومية والفارسية الى العربية ولا يخفى ما للديوان في ذلك العهد من الاهمية في ضبط الحسابات والخراجات التي هي قوام الدول زيادة عن كونها عنوان عظمتها لما فيها من الانتظام ومن فوائد ذلك استخلاص ابناء الدولة المخلصين واولي عصبيتها من العرب لوظائف الكتابة ويشير الى ذلك قول بعض كتاب الدولة من الروم لمـا نقل الديوان الى اللغة العربية فقال ذلك الكاتب لبني جلدته واخوان صناعته ما معناه اطلبوا معيشتكم في غير هذه الصنعة فقد خرجت من من ايديكم وتقلدها غيركم . ومن مزايا هذه الدولة ايضاً المحافظة على العصبية العربية التي بها علا شأنهم وتمكن سلطانهم فقد كان خلفاء هذه الدولة لا يولون المناصب الرفيعة والرتب النبيهة الا للخاص من سراة القبائل العربية ولا سيما قيادة الجيوش في الحروب علماً بان امثال تلك الرتب لا يبقي فيها الا ذو العصبية المتمكنة من اعيان الدولة وظهرائها حتى يبلوا فيها البلاء الحسن فنبغ في دولتهم من القواد المشاهير البصراء بمكايد الحرب ودخائلها امثال عمرو بن ابي وقاص وزياد بن ابيه وولده عبدالله والمغيرة بن شعبة وخالد بن عبدالله القسري وموسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد فاتح الاندلس والحجاج بن يوسف والمهلب بن ابي صفرة وبلال بن ابي برده بن ابي موسى الاشعري ونصر بن سيار وامثالهم من مغاوير الهيجاء وابطال اللقاء . وقد دلت التجارب وتقلبات الدول على ان تشييد الممالك لا يكون الا على ايدي رجال من اولي عصبيتها وممن يشاركها في الالتحام بنسب وعصبية وعنصر واحد؛ واحسن مثال لذلك في عصرنا الحاضر ماوقع من رئيس جمهورية تركيا الجديدة الغازي مصطفى كمال باشا احد قواد تركيا زمن الحرب العامة الذي ذهب من دار الخلافة الاسلامية أثر احتلال الدول المتحالفة الغربية لها بعد انكسارها مع حلفائها في الحرب العامة الاخيرة الى

بلاد الاناضول لتسليم مابها من القوة والاسلحة العسكرية ليد الانكليز بموجب امر عال

أبت نفسه الكبيرة الاسلامية ان يحمل هذا الذل وان يخضع للقوة الغاشمة الغالبة . وهو يحمل قلباً اقوى من الحديد فجمع حوله في انقرة عاصمة الاناضول ليوث الحرب والوغى من ابناء جنسه الاتراك واخذ يلقنهم المبادئ الوطنية ويبين لهم انه لم يبق في دار الخلافة من تجب طاعته الدينية . لانهم في حكم الاسرى في يد عدوهم الغالب . وانه في مثل هذه الحالة الحرجة يجب على المسلمين ان يولوا لزعامتهم رجلاً منهم ليشتغل الجميع في نصرة الدين وارجاع مجد هذه الدولة الاسلامية وحفظ خلافتها . فالتفت حوله الجموع العديدة من اهل تلك البلاد وجمع مجلساً وطنياً من اهم الرجال . وجاءه المدد رجالا ومالا من جميع الاقطار الاسلامية . وبعد حرب متواصلة ثلاث سنوات كانت النتيجة ظفره الباهر وارجاع عدوه اليونان وطرده من الاناضول الذي كان مجهزاً باعظم العدد مع وفرة المدد . ومساعدته من قبل اعظم دولة في العالم المشهورة بعداوة الاسلام وغايتها تشتيت دولته .

وقد كان السيد احمد السنوسي الكبير بطل افريقيا زوحاً كبيرة فياضة بالمواعظ الدينية العالية لهذا القائد وحينئذ سهل له كل صعب وهون عليه كل عسير وامره بالسير في الامور كلها على مقتضى الشريعة الاسلامية وجمع عليه القلوب واستنزل له النصر من علام الغيوب

فاسترد ذلك الجيش الظافر البلاد الاناضولية باجمعها التي كان غصبها اليونان بامر تلك الدولة وبهذه الواسطة ردت الى الاتراك جميع بلاد تراقية وعاصمتها ادرنه في البلاد الاوربية وتخلصت من ايدي اليونان وحكمه فاوجد بهذا النصر العظيم دولة اسلامية تركية من العدم بعد انكسارها وذهاب بلادها وجعل اوروبا تعترف لها بالحق في الدخول في عصبة الامم وانها دولة معظمة بعد ان حكم باعدامها وزوالها من الخريطة والبسيطة وانه لا اضر على

الدولة واسرع لهدمها وفنائها من قيام الدخلاء بشؤونها العالية ممن لاتجمعهم بها جامعة نسب وعصبية . واعتبر ذلك بما وقع للدولة العباسية بعد خلافة المأمون لما استبد بشؤونها اولئك الدخلاء من مماليك العجم كيف اسرع اليها الخراب ونخرت عظامها . ولم يزل داء الاختلال يدب دبيبه في جسم الدولة العباسية ويتزايد بتزايد نفوذ اولئك المماليك حتى كان عاقبتها الدمار والامر لله الواحد القهار

واما حالة العلم في الدولة الاموية عموماً فالدولة لم يتسع نطاقها بل قرب مبتدأها من منتهاها فانقرضت والسذاجة العربية لم تزل مخيمة عليها وهمتها في تلك المدة مصروفة كلها الى الفتح والغلب وقمع الثائرين . فلم يتسع لها الوقت حتى تنشر العلوم والمعارف وتنقل اليهم علوم فارس والروم بطريقة الارث الطبيعي . لذلك لم يروج في دولتهم الا العلوم الدينية لقربهم من عصر النبوة ووجود رجال الاجيال الثلاثة الذين اختصوا بحمل الشريعة الاسلامية بالتوارث فكانت بحار تلك العلوم زاخرة واسواقها نافقة وان كانت حواجز الاستبداد تحول بين العلماء وبين تأدية وظائفهم في بعض الاحيان . ولولا شجاعة بني العلم وغيرتهم الدينية لم نسمع للحق صوتاً في مثل ايام الوليد بن يزيد ويزيد الاول ومن على شاكلتهما . واما العلوم العقلية فلم تشم لها رائحة في ذلك العصر . وحظ دمشق من العلم اذ ذاك حظ غيرها ان لم يكن انقص لان الحجاز والعراق سبقاها باستقرار الجم الغفير من فحول رجال الاجيال الثلاثة فيهما فكان قسطهما اوفر

وفي هذه المناسبة ننقل ماقاله الكاتب الدمشقي في مجلة المقتطف عند بحثه في الحالة الاجتماعية عن دمشق : « ان الدولة الاموية لم تتفرغ للعمران لانصراف وجهتها الى الفتوح وبث الدعوة وكبح جماح الخوارج والقدرية والأزارقة والصفرية وغيرهم . ثم قال : ولقد قسم العارفون بأيام الناس تاريخ دمشق الى ستة ادوار . كما يقسم علماء الجيولوجيا طبقات الارض الى ستة اقسام في الغالب ايضاً فكانت مستقلة نحو ١٤٥٠ سنة . وبسط البابليون والفرس

ايديهم عليها ٤١٧ سنة . وظلت بها حكومة اليونان السلوقيين ٢٤٧ سنة ، وحكمها الرومان ٦٩٦ سنة ، وسادها العرب المسلمون ٤٤١ سنة ، وتملكها الاتراك العثمانيون منذ سنة ٩٢٢ هجرية الى سنة ١٣٣٧ . وقال ايضاً : مامن أثر يدل على كيفية حكومتها ايام استقلالها وعمرانها في تلك العصور المظلمة وان سقطت مراراً في ايدي اليهود صيروها عاصمة سورية ولذا تكرر اسمها في سفر التكوين تحت اسم آرام ، وحكمها ملوك وردت اسماء بعضهم في التوراة لكن تصعب معرفة ازمانهم واحوالهم انتهى كلامه» .



الفصل الخامس

في حالتها ايام الدولة العباسية من اولها الى اول الدولة العثمانية وعمالها من قبلهم والمتغلبين عليها والمشهور من آثارهم على وجه الاجمال وبيان الحالة الاجتماعية والعلمية كل هذه المدة

لم يرق للعباسيين بعد ان فازوا على امثالهم ومناوئيهم من بني امية وانتزعوا الملك منهم بالقهر والغلب وشفوا صدورهم بادراك ثأر رجال بني هاشم الذين قتلهم بنو امية ، ان يقتفوا آثارهم بعد ذلك كله في شيء من مراسم الملك ، ولا ان يحتذوا حذوهم فيه ، اللهم الا في الضروري الذي لا محيد عنه فكان في فاتحة ماخالفوهم فيه هجر دمشق وعدم اتخاذها كرسي ملك وقرارة دولة ، مع استجماعها للشروط الطبيعية لذلك فاستقر السفاح اول خليفة لهم بالكوفة ومنها كانت تصدر أوامره الى ان افضت الخلافة الى اخيه ابي جعفر المنصور فسمت به همته الى اختطاط مدينة في بقعة فسيحة جامعة المرافق العمرانية ، بعيدة عن وخم الكوفة ، يصطفيها لسكناه ويجعلها مخيماً لجنوده ورداً يتحصنون به عند عدو العوادي ونوب النوب ، فرسم لبعض خواصه العارفين بخواص البلدان ان يرتادوا له بقعة توافق غرضه وتقع من مرامه وتبعد به عن

عن هواء المصر العتيق . فضرب الرواد في الارض متتبعين مجاري الدجلة حتى وقع اختيارهم على موضع مدينة بغداد . ووجدوها اوفق ما يكون لغرض الخليفة فانقلبوا اليه بالخبر . فخف لمشاهدتها بنفسه ووقعت منه احسن موقع . فامر للحين باختطاط المدينة وانتقل اليها باهله وبطانته وجنده. والقت الخلافة العباسية من يومئذ مقاليدها ببغدادها الى انقراضها . ثم تكاملت العمارات فيها بعد المنصور وتفنن الخلفاء في تشييد القصور وجاراهم الوزراء والقواد والخواص في ذلك بقدر استبحار الحضارة الى ان بلغت بغداد شأوها في العمارة والتأنق والنضارة الى الحد الذي يقول فيه القائل :

دار الشرائع روما كلما ذكرت   دار السلام لها القت يد السلم

وكان ذلك في سنة ١٤٥هـ وبعد ذلك بخمس سنوات مات ابو حنيفة وفي سنة ١٤٨ مات جعفر الصادق بن محمد الباقر

وبعد ان استقر المنصور ببغداد صارت دمشق مركز عمال لجميع ما يقرب منها . بعد ان كانت مقر دولة الامويين ومصدر أوامرهم ونواهيهم . ومبعث آمال ومحط رحال . ففقدت قسطاً وافراً من جمالها وبهجتها . ولحق الخراب قسماً عظيماً من المباني الفاخرة التي شيدها الامويون بسبب الفتن التي وقعت اثناء الانقلاب وان كانت احتفظت بمحاسنها الطبيعية ولم تجسر حوادث الايام على استلابها منها من حسن الموقع ونقاوة الهواء . وكثرة الانهار وخصب التربة . وقد توالت عليها لذلك العهد وبعده فتن داخلية بين السكان سببتها مراجعة القديم من التراث والاحن والتعصب الجاهلي الذي جاء الاسلام منادياً بالنكير على منتحليه فكبح من جماحه واخفت من صوته.لكن عروقه مازالت تنبض كلما خالط مزاج الاقوام عارض يحرك دمه فيهم .

ومن اهم تلك الحوادث الفتنة التي وقعت بدمشق بين المضرية واليمانية لاول الدولة العباسية كما سنشير اليه . ولولا سطوة الخلافة ورهبتها في عنفوانها . وتداركها للحوادث بقطع رؤوس الفتن ووقوفها لذلك بالمرصاد . لاصبحت دمشق في مثل الحالة التي كانت عليها ايام الكنعانيين والآشوريين والبابليين

واليونانيين والاسرائيليين والروم ايام كانت ملعباً لجياد القتال والسفك وكرة لصوالجة المتغلبين من الامم ، ينتزعها هؤلاء من اولئك بحكم السيف والقهر فتجري انهار من الدماء ، ثم لا يبلغ الغالب من وصلها املا ، ولا ينال بنعيم الراحة فيها غاية حتى يهاجمه من يريد انتزاعها منه . وهذه حالها في العصور الحالية منافسة فيها وافتتاناً بجمالها وكونها مهبط الوحي ومسكن الانبياء ، وانها لحقيقة بذلك جديرة بان يتنافس بها المتنافسون ويمهروها دماءهم الغالية ، ناهيك بمدينة استولت على جميع ما تفرق في غيرها من المحاسن الطبيعية واستغنت عن غيرها فلا غرو اذا سميت غانية .

بعد ان صارت دمشق مركز عمل كما ذكرنا تقلبت بها الاحوال فتارة تكون مستقلة بعملها وتوابعها وملحقاتها يحكم في جميعها عامل واحد يعين من قبل الخليفة ببغداد وتارة تكون تابعة لغيرها من الايالات الى ان جاء دور استبداد العمال بالنواحي التي تحت ايديهم وضعفت الخلافة العباسية عن نيلهم وقصرت يدها عن الوصول اليهم فكان لها من ذلك قسط ، فدخلت في ملكة بني طولون المستبدين بمصر والشام ومن عمالهم (طغج) امير دمشق ، ثم في ملكة الاخشيد بمدة ، ودخلت في حوزة القرامطة مرات في ذلك الاثناء ، ثم في قبضة العبيديين خلفاء مصر وافريقيا . ثم رجعت صورة للحكم العباسي بواسطة (الب ارسلان) السلجوقي والحكم الحقيقي للامراء السلجوقيين المستبدين . وفي آخر ايامهم شبت الحروب الصليبية وكانت دمشق من جملة ما التهم فيها من الممالك الاسلامية الى ان انتهت واستخلصت على يد السلطان نور الدين الشهيد الذي هو الاصل والمادة للدولة الايوبية التي تفرعت عليها جميع الدول التي حكمت مصر والشام الى ان جاءت الدولة العثمانية .

ونحن نلم في كتابنا هذا على شريطة الاختصار بما كان في دمشق من اول الدولة العباسية الى اول الدولة العثمانية الماماً ونقتصر على العمال المشهورين والوقائع المشهورة والتقلبات السياسية التي صارت اليها دمشق والآثار التي ابقتها فيها كل دولة حتى يكون كالفهرس لتاريخها كل تلك المدة فنقول :

ان اول عامل عباسي على دمشق هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ولاه عليها ابن اخيه ابو جعفر عبد الله السفاح اول خلفائهم ولقد كانوا في اول امرهم تقاسموا الاعمال والولايات بين اخوة السفاح ابناء محمد بن علي وبين عمومته ومن اشهرهم في ذلك واكثرهم غناء عماه داود وصالح ابنا علي بن عبدالله.

ولم يزل عبد الله عاملاً على دمشق ايام السفاح وكانت سيرته بين اهلها مرضية على العموم . ولما كان يغلب على سلف بني العباس من اتخال الدين والتخلق باخلاقه والتأدب بآدابه ولا بدع فليس بين اول خلفائهم وبين جدهم حبر الامة عبد الله بن عباس الا اوان من خيرة الامة وافرادها المعدودين في الدين والعبادة . وكان ابوهم (علي) يلقب بالسجاد . لقب بذلك لكثرة صلاته . ولما مات السفاح واجمع اهل الحل والعقد من شيعتهم على تنفيذ عهده ببيعة اخيه ابي جعفر المنصور انف عمه عبد الله هذا من ذلك . وحدثته نفسه بانه احق بالخلافة لتقدمه في السن وابلائه في تشييد ملكهم . وكونه اعلا من اولاد اخيه بدرجة في عمود نسبهم فدعا بدمشق لنفسه بالخلافة . وبلغ الخبر ابا جعفر المنصور فجهز جيشاً لمقاتلته ولما ظفر به اعتقله واستعاض منه بعامل آخر وبقيت دمشق سائر ايام ابي جعفر المنصور وولده محمد المهدي هادئة ساكنة ولم يحدث فيها من الحوادث الاجتماعية ما له اهمية او يستحق الذكر . سوى ان مقدمات الانحطاط اخذت في الظهور عليها لاخناء الحوادث عليها بفقدها عزة الخلافة وابهة الملك والدار جميلة بسكانها

وفي ايام الرشيد خامس الخلفاء العباسيين في سنة ست وثمانين ومائة هاجت بدمشق الفتنة العظيمة التي المعنا اليها بين المضرية واليمانية لاسباب ترجع الى التعصب القديم واستمرت هذه الفتنة اربع سنين فاقامت الرشيد واقعدته وكدرت صفو ايامه التي كانوا يسمونها عروس الدنيا حتى رمى تلك الفتنة بشهابه الثاقب وسهمه النافذ ووزيره المخلص بل قسيمه في رضاعه وشريكه في لذات شبابه . جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك وجهز معه من الجيوش ما فيه الكفاية لاخماد تلك الثورة ورسم له اموراً الزمه بالوقوف عند حدها

واوسع له المجال فيما سواها . فسار الى دمشق وتمكن بفضل دهائه وحسن سيرته وحلمه وكرمه من اطفاء تلك النار الموقدة واصلح وآخى بين القبيلتين فكانت تلك الفتنة مما ساعد على انحطاطها وقضى على كثير من محاسنها وعمرانها ولو كانت تلك الفتنة مبنية على تشيع بني العباس او اقتتالهم لأثرت في حيثية الحكومة واوجبت فيها تغييراً كبيراً

ومن العجيب ان الفتن والمنافسات بين القبيلتين المذكورتين كانت كثيرة الوقوع في الاندلس ايام الفتح الاسلامي وبعده . وهم اذ ذاك جيوش محاربون وغزاة مرابطون . وكذلك وقعت بينهم بخراسان مرات متعددة وهي عند المتأمل الباحث عن الاسباب الاولية والعوامل القوية في احتقار الاعاجم من الفرس وغيرهم لجنس العربي وطمعهم فيهم . ونعوذ بالله من تفرق الكلمة وانشقاق العصا وقد وقع ايضاً في هذا الزمان ...

واخبار هذه الفتنة وبعث الرشيد لجعفر بن يحيى وما اوصاه به وما قاله جعفر للرشيد بعد رجوعه كل ذلك مبسوط في التاريخ الكبير لابي جعفر الطبري وغيره وفيه كثير من المنازع السياسية في ذلك العهد وهذا مما يهم الباحث على احوال الدول وسياستها المقابلة بينها .

وبعد هذه الفتنة بمدة قليلة الى صدر دولة الامين بن الرشيد ضمت الشام الى مصر وصار العامل عليها واحداً ومقره بمصر وهو ينتخب نائباً عنه بدمشق

وفي سنة خمس وتسعين ومائة ظهر بدمشق ابو العيطر السفياني فبايعوه بالخلافة واسمه علي بن عبدالله بن خالد بن الخليفة يزيد بن معاوية بن ابي سفيان فطرد عاملها الامير سليمان بن المنصور فسير اليه الامين عسكراً لمحاربته

لم يقدر لاحد من خلفاء بني العباس الستة ان يدخلوا دمشق بعد استخلافهم الا ما كان من السفاح واخيه المنصور ايام كانا صبيين فقد دخلاها مرات مع جدهما علي بن عبد الله بن عباس وقصته مع عبد الملك في توصيته عليهما مشهورة الى ان كانت ايام المأمون فغزا بنفسه ديار الروم مرتين عرج فيها

على دمشق ودخلها واقام بها اياماً للاستراحة والاستجمام واستمتع برؤية محاسنها الباقية وفي السنة التي مات فيها المعتصم بن الرشيد وبويع ولده الواثق وهي سنة سبع وعشرين ومائتين ثارت القيسية بدمشق وهم العرب المنسوبون الى قيس وعاثوا فيها وفي اطرافها بالقتل والنهب فجهز الواثق جيشاً ضخماً تحت امرة رجاء بن ايوب فاوقع بهم واثخن فيهم القتال يقال انه قتل منهم ما يقرب من الفي نسمة فعاد الامن الى نصابه وساد السكون وقطع دابر الفتنة ورجع الى بغداد فزادت هذه الفتنة في انحطاط دمشق العمراني ولله الامر

حدثت المتوكل الحادي عشر من خلفائهم عزيمة على ان يزور دمشق ويستطلع طلعها بنفسه فسار اليها ودخلها في سنة اربع واربعين ومائتين ولما استحلى محاسنها عقد العزم على السكنى بها واتخاذها دار ملك ومقر خلافة فامر بنقل دواوين الدولة العباسية من بغداد اليها وفي ذلك يقول المهلبي

اظن الشام تشمت بالعراق اذا عزم الامير على انطلاق

فان تدع العراق وساكنيه فقد تبلى المليحة بالطلاق

وللشاعر الكبير ابي عبادة الوليد البحتري قصائد في مدح المتوكل في هذه الوجهة يصف فيها دمشق ومنها قصيدته الشهيرة الدالية التي مستهلها :

العيش في ظل داريا اذا بردا والراح تمزجها بالراح من بردى

غير ان المتوكل لم يستمر مرعاها ولم يستطب هواءها ولم يتفق مناخها مع مزاجه . فأزمع الرحيل عنها والعودة الى مثوى آبائه واجداده بغداد بعد ان اقام بدمشق شهرين واياماً .

نقل الحافظ في كتابه المحاسن والاضداد قال حدثنا ثعلب عن الفتح بن خاقان انه لما خرج المتوكل الى دمشق كنت عديله . فلما صرنا بقنسرين قطعت بنو سليم الطريق على التجار فحاصرهم فلما قربنا من القوم اذا نحن بجارية ذات جمال وهي تقول :

امير المؤمنين سما اليبا سمو البدر مال به الغريف

فان نسلم فعفو الله نرجو وان نقتل فقاتلنا شريف

ويؤخذ مما قاله المسعودي ان المتوكل لما نزل بدمشق ابى ان ينزل المدينة لتكاثف هواء الغوطة عليها وما يرتفع من بخار مياهها . فنزل قصر المأمون وذلك بين داريا ودمشق على ساعة من المدينة في اعالي الارض . وهـذا الموضع بدمشق يشرف على المدينة واكثر الغوطة وكان يعرف بقصر المأمون الى سنة ٣٣٢ هـ . ويقول السيوطي ان القصر بني للمتوكل . وكيفما كان الحال فان القصر اختنت عليه حادثات العصر . ونقل احد المؤرخين في عصرنا عن عمران هذه الحاضرة على عهد تلك الدولة فضلاً عن انه نقل عمن قبلهم نقلا اعتوره القلب والابدال لم يكن في الدرجة التي يزعمها بعضهم . اللهم الا ما كان من قصورهم ومصايفهم في الضاحية التي يتعذر الآن تحديد مراكزها لأن بني العباس لما اخذوا الملك من بني امية هدموا قصورهم ونبشوا قبورهم وقد ابثت قصور الامويين بجوار جامعهم الذي بناه الوليـد بن عبدالملك ذاك المولع بتشييد القصور وهو صاحب البلاط الغريب . اما قصر الخضراء وهي بلاط معاوية فقد كان في الحي المعروف اليوم بعصبة الخضراء من احقر احياء مدينة دمشق اليوم . انتهى كلامه

لم يحدث عامل من عمال بني العباس على الشام في هذه المدة كلها خلافاً ولا حدثت احدهم نفسه بشق عصا او مشاحنة . ولا بلغوا من القوة ونفوذ الكلمة الى درجة الاستبداد بما في أيديهم والتغلب والاستقلال به كما في اواخر الدولة الى ان كانت ايام الخليفة المعتز بالله في سنة مائتين واثنين وخمسين . وكان عامل الرملة عيسى بن الشيخ فرأى في مقدمات الاستبداد والحجر على الخلفاء من المماليك الاتراك آخذة في النمو والازدياد حتى آل الامر الى الفتنة والحرب في نفس بغداد واصبح الحل والعقد بايدي اولئك المماليك فسولت له نفسه الدعوة لنفسه في الشام كلها والاستقلال بها وقطع علاقته مع الخلافة . انفة من ان يكون للمماليك عليه سلطة وامسك عن ارسال الخراج الى الخليفة . وبقي على تلك الحالة الى خلافة المعتمد على الله . فعقد هـذا لاحد المماليك واسمه ماجور على ولاية الشام وامده بالعساكر لمحاربة المتغلب المذكور . فسار ماجور

واشتبك بينه وبين اصحاب عيسى القتال وصدق الفريقان النزال وكانت العاقبة لمأجور فاستولى على دمشق وتوابعها الى ان توفي . وكان العامل على مصر لذلك العهد احمد بن طولون مؤسس لدولة الطولونية . وبلغ نفوذه في مصر حده فاغتنم فرصة ضعف الخلافة وتغلب المماليك عليها وتجاهر بنزع يده من الخلفاء وخلع ربقة طاعتهم بمصر فدعا لنفسه وسمت همته للاستيلاء على الشام وهذه سنة جارية اوشكت ان تطرد في كل من يتبوأ عرش الامارة المصرية فيرى انه لا يهنأ باله ولا يحسن حاله الا بضم مملكة الشام الى مصر كأنهما شيئان متلازمان ولا غرابة فان الاقليمين اخوان وفي تواريخهما شيء كثير مما ذكرناه . وهو احد الاسباب التي بقيت لاجلها دمشق عرضة للفتون وميداناً للحروب

وفي سنة ٢٣٣ رجفت دمشق رجفة شديدة من ارتفاع الضحى الى ثلاث ساعات كما قاله في العبر . فانتقضت منها البيوت وزالت الحجارة وسقطت اسقف الاسواق على من فيها فقتلت خلقاً كثيراً وسقطت بعض شرفات الجامع الاموي وانقطعت ربع منارته . وانكفأت قرية من عمل الغوطة على اهلها فلم ينج منهم الا رجل واحد . وحصل الرعب في قلوب اهل دمشق ورجعوا الى الله تعالى وتابوا واستغفروا الى ان خفف الله عنهم البلاء ورفع عنهم الزلازل . قال ابن الجوزي وقد سار احمد بن طولون بجيوشه الى الشام فاستولى عليها بعد حرب لم يقف عند ذلك الحد وانفسحت امامه طرق النصر والفتوحات وذاق حلاوة التغلب فمد يده الى حمص ثم تجاوزها الى حماه ثم حلب وانتظم جميعهما في سلك امارته . ثم ختم اعماله بواسطة القلادة وهي انطاكية افتتحها عنوة وطمح الى افتتاح طرسوس فصدته عنها موانع عارضة فقنع بما حصل في يده وناهيك به فكر راجعاً الى دمشق ومن ذلك الحين دخلت دمشق بل بلاد الشام كلها في حوزة الطولونيين .

لم ينح لدمشق ولم يساعدها الحظ ان تستقر على مملكة واحدة ولم يكتب لها ان تكون مهد راحة بل لم تزل هدفاً لمرامي الملوك والمتغلبين واعاد لها الدهر في

العهد الاسلامي نبذة وصورة من ايامها الدامية في القرون الغابرة لم يكد احمد ابن طولون يستجم من عناء الفتوح ويستريح من وعثاء الحروب حتى انتقضت دمشق وخلعت طاعته وعامله عليها ابنه خماروية فامده ابوه بجيوش من مصر واسترجعها لطاعته بالقوة كل هذا والعباسيون في شغل شاغل بما هم فيه من الارتباك وتغلب المماليك الى ان كانت ايام المعتضد فجهز جيشاً لاسترجاع دمشق واخراج الطولونيين منها فوقعت بين الفريقين حروب وبقيت دمشق بينهم كالكرة تتقاذفها الصوالجة اخرج المعتضد خماروية منها ثم اعاد خماروية الكرة فانتزعها منه كل ذلك في مدة متقاربة اثناء سنة احدى وسبعين ومائتين ولم تزل كذلك الى ان مات خماروية بها مقتولاً سنة اثنتين وسبعين ومائتين فاستولى عليها من قبل الطولونيين طغج احد مماليكهم . ثم استبد طغج بدمشق وبقي عليها الى ان هاجمه القرامطة من العراق سنة تسع وثمانين ومائتين ووقعت بينه وبينهم حروب طويلة كان الانكسار حليفه في جميعها وتفاصيل وقائعهم مبسوطة في كتب التاريخ . وكان اهل دمشق صالحوا القرامطة بمال على ان يرجعوا عنهم . وفي ايام المكتفي ارسل جيشاً للاستيلاء على دمشق فاستولوا عليها سنة اثنتين وتسعين ومائتين وتقدموا الى مصر فاسترجعوها وقتل هارون بن خماروية وعقد المكتفي على دمشق ومصر لاحمد بن كيغلغ بالولاية ولاول ولايته ظهر بمصر رجل يدعى محمد الخليجي يدعو الى نفسه وقويت شوكته فسار ابن كيغلغ بنفسه لمحاربته فانتهز القرامطة من ايلته لدمشق فرصة واعادوا الرجعة اليها ودخلوها بالقتل والنهب ثم انكفأوا الى جهات طبريا وصفد بتلك الحالة قتلاً ونهباً .

بقيت دمشق تتردد بين الهوات دهراً . تستقل احياناً من داء الفتن ، وتنتكس احياناً . وفي خلافة الراضي بامر الله ولي عليها الاخشيد

وكان احمد بن كيغلغ بعد ان فرغ من امر الخليجي الثائر بمصر واستأصل جرثومته استقر في ولاية مصر فلما ولى الراضي الاخشيد على دمشق عزل ابن كيغلغ عن ولاية مصر واضاف عملها الى الاخشيد فانتظمتا في سلك

واحد وجعل الاخشيد مقر عمله مصر . واقام نائباً على دمشق من قبله صادراً عن امره ونفوذه نظير ما فعل احمد بن طولون ايام تغلبه واستبداده .

ولما كانت سنة ٣٢٧ استولى بطريق التغلب على دمشق رجل يعرف بابن رائق وكان من الخارجين عن طاعة الخلفاء فتغلب على دمشق وحمص وتوابعها واخرج نائب الاخشيد منها وبعد ان تم له الاستيلاء على الشام خطر له ان يهاجم الاخشيد في عقر داره من مصر فسار على تلك العزيمة حتى بلغ الحدود المصرية وبلغت اخباره الاخشيد فتجهز للقائه واستعد لقراعه والتقى الجمعان على التخوم ونشب بينهما القتال فكانت الدائرة على ابن رائق فارتد على عقبه مهزوماً الى دمشق وتعقبه الاخشيد فراجع ابن رائق بصيرته وقاوم عدوه فكان الغلب له ثم اصطلحا وارتفعت من بينهما حجب الخلاف على ان يحتفظ كل منهما بما في يده وكان من اسباب ذلك قصة لطيفة تدل على علو الهمة وسعة الحلم وذلك ان اخا الاخشيد قتل في الهزيمة الاخيرة التي كانت على عسكر اخيه فكتب ابن رائق الى عدوه الاخشيد يعزيه بموت اخيه ويتنصل من تبعة ذلك وانه لم يأمر بقتله وانما مات في المصاف وارسل مع المكتوب احد اولاده برسم الفداء والاقتصاص منه باخيه فلما قرأ الاخشيد الرسالة رق قلبه ولم يرض بقتل ولد ابن رائق بل اكرمه واعاده لابيه مكرماً مخلوعاً عليه وصفت ذات بينهما ولم يزالا على ذلك الى ان مات ابن رائق في قصة طويلة فانتهزها الاخشيد فرصة للاستيلاء على دمشق واعادها الى ما كانت عليه تحت حكم نائبه وفي تلك السنة كانت شوكة البطل المغوار والصنديد الاروع سيف الدولة علي بن ابي الهيجاء عبد الله بن حمدان تستأسد . وقوته تتزايد . وملكه يمتد وبأسه يشتد وكرمه تسير به الركبان . وفضله يتناقله القاصي والدان . مع كرم المحتد وعراقة المجد وشرف البيت ونباهة القدر . وكان قد استبد بحلب وما يتبعها وتطاول الى ضم دمشق وتاقت نفسه لاصطفائها والاحتواء عليها وهام بها هيام المجنون بليلاه . فجند الجنود وسار الاخشيد حتى التقيا بقنسرين وتحاربا وافترقا دون ان ينال واحد منهما من صاحبه شيئاً ولا قفى

نهمته ثم مات الاخشيد وخلفه ولده ابو القاسم وكان صبياً لم يدرك الاحتلام بعد . فكفله خادم ابيه كافور الاسود ممدوح المتنبي واستبد بالتصرف في شؤون المملكة واغتنم سيف الدولة تلك الفرصة فتملك من بين تلك الحوادث دمشق ولكن ثقلت عنه اثناء اقامته بها هنات ولاحت عليه مخايل سوء نيته احفظت اهل دمشق واوغرت عليه صدورهم فراسلوا كافوراً الاخشيد يعرضون عليه طاعتهم ويقدمون ولائهم فامدهم بجيش ساعدهم على اخراج سيف الدولة من بين ظهرانيهم وانضم الاقليمان تحت الحوزة الاخشيدية

ومما يحكى ان المنصور الخليفة العباسي لما حج ذات مرة وكان قد بلغه ان مالكاً وابن ابي ذئب كانا يطعنان به فتلقاهما بالموسم فقال لمالك اي الرجال انا عندكم أمن ائمة العدل ام الجور فقال مالك انا متوسل اليك بصاحب هذا البيت ما اعفيتني من الكلام في هذا فقال قد اعفاك امير المؤمنين ثم التفت الى ابن سمعان القاضي وقال له ناشدتك الله اي الرجال انا عندك فقال والله خير الرجال تحج وتجاهد وتؤمن السبيل وتنصر الضعيف وبك قوام الدين ثم التفت الى ابن ابي ذئب فقال ناشدتك الله اي الرجال انا عندك قال انت والله عندي شر الرجال استأثرت بمال الله ورسوله وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين واهلكت الضعيف واتعبت القوي وامسكت اموالهم فما حجتك غداً بين يدي احكم الحاكمين . فقال له ابو جعفر ويحك اتعقل ما تقول انظر ما امامك قال نعم قد رأيت اسيافاً وانما هو الموت ولا بد منه عاجله خير من آجله فلما اصبح المنصور امر بثلاث صرر في كل صرة خمسة آلاف دينار ثم دعا برجل من شرطته وقال له تدفع لكل رجل من هؤلاء صرة فاما مالك بن انس فان اخذها او ردها فلا جناح عليه وان اخذها ابن ابي ذئب فأتني برأسه وان ردها فلا سبيل لك عليه وان ردها ابن سمعان فأتني برأسه وان اخذها فلا سبيل لك عليه فذهب لهم واخذ ابن سمعان صرته وابن ابي ذئب ردها فلما قال مالك واما انا فكنت والله محتاجاً اليها فاخذتها

هذه خلاصة حال دمشق السياسية منذ بدء الخلافة العباسية حتى انقراض

السلطة المتغلبة عليها بانقراض الدولة الاخشيدية على يد جوهر الكاتب فاتح مصر للدولة العبيدية الفاطمية كما سنذكره .

وبما سردناه عليك تعلم ان الوقائع لم تمهلها حتى تأخذ حظها من الراحة فضلاً عن ان تراجع عمرانها وحضارتها وتأخذ زينتها وان بلدة احتفظت بجزء ولو يسيراً من محاسنها وانطوت على شواهد ناطقة بعظمتها ومدنيتها بعد ان اذوت الليالي ازهارها واستنشفت انهارها وجرت عليها البلايا اذيال الاعاصير على مرور الاعاصير وعاشت قروناً والحروب تراوحها وتغاديها والفتن ملقية رحالها بواديها لحقيقة ان تلحظ ما راع هذه الدول الكثيرة التي نشرت جناح استبدادها على اقطار المشرق وتقاسمته عن كلالة ولم يبق من الخلافة العباسية الا الرسوم فكانت تلك الدويلات على الحالة التي اشار اليها لسان الدين بن الخطيب في ارجوزته رقم الحلل عند ذكر ملوك الطوائف بالاندلس

حتى اذا سلك الخلافة انتثر وذهب العين جميعاً والاثر

قام بكل بقعة مليك وصاح فوق كل غصن ديك

ولا غرابة فحال الاصقاع المغربية في ذلك العهد اشبه شيء بالمشرق في الانقسامات الداخلية لم يرع ملوك الشرق والحالة هذه الاصائح صاح بهم من المغرب من ربوع افريقيا فدوت له ارجاء المشرق ان هولاء سدى جنود العبوديين الذين اسسوا دولة مشيدة الدعائم متينة بالقير وان بفضل داعيتهم بل داهيتهم ابي عبد الله الشيعي واختطوا مدينة المهدية على شاطىء البحر لتكون مقر لقرار ملكهم والذين لم يرق لهم بعد ان دوخوا تلك الاقطار ووشجت عروقهم في منابته الطيبة الالو والعنان الى المشرق الذي هاجروا منه عن غير رضى وهاجروه وفي جوانحهم من فراقه جمر الغضاء مطالبين براث استلب منه على دعواهم مجلبين الخيل والرجل لتحصيل مبتغاهم ولسنا الآن بصدد تبيين اوليتهم وخلوصهم الى المغرب وبث الدعاة فيه واسباب نجاحهم وما للناس من المطاعن في نسبهم فان ذلك ليس من غرض كتابنا هذا على ان الاثبات من فلاسفة المؤرخين لم

يتركوا مقالاً لقائل في هذه المسائل وانما نتكلم عمايلهم بموضع عنا ونتناول اطرافه من كيفية دخول البلاد السورية في ظل سلطانهم وتطاولها في عداد ممالكهم .

وذلك ان العبيديين لما ضخم ملكهم بالمغرب في ايام المعز لدين الله الخليفة السادس منهم اراد ان ينفذ عزيمته في غزو الاقطار المشرقية وانتقاذها من ايدي بني العباس ومماليكهم المتغلبين فجهز الكتائب الجرارة بقيادة غلام والده جوهر القائد الصقلي ويعرف بجوهر الكاتب

ذكر ابن خلدون في معرض الاستدلال على ضخامة دولتهم ان جوهراً حمل في غزاته هذه الى مصر برسم النفقات الف حمل من المال وكانت الحركة من القيروان سنة ٣٥٧ في السنة الثانية لموت كافور الاخشيدي فسار جوهر بجيوشه يؤم الديار المصرية فاستولى عليها بعد حروب واقام الدعوة العبيدية فيها وخطب على المنابر باسم المعز ثم شرع في اختطاط القاهرة المعزية بحيال فسطاط عمرو بن العاص وهي منسوبة للمعز هذا واقام في وسطها الجامع الازهر محاكياً لعمل عمرو بن العاص في بنائه مسجده بالفسطاط . ثم ارسل سيده يستقدمه لمصر فقدمها لاوائل سنة ثمان وخمسين ورأى مهد الحضارة وايوان العمران فوقعت منه موقع الضالة من ناشدها وشتان ما بين مصر ونيلها والقيروان وصحرائها فاتخذها قاعدة ملكه وواسطة ممالكه ومباءة امره ونهيه وزادت رتبة جوهر رفعة وذكره نباهة وحوة عند مولاه . ثم لما صفت مصر لجوهر ووطئت له اكنافها ولم يبق فيها الا لاغ باسم العبيديين جهز جيشاً كثيفاً للاستيلاء على دمشق وعقد عليه لجعفر بن فلاح احد قواده فتجاوز الحدود واستولى على الرملة عنوة وتجاوزها الى طبريا فوجد الدعوة العلوية قد سبقته والمنابر يذكر عليها اسم المعز فتجاوزها الى دمشق فقام اهلها في وجهه واشتبكت بينهم حروب كانت نهايتها فوز جعفر عليهم فدخل المدينة وخربت بعض معالمها في تلك الوقائع وامر ان يشاد باسم المعز على منابرها في اوائل سنة ٣٥٩ وان لا يجري لبني العباس عليها ذكر فثارت ثائرة السكان

عليه مرة ثانية وانقضوا عليه والقت الفتنة جرانها وتداولوا التغلب فيوماً لهذا ويوماً لذاك الى ان استظهر على الدمشقيين فانقادوا مكرهين وتقلدوا صفقة البيعة العلوية والسيف على اعناقهم ولم يلبث جعفر ان هاجمه القرامطة واغتالوه خارج المدينة واستولوا عليها بامان ثم توجهوا الى جهات الرملة وانضم اليهم لفيف من بقايا الاخشيدية وانتحوا ناحية مصر فالتقوا بجنود العبديين وكانت الحرب بينهم سجالاً ثم رجعوا الى دمشق ثم عاودوا الكرة على مصر فانتصر عليهم العبديون وتعقبوهم الى دمشق وقائد العبديين اذ ذاك ظالم العقيلي فطرد القرامطه عن دمشق والتأمت احواله وقوي جنده بهاثم دب دبيب الخلاف بينه وبين جنوده لاشياء نقموها عليه منها استئثاره في غير محل الاستئثار ودام الخلاف بينهم محتدماً مدة طويلة آخرها سنة ٣٦٤ فعندذلك استبدلوا به ريان الخادم احد موالي العبديين

هذه وقائع طويلة المعنا اليها الماعاً . ويستثني عنان القلم عن الجري في ميدانها روماً للاختصار كما هو شرط الكتاب . وانت ترى ان هذه الوقائع الاخيرة كلها كانت بين القرامطة والعبيديين ولسنا في حاجة الى شرح حال القرامطة والكشف عن نحلتهم وحقيقة مبدأهم فقد كفتنا التواريخ المطولة مؤنة ذلك وليس البحث فيها من متعلقات موضوعنا الا بطريق العرض مما له تعلق بدمشق . وغاية ما ننبه عليه ان هؤلاء القرامطة قوم ملاحدة اشربوا مذهب الباطنية واخذوا الدعوة لآل البيت واعادوا في ذلك وابدءوا وعاثوا في العراق فساداً وسفكوا الدماء البريئة وانتهبوا الاموال المحرمة واستباحوا مانهى الله عنه.

ولعمري لقد كذبوا فيما زعموه من التشيع لآل البيت ونادوا على انفسهم بالسفه والافتراء والا فما بالهم يقاتلون العبيديين مع انهم من صميم اهل البيت الذين يدعون اليهم ويقاتلون لاجلهم فيما يزعمون. اللهم الا اذا كانوا يعتقدون ما اشتهر لذلك العهد وتناقله الناس من الطعن في نسبهم تخرصاً وافتراء . وقد زيف المحققون من المؤرخين والنسابين تلك المطاعن المزعومة واثبتوا بالبرهان العقلي والنقلي صحة نسب العبيديين الى الامام اسماعيل وصراحته .

وبينوا الاسباب التي دعت الى الطعن فيهم وان منشأ تلك المطاعن أحاديث واهية لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفاً اليهم بالقدح فيمن ناوأهم وتفنناً في الشماتة باعدائهم فصادفت منهم آذاناً صاغية . وراجت تلك الاقاويل وتليت في اسمار الخلفاء . تارة للغض من مكانتهم وتارة للتسلية ودفع معرة العجز عن مكافحتهم وآونة لتنفير العامة من الانقياد اليهم .

ولا اظن القرامطة ناهضوا العبيديين لكونهم ادعياء في النسب فان مداركهم لم تصل لتحكم في هذا . ناهيك بقوم دينهم السلب والنهب وانما كانوا يسرون سريرة اليسوم الله ردائها فما لبثوا ان ظهر خبثهم وافتضح مكنون سرائرهم وذاقوا وبال امرهم . وهذا زعيمهم القرمطي الاول الذي نصبوه لتضليل العامة . وما هو الا (دعي) . وهب ان الدعي كان هو المدعي لم يفتضح ويكشف الدهر عن دخيلته ويتبين انه كاذب فيما ادعاه فلو كان القوم اهل روية وصدق فيما يزعمون لكفاهم ذلك .

جرى كل ما ذكر من الوقائع والخلفاء العباسيون ببغداد بجدران القصور حساً ومعنى لا علم لهم بما يجري في الممالك . وان علموا فليس لهم من الامر شيء وكان الوزراء الذين لهم صفة التغلب والحجز على الخلفاء اذ ذاك بني بوية الخراسانية وهم من بقايا قواد العلويين الثائرين بخراسان والطواء الوزراء من هذه الاسرة على التشيع . لا يخفى على الباحث في سيرهم وقد ظهرت امارات ذلك على دولتهم فيما بعد غير مامرة .

واظن ان آذانهم كانت مصرورة على المقالة السابقة في العبيديين فلذلك كانت صماء عن سماع دعوتهم وبقوا متجافين عن مناصرتهم ولو فعلوا لطبقت العبيدية المشارق والمغارب وذهبت الدولة العباسية لوقتها وعاجلها الفناء . لان غالب ديار الاعاجم والممالك الخراسانية كانت طوع امرهم ومما يؤيد ما قلناه وتلوناه عليك انه لما كانت سنة ٣٦٠ سار احد موالي معز الدولة بن بوية واسمه فتكين فتملك حمص ثم توجه الى دمشق واستعان باهلها على اخراج عامل العبيديين ريان المتقدم الذكر . وقطعوا ذكر المعز لدين الله على المنابر

فصمم المعز على تجهيز العساكر عى دمشق لاسترجاعها فعاجلته المنية قبل ان ينفذ عزيمته .

وبويع بعده ولده العزيز فكان في مقدمة أعماله ان جهز جيشاً عرمرماً وعليه جوهر القائد فاتح مصر لاستخلاص الشام فسار حتى نازلها وحاصرها . فاستنجد افتكين بالقرامطة فانجدوه وجاؤوا من وراء جوهر فلما احس بهم وعلم ان ليس له من قبل بمقاومتهم ، امر جنوده بالرحيل والافراج عن دمشق وكر راجعاً بهم الى مصر فتعقبه اعدائه افتكين والقرامطة وادركوه في جهات الرملة . ولما تبين من نفسه العجز عن مدافعتهم التجأ الى عسقلان وأحاطوا به فراسل افتكين يبذل له مالاً طائلاً على ان يخلي سبيله ففعل . ونجا جوهر بجيوشه الى مصر . ولما استجلى العزيز القضية استنفر الناس وخرج بنفسه لقتال عدوه فطوى المراحل حتى صبح الرملة وبرز اليه افتكين ومصرخوه من القرامطة . واستعرت بينهم نار الحرب . وانجلت المعارك عن انكسار افتكين وانجاده . وركب العزيز اقفاءهم يقتل ويأسر واختفى افتكين فجعل العزيز لمن يأتيه به حياً مائتي الف دينار جعلاً وانتهى خبر الجعل الى ابي مثواه فقبض عليه وقدمه الى العزيز واستلم الجعل فلم يزد العزيز على ان اكرم افتكين واطلق سبيل الاسرى من خواصه وحمله معه الى مصر ولم يزل موسعاً عليه الى ان مات . ولما اخذ افتكين الى مصر لم تكد دمشق تدخل تحت طاعة العزيز العلوي حتى تغلب عليها احد موالي افتكين واسمه قسام . ولحزمه ودهائه لم يقطع ذكر العزيز على المنابر بل ابقى الخطب باسمه ، تظاهراً بموالاته واستجلاباً لرضاه وطمعاً في التساهل معه والاغضاء عنه واستعطافاً له . فتم ما اراد وأثمرت حيلته فاقره العزيز والياً على دمشق من قبله باسم الدولة العلوية . واعتبرت دمشق في ايام ولايته من ممالكها . وهو الذي دافع عنها ابا تغلب صاحب الموصل وديار بكر لما هاجمها بقصد التغلب عليها وانتزاعها من ايدي العلويين سنة ٣٦٨ وكانت عاقبة ابي تغلب هذا بعد ان استعصت عليه دمشق بفضل مدافعة قسام . ان تجاوزها

الى الرملة ولقيته جيوش العزيز، فقتل معهم وقتلوه وارسلوا برأسه الى العزيز بمصر.

بعد ولاية قسام على دمشق بمدة بدا له ان يخلع طاعة العلويين وجنحت نفسه الى الاستقلال بها، فتجاهر بذلك وساعده اهلها على العصيان، فارسل العزيز لمحاربتهم واخضاعهم جيشاً قائده بكتكين، وكانت فلسطين ايضاً تظاهرت بالانتقاض عن طاعة العبيديين، فظفروا بقسام واخذوه اسيراً واستولوا على المدينة وسكنت الفتنة وعين بكتكين القائد حاكماً عليها وبقي كذلك الى ان كانت سنة ٣٧٣ فوقعت بين صاحب حلب ابي المعالي سعدالدين وبين بكجور عامله على حمص (وكانت حمص اذ ذاك تابعة لحلب وهما خارجتان عن طاعة العبيديين) مغاضبة ادت الى ان يطلب بكجور من العزيز ان يقبل بانضمامه اليه ويوليه دمشق، فقبل العزيز طلبه من غير ان ينظر سيرة الرجل ويتبصر في العاقبة مع السبب الذي دعاه الى الخروج عن صاحبه، فارسل الى بكتكين عامله على دمشق ان يسلم المدينة الى بكجور ويتنازل له عن ولايتها وادارة شؤونها ويحضر الى مصر، ففعل امتثالاً لامر خليفته وغادر دمشق فخلا الجو لبكجور فابرز ما انطوت عليه سريرته من الخبث وسوء السيرة والظلم، الامر الذي اوجب نفور العامة وقيامهم واستجاشتهم بالعزيز مستصرخين ومتظلمين من بكجور، فندم العزيز على فعلته وادرك سوء العاقبة وايقن انها زلة لا يغفرها الا عزله عن دمشق وابعاده منها وتحقق انه لا ينفع معه اللين ولا يغني فيه التهديد والانذار، فارسل اليه منيراً الخادم قائداً على جيش من مصر فقاتلهم بكجور بداريا ظاهر دمشق، ولما هزموه وايقن بظهورهم عليه طلب الامان لنفسه فامنه منير ورحل بكجور عن دمشق واستراح الناس من عسفه وخسفه.

وخلفه على الولاية منير القائد فكانت سيرته على الضد من سيرة سلفه بكجور من العدل وحفظ الحقوق وتأمين الطرقات وحسن السيرة مع العام والخاص، ولم يزل والياً عليها الى ان مات الخليفة العزيز بالله سنة ٣٨٦ وبويع بالخلافة

بعده ابنه ابو علي منصور الملقب بالحاكم بأمر الله الملحد المشهور وهو السادس من خلفائهم . وهو الذي اجتمع فيه ما تفرق في جميعهم من الغلو في الرفض والوقوع في الصحابة . بل تجاوز ذلك الى ما هو شر منه من الكفر بادعاء الالوهية وقتل النفوس المحرمة . وسيرته غنية عن التطويل . ولم يحدث في دمشق في عهده على طول ايامه تقلب يستلفت النظر او يلائم شرطنا من الاقتصار على المهم .

ومات الحاكم بامر الله مقتولاً . قتلته اخته بالاتفاق مع قائد من قواده سنة ٤١١ فمدة ملكه ٢٥ سنة ملأ فيها الممالك التي تحت طاعته ظلماً والحاداً لم تزل آثاره باقية عند قوم الى اليوم وكان بودنا ذكرها لولا مخافة القيل والقال.

وبويع بالخلافة بعده ابنه ابو الحسن علي الملقب بالظاهر لاعلاء دين الله . وكانت بيعته في غرة شوال من السنة المذكورة وكان على الضد من ابيه منصفاً عادلاً حسن السيرة غير مفرط في اعتقاد اسلافه . لم تخرج دمشق في ايامه عن طاعته يوماً واحداً . ولما مات سنة ٤٢٧ وخلفه ابنه ابو تميم معد الملقب بالمستنصر ارسل صاحب حلب اذ ذاك وهو شبل الدولة جيشاً بقيادة احد قواده اسمه الدزبري فانتزع دمشق من العلويين وملكها وبقي بها الى سنة ٤٣٣ حيث اوعز المستنصر الى اهل دمشق بالخروج عن الدزبري وطرده من بلادهم . فسمعوا الايعاز ولبوا الدعوة . واخرجوه من بين اظهرهم بالقوة ورجعوا الى طاعة العلويين . ورجع الدزبري الى حلب بعدما رام الاستقرار بحماة فابى اهلها ذلك تأسياً باهل دمشق .

وهنا تدرك ان العلويين بدأت دولتهم في التراجع والاختلال لعهد المستنصر هذا . والا لما سكتوا عن اخذ دمشق كل هذه المدة . وفي هذه السنة كثر عيث البدو الرحالين بضواحي دمشق وقطعت السبل ولحق دمشق من جراء ذلك أضرار فاحشة وخراب مريع وذعر منع الاهلين من الراحة والاطمئنان وتوالت عليها المصائب والكوارث . ولم تزل الحوادث تنتابها من يوم لآخر الى سنة ٤٥٥ اذ وقع بها الزلزال العظيم الذي ذكره المؤرخون واطنبوا في

وصفه ونتائجه . فخرب كثيراً من قصورها ومساكنها ومساجدها ومات بسبب ذلك خلائق لا تحصى . وطمس محاسنها وابلى الكثير من معالمها ولم يكن هذا الزلزال خاصاً بدمشق بل خرب كثيراً من مدن الشام كحمص وحماة وغيرها. وفي هذه الايام قدم بدر امير الجيوش من قبل الخليفة المستنصر والياً على دمشق فوجد اهلها على حال من النكبة والتعاسة . فثار به الجند ولم يقبلوه فانصرف عنها مذموماً مدحوراً .

وفي سنة ٤٦٠ انقطعت الخطبة العبيدية بانقطاع دعوتهم من دمشق ، وهو الانقطاع الاخير الذي لم يعقبه ذكر لهم في هذه البلاد . ورجعت الدعوة العباسية بعد غيبوبتها مدة اولها سنة ٣٥٩ وآخرها هذه السنة . وكان ذلك على يد السلطان الب ارسلان السلجوقي سلطان خراسان . وذلك انه ارسل احد قواده فافتتح ديار بكر وحلب وانتهى الى دمشق فحاصرها سنة ٤٦٧ ولم يتمكن من فتحها ثم عاودها في السنة الثانية وضيق عليها فسلمها اهلها في أواخر تلك السنة . وكان اذ ذاك الب ارسلان قد مات واقتسم اولاده واخوته الممالك . فملك العراق ولده ملك شاه واستمرت في ذريته . وملك الشام ولده الآخر تتش واستمرت في ذريته ومواليه الى ان انقرضت على يد السلطان نور الدين الشهيد كما سنذكره لك . وملك ديار الروم ابن عمه قتلمش .

وفي سنة ٤٦٩ خرج تاج الدولة تتش لمحاربة العلويين في قرارة ملكهم مصر فرجع مهزوماً . وفي سنة ٤٧٠ جهز العلويون جيشاً عظيماً طامعين في استرجاع دمشق لملكهم . فاستنجد تتش وجمع الجموع من اهلها واهل حلب ورد عساكر العبيديين مهزومين . ثم عاودوا الكرة مرة ثانية سنة ٤٧٨ . ولم ينقطع املهم من دمشق وارسلوا جيوشاً بقيادة بدر الجمالي وهو غير بدر المتقدم الذكر في عداد قوادهم . فاتى دمشق وحاصرها وضيق عليها الخناق فلم ينجح ولم يحصل بطائل لصدق مدافعة تتش عنها . ولما رجع بدر الى مصر آيساً من فتح دمشق انتقضت حلب على تتش وهو مقيم بدمشق متوقعاً معاودة المصريين للهجوم ثانية . فسار الى حلب بقسم من عساكره

واخضعها وقطع أسباب الفتنة والانتقاض ورجع من فوره الى دمشق .

كنا قدمنا ان اولاد الب ارسلان واخوته اقتسموا الممالك بعد موته بطريق التغلب والاستبداد وان كان مبدأ الدولة السلجوقية مبنياً على الدعوة العباسية واول قائد افتتح دمشق من قبلهم كان داعياً . ولما قطع ذكر العبيديين على منابر دمشق بذكر بني العباس ففي المدة التي كانت تتش يدافع عن دمشق واحوازها ويصد عنها هجمات العبيديين كان امر اخيه ملك شاه يتعاظم ودعوته ترتفع ونفوذه يزداد وذكره يشتهر يوماً فيوماً وقد دخل تحت طاعته غالب الممالك الاسلامية وخطب باسمه على منابرها استقلالاً وتبعاً للخليفة العباسي الذي لم يبق من الخلافة الا الاسم والصورة ولما مات ملك شاه خلفه اخوه تتش هذا لتوفر شروط السلطنة فيه وخطب باسمه على المنابر واقام عاملاً على دمشق ساوتكين الخادم احد مواليه المنقطعين بالقيام بالملك وفي تلك الآونة كانت المنافسات والتحاسد آخذاً مأخذه بين اسرة الب ارسلان من اولاده واخوته ولم يكفهم تغلب كل واحد على مملكته بل طمحت نفسه الى امتلاك الكل فتجاذبوا حبل الملك وتنازعوه وقوي ملك بركيارق بن الب ارسلان وساعده الحظ فظفر بعمه تتش في نواحي اصبهان وقتله ليتم له الامر ويصفو له جو الملك وكان موت تاج الدولة تتش في سنة ٤٨٨ ولما قتل ترك ولدين احدهما رضوان والآخر دقاق فملك الاول حلب بعد موت ابيه وملك الثاني دمشق بعد حروب شديدة ثم وقع الاختلاف بين الاخوين وكل واحد يريد ان ينزع من اخيه ما ملكه وادى ذلك الى وقائع وحروب بينهما ثم اتفقا على ان يخطب الرضوان بدمشق ويذكر اسمه قبل اسم اخيه وبقي الحال على ذلك الى ان توفي دقاق سنة ٤٩٣ وخلف طفلاً صغيراً ذا سنة واحدة فاجروه مجرى ابيه في ذكر اسمه بعد عمه رضوان ثم قطعوا اسمه وصاروا يخطبون باسم عمه بكتاش بن تتش وكان القيم على الولد والساعي في اموره مملوكاً من مماليك ابيه يدعى طغتكين اتابك ومعناه مربي الطفل فقطع الخطبة باسم بكتاش وادعاها باسم الطفل وتلقب بظهير الدين وكان عاقلاً خبيراً واستبد هو بادارة

شؤون مدينة دمشق واستمر على ذلك الى ان توفي سنة ٥٢٣ وعهد بالامر لولده تاج الدين نوري ليخلفه في الاستبداد على المحجور عليه وهذه هي الطريقة التي نشأ بسببها كثير من الدول التي تسمع بها فان الدول اذا جاء دور انحطاطها واشرفت على الهرم استحكمت فيها صبغة الوراثة حتى صارت خلقاً راسخاً ووجد الموالي والمصطنعون من المماليك وغيرهم السبيل الى الاستبداد بالملك وذلك ان الضرورة تدعو الى اقامة الصغير ومن لا اطلاع له بامور الملك ومبايعته حرصاً ومحافظة على وراثة الملك وقد يكون ذلك بعهد من ابيه وكم عهد بالخلافة والملك لصبي رضيع وقد الف الوزير لسان الدين الخطيب الاندلسي تأليفاً في هذا الخصوص سماه الاعلام فيمن ولي من ملوك الاسلام قبل الاحتلام .

وهذه احدى المصائب التي اخرجت هذا المنصب الرفيع عن حقيقته فاذا اقيم هذا الصبي وتمت له البيعة يقوم ذلك المصطنع بتدبير شؤون المملكة نيابة عنه بطريق الكفالة والحجر حتى يبلغ رشده وتحصل له الكفاءة للقيام باعبائها ثم يفتح لذلك المحجور عليه باب اللذات والشهوات ويودعه دواخل القصور فينشأ على تلك الحالة زير نساء وخدن اظئار لا يعرف من الملك الا ما ربي فيه ولا يتصور من معانيه الا ما يغانيه ، واما الامر والنهي وما وراءها من معاني الملك وتدبيره بمعزل عن تصورها فضلاً عن مباشرتها . وبذلك يجد المستبدون السبيل الى اقامة ابنائهم مقامهم في الوزارة والنيابة عن ذلك المسجون المحزون المحجور حتى يؤنس منه الرشد والله اعلم متى يبلغ رشده ، ويصل الى درجة مضروب دونها بالاسداد ولا يلبث اولئك المستبدون ان يدعوا لانفسهم وقد اصبح الحل والعقد والامر والنهي بايديهم ، فتصبح الدولة غير الدولة والملوك غير الملوك وهذا هو سبب تولد الدول الكثيرة بعضها من بعض كما سترى في الدولة النورية مع الدولة السلجوقية هذه والدولة الايوبية مع النورية ودولة المماليك والجراكسة والاتراك بعضها من بعض .

وقد لا يتم للمستبدين ما ذكرناه وتدور عليهم الدائرة بما يكون للدولة

الاصلية من اصابة العصبية وقوة الشكيمة كما وقع للمنصور بن ابي عامر بينه وبين المستبدين على خلفاء بني امية بالاندلس فان عصبية بني امية لم تترك المجال لآل بني عامر في الاستبداد بل ضربت على ايديهم بعد ان كادوا يأتون عليها ورجعت الخلافة الى مجراها ومقرها من بني امية الا ان ذلك قليل وعلى طريق الندرة .



كلمة في الدعاء على المنابر

قد سمعت كثيراً فيما تلوناه عليك من التقلبات والحروب بين الملوك والامراء ان فلاناً قطع الخطبة لفلان وخطب لنفسه او خطب لآل فلان . حتى ان نزاعهم كله وحروبهم ومقاتلاتهم انما هي لاجل ان تذكر اسماؤهم على المنابر .. ولعل نفسك تتوق لكشف الغطاء عن هذا السر وايضاح معنى هذه الكلمة الفارغة التي ملأت الآذان ونحن نسعفك بمرادك ونشفي غليلك ببيان حقيقة الدعاء على المنابر واوليته ومنشأه واطواره ونشرح حكمه في الشريعة الاسلامية فنقول :

لم يكن الدعاء على المنابر للخليفة او من يقوم بامور الامة معروفاً عند الخلفاء الراشدين حيث كان هذا المنصب في نصابه والمقصود منه انما هو حقيقته من القيام بامور الرعية وايصال الحقوق لاربابها والانتصاف من الظالم للمظلوم الى غير ذلك من لوازم الخلافة زد على ذلك تشبعهم بالحقائق واصطباغهم بالاخلاق الدينية وعدم مبالاتهم بالسفاسف التي لا تنفع في دين ولا دنيا ، وبعدهم عن مناحي الحضارة ومراسم الملك وجبروته . وتخلقهم بالتواضع والسكينة حتى كان احدهم امام القاضي مساوياً لخصمه في نازلة تدعو الى ذلك واذا نودي احدهم فلا اكثر من يا امير المؤمنين على ان هذا اللقب نفسه مستحدث في زمن عمر بن الخطاب . وسيرهم في ذلك شهيرة . ولم تجعل الشريعة المحمدية للامير من ميزة على الرعية اكثر من وجوب السمع والطاعة

له فيما هو حق ، ومناصرته ومناصحته على الوجه المشروع واما ما وراء ذلك من الترفع عليهم والتعاظم الى درجة التقديس والاجلال الخارج عن العادة كما كان عند القياصرة والاكاسرة ، فاس نادت عليه الشريعة بالنكير وحشرته في زمرة الاخلاق الرديئة التي ربما ادت الى اشراك المخلوق بالخالق في اخص صفاته . وفي ايام علي بن ابي طالب رابع الخلفاء الراشدين اتسع نطاق الفتن والمنازعات والخروج عليه كما هو معلوم فكان عبد الله بن عباس يدعو على منبر الكوفة ويقول اللهم انصر عليا على الحق فهو اول من دعى للخليفة على المنبر واتصل العمل بذلك بعده ثم صارت الخلافة ملكاً . وانتقلت من طور البداوة الى طور الحضارة وجاءت مراسم الملك وعوائده التي منها تمييز الراعي عن الرعية وترفعه عنهم واحتجابه وتعاظمه وان كان هـذا الخلق يتفاوت بتفاوت النفوس من غلبة التقوى والدين عليها وضدها . فمن الخلفاء من كان يرى ان الموجودات كلها خلقت خادمة له ، واشربت النفوس تعظيمهم واطرائهم والاغراق في الثناء عليهم ولم يقتصر ذلك على مجالس الملوك العامة او الخاصة بل تجاوزها الى المساجد بيوت الله مقروناً باشرف عبادة تعنو فيها الوجوه وتشخص الابصار وتظهر فيها الجوارح كلها بمظهر العبودية والخضوع وهي الصلاة ، وصار الملوك لا يقفون بمجرد الدعاء لهم على منابر الجمعة بالنصر والتوفيق والتسديد بل لا بد من تحليتهم بالالقاب العظيمة والنعوت الفخيمة مثل ما يحليهم به كتابهم في المناشير السياسية من سلطان السلاطين وملك الملوك ومالك البرين والبحرين وخادم الحرمين وما شاكلها من العبارات الوهمية . ومن هذا الباب الالقاب التي استحدثت للخلفاء والامراء والقواد في هذا الزمان وغالبها اسماء لا تنطبق على مسمياتها تتمثل بقول الشاعر

القاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الاسد

حتى ان بعض الملوك حمل الناس على القيام عند ذكر اسمه على المنابر وهي من اكبر الآفات على الدول ومن دلائل انحطاطها وانما نرمي الى التحرش منها من جهة الدين فان الدين لا يمنع من مثل هذا ، اللهم الا ما كان منه

مختصاً بالخالق من صفاته فصاحبه مقارف للحرج والتأثيم لا محالة كالوصف بالواحد الاحد المحيي المميت وتمانصوا على استقباحه ايضاً صاحب الجلالة وشاهنشاه اي ملك الملوك وقد ذكر بعضهم ان كثيراً من العلماء يتباعدون في مصلاهم عن المنابر في المساجد حتى لا يسمعوا هذه الكلمات في الدعاء .

وانما نقول ان تلك الالقاب تضر اكثر مما تنفع لانها تشف عن ولوع بالفخفخة والمراسم الفارغة . وما فشى هذا الخلق في امة وقصرت همم رجالها الى الاقتناع بالالقاب ولم يشفعوها باعمال تنطبق عليها الا وكان الدمار والانقراض اقرب اليها من حبل الوريد

ولنا عودة الى موضوع الالقاب فيما يأتي من كتابنا هـذا في بحث الحالة الاجتماعية نبسط فيه القول ونبين اضرار الالقاب على الدول الاسلامية القديمة والاوسمة والرتب على الدول الحديثة بالشواهد الفلسفية والتاريخية .

يظن العامة وبعض من المتفقهة ان ذكر الخليفة في خطبة الجمعة شرط في صحتها لا تتم الا به وهو خطأ فاحش اوقع فيه الجهل بعلم الدين . واذا كان هذا حال عامتنا في مسألة كهذه هي من الضروريات لتعلقها بالصلاة التي نباشرها مرة في كل اسبوع . فكيف حالنا في ما سواها من دقائق المسائل الدينية التي تتوقف عليها غالب شؤوننا الاجتماعية في حياتنا الدنيا . وما هو موقف علمائنا حول هـذه المسائل وجميع الامور الدينية تجاه العامة ندع ذلك اليهم .

واما خلاصة ما للعلماء الاعلام في مسألتنا هذه ان بعضهم كأبي حنيفة يشترط في اقامة الجمعة اذن الخليفة في اقامتها . واذن نائبه معتبر كاذنه وقال بعض علماء الشافعية لا يشترط لصحة الجمعة اذن الخليفة ولا نائبه وقريب من هذا مذهب المالكية حيث اشترطوا في المدينة التي تقام فيها الجمعة ان تكون قادرة على حفظ نفسها ومستقلة بدفاع العدو عنها . ومقصد المذهبين واحد وليس بين علماء الاسلام خلاف في عدم اشتراط ذكر الخليفة في الخطبة ولا الدعاء له . بل لم يقل واحد منهم بمشروعيته فضلاً عن طلبه باي صورة كانت بل هو

محدث وبدعة مخالفة للاجماع . وانفرد القاضي الفارقي بقوله : يكره تركه لما فيه من خوف الضرر بعقوبة السلطان . وقال الشهاب الخفاجي في طراز المجالس في الدعاء للسلاطين في الخطب وحكمه شرعاً . قال الامام الغزالي في كتابه المسمى بفاتحة العلوم : لا يحل الدعاء للسلطان الا بقوله اصلحه الله ووفقه للخيرات وطول عمره في طاعة الله . واما الدعاء بطول العمر واتساع النعمة والمملكة والخطاب له بالمولى فلا رخصة فيه لقوله عليه الصلاة والسلام : من دعا لظالم بالبقاء فقد احب ان يعصي الله في ارضه . وان جاوز الدعاء الى الثناء وذكر ماليس فيه فكاذب منافق مكرم للظالم وهي ثلاث معاصي . انتهى

وقال ابن خلدون في مقدمة تاريخه : كان الخلفاء بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والترضي عن اصحابه يدعون لانفسهم . فلما استنابوا فيما كان الخطيب يمدح بذكر الخليفة على المنبر تنويهاً باسمه ويدعو له بما فيه مصلحة المسلمين لان تلك الساعة ساعة اجابة كما قاله السلف من كانت له دعوة صالحة فليضعها في السلطان والخليفة . وبمناسبة ذكر الدعاء على المنابر نذكر كلمة في الخطابة عند العرب والخطبة والخطباء والشيء بالشيء يذكر فنقول :

من المعلوم ان تاريخ الخطابة عند العرب يرتقي الى عهد تكوين لغتهم . وقد بين ذلك كثير من الفضلاء والمؤرخين في كتبهم فلا لزوم لاعادته . وانما شرعت الخطب في الجمع والاعياد لتذكير الناس وارشادهم الى ماهو خير لهم في دينهم ودنياهم حتى ينتبه الغافل ويتعلم الجاهل ويعتبر العاقل . وكل هذه المقاصد وافق عليها واخذ بها الشارع من مقاصد الخطبة والخطيب عند العرب .

ولما كانت العرب تشترط فيها شروطاً محدودة يخرجان بفقدانها عن وضعها . كذلك اشترط الشارع في الخطبة ان تكون مشتملة على تبشير وتحذير وترغيب وترهيب وزجر عن البدع التي تحدث في كل آن . والمنكرات التي تتجدد مع تبدل الازمان . والحرمات التي تنتهك . والحدود الشرعية التي تعطلت . وحد للخطيب حدوداً وآداباً يجمل به التخلق بها اذا لم يلتزمه .

وخلاصة مايقال في مميزات الخطيب المشروعة ان تكون ملائمة للزمان والمكان . فلا يخطب في الملأ الذين تفشت في ناديهم المنكرات وارتكبت بينهم المحرمات مثل الزناء واللواط والربا واكل مال اليتيم وتبرج النساء في الاسواق والخيانة والغيبة والنميمة وشهادة الزور وشرب الخمر وغيرها من المحرمات والكبائر . بالترغيب في صوم ستة من شوال ويوم عاشوراء وسرد الاحاديث الطويلة التي غالبها موضوع في فضائل رجب وشعبان مثلاً . ولا تنقل الخطيب من كلام مسجع يلفق الكلام له على مقتضى هواه وهوى املاه ، ثم تتلى في المنابر على علاتها وهي في واد والاحوال الحاضرة في واد وصاحبها يتكلم في قوم عاد .

وكم رأينا من هذا القبيل في هذا الجيل خطباء اخرجوا هـذه الوظيفة الشرعية عن منهاجها واجروها على غير سداد . يعمد احدهم الى زبر الاولين فيحفظ منها اسجاعاً كأسجاع الكهان لا تسع وقتنا هذا ولا يسعها . ثم يرقى درج المنبر فيقرؤها على الناس كأنها حكايات الاولين والآخرين عن عاد وثمود . كل هذا والمحرمات تقترف . والمنكرات ظاهرة وفاشية في البلاد ويا للاسف .

وحبذا لو استضاء خطباؤنا في هذا الزمان واعني الكثير منهم بان يقتبسوا من مشكاة الاوامر النبوية ويعدلوا عن هذه الخطة العوجاء وسلكوا في القائها على تلك المحافل المحتشدة . وفي تلك المواقف التي هي مظنة الانابة والاجابة . ويحسنون صنعاً بالاقلاع عن تلك الاساليب المدونة القديمة ويهتدون سبيلاً الى ماهو اقرب للنفع وحصول الفائدة . وما ذلك الا بوقوفهم على العوائد والاخلاق واطلاعهم على مواقع الداء ودخائل العلل . ثم يفرغون في اسماع الناس باسلوب يقع منهم موقع الماء من الظمآن ويكون له تأثير عظيم في النفوس .

فاذا وقع هذا وخلصت النية وأتمر الخطيب باوامر الله وانتهى عن نواهيه فلا جرم ان ينتفع السامعون بوعظه . ويسترشدوا بارشاده ويهتدوا بهديه . وهذا هو الخطيب الذي يعرفه الشارع

وقد جاء في السير والصحيح انه كانت تحدث الحادثة ذات الشأن التي لا يحتمل ارجاء الكلام عليها الى يوم الجمعة . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع ما امكن من الصحابة وينبه على ما في تلك الحادثة من المخالفة لروح الشرع .

ومن ذلك انه كلف يوماً زيد بن حارثة ان يشفع عند الرسول عليه الصلاة والسلام في حد استحقه احد المجرمين . فجاء زيد وكلم واستشفع النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك . فصعد عليه الصلاة والسلام المنبر على ملأ من اصحابه في صباح يوم الجمعة وقال : بعد الحمد لله الا لا شفاعة في حد من حدود الله ، والله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ثم نزل . فيتضح من ذلك مقصود الخطبة وغايتها جلياً .

وعلى هذا يجب ان تكون بلهجة بسيطة يفهمها جميع طبقات المستمعين ولو اقتضى الحال ان تذكر لهم بعض الجمل بلغة تفهمها العامة لاجل امكان وصول معاني الخطبة الى عقولهم وتمكنهم من امتثال ما فيها من امتثال الاوامر واجتناب ما فيها من النواهي لقوله صلى الله عليه وسلم : كلموا الناس على قدر عقولهم .

وعلى هذا يخرج حكم جواز القاء الخطبة لغير العرب بلغاتهم لتحصيل الفهم وامكان الامتثال ، وقد جوز ابو حنيفة القراءة للقرآن بالفارسية .

والخطيب يجب ان يكون عالماً باحوال اهل زمانه . فيجب على الخطيب ان يطرق جميع ابواب الخير والدعوة اليه ولا يدع سبيلا من سبل سعادة الامة الا ولجه وحرضهم على سلوكه . مثل ان يأمرهم بترك الطمع والغش وان يسوقهم الى ربط قلوب بعضهم ببعض . وان ذلك اكبر وسيلة لاستقلال البلاد وحفظ كرامة اهلها وتأمين حريتهم في تعليمهم ومنافعهم ومتاجرهم وزراعتهم . وانهم اذا تفرقت قلوبهم واختلفت كلمتهم ذهبت ريحهم واستذلهم من جاورهم من الامم سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا . ومن اعظم واجباته ايضاً ان ينهاهم عن الاسراف والتبذير واضاعة الاموال في البذخ وفي الامور

التي يمكن الاستغناء عنها ، خصوصاً في اوقات الضيق وقلة المال وعدم وفرة مايخرج من البلاد . ١٠

وان يؤسسوا جهد طاقتهم مانصل يدهم الى تأسيسه من المصانع والمعامل لكل ما يحتاجون اليه حتى تقل احتياجات البلاد الى مصنوعات البلاد الاخرى

وفي هذا الموضوع قال احد المعاصرين الافاضل في كتابه تنوير البصائر مانصه :

لهذا كان ينتقد اسلوب خطباء المساجد وجمودهم على الخطب المدونة في الدواوين المناسبة لروح زمن مدونيها ، حتى لم يبق لها اليوم اقل تأثير في اثارة العواطف وايقاظ الشعور لانها اقرب الى التلاوة منها الى الخطابة . انتهى كلامه



ولنرجع الى ماكنا بصدده من الكلام على من حكم دمشق لعهد دخولها تحت ولاية السلجوقيين وفي ايام حاكمها دقاق ابتدأت فكرة الحرب العظيمة بين المسلمين والنصارى المعروفة بحرب الصليبيين تنمو وتنتشر بين اجناس الافرنج في اوطانهم الخاصة يعني (اوربا) . وكان من اكبر اسبابها الانتقام من المسلمين اعدائهم في الدين . وافتكاك الاراضي المحتوية على قبلتهم بيت المقدس وعلى الكنائس والآثار المعظمة عندهم ديناً . فكانوا يرون من الواجب انقاذها من ايدي المسلمين بالاستيلاء عليها قياما بالواجب عليهم نحوها

وهذا كان اسلوب ذلك الزمان . واما في هذا الزمان فانهم استولوا عليها باغواء بعض امراء المسلمين من العرب بأمل تخليصهم من حكم اخوانهم في الدين الاتراك . بدعوى فقد السيادة القومية والخلافة منهم وارجاع مجد العرب لهم باعطائهم استقلالهم وتيجانهم ولكن هيهات هيهات . . فقد اعطوا ذلك المكان المقدس الى اليهود الصهيونيين وجعلوا جميع سكان فلسطين من العرب تحت حكمهم . وهكذا كان جزاء العرب الذين كانوا السبب لاستيلاء هذه الفئة الباغية على بيت المقدس . وكانت النتيجة ضياع تلك التيجان الموهومة .. كما سيأتي بيان ذلك مفصلاً في محله .

(رجع) فتصدى جماعة من الرهبان وزعماء الدين للتجول في انحاء اوربا لتحريض الناس على جهاد المسلمين وتشويقهم لذلك بما فيه من الجزاء والثواب في الآخرة واداء الفرض الديني بتطهير القبلة من مملكة عدوة لدينهم .

ومن اشهر القائمين بذلك راهب ايطالي اسمه بترس ساح في الديار المشرقية زائراً وساءه ما رأى من كون الكنائس المعظمة لهم في يد المسلمين فثار غضبه ورجع الى وطنه فاستجاش بني دينه لمحاربة المسلمين . ولا يبعد ان يكون درس احوال هذه الديار السياسية واطلع على ما كان واقعاً بين امرائها من الاختلافات المؤدية للحروب الطويلة كما اشرنا الى بعض ذلك فيما سبق فادرك ان جامعتهم منحلة وان انتزاع الملك من ايديهم امر ليس بالصعب ووجد من قومه ومجاوريهم من الامم الاورباوية قبولاً لما بثه بينهم وكانت كلمة الدين نافذة عندهم اذ ذاك وهم متفانون في طاعة ملوكهم والملوك جامعون بين الرئاسة الدينية والرئاسة السياسية فاتفقوا كلهم على قلب واحد وازالوا جميع ما كان بينهم من الاختلافات الداخلية وتعاهدوا على ما هم بسبيله من ان يكونوا يداً واحدة على المسلمين حتى ينالوا رغائبهم منهم . واجتمعت الجيوش العظيمة وكلما تجهز جيش توجه نحو الشرق وخرجوا انفسهم قواداً لتلك الجيوش وكانت طريقهم على مدينة ادرنة باب القسطنطينية العظمى ثانية روما ومقر كرسي البطريكية الدينية اذ ذاك ولما اجتمعوا فيها قصدوا مدينة انطاكية واستولوا عليها وبعد فتح انطاكية انتبه امراء الممالك الاسلامية الى الخطر المقبل عليهم وعلموا انهم متى اصروا على الشقاق والاختلاف بينهم فالعدو ملتهمهم لا محالة والملك زائلاً منهم بلا ريب فتراسلوا بنبذ الشقاق واطراح التفرق واجتماع الكلمة واتحاد الرأي ومدافعة العدو الهاجم بكل ما عندهم من القوة فتصدى جماعة من الامراء بجيوشهم منهم امير دمشق الشام لاسترجاع انطاكية وبعد قتال بينهم وبين الافرنج لم يظفرزا بشيء وكان سبباً في زيادة طمع الافرنج وحاملاً لهم على التقدم فشرعوا في فتوح البلدان واحدة واحدة الى ان وصلوا من طريق الساحل الى بيت المقدس واستولوا عليها وجعلوا مدينة

عكا ثغراً لقواتهم ومددهم من جهة ومرفأً للحط والاقلاع لاساطيلهم ووقائع الحروب الصليبية اشهر ما دونه المؤرخون من المسلمين والافرنج . فقد وجهوا عنايتهم الخاصة الى شرح تلك الحرب واسبابها ونتائجها وما نشأ عنها من تبدل في الاخلاق والعوائد وامتزاج الغربي بالشرقي وما سببه من الصلات السياسية بين الاقليمين وما حمل بسببها من ثمرات العلوم الشرقية والكتب النفيسة العربية الى الغرب وما تناوله الغربيون من افنان التمدن الاسلامي الشرقي وانهم اتوا غزاة فاتحين لاداء واجب ديني فانقلبوا مملوئي الحقائب من الفوائد العلمية والقوانين السياسية والانظمة العمرانية مما ظهرت آثاره عليهم بعد قليل من الزمن واعادوا الينا الكرة في هذا الزمن بواسطته . وما زالوا يجنون ثمراته الى اليوم . وما ذلك الا من احتكاكهم باقوام تغلبوا في بحبوحة التمدن احقاباً ولبثوا ساسة الامم الشرقية قاطبة وقادتها دهراً طويلاً ولو لم يستفد الاوربيون في تلك النجعة الا اشرافهم على خبايا الشرق واطلاعهم على مكنون اسراره ومشاهدة محاسنه بام الرأس لكانت غنيمة عظيمة وصفقة رابحة .

وحيث ان المؤرخين كفونا عناء الخوض في هذا الموضوع بما لامزيد وراءه فلنقتصر منه على ما يتعلق بدمشق ممن تداولها من الامراء وما مسها من تلك الوقائع خصوصاً وهي لم تكن مقصودة بالذات في ذلك العصر كبلدة ذات آثار دينية او معابد مقدسة كبيت المقدس وما جاورها او انطاكية . وانما هي مقصودة بالتبع كوسيلة او متمم للغرض . ولهذا كان حظها كما يعلم من تتبع تاريخ الحرب الصليبية طفيفاً من مصائب تلك الحرب بالنسبة الى غيرها . فلم يستول عليها الافرنج الا في فترات في خلال الحرب . ثم لاتلبث ان تعود الى حوزة المسلمين .



كنا قدمنا ان دقاق بن تتش ملك دمشق بعد موت ابيه ثم بعد موت دقاق اقيم ولده الصغير مقامه وخطب على المنابر باسمه تحت كفالة طغتكين اتابك

الى ان مات الثاني وعهد بالكفالة على الصبي لولده تاج الملوك نوري ، وتقول ان تاج الملوك لما توفي سنة ٥٢٦ ه اوصى لابنه الكبير شمس الملوك اسماعيل وقد تم لهم الاستيلاء على دمشق الشام وتوابعها كبعلبك ، وانقطع منها سند آل الب ارسلان واصبحت دولة طغتكينية بعد ان كانت سلجوقية ، وتم الناموس الذي ذكرناه في تولد الدول وتفرع بعضها من بعض وبقيت دمشق خاضعة لآل طغتكين كما نذكره الى ان تولدت عنها الدولة النورية . وكان تاج الملوك لما اوصى بدمشق لولده شمس الملوك هـذا ، اوصى لولده شمس الدولة محمد ببعلبك ، ولولده بوريخ بحماه . فقسم المدن على بنيه وكان الافرنج الصليبيون اذ ذاك قد استولوا على كثير من مدن الشام فسار اسماعيل بجنوده وافتتح بانياس . وكان نور الدين قد انتزع حماه من يد بوريخ اخي اسماعيل فاسترجعها منه اسماعيل بالقوة ثم وجه همته الى غزو الافرنج فانتزع منهم مواضع كثيرة كانت بايديهم الى ان اتفق جماعة من اتباعه على قتله فقتلوه في سنة ٥٢٩ ه واقاموا مقامه أخاه شهاب الدين محموداً ، فقام بملكها وضم اليهـا حمص وكان القـائم بالمحافظة على دمشق احد مماليك جدهم طغتكين ويسمى (معين الدين أنز) وكان معروفاً بالرفعة والاخلاق الفاضلة . ولما ولي شهاب الدين محمود هاجم دمشق عماد الدين زنكي صاحب حلب وحاصرها وقطع عليها المرافق فخاب امله وانقلب آيساً ، ثم مات شهاب الدين في سنة ٥٣٣ ه قتيلاً غدر به ثلاثة من غلمانه فقتلوه على فراشه بقلعة دمشق ، وكان اخوه جمال الدين محمد مشى من بعلبك وقام مقام اخيه بدمشق

وفي هذه السنة والتي قبلها حصلت زلازل عظيمة في نواحي دمشق هدمت المدن واهلكت العباد .

ولما تولى جمال الدين بعد موت اخيه تجدد طمع عماد الدين زنكي في انتزاع دمشق من آل طغتكين ، فقاد الجيوش ونازلها ، وفي اثناء الحصار مات جمال الدين محمد وخلفه مجير الدين فدافع عن دمشق دفاعاً صادقاً حتى اضطر عماد الدين للرجوع على عقبيه فافرج عن دمشق وعاث في قرى

المرج بالاحراق والسلب واستولى على ملبك في وجهته هذه وبقيت بملبك تحت حكمه سنين الى ان استرجعها مجير الدين المذكور سنة ٥٤١ .

وفي ايام مجير الدين هذا اتت جيوش الصليبيين وحاصرت دمشق وهذه ثالث مرة حاصروها ولم يحصلوا منها على طائل . وكان عليها معين الدين انز فارسل الى صاحب الموصل يستنجده فانجده بنفسه ومعه اخوه نور الدين ومعها الجيوش حتى نزلوا على حمص . فارتاع الصليبيون من هذه الحالة وحكموا ان لا قبل لهم بمحاربتهم مع هذا الاتحاد . وقد كانت حملة الصليبيين هذه مدبرة احسن تدبير فانهم اجتمعوا كلهم تحت امرة ملوكهم بمدينة عكا وازالوا من بينهم اسباب خلافات كانت تقع بينهم وتراضوا وتعاهدوا على ان يغزو دمشق ويمتلكوها اذ كانت هي العقبة الكؤود في سبيل استيلائهم على سوريا كافة وكانوا يرون انهم اذا افتتحوها لم تبق للمسلمين شوكة . وكان بين المتعاهدين ملك الفرنسيس وملك الالمان . ولما رأوا ما لم يكونوا يحتسبونه فشلت عزائمهم ، وخارت هممهم ، وانقسمت كلمتهم ، واختلفت آراؤهم ، وعادوا بالخيبة والفشل . وكان الكثير من افرنج دمشق الشام منخرطين في جيش ملك الالمان بصفة متطوعين . فلما حاصروا دمشق واصل اميرها معين الدين انز اولئك الافرنج سراً ليحتالوا في صرف العدو عن دمشق على انهم ان وفوا بذلك وافادوا فهو يبذل لهم قلعة بانياس فتداخلوا مع ملك الالمان وخوفوه مغبة الامر وحذروه من امداد المسلمين بعضهم بعضاً وتألبهم وانه يقع في ورطة لا يمكنه الخلاص منها عند ذلك . فأثر كلامهم فيه وادرك نصحهم وحقيقة ما قالوه . فانصرف عن دمشق بعد زمان طويل قضاه في محاصرتها ، ووفى انز بما شرطه للافرنج من تسليم قلعة بانياس . وفي مدة هذه المحاورة الاخيرة كان الغلاء ضارباً اطنابه في جميع الممالك العربية كالشام والعراق والحجاز وكذلك خراسان وفي سنة ٥٤٤ مات معين الدين انز نائب دمشق وحاكمها . فعد الناس موته مصيبة عظيمة على المسلمين ورزأ فادحاً وفاجعة معضلة . لما كان له من الايادي البيضاء والبصيرة الصادقة في الدفاع عن هذه المدينة وقام بتدبير

امور دمشق مجير الدين بن جمال الدين بن طغتكين . وفي ايامه عمد الصليبيون الى دس الدسائس بين المسلمين، وتظاهروا بالولاء والصداقة عاهم يبلغوا مآربهم منهم حيث اعيتهم الحيل. فقد اخذوا بطرق سلمية ووجوه ودادية وصادفوا غفلة من مجير الدين المذكور. فعلت كلمتهم وتفذت بعض مقاصدهم . وبلغت الاخبار صاحب حلب اذ ذاك ، وهو السلطان نور الدين زنكي المعروف بالشهيد ، فامتعض لذلك ، وخشي على دمشق من وقوعها في ايدي الافرنج بالحيل . وكانت نيران الحروب مضطرمة في جميع الانحاء وخصوصاً الساحلية والجنوبية . فما وسعه الا ان جرد جيشاً ، بعد ما كاتب اهل دمشق سراً واستمالهم وحذرهم عاقبة ما هم فيه . وبين لهم غفلة اميرهم ، وسوء مغبتها عليهم فانصرفت اذهانهم اليه . ثم سار بجنوده وحاصرها . ففتح له اهلها الباب الشرقي الذي دخل منه خالد بن الوليد يوم الفتح الاسلامي الاول . فدخل نور الدين منه واحتوى على جميع ما في المدينة . وازال ما كان فيها من دخلاء جواسيس الصليبيين ودخائلهم ، وقطع دابر تلك الدسائس ، وتحصن مجير الدين بالقلعة وامتنع عن التسليم . فبذل له نور الدين اقطاعاً في ضمنها مدينة حمص على ان يسلم له القلعة فنزل على الامان والشرط وسلمها ، ثم لم يوف له نور الدين بشرطه احترازاً من مكايده . فتوجه الى بغداد الى ان مات بها وهو آخر امراء آل طغتكين بدمشق الشام .

ولما تم الامر للسلطان نور الدين ودانت دمشق لطاعته ولى عليها اخاه نجم الدين ايوب عاملا وكر راجعاً الى حلب ومن يومئذ انقرضت دولة السلجوقيين ومواليهم آل طغتكين من الشام باسرها وخلفتها الدولة النورية التي هي متفرعة عن الدولة السلجوقية ايضا . وذلك ان جد نور الدين هذا آق سنقر الملقب بقسيم الدولة كان مملوكا للسلطان ملك شاه ابن الب ارسلان السلجوقي وهو احد المماليك الذين ساعدهم الحظ وارتقى بهم الحال الى ان صاروا امراء وملوكا واسسوا دولا عظيمة لما فيهم من اخلاق التي تؤهلهم لذلك . وقد تولى آق سنقر هذا ولايات عديدة في حياة سيده وباشر حروباً كثيرة

في سبيل تشييد دولة مواليه . وكان من نعم الله على البلاد التي يتولى امرها لحسن سياسته ورفقه بالرعية وعدله . وكانت ايام ولايته غرراً ومواسم خير ورخاء وامن شامل . ولما وجه السلطان ملك شاه اخاه تتش لتملك الاراضي الشامية شد عضده بمملوكه آق سنقر هـذا لما يعلم من غنائه وحسن بلائه وشجاعته ونصحه . ولما ملكوا حلب اقامه تتش نائباً عنه فيها . ثم وقع بينهما اختلافات ادت الى تمكن العداوة ثم الى المحاربة وظفر تتش به اسيراً في بعض الوقائع فقتله وكان قتله سنة ٤٨٧ وترك ولد عمه زنكي الملقب بعماد الدين والد نور الدين الشهيد وارثاً الخلال ابيه سائراً على قدمه وتغلب في ولايات عظيمة للسلطان محمد بن ملك شاه ثم لولده السلطان محمود وخدمه السعد وشاع ذكره وتناقل الناس اخباره وسيرته وكان عظيم الهيبة في صدور عساكره ورعيته بعيد الغور في السياسة . وباشر بنفسه حروباً كثيرة هائلة بين المسلمين والافرنج فاز في اكثرها وظهرت شجاعته . وحروباً بين مواليه السلجوقيين وبين خلفاء بني العباس في سبيل التغلب . وحروباً بين الملوك السلجوقيين بعضهم مع بعض في سبيل التنافس على الملك . وفي آخر مرة قلد ولاية حلب والموصل وما يتبعهما وبقي على هـذه الحالة الى ان قتله مماليكه غيلة سنة ٥٤١ وهذا هو سبب تلقيبه بالشهيد . وخلف ثلاثة اولاد تولوا الاعمال بعده وكانوا المثال السائر في العدل والاحسان والخير والشجاعة اكبرهم سيف الدين غازي ملك الموصل واعمالها . وقطب الدين مودود . وملك بعـد اخيه سيف الدين ما كان له وضم الى ذلك جزيرة ابن عمر وترك ثلاثة اولاد ملكوا جهات متعددة وتولوا لعمهم نور الدين الآتي ذكره اعمالاً كثيرة .

ونور الدين هذا الذي سقنا الحديث من اجله . هو الذي قضى على بقايا مماليك السلجوقيين وغيرهم . وقضى معظم عمره في المغازي والفتوحات . وحارب الافرنج بنفسه . ودحرهم في مواطن كثيرة . واخرجهم من كثير مما استولوا عليه من مدن الشام وحصونها كقلعة بانياس وغيرها . وافتتح كثيراً من البلاد المصرية وضمها الى ملكه . ولما اتسعت ممالكه . ودان الناس له

بالطاعة ، جعل مدينة دمشق مقر ملكه ، ومركز حركاته الحربية . واستقر هو بقلعتها الشهيرة ، كدأب من قبله من الملوك . وكان عالماً كبيراً ، محباً لنشر العلم ، متفانياً في خدمته ، بنى المدارس الحافلة للطلبة ، وأجرى عليهم الارزاق الواسعة ، فزخرت بحار العلم في ايامه ، ونفقت اسواقه . وكانت حضرته كعبة لاكابر العلماء يسع كلا منهم بكرمه ، ويجري معهم المباحثات العلمية ، فيفيد ويستفيد منهم ، وكان يعظمهم ، ولا يصدر الا عن رأيهم ، وكان لا يبت حكماً الا بعد عرضه عليهم ويجري الامور على مقتضى فتاويهم .

واما عدله وتواضعه وزهده وعبادته وتغييره للمنكرات كالمكوس وغيرها فحدث عن البحر ولا حرج ، ولعمري انه لحقيق بما قاله في حقه العلامة ابن الاثير في تاريخه انه طبق الارض بحسن سيرته وعدله الى ان قال : ولقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم ار فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز احسن من سيرته . ولا اكثر تحرياً منه للعدل . ثم اطنب في ذكر زهده وعبادته وعلمه وورعه . قال : وكان لا يلبس ولا يأكل ولا يتصرف الا في الذي يخصه مما ملكه او اشتراه من سهمه من الغنيمة ، واما اموال بيت المال المرصدة لمصالح المسلمين فلا يصرف من ذلك الا بقدر ما تدعو اليه ضرورة الحاجة ، حتى ان زوجته شكت له مرة شدة المضايقة في ضرورياتها فأعطاها ثلاثة دكاكين بحمص كانت ملكاً له يحصل من ريعها عشرون ديناراً في السنة فذكرت انها لا تفي بالحاجة فقال لها ليس لي الا هذا ، وجميع ما بيدي انا فيه خازن للمسلمين لا اخونهم فيه ، ولا اخوض النار من اجلك .

واتسع ملكه حتى خطب باسمه في الشام ومصر وكثير من قرى العراق والحرمين الشريفين ، كل ذلك بواسطة السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب الكردي اذ كان احد اركان دولته واحد سيوف صولته كما سنذكره . وفي آخر ايام السلطان نور الدين تكدر الصفو ما بينه وبين عامله على مصر صلاح الدين المذكور . ومات السلطان نور الدين قبل ان يتفاقم الامر وكانت

موته بداء الخوانيق في قلعة دمشق سنة ٥٥٦ ودفن في التربة المخصوصة المعروفة الى اليوم بمدرسة النورية بسوق الخواصين .

ولما مات نور الدين قام بالامر بعده ولده الملك الصالح اسماعيل . غير ان غالب الممالك التي كانت لابيه دخلت في طاعة صلاح الدين يوسف بعد ان كان في اول امره مطيعا له وخطب باسمه وضرب السكة كذلك . وكان وزيره ومدبر اموره شمس الدين بن عبدالملك المعروف بابن المقدم وانتقضت عليه في ايامه الجزيرة والموصل وبقيت دمشق مظهر المراسم لدولته الى ان خرج في بعض المرات الى حلب في بعض اغراضه فاغتنمها كبراء دمشق وارسلوا السلطان صلاح الدين ودعوه ليضم دمشق الى ممالكه فاجابهم وضبط امورها وحصن سورها وبنى بها المدارس والمساجد واصلح طرقها ووسع اسواقها ومنع من اخذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكيالة وغيرها . وعاقب على شرب الخمر ووقف اوقافا على المرضى والمستشفيات ومعلمي الخط والقرآن وساكني الحرمين الشريفين واقطع امراء العرب لئلا يتعرضوا للحاج ووقف كتباً كثيرة وامر ببناء محل لها ليكون مجمعا للعلماء ومحبي العلم .

فتح نور الدين بانياس عنوة وفوض حكم دمشق الى صلاح الدين يوسف بن ايوب فاظهر السياسة وهذب الامور . وفي تلك السنة اصاب اخو السلطان نور الدين سهم في عينه على حصار بانياس فمات منه ودفن بدمشق . قال صاحب شذرات الذهب : وقع في يد السلطان نور الدين زنكي ملك من ملوك الافرنج فبذل في تخليص نفسه مالا عظيما . فشاور نور الدين امرائه فاشاروا ببقائه في الاسر خوفا من شره . فقال له نور الدين احضر المال فاحضر ثلاثماية الف دينار فاطلقه فلما وصل الى بلده مات . وطلب الامراء سهمهم . فقال ماتستحقون شيئاً لانكم اشرتم بغير الفداء وقد جمع الله لنا بين الحسنيين الفداء وموت اللعين . فبنى بذلك الفداء المارستان الذي بدمشق والمدرسة ودار الحديث ووقف عليهم الاوقاف وهي الى الآن باقية على حالها من العمران . الا ان يد الغاصبة قضت على اوقافها . وذكر المطري في كتابه تاريخ المدينة ان نور

الدين رأى النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة واحدة ثلاث مرات وهو يقول له في كل واحدة منها انقذني من هذين الشخصين واشار لشخصين اشقرين تجاهه . واستحضر وزيره قبل الصبح فأخبره فقال هذا امر حدث في المدينة ليس له غيرك فتجهز وخرج على عجل بمقدار الف راحلة وما يتبعها من خيل وغير ذلك حتى دخل المدينة على غفلة . فلما زار طلب الناس عامة للصدقة وقال : لم يبق بالمدينة احد الا جاء . فلم يبق الا رجلان مجاوران من اهل الاندلس نازلان في الناحيه التي هي قبلى حجرة النبي صلى الله عليه وسلم من خارج المسجد عند دار آل عمر بن الخطاب التي تعرف اليوم بدار العشرة . قالا نحن في كفاية . فجد في طلبهما حتى جيء بهما بين يديه . فلما رآهما قال لوزيره هذان هما فسألهما عن حالهما وما جاء بهما فقالا للمجاورة فكرر السؤال عليهما حتى افضى الى العقوبة . فاقرا انهما من النصارى وصلا لكي ينقلا جثته الشريفة ووجدهما قد حفرا نقبا تحت الارض من تحت حائط المسجد القبلي يجعلان التراب في بئر عندهما في البيت فأمر بضرب عنقهما عند الشباك الذي في شرقي حجرة النبي صلى الله عليه وسلم خارج المسجد ثم احرقا . وركب متوجها الى الشام راجعا فصاح به من كان نازلا خارج سور المدينة واستغاثوا وطلبوا منه ان يبني لهم سورا يحفظهم من غزو العرب فامر ببناء هذا السور الموجود اليوم

ونقل بعض السلف ان اسباب اجابة الدعوة عند قبره لوجود ثلاث شعرات شريفة دفنت معه . وجدت في تاريخ العدوي انه حين وفاته قال العماد الكاتب ما نصه :

يا مالكا ايامه لم تزل	بفضله مقبلة فاخره
غاضت بحار الجود مذغيبت	أنملك الفائضة الزاخره
ملكت دنياك وخلفتها	وسرت حتى تملك الآخره

ومات الملك الصالح سنة ٥٧٧ وعمره تسع عشر سنة . وبموته انقطعت الجرثومة النورية من الشام وان بقي بعض اولاد عمه مثل قطب الدين بنواحي سنجار . وقامت على انقاض الدولة النورية والدولة الايوبية : وما هي الا زهرة

من روضتها المؤنقة وغصن من دوحتها المورقة . وما صلاح الدين الا حسنة من حسنات نور الدين الشهيد . فلقد كان هو وابوه ايوب بن شادي من اتباع نور الدين المخلصين اعطاهما الرتب الرفيعة وقاما بجلائل الاعمال . وكانت لصلاح الدين اليد الطولى في تشييد اركان دولته . ونظراً لما لهذه الدولة ، اعني الايوبية ، من المكانة والاشتهار بين الدول الاسلامية وخصوصاً عند الامم الافرنجية لما نوه به مؤرخوهم من فضائل مؤسس هذه الدولة وركنها وعميدها وعمادها صلاح الدين . حتى ان ملوك الافرنج في هذه الاعصر الاخيرة يعتنون كثيراً بسيرته وتاريخ حياته ويعتبرونه اعظم ملوك الاسلام وربما بالغ بعضهم بعده اكبر ملوك الشرق على الاطلاق والسبب في ذلك هو احتكاك اسلافهم به في الحروب الصليبية وممارستهم له . فنقلوا لاخلافهم ما كان له من المواقف المشهورة والحملات الصادقة والحروب الطاحنة التي اجلاهم فيها عن بيت المقدس بعدما وشجت عروقهم فيها وتملكوها ثلاثاً وتسعين سنة .

ولم يبق لهم في ايامه الا المدن التي على خط الساحل . كما سنفصل ذلك كله لذلك رأينا ان نشبع الكلام في ترجمة هذا الملك العظيم واوليته وما قام به من الاعمال التي ادرك الافرنج سرها . فاعطوه حقه من التعظيم . وناهيك برجل افتخر امبراطور المانيا غليوم لما قدم دمشق بكونه بات في مدينة عاش فيها صلاح الدين ودفن بها

وان كان في التطويل خروج عن غرضنا لكنه يغتفر في جنب ما له من الاهمية . ولما لتاريخ حياة صلاح الدين من الارتباط القوي بدمشق .

اصل الرجل من الاكراد وولد بتكريت سنة ٥٣٢ هـ . وارتحل ابوه ايوب الى دمشق وسكنها وهو اذ ذاك رضيع فنشأ في حجر والده . ثم اتصل والده بخدمة السلطان نور الدين وتقلب في الاعمال الصغيرة حتى استعمله على بعلبك وعكف صلاح الدين على طلب العلم بدمشق عن اكابر علمائها ومخايل النجابة لائحة عليه حتى برع وشب على الخصال العالية الحميدة من تقوى وعفاف وورع

مما اشتهر به بعد ذلك . ولم تؤثر زخارف الملك الذي اقبل عليه في كبره على تلك الاخلاق الفضلة التي فطر عليها واكتسبها بالعلم . بل كلما ازداد علواً ازداد سكينة وتواضعاً . وكلما خدمته الدنيا استخدمها في السبل المشروعة وهذا هو التوفيق . والفضل في ذلك كله عائد للسلطان نور الدين . فقد كان على ماوصفناه به محط رحال الفضائل وينبوع المحامد والمناهل . وصلاح الدين يوسف هو ربي دولته ورضيع اخلاقه فلا غرو ان فاضت عليه شمس سعادته . وغذاه نمير خلاله المباركة والفرع يزكو بزكاء الاصل . وكان من اسباب ترقي هذا الرجل الى اوج العلا وتبوئه من الملك المقعد الاسمى ما نقص عليك نبأه :

وذلك ان العبيديين الذين قدمنا نبذة من اخبارهم بمصر كانت دولتهم لذلك العهد قد اخذت في التراجع والاضمحلال تقلص ظلها على كثير من الممالك لسوء سيرة خلفائها والقائمين بأمرها . وتفشى فيهم داء الاختلاف والمنازعات واستبد الوزراء في الامر . وتغلبوا على الخلفاء ولم يبقوا لهم الا الاسم والصورة مثل ما وقع للخلافة العباسية ببغداد . وصار المترشحون للوزارة يقتتلون على المنصب كما يقتتل اولياء الملوك على الملك . ولكل واحد عصبية وانصار يشتريهم بالدرهم والدينار . وكانت شوكة السلطان نور الدين الشهيد اذ ذاك بالغة حدها في القوة . وعدله وحسن سيرته حديث الركبان . فاتفق ان العاضد لدين الله ابا محمد عبد الله العبيدي آخر خلفائهم بمصر . كان مستوزراً وزيراً اسمه شاور فنازعه في الوزارة رجل اسمه ضرغام من رجال الدولة . وتغلب عليه وانتزعها منه بالقوة . فخرج من مصر الى السلطان نور الدين مستنجداً به على ارجاع حقه المغصوب ومستصرخاً له . فأنزله المنزل الرحب واكرم نزله وقابله بما هو اهله حتى ايقن الوزير بنجاح المسعى . فطلب من السلطان ان يجهز معه جيشاً يكسر به شرة عدوه . وشرط على نفسه للسلطان انه ان استرجع حقه من الوزارة . فالثلث من اموال مصر من خراج وغيره للسلطان نور الدين يستعين به على غزو الافرنج . وانه لا يتصرف ولا يمضي شيئاً الا بأمر السلطان نور الدين . فأجابه الى ملتمسه ناوياً الخير والاصلاح

لمسلمين . وجهز معه جيشاً عظيما . وجعل قائده اسد الدين شيركوه بن شادي (عم صلاح الدين) فسار الجيش الى مصر . والتقى بجيش الوزير ضرغام المتغلب . فاقتتل الجيشان وكانت الغلبة لجيش أسد الدين فظفر بضرغام وقتله وأعاد شاور الى وزارته . ولما تمكن من منصبه نقض ما اشترطه على نفسه للسلطان ونكث العهد . وصار يماطل أسد الدين ويتعلل بالاباطيل . حتى أدى الامر الى الحرب بينهما ليخرج اسد الدين وجيشه من مصر . واستعان شاور بالصليبيين فأمدوه بجيش عظيم . ووقعت بينهم وبين أسدالدين مقاتلات عظيمة كانت نتيجتها خروج جيش نور الدين وقائده اسد الدين من مصر ورجوعهم الى الشام . ولما كانت سنة ٥٦٢ هـ جهز نورالدين جيشاً آخر على مصر بقيادة اسدالدين ايضاً ومعه ابن اخيه صلاح الدين يوسف بن ايوب . ولما بلغ خبرهم الى الوزير شاور حشد الجيوش لقتالهم واستنجد بالافرنج الصليبيين كما فعل في المدة الاولى . والتقى الجمعان ووقعت بينهم معارك عظيمة واستولت جيوش نور الدين على الاسكندرية . ثم حاصرهم الوزير شاور وأنجاده من الافرنج فيها ولما ضاق بهم الحال سلموا الاسكندرية بالصلح ورجعوا الى الشام . ومن ذلك الوقت تمكن الصليبيون من مصر وكثرت جيوشهم فيها وعاثوا فيها فساداً ؛ وتداخلوا في الاحكام ؛ وتسلطوا على المسلمين بالجور والظلم . وحلت البلايا بالمسلمين . كل ذلك بسبب الوزير شاور المشؤوم وقبضوا على اموال مصر وضبطوا اخراجاتها وركبوا الاهالي بالاذى ؛ وابدوا في المنكرات والفظائع واعادوا .

فضاق ذرع الخليفة العاضد العبيدي وزادته هذه المسألة وبالا على وباله. فأرسل الى السلطان نورالدين يستغيث به ويستصرخه على الافرنج . ويحكى انه ارسل شعور نسائه في طي الرسالة . وضمنها من عبارات التلطف ما حرك به غيرة نور الدين واستثار عواطفه . واستفز كوامن غضبه على الصليبيين . فاقامت هذه الرسالة نور الدين واقعدته . وجهز الجيوش واستنفر الناس . وعقد على تلك الجيوش لاسد الدين شيركوه ولولد اخيه صلاح الدين يوسف امير

جيش تحت نظر عمه . فوصلت الجيوش الى مصر وانتشبت بينهم وبين الافرنج معارك هائلة ظهر فيها من شجاعة صلاح الدين يوسف واقدامه وبصره بالمكايد الحربية ما لهجت به الالسن ، ومن يومئذ شاع ذكره ، وعلا قدره . وانجلت تلك المعارك عن هزيمة الافرنج واجلائهم عن مصر ، واجتمع اسد الدين بالخليفة العاضد فخلع عليه وابدى من دلائل السرور والتيمن به شيئاً كثيراً .

اما الوزير شاور فلم يرق له هذا الانتصار الباهر الذي خلص المسلمين من مخالب الافرنج وسولت له نفسه الخبيثة ان يعمل على الفتك باسد الدين متى امكنته الفرصة . وزاده جراءة على ذلك ان اسد الدين لم يمسسه بسوء مع قدرته عليه . فيقال انه عزم على استدعاء اسد الدين لطعام يصنعه له وهناك يتم تدبير المكيدة للفتك به . وكانت مضمراته السيئة غير خافية على اسد الدين بواسطة بعض اصحابه واحبابه فاتفق ان اسد الدين خرج يوماً لزيارة قبر الامام الشافعي بالقرافة ومعه بعض خواصه وتخلف عنه ولد اخيه صلاح الدين وبعض رؤساء الجند بمحل الاثقال وكانت عادة شاور الوزير انه يتردد عليهم كل يوم للانس والخدمة ولا يأتيهم الا على مراسم الوزراء في العساكر والبوقات : ففي اليوم الذي خرج فيه اسد الدين للقرافة جاء الوزير بعده على عادته فلم يجد اسد الدين ، ورام الالتحاق به فركب مع صلاح الدين وحاشيته وهما على ما قال القائل (كل له نية في بغض صاحبه) فلما توسطوا الطريق وامكنتهم الغرة امسك صلاح الدين بتلابيب شاور ورمى به الى الارض وخف اصحابه للقبض عليه ففرت عساكر شاور الوزير واسلموه موثقاً بيد اعدائه . فاخبر صلاح الدين عمه بذلك فاستحسنه واعلم الخليفة العاضد بالامر فوقع منه موقع السرور والابتهاج لثقل وطئة الوزير عليه وضربه على يديه وانفذ الخليفة الى اسد الدين يأمره بقتل الوزير شاور . وقتله وبعث برأسه الى الخليفة فوجه له الخليفة بخلعة الوزارة فتقلدها ودخل القصر ورتب امور الجند وصفت الاحوال وانقطعت فتن الوزارة وخابت آمال الافرنج وصنائعهم . وكان قتل الوزير شاور في سنة ٥٦٤هـ . ولما تمكن اسد

الدين من الوزارة فوض غالب اموره لولد اخيه صلاح الدين يوسف لعلمه بمكانته من اصالة الرأي وحسن التدبير وكفايته وشجاعته واقدامه . وكان اسد الدين وزيراً للخليفة العاضد من جهته ونائبا عن السلطان نور الدين . ولم يطل امره في الوزارة بل كانت مدته كلها شهرين وخمسة ايام فانه مات في السنة المذكورة ولما مات اسندت الوزارة لابن اخيه صلاح الدين فاستقرت القواعد واعطيت القوس باريها واطمأنت الارض وساكنيها وبدأت دلائل الملوكية والسلطنة تبدو عليه فبذل المال وامتلك قلوب الرجال وامن السبل واستأصل جراثيم الفساد والفتن التي كانت توقع المملكة المصرية في براثن الافرنج وتطهرت السواحل الشامية منهم . وقد تم له ذلك ومع كونه وزيراً للدولة العبيدية ومذاهبهم في الاعتقادات مشهورة فقد غلوا في التشيع والرفض الى درجة قصوى وقصروا الاحكام على فقه آل البيت بزعمهم . (وحبذا لو اتبعوهم) وجاء من بعدهم خلفاؤهم تجاهروا بالكفر والالحاد وكل منهم حلل وحرم بمقتضى هواه واحدث المقالات الشنيعة كالحاكم بامر الله وغيره . وقد كانت تلك التعاليم رسخت في المصريين وتدينوا بها لما ان الخلافة العبيدية سادت عليهم احقابا والناس على دين ملوكهم . مع هذا كله كان مرمى صلاح الدين يوسف لاول وزارته القضاء على تلك النحل وحمل الناس على المعتقد الحق والدين الصحيح ومع كونه شافعي المذهب ميالا للأثر محبا للاعتدال جاريا على الحق في الاعتقاد والعبادات ولقد تمكن في ايام وزارته وايام سلطنته من استئصال البدع والخرافات والمعتقدات الفاسدة ونشر العلم الصحيح . ونشأ في دولته ودولة بنيه من بعده فطاحل العلماء واكابر الفقهاء وجلة المحدثين . وبعد توليته الوزارة ارسل الى ابيه نجم الدين ايوب واهله وكانوا بدمشق في حضرة السلطان نور الدين الشهيد فقدموا عليه مصر واجتمع شمله بهم . ولم يحدث منه في ايام وزارته ما يكدر العلائق بينه وبين السلطان نور الدين ولم يؤنس له خلاف بل لم يزل حليف ولاء له عاملا على تشييد سلطانه مع اتفاق مقاصدهما في جهاد الافرنج وحماية الممالك الاسلامية من استيلائهم عليها

الى ان كانت آخر ايام الخليفة العاضد . فبدا للسلطان نور الدين ان يقطع الدعوة العبيدية من مصر ويعوضها بالدعوة على المنابر للدولة العباسية فانفذ امره الى صلاح الدين يأمره بقطع الدعاء للعبيديين على منابر مصر وان يدعو للخليفة العباسي المستضيء بامر الله . فتوقف صلاح الدين وخشي من وقوع فتن بسبب ذلك لان المصريين الفوا مراسم العبيديين واشربت قلوبهم محبتهم فليس من السهل حملهم على ضد ماتلونت به طباعهم . فاعتذر صلاح الدين تجاه السلطان نور الدين بما ذكرناه فلم يقبل عذره والح عليه في ذلك فامتثل وامر الخطباء في جميع انحاء مصر ان لايذكروا اسم العاضد على المنابر وان يخطبوا باسم المستضيء العباسي ففعلوا ولم يقع شيء مما كان يتوقعه من الفتنة وانتهى الامر بسلام . وكان العاضد وقت قطع اسمه من الخطبة مريضا ومات بعدها باسبوع سنة ٥٦٧ حتى انه لم يسمع ولم يعلم بما جرى . وكان قصد السلطان نور الدين بذلك جمع كلمة المسلمين وقطع دابر دعوة الفاطمية التي ساءت آثارها وكلا القصدين محمود ؛ ويقال ان السلطان نور الدين حمل الاعتذار الذي اعتذر به السلطان صلاح الدين على غير وجهه ، واشتم منه رائحة الخلاف وشق العصا فعزم على تسيير جيش لمحاربته وضحد شوكته فعاجلته المنية عن تنفيذ قصده ؛ ولم يكن صلاح الدين بالذي تحدثه نفسه بالخروج عن طاعة نور الدين الذي لولاه لم يكن لمثل صلاح الدين ذكر . وقد حكى القاضي بهاء الدين بن شداد في كتابه السيرة الايوبية ، انه سمع في مجلس صلاح الدين نفسه يقول : سمعنا بان السلطان نور الدين يقصدنا بالاذى لاخبار بلغته عنا من بعض النمامين ، فأشار عليّ بعض اصحابي بمنابذته والخروج عنه وكنت اخالفهم في ذلك ولا ارى رأيهم ، حتى اني قلت يوماً بحضرتهم للكاتب اكتب لمولانا السلطان نور الدين انني لم ازل في طاعتك وخدمتك ؛ ولو ارسلت الي من الجيوش رجلاً واحداً يضع عمامتي في عنقي ويجرني اليك لأتيت منقاداً بدون مخالفة .

فهذا من دلائل اخلاصه وصدقه في خدمته . ولما مات العاضد انقطع بموته اثر العبيديين بمصر ، وصفا الجو لصلاح الدين وعلت كلمته ، ونفذت اوامره

وطأطأت الاعناق لسلطانه . وخالطت مهابته القلوب . وعم عدله وحسن سياسته الخاص والعام . وكان يصرح في مراسمه بأنه نائب بمصر عن الخليفة العباسي وعن السلطان نور الدين . واستولى على خزائن العبيديين ووزرائهم ووجوه دولتهم . فصرفها كلها في وجوه البر والاحسان ومصالح المسلمين العامة . وبذل همته وجميع قواه في جهاد الافرنج . فكانت معهم وقعة دمياط المشهورة التي اوقع بهم فيها النكال واذاقهم مر الوبال . وكان ذلك في سنة ٥٦٩ ، وازداد ذكره بهذه الوقعة علواً . وتيمن الناس بسعد طالعه .

ثم عقد العزيمة على غزو الافرنج الذين هم بالكرك والشوبك . واجلائهم عنها حيث كانوا حجر عثرة في الطريق بين مصر ودمشق . فقصد انتزاعها من ايديهم . وتطهير السبيل بين القطرين حتى يقع الاتصال بينه وبين السلطان نور الدين . فجمع جموعه واصعد الى الحصنين المذكورين ونازلهما فأعجزه افتتاحهما . فرجع الى مصر مثابراً على قصده ونيته . وفي سنة ٥٦٨ مات والده نجم الدين ايوب . وحزن لموته حزناً شديداً . وفي تلك الحالة بلغه ظهور خارجي بأرض اليمن يدعو الناس لنفسه ويهدم ملكه والظهور على كل من يعاديه وانه استولى على غالب البلاد اليمانية . فجهز صلاح الدين جيشاً تحت امرة اخيه الاكبر شمس الدين توران شاه . فتوجه الى الديار اليمنية وفتحها على يديه وقتل ذلك الخارجي . ومن يومئذ دخلت اليمن في حوزة صلاح الدين . وفي سنة ٥٦٩ مات السلطان نور الدين الشهيد بدمشق كما قدمنا خبره مستوفياً . فقام بالامر بعده ولده الملك الصالح اسماعيل واستوزر ابن المقدم وقد قدمنا ذلك في اخباره وذكرنا ان اهل دمشق راسلوا السلطان صلاح الدين ليتملك دمشق وانتهى بنا القول سابقاً عند هذا الحد . والآن نقول ان صلاح الدين استقل عند موت نور الدين بملك مصر وما يتبعها مما كان افتتحه من الممالك مثل اليمن : ولم تكن همة الرجل متوجهة الى ابهة الملك وزخارفه ولا جانحة الى الدعة والترف والسكون . بل كانت همته مصروفة نحو ثغر يعمره وعدو يدمره ودين يعززه وجيش يجهزه ومضطر يأويه ومعروف يوليه ومظلوم

ينصفه، ومنكر يزيله ويكشفه وعدل ينشره ومستغيث يصرخه وينصره

ففكر في حال دمشق وهي مادة الاسلام ومركز دائرته فوجدها هدفاً لمرامي الصليبيين وهي المقصودة لهم بالذات وقد بقيت بعد موت نور الدين كالهالة فقدت بدرها، ورأى ان ولده الملك الصالح صبي لم تحنكه التجارب ولا قارع الايام، فلا يقدر على النهوض بأعباء الملك ولا يقدر ان يستقل بدفع العدو عن البلاد، وربما عصفت به عواصف النزق والطيش بمقتضى السن وعدم التجارب فألقته والبلاد معه في بحر لجيّ لايخلص منه الى ساحل. فتجهز صلاح الدين بجمع عظيم من العساكر وأبقى على مصر من يقوم بحفظها وحراستها وتنظيم سياستها وخرج مستعيناً بالله ومعه جماعة من اهله واقاربه، وكاتب في طريقه امراء البلدان واهلها يخبرهم بقصده ويثبت عزائمهم ويستنفرهم لقتال الافرنج وكان الملك الصالح اذ ذاك بحلب، وقد قبض على جماعة من اقاربه لخلاف وقع بينهم، وقد اختلفت كلمة اصحابه واختلت تدابيرهم واتسع الخرق على الراقع وخاف بعضهم من بعض واصبح الواحد منهم لايثق بولده ولا بأخيه، فوصل السلطان صلاح الدين الى دمشق وتسلم قلعتها ولم ينتطح في دخوله عنزان، فقابل وجوه البلد واحسن الى القاصي والداني، وفرق اموالاً جمة في طرق البر والمعروف وتيمن الناس بقدومه، واقام بدمشق قليلاً ريثما استراح الجيش، ثم سار قاصداً حلب ونازل حمصاً في طريقه فاستولى على المدينة، وامتنعت عليه القلعة فلم يحتفل بها وتجاوزها الى حلب فنازلها يوم الجمعة سلخ جمادى الاولى سنة ٥٧٠ . ولما احس سيف الدين غازي ابن اخي السلطان نور الدين وهو صاحب الموصل اذ ذاك بالحركة التي بدئها السلطان صلاح الدين، علم ان الرجل قد استفحل امره وعظم شأنه وعلت كلمته، وانه ان غفل عنه ولم يأخذ للامر حيطة ولم يحترز على نفسه استحوذ على البلاد واحدة واحدة ثم هو ملتهمه لامحالة وواضع كلكله عليه، فجهز عسكراً عظيماً وقدم عليه اخوه عز الدين (وهما ابنا قطب الدين مودود ابن عماد الدين زنكي) وساروا يريدون لقاء السلطان صلاح الدين ومقاتلته ورده

عن حلب حتى يحفظوها لانفسهم مركز دفاع ورد عدو . ولما بلغ خبرهم الى السلطان احرجه الامر ولم يرق له ان يشتبك مع المسلمين في قتال في وقت مهم . ثم عاد الى حمص : فافتتح قلعتها ونظم امورها ورمم اسوارها ووصل عز الدين بجيوشه الى حلب : وانضم اليه من كان بها من العسكر وتأثروا السلطان صلاح الدين . ولما علم بسيرهم اليه سار للقائهم حتى توافوا بقرب حماه وراسلهم وراسلوه ورغب منهم في الصلح حقناً للدماء واحتفاظاً بجامعة المسلمين فما صالحوه بل لجوا في طغيانهم واغتروا بكثرة خيلهم وفرسانهم . وما دروا ان كثرة العديد لا دخل لها في الغلب وان سر الله في صدق الطلب فتواقفوا واشتبت الحرب بينهم فكانت الدائرة على عز الدين وجيوشه : واسر صلاح الدين منهم جماعة فمن عليهم واطلق سبيلهم : وكانت هذه الوقعة في تاسع رمضان من السنة المذكورة . وقد قال قاضي دمشق عن فتح حلب بطريق الالهام :

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر مبشراً بفتوح القدس في رجب

ثم سار السلطان صلاح الدين عقيب انكسارهم الى حلب فصالحوه على ان سلموا له المعره وكفر طاب وبارين . وعلى شروط اخرى منها انه ان احتاج الى المساعدة على قتال الافرنج ساعدوه وبقيت حلب في يد الملك الصالح ولد نور الدين الشهيد وابناء عمه بنواحي الموصل وسنجار . وكان السلطان صلاح الدين متغاضيا عنهم عساهم ان يرعووا وينيبوا . وخلاصة الحال ان السلطان كان موجها عنايته الى قتال الافرنج ولم يقاتل احداً من هؤلاء المتغلبين الا عن اضطرار بحيث يقع الشر من جهته والمفسدة العامة والضرر البين على المسلمين . ولكن سيرته العادلة كانت من اكبر العوامل في تمهيد ملكه ودخول غالب الممالك ومالكيها في طاعته طوعاً . ولنصرف العنان عن الاطالة في شرح الوقائع فان ماذكرناه يكفي تمهيداً لدخول دمشق في طاعته والقائها بالمقاليد اليه . وبعد ماذكرناه اجتهد وبذل المستطاع في جهاد الصليبيين وكانت له معهم الوقائع المشهورة والمعارك المذكورة . وقد اعتنى المؤرخون بتفصيلها لما لها من الاهمية فلنكل شرحها اليهم ونكتف بالاشارة اليها . فمن مغازيه غزوة خلاط وغزوة

عين جالوت وغزواته المتعددة الى الكرك والشوبك . وهذان الحصنان كانا اشد الحصون امتناعا عليه . كما ان حاجة المسلمين لها اشد لاعتراضها في طريق مصر . ومنها غزوة حطين وهي من ابرك المغازي على المسلمين بسببها استرجعوا نابلس وحيفا وعكا وقيارية وصفورية والناصرة وتبنين وصيدا وبيروت والرملة وداروت وعسقلان وغزة وبيت جبرين والنطرون . وغالب هذه المدن بقيت في يد الصليبيين عشرات من السنين . وهذه الفتوحات هي التي مهدت السبيل الى الفتح الاعظم كفتوح بيت المقدس في سنة ٥٨٣ هـ بعد ان لبثت في قبضة الافرنج نيفا وتسعين سنة . ثم اخذ بعدها صوراً وكوكب واللاذقية وجبلة وصهيون وغيرها من المدن الساحلية والداخلية التي كانوا قد استولوا عليها . وما اتت سنة ٥٨٩ هـ وهي السنة التي مات فيها رحمه الله تعالى الا والاسلام عزيز الجانب مرهوب السطوة بهذا السلطان والممالك الشرقية كلها خاضعة لحكمه آمنة الربوع مطمئنة الجوانب . ومن اراد التغلغل في سيرة هذا الرجل المعظم وتقصيها وتفصيل ما كان على يديه من الفتوحات وما جرى بينه وبين ملوك عصره من المخاطبات فليرجع اليها في كتب التاريخ الاسلامية وفي الكتب المختصة بتاريخ حياته . مات بمدينة دمشق بعد فجر يوم الاربعاء السابع والعشرين من شهر صفر سنة ٥٨٩ هـ وقام بتجهيزه القاضي عبد الرحيم البيساني من مال كان اعده لذلك من صفوة الحلال وصلى عليه القاضي ابن الزكي الدمشقي ودفن باحدى دوره من قلعة دمشق حتى تمت تربته التي بناها الملك الافضل شمالا الجامع الاموي في جوارها شباك الى المدرسة التي اشتهرت باسمه ونقل اليها ؛ وبنى على قبره قبة في زمن الاتراك . وفي تلك السنة صلب بدمشق الذي زعم انه عيسى ابن مريم واضل طائفة كبيرة .

وقال ابن شهبة في تاريخ الاسلام : كان شجاعاً سمحاً ، جواداً مجاهداً يجود بالمال قبل الوصول اليه ، وكان مغرماً بالانفاق في سبيل الله تعالى وما كان يلبس الا ما يحل له ، ومن جالسه لا يعلم انه جليس سلطان ، وكان شديد الرغبة في سماع الحديث . ونقل عن اخلاقه العالية ابن العماد قال : كان بالقدس

ملكة رومية متعبدة مترهبة فاستأذنت صلاح الدين فأعاذها ومن عليها وعلى كل من معها . واذن باخراج مالها ورجالها وحاشيتها . وتبعها خلق كثير ممن لم يكن من اتباعها . وكذلك أذن بخروج زوجة الملك المأسور وهي ابنة الملك مع حاشيتها ومالها . واقامت عند زوجها وكان مأسوراً مقيماً في نابلس وقد عامل جميع الصليبيين بخلاف ما عاملت به الافرنج المسلمين عند تسلمهم القدس . ودفع من ماله قطائع كثيرة لفقرائهم . واذن لاهل المستشفيات ان يلبثوا مدة اراحتهم مع شفقته على المرضى العاجزين الذين هم لم يستطيعوا الرحيل . وهذا قليل من كثير من اعماله . ولم يخلف من الدنيا الا الاسف عليه والذكر الطيب . ولم يحزن المسلمون بعد موت الخلفاء الراشدين حزناً مثل حزنهم عليه . وخلف اولاد اكبرهم الملك الافضل فتقاسموا الملك بعده ولم يجر بعضهم على سداد . وكانت دمشق في حوزة الملك الافضل واسمه علي ويلقب بنور الدين وكان نائباً عن ابيه في حياته . وبعد سنة من ولايته وقعت بينه وبين اخيه الملك العزيز عثمان صاحب مصر وحشة افضت الى تجهيز الثاني على الاول العساكر ومحاصرته دمشق فاستجار الافضل بأخيه الملك الظاهر وعمه الملك العادل فأتيا دمشق واصلحا بينهما ورجع صاحب مصر الى مصره . ولما استقرت الاحوال للملك الافضل نكص على عقبيه وجاهر بشرب الخمر وصرف اوقاته بالملاهي وانهمك في الملذات واهمل الملك فاختل نظامه . فبلغت اخباره عمه الملك العادل فساءه وارسل يوبخه ويقرعه فارعوى وتاب واقلع واناب وعكف على العبادات صارفاً نظره عن تدبير المملكة مفوضاً شؤونها الى وزيره ضياء الدين الاثير وكان غير متضلع ولا محنك فلم يحسن القيام بأعباء الوزارة ولم يقدر على تصريف سياستها . فاختلت الاحوال واضطربت . فحمل العزيز على دمشق مرة ثانية بقصد الاستيلاء عليها وضمها الى مصر فحال عمهما العادل بينه وبين ذلك وساعد ولد اخيه الافضل على حرب العزيز . فطلب منه العزيز ان يرسل له القاضي الفاضل رئيس كتاب ابيهم ليقرر الصلح بين الاخوين . فسار القاضي الى مصر وسمع كلام العزيز

وابرم بينهما صلحاً على شروط بمساعدة عمهما العادل . ورجع الافضل الى دمشق ، وبقي العادل بمصر ليساعده على لم شعثه واصلاح احوال مملكته . وكان سوء تصرف ضياء الدين بن الاثير في دمشق بالغاً منتهاه وسائراً بدمشق الى الخراب والدمار . وتواترت الاخبار بذلك عند الملك العادل فاتفق مع ابن اخيه العزيز على افتكاك دمشق من يد الملك الافضل ، على ان تكون الولاية عليها للعم والخطبة والسكة باسم العزيز بصفته وارثاً لملك أبيه ومتبوأً لعرش ملكه وكرسيه بمصر . فأجمعا امرهما وسارا قاصدين دمشق ، وكان الافضل قد تحصن بها لما بلغه الخبر . فاتفق الاهلون المستوحشون من الافضل المتضجرون من سوء سيرته على مساعدة العادل وادخلوه المدينة من باب توما ودخل العزيز من باب الفرج وملكا المدينة ودانت لهما بالطاعة وخرج الافضل منها بأهله من غير ان يمسه سوء . واقام العادل بدمشق والياً عليها قائماً بأعباء تدبير شؤونها وتقرير امورها مرتباً للمراسم السلطانية باسم ولد اخيه كالخطبة والسكة ، جارياً في ذلك كله على مثل ما كان عليه في حياة اخيه ورجع العزيز الى مصر مقر سلطنته ، وكانت ولاية الافضل عليها ثلاث سنين وشهراً واحداً ، وانتهج الملك العادل منهج اخيه في غزو الافرنج فهزمهم مرات ، ثم سار الى ماردين لمحاربة من فيها من الخارجين والاستيلاء عليها ، وفي تلك الاثناء مات العزيز بمصر سنة ٥٩٥ وبويع بعده ابنه الملك المنصور وبادر الافضل الى مصر مطالباً بملك اخيه . فخلع ولد اخيه وتبوأ عرش السلطنة ، وعن له ان يغتنم في غيبة عمه العادل عن دمشق فرصة للاستيلاء عليها ، فجمع الجنود وكر الى دمشق مسرعاً وبلغ الخبر عمه فاعرض عن قصده ماردين وكر راجعاً الى دمشق فدخلها قبل وصول الملك الافضل لها بيومين ، وانتشب القتال بينهما في سنة ٥٩٦ ووقعت بينهما معارك دامية كانت نتيجتها ان انكسر الافضل وتعقبه العادل حتى دخل عليه مصر في تلك السنة وحالفه النصر وخدمه التوفيق فاستولى على مصر ودان له قاصيها ودانيها واستقل بملكها وخرج الافضل منها متسولاً حتى انتمى الى اخيه الظاهر بحلب وكان عمهما

الملك العادل حين خرج من دمشق في اثر الافضل رتب على دمشق ولده الملك المعظم شرف الدين عيسى . فلما اجتمع الاخوان في حلب كما ذكرنا اتفقا على ان يكونا يداً واحدة على عمهما ؛ وان يحارباه ويخرجاه من دمشق ومصر على ان تكون دمشق للظاهر ومصر لاخيه الافضل فجمعا الجموع وانضم اليهما من يرى رأيهما من الامراء ذوي عصبتهما ومواليهما وقصدوا دمشق فحاصروها وضيقوا عليهما ولما قارب الافتتاح نزغ الشيطان بينهما نزغة والقى بينهما فتنة التحاسد والتنافس فقال الظاهر لا اقنع بدمشق وحدها ولا بد لي من ممالك الشام كلها . ونازعه الافضل واحتدم الخلاف بينهما فارتحل الظاهر بجنوده راجعاً الى حلب واضطر الافضل للرجوع الى حمص مهيض الجناح كاسف البال جانياً ثمرة مطامعه . ولما ارتفع الحصار عن دمشق جاءها الملك العادل ونظم امورها ورم ما تشعث منها وسافر الى حلب فاصطلح مع ابن اخيه وانحسم الخلاف والشقاق بينهم واقر كل واحد في وظيفته واعترفوا له بالخطبة والسكة وانتظمت له سائر ممالك اخيه ودعي له فيها ولم يبق من البيت الايوبي الكردي من يرفع رأسه بخلاف عليه فاشتغل اولاً بترتيب احوال الممالك الداخلية وتنظيم امورها وعمارة ما خربته الفتن والزلازل فيها . فقد وقع في سنة ٥٩٢ زلزال عظيم خرب كثيراً من المدن الشامية واهلك الجم الغفير من اهلها . واقام ولده الملك الكامل محمداً نائباً عنه بمصر واستقر هو بدمشق وفوض امورها على جهة النيابة عنه لولده الملك المعظم عيسى وقسم بقية الممالك على بقية اولاده وكانوا كثيرين . وابقى لنفسه وظيفة الجهاد والمصابرة والاشراف على اولاده ومراقبة احوالهم والاطلاع على سيرهم السياسية . وكان شجاعاً حازماً غزير العقل سديد الرأي كثير الحيلة والمكر شديداً على اولاده في حملهم على الاخلاق الملوكية لا يسكت لاحدهم عن زلة ولا يتجاوز له عن هفوة خصوصاً فيما يتعلق بالملك وسياسة الرعية وفي ايام سنة ٦١٠ حمل الصليبيون على القدس لاسترجاعها من ايدي المسلمين فخرج لمكافحتهم وفي المحاربة عادت الزلازل بأشد ما يكون وعمت مصر والموصل والجزيرة وبلاد

الروم والعراق وجزائر البحر الابيض كقبرص وصقلية وانس الملك العادل من نفسه الضعف عن مقاومة الصليبيين فصالحهم بتسليم يافا لهم ، وان يكون لهم من مدينتي اللد والرملة النصف . ثم انصرف الى قتال الافرنج بمصر ووقعت بينهم هدنة . وفي سنة ٦١٤ اتاه رسول الخليفة العباسي بخلعة سلطانية وعلم وظهير بتقليده جميع الممالك التي تحت يده ملقباً بالملك العادل شاهنشاه ملك الملوك فتأنق السلطان في الاحتفاء بالرسل والاحتفال لهذه التشريفات وبعد ذلك اخذ في اصلاح قلعة دمشق وترميمها مما خربته حوادث الزلازل المتوالية والحروب المتواصلة واجتهد في اتمامها واتقانها . ولشدة حرصه على اتمام عمارتها الزم كل واحد من اهل بيته الملوكي بعمارة برج من ابراجها وبقي الملك العادل ينتقل في الممالك عند اولاده الى ان كانت سنة ٦١٥ فتوجه لمحاربة الافرنج بعكا فنزل بمرج الصفر ثم رحل الى عالقين من ارض حوران فاشتد به المرض ومات هناك . فاتى ولده الملك المعظم من نابلس ورفع جثته ودفنها بدمشق بمدفنه المخصوص المعروف الى اليوم . وكانت وفاته في السابع من اخرى الجمادين من السنة المذكورة وعمره خمس وسبعون سنة . واستولى ولده الملك المعظم عيسى في دمشق واستقل بتدبير امورها . وكانت اخبار تقدم الافرنج وتوغلهم بالفتح في المملكة المصرية فخشي ان تمتد فتوحاتهم ويقتنوا الى فلسطين والقدس وكان القائم بمدافعة الافرنج عن مصر اخاه الملك الكامل وهو الذي بنى مدينة المنصورة احدى مدن مصر المعروفة الى اليوم بهذا الاسم . وبعد هدم اسوار اورشليم اخذ الملك المعظم في محاربة افرنج الشام فانتزع منهم قيصريه وغيرها . ومن سنة ٦١٧ اشتد تكالب الصليبيين على مصر . وهجم الفرنساويون على دمياط فاستولوا عليها وعجز صاحبها عن مقاومتهم فسار الملك المعظم من دمشق بجنوده وسار الملك الاشرف موسى بجيوشه من حران وغيرها . واجتمعوا كلهم عنده بمصر وناجزوا الافرنج القتال على دمياط ووقعت بينهم حروب شديدة وعجزوا عن اخراجهم منها فعرض عليهم الكامل الصلح على ان يتنازل لهم عن بعض

البلاد الشامية التي كانت بأيديهم وانتزعها منهم صلاح الدين يوسف ويتركوا له دمياط وحصني الكرك والشوبك لكونهما نقطة الاتصال بين مصر ودمشق فامتنع الافرنج من الصلح على هذه الصورة وطلبوا زيادة ثلاثمائة الف دينار فانتقض الامر وحاصرهم الملك الكامل واخوته وضيقوا عليهم حتى التجأوا الى طلب الصلح من غير شرط ولا عوض وانجلوا عن دمياط وسلموا الحصنين المذكورين . وذكر بن خلكان انه بعد عقد الصلح حضر ملوك الافرنج عنده في مجلس حافل . فقام بعض الشعراء وهو راجح الحلي وانشأ قصيدة طويلة في تهنئة الملك يقول فيها :

أعباد عيسى ان عيسى وحزبه وموسى جميعاً يخدمون محمداً

يشير الى المعظم عيسى والاشرف موسى اخوى الملك الكامل واسمه محمد فكانت من الطف الاشارات وقد وصف ابن خلكان الملك الكامل هذا بحسن السيرة والكرم والبراعة في العلم والادب ومحبته العلماء . قال واتسعت مملكته حتى قال بعض خطباء مكة المكرمة يوما عند ذكره على المنبر سلطان مكة وعبيدها واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها والشام وصناديدها والجزيرة ووليدها سلطان القبلتين ورب العلامتين وخادم الحرمين الشريفين . الملك الكامل ابو المعالي ناصر الدين محمد خليل امير المؤمنين . ولما تم الصلح رجع الملك المعظم الى دمشق ورجع كل امير لمقره وبعد رجوع المعظم عصاه عامله على حماة وامتنع من اداء الاموال التي قبله فنازله المعظم وتعسر عليه افتتاح البلدة فتركها واستولى على اطرافها مثل المعرة وسلمية ومكث فيها ناوياً مراجعة حماة ثانيا ولم بلغ صنيعه هذا اخويه الملك الاشرف والملك الكامل امراه بالرحيل والرجوع الى دمشق فاطاعهما ورجع مضمراً الانتقام منهما ثم اتفق مع بعض الامراء ونازل حمص فطراً على خيوله مرض الجأه الى الرجوع عنها ثم اتاه اخوه الاشرف بنفسه طالبا منه المصالحة دفعاً للفتن وقطعاً لاسباب الشر فأكرمه المعظم واحتفى به ظاهراً واحتفظ عليه باطناً يريد ان يأسره . فلما احس الاشرف بالشر رضى لاخيه بكل طلب واطلق سبيله ورجع الى بلاده

وتظاهر بالعداوة فاتحد المعظم مع امراء النواحي وقوى جانبه وبات يتأهب للانتقام من اخوته ونقلت اعماله كلها الى الملك الكامل بمصر فقنم للامر وقعد وتصور شناعة العاقبة فعقد اتفاقا مع ملك الافرنج يقضي بنزول الاخير في عكا ويشغل المعظم على ان يعطيه الكامل في مقابلة ذلك مدينة اورشليم . ولما بلغ ذلك الاتفاق الملك المعظم استاء منه جدا وارسل الى اخيه الكامل يستعطفه ويتنصل من تبعة هذا الاتفاق المشئوم لانه لم يعمل عملا يودي اليه وكان المعظم قبل هذه المرة على غاية من الطاعة والانقياد لاخيه الكامل يخطب باسمه استقلالا مع ما كان عليه من العلم والفضل والتواضع ولين الجانب وميله الى التقشف في العيش وبعد الاتفاق المذكور لم يكد يجري شيء من مقتضياته حتى مات الملك المعظم عيسى في قلعه دمشق في ذي الحجه سنة ٦٢٤ وبعد موته قام بامر دمشق ولده الملك الناصر صلاح الدين داوود فطلب من عمه الملك ان يسلم له حصن الشوبك فامتنع ورد طلبه فجهز العساكر واستولى على القدس ونابلس وغيرهما وهم بانتزاع مملكة ابن اخيه كلها منه واوجس ابن اخيه خيفة منه فراسل عمه الاشرف وطلب معونته على عمه الكامل فاتاه الى دمشق في شهر رمضان سنة ٦٢٥ واحضرا جيوشهما وسارا الى جهة الكامل فاسترجعا منه نابلس فاقام بها الناصر وتوجه عمه الاشرف الى غزة هاشم لمواجهه اخيه الكامل والاتفاق معه على راي . فيما يتعلق بمصلحة ولد اخيهما ولما اجتمع معه استقر رأيهما على ان تكون نابلس والكرك والشوبك وحوران والقدس وما يتبعهما كلها تابعة لمصر في يد الملك الكامل وان تكون دمشق للملك الاشرف ويخرجان ولد اخيهما منها ويعوضان عنها بعض المدن ولما رجع الاشرف الى ولد اخيه بهذه المعاهدة المجحفة استاء من ذلك جد الاستياء واقبل مسرعاً نحو دمشق ولحق ابن عمه الاشرف فحاصره بها واتفق . ان الكامل فشل في محارباته مع الافرنج وظهروا عليه فسلمهم مدينة اورشليم صلحا (وقد رأيت جملة في بعض كتب المؤرخين في هذه القضية احببت نقلها بالحرف قال : وفي تلك السنة سلم الكامل القدس الشريف

لملك الافرنج بعد ان كاتبه الا يزور ملكهم في العام الماضي يقول فيه انا عتيقك وتعلم اني اكبر ملوك الافرنج وانت كاتبتني بالمجيء وقد علم البابا والملوك اجمع باهتمامي فان رجعت خائباً انكسرت حرمتي عندهم وهذه القدس هي اصل دين النصرانية وانتم قد خربتموها وليس لها دخل طائل فان رأيت ان تنعم عليّ بقبضة البلد ليرتفع رأسي بين الملوك وانا التزم بحمل دخلها لك فلان الملك له وسلمه اياها) انتهى

ثم وجد الناصر السبيل للتكلم في عميه وتغير خواطر العامة عليهما بهضم حقوق ولد اخيهما واتفاقهما على اخراجه من دمشق التي هي حق موروث له من ابيه في نظرهم وجاءت مسئلة تسليم اورشليم مع القدس صلحاً للافرنج ضغثاً على اباله فاستنكر المسلمون ذلك وشنعوا على العمين وتظاهروا بنصرة ابن الاخ فحشد الكامل جنوده التي كان يقاتل بها الافرنج وانضم بها الى اخيه الاشرف في محاصرة دمشق . وبعد عناء طويل ومشقة عظيمة فتحوا دمشق وجريا على مقتضى المعاهدة التي بينهما فاخرجوا الناصر من دمشق واقنعوه باقطاع . ورجع الكامل الى مصر واستقر الاشرف بدمشق واقام بها آثاراً عظيمة من قصور وقلاع وابنية مختلفة وبقي بها الى ان مات سنة ٦٤٥ وفي آخر ايامه فسد ما بينه و بين اخيه الكامل ودبت بينهما عقارب الغايات فخشي الاشرف من انحياز ولد اخيه الناصر الى اخيه الكامل فطلب من اخيه المذكور ان يكون في جهته ومن انصاره . ووعده بولاية العهد بعده على دمشق وجميع ممالكه حيث لم يكن له ولد ذكر فابى الناصر ذلك انفة وكيداً لعمه الاشرف ومجازاة له على فعلته الاولى ثم مات الاشرف في السنة المذكورة عن ستين سنة وفي زمنه امر ببناء جامع التوبة بدمشق وكان خان الزنجاري معروفاً بالفجور والخواطيء والخمور فبناه جامع التوبة ووقف عليه اوقافاً كثيرة وجرى في خطابته نكتة غريبة وهي انه كان بمدرسة الشامية امام يعرف بالجمال السبتي وكان شيخاً حسناً صالحاً وكان في صباه يلعب بملهاة تسمى الجفانة ثم حسنت طريقته وصار معدوداً من الاخيار فولاه الاشرف

خطيبا فلما توفي تولى مكانه العماد الواسطي الواعظ وكان متهما بشرب الشراب وكان ملك دمشق في ذلك الوقت الملك الصالح فكتب الجمال عبد الرحيم ابن الزويتينية قصيدة طويلة شهيرة يصف بها الخطيبين وما كانا عليه ويطلبها لنفسه . وفي تلك السنة كان الغلاء بدمشق مفرطا ، بيعت الغرارة بالف وستمائة درهم واكلت الجيف وتوفي بها خلق كثير . ثم عهد بالامر بعده لاخيه الملك الصالح اسماعيل صاحب بصرى حوران وما كاد الصالح يستقر على كرسي دمشق حتى بعث الى اخوته ملوك الممالك وغيرهم من امراء البيت الايوبي والى كيخسرو صاحب ارض الروم وهو من اعقاب الدولة السلجوقيه يدعوهم لمساعدته على محاربة اخيه الملك الكامل واستخلاص مصر من يده لهنات كانت سبقت منه وحفظت عنه واخبر الملك الصالح وغيره من الملوك الايوبيين فوافقوه على رأيه الا المظفر صاحب حلب وولد اخيهما الناصر داوود فانهما تظاهرا بالانحياز الى الملك الكامل ومن تحقق سيرة الملك الكامل علم ان اعداءه مخطئون وما بعثهم على ذلك الا الحسد والتنافس اللذان يثيرهما الاشتراك في النسب والمساهمة في البيت والحسب ولذلك لم ينجح لهؤلاء المتفقين مسعى فان الملك الكامل بعد وصول هذه الاخبار اليه اخذ للامر حيطة وعاجلهم قبل ان يعاجلوه وسار بجيوشه قاصدا دمشق فوصلها في جمادى الاولى من السنة المذكورة وحاصرها وضيق عليها وعلى صاحبها الصالح اسماعيل وعلم ان لاقدرة له على الثبات فاتفق مع اخيه الكامل على تسليمه المدينة له على ان يعوضه عنها بعلبك والبقاع العزيز ويقره على بصرى حوران فوافقه على ذلك وفي اثناء هذه المحاصره احرق الملك الصالح اسماعيل حي العقيبه احد محلات دمشق الخارج عن سور المدينة من الجهة الشمالية الغربية وهو المعروف الى اليوم بهذا الاسم ولما تمت دمشق للكامل سكن بقلعتها على عادة اسلافه ولم يلبث بها الا اياما حتى مرض ومات بها سنة ٦٣٥ وعمره ستون سنة ، ومدة ملكه بمصر عشرون سنة ومدة نيابته عن ابيه الملك العادل عشرون سنة ايضاً وقد حذفنا جمله ونبذة من ترجمته وخلاصة القول انه من خيرة ملوك هذه

الدولة عمرت به مصر وسعدت في ايامه واعتز الاسلام به . وامنت السبل وحفظت الحقوق ونفقت بضاعة العلم في ايامه وكثر طلابه لما انه كان من ذويه ورافعي رتبه . شاعراً اديباً يحب الشعراء ويستهز لانشاد الشعر فبالجملة فهو من افراد الملوك الذين خدموا العلم وشيدوا دعائمه ولما مات اقام رجال دولته ولده الملك العادل ابا بكر (سمي جده) فقام على كرسي مصر وحلفوا العسكر على العادة واقاموا على دمشق ابن اخيه الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل ابي بكر الاول نائباً عن ابن عمه صاحب مصر واستقر الامر على مصر وفي جمادى الآخرة من السنة التالية استولى احد اولاد الملك الكامل وهو ايوب بن الكامل على دمشق واعمالها وذلك باتفاق بينه وبين ابن اخيه يونس المذكور النائب فيها عن صاحب مصر ومقتضى ذلك الاتفاق ان يونس يسلم دمشق وملحقاتها الى عمه المذكور على ان يعوضه عمه عنها مدينة سنجار وما يتبعها ولما استقر ايوب بدمشق جهز جيوشه وسار لمحاربة اخيه العادل بمصر وترك نائباً عنه بدمشق ولده الملك المغيث فتح الدين فانتهز الملك الصالح اسماعيل صاحب بعلبك والبقاع غيبة ولد اخيه عن دمشق فرصة واستنجد بجيوش حمص وهجم على المدينة وحاصر القلعة فتسلمها وقبض على ولد ولد اخيه وكان ذلك في سنة ٦٣٧ وفي تلك السنة مات صاحب مصر الملك العادل ابو بكر الثاني واستولى عليها اخوه ايوب وتم له الامر فاوجس منه عمه المتغلب على دمشق خيفة وحمله الخوف والحسد على ان يستجير بالافرنج ويسلم لهم لقاء مساعدتهم له صفد والشقيف فوقع عمله هذا من جميع المسلمين موقع الاستياء وثار عليه ثائرهم ولكن بدون جدوى وبقي الامر على ذلك والرسل تختلف بين ايوب صاحب مصر وبين عمه الصالح اسماعيل بقصد الصلح والوفاق ولم يتم ذلك . وفي سنة ٦٤١ زاد اسماعيل هذا سيئة عن سيئتين واتفق مع الناصر داود صاحب الكرك على ان يسلما للافرنج غزة واورشليم وعسقلان زيادة في تقوية العلائق والائتلاف وتوكيد روابط الاتحاد والمساعدة على ايوب صاحب مصر فزاد الاستياء وعم القلق واستفحل الامر

وفي السنة التي بعدها استنفر العرب الناس لمحاربة عمه والافرنج وبدؤوا بمدينة غزة . وخرج عمه ايوب للقائهم بجنوده وجنود ملك حمص وحلفائهم من الافرنج . وانتشب القتال بينهم فانتصر ايوب واستولى على غزة والسواحل كلها . ثم حمل على القدس فاجلاهم منها ورجع الصالح اسماعيل مكسوراً . ثم زحف سنة ٦٤٣ على دمشق وحاصرها فسلمه عمه الصالح اسماعيل اياها صلحاً وخرج الى بعلبك واستقر بها ايوب . ثم وقع بينه وبين بعض عساكره خلاف ادى الى خروجهم عنه والتحاقهم بعمه الصالح اسماعيل فتقوى جانب عمه بهم وضم اليه جيش ولد اخيه صاحب الكرك وساروا جميعاً الى دمشق وحاصروها حصاراً شديداً حتى بلغ الجهد من اهلها مبلغه وفقدت الاقوات حتى منَّ الله عليهم بتفريق كلمة المحاصرين واتفاق كلمة الحلبيين والحمصيين مع الملك ايوب فتشتت جيش عمه ورفع الحصار عن دمشق وضعف امره فلحق واقام بها . ثم استولى ايوب على بعلبك واخذ اولاد عمه الصالح اسماعيل اسرى وارسلهم الى مصر . ثم وجه العساكر الى بلاد الناصر داوود فاستولى على حوران والشوبك وتوابعها وصارت كلها تابعة لدمشق وداخلة في طاعة ايوب صاحب مصر ولم يبق خارجاً عنه الا حصن الكرك لمنعته . فاستناب ايوب على دمشق وملحقاتها الامير جمال الدين بن مطروح الشاعر المشهور واستقر هو بمصر قاعدة ملكه . وفي سنة ٦٤٦ هجم صاحب حلب على حمص واستولى عليها واخرج منها عامل ايوب . فخرج ايوب من مصر بنفسه لاسترجاع حمص فوصل دمشق وهو مريض فوجه العساكر لحمص . وبينما هو كذلك وردت عليه الاخبار بان الافرنج حاصروا دمياط . فأصلح ما يحتاج الى الاصلاح من احوال دمشق وعزل نائبه عنها جمال الدين المذكور واستعاض عنه بغيره وعقد الصلح مع صاحب حلب وانكفأ راجعاً الى مصر بحاله من المرض الذي كان به من يوم نزل دمشق ووصل الى مصر بتلك الحالة . ولم يلبث ان مات في حال جهاد وغزو في مدينة المنصورة في ليلة النصف من شعبان سنة ٦٤٧ بمصر وترك بها من آثار البناء ما يشهد بعلو

همته . واقام رجال الحل والعقد لدولته ولده الملك المعظم توران شاه مقامه وواقاه الخبر بذلك وهو مقيم بحصن كيفلا (حصن على الساحل بقرب حيفا) نائباً عن ابيه بها . فذهب الى دمشق من فوره في شهر رمضان وقضى بها عيد الفطر ورحل منها الى مصر فدخلها في ذي القعدة وتبوّ اريكة ابيه . وقد استولى الافرنج على دمياط وهم مستوفرون بعددهم وعددهم لالتهام مصر كلها فشمر توران شاه عن ساعد الجد واستنفر المسلمين للجهاد وناجز الافرنج بجموع المسلمين فانتصر الافرنج اولاً . ثم كر عليهم ثانية فكسرهم شر كسرة وبدد جموعهم .

وذكر السيوطي في تاريخ مصر المسمى المحاضرة هذه الوقعة مفصلة ؛ وذكر ان قتلى الافرنج فيها كانوا ثلاثين الفاً خلا من غرق في النيل ومن اسره المسلمون . وان من جملة من اسر القديس لويس ملك الافرنج . وانه بعد ان اسروه وضعوه في دار تعرف بدار ابن لقمان ووضعوا برسم الحراسة والاحتفاظ به احد خصيان السلطان واسمه صبيح . وانه لما رجع الى بلاده اخذ في الاستعداد بقصد الرجوع الى الديار المصرية فندم المسلمون على عدم قتله . ثم كتبوا له قصيدة من انشاء جمال الدين بن مطروح نائب دمشق وارسلوها له مع قاصد وهي مشهورة مدونة في التاريخ المذكور .

فلما سمع وترجم له معناها خجل واعرض عما قصد من العودة الى مصر . قال وكان اطلاق المصريين لملك الافرنج بعد مقتل السلطان الملك المعظم توران شاه . وخلاصة مقتله انه بعد الانتصار على الافرنج اتفق مماليك ابيه على قتله نقمن عليه تقريب مماليكه وايثارهم عليهم فقتلوه يوم الاثنين من محرم سنة ٦٤٨ . وكان اول من شهر السلاح عليه المملوك بيبرس وهو الذي صار ملكاً فيما بعد .

وهو مؤسس دولة المماليك البحرية . واتفق الامراء بعد قتله على تقليد امور المملكة لجارية ابيه ايوب المدعوة بشجرة الدر وكانت عاقلة مدبرة وهي التي اخفت موت سيدها حتى حضر ولده توران شاه وكانت توقع المناشير

كتوقيعه . ولما ملكوها حلف لها الامراء وخطبوا باسمها بعد ذكر الخليفة وضربوا السكة باسمها ؛ وكانت تكنى ام خليل وهو اسم ولد لها من سيدها نجم الدين ايوب مات صغيراً وهي اول امرأة ملكت في الاسلام . ولم يوافق امراء الشام على توليتها بل كانوا صاحب حلب الملك الناصر يدعونه للاستيلاء على الشام حرصاً على بقاء الامر في بني ايوب وانفت من الدخول في طاعة امرأة .

وارسل المستعصم الخليفة العباسي للامراء المصريين يعاتبهم على ذلك ويخي عليهم بالنكير فاضطربت الآراء في شأنها فبدا لها ان تتزوج بعز الدين ايبك الجاشنكير المعروف بالصالحي احد مماليك سيدها الملك نجم الدين ايوب . فتزوجت به وتنازلت له عن الملك لثمانين يوماً من امارتها وتلقب بالملك المعز . ثم بدا للامراء ان يقيموا مع ايبك رجلاً من بني الايوبي فوقع اختيارهم على الملك الاشرف موسى بن يوسف الملك المسعود اتسيس بن الملك الكامل بن العادل بن ايوب وكان عمره ثماني سنين فولوه مشاركاً لعز الدين ايبك مقروني الاسم في الخطبة والسكة بمصر . ولما استقر الامر في مصر على ماذكرنا ورأى الدمشقيون وامراؤهم تلاعب المصريين بمنصب السلطنة من تولية امرأة الى اقامة مملوك الى نصب صبي ساءهم ذلك وامتعضوا له واجمعوا امرهم على محاربتهم . فجهز الملك الناصر جنوداً من دمشق واستعان ببعض امراء الاسرة الايوبية وساروا الى مصر فكان اللقاء بالعساكر المصرية والقتال بالعباسية وانكسر المصريون . ثم اعادوا الكرة وانتصروا على الدمشقيين نصراً عزيزاً وهزموهم وتأثروهم حتى ملكوا منهم غزة . ثم وقع الصلح بينهم سنة ٦٥١ على ان يكون الحد الفاصل بعد الاقليمين نهر الاردن . فما على شماليه الملك الناصر صاحب دمشق وما على جنوبيه للملك الاشرف وشريكه عز الدين ايبك . وسنة ٦٥٢ عزل عز الدين ايبك الملك الاشرف واستقل بالمملكة المصرية تغلباً وانتقض الصلح المذكور بينه وبين صاحب الشام . وفي سنة ٦٥٣ تجدد العهد بينهم على ان يكون الحد الفاصل بين الاقليمين العريش

واستقر الامر على هـذا الى ان قتل عز الدين ايبك امير مصر سنة ٦٥٥ : قتلته زوجته شجرة الدر وجواريها لانه اراد ان يتزوج عليها بنت ملك الموصل . وكان ايبك هذا جباراً عنيداً ظلوماً غشوماً سفاكا للدماء . ودفن بارض الشرف المشرفة على مرجة دمشق في مدرسة الخندية المندرسة اليوم لما نقلوه لدمشق . وبعد قتله اقام المماليك (وهم اهل الحل والعقد اذ ذاك على كرسي مصر ولده نور الدين علي ولقبوه بالملك المنصور وعمره خمس عشرة سنة . واقاموا وزيراً له ومدبراً لاموره نائب ابيه ومملوكه الامير سيف الدين قطز . وبعد سنتين من ولايته عزله هذا الوزير واستقل بملك مصر) .

وعز الدين ايبك معتبر عند المؤرخين اول ملك لدولة المماليك بني ايوب المعروفة بدولة المماليك البحرية . كما ان الملك الاشرف الذي كان شريكاً له آخر ملوك الدولة الايوبية بمصر . ولا تنس ما حررناه لك سابقاً في سر تولد الدول بعضها من بعض . وفي سنة ٦٥٦ مات الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى صاحب الكرك بقرية البويضة ظاهر دمشق . فخرج الملك يوسف صاحب دمشق من المدينة الى البويضة وحمل جنازته ودفن بالصالحية بتربة والده الملك المعظم عيسى . وكان الناصر داود عالماً شاعراً بليغاً والفرق بين داود ويوسف هذين وان كان كل منهما يلقب بالملك الناصر ان الناصر داود من ذرية الملك العادل بن ايوب اخي صلاح الدين يوسف والناصر يوسف من ذرية صلاح الدين نفسه . ولم يتحقق عندي اسماء الآباء الذين بينه وبين صلاح الدين . وفي السنة التي مات فيها الناصر وهي سنة ٦٥٦ دها بغداد ما دهاها من استيلاء التتر عليها ومحو آثار الخلافة العباسية منها وطمس معالمها وحضارتها على يد (هولاكو بن جنكيز التتري) بعد ان بقيت هذه الخلافة خمسماية واربعة وعشرين عاماً . وتقلدها سبعة وثلاثون خليفة من نسل العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم وبلغت بهم بغداد مقر خلافتهم ودعوتهم ومباءة سلطانهم ومختط جدهم ابي جعفر المنصور مؤسس دولتهم على الحقيقة من الشهرة وبعد الذكر والعمارة والحضارة ورواج العلوم

والمعارف فيها سيما في عهد الرشيد وبنيه وبني بنيه ما هو مسطر في التواريخ .
فجاءت واقعة التتر هذه ماحية لتلك المحاسن فكم أذوت من نضارة وطوت من حضارة ونكرت من معارف وابادت من تليد وطارف ، وأوحشت من آنس . وروعت من أوانس . ولعمر الحق انها لاحدى جرائح العلم والمدنية بل اكبرها ، وأشنع الحوادث التي يسطرها المؤلف وقلبه واجف وبنانه راجف
وفي تلك السنة حل بالشام الطاعون الجارف الذي اذهل السكن حتى اخلى الاماكن . وقد وصفه أبو الفداء وغيره من مؤرخي ذلك العصر . وذكروا الحريق العظيم الذي حصل في تلك السنة ولم يسمع بمثله اقامت النار ثلاثة ايام ليلاً ونهاراً . وكان مبدأه من الذهبيين وذهب للناس شيء كثير ولكن لم يحترق فيه احد من الناس . ومن جملة ما ذهب للشيخ شمس الدين الكتبي عرف بالقاشوشه خمسة عشر الف مجلد وحكى جمال الدين بن السراج البصروي قال بتنا في الجامع الاموي واذا الهواء القى ورقة من الحريق بها ابيات آخرها : ان للخلق خالقاً لا مرد لما حكم

وبعد ان قضى التتر نهمتهم من بغداد وتركوها طللاً دارساً تحفزوا لاجتياح الممالك الاسلامية . وكانت مصر كما علمت قد نفضت كنانتها من آل ايوب الملك الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب وتوابعها وقد ذكرناه سابقاً وكان يبلغه من افعال التتر وحركاتهم ونياتهم ما يقيم ويقعد وهو يعلم ان جداوله لا تقاوم ذلك التيار الجارف . وكان رأى أولاً ان المجاملة والمسالمة ربما تنفع مع اولئك الوحوش فأنفذ بعض خواصه بهدايا وتحف الى طاغيتهم هولاكو ، ثم تشاغل ببعض مشاغبات داخلية غالبها مع المماليك المصريين فانهم استولوا على غزة ولما ركب لمحاربتهم تحزبوا مع المغيث فتح الدين صاحب الكرك . وهو بن الملك الصالح ايوب بن الملك الكامل ثم خاف المغيث من سوء المغبة فراسل ابن عمه في الصلح فقبل واشترط عليه تسليم المماليك الذين التجأوا اليه . فسلمهم له سوى بيبرس فانه فر مع جماعته قبل التسليم وجاء الى الناصر تائباً فعفى عنه وبقي في حاشيته . ورجع الناصر الى دمشق ، ولما

لبث ان بلغه ان جيوش التتر دخلوا حلب وعاثوا فيها . فلم يسعه الا ان جمع جنوده ورحل عن دمشق قاصداً نحو مصر واتخذ طريقه على نابلس وترك بها حامية من العساكر وانتقل الى مصر . وانتشر التتر على البلاد فملكوا حمص وحماة ووصلوا دمشق ولم يجدوا بها معارضاً فتسلموها بالامان . وكان ذلك من الالطاف الالهية . فانهم لم يفعلوا بها فعلهم في غيرها الا القلعة فانهم نهبوها وهدموا ابراجها لعصيان تظاهر به نائبها اولا ثم تجاوزوا دمشق حتى انتهوا الى غزة وفي رمضان سنة ٦٥٨ خرجت الجنود الاسلامية من مصر بقيادة صاحبها الملك المظفر سيف الدين قطز ثالث ملوكها من المماليك البحرية لقتال التتر فالتقى الفريقان بموضع يعرف بعين جالوت بالغور . ولما دارت رحى الحرب انكسر التتر شر كسرة وانهزموا وركب عسكر المسلمين اقفيتهم بالسيف ومات اكثرهم في هذه الوقعة . ودخل الملك المظفر دمشق ظافرا وطهرها من رجس التتر وكان يوم دخوله مشهودا فرحت فيه النفوس وابتهجت الخواطر فاعاد الامن الى نصابه وقرر احوال المدينة واقام نائباً عنه فيها الامير علم الدين سنجر الحلبي . ولما عزم على الرجوع الى مصر كان جماعة من امراء المماليك منهم بيبرس المتقدم الذكر مصممين على قتله لهنات كانت بينهم وبينه فاحتالوا عليه ذات يوم وهو سائر معهم وقتلوه . في قصة مشهورة وكان قتله في شهر ذالقعده سنة ٦٥٨ المذكوره بنواحي غزه وهو منحرف الى مصر وملك بعده الملك الظاهر بيبرس على ماتذكره

ولما رحل الملك المظفر عن دمشق شرع نائبه علم الدين في عمارة قلعتها وحشر الصناع والفعله وجمع عليها الايدي واعد الآلات واشترك جميع الناس في العمل بها حتى النساء . ولما وصل الخبر بقتل الملك المظفر وعلم بذلك نائبه علم الدين المذكور دعا اهل دمشق وحملهم على مبايعته اميراً عليهم فبايعوه وتلقب بالملك المجاهد جريا على سنة الايوبيين في الالقاب الفخيمة وخطب له على المنابر بالسلطنة وضربت السكة باسمه مدة . ثم ضعف امره ونازعه بعض ذوي الالقاب الفارغة من اعقاب بني ايوب ممن كان منزوياً بحمص وغيرها

حتى ارسل عليهم الملك الظاهر بيبرس الجيوش المصرية سنة ٦٥٩ فانتزعوا منهم دمشق وفر الملك المجاهد ليلا الى بعلبك وتبعه خليل الظاهر فقبض عليه وسيق اسيراً الى مصر والقت دمشق مقاليدها بتاتاً في يد المماليك تابعة الى مصر واقيم بها ايدكين البندقداري نائباً عليهم فيها ثم تبعتها في القريب حمص وحماه وحلب وخطب في جميعها الملك الظاهر بيبرس وانقرضت الدولة الايوبية من ذلك اليوم . وكأنما كانت مع الدولة العباسية على ميعاد . وسبحان من لا يبيد ملكه ولا يفني سلطانه

واما الملك الناصر الايوبي فقد كان جماعة من ملوك آل بيته في ركاب هولاكو انحازوا اليه طمعاً في الاستبقاء فلما بلغه انكسار جيوشه في عين جالوت في الفور قتلهم انتقاما والحقهم بالمستعصم آخر خلفاء بني عباس ببغداد وحزن اهل دمشق لقتل الملك الناصر حزناً شديداً لما علموا منه ايام ملكه من كرمه وحلمه وصفاته العالية التي ابقت له بينهم الذكر الطيب

واذ قد انتهينا في عداد من ملك دمشق وتولى عليها الى دولة المماليك ، وكان ما تقدم من اخبارها متداخلاً في اخبار الدولة الايوبية لما بينهما من الامتزاج والتولد ، فان نسبة الثانية من الاولى نسبة الفرع من اصله والجزء من كله

فقد بدا لنا ان نلم بنبذة من أولية هذه الدولة حتى تتضح هذه النسبة التي ذكرناها ، حيث ان الدولة النورية كانت هي القاضية على دولة الفاطميين بواسطة امراء آل ايوب ، وكانت مصر هي قاعدة الفاطميين ومقر ملكهم وخلافتهم ، وحيث ان الدولة النورية لم يطل امدها ولم ينفسح اجلها ، بل كانت فاتحتها من خاتمتها قاب قوسين ، وانتقل الامر الى آل ايوب فقد جعلوا مقر سلطنتهم مصر القاهرة وجعلوا دمشق وغيرها من الممالك التي خضعت لسلطانهم تابعة لها ، حتى انه لما مات عميد هذه الدولة وعمادها السلطان صلاح الدين يوسف ابن ايوب ، وتوزع ابناؤه واخوته ثم ابناء اخوته الممالك ، كان الذي يستولي على مصر منهم ولو بطريق التغلب هو المعتبر معنا كوارث للسلطنة وما سواه كنوابه وان لم تظهر آثار ذلك عليهم ، بل كانوا كملوك طوائف لا علاقة

لاحدهم بالآخر الا في النادر . ولما اذن الله بانقراض هذه الدولة كان مبدأ انقراضها من مصر حيث كان منشأ حركة المماليك .

وقد قسم المؤرخون الدول التي حكمت مصر بعد الفاطميين بحسب الواقع الى ثلاث دول: الاولى الدولة الايوبية والثانية دولة مماليكها ويعرفون في اصطلاح المؤرخين بالمماليك البحرية نسبة للبحر على معنى انهم كانوا يجلبون من جهة البحر وكان هذا فرقاً بينهم وبين المماليك السود الذين يجلبون من الاقليم السوداني فان هؤلاء يجلبون من طريق البر غالباً . والثالثة دولة مماليك المماليك وتعرف بدولة الجراكسة . اما آل ايوب فأصلهم من الاكراد . وقد تقدم معنا من اخبارهم مايلزم كتابنا هذا . واما مماليكهم البحرية فاصلهم من الاتراك ولا يحصرون في اب او جد او تجمعهم قبيلة واحدة . وانما كان ملوك بني ايوب يقتنونهم على ماكانت عليه الحالة عند خلفاء بني العباس مما هو مشهور ومن العجيب ان مبدأ الخلل والوهن في الدولة العباسية كان منشأه من اولئك المماليك الأتراك كما هو مقرر في فلسفة تاريخهم حتى افضى ذلك الى الانقراض وكذلك حالة الدولة الايوبية مع مماليكها فان انقراضها كان على ايديهم كما ترى وان كانت احوال الدولتين لاتتشابه من كل وجه وكان الملك الصالح نجم الدين ايوب بن الملك الكامل بن العادل اسرف ملوك بني ايوب في اقتناء المماليك واحرصهم على اقتنائهم والاستكثار منهم فقد بلغت مماليكه الالف خلا مماليك مماليكه حتى قال بعض الشعراء مشيراً الى الاستكثار من المماليك هو الذي جر البلاء على المملكة حيث قال :

الصالح المرتضى ايوب اكثر من ترك بدولته يا ترو مجلوب
قد آخذ الله ايوبا بفعلته فالناس كلهم في ضر ايوب

وفيه تورية حسنة بلية ايوب عليه السلام . ولقد احسن قاضي القضاة العز بن عبد السلام في الحكم على اولئك المماليك بالبيع فنادى عليهم وبيعوا وهم ملوك بيع الانعام وصرف ثمنهم في المصالح العامة ولم يرهب شوكتهم وصولتهم . ولعمري انها لشهامة دينية لم تتفق لغيره في عصر كعصره

ولما تغلبوا على الملك كانوا ينتسبون اليه في مراسمهم فيقولون فلان الصالحي وانتحلوا القاب السلطنة التي كانت لاسيادهم واول من ملك منهم مصر شجرة الدر جارية الصالح . ثم ملكت الملك للملك المعز عز الدين ايبك الصالحي بعد ما تزوجت به كما تقدم . ثم بعده ولده الملك المنصور نور الدين علي وهؤلاء الثلاثة لم تتجاوز امارتهم المملكة المصرية . ثم ملك بعد نور الدين مملوك ابيه الملك المظفر سيف الدين قطز وهو الذي غزا التتر وابادهم وطهر دمشق وغالب الممالك الشامية منهم واقام بدمشق نائبه علم الدين سنجر . وقد تقدم الحديث عن ذلك مستوفى وانما اعدنا مايلزم لانتظام الكلام واطراد الحكاية عن ملوك هذه الدولة ثم قتل المظفر في انصرافه من دمشق الى مصر قتله بيبرس واشياعه كما تقدم . وهنا انتهى حديثنا السابق فيما جرته المناسبة من اخبار المماليك متداخلا في اخبار الايوبيين .

ونعود الآن نسوق الحديث متصلا بما قبله فنقول : ان بيبرس لما قتل الملك المظفر بغزة سار الى مصر في جملة من كان في ركاب المقتول فتلقاهم الناس بالترحاب والاحتفال فرحا بالانتصار على التتر وخرج نائب مصر للقائهم على يقين ان سيده المظفر حي اذ لم يبلغهم قتله ولما علموا بموته بايعوا قاتله بيبرس بالسلطنة لخصال حميدة كانت تؤثر عنه من بين المماليك وحلف العساكر على العادة ودخل مصر في ١٧ ذالقعده سنة ٦٥٨ واهتزت القاهرة فرحا بقدومه وملكه ولقب بالملك القاهر بيبرس الصالحي نسبة الى الملك الصالح سيده كما تقدمت الاشارة اليه ثم اشار عليه بعض خواصه بان هذا اللقب غير مبارك فغيره وتلقب بالملك الظاهر وهو الذي قطع جرثومة الدعوة الايوبية بدمشق وجميع الممالك الشامية . وقد تقدم ذكر بعضه وهو الذي ارجع الدعوة العباسية ورفع ذكرها بمصر بعد ان اخنت الايام عليهم واخفتت صوتهم وذلك انه بعد ان تمت الكائنة عليهم ببغداد وقتل مستعصمهم لعبت ببعض اعقاب الخلفاء عواطف التشرد فالقته بمصر القاهرة ايام بيبرس هذا وافلت من الاعتقال ولحق بالعراق ثم تزيا بزي البادية ودخل في غمار الاعراب المسافرين

الى مصر قاصداً للملك الظاهر بيبرس لما بلغه من الميل لموالاة البيت العباسي وهذا القادم وهو ابو القاسم احمد ابن امير المؤمنين الظاهر بامر الله وهو عم الخليفة المستعصم واخو الخليفة المستنصر وكان دخوله مصر في الثاني من رجب سنة ٦٥٩ وخرج السلطان للقائه والقاضي والامراء ووجوه الدولة وكان ذلك يوما مشهودا تحدث الناس به مدة . ثم جلس السلطان مجلسا خاصا واحضر القضاة والعلماء والامراء وعدول الامة واثبتوا بالشهادة الشرعية العادلة ثبوت نسب هذا القادم واتصاله بالعمود العباسي ولما تقرر ذلك بايعه قاضي القضاة وامام العلماء الشيخ عز الدين بن عبد السلام ثم السلطان ثم بقية رجال الدولة ولقبوه المستنصر بالله ونودي باسمه على المنابر ونقشه على السكة وقد اطال النفس في تفصيل هذا المشهد العظيم الذي تبخل الايام بنظيره وسماعه من قبل ومن بعد الحافظ السيوطي في كتابه حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهره

وبعد ان استقر الحال على هذا عرض هذا الخليفة على السلطان ان يهيء له الجيوش والاموال لاسترجاع بغداد عاصمة آبائه واجداده من يد التتر . فامتثل السلطان بيبرس ورتب العساكر والمعدات وانفق للاستعداد لذلك الف الف دينار . وسار السلطان في ركابه برسم الخدمة والتشييع الى دمشق ولبث بها اياماً . ثم سافر الخليفة وحده بالجيوش ومعه امراء الشرق . ففتح المدينة ثم تهيأت وخرجت عليه عساكر التتر فاقتتلوا وكانت الهزيمة عليه فقتل وتشتتت جموعه . واما السلطان بيبرس فانه اقام بدمشق لتفقد شؤونها . وكان من اعماله في هذه المدة تقليد العلامة شمس الدين احمد بن خلكان صاحب كتاب الوفيات رتبة قاضي القضاة بدمشق . وكان ممن حضر حرب الخليفة مع التتر وافلت ابو العباس احمد بن الامير ابي علي الحسن بن الامير علي بن الامير ابي بكر بن امير المؤمنين المسترشد بالله فلحق برهبة مالك بن طوق ونزل على الامير بن مهنا فانهى خبره الى الملك الظاهر بيبرس فطلبه واحتفل به كسابقه المذكور ثم اثبت نسبه وعقد له البيعة بالخلافة واجرا له مراسمها ولقبه

الحاكم بأمر الله وتوارث الخلافة بنوه ناصر الى ان انقرضوا على يد السلطان سليم العثماني كما سنذكره . وكان هؤلاء الخلفاء مع ملوك مصر شأن اسلافهم ببغداد مع المتغلبين في الاقتناع من الخلافة بالرسم والصورة والدعاء على المنابر واستئثار الملوك دونهم بثمراتها كما ان توليتهم وعزلهم منوطان باولئك الملوك وان كانت حالتهم معهم في الاحترام والاجلال تختلف .

هذا حديث سبب رجوع الخلافة العباسية للوجود ونشأتها النشأة الثانية بمصر قصصناه عليك استطراداً بقصد التفكه .

ثم نرجع الى سيرة الملك الظاهر بيبرس . كان هذا الملك اناب عن دمشق علم الدين طيبرس فساءت سيرته فعزله وولى عوضاً عنه الامير جمال الدين النجيبي الصالحي . وفي سنة ٦٦١ رجع الظاهر الى بلاد الشام متفقداً وغازياً للافرنج . فبدت له من الملك المغيث الايوبي صاحب الكرك هفوات اوجبت القبض عليه وقتله ولحقت الكرك يومئذ بالشام . ثم غزا عكا وغيرها من مدن الساحل وغنم مغانم كثيرة من الافرنج ورجع لمصر . ثم عاد الكرة سنة ٦٦٣ لجهاد الافرنج ففتح قيصرية وارسوف وغيرهما من البلاد . ثم فتح صفد سنة ٦٦٤ ونزل بدمشق للاستجمام واستنفار المقاتلة وجلاهم الى ارض الارمن فحاصروا سيس وفتحوها عنوة . وشمر الملك الظاهر عن ساعد الجد في المغازي والفتوحات . وحالفه النصر في غالب مشاهده . واعاد للاسلام ايام صلاح الدين يوسف . ففتح فيما بين سنة ٦٦٦ الى سنة ٦٧٠ غالب ما كان بيد الافرنج مثل انطاكية ويافا وحصن الاكراد وعكا . وقلعة العليقة وحصن القرين . وهو حصن عظيم منيع بقرب من عكا ابقت الايام آثاره ماثلة الى عصرنا هذا شاهدة بعظمته السالفة . زيادة عن تجهيز الجيوش وبعث الكتائب لمحاربة التتر . وقد دخل الملك الظاهر في خلال هذه المدة دمشق مراراً عديدة بقصد الاشراف عليها او الاستجمام ونائبه عليها كل هذه المدة الامير جمال الدين المذكور الى ان كانت سنة ٦٧٠ . فعزله واستبدل به علاء الدين ايدكين الفخري . وفي السنة نفسها اغارت عساكر التتر على عينتاب وكان

السلطان بدمشق فاستحضر عساكر دمشق وسار بها بنفسه الى حلب وعرض له ما اوجب رجوعه الى دمشق فمصر ثم رجع بعساكره الى دمشق في صفر سنة ٦٧١ على حالة استعداد للحرب . وكانت الافكار مضطربة اذ ذاك بما يرد من اخبار تقدم التتر في البلاد الرومية وما يليها وشدة شوكتهم حتى ان كثيراً من سكان اطراف الشام التجأوا الى دمشق فخرج السلطان لبعض المدن الشامية لاستنفار الناس وجمع الجيوش في محرم سنة ٦٧٥ التي يضيق عنها الفضا وخرج بها قاصداً بلاد الروم لمحاربة التتر واوقع بهم ورجع الى دمشق ظافراً وبعد رجوعه بأيام مات بها في ٢٧ محرم سنة ٦٧٦ وحنط ووضع في القلعة الى ان شيدت تربته المعروفة الى اليوم باسمه الموضوعة بها المكتبة العمومية وبها مدرسة للتعليم وهي قريبة من الجامع الاموي فنقل اليها ومدة ملكه سبع عشرة سنة وشهران . وكان ملكاً شجاعاً ديناً حج بيت الله الحرام وعهد بالامر بعده لولده الملك السعيد محمد بركة وبعض المؤرخين يسميه علياً فاقيم سلطاناً على الممالك المصرية والشامية مستعيناً بسيف الدين قلاوون الصالحي امير امراء الاجناد في دولة والده . وفي سنة ٦٧٧ خرج الملك السعيد من مصر الى دمشق وجهز منها عسكراً لمحاربة التتر بقيادة قلاوون المذكور ومعه صاحب حماة وتوجهوا الى سيس من بلاد الارمن فشنوا الغارة على نواحيها وغنموا غنائم كثيرة وقفلوا راجعين . وتآمروا فيما بينهم على خلع الملك السعيد لسوء سيرته وعدم اقتداره على تدبير امور المملكة واتفقوا على انهم يتمادون في سيرهم الى مصر ولا يدخلون دمشق حيث هو مقيم . وعلم الملك السعيد بجميع ذلك فراسلهم في القدوم عليه الى دمشق للمفاوضة فلم يسمعوا قوله ولما تحقق منهم الشر خرج يريد مصر فسبقهم اليها وتحصن بقلعة الجبل . ووصل الامراء على أثره فحاصروه بها ودب دبيب التفرق بين جنوده وطفقوا يتسللون من حوله ويلتحقون بجيش الامراء . فلما احس بالضعف والعجز سلم نفسه بالامان مشترطاً عليهم ان يسوغوه حصن الكرك واجيب الى ذلك وكان خروجه من القلعة الى الكرك في ربيع الاول سنة ٦٧٨ وكانت مدة

ملكه سنتين وبعضاً من الاشهر ولما خلعوه اجلسوا على كرسي السلطنة اخاه سلامش ولقبوه بالملك العادل . وهو صبي لم يتجاوز السابعة وخطبوا له على المنابر وضربوا السكة باسمه واستبد بتدبير المملكة امير الجيوش قلاوون المذكور وهو الذي وجه الامير شمس الدين سنقر الاشقر نائباً عن السلطنة بدمشق ثم بدا لسيف الدين قلاوون ان يخلع الصبي سلامش فخلعه لمائة يوم من سلطنته واستقل بالسلطنة بعده سيف الدين المذكور ولقب بالمنصور واطاعه جميع الامراء ونواب الممالك . ولم يخالف عليه الا نائب دمشق شمس الدين سنقر الذي اقامه هو نائباً فانه عمل على الاستقلال بدمشق والانفصال فاستمال وجوه البلد وعلماءها اليه ووافقوه على رأيه وحلف له بذلك العساكر والامراء الموجودون بدمشق . وتلقب بالملك الكامل . ولما علم قلاوون بالحقيقة ، جرد جنداً تحت امارة علم الدين سنجر وصرفهم لمقاتلة هذا الخارج فأتوا دمشق وابرز اليهم سلطانها الجديد واقتتلوا وانكسر صاحب دمشق وهرب على وجهه حتى لحق بالتتر وصار في جملتهم وصار لهم دليلاً على عورات المسلمين طمعاً في ولاية او مملكة ينالها على ايديهم . وبعد دخول عساكر السلطان قلاوون لدمشق واستيلائهم عليها . وجه اليها الامير حسام الدين الاجين نائباً عنه بها في العشرين من صفر سنة ٦٧٩ . ثم في سنة ٦٨٠ قدم السلطان قلاوون بنفسه الى دمشق والتتر آخذون في التقدم اليها ، فجمع الامراء والجنود من كل ناحية . ووصلها سلطانه وزحف على التتر وقتلوهم في كل واد وشتتوا شملهم وكانت هذه الهزيمة الشنعاء اكبر كاسر لشر التتر .

وطار الخبر بذلك الى الآفاق واقيمت البشائر . واستقر السلطان بعد ذلك بدمشق وصفا الجو وطأطأت له الرؤوس . وفي شعبان سنة ٦٨٢ طغت السيول على دمشق من انهرها وجبالها فهدمت الابنية واقتلعت الاشجار وجرفت من الآدميين والخيل والانعام ما لا يحصى . وكان السلطان وقت هذه الحادثة بدمشق . وفي سنة ٦٣٨ تحرك لفتح حصن مرقب وفتحه الله على يديه . وذهب الى مصر . ولم يزل يواصل الغزو والفتوح والسعود تخدمه

والنصر بقدمه . وكانت له المواقف المشهودة والمشاهد المحمودة ومن اجل فتوحاته بل من اعظم اعماله التي حفظها له التاريخ فتحه لمدينة طرابلس الشام وطرده للصليبيين منها بعد ان وشجت عروقهم فيها ولبثت في ايديهم مائة وخمسة وثمانين سنة وكان فتحها سنة ٦٨٨ وجاء هذا الفتح ثانياً لفتح السلطان صلاح الدين يوسف لمدينة القدس بل ربما كان اعجب وبعد هذا الفتح عقد النية على غزو مدينة عكا فعاجلته المنية قبل بلوغ هذه الامنية فمات مكباً عليه متأسفاً على فقده في تلك السنة ومدة ملكه احدى عشرة سنة وشهران وكان مثالا في العدل وحسن السياسة واصالة الرأي والحزم واتصلت الدولة في اولاده واولاد اولاده الى ان انقرضت وخلفتها دولة الجراكسة فجميع ملوك هذه الدولة بعد قلاوون هذا من نسله كما سترى وله في دمشق مآثر كثيرة اندرس اكثرها

ولما توفي السلطان سيف الدين قلاوون تبوأ سرير ملكه ولده صلاح الدين خليل ولقب بالملك الاشرف وسمت همته الى انجاز ما كان ابوه عازما عليه من فتح عكا فاجمع امره ونظر في شئون ممالكه الداخلية . ثم ساق جيوشه على عكا ونازلها سنة ٦٩٠ وركب عليها المجانيق المختلفة حتى فتحها في السنة المذكورة وتسلمها المسلمون ولما فتحت عكا وكانت امنع من عقاب الجو وقد داخل الصليبين الذعر والاندهاش . واستولى على افئدتهم الرعب اذ كانت عكا الحصن المنيع والردء الشديد والركن المتين بذلوا المستطاع في تحصينها ولم تزل حامية قلوبهم ومادة غوثهم وصريخهم طول مدة الحروب الصليبية وانتهى بهم الفشل بعدها الى تسليم صيدا وبيروت وعثليت وصور وانطرطوس وغيرها من المدن البحرية من غير دفاع ولا حرب واستولى عليها المسلمون باردة لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب ووردت بضاعتهم اليهم وكان هذا الفتح الغريب خاتمة الحروب الصليبيه بل الخطوب السوداء على الوحدة الاسلامية التي استغرقت هذه البلاد قرنين كاملين وابادت مالا يحصى من البشر الذين تجمعهم كلمة انسان وتفرق بينهم المذاهب والنحل والاديان .

قدر لهذه الارض ان تسقى بدمائهم عن غير ظماء وتسمد بعظامهم وهل تدري ما الباعث على تلك الحملات وارتكاب تلك الفجائع هو ما كان يدعى في زمانهم بنصرة الدين ونسميه اليوم بالتعصب الديني الذي لم يزل مثير البلايا لاتقل عن تلك فظاعة ان لم تفقها ولن تزال كذلك مادام الانسان انسانا . غير ان الانسان اخذت تخف منه شرة الطمع والجشع وقوانين المدنية التي علمها الانسان من التجارب ومن اختلاط الجنس بغيره وهنا يحسن بنا الاستشهاد بقوله تعالى (سنريهم اياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) من اجل ذلك ترى الكثير من علماء الافرنج يشهدون بملاء الفم بعدالة دين الاسلام وقانونه المدني وصلاحيته لجميع الازمان لان القوانين كلها ماخوذة من الكتب السماوية وان كانوا ينحون باللائمة على المسلمين لانحراف بعضهم عن جادة دينهم المثلى وهذا موجود في كل ملة

يدير لسانا بين فكيه لينا وبحمل قلبا بين اضلعه صلدا
يعف فلا يبغي على الوحش بينما يكيد الى اخوانه جهده كيدا

ولما استقر الحال في النصاب الذي ذكرناه قدم الملك الاشرف الى دمشق واقام بها مدة وكان من اعماله فيها ان عزل نائب السلطنة لاجيني واستعمل مكانه علم الدين سنجر الشجاعي وفي سنة ٦٩١ غزا الملك الاشرف قلعة الروم القائمة على نهر الفرات وافتتحها ورجع الى دمشق فعزل النائب المذكور واستبدله بعز الدين ايبك الحموي وتوجه هو الى مصر وفي سنة ٦٩٣ جاء سيل عظيم ايضا الى دمشق وخرب اماكن كثيرة ظاهر البلد وبلغ ارتفاع الماء في سوق الخيل وفي قلعة دمشق ستة اذرع نقله مؤرخ الاسلام الحافظ الذهبي الدمشقي وفي تلك السنة مات الملك الاشرف بمصر مقتولا قتله مماليك والده قلاون واجلسوا احدهم على سريره ولم يلبث الا بضع ساعات حتى قام قائم الهيجان بين المماليك انفسهم وقتلوا هذا الملك الجديد ونصبوا مكانه محمد قلاون ابن الملك الاشرف ولقبوه الملك الناصر وهو صبي في السابعة وقام بكفالته الامير كتبغا احد مماليك ابيه ولبث بضعة اشهر حتى خلعه واشتغل

بالسلطنة في اوائل سنة ٦٩٤ ولقب نفسه الملك العادل وخطب باسم ولايته في مصر والشام وكتب على النقود وخرج لاول ولايته من مصر الى دمشق وتفقد شئونها وعزل نائبها عز الدين ايبك الحموى المذكور واناب مملوكه سيف الدين . ثم رجع الى مصر في اول سنة ٦٩٦ فتلقاه نائبه عليها حسام الدين ناوياً له الشر وعلم هو بذلك فهرب ورجع الى دمشق واستقر بقلعتها وشرع في تجهيز العساكر لقتال لاجين وانتزاع مصر من يده ؛ فلم تسمح العساكر الدمشقية بذلك . ولما رأى خذلانهم اياه ارسل حسام الدين يطلب الامان لنفسه منه فأمنه واقطعه صرخد في حوران ؛ وجلس لاجين على سرير السلطنة بمصر وتلقب بالملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري نسبة الى المنصور قلاوون الاول لانه كان من مماليكه ؛ ولما تم له الامر عزل نائب السلطنة بدمشق واناب عنها سيف الدين يتجق المنصوري وبقي لاجين سلطاناً سنتين وشهرين الى ان قتله مماليكه في سنة ٦٩٨ ولم يحدث في ايامه ما يستحق الذكر ولما قتل اتفقت كلمة الامراء على ارجاع الملك الناصر صلاح الدين خليل بن قلاوون المخلوع صبياً فارجعوه مرة ثانية وكان عمره هذه المرة اثنتي عشرة وبعد سنة من رجوعه للملك عاد التتر بجموع جديدة من المغل والكرج وغيرهم من امم العجم وقائدهم قازان بن ارغون بقصد التهام الممالك الاسلامية . وسرعان ما عبروا الفرات واستولوا على حلب وحماة وعسكروا على وادي مجمع المروج والتقوا هنالك بالجنود الاسلامية واشتبك القتال بينهم ؛ وانهزم المسلمون وتبعهم التتر فاستولوا على دمشق ثم القدس وبلاد الكرك وغزة . ثم رجع الناصر لمحاربتهم سنة ٧٠٠ واجتمعت اليه من كل حدب وتهاطلت الامطار بصورة خارقة للعادة منعتهم من القتال ورجع الملك الناصر الى مصر . ثم اخذ التتر يغزون البلاد الشامية واحدة واحدة وفي سنة ٧٠٢ نازلوا القريتين وانهزموا ؛ ثم نزلوا على حماة بجيوش عظيمة وكانت الجيوش الاسلامية مجموعة عند دمشق فتحولت الى مرج الصفر فتقدم التتر الى دمشق . ثم تعقبوا عساكر المسلمين الى مرج الصفر واتفق لقاؤهم مع

وصول الملك الناصر من مصر يقود الجنود المصرية فتناجزوا ودارت الدائرة على التتر فانهزموا واكل السيف معظمهم وفر الباقون ، فتبعهم المسلمون الى الفرات وابادوهم . وهذه ثالثة الوقائع العظيمة التي هزم فيها التتر هزيمة شنعاء وهلك عديدهم وكلها في الاقطار الشامية على يد المصريين والشاميين . واما في العراق فلم تهزم لهم راية وبقي الملك الناصر يتردد بين الاقليمين ساعياً في اصلاح ماخربته الايدي العاتية الى ان كانت سنة ٧٠٧ خرج من مصر الى الكرك عامل ركن الدين بيبرس الجاشنكير احد مماليك المنصور قلاوون على خلعه ووافقه امراء الشام ومصر على ذلك فخلعوه واقاموا الجاشنكير مقامه وتلقب بالملك المظفر ولبث عشرة اشهر . ثم انتقض عليه امراء الشام وعساكرها وارسلوا الى السلطان الاول يدعونه للرجوع ، فنهض من الكرك الى دمشق ودخلها في سنة ٧٠٩ ، واجتمع عليه امراء النواحي معترفين بطاعته ثم قدموا له الجنود وساروا في ركابه لاسترجاع مصر . ولما وصلوا غزة لقيتهم عساكر الجاشنكير ومال اكثرهم للملك الناصر وتحيز اليه . وعلم الجاشنكير باختلال عسكره خلع نفسه وارسل للملك الناصر يطلب الامان ، فأمنه واقطعه صهيون ورجع الملك الناصر لعرش المملكة المصرية للمرة الثالثة في غرة شوال تلك السنة . ولما كانت سنة ٧١٢ عاد التتر لقاصدهم ، فجمعوا فلولهم واستنجدوا بمن معهم وقطعوا الفرات سالكين طريقتهم الاولى ، فنهض السلطان من مصر الى الشام في آخر شوال تلك السنة وقرر امور المجاهدين وكان عازماً على الحج فسافر من دمشق الى مكة المكرمة وقضى نسكه ورجع الى دمشق في اوائل السنة التالية وهي احدى حجاته الثلاث ، ولم يحدث مع التتر حادث ذو بال في هذه المرة ، بل استقرت الاحوال في نصابها وهدأت الفتن وجرت الامور على منوال السداد . ولما كانت سنة ٧١٩ عين السلطان لنيابة السلطنة بدمشق سيف الدين تنكز ، وكان من المولعين بتشييد البناء واصلاح المدن وتنظيمها واتساع طرقاتها . فوجد من دمشق مكاناً للعمل متسعاً فاقام فيها من المباني الضخمة العظيمة وزخرفها ما ابقى له

الذكر . واخصها الجامع المشهور باسمه الموجود الى يومنا هذا . وكذلك فعل ببيت المقدس وبنى بالمدينتين عدة مدارس ووقف عليها الاوقاف الكثيرة على عادة امراء ذلك الوقت وملوكه من قرى ومزارع وكله يكتب على ابواب المدارس خوفاً من ضياعها منقوشاً على الحجر . وبقي نائباً بدمشق ٢٢ عاماً اولها السنة المذكورة وآخرها سنة ٧٤١ ، وفي تلك السنة وقع بدمشق حريق عظيم التهم طائفة عظيمة من الابنية واتلف كثيراً من الاموال والانفس . وفي السنة المذكورة جللت سحائب الوحشة سماء الصفو مابين النائب والملك الناصر مسوقة برياح النيات السيئة . وذلك ان تنكز طالت مدته وقوي نفوذه بدمشق ونواحيها . فاستوحش سلطانه من ذلك وخشي ان ينتهي به الامر الى خلعه ودعاء الناس لنفسه . عمل على الايقاع به وسعى بذلك الى الجاشنكير قسائه وعزم على مخالفة التتر نكاية في سيده . ورفع شيء بمقاصده الى السلطان فامر عامله بصفد ان يذهب لدمشق ويحتال للقبض على تنكز . ففعل وتمت حيلته وقبض عليه وساقه الى مصر . فولى السلطان عوضاً عنه الطنبغاء الحاجب الصالحي . وكان تنكز جباراً مستبداً لايراجع في رأيه . سفاكاً للدماء واطباعه ميالة للغدر . وصدرت عنه سخافات تسود الصحائف .

وفي السنة المذكورة مات بمصر الملك الناصر محمد بن قلاوون ومدة سلطنته اربع واربعون سنة تجللتها فترات الخلع كما اسلفناه وقد اطال السيوطي في حسن المحاضرة في سيرته وذكر له ما يحمد ويذم . وذكر حكايته مع الخليفة المستكفي ومعاملته للعلماء والقضاة الذين افتوا بكونه خارجياً تجب مقاتلته في في خلعه المرة الثانية فليرجع اليه من شاء التفصيل والخلاصة حسناته اكثر من سيئاته . فقد كان عادلاً حليماً محباً للخير ابطل المكوس وبنى المدارس ونشر العلم وعمر المساجد ووقف عليها اوقافاً ذات بال لم يزل اثرها باقياً الى اليوم لذلك اتسعت مملكته حتى خطب باسمه في غالب الممالك الاسلاميه كبغداد والعراق والموصل والجزيرة والشام ومصر وضربت السكة باسمه في جميعها غير ان السيوطي رحمه الله تعالى تعصب للخلافة من حيث انها منصب ديني يجب

احترامه ، وهو الجامع لكلمة المسلمين تجاه العالم الاوربي ونسب للملك الناصر هذا انه آذى الخليفة المستكفي للسبب المتقدم ولاجل ذلك نفاه الى قوص ثم لم ينفذ عهده بالخلافة لولده فابتلاه الله جزاء لذلك باختلال احوال اولاده وذهبوا ما بين الخلع والقتل وانقرضت دولتهم لذلك على ما نذكره لك باختصار

وكان الملك الناصر قبل وفاته عهد بالامر لولده سيف الدين ابي بكر وتلقب بالملك المنصور فبقي على سرير الملك من لدن موت ابيه شهر صفر من السنة التالية ثم خلعوه ونفوه الى قوص ثم قتلوه . واقام الامراء بعده اخاه علاء الدين كجك ولقبوه بالملك الاشرف وعمره لم يجاوز الثامنة ثم خلع وحبس ومات بعد خمسة اشهر من ولايته . فاستدعى الامراء اخاه شهاب الدين احمد من الكرك ونصبوه سلطاناً ولقبوه الملك الناصر وذلك في شوال سنة ٧٤٢ ثم خلعوه في المحرم سنة ٧٤٣ ثم قتلوه في سنة ٧٤٥ . ثم بايعوا اخاه عماد الدين اسماعيل ولقبوه بالملك الصالح وبقي في السلطنة الى ان مات سنة ٧٤٦ . وفي مدة اخوته المخلوعين قبله كان نائب دمشق الطنبغاء الصالحي الذي ولاه ابوهم في السنة التي مات فيها . وفي ايام الصالح اسماعيل هذا اناب بدمشق ايدغمش احد مماليك والدهم فتوفي في هذه السنة وخلفه في نيابة دمشق الامير طقز وبايعوا بعده زين الدين شعبان الملقب بالملك الكامل وبقي في الملك سنة واحدة وخلع وسجن وقتل سنة ٧٤٧ . وفي ايامه عزل الامير طقز عن نيابة دمشق وعين الامير يلبغا الناصري صاحب المسجد والمدرسة الموجودين الى اليوم المشرفين على المرج الاخضر من الجهة الشرقية وهو المعروف بجامع يلبغا في سوق الخيل كما سيأتي معنا عند ذكر المساجد ويأتي الكلام عنه . فكان هو الذي خلعه باتفاق من الامراء وبايعوا بعده زين الدين حاجي ولقبوه بالملك المظفر ثم تغير السلطان زين الدين حاجي على يلبغا هذا فهرب من دمشق وحمل امواله وكان غنياً مفرطاً وادركته جنود السلطان فمات في الطريق بعد ما قبض عليه وكان ذلك سنة ٧٤٨ وناب عن السلطنة بدمشق الاغون احد مماليكهم ثم خلع زين الدين حاجي وقتل في

رمضان من تلك السنة واقيم مقامه اخوه حسن ولقب بالملك الناصر وبقي ثلاث سنين وكسرا ثم خلع . وبويع اخوه صلاح الدين صالح ولقب بالملك الناصر ثم خلع بعد ثلاث سنين . وبويع ولد اخيه ابو المعالي بن الملك المظفر ولقب بالملك المنصور ثم خلع وسجن سنة ٧٦٤ . وبويع ولد عمه شعبان بن حسين قلاوون ولقب بالملك الاشرف وتدفقت الفتن في ايامه وبقي الى ان مات سنة ٧٧٨ . وبويع ولده علاء الدين علي وبقي الى ان مات سنة ٧٨٣ . وبويع اخوه صلاح الدين حاجي وكان صبياً فاستبد عليه وعلى اخيه من قبله ابو سعيد برقوق الجركسي ثم تغلب على الملك المذكور وانقرضت بسببه دولة المماليك البحرية وتقلص ظلها عن مصر والشام وخلفتها دولة الجراكسة المعروفة بدولة مماليك المماليك ومؤسسها برقوق هذا وابتداء دولتهم عند المؤرخين من يوم تغلب برقوق سنة ٧٨٤

وقد كانت ايام اولاد الناصر المذكورين ايام نحس وبلاء وفتن وغلاء وحروب وقتل وتغلب وتقلب واهوال واضطراب احوال قضت على الاقليمين المصري والشامي بالانحطاط والتدني الى اقصى الدرجات

وكذلك وقع في آخر ايام دولة الايوبيين حذو القذة بالقذة وهو من سنن الله في خليقته ومن الاسباب الطبيعية لانقراض الدول ولن تجد لسنة الله تبديلا

ومثل ذلك بل اعظم ما وقع في آخر دولة الجراكسة وكان سبب استعجال انقراضهم على يد السلطان سليم خان العثماني كما سيأتي معنا .

ثم أصل برقوق من الجراكسة وبيع ببلاد القرم وجلبه الخواجه فخر الدين عثمان بن مسافر الى مصر فاشتراه يلبغا الخاصكي ثم اعتقه وخدمه الحظ وترقت احواله في خدمة الملوك الى ان تغلب عليهم وبقيت السلطنة بعد متقاذفة يتداولها المماليك ولم يسلمها والد منهم لولده الا في النادر . قال السيوطي وليس في الجراكسة من ملك وابوه مسلم الا برقوق هذا فان اباه قدم الى الديار المصرية واسلم ومات قبل سلطنة ولده وسمي برقوق لجحوظة عينيه ودخلت جميع الممالك المصرية والشامية تحت طاعته وجرت له بها مراسم السلطنة وبقي الى ان

مات سنة ٨٠١ وكانت في ايامه فتن كثيرة في مصر ذكر بعضها السيوطي وبويع بعده ولده الملك الناصر ابو السعادات فرج ، وفي ايامه التي التهمت جذوة الحرب التيمورية ثانية الحروب الصليبية في النكاية والدمار ، وهي منسوبة الى تيمور الاعرج المغولي مؤجج نارها خرج من بلاد المغول وقويت شوكته وكثر اتباعه وحدثته نفسه بامتلاك الدنيا بامرها اسوة بالاسكندر المكدوني فطوى ارض خراسان والروم والعجم وانتهى الى الشام وليته اذ طمحت نفسه الى هذا المطمح وطوحته في مرامي هذا المسرح وكان طلبه من طرقه المعقولة وسلك مسلكاً من سبله السبيل العادلة المقبولة .

فان الامم انما تملك منها الازمة بالعدل والرفق والنصفة وحفظ الحقوق لا بالقهر والازهاق وسفك الدماء واستئصال الاموال والشدة وعدم الاصغاء للنصح والتهتك بما اوصت به الشريعة الغراء ، ولعمري لو سلك تيمور هذا المسلك لدانت له الممالك والملوك ولانت له الصعاب وتمهدت له الاسباب واليك نبذة من تاريخ حروبه وآثارها في بلاد الشام وخصوصاً في هذه المدينة العظيمة التي كتب عليها ان تكون فريسة لذئابه

انه بعد ان اخضع الامم التي ذكرناها وخرب المعالم وترك الديار بلاقع واذاق الناس من العسف والخسف الواناً ، ثم زحف بجيوشه الى التخوم الشامية وابتدأ بعين تاب ثم منها الى حلب وكان ذلك سنة ٨٠٣ وكانت حاميتها عظيمة وجنودها متوافرة فلم يغنوا عنها من شره شيئاً ودخلها عليهم عنوة وفتك بأهلها الفتك الذريع وسامهم سوء العذاب المريع ثم تدفقت جيوشه كالسيل واظلمت الكور الشامية اظلام الليل وأينما حلوا حل البلاء والدمار ، وكانت تلك الواقعة بحلب وقد فر من اهلها جماعة واتوا دمشق منذرين بما ورائهم من هول وهون ، وفتك وهتك ، وظلم وغدر . فمن الناس من انصاع لذلك الانذار ولم يتخذ دمشق دار قراراً ، فاتخذ الليل جملاً ولم يبق لنفسه في الثواء بها املا والعاقل من اتعظ بغيره ، ومن الناس من رمى بكلام المنذر دبر اذنيه ولم يرفع به رأسه .

وقد استقصى العلامة الاديب قاضي القضاة الشيخ شهاب الدين احمد بن محمد المعروف بابن عرب شاه في كتابه الموسوم بعجائب المقدور في اخبار تيمور احوال هذا الرجل وفتوحاته من اول امره ومبدأ ظهوره الى انتهاء شأنه وانكسار شوكته الى هلاكه . ونحن نلخص منه ماله مساس بدمشق :

ان تيمورلنك بعد التهامه الممالك التركستانية مما وراء النهر وعبوره الى ارزنجان وديار بكر واستيلائه على الكثير من الممالك الرومية بعد الحروب الشديدة مع السلطان بايزيد خان العثماني كما سنذكره في الفصل الذي بعده ، وجه وجهه الى الاقطار الشامية فحل عتاب حلول العذاب وهي للبلاد الشامية كالباب . ثم منها الى حلب فاستولى عليها في قصة طويلة ووقائع هائلة وكان جميع امراء الدولة مستعدين لمقابلته ومتهيئين لمنازلته . وقد استنهض الملك الناصر من مصر العساكر والمتطوعة لقتاله وبعد وقوع حلب في مخالبه وانتشابها في شبكته . خرج من اهلها نذيران عريانان يدعى احدهما استبوغا الداودار والآخر عبد القصار منذرين لاهل دمشق عما وراءهما من الخطب الجلل والدواهي السوداء والبلاء المسلط وكان تيمورلنك فوق ما هو معروف عنه من القساوة والشدة والفظاظة أما دخل بلد الا وسام اهلها سوء العذاب وارتكب جنده فيها من المنكرات الشنيعة والمظالم الفظيعة ما لا يوصف .

ولما حل النذيران بدمشق نصحا الناس ان لا يبقى احد منهم بالمدينة وليتخذ كل واحد لنفسه طريق نجاة . فاستولى الهلع على الناس فهرب بعضهم واحتسب البعض وصبر

ثم تجاوز تيمور حلب الى المعرة الى حماة وفعل في اهلهما الافاعيل من التعذيب والتنكيل . ثم تجاوزها الى حمص واستولى عليها وخالف عادته فلم يرتكب بها فظيعة . ثم قصد بعلبك فترك معاهدها بلاقع . ثم تقدم بسيله الجارف وجيشه الجرار نحو مدينة دمشق فاشرف عليها من ناحية قبة السيار (التي سنأتي على حديثها مع قبة النصر) (وقال صاحب شذرات الذهب في تاريخه انه اناخ على ظاهر دمشق من داريا وقطنا ثم احتاط بالمدينة وانتشرت

عساكره في ظواهرها تتخطف الهاربين . وحسب بحروف الجمل دخوله دمشق عام (خراب) سنة ٨٠٣ وعبر المدينة من باب الصغير ونزل تيمور بالقصر الابلق من الميدان وصلى الجمعة بالجامع الاموي وقدم القاضي الحنفي محمود بن الكشك للخطبة والصلاة انتهى كلامه) وكانت العساكر المصرية والدمشقية على استعداد لمقاتلته ولمدافعته فاصطدم الجيشان وقامت الحروب بينهما على قدم وساق وعسكرت الجيوش التيمورية بنواحي قرية داريا والحوله وصدقت الجيوش الاسلامية في الدفاع فايقن تيمور ان الاستيلاء على هذه المدينة والحاقها باخواتها ليس بالسهل الهين وان مصابرته لاتجديه نفعاً ففل من حده وشباة عتوه وجبروته وارسل ذات ليلة نحو عشرة آلاف مقاتل ليكبسوا المدينة على غرة فاتوا حتى خالطوا اسوار المدينة وثار بهم الجيش المرابط على حراستها فولوا الادبار مع كثرتهم وركب الحرس ظهورهم وحكموا فيهم السيف فلم ينج منهم ديار وكانت هذه الوقعة عنواناً لتيمور على عدم نجاحه فعمد الى المراوغة واستعمال الحيلة واوعز الى ابن اخيه سلطان حسين وكانا من مقربي امرائه ان يتظاهر بعصيانه ويتجاهر بخذلانه ويتحيز الى امير دمشق ساخطاً على خاله مظهراً مساعدة عدوه عليه ففعل وانحاز الى الامير وراجت عليه مكيدته فسر بتقدمه وخلع عليه وجرده من شعار خاله وبأثر ذلك اظهر تيمور مايدل على عجزه واختلاله واردف ذلك بارتحاله وشد رحاله حتى تتم المكيدة التي دبرها والحيلة التي اسلفنا خبرها واتفق لحسن طالعه وانجاز ماأراد الله بهذه المدينة من الويل والكرب ان وقع اختلاف بين امراء الجيوش الشامية والمصرية وانتهى الامر بانسلال من يعتمد عليه فيهم ومغادرة هذه المدينة استرسالا مع داعي الغضب الذي اوجبه الخلاف واغترارا بتظاهر تيمور بالعدول عن المحاصرة وبذلك صحا الجو لتيمور لاختلال حامية المدينة وعجزها عن مدافعته وانكفأ راجعا من مكمنه القريب من المدينة وانتشرت اجناده انتشار الجراد على القرى وخندق تيمور بقية السيار وبث خيله وجنده حوالي المدينة . فعلم المدافعون انه البلاء النازل الذي لا يمكن له رد فراد

الاختلال والاضطراب ودافعوا ما امكنهم ولكن من غير جدوى وماتموا ولات حين ممانعة وكانوا يتعللون برجوع السلطان والامراء الذين خرجوا الى مصر تعلل الظمآن بالسراب ولما استيقنوا من رجائهم الخيبة ومن الطاغين الاوبة فزعوا الى كبرائهم وعلمائهم وتشاوروا فيما يدفع الكرب عنهم وانحط الرأي على ارسال وفد من اكابر العلماء لمواجهة تيمور وطلب الامان منه وتسليم المدينة فخرج قاضي قضاة الحنفية وقاضي الشافعية وجماعة من العلماء والقضاة وكان قاضي القضاة ورئيس العلماء ولي الدين بن خلدون المالكي الاندلسي صاحب التاريخ المشهور ممن قدم من مصر في ركاب السلطان ولما رجع السلطان الى مصر لم يرجع معه وآثر الاقامة بدمشق وكان نازلاً بالمدرسة العادلية فاراده القضاة على الخروج معهم وان يكون رئيسهم ومقدمهم لماله من قوة المعارضة في البلاغة والعلم بمواقع الكلام في مخاطبات الملوك والاطلاع على دخائلهم زيادة عن تضلعه من العلوم واقتداره على المناظرة مع الحجاج والملوك فرضي بالخروج معهم وكانت هيئته في الملبس غريبة عن هيئات علماء هذه البلاد (وقد عثرت على رسمه عند احد الاصدقاء) فلما دخلوا على الطاغية ومثلوا بين يديه رأى زي ابن خلدون مباينا لغيره واستطرقه قال هذا الرجل ليس من هذه البلد فانفتح لابن خلدون مجال الكلام واندفع كالسيل الهامر فاظهر المقصود وادهش تيمور ببلاغته وسحره عند التكلم فصرف عن الجماعة وجهه وقصر تعويله عليه واهتز لكلامه وطرب وجاذبه اطراف الحديث عن ملوك الدنيا وتاريخ العرب وايامها ومشاهير رجالها فقص عليه من ذلك ماجذب عقله وسلبه وجلب لبه وخلبه

وكان تيمور عالما بالتاريخ مطلعاً على اسراره ثم خلع على اولئك العلماء وامنهم ومن ورائهم وشرط عليهم ان يدفعوا له اموال السلطان وماللعوللامراء من ذخائر ومماليك واموال ففعلوا وسلم المدينة الا قلعتها فانها استعصت فلم يلتفت تيمور في باديء الامر اليها بل تمادى على جمع الاموال واستصفاء الذخائر وكان نائب القلعة ينتظر انجاد السلطان او رجوعه ونادى تيمور

في جنده ان لايمد احد منهم الى السوء يدا يمس اموالهم وتقدمهم بالوعيد الشديد والقضي وطره من الاموال السلطانية وملك ناحية المدينة وداخلها واستقر بها بدأ يتحرش بالاهلين مقدما على ذلك مناظرات علنية بين فقيه حضرته ورفيق ركابه الشيخ عبد الجبار المعتزلي وبين علماء دمشق في مسائل التفاضل بين الخلفاء الراشدين والامام علي وكاتب الوحي معاوية ويزيد والحسين وماكان من اهل الشام في تلك الاحقاب الغابرة من ممالأة معاوية وذويه وما هي الا مقدمات للكيد متربصا بهم سقوط القلعة الحصينة فانه كان موجها همته اليها لحاصرها وذاق عساكره من حاميتها اليم النكال وبعد حصار نيف واربعين يوما سلم نائبها وقضي الامر ولم يبق طارق ولا مارق فحينئذ فتح لعساكره باب النهب والسلب وارتكاب المنكرات واستدعى الاعيان والعلماء واحداً واحداً وسلط عليهم انواع العذاب واستصفى اموالهم واتى من المنكرات في تعذيبهم ماتقشعر منه الابدان من الكي بالنار وسقي الماء الحار مخلوطاً فيه الرماد والكلس وغير ذلك مما ترتعش اليد عند كتابته ويتلعثم اللسان عند ذكره واباح المدينة لجنوده واتباعه فعاثوا وعبثوا وتنوعت مشاربهم من النهب في الاسواق والفتك بالارزاق وهتكوا الاعراض ولم يقفوا عند هذا الحد بل بعد مااستخلصوا الاموال اضرموا النار في احياء المدينة فالتهمت البقية الباقية من البيوت والاسواق والمعابد وطمست نفائس الآثار ومحت محاسن هذه البلد الزاهرة التي هي الدرة الوحيدة في مناظرها وطيب هوائها وحسن موقعها فاصبحت مغانيها كان لم تغن بالامس ولله في خلقه شئون . ومن الطف ماقيل في ذلك العصر من احد شعراء دمشق :

أأهل دمشق لا تخشون شرا فان امامنا فرجاً قريبا

فكان الامر كذلك وقد نقل مؤرخو دمشق انه لما جأت جموع التتر نزلوا بالمدرسة العادلية اكبر مدارس الشافعية بدمشق فاحرقت ونصب المنجنيق على القلعة الى سطح جامع بني اميه فاحرقوه فاعيد عمله وكان المغول يحرسونه ونقل ابن خلدون ايضاً انهم انتهكوا حرمة المساجد بكل محرم من غير استثناء

وهدموا ما كان حول القلعة من المساكن فالمدارس والابنية ودار السعادة واهين القضاة والحكماء والخطباء وعطلت الجماعات والجمعة وفحش القتل والسبي وهدمت دار الحديث وكثير من المدارس انتهى كلامه

وفي اول سنة ٨٠٤ تمام سنة من ظهور تيمور بارض الشام طهرت ارضها وارجاؤها من ارجاسه ولم يبق بناحية من نواحيها له اثر فهدأت الخواطر وانتعشت البقية الباقية كانما بعثت من المقابر وهرع الناس لرجوع كل لوطنه ورجعت الحثالة المتشردة عن دمشق واستعاضوا عن سكنى القصور سكنى الاخصاص واخذوا يعملون بما فيهم من رمق الحياة لعمارة ماتخرب وترميم ماتهدم وما لبثت الا وتقهت من ذلك الداء العضال وابلت من ضعفها ونبت فيها روح القوة فاستعادت رونقها واخذت زخرفها واصبحت مدينة تذكر واغلب من عمرها بعد هذا الطوفان الدموي اهل حماة

واما الصنائع التي كانت مادة لعزتها ومصدرا لتجارتها والتي اشتهرت بها فلم يرجع اليها منها الا لمحة شاهدة بالاثر ومسحة دالة على ماكان لاهلها من التفنن لان مشاهير الصناع وفحول العملة استصحبهم ذلك الطاغية معه ورزئت البلاد بهم ولولا ماهنالك من المميزات لهذه المدينة الزاهرة من حسن موقعها وكثرة مياهها وكونها واسطة القلائد في المدن الشامية ونقطة الاتصال بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ومركز التقسيم التجاري بين العراق ومصر والحجاز والروم ومقصداً للحجاج من عامة الممالك الاسلامية وغيرها يردون ويصدرون عنها الى الحجاز او بيت المقدس لولا ذلك منه لدخلت في خبر كان بعد الحادثة التيمورية ولم يبق منها الا الاسم في دفاتر التاريخ كما بقي لغيرها مما شاده الاقدمون ولكن تلك الخواص والمزايا الطبيعية انتشلتها من كبوتها وجذبت بضبعيها وانف الحوادث راغم

ورجعت دمشق من حيث السياسة الى مملكة المماليك تابعة في ذلك لسلاطين مصر يتعاقب عليها عمالهم ونوابهم كما كانت الحالة قبل وبقيت على ذلك الى ان كان آخرهم قانصوه الغوري الذي قتل سنة ٩٢١ وابنه الذي ملك بعده ثلاثة

اشهر وبه تم عددهم ثلاثة وعشرين اولهم برقوق وآخرهم طومان باي بن قانصوة . ومدة ملكهم مائة وثمان وثلاثون سنة . وانقضى شملهم وانتثر نظامهم ، ودخلت الممالك المصرية والشامية بل والحجازية والعراقية مضافة الى الرومية في طاعة السلطان سليم خان العثماني تاسع ملوك الدولة العثمانية على ما سنفصله لك من ظهور هذه الدولة وتوليتها امر المسلمين وربك يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

يشقى رجال ويشقى آخرون بهم ويسعد الله اقواماً بأقوام
وليس رزق الفتى من لطف حيلته لكن جدود بأرزاق واقسام
كالصيد يحرمه الرامي المجيد وقد يرمي فيرزقه من ليس بالرامي

والمتصفح لتاريخ هذه المدينة العظيمة في عهد الدول الثلاثة النورية والايوبية ودولتي المماليك والجراكسة ستخرج منها صفوة عن حالة العلم فيها ويرى انه لاول الدولة النورية ازهرت رياض العلم وعمرت ربوعه وكثر طلابه ، وعظم انصاره واصحابه وتكاثرت اعوانه ومساعدوه ، وتعاضد مفيدوه ومستفيدوه ، وتعددت مدارسه وشيد دوارسه ، وفضل ذلك كله وثوابه عائد للسلطان نور الدين الشهيد رحمه الله . فلقد كانت له في العلم همة تبعث بالهمم الخامدة الى التنافس وتهيب بها الى اطراح التكاسل والتقاعس بما كانت تشتمل عليه مجالسه من المباحث العلمية والمناظرات الفقهية ، وبمن كان ينتقيهم لمجالسته من فحول العلماء والمفكرين وفرسان البحث وبما كان يصلهم ويحسن اليهم من العطايا الجمة والجرايات الغزيرة فنشطت الهمم من عقالها وابانت القرائح من غفلتها وكلالها . والسلطان سوق تجلب اليه نفائس الاعمال وضوال الحكم والناس على دين ملوكهم فنبغت في حياته تحت سماء هذه المدينة عصابة هم اهل الاصابة ، ربوا تحت ظل دولته وغذوا اخلافها ولاحظتهم عنايتها وفاض عليهم شعاع سعادتها . فاثمرت علومهم وانتجت اعمالهم واتوا بالكثير الطيب ، ولم يكفه رحمه الله تعالى ما كان يبذله في خدمة العلم من المال والاعمال في حياته بل اراد ان يتمم المنة بما يبقى له جميل الذكر وجزيل الاجر . فوقف اوقافاً كثيرة

يعود ريعها على ممر الاحقاب الى مدارس العلم التي شيدها حرصاً على نمو تلك الشجرة التي هو غارسها وتثبيتاً لعروقها . والكريم من يعمل عملاً يثق بدوامه وبقائه ويزرع زرعاً ويسقيه . ثم مات نور الله مرقده ودولة العلم مرهوبة الجانب متسعة الجوانب كثيرة الحماة والانصار . ثم جاء بعده ربيب دولته ووارث حاله السلطان صلاح الدين بن ايوب . فاوسعت دولته للعلوم والمعارف مجالا رحباً . ونبتت في ايامه بالافقين الشامي والمصري نابتة من ابناء العلم طالت الاولى وارت عليها . وكانت اصلاح الدين في الكرم غاية لا تدرك فراجعت بضائع الآداب عنده وحملت اليه نفائس الاشعار فبيعت باعلى الاسعار وهو وان كان كردي النجار لكنه عربي النزعة قحطاني الطبع وحاتمي الاريحية . نجم وظهر في دولته امثال القاضي الفاضل والقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر وغيرهم من فحول الكتاب وبلغاء المترسلين وفطاحل الشعراء وسار على سير سلفه في تشييد المدارس وارفاد العلماء واشحاذ هممهم ووقف الاوقاف عليهم . ثم قفاه بنوه وبنو اخيه فقصروا عن مضارعته ووقفوا وبنوه دون شأوه ولكن لم يخل العلم وبنوه من التفات برعايه وملاحظة بعنايه فاتصل السند باتصال المدد ودولة المماليك ومماليكهم اشبه بدولة اعقاب الايوبين من هذه الجهة وان كانت بين افراد الملوك تفاوت

واذا التفتنا الى تاريخ دمشق الهندسي والجغرافي نجد الكثير من مزارعها وضياعها ان لم نقل كلها وقفا من ملوك تلك الدول وامرائها ونصيب العلم من تلك الموقوفات اكثر من بين سائر انواع البر كابناء السبيل والفقراء والعاجزين واصحاب العاهات والمدينين وبقية المصالح العامة كما تنطق بذلك نصوصهم التي نقشوها في الصخور ومثلوها على ابواب المدارس والمساجد وقد ابقت لنا الايام امثلة منها واغتالت الحوادث التيمورية وايدي العابثين بعدها عصرا بعد عصر الى يومنا هذا . القسم الكثير منها وما فعلوا ذلك الا حرصا على بقائها وحذرا من تلاعب الايدي بها ولكن جاءت الايام بنقيض مقصودهم فكم من سجل حجري مسحت نقوشه ومن مدرسة هدمت وشيدت بانقاضها

وفي بقعتها بيوت وخانات اتينا على امثلة منها في موضعها واصبحت الرباع والمزارع الموقوفة عليها ملكاً يبيعه زيد لعمرو ويرثه بكر من خالد وكم من سجل لم تمح حروفه ولم تخن عليه الدهور وصروفه ولكن موقوفاته استحالت املاكا وتوارثها الشرهون الذين يبتلعون الحب والاب قرونا متطاولة ولقد ذكرت ماقاله بعض العقلاء لاحد امراء الدولة العثمانية وصدورها ومن حكامها بهذه المدينة وقد اراد ان يقف عقاراً على بعض الجهات الخيرية وبالغ في التنصيص والتشديد في الشروط والتهديد بالوعيد الآجل لمن يبدل او يغير فقال له ذلك المفكر العامل مامعناه قد كتب من قبلك في الصخور الصلدة التي لاتمحى بماء ولا تقشط بسكين فجيء من بعدهم وبدل وغير وانت تكتب في الورق وتطمع ان تزع الناس بأوعيد اعمل ولك ثواب النية والقصد الحسن ولنا في هذا الموضوع كلام نأتي به في باب المساجد والمدارس ان شاء الله تعالى .



الفصل السادس

في حال دمشق منذ استيلاء العثمانيين عليها الى عصرنا هذا وما تركت من الآثار في النفوس وكيفية توصلها اليها ولغيرها من الممالك العربية مع ذكر ولاة دمشق وبيان ما ترتم في هذه المدة من الحوادث الى خروجهم منها

بمقتضى مالهذه الدولة من الاشتهار والاعتبار في التاريخ ولما لها من المكانة في قلوب المسلمين من مشارق الارض ومغاربها خاصة . ولما في تاريخها من الجمع بين القديم والحديث من الفوائد والقوانين وسائر الاطوار الدولية . ولما لها من الارتباط والمساس بعصرنا الحاضر .

اردنا ان نبين منشأها واوليتها والاطوار التي تقلبت فيها قبل صيرورة الخلافة الاسلامية اليها ؛ وما كان لبعض سلاطينها الاقدمين من جلائل الاعمال وعظيم

الفتوحات . وما لهم من حميد الاثر في خدمة الدين الاسلامي المبين والموازنة بينها في ابان حداثتها وبين بقية الدول الاسلامية التي اظلها وآباها زمن واحد كالدول التي فرغنا من الحديث عنها ناظرين اليها كدولة من دول الطوائف مستقلة في شؤونها في ممالك مخصوصة تغلبت عليها حتى يتم الشبه وتصح الموازنة

ثم يتصل الكلام بتاريخها بعد استيلائها على تراث بني العباس ومن تفرع عنهم وانتقال الخلافة اليها وما للناس في ذلك من الآراء . وهناك يجيء الكلام على دمشق ويرتبط مبتداه بمنتهى دولة المماليك .

وان كان هذا كله لم يسق حديث كتابنا اليه ولكنه . لا يعدم الفوائد التاريخية والاطلاع على اسباب التغيرات والحوادث الكونية مع ما فيه من بناء الفرع على اصله ومعرفة اهمية آخر الشيء لادراك اهمية اوله .

الدولة العثمانية منسوبة الى عثمان بن ارطغرل بن سليمان شاه ويقال الدولة التركية نسبة الى الترك نسبة عامة بما ان عثمان من بعض قبائل الترك . وهو من اسرة ملك في بلد ماهان من توابع بلخ .

ولما تغلب التتر اول ظهورهم على تلك البلاد انجلى اهلها عنها وهجروها . وكان ممن هاجر منها سليمان شاه واولاده وعشيرته وهو زعيمهم ونزحوا عن اوطانهم منتجعين ارض الروم بنية الجهاد وفتح بلادهم حتى تكون لهم خلفاً عن وطنهم . ولما صاروا باحدى معابر الفرات غرق سليمان شاه في النهر فمات . وورث الزعامة والرئاسة بعده ابنه الاكبر ارطغرل . وبينما هم سائرون لطيتهم في اراضي الروم وهم غرباء عنها لاخبرة لهم بمعالمها ومجاهلها . اذ شاهدوا جيشين مشتبكين في القتال فوقف الامير ارطغرل على ربوة من الارض ليمتع نظره بهذا المنظر اللذيذ عند امثاله الذين تعودوا خوض غمرات الحرب والحضور في ميادين الطعن والضرب . فتبين له ضعف احد الجيشين واشرافه على الانكسار . فدبت فيه النخوة الحربية وحماسته على الانتصار للضعيف . فحمل هو وفرسانه على الجيش القوي على حين فجأة واعملوا فيه السيف وهزموه شر هزيمة . ثم استطلعوا حقيقة الجيشين المتحاربين واذا الجيش

الضعيف الذي تصروه والولاهم لتمت عليه الهزيمة هو جيش السلطان علاء الدين السلجوقي سلطان قونية وهو من بقايا آل سلجوق الذين ملكوا ارض الروم وقوي سلطانهم فيها .

استقل علاء الدين هذا بقونية وشكل امارة صغيرة عند انحلال دولتهم وافول نجمهم . وبين علاء الدين هذا وبين قلج ارسلان اشهر ملوكهم واعدلهم سيرة خمسة اجداد .

والجيش الآخر القوي من الخارجين عنه ولما تم النصر لجيش علاء الدين على يد الامير ارطغرل استسعد طالعه واستبشر بنقلته وقربه اليه واصطفاه لهانه واقطعه اقطعات جزيلة ثم ولاه امارة بعض المدن التي يكثر فيها الحروب والمغازي . واشتهرت شجاعته وصدق بلائه وحسن اثره في الجهاد وصار كلما يفتح فتوحاً جديدا يسمى له السلطان علاء الدين في الاقطاعات ويزيد في التنويه بشأنه ثم لقب عشيرته بمقدمة السلطان لوجودهم دائماً في طليعة جيشه وتمام النصر على ايديهم ولم يزل يتقدم في مدارج الملك وصيته يعلو وذكره يزداد نباهة والجوائز من السلطان علاء الدين والخلع والتشريفات تتوارد عليه وكان اكبر اولاده عثمان خان الذي تحلت هذه الدولة بالانتساب اليه واشتهرت به في المشارق والمغارب وكان ابوه زوجه في حياته بعقيلة من بيوت الصلاح والدين لجاء من نسلها الكثير الطيب ولما توفي ارطغرل سنة ٦٨٧ قلد السلطان صلاح الدين جميع ما كان له من الاعمال والوظائف لولده الاكبر عثمان خان لما كان مشهوراً به من الشجاعة واصالة الرأي وسداد التدبير والصلاح والتقوى والرفق . وحمله ما كان لابيه من مناهج التكريم والتقديم من الخلع والتشريفات والمراسم . وفي هذه السنة التي ولي فيها ولد له ولده ارخان من زوجته المذكورة .

وفي السنة التي بعدها افتتح عثمان عدة قرى ومدن منها مدينة قره حصار فاقطعه علاء الدين جميع القرى والقلاع التي افتتحها بسيفه ورجال عشيرته ومنحه لقب (بك) وهو من الالقاب التشريفية التي لم تزل متوارثة في هذه

الدولة الى اليوم واجاز له ضرب السكة باسمه والدعاء له على المنابر واصبح عثمان ملكاً مستقلا لاينقصه من مراسم الملك الا لقب ملك في المخاطبات الرسمية والمناشير ثم مات السلطان علاء الدين في سنة ٧٠٠ وهي السنة التي اغار فيها التتر على ممالك الروم والناس مختلفون في موت علاء الدين . فقائل يقول قتله التتر في بعض حروبهم معه وقائل يقول قتله ولده غياث الدين تعجلا بالملك بعده ثم قتل التتر غياث الدين هذا وبموته صفا الجو للامير عثمان بك واتسع به مجال العمل فاستأثر بجميع ما كان بيده من المدن والاقطاعات وما كان لمتبوعه علاء الدين من الممالك ولم يبق له منازع ولا معاند من بقايا السلجوقيين ولا من غيرهم الا التتر فشمر عن ساعده لمحاربتهم وصدهم عنه حتى استأصل شأفتهم وقطع اطماعهم واستقر ملكه في نصابه فلقب نفسه (بادشاه آل عثمان) وجعل قاعدة ملكه ومقر سلطنته مدينة يكي شهر ولم تكن بالمدينة العظيمة ولا الحصينة وانما اصطفاها لذلك لحسن موقعها وما فيها من المميزات الطبيعية ثم حصنها وبنى فيها القلاع العظيمة وبذل الجهد في عمارتها وتنظيمها وتحسين مرافقها حتى صارت جامعة بين الحسن الطبيعي والجمال المكتسب ثم سمت همته الى توسيع دائرة مملكته فغزا بجيوشه مدينتي ازميد وازنيق وهما مدينتان قديمتان يونانيتان لهما ذكر في تاريخ الدولة اليونانية ولما عجز عن فتحهما لحصانتهما رجع عنهما واشتغل بترتيب شئون مملكته الداخلية من عمارة واصلاح خلل وتسكين الاضطراب وتأمين سبل واعداد قوة للجهاد

ولما تهيأت له الاسباب ارسل الى جميع امراء الروم وكانوا منقسمين اوزاعا كملوك الطوائف في الدول الاسلامية وغيرهم بمقتضى القانون الاسلامي بين ثلاثة: الدخول في الاسلام او بذل الجزية او المناجزة بالحرب. فنهم من اجاب للاسلام ودخل في حزبه ومنهم من رضي بالجزية الشرعية تامينا لدمه وكسبه ومنهم من استكبر وآذن بحربه واستعان هذا الفريق الثالث بالتتر واستنجدوهم على الامير ملك آل عثمان فارسل لمحاربتهم ولده اورخان يقود الجيوش الجرارة وفي ركابه عدد وافر من امراء الروم الذين اسلموا والتق باعدائه

وحلفائهم من التتر ودارت رحى الحرب بينهم فاوقعت بهم العساكر الاسلامية وشتت شملهم وخفضت شوكتهم وعلى اثر تلك الحروب حاصر اورخان بجيوشه مدينة بورصة وكانت تابعة لملك القسطنطينيه وكان ابتداء حصرها سنة ٧١٧ وكان لها حصن يعرف باسم اردنوس على قمة جبلها المعروف في اليونانية باسم (اولمب) وفي التركية باسم (كشيش طاغ) وهو كالمفتاح للمدينة فهاجمه اورخان وافتتحه عنوة وكان هذا اول اعماله ليتمكن من ناصية المدينة واخذ بفتح ماحولها من الحصون والقلاع واحدة واحدة الى ان بقيت المدينة وحدها فاكتفى بمحاصرتها من دون قتال ولاحرب حرصا على استبقاء النفوس من الجانبين وطاولهم في الحصار مدة عشر سنوات حتى سئموا وعلموا ان لافائدة من وراء هذا الصبر فاصدر ملك القسطنطينيه امره الى نائبه على بورصة بتسليمها لاورخان بالامان وان يقبل بما يشترطه عليه فسلم له المدينة من غير طعنة ولا ضربة والتزموا بدفع ثلاثين الف دينار ذهبا من سكنتهم في مقابلة التأمين على الانفس والاموال واسلم حاكمها الرومي فاعطاه الامير اورخان لقب بك وصار فيما بعد من مشاهير قواد العثمانيين وله ذكر حسن في تاريخهم الحربي ثم مات السلطان عثمان بمدينة بورصه ودفن بها سنة ٧٢٦ عن سبعين سنة قضى منها سبعا وعشرين في الملك بين حروب وفتوحات وتأسيس وترتيب وكان على جانب عظيم من الصلاح وكان اوصى بالملك لاورخان ثاني اولاده لما كان يميزه عنده من علو الهمة والشجاعة والاقدام واصالة الرأي فرأى السلطان عثمان انه احق بالسلطنة واقدر على حمل اعباء الملك من اخيه الاكبر علاء الدين لميله الى التجرد والورع واشتغاله بالعباده ورضي بوصية ابيه وكان من اول المسارعين الى بيعة اخيه بالسلطنه ولما تم الامر لاخيه اراده على ان يكون له وزيراً مدبراً للامور الداخلية قال الاستاذ فريد بك وهذه الوظيفة هي المعروفة اليوم بالصدارة العظمى . وتصدى المذكور للداخلية واورخان للحروب والفتوحات وتوسيع دائرة المملكة .

قال الاستاذ المذكور : ومن اهم اعمال علاء الدين هذا ايام وزارته ان امر

ضرب السكة من الفضة والذهب (يعني باسم دولتهم الخاصة ورسمها اذ كانوا قبلاً يتعاملون بالنقود الاجنبية فتاريخ المملكة العثمانية يرجع الى علاء الدين هذا) ووضع نظام الجيوش المظفرة وجعلها بصورة دائمة سلماً وحرباً وكانت قبل ذلك لا تجمع الا وقت الحرب وحينما تدعو الحاجة فاذا لم يكن حرب صرفت العساكر ثم خشي من تحزب كل فريق من الجند الى القبيلة التابع اليها (يعني كما كان بين القيسية واليمانية عند العرب وقد أشرنا سابقاً الى بعضه) وانفصام عرى الوحدة العثمانية التي كان كل سعيهم مصروفاً في ايجادها وتكوينها فاشار عليه احد فحول ذلك الوقت واسمه قره خليل وهو الذي صار فيما بعد وزيراً باسم خير الدين باشا باخذ الشبان من اسرى الحرب وفصلهم عن كل ما يذكرهم بجنسهم واصلهم وتربيتهم تربية اسلامية عثمانية بحيث لا يعرفون اباً لهم الا السلطان ولا حرفة الا الجهاد في سبيل الله ولعدم وجود اقارب لهم بين الاهلين لا يخشى من تحزبهم معهم فأعجبه هذا الرأي وعرضه على السلطان اورخان فاستحسنه وامر بانفاذه ولما صار عنده منهم عدد ليس بقليل سار بهم الى الحاج بكداش شيخ الطريقة البكداشية باماسيه ليدعو لهم بخير فدعا لهم هذا الشيخ بالنصر على الاعداء وقال فليكن اسمهم (يني تشاري) ويرسم بالتركية يكيجاري اي الجيش الجديد ثم حرف في نطقه العربي فصار انكشاري ثم ارتقى هذا الجيش في النظام وزاد عدده حتى صار لا يعول في الحروب الا عليه . وكان من اكبر واهم عوامل امتداد سلطنة الدولة العثمانية كما انهم خرجوا فيما بعد عن حدودهم واستعدوا واستبدوا بما جعلهم سبباً في تأخر الدولة وانحطاطها وتقهقرها وكان ضباطهم يلقبون القاب غريبة في بابها ولكنها تدل على ان اولئك الجنود كانوا عائشين من انعامات السلطان كاولاده . وقد ذكر المؤرخ بعض عوائدهم ثم قال واستمرت هذه الفئة عوناً للدولة على اعدائها حتى تغيرت احوالها وازداد طغيانها وانقلبت فوائدها مضرات فقضى عليهم السلطان محمود الثاني وقتل اغلبهم في واقعة اليوم التاسع من ذا القعدة سنة ١٢٤١ لمقاومتهم اجراءات السلاطين وتعديهم عليهم اهـ

والمؤرخ يشير الى الطور الذي تشكل به هؤلاء الانكشارية حتى صاروا يولون الملوك ويعزلون ويقتلون من شاءوا من الوزراء والاعيان من غير معارض ولما رأى السلطان محمود ضرورة ادخال النظام العسكري الجديد بجنود دولته لما فيه من الفائدة واللزوم للوقت الذي هو فيه قامت قيامة تلك الفئة الغاشمة وعارضوا بكل مجهودهم حرصاً على التقاليد القديمة ان تزول من ايديهم ولما انس السلطان منهم التصميم واوجس منهم خيفة على نفسه دبر لهم تلك المكيدة التي يشكر عليها واوقع بهم تلك الوقعة القاصمة التي ما زال الناس يتحدثون بها الى الآن . والحادثة مفصلة في كتب تاريخ الدولة العثمانية .

ثم قال المؤرخ الموصى اليه ولول عمل اجراه السلطان اورخان هو نقل مقر الحكومة العثمانية من يكي شهر الى مدينة بورصة لحسن موقعها وارسل قواد جيشه لفتح ما بقي من بلاد آسيا الصغرى (الاناضول) ففتحوا اهم مدنها وفتح السلطان بنفسه مدينة ازميد ولم يبق من مدن الروم المهمة الا مدينة ازنيق فحاصرها وضيق عليها الى ان دخلها عنوة بعد سنتين من حصارها فسقط بسقوطها نفوذ الروم في بلاد آسيا . ومما جذب قلوب الاهلين اليه ان عاملهم بالرفق واللين ولم يعارضهم في اقامة شعائر دينهم وأذن لمن يريد المهاجرة بأخذ منقولاته كافة وبيع جميع عقاراته بتمام الحرية واسس بهذه المدينة عدة مدارس وتكايا للفقراء والمعوزين وجعل اكبر اولاده المدعو سليمان حاكماً عليها ولم يلبث في هذه الوظيفة الا قليلاً حتى عينه صدراً أعظم بعد وفاة عمه علاء الدين المذكور . واشتهر سليمان بفتح عدة مدن وفي سنة ٧٣٦ ضم السلطان اورخان الى ممالكه امارة قرهسي لوقوع الخلاف بين ولدي اميرها بعد موته ولو لا تخالفهما لم يمكن السلطان من ضمها الا بعد حروب ومكافحات وفي ذلك عبرة لمن اعتبر .

واعتنى السلطان اورخان بتوصيد دعائم سلطنته وتنظيم شؤونها ونشر راية العلم على ربوعها في بورصة عاصمة ملكه مدرسة كبيرة واخرى بمدينة ازنيق واجزل العطايا للشعراء والعلماء تنشيطاً للعلم والادب ووقعت بينه وبين ملك

القسطنطينية وطلب منه ان يمده بجنود ليرد بهم غارات الصربيين والصقالبة الذين زحفوا على القسطنطينية بقصد اخذها منه فاسعفه بمراده وامده بجنده لكن ملك الصرب مات قبل وصوله اليها وكفى الله المؤمنين القتال وكانت هذه النجدة هي السبب الاول في توليد رغبة العثمانيين في فتح القسطنطينية وما وراءها من اقاليم الافرنج (اوروبا) ١٤

وشرح ذلك ان العساكر الاسلامية العثمانية وقوادهم لما وصلوا في هذه المدة الى القسطنطينية كان مما استفادوه ضعف ملكها وانحلال دولته وسهولة الاستيلاء عليها فشرع السلطان اورخان في تجهيز الجنود سراً لاجتياز البحر الضيق واحتلال بعض اماكن يتخذونها مركزاً لتتميم مقاصدهم عند الامكان ففي سنة ٧٥٦ انتدب السلطان لهذا الغرض اكبر اولاده سليمان المذكور وهو وزيره الاكبر فسار بجيش مؤلف من ثلاثين الف عسكري حتى انتهى الى بوغاز الدردنيل فاختار اربعين رجلا من ابطال جيشه واجتاز بهم الضفة في ظلام الليل فلما وصلوا الى الضفة الاخرى ساقوا جميع ما بها من القوارب وعادوا بها الى عسكرهم فعبر الجيش كله ليلاً الى هذه الضفة وافتتحوا مينا ومرفأ تزنب وهي اول مينا اوروباوية ملكها العثمانيون . ثم افتتحوا مدينة غاليبولي وكان من امارات التوفيق ان اسوارها كانت متهدمة بالزلازل فلم يكن في فتحها عظيم مشقة . ثم افتتحوا رودستو وغيرها من المدن المحيطة بالقسطنطينية العظمى . وفي سنة ٧٥٨ مات سليمان ولي عهد السلطنة وانتقلت الى اخيه مراد خان والوزارة الكبرى الى خير الدين باشا المدعو قره خليل وقد اشرنا اليه . وفي سنة ٧٦٠ مات السلطان اورخان عن احدى وثمانين سنة قضى منها خمساً وثلاثين في السلطنة والفتوحات وتمهيد الملك وتنظيم شؤونها ودفن كسلفه في بورصة . وبويع بعده ولي عهده السلطان مراد خان الاول وكان صاحب انقرة وهو ملك القرمان واسمه علاء الدين لم يزل مستقلا ببلاده معادياً لآل عثمان . فانتهز موت اورخان وتولية ولده فرصة لاغراء الامراء المستقلين على التحالف والقيام على السلطان مراد حتى يقضوا على سلطانه الآخذ في

التقدم والانتشار . فكانت فاتحة اعمال السلطان مراد ازاء هذا التحالف ان هجم بجيوشه على علاء الدين في عقر داره وافتتح عاصمة انقرة عنوة ، ووقع الصلح بينهما على ان يبقى له ماعداها من املاكه . ولتوكيد عرى الالفة والوداد بينهما تزوج مراد بنت علاء الدين . وفي سنة ٧٦١ فتحت مدينة ادرنة في الاقليم الاوروبي بواسطة القائد البكلربك لاله شاهين . ولما لهذه المدينة من حسن الموقع والاهمية في مستقبل الفتوحات نقل اليها السلطان مراد كرسي ملكه ، ولم تزل كذلك الى ان فتحت مدينة القسطنطينية . وفي سنة ٧٦٢ فتحوا مدينة فلبه قاعدة بلاد الروملي الشرقية ، وافتتح القائد افرنيوس بك مدينة واردار وكملجنة . فاصبحت القسطنطينية مسورة من الجهة الاوروبية بالاملاك العثمانية مفصولة من الممالك المسيحية بعيدة عن صريخهم ونجدتهم ، واصبحت الدولة العثمانية مجاورة لامارة الصرب والبلغار ؛ وامارة البسانيا الارناؤوط .

وضاق ذرع هذه الامارات (التي تتشكل منها جزيرة البلقان تقريباً) فاستغاثوا بالبابا رئيسهم الديني وهو اوربانوس الخامس ان يستصرخ لهم ملوك اوروبا الغربية ويحمل المسيحيين على مساعدتهم لحرب المسلمين وارجاعهم من حيث اتوا خوفاً من امتداد فتوحاتهم الى ما وراء جبال البلقان واقنعوه بأنهم اذا تجاوزوا تلك المضايق الوعرة فمن المستحيل رد تيارهم وهناك الويل للامم المسيحية عموماً . فاهتم البابا المسألة واستشعر ذلك الخطر من الوجهة الدينية وتقدم الى ملوك اوروبا خصوصاً والامم المسيحية عموماً يأمرهم بمحاربة المسلمين ويقنعهم بوجوبها حفظاً للدين ودفاعاً عن حياضه وحوزته . وقبل ان يتم شيء من ذلك تعجل ملك الصرب واستعان ببعض مجاوريه من فرسان المجر وامير بوسنه والهرسك وزحف بهم على مدينة ادرنه منتهزين اشتغال السلطان مراد بالفتوحات في بقية الممالك الرومية فرصة لنيل مرغوبهم وانتهى خبر زحفهم الى الجنود المرابطة بالقرب من ادرنة فقابلوهم على شاطىء نهر مارتيزا او كبسوهم في ليلة مظلمة واوقعوا بهم وقيعة شنعاء وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً وكان

ذلك في سنة ٧٦٦ ولما اكمل السلطان مراد مقاصده في الديار الرومية وافتتح مدينة بيجا القريب من بورصة وغيرها من المدن وجدد العهود مع المسالمين من الملوك المستقلين رجع الى مقر سلطنته ادرنه ليتعهد شؤونها ويصلح خللها بنفسه ويريح علل الجنود

شأن الرجل الحكيم الذي يفتح المالك لا يتركها خراباً ولينتقم من اهلها بضرب الذله والمسكنة عليهم بل ليصلحها ويقيم قسطاس العدل بين اهلها حتى اصبحوا له عضداً وتصبح نتائج اعماله له مدداً . وبعد خيبة ملك الصرب في الواقعة المارة الذكر استولى الرعب على جميع نظرائه من الامراء المجاورين وجنحوا للسلم والمهادنة مع المسلمين في سنة ٧٦٥ اي قبل الواقعة بقليل اوفد امير راجوزة رسلاً على السلطان مراد وعقدوا معه معاقدة سلمية والتزموا بدفع جزية سنوية تبلغ خمسماية دوك ذهباً . وهذه أول معاهدة وقعت بين الدولة العثمانية والدول المسيحية . وفي سنة ٧٧٩ تحالف امير الصرب وامير البلغار على حرب العثمانيين ولكنهما بعد محاربات خفيفة تيقنا عجزهما عن ذلك وجنحا للسلم فعقدا مع السلطان مراد صلحاً والتزما بدفع سنوية معينة وتزوج السلطان مراد بنت ملك البلغار ولما توفي البكاربك لاله شاهين فتح ادرنه خلفه في وظيفته من القيادة ديمور طاش باشا والى هذا الوزير ينسب تنظيم الخيالة العثمانية (سيباه) على النظام المعروف الى اليوم مع ما دخله من التغيير والاصلاح . وهو الذي قرر جعل الاعلام العثمانية حمراء اللون وبها القمر وهو شعارها الى اليوم .

واقطع اولئك الخيالة جزء معلوماً منا لارض المفتوحة يزرعها صاحبها الاصلي مسلما كان او ذمياً ويدفع قسطا كالخراج في كل سنة للجندي صاحب الاقطاع واشترط على الجندي ان يقيم بداره وقت السلم ويتجهز للحرب عند الاقتضاء على نفقة نفسه ويجهز من فواضل ذلك الاقطاع جنديا آخر وكانت هذه الاقطاعات لايرثها الا الذكور من الاعقاب لصلاحيتهم للجنديه واذا مات الجندي عن غير ذكر يرجع الاقطاع الى الحكومة وهي تقطعها الى جندي

آخر بنفس الشروط ولا يخفى ما في هذا القانون من الفائدة لاصحاب الاملاك بصون املاكهم عن ان تكون عرضة للمطامع المختلفة وللجندي بتعيين عطائه وعدم تكليفه الحكومة بشيء وللحكومة باستراحتها من نفقات الجنود وما يحدث من التشويش في تولي ذلك بنفسها . غير ان هذا كله انما يوافق روح ذلك العصر فقط نظراً لعدم وجود الكذب والحيل مع الصدق بالامانة من قبل الضباط والجند بخلاف اخلاق هذا العصر

ولما كان بعض امراء المالك الرومية (باسيا الصغرى) لم يزل مستقلا وعلم السلطان مراد ضرورة وجود حليف لدولته منهم يستعين به عند الحاجة زوج ولده بايزيد يلدرم بنت امير قرمان فاعطاها ابوها مدينة كوتاهيه بمثابة مهر لابنته على عادة الافرنج وفي اول سنة ٧٨٥ ابتدأت الفتوحات العثمانية وعادت الى سيرتها فالزم السلطان امير اقليم الحميد بالتنازل له عن بلاده وزحف ديمورطاش باشا على الصرب والبلغار لتاخرهما عن دفع الجزية والخراج المتفق عليه ، وفتح في زحفه مدائن مناستر وبرلبه واستيب ومدينة صوفيا بعد ان حاصروها ثلاث سنوات وبعدها فتح ديمورطاش مدينة سلانيك

وفي هذه الآونة تمرد صاروجي احد اولاد السلطان على والده بالتحزب مع بعض اولاد ملوك الروم فأرسل والده عليه وعلى احزابه جيشاً فظفر به وقتله وجميع من معه وطلب من ملك الروم ان يقتل ولده الخارج عليه ففقأ عينيه ونفاه . ثم مات القائد خير الدين باشا الشهير وفرح بموته اعداء الدولة ومجاوروها ما كان عليهم من شدة وطأته وظنوا أن موته ثلمة لا تسد فاتحد امير القرمان علاء الدين صهر السلطان مراد مع بعض الامراء المستقلين وأجمعوا على محاربة السلطان وابتدأوا بوقائع خفيفة فأرسل عليهم السلطان ديمورطاش باشا فظهر عليهم وقهرهم في سهل قونية وأسر علاء الدين فشفعت فيه بنته فأبقى له املاكه واكتفى منه بدفع الجزية . وفي ايام اشتغال القائد ديمورطاش بالحروب في ارض الروم انتهز الصرب هذه الفرصة وهاجموا العساكر العثمانية الموجودة على الحدود المتاخمة لمملكتهم وانتصروا عليهم اولاً . وكان ملك

البلغار ينوي الانضمام لجيوش الصرب ففاجئهم الوزير علي باشا وشتت كل جيوش البلغار واحتل مدينتي ترموه وشوملة والجأ ملك البلغار الى الفرار الى نيكوبلي فاحتمى بها وجمع فلول جيشه المنهزم داخل المدينة وعاود الكرة على العثمانيين فهاجم مهاجمة مستميت فانهزمت جيوشه هزيمة شنعاء لم تقم له بعدها قائمة ووقع ملكهم اسيرا فانتزع السلطان منه نصف ممالكه وابقى له النصف الآخر ومن عليه بابقائه حيا ورتب له جراية خاصة تليق بمقامه

وهذه شيم الملوك الممتازين بالاخلاق العالية ولما علم ملك الصرب بانكسار رفيقه ملك البلغار خشي ان يتم عليه ماتم على صاحبه فرام التحيز بجيوشه الى امراء البانيا ليكونوا له ردءاً فكان السلطان مراد له بالمرصاد وحال بينه وبين مايشتهي بارسال الجيوش في اثره حتى تلاقى هو وجيوشه في سهل قوصوه سنة ١٣٨٩ م والتحم الجيشان ودرت رحى الحرب . لم يرو التاريخ لتلك العصور مثلها ابدى فيها الفريقان من غرائب الشجاعة مالا يوصف ومات فيها منهما مالايحصى واخيرا فر صهر الملك الصربي بعشرة آلاف فارس من جيشه وانضم الى المسلمين فدارت الدائرة على الصربين واخذ منهم السيف كل مأخذ ووقع مليكهم اسيرا وقتله المسلمون . وبهذه الوقعة التي لم تزل حديث المؤرخين في اوروبا طويت صحيفة المملكة الصربية وانتظمت في ممالك العثمانيين مشتراة بالثمن كمملكة البلغار والروملي والاناضول وقضي على استقلال الكل

ولما تمت الوقعة على الصفة التي ذكرناها خرج السلطان مراد نفسه يمشي بين صفوف القتلى للتفرج . اذ قام من بينهم جندي صربي لم تزل حيا وطعن السلطان بخنجر طعنة كان فيها حتفه بعد قليل وما تناوشت سيوف الانكشارية ذلك القاتل ولكن بعد ان قضى وطره ومات السلطان شهيدا في النصف من شعبان سنة ٧٩١ عن ٦٥ عام قضي منها ثلاثين سنة في الملك وفتح الممالك وتجهيز الجيوش وقد علت مافتحه رحمه الله

❀❀❀

السلطان بايزيد الاول

تولى بعده السلطان بايزيد اكبر اولاده باتفاق اهل الحل والعقد على ذلك وكان له اخ صغير اسمه يعقوب اشتهر بالشجاعة وعلو الهمة وطار صيته بذلك فخاف العقلاء من شقه للعصا ادلالا بتلك الاخلاق التي عرفت عنه واعتماداً على كون السلطان اورخان بويع بعد ابيه مع وجود اخيه الاكبر علاء الدين كما تقدم فوقع اتفاقهم على قتله لهذا النوع ويدعي مؤرخو الافرنج ان قتله كان مستنداً على فتوى شرعيه افتى بها علماء ذلك العصر منعا للفتنة استناداً على قوله تعالى (والفتنة اشد من القتل)

واول اعمال هذا السلطان ان ولى (اسطفان) ابن ملك الصرب حاكماً على المملكة الصربية وتزوج باخته واجاز له ان يحكم بلاده بمقتضي عوائدهم وقوانينهم بشرط ان يدفع جزية سنوية معينة وان يقدم عدداً من جيشه برسم الاعانة للسلطان عند الحرب مع اعدائه وانما فعل ذلك ولم يضم بلاد الصرب الى املاك الدولة العثمانية تسكينا لخاطر الصربين واستئلافا لهم حتى لايبقوا منبعاً للتشويش وحجر عثرة في سبيله لما عرفوا به من الشهامة وحب الاستقلال ولما استراح السلطان من هذه الناحية بما دبره وجه وجهه الى جهة آسيا ففتح مدينة (الاشهر) وهي آخر مدينة بقيت للروم فيها وسالمه امير آيدين فخلى سبيله وعاش مطمئنا في مدينة خارجة عن السلطنة العثمانية وفر اميرا منتشه وصاروخان واحتميا بامير قسطموني فضم السلطان ولايتهما لمملكه وتنازل امير القرمان علاء الدين عن نصف املاكه للسلطان ليؤمنه على الباقي

وبعد هذه الفتوحات الباردة عاد السلطان الى اوروبا وحارب (مانويل باليوج) ملك الروم وحاصره في القسطنطينية ثم ترك جيشاً عظيماً لتضيق الحصار عليها ونهض السلطان ببعض الجيش لمحاربة ملك الفلاخ احدى الامارات البلقانية فقهره واكرهه على الاقرار بسيادة الدولة العثمانية على جميع

بلاده ويدفع الجزية لها سنويا مع بقائه ملكا على بلاده يحكمها بعوائد وقوانين اهلها فتم ذلك كله

وفي مدة اشتغال السلطان بمحاربة الفلاخ انتقض علاء الدين امير القرمان وجهز الجيوش بمساعدة بعض مجاوريه لاسترجاع ماكان سلبه للدولة من ممالكه فانتصر على ديمورطاش باشا واخذه اسيراً وزحف على مدينة انقره وبلغ السلطان ذلك كله فاقلع عن الفلاخ الى آسيا حتى التقى بعلاء الدين في موضع يقال له (آق جاى) فهزمه السلطان واسره . وولديه محمد علي واعلن الحاق مابقي من املاكه بممالك الدولة العثمانية ثم افتتح بعدها مدينتي سيواس وتوقات ولم يبق من امارات الطوائف التي قامت على اطلال الدولة السلجوقية الا ولاية قسطوني ولهذا السبب هاجر اليها كثير من اولاد الامراء الذين فتحت بلادهم فكان هذا ايضا باعثاً للسلطان بايزيد على غزوها وافتتاحها وذلك انفذ الى اميرها يطلب منه تسليم اولاد اصحاب آيدين وصاروخان فامتنع من تسليمهم فتوجه اليه السلطان بنفسه واغار على بلاده وفتح مدائنه مثل سامسون وجانك وعثمانجك وبها انقرضت جميع الامارات الكثيرة من الاناضول ودخلت كلها في حوزة آل عثمان وفي ظل لوائهم كل هذا والحصار مستمر على القسطنطينية وفي اثناء ذلك قتل السلطان امير البلغار واعلن ضم مملكته نهائيا الى ممالكه واسلم ابنه ولما علم ملك المجر اذ ذاك (وهو سجسمون) بما تم على البلغار خشى الغائلة على نفسه اذ صارت مملكته ملاحقة للعثمانيين من عدة جهات فاستنجد بملوك اوروبا وساعده البابا واشهر حربا دينية على المسلمين لكي يستفز حمية المسيحيين ويثير عواطفهم ضدهم فاجاب نداءه بعض ملوك فرانسا وارسل ولده وجيشاً مؤلفا من ستة آلاف محارب من اشراف فرنسا وانضم اليه حين مروره بالمجر امراء بافاريا واوستيريا وكثير من الالمانيين وطائفة من رهبنة القديس ولما اجتاز هذا الجيش نهر الدانوب عسكر حول مدينة نيكوبلي لمحاصرتها فسار اليهم السلطان بنفسه يقود مائتي الف مقاتل ومعه كثير من متطوعة الصرب بقيادة اميرهم اسطفن وفاء بالشرط المتقدم

عليهم وشبت نار الحرب بين الفريقين وبعد وقائع هائلة انتصر العثمانيون على تلك الجيوش واسروا كثيرا من اشراف فرانسا ومن جملتهم الكونت دينفر فقتلوا اغلبهم واطلقوا سراح الكونت وجماعته في مقابل فدية بعد ماأقسم الكونت يمينا على ان لايعود لمحاربة العثمانيين . يحكي ان السلطان قال له بعد اليمين اجيز لك ان تحنث في هذا اليمين وانت في حل من الرجوع لمحاربتي اذ لاشيء احب الي من محاربة جميع مسيحيي اوروبا والانتصار عليهم وبعد ذلك شدد الحصار على القسطنطينية واشرف على فتحها لولا مافاجأه من اغارة تيمورلنك المغولي للممالك الرومية ولذلك ابرم الصلح مع صاحبها على شروط منها دفع الجزية وان يبيح للسلمين بناء جامع يقيمون فيه شعائر دينهم وان تقام لهم محكمة شرعية لفصل قضاياهم على مقتضى دينهم على يد حكام مسلمين وانصرف السلطان لحرب تيمور ودفعه عن بلاده

اما منشأ تيمورلنك واوليته فقد علمتها فيما سبق من الكلام على دمشق في دولة الجراكسة واما سبب اغارته على الممالك العثمانية فان امير بغداد والعراق التجأ الى السلطان بايزيد حين استولى تيمور على بغداد فطلب تيمور ان يسلمه له فامتنع السلطان من ذلك وابى فاغار تيمور بجيوشه الجرارة على بلاد آسيا الصغرى واحتل مدينة سيوس من مدن ارمينيا واسر ابن ارطغرل ثم قتله . فجمع السلطان جيوشه والتقى بجيوش تيمور في سهل انقرة سنة ٨٠٤ ودارت رحى الحرب بينهم فابلى السلطان فيها البلاء الحسن . ولكن ضعف جيشه بفرار اهالي ايدين ومنتشا وصاروخان وكرميان . والتحاقهم بتيمور تحزباً الى اولاد امرائهم الاصليين الموجودين في معيته . ولم يثبت مع السلطان الا عشرة الاف انكشاري وعساكر الصرب فحارب بهم حتى وقع اسيراً في يد اعدائه وفر اولاده سليمان ومحمد وعيسى وفقد ولده مصطفى . ولما صار في قبضة تيمور لم يعامله كعادته مع الملوك بل اكرم مثواه وبالغ في بره مع المحافظة وتشديد المراقبة . ويقال انه حاول الفرار ثلاث مرات وفطن له تيمور ومع ذلك لم يقتله وانما وضعه في تخت مشبك بشبابيك حديدية حتى

مات في سنة ٨٠٥ واذن تيمور لولده موسى بنقل جثته الى بورصة ودفنه مع اسلافه مع بقاء موسى في الاسر . وبموت السلطان بايزيد تجزأت الممالك العثمانية وانتشر نظامها . فاعاد تيمور الاعرج ممالك قسطموني وصاروخان وكرميان وايدين ومنتشا وقرمان الى امرائها واعقابهم الذين كانوا في ركابه . واستقلت ممالك البلغار والصرب والفلاخ ولم يبق تحت الراية العثمانية الا القليل من ممالكها . ومما زاد في الخطر والاعضال على هذه الدولة عدم اتفاق اولاد السلطان بايزيد على اقامة اخيهم الاكبر . فادعى كل منهم الاحقية بالسلطنة لنفسه والخلاف اصل كل شر . فاستبد سليمان وجنوده بمدينة ادرنة وبايعه الجنود سلطاناً . وتحالف مع ملك الروم وتنازل له عن مدينة سلانيك وسواحل البحر الاسود ليستظهر به على اخوته

وكان محمد بن بايزيد يحارب جيوش تيمور (بعد فكاكه من اسرهم) في جبال الاناضول فاستخلص منهم مدينة توقات واماسيه ودعا لنفسه بهما

اما عيسى فلما بلغه خبر موت والده في الاسر جمع ما معه من الجند بمدينة بورصة حيث كان مختفياً بعد وقعة انقره ودعا لنفسه علناً بمساعدة القائد ديمورطاش باشا

ومما يؤسف له ان كل واحد من هؤلاء الاخوة استنجد تيمور الاعرج مخرب دولتهم وهادم مجدهم وقاتل ابيهم وكان يقبل وفودهم بكل ارتياح ويحث كل واحد على الثبات في المطالبة ويبين له انه احق من اخوته وهي دسيسة يقصد من ورائها اهلاكهم بعضهم ببعض حتى يصفو له الجو ويبتلع ممالكهم لقمة باردة لكن خاب قصده وطاش حجره وسهمه فان محمد احارب اخاه عيسى وهزمه وقتله ولم يبق له منازع بآسيا الصغرى واستخلص اخاه موسى من امير كرميان وقلده جيشاً وارسله لمحاربة اخيه سليمان بادرنة فلم يقو عليه وعاد مهزوماً الى آسيا ثم عاود الكرة بجيش آخر الى اوروبا وقتل اخاه سليمان خارج سور ادرنة ثم اغار على بلاد الصرب انتقاما منهم لخروجهم عن الطاعة ثم زحف على ملك المجر لمعارضته له ولما انتصر موسى في هذه

الوقائع نفخ فيه حب الرياسة وتجاهر بعصيان اخيه وولي نعمته السلطان محمد واستبد بملك ادرنه وتوابعها وحاصر القسطنطينية ليفتحها لنفسه فاستغاث صاحبها بالسلطان محمد فلباه مسرعاً وحارب اخاه حتى رفع الحصار عنها وتحالف السلطان محمد مع ملكها ومع امير الصرب وبثوا الدسائس في جيش موسى حتى فر منه اغلب قواده وانحل امره واوقعه القدر في قبضة اخيه السلطان محمد فقتله سنة ٨١٦ وعوقب بما كسبت يداه وصفا الملك



السلطان محمد جلبي الاول بن بايزيد

فانفرد بما بقي لآل عثمان من الممالك وهو خامس سلاطينهم . بناء على عدم اعتبار اخوته الخارجين لعدم طول مدتهم وتغلم الامير لهم وكانت مدة سلطنته كلها حروب داخلية لارجاع الممالك التي ضاعت وخرجت عن المملكة العثمانية بعد موت السلطان بايزيد وتفرق اولاده كما علمت وقد وفقه الله لارجاع غالبها . وكان من اكبر ما ساعده على ذلك تمسكه بالمحالفة والولاء لجاره ملك القسطنطينية . ولو لا ذلك لخاب امله ورجاؤه وانفصمت عرى دولته فرد له المدن التي فتحها اخوه موسى واقلع عن المطامع التي كانت الشغل الشاغل لاسلافه وهي فتح القسطنطينية . وبذلك استمر الوئام بينهما . وائتمن كل من صاحبه .

ومن الحوادث المهمة في عهد هذا السلطان ظهور رجل من اكابر العلماء شهير ببدر الدين كان قاضياً في جند الامير موسى اخي السلطان الذي قتله . وكان بعد انهزام صاحبه مقيماً في مدينة ازنيق . فانتحل لنفسه مذهباً ودعا الناس اليه وسرعان ما انتشر في تلك النواحي وقلده الكثيرون . ومبنى هذا المذهب على المساواة في الاموال كما هو مذهب الاشتراكيين في زماننا . واعتبار الناس كلهم اخوة من غير نظر الى دين ولا معتقد وهو مذهب جمعية الماسون

في زماننا . وهذان الاسلان هما سبب رواج هذا المذهب بين الناس واتباعهم لصاحبه بين مسلمين ومسيحيين . ولما افتتن الناس بهذا المذهب بما يلقيه دعاته وأشياعه . خاف السلطان محمد من تفاقم ضرره فارسل جيشاً بأمرة سليمان ابن امير البلغار الذي اسلم قبلاً لمحاربة اشياع بدر الدين فلم يفلح وظهر عليه اميرهم فقتله

ثم ارسل السلطان وزيره بايزيد باشا بجند عظيم لمحاربة ذلك الامير فالتقيا بالقرب من ازمير . ووقع ذلك الامير اسيراً فقتله الوزير وقتل الكثير من اتباعه واتباع الشيخ .

ثم قبض على امام المذهب الشيخ بدر الدين في بلاد مقدونيه بعد حروب وشاق سنة ٨٢٠ . وخمدت نار فتنته ومحي مذهبه

ومن الحوادث المهمة ايضاً ظهور الامير مصطفى خامس اولاد السلطان بايزيد الذي وقع في واقعة انقره مع تيمور التي اسر فيها ابوه واخوته . فلم يظهر الا في هذه السنة اعني التي قتل فيها الشيخ بدر الدين وطلب اخاه محمد بالملك وانضم اليه جماعة من الرؤساء وانجده امير الفلاخ بجنود يستعين بها على مقاتلة اخيه سعياً وراء ايجاد الفتن في داخلية الممالك العثمانية . فاغار الامير مصطفى بتلك الجنود على اقليم تساليا من بلاد اليونان . ثم ادرك من نفسه الضعف عن مكافحة جنود اخيه فالتجأ الى مدينة سلانيك وهي في يد الروم اذ استرجعوها بعد موت السلطان بايزيد فطلب السلطان محمد من اميرها ان يسلم اليه اخاه فامتنع والتزم ان لا يمكنه من الخروج ما دام السلطان حياً فقبل السلطان ذلك ورتب لاخيه جراية شهرية لمعيشته . وانقطعت آثار الفتن وصرف نظره الى الحروب والفتوح متتبعاً اسباب تلك القلاقل والمشاغبات حتى لا يعود مثلها . وكان محباً لنشر العلوم والمعارف معظماً للاشراف والعلماء . وهو اول سلطان عثماني أهدى الى امير مكة والحجاز الهدية السنوية المعروفة لعصرنا هذا باسم الصرة الهمايونية ليوزعها على فقراء الحرمين مع الخلع الثمينة والعطايا الوافرة اليه وله حكايات في الحكم كثيرة

شهيرة مات سنة ٨٢٤ ودفن بادرنه . وعهد قبل موته لابنه مراد وكان غائباً باماسيا . فاتفق الوزيران ابراهيم باشا وبايزيد باشا على كتمان موت السلطان حتى يحضروا ولده خشية من وقوع شيء وخيم العاقبة من الجند فاشاعا مرض السلطان وارسلا سراً لولده .



السلطان مراد خان الثاني

فحضر وبويع بالسلطنة واستلم مقاليد المملكة بعد شهر ونصف من موت والده وكان عمره اذ ذاك ثمان عشرة سنة وافتتح اعماله بعقد الهدنة مع امير القرمان من جهة وابرم صلح مع ملك المجر لمدة خمس سنوات حتى يتفرغ لتوطيد شؤونه الداخلية وارجاع المياه الى مجاريها واخضاع الثائرين والمخالفين ولكن لم يتم له ما امله من ذلك فان ملك الروم وجد الفرصة سانحة فطلب من السلطان مراد ان يعاهده على ان لا يحاربه ابداً وطلب اثنين من اخوته توثقاً منه بذلك حتى يكون مجبوراً على الوفاء بالعهد وتهدده ان هو لم يفعل فلم يقبل السلطان مراد بهذه الشروط فلم يكن من ملك الروم الا ان اخرج الامير مصطفى من اعتقاله واغراه بمنازعة السلطان ولد اخيه في الملك وامده بعشرة مراكب حربية فأتى وحاصر مدينة غاليبولي واستلمها الا قلعتها فترك بها حامية وتوجه بجنده الى مدينة ادرنه وخرج الوزير بايزيد باشا لمدافعته ولما تراءى الجمعان تمكن الامير مصطفى من الوصول الى عساكر ابن اخيه واقنعهم بانه ليس قصده الافساد وتفريق كلمة المسلمين وانه احرص الناس على حقن دمائهم ولكنه طالب حق شرعي هو اولى به من ابن اخيه . فوجد لكلامه اذناً واعية من الاجناد وبذلوا له طاعتهم واعطوه صفقة يمينهم وقتلوا قائدهم الوزير استدلالاً على وفائهم بالطاعة . فسار بهم مع جيوشه لمنازلة ابن اخيه المتحصن بالقرب من ادرنه فتخاذل قواده وافضى الامر الى المجاهرة

بالعصيان . فاضطر الامير مصطفى الى الرجوع على ادراجه الى غاليبولي وهناك تم تغيير الدست وأسلمه اتباعه الى ابن اخيه فقتله

ثم اراد السلطان مراد الانتقام من ملك الروم على ما اجترم من اطلاق الامير مصطفى فسار اليه بجنوده وحاصر مدينة القسطنطينية في رمضان سنة ٨٣٠ ولم يتهيأ له فتحها فأفرج عنها . وخرج اخ له صغير يسمى مصطفى باغراء جماعة من امراء الاناضول ولم يلبث ان وقع في يد السلطان فقتله ورؤوس اشيائه وانقضت الفتنة ووقع الرعب في قلب كل من كانت تحدثه نفسه بشيء . فتنازل امير قسطموني عن نصف املاكه للسلطان مراد وزوجه ابنته اظهاراً للاخلاص والولاء . ثم خرج قرهجنيد عن الطاعة واستولى على مدينة آيدين فانتدب لحربه حمزه بك وهو اخو الوزير بايزيد باشا . فاسره وقتله خنقاً واستراح الناس من شره . وليست هذه اول مره خان فيها قرهجنيد الخارجي وشق العصا ولكن هذه اول مرة لقي فيها حتفه واستوفى جزاء ما كسبت يداه

وقد اعاد السلطان مراد ولايات آيدين وصاروخان ومنتشا وغيرها من الولايات التي اعاد اليها تيمورلنك استقلالها وكذلك استرجع بلاد القرمان بعد ان قتل اميرها وعين ولده اميراً عليها . وفي سنة ٨٣١ توفي امير كرميان عن غير عقب واوصى بما كان تحت نفوذه من املاكه للسلطان مراد وبذلك تم استرجاع ما ضاع من جميع الممالك بآسيا الصغرى للدولة العثمانية . وتصدى السلطان بكليته الى جهات اوروبا فزحف على مدينة المجر واستولى على قراها وعلى مدينه كولمباز الواقعة على شاطىء نهر الدانوب الايمن والزم ملك المجر بالتخلي عن جميع الممالك الواقعة على هذا الشاطئ حتى يكون ذلك النهر فاصلا بين المملكتين . ولما تم ذلك الزم امير الصرب بدفع جزية سنوية قدرها خمسون الف دوكا ذهباً وبالمساعدة بعساكره كما كان سابقاً وان يقطع علائق الاتحاد مع ملك المجر وشروط اخرى منها التخلي عن بلدة كروشيفانس لتكون حصناً في وسط بلاده للجنود العثمانية . وفي سنة ٨٣٣ افتتح مدينة سلانيك : ثم سمت همته الى فتح مدينه البانيا فافتتح بعضها عنوة وبعضها صلحاً

مشترطاً لاهلها على نفسه عدم التعرض الى اديانهم وتقاليدهم . وبقي ما بين حرب يثيرها وثغر يسدده وخارج يخضعه وحصار يحضره وصلح تقتضيه المصلحة العامة يبرمه . الى سنة ٨٤٨ حيث مات اكبر اولاده علاء الدين فتأثر السلطان من فقده واضطر بعامل الانفعال الى التنازل عن الملك لولده محمد وعمره اذ ذاك اربع عشرة سنة وانقطع هو بمدينة ايدين منعزلاً عن الناس بعيداً عن شواغل الملك

لكنه لم يلبث ان ازعجه خبر نقض ملك المجر لمعاهدة التي بينهما واغارته على بلاد البلغار . معتمداً في ذلك على قول الكردينال بان نقض العهود مع المسلمين لاحرج فيه ولا تأثيم ولا يلزم الحنث في اليمين به . فاضطر السلطان للقيام بالامر بنفسه من عزلته . فاستنفر الجند وقصد بهم جهة العدو الغادر . فالتقيا على مدينة وارنة واشتبكت الحرب وكانت عاقبته انتصار المسلمين على تلك الجموع وقتل الكردينال الزعيم الديني مثير هذه الحرب وكانت النصرة في رجب سنة ٨٤٨ . وبعده عاد السلطان الى مقر عزلته وخلوة انفراده . ولم يلبث ان حدثت فتنة سببها ازدراء الانكشارية بملكهم الجديد فساءوا ونهبوا مدينة ادرنة . فنهض اليهم السلطان بنفسه من عزلته واخمد الفتنة واطفأ الثائرة وفكر في طريقة تحول بينهم وبين الرجوع الى مثلها فلم يجد الا الاشغال بهم في المعامل ليكون لهم فيها شغل عن التمرد الذي لاينشأ غالباً الا عن الفراغ . فجهزهم واغار بهم على بلاد اليونان وساعده على ذلك تجزئة ملك الروم ممالكه بين بنيه : فنال اقليم موره ولده قسطنطين . ولما علم بقصد السلطان لبلاده حصن برزخ كورنته فلم يغن عنه ذلك شيئاً . فقد هدمت المدافع العثمانية من سورها ثلمة دخل منها الجنود وتم الفتح . ويقال ان هذه اول مرة حارب فيها العثمانيون بالمدافع . ولم يتسن للسلطان فتح بلاد موره كلها لتشويش بعض امراء البانيا عليه باثارة الفتن فاكتفى بضرب الجزية على اهلها . ولما اطفأ تلك الفتن واخمدها بالصلح مع مثيرها اسكندر بك التتري المشهور في تاريخ العثمانيين عزم على مراجعة غزو مورة وغيرها فعاجلته

ثانية ومات بمدينة ادرنة في محرم سنة ٨٥٥ ونقلت جثته الى مدينة بورصة رحمه الله .

* * *

السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية

وتولى بعده ابنه محمد الفاتح فاستلم زمام المملكة ولم يكن آسيا الصغرى جزءاً خارجاً عن سلطانه الا جزءاً من بلاد القرمان ومدينة سينوب ومملكة طرابزون الاوربية واما في اوربا فان القسطنطينية منطقة وحدها واقليم موره مجزأ بين البنادقة وعدة امراء من الروم والافرنج وبلاد الارناؤوط في ملك اسكندر بك المذكور ومملكة البوشناق (بوسنه) مستقلة وجزيرة البلقان تحت سلطة الدولة العثمانية ما خلا الصرب فانهم يعطونه شبه استقلال . هذه حالة الممالك وقت ولاية هذا السلطان فما كاد يدفن والده حتى امر بقتل اخ له صغير اسمه احمد وبارجاع زوجة والده (مارا) بنت ملك الصرب الى والدها . ثم اخذ يستعد لفتح ما بقي من جزيرة البلقان وفتح القسطنطينية حتى تتصل ممالكه الاوربية بممالكه الاسيوية . وقبل الاقدام على محاصرة القسطنطينية اراد ان يحصن بوغاز البوسفور حتى لا يأتي منها مدد من مملكة طرابزون فاقام قلعة على شاطىء البوغاز من الجهة الاوربية (روملي حصار) مقابلة للقلعة التي اقامها السلطان بايزيد يلدرم على جهة الاناضول . ولما بلغ ذلك ملك الروم ارسل الى السلطان يعرض عليه دفع الجزية التي يحكم عليه بها فرد طلبه وبقي يترصد سبباً معقولاً للحرب ولم يلبث ان وقع بين بعض جنوده وبين بعض اهالي القرى الرومية شجار افضى الى قتل عدد من الفريقين فاتخذ السلطان هذا الحادث وان كان واهياً سبباً لاشهار الحرب وحاصر المدينة المعظمة من جهة البر بجيش مؤلف من مائتين وخمسين الف مقاتل ومن جهة البحر اسطول مؤلف من مائة وثمانين سفينة حربية . وكان

الحصار في ابريل سنة ١٤٥٣ ميلادية واقام حول المدينة اربع عشرة بطارية لرمي المدافع الكبيرة . وكانت تقذف كرات ولما رأى ملكها قسطنطين هذه الاستعدادات العظيمة هاله الامر فاستنجد بملوك اوروبا فانجده اهل جنوه منهم بعمارة بحرية تحت امرة جوستيناني قائدهم البحري المشهور . فارادت تلك العمارة الولوج في المضيق فعارضتها العمارة العثمانية واشتعلت بينهما حرب هائلة في سنة ٨٥٧ هجرية انتصر فيها جوستيناني على العثمانيين فرفع له المحصورون السلاسل الحديدية الممدود بها فوهة المضيق البحري وعبر بمراكبه الى ميناء القسطنطينية ، ثم اعادوا السلاسل كما كانت وبعد ذلك دبر السلطان تلك الحيلة الغريبة انه امر بتمهيد طريق على طول ستة اميال يبتدىء من البحر وينتهي الى مرفأ السفن من مينا المدينة ومدت الاخشاب المنحوتة على كل تلك المسافة وطليت بالزيت ليسهل التدحرج عليها ووضعت عليها السفن ودحرجت الى المحل المقصود فتمكن من انزال سبعين سفينة في ليلة واحدة . ولم يبق لتلك السلاسل من فائدة . ولما اصبح الصباح ورأى أهل المدينة السفن راسية سقط في ايديهم ورأوا انهم غلبوا ومع ذلك فلم تخمد عزائمهم وصمموا على الدفاع حتى يموتوا عن آخرهم . وفي الخامس عشر من جمادى الاولى سنة ٨٥٧ ارسل السلطان محمد الى ملك الروم يتعهد له بالمحافظة على حرمته وحرية الاهلين واديانهم وشعائرهم واموالهم ويعطيه مع ذلك جزيرة موره ان هو سلم له المدينة . فلم يقبل قسطنطين بذلك وآثر الموت على تسليم المدينة فامر السلطان محمد جنوده بالاستعداد للهجوم في ذلك الشهر ووعدهم باقطاعات جزيلة . فباتوا والفتح امام اعينهم ولما انبثق فجر ذلك اليوم هجم مائة وخمسون الف مقاتل وتسلقوا الاسوار حتى دخلوا المدينة من كل فج وحكموا السيف فيمن عارضهم من الاهلين . ودخلوا كنيسة صوفيا والبطريرك والمصلون فيها ويذكران الروم يعتقدون ان حائط الكنيسة انشق ودخل في وسطه البطريرك والصور المقدسة وان الحائط نفسه سينشق يوم يخرج المسلمون من هذه المدينة ، ويخرج ذلك البطريرك فيتم صلاته التي قطعوها عليه يوم دخولهم

وهذه من الخرافات المنسجة على عقول البسطاء وهي اشبه باعتقاد فرقة من البسطاء في الحاكم بامر الله والمهدي بن تومرت رئيس الموحدين والعسكري عند الشيعة وهي اعتقادات سخيفة ولدها الجهل ولم تزل آثار الكثير منها الى الآن حتى في بعض العوام والفرق الجاهلة . وقد ارخ بعضهم هذا الفتح العزيز بقوله (بلدة طيبة) فجاءت سنة ٨٥٨ هـ .

ومن ذلك اليوم سميت المدينة اسلامبول اي تخت الاسلام او مدينة الاسلام وقاتل قسطنطين حتى مات مدافعا

ولما هو معلوم من حسن موقعها وبديع مناظرها انتقل اليها كرسي السلطنة العثمانية واستقر بها الى الآن . وهذه المحاصرة التي فتحت فيها القسطنطينية هي المرة الحادية عشرة التي حوصرت فيها منذ ظهر الاسلام حوصرت في خلافة علي بن ابي طالب سنة ٣٤ وحاصرها يزيد بن ابي سفيان سنة ٤٧ ثم حاصرها سفيان بن اوس في خلافة معاوية سنة ٥٢ وحاصرها مسلمة بن عبد الملك في زمن سليمان بن عبد الملك وحوصرت ايضا في خلافة هشام سنة ١٢١ وحاصرها احد قواد الخليفة هارون الرشيد العباسي وحاصرها في زمن خلافته من الخلفاء والملوك الى عهد هذا الفتح

ولم يدخل السلطان المدينة الا عند الظهر فوجد الايدي عائثة في النهب والسلب فأمر ان لا يؤذي احد في نفسه ولا في ماله فانتهوا عن ذلك في الحال ثم امر ان يؤذن في كنيسة صوفيا واقيمت فيها الصلاة واعتبرت مسجدا من ذلك اليوم المبارك

وبعد تمام الفتح اعلن في كافة انحاء المدينة ان لا يعارض مسيحي في اقامة شعائر دينه وان دماءهم واموالهم محفوظة وان نصف الكنائس لهم يقيمون فيها عباداتهم والنصف الآخر يحول مساجد للمسلمين ثم جمع علماء النصارى واباح لهم ان يختاروا لهم بطريركا يرضونه فاختاروا جورج سكولاريوس وامضى له السلطان هذه الرئاسة واحتفل به وخصص له برسم الحراسة طائفة من العساكر الانكشارية وخوله حق الحكم في القضايا الاجتماعية والسياسية على

مقتضى دينهم وعقد معه مجلساً مؤلفاً من اكابر علماء الكنائس الرومية وفرض الجزية على السكان واستثنى منها علماء الدين وبعد ان رتب هذه الاصول التي وقعت موقع الاستحسان من اهل المدينة وجميع الطوايف الرومية ورمم ماتهدم من اسوار المدينة وحصنها رحل بفاضل عسكره قاصدا موره فبادره اميرها اخو قسطنطين بعرض الجزية عليه دون قتال ولا نضال وقدر تلك الجزية اثنا عشر الف دوكا ذهباً فقبلها منهم وحول وجهته الى بلاد الصرب فعارضه القائد المجري هونياد الشجاع الشهير ورد مقدمة جيشه فلم يرق للصرب مرافقة المجريين لمخالفتهم في المذاهب لأن المجر كاثوليكيون تحت سلطة البابا والصرب ارثودكسيون خارجون عن طاعته فكانوا يفضلون سلطة المسلمين عليهم حيث لم يمسوا امور ديانتهم بشيء ولا يسوءه على دخولهم تحت حماية المجر وتقلدهم منة مساعدتهم ولذلك جنح اميرهم لمصالحة السلطان على جزية معلومة

ثم بعد سنة اعاد الكرة عليهم وجيز معه خمسين الف مقاتل وتوغل بهم في ارض الصرب الى ان انتهى الى بلغراد عاصمتهم اليوم وحاصرها من جهتي البر والبحر وكان هونياد المجري سبقه الى المدينة وتحصن بها ودافع عنها مدافعة صادقة حتى ايس السلطان من فتحها فافرج عنها واصيب هونياد المذكور بجراحات في بعض تلك الوقائع كانت سبب موته واستراح العثمانيون من شره وكيده وعد فقده بمثابة الفتح

ولما علم موته السلطان ارسل محمود باشا الوزير الاكبر فاتم فتح البلاد الصربية وبذلك انتظمت في سلك الممالك العثمانية بعد ان لبثت موضع انتقاض وموطن حروب احقاباً عديدة

ثم فتح السلطان مدينة كورنته وغيرها من بلاد اليونان وضرب الجزية على امير اقليم موره ثم فتح جزائر تاسوس وانبروس وغيرها من جزائر البحر الرومي

ثم عقد السلطان صلحاً مع اسكندر بك زعيم البانيا وراس الفتن فيها

واقطعه اقليم البانيا وابروس ثم حول افكاره الى ممالك آسيا الصغرى لاتمام فتح ما بقي منها فنازل اولا ميناء اماستريس المركز التجاري ولكون هم اصحابها مقصورا على التجارة لايهمهم ماوراءه متى كانت اموالهم محفوظة . ففتحوا ابواب المدينة ودخلها العثمانيون من غير حرب

ثم ارسل السلطان الى امير سنبوب يطلب منه تسليم المدينة ووجه من يحاصر المدينة بحرا فنزل له الامير عنها واقطعه السلطان اقطاعات مكافأة له على طاعته وخضوعه

ثم توجه بنفسه الى مدينة طرابزون ودخلها بدون كبير قتال وقبض على ملكها وزوجته واولاده وارسلهم اسارى الى اسلامبون ثم جهز جيشاً لمحاربة امير الفلاخ لما ارتكبه من المظالم مع اهل بلاده ومع التجار العثمانيين فبادر هذا الامير بارسال وفد للسلطان يعرض عليه الجزية ويشترط عليه مقابلتها التصديق على المعاهدات التي كانت بينه وبين جده بايزيد فاجابه الى ذلك ثم علم انها مكيدة دبرها ذلك الشيطان ليتمكن من الاتحاد مع امير المجر . فعن للسلطان ان يرسل له رسولين يستوضحان الحقيقة . ولما وصلاه قتلهما قتلة شنيعة واغار على بلاد البلغار التابعة للسلطان وعاث في اطرافها واسر من اهلها خمساً وعشرين الفاً فلم يستعجل السلطان عليه وارسل له يدعوه للانابة واطلاق الاسرى فأساء الى الرسل وآذاهم وبلغ ذلك السلطان فعيل صبره ونادى بالرحيل لمقاتلته فسار معه مائة وخمسون الف مقاتل وطوى المراحل الى بوفارست عاصمة الامير بعد ان هزمه وشتت جيوشه لكنه لم يتمكن من قبضه لفراره الى صاحبه ملك المجر فأعلن الملك عزله وتولية اخيه مكانه واخوه هذا اسمه داوول تربى في ظل اخيه وعاش في نعمته . وكان يثق به وبذلك دخلت بلاد الفلاخ تحت السلطنة العثمانية .

وبعدها حارب السلطان محمد بلاد البوشناق لامتناع اميرها عن دفع الخراج واسره هو وولده وقتلها ودانت بطاعته امارة البوسنة وعلى اثر ذلك اراد ملك المجر ان يستخلصها ففشل واورد معظم جيشه مورد التلف وكانت نتيجة

عمله هذا ان خضعت تلك البلاد كلها للملك العثمانية واعتبرت كايالة من ايالاتها وجند السلطان من اهلها ثلاثين الف شاب واسلم الكثير من اشرافها وهو مبدأ انتشار الدين الاسلامي في تلك الربوع لم يزل الى الآن منتشراً .

ثم كان السلطان الفاتح بعد تلك الحروب الهائلة مع البنادقة على بلاد مورة وتداخل فيها البابا وحاول احياء الحروب الصليبية .

ثم حروبه مع اسكندر بك الالباني ، ثم مع اوزون حسن احد خلفاء تيمورلنك كان النصر في جميعها للسلطان ، ثم فتح اساش بلاد القديم وتوغل في بلاد البنادقة وافتتح جزائر اليونان ومدينة اوترانت الطليانية ، وكان مصمماً على فتح روما (اخت القسطنطينية) وحاصر جزيرة رودس مدة طويلة بدون ان يفتحها ، ولم يزل بين حرب وفتح وسلم وصلح الى ان وافته المنية في الرابع من ربيع الاول سنة ٨٨٦ عن ثلاث وخمسين سنة قضى منها احدى وثلاثين سنة في السلطنة ورصع جيدها بفتح القسطنطينية التي اعيت المتطاول وعزت على المتناول .

وزاد ذلك العقد النفيس بجواهر الممالك مثل طرابزون الرومية والصرب والبوسنه والبانيا وجميع ممالك آسيا الصغرى ولم يبق من بلاد البلقان الا مدينة بلغراد تابعة لمملكة المجر وبعض جزائر تابعة للبنادقة .

وما ذا عسى ان نقول في ترجمة هذا الفاتح العظيم ، وقد سطرت له صحف التاريخ في مطوياتها الذكر الحسن والمآثر الجليلة والمحامد المجيدة ؛ ولعمري لان اطنبوا واسهبوا واعربوا واغربوا في سيرته وتعداد فضائله فما هو الا دون مقداره وما اتوا الا على النزر اليسير من آثاره وناهيك بمن حقق نيات الآباء والجدود واحيا ذكر الخلفاء الراشدين والملوك الفاتحين في صدر الاسلام

وكان رحمه الله يقظاً محنكاً وأديباً محككاً بصيراً بشؤون الحرب كبصره بالسياسة السلمية فهو المؤسس لاغلب النظامات المدنية التي وضعت عليها قواعد هذه الدولة ، وكل من اتى بعده من ملوكها فانما يهتدي بدلالته ويستضيء بذبالته وان حاز بعضهم الشهرة دونه كالسلطان سليمان القانوني وهو اول من اطلق

لهذه الدولة اسم الباب العالي بعد فتح القسطنطينية وجعل مدار الدولة على اربعة اركان وهم : الوزير وقاضي العسكر ووظيفتهما معلومة والدفتر دار وهو عبارة عن خازن بيت المال او وزير المالية في الاصطلاح الجديد والنيشانجي وهو عبارة عن كاتب السر وتتفرع على هذه الوظائف الاربع وظائف اخرى كثيرة هي مجموع ما تتكون منه الدولة برمتها من عسكرية وغيرها

(تنبيه) لم أر من نبه على السر في تخصيص القاضي باضافته الى العسكر مع ان وظيفته اعم وهي وظيفة دينية تشمل سلطتها جميع الناس وله النظر بنوع اخص في احوال القضاة من عزل وتولية وقد لاح لي وقت كتابة هذه الاسطر في تعليل ذلك ما كان يسنح في صدري حين كنت في الاستانة بكونه على وجهين الوجه الاول ان الدولة كانت في ذلك الوقت على اهبة الحرب في جميع الاوقات فهي حكومة عسكرية حربية فغلبت هذه التسمية على هذه الوظيفة تبعاً لاغلب هيئات الحكومة . الوجه الثاني ان العسكر مطلق على الاقليم كما وقع في صدر الاسلام من نسبة الاجناد الى الاقاليم كجند قنسرين وجند حمص . وكذلك فعل هذا السلطان فانه قسم هذه الوظيفة الى قسمين قاضي عسكر الروملي وتشمل سلطته ما وراء القسطنطينية من الممالك الاوربية وقاضي عسكر الاناضول وتمتد على الممالك الرومية وما يتبعها من بلاد الاناضول

وهو اول من وضع قانون العقوبات البدنية على ما يوافق المصلحة فجعل بدل القصاص بقتل الجناية في العمد دية مالية مبنية على التقادير الشرعية في نظيره في حالة الخطأ وانشاء عدة مساجد في القسطنطينية وغيرها وكثيراً من المدارس العلمية الاولية والثانوية حباً في نشر العلم والمعارف ودفن بالمحل الذي اعده لنفسه بالجامع المنسوب اليه الموجود الى اليوم في العاصمة



السلطان بايزيد خان الثاني وما جرى له مع اخيه الامير جم

خلف السلطان محمد الفاتح ولدين اكبرهما بايزيد والثاني جم كانا غائبين عند

وفاته فاراد الانكشارية اخفاء موت السلطان حتى يصل اكبر اولاده بعد ما ارسلوا يستحثونه على الحضور خشية من ان يصل الخبر الى الامير جم فيقع التشويش والاضطراب وكان الصدر الاعظم اذ ذاك قرماني محمد باشا تعلق وميل لهذا الامير الصغير فانهى اليه الخبر سراً ولما علم الانكشارية بما فعله الصدر بايعوا السلطان بايزيد وقتلوا الوزير ونهبوا المدينة . ثم عفى عنهم واجاب مطالبهم واستلم مقاليد الملك

واما اخوه جم فان الرسول الذي ارسل اليه قبض عليه حاكم الاناضول وقتله . ولما وصله الخبر بعد مدة (وكان والياً على قرمان) جمع ما معه من الجنود وسار الى مدينة بورصة فدخلها عنوة ثم ارسل الى اخيه السلطان يعرض عليه الصلح وتقسيم المملكة على ان يكون له ولايات آسيا ولبايزيد ولايات اوربا فلم يجبه السلطان لذلك وساق الجيوش لحربه وهزمه بالقرب من مدينة يكي شهر وتأثره حتى اوصله الى تخوم الممالك الشامية التابعة لمصر ورجع السلطان لدار ملكه وتمادى الامير جم حتى دخل الديار المصرية ونزل ضيفاً عند سلطانها قيتباي احد ملوك الجراكسة فلبث بمصر سنة . ثم رجع الى حلب وراسل احد اعقاب امراء القرمان على انه ان ساعده على التوصل الى ملك آل عثمان فانه يسوغه مملكة القرمان التي كانت لآبائه وأجداده فاغتر ذلك الرجل بذلك الوعد وجمع احزابه وسار مع الامير جم لمحاصرة قونية عاصمة القرمان القديمة فنهم عنها قائدها كدك احمد باشا ثم حاول هذا الامير الصلح مع اخيه السلطان مقتنعاً ببعض اقطاعات يقطعه اياها فأبى السلطان ذلك

ولما آيس الامير جم واعيته الحيل اوفد رسولاً الى رئيس رهبنة القديس حنا الاورشليمي برودس يطلب منه مساعدته على مقاصده فقبل الرئيس بذلك الوافد وطلب حضور الامير جم بنفسه الى الجزيرة فحضر واحتفلوا بقدمه وفرحوا به واكرموا مثواه . ولما علم السلطان بذلك انفذ الى رئيس الرهبنة يطلب منه ابقاء اخيه عنده محفوظاً ويتعهد له مقابل ذلك بعدم التعرض

بالجزيرة بسوء مدة حياته ويدفع له في كل سنة خمسة واربعين الف دوك فرضي الرئيس بذلك ووفى بعهده وطالما تواردت عليه بعد ذلك رسل ملك المجر وامبراطور المانيا يطلبان منه تسليم الامير جم يستخدمانه في نيل مقاصدهما من الدولة العثمانية وتشتيت شمل المسلمين فلم يفعل ولم ينكث عهده مع السلطان بايزيد لان مصلحة بلاده تقتضي ذلك وارسل رئيس الرهبنة الامير جم الى مدينة نيس احدى مدن ايطاليا الغربية بصفة اعتقال وبقي يتنقل من بلدة الى اخرى مدة سبع سنوات ثم سلمه الرئيس الى البابا وهو عرض على السلطان بايزيد ان يدفع له ما كان يدفعه للرئيس في مقابلة الاحتفاظ به وعدم اطلاق سبيله فقبل السلطان ذلك . ثم مات البابا وتبوء كرسي البابوية بعده بورجيا الشهير فطلب من السلطان ان يدفع له مبلغاً من المال ليقتل اخاه جم ويريحه منه .

فحال دون ذلك مهاجمة شارل الثامن ملك فرنسا على البلاد الايطالية ليتخذها طريقاً لفتح القسطنطينية وهي اوهام طالما حدث شارل بها نفسه . ولكن لم يبلغ مناه لان امراء الجهات الواقعة في طريقه كنابولي والبنادقة ادركوا سوء نيته وعلموا انه ان تعاظم شأنه لا يجري في معاملتهم على سنن يرضيهم وان الدولة العثمانية على مخالفتها لهم في الدين اخف وطأة واوفق لمصالحهم لذلك قلبوا لشارل ظهر المجن ونصبوا العراقيل لمقاصده واخبروا السلطان بايزيد الثاني بجميع ما انتهى اليهم من اخباره تزلفاً اليه واستجلاباً لعطفه ومودته فحاصر شارل مدينة رومة والزم البابا بتسليم الامير جم اليه فسلمه مكرهاً وبقي عنده حتى مات ونقل ودفن في بروصة . هذا ويؤثر عن السلطان بايزيد من حبه للسلم وكراهته لاراقة الدماء انه لم تقع في ايامه فتوحات جديدة والحروب التي وقعت في زمنه انما هي مدافعات للمهاجمين او اطفاء للثورات الداخلية ولو كان على قدم اسلافه من حب التوسيع في الفتوحات لكان سهلاً عليه . فتح مدينة بلغراد تنفيذاً لخطة الفاتحين من آل عثمان فانهم كانوا يعتبرون فتح هذه المدينة وضمها الى ممالكهم امراً ضرورياً

ولقد كادت تقع بينه وبين ملوك مصر حرب بسبب المجاورة في الحدود من جهة آدنه وطرسوس فتوسط في الصلح بينهما امير تونس اذا ذاك وهو من اعقاب بني حفص كراهة لوقوع القتال بين المسلمين وفي عهد هذا السلطان ابتدئت العلائق السلطانية السياسية تتصل بين هذه الدولة والدول الافرنجية وكان جميع ملوكهم يجنحون لمسالمتها ويخطبون مودتها فعقد معها ملك روسيا وملك البنادقة وميلانو ونابولي وفلورنا وغيرهم معاهدات سلميه واتفاقات حربية

ثم انتقض ما بينه وبين البنادقه واشتعلت بينهما الحرب وتسبب عن ذلك فتح العثمانيين ثغور مورون وكورون ونامريس وغيرها من البلاد اليونانية المملوكة للبنادقة وخافت مملكة البنادقة من استيعاب العثمانيين لبلادها بالفتح فاستنجدت بملوك اوربا على عادتهم فانجدها البابا وملك فرنسا بنجدة لم تغن عنها ولا عنهم شيئاً وعلى أثر ذلك فتح العثمانيون جزيرة روستو ولو لا ما راع السلطان من خروج اولاده عن طاعته لاستأصل مملكتي البنادقة والمجر معاً لكن ذلك الاضطراب الداخلي المريع فل من حده واوقفه عند حده .

وصورته ان للسلطان بايزيد عدة اولاد ذكور مات اكثرهم وعاش له ثلاثة كركود الذي اقام الانكشارية نائباً عنه عند افضاء السلطنة اليه واحمد وسليم وكانوا على تباين في المشارب والمميزات فكان الاول مشتغلا في العلوم والاداب وجلسائه العلماء والادباء ولذلك انحرفت عنه نفوس الاجناد وحملة السيوف وكان الثاني متخلقاً بالاخلاق الملوكية وبطانته الوجهاء والاعيان وكان الثالث وهو سليم متفانياً في محبة الحرب واهله واقفاً على طرقه وقوانينه فكان محبوباً للجند عموماً وللانكشارية خصوصاً ولهذا التباين الموجود بينهم في المشارب والآراء كان والدهم يخشى من وقوع الشقاق بينهم فعمد الى التفريق بينهم واشتغال كل واحد بوظيفته فعقد للاكبر على ولاية بعيدة عن اخويه ملائمة لذوقه وعين احمد على ايالة اماسه وسليما على امارة طرابزون وولى سليمان ابن ابنه سليم على بعض جهات القرم فلم ترق لسليم تلك الولاية ورأها دون قدره . فارسل الى والده يطلب منه توليته في احدى الممالك الاوربية ، فلم

يقبل والده ذلك فتجاهر بالعصيان وحشد جيشاً من قبل التتر وزحف بهم على بلاد الروملي وحشد والده جيشا عليه بقصد ارهابه لعله يرعوي ويراجع بصيرته ولما رأى من الجد والتصميم عينه والياً على مدينتي سمندرية وودين من بلاد البلغار حقناً للدماء واشفاقاً من عواقب الحادثة فكان في عمله هذا تجرئة للامير كركود فانه لما علم بنجاح اخيه سليم في عصيانه تجاهر ايضاً هو بالعصيان ومد يده الى مدينة صارو خان فاستلم زمام ولايتها من غير اذن من ابيه ولا علم .

ثم ان الامير سليم لم يقف عند ذلك الحد ولم يقنع بتلك الولاية بل انتقل الى ادرنه ودعا لنفسه بها علناً فارسل له والده جيشاً واخرجه منها قهراً وجهز جيشاً آخر لمحاربة اخيه كركود واتسع الخرق على الراقع .

ولما كان للامير سليم مكانة عظيمة في قلوب الانكشارية دبروا نصبه سلطاناً فطلبوا اولا من والده العفو والرضى عنه فاجابهم . ثم ارسلوا في طلبه واتوا به والزموا والده بالتنازل له عن السلطنة فاجابهم مكرها وتنازل له عنها وبعد ذلك بايام خرج من العاصمة للاستيطان بمدينة ديمرتيقا فمات في الطريق سنة ٩١٨ واستلم زمام الملك ولده سليم .

لم تتسع الفتوحات في ايام بايزيد وكان مشتغلا بالمدافعة على الحدود والاصلاح في الداخل وادهى ما دهاه مسئلة اولاده وحادثتهم المذكورة التي لولا ما داخل قلوب اعداء هذه الدولة من الرعب منها لكانت سببا في تمزيقها وتفريقها إذ لا فرصة للعدو الا الشقاق الداخلي .



السلطان سليم فاتح مصر والشام والبلاد العربية

واول خليفة من آل عثمان تولى امر المسلمين على بسيطة الارض

تقدم ذكر سبب توليته وان امره انما تم بسعي الانكشارية لدى ابيه في التنازل ولم يكن قيامهم في ذلك والحاحهم في السعي فيه مبنياً على مصلحة

الدولة العثمانية يتوخونها من ورائه واتخذ ذلك للوصول الى مشارب ذاتية لم تزل من اعظم المضار الى هذا اليوم على الدولة واكبر الاسباب في نكباتها .

وان اتى على يد السلطان سليم اعمال رفعت من شأن الدولة وزادت في مجدها ورسوخها فليس ذلك من ملحوظات هذه الفئة الضالة في نصبه وانما هو (حاصل غير مقصود) ولما استقر على سرير السلطنة وهدء باله بموت والده وجه اهتمامه الى استئصال اخوته واولادهم وكل من يقف في سبيله فعقد لولده سليمان واليا على مدينة القسطنطينية وجهز الجيوش لمحاربة اخوته وما مضت عليه سنة الا وقطع دابرهم وقتلهم عن آخرهم ولم يبق له منازع من بني ابيه .

وبعد ان استراح من هذه الجهة عقد مع جميع مجاوريه من الملوك مهادنات وعهوداً سلمية لمدة طويلة وكان مقصوده من ذلك التفرغ لمحاربة الدولة العجمية التي كانت تزاحمه والتي كانت آخذة في التقدم والرقي في عهد سلطانها المعاصر له وهو الشاه اسماعيل مؤسس الدولة الصفوية وهو الذي فتح خرسان والعراق العربي بما فيه بغداد دار السلام عاصمة العباسيين وهو الذي كان مساعداً للامير احمد بن بايزيد على ابيه ثم على اخيه السلطان سليم المذكور . وكان يسعى لعقد حلف بينه وبين سلطان مصر الغوري ليكونوا يداً واحدة على آل عثمان .

ولما استعد السلطان سليم لمناجزته اراد ان يظهر باكورة اعماله انتقامه في طائفة الشيعة فيقال انه امر باحصاء الموجودين منهم في ممالكه فكانوا نحو اربعين الفا فامر باخراجهم وقيل انه امر بقتلهم والله اعلم بصحة هذا الخبر وهذه الحادثة هي من اكبر الخطايا التي ترتكبها سلطة الفرد واستبداده بدون ربط الملك بمجلس تشريعي يستمد منه الرأي السديد وهي من اقبح سيئات هذا السلطان مهما كان لها من المسوغات السياسية !! في نظر الاسلام .

بعد ذلك اعلن السلطان سليم الحرب على الشاه وسار من مدينة ادرنه بجيوشه المتكاثفة في محرم سنة ٩٢٠ قاصداً مدينة تبريز عاصمة الدولة الايرانية

ولما التقى الجمعان كانت الجيوش الفارسية تتقهقر عمداً امام الجيوش العثمانية وغرضهم من ذلك انهاك قواهم بالتعب والرحيل حتى اذا اخذ منهم الضعف مأخذه نقضوا عليهم وانقلبوا ولم يزل ذلك دأبهم الى احواز مدينة تبريز وهناك حمي وطيس الحرب بين الفريقين في رجب من السنة المذكورة وكان النصر للجيوش العثمانية ففر الشاه ببعض جنوده ووقع الكثير منهم ومن قوادهم في الاسر ودخل السلطان المدينة فاتحاً واستولى على خزائن الشاه وذخائره وحملها الى العاصمة واصطفى من صناعها الحذاق المشهورين اربعين رجلا ارسلهم الى القسطنطينية ايضاً لينشروا فيها صنائعهم التي اشتهروا فيها ولما استراح بضعة ايام من عناء الحرب خرج بجملة جيوشه مقتفيا أثر الشاه واخلى المدينة لعدم وجود المئونة الكافية لهم فيها ولما وصل الى نهر (الرس) امتنع الانكشارية من التقدم لشدة البرد وعدم وجود الملابس الواقية منه فانقلب السلطان بهم راجعا الى بلاد الاناضول ليمضي فصل الشتاء ويستجم جيوشه ثم يعاود الحرب في الزمن المناسب ولما اقبل الربيع رجع السلطان الى البلاد الايرانية فافتتح قلعة كوماش ومملكة ذي القدر ثم رجع الى القسطنطينية وعهد لجماعة من قواده باتمام فتح البلاد الفارسية وفي رجعته هذه امر بقتل جماعة من زعماء الانكشارية الذين كانوا سببا في تثبيط عزائم الجيش عن الغزو في في الشتاء وابطل بعض تقاليدهم الموجبة لبقاء سلطتهم واستبدادهم .

وفتح بعده القواد الذين اشرنا اليهم مدائن ماردين واورفه الرها والرقة والموصل فتم بذلك فتح اقليم ديار بكر وخضعت قبائل الاكراد لطاعة السلطان سليم اختيارا بشرط ابقائهم تحت حكم رؤسائهم وبقيت هذه العادة مرعية عند سلاطين آل عثمان . الى عهدة عبدالحميد الثاني . ولما انتهى السلطان سليم من هذه الغاية التي احرزها طبقا لمرغوبه وزيادة .

شرع في الاستعداد لمحاربة سلطان مصر . الذي كان حليفا لشاه فارس وهو اذ ذاك قانصوه الغوري آخر ملوك الجراكسة بمصر .

ولما علم قانصوه الغوري باستعداد السلطان سليم لغزوه خاف وخامة العاقبة

وارسل للسلطان يعرض عليه عزمه على التوسط في الصلح بينه وبين شاه العجم وله في ذلك مقصد وهو الاطلاع على ما عند السلطان فيما يتعلق به فما كان جواب السلطان سليم الا رد الرسول ورفض مطلوب مرسله وتجهيز الجيوش لمحاربته فاستعد الغوري لمدافعته والتقى الجيشان في مرج دابق بالقرب من مدينة حلب ودارت رحى الحرب بينهما فانتصر العثمانيون بسبب تخاذل امراء المماليك واختلال مصافهم وقتل السلطان قانصوه في وسط الجولة وسنه ثمانون سنة وكانت هذه الوقعة يوم الاحد الخامس والعشرين من رجب سنة ٩٢٢ وبعدها تمهدت السبل لاحتلال العثمانيين مدائن حماه وحمص ودمشق .

وعين السلطان سليم حكام وولاة من جهته بجميعها واجتمع بعلمائها واعيانها واشرافها واغدق عليهم من اكرامه وانعامه ودعوا له جميعهم بالنصر ودوام الملك وتيمن به الناس واستمرئوا مرعاه ومرعى دولته وتفقد ما بها من المساجد والمعابد بالترميم والاصلاح وصلى اول جمعة بدمشق في الجامع الاموي فلقبه خطيبه ذلك بخادم الحرمين الشريفين وهي باقية في الخطب الى الآن ومن المؤرخين من يذكر ان اول من لقبه بهذا اللقب خطيب جامع زكريا في حلب وهي اول جمعة صلاها بها . وان السلطان خلع عليه حلته التي كان يلبسها وقيمتها خمسون الف درهم وبكا بكاء شديداً وسجد لله شكراً واول من لقبه بالدعاء بامير المؤمنين الامير فخر الدين بن معن حين حضر الامراء بين يديه وقد احببنا ان نثبته بالحرف وهو اللهم ادم على الدوام من اخترته لملكك وجعلته خليفة عهدك وسلطته على عبادك وارضك وقلدته بسنتك وفرضك ناصر الشريعة النبوة الغراء وقائد الامة الطاهرة الظاهرة سيدنا وولي نعمتنا امير المؤمنين الامام العادل من ملك الملك بالعقل والتدقيق ومده الله بالاقبال والتوفيق اعاننا الله بالدعاء لدوام دولته بالسعد والتخليد بانعم العز والتمهيد

هذا ولما بلغ خبر موت قانصوه ملك مصر الى مصر نصب المماليك ولده طومان باي عوضاً عنه . وارسل اليه السلطان سليم يعرض عليه الصلح بشرط اعترافه بسيادة الدولة العثمانية على مصر والدعاء في الجمعة له فلم يقبل طومان باي

واستعد لمحاربته عند الحدود . فالتقت مقدمتا الجيشين عند التخوم فانهزمت مقدمة عسكر المماليك وفتح العثمانيون مدينة غزة وتقدموا نحو القاهرة بلا معارض . ورتب السلطان سليم مصافه بالقرب منها في اواخر ذي الحجة سنة ٩٢٢ بالمحل المعروف بالخانكة . وفي التاسع والعشرين منه ابتدأ القتال بين الفريقين ودارت رحاه . وصدقت جيوش المماليك في النزال واظهر اميرهم طومان باي شجاعة تذكر في تلك المواقف . حتى انه في بعض الايام هجم شرذمة من فرسانه على مقدمة جيش العثمانيين فاجلوها وخالطوا القلب حيث مركز السلطان وقتلوا من حوله خلقاً كثيراً واسروا وزيره وقتله طومان باي بيده ظناً انه السلطان سليم . غير ان الشجاعة وصدق اللقاء لم يغنيا شيئاً عن المماليك فقد دخلت عليهم الجيوش للقاهرة من اقطارها في الثامن من محرم سنة ٩٢٣ عنوة وقتل في هذه الحروب من جيش المماليك والاهالي مايقرب من خمسين الف نسمة . وفر طومان باي الى بر الجيزة وبقي يناوش العثمانيين القتال وما ظفر باحد منهم الا وقتله . ولم يلبث ان وقع في ايدي السلطان سليم بخديعة بعض بطانته فقتله شنقاً في الحادي والعشرين من ربيع الاول في السنة المذكورة بباب زويلة وبه انقرضت دولة المماليك الجراكسة وتقلص ظلها عن الممالك المصرية والشامية .

ومما يستلمح من غرائب الاتفاق المبنية على استخراج الفال من القرآن الكريم ان العلامة الامام ابن كمال باشا الشهير كان ممن اصطفاهم السلطان سليم لمجالسته وكتمان سره ومشاورته وكان كثيراً مايفضي اليه بهواجسه النفسانية وامانيه في فتح مصر وضمها الى املاكه . فقال له ابن كمال باشا في بعض الليالي وقد تجاذبا اطراف الحديث في هذا الصدد : ان فتح مصر يكون على يدك لا محالة ولي على ذلك دليل من كلام الله . فاستغرب السلطان منه ذلك وصادف هوى في نفسه فسأله الكشف عن حقيقة هذا الكلام وعن مأخذ ذلك من الكتاب العزيز . فقال له ان الله يقول : ولقد كتبنا في الزبور من

بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون . فنطوق هذه الآية الكريمة اخبار بما كتبه وقدره في سابق علمه . وجمهور المفسرين واصحاب التأويل على ان المراد من الارض في هـذه الآية ارض مصر من باب اطلاق الكل على الجزء . وكثيراً ماذكرت الارض في القرآن الكريم مراداً منها مصر ولا ريب عندنا في انك من الصالحين المستحقين لارثها بالملك فقـد اقمت ميزان العدل ونصرت الدين المبين . ثم ان مجموع حروف الآية بحساب الجمل هو تاريخ هذه السنة يكون فتحها فيها . فاستلطف السلطان له هـذه النادرة وانعقد قلبه على تصديق مضمونها واراد ان يكتسب من الامام المذكورمستنداً شرعياً يسوغ له التحرش بها . فقال له هـذا مما لايبعد ولكن كيف يجوز لنا قتال اصحابها وهم مسلمون . ففكر الامام ابن كمال باشا قليلا ولم يلبث ان استطاله من الهواء حيلة من جنس ما كان يتقرب به العلماء الى الملوك والامراء . فقال له ان تستند على سبب شرعي فالخطب سهل وذلك بان تنفذ الى صاحب مصر انك عازم على الحج في هـذه السنة ومستصحب معك جيشك على عادة الملوك ومتخـذ طريقك على مصر لقرب الطريق بين البحرين وسهولة الاتصال والامن . ولا ريب انه يمنعك من ذلك ويوجس خيفة من وطئ ملك مثلك في عظمته بجيوشه الكثيرة لارض مصر واجتيازه بها ويظن بك الظنون وربما حملك على الكيد والمكر . وعلى الاقل يحملك على انك تقصد الاطلاع على عوراته . فاذا منعك يكون من الذين يصـدون عن سبيل الله واوجد السبيل على نفسه بذلك وقام الدليل على جواز حربه . وان فعل ورضي بعبورك على بلاده حججت ولن تعـدم في وجهتك حادثة تكون ذريعة لبلوغ مأربك . فيقال ان السلطان طار مسروراً بهـذه الاشارة واعتدّ بها من قربات ابن كمال باشا وسعى في تتميمها على ملازمة الشيخ ابن كمال وكان الامر كما ذكر . وبعد ان فتح الله عليه مصر اقام بها اياماً قضاها في زيارة المساجد والمعابد والاجتماع بالعلماء والاقباط والوجوه واشراف البلاد واعيانها . وصدف حضوره الاحتفال بخروج الحج المصري مع محمله

فارسل الهدايا المعتاد ارسالها من سلاطين ال عثمان الى امير مكة وسكان الحرمين الشريفين .

واجتمع في هذه المرة بآخر خلفاء بني العباس بعصر الخليفة امير المؤمنين محمد المتوكل على الله فيقال انه تنازل عن حقه في الخلافة الى السلطان سليم وسلمه الآثار النبوية الشريفة المتوارثة بين خلفائهم عن خلفاء بني امية عن الخلفاء الراشدين وهي الراية المحمدية والسيف والبردة وسلمه ايضاً مفاتيح الحرمين الشريفين المشروطين لهذه الخلافة الاسلامية ؛ فمن ذلك الحين انتقلت الخلافة من بني العباس الى آل عثمان .

وقد كثر لغط الناس في هذه المسئلة واختلفت ارائهم فيها لاختلاف مشاربهم واغراضهم . والذي نراه ان الحق في هذه المسئلة بعد قطع النظر على حديث (الخلافة في قريش) كما حققه ابن خلدون وغيره من فهمه على معنى اشتراط القوة والعصبية او اعتباره مقيداً بشرطه وهو قوله : ما اقاموا الدين ، انه ليس المقصود من الخلافة ذات الخليفة او رجلا معيناً من اسرة مخصوصة يسمى بهذا الاسم ويتبرك به او يرثها كالعقار . وانما المقصود منها ثمراتها التي هي القوة لحماية البيضة الاسلامية ونفاذ الاوامر الدينية والنواهي وحمل الكافة على اتباع منهج واحد وقانون واحد ينطبق على مصالحهم في دينهم ودنياهم مع حفظ كيانهم . واذا فقدت هذه الثمرات فلا معنى للخلافة ولا فائدة للمسلمين في الخليفة . وقد اهتم علماء الدين مثل ابي حنيفة واضرابه من اشتراط اقامة الجمعة وبعض من امور الدين لاذن الخليفة وانه لابد لوجودها في العالم الاسلامي .

بحث العلامة التمرتاشي في كتابه معين المفتي في مطلب الامامة بحثاً طويلا عرفها بقوله : استحقاق تصرف عام على المسلمين . وعرفها في المواقف بانها خلافة الرسول في اقامة الدين وحفظ حوزة الملة الاسلامية بحيث يجب اتباعه على كافة الامة . وعرفها في المقاصد انها رآسة عامة في الدين والدنيا وانها خلافة عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وبهذا القيد خرجت النبوة . وبقيد

العموم خرج مثل القضاء والامارة في بعض النواحي . واما نصب الامام فهو واجب على الامة الاسلامية عندنا وينبغي ان يكون ظاهراً لا مخفياً ولا منتظراً خلافاً للروافض . ثم قال عند ختام كلامه لهذا البحث قوله : وما نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على امامة احــد بعده اذ لو نص لاشتهر ذلك . لكن الصحابة اجمعوا على خلافة الصديق استدلالاً بامر الصلاة ثم على عمر ثم على عثمان لقوله عليه الصلاة والسلام : اقتدوا بالذين من بعدي . فلو انكر احد خلافتهما يكفر . ثم على الامام علي المرتضى وعلى هــذا ترتيبهم في الفضيلة . وقد قال صلى الله عليه وسلم : الخلافة ثلاثون سنة . وقد تمت بعلي كرم الله وجهه . انتهى كلامه بالحرف .

ثم الخلافة العباسية قد علم الناس حالها وما آلت اليه بعد ايام ابناء الرشيد ثم تدرجها في الانحطاط الى انقراضها ببغداد ثم نشأتها الثانية بمصر واستبداد الامراء من المماليك بثمرتها دون من يسمونه خليفة حتى جاء السلطان سليم وانتزع الكل من يد الكل . وكان مضطلعاً بأعبائها . ناهضاً بالقيام بشرائطها حافظاً لها جامعاً لكلمة المسلمين . فلا فرق عند المنصف بين ان يكون الخليفة الصوري . متنازلاً له عن ذلك المنصب او عن تلك الوظيفة الوهمية أو لم يتنازل . غاية الامر ان السلطان سليم متغلب والذي عليه المحققون من علماء المتكلمين في هذه المسألة التي ادمجوها في مباحث علمهم ان الخلافة الشرعية قد تكون بالتغلب ولو من غير اجماع اهل الحل والعقد اذا كان المتغلب كفؤاً لها وقال غيرهم التحقيق ان مدة الخلافة الشرعية هي مدة الثلاثين سنة من خلافة الصديق الى نهاية خلافة الحسن السبط عند ما تنازل لمعاوية عنها الا الخلافة المدنية التي بها ينتظم شمل الاحكام وتقام على اسمها الجمع والحج وبقية الشعائر الاسلامية العامة على نحو ما اوضحناه لك فيما سبق .

والدليل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام الخلافة ثلاثون سنة ثم يكون ملكاً عضوداً . وقوله ايضاً الخلافة بالمدينة والملك بالشام . وقول سعد بن ابي وقاص حينما دخل على معاوية بعد ما تنازل له الحسن عن ولاية الامر . السلام

عليك ايها الملك فقال له معاوية ما منعك ان تسلم علي بالخلافة فقال له است من الخلفاء وانما انت من الملوك محتجاً له بما تقدم

فلولا قانون السياسة وميزان العدالة لم يقدر مصل على صلاته ولا عالم على نشر علمه او حاج او تاجر على سفره ولله در عبدالله بن المبارك حيث قال :

لو لا الخلافة ما قامت لنا سبل وكان اضعفنا نهباً لاقوانا

وقد رتب هذا الخليفة العثماني لشؤون مصر في هذه المرة تراتيب وقوانين لولاة امورها وحكامها ربما كانت تخالف قوانينه في غيرها من البلاد وانما راعى فيها الانسب بحالها في ذلك الوقت وحطب له بهما

ثم سافر منها الى دمشق راجعاً الى القسطنطينية واستصحب معه آخر خلفاء بني العباس . ووصل السلطان سليم الى دمشق في ٢٢ رمضان سنة ٩٢٣ وحضر اول جمعة اقيمت بالجامع الذي امر ببنائه وتشييده في المرة الاولى حين فتح دمشق على قبر الامام الحجة شيخ الاولياء محي الدين بن العربي الحاتمي الطائي الاندلسي المدفون بصالحية دمشق حسب تبشيره بذلك في كتبه الجفرية . وخرج منها في ٢٤ صفر سنة ٩٢٤ ويؤيد ذلك ما نقله بعض المؤرخين انه استقر بدمشق اربعة اشهر واقام بحلب نحو شهرين ثم توجه للقسطنطينية وكان مكرماً معزاً للخليفة العباسي في جميع سفره الى ان توفاه الله هناك .

وانتظمت جميع الممالك العربية في سلك مملكته الواسعة ولسان حاله يقول انا لنرجو فوق ذلك مظهرا . وكان عازماً بعدها على فتح جزيرة رودس ولكن قرب الاجل لم يمهله فمات وهو بحالة استعداد لذلك في التاسع من شوال سنة ٩٢٦ عن احدى وخمسين سنة منها تسع سنين في السلطنة . وكانت ايامه كايام جده محمد الفاتح ايام حروب وفتوحات وتنظيم غيرانه كان ميالاً لسفك الدماء قتل عدة من وزرائه لاسباب واهية وهفوات يكفي فيها العتاب . ومع ذلك كان ذا دين متين في عبادته قائماً بالفرائض اتم قيام محباً للصالحين مكرماً لهم معتقداً فيهم مقرباً للعلماء يشاورهم في اموره الشرعية ويصدر عن آرائهم في

النوازل حريصاً على نشر العلم . وكانت الديار الرومية في عهده منبع علم نبغ فيها في كل فن فحول العلماء صاروا قدوة لمن بعدهم .

وكان هذا السلطان نابغة ملوك آل عثمان في التكلم بلسان العربي الذي انزل فيه القرآن والاطلاع على آدابه واسراره . ومن مداركه المستحسنة وبعد نظره في سعادة البلاد والدولة استحسن ان يكون لسانها الرسمي هو العربي الفصيح ليكون هو الجامع لكلمة المسلمين مع الخلافة والعضد الاقوى لكن ويا للاسف قصر مدة خلافته منعته عن نوال هذه الامنية التي لو حصلت لكانت المانع الاكبر لما وقع من الخلاف في هذا العصر من دسائس اعداء الاسلام بين العرب والترك قال خلوصي بك احد ولاة دمشق وهو من المفكرين المنصفين من الاتراك انه لو طبقت فكرة السلطان سليم لما ذهبت منا بعض المدن العربية ولا هدد كيان هذه الدولة بانسلاخ بقية البلاد العربية ولكن لامر يريده الله حصلت هذه الغلطة التاريخية بعدم مجاراة فكر هذا السلطان على فكرته .

وقد بنى بمدينة القسطنطينية وغيرها من المدن الكبيرة عدة مساجد ووقف عليها اوقافاً كثيرة خصوصاً في دمشق الشام . ومن اعماله المبرورة التي لم يزل اهلها وفلاحوا دمشق يذكرونها فيذكرونه بخير تقسيم مياه الأنهر السبعة على جميع القرى والمزارع والبساتين بصورة جمعت بين العدل والانتظام كما سيأتي معنا عند ذكر ذلك في محله .

هذه خلاصة تاريخ الدولة من منشئها الى هذا السلطان الذي دانت له جميع البلاد العربية وانتظمت في عداد ممالكه وانقطعت منها تلك الجراثيم المتسلطة عليها التي خربت منها اضعاف ما عمر وتركتها نهبة للايدي العادية ونهزة للنفوس الطامعة . ولعمري والحق ابلج ان السلطان سليم الذي هو أول خليفة للمسلمين من آل عثمان لم يجمع شمل الامة العربية فقط بل جمع شمل الاسلام ولم شعثه باستيلائه على الاقطار العربية التي هي منبعه ومنبته

واذ وصلنا الى هذا الحد واستوفينا الغرض الذي لاجله سقنا هذا الحديث

كما بيناه في طالعة هذا الفصل وانتهينا الى هذه النقطة ولم يكن الاسترسال في تاريخ هذه الدولة من مقاصد كتابنا هذا

وانما ألممنا بما ذكرناه من أوليتها تمهيداً للبحث عن حال دمشق السياسية في عهد هذه الدولة المتصلة بعصرنا هذا . وانتهينا الى النقطة التي هي مبدأ تلك الحال . فلنرجع الى المقصود بالذات ونتجافى عن الخوض في تاريخ الدولة العثمانية العمومي وفتوحاتها الا ما يأتي معنا بطريق العرض مما تجره المناسبات

فنقول ان السلطان سليم استلم دمشق وهي بحالة تداعت الى الخراب مما انتابها من الحوادث واعتورها من التقلبات في اخريات الدولة الايوبية وفي عهد المماليك ومماليكهم ؛ وكانت خاتمة مصائبها وأم دواهيها حادثة تيمورلنك الذي تقدم تفصيلها . ولم تكد جروحها تلتئم وعمرانها يتراجع قليلا حتى فاجئتها هذا الفتح الجديد وانتقلت من مملكة مختلة انهكتها الفوضى واودى بها الاستبداد الى مملكة اشد بأساً وأوفى أصلاً والطول فرعاً وامتن اساساً .

غير انها لم يقدر لها في هذا الانقلاب ان تفوز بالحظ الذي زايلها منذ قرون وهو سبب سعادة نظائرها من المدن الا وهو صيرورتها مقر خلافته ومركز سيادة عالية . بل تخطاها هذا الشرف وفازت دونها القسطنطينية بالحظوة به ولم تكن دمشق مدفوعة عن ذلك بنقص جمال او فقد بواعث بل الدواعي لذلك متوفرة ونصيبها من المحاسن موفور كما ان اختيار آل عثمان لمدينة القسطنطينية من لدن فتحها قاعدة لملكهم لم يكن لمجرد التشهي او التشفي او التقليد بل هو مبني على حكمة عريقة في السداد ومقاصد ترمي الى الخطة التي رسموها من التوسع في فتح الممالك الافرنجية وأهمية القسطنطينية من هذه الجهة لا تنكر

لم يكن في وسع السلطان سليم مع شغفه بالاصلاح ان يقف بالمدن التي افتتحها وفي مقدمتها دمشق في المستوى التي تستحقه من التنظيم وتقرير الاحوال لضيق الوقت واستشراف نفسه وطموح همته الى الفتح وهما (الفتح والتنظيم الداخلي) مقصدان ساميان متنازعان قل ان تقوى همة ملك على الجمع

بينهما لما يستدعيانه من كثرة الوسائل ومع اشتغال السلطان سليم بالاول وتقديمه له لم يكن ليهمل الثاني بالكلية بل رسم اثناء اقامته في دمشق خطة للاصلاح ترمي الى منافع جمة وكذلك فعل بغيرها وتقدم الى عماله بالعمل بها وتتميمها . وكانت له في الأصول العمرانية انظار صائبة غير انه ابتلي بما ابتلي به اسلافه من قبله واخلافه من بعده الا قليلا من عدم مراعاة الاوفق لطبائع الاقاليم ومميزاتها وسوقهم الناس بعصا واحدة غفلتهم عن هذا السر العظيم او تعمدهم لاهماله وعدم اعتباره هو الداء الدفين الذي لم يزل سبب انحطاط دولتهم في شؤونها السياسية والعمرانية الذي يعيبهم به الصديق قبل العدو وقد ظهرت نتائجه الوخيمة بأجلى مظهر في الاعصر المتأخرة خصوصاً في زمننا هذا .

وقد جاء بعد السلطان سليم ولده سليمان القانوني ووضع القوانين التي عرفت به وعرف بها وفيها كثير مما ينطبق على الحكمة والسداد في مراعاة اذواق الامم وعوائدها ولكنها اصيبت بجائحة الاهمال وسوء السلوك في تطبيقها فانقلبت محاسنها سيئات ونفعها ضرراً .

ولو رزقت هذه الدولة عمالا مخلصين اكفاء لما قلدوه من الاعمال وجروا في سياستهم على الاصول العمرانية المبنية على الحكمة والسداد لكان لها شأن يذكر في هذا العصر الذي سارت به الامم الغربية في مناهج التقدم شوطاً فسيحاً وهي واقفة موقف الجامد الخامد المتفرج وان تحركت رجالها الذينهم تقلدوا زمام امورها بعد عبد الحميد فحركة المريض الذي ربما اضرت به الحركة

وان الانسان ليقف موقف الحيران المتحسر (او الشامت) عندما يرى اولئك العمال الذينهم اركان الدولة العثمانية واساطينها (وكثير ما هم) جارين في اعمالهم على النهج الغير السوي راكبين متن عمياء يبني الاول بناء لا حامل عليه الا هوى في النفس وان كان حسناً في الواقع نافعاً للمجموع فيأتي الثاني وينقضه من اساسه من غير نظر الى فساده او اصلاحه ولا باعث على ذلك الا مجرد المخالفة والمعاكسة والظهور للناس بمظهر آخر شغفاً بالذات وانفة من اتمام عمل

الغير ولو كان نافعاً مفيداً وهذا مشاهد من جميع العمال في جميع البلاد خصوصاً ما شاهدناه من ولاة دمشق الذين رافقناهم وسمعناه عن الذين من قبلهم (رجع) لهذه الاسباب لم تأخذ دمشق قسطها من العمران في اقرب وقت بل راجعته تدريجاً ونمت مواردها من التجارة والزراعة والصناعة على الطرق المستعملة في ذلك العصر . وبالجملة فقد حفظت مركزها بين المدن بل فاقت غيرها بمميزاتها الطبيعية على ان النوائب والفتن لم تفارقها مفارقة الازد للأرب ولا زايلتها مزايلة الحمى لبثرب بل بقيت تنتابها من حين الى آخر

فلم يكد يستقر السلطان سليمان على كرسي الخلافة بعد موت ابيه السلطان سليم حتى استخفه الطيش الى والي دمشق اذ ذاك واسمه الغزالي وهو رجل من اتباع قانصوه الغوري الذين خانوه يوم مرج دابق وخذلوه وقعدوا عن نصرته تزلفاً بفعلته تلك الى السلطان سليم فقربه وادناه وجذبه بصنيعه ورقاه حتى ولاه على دمشق اغتراراً وقصور نظر وفاته قول القائل ان من خان عدوه اليوم لا يبعد ان يخونه هو غداً .

فلما مات سليم وبويع ولده بالخلافة تمرد الغزالي هذا وسل سيف العصيان في وجه دولة متبوعه وتحصن بقلعة دمشق . وبعث بعثاً من قبله للاستيلاء على مدينة بيروت وطمع في استمالة عامل مصر اليه حتى يشتركا في العصيان فراسله في ذلك يستحثه ويبين له ان النجاح منهما كقاب قوسين لبعدهما عن مقر الخلافة ولكون الخليفة الجديد حدثاً غراً فأجابه عامل مصر بأنه لا يشترك معه بذلك الا اذا استولى الغزالي والي الشام على مدينة حلب حتى تكون حاجزاً بينهم وبين السلطان سليمان وكان جواب عامل مصر هذا خداعاً وتطويحاً بالغزالي . والحال انه انهى خبره الى السلطان وارسل له الرسالة نفسها ؛ فاستنهض الخليفة سليمان وزيره فرحات باشا لقمع الغزالي وجهز معه جيشاً وافياً وجد في المسير حتى وافى حلب والغزالي محاصر لها تنفيذاً لشرط عامل مصر وكان ذلك في اواخر ذا الحجة سنة ٩٢٦ فارتد الغزالي على عقبه بدون مدافعة وتحصن بدمشق فتعقبه فرحات باشا بجنوده وحاصره وانتهى

الامر بقتله وارسال رأسه الى القسطنطينية في الثامن من صفر سنة ٩٢٧

ثم استقرت عادة خلفاء بني عثمان في البلاد الشامية ان تجعلها ولاية وقسماً من املاكهم وتجعل قاعدتها دمشق وان وقع التبديل والتغيير فيما يتبعها من المدن والقرى مراراً متعددة وآخر ترتيب اقتضته التنظيمات المتجددة هو تقسيمها الى ثلاث ولايات دمشق وحلب وبيروت ويخرج عنها القدس ولبنان . ومع ذلك فلم تزل دمشق عند الدولة العثمانية وعند الناس معتبرة قاعدة الولايات كلها لتوسطها وموقعها الجغرافي وتفوقها بالمميزات الطبيعية وكونها عاصمة قديمة ، واكتفى خلفاء آل عثمان الى هذا العصر بتعيين وال عليها سواء كان من اهلها او من دار السلطنة كبقية البلاد العربية ، ويكون في الغالب تركياً في المدة الاخيرة لانه اجنبي عنها ، ومن النوادر كونه عربياً او من القاطنين فيها كما سيأتي معنا ، ولم تستدع الحال وجود امارة عربية موروثة فيها قط كمصر وتونس بل حاكمها بعدرجة النقل والعزل

وقد تعاقبت عليها من عهد السلطان سليم الى عهدنا هذا ولاة كثيرون من وطنيين واتراك ولم يجر على يد واحد منهم اصـلاح حقيقي تام لهذه المدينة الزاهرة ، وان كان لبعضهم بعض ما يستحق الذكر والشكر كما ستراه . ويأتي معنا ولكن العلة الخبيثة التي قدمناها وهي الثاني في طمس محاسن الاول حتى لا يفوز ويكسب الشهرة عليه ولو بمجرد بقاء ذكره او نسبة العمل اليه تلك العملة التي هي علة العلل ما زالت هي الحاجز الحصين دون الاصلاح

وربما نعى الثاني على الاول عمله ورماه بالقصور أو قلة الفائدة ، فابتكر مشروعاً آخر من جنسه عمرانياً كان أو علمياً رآه اقرب الى حصول النتيجة فعيق عن اتمامه وانقضت السنون والقرون بين تلك الاعمال الغير الناضجة المتناقضة والمشاريع المتناسخة ، ولم تصل دمشق المسكينة بطائل وربما تسلت بقولهم (المصيبة اذا عمت هانت) ومعلوم ان العامل الواحد بل السلطان الواحد لا يمكنه ان يستقل باصلاح البلد او المملكة من جميع الجهات في مدة ولايته او سلطنته ولو طالت ،

وانما الطريقة المثلى والنهج الاتم في تقدم الممالك والامم هي ان يسن المجلس

الملي الناهض بالامة او المصلح الزعيم ذو السلطة عليها قوانين الاصلاح ويرسم خططاً متينة على التجربة والحكمة المعقولة مراعياً فيها ضرورة الزمان والمكان كما هو جار في الامم الغربية وما جرى مع الحكومة الكمالية في انقرة بواسطة مجلسها الملي واحيت البلاد الاناضولية والرومية بعد اضمحلال الدولة العثمانية وبقيت دولة تركية جديدة . ولا نخال بان رجالها اليوم يكونون مثل اولئك الرجال الاقدمين الذينهم بأعمالهم ضيعوا اكثر البلاد وشتتوا العباد .

وقد جرت عادة رجال دول الغرب بان يجيء الثاني فيحتذي عمل العامل الاول وينسج على منواله مكملاً لما نقصه زائداً لما أغفله مبدلاً للصالح بالاصلح لا ناقضاً . ثم الثالث والرابع وهلم جرا . الى ان تأتي المقدمات بالنتائج والاعمال بالثمرات . وهناك الفلاح المطلوب والاصلاح المرغوب المشاهد اليوم في بلادهم

ولكن رأينا في تواريخ هذه الامم الناهضة ان الزعيم والمصلح او المخترع الاول قد يشخص الطرق المؤدية لنجاح في عمل ما . ثم يموت وهي مرسومة تلك الاعمال على الصحائف أو مسموعة منه عند اتباعه واشياعه وهم يأخذون في تطبيق الامهات منها . ثم تجيء الثالثة فتوسع الدائرة وهكذا وقد تكتفي ايضاً الطبقة الثانية بنشر تلك القوانين والافكار العالية وتبلغها للسواد الاعظم اقوالاً بلا أعمال حتى تنعقد القلوب على استحسانها وتتوفر الدواعي على نقلها من القول الى العمل

ثم يجيء من بعدهم الرجل فيجد الآراء مجمعة متظافرة ويرى النتيجة موضوعة على طرف الثمام ويرى نفسه مطلوباً بالعمل وكأنه حق الزم به او واجب عهد بالقيام به اليه فتكون الاعمال حينئذ اسرع واحكم وهذه حالة لم توفق لها الدولة العثمانية السابقة ورجالها في وقت من الاوقات لاسباب كثيرة معروفة لا لزوم لشرحها لضيق المقام وكأن تجردها عنها من اكبر اسباب انحطاطها ومن اهمها توسيع ملكها وتقليل العمل به .

(رجع) ولسنا بضرورة لذكر ولاة دمشق واحداً واحداً ولا لذكر خلفاء آل عثمان كذلك بعد التمهيد الذي قدمناه وانما نذكر المشاهير منهم ومن له

في الصالحات او ضدها أثر . وللقارىء ان يستخلص مما نكتبه امثلة يهتدي بها الى معرفة احوال دمشق الاجتماعية في ذلك الزمن الى ان يتصل بما اظله زمانه ورأته عيناه أو سمعته أذناه

كان للولاة العمال في اولية هذه الدولة شأن كبير وللكثير منهم الايادي البيضاء والباع الاطول في اعزازها واعتلائها في عصر فتوحاتها فنشأت عن ذلك نواشىء الادلال على الدولة وتولدت من ذلك مرّ العصور صفة عمومية وهي الاعتماد على البلاد وتفويض امر البلاد اليهم فيما يرجع الى نظرهم واهمال مراقبتهم واغماض جفن التفقد عنهم واعتبارهم امراء مستقلين وان عاقبت احدهم بذنب فبالقتل والاستئصال

ولا يخفى ان الامارة سكر واقرب الخلال الى نفوس العمال الامراء الشر ان لم يصحبهم التوفيق ولم تكبح اليد العالية من جماحهم ولم تكسر من شرة شرهم . والاغضاء على صغائرهم مجرىء لهم على الاستبداد ومواقعة الكبائر كما وقع في آخر ايام هذه الدولة العثمانية في هذه البلاد من اعمال جمال باشا احد عمالها وتفويضه بالعمل من العاصمة وكانت النتيجة سوء العاقبة .

ولله در الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وتلك المعاملة التي كان يحمل عماله عليها . وكانت هذه البلاد كثيراً ما يقع فيها من المشاحنات بين العمال المجاورين والمنافسات الذاتية وتفضي بهم الى المقاتلة فتجد كل وال باذلا جهده في استمالة الجند اليه ساعياً كل السعي في لف اللفيف من العامة وتأليب الاحزاب وبطانة السوء والاستكثار من شراء المماليك لا ليكونوا يداً بل ليكونوا ظهيراً على مناويه من العمال وآلة للتوصل الى اغراضه ومنافعه الذاتية وهذا من اصول التفرقة والشقاق بين قاطني المدينة الواحدة وفروع الامة الواحدة وفيه من الضرر ما لا يحتاج الى بيان : وساعد على تفشي هذا الداء العضال (داء التنافس المفضي الى المصارعة) بالنسبة الى الديار الشامية والمصرية اعتياد الزعماء والرؤساء من العمال مثل تلك الحال من ايام الدولة الطولونية بالقطرين ثم العبيدية ثم الايوبية ثم المماليك .

فما فتئ اولئك الزعماء يتجاذبون حبل الرئاسة من ذلك العهد وكل يدعي الاحقية . ولو ان الدولة العثمانيـة قطعت دابر الرئاسات الموروثة من يوم استيلائها على هذه الديار لاستراحت من كثير مما اعترضها من العناء والمشقة لفقدان العصبية المثيرة للفتن . والولاة الاجانب عن البلاد خطبهم سهل ولكنها ابقت للزعماء الوطنيين بعض امتيازات وغضت الطرف عن الولاة وبطانات السوء الذين لا يخلو منهم زمان . فسرت عدوى المنافسات وفتحت الحروب الداخلية واحييت ايام القيسية واليمانية .

من هذا الباب ما وقع حوالي سنة ١٠٠٩ للهجرة من زحف والي دمشق على حلب فافتتحها واستعانة والي حلب بوالي كلس وارجاعهما حلباً وطرد الدمشقيين منها وما وقع في تلك الازمنة . واستمر سنين متطاولة من حروب ولاة دمشق وغيرها المنتسبين للدولة العثمانية فعلاً أو صورة مع الامراء المعنيين والامراء الشهابيين وهما من صنف الزعماء الذين ذكرناهم للطائفة الدرزية وخلافهم من بقية الطوائف ورؤساء العشائر حوالي دمشق وحمص وبعلبك وحماه وحلب وحوران والكرك ولبنان .

ولا يستبعد اذا قلت ان تلك الحروب سلسلة نارية اتصلت حلقاتها وامتدت الى زمننا هذا كما ترى بعضه وكانت من اكبر العوائق للتقدم العلمي والعمراني لا سيما وقد وجدت من الريح الدبور نافخاً لا يفتر لذلك سبقت بيروت ومصر هذه البلاد

وكانت في تلك الآونة فتنة قره يازيجي واخيه ولي حسن والي بغداد الذي كان بالاناضول والتي استولى فيها على عدة اماكن وطار شررها الى الشام

ثم فتنة جان بولاد الركي وما كان بينه وبين يوسف باشا والي دمشق من الحروب التي كانت نتيجتها احتلال علي باشا جان بولاد المذكور لدمشق واخذ الجزية من اهلها ونهب عساكره لها

وكذلك ما كان في حدود سنة ١٠٢٠ في ولاية احمد باشا الحافظ على دمشق من الحروب الطاحنة مع الامير فخر الدين المعني وما جرت على لبنان

ودمشق وتوابعها من الويلات والنكبات الحسية والمعنوية . ولما انطفأت تلك الجذوة الملتهبة عزل حافظ احمد باشا عن ولاية دمشق وخلفه جركس باشا وقد شارك في اثناء ولايته في حرب الدولة العثمانية مع شاه العجم وله ذكر جيل في تلك الحرب وهو الذي هدم قلعة شقيف ارنون التي كانت معقلا للمعنيين في حروبهم ولم تقم لها قائمة الى يومنا هذا ثم عزل هذا الوالي وصار منصب ولاية دمشق العوبة تعاقب عليه في مدة خمس سنين خمسة عمال لم يقع في زمانهم الا الانحطاط او الجمود وفي ايام آخرهم وهو رجل اسمه مصطفى باشا ثارت ثائرة الخلاف بينه وبين الامير فخر الدين المعنى الدرزي . وسار الوالي بجيوش دمشق لمقاتلة الامير والتقى الجمعان بنواحي المجدل فدارت الدائرة على الباشا ووقع اسيراً في يد الامير فعفا عنه واكرمه وارجعه الى دمشق ثم عزلته الدولة وارسلت من نفس السلطنة والياً آخر اسمه محمد باشا ولما أتى دمشق وقصد دخولها منعه الدمشقيون وصدوه وسعى بينهم الوالي المعزول وأغراهم كما هي عادتهم مع اولياء الامور فكتبوا عريضة الى الباب العالي بتصديق الاعيان والعلماء والاشراف واصحاب المناصب يطلبون ابقاء واليهم الاول المعزول فضربت الدولة بعريضتهم عرض الحائط وأصرت على تولية محمد باشا ولما مات ارجعت الدولة مصطفى باشا الذي عزلته اولا (وهذا من فساد الرأي وضعف البصيرة وقلة الحزم ولم يزل دأب هذه الدولة في ممالكها تعزل عاملا او غيره لذنب اقترفه ثم توليه في عين وظيفته او مثلها او قريب منها اما في تلك البلدة او في بلدة اخرى خلافها وهذا من جملة الامور المخربة) .

وفي سنة ١٠٣٣ رأى الباب العالي من المصلحة (او من المفسدة) ان يقلد الامير فخر الدين المعنى ولاية دمشق كلها من حدود حلب الى حدود القدس ولقبه سلطان البر وجعله مسؤولا عن اموال الولاية الاميرية وكان المقصود من هذا الصنيع استمالته والهائه بالرياسة حتى تسكن الثورات كما هي الحالة في اليمن وفي غيرها من البلاد العربية ظنا ان الرجل يقنع برسم الولاية وكان

الباب العالي اذ ذاك لا يهمه الا جمع الاموال الاميرية من الرعايا وترك العمران وترقي العلم والمعارف الى وقت آخر فكذلك قلد الامير المعنى اباها واما ما وراء ذلك من راحة العباد واصلاح البلاد ورفاهية الرعية واسعادها ونشر العلوم والمعارف بينها فامر مهمل لا يستوجب العناية .

وفي نفس السنة التي تقلد فيها الامير ولاية دمشق وقع فيها غلاء عظيم في الاقوات فاستغاث السكان به فامدهم بالقوافل تحمل الميرة من حوران حتى ارغد عيشهم وتدلل عليهم وانى بنفسه الى دمشق ونزل بالمرج الاخضر وخرج الناس للقائه والدعاء له واتخذ له حامية مخصوصة من عساكر الانكشارية ولم يزل منذ تقلد هذا المنصب يدير الامور على سداد ويبني القلاع والحصون حتى دانت له البلاد والعباد وسولت له نفسه المجاهرة بالاستقلال والتغلب وانهيت مقاصده الى الباب العالي بواسطة رجل يقال له كوجك احمد كان من اتباع الامير ثم فارقه لخلاف وقع بينهما ولحق بالآستانة وترقت به الحال حتى صار وزيراً فأبدى للسلطان وعظماء الدولة مقاصد الامير المعنى وما هو عازم عليه فما كان من السلطان الا ان جهز الجيوش لمحاربته بقيادة الوزير المذكور فنهض مسرعاً حتى دخل دمشق واستنفر الناس لقتال الامير المعنى من الاناضول الى مصر ثم نهض بما اجتمع لديه الى خان سعسع قريب دمشق واستمال كثيراً من ذوي الحيثيات والوجاهة وارجع لهم اقطاعاتهم المغصوبة فمالت القلوب اليه وتأهب الامير للقائه واستعرت نار الحروب بينهما وكانت الدائرة على الامير واختل جيشه واسر هو واولاده واتى بهم الى دمشق ثم ارسلهم الوزير الى القسطنطينية ونادى بالامان في جميع الربوع الشامية والعفو العام عن المجرمين فراقت الاحوال ورجعت المياه الى مجاريها ثم انتقض العقد بحركة بعض اقارب الامير المعنى وانتهى الخبر الى السلطان مراد الرابع فساءه ذلك واعتدها دسيسة من الامير المعنى فقتله والكبير من اولاده وكان ذلك في ذي القعدة سنة ١٠٤١ وبموته خمدت جذوة المعنيين مدة الى ان كانت سنة ١٠٥٩ فوقعت فتنة بين والي دمشق بشير باشا وبين الامير

ملحم المعني انكسرت فيها جيوش الوالي ورجع مهزوماً الى دمشق ثم لما عزل بشير باشا عن ولاية دمشق وخلفه فيها محمد باشا الكبرلي امتنع المعنيون والشهابيون من اداء الاموال الاميرية المطلوبة من عشائرهم فساق الكبرلي عليهم جيشاً وفر الزعماء من طريقه فاخذ الاموال من العشائر مباشرة ورجع .

وفي سنة ١١٠٤ رفع الامير احمد المعني راية العصيان على الدولة وظهر على عساكرها بنواحي صيدا فانفذ السلطان احمد خان الثاني الى عمال الولايات الشامية عموماً ان يحاربوه حتى يفيء الى الطاعة فتعقبوه فاختفى ولم يقفوا له على اثر ولم تزل الحوادث تنتاب دمشق من جهة المعنيين مع عمالها ولكنها طفيفة تافهة الى ان تقلد ولاية الشام سليمان باشا العظم الدمشقي سنة ١١٤٥ وعثت عشيرة الامير ملحم الشهابي فساداً في ضواحي البقاع فخرج الامير سليمان باشا بالعساكر فبادر الامير ملحم الى الاعتذار تجاه ذلك الرجل العظيم والتزم باداء قيمة ما خربه قومه فقبل الوالي منه ذلك وهو الذي بنا الخان الشهير المعروف الى اليوم باسمه في احد اسواق دمشق قريباً لداره الشهيرة .

ثم تولى بعده ولاية الشام اسعد باشا العظم الدمشقي وهو الذي بنا الدار المشهورة بأنها من الآثار القديمة التي تزار بدمشق ونقلتها كتب التاريخ في الغرب ويبحث اليوم من قبل احفاد المذكور بأن تكون مجمع الآثار الشرقية للدولة المنتدبة وبنا قريباً منها ايضاً الخان المشهور باسمه المعدود ابنيته من محاسن دمشق واشهر آثارها

وكانت بينه وبين الامير ملحم واقعة في أرض البقاع انهزم فيها اسعد باشا ولم تطل مدته فخلفه عبد الله باشا العظم الدمشقي الشيخ المبارك الشهير هو صاحب المدرسة المعروفة باسمه الى اليوم وصاحب المكتبة النفيسة الشهيرة التي حوت من الكتب الخطية القديمة انفسها واحسنها وارصد اليهما اوقافاً وخيرات تحفظهما ومبرات للقاطنين من العلماء والفقراء . ولم تزل المدرسة الى اليوم باقية . واما المبرات الموقوفة على من كان فيها فلا علم لنا بتوزيعه بمقتضى شرط

الواقف. الا ان المكتبة انتقل اكثرها الى المكتبة الظاهرية العمومية التي تأسست منذ أربعين سنة وبواسطة ذلك حفظت تلك الكتب النفيسة من أيدي المتلاعبين ونقل لنا بعض الاصدقاء بأن الكتب التي نقلت هي مقدار الثلثين من تلك المكتبة العظيمة والله اعلم .

وكانت بينه وبين علماء عصره محبة ومودة عظيمة يحسن اليهم ولم تحدث في ايامه شيء من المحاربات مع الامراء يذكر . وفي ايام ولايته وقع طاعون في دمشق افنى خلائق كثيرين

ثم خلفه بولاية الشام عثمان باشا الكرجي ولم تكن سيرته محمودة وبسوء تدبيره وخرق سياسته وجهله في الامور الادارية وعناده وقعت حادثة ابي الذهب المشهورة ومحصلها ان الوالي المذكور مس سكان مدينة غزة بسوء وبلغ ذلك الى والي مصر على بك وكان للغزيين تعلق شديد به للحمة الجوار وقرب الدار فسائته تلك الافعال وجهز عسكراً بامارة احد خواصه واسمه محمد بك ابو الذهب للانتقام من والي دمشق ولما بلغ الخبر للدولة العثمانية امرت والي حلب ووالي طرابلس الشام ووالي كلس بالاستعداد لقتال العساكر المصرية ورد غائلتهم واعتبرت عامل مصر وواليها خارجاً عن الطاعة . فخرج العمال الاربعة بجيوشهم لمدافعة المصريين وحصل اللقاء بسهل داريا قرب دمشق وتمت الهزيمة على الولاة الاربعة . فكتب ابو الذهب كتاباً الى اهل دمشق يأمرهم بتسليم المدينة ويتوعدهم بحرقها وسبي اهلها ان لم يفعلوا فطلبوا منه مهلة للمفاوضة فلما كان الليل وهي ليلة الجمعة الرابع عشرة من شهر صفر سنة ١١٨٥ هرب واليها المقصود بالذات وبقيت العمال ورؤساء العساكر واعيان البلدة ولم يبق الا العلماء والعامة فتوسلوا بالعلماء الى ابي الذهب ان يسلموه المدينة على ان لا يمس احداً من المستضعفين بسوء ولا يريق دم احد فامنهم ابو الذهب ثم حاصر القلعة لعدم تسليم صاحبها وضربها بالقنابل فاضرت بالمدينة ضرراً كبيراً ورفع الامر اليه فرفع الحصار وضرب القنابل وحيث انه لم يكن قاصداً فتح المدينة وانما غرضه الانتقام من واليها وقد هرب

ثم رجع ابو الذهب على ادراجه الى مصر بعد ان عين قاضيا المدينة من قبله . وعلى أثر مزايلته دخلها واليها الاول عثمان باشا ومن معه وانتهت الحادثة على هذه الصورة

ثم وقعت الحادثة المشهورة بظاهر العمر الزيداني امير عكا واشياعه امراء المتاولة وبين الامير يوسف الشهابي التي انكسر فيها الاخير وتداخل فيها والي دمشق عثمان باشا المذكور بايعازه الى خليل باشا والي القدس وقتل الكثير من عساكره وهرب هو الى دمشق

ثم انقلبت الحال بين عثمان باشا والشهابي واستحكمت النفرة بينهما فخرج الباشا بعساكره ونزل من البقاع بصحراء بر الياس وجمع الشهابي جموعه ونزل للقاء الباشا ووقعت بينهما وقائع غير مؤثرة

ثم وقعت حادثة ناصيف النصار احد زعماء بني علي الصغير فانجداه بجمع غفير ووافوه بقرية الفرعون وهذا من اقوى الدلائل على عداوة الزعماء الوطنيين لعمال الدولة وان عداوتهم لبعضهم لا تذكر في جنب عداوتهم للدولة الذينهم تحت ظلها وهذا شيء متوارث قديم والتاريخ شاهد عدل

ولما علم عثمان باشا بتألب الامراء عليه ازعجه الرعب والهلع واختل صفاه واتخذ الليل جملا ورجع الى دمشق لا يلوي على جيش ولا ذخيرة وغنم اعدائه جميع ما ترك

ثم عزلت الدولة عثمان باشا المذكور واستعاضت عنه بمحمد باشا العظم الدمشقي وكان على ايالة صيدا احمد باشا الجزار الطاغية المشهور واشتهر عنه من الاعمال القبيحة ما هو حقيق به فاندفع والي الشام المذكور لمحاربته واتحد مع الامير احمد الشهابي فبرزوا الى قرية قب الياس من سهل البقاع وهناك وقع المصاف واشتعلت الحرب وكانت الهزيمة على والي دمشق ثم اصطلحا واستقر كل بموضعه وكان من سوء الطالع وفساد رأي رجال الدولة في العاصمة ان ضموا ولاية دمشق للجزار زيادة على عكا وصيدا فأتى اليها واستلم زمام امورها وحبذا لو كان لها سميعاً مطيعاً بل كان جامعاً بين ظلم الرعية وعصيان الدولة ولو

اردنا ان نسرد اعمال هذا الظالم لطال بنا المقال لكن اكتفينا بالالماع اليه حباً بالاختصار .

ثم عزلته عن ولاية دمشق واقرته على صيدا واستبدلت به واليا اسمه ابراهيم باشا ثم تقلبت الحال واعيدت له ولاية دمشق وكان قد انتزع عكا بالتغلب من آل ظاهر الزيداني فانتظمت له الثلاثة واتخذ قرارة ظلمه وعسفه مدينة عكا ونصب نائباً من قبله على دمشق الى ان مات سنة ١٢١٩ واستراح الناس من وطأته الشديدة وشره المريع . واخباره في الجبروت والطغيان والجور والسفك مشهورة دونها المؤرخون ولا زالت تتناقلها الالسن في هذه الديار الى الآن ولو جمعت لكانت اعجب من كل رومان

ومن ألطف ما قيل من الشعر في تاريخ موت الجزار :

وافى السرور وصبح ترجيح الامل بهلاك غاشم لا يعادله مثل
عين المظالم والمآثم والردى شر العوالم ان تفكر او عمل
احمد ولكن ليس يحمد بالورى مغضوب في نوب المساوي قد دخل
جزار لكن للفضائل جازر مهدي ولكن بالرذائل قد حفل
بحياته كان الغلا ثم الوبا والقحط والجور الذي لا يحتمل
وبموته زال العنا يا حبذا هذا المنى غاب التعدي والوجل
حاز المقدر عند ملك يجتدي قبض المهالك في جحيم لم يزل
لله درك يا منون فقد بدت منك الحياة وطاب حكمك واعتدل
فاز الانام وارخوه بمقصد هلك الشقي والى جهنم قد رحل

ولما مات بقي نائبه عاملا على دمشق حتى قدم من دار السلطنة واليها الاول ابراهيم باشا المتقدم الذكر فدخلها وباشر وظيفته ثم خرج بعساكره وعساكر الامير بشير الشهابي وقتل نائب عكا للجزار واستأصل جماعته وراقت الاحوال في تلك الايام

ثم لما كانت سنة ١٢٢٠ وجهت الدولة ولاية دمشق على سليمان باشا والي عكا اذ ذاك وعزلت واليها المدعو يوسف باشا فامتنع الاخير من تسليم المدينة

الى سليمان باشا وصمم على حربه فزحف سليمان بجنده وجنود الامير بشير الشهابي على دمشق ووقعت بينهم وبين واليها المعرطي وقائع في ضواحي قطنه فاجمع اعيان دمشق على التسليم لسليمان باشا واحس يوسف باشا منهم بالشر فهرب ودخل سليمان المدينة ومعه الامير الشهابي

ثم تداول ولاية دمشق بعد سليمان باشا الى عدة من الولاة لم تأت على ذكر اسمائهم لعدم تحسن حال دمشق في ايامهم وضررها لم يزل في زمانهم فانهم اكبر من نفعهم والخيبة عليهم وعلى اعوانهم وهل وجه احد منهم في كل تلك المدة عناية الى ماهي مفتقرة اليه من الاصلاح العمراني او ارسل فكره نحو نشر العلوم والمعارف . كلا

ولما افضت ولاية دمشق الى درويش باشا الوزير الشهير صاحب المسجد المشهور في الجادة المشهورة باسمه . ويأتي الكلام عليه في محله كان مما قارن ذلك تعيين والٍ الى عكا اسمه عبدالله باشا الخزنه دار وكان كل منهما يدعي الرياسة على صاحبه وانه تحت نظره او هو منه بمنزلة التابع من المتبوع واستحكمت عرى الوحشة بينهما وكانت عاقبتهما انقطاع العلائق وايذان كل واحد منهما صاحبه بالحرب فاستنجد عبد الله باشا بالامير الشهابي واستنجد درويش باشا بالدولة لما كانت تظهره من الايقاع بعبد الله باشا وتربص الدائرة عليه فاوعزت الحكومة الى والي حلب ووالي اطنه بانجاد درويش باشا ولكن مادامت الاخبار تنتهي اليهم بذلك حتى تهيأت الجيوش اللبنانية يقودها الامير بشير الشهابي وعساكر عكا يقودها عبد الله باشا ولقيهم درويش باشا بجنوده خارج قرية المزة المجاورة لدمشق وهي بطيب هوائها ومناخها مشهورة وهناك ثبت والي دمشق في موقف الدفاع واصلى اعدائه نيران المدافع وامطر عليهم وابل الرصاص ولم يغن عنه ذلك شيئاً مع اقدام الجيش الشهابي

وكانت النتيجة ان تمكن اعدائه من اقتحام القرية المذكورة وتسلق اسوارها واضرام النار في دورها . ويقال لها عند العامة حادثة حريقة المزة . تم الانكسار بتمام معناه وتشتت الجيش الدمشقي ايادي سبا . ولم يجد درويش باشا موئلا

نجاته بنفسه الا القلعة وكان من مزايا الامير الشهابي انه لم يسمح لعسكره بدخول المدينة اشفاقاً عليها من النهب والقتل

وقع كل هـذا والمدد من حلب وادنة لم يصل وصدق قول العامة (من اوقف طبخه على مجيء الحطب من حلب بات طاويا) ثم ان الامير بشير الشهابي تحقق ورود النجدة والامداد وان الدولة مهتمة بذلك وانها اصدرت الامر بعزل عبد الله باشا الخزندار عن ولاية عكا نادى بجنوده بالرحيل الى بلاده وقد قضى نهمته من نصرة صاحبه وهي حمية جاهلية

مرت هذه الحادثة المؤلمة والمصيبة السوداء التي لا زالت معروفة حتى عند العامة الى الآن بوقعة المزه سنة ١٢٣٥ هـ وكانت تلك السنة وما اكتنفها من الازمنة سني ويل ودمار على الاصقاع الشامية وموسم اضطراب واختلال فقد منها الامن من السبل حتى في داخل هذه المدينة وارتكب فيها الجند من الجرائم والرذائل والعبث ما لا يوصف . وقد ادركت رجالا بدمشق يعرفون تلك الايام النحسة ويحدثون عنها احاديث كثيرة اكتفينا بالالماع ببعضها نبذاً للتطويل . وكان الجيوش بدمشق منقسمين الى قسمين او حزبين انكشارية واضـدادهم وبينهما من العداوة ما كان يفضي في كثير من الايام الى تعطيل الحركات في المدينة وسيلان الدماء وتساقط الجثث بشوارعها او تخريب البيوت واحراق الاحياء برمتها وهتك الاعراض جهاراً وكان ممنوعاً خروج النساء والى الله المشتكى ولا وازع ولا حاكم الا رؤساء الجنود الذينهم منبع المفاسد.

وان الانسان ليقف موقف الحائر الولهان والحزين الوسنان عندما يستجلى نظره تلك الحوادث من تاريخ ذلك العصر . وتتجلى هواجسه للحالة العمومية بهذه المدينة البائسة . ولقد كتب لها ان لا تستقيل من علة حتى تفاجئها علة اخرى انهك لقواها وآلم ولا تسلمها نائبة الا الى نائبة ادهى .

نذكرك بهذا انها ما كادت تستريح قليلا من تلك العاهات المزمنة التي اشرنا الى بعضها . وتدخل سنة ١٢٤٧ وهي السنة التي بدأت فيها حركات ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا كبير العائلة الخديوية حتى عينت الدولة والياً

على دمشق سليم باشا احد الوزراء الذين تربعوا على دست الصدارة سابقاً . وكان لهذا الرجل اليد الطولى في تأييد فكرة ابادة فئة الانكشارية وادخال النظام الجديد في العسكرية العثمانية واخراج تلك الفكرة الحسنة . من القوة إلى الفعل في دار الخلافة .

دخل هذا الوزير دمشق مصحوباً بطائفة كبيرة من الجند النظامي الجديد الذي هو ثمرة تربيته ونتيجة فكرته ووجد ازمة الحل والعقد بيد طائفة الانكشارية الذينهم اعدى اعدائه وحدث ولا حرج عما حصل لهذه الطائفة من الهيجان والاضطراب خوفاً أن تكون غاية الرجل وقصده ان يبيدهم ويلحقهم باخوانهم وزاد الطين بلة ، ما بدأ به هذا الوالي من وضعه (ضريبة) من قرض اداء شيء طفيف على دكاكين الباعة ومستودعات بضائعهم ، ولما لم يكن لسكان هذه البلدة اعتياد بدفع الضرائب حاضوا حيصة واحدة . وتنادوا بالنفور وقلب المجن للوالي ومواليه فجاء عصيانهم مع مقاصد الانكشارية . ضغثاً على اباله فاختلط الحابل بالنابل وهاجت العامة وماجت وتألبوا زمراً زمراً يطوفون في شوارع البلدة ويضربون الطبول الكبيرة اعلاناً لعصيانهم . وفرحاً بهذه الفتنة التي شبوا نارها واوشكوا ان يكونوا وقودها لولا ما فاجاء الدولة من زحف ابراهيم المصري كما سنذكره .

ولما ايقن سليم باشا بان الجد الذى لايشوبه مزح فزع الى القلعة ومعه شرذمة من جنده وبقي البعض خارج القلعة لعدم اتساعها لجميعهم واتشب القتال فكان اولئك الجند الخارجون عن القلعة طعمة لنار الثائرين ونجا من قدرت له النجاة منهم الى الجامع المعلق بقرب المناخلية وحاصر الثائرين القلعة اياماً وسلط الوالي كرات المدافع من ابراج القلعة على المدينة فخرب كثيراً من ابنيتها وشدد الثائرين عليه الحصار وهدموا قسماً من سور القلعة الجنوبي مما يلي الغرب وبقى على حاله لهذه الايام كل ذلك والوالي ثابت حتى نفد ما عنده من الاقوات والجأته الضرورة الى اكل ما معه من الدواب بالقلعة ولما طال الامد واعيته الحيل سلم القلعة للثائرين مشترطاً الامان لنفسه ومن

معه فأمنوه وخرج من القلعة الى دار بالعصرونية قرب القلعة ولم يلبثوا الا اياماً حتى هاجوا عليه مرة ثانية مدعين انه ساع في تدبير مكيدة للايقاع بهم وحاصروه في داره فدافع عن نفسه بقدر المستطاع حتى نقبوا عليه سقف داره ورموا عليه النار فاحرقوه واخرجوه جثة مشوهة وعرضوها للعامة .

ولعمري ورب الكعبة ان كانوا يدينون برب لقد اتوا بها شنعاء على الايام وبقعاء لا يمحوها كرور الاعوام ، ولم ينج من اصحابه الا الشرذمة التي تحصنت بالجامع المعلق كما ذكرنا . واقام الاهالي بعد قتله حاكماً اختاروه ، وقد انتهت اخبارهم الى الدولة واعدت ما استطاعت من القوة للانتقام منهم والتنكيل بهم ولكن تغلغل ابراهيم باشا المصري في سورية الجنوبية ونجاحه في وقائع عكا مما جعل الرخاء في عضدها واذهلها عما تريده فغضت الجفن عن القذى واكتفت بارسال علو باشا والياً على دمشق وعهدت اليه ان لا يتعرض لما يهيج كوامن الاحقاد وصرفت تلك القوات التي اعدتها لمدافعة ابراهيم باشا

وقد كان ابراهيم باشا في تلك الآونة افتتح عكا واخذ واليها أسيراً الى مصر وعقد الاتفاق مع الامير بشير الشهابي المتقدم على فتح دمشق فاجتمعت الجنود المصرية والجنود اللبنانية وتقدموا نحو دمشق فخرج للقائهم علو باشا بعشرة آلاف مقاتل من الدمشقيين والاكراد والتقى الجمعان بداريا وكان مع ابراهيم باشا جيش من المصريين خبير بالتعاليم الحربية المستحدثة فأصدر أمره لهذا الجيش باظهار ما عندهم من الاسلوب الجديد ولما وقع المصاف أطلقوا الرصاص تباعاً كالمطر المنهمر فهال ذلك الدمشقيين وداخلهم الرعب منه لعدم الفهم بخدع الحرب والتقت الخيالة المصرية بخيالة الاكراد فهزموهم وتبعوهم يقتلون كل من ظفروا به منهم واخذوا الوالي اسيراً .

وفي الحال استولى اليأس على عقلاء المدينة وأيقنوا ان المدافعة لا تجديهم شيئاً فعقدوا اجتماعاً قر رأيهم فيه على تسليم المدينة فأرسلوا وفداً منهم الى ابراهيم باشا يطلبون الامان للمدينة اذا هم سلموها فتعهد بذلك وسلموا له مفاتيح المدينة وفي اليوم الثاني دخل ابراهيم بجنوده والامير بشير الشهابي وولده

خليل على ناحية الميدان التي هي قسم كبير من محلات المدينة اليوم وهدأت الاحوال وانزل السكينة ولم يمس احد بضرر واقام ابراهيم باشا مدة بدمشق ضبط فيها احوال دمشق وقرر ما يلزم تقريره لها من النظامات الجديدة . ثم توجه بجيوشه نحو حمص ليتم فتح بقية المدن السورية

ولسنا بحاجة الى ذكر فتوحات هذا الرجل واعماله والاسباب التي دعت اباه للخروج على الدولة العثمانية ومحاربتها والاستيلاء على قسم عظيم من املاكها فان هذا مما اسهب فيه المؤرخون واطنبوا واوسعوه بحثاً وتنقيباً . وان اختلفت مشاربهم في العلل والاسباب وتباينوا في شرحها بين منزك للرجل مبرر لعمله هذا كبقية اعماله المبرورة ومساعيه المشكورة وبين منتقد عليه مشدد عليه النكير في خروجه عن طاعة دولة اسلامية جذبت بضبعه ورقته في مدارج السعادة مع كونه غير مدفوع من دولة اجنبية

اما تاريخ حياة محمد علي باشا وولده ابراهيم باشا وما احدثته اعمالهما من الانقلاب الاجتماعي في هذه الاقطار وما غرساه من المبادىء العالية فيها فهو المثل السائر في المشارق والمغارب وحسبنا ان يحيل قارىء كتابنا هذا ان تاقت نفسه الى الاطلاع على شيء من ذلك مفصلا على كتب التاريخ المبسوطة والكتب الخاصة بتاريخ مصر في عهد ذلك المصلح العظيم وسلالته وتواريخ الدولة العثمانية فقد كشفوا الغطاء عما لا غاية وراءه عن مبادىء ذلك الرجل وشرحوا الغايات التي كانت همته تسمو اليها ومنها مسألتنا التي نحن في بحر التكلم عليها وفي كتاب المسألة الشرقية وتاريخ الدولة العثمانية الى فريد وجدي وتاريخ جودت نبذة صالحة من ذلك كافية في الغرض شافية من المرض غير ان هذه الاحالة لا تمنعنا من تزيين جيد كتابنا هذا من شذرات مما تحلت به دمشق والبلاد الشامية عموماً من آثار ابراهيم باشا العلمية وتنسيقاته العمرانية التي كانت فاتحة لنور وهاج ومستقبل اغر محجل والتي غسلت بها كثيراً من ادران الجمود والاستبداد التي تراكمت عليها مئات من السنين والتي لولاها لبقيت تخبط في تلك الظلمات الهمجية الى ما شاء الله

بمثل تلك المآثر تتزين صحف التاريخ وبمثل تلك المناقب تعيش الرجال بعمر ثان بعد اطلال المنية وعلى مثل تلك الاعمال يقبح سكوت المؤرخ وسدله عنها حجاب الاهمال

من ينكر والحق ابلج والتاريخ الشاهد العدل الذي لا يكتم ولا يتلجلج والآثار ماثلة والمدى غير متطاول ان افتتاح ابراهيم باشا للاصقاع السورية كان سبباً فعالا في الانقلابات العظيمة الفكرية والاصلاحية والمدنية والسياسية التي طالما نشدتها هذه الديار وكانت تنشد معدوماً او تحاول محالا

ولئن كانت تلك الحادثة مفتاحاً لتداخل الاجانب قولا وفعلا في شؤون هذه البلاد وشؤون الدولة العثمانية عموماً ومنشأً لما يسمونه (الحقوق الاجنبية) التي هي السلاسل الثقال والذي زال عن عنق هذه الدولة بعد الحرب العامة واليونانية في هذه الآونة بمعاهدة لوزان . فان ذلك كله لا يذكر عند المنصف في جنب ما سببته من الاصلاح وجلبته من الخير لهذه الديار . ولو وفق رجال الدولة العثمانية بعد تلك الحادثة لسلوك السبيل الاقوم ببصائر نافذة ونفوس لم يعمها حب الشهوات والمنافع من تلك الطرق التي رسم ابراهيم باشا اصولها ورمز الى فوائدها وثمراتها لصحت الحال وزال الاعتلال والاختلال ونهض هذا الوطن من عثرته وسعدت ايامه وصعدت اعلامه وجارى مصر في مضمار التقدم باعاً بباع وخطوة بخطوة .

ولكنهم ابوا الا ايثار ما كان في القدم ولو أدى الى العدم فكان ما تراه ونسمع به

كان من اعمال ذلك الرجل ان عرف لدمشق حقها فانزلها منزلتها وجعلها للبلاد الشامية ام قراها ودليل سراها ومصدر الاوامر والنواهي واقام بها حاكماً ووالياً عاماً شريف باشا المصري الشهير بالاخلاق الحسنة وعلو الهمة وعهد الى الاديب المعلم بطرس كرامة الشاعر اللغوي الشهير بتأليف مجلس شورى ينظر في الطرق والوسائل العمرانية للوطن جريا على سنن ابيه واعماله بمصر

ومن اعماله المبرورة القيام بتنشيط الفلاحة التي هي المورد الحيوي المهم

لهذه البلاد فبذل الجهد في ترقيتها وتقدم بواسطة رجال من اهل الفكر عينهم للاهلين ان يزرعوا الموات ويحيوا الميت من الاراضي العامرة الصالحة للزراعة وكم من بقاع خصبة كانت تخرج نباتها من كل زوج بهيج

فعصفت بها ريح الظلم والعدوان حتى أصبحت ملعباً للصوص ومسرحاً للمفسدين العائثين وأصبحت جرداء مقفرة وجدباء قاحلة وان كان الغيث يراوحها ويغاديها .

وغير خاف ان الامان هو اساس العمران وهذا مغزي قولهم سلطان عادل خير من مطر وابل . ولم يخف هذا على ابراهيم باشا فتتبع اولئك العائثين بالامن فاستأصل جراثيمهم لعلمه انهم اضر على العمران من المحل وأفسد للبلاد من الجراد .

ومن آثار نهضته اللغة العربية وآدابها فتاريخها يرجع اليه وثواب احيائها بعد الموت عائد الى والده واليه وقد كان مبدأ ذلك النور ومنبعثه من مصر بعناية المؤسس الاول كما هو معلوم ومشهور وطارت منه شعلة الى البلاد كان من آثارها الحسنة فيها ما هو مشاهد بعد ان ماتت هذه اللغة الشريفة . وتلاشت اجزائها . ولم يبق منها الا اثر ضئيل اشبه بالعدم وفي ايامه هبت على تجارة هذه البلاد . نسمات الرواج . والنفاق لتذليل الصعوبات التي كانت تعترض رقيها وانتشارها .

وفي ايامه توارد الزائرون الاجانب على هذه البلاد . لزيارة آثارها ومحاسنها وقديم معاهدها . وكانت قبلا اشبه بدواخل جزيرة العرب . لا يدخلهــا الا مخاطر .

وفي ايامه تقرر نصب نواب الاعتماد عن الدول . اي قناصل في دمشق وغيرها في البلاد السورية لاشتراك المنافع التجارية واشتباك العلائق السياسية .

ومن آثاره المعدودة من الاوليات بالنسبة الى هذه البلاد امره بزرع شجر الارز واجتلابه لدود القز الى هذه الديار وامره بتربيته وامره ايضاً بالاستكثار من زرع شجر التوت والقيام عليه حتى يصير مورداً فلاحياً لدود الحرير

وراجت هذه الفلاحة المهمة في زمانه الى غير ذلك من الآثار الحسنة والاعمال المستحسنة التي تركت في البلاد صبغة محمودة ولمحة غراء .

وانه مما يعرف به العاقل المنصف والخبير المعتدل الغير المتعسف الذي ينظر بعقله دون هواه ولا ينزع به التقليد الى الانحراف عن الصراط السوي ان هذه البلاد لو قدر لها ان تبقى منتظمة مع مصر .

وهي جارتها الحسنة . ورفيقتها في السراء والضراء . وشريكتها في الغاية هي التي حدت بخديوي مصر واضرابه من المتقدمين كما اسلفنا الى فتحها حباً في اجتماع القطرين في عقد ونظام واحد .

قال احمد زكي باشا احد علماء القاهرة ومن اعيانها لما حضر الى دمشق ان مصر والشام توأمان ربطهما الطبيعة والاخلاق قبل الاسلام بعروة وثقى ليس لها انفصام فلا عجب اذا كانت كل منهما تحسن للاخرى وتشاركها بعاطفة الود والقربى فيما يحل بها من سعد ورخاء . او ما ينزل عليها من نحس وشقاء انتهى كلامه .

فلو كتب لها ان تلحق يومئذ باختها مصر بمقتضى القسمة العادلة التي لاحيف فيها لشاطرتها في السعادة وساهمتها فيما جرى على يد ذلك المصلح . وذريته من الاصلاح والرقي وما انشائه من الحضارة الرائقة وافاضه عليها من انوار العلوم والمعارف التي نرى آثارها اليوم ظاهرة عندهم .

ولما بقيت الى الآن في غيابات التدني والانحطاط يحكمها من لا يعرف لها قدراً ويسومها الخسف والهوان من ليس كفوءاً لها حتى غدت عليه عاراً وهو في الحقيقة عارها .

حبذا (ومن لنابذاً) لو كانت هذه الديار اليوم تضاهي الديار المصرية في ارتقاء فلاحتها وصنائعها وتجارتها وانتشار العلوم والمعارف والتمسك بالوطنية وحب الاستقلال . بين بنيها الذين استنارت بصائرهم وصفت لمحبة بلادهم وحريتهم سرائرهم ونشأوا على مبادئ الوطنية الصادقة فشبوا وشابوا وعضوها خالص الخدمة امثال البطل الغيور سعد زغلول باشا واحزابه من

رجال مصر وما ذلك كله الا زرع ذلك الناهض الكبير الذي تعهده هو ومن كان جرى على سنته وجاء على قدمه من بنيه بالتنمية والعلاج حتى وشجت عروقه وبسقت فروعه وأثمر الكثير الطيب جنفا او لم تافل تلك الشمس التي بزغت وفاض شعاعها على هذه الربوع ولم يقلع ذلك السحاب الحافلة ضروعه الذي اصاب هذه البلاد برشه . ثم انقشع عنها احوج ما تكون اليه وغادرها عطشى يساورها المحل وتسفى في عرصاتها الاعاصير .

ورب قائل متقول ، وقائل مهوس ومغرور يوحي اليه شيطانه المسول يقول مصادرة ويهرف بما لايعرف ، تحكماً قولا بلا دليل لااعتماد عليه ولا تعويل . ان تلك الترقيات التي تتمنون مثلها لبلادنا قد رأيناها رأي العين وعاينا ماانتج عنها من الفوائد والثمرات . ولكن على يد من (وفي يد من ؟) ومن المنتفع بهما حقيقة ؟ وهل شبع المصري من زرع ارضه (وهي امه) وروي من ضرعها وما هي الا كالبقرة الحافلة ينتفع بدرها الاجنبي وولدها مهزول . فبقاء بلادنا على ماهي عليه وهي في يدنا خير من مصيرها الى ما تتمنون .

وهذا كلام سمعناه من البعض وهو كلام في غاية السقوط بقدر ماهو دليل على سخافة عقل قائله وقصوره . وكأنه يفهم ان كل بلاد ترقت واخذت حظها من التمدن والعمران طمع فيها الاجنبي واستولى عليها وان عمرانها مجلبة لامتداد الايدي اليها مع انه لاتلازم بين هذا وذاك .

وعلى هذا الاعتقاد كان يتوهم السلطان عبدالحميد الثاني ويتخوف من تقدم البلاد العربية ويتخيل له ان رقيها ضرر لها بقدرتعلم اهلها . وهذا الوهم حصل له على بعض البلاد الاناضولية ايضاً كما هو مشاهد من تأخر عمران البلاد وبطء حركة العمال في ترقي معارفها وزراعتها .

والبلاد التي يتاح لها زعيم مخلص يتيسر له ان يجمع كلمة العمال المخلصين على التمتع بالرقي والعمران مع قطع اطماع الاجنبي .

اوجبت حوادث ابراهيم باشا وتغلغله في الممالك العثمانية حتى مدينة قونية

في اواسط الاناضول الاضطراب العظيم في دار السلطنة على عهد السلطان محمود . وخلفه السلطان عبدالمجيد بهذا الاضطراب العظيم في السياسة الداخلية والخارجية وشغلت بال الامم في شرق الارض وغربها . لعلمهم بما سيكون لها من الشأن الخطير . فقامت قيامة ملوك اوربا فابرقوا وارعدوا وارغوا وازبدوا . ثم اختلفت مراميهم وانبرى منهم نصراء لمحمد علي فناضلوا عنه وجادلوا دونه .

ثم انتهى الامر باكراهه على الخروج من هذه الديار التي اشتراها بالدم الغالي والزامه بالرجوع واقطاعه مصر مسوغة له ولبنيه من بعده كما هو مشهور وفي دفاتر التاريخ مسطور .

وبعد خروج ابراهيم باشا من هذا الافق ورحيله عن معاهده رحيل الغيام لم يستهل حبيبه حتى اقلع والزائر المحبوب ولكن ما سلم حتى ودع .

عادت الاحوال الى ما كانت عليه ونكس هذا الوطن العليل وانتقض بعد ماشم رائحة الراحة واقبلت الدولة العثمانية على ارسال ولاتها المعلومين على السنن القديم . واول وال عينته لدمشق علو باشا المتقدم الذي دافع عنها ابراهيم باشا وكان الوالي المذكور والحق يقال سياسياً محنكاً . حسن التدبير اصيل الرأي لين الجانب مخفوض الجناح مستقيماً في اعماله يحب الخير ويسعى اليه . تمكن بما فيه من كرم الخلال من اجتذاب قلوب الناس اليه وكتم حقائدهم . فاستقامت الاحوال في ايامه وخيم الامن وانكب الناس على الاشغال العمرانية لولا مادهمهم من الوباء الفتاك في سنة سرت عدواه من الحجاز الى هذه المدينة فمات بسببه من سكانها مايقرب من ثلاثين الف نسمة وتعطلت تلك الحركات التي كانت تبشر بنهضة ميمونة . ثم زاد البلاء بانتشاب الحرب بين الدولة وبين الروس وهي الحرب التي ساعد الانكليز والفرنسيس فيها الدولة العثمانية لاقتضاء مصلحتهم لذلك .

ولم تكد تلك الحرب تضع أوزارها ويقع الصلح بمقتضى المعاهدة المعروفة بمعاهدة باريز حتى ظهرت الفتن من بين ثنايا دمشق وكانت فاتحتها مجادلات

وقعت بين المسيحيين وبين بطريقهم في شأن نقل حساب الكنيسة الاصلي والاستبدال عنه بالحساب الغربي وهي مناقشات فارغة لا أهمية لها الا من حيث كونها مقدمة لقلاقل واضطرابات ومشاغبات

وعلى اثرها قامت الفتنة على قدم وساق بين طائفتي الدروز والموارنة وكان مهد هذه الفتنة وعشها الذي درجت منه جبل لبنان وحاصبيا وراشيا ثم طارت شرارتها الى دمشق بنافخ العصبية وسوء تدبير العمال وفساد رأي مجالسيهم حتى جرت منهما الحادثة التي تحمر الوجنة خجلا عند ذكرها وتصم الآذان عند سماع خبرها . وكان ذلك في سنة ١٨٦٠ م . كما هي معروفة عند العامة بحادثة ستين . واما غيرها من المذابح كمذبحة حاصبيا وراشيا ودير القمر فحدث عن الفظاعة ولا حرج . وقد فصل مؤرخو لبنان وبعض من مؤرخي دمشق هذه الحادثة الفظيعة العظيمة وشرحوا تلك الحوادث كلها واطالوا في شرح اسبابها وتباينت اغراضهم في تعليلها منهم من نسبها الى الحكومة ورجالها ومنهم من نسبها الى الزعماء ومنهم من نسبها الى يد اجنبية ومنهم من قال ان سببها الجهل على ان الحقيقة انها محركة بيد اجنبية طامعة لا يريد صاحبها الخير لهذه البلاد ولا حاجة بنا الى بيان ذلك وغاية ما نقول عنها انها من مصائب هذا الوطن التي كانت من اكبر العوائق له عن التقدم ومن اقوى دواعي انحطاطه والحاصل انها حادثة لم يسطر التاريخ مثلها

بعد وقوع تلك الحوادث كلها وصل دمشق من دار السلطنة والي على دمشق اسمه معمر باشا فأسرع بالمناداة في المدينة بالامن والامان فأخمد الفتنة وضرب على ايدي مثيريها بعصى من حديد ولكن بعد خراب البصرة

ثم جاء على اثره فؤاد باشا فوق العادة مفوضاً له النظر في اسباب تلك الفتن التي قامت لها أوربا وقعدت ومجازاة محركيها وكان من فواتح آثار مقدمه صدور امر الدولة بقتل والي دمشق احمد باشا التي جرت الحادثة بأيامه

ومن اعمال هذا الرجل فؤاد باشا الدالة على كمال انسانيته وكرم طبعه والتي يذكرها له التاريخ مقرونة بالثناء والتعظيم ما عامل به البائسين من نصارى

دمشق الذين أتت هذه الفتنة الشنيعة على كل ما يملكونه وانقلبوا حفاة عراة لا مساكن تؤويهم ولا ملابس من اذى الحر والبرد تقيهم فهاله مرآهم المحزن واحزنته حالتهم الهائلة فاجتهد في تخفيف ويلاتهم بترتيب الاطعمة وتوزيع الاكسية ثم اصدر الاوامر المشددة بجمع المسلوب منهم من الشام وضواحيها وجبل الدروز وسكان البادية فجمع منه ما أمكن الاطلاع عليه والوصول اليه على ان ما ضاع مما خف حمله وغلا ثمنه اكثر مما وجد وعلى كل شكرته الدولة العثمانية على حسن صنيعه

وكانت نتائج التحقيق الذي جاء فؤاد باشا لاجله في هذه الحادثة المشؤومة ان ثبت بالبرهان القاطع تلطخ اقوام بتلك الجناية فحكم على اكثرهم من الذين اشتركوا بالنهب والقتل والسلب بالاعدام وقرر على بعض الرؤساء وفيهم الوجوه والعلماء بالتغريب عن دمشق لانه نسب لهم التقصير في ردع الجهلة عن ارتكاب الفظائع وهم :

الشيخ عبد الله الحلبي شيخ علماء دمشق وعمر افندي الغزي عين اعيانها وطاهر افندي الآمدي مفتيها واحمد افندي العجلاني نقيبها وعبد الله بك العظم الشهير وولده علي باشا وهما ثقة الشام ومرجعها واحمد افندي الحسيبي ومحمد بك العظمة اعضاء مجلس الادارة بها وسعيد باشا شمدين من اعيان الاكراد ومحافظ الحج الشريف . وما مضى عليهم الا مدة قليلة في الغربة حتى شملهم العفو السلطاني ورجع كل الى بلده وعزه ومجده وكان ذلك بمساعي فؤاد باشا نفسه لما رجع للاستانة وقد قال الشاعر

وكم ذنب مولده دلال وكم بعد مولده اقتراب
وجرم جره سفهاء قوم فحل بغير جارمه العقاب

وانتهت تلك الحوادث لا كانتهاء الحروب الصليبية بتطهيرهم من التعدي على هذه الاقطار وقطع دابرهم منها بل ما انتهت تلك الفتن الا والاجنبي متغلغل في احشائها آخذ بناصيتها مستول على ثغورها مالك لمفاتحها ولو لا اسباب عرضت لكان الاستيلاء الاخير بل الاستعباد النهائي . فسبحان الذي بيده ملكوت

السموات والارض واليه يرجع الامر كله . وفي تحفة الزائر عن اعمال اعمال الامير عبد القادر في هذه الفتنة العظيمة الذي شكره عليها الدول والخاص والعام فلا حاجة لاعادة ذكرها

وما ذا عسى ان نقول في تلك الحوادث الا انها نشأة عن مغادرة ابراهيم باشا المصري والعساكر المصرية لهذه الديار واستشعار تلك الطوائف المتقدمة للامن من بطشه وبأسه فنبض فيهم عرق الاحقاد القديمة وعادهم من تذكرها عيد . وزادت الدسائس الاجنبية اضراماً لتلك النيران التي كانت كامنة

وان العاقل ليذوب حسرة وكمداً اذا طالع تاريخ تلك الحوادث وما عهدها ببعيد . ورأى تلك الدسائس القتالة مكشوفاً عنها الغطاء مثبتة بالادلة والبراهين وتحقق انها علة تلك العلل ومثار تلك الثورات والعامل الاول في تفريق ابناء الوطن الواحد والدين بلسان واحد ومعاداة الاخ لاخيه

ثم يرى ابناء هذه البلاد بعد هذا كله الى يومنا هذا الناس مفتحي الآذان لسماع تلك الدسائس موطن على قبولها والانصياع لها لم يعتبروا بمن سبقهم ولم يتعظوا بعواقب من سلفهم

وما لهم أصلحهم الله لم ينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم من غير ان يتكلفوا سيراً في الارض او يجشموا ضرباً في البلاد والعاقل من اتعظ بغيره مع ان العقلاء البصراء والنصحاء والنصراء لا يزالون يجتهدون بالكشف عن جنايات تلك الدسائس وتوضيح مغامزها للملإ من الناس زيادة في الاعذار ومبالغة في الانذار ولكن لم تغن النذر

واذا البينات لم تغن شيئاً فطلاب الهدى بهن عناء

هذا وبعد ان استؤصلت جرائيم تلك الفتن وسكن غبارها وهدأ بال النصارى واستشعروا الامن وحصلوا على تعويضات كثيرة عما سلب منهم ورجع من كان تشرد منهم عن دمشق واخذ كل في عمارة كنه وكأنهم نشأة جديدة

ثم جاء بعده امين باشا والياً على دمشق ثم بعده محمد باشا وكانت مدتهما قصيرة . وفي ايامهما صدر القانون العسكري وتنفيذ اخذ الجندية من دمشق

و وقتها تحرر نظام قيد النفوس . ثم جاء رشدي شرواني باشا وهو من المطلعين على حقائق هذه البلاد لانه كان في معية فؤاد باشا بعمامة بيضاء سالكاً سلوك العلماء وهو من أعضاء مجلس فوق العادة ومن المريدين لهذه البلاد الاصلاح والسعادة . فانتفع به الوطن وحمد الناس ايام ولايته وأبقى من الآثار الحسنة ما يستوجب عليه الثناء لانه كان فخر الامراء وعين العلماء وكان متقلداً لمنصب الصدارة . وفي زمنه صار تشكيل الولايات وطريق الشوسه بين بيروت ودمشق . وكنا ذكرنا في المناسبة عن بعض ايالات سورية مثل ايالة صيدا وتسميتها قديماً بذلك . ثم تشكلت هذه البلاد على الترتيب الذي هي عليه في زمنه وانقسمت البلاد الى تشكيل ولايتين سورية وحلب وهو اول وال بعد تشكيلها على هذه الصفة . وبقيت بيروت مرتبطة مع والي دمشق فدمشق قاعدة سوريا منها من قديم الزمان

ثم عين لولايتها أسعد مخلص باشا وصفوتي باشا وهما من خيرة الرجال الذينهم خدموا هذه البلاد . ثم جاء محمد راشد باشا سنة ١٢٨٢ والياً على دمشق وكان لين العريكة سهل القياد ناشر العلم بهمة لا يطرقها الكلل وقمع الظالمين المتعدين على امن السبل من العربان وقاتل بنفسه اشقياء النصيرية . وكان معه المشير درويش باشا الشهير صاحب الاراضي الواسعة في سهل البقاع واهتم باصلاح داخلية البلاد فأتت اعماله بنتائج حسنة . وفي ايامه أثمرت النهضة الادبية العربية في بيروت المنتقلة اليها من مصر فكثرت فيها المدارس والمجلات والجرائد والمجلات العربية والمطابع وباعة الكتب المتنوعة . كما راجت في عهده الحركات التجارية لتأمين الطرق والموارد . وفي ايامه حضر ملك النمسا لزيارة القدس : وحضر للشام ايضاً البرنس فريدريك والد غليوم ملك المانيا سابقاً وكانت ولايته خمس سنوات توفق فيها لمحبة العموم وفي زمنه تشكل ديوان التمييز في دمشق وبقي والياً الى عام سنة ١٢٨٨ وفي زمنه ايضاً طبعت في دمشق سالنامة الولاية وهي بمثابة تواريخ وقائع هذه البلاد وهي نهضة من جملة

همه بنشر المعارف وكان مولعاً بلعب الميسر . وفي زمنه بني كتف نهر بردى وصار تغطية النهر بساحة دائرة العدلية والبرق والبريد اليوم

وخلفه صبحي باشا وكان متضلعاً في اللغة العربية لطيفاً في اخلاقه . وكان يعامل بالشدة كل من يبلغه عنه من الموظفين الارتشاء الا ان فيه خصلة ذميمة انهماكه في مجالس اللهو والصبابة . وفي ذلك التاريخ انفصلت امارة الحج الشامي عن وظيفة الولاية وافردت بأمير خاص ؛ واول من تقلدها محمود باشا احيلقين من جمازي اكراد دمشق وقد عثرت على صورة كتاب ارسل به العلامة خاتمة المحدثين بدمشق الشيخ ابو المواهب محمد بن عبد الباقي الحنبلي للدولة العلية في رفع امارة الحج عن ولاية دمشق كما كانت سابقاً ويكون دفع مخصصاتها من دار الخلافة وذلك سنة اثني عشرة ومائتين والف وسنأتي على خلاصته في ترجمة المذكور في القرن الثالث عشر في كتابنا هذا ليعلم المطالع مقدار يقظة العلماء وحرصهم على رفع الظلم عن العامة من الناس والمدافعة عنهم برفع عمال السوء والمغارم التي كانت تجبى منهم تحت ستار تسفير الحج الشامي .

ثم جاء بعده حالت باشا وبقي سنة ونصفاً وهو من الموظفين بهذه المدينة قبلاً بامور المالية وكان حسن السيرة لم يكن في زمنه شيء يستحق الذكر

ثم عين لهذه الولاية أسعد باشا الازميرلي الصدر السابق وهو شقيق كاظم باشا مشير وناظر السكة الحجازية ولم تطل ايامه .

ثم جاء بعده احمد حمدي باشا سنة ١٢٩٢ وهي ولايته الاولى لم تطل مدته نأتي على ذكر اعماله في ولايته الثانية ؛ ثم خلفه راشد ناشد باشا وهي ولايته الاولى وكانت مدته قصيرة نأتي على ذكر اعماله واحواله في ولايته الثانية

وفي السنة المذكورة وقعت الحرب بين الدولة العثمانية ودولة روسيا المعروفة بحرب الروس وكانت مبادئها باعتبار القلاقل التي وجدت في جزيرة البلقان والبوسنه والهرسك والتي تعد تحرشاً من الروس بالدولة العثمانية في اواخر مدة السلطان عبد العزيز ودامت الى مبدأ سلطنة السلطان عبد الحميد في سنة ١٢٩٣ فاضطربت اذ ذاك الحرب الحقيقية ، وكان من الوقائع المهمة ما هو مشهور

في كتب التاريخ وخسرت فيها الدولة العثمانية من ممالكها جزءاً عظيماً مثل قارص وباطوم واردهان وخلافها من البلاد المجاورة لها . وأشرف العدو على فتح دار السلطنة لولا توسط الدول الاوروبية بالصلح رعاية لمقاصدهن ومصالحهن .

ثم في تلك السنة تعين والياً لدمشق ضيا باشا وهو الذي جدد تربة الشيخ محي الدين الطائي الاندلسي بزخرفها ورونقها الذي هي عليه اليوم وهو صاحب التاريخ المشهور عند الاتراك بتاريخ الاندلس وفي زمنه أظهر تربة السلطان صلاح الدين يوسف الايوبي وبنى عليه القبة والبناء الجميل وعمر ايضاً تربة عبد الغني النابلسي وكانت مدته قصيرة سيرته حميدة وأحواله في السياسة والعمران محمودة ولكنه عوجل قبل ان تظهر ثمرات معلوماته ومشاريعه

وخلفه عمر فوزي باشا في سنة ١٢٩٤ وكانت مدته قصيرة لم يقع فيها ما يستحق الذكر . وفي ايامه فتح سوق علي باشا البديع النافذ من ساحة المرجة الى سوق الخيل .

ثم جاء بعده احمد جودت باشا في سنة ١٢٩٥ الذي كان منشؤه من العلماء وهو صاحب التاريخ المشهور كان عالماً محققاً قوي العارضة في الشعر التركي مطلعاً على الدقائق التاريخية عموماً عالماً باسباب الكائنات والحوادث نقاداً لها محاكماً بصيراً بعللها وله تحقيق زائد في تاريخ الدولة السياسي واطواره ومبدأ علائقها مع الدول الاجنبية وتاريخه المتداول عنوان على علمه وفضله ولم تكن معلوماته السياسية نظرية فقط بل تولى عدة وظائف اظهر فيها من الاعمال ما يشهد بخبرته وتطبيقه العمل على العلم ولسوء طوالع هذه البلاد لم تطل ايامه فيها ولو طالت لنالت البلاد من علمه وتحنكه ما تغتبط به ولم تخل ايامه على وجازتها من فائدة ادركت البلاد حسن اثرها فيما بعد منها بثه روح العلم الاختياري في المدارس وارضاع طلاب العلم لبان الحرية الفكرية واطراح التقاليد الواهية وغير ذلك من المبادي العالية وهو المؤسس لكثير من مدارس

دمشق وكان الموجود بها قبله قليلاً لا يفي بالحاجة فزاد عدد الطلاب وكان منهمكاً بجمع المال

ثم جاء بعده مدحت باشا سنة ١٢٩٦ وكان صدراً اعظم وما ادراك ما مدحت احد الرجال الذين لهم الصيت الطائر والذكر المشهور في تاريخ بني عثمان . وصاحب المرامي البعيدة والانظار الصائبة في مستقبلهم السياسي واحد مؤسسي القانون الاساسي وحركة الحكم الشوري المبني على قاعدة المساواة . بين العناصر لما ادركوا من سوء عاقبة الحكم المقيد . ومصارع الاستبداد ولي هذا الرجل دمشق فكان له بها من الآثار الشاهدة بتأييد افكاره في الاصلاح والعمران ما هو مذكور به الى اليوم مشكور عليه مثل تأسيس مكتب الصنائع وتأسيس دار عمومية للكتب خدمة للمعارف وتعميماً لنشرها والسوق العظيم المنسوب له وتوسيع كثير من شوارع المدينة وتشكلت في زمانه دوائر العدلية والبوليس والدرك وهو المؤسس لها وكان يحب العرب ويقربهم اليه ويعين اكثر رجالهم للمناصب في البلاد العربية وكان يرجحهم على غيرهم لمعرفتهم احوال بلادهم ويميل الى فكرة اعطاء هذه البلاد استقلالها وغير ذلك من الاعمال التي كانت مقدمة اصلاح عظيم . لو اتيح لهذه البلاد رجال مثله يمشون على خطته ومن اعماله الجليلة التي كان ينويها لو اسعفته الايام وطالت به وهي الدليل القاطع على ارادته الخير لهذه البلاد وعزمه كشف نهر بردى من ساحتها الى باب توما وجوانبها وهدم الابنية التي على اطرافه واكتنافه بشارعين عظيمين عن يمينه وعن شماله وتطهير النهر من الاوساخ التي هي جرثومة الجراثيم القتالة للدمشقيين، ولا يخفى ما ينجم عن هذا العمل من الفوائد زيادة عن جمال المدينة به، وما يكون لها من الرواء والبهجة خصوصاً اذا مر عليهما قطارات الجر والتنوير واقيمت الابنية على ضفافه . لو تم هذا العمل لكانت نظارة دمشق غيرما تراها اليوم كان عالماً مدققاً حافظاً لكتاب الله . يحب نشر العلم بين الطبقات زادت في زمانه المكاتب العالية جمال للمعارف ورجالها رونقاً وللادب سوقاً .

ثم جاء بعده احمد حمدي باشا الصدر الاسبق وهي المرة الثانية لولايته دمشق سنة ١٢٩٧ كان من اكابر رجال الدولة ومن نوابغ عمالها الذينهم اشتهروا بالاستقامة وعلو الهمة وانتشرت المعارف في زمنه وراجت سوق العلم بهذه الربوع وله اليد البيضاء والباع الاطول في تعميم المشاريع الخيرية النافعة والاصلاحات العمومية وفي زمنه حصل شركة الشوسه بين حمص وطرابلس وفي نهاية ايام ذلك الوالي الذي قبله واول ولايته لدمشق هذه تفاقم الشقاق بين الدروز وبين اهالي قرية ام ولد في حوران كما هي عوائدهم لهذا العهد وافضى الحال الى وقوع مذبحة بين الفريقين هلك فيها عدد فكان من حكمة هذا الرجل واصالة رأيه واطلاعه على دخائل الامور وعوائد القوم واسباب شقاقهم من القديم الى الآن الذي بسببه اتعب رجال الحكومة افتكر ان يرسل هيئة من اولي الوجاهة والعلم ممن لهم معرفة بمداراة القوم وعوائدهم وارسلهم وتمكن بذلك من اطفاء نار الفتنة واقرار الصلح بينهم ورجوع العلائق الى مجاريها وكان فكر سلفه تجريد العساكر وتأديبهم بالقوة ولكل وجهة وفي ايام ولايته الاولى على دمشق صادف انقلاب الدولة العثمانية المقيدة من يوم تأسيسها حكومة دستورية شوروية بهمم جماعة من رجالها وتبينهم للسلطان عبدالحميد ثمرات وفوائد الشورى لكنها ما كاد ابناء هذه المملكة يصافحون الحرية بايديهم حتى تقلص ظلها لعدم استعداد اولي الامر لذلك ، ووجود الدخلاء الذين لا ترضيهم سعادة هذه الدولة وقد طالت مدته في هذه المرة فانه بقي الى سنة ١٣٠١ .

ثم في سنة ١٣٠١ جاء بعده راشد باشا . لولايته الثانية على دمشق تقلد هذا الرجل ولايات عديدة . خصوصاً في البلاد العربية كان ذا همة عظيمة لادارة شئون البلاد الا ان فيه خصلة ذميمة وهي الطمع . فاداه ذلك الى امتداد عينه ويده الى ما في ايدي الناس فانفتح باب الرشوة في زمانه وتقرب اليه اصحاب الاغراض والمطامع . فطمست هذه المفسدة على جميع خلاله اللطيفة نعوذ بالله من طمع يهدي الى طبع وتحقق ما قالوا ان المرتشي تموت

شواعره واحساساته التي تدعوه الى مكارم الاخلاق ومعالي الامور وقد اقام بدمشق ثلاث سنوات لم يقع في مدته شيء يستحق الذكر سوى فصل بيروت عن دمشق وانقسمت ولايتها على حدة واتبع لها طرابلس وعكا واللاذقية ونابلس وكان ذلك في آخر عهد ولايته وفي ذلك التاريخ ايضاً فتح سوق الحميدية الممتد من باب البريد الى سوق الجديد منه ينفذ الى جادة الدرويشية وفي زمنه تأسس المكتب الاعدادي الملكي .

ثم جاء بعده نظيف باشا سنة ١٣٠٤ ولم يحصل في مدته عمل عمراني يعود بالمنفعة على العموم سوى امره بتقسيم دائرة البلدية الى اربع اقسام ليحصل المناظرة وتحصل الفائدة للبلدة وباللاسف كان الامر بالعكس الا انه كان ميالا للتأليف بين العناصر المختلفة التي تقطن هذه الولاية ساعياً بالفعل في اسباب التآخي ونبذ موجبات التنافر وكان له ولع في لعب الشطرنج وله شغف بمجالس الطرب وفي سنة ١٣٠٦ عين مصطفى عاصم باشا لولاية دمشق ومات بها بعد ولايته من بغداد وهو رجل قضى اغلب عمره في الجندية الى ان ترقى به الحال الى المشيرية وقد امتزجت التربية العسكرية بلحمه ودمه فاكتسب منها الحزم والشهامة والصرامة في تنفيذ الاوامر حتى صادف في زمنه بعض وجوه البلدة تشكوا من احد رؤساء العدلية اسمه عبدالله افندي الصباغ من علماء طرابلس فما كان منه الا الانتصار لهذا الموظف وقلب المسئلة تجاه دار السلطنة على الوجوه المذكورين واستحصل الامر بتبعيدهم عن دمشق وهم : علي افندي الدالاتي واحمد افندي القوتلي واحمد بك العظم واسماعيل افندي الغزي وسليم افندي العمري وابو الخير افندي الحمصي . ولبثوا في منفاهم حماة الى ان عادوا لدمشق وبهذه الاسباب تباعدت الناس عن محبته وهو في حد ذاته كان رجلا ورعا مستقيما يكره كل مأمور يسمع عنه الرشوة يميل طبعه الى الشدة والصدق في القول . وفي سنة ١٣٠٨ عين عثمان باشا المشير والياً وقومانداناً لدمشق ولم تطل ايامه حتى نقل الى الحجاز .

ثم جاء بعده اسماعيل كمال بك بالوكالة وهو لطيف اللقاء حسن السيرة لم

يكن شيء يستحق الذكر تمامه . وفي سنة ١٣٠٩ عين والياً لدمشق رؤوف باشا الوزير الشهير في مصر والديار الشامية وكان ذا همة سامية في ترقية المدارس العالية وميل عظيم الى المدارس الدينية وارجاع اوقافها لها واحياء شرط الواقف من الاندراس طمحت نفسه الى تأسيس كلية اسلامية يحشر اليها فطاحل المدرسين من فحول العلماء ليتخرج منها علماء محققون يضاهون متخرجي الجزويت والذي حدا به الى ذلك انه زاول شيئاً من علوم الدين ورأى ما للعلماء فيها من الخلافات وفيها ما لا طائل تحته فنفرت نفسه من ذلك لتوافر وجود علماء الدين وكان يكثر من مجالستهم ويستدعي محاوراتهم في المسائل المبهمة الدينية فيرتاح لذلك كثيراً وكان يحب الحقائق ويبغض الوهميات والخرافات الحشوية في الدين فرأى ان هذه المدينة في حاجة شديدة الى كلية مثل الازهر يتلقى بها ابناؤها علوم دينهم على الطريقة التي يحبها هو وكل سليم التصور وسعى في ابراز هذه الامنية من القوة الى الفعل وعدم وجود الاموال الكافية لهذا العمل كان المانع الاقوى لانجازه وحبذا لو تم ذلك في ايامه لان البلاد في حاجة الى ذلك اكثر مما كان يتصوره هذا الوالي لفقد العلم بفقد رجاله وفي ايامه شبت النار في الجامع الاموي واتت على جميعه كما سنذكره لك مع تفصيل اسباب هذا الحريق في باب الجوامع . وفي سنة ١٣١١ عين عثمان نوري باشا والياً على دمشق المرة الثانية وهذا الاعرج هو صاحب الوقائع والاختلافات مع اشراف مكة حين كان والياً بها وفي ايامه انقضت حركات الدروز العدوانية بين قبائلهم وزعمائهم ضد مأموري الحكومة بأسباب سوء تصرفهم وادارتهم في تلك الاصقاع وامتدت تلك الحركات وتعاظمت فالجأت الحكومة الى سوق الجيوش لتأديبهم وارجاعهم الى الخضوع والطاعة وعينته قائداً لتلك الجيوش وكان لهذا الوالي طرق غريبة في الرشا واستخراج اموال الناس واحتيال عجيب على الاغنياء فجمع بتلك الوسائط اموالا طائلة لذلك لم يكن يهمه من احوال البلد شيء الا اصطياد الدراهم والدنانير وكان كلما رأى من احد الوجهاء انحرافاً خشي من اتفاقهم واتحادهم عليه فيسعى بوساوس ابليسية حتى يفرق

بينهم وبلقي بينهم العداوة والبغضاء وبذلك بقي آمناً من ناحيتهم . وما ألطف ما قاله الشاعر قديماً مما ينطبق عليه :

وزير قد تكامل في الرقاعة | يولي ثم يعزل بعد ساعة
اذا اهل الرشا اجتمعوا لديه | فخير القوم افضلهم بضاعه

وفي سنة ١٣١٢ عين في محله والياً لدمشق حسن رفيق باشا والي بغداد السابق وفي زمنه تشيد في الشام مكتب لاخراج معلمين لمدارس الحكومة وتشكل لواء الكرك وتعين له حاكماً ادارياً حسين حلمي احد وزراء الدولة العثمانية الذي يعتمد عليه في آخر عمره . وفي زمنه انتقضت حركات الدروز وارسلت لهم الحكومة هيئة اخلدتهم الى السكينة وليس له ما يستحق الذكر الا اجتهاده واهتمامه في الاسباب المقتضية لمباشرة عمارة الجامع الاموي على الهيئة البديعة التي تراها اليوم وسعيه في جمع الاعانات من الاهلين والقرى وكان يباشر الوقوف على العملة بنفسه رجاء المثوبة والاجر . وفي زمنه عمر طريق الاربعين في جبل قاسيون الى تربة الشيخ خالد النقشبندي الشهير وكان ذلك بهمة وكيله عبد الحق نصوحي بك والي بيروت اذ ذاك حين ذهابه الى التفتيش . وفي زمنه تم تمديد الخط الحديدي بين مزيريب والشام ثم بين بيروت والشام . وبذلك سهلت المواصلات وراجت الحركات التجارية بين الساحل ودمشق

وفي سنة ١٣١٣ عين في محله حسين ناظم باشا ذلك الرجل الذي كان ناظر الضبط اي مدير الامن العام بدار السلطنة وبوقته وقعت كائنة الارمن المشهورة التي عملوا فيها على الفتك بالخليفة السلطان عبد الحميد فعثر على دخائلهم وخبايا مكيدتهم في اهل دار السلطنة . وقد توقفت الحكومة بهمة هذا الرجل على نبش نواياهم الخبيثة وجمع مصنفاً بذلك

اما الاصلاح الذي قام به بدمشق وعمارة المدينة وبث روح المدنية في العشائر والبوادي واسكانهم بالاراضي الخالية المهجورة والمتروكة فهي ديدنه الذي فطر عليه واعتاده وهواه الذي خالط قلبه وفؤاده

ومن أعماله العمرانية التي زادت مدينة دمشق جمالاً ورونقاً فوق جمالها سعيه بانشاء حي المهاجرين بسفح جبل قاسيون وكان فكره اعطاء جميع الاراضي كل انسان يحب ويهتم بعمارة وبناء دار مجاناً بشرط قبوله المدة المعينة له . وقد بنى داراً هو لنفسه مخصوصة لسكناه وهي من اجمل البنايات التي بنيت في ذلك الحي . وفي ايام حكمه للولاية صادف مجيء غليوم ملك المانيا الى دمشق . وكانت الالفة مرتبطة بين ذلك الملك وبين السلطان عبد الحميد وارسل معه جملة من الوزراء منهم المشير جواد باشا الصدر الاعظم اذ ذاك الذي تعين مشيراً لعسكرية دمشق فيما بعد وهو من اكبر عظماء رجال العسكرية مهارة وكرماً وافضلهم اخلاقاً ولو كنا بصدد ترجمة هذا الذات لاوسعنا الكلام في بيان مزاياه ونواياه الحسنة في رقي العلم والمعارف والمدارس وصدقه بالمحبة لاحياء هذه البلاد لانه مولود بها وحصل لهذا الملك استقبال عظيم وكان شديد السرور من رؤيته لدمشق خصوصاً منظر في المهاجرين وتأسست باسمه مصطبة وقف عليها وكانت مقر استراحته وبهمة هذا الوالي عمرت دائرة الحكومة الموجودة اليوم جانب دائرة البلدية التي امر بعمارتها في منظرها البهيج وانشائه لمستشفى الغرباء بمقبرة البرامكة الموجود اليوم في مرآه البديع وانشاءه صيدليته المخصوصة ومن اجل اعماله انفعها واجلها وارفعها اهتمامه لجلب ماء عين الفيجة الزلال النقي في امنية التي تحت الارض الى الخزان الذي في الصالحية وفي حي المهاجرين وتقسيم الماء على السبل في احياء المدينة كلها مع معابدها بنسبة هندسية بحيث لا يحرم من شربه قريب ولا بعيد فقير ولا غني . وقد كان اهل دمشق الا الخواص منهم يستعملون في الشرب والطبخ ماء الانهر المملوئة بالجراثيم القتالة وكانت الامراض الفاتكة تراوحهم وتغاديهم حتى أتيح لهم هذا الوالي وانقذهم بعمله هذا من مخالب المكروبات

ومن جملة اهتمامه وتوفيق اعماله خط البرق وربطه من دمشق الى المدينة المنورة وكان مأموراً من قبل السلطنة بهذه المهمة الفريق صادق باشا المؤيد العظمي الدمشقي الشهير الذي ما ذهب لمهمة من قبل الخليفة عبد الحميد الانجح

بها ولهذا الوالي اليد البيضاء والسهم الاوفر في مساعدة المشير كاظم باشا الازميرلي على انجاز مشروع الخط الحديدي الحجازي الذي امر بانشائه الخليفة عبد الحميد وارسله ناظراً لهذا العمل وشكل له مجلساً . تحت نظرة في قصره العالي برآسة الكاتب الثاني له الوزير الشهير احمد عزت باشا العابد من سراة دمشق لجمع الاعانة من المسلمين وتهيئة الاسباب والمعدات الحديدية والفنية لاخراج هذا العمل العظيم الذي من اقل فوائده ربط الاقليمين الشامي والحجازي احدهما بالآخر . وقد نتج هذا العمل في مدة وجيزة وأمر الخليفة بان يكون وقفاً عاما لانه عمر من اعانة جميع افراد المسلمين في الشرق والغرب

ومن اعمال هذا الوالي المشكورة جعل سقف الاسواق العظيمة من حديد حتى تمنع سريان الحريق من جانب الى جانب كما وقع غير مرة من اعماله المبرورة توزيع الاراضي العامرة باطراف الولاية على طوائف المهاجرين من كافة الاقطار الاسلامية وتهيئة السبل لهم لعمارتها وانشاء قرى لايوائهم وقد اثمر عمله هذا ثمرات مهمة ومن اعماله الحسنة تجاه الطائفة الرومية بالديار الشامية تشبثه لهم عند المراجع المقتضية بان يكون لهم بطريرك عربي وطني حفظا لحقوقهم القديمة التي كانوا محرومين منها مدة طويلة وقد رجعت اليهم وفي زمنه انشئت التكنة العسكرية الموجودة اليوم في منظرها الجميل في البرامكة المطلة على دمشق وانشاء سوق الخوجة النافذ من امام مسجد السنجقدار وفي ايامه تجددت اكثر دوائر الحكومة في الاقضية

وكل اعماله ترمي الى غايات عمرانية عظيمة وضع اساسها وهيأ اسبابها ربما اتينا على بعضها ولم يقدر الله وجود رجل مثله اتى بعده ليتمم ما نوى من اعماله وبقي اثنتي عشرة سنة

وفي سنة ١٣٢٥ اتى بعده شكري باشا احد وزراء الدولة العثمانية واليا على دمشق . وكان لين العريكة سهل القياد ضعيف الارادة بشوش الوجه يتأنى في اموره له ولع حسن في مجالس الطرب

وفي سنة ١٣٢٦ من ايام ولايته اعلن الدستور العثماني وانقلبت الحكومة

شوروية وهي المرة الثانية التي انقلبت فيها هـذه الدولة في زمن السلطان عبدالحميد واكتسبت صبغة الحريه والمساواة . وتاريخ نشأة هذه الحركات التي ترمي الى هذه الغاية كان قديماً بافكار بعض رجال هذه الدولة ، يرجع آخره الى آخر ايام السلطان عبد العزيز ولم ينجح في تلك الايام لما صادفه من المعارضات من اصحاب النفوس المشربة بروح الاستبداد ، والملك المطلق ولكن في هذه المدة الاخيرة دبرت المسألة بصورة خفية . وانتشرت سراً باسلوب عجيب . رتبه رجال عارفون بمجاري السياسة وسعوا لتشويق الامة باساليب مختلفة الى المطالبة بالشورى وهدم اركان الحكم المطلق حتى تم لهم مرغوبهم . معتمدين على قوة السيف والسواد الاعظم من الامة ولم يكن ذلك برائق لدى السلطان عبد الحميد لعلمه بان الامة ومشوري الشعب ليس عندهم قابلية للحكم الدستوري وربما هذه الآلة لعدم معرفة استعمالها ضرتهم من حيث لا يشعرون .

ولكن تدابير القوم الخفيـة التي ظهرت من جهة سلانيك والروم ايلي . واستعداداتهم القوية ازرت على عزائم السلطان ورجاله في المابين فلم الدست وعزل وانزل عن عرش السلطنة مكرهاً وختم به دور الحكم المطلق بعـد الوقعة المشهورة بدار السلطنة وهي حادثة ٣١ مارت المشهورة وقد ظهر عند ارباب الوقوف والعرفان انها ليست مدبرة من قبل عبد الحميد المخلوع كما ينوهه البعض بل هي ناشئة بطبعها ولقصد منها خلعه فقط .

وقد اثنى بعض المتعقلين من رجال دار السلطنة عن وقوف هذا الملك تجاه هذه الوقائع بالصبر والثبات وعدم الطيش مع سلامة صدر وصفاء سريرة . ويدلك على حسن نياته تجاه امته هو عدم قبوله لتكليف قواد الجيوش التي كانت في معيته ومحافظة عليه بالمدافعة والمقابلة لجيوش محمود شوكت باشا التي اتت من سلانيك ودخلت دار السلطنة مع قائدها بدون ان تهرق الدماء من الطرفين وان يكن وقع قتلى في اثناء ضرب المدافع وقت الدخول على بعض المواقع

العسكرية الا انه بالحال استتب الامن وراقت الاحوال ولا بد لمؤرخي الاتراك من اظهار هذه الحقائق والله اعلم بما تكنه الصدور .

وقد جرى في ذاك التاريخ بدمشق احتفالات باهرة واجتماعات متكاثرة ، اظهاراً للفرح والسرور الذي دخل عليهم ولم يكن يخطر لهم في بال ما ظهر بعد ذلك من الاختلافات بواسطة الجمعيات وكثرة الاحزاب السياسية وظهور نزعة العنصرية .

وفي ذاك الوقت تولى الخلافة ومقام السلطنة محمد رشاد وعقب توليته ظهرت فتنة الارناؤط التي نشأت من سوء ادارة وتدبير بعض رجال الحكومة ومأموريها في تلك البلاد فحصلت تلك الحروب بين جيوش الحكومة الدستورية الجديدة وبين الاهلين ولعدم تبصر زعماء البلاد بعواقب الامور كانت النتيجة ضياع تلك البلاد من يد الحكومة الاسلامية وعدم توفق اهلها لحفظ استقلالهم وحريتهم تقاسمتها ايدي المستعمرين المجاورين لها .

وقد اظهر والي دمشق المذكور يومئذ الثبات وعلو الهمة تجاه تلك الاجتماعات العظيمة ، التي حصلت ، والمظاهرات الفخيمة التي بقيت مدة ثلاثة اشهر من قبل السكان .

وفي تلك السنة وقعت حادثة رمضان الشهيرة بدمشق التي ادهشت الحكومة واخلت الامن وقد اظهر هذا الوالي بهذه الحادثة من حسن السياسية واخلاد السكينة وارجاع الامن الى نصابه ما شكر عليه وكان سببها القاء الدرس الديني في الجامع الاموي من قبل صاحب مجلة المنار المصرية العالم الشهير الشيخ رشيد رضا نزيل دمشق اذ ذاك فاعترضه بعض رجال العلم في بعض المسائل المتعلقة في زيارة القبور وخالط الامر بعض العوام وهجموا على قتل الشيخ ولولا اني تداركت الامر بنفسي واخذت الشيخ الى داري التي في قرب الجامع الاموي لوقع ما لم تحمد عقباه وقد دون لهذه الحادثة احد الافاضل سليم بك الجزائري تاريخاً مخصوصاً بها وطبعه في مصر .

ولم يحصل في ايام هذا الوالي شيء يستحق الذكر سوى امره بتقسيم البلدية

الى دائرتين وامره بانشاء الجسر الجديد المسمى بجسر الحرية امام حديقة الامة عند جامع السليمانية في المرج الاخضر وقد ظهر باجمل شكل وابدع صنع .

ثم في سنة ١٣٢٧ تولى بعده ولاية دمشق حسين ناظم باشا وتقدم ذكر ترجمته وما وقع في ايام ولايته الاولى ولم يحدث شيء يستحق الذكر في مدة ولايته الثانية لانها كانت وجيزة سوى انه ظهرت بدمشق الجمعية المحمدية المشهورة المنسوبة لجمعية دار الخلافة التي انتهت في حادثة ٣١ مارت المتقدمة وقد اظهر من التعقل وحسن الادارة في ابطالها .

ثم في سنة ١٣٢٨ تولى بعده اسماعيل فاضل باشا الفريق احد امراء العسكرية وقد امتزج بالتربية العسكرية فاكتسب منها الشدة والضغط ولا يخفى بان الوظائف الادارية سياستها غير السياسة العسكرية وقد حصل في ايام ولايته عصيان بعض الاشقياء في جبل حوران وجبل الدروز وقد حسن لحكومة دار السلطنة بارسال حملة عسكرية لاجل تأديبهم وبهذه الواسطة تمكن للحكومة تحرير نفوس اهل حوران واخضاعهم للخدمة العسكرية وقد لبت دار السلطنة لذلك وارسلت احد رجالها وقوادها الفريق سامي باشا الفاروقي البغدادي رئيساً للحملة العسكرية الحورانية وقد توجهت الحملة لهاتيك الاصقاع وبها سكنت الاحوال وهدأت الخواطر واهتم رئيس الحملة المذكورة بمعاضدة هذا الوالي من تأسيس بنايات للعسكر مخافر ومواقع للمحافظين في المحلات المهمة من جبل حوران لحفظ الامن والراحة . وقد صرفت الحكومة مبلغاً عظيما لهذه الغاية الا انه مع الاسف كانت نهايتها مأوى الاشقياء .

وبعد ان توفقت الحكومة لتحرير نفوس الاهلين ولم يكد الحال يستقر في حوران على ما يجب حتى ارادت الحكومة ان تحصي نفوس سكان لواء الكرك ومعان كما احصت سكان لواء حوران وبعد اصرار ذلك الوالي . والاختلاف الذي حصل بينه وبين رئيس الحملة الحورانية وبين متصرف اللواء طاهر بك من متخرجي مكاتب دمشق وهم باثناء بدأ المباشرة في العمل اذ ظهر العصيان

في عشائر العربان ونشر سكان اللواء والاهلين وانقضوا على الحكومة وصادف ان قطعت الحكومة مرتبات البدو وعشائر بني صخر والخرشان وغيرهم من عشائر العرب ممن كانوا يتقاضون انعاماً من السلطنة العثمانية منذ حكمت هذه البلاد لحراسة الطرق وحفظ الامن على ابناء السبيل فتكونت هذه الاسباب وقام البدو الذين حرموا من رواتبهم وهي اربعة الاف ليرا او اكثر في السنة وسطوا على بضع محطات من السكة الحجازية واقعة على طول زهاء مائتي كيلومتر في اراضي الكرك وخربوا بعض القضبان الحديدية ونهبوا احد القطارات التي كانت قادمة من المدينة المنورة ، وسلبوا ما كان مع ركابها من مال ومتاع بمبلغ جسيم عظيم ، وقتلوا وجرحوا بعض موظفي الخط الحديدي ، وكان ذلك على بضع ساعات من مركز حكومة الكرك قريب موقع القطرانه .

وقام الكركيون باديهم وحاضرهم واطالوا يد الاعتداء والنهب والسلب على التجار والموظفين والحامية ولو لم يلجأ الموظفون مع عيالهم الى قلعة الكرك الحصينة التي هي داخل البلد وبقوا فيها عشرة ايام ريثما وافاهم المدد من الشام لكانت قضت الثورة عليهم جميعاً ، وقد اختلفت الاقوال بعدد من هلك في الفتنة المذكورة من التجار والضباط والموظفين والجند ممن كانوا يتجولون في الارياض لاتمام اعمالهم وقد حرقت نيران هذه الفتنة الاماكن الاميرية كلها ونهبت نقود الخزينة ونقود ادارة حصر الدخان ونهبت دور الموظفين واحرق قسم منها وخرب قسم عظيم من المدينة باطلاق القنابل وافواه المدافع عليها من القلعة وقطع العصاة الفجرة السلاسل والاسلاك البرقية وهاموا على وجوههم في البراري والجنود يتأثرونهم في السهل والوعر .

وقد نوى اهل قضاء معان القيام بمثل هذه الفظائع في الوقت الذي قام فيه اخوانهم في الكرك وقد اهتمت الحكومة في الامر ورجعت السكينة لنصابها وراقت الاحوال وجازت الجزاء الشديد كلا بعمله .

وهذه النزاع وهذه الفتن هو ناشيء عن سوء ادارة كبار المأمورين وارائهم

المعكوسة وعدم تبصرهم واهتمامهم بنتائج الامور ومن الغريب تطبيق قوانين المدنية على مواقع الهمجية .

ومن اعماله الحسنة اهتمامه في بناء مدرسة دار المعلمين التي بنيت في فناء التكية السليمانية وتنظيمه حديقة الامة واعتناؤه بتوسيعها التي غدت نزهة للناظرين وبهجة للقاصدين .

وقد كان هذا الوالي متشبثاً لاعمال مهمة عمرانية يخدم بها هذه البلاد لما كان عليه من سعة الذكاء والتفنن في سبيل العمران ورقي البلاد لكن مع الاسف انصرفت تلك الهمة بالمراسلات مع حكومة الاستانة والمخالفات والمعاكسات بينه وبين سامي باشا المذكور بها مدة ولايته واحترمت البلاد من حسن نيات الذاتين المشار اليهما

ثم تعين بعده لولاية دمشق سنة ١٣٢٩ علي غالب بك احد اعضاء مجلس التمييز وكان سليم الصدر غراً ليس له دراية في امور الادارة وهو ضعيف الارادة سلم امور ادارته الى احد اخصائه لتدبير شئون الولاية لم تطل ايام ولم يحصل بها شيء يستحق الذكر

ثم جاء حسين ناظم باشا للمرة الثالثة لولاية دمشق وكان مرسلاً من قبل رجال جمعية الاتحاد والترقي التي بيدها زمام امور الدولة العثمانية لاجل ان يخرج رجالاً يترشحون لعضوية مجلس النواب في دار السلطنة يكونون من حزبهم نظراً لكثرة معارضيهم ومخالفيهم في البلاد العربية ولعلمهم بمحبة رجال هذه البلاد لهذا الوالي لما سبق من اعماله المبرورة في مدة ولاياته السابقة وقد جمع بين هذا الحزب وبين المعارضين باخراج وترشيح النصف لكل منهم .

والسبب تلك المعارضة والمخالفة من مفكري هذه البلاد هو عدم تعين الاكفاء منهم في مواطنهم وترجيح غيرهم من الغرباء بدعواهم عدم الثقة بهم وعدم اعتقاد اساطين رجال جمعية الاتحاد والترقي بانهم يمشون على افكارهم ويتساهلون بامر حقوق بلادهم .

وقد ثبت لدى اكثر المفكرين بان الفكرة التي كانت في مخيلة السلطان عبدالحميد بان الشعب ليس عنده قابلية للحكم الدستوري قد اظهر اثرها عند تولى امر الحكومة لاناس كانوا هم اعظم واشد استبداداً من ذاك السلطان فكان الناس برجل واحد يستبد برأيه فانقلب ذلك لآراء جمعية عظيمة مختلفة المشارب ، متفاوتة المآرب ، قد شوهت سمعة خيار الاتحاديين منهم في نظر العالم الاسلامي وكان بسوء ادارتهم انسلاخ اكثر البلاد عن حكم هذه الدولة في هذه الآونة .

ثم في سنة ١٣٣٠ تولى بعده امر ولاية دمشق كاظم باشا العسكري مدير السكة الحجازية وناظر اعمالها وقد ارسل لهذه الولاية من قبل حزب الائتلاف الذي كان معارضاً لحزب جمعية الاتحاد والترقي وبذاك الوقت حصل حرب البلقان المشئوم وخسرت الدولة به سلانيك ، وغيرها من الولايات البلقانية ولم يحصل في زمنه شيء يستحق الذكر لعدم طول ولايته .

ثم جاء بعده لولاية دمشق سنة ١٣٣١ عارف بك المارديني وحيث انه من نبغاء العرب نأتي على ترجمته ملخصاً هو من الرجال المخلصين لبلادهم العربية ولدولته الاسلامية ولد بماردين سنة ١٢٧٠ ومات في ثغر الاسكندرية سنة ١٣٣٩ تلقى مبادئ العلوم على والده السيد يوسف صدقي وارسل الى دار السلطنة فاكمل تحصيل علومه الشرعية في جامع الفاتح ثم بمدرسة الحقوق والقضاء وعين في القضاء الشرعي ثم نقل الى الادارة ثم الى القضاء الاهلي مستشاراً فعضواً بمحكمة التمييز فعضواً في شورى الدولة ثم والياً للبصرة فوالياً على سورية وهذه آخر وظائفه الى ان اقبل في سنة ١٣٣٣ واستقر في مصر اظهر في ادوار حياته من الحكمة والسياسة والكياسة والاعمال المرضية ما يشهد له بها الخاص والعام وكانت حياته مملوءة بالمجد والشرف والسيادة والدراية علاوة على انه كان يحسن كثيراً من اللغات الاجنبية وكان شهماً غيوراً مقداماً عالماً قوى الحجة سلس العبارة خطيباً مصقعاً وديع الاخلاق لين العريكة محباً للفقراء معظماً للعلماء والعترة النبوية مطبوعاً على الجود والكرم لا يمل من

العبادة ولا يمل مجالسته احد . وقد بث في بلادنا روحاً جديدة واخلاقاً حميدة . وكان من مؤسسي جمعية الاخاء العربي التي تشكلت بعد الدستور في دار السلطنة . وفي ايامه تم تنظيم المعهد الطبي الذي سعى لتأسيسه الوالي السابق حسين ناظم باشا وتشبث في زمنه .

وفي زمن ولايته تقوى حزب الجمعية الاصلاحية العربيـة في دمشق وبيروت ولبنان تبعاً لمصر واميركا من اهم الرجال السوريين ؛ وبواسطة المؤتمر العمومي المنعقد في باريز نالت الجمعية المذكورة من حكومة الاستانة اثنى عشر مطلباً . وقد بدأ فعلاً بتطبيق اربعة بنود منها وارجئ الباقي . ومن تلك البنود الاربعة ان تكون المعاملات في جميع الدوائر في البلاد العربية باللغة العربية وتقديم موظفي الاهلين على غيرهم من الغرباء واخذ اعيان وزعماء البلاد العربية للمجالس العالية في دار السلطنة ومشاركة الاتراك بها ، فوضع عن دمشق الشام السيد عبدالحميد الزهراوي الحمصي وعبدالرحمن بك اليوسف ؛ وعن لبنان وبيروت محمد عبدالله بيهم وسرسق والبستاني وآل كنخدا من حلب ومحي الدين بك بن نقيب بغـداد وطالب بك بن نقيب البصرة وغيرهم من اعيان البلاد العربية الذين لم تصل الينا اسمائهم . وكان الشريف علي حيدر باشا والشريف ناصر عن الحجاز . والبند الرابع ان يكون ولاة الولايات العربية وحكامها من ابناء العرب وقد بوشر ذلك بالفعل بعد غطرسة الاتحاديين القابضين على زمام الحكم في سلطنة محمد رشاد الخامس .

وقد ظن كثير من اهل دمشق ان هذا الوالي يساير الاتحاديين على جميع اعمالهم ويروج افكارهم مهما كانت مضرة بالمجموعة العربية . ومن اجل ذلك حصل في دمشق عليه ضجة قوية ممن كان يظن به ذلك مما سبب عدم انتظام حركته الادارية حتى سئم ادارة الولاية وسئمته .

وقد صادف في ايام ولايتـه فتح طريق لخط الجر والتنوير من جسر الابيض في الصالحية الى جامع الشيخ الاكبر وآخر الى محلة المهاجرين ؛ وفي ذلك التاريخ فتحت الجادة الرشادية النافذة الى باب السريجة من جانب محطة

السكة الحجازية التي سميت بعد الاحتلال بجادة كاترو ؛ وقد جاء في ايام ولايته ايضاً الفريق زكي باشا الحلبي معيناً قائداً لعموم الجيش الرابع قبل بداية الحرب العامه ولكونه عربياً انسحبت يده في اثناء الحرب كما سيأتي في محله .

وفي سنة ١٣٣٣ جاء بعده خلوصي بك ناظر الخط الحجازي الكبير ومن رجال العلم في الهندسة . وقد كان طيب القلب عالي الهمة صدوقاً بقوله . محباً لمصلحة العباد واصلاح البلاد . لافرق عنده بين الكبير والصغير . يصرخ بالمدافعة عن حقوق الضعفاء بلا خجل ولا وجل . ويكره توسط احدهما في امر غيره . وكان يصرح لامراء العرب ان يتفاهموا معه وجهاً لوجه .

وقد امتاز على غيره من الولاة وكثير من الحكام بانه كان يستعمل طريقة غريبة لقطع دابر النميمة والفساد والحسد من هذه البلاد . وهو انه في اثناء ماينم احد على احد امامه يطلب الشخص حالا الذي تمسه النميمة ويكلف النام بان يتمم الحديث بوجهه ان كان ناصحاً صادقاً ليأخذ جواب المقدوح منه بمواجهته دفاعاً عن نفسه ؛ وقد انقطع دابر هذه الاخلاق في ايام ولايته بهذا السبب . وابتدأ اول عمل له بفتح الجادة الخلوصية من امام المستشفى اول جادة الصالحية المنتهية الى القصاع . وبقيت تلك الجادة في حيز التخطيط الهندسي الى ان تم تنظيمها في هذا العهد وسميت بشارع بغداد .

وفي ايامه توسل لدى المراجع الايجابية لتأسيس معهد حقوق في دمشق اسوة بالعاصمة . ثم تم تنظيم افتتاحه في عهد الحكومة العربية بعد ذهاب الاتراك

وفي ايام ولايته ابتدأت الحرب المهلكة العامة والاحوال المشوشة ودخلت الدولة العثمانية مع الالمان والنمسا بها وحصلت الحملة المصرية . وبدأت الحكومة مع زكي باشا القائد العام بالعمل من جمع الابل والاستعدادات الحربية لتلك الحملة من جمع قلوب الناس ومشائخ العشائر والعربان على معاونة الدولة ومزيد الثقة بها . وفي هذه الايام العصيبة واليوم الرهيب رفعت حكومة دار السلطنة يده عن العمل وارسلت خلفه في منصبه هذا احمد جمال باشا الداغستاني المشهور

بالكبير . وقد تمت الحملة بايامه وذهب قرب القناة والترعة المصرية وانفشلت عساكره ورجع .

وسبب فشل تلك الحملة هو تأخر جمال المذكور عن الحركة سنة كاملة بعد وصوله وبسبب هـذا التأخير اضر ضرراً بيناً بوضعية تلك الجبهة . وكان الخصم قد استعـد الاستعداد الكافي للمدافعة عن نفسه وعن الدخول لمصر الامر الذي نقم عليه كل من يعرف في هذا الفن العظيم من رجال الحكومة المركزية . والالمان انفسهم الذينهم كانوا معـه رؤساء وقواداً في الجيش وكان مقصد الالمان وفائدتهم من هـذه الحملة شغل عدوهم الانكليز وعسكره من جبهات الحرب المهمة في بلاد اوروبا .

لم تطل مدة ايام هذا الوالي بعد مجيء جمال باشا المذكور لهذه البلاد لكونه كان معاكساً لميله وآرائه بعد اطلاعه على سوء نيته التي كان ينويها نحو هذه البلاد ورجالها النابغين بعـد أن الح بكل قوته وعجز عن اقناع جمال بهذه السياسة المضرة في مستقبل البـلاد وخطأ اجتهاده بالارهاق والنفي والقتل والحبس والتجويع . وقد كثر الجدال بينهما بخصوص اعيان البلاد ومفكريها الذين سيقوا لديوان الحرب العرفي المشكل بأمره بعاليه في جبل لبنان . ولما لم يصغ احمد جمال المذكور لنصح وقول ذلك الوالي الحكيم العظيم المخلص لدينه ودولته بعد ان بين عواقب هذه الامور ووخيم نتائجها رجح الاستقالة ونفض يده من حكم هـذه البلاد وتركها بين يدي احمد جمال يعبث فيها ما شاء وشاء له هواه من قتل الابرياء وسفك الدماء وتجويع الاكباد وتيتيم الاولاد وتقطيع الاشجار وتخريب الديار وتوقيف الحال بالبلاد . وبعد ذهاب هـذا الوالي ادبرت امور الولاية بالوكالة من قبل توفيق بك احـد رجال حاشية ذلك الرجل المتهور الغاشم .

ثم جاء عزمي بك في سنة ١٣٣٤ من دار السلطنة والياً لدمشق وهو مستشار نظارة العدلية وكان من الحافظين المتضلعين في مواد القانون . كانت مهمته تأليف القلوب التي نفرت من اعمال احمد جمال وعدم مداخلته في

شؤون الولاية الملكية والادارية . ولما لم ينجح بعمله رجع من حيث أتى ، وادير ت امور الولاية من قبل احمد بك أحد رجل احمد جمال ومن حاشيته الذيهم كانوا على شاكلته . وفي اثناء هذه الفترة نفذت مقررات ديوان الحرب العرفي الجائرة الصادرة من مجلس عاليه الناطقة بالاعدام لنخبة صفوة شبان البلاد ومفكريها وهم : شكري بك العسلي ورشدي بك الشمعة وعبدالوهاب بك الانكليزي وعبدالحميد افندي الزهراوي وشفيق بك المؤيد وجلال بك البخاري وغيرهم من مفكري بيروت ونابلس وحيفا من اعيان البلاد الذي كان يكتفي بتبعيدهم اذا كان هناك جرم يستوجب المجازاة اللهم اذا كان ذلك مقروناً بحكم عادل من هيئة عادلة لا تأثير عليها ولا ضغط .

وقد اكتفينا بالالماع بذلك الدور المرعب الذي لعبه ذلك السفاك احمد جمال في هذه البلاد وبيان خطأ تلك الصلاحية الواسعة التي اعطيت له من دار السلطنة التي كانت سبباً لتخيلاته بان يكون خديوياً عليها مثل مصر . وقد افرد مؤلفات باعماله اليومية بعض من افاضل دمشق وبيروت والقدس ولبنان مدة اقامته بهم واوضحوا تفصيل حركاته واخباره اليومية بتصانيف ومؤلفات طبع منها البعض وظهر للوجود . فاكتفينا بها لان التفصيل ليس من موضوع كتابنا . اما اعماله التي لها علاقة بالحالة الاجتماعية والاقتصادية فقد لخصت معنا في محلها وذكرناها لمناسبتها .

ولما بلغ حكومة دار السلطنة وسلطان البلاد محمد رشاد هـذه الاعمال غضبوا جميعهم وكدروا وخطئوا احمد جمال على هذه الاعمال وارسلوا تحسين بك والياً على دمشق وهو ارناؤطي الاصل . واشترط عليهم بقبول هذه الولاية في عدم مداخلة احمد جمال في الامور الادارية والملكية العائدة له وحصر ذلك الطاغية في الشؤون الحربية . وبالفعل رأت دمشق من ذلك الوالي رجلا مقداماً قوي الارادة عزيز النفس يرضي كل من دخل عليه . وبأيامه تم تكوين الطريق الممتد من امام محطة سكة الحجاز الى الجسر الجديد

التحتاني وسمي بالسلطانية لانه تخطط بزمن وكالة سليمان شفيق باشا والي البصرة السابق ورئيس امناء جلالة الملك ابن السعود ملك الحجاز اليوم .

ومن دهاء هذا الوالي ان كتب للعاصمة بيان الخطأ بتوسيع صلاحية احمد جمال وبيان حراجة الحالة التي وصلت اليها البلاد والاضرار التي حصلت بدون ان يضطر الى اظهار العداوة له خوفاً من بطشه وشره وقد ادركت العاصمة خطأها وسحبت احمد جمال وقلدت القيادة العسكرية العامة لاحد امراء الالمان بعد ان ارسلت وفداً من رجال دار السلطنة صدق على كل ما كتبه ذلك الوالي وعنت جمال باشا الصغير الذي باومه التاريخ والفن العسكري بانسحابه الغير المنتظم حين ما سقطت دمشق بيد الفصائل العربية والجيش الانكليزي ٢١
قائداً لفيلق دمشق العسكري .

وفي ذلك الوقت تم الشارع الذي سمي بالنصر والذي انشأه احمد جمال وهدم لاجله المسجد والاملاك الاهلي . وقد نشبث هذا الوالي بعد رحيل احمد جمال برفع يد العسكرية وادارة المنزل العسكري من حصر الحبوب والتصرف بها كيف شاءت مما جعل الضيق مستحكم الحلقات في كل بقعة من بقاع البلاد . وتصعدت اسعار الحبوب وكان البادي والآمر بهذا الحصر . احمد جمال مع جماعة معاونين عند العموم لم يكن من مسلك كتابنا التصريح باسمائهم من اغنياء بيروت ودمشق في اول قدومه اليها مما اوجب الضيق على جميع البلاد السورية من سوء استعمال العمال وضيق الحال وقد توفق هذا الوالي لرفع ضرر هذا الحصر وشكل دائرة باسم بورو والاعاشة اسوة بعواصم اوروبا وبها خفف الضيق عن الاهلين والمأمورين وتأمن امر معيشتهم الا ان التصرفات المضرة من بعض العمال ومن بعض التجار المتعهدين للارزاق السائرة واعطاء شاحنات السكك الحديدية لناس دون آخرين منهم اوجب الشك بهذا الوالي ومنافعه الشخصية وبغيره مثل والي بيروت ومتصرف جبل لبنان ووالي ازمير ووالي حلب باتفاقهم مع بعض الاغنياء من التجار لحصر ونقل بعض الحاجيات الضرورية التي كان يلزم بقاؤها في محلها وعدم اخراجها مما جعل لهم ثروة

عظيمة مع شركائهم التجار واستمال نفوذ مأمورياتهم لنيلها اقتداء بما سبقهم به احمد جمال ورجاله من تجار الحرير واخذه بثمن بخس من مزارعي هذه البلاد واستمال سلطتهم لجمعه وتجارته لاوروبا مما جعل لهذه الاعمال سمعة سيئة في مجلس النواب في دار السلطنة . والحاصل انها ظلمات بعضها فوق بعض لا يسع موضوع كتابنا تفصيلها .

ومن نتائج تشبثات هذا الوالي الحسنة اقناع دار السلطنة ورجال الحكومة المركزية بارجاع اعيان سوريه مع عيالهم الذين كان ابعدهم احمد جمال الى بلاد الاناضول مستنداً على صلاحيته وتنفيذ القانون المشعر انه عند اللزوم في ايام الحرب والحركات العسكرية تعطى للقائد العام الصلاحية التامة بنقل الاسر واسكانها في جهات مختلفة .

ومن جملة افكار هذا الوالي الحسنة بان رجح لدائرة السلطنة باعطاء هذه البلاد استقلالها التام وان تحكم نفسها بنفسها لانه رأى الخطر محدقاً بها من جميع اطرافها وما نفذ ذلك الا بعد خراب البصرة لان هذا الوالي ترك هذه البلاد وشأنها .

وفي سنة ١٣٣٦ ارسل خلفاً عنه لولاية دمشق رأفت بك وهو آخر وال تقلد الحكم بها من قبل الدولة العثمانية وكان ضعيف الارادة والتدبير لا يعلم من امر ادارة الولاية والحكم شيئاً .



بيان اسماء من تولى الحكم بعد ذهاب الاتراك وانسحابهم من هذه البلاد

وفي سنة ١٣٣٧ دخل الجيش الانكليزي دمشق وعلى رأسه قائده العام الجنرال اللنبي ومعه الشريف فيصل بن امير مكة الذي تولى امارة دمشق وحكمها الاداري وانيط من قبل السلطة المحتلة الى علي رضا باشا الركابي

حاكماً عسكرياً وكان رئيساً لبلديتها في ذلك الوقت وقد تشكل مجلس شورى تحت رئاسته لترتيب شكل الحكومة . ثم بعده تشكل مجلس المديرين وفي اثناء ذلك جاءت البعثة الاميركية تحت رئاسة المستر كرين من قبل مجلس الامم لاستفتاء اهل هذه البلاد عن اي حكومة يرغبون انتدابها لهم ثم بعد ذلك امر الامير فيصل بتشكيل المؤتمر السوري وجاءت اعضائه من جميع انحاء سورية الطبيعية وبعد مدة من اجتماع المؤتمر قرر ونادى بالامير فيصل ملكا على هذه البلاد لتكون الدول بعد هذا العمل تحت امر واقع . وانقلب اسم مجلس المديرين باسم وزارة مسئولة . وفي ذلك الوقت تأسس معهد الحقوق ومتحف الآثار والمجمع العلمي الموجود اليوم في المدرسة العادلية . وقد احببنا نقل ما كتبه في هذه المناسبة صاحب الخطط في الجزء الثالث صحيفة ١٥٦ ما نصه :

وبعد يومين (من ذهاب الاتراك) استدعى من فوض اليهم الامن في البلد من وجوهها حضرة الامير فيصل بن الحسين قائد الجيش وكان مرابطاً في الجيدور فدخلها ونزل في دار آل البارودي في القنوات . وهناك شرع بتأسيس الحكومة العربية وكان البريطانيون عهدوا الى اللواء علي رضا باشا الركابي من قواد الجيش التركي ومن ابناء دمشق بان يكون حاكماً عسكريا لمدن الداخلية دمشق وحلب وما اليهما بالنظر لما ثبت للبريطانيين من حسن بلائه في خدمتهم . ويقال انه كان ارسل اليهم مصور الحصون حوالي دمشق وكان وكل اليه الترك عملها وارسله القائد التركي قبيل سقوط دمشق ببضعة ايام ليجمع شمل المنهزمين من الجيش التركي في القنيطرة واعطاه مبلغاً كبيراً من المال . فادعى ان العربان سلبوه ماله وثيابه وانضم الى الجيش الانكليزي ، وهكذا ذهب من دمشق قائداً تركياً وعاد اليها بعد ايام حاكماً عربياً بريطانيا ؟ ثم قال : واطال بعض اهالي بعلبك ايديهم على المنهزمين من جند الترك واخذوا سلاحهم وسلبوهم ثيابهم وعتادهم وقتلوا منهم انتهى كلامه .

***

نكتة لطيفة من باب المصادفة

قد رأيت في احد كتب الجفر في فن الزايرجة المنسوبة للعارف الاكبر محي الدين الطائي الاندلسي ان ذهاب دولة الترك وزوال حكمها من البلاد العربية يكون في شوال يعني المقصود منها هذه الحروف على حساب الجمل ١٣٣٧ وقد صادف الامر .

وفي سنة ١٣٣٨ تولى حكم دمشق بصفة رئيس الوزارة هاشم افندي الاتاسي من البيوتات القديمة في حمص الشهيرة في العلم . بعد ان تقلد عضوية مجلس الشورى في زمن الحكومة العربية ومليكها فيصل . وبعد ان تولى رآسة المؤتمر السوري بدمشق ثم بعد ذلك انسحب الجيش الانكليزي مع قائده العام من دمشق . وفي زمنه انحل المؤتمر السوري بامر ملك دمشق فيصل الاول ونودي في الحرب ضد هجوم الجيش الافرنسي لهذه البلاد . وفي ذلك الوقت فشلت المدافعة من الجيش العربي وقواده في جبهة الدفاع في ميسلون وارسل بأسم دمشق جميل بك الالشي احد مرافقي الملك فيصل ليمنع الافرنسيين عن ضرب دمشق وايذائها . ثم دخلت الجيوش الافرنسية واخطرت جلالة الملك فيصل بالرحيل من هذه الديار كما بينا ذلك في موضعه من كتابنا هذا مجملا .

وفي سنة ١٣٣٩ تولى حكم ولاية دمشق علاء الدين بك الدروبي الحمصي بصفته رئيساً للوزارة وقت مبارحة الملك فيصل لهذه البلاد وقد امره بتسمية زملائه الوزراء وتشكيل هيئتهم وبقي علاء الدين بك على رأس الحكومة الوطنية الموقتة وبعد ان استقر الحال لفرنسا ووطدت انتدابها امرته بالذهاب مع رفقائه عبد الرحمن باشا اليوسف رئيس مجلس الشورى اذ ذاك وعطا بك الايوبي وزير الداخلية الى لواء حوران لالقاء بعض النصائح على اهلها بخلودهم الى السكينة والطاعة . وحين وصولهم الى خربة الغزالة خرجت عليهم بعض العصابات الحورانية وقتلت رئيس الوزارة والشورى . وسلم من القتل

رفيقيهما الثالث وكان لهذه الحادثة الفجائية كدر عظيم بدمشق لانها وقعت موقعاً سيئاً في النفوس بعد ان كان متصرف حوران ابو الخير افندي الجندي الحمصي ايقظهم بتجمهر عصابات حوران وعصيانهم وبين لهم عدم لزوم حضورهم .

وفي سنة ١٣٤٠ تولى هذا المنصب جميل افندي الالشي بن زاهد افندي الذي سيأتي ذكره في تراجم رجال دمشق وهو وزير الحربية في وزارة علاء الدين الدروبي والذي كان وكيلا عنه في غيابه حين ذهابه الى حوران وقد تغير في ايامه شكل الوزارة واستبدلت باسم مديريات وكان ذلك سبباً لاستقالته لان البلاد لا تتحمل ثقل معاشات هذه الالقاب بعد ان انسلخ عن دمشق قسم عظيم من اقضيتها والتحق بجبل لبنان الكبير وبعد ان انسلخ لواء الكرك والسلط وعجلون والحقت بحكومة شرقي الاردن التي هي مع فلسطين والقدس تحت الانتداب الانكليزي وبقيت دمشق وملحقاتها صغيرة لا يتحمل اهلها توسعة المجالس وضخامة القاب الموظفين فيها بعد ان تشكلت دولة جبل الدروز في حوران وجبل عامل والعلويين ودولة حلب الشهباء وبقيت دمشق على انفرادها .

وفي سنة ١٣٤١ عين لها حاكماً حقي بك المشتهر بالعظم من قبل السلطة الافرنسية التي انتدبتها جمعية الامم لارشاد البلاد السورية مكافاة على خدماته السابقة واعتماداً على حبه واخلاصه لها وقد اظهر في اثناء حكمه طيبة اخلاق وحسن احدوثه مع سلامة صدر . وفي زمنه صار توسيع الجسر الممتد من أمام دائرة الشرطة فوق النهر الى طريق الصالحية .

وفي سنة ١٣٤٣ تولى رآسة الحكومة بعده صبحي بك بركات من اهالي انطاكية حيث كان رئيساً لمجلس الاتحاد السوري الذي انعقد في بادىء امره في حلب . وكان صاحب غرور في نفسه مستبداً في رأيه وقد تشوش امر البلاد في زمانه واعتقلت السلطة كثير من مفكريها الى ان وقعت ثورة جبل الدروز وعصى اهله على السلطة لسوء تصرف مأموريها الذين عينتهم للحكم في تلك المنطقة وشدة ضغطهم على اهلها واسباب اخرى لا يسع المقام سردها

وقد اتسعت هذه الثورة في ضواحي دمشق وعظم شأنها وترأس امرها كثير من مفكري هذه البلاد وادبائها وتطور شكل هـذه الثورة بمطالب حقوق البلاد المشروعة المهضومة ونوال استقلالها الحقيقي وعلى اثر ذلك وقع الاختلاف واضطربت البلاد واهلها وصارت نكبة الشام التي سنفصلها لك في آخر الكتاب وقد استقال صبحي بك بركات من رآسة حكومة دولة سورية بعد تفاقم الامر . وبعد ان ادخل في دوائر الحكومة جماعة من الذين لاشأن لهم في الادارة ولا معرفة . وكان ذلك سبباً لانقلاب الرأي العام عليه . وانسحابه من منصة الحكم وكان في سنة ١٣٤٤ طالبة من بعده البلاد حقها في الاستقلال وادارة نفسها بنفسها وحقوقها القومية المشروعة . ولا نعلم ما يقرره مجلس الامم المنعقد في روما في هذا الشهر من هذه الاعمال التي خرجت عن طور البشر وعلى اثر تطورات هذه الاحوال تولت السلطة رآسة الحكومة وادارتها مباشرة وجعلت ذلك موقتاً الى ان تسكن البلاد ويحصل الاتفـاق على اعطاء السلطة مطالب اهلها وتشكيل مجلسها النيابي وانتخاب حكومتها وفق الله الجميع بالاشتغال لخير هذه البلاد وسعادة العباد انه سميع مجيب .

وقد احببنا ان ننقل ما قالته الحكومة المنتدبة في تقريرها التي رفعته الى عصبة الامم والذي سيأتي معنا بيانه في كتابنا عند نكبات دمشق قالت في حق بن بركات ما نصه :

ما كاد المندوب السامي المسيو دي جوفنيل يطأ ارض سورية في ٣ كانون الاول سنة ١٩٢٥ م حتى شعر بضرورة تحرير الحكومـة السورية اذ ان مدة المجلس التمثيلي قد انتهت في تشرين الثاني المنصرم .

وامـا رئيس الدولة السورية صبحي بك بركات فكان في الفترة الاخيرة يتبع سياسة شخصية محضة لا دأب له سوى ارضاء بعض الزبائن وقد كان هو نفسه من العوامل التي ساعدت على نشوء الثورة بادخاله الخلل في الدرك والشرطة . ولما بلغ استياء الشعب اشده رفع صبحي بك استقالته في ٢١ كانون الاول سنة ١٩٢٥ م .

وبقيت حكومة دمشق تدار بواسطة وكيل المفوض السامي المسيو اليب مدة قليلة الى ان تولى رئاسة الدولة السورية احمد نامي بك ابن الفيلسوف الطبيب فخري بك صاحب الخان الشهير باسمه الى اليوم في بيروت ومن اغنيائها وعظمائها اصله من مشاهير رجال بلاد قفقاسيا وقد ولد في بيروت واشتهر بالداماد لانه كان احد اصهرة السلطان عبد الحميد الخليفة العثماني وقد قبل هذا المنصب في هذه الايام العصيبة . والثورة قائمة في جميع انحاء دمشق وانتقل الحكم المباشر من السلطة الافرنسية اليه وترأس الحكومة الوطنية وشكل وزارة تناسبه من اعيان الرجال ليشون معه يداً واحدة لسعادة البلاد وراحة العباد وكان ذلك في ٢٧ نيسان سنة ١٩٢٦ م و ١٣٤٥ هـ تحت برنامج جرى عليه الاتفاق بينه وبين المفوض السامي في بيروت المسيو دي جوفنيل في ١٠ ايار وهو مبني على عشرة مواد نقلناها من صحف بيروت الذي نشرت صورة تقرير دولة فرنسا الى عصبة الامم على النص الآتي :

ان حكومتنا تبذل جهدها لتحقيق البرنامج الآتي الذي اتخذته اساساً للعمل :

(اولا) : دعوة الجمعية التأسيسية على ان يعهد اليها وضع دستور البلاد على اساس السيادة القومية .

(ثانياً) : يعطى الى الانتداب شكل معاهدة تعقد بين فرنسا وسوريا لمدة ثلاثين سنة ويحدد فيها الحقوق والواجبات والعلائق المتبادلة بين الامتين وتستنير بالمعاهدة البريطانية العراقية ولا تصبح نافذة الا بعد تصديقها من البرلمان السوري ويحتفظ فيها لفرنسا بالنفوذ السياسي بدون ان تمس السيادة القومية .

(ثالثاً) : تحقيق الوحدة السورية بالطرق التي سبق استعمالها والتي تأمل ان تأتي بالنتائج الحسنة للامة .

(رابعاً) : توحيد النظام القضائي على اساس السيادة القومية بشكل يضمن حقوق الوطنيين والاجانب معاً .

(خامساً) : انشاء جيش وطني ليتسنى للجيش الافرنسي الجلاء التدريجي عن البلاد .

(سادساً) : طلب قبول سوريا في عصبة الامم وحق التمثيل الخارجي اسوة بالاصول المتبعة في العراق .

(سابعاً) : درس اصلاح العملة الحاضر واعادة الاساس الذهبي في العملة الرسمية للبلاد .

(ثامناً) : الحصول على العفو العام عن المجرمين السياسيين على ان يحتفظ بالحقوق الشخصية .

(تاسعاً) : الحصول على قرار يعفي دمشق وغيرها من الاماكن من كل غرامة حربية .

(عاشراً) : ايجاد الوسائل للتعويض على منكوبي الثورة

وفي سنة ١٣٤٦ تغير قسم من رجال وزارته الاولى لاسباب هامة سنأتي عليها في محلها وشكل عوضاً عنها وزارة ثانية سمو رئيس الدولة السورية اليوم احمد نامي بك المشار اليه على الصفة الآتية :

الداخلية	رؤوف بك الايوبي الانصاري
للمالية	حمدي بك النصر
للعدلية	يوسف بك الحكيم
للمعارف	شاكر بك الحنبلي
للنافعة	رشيد بك المدرس
للزراعة والتجارة	نصوح بك البخاري

والبلاد محتاجة لعناية كبيرة وهمة عالية لنجاحها وعود سعادتها بعد ما اصابها في المدة الاخيرة من النكبات والشعب اجمع ينتظر تحقيق امانيه وتطبيق برنامج هذه الحكومة الحديثة ليخلد لها التاريخ ذكراً حسناً والله لايضيع اجر من احسن عملا .

وقد تم في زمنه تشييد شارع بغداد الجديد الذي نوهنا عنه قبلاً . وشرعت الحكومة بخطيط الشوارع الجديدة التي نظمت خريطتها على الهندسة الحديثة في المحلات التي خربت عند نكبات دمشق من الدرويشية الى حي سيدي عامود وسوق مدحت باشا .

الباب الثالث

في حالة دمشق العلمية والاجتماعية منذ دخولها تحت ظل هذه الدولة والذي هي عليه اليوم وعوائد اهلها وازيائهم التي اقتبسوها بالواسطة من الافرنج والمقارنة بينها وبين العوائد السالفة والنهضة الادبية التي حدثت بها وما كانت عليه قديماً من نمو العلوم وازدهارها بالمعارف والصنائع مما لا تزال آثاره باقية عند غير نا شاهدة بأن الفضل للمتقدم . وعن ضرر الرتب والالقاب اذا لم يعقبها عمل . وعن سبب اضمحلالها واتصالها مع العرب . وبعض كلمات على الاوقاف وفوائدها

بينا لك حالة هذه البلاد فيما تقدم والممنا بالمهم منها مما له تعلق باطوارها العمرانية واتصاله بتاريخها السياسي واوقفناك على ماتطمح اليه النفس من حوادث عظيمة ينشأ عنها تبدل مدهش في مجاري تلك الاحوال وانتقالها من طور الى طور معرضين عما خرج عن ذلك التزاماً لسبيل الاختصار وعلماً بان من اراد الاستيعاب والتفصيل احتاج الى وقت فسيح ومادة غزيرة على ان الاشارة قد تكفي وحسبنا ما افاد

وقد قدمنا لك تمهيداً يوقفك على مبدأ هذه الدولة ويقف بك عند السلطان سليم الذي يمس تاريخه دمشق . ثم رجعنا الى ما كنا عليه من افرادها بالذكر . اذ لم نضع كتابنا هذا الا لذكرها بالخصوص ولكن احتكاك المناسبات وروم

الاحماض لقارىء كتابنا هذا حدا بنا الى ذلك ولا يخلو من فائدة فيما نظن على ان هذه الدولة وان ذهبت بفضل الشهرة وبعد الصيت المقرونين بالاعجاب منذ مدت رواق سلطتها على اغلب الممالك العثمانية ، واستلمت زمام الخلافة الاسلامية المقرونة بالسلطة الشرعية والزمانية فان تاريخها التفصيلي لم يزل مجهولاً غامضاً عند غالب الامم الاسلامية مع شدة الاتصال وقوة التعلق الديني وذلك يرجع لاسباب اكبرها عدم كتابة هذا التاريخ باللغة العربية واقتصار المؤرخين على تدوينه باللغات الاعجمية وهو خطأ محض وهناك اسباب اخرى لا داعي لذكرها اليوم

واذا تأملت ما قصصناه عليك موجزاً في هذا الفصل وقفت منه على حالة هذه المدينة الاجتماعية في مدة دخولها تحت ظل هذه الدولة واستخرجت من خلال الحوادث وقرائن الاحوال مجموعاً يكفيك عند ارادة الحكم القاطع في هذا الموضوع ونحن نزيدك ايضاحاً ونفيدك تلخيصاً مهماً في ذلك فنقول :

لم تكتسب دمشق بعد تقلص ظل سلطة المماليك عليها ودخولها في حوزة العثمانيين الاتراك شيئاً يؤثر فرقاً محسوساً بين العهدين ولم تصبغ بصبغة مباينة للصبغة الاولى تمام المباينة كما هو الشأن الغالب في الامم عند اختلاف الحكومات وما قيل في دمشق يقال في غيرها من المدن او الممالك التي شملتها السلطنة العثمانية والسبب في ذلك عــدة امور منها الجامع الديني الموجود بين المملكتين السالفة والخالفة وبين الامم التي تبادلهم السلطتان والخلاف في الدين بين الرعيــة هو المؤثر الاكبر في تطورات الامم باطوار الملوك ومنها التقارب الموجود بين الاتراك الذينهم عصبية بني عثمان ومادة قوتها وبين المماليك الجراكســة ومن قبلهم من المماليك البحرية ومن قبلهم من الملوك الايوبيين ومن قبلهم كنور الدين والسلاجقة والطولونيين وارباب الدول التي تعاقبت هذه الديار بعد تلاشي الحاكمية العباسية العربية البحتة فجميع هؤلاء متقاربون في امهات الاخلاق والعادات التي جري على مثالها الدول ويصح ان يتخذهــا المؤلف دستوراً للحكم على مقوماتها او مؤثراتها على العامة وعاداتها وان اختلفوا في

بعض ذلك فقلما يشذ الملك الواحد عن الملوك من اسرته والامراء من بيته اختلافاً لا ينشأ عنه تأثير عظيم في المجموع وان نشأ فبحيث لا يرسخ ولا يستقر

استلم آل عثمان دمشق وهي كغيرها من البلاد العربية كالمريض المنهك لما تعاقب عليها احقاباً متطاولة من تداول الدول وانتياب الفتن الداخلية بين الامراء والزعماء والدالاتية حيناً فحيناً وطروق الحروب والغارات الاجنبية كاغارة القرامطة واغارة الصليبيين والتتر ثم الحروب التيمورية وهي الداهية الصماء على هذه البلاد وهي قريبة العهد بفتوح السلطان سليم

كل هذه الحوادث التي مرت الاشارة اليها لم تمهل دمشق ان تستوفي حظها من العمران وتكون لنفسها هيئات اجتماعية تقوم بها لم تكد تنشل من كبوة حتى يضربها الزمان ولا تخلص من مرض الا الى اشد وانكى وانهك . ومن العجيب ان تلك المصائب وان عمت البلاد الا ان لدمشق النصيب والحظ الاوفر منها في الغالب ما عدا الحروب الصليبية

واضف الى ذلك مع كل ما ذكرناه المصائب السماوية التي اثرت تأثيراً بيناً في مدينة دمشق كالطواعين والزلازل التي حصلت في خلال تلك الايام وكذلك المجاعات والمصائب المهلكة

استلمت الدولة العثمانية ازمة هذه البلاد وهي على الحالة التي عرفت بعضها مما تقدم فلم يحدث تبدل كبير ولا وجد فرق عظيم بين الحالتين الا من حيث استتباب الامن ونزول السكينة مدة السلطان سليم . ثم انفجرت الثورات فيما بعد وعادت العوائد لسيرتها الاولى ولكن لا كما كانت في ايام الايوبيين فمن بعدهم

واستمرت الاحوال الاجتماعية مرة تعلو ومرة تسفل تابعة في ذلك لهمم الولاة والحكام ورجال الامر والنهي الى ايام ابراهيم باشا المصري حيث انتعشت الآمال وانبعثت الهمم وتألق نور التمدن الجديد

فاحوال هذه الديار من لدن السلطان سليم الى ايام ابراهيم باشا حلقة واحدة جزء من مجموع وآثار هذه الدولة في جميع ممالكها ومن احسن مميزات هذه العصور رواج العلوم الشرعية وآلاتها بين الناس ووقوف العلماء عند حد

محدود منها ودائرة ضيقة لم يتصرفوا في شيء منها ولا استخدموا قواهم فيما عدا تلك العلوم وقواعدها وان الم بعضهم بشيء من العلوم الفكرية والعصرية فبحيث لا يسمن ولا يغني من جوع

ومن احسن مميزاته ايضاً على ما فيه اعتناء الامراء والاغنياء بتشييد المدارس الاهلية ودور القرآة والمساجد مثل ما كان في ايام الايوبيين ومماليكهم بمصر والشام ووقف الاوقاف الكثيرة ذوات الغلال الجزيلة على طلبة العلم والقائمين بتلك المساجد ودور العلم

وقد بلغ التناهي في ذلك الى درجة اصبح فيها معظم ابنية المدينة وضياعها وقراها اوقافاً على تلك المدارس والمساجد وغيرها من سبل البر كالمستشفيات واطعام ابناء السبيل وارفاد المحاويج والعاجزين عن اداء الدين والمنكوبين بالمصائب السماوية ولهم في ذلك تفنن غريب

ولعمري انها لاعمال تمهد لطالب العلم السبيل الى اجتناء ثمراته وتصد عنه العوارض المانعة . وبتلك الوسائط والتسهيلات راجت بضائع العلم ونفقت اسواقه وزخرت بحاره

ويكفي ذلك دليلا على فوائد الوقف الاسلامي ورداً ملزماً وسداً منيعاً على النافين لثمرته والقائلين بان مضاره اكثر من منافعه لانه يقف سداً في وجه العمران العصري لما يتضمنه من التشديد والتحرج في تبديله وتغييره ولما يؤثر في النفوس من خلق الكسل والاعتماد على الغير ويستدلون بذلك على التكايا الموجودة التي ابتليت بها اكثر البلاد لمنسوبي الطريقة المولوية وما لها من الريع للصرف على المقيمين بها . وهذا غير ذاك وهو كلام غير سديد

ثم تعاقبت الازمان على تلك الموقوفات وتلاشت وتلاعبت بها ايدي النظار والقائمين عليها وعبثت بها الهوام . ولم تجد النقوش المحفورة في الصخور على ابوابها كما اسلفناه . وتعطلت بسبب ذلك تلك المقاصد الخيرية وذهب ريعها ولم يبق منها الا الاسم وان بقي شيء فقد استبدل بغير ما وضع له

ومن جملة ذلك العلم واهله فقد بدت عليه علائم الضعف والانحطاط من

يوم جفت ينابيع هذه الاوقاف وليس لرياض العلم منهل آخر تستسقي منه غيره ومن العلوم التي راجت في تلك العصور الرياضيات كالحساب والجغرافيا والهندسة والفلك وما يتفرع عنه وعلم الفرائض وغيره . وقد اضمحلت هذه العلوم كلها وفي تاريخ موتها تفاوت

اما العلوم الشرعية فبقي سندها متصلاً الى قبيل عصرنا هذا . واما العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفة . فمن اكبر دواعي انقراض اكثر هذه العلوم وضعفها عدم عناية الدولة واهمالها اياها في ما قبل ايام ابراهيم باشا الخديوي وبعده حتى ختم ذلك بالغائها من عداد العلوم التي يشترط تحصيلها في الاعفاء من الجندية فاغفلها طلبة العلم واشتغلوا بما يشترط عليهم في نصاب العفو من العسكرية كأن العلم لا يراد الا لذلك

هذه حالة العلم فيما قبل استيلاء ابراهيم باشا . واما غيره من طرف العمران فالصنائع في ذلك العصر اروج ما كانت في دمشق بالنسبة لغيرها من المدن الشامية .

وسنأتي في فصل الصنائع على ما كانت هذه البلاد مشهورة به او مختصة فيه وسبب تقدم الصنائع بانواعها في البلاد الغربية وبيان سبب عدم نجاحها في بلادنا لغفلة التجار والاغنياء واصحاب الثروات عن تأسيس المعامل او الشركات اللازمة لاحياء المعامل التي كانت قديمة بدمشق وقضى عليها الدهر

واما الزراعة فدمشق محط رحالها ومصدر فروعها واصولها ونفائسها ونحوها

واما التجارة فكذلك لكن على نسبتها العمومية في ذلك العصر

واما ما بعد فتح ابراهيم باشا لسورية . فالكل يعلمون ان مبادىء التمدن المصري انما غرست في هذه الديار في تلك الايام وابراهيم باشا واضع الحجر الاول من ذلك الاساس . وقد قدمنا من ذلك ما يكفي

ونقول الآن ان الفتور والجمود اللذين عرضا لذلك التمدن وأوقفاه عن سيره من اول الطريق قد حاول رجال هذه الدولة الذين تمكنوا من هدم السلطة الاستبدادية وبناء الملك العثماني على دعائم دستورية شوروية ان يزيلوا

تلك العوارض والحواجز حتى ينفتح السبيل للتمدن الجديد الذي تحلت به الامم الغربية في هذه العصور خصوصاً لما تركوا اساس رابطة الدين في الشؤون الاجتماعية واعتبروا القومية العنصرية بدلاً عنها

ولكنهم اخطأوا القصد في الطرق التي سلكوها للوصول الى تلك الغاية بالنسبة الى هذه الديار جهلا بالاسرار التي تجب مراعاتها في مثل هذا السبيل ولذلك ظلت تلك الحركة بطيئة زيادة عما صادفت من المعاكسات لاغراض شتى ومن اكبر الخطيئات التي ارتكبها اكثر رجال تلك الدولة سواء كانوا من قبل الدستور او بعده تقليدهم للغربيين في جميع احوالهم في كل ما جل وقل واقتفاؤهم لسننهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع

وهذا مما لا ينطبق على الحكمة من جميع الوجوه لان اذواق الغربيين وعاداتهم واخلاقهم التي انبنى عليها تمدنهم غير عادات الشرقيين والخيط الذي وسع تلك الافكار الجديدة غير هذا الخيط وليس كل ما راق في الغرب يروق في الشرق . ولكن قومنا عفا الله عنهم فتنتهم تلك المدنية الافرنجية بظواهرها ومظاهرها واستهوتهم زخارفها فعموا وصموا .

وحبذا لو تبصروا وقصروا تقليدهم لها على النافع الملائم الذي هو في الحقيقة مأخوذ عنا ومقتبس منا . واتخذوا ما كان لاسلافنا ايام مجدهم من اصول الحضارة التي بنوا قواعدها اماماً يقتدون به ومناراً يهتدون اليه

هذه العلوم العصرية (ولا نكران للحق) من رياضيات وطبيعيات والصنائع والاقتصاديات بانواعها لو احسنا تقليدهم فيها لحصلنا على المقصود من اقرب طرقه . واستفدنا على الاقل الاستغناء عنهم في المتاع الذي لازال سلاحهم الذي يقاتلوننا به الى اليوم ومن جملة الامراض المهلكة لهذه الدولة احداث داء الرتب والالقاب وضررها اذا لم يعقبها عمل بالاخلاص وعدم رعايتها لحقوق العرب فنقول : من تصفح تاريخ الدول الاسلامية العظيمة وجد ان ما ابتنيت عليه عظمتها يرجع الى اساسين : الاول التمسك بالقواعد الحقوقية المتكفلة بالعدل في كافة الرعية ،

والثاني العصبية القومية التي كانت تحفظ الملك في الاسرة التي يكون فيها والمطلع على التاريخ يعلم ان الدولة العباسية في دورها الثاني فقدت الاساس الثاني لضعف العصبية العربية بتغلب الفرس والاتراك عليها

فاخذ الخلفاء العباسيون يستعيضون عن نصرة العصبية في حفظ ملكهم بامراء الاجناد من الفرس والترك . ولاجل ارهاب القلوب بهم من جهة واخذ قلوبهم الملك من جهة اخرى كانت الخلفاء تفرغ عليهم الاموال والالقاب حتى اصبحوا يتنافسون ويتزاحمون على تلك الالقاب الضخمة لا اقل من تنافسهم على الاموال . وكانت الالقاب عندهم على قسمين قسم يضاف الى الدين . وقسم يضاف الى الدولة . فالاول يعطى لارباب القلم ولو لم يكن من المسلمين كوزير المعارف والقضاء والمالية . والثاني لارباب السيف كوزير الحربية ورؤساء الاجناد في الاقاليم . ثم بعد مضي قرن تقريباً استصغر اولئك الرؤساء تلك الالقاب وصاروا يطمعون فيما هو اعظم منها حتى تلقبوا من الخليفة مرة طوعاً ومرة كرهاً بلقب امير الجيوش وسلطان الدولة وملك الامراء وبهذه الالقاب نفخ الشيطان في رؤوس اولئك الرؤساء ان ينبذوا الطاعة العباسية ويشكلوا ممالك الطوائف ويرأسوها ويقسموا بذلك المملكة على نفسها حتى آل امر الامة الى ما لا يجهله احد .

ولقد كانت ضخامة الالقاب والمنافسة فيها من الاسباب الرئيسية بتمثيل هذه الرواية المحزنة في آسية الصغرى قبل ثمانية قرون او اكثر نحن لا نقول ان الالقاب وحدها هي التي اضرت وقسمت المملكة العباسية ولكن مما لا شك فيه انها سهلت على اولئك الرؤساء الاستبداد بالسلطة على ما في ايديهم من الاقاليم واصبحوا يجهلون حقيقة ما هي درجة صلاحيتهم ومأذونيتهم الواسعة عن تلقيب الخلفاء والسلاطين والامراء بالالقاب الضخمة كما تقدم

والسر في ذلك الا يتكلوا على تلك الالقاب ويدعوا الاعمال التي يجب ان يقوم بها كل راع في رعيته ومن جهة أخرى ان تبقى قلوبهم متذكرة عظمة الله التي لا يشاركه فيها احد طالبة منه العون والمدد على تمكينهم من اقامة العدل

وحفظ الثغور ورد كيد الاعداء في نحورهم . وكل ذلك بلا شك يحتاج لاخلاص العبودية لمالك الارض والسماوات عوضاً عن مشاركته في كثير مما اختص به من الالقاب سبحانه وتعالى

ولقد اتى على هذا الدور بشكل آخر على الحكومة العثمانية واخذت الاعاجم فيها ينافسون العرب المنتسبين الى القبائل والاسر العظيمة المشهورة في الاسلام بالرتب والالقاب وان لم تصل في الضخامة الى ما وصلت اليه في العصر العباسي غير انها ويا للاسف لم يكن ضررها اقل من ضرر تلك . فانه بسببها كانت تستهان اشراف العرب . وفي الاصقاع البعيدة تخلع طاعة السلطـان . ويقوم صاحب ذلك اللقب في وجه السلطان العثماني مقاتلا ساحاً القطعة التي يسيطر عليها من الطاعة واداء الاموال

وكثيراً ما حصل من سوء الاستعمال في باب المشيخة الاسلامية في دار السلطنة العثمانية من اعطاء تلك الالقاب الوهمية المواليد في المهود ولقب الطفل في قماطه باقضى قضاة المسلمين وهو في حولي الرضاعة وتعطى ايضاً هذه الالقاب لكثير من الاميين وبسبب ذلك قلت العناية في العلم وأصبح العلماء الحقيقيون في نظر ذوي الرتب والالقاب خولا وخدماً ينتهبون بالوكالة عنهم الى الاعمال العلمية كقضاء وتدريس باجر زهيد والراتب المقرر يأخذه صاحب الرتبة الموجهة عليه لانه هو الاصلي لذلك العمل حسب تلك المراسم الفارغة وهكذا نزل العلم عن عرشه الرفيع عما كان عليه قبل

ثم في المدة الاخيرة بعد اعلان الدستور قلت الفائدة للدولة من زعماء العرب في الاصقاع العربية وغيرها بسبب رفع الثقة في ذوى الالقاب الذين لايعرفون اصولهم ومقدار حرصهم على مصلحة الدولة حتى انه كثيراً ما اخـذ تلك الالقاب اجانب عن هذه الدولة العثمانية والدعاء لها من الامم الطامعة في التهامها كرجال اليونان والبلقان والنمسا والمجر حتى كان يصل الواحـد من هؤلاء الرجال بسبب لقبه الى رتبة الوزارة ومنها الى منصب امور الخارجيـة ثم الى منصب الصدارة وربما حصل في نوبة ذلك الصدر منازعة بين الدولة العثمانية

والحكومة المنسوب اليها ذلك وبالطبع كان يعمل جهده لمصلحة الحكومة المنسوب اليها ضد هذه الدولة المنكودة الحظ بل يجتهد لفضح اسرارها .

والامثلة على ذلك من التواريخ كثيرة وعلى هذا نقول . ان الدولة العثمانية من ثلاثة قرون اي بعد استيلائها على الاقطار العربية بقرن واحد ثم بواسطة الاسباب التي اسلفناها واسباب اخرى كعدم وضعها الثقة في الاعمال العامة التي تحفظ كيان الدولة في استخدام ابناء الاسر والقبائل الرفيعة القدر . العالية المنار من ابناء العراق . وبرقه ومصر وسورية والحجاز واليمن . حتى وبلاد الاتراك انفسهم من هنا نشأت مسئلة الانكشارية وهم افذاذ لا رابطة بينهم وبين الدولة وافراد اجانب عنها من ابناء الدول التي كانت تقهرها الدولة العثمانية في حروبها وتأخذهم منها سبايا وتضعهم يتعلمون شيئاً بسيطاً ويتمرنون على الجندية ويشتغلون بها الى سن الاربعين وبعدها يسمح لهم بالزواج ببنات من ابناء جلدتهم كانت تجتلب معهم في السبايا ثم تحل ابناءهم في مهنتهم فكانوا اذا قويت شوكتهم واشتدت شكيمتهم عارضوا مجالس الوزراء وحكام الدولة فيما يخالف اهواءهم من امور الدولة العامة او شؤونهم الخاصة فان انحاز الخليفة السلطان معهم وقلب الوزارة رأساً على عقب سلم من شرهم وكيدهم والا سقط عن عرشه مكرهاً واذا سلمت روحه من القتل منهم كانت هي الغنيمة الكبرى له وعلى هذا فقس .

وكلما انتظمت امور الدولة ودخلت في دور النظام والعمل بالقوانين اضعف شوكة هؤلاء الاشرار ويخفت صوتهم وقد ظهرت قوتهم لاول مرة في زمن السلطان سليمان القانوني ثم تقلبت عليهم الملوك والايام كما اسلفناه في محله .

ومن اشهر المظاهر التي ظهروا فيها قبضهم على زمام الامر في اواسط مدة السلطان محمود حتى كادوا يقضون على الدولة القضاء الاخير . لو لا ان وفق هذا الخليفة لابادتهم عن بكرة ابيهم كما تقدم معنا موضحاً .

وظننا ان استراحت هذه الدولة واستراح الكون منهم ومن شرهم لكن بواسطة الاسباب التي اورثوها للدولة العثمانية من الضعف والوهن تداخلت اوروبا

بشأن هذه الدولة التداخل الكلي وكان من نتيجة ذلك نشر ولده السلطان عبد المجيد التنظيمات الخيرية التي اسكت بها اوروبا وتقدم معنا ذكرها .

وبعده أخذت الدولة العثمانية تتمشى سائرة الى الانتظام تتعثر بأذيالها بما فيها من العيوب التي اشرنا اليها وكان من الممكن ان تصل ولو بعد حين الى حالة اعتدالية يعيش معها جسمها الضخم ولسوء الحظ خرجت رؤوس الانكشارية بشكل مدني لهذه الدولة من ثغر سلانيك يحملون لواء الحرية والمساواة . تحت عنوان جمعية الاتحاد والترقي حتى لعبوا بالمملكة العثمانية الجسيمة المترامية الاطراف التي يمكن ان يتشكل منها سبع دول عظام دوراً انهى له العالم الغربي مع الشرقي لاول الامر . ونفضت اوروبا يدهـا من المسألة الشرقية وتقسيم بلادها ظانة ان العثمانيين آبوا الى رشدهم ووجـدوا ضالتهم وعرفوا طريق الحياة الصحيحة فمدت يدها الى مصافاتهم واسـداء النصائح الادارية وهنئتهم بمجلسهم النيابي تهنئة من اعماق القلوب وتهلل الناس وشملهم البشر والسرور حتى كاد كل عثماني يلمس بيده الثريا واصبح الغربي ينظر الينا نظر من نفض الموت واستقبل حياة طيبة سعيدة ؛ واخذ الكل منهم يخطب ود هـذه الدولة الى ان انقسمت رجال السياسية في تلك الدولة الى قسمين منهم يصارح انكلترا بالمداوة ويصرح لالمانيا بالود زاعماً ان طريق سلامة الدولة العثمانية ونجاحها هو ذلك ومنهم على العكس .

وعندنا ان كلا الطرفين مخطيء في اجتهاده وكان الاجدر ان نصافي الكل ونستفيد ممن تكون الاستفادة منه اقرب الى مصلحتنا كأنا من كان . ولانسمح بشبر من اراضينا باسم الخط الكبير او الصغير لواحـدة منهم حتى نمـلأ قلب الاخرى غيظاً علينا ونجعلها تكيد لنـا المكايد وتتربص بنا الدوائر وقـد حصل ذلك بنتائجه في هذه الايام .

اما امر ايجاد المعامل والشركات وتعدين المعادن وعمارة الجسور وترقية الشئون واحداث الفبارك فكان يمكن الاحتفاظ بـه من طريق الشركات الكبيرة الموجودة في الممالك الاوروبية وكان يمكن الاتفاق معهـا على اساس

التعقل وسلامة الوطن المقدس مع كل شبر من ارضه من جميع المداخلات ولكن العصبيات الغربية والآراء الغير الناضجة لزعماء تلك الجمعية القابضة على زمام الامر عدا عن تزلفها للدولة القلابية واغضابها الاخرى في ابتداء حياة الدولة الانحادية السياسة الجديدةواغضابها واستخفافها بجميع العناصر الكبرى التي يؤلف بمجموعها جسم الدولة وتهمتها اعيان هذه العناصر بالجناية الوطنية وسلبها الثقة منها صريحاً اوصل الدولة العثمانية الى الشتات والتمزيق وتفرقت ايدي سبا .

وكان المتشخص لآخر فصل من هذه الادوار المحزنة التي كانت سبباً اضعف الدولة وانسلاخ اكثر البلاد منها دخول زعماء رجال هذه الجمعية الذين بيدهم الحل والعقل مع دولة المانيا في الحرب العامة بدون مسيس الحاجة ترجيحاً لمصلحة المانيا على مصلحة غيرها او تخوفهم من شر جيرانهم الروس . وكان الاصلح للحكومة العثمانية بقاؤها على الحياد وقبول تكليف دولة انكلترا لها بفوائد جمة ان بقيت على هذا الحياد . او تبقى بالانتظار الى ان تظهر الحالة واضحة حتى يمكنها ان تتخذ الخطط الموافقة لمصالحها كما فعلت دولة ايطاليا وامريكا اللتين جنتا من هذا الحرب الفوائد الجلية والاخيرة منهما لم تزد على سنة في اشتراكها بالحرب وايطاليا اشتركت فيه نحو السنتين ونصف بعد ان نزعت يدها من حليفتها المانيا .

اما الدولة العثمانية فبفضل المتهوسين من رجالها القابضين على زمامها دخلتها لاولها بلا حاجة بل الواجب يقضي عليها بالحايدة والالتفات الى لم شعثها واصلاح داخليتها التي انهكتها الحروب البلقانية والاهلية من اول اعلان الدستور الى ذلك الوقت كما فعلت حكومة اليونان ببقائها على الحياد واجتنت من ذلك ثمراً يانعاً ماكانت تحلم بمثله لو حاربت عدة سنوات .

لايمكننا في هذا المختصر ان نأتي على كل ويلات الحرب العامة التي شملت جميع ولايات السلطنة العثمانية خصوصاً دمشق بل نجتزئ عن ذلك بكلمة اجمالية هي ان الجوع . والعرى . والتعدي على جميع مقدسات الامة باسم

التدابير الحربية وتوسيع مأذونية السلطات العسكرية ، وهفوات من استلم الادارة من الرجال العسكرية امثال جمال باشا الكبير واعماله الوحشية التي اجراها في هذه البلاد وفخري باشا واعماله البربرية التي اجراها مع سكان المدينة المنورة ومجاوريها من نفيهم وتشتيتهم في البلاد ، وغير ذلك مما لا يحصى اوجد نفرة زائدة في قلوب العثمانيين ، وخصوصاً غير الترك من العناصر المختلفة حتى ملوهم وسئموا حكمهم وسهل عليهم تقاص ظلمه كل ذلك من سوء الادارة والتدبير من اشخاص معدودين هم اركان جمعية الاتحاد والترقي القابضين على زمام السلطنة العثمانية كما تقدم معنا .

حتى ان العارفين المفكرين من الاتراك انفسهم يقولون خطأ ما قام هؤلاء وغيرهم من الاعمال السيئة المنفرة في البلاد العربية التي ادت الى انسلاخها عن جسم السلطنة العثمانية .

من ذلك نشأت الثورة العربية في الحجاز ضد هذه الدولة حيث صادفت ذلك الاستياء العام وصار ينضم لرجالها الكثير من افراد الجيش العثماني ابناء هذه البلاد في الحملة المصرية التي كان ساعدها الايمن الامير فيصل بن امير الحجاز الشريف حسين بن علي .

ولما علم امير الحجاز نفرة العرب والعناصر المختلفة من رجال هذه الجمعية وشدة بطشهم انتهز الفرصة لتحقيق امانيه القديمة بنقضه لرجال هذه الجمعية الذينهم كانوا مصرين على تعيين الشريف علي حيدر ابن عمه لمكانه وارسلوه للمدينة .

حينئذ تجاهر بالعداوة لهم والعصيان على الدولة العثمانية وطلب مطاليب كثيرة من دار السلطنة منها استقلال الحجاز وتعيينه ملكاً ثم من بعده حصر ذلك الملك لاولاده وغير ذلك . فلما بطأ عليه الجواب رأى الوقت مساعداً لدخوله مع محاربي هذه الدولة والاتفاق معهم .

واخذ الناس وخصوصاً العرب يعلقون على هذه الثورة آمالاً كبرى سيما

وانها مرتكزة على ارشاد دولة كبرى من دول الغرب التي كان دأبهــا القديم وسعيها الحثيث ايقاع التنافر والخلاف بين العرب والترك .

انتهت الحرب العامة وقضي الامر وصرحت دول التحالف بان رجال الثورة العربية وامير الحجاز الذي لقبته تلك الدول ملكاً — وصدقت له على استقلال الحجاز وتعهدت له احداهن وهي انكلترا بعهود نشرتها الصحف معلومة عند سائر الامم لا يسع كتابنا ذكرها .

وقالت انهم ممن ارجحوا كفتهم واسرعوا ظفرهم وانهوا معهم الحرب العامة قبل ميعادها وبات العالم العربي ينتظر اجتناء الثمار اليانعة من هذه التصريحات التي تسهل لهم المساعدة على جمع كلمتهم ولم شعثهم

دخل الجيش المشترك من العرب والانكليز لعاصمة الامويين دمشق . وقد بقي القسم من الجيش الانكليزي محتلا لهذه البلاد اكثر من سنة . ثم ارتحل تاركاً البلاد للحكومة الوطنية على ان يتقرر في مجلس الامم من هي الدولة صاحبة النفوذ في عاصمة الامويين دمشق . وفي اثناء ذلك كانت حضرت اللجنة الاميركية لاستفتاء الاهلين في الدولة التي يرغبون انتدابها كما اسلفنا ذلك في محله

وكانت الانكليز قد جعلت على رأس تلك الحكومة الوطنية الشريف فيصل ابن امير الحجاز الذي بسبب دخول والده الحرب العامة ثائراً على الترك ومعيناً لدول الحلفاء على اخراج العثمانيين من ديار العرب وانقاذهم لهم من الاتحاديين الاتراك وحكمهم .

وقد تعهدت دولة انكلترا بواسطة احد رجالها سنة ١٩١٦م الى امير الحجاز الشريف حسين بن علي بانها ستنفذ لهعهذه العهود على اخواتها فرانسا وايطاليا اما بتأسيس دولة عربية لارجاع مجد العرب ونقل الخلافة الاسلامية من الاتراك وارجاعها لقريش او تحرير البلاد العربية بشكل حكومات مستقلة في سوريا بما فيها فلسطين . وفي العراق تحت مشارفة امبراطورية عربية على ان يكون لكل من الاقليمين ولد من اولاد امير الحجاز الحسين بن علي ملك عليه وقد غرتهم هذه التيجان الموهومة . والاماني البالية .

يا حبذا لو سلمت هذه الاحلام وصحت هذه الوعود الخلابة بوجود آل الرسول حكاماً وملوكاً وامراء على الدولة العربية وتحقيق اماني اهلها بحفظ جزيرة العرب من سلطة نفوذ دول الاستعمار عليها وتشكيل قوميتها وارجاع مجدها القديم .

وقد سمي الامير فيصل اميراً على سوريا مقدار عام ونصف، ثم نصب ملكاً بدمشق نصف سنة بقرار وانتخاب من المؤتمر السوري الذي يسمى باصطلاح الحقوق الاساسية بمجلس المؤسسين وكان اجتماعه بدمشق .

وقد كانت ملكيته هذه موضع المناقشة في اوربا وسهل عليهم ان يسمى اميراً ورئيساً لحكومة سوريا وان التصديق على لقب الملك ينظر فيه في مؤتمر الصلح بعد ان يذهب اليهم ويتفاهم معهم ومع الدولة التي تكون منتدبة لهذه البلاد عند امضاء معاهدة الصلح من مندوبي الاتراك التي سنبين لك مقدار خسارتهم في الحرب العامة وفي الربح العظيم الذي ربحوه في حروبهم الاخيرة مع دولة اليونان ومشرقها الانكليز بسبب اخذهم تراقيا واحتلالهم دار الخلافة الاسلامية من قبل دول الحلفاء ودخول اليونان لاكثر بلاد الاناضول التي جميع سكانها اتراك . وما نتج من محاربة الاتراك ورئيسهم مصطفى كمال باشا وطردهم لليونان عن بلادهم وما حصل لتركيا الجديدة الكمالية في مؤتمر لوزان من الظفر وهو آخر مجلس تشكل للصلح بين الاتراك والدول المتحالفة .

نسب احد مؤرخي الترك المعاصرين اسباب انقراض العثمانيين الى عوامل كثيرة اهمها في نظره : (١) انقطاع البطولة من المسلمين وقيام الاتراك سداً امام النصرانية وبذلك جلبوا عليهم خصومة اوروبا جمعاء فكانت مطارق المسيحيين تتساقط على رؤس الاتراك مدة قرون (٢) التغافل عن الوطنية التركية وعدم جعل التركية اساساً لسياسة الدولة فصانوا اديان من وجدوهم من القوميات وابقوا على السنتهم بل ايدوها ونصروها فمنح محمد الفاتح مثلا الروم امتيازات مذهبية فاحدث بذلك دولة في دولة وارتكب خطأ فاحشاً وعوضاً

عن ان يجاموا البلاد متجانسة صيروها كبرج بابل وما قاسته التركية . بل هذه الدولة العثمانية في هذا السبيل مما لا يستطاع تسطيره فان السلجوقيين حافظوا على جميع ما وجدوه في الاناضول من الاديان والقوميات الغريبة وجرى العثمانيون على مثالهم فحافظوا على ما وجدوا باعيانه فلم يعرفوا ما هو التمثل وكانت هذه العناصر كلما وجدت فرصة تستل من الدولة حجراً وتذهب به وبصنعهم صارت الحال الى ما صارت اليه وقد اشتهرت ممانعة شيخ الاسلام زنبلي علي افندي الى السلطان سليم لما اراد ان يسلم الروم فقاومه باسم الدين فبقيت هذه العناصر بحالها لفقدان الدعوة الى القومية التركية ووجود الشريعة وهذه العناصر فتحت للاجنب سبيل التدخل في شؤون الدولة الداخلية فكانوا السبب في انقراضها فلم يهدأ لهم بال في هذا الشأن واجتهدوا في الوصول اليه ومن اسباب هذه الذهنية المشؤومة الرأي الاخرق القائل بلزوم الابقاء على صنف من الرعايا يؤدون الخراج للدولة وهذا من اساليب العرب واصولهم (٣) تدخل الدين في مصالح الحكومة وعدم قيام بناء الدولة على ما يجب (٤) جهل الملوك واستبدادهم وسفاهتهم (٥) تربيتهم ابناء العناصر ثم تسليمهم امور الدولة اليهم بدلا من ان يأخذوا بايدي ابناء الترك وهؤلاء وان لم يكونوا اتراكا كانوا يبذلون الجهد للقضاء على التركية فكان الملوك يعتصمون بالاسلام فاورثوا بذلك التعصب قوة (٦) كانت الكنيسة الروسية حريصة على جعل الاتراك روساً في لغتهم كانت تحارب تركيا ابداً وهذا من جملة اسباب الانقراض الى ان قال : ان الحكومة العثمانية تذرعت بالمعنويات ولم تلتفت الى الماديات وهذا من اعظم خطيئات الترك العثمانيين .

ومن جملة الاسباب التي كانت تطالب بها الصحف من الحكومة (حقوق العرب) كثيرة منها وثيقة تاريخية عثرنا عليها في مجلة العمران نقلها عبدالمسيح الانطاكي عن صاحب المقتبس الفاضل محمد افندي كرد علي فاحببنا نقلها مع ملاحظة صاحب المجلة عليها لفائدتها للتاريخ ولمناسبتها الموضوع قال :

العربية والتركية

اصيبت الامة بعد سقوط دولة بني العباس بفتور غريب في العلم والآراء لما عانته من اهوال الحروب والفتن ولما قامت الدولة العثمانية جمعت تحت لوائها الاقطار العربية من الوجهة السياسية ولم تعن بها ولا بغيرها من الوجهة العلمية الاجتماعية شأنها في عامة ادوارها واقطارها ولم تشذ عن ذلك الا مصر فكانت اشبه بمملكة مستقلة حتى بعد استيلاء العثمانيين عليها . وبعيد ان قامت الدولة تؤسس لها مدارس في العاصمة والولايات لتعلم العلوم الحديثة وتستبدل النور بالظلمة والعلم بالجهل قام محمد علي والي مصر فنزع القطر المصري من المماليك في الظاهر ومن الدولة في الباطن وانشأ فيه مدارس عربية وتوفر بدلالة جماعة من مستشرقي الفرنسيس النبهاء على ترجمة الكتب العلمية من اللغات الاوربية فانتعشت اللغة العربية في مصر فقط وظلت كهف العرب ، عنها يأخذون علومهم وموطن الطباعة والكتب والصحف وبانوارها يستضيئون وذلك لغناها العظيم وتاريخهم المجيد .

بقي الامل في نهوض العربية محصوراً في مصر لان الشام والعراق والجزيرة والحجاز واليمن ونجداً وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش امست في فتور . وقد انشئت في تونس وسورية بعض المدارس والمطابع تدرس بالعربية وتطبع اللازم من الكتب العربية ولكن لم يمض على تأسيسها بضع سنين حتى انطفأت شعلتها بما اصاب سورية من بلاء المراقبة وما اصاب تونس من الاحتلال الفرنسوي ، والمراقبة واحتلال الغريب مما يقتل روح العلم وينزع حياة النهضة القومية ، وقد اوشكت مصر ان تصاب بضعف لغتها لما احتلها الانكليز لولا ان قامت الامة فطلبت جعل العربية لغة المدارس الابتدائية فلغة المدارس الثانوية فلم تر الحكومة بداً من اجابة طلبها

اما الاقطار العثمانية فكان اول ما انصرفت اليه الوجوه بعد اعادة القانون الاساسي العثماني مسائل التعليم فالتركية لسان الدولة الرسمي تريد ان تعلمه جميع

العناصر العثمانية ليجيء منهم في المستقبل مزيج واحد وتقوى وحدتهم السياسية وقد نشرت نظارة المعارف برناجها ولم نشهد فيه ذكراً للعربية في المدارس الابتدائية الثانوية والعالية بل قالت ان تعليم العلوم بالتركية للذكور والاناث وللصغار والكبار وللعرب والترك والروم والارمن والبلغار والارناؤوط حتى ان المبادىء البسيطة التي سمحت بتعليمها من العربية تدرس في كتب ألفها ترك باللغة التركية. فأدرك بعض الباحثين في احوال البلاد والعناصر ان غرض الحكومة من هذه الخطة «تتريك» العرب وغيرهم، وهو عمل اذا كان نافعاً من حيث السياسة فلا نفع فيه من حيث الاجتماع والعلم خصوصاً بعد ان رأينا اصغر الشعوب الاوربية تحافظ على لغتها الاصلية محافظتها على اعراضها واموالها وارواحها لان للحكومة ان تجعل التعليم اجبارياً في المملكة فاذا جعلته بالتركية ولم تراع حالة كل قطر ولغة اهله ساءت العاقبة ولا تأتي الشجرة التي تريد غرسها الآن بثمرة جنية بل يكون شأن البلاد العقم في العلم والفكر ومن لم يتعلم العلوم بلغته هيهات ان يأتي منه عضو يفيد امته وبلاده واذا فعلت الدولة ذلك الآن افلا تكون في عهدها الدستوري اظلم منها في عهدها الاستبدادي وتكون حكومة مصر ارفق بأهل مصر من الحكومة العثمانية بالعثمانيين لانها منهم فينتظر عن يدها الكثير وحكومة مصر ليست منهم وكل شيء تأتي به يعد كثيراً.

وبعد فان كانت الحكومة العثمانية لم تنشط اللغة العربية في الماضي مع انها لغة الدين والآداب والحضارة فهي ليست مسؤولة عن ذلك مباشرة. ولكن الغلطة الفظيعة التي ارتكبتها ولا يغفرها لها التاريخ هو ان القائمين بأعبائها منذ البدء جعلوا التركية لغة الدولة الرسمية خلافاً لما جرت عليه دول الاسلام السالفة كدولة المصامدة البربر في الغرب الاقصى والادنى ودولة الشراكسة في مصر والشام ودولة آل سلجوق التركية في العراق والجزيرة ودولة بني بويه الفارسية ودولة آل ايوب الكردية في مصر والشام والحجاز واليمن وغيرها من الدول التي طرحت لغاتها وعمدت الى العربية لغة الحكومة والدولة فكان

الشراكسة والبربر والفرس والكرد والترك يتخلون عن لغاتهم مختارين ولا يستعملون في الرسميات غير العربية لغة البيان والعلوم . اما الترك فجروا على غير سنة الدول السالفة فلم يروا من المصلحة تعلم لغة عامة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها واكتفوا بلغة ملفقة بدوية ما برحوا يتوفرون منذ قرون في اصلاحها وهيهات ان تكون كما يحبون

ولما جاء السلطان سليم فاتح مصر والشام . وكان على شيء من المعرفة يحسن العربية كما يحسن الفارسية والتركية احب ان يتلافى الغلط الذي سارت عليه دولته وان يجعل العربية لغتها الرسمية اسوة الدول الاسلامية البائدة فقام عليه بعض ضعاف العقول من اهل دولته وارادوه على العدول عن رأيه مخافة ان تندثر لغتهم بل تخلصاً من ان يتعلموا لغة غيرها فكان عملهم هذا من جملة السدود التي حالت دون آل عثمان وبسط ايديهم على الممالك الاسلامية المجاورة لهم واللغة العربية اعظم رابطة بين المسلمين

ولقد كانت الدولة لا تزال تعلم في مدارسها الرسمية العربية كما تعلم الفارسية وذلك لان التركية مزيج من هاتين اللغتين وبدون معرفة قليل من اللغتين لا يتأتى لتركي ان يكتب كتابة صحيحة في لغته فكان شأنها من بعض الوجوه شأن المدارس في اوربا لا تزال الى اليوم تعلم اللاتينية واليونانية لانهما اصل لغات اوربا وان كانتا قد بادتا او كادتا ، ولكن اوربا اخرجت كتاباً بهاتين اللغتين ولم نعهد من مدارس الحكومة العثمانية كاتباً بالعربية او الفارسية . هذا والتركية ليست لغة دين ولا لغة علم ولا لغة حضارة قديمة ولا مدنية معروفة كالعربية التي شهد اهل الارض بامجاد اهلها وحضارتهم ومن الغريب انه لم ينبغ في الارض العثمانية كاتب عربي من اصل تركي على حين نبغ وينبغ من الفرس والكرد وغيرهم اناس يؤلفون بالعربية فتحسبهم عرباً خلصاً . وانك لتقرأ العجمة في كلام ابن كمال باشا وكاتب جلبي وطاشكبري زاده وغيرهم من الترك الذين عانوا القلم العربي وعدوا من المصنفين مـا لا تقرأه في كلام الراغب

الاصفهاني وابي بكر الخوارزمي وحجة الاسلام الغزالي بل ان هؤلاء على منشئهم الفارسي كانوا ائمة الانشاء العربي .

اذا تعلم ابناؤنا اليوم على الطريقة التركية لا يلبثون ان يجيئوا تركا ويتقنوا التركية كارقى ابنائها وبذلك لا يخدمون ابناء لغتهم ادنى خدمة وقد رأينا معظم الذين تعلموا من ابناء سورية والعراق في المدارس الرسمية لا يحسنون التكلم بالعربية العامية فضلا عن ان يكتبوا سطرين صحيحين بلغتهم بل ربما رأيتهم يمزجون المصطلحات التركية وبعض الالفاظ التركية بينما يكلمونك بالعربية فكان شأنهم في هذا شأن اكثر التوانسة والجزائريين من سكان المدن يتكلمون العربية تكاد تكون اقرب الى الافرنجية لما خالطها من الالفاظ الافرنسية والاسبانيولية والطليانية .

وقد رأى بعض العقلاء ان احسن حل اسئلة اللغة العربية في المدارس الرسمية واسلم عاقبة على اجيال الدولة المختلفة هو ان يجعل تدريس العلوم المادية كلها باللغة العربية كالطبيعيات والرياضيات والفلك والكيمياء والطب وان يجعل تدريس العلوم السياسية كلها باللغة التركية كالجغرافيا والتاريخ والاقتصاد والحقوق والاجتماع وبذلك لا يقع حيف على العرب وهم نصف الدولة او يزيدون ولغتهم افضل لغات العناصر العثمانية والمستقبل كفيل بحل هذه المعضلة العلمية . (المقتبس)

(العمران) اصاب رصيفنا محمد كرد علي في ملاحظته على الدولة في عدم ادخالها اللغة العربية في مدارسها الرسمية من جهة واحدة وهي حاجة التركية اليها اما من جهة حقوق العرب بلغتهم فلم يصب لان الدولة على ما هو معروف ومعلوم خليط شعوب مختلفة وكل منها يتمسك بلغته ويدافع عنها ويطلب ان يكون تعليمها اجبارياً في مدارس الحكومة ويظهر لنا ان حكومتنا الاصلاحية الدستورية ارادت بقانونها التخلص من مشاكل الاجناس فاقتصرت على تعميم اللغة التركية دون سواها في مدارسها وهذا نحن اليوم احوج اليه من كل شيء لان في تعميم اللغة التركية دعماً لوحدتنا العثمانية بغير خلاف ولا جدال.

اما اللغة العربية فلا خوف عليها من الاضمحلال وحافظها القرآن وعلى الشعوب العربية ان تعتني هي بنفسها في ترقيتها وتعليمها في المدارس الوطنية وهذا ما يفعله اخواننا الروم والارمن وغيرهم من الشعوب العثمانية .

اما مسألة الخطأ السياسي الذي ارتكبته الدولة عند ما فتحت الشام ومصر فقد فات اوانه وذكره اليوم من المؤسفات التي لا تجدينا نفعاً فعلينا ان نتلافى ذلك الخطأ بقدر الامكان وان نجد في دعم وحدتنا العثمانية مما امكن ولو بالتجاوز عن كثير من حقوق الافراد علماً منا بان مجد الاسلام يتوقف على مجد خلافة آل عثمان .

وبهذه المناسبة ايضاً عثرنا على مقال تاريخي يهم القارىء احببنا نقله من مجلة الهلال سنه ١٧ تحت عنوان :

(العرب والترك)

كيف التقت الامتان

قال : لم يكن بين العرب والترك علاقة قبل الاسلام، وكان كلاهما اهل بادية وسطو وغزو ، ولم يلتقيا قط لما بينهما من الابعاد الشاسعة ، فالعرب كانوا في جزيرتهم والترك في جبال الالطاي او جبال الذهب في اواسط اسيا بين الهند والصين وسيبريا وبينهم وبين جزيرة العرب مفاوز واودية وجبال ، وهم يختلفون عن العرب في تكاوينهم واخلاقهم وآدابهم ولغتهم اختلافاً كبيراً ويستحيل التفاهم بينهم لتباعد اللغة التركية الاصلية في تركيبها والفاظها عن اللسان العربي يوم لم يكن فيها كلمة عربية ولا في اللغة العربية كلمة تركية فضلا عن اختلاف اسلوب التعبير .

فلما قام العرب بالاسلام واخذوا ينتشرون بالفتح او غيره وطئت حوافر خيولهم بلاد الترك وهم يعبرون عنها بما وراء النهر فقتحوا بخارى وسمرقند وفرغانة واشروليست وغيرها من تركستان في ايام بني امية، وكان اهل تلك البلاد قبائل يتولاهم امراء او ملوك يعرفون باسم خاقان او اخشيد او غيرها

وكانوا لا يزالون على عبادة الاوثان فدخولهم في حوزة المسلمين بعث على احتكاكهم بالعالم المتمدن في ذلك العهد فاعتنقوا الاسلام وظهرت مواهبهم ونبغ منهم القواد العظام وانشأوا دولا حكمت العالم الاسلامي قروناً متوالية. وتقسم علاقة الاتراك بالعرب الى دورين الاول دور الخدمة والثاني دور السيادة. ونعني بدور الخدمة دخول الترك في خدمة العرب في صدر الاسلام وبدور السيادة سيادة الترك على العرب بعد ذلك.

سيادة العرب في صدر الاسلام

فطر العرب على الانفة والاستقلال فلما قاموا بالاسلام وفتحوا العالم زادوا عظمة واعتقدوا الفضل في انفسهم على سائر الناس وانهم من غير طينتهم. واصبح العربي يعد نفسه سيداً على غير العربي ويرى انه خلق للسيادة وسواه للخدمة ولذلك لم يكن العرب يشتغلون في صدر الاسلام بغير السياسة والحكومة وتركوا سائر الاعمال لسواهم. ولم يكن ينازعهم في تلك السيادة أحد فكانوا يزدادون افتخاراً وخصوصاً على المسلمين غير العرب ويسمونهم الموالي يريدون انهم كانوا عبيداً لهم واعتقوهم - وهم غير اهل الذمة. ويدخل في جملة الموالي الفرس والترك وغيرهم من المسلمين غير العرب. وبلغ من ترفعهم عنهم انهم كانوا يكرهون ان يصلوا خلف الموالي واذا صلوا قالوا انما نفعل ذلك تواضعاً لله وكانوا لا يكنونهم بالكنى ولا يدعونهم الا بالاسماء والالقاب ولا يمشون في الصف معهم ولا يتقدمونهم في المواكب الى غير ذلك مما تراه مفصلاً في تاريخ التمدن الاسلامي.

وكأن العرب سكروا بخمر السيادة والنصر لارتقائهم من رعاية الابل الى سياسة الممالك في بضعة عشر عاماً فتوهموا في فطرتهم ما ليس في سواهم من المناقب والسجايا كما توهم الرومان قبلهم وكما يتوهم أهل هذا العصر في بعض الامم السائدة فيعتقدون امتيازها بأصل فطرتها عن سائر الامم - وكان فضل العرب على سواهم يعد قضية مسلمة لا تحتاج الى دليل. فلما بالغ بنو امية

في الاستخفاف بغير العرب بعد ان ذهبت دهشة النبوة أخذ هؤلاء في التذمر ونصروا آل علي وغيرهم من اعداء الامويين ونشأت طائفة لا تعترف بفضل العرب تعرف بالشعوبية لم تظهر الا في الدولة العباسية بعد ان انحط شأن العرب

وبدأ انحطاط شأن العرب على الخصوص بعد الاختلاف الذي وقع بين الامين والمأمون اذ استنصر المأمون الفرس على العرب رجال اخيه وكانت الغلبة للمأمون . فانحط شأن العرب وصار الخلفاء يعولون بعده على الاستعانة بالاعاجم وخصوصاً الاتراك واخذوا يجندونهم .

خدمة الاتراك في الجند الاسلامي

يبدأ دور الخدمة منذ فتحت تركستان على عهد الامويين فكان القواد اذا فتحوا بلداً حملوا اسراه وسباياه الى اهلهم أو باعوهم لمن يحملهم الى الاطراف فيباعون بيع الرقيق . ولما افضت الدولة الى العباسيين كانت تركستان تؤدي الجزية والخراج فكان العمال يحملون في حملة الجزية اولاداً من اهل بادية تلك البلاد يبيعونهم للرق وهم في الغالب من السبي أو الاسرى على جاري العادة في تلك الاعصر . وقد يختص الامراء باحسنهم فيخدمون في دورهم مع غيرهم من ارقاء الامم الاخرى ويعرفون بالماليك .

وكان الاتراك يمتازون عن سائر الامم التي دانت المسلمين بقوة البدن والشجاعة والمهارة في رمي النشاب والصبر على الاسفار الشاقة فوق ظهور الخيل والثبات في ساحة الحرب فاتخذ منهم الخلفاء بالتدريج جنداً واول من استخدمهم في الجندية من الخلفاء المنصور العباسي ولكنهم كانوا شرذمة صغيرة لا شأن لها في الدولة وانما كان الشأن الاكبر يومئذ للخراسانيين (الفرس) والعرب . ولما اشتد التنافس بين العرب في ايام الرشيد وذهبت سطوة العرب بذهاب دولة الامين وتسلط الفرس انصار المأمون واخواله واستبدوا في الدولة كانت الحضارة قد اضرت بالمسلمين واذهبت منهم قوة التغلب والفتح . ففكر المعتصم اخو المأمون في ذلك قبل ان تفضي الخلافة اليه وكانت امه تركية وفيه كثير من طبائع

الاتراك التي ذكرناها مع الميل اليهم لانهم اخواله كما كان يميل المأمون الى الفرس وشاهد المعتصم جرأة الفرس وتطاولهم بعد قتل اخيه الامين فاصبح يخافهم على نفسه ولم يكن له ثقة بالعرب وقد ذهبت عصبيتهم واخلدوا الى الحضارة والترف وانكسرت شوكتهم فرأى ان يتقوى بالاتراك وهم لا يزالون الى ذلك العهد اهل بداوة وبطش مع الجرأة على الحرب والصبر على شظف العيش فجعل يتخير منهم الاشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم في العراق او يبعث في طلبهم من تركستان وغيرها فاجتمع عنده عدة آلاف وفيهم الجمال والصحة فالبسهم اثواب الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وميزهم بالزي عن سائر الجنود وبذل العناية في تدريب جنده هذا وبنى لهم مدينة سامرا واطلق لهم الاعطية فاعتنقوا الاسلام وتحضروا ولم يقتصر على اقتناء المماليك لكنه رغب كثيرين من الامراء واولاد الملوك في القدوم اليه فاشتد ساعد الاتراك وقويت شوكتهم وغلبوا على امور الدولة خصوصاً بعد ان انقذوا المملكة من بابك الخرمي وفتحوا عمورية في عهد المعتصم . فبعد ان كان النفوذ للوزراء الفرس صار الى الاتراك واصبحت ازمة الدولة العباسية بعد المعتصم في ايديهم ولا سيما بعد ان قام المتوكل لمقاومة الشيعة فزاد في تقديم الاتراك لانهم كانوا عونه على ذلك .
ثم اغراهم ابنه المنتصر (أو هم اغروه) على قتله فقتلوه وكان ذلك أول جرأتهم على الخلفاء . وولوا المنتصر بعده ولم تطل مدة حكمه اكثر من بضعة اشهر فمات وضميره يخزه . وتولى بعده المستعين بالله سنة ٢٤٨ هـ ثم المعتز بالله سنة ٢٥١ هـ وقد استفحل امر الاتراك استفحالاً عظيما - ومما يحكى عن استبدادهم في الخلفاء انه لما تولى المعتز قعد خواصه وأحضروا المنجمين وقالوا لهم « انظروا كم يعيش الخليفة وكم يبقى في الخلافة » وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال « انا اعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته » فقالوا له « فكم تقول انه يعيش وكم يملك » قال «مهما أراد الاتراك» فلم يبق في المجلس الا من ضحك .

وقد قتلوا المعتز هذا شر قتلة فانهم جروه برجله الى باب الحجرة وضربوه

بالدبابيس وخرقوا قميصه في الشمس بالدار فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر وبعضهم يلطمه بيده . والمستكفي سملوا عينيه ثم حبسوه حتى مات في الحبس وبلغ من فقر القاهر بالله انهم حبسوه وهو ملتف بقطن جبة وفي رجله قبقاب خشب . فلا غرو اذا اصبح الخلفاء آلة في ايدي الاتراك اذا تنازعوا على السلطة كان الخليفة مع الحزب الغالب وبعد ان كان القواد يحلفون للخليفة بالطاعة صار الخليفة يحلف لهم .

فبهذا وامثاله انحط شأن العرب وقيل عنهم « لا يفلح العربي الا اذا كان معه نبي ينصره » واشتد ازر الاتراك فتدرجوا من الاستبداد في دور الخلفاء الى انشاء الدول فانتقلوا من الخدمة في دول العرب الى السيادة على العرب وغير العرب .

سيادة الاتراك في القرون الوسطى

بدأت سيادة الاتراك بانشاء الامارات في ظل العباسيين واقدم اماراتهم الطولونية فالايلكية فالاخشيدية فالغزنوية ثم انشأوا الدول الكبرى واولها الدولة السلجوقية وفروعها في فارس وتركستان واسيا الصغرى والشام والعراق وغيرها ثم دول السلاطين المماليك في مصر والشام واخيراً الدولة العثمانية وبها يدخل تاريخ الاسلام في دور جديد ، لانها اتت والعالم الاسلامي قد تمزق وتضعضع بما انتابه من صدمات المغول وغيرهم فجاءت هذه الدولة في ابان الحاجة اليها فافتتحت القسطنطينية وقد يئس المسلمون من فتحها بعد ان حاولوه مراراً . وحارب العثمانيون أعظم ملوك أوربا وطاردوهم الى بلاد المجر وحاصروا فيناعاصمة النمسا وأخذوا الجزية من الارشيدوق فردينان واكتسحوا البحر الابيض الى شواطىء اسبانيا فارتعدت اوروبا خوفاً منهم . وفتحوا المشرق الى العراق ثم ساروا جنوباً غربياً حتى فتحوا الشام ومصر وفيها بقية الدولة العباسية فتنازل العباسيون لهم عن الخلافة فامتدت مملكتهم في ايام السلطان سليمان (سنة ٩٢٦ — ٩٧٤ هـ) من بودابست على ضفاف الطونة الى اصوان

على ضفاف النيل ومن الفرات بالعراق الى بوغاز جبل طارق . فاجتمع العالم الاسلامي الغربي تحت جناح الدولة العثمانية . وكان اجتماع الخلافة والسلطة فيها سبب طول بقائها اكثر مما تقدمها من الدول الاسلامية حتى العباسيين مع طول مدة ملكهم لان سلطتهم اصبحت بعد القرن الثالث من انشاء دولتهم اسماً بلا رسم . والدولة العثمانية اول دولة اسلامية غير عربية جمعت بين الخلافة والسلطة ووافقها المسلمون عليه .

اما العنصر العربي في اثناء ذلك فقد كان ضعيفاً في الاندلس الى زمن محدود وحاول النهوض في اثناء الدولة الفاطمية بمصر فلم يكد ينهض حتى غلب عليه الاكراد فالاتراك فسقط فلم يقم للعرب قائمة في الدولة الاسلامية من ذلك الحين — الا ما أبدته بعض القبائل من النهوض في بلاد العرب او غيرها بدعوة سياسية او دينية كقيام الوهابية في نجد والدراويش في السودان . ولما عزم محمد علي باشا مؤسس الاسرة الخديوية على انشاء دولة اسلامية كبرى في اوائل القرن التاسع عشر اراد ان يستعين على انشائها بعصبية اسلامية واقوى العصبيات بمصر يومئذ الترك والعرب وكانت العصبية التركية للدولة العثمانية فاختار عصبية العرب فحامت الآمال حوله وخصوصاً بعد حربه الوهابية واجتماعه بشريف مكة وغيره من رؤساء القبائل . فاحيا العنصر العربي ونشط العصبية العربية بما انشأه من المدارس والمطابع او نشره من الكتب . فكان للعرب نهضة قلما افادته في غرضه السياسي لما حال دون مطامعه من اغراض دول الافرنج في المملكة الاسلامية . ولكنها افادت اهل الشرق من العرب فائدة ادبية علمية بتمهيد السبيل للنهضة التي نحن فيها . انتهى



(رجع) وفي الوقت الذي كان الملك فيصل متهيئاً فيه للسفر لاوروبا كما اسلفنا . وبعد ان عرف الملك فيصل قرار مجلس الامم في سان ريمو المتضمن ان العراق وفلسطين في كل منهما حكومة وطنية تحت انتداب انكلترا

وسوريا حكومتها الوطنية تحت انتداب دولة فرنسا وكان مقصد اوروبا من المداولة مع الملك فيصل البحث في فهم شكل ذلك الانتداب . فعارضه وقتئذ المؤتمر السوري ورحياله من طرف خفي في السفر .

وكانت هيئة الوزارة مصممة على تسهيل سفره بدون موافقة المؤتمر ، غير انه في هذه البرهة عارضه معتمد دولة فرنسا الجنرال غورو الموجود في الساحل وعرض عليه خمسة شروط يطلب منه قبولها قبل مبارحته هذه البلاد لاوروبا وبعد اخذ ورد بين الملك والمؤتمر السوري مع الاحزاب السياسية المتشكلة وهيئة وزارة دمشق تقرر قبول شروط الجنرال غورو ببعض تعديل طفيف وسلمت مذكرة القبول لمعتمد فرنسا بدمشق لير فعها لمرجعه في بيروت .

وبالنظر لعدم وصول المذكرة الجوابية المذكورة في وقتها على مـا يقولون زحف الجيش الافرنسي وقائده غورو .

وعند ذلك استشار رؤساء الجيوش الوطنية العربية الدمشقية المرابطـة في حدود المنطقة الشرقية الوزارة السورية ومليكها فيصل فيما يجب العمل بامام هجوم الجيش الافرنسي وتقدمه من جهة بيروت نحو دمشق .

وبعد المداولة بين الملك فيصل ووزرائه والاحزاب وقد كان من امر هذه القضية انه بعد ما سرح الجيش تنفيذاً لشروط الجنرال غورو التي قبلت صار الدخول في الدفاع تقريباً بدون قوة كافية الا فصائل قليلة .

وعند ذلك ثابر الافرنسيون على خطتهم في التقدم حيث وجدوا بعد خان ميسلون بعض المدفعية فاسكتوها في مدة وجيزة ومن هناك انتهت المقاومـة وعلم ان الحرب او الدفاع هو محـال فـدخلوا دمشق بهدوء وسكون حيث رفعت اعلام التسليم على الامكنة المرتفعة قبل دخولهم بعد ان ذهب معتمد فرنسا في دمشق لمقر عسكرهم واخبرهم بذلك وفي هذه المحاربة ذهب ضحية المدافعة عن البـلاد وزير الحربيـة الشهيد يوسف بك العظمة من امير دمشق الشهيرة .

ومن ذلك يتضح لك انه كان يجب على الملك فيصل قبل ان يكون ملكا

او بعده ان يوضح القضية للعقلاء المدبرين المحنكين من الدمشقيين لاجل ان يتفقوا على طريقة التفاهم المعقولة والمرضية بينهم — وبين الحكومة المنتدبة وان يهيئوا الشعب لقبول ذلك بالطرق المعقولة المقبولة .

فدلت هذه الاحوال على ان الملك فيصلا كانت تنقصه الحنكة والدراية والرسوخ السياسي في تطورات الامم وان لا يكون آلة بيد الاحزاب المتضاربة الآراء والاغراض او العوبة بيد حاشيته وامنائه وجلسائه الذين اضروه واضروا دمشق معاً بل البلاد السورية .

وكان من الممكن لهذا الملك ان لا يركن لاية دولة كانت لا يتفق مبدأها مع منافع الوطن السوري الراهنة التي احرجت موقفه السياسي امام اوروبا ومجلس الامم وسهلت للحكومة المنتدبة الفرنساوية انذاره بلزوم انسحابه من هذه البلاد في مدة يومين مع حاشيته على ما وقع فعلا .

وقد ذهب ملكه ضحية التردد والحيرة وبقيت دمشق بتراء بلا امير ولا ملك يرأسها تنتظر الفرج من الله والاخلاص من الحكومة المنتدبة لجعل امير لها يرجع اليه شئون البلاد المهمة والمسائل الاسلامية الشرعية مع مجلس تأسيسي يشخص الامة السورية ويصعدها الى مدارج الرقي والتجدد كما قيل في دموع الوطن للزركلي الدمشقي :

لا التاج ينفعه ولا استقلاله ما لم يحل وثاقه وعقاله
خلدوه فاستبقوا الى وكناته فسهوله محتلة وجباله

وبعد انسحاب الملك فيصل من دمشق رجع الى احضان محبيه ونادوا به ملكا على العراق ونقل اخوه الشريف عبدالله ونودي به اميراً على الاردن وبقيت القدس الشريف وفلسطين تحت امرة الصهيونية والانتداب الانكليزي وحيا الله القائل :

وفي الجزيرة ايدي الانكليز على الـ اوهام قد شيدت للعرب تيجانا
تلك السياسة ما في الامر من عجب تهوى التقلب اشكالا والوانا

وقد قال احد الشعراء بمناسبة اختلاف زعماء العرب في المدة الاخيرة وشذوذ بعضهم على بعض :

يتنازعون على تراث جدودهم وتراثهم مابين شدق ضيغم

وفي هذا المعنى ايضاً قول الشاعر من قصيدة طويلة :

لاتبعثوا غول التفرق بينكم شر البلاء تفرق الاهلينا

وبهذه المناسبة ننقل قول صاحب الخطط قال : حين خدع الشعب السوري باستسلامه الى الامير فيصل امير دمشق ومشيد ملكها وظلمه الشعب السوري بتكليفه مالا طاقة له باتيانه لان التكاليف الحربية التي كانت على الاهالي اجراها كما اجرتها الحكومة التركية قبل ذهابها ولم ينقص السوريين قبل وقعة ميسلون العتاد والميرة انما الذي كان ينقصهم الخلاص من بلاء التردد الذي كان حائماً حول اميرهم وقضيتهم والاحاطة باساليب الكذب الدولية التي اخذوا بها وخدعوا بظواهرها (كما فصلنا ذلك قبل) كامثال وعود (ولسن) تلك الوعود التي استغلها دهاقنة السياسة العتيقة سياسة تسخير الجاميع للفرد سياسة المتمولين الذين يستدرون آخر نقطة من البقرة الحلوب وبذلك قال الشاعر الزركلي في ديوانه :

وعود ولسن كم اضلت من فئة لانت اشأم مـا سيست به الامم

قد وعدنا أن نبين لك مقدار الخسارة التي لحقت الدولة العثمانية في الحرب العامة ومقدار ربحها العظيم في محاربتها الاخيرة مع اليونان وظفرها السلمي الذي ربحته في مؤتمر لوزان لان في ذكره خدمة للتاريخ وعبرة للشرق فنقول : الخسارة التي لحقت هذه الدولة بعد عقد هدنة الحرب العامة والمعاهـدات المجحفة التي عقدتها دول التحالف وامضت على قبولها .

وقد اهتز العالم الاسلامي اجمع من هذه المعاهدات بتظاهر العداء من الدول الغالبه تجاه هذه الدولة التي هي بالحقيقة النقطة الجامعة لشمل العالم الاسلامي وهي الدولة الوحيدة لحفظ كيانه والدفاع عن حقوق المنتمين اليه اينما كانوا فقام المسلمون الذينهم تحت حكم هذه الدول واستعمارهم ينادون بالعصيان عليها في الهند والسند والشرق والغرب ان لم ترجع عن غيها وحكمها الجائر

على محو هذه الدولة ولا يسع كتابنا هذا بيان نصوص جميع المعاهدات بل نبين لك فيما يتعلق بالاراضي والحقوق التي اضاعتها الدولة المذكورة بعد احتلال الحلفاء امضتها في معاهدة سيفر الاخيرة وتنحصر تلك الخسائر في اثنى عشر مادة (١) تعترف الدولة العثمانية باستقلال بولندا وصربيا والسلوفاكيا (٢) تؤيد تركيا اعترافها الذي اعلنته في المعاهدة الاولى سنة ١٩١٨ بان ارمينيا دولة حرة مستقلة (٣) تصادق تركيا على ان الحجاز مملكة حرة مستقلة (٤) تعترف تركيا بحماية فرنسا على تونس الخضرا (٥) بما ان فاس ومليكها لم تكن قديماً تحت سيادة تركيا فان حكومة السلطان تعترف بكل الامتيازات الاقتصادية والتجارية وما ينشأ عنها لفرنسا في فاس (٦) تتنازل الدولة العثمانية عن حقوقها وامتيازاتها في لبيا وجزائر بحر الارخبيل وما يتبعها (٧) تعترف تركيا بالحكومات المستقلة التي انفصلت عنها في هذا الحرب العام في العراق وفلسطين وسوريا وفقاً للفقرة الرابعة الواردة في المادة (٢٢) من قانون عصبة الامم (٨) تتنازل تركيا لانكلترا عن جميع حقوقها الشرعية في مصر (٩) تتنازل تركيا لانكلترا عن الامتيازات المخولة لجلالة سلطان تركيا في حرية مرور السفن بقناة السويس طبقاً لمعاهدة الاستانة سنة ١٨٨٨ (١٠) تعترف تركيا بمعاهدة سنة ١٨٨٩ و ١٨٩٩ بشأن السودان بين مصر وانكلترا (١١) تصادق تركيا على الحاق قبرص بانكلترا (١٢) تتنازل تركيا عن جميع مصالحها وحقوقها على ساقز وسيام ومدللي وغيرها من الجزر .

هذا ما خسرته تركيا في معاهدة سيفر وهذا هو الموت الابدي وموقف الغالب تجاه المغلوب بحكمه الجائر الى ان قيض الله لهذه الدولة مصطفى كمال باشا احد قوادها ورفقاءه واجتمعوا في سيواس اولا ثم في انقرة عاصمة تركيا الجديدة اليوم وتحصنوا بها وجمعوا شملهم من عاصمة الاستانة وغيرها ولموا شعثهم ونادوا بتمزيق معاهدة سيفر والحرب على اعدائهم اليونان واعانهم بعض دول الغرب التي يهمها بقاء هذه الدولة في الشرق وحملوا حملة واحدة على عدوهم واخرجوه وطردوه من بلادهم مقهوراً مذعوراً وطهروا بلادهم

من رجسه وانذروا الدول اجمع بان لهم ميثاقاً ملياً لا يمكن رجوعهم عنه مطلقاً ولو فنوا عن آخرهم وهو استرجاع عاصمتهم دار الخلافة الاسلامية ونقض جميع المعاهدات التي سطرت على رقبة هذه الدولة وارجاع مجدهم واستقلالهم وحين رأى الاعداء هذا الانتصار المدهش الغير المتراقب لبت الدول طلبهم وجعلت مؤتمر الصلح العمومي النهائي في لوزان وانتصرت حكومة الكماليين بحكمة معتمدها عصمت باشا غازي السلم انتصاراً سياسياً كما انتصر رفيقه مصطفى كمال باشا غازي الحرب والغيت جميع امتيازات الدول .

واسترجعوا عاصمتهم ومدينة ادرنة وجميع البلاد الاناضولية بما فيها ازمير والويتها وبورسه وتوابعها والغت معاهدة سيفر الجائرة

واعترفت الدول باجمعها بدولة تركيا الجديدة ومجلسها الملي بعد اضمحلال الدولة العثمانية وسلطانها وحيدالدين بعد ان نزعت السلطة الزمنية من يده لانه قبل بمعاهدة سيفر ووصاية الانكليز ونظراً لالتجاء الخليفة وحيدالدين وجماعته الوزراء الى بلاد الانكليز وما ظهر منهم ضد الكماليين في اثناء دفاعهم عن حوزة البلاد قد خلع بفتوى شرعية وانتخبت الامة التركية ومجلسها الملي الخليفة عبدالمجيد بن عبدالعزيز مكانه وجعلت مقره الاستانة الا انه ابتر .

واعترفت به الهند واليمن والعراق وسمرقند وبخارى واكثر البلاد السورية وخطبت باسمه ودعت له الا الحجاز والقدس والاردن فانها دعت باسم ملك الحجاز الشريف حسين .

ولولا ضيق المقام لاتينا لك على نصوص ومواد معاهدة مؤتمر لوزان الاخيرة البالغة ١٤٣ مادة وقدناها لك بنداً بنداً .

وتمليحاً للبحث نأتي لك على ما كتب في هذا الموضوع وما قيل من الخطب والافكار السياسية التي يحسن اخذها للتاريخ لانها لا تخلو من فائدة وعبرة فنقول :

قال صاحب الديبا انه لم يبق هناك شك في ان ثورة الموبلاس وكذلك الاضطرابات التي نشأت على حدود الهند ترجع الى المحاربة الاخيرة التي يقوم

بها اليونانيون في آسيا الصغرى والى ما تقرر في الاذهان بوجه عام من الاعتقاد ان انكلترا تؤيد اليونان وتساعدهم على قتال الاتراك .

وقال المستر بوجلر وهو من كبار الكتاب المطلعين على احوال الشرق ما يأتي ان عواطف المسلمين المتأججة في اقطار الارض الجريحة هي السبب في نشوء حركة الكماليين وهياج المولاس واضطرام نيران المعارك على الحدود الهندية ومعاداة الفارسيين للانكليز . وقد ساد الاعتقاد في البيئات الاسلامية المتدينة ان السياسة الانكليزية تعمل بتأييد اليونانيين ضد الاتراك واليهود ضد العرب على محو دياناتهم .

اما الدوائر السياسية المسلمة فانها ترى الدليل الواضح على عداوتنا للاسلام في تقسيمنا بلاد السلطان واضعافنا من سلطته وفي رغبتنا الخفية من عدة وجوه في اخراج الاتراك من الاستانة عاصمة المسلمين ومن اوروبا ولقد وضعت الاماكن التي يقدسها المسلمون والمسيحيون على السواء في فلسطين تحت رقابة اليهود واضعفت سيادة الخليفة العثماني بانشاء ممالك عربية مزعزعة الاركان واهية البناء كنسيج العناكب

وتلك لعمري هي الاسباب التي يثور لها المسلمون اليوم في مشارق الارض ومغاربها علينا ويرى المستر بلوجر ان المسكنات لا تكفي لمداواة هذه الحالة المتفاقمة . بل ينبغي ان تترسم انكلترا سياسة رشيدة تنم عن العطف والاهتمام ازاء الهند ومصر وازاء سلطان تركيا بوجه خاص وهو ذلك السلطان الذي تأيد حقه في الخلافة رغماً عما بذلته انكلترا من الجهود في سبيل اضعاف سلطته وملاشاتها خصوصاً في تفريق كلمة العرب عن الترك وارجاع الخلافة لهم

ثم قال ولا شك ان العالم الاسلامي يود ان لا يرانا نسعى في اذلاله في شخص زعيمه الاكبر وهو الخليفة وان لا نمس حقوق شعوب الاسلام على اختلاف لغاتهم وننال منها مأربنا

وقد نشرت ايضاً جريدة ايكو دي باري مقالة مهمة للجنرال اشرنيس عن موقف الحلفاء في الشرق رأينا ان نقتطف منها ما يأتي :

قال تدور في المحافل السياسية والمجالس والشوارع اشاعات كثيرة لا نصيب لها من الصحة اهمها اننا نحن الفرنساويين مستعدون للمفاوضة بسوريا وبيعها من انكلترا بمنافع نتطلبها من حكومة لندن رأساً او بالواسطة وهذا خطأ فادح يقصد منه جعل السوريين في قلق دائم على مصيرهم بعد ما ذاقوا الحكم الانكليزي ولم يبق لهم رغبة فيه

لذلك يجب على فرانسا ان تحتفظ بالانتداب الذي نالته في مؤتمر سان ريمو وان ترسخ اقدامها في سورية لانها مفتاح العالم الاسلامي كله وهذه الحقيقة التي تعرفها انكلترا حق المعرفة هي التي حملتها على ايجاد ملك الحجاز وجعل ابنائه ملوكاً وامراء تحت امرتها وفي قبضة يدها .

ومعلوم ان العالم الاسلامي ركنين عظيمين العرب والترك وان خليفة المسلمين المقيم في الاستانة الآن يجب ان تقترن سلطته الدينية بسلطة ذاتية تامة الملازمتين واعطائه الصلاحية المحدودة التي لاضرر بها على الامة العثمانية والعالم الاسلامي اجمع

وقد سعت انكلترا الى القضاء على تركيا وخليفتها وازالة الاسلام وحكمه مع دولته التركية من الوجود والاستعاضة عنه باسلام عربي تكون مكة مركزه ولندن المسيطرة عليه .

ولكنها في هذا السعي فشلت فشلا عظيماً لان الثورة التي اضرمت نارها في الاستانة حين احتلالها واستخدمت سلطانها وحيد الدين ووزراءه لم تسفر عما تتوخاه منها بل ادت الى ما لم يكن في حسبانها من انفجار الفكرة الوطنية ومجلسها الملي الذي يمثله مصطفى كمال باشا ورفقاؤه اليوم .

ثم قال : ولا يخفى ان الصوت الذي يخرج من دمشق يردد صداه العالم العربي من ادناه الى اقصاه ، لذلك ترى انكلترا تسعى الى اخراجنا منها بكل ما لديها من الوسائل .

ان سورية باب العالم الاسلامي ومفتاحه وبقاؤها في يدنا يكفل لنا النفوذ عند المسلمين .

وان استطاع الجنرال فيان ان يقول ان فرنسا دولة مؤلفة من مئة مليون مسلم فمن الواجب ان تحافظ على كيان هذه الملايين بالمحافظة على الطريق الموصلة اليهم اعني بها سورية . (انتهى)

ثم قال مصطفى كمال باشا في احد خطبه في المجلس الوطني الكبير عن سياسة تركيا الجديدة حيال العالم الاسلامي نقتطف منها ما يأتي لمناسبتها :

لقد ذكر احد الخطباء في هذا المجلس تلك الروابط المتينه التي تربط امتنا التركية ودولتنا وحكومتنا بالعالم الاسلامي اجمع وما قامت به امتنا من الفتوحات في سبيل اعلاء كلمة الدين

ايها السادة ان منشأ جميع الاعمال والحركات التي وصلت بهذه الدولة حتى مواقف الاعدام هو الخيال . ولا حاجة بنا للتعمق في تاريخ الماضى اذ يكفى ان نفكر في الاسباب التي ادت بهذه الامة الى إعلان النفير العام والجهاد المقدس من قبل الخليفة قبيل اشتراكها في الحرب العامة وان نتأمل الحقائق والاحساسات الحقيقية التي ادت بها الى اختيار ذلك السبيل .

كذلك ما الذي دفع هذه البلاد الى الاشتراك في الحرب العامة في وقت مناسب وعلى اى حقيقة تستند تلك الحركة على الاحساس لا غير .

فلننظر الآن في الحوادث الغابرة لقد شاء الصدر الاعظم قره مصطفى باشا وهو يدفع هذه الامة نحو اسوار فينا ان يفتح المانيا الشمالية وان يؤسس امبراطورية عثمانية مترامية الحدود .

أفما لم يفكر جدنا انه بينما كان يجري وراء تلك الفتوحات كان بعض ابنائه يهيئون السبيل لاضاعة ما ورثوه من الاراضي لذلك يمكننا ان نصرح على انفراد بالعقيدة السياسية التي نؤمن بها .

ايها السادة اني افهم الجامعة الاسلامية على الصورة الآتية ان امتنا وحكومتنا تتمنيان بالطبع لجميع المسلمين الذين على ظهر الارض كل سعادة ورفاهية ونحن نريد ان تحيا كل هيئة اجتماعية اسلامية في مختلف البلاد حياة مستقلة ولعمر الحق اننا لنشعر بانشراح وسعادة من ذلك

فان لسعادة جميع الامم الاسلامية ورفاهية العالم الاسلامي قيمة في نظرنا كسعادتنا ورفاهيتنا اننا مرتبطون بهذا الامر كما اننا نرى الامم الاسلامية مرتبطة بنا وبسعادتنا على هذه الصورة وهذا امر يتجلى كل يوم .

أما اذا اردنا ان نجمع هذه الهيئة الاجتماعية كلها في شكل امبراطورية مادية فهذا خيال محض . خيال مخالف للعلم والمنطق والفن

اننا يجدر بنا الا ننسى قط ان لكل جسم سياسي غاية من القوى لايتعداها ابداً كما ان هناك خطوطاً طبيعية معقولة لحسن تشكل كل انسان

ايها السادة لنمعن النظر في موقفنا قبل قرون انظروا الى افريقيـا وسوريا والعراق ومقدونيا وبلغاريا والصرب وغيرها من اقسام ممالكنا ثم قارنوا بين حالنا اذ ذاك وحالنا اليوم . هل من الممكن ان تعيش هذه الامم المختلفة في كل شيء تحت ظل امبراطورية واحدة وهذا امر مغاير للطبيعة والعقل وقد كانت النتيجة ما رأيناه . اذ لابد ان يختلف الامر في افريقيا وان يختلف في سوريا وان يختلف في العراق وان يختلف في بلادنا فاذا سعينا لان نجعل الجميع واحداً اخطأنا .

انما نحن نتمنى ان تتشكل كل هيئة اجتماعية اسلامية تشكلا طبيعياً تاماً وان تحافظ على استقلالها وان تعيش عيشة حرة .

ايها السادة قد مضى علينا زمان تحملنا فيه عداوة الامم الغربية وحقدهن علينا لأسباب تلك المظـاهر والاوهام وهي الخلافة الاسلامية وجامعتها وامبراطوريتها الموهومة وخصومة تلك الامم لنا لاظهار أنفسنا بمظهر الذي عمل عملا خيالياً ، وكذلك الجامعة الطورانية فقال خصومنا أقتلوهم قبل أن يفعلوا ، وحملناهم على محونا وراء هذه الافعال والخيالات .

ولا شك اننا نقر بان سعادة الامم الاسلامية على اختلاف لغتها سعادة لنا .

ثم اننا نحن والعالم الاسلامي جميعه . نلتف حول الخلافة الاسلامية وكلنـا نقدس ذلك المقام ونبجله (هـذا القول فان العمل بصرنا الله بالعواقب .

ووفق جميع زعماء المسلمين وامرائهم لما فيه خير بلادهم وجمع شملهم ووحد كلمتهم انه لطيف خبير) .

ثم قال : ونحن امة نطلب ونطالب بحياتها واستقلالها وحفظ حقوقها وحريتها ونحن انما نبذل ارواحنا في ذلك السبيل وحده .

وقال احد مفكري الاتراك ان الشعب التركي يشاهد بكل سرور خلاص الشعوب المحكومة جمعاء سيما الشعوب الاسلامية انما قد علمتنا التجارب ان الشرط الاساسي للخلاص والحرية هو جهاد كل شعب فنحن نرجو ان يكون العقلاء في كل شعب اسلامي متمسك باهداب الحقيقة .

ان روابط الاخوة بين المسلمين موفرة انما لا تكفي هي وحدها لتكون قاعدة لسياسة موجبة مادية .

ان تركيا الجديدة مقتنعة بان وجودها كدولة اسلامية قوية كما تخدم مصالحها يلزم عليها ان تتكفل بامان الاسلام .

وينبغي للشعوب الاسلامية على اختلاف لغاتها ان تحذو حذو تركيا في سبيل الفوز بحريتها واستقلالها التام .

ثم خطب خطبة ثانية رن لها الشرق والغرب بين فيها ما يتعلق بهزيمة الجيش العثماني من سوريا والمصاعب التي لاقاها قواد الترك في سبيل الوقوف بالجيش على خط معين لا يتخطاه جيش الحلفاء والزاحف بجيوشه الجرارة حتى لا تكون لاوروبا حجة باستعمار البلاد بزعم أن جيوشهم احتلتها بالقوة . واحتلال الاستانة من الحلفاء ونقد المعاهدات التي عقدها الباب العالي والخليفة وحيد الدين وذكر اسماء الخونة الذين اشتركوا في عقد تلك المعاهدات التي قضت على استقلال السلطنة العثمانية وحكمت باستعبادها الى الابد وذكر المفاوضات التي دارت بين الخليفة وحيد الدين والجنرال هارنكتون لاستعباد تركيا مع بيان الفتاوي التي أصدرها شيخ الاسلام بأمر الخليفة ضد رجال الحركة الوطنية ثم ذكر ما لاقاه من حرب اليونان وطرده له من الاناضول وذكر معاهدة لوزان وما جرى من المفاوضات السرية قبل امضائها وروي بعدئذ كيفية الغاء

الخلافة والاسباب التي حملت تركيا الجديدة على الغائها وتركها الى العالم الاسلامي اجمع ليرى رأيه بها . ثم انتقل إلى أسباب إعلان الجمهورية في البلاد التركية وموقفها تجاه آل عثمان فيذكر الاسباب التي تبرر موقفها الذي اتخذته ازاء السلاطين وابعادهم من ديارها . ولولا خوف الاطالة لأتينا على الخطاب برمته وفندنا الاسباب التي ألجأتهم لهذه الاعمال ليرى العالم الاسلامي رأيه بها من خطأ او صواب خدمة للتاريخ وأهله .



مطامع دول الاستعمار بعد الحرب العامة في الشرق
« وتقولات الصحف بها »

قال مكاتب الاقبال الغراء : من الجلي ان خطط مستعمري الغرب الرامية الى ايقاع الشقاق والتفرقة بين ممالك الشرق القريب وشعوبه لفصم عرى الوحدة الشرقية وتمزيق شملها هي الوسيلة الوحيدة التي استطاع بها اولئك المستعمرون ان ينفذوا الى هذه الممالك بغية اغتصاب حريتها والقضاء على استقلالها واستعباد اهلها ، واستخدامهم في مصالح الاستعمار المبيد .

وما هب الشرقيون يوماً ما لجمع شملهم المشتت وضم صفوفهم الممزقة الا قامت على اثرهم صحف الاستعمار وفي مقدمتها الصحف البريطانية تنادي بالويل والثبور وعظائم الامور مهيبة بقومها الى السعي والعمل على كل ما يحفظ مصالح الاستعمار ويصون نفوذه منذرة اياهم بقرب حدوث الاخطار التي تتوهمها من تقرب الاجزاء الشرقية الى بعضها .

وحسبنا من البرهان على هذه الكلمة التي نشرتها اخيراً جريدة « الدايلي ميل » لمكانتها السياسي من الدلائل التي تبرهن على ان الكماليين انتهجوا خطة جديدة غايتها التقرب بين تركيا والبلاد العربية ، فقد جاءفيها ماملخصه :

ان انتهاج حكومة مصطفى كمال باشا سياسة التقرب بين الجمهورية التركية وبلاد العرب من الامور التي تلفت النظر ، ولا جرم انهاتنطوي على اخطار

تستهدف لها المصالح البريطانية وخصوصاً في البلاد المشمولة بنفوذها او الواقعة تحت سيطرتها ومن آثار تلك السياسة ان كلا من جلالة ابن السعود والامام يحي حميدالدين ارسل الى تركيا مندوباً يمثله في انقرة . ومعلوم ان لايطاليا مندوباً يمثلها في صنعاء . ومن المحتمل الا يمضي زمن حتى نرى مندوب تركيا السياسي ماثلا في حضرة الامام يحيى حميدالدين ، اما بريطانيا فلا تستطيع ان تخطو مثل هذه الخطوة الا اذا جلا الامام عن مناطق معينة تعد داخل حدود « عدن » فالواجب يقضي على الساسة البريطانيين بالاخذ بوسائل الحيطة للطوارئ ولا يكون ذلك الا ببذل السعي لحماية المصالح البريطانية في بلاد العرب .

هـذا ما تقوله تلك الصحف الاستعمارية وللقارئ ان يستنتج على ضوئه مقدار الخوف الذي اخذ يساور قلوب البريطانيين من تقرب الأتراك الى اخوانهم العرب ، ونحن بدورنا نقول انه على اساس القاعدة التي اوضحتها جريدة « الديلي ميل » جرت سنة الاستعمار البريطاني . وبفضلها استطاع المستعمرون من ساسة « دوانتج ستريت » ان يمدوا نفوذهم الى بلاد العراق وفلسطين وشرقي الاردن ... وسواها من الممالك العربية ، ولم يتحرك نفوذ الاستعمار البريطاني في الاوساط الشرقية الا بعد ان عينت حكومة الامام يحي حميدالدين ممثلا سياسياً لها في انقرة وليس من شك ان موقف الامام تجاه الكماليين قد جاء دليلا آخر على خيبة المساعي التي قام بها الجنرال « كلايتون » الانكليزي في صنعاء غير مرة .

ويظهر ان تعيين تركيا محمود نديم بك احد اعيان طرابلس الشام ووالي اليمن سابقاً مندوباً لها لدى الامام قد زاد في مخاوف رجال الاستعمار في لوندرا ويفيد نبأ من الحجاز ان نية حكومته قد اتجهت الى تعيين احد رجالها مندوباً لها .

ومن المهم ان نشير هنا الى ان معظم الساسة الواقفين على اسرار الشرق كادوا يظنون ان الماضي الطافح بالفاجعات لا يترك سبيلا لحسن التفاهم بين

الترك والممالك العربية التي انفصلت عن جسم الامبراطورية العثمانية . وذلك لما تجرعه موظفوها وجنودها خلال الحرب العظمى من مرارة الآم العسف والارهاق والمظالم السوداء على يد اخوانهم المسلمين في تلك الممالك بيد ان رجال الحكم في تركيا من جهة وزعماء العرب وحكام الممالك العربية من جهة اخرى ادركوا حقيقة نيات المستعمرين نحوهم وتحققوا الخطر المحدق بحياة بلادهم ومستقبلها وحريتها واستقلالها . فاسرعوا في العدول عن خططهم القديمة الى مناهج مقرونة بالحكمة والسداد . وبذلك تغلبوا على سياسة العاطفة التي تدفع المرء غالباً الى السير في مسالك وعرة مملوءة بالاشواك .

ويسرنا ان نؤكد انهم قد اسدلوا الستار على الماضي الطافح بالآلام . ذلك الماضي الذي لعبت في خلاله يد التفرقة والانحلال ادواراً ادت بالاسف الى وقوع اجزاء حيوية من الشرق فريسة بين مخالب الطامعين . فالدروس القاسية التي تلقاها الشرقيون من الغرب . والويلات التي حلت بلادهم عقب انتهاء الحرب العظمى . كانت ولا تزال اكبر مشجع لهم على اتحاد كلمتهم وتوجيه جهودهم نحو العمل على ما يحفظ مصالحهم ويصون كيانهم من خطر المستعمرين .

فلترفع نقود الاستعمار فان زعماء الشرق لن يعدلوا بعد الآن عن الخطط الرشيدة التي قرروا السير عليها . وكل ما نؤمله من اولئك الزعماء هو مواصلة الجهود لتوثيق اواصر الصداقة والولاء فيما بينهم والقضاء على ذوي الدسائس والاغراض الشخصية وتحطيم الاقلام المأجورة في اواسطهم فبهذا وحده يستطيعون تكوين جبهة قوية تدرأ الاخطار عنهم وتوصل سفينتهم الى ساحة السلامة .

وبهذه المناسبة ننقل ما كتبه جلالة ملك الافغان امان الله خان الى جلالة ملك الحجاز ونجد عبدالعزيز ابن السعود في هذه الآونة نقتطف منه شيئاً يليق اخذه للتاريخ لمناسبته للمقال ، قال صديقي العزيز :

وصل الي كتابك اللطيف الاشارة الرقيق العبارة على يد معالي غلام جيلان خان

سفيرنا في تركيا الجديدة الذي كان يرأس الوفد الافغاني في مؤتمر العالم الاسلامي الذي عقد في الحجاز في هذه السنة . واني اشكر لكم ماتفضلتم به على وفدنا من حسن الوفادة وجميل الرعاية واني ارجو ان الجروح التي انزلت بقلب العالم الاسلامي ستبرأ ان شاء الله تعالى بمعونتكم ومعونة كبراء وامراء الاسلام وحكومة الحجاز في مؤتمر ينعقد من العلماء المفكرين من جميع الاقطار الاسلامية . وفي هذا المؤتمر يرتق الفتق ويصلح الامر على ما يحقق الرغبة العامة التي يرغبها العالم الاسلامي من جعل الحرية الدينية وحماية القبور والآثار الاسلامية نافذين فعلا .

انكم بحكمتكم تقدرون حرج الحالة الحاضرة حق القدر على وجه تأخذون فيه بالتدابير الضرورية لاصلاح ماوقع في الحجاز وبهذا تجعلون العالم الاسلامي يتقارب الى حالة الاطمئنان . فاذا تم السعي فان علماء افغانستان يجيبون الدعوة وان من الواجب الديني على افغانستان ان تراعي مصلحة الحجاز واستقلاله التام مع جميع شئونه السياسية بحيث يكون كل ذلك حراً من تسلط الاجنبي (غير الاسلام) وتريد دولة الافغان للحجاز توطيد دعائم السلم ودوام التقدم والفلاح . ومن المأمول كل الامل انه بما لكم من نفاذ البصيرة والحكمة السياسية والرعاية لشئون العالم الاسلامي بكل ذلك ستظل علاقاتنا متبادلة في المحبة والمودة .

وقد احببنا نقل ماقاله احد شعراء مصر بمناسبة عيد الجمهورية التركية في مصر :

جددوا الاعياد للشرق الحزين ... وارفعوا الاعلام للمستشرقين
هزها الكبر على اعوادها ... وهي ما انفكت تهز العالمين
صنعة البيض المواضي مالها ... من مثال بين ايدي الصانعين
نسجتها في اعاصير الورى ... من نفوس الفتية المستبسلين
ترسب الخيل بها في لجة ... من دماء الشهداء الصالحين
ثم تطفو فوق طوفان اللظى ... فهي للابطال فيه كالسفين
كبري يا مصر سبعا وانظري ... تلك اعلام الغزاة الظافرين

حكموا السيف فصانوا حقهم حين ضاع الحق بين الحاكمين
رحمة العادين مما جربت امم الشرق وعدل الغاصبين
دولة الترك اعيدي ما مضى من عهود لذة للذاكرين
ادفعي الشرق حثيثاً وارفعي دولة السيف وملك الفاتحين
والبسي الاعياد بيضا واصدعي ظلمة اليأس عن المستيئسين
علمينا كيف نبني مجدنا بعد ان غالته ايدي الهادمين
نحن قوم قد خذلنا حقنا ونصرنا باطل المستعمرين
انكر الاحرار مكروه الاذى ورضينا خطة المستضعفين
لايرانا القوم فيا نابنا من خطوب الدهر الا مذعنين
امة لم يغن عنها ما ترى من عذاب الله حيناً بعد حين



البعث بعد الموت ونهضة تركيا الجديدة

قال صاحب توحيد الافكار التي تصدر في دار السلطنة القديمة : حق لنا بعد هذا الانقلاب العظيم والتطور الفجائي ان تسمى دولتنا بتركيا الجديدة اذ لو تم ماختتمت به رواية الحرب العامة الكبرى من انه لا اتراك ولا دولة تركيا اسلامية لزال اللون الاخضر من خريطة العالم

ولقد حصل هذا ولا نستطيع جحوده ومزق شملنا ووزعت اسلابنا واصبحنا في خبركان لو لا فضل من الله ونعمة لما كان لنا الآن اسم يذكر في فهرست الدول التي تشغل مكاناً في الكرة الارضية .

لا ريب ان نهضة الكماليين عادت على الامة التركية خصوصاً والاسلام عموماً بفوائد لا تقدر قيمتها بل نستطيع الجزم بأنها بعثت ميتاً من قبره واوجدت معدوماً .

فان جهاد الاناضوليين المجاهدين الذين لامستند لهم الا معونة الحق جل وعلا وحبهم لاوطانهم قد اوجبت للعالم اجمع لمة جديدة تريد الحياة لا علم لاحد

بها حتى رفعت رأسها من هضاب الاناضول ونادى مناديها فوق قلل جباله ان الوطن العثماني بان وظهر رغم ازدحام جموع مبغضيه على تقسيم تراثه

وقف ابطال الاناضول هذا الموقف المحدود وكسوا بفعالهم امتهم ثوباً جديداً من التضامن والقوة والعزم الشديد وخطوا بها خطوة جبار لا يخاف الموت ولا يرهب الزوال

فأعادوا ما ضاع وردوا ما نهب واسترجعوا ما سلب وصرخوا صرخة في صماخ الكون اهتزت لها ارجاء المعمورة فأصبحنا والحمد لله نسترضي بعد الطرد ونحترم رأينا بعد السخرية به

أجل لقد بدلت الارض في تركيا غير الارض والرجال غير الرجال وكل التصورات الحيوية داخلية او خارجية فهي جديدة

ولقد بدلنا من جفاء الامم الشرقية اجمع محبة ووداد او تحالفاً وتضامناً وجمع العالم الاسلامي الشرقي تحت لواء هذه الدولة الجديدة وخليفتها فشكراً لله تعالى .

واصبحت اوربا التي كانت تحتقرنا بل كنا مضرب المثل عند ساستها في الضعف والذل والعسف تتقرب وتحي علنا وتخطب ودنا بمعاهدات سياسية تدل على الاحترام الممزوج بالهيبة والوقار . بل ترى الدولة التي تحالفنا انها حالفت امة قوية وشعباً حياً قطع دابر كل قديم واستقبل عهداً زاهراً وحياة شابة .

ثم قال سياستنا الجديدة الآن مع الدول سياسة الصراحة سياسة الذي يجهر بالحق ولا يبالي . فهي واضحة جلية لا غش فيها ولا تدليس ولا تشوبها مواربة ولا نفاق فنحن في غنى تام عن الاتفاقات السرية

واساسنا الوحيد في سياستنا الحاضرة بل شعارنا في كل موقف (تركيا للاتراك) ولا تريد تركيا الجديدة ان تتكيء على معاهدة او محالفة او مجاملة مع احد الدول الغربية كما كانت سياسة اكثر رجال تلك الدولة العثمانية القديمة .

فهي على يقين من انها ستنال مآربها ومطالبها بدون احتياج الى مساعدة من دولة مجاملة او عطف ومحاباة من أخرى .

كما انها لا تريد الارتكاز الا على مساعدة ابنائها وأبطالها ولقد صارحنا العالم أجمع مصارحة ليس بعدها مصارحة ان ميثاق مجلسنا الملي لا مناص من تحقيقه خربت الارض او عمرت فني البشر وفني أولهم الاتراك ام بقي منهم احد

ونحن لا يسعنا ازاء الدسائس التي تدسها عدوتنا وعدوة الاسلام اجمع التي تظهر اليوم محبة العرب ؟؟ الا ان نضحك ضحكة ممزوجة بالاسف على تلك المجهودات الغير المنتجة .

فما فعلته فرنسا من التقرب الينا في العهد الاخير قد اثار نأثرة العدو المعلوم ولكن لينشروا ضدنا من الترهات والاضاليل وليبثوا ما شاؤا من الدسائس وليقولوا ما يمليه عليهم الحسد والبغض وتوسيع الاستعمار وتفريق الاسلام عن جسمه فانهم لاشك راجعون الينا جاثون على ركبهم يطلبون الصلح مثل صنيعهم اليونان وستبدي لهم الايام ما جهلوه ! انتهى (وقد كان) .

بعد هـذا كله لجأ في المدة الاخيرة مصطفى كمال باشا مع مجلسه الملي في انقره الى احداث الحكم الجمهوري في هذه الدولة مع اختيار هـذه المدينة عاصمة له . وهذا كله من نوع الاجتهاد الاول الذي استعمله الكماليون في نزع السلطة الزمنية من يد الخليفة بدعوى انه لا يعقل ان تسلم مقاليد الامة الى فرد واحد وهو الخليفة والسلطان الذي شرد وكان آلة بيد الاعداء ولو تفكروا قليلا بعاقبة التسرع لهذه الاعمال في نظر العالم الاسلامي وما ينتج بعده من اختلاف القول وتفريق الكلمة والاجماع ومـا يكون وراء ذلك ويعقبه لاختاروا اخف الضررين وابقوا هذه الاعمال لوقت مناسب لهم باستعمال حالة وسطى توافق الحالة الاجتماعية والله من وراء القصد يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

ولا يبعد بعد ذلك ان يكون في كل قطر خليفة بعد ان رفضها الاتراك كما كان الحال في زمن العباسيين حتى يصدق بحقنا قول القائل :

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة فيها امير المؤمنين ومنبر

وقد انتخب مصطفى كمال باشا رئيساً لهذه الجمهورية وهذا أول شكل جديد

لحكومة اسلامية قديمة وهو حادث عظيم الشأن في السياسة الشرقية الحاضرة والله الموفق

ومما يليق اخذه للتاريخ مانقلته احدى الصحف الاسلامية بدمشق منشور ملك الحجاز حسين بن علي للامة الانكليزية نقلته بنصه عن جريدة القبلة التي تصدر في مكة المكرمة تحت عنوان في ذمة التاريخ احببنا اثباته هنا من قبيل الوثائق التاريخية :

قال الملك بناء على الشهرة الوطيدة للشعب البريطاني النجيب بالثبات والجدية واطلاعي الخصوصي على كل ما في معنى ذلك من المزايا رأيت أن أوضح رأيي لحكمة الضمير النزيه في حسهم والرأي العام السليم بينهم فيما نال اقوامي العرب وبلادهم من الحيف والغبن . فانه عندما دعتني حكومة جلالة ملك الانكليز ورأيت ما في دعوتها من الفوائد المادية والمعنوية المعترف باشتراكها دون أن يمس ذلك أي حس وطني او ديني كما يعلم من منشوراتي المتعددة الرسمية نهضت بذاتي وباقوامي بعد تقرير مواد معلومة لصيانة وتأمين شؤونهم ومستقبلهم فخضت وايام غمرات القتال جنباً الى جنب اعتقاداً مني باني اقاتل في جانب شرف الامة البريطانية باجمعها لا بجانب افراد منها تزول صلتي بزوالهم ومثل يقيني لعيني تلك الامة النجيبة بشهرة عظمتها فاقدمت مفعماً بالثقة غير محجم عن الدعوى في حين كانت كفة الفريق الآخرين راجحة في كوة الامارة وفي ساحة القناة وفي الدردنيل وفي الميادين الاوربية غالبة كما هو معلوم وقد كان من اثر اشتراكي واقوامي كتفاً لكتف بجانب ابناء الامة البريطانية ماهو معروف حتى انقشع علاوة على ذلك ما كان في افق الشرق من سحب متكاثفة كانت تنذر بانتقال الحرب فيه الى طور ديني الله اعلم بنتائج اهواله ، وضربت المثل الاعلى للعالم الغربي في التساهل والتفاني في الدفاع عن المبادىء السامية فلبى دعوتي العرب في عراقهم وفلسطينهم وشامهم وكانت وثائق رجال السياسة المكتوبة والموجودة بيدي وسائر تصريحاتهم الرسمية والخاصة في كل مجلس وناد مجمعة على القول بان العرب سيكافؤون على اخلاصهم هذا باستقلالهم ووحدتهم

وزوال ما كان يساورهم من محنة اعتماداً وثقة بعد باريهم بالمجد والسؤدد البريطاني المعروف يشهد لهم بذلك رفضهم الدخول في صلح منفرد مع العدو الاتراك الذي وعدهم بكل انواع الاستقلال مشفوعاً بالضمانات المؤكدة الرسمية عند شعوره بشدة الصدمة التي وقعت عليه مادياً ومعنوياً من قتال العرب له ووقوفهم بجانب بريطانيا العظمى التي بتتأثر من جلها الاعتراف باستقلال العرب ووحدتهم ويتدفق من حروفها الحزم والعزم بثباتهم على تلك الامنية وانه لا يتصور عقدهم لاي صلح ما لم يكن من مواده الاساسية استقلال بلادنا وحرية اقوامنا وذلك بالنيابة عن حكومة جلالة الملك جورج والتي بلغني اياها معتمد بريطانيا العظمى في جدة بتاريخ ٨ فبراير ٩١٨ ولذلك اناشد الامة البريطانية ألفات نظرها الى ما وقع على حلفائهم العرب (على قلة ما في العالم من حلفاء اليوم) فقد اصبحت وحدتهم ممزقة وبلادهم التي انسلخت عن حكم الاتراك محتلة متفرقة مما جعل العالم الاسلامي خصوصاً بل اكثر اقوامي العرب ايضاً يرميني ويتهمني باني خنت العهد والامانة مع حكومتي السابقة وبعت البلاد لبريطانيا وحلفائها . وان ما في هذا من النقيصة وثلة شرف عائلتي وسواد تاريخها وكل ما هو في معنى ذلك مما يأباه حتى المتجردون من ادنى حسيات الشرف دون ان اعلم لي جريمة تذكر اللهم الا ثقتهم ببريطانيا العظمى ووفائهم لها (ان صح ان ذلك جريمة) ان العرب الذين يرون انفسهم مدفوعين بعامل البقية الباقية بين جوانحهم من الاخلاص لحليفتهم بريطانيا المعظمة وما طبعوا عليه سجية وخلقة من فطرة الوفاء بالعهد وعرفان الجميل يكلفونني اليوم ان أحيط كمالات المجد البريطاني بأنهم لا يريدون من هذه المباحث ما يفهم منه شائبة اي امتنان بما أتوه في مواقفهم او ما هو في معناه من المذاهب والتأويلات ولا ينكرون عليها تهافت عظمتها على مصالح وطنها وابنائها وغيرتها على صيانة تلك الغاية المقدسة الشريفة ولكنهم ايضاً لا يرتابون بان كمالاتها ومدارك عرفانها لا تجوز حصر هذه الحسيات والشعور الجليل الذي عليه مدار السعادة لحياة الامم والشعوب فيما هو خاص بها فقط من المزايا الجليلة والمساعي النبيلة علاوة

على حكم ما يقتصرون بيانهم له على ما في الحديث الشريف (حب الوطن من الايمان) نعم لا يريدون بهذا البيان الا تعريف حيرتهم ودرجة تحجزهم عن ادراك نتيجة موقفهم بين تحتم فرائض هذين الموقفين العظيمي القدر . حقوق الوفاء وحسيات حقوق الوطن كما ذكر بعاليه . واني اضع قضية موقفهم وحيرتهم على منصة آراء الشعب النجيب البريطاني لئلا يقع عليهم لوم او تثريب اذا اتخذوا خطة اخرى لدفع هذه النقيصة العظمى المسودة لتاريخهم المجيد مهما يكن من أمر تلك الخطوة وشأنها المقبل . وان لا يصدق عليهم المثل (فر من الموت وفي الموت وقع) وهذه أبسط نقيصة يرميهم بها اعداؤهم وحسادهم ويسوغ ان يخاطبوهم بقولهم (لو بقيتم على سابقتكم لسلمتم من كل ما نالكم ووقعتم فيه) اما الحجاز فهو اساسا قائم بامتيازاته واستقلالاته من قبل ومن بعد وان الصبر على ما وصلت اليه الامة العربية من موقفها لدى العالم الاسلامي والشرق بأسره وقفة الخيانة والريب وفي عيني نفسها وبين يدي تاريخها المجيد لمن مستحيلات الامور وخوارق العادات . واني لست بمقام المنذر بل المذكر فقد كانت شهرة بريطانيا العظمى اساس عظمتها الحقيقي في الشرق قبل اساطيلها وجيوشها الجرارة وانها في حاجة كبرى الى تجديد تلك المكانة . اقول ذلك بصراحة العربي واخلاصه وان تبدي ذلك في معاملتها للعرب الذين حالفوها ووفوا لها حتى الساعة على رغم الغوائل والزعازع منذ كانت الحرب ظاهرة علنية فأصبحت مستورة خفية . ولا أتوسع في المقال وقد اغنتني عنه الحال ورجائي الى الامة البريطانية العزيزة ان تدفع عن نفسها غائلة تلك الاعباء فتعود الى انصاف العرب حلفائها الاوفياء ومعاهديها الامناء . ولان يكون لها حليف مخلص قوي له وحدته واستقلاله افضل من تركه ممزقا ذليلا كما هي حالة العرب اليوم ولا يعلم الا الله اين ينتهي بهم اليأس والقنوط فقد طفح الكيل وبلغ السيل الربى أقول ذلك عملا باخلاصي ووفائي لكم وقد قمت بالواجب والحمد لله .

كتب في مكة المكرمة القصر الهاشمي في ١٥ ربيع الثاني سنة ١٣٤٢ و ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٣

وقد الحقت رسالة جوابية من لندن عصمة الانكليز نشرتها الصحف في ٣١ كانون اول من السنة المذكورة للوزير رجالات السياسي الشهير رد فيها على النداء الذي وجهه الملك حسين الى الامة البريطانية جاء فيها ما يأتي :

يقول الملك حسين ان العرب في العراق وفلسطين وسوريا لبوا دعوته وهذا القول عار من الحقيقة فقد انضم الى الحلفاء قليلون من سكان هذه البلدان قبضوا اجوراً وافرة. ان دعوى الملك حسين بانه يتكلم باسم العنصر العربي كله لا اساس لها . فقد كان قبل الحرب شريف المكة كموظف تركي براتب معين وقد انتقته الحكومة التركية من بين مرشحين متعددين لهذا المنصب ان العائلات الشريفة كثيرة فمن الخطاء حصر هذا التعريف ، نعم ان عائلة الملك حسين قد اكتسبت بعض النفوذ من اتصالها الطويل بمكة ولكنها لا تعد انبل واشرف من عائلات متعددة اخرى تمت بانسابها الى النبي العربي

ان الرأي العام عند الحضر من العرب في شأن العائلة الملكية المزعومة قد افصح عنه واعنا افصاح فلاح من شرقي الاردن بعد الهدنة بقوله (لاشك انهم لا يجعلون فيصلا ملكا علينا فيكفينا ما نذوقه من البدو من دون ان يكون علينا ملك بدوي)

ومهما كان من امر وعودنا للعرب عامة فلا شك ان الملك حسيناً واولاده قد كوفئوا خير مكافات

ومما يجدر اخذه للتاريخ ايضاً صورة الكتاب الاخضر الحجازي الذي نشره جلالة الحسين بن علي ملك الحجاز السابق بعد أخذه الى قبرص المرفوع الى رئاسة عصبة الامم قال : ياصاحب الرئاسة !

اني انا الموقع ذيله ادناه الملك حسين بن علي ملك الحجاز وعضو مؤسس في جمعية الامم وحليف الحلفاء في الحرب الكبرى أبين لجنابكم ما يأتي :

أولا — ان جمعية الامم لم تخلق ولم تقبل بايجادها الدول المتحالفة والمحايدة ايضاً الا لامر واحد وهو لمنع تعدي اية دولة مستقلة على دولة او مملكة مستقلة او امارة مستقلة مثلها وان هي لم تتمكن بالذات من هذا المنع اجبرت

الدول العظمى الداخلة في عضوية جمعيتها على هذا التعاون عصبة واحدة لدفع الضرر ومنع المعتدي من التمادي في تعديه وهذا هو السبب الذى من اجله خلقت عصبة الامم وقانونها الاساسي .

ومن الغريب المدهش انه لم يطبق هذا القانون الاساسي في مسألتي مع الوهابيين وقائد رجال عصابتهم الذين اجتاحوا بلادي وبلاد آبائي واجدادي حتى محمد بن عبد الله النبي الهاشمي العربي صلى الله عليه وعلى آله وسلم . ولذلك فاني احتج اشد الاحتجاج :

اولا - من قبل قائد عصابات الوهابيين .

ثانياً - على جمعية الامم لعدم معاملتي بموجب قانونها الاساسي واني اطلب بالحاح من الجمعية الموقرة طرد هؤلاء الوهابيين من بلادي بقوة الدول اعضاء جمعية الامم المتفقة التي اتشرف بأن أكون عضواً مؤسساً فيها . واعادة ملك آبائي واجدادي الي . وارى من العبث ان اعين لرئاستكم المواد القاضية لي من قانون الجمعية بهذا الحق الصريح .

ثالثاً - تتذكر جمعية الامم ان قادة عصابات الوهابيين قبل اجتياح الحجاز كانوا قد دخلوا امارة الكويت مما حمل الدولة البريطانية على ارسال الجنود الانكليزية المقيمة في العراق مع طياراتها ودباباتها وسياراتها المسلحة الى الكويت وارجاع الوهابيين بالفشل عن مقاصدهم الشريرة التي خلقوا فيها وتربوا عليها وهي تجمع في أمر واحد وهو غزو جيرانهم وسلب ما عندهم من نساء وأولاد واموال وهم عنوان الهمجية البدوية والتوحش النجدي .

رابعاً - لما فشل الوهابيون ولم يفلحوا في الاغارة على الكويت وغزوتها ولما اقتحموا مملكة شرقي الاردن بجموع عصاباتهم هناك وقف في وجوههم ولدي الامير عبد الله حاكم هذه المملكة وقاومهم بكل ما عنده من القوات الحربية والرجال الاشداء وانضمت اليه فرق من الجنود الانكليزية بطياراتها ودباباتها وسياراتها المسلحة فتغلب على هذه العصابات المتوحشة وردها بالقوة بعد أن أمعن فيها تقتيلا وقد رأى وشاهد بالعين بعض كبار القوم وهم شهود

عدول بان الوهابيين بعد قرارهم كانوا اذا وجدوا مسلماً جريحاً ترجلوا عن خيولهم وأغمدوا خناجرهم في قلبه وشربوا وغسلوا وجوههم من دمائه وهذه حقيقة ناصعة يجب ان يعلمها جميع المسلمين في العالم والدول الاوربية

خامساً – أما انا الموقع بذيله ملك الحجاز وعضو جمعية الامم وحليف الدول الحلفاء العظام والمنتصرين في الحرب الكبرى لم أعن بشأن هذه العصابات المتوحشة عناية الخائف من تعديها على ملكي لانني كنت ادري بأننا لسنا في العصور الوسطى ولانني كنت على اكثر من اليقين بأنها لا تجاسر ان تهاجم بلاداً يقدسها ثلاثمائة مليون من المسلمين الموحدين ويصلون الى قبلتها ويحجون الى كعبتها من كل صوب وحدب وتضمن استقلالها جمعية الامم وتحمي وتحترم هذا الاستقلال جميع دول الحلفاء وما كنت لاظن بأن واحدة من هذه الدول العظمى توعز الى رجال هذه العصابات المتوحشة بواسطة بعض ساستها الاغبياء فيدخلون الاراضي المقدسة دخول اللصوص السفاكين الناصبين . ويطأون بسنابك خيولهم حرمها الحرام . ويهدمون مساجد اوليائها الاطهار . ويمحون آثار ضرائحهم الكريمة . ويدمرون جميع المعاهد والمشاعر الدينية الموجودة منذ العهد الاول للاسلام . والتي يحج المسلمون من اجلها ويأتون من أقصى المعمور للتبرك بترابها

اجل اني ما كنت لأتصور ان الحليفة الكبرى تأتي من وراء اكبر حليف لها في الشرق . واعظم ساعد لها في الحرب الكبرى . وعلى الاخص عند فتحها القدس باعتراف قائد جيوشها الاكبر فتطعنه في ظهره دون ان يكون لها ضمير يوبخها او مروءة ووفاء يمنعانها عن هذا العمل الفظيع الظالم . اما الحليفة الكبرى فانها شعرت بفظاعة عملها هذا . وعلى الاخص عندما رأت اشمئزاز الرأي العام الانكليزي منه او بالحري اشمئزاز الشعب البريطاني النبيل من سياستها المتخبطة المضطربة بل السقيمة الخرقاء . ومن حرمان الانكليز وتقص البلاد الاسلامية من حليف شريف وملك عريق في الحسب والنسب ؛ ومسالم لم يفكر قط في الاضرار بالآخرين واستعاضتها عنه بقائد عصابات همجية شريرة .

هو واياها الد اعـداء المسلمين وغير المسلمين . والد اعداء المدنية ايضاً .

اجل ان رجال الحكومة الانكليزية الذين أتوا هـذا الغلط وهذا الخطأ الفاجع يقفون مطأطئين الرؤوس خافضين العيون امام الرأي الانكليزي النبيل الذي سيحاسبهم أشد الحساب عند عودة افتتاح البرلمان الانكليزي ؛ والذي سيطلب منهم اعادة الامور الى ماكانت عليه قبل هذا الانقلاب الفظيع الظالم بكل واسطة او شكل او نوع . والا سخط عليهم وكان سخطه عظيما ؛ وما نحن ببعيدين عن سخطه المؤلم على رجال من اعظم حكامه رفعهم الى قم المجد والفخر ؛ ولما رأى سوء تدبيرهم وسوء نياتهم انزلهم الى حضيض المـذلة والمهانة بعد ان سحب كل ثقة منهم .

وبهذه المناسبة ننقل ماكتبه مكاتب الاحرار في ابناء الحسين بين ايدي الانكليز .

قال : وابناء الحسين ليسوا وحدهم بين ايدي الانكليز . فكل امراء الجزيرة العربية يخضعون لمشيئة لندن عدا امام اليمن يحيى حميد الدين . ولكن الانكليز استندوا في سياستهم بين الشعوب العربية الى الحسين وابنائه بأشد مما استندوا الى ساعد الباقين . فأوهموا العرب بأنهم سيعيدون اليهم عزهم الغابر ومجـدهم التالد . وعرضوا على انظارهم التاج يسطع على مفرق آل هاشم . فمشي العرب في رحاب قضية الخلفاء تهزهم ذكرى الخلفاء الاقدمين في دمشق وبغداد . فجاهدوا وناضلوا ودخلوا عاصمـة بني امية . ظافرين يجلون الاتراك عنها فكان نصيبهم من الغنيمة « نصيبك في منامك من خيال . . .

ولم يلجأ الانكليز الى الحسين هياماً بسواد عينيه . ولكنهم وهم في مصر رأوا الحجاز كمفتاح للجزيرة العربية بل لتركيا باسرها . فراحوا يخطبون ود امير تلك الديار شريف مكة . فلم يصدهم الحسين خائبين بل اجابهم الى رغباتهم بعد شروط تفاوض واياهم بها وانشق القطر الحجازي عن المملكة العثمانية . وتبعته الاقطار العربية بقعة بعد بقعة . ولم تقع الهدنة حتى اجتازت الجيوش الانكليزية بلاد الضاد وتوغلت في الاناضول . وقد ادركت طلائعها جبال طورس واتفره .

وكانت مكافأة الانكليز للحسين انهم رفعوه على ذلك العرش الذي وعدوه

به واقاموا ابنه فيصلاً في دمشق ووعدوا علياً بعرش العراق وعبدالله بعرش فلسطين فتحيط العروش الهاشمية الاربعة بالبلاد العربية بكاملها وتمسي لندن صاحبة الشأن الاول والاخير في كل قطر عربي .

تلك هي فكرة الكولونل لورنس . بيد ان الفرنسيين وقد شعروا بالشبكة التي تلقيها انكلترا في الشرق الاوسط ، وغاظهم تطاول رجال فيصل عليهم قصدوا دمشق يقوضون عرشها وهزموا الفيصليين وارغموا فيصلا على هجر الشام . وهدموا ذلك الحلم الذي تجلى في مخيلة لندن وكاد يتحقق لولا معركة ميسلون .

فامسى اولاد الحسين لايملكون امارة ولاعرشاً . واخيراً اوجدت بريطانيا لفيصل عرش العراق ولعبدالله امارة عمان وابقت علياً كولي عهد الحجاز . ولكن نفور الحسين من توقيع المعاهدة البريطانية الحجازية نزع من آل هاشم عرشاً جديداً . هو عرشهم الاصلي في بلاد الحجاز .

فشعر ابناء الحسين بهول النكبة الا انهم تحملوها بصبر . ولقــد امضهم ان يفقدوا عرشين في خلال اربع سنوات . ولكن هي مشيئة لندن . وابناء الحسين لم يبلغوا هذا السؤدد الا بفضلها . بل انهم ساعدوها في سياستها بل كانوا أشد الاعوان لها في تلك السياسة ولولاهم لما انفرط عقد المملكة العثمانية بكل هذه السهولة . غير ان لندن بعد بلوغها مشتهاها تناست مســاعدة الحسين بن علي فضحت به في سبيل سياستها خوفاً من ان تضحي بتلك السياسة اكراماً للحسين .

ولقد استفاد الانكليز فائدة كبرى من نفوذ الهاشميين في البلاد العربيـــة . وكلما بدا لهم انهم في حاجة ذلك النفوذ استخدموه لتنفيذ مآربهم وقد فتشوا عن عرش للملك علي في البلاد الكردية فلم يتحقق امره . وها ان علياً ينتظر وهو مقيم في بغداد الآن ولا يبعد ان يكون الانكليز ملأوا قلبه بالاماني والامال .

ولكن هل استفاد الهاشميون من الانكليز كما استفاد الانكليز من آل هاشم؟ ذلك ما يستطاع الجواب عنه بالنفي فان ابناء الحسين بعد فقدهم الحجاز فقدوا كل امل في الاحتفاظ بالملك كابراً عن كابر . فالحجاز هو موئلهم ومسقط

رؤوسهم وعربهم . فاذا اقصتهم السياسة عنه فانما هي هدمت من انفسهم كل مطمع في ركوب العرش وجعلتهم غرباء في ديار الغرباء عنهم . فالعراق ان يكن خاضعاً لسيطرتهم اليوم فقد يخرج من تلك السيطرة ويدك صرحها فهم ليسوا فيه كما كانوا في الحجاز سادة الى الابد يتناوبون الحكم وارثاً عن وارث .

ثم ان العراق مطبوع الآن بطابع فيصل وحده . فلا حق بالملك في بغداد لعلي او لزيد او لعبد الله بينا الملك في مكة قد يدعيه كل واحد من ابناء الحسين . فهو منتقل اليهم عن ابيهم ولكل من الابناء نصيبه في ذلك العرش فقد لا تحرمه الايام الجلوس عليه . اما اليوم فلا امل لاحدهم بالبقاء في سدته فقد يدور الدهر دورته عليهم ويمسون لا عرش ولا تاج .

ولسنا نحسب امارة عمان بالمملكة . فهي اشبه بولاية من الولايات يشرف عليها الامير عبدالله وقد لا يشرف عليها الا بالاسم والانكليز اصحاب الامر والنهي فيها .

فالهاشميون اذن ما استفادوا من الانكليز بقدر ما استفاد الانكليز منهم . بل خسروا وخسارتهم في الحجاز خسارة نكبوا بها خصوصاً عند ما يبصرون الد اعدائهم يركب عرش ابيهم المبعد الى عرض بحر الروم . وجريمة الوالد انه ابى توقيع معاهدة يوطد الانكليز بها وعد بلفور في فلسطين بعد ان كانوا وعدوه باستقلال فلسطين كبلد عربي صاحب سيادة مطلقة .

هكذا تكافىء السياسة ابطالها . ولعل في مصير ابناء الحسين خير عبرة لامراء الجزيرة وملوكها الواقفين على ابواب الشرك الاجنبي يوشكون ان يقعوا فيه الواحد تلو الآخر .



كنا أسلفناك في اول الباب الثالث ان نبين لك في ختامه كلمة على الاوقاف ونوائدها فنقول :

الاوقاف بمعناها العام معروفة قبل الاسلام حتى في اكثر الامم والدول وقد وجد معناها عند العرب واصرح مثال لها الاموال المحجرة وهي احدى الاعمال

العامة التي توزعت على اتخاذ بني قصي الاثني عشر وكانت عبارة عن الاموال التي تجمع من مياسير قريش وغيرها من بطون العرب لاجل ان يصلح بها شأن المعوزين من الحجاج وابناء السبيل كما قد سموا الاوقاف في صدر الاسلام الاحباس حتى ان الامام الشافعي قال عن كتاب الوقف باب الاحباس

ومنها ما كان يحجر على اصلاح شأن الاصنام والاوثان وسدنتها وقد يخص القسم الاول باكرام الرفادة وتكون الاموال المحجرة على هذا النسق مختصة بما ينفق من الاموال العامة على الاوثان وسدنتها .

جاء الاسلام فأبطل اعتبار الاوثان واقر اشتراك العامة في سد عوز المعوزين من أبناء السبيل والحجاج بالصدقات الموقتة قبل ان تفرض الزكاة المعروفة ويبين اصناف مستحقيها ثم رغب المشرع الاعظم صلى الله عليه وآله وسلم في الصدقة الدائمة للمصالح العامة المعبر عنها بلسان الشرع والفقه بالوقف وأول حادثة جرت في صدر الاسلام من هذا القبيل كما ورد في الصحيح أن عمر بن الخطاب تصدق برقبة ارض له ورثها عن ابيه وكانت غالية الثمن صدقة ابدية وجعل ريعها في سبيل الله

اما تفاصيل احكام الاوقاف وبما ذا يلزم الوقف ويتم وهل يشمل المنقولات والدراهم كما يشمل العقار فمحل بسطه وبيانه كتب الفقه وذلك ليس من موضوع كتابنا .

ولا بد لنا من كلمة اجمالية على فوائد الوقف وانه من ضروريات الكون والحياة الاجتماعية وذلك لان المدنية الصحيحة انما ترتكز على اساساتها القوية من العلم والصناعة وهذه الثلاثة التي هي اصول العمران والامارة فرع عنها يجب ان يقوم بها ارباب العقول الراجحة الناضجة من ابناء الامة بمقدار يسد العوز ويأتي بالغرض المطلوب

وبما انه قد يكون الكثيرون من هؤلاء الابناء الراغبين في اتقان واحد من هذه الاسس لا تساعدهم عليه ثروة آبائهم فوجب بلا ريب ان يرصد من اموال ذوي الثروة والغنى مبالغ ذات شأن يستعين بها من يريد اتقان علم الزراعة

او احدى الصنائع وقد استفادت منها دول الغرب الفوائد الجليلة . فانك ترى الملاجيء للايتام والارامل والمدارس على اختلاف انواعها ومعامل الصناعات لاجل ان تقيهم عن السؤال

ولا أبالغ اذا قلت ان الغرب قد اخذها عن الشرق ابان ظهور مدينةدول الاسلام في الشام وبغداد والاندلس ومصر فقد كانت المؤسسات العامة في هذه المواصم آيات كبرى بهرت العقول وأرسلت أنوار التمدن الاسلامي والعمران الى اطراف القارات الخمس التي لا تعرف علماء الجغرافيا معموراً سواها من سطح الارض .

واني لا اقدر ان امسك لساني عن ان ابين لابناء عصري ان الطريق الوحيد للحياة الصحيحة التي لا يعتورها مرض انما هو انشاء امثال تلك المؤسسات بالاموال العامة التي من اجلها اوجد البشر فكرة الاوقاف قديماً وحديثاً .

وانت اذا فتشت صحائف تاريخ هذا العالم باسره تجد ان فكرة الاوقاف ومؤسساتها العامة لم تتسع في امة ودولة اكثر مما اتسعت وبسقت فروعها في الامة العربية والدول الاسلامية غير انها نامت بعد ذلك طويلا نومة عميقة يخشى ان يكون عاقبتها الموت .

غير اني لست ممن ييأس من روح الله لذلك تروني اصرخ قائلا : الاوقاف الاوقاف المؤسسات المؤسسات قال معلم الخير الهادي الى سواء السبيل عليه الصلاة والسلام لايصلح امر آخر هذه الامة الا بما صلح به اولها .

واني لا اشك بانه لو مر ساع على العواصم الاسلامية مثل دار الخلافة التركية وحلب ومصر وتونس ورأى تلك المؤسسات فوجدها خاوية خالية التهم اوقافها المرصودة لاحيائها الطامعون .

لايملك نفسه من ان يبكي على حالتنا ويستبكي ملائكة الرحمن ويرفع اكفه ضارعاً صارخاً اليه جل وعلا ان ينشلنا من هذه الوهدة السحيقة وان ينتزع

الاطماع من قلوب المغتصبين اوقف تلك المدارس والبنايات والمؤسسات حتى يردوا بضاعتها اليها .

ولعل ذلك يغنينا عن مراجعة اريحية الاغنياء من معاصرينا لوقف اوقاف جديدة اسوة بالعالم الغربي الذي خطا هذه الخطوة الكبرى وسبق بها العالم الشرقي واقتفى هذا الاثر تبعاً لاسلافنا حتى قامت دولة على امتن الدعائم الصحيحة فاننا بعد ذلك يشتد املنا في ان الكثير من ارباب القلوب الطاهرة والنفوس الزكية يتهافتون على الوقف للمؤسسات السالفة لتعليم النشء الجديد من ابناء هذه البلاد ذكوراً واناثاً كما كان يصنع الاسلاف وذكرناه في بابه من هذا الكتاب حيث يكونون قد رؤا بأم اعينهم ثمرات اعمالهم بادية للعيان او يهتمون لاحياء مابقي من المدارس والمؤسسات لهـذا العمل والله لايضيع اجر من احسن عملا .

واليك مثالا واحداً من كثير يثبت ما قلناه وقع في عصرنا ننقله باختصار عن بعض الصحف الدمشقية .

قال احد افاضل دمشق لصاحب الف باء في عددها ١٩٨ رغبتم في عددكم الاخير الى ذوي الخبرة والاطلاع في بيان رأيهم بشأن اراضي قرية جلين وتوابعها خاصة وقف الجزما بدمشق ولما كنت مطلعاً على تاريخ وتفاصيل هذه القضية اتيتكم بهذا الكتاب راجياً نشر ذلك خدمة للتاريخ .

ان الاراضي المذكورة هي عائدة لوقف الجزما . اناس اقعدهم الدهر عن الكسب فوقف عليهم بعض اهل الخير منذ مئات من السنين هذه الاراضي مع سواها وحبسوا ريعها عليهم وجعلوه ملكا لهم تصرف عليهم وانشئوا لهم ملجأ وسكنا في باب شرقي دمشق لايزال ماثلا حتى اليوم وفيه كثير من هؤلاء البائسين وجعل الشرع عليهم متوليا ينظر في تحصيل ريع وقفهم حفظاً لمصلحتهم

فمنذ عشرين سنة زار هذا الملجأ احمد باشا الشمعه احد اغنياء دمشق واعيانها واهداهم بعض الهـدايا ووزع عليهم شيئاً من الصدقة واشتكوا له من قلة ايراد ريع اوقافهم الموقوفة عليهم من اهل الخير فوعدهم بالمساعدة على استثمار

اراضيهم وتحسين غذائهم واخذ ما لديهم من الحجج والمستندات لدرسها فوجد حينه شرعية بواسطة متولي الوقف توفيق افندي السيوطي المفتي الحنبلي في اجبار هذه الاراضي له من قبله واذن له ان يبني غرفتين صغيرتين فقط بهذه القرية افاء منفعة معينة لجهة الوقف لمدة معلومة من السنين وجرى ذلك بموجب اعلام مسجل في محكمة دمشق الشرعية بعد ان كان استحصل سندات التمليك باسمه في هذه القرية بواسطة اجراء اليوقلمه ثم باع احمد باشا الجارة في هذه الاراضي من سلمون ريناف اليهودي الصهيوني بمبلغ ١٤ الف ليرا ذهباً واستلم المذكور الاراضي واخذ يستغلها ويفلحها فما كان نصيب هؤلاء الفقراء سوى المعين لهم من الاجرة الزهيدة للوقف

وبعد ذلك استدركت الامر دائرة الاوقاف بدمشق بواسطة لجنة من أجلة العلماء وآجرت هذه القرية باجرة مثلها لمدة معينة واخذت من يد المستأجر الجديد مبلغ الفي ليرة ذهباً لاجل تصليح محل يصلح لسكناهم ويحسن احوالهم حقق الله الآمال بالهام من بيده الامر لصرف هذا المبلغ في محله .



الباب الرابع

فيما ورد في فضلها من الآيات والاحاديث وآثار قول السلف بها وانها ارض المحشر وما قاله جملة الاخبار « وفيه فصلان »

الفصل الأول

في ذكر ماورد من الايات والاحاديث والاخبار عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المؤرخين بفضل الشام عموماً وبالخصوص دمشق وفي فضل الجبال المقدسة وما يكون من الملاحم بدمشق وانها الفساط والمحشر وانها من مداين الجنة ويعرف اهلها بالثياب الخضر وان غوطة دمشق تكون اكثر المدن ابدالا وزهاداً ومساجد واهلا ومالا ورجالا وما وصف به اهلها بالديانة وان البركة فيها .

اختار اكثر المفسرين ان الارض المقدسة لاتخرج عن الشام كلهـا واختار الكلبي وغيره انها دمشق وفلسطين وبعض الاردن ولا يخفى ان ماورد في الشام وسكانها وما تكفل الله به لها ولاهلها وما ذكر في حقها في الكتب المقدسة المنزلة والقرآن الكريم جعلها ان تكون جنة الدنيا وان تكون مباركة لانهـا مقر الانبياء والملائكة باسطو اجنحتهم عليها وقد ورد في فضلها عموماً وبدمشق خصوصاً آيات كريمة واحاديث نبوية كثيرة وورد في حقها ايضاً كثير من الآثار من كلام السلف وبدائع التحف نذكر منها البعض فنقول :

اما الايات الكريمة فقوله تعالى « ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين » . وفي تفسير ابن الخـازن المقدسة يعني المطهرة سميت مقدسة لانهـا طهرت من الشرك وصارت مسكناً للانبياء عليهم السلام وقيل المقدسة هي المباركة ونقل انه نزل ابراهيم عليـه السلام بجبل لبنان واقام به مدة فاشتاق الى الارض المقدسة فاوحى الله اليه اصعد على

رأس الجبل وانظر فما ادرك نظرك فهو مقدس فنظر فانتهى نظره الى دمشق وفلسطين والاردن رواه مقاتل والكلبي .

وقوله تعالى . واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها قال النسفي مشارق الارض هي الشام وزاد صاحب مثير الغرام ومغاربها مثل الاردن . وقال البغوي والحسن ايضاً كانوا يستضعفون اي يقهرون ويستذلون بذبح الابناء واستخدام النساء والاستعباد وهم بنو اسرائيل ومشارق الارض هي الشام التي باركنا فيها بالماء والاشجار والثمار والخصب والسعة .

وقوله تعالى . سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله قال الشهاب . المنيني المراد بماحوله دمشق وفلسطين وما والاهما . وقال الامام السهيلي عند قوله تعالى الذي باركنا حوله يعني الشام والشام بالسريانية الطيب سميت بذلك لطيبها وخصبها .

وقوله تعالى يانار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم وارادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين ونجيناه ولوطاً الى الارض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين . وقوله تعالى تجري بامره الى الارض التي باركنا فيها المراد بالارض فيهما الشام .

ومنها قوله تعالى . ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون . قالوا هي الارض المقدسة وقيل انها مصر . قال كعب الاحبار وجدت في كتاب الله المنزل يعني التوراة ان الشام كنز الله في ارضه وبها كثرة عباله .

ومنها قوله تعالى . فانما هي زجرة واحدة فاذاهم بالساهرة . قال سفيان هي الشام وروى البغوي في تفسيره عن ابن عباس . قال من شك في المحشر في الشام فليقرأ قوله تعالى هو الذي اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر فكان هذا اول حشر الى الشام .

وفي الدر المنثور عن الزهري عن انس لما نزلت سورة التين والزيتون

على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرح حتى تبين لنا شدة فرحه فسألنا ابن عباس عن تفسيرها فقال التين بلاد الشام والزيتون بلاد فلسطين .

ومنها قوله تعالى . ولسليمان الريح عاصفة تجري بامره الى الارض التي باركنا فيها قال بعض المفسرين المقصود بها البناء بارض الشام لانها كانت تجري به وباصحابه ثم تعود الى منزله بالشام وكان اذا خرج مجلسه عكفت عليه الطيور وقام له الانس والجن حتى يجلس على سريره وقال النسفي في تفسيره المدارك باركنا فيها اي ارض الشام وبركتها ان الانبياء منها فانتشرت في العالمين آثارهم الدينية والدنيوية وهي ارض خصب وطيب يطيب فيها عيش الغني والفقير ثم نقل كعب الاحبار انه قال ما بعث الله نبياً من الشام فان لم يكن من الشام هاجر الى الشام .

ومنها قوله تعالى . وجعلنا ابن مريم وامه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين قال السيوطي في تفسيره الدر المنثور اويا الى الغوطة وما حولها واخرج ابن جرير عن ابن العباس قال الربوة المستوية والماء الجاري وهو النهر الذي قال الله تعالى قد جعل ربك تحتك سريا واخرج ابن عساكر في تاريخه عن ابن سلام في قوله الى ربوة ذات قرار معين قال أتدرون أين هي قال الله ورسوله اعلم قال هي بالشام بارض يقال لها الغوطة ومدينة يقال لها دمشق هي مدائن الشام قال بن الوردي جبل الربوة على فرسخ من دمشق عليه مسجد بين بساتين وانهار ورياض . ولما ارادوا أجراء نهر تورا وحفره وقع ذلك في طريقه معترضاً فنقبوه من تحته واجروا الماء من النقب وعلى رأسه نهر يزيد وهو ينزل من اعلاه الى اسفله وفي هذا المسجد كهف صغير زعموا ان عيسى عليه السلام ولد فيه وقال بعضهم الصحيح ان ذلك وقع في بيت المقدس .

وعن قتادة التين جبل عليه دمشق والزيتون جبل عليه بيت المقدس ويقال لهما جبل تينا وجبل زيتا وقيل ان ورق التين ستر آدم في الجنة في قوله تعالى وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة فكان ورق التين فلهذا اقسم الله تعالى به

ونقل صاحب منير المرام عند قوله تعالى والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين . يقول روى عن ابي هريرة قال اقسم ربنا جل جلاله بأربعة اجبل قال التين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس وطور سينين حيث كلم الله موسى وهذا البلد الامين جبل مكة . وقال عبد الله بن عمر اربعة جبال مقدسة طور سينا وطور زيتا وطور تينا وطور تيما اما الاول فهو الذي كان عليه موسى عليه السلام والثاني بيت المقدس والثالث دمشق والرابع مكة المكرمة ومعنى القسم بهذه الاشياء الابانة عن شرف هذه البقاع وما حصل بما ظهر فيها من الانتفاع فموضع التين والزيتون مهاجر ابراهيم ومولد عيسى عليهما السلام وطور سينا المكان الذي نودي فيه موسى عليه السلام ومكة مولد خاتم الانبياء عليه الصلاة والسلام .

ومنها قوله تعالى أرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد قال البغوي والسيوطي في تفسيريهما ان ارم هي دمشق

ذكر ابن عادل في تفسيره ان ثلاث سور اشتملت كل واحدة منها على حالة غريبة وعجيبة الاولى الاسرى بجسد خاتم الانبياء عليه الصلاة والسلام من مكة الى الشام وبيت المقدس وهي حالة عجيبة والكهف اشتملت على بقاء القوم في النوم مدة ثلاثماية سنة وأزيد وهي عجيبة ايضاً ومريم اشتملت على حدوث الولد لا من اب وهي حالة عجيبة غريبة أيضاً

قال السهيلي في الاعلام في قوله تعالى طوبى لهم وحسن مآب وهي شجرة من شجر الشام يقال لها الجوز

اما ما ورد من الاحاديث فهي كثيرة قدسية وغيرها وقد أفردها قديماً كثير من علماء دمشق أي على شيء منها خوفاً من الاطالة وبالسند المتصل للشهاب المنيني المسلسل بالدمشقيين عن ابي ذر الغفاري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال عليكم بالشام فانها صفوة بلاد الله يسكنها خيرته من خلقه فمن ابى فليلحق بيمنه وليسق من غدره فان الله تعالى تكفل لي بالشام واهله .

قال الخولاني التابعي راوي هذا الحديث ومن تكفل الله تعالى به فلا ضيعة عليه رواه الطبراني في معجمه

ومنها ما رواه ايضاً عن عبد الله بن حوالة الصحابي نزيل دمشق ومات بها سنة ٨٠ه عن اثنين وسبعين سنة قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لاصحابه انكم ستجندون اجناداً جنداً بالشام وجنداً بالعراق وجنداً باليمن فقلت اختر لي ان ادركت ذلك يارسول الله جنداً اكون فيه فلوعلمت انك تبقى لم اختر على قربك مكاناً قال عليك بالشام ثلاثاً فانها صفوة الله من بلاده يجتبي اليها صفوته من عباده فلما رأى كراهتي للشام قال هل تدرون ما يقول الله عز وجل يا شام يدي عليك يا شام انت صفوتي من بلادي ادخل فيك خيرتي من عبادي أنت سيف نقمتي وسوط عذابي انت الاندر واليك المحشر . والاندر هو البيدر كما في القاموس .

ومنها ما روى بالاسناد الى عروة بن غزوان بن عتبة قال قرأت في بعض ما أنزل الله على بعض الانبياء ان الله تعالى يقول للشام كنانتي فاذا غضبت على قوم رميتهم منها بسهم وعن معاوية بن قرة عن ابيه اذا هلك الشام فلا خير في امتي ولا تزال طائفة من امتي على الحق حتى يقاتلوا الدجال

وفي رواية ابي الدرداء قال الا وان الايمان حين تقع الفتن يكون في الشام قال القرطبي ولعل هذه الفتن هي التي تكون عند خروج الدجال وقال ايضاً تخرب الدنيا قبل الشام بأربعين عاماً

ومنها ماروى الطبراني والحاكم عن ابي امامة الشام صفوة الله من بلاده اليها يجتبى صفوته من عباده فمن خرج من الشام الى غيرها (يعني كارهاً) فبسخطه ومن دخلها فبرحمته وروى ايضاً ان الله عز وجل بارك في الشام من العريش الى الفرات

واخرج السيوطي في جامعه الكبير والصغير عن احمد والترمذي والحاكم قال الهيثمي رجاله رجال الصحيح طوبى للشام قيل وما ذاك يا رسول الله قال لان ملائكة الرحمن باسطة اجنحتها عليها . وروى ابو امامة ايضاً لاتقوم

الساعة حتى يتحول خيار اهل العراق الى الشام ويتحول شرار اهل الشام الى العراق وروى ايضاً من مات بالشام اعطي اماناً من ضغطة القبر والجواز على الصراط ذكر ذلك في تحفة الحبيب

وبالسند المتصل الى ابي امامة عن عبد الله بن عمر قال صلى النبي صلى الله عليه وسلم الفجر ثم اقبل على القوم فقال اللهم بارك لنا في مدينتنا اللهم بارك لنا في مدنا وصاعنا اللهم بارك لنا في شامنا اللهم اجعل مع البركة بركة وروى ايضاً لن تبرح هذه الامة منصورين اينما توجهوا لا يضرهم من خذلهم من الناس حتى يأتي امر الله اكثرهم اهل الشام

وبالسند الى الحسن بن شجاع الربعي ان رجلاً قال اريد الخروج ابتغي فضل الله فقال عليك بالشام فان ما نقص من بركة الارضين يزداد بالشام وان دمشق معقل الناس في آخر الزمان من الملاحم

نقل العلامة علاء الدين الحصكفي امام جامع دمشق في مؤلفه الوعظ ان في آخر الزمان يستقر العلم والايمان بالشام فيكون نور النبوة فيها اظهر منه في سائر بلاد الاسلام وقال ايضاً الشام في آخر الزمان ارض المحشر والمنشر فيحشر الناس اليها قبل القيامة من اقطار الارض فيها جل خيار اهل الارض الى مهاجر ابراهيم وهي ارض الشام كما ذكر في الحديث الشريف ان خيار اهل الارض الزمهم مهاجر ابراهيم روى ابو داود عن ابن عمر قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول ستكون هجرة بعد هجرة فخيار الناس يلوح اليه الى مهاجر ابراهيم

ومما ورد في خصوص فضل دمشق المحمية وانهـا خير المداين والحصون الهيـة روى عن ابي الدرداء انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى بارض يقال لها الغوطة فيها مدينة يقال لها دمشق خير منازل المسلمين يومئذ وفي رواية ستفتح عليكم الشـام فاذا خيرتم المنازل فيها فعليكم بمدينة يقال لها دمشق فانها معقل المسلمين من الملاحم فسطاطها منها بارض يقال لها الغوطة ومنها ما اخرجه عبدالجبار بن عبدالله

الخولاني في تاريخ داريا وابن عساكر في تاريخه ايضاً عن ابي هريرة انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزال عصابة من امتي يقاتلون على ابواب دمشق وما حولها وعلى ابواب بيت المقدس وما حولهما لا يضرهم من خذلهم ظاهرين على الحق الى ان تقوم الساعة ونقل ابن عساكر عن بهز بن حكيم ورواه الترمذي في الجامع الكبير ايضاً وقال حديث صحيح انه قال ستكونون قتن قيل يارسول الله فما تأمرنا قال عليكم بالشام قال صاحب كتاب المسالك الشام لها ذكر في آثار عديدة لكن المقصود مدينتها دمشق ام الشام وعاصمتها الكبيرة وقال هي ذات العماد وقيل كانت داراً لنوح عليه السلام ومن سواحلها طرابلس .

وروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اجتمع الكفار يتشاورون في امري فقال بالبيتي بالغوطة بمدينة يقال لها دمشق حتى آتي موضع الانبياء حيث قتل ابن آدم اخاه فاسئل الله تعالى ان يهلك قومي فانهم ظالمون فاتاه جبريل عليه السلام وامره بغار حراء الحديث .

وعن عروة بن رويم قال ابصر كعب رجلا قال ممن انت قال من اهل الشام قال لعلك من الجند الذين يشفع شهيدهم بسبعين قال من هم قال اهل حمص قال لا فلعلك من الجند الذين يعرفون في الجنة بالثياب الخضر قال من هم قال اهل دمشق قال لا قال فلعلك من الجند الذين هم في ظل عرش الرحمن عز وجل يوم القيمة قال من هم قال اهل الاردن قال لا قال فلعلك من الجند الذين يلحظ اليهم ربهم في كل يوم مرتين قال من هم قال اهل فلسطين قال نعم

وفي كتاب الاربعين البلدانية للحافظ ابن عساكر ان دمشق ام الشام واكبر بلدانها وهي من الارض المقدسة وروى بالاسناد الى عبد الرحمن بن يزيد جابر قال قلت لابي سلم الحبشي ما نقلك من حمص الى دمشق قال ما سألني عنها عربي قبلك قال بلغني ان البركة فيها تضاعف .

وروى ابن عساكر ايضاً عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلافة بالمدينة والملك بالشام .

وروى الطبراني في الكبير بسنده الى واثلة بن الاسقع قال ان الملائكة تغشى مدينتكم هذه يعني دمشق ليلة الجمعة فاذا كانت بكرة النهار تفرقوا على ابوابها رايتهم ونورهم ثم يرتفعون وهم يدعون الله اللهم اشف مريضهم ورد غائبهم ثم مذكر ما ورد في حقها من الآثار والاخبار عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المؤرخين، قال البدر الدمشقي في كتابه محاسن الشام نقل عن ابي هريرة انه قال اربع مدائن من مدائن الجنة واربع مدائن من مدائن النار فاما مدائن الجنة فمكة والمدينة وبيت المقدس ودمشق وروى صاحب الانس في تاريخ القدس هذا الحديث وقال انه صحيح مرفوع غير موقوف

ومما ورد عن كعب الاحبار انه قال انا نجد في كتاب الله تعالى يعني التوراة ان الارض على صفة النسر فالرأس الشام والجناح الايمن الغرب والجناح الايسر الشرق والذنب اليمن فلا يزال الناس بخير ما لم يقرع الرأس فاذا قرع الرأس هلك الناس وعن قتادة انه قال الرأس الشام وان العراق احد الجناحين وان مصر هي الذنب

وفي عجائب البلدان الشام هي الارض المقدسة التي جعلها الله تعالى منزل الانبياء ومهبط الوحي ومسكناً لهم ومحل الاولياء هواؤها طيب وماؤها عذب واهلها احسن الناس خلقاً وخلقاً وزياً وزيا .

ونقل الشيخ العلامة شمس الدين ابن الجزري قال رأيت كتاباً قديماً لدمشق وفيه سماعات عن مشايخ عظماء ثقة من اهل دمشق انهم قالوا لما فتحت دمشق في ايام عمر بن الخطاب وجدوا على العمود الثلث الذي بجيرون مكتوباً عليه بقلم اليوناني فاقاموا مدة يطلبون من يحله فلم يجدوا بدمشق من يقرأه الى ان قدم اليها قساقسة ورهبان من القسطنطينية لزيارة بيت المقدس ووجد فيهم واحد يعرف هذا القلم فحله بالعربي فاذا فيه مكتوب « دمشق جبارة لا يهم بها جبار الا قصمه الله تعالى والجبابرة تبني والقرون تخرب الاحراش الى يوم القيمة لا تحمل دمشق ظلماً ولا ظالماً ولا ظلم ظالم »

وروى يونس بن ميسرة عن ابي ادريس عن كعب الاحبار انه قال كل

ما يبنيه العبد يحاسب عليه او به يوم القيمة الا البناء في دمشق وعن ربيعة بن عبدالله قال منزل في دمشق خير من عشرة منازل في غيرها من ارض حمص ومنزل في داخل دمشق خير من عشرة منازل في الفراديس واياك وارباضها فان في سكانها الهلاك .

وعن ابراهيم بن عتيق قال سمعت ابي مسهر يزعم ان ملك دمشق بني الحصن الذي حول المسجد داخل المدينة على نسخة بيت المقدس وحمل ابواب مسجد بيت المقدس فوضعها ابوابه فهذه الابواب التي على الحصن اليوم هي ابواب مسجد بيت المقدس

وروى الخطيب البغدادي في تاريخه ان عمر بن الخطاب كتب الى كعب الاحبار اخبرنا عن الاخلاق كيف خلقها سبحانه وتعالى قال خلقها وقسمها فقال للشقاء اين تختار قال البادية فقال الصبر وانا معك ثم قال للبخل اين تختار قال الغرب قال سوء الخلق وانا معك ثم قال للفقر اين تختار فقال الحجاز فقالت القناعة وانا معك ثم قال للسخاء اين تختار فقال اليمن قال حسن الخلق وانا معك ثم قال للعلم اين تختار فقال العراق قال العقل وانا معك ثم قال للغنى اين تختار فقال مصر قال الذل وانا معك ثم قال للحسد اين تختار فقال الشام قال الشر وانا معك فاذا كان الانسان ساكناً بالشام سالماً من الحسد فهذا يكون بارغد عيش .

نقل محمد حبيب الله في كتابه در النظام في محاسن الشام عن عزالدين بن عبدالسلام في بحث ترغيب اهل الشام قال الشام شامة الله في ارضه وهي محل التجلي وبها عرشه الادنى ومهبط الوحي وقبلة الانبياء مشرقة بالمعراج والاسرا وبها المسجدان بعد مكة والمدينة جامع التين ومسجد الاقصى

قال الاصمعي جنان الدنيا ثلاث غوطة دمشق ونهر بلخ ونهر الابلة في البصرة وزاد ابو الفدا في تاريخه شعب بوان وقال ابو بكر الخوارزمي رأيتها جميعها واحسنها غوطة دمشق وفضل الغوطة على الثلاثة كفضل الثلاثة على سائر الدنيا

وقال صاحب خريدة العجائب اقليم الشام يشتمل على كور متعددة من

جلتها دمشق ومن كورها الغوطة وكورة البقاع وكورة بعلبك وكورة لبنان وكورة جولان وكورة حوران وكورة الحولة وكورة البلقا وكورة جبريل والغور وكورة عمان وهذه دمشق المحروسة هي اجل بلاد الشام مكاناً واحسنها بياناً واعدلها هواء واغزرها ماء وبها الغوطة التي لم يكن على وجه الارض مثلها بها انهار جارية مخترقة وعيون سارحة متدفقة واشجار باسقة وثمار يانعة وفواكه مختلفة وقصور شامخة وبها ضياع كالمدن وقد احدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر والاكمام بالثمر وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر

قال ابن جبير واما دمشق فهي جنة المشرق ومطلع نوره المشرق وخاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها وعروس المدن التي جليناها قد تحلت بازهار الرياحين وتجلت في حلل سندسية من البساتين وحلت من موضع الحسن بالمكان المكين وتزينت في منصتها اجمل تزيين وتشرفت بان اوى المسيح عليه السلام وامه اليها الى ربوة ذات قرار ومعين .

ذكر صاحب الخبر التام في ذكر الاراضي المقدسة والشام لاحمد التمرتاشي العمري مفتي غزة قال نقل الخلف عن السلف ان الشام واراضيها محل التجلي تشريفها وتقديسها لا سيما من هو مدفون بها من الانبياء والمرسلين عليهم السلام والتعظيم لهم وللارض المقدسة ففي الثلث الاخير من كل ليلة يتجلى الله عليها فيستجيب للداعي ويغفر للمستغفر ويتوب على المذنبين فهي ولا شك انها محل اجابة .

نقل حملة الاخبار ان دار شداد بن عاد بدمشق في سوق التبن يفتح بابها شاماً الى الطريق وانه كان يزرع له الريحان والورد وغير ذلك فوق الاعمدة بين القنطرتين قنطرة دار البطيخ وقنطرة سوق التبن وكانت يومئذ سقيفة فوق العمد وقد نقل بعضهم ايضاً ان مكان دمشق كان داراً لنوح عليه السلام ومنشأ خشب السفينة من جبل لبنان وان ركوبه في السفينة كان من عين الجر من ناحية البقاع وروى عن كعب الاحبار ان اول حائط وضع في الارض بعد الطوفان حائط دمشق وحران قال القزويني في عجائب البلدان غوطة دمشق

احدى جنات الدنيا وهي كثيرة المياه نضرة الاشجار متجاوبة الاطيار مونقة الازهار ملتفة الاغصان خضرة الجنان استدارتها ثمانية عشر ميلا يحيط بها جبال عالية ومياهها خارجة من تلك الجبال وتمتد في الغوطة عدة انهار وينصب فاضلها في اجمة هناك واشجارها متصلة قلما يوجد بها محل بغير زرع وهي انزه بلاد الله تعالى واحسنها ولله صدق القائلين عنها ان كانت الجنة في الارض فدمشق لا شك فيها وان كانت في السماء فهي تسامتها وتحاذيها

روى شيخ الاسلام برهان الدين الفزاري بكتابه فضائل الشام عن ابن حلبس قال اشرف عيسى المسيح بن مريم عليهما السلام على الغوطة فقال يا غوطة ان عجز الغني ان يجمع منك كنزاً لم يعجز المسكين ان يشبع منك خبزاً

ومما امتازت به هذه البلاد على سواها قدوم اشرف الخلق المبعوث بالحق رحمة للعالمين مع عمه الى بصرى اسكي شام وهي مرحلتان عن دمشق بمشي الاثقال وهو ابن اثني عشرة سنة ورجع مع عمه الى مكة خوفاً عليه من اليهود وسافر ايضاً ثانياً في تجارة الى خديجة ومعها غلامها ميسرة فنزل عليه الصلاة والسلام تحت شجرة عند صومعة نسطور الراهب اذ مال اليه ظل تلك الشجرة وقال الراهب ما نزل تحت هذه الشجرة الا نبي ورسول وانا لنجد نعته في الكتب القديمة وبين كتفيه خاتم النبوة وقال لميسرة لا تفارقه وكن معه فانه ممن كرمه الله بالنبوة . ثم عاد الى مكة وكان عمره الشريف خمساً وعشرين سنة

ونقل حملة الاخبار ان موضع قدمه الشريف في قرية على ميل عن دمشق وسميت بذلك الاسم وغاص قدمه الشريف بالحجر وذلك وقت مجيئه قبل البعثة ونقل الحجر من ذاك الوقت الى مسجد القرية وبقي بها الى الآن ونقل ابن بطوطة عن ذلك الحجر بقوله ان مسجد الاقدام في قرية القدم كثير البركة والحجر الذي هنالك يقال انها أثر قدم موسى عليه السلام ايضاً الصلاح الصفدي في تاريخه والله اعلم بالاصح

وقال صاحب تلخيص الآثار دمشق أم بلاد الشام وجنة الارض لما فيها من

الحضارة وحسن العمارة ونزاهة الرقعة وسعة البقعة وكثرة المياه والاشجار ورخص الفواكه والثمار

وقال صاحب كتاب روضات الجنات عن ترجمة دمشق انها قصبة الشام اي مدينتها العظمى وموضع سرير امرها وتسمى ايضاً بجلق وبجيرون وبالعذراء واهل السير يقولون ان آدم عليه السلام كان ينزل فيها

نقل ابن عساكر في تاريخه عن نافع بن كيسان الدمشقي قال لقيت ابن شجرة الرهاوي فقلت اني اردت ان آتي فلسطين قال لا تفعل فاني احدثك في دمشق احاديث ليست في غيرها ان حبل الناس اذا اضطرب كانت دمشق عصمتهم وان اهلها مدفوع عنهم وانه لا ينزل بأرضها جوع ولا بلاء ولا فتنة الا خفف ذلك عنهم . وقال جابر الانصاري من سكن دمشق أنجا فقيل له عن رسول الله هذا فقال اعن رأيي احدثك .

ونقل بن عساكر ايضاً ان البركة في دمشق مضاعفة قال عبدالرحمن بن سابط الجمحي قلت لعبدالله بن عمرو بن العاص ان لي رحماً وقرابة وان منزلي قد نبا (اي تجافي وتباعد) بي بالعراق والحجاز قال له ارضى بنفسي وولدي عليك بدمشق مرتين ثم عليك بمدينة الاسباط بانياس فانها مباركة السهل والجبل يعيش اهلها بغير الحجرين الذهب والفضة اجلى الله عنها اهلها حين بدلوا تطهيراً لها . وان البركة عشر بركات خص الله بانياس من ذلك بيركتين لا يعول ساكنها يعيش من برها وبحرها واذا وقعت الفتن كانت بها اخف منها في غيرها فاتخذها وارتدها فوالله لفدان بها احب الي من عشرين بالوهط بالطائف

نقل القلقشندي في تاريخه صبح الاعشى ما نصه : اعلم ان المتقدمين قد قسموا نواحي الشام الى خمسة اجناد الاول جند فلسطين الثاني جند الاردن الثالث جند دمشق الرابع جند حمص الخامس جند قنسرين وهي قاعدة من قواعد الشام القديمة كان ينزلها الجند في ابتداء الاسلام ثم خربت وصارت قرية

ونقل في درة الغواص في الحان الخواص ما نصه : لا يخفى ما ورد في

الاحاديث الشريفة من شرف دمشق وان الله بسط فيها الخير والبركة والانعام وخصها دون سائر البلدان بمزيد البر والاحسان وهذا مشاهد في وجود البركة في القوت بين الناس وكثرة الفواكه المختلفة الانواع والاجناس الموجودة في كل وقت وآن طول السنة على ممر الازمان لاسيما افاضة الخير في شهر الصيام حين ورود الوفود لقصد بيت الله الحرام ويأتون اليها افواجاً افواجاً من كل فج عميق وتزدحم في اسواقها حتى لايسلك في اسواقها الطريق ومع هذا فانواع الخيرات والاقوات اكثر منهم عدداً واجناس الفواكه لا تحصى بها امداً وهذا من اجل النعم المحققة عند كل مفسر ومحدث واما بنعمة ربك فحدث

ذكر البصروي وبن عبدالرزاق في كتابهما فضائل الشام ، ان الله تعالى يعجل العقوبة على الظالم في دمشق ولا يفلح من ظلم اهلها ويؤيد ذلك ما نقل عن دولة الشراكسة لما حكمت دمشق انهم كانوا اذا ارادوا ان يظلموا احداً من اهل دمشق ويصادروه جالهم يطلبوه الى مصر ويظلمونه بها ولا يظلمونه في دمشق لانه بلغهم ان من ظلم في دمشق لايفلح ومن ظلم في مصر افلح .

قلت : ليس ببعيد ما شاهدناه من اعمال بعض رجال موظفي الدولة العثمانية في آخر عهدها وكيف كان عاقبة ذلك بتقلص حكمها من هذه البلاد .

نقل صاحب مثير الغرام عن ابي هريرة مرفوعاً ، ان الله اختار من المدائن اربعاً وهي مدن الجنة التي تقدم معنا ذكرها واختار من العيون اربعاً يقول في محكم كتابه فيها عينان تجريان وقال فيهما عينان نضاختان فاما اللتان تجريان فعين بيسان وعين سلوان وهي التي ببيت المقدس من عيون الجنة واما النضاختان فعين زمزم وعين عكا وقد ورد بان افضل المياه على الاطلاق هو الماء الذي خرج من بين اصابع النبي صلى الله عليه وسلم ثم يليه بالفضيلة ماء زمزم وانه افضل مياه الدنيا والآخرة ثم يليه ماء نهر الكوثر ثم سيحون ثم جيحون على الترتيب الذي ذكره الفقهاء .

ونقل حديثاً عن خريم بن فاتك الاسدي انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اهل الشام سوط الله في ارضه ينتقم بهم ممن يشاء من عباده

وحرام على منافقيهم ان يظهروا على مؤمنيهم وان يموتوا الا هماً وغماً رفعه الطبراني ووثقه احمد .

ونقل احد معاصرينا ان معاوية الخليفة اول من بنى وشيد البناء بدمشق وبنى داره المعروفة بالخضراء لقبة خضراء بناها عليها عرفت الدار بها ولما استخلف عبدالملك ابن مروان طلب من خالد بن يزيد بن معاوية شرا دار الامارة الخضراء فاشتراها باربعين الف دينار وقد بنى الأمويون بعده بيوتاً لهم كانت بجوار الجامع . منها دار عمر بن عبدالعزيز مكان المدرسة السميساطية اليوم ودار هشام مكان تربة نورالدين الشهيد وقصر سليمان مكان سقاية جيرون اثره باق الى اليوم ودار مسلمة بن هشام بباب البريد .

ثم قال الذهبي بنى سليمان ابن عبدالملك دار السلطنة وعمل بها قبة صفرى عالية بدمشق وكان لعاتكة ابنة يزيد ابن معاوية قصر خارج باب الجابية ودفنت جانبه وقال ابن عساكر : كانت دار هند بنت معاوية في الدرب القبلي وقصر حجاج منسوب الى الحجاج بن عبد الملك بن مروان لم يزل بعض من آثاره ظاهراً الى اليوم وقد بنى الامويون ايضاً قصوراً لهم في الغوطة لانهم كانوا يملكون جانباً عظيماً منها ولكن الآن لم يظهر لها اثر ولا خبر .

« الابدال بالشام »

قال ابن عساكر : لما فتح معاوية بن ابي سفيان مصر . وفي لفظ لما فتحت مصر جعل اهلها يسبون اهل الشام . فاخرج عوف بن مالك رأسه من برنسه ثم قال : يا اهل مصر انا عوف بن مالك . لاتسبوا اهل الشام فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : فيهم الابدال وبهم تنصرون ، وبهم ترزقون . وقال الامام شمس الدين بن شمس الديري المقدسي في كتابه الكواكب النيرات في اثبات وصول الحسنات من الاحياء الى الاموات مانصه : ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا اوتاد الارض . فلما انقطعت النبوة ابدل الله مكانهم قوماً من امة احمد عليه الصلاة والسلام يقال لهم الابدال لم يفضلوا

الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بحسن الخلق وصدق الورع وحسن النية وسلامة القلوب لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله تعالى بصبر وحلم ولب وتواضع في غير مذلة . فهم خلفاء الانبياء اصطفاهم الله تعالى لنفسه واستخلصهم لعمله لنفسه اهـ . وقد ورد في السنة عنهم احاديث كثيرة نأتي على ذكر بعضها خوفاً من الاطالة لانها احاديث شهيرة في الكتب الصحيحة .

وقد افردها الامام العارف الشيخ محي الدين الطائي الاندلسي في كتابه «حلية الابدال» وجمعها غيره من العلماء الاعلام مثل الامام السيوطي والعلامة ابن محمود المقدسي وابن عساكر وابن طولون ثم نقل ابن عساكر قال ابو الطفيل خطبنا علي رضي الله عنه فذكر الخوارج فقام رجل فلعن اهل الشام فقال ويحك لا تعم ان كنت لاعنا فلاناً واشياعه فان منهم الابدال ومنهم النجباء وان قبة الاسلام بالكوفة والهجرة بالمدينة والنجباء بمصر والأبدال بالشام وقال ابو سليمان المجتهدون بالبصرة والفقهاء بالعراق والزهاد بخراسان والابدال بالشام

واختلفت الروايات في عددهم قال الكتاني النقباء ثلاثماية والنجباء سبعون والبدلاء اربعون والاخيار سبعة والعمد اربعة والغوث واحد فمسكن النقباء المغرب ومسكن النجباء مصر ومسكن الأبدال دمشق والاخيار سياحون في الارض والعمد في زوايا الارض ومسكن الغوث مكة فاذا عرضت الحاجة من امر العامة ابتهل فيها النقباء ثم النجباء ثم الابدال ثم الاخيار ثم العمد فان اجيبوا والا ابتهل الغوث فلا تتم مسألته حتى تجاب دعوته .

وروى عن ابن عمر انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خيار أمتي خمساية والابدال اربعون كلما مات بدل ابدل الله من الخمساية مكانه وادخل في الاربعين مكانهم فلا الخمساية ينقصون ولا الاربعون ينقصون قالوا يارسول الله دلنا على اعمال هؤلاء قال هؤلاء يعفون عمن ظلمهم ويحسنون الى من اساء اليهم وفي رواية وزاد في آخره ويواسون فيما آتاهم الله وتصديق ذلك في كتاب الله والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين وبعضهم ضعف هذا الحديث الا انه يعمل به في مكارم الاخلاق .

وكثير من أئمة الحديث نقلوا احاديث الابدال وانهم اربعون ويكونون بالشام وصححوا سنـدها مثل الحاكم والترمذي والطبراني وفي مسند الامام احمد من طرق كثيرة اغفلنا ذكرها لكثرتها فمن اراد فليرجع اليها .

اورد ابن الجوزي في الموضوع احاديث الابدال وطعن فيها وحكم بوضعها وتعقبه الجلال السيوطي وبسط الكلام بان خبرهم صحيح متواتر بالغ حد التواتر المعنوي بحيث يقطع بصحة وجود الابدال ضرورة اهـ .

وقال الامام السخاوي خبر الابدال له طرق كثيرة بالفاظ مختلفة اكثرها ضعيفة وقال ابن حجر في فتاويه الابدال عددت في عدة اخبار منها ما يصح ومنها ما لا يصح واما القطب فورد في بعض الآثار واما الغوث بالوصف المشتهر عند الصوفية فلم يثبت . « انتهى »



الفصل الثاني

في ذكر ما يحدث في آخر الزمان بدمشق من نزول عيسى عليه السلام ثم خروج الدجال وبيان فضل جبلها المشهور والدعاء والصلاة فيه . وفضل الفراديس ومغارة الدم ومأوى عيسى ابن مريم وبردا ومقام ابراهيم عليه السلام الذي في برزة .

نقل العلامة البرزنجي في كتابه اشراط الساعة ما نصه : المقام الثاني في وقت نزول عيسى ومحله وما يجرى على يديه من الملاحم وقد سبق اختلاف الروايات في محل نزوله وقد اخذنا ان نشير الى حاصل الجمع بين الروايات ههنا اجمالا وهو انه ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق وهي موجودة الى الآن واضعاً كفيه على اجنحة ملكين لست ساعات مضين من النهار حتى يأتي مسجد دمشق ثم يخرج عيسى بمن معه من اهل دمشق في طلب الدجال ويأتي بيت المقدس فيجده مغلقاً قد حصره الدجال فيقتله كما هو مفصل في صحيح مسلم وغيره من كتب الحديث فمن اراد التفصيل فليراجعه في محله .

نقل الحافظ العراقي بسنده الى النبي صلى الله عليه وسلم انه اخبر ان زويت له مشارق الارض ومغاربها وقال سيبلغ ملك امتي ما زوى لي منها وانهم سيفتحون مصر وهي ارض يذكر فيها القيراط وان عيسى عليه السلام ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق .

نقل العلامة البردعي في حاشيته على شرح العقائد ما نصه : ونزول عيسى من السماء عند المنارة البيضاء في شرقي جامع دمشق ويمكث عيسى في الارض بعد قتل الدجال سبع سنين وليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى على الارض احد في قلبه مثقال ذرة من خير الا قبضه الله فيبقى شرار الناس فيأمرهم الشيطان بعبادة الاوثان وهذا يثبت ماقاله عليه السلام لا تقوم الساعة على احد يقول الله الله .

نقل العلامة الحصكفي الدمشقي في كتابه اتماه وعظه بجامع دمشق وبالشام ينزل عيسى وهو المبشر بخاتم الانبياء فيقرر عند نزوله دين محمد صلى الله عليه وسلم ويحكم به ولا يقبل من احد غير دينه ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويصلي خلف امام المسلمين ويقول ان هــذه الامة أئمة بعضهم لبعض اشارة الى انه متبع لدينهم غير ناسخ له . انتهى كلامه

نقل بن الوردي في الخريدة ونقل صاحب معجم البلدان ان المنارة الواقعة شرقي جامع دمشق تسمى المنارة البيضاء وهي كانت ديدبانا للروم وصيرت منارة وهي التي تقدم ذكر نزول عيسى منها ، ويزعمون ان فيها قطعة من الحجر الذي ضربه موسى بن عمران عليه السلام فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً وهي تعرف اليوم بمنارة عيسى وقد ذكر ذلك السهيلي ايضاً في كتابه الاعلام .

ونقل ابن عساكر في تاريخه انه يهبط المسيح عيسى عليه السلام عند القنطرة البيضاء على باب دمشق الشرقي تحمله غمامة ، ونقل العلامة عبد الغني النابلسي الدمشقي في مجموع احاديثه حديثاً رواه الطبراني في مسنده انه ينزل عيسى عند المنارة البيضاء في شرقي جامع دمشق وهذا يضعف قول بعضهم انه ينزل في بيت المقدس .

ولنذكر ما ورد في جبل دمشق نقل بن بطوطة في رحلته ان قاسيون جبل في شمال دمشق والصالحية في سفحه وهو شهير البركة لانه مصعد الانبياء عليهم السلام ومن مشاهده الكريمة الغار الذي ولد فيه ابراهيم الخليل عليه السلام وهو غار مستطيل ضيق عليه مسجد كبير وله صومعة عالية ومن ذلك الغار رأى الكوكب والقمر والشمس حسبما ورد في الكتاب العزيز وفي ظهر الغار مقامه الذي كان يخرج اليه ومن مشاهده بالقرب منه مغارة الدم وفوقها بالجبل دم هابيل وقد ابقى الله منه في الحجارة اثراً محمراً لما قتله اخوه وجره الى المغارة ويذكر انه صلى فيها ابراهيم وموسى وعيسى وايوب ولوط وعليها مسجد يصعد اليه على درج وفيه بيوت ومرافق للسكن ومنها كهف باعلى الجبل ينسب لادم وعليه بناء واسفل منه مغارة الجوع .

ونقل القزويني وابن الوردي ماملخصه : جبل قاسيون مشرف على دمشق فيه آثار الانبياء عليهم السلام ومغارات وكهوف منها مغارة الدم قالوا فيها قتل قابيل هابيل وهناك حجر يزعمون انه الحجر الذي فلق به هامته وفيه مغارة اخرى يسمونها مغارة الجوع .

ونقل الشهاب المنيني جبل قاسيون وهو جبل مطل على دمشق وبسفحه القصبة المشهورة بالصالحية وكانت قديماً تسمى قرية النخل او قرية الجبل وبسفح ذلك الجبل من قبور الانبياء وقبور الصلحاء والعلماء ما لايحصى لكن قبور الانبياء اندرست بتقادم الزمان ولم يبق منها ظاهراً الا قبر سيدنا ذي الكفل عليه السلام على بعض الاقوال وهذا الكهف المذكور في القرآن على قول والصحيح انه بطرسوس وفي هذا الجبل مقام الابدال الاربعين يأوون اليه ويتعبدون فيه وهو مقام مشهور مقصود لاجابة الدعاء وعند هذا المقام مغارة الدم وفوق هذا المقام بيسير مكان مجرب لاستجابة الدعاء يقال له المستغاث يقصده ذوو الحاجات وسيأتي الكلام في محله على مافيه من مراقد الصلحاء والعلماء .

ونقل شيخ الاسلام الفزاري في فضل جبل قاسيون والصلاة فيه وفضل الفراديس ما نصه : عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله

صلى الله عليه وسلم وقد سئله رجل عن الاثار بدمشق فقال بها جبل يقال له قاسيون فيه قتل ابن آدم اخاه وفي اسفله من الغرب ولد ابراهيم وفيه آوى الله عيسى بن مريم وامه من اليهود وما من عبد اتى معقل روح الله فاغتسل وصلى لم يرده الله خائباً فقال له رجل يارسول الله صفه لنا قال هو بالغوطة بمدينة يقال لها دمشق وازيدكم انه جبل كلمه الله وفيه ولد ابراهيم فمن اتى ذلك الموضع فلا يعجز في الدعاء فقال رجل يا رسول الله اكان ليحيى بن زكريا مقيلا وفي رواية معقلا قال نعم احترس فيه يحيى من هدار رجل من عاد في الغار الذي تحت دم بن آدم المقتول وفيه احترس الياس عليه السلام من ملك قومه وفيه صلى ابراهيم ولوط وموسى وعيسى وايوب فلا تعجزوا في الدعاء فيه فان الله عز وجل انزل علي ادعوني استجب لكم فقال رجل يارسول الله ربنا يسمع الداع ام كيف ذلك فانزل الله عز وجل واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداعي اذا دعان .

نقل ابن طولون الدمشقي في تاريخ الصالحية ماملخصه : ثم الكهف اشتمل على مقام ذي هيبة ووقار وابنية لطيفة تشرق منها الانوار وعنده مسجد لطيف كان فيه منارة بقي منها الآن آثارها قال ابن قاضي شهبة في تاريخه والقاضي محمود طالوت في كتابه الزيارات ان الذي بني الكهف المعروف بكهف جبريل هو محمد بن عبد الله ابو الفرج الدمشقي المعروف بابن المعلم مات سنة اثنتي عشرة واربعماية .

هذا وقد اورد العلامة محمد بن ناصر الدين في كتابه شن الغارة في فضائل زيارة المغارة واورد غيره من المؤرخين الدمشقيين وحملة الاخبار احاديث كثيرة واخباراً وفيرة فاخترت ان اذكر مالا بد منه خوفاً من الاطالة فاقول :

روى عن كعب الاحبار انه وقف على جبل دير مران فرأى لمعة سائلة في الجبل فقال هنا قتل بن آدم اخاه وهـذا اثر دمه جعله الله آية للعالمين ومصلى للمتقين .

وروى عن الزهري انه قال لو يعلم الناس ما في مغارة الدم لما هنأهم طعام ولا شراب الا فيها .

ونقل عن حملة الاخبار ان مغارة الدم هي التي تسمى الآن بمغارة الاربعين وانها سميت بذلك من رواية بن عباس ان يحيى بن زكريا عليهما السلام اقام هو وامه فيها اربعين عاماً وان الحواريين الذين اتوها مع عيسى عليه السلام كانوا اربعين فسميت بهم .

وروى الوليد بن مسلم انه سمع بن عباس يقول كان اهل دمشق اذا احتبس عنهم المطر او غلا السعر او جار عليهم سلطان اوعرضت لهم حاجة صعدوا موضع دم ابن آدم المقتول فيسئلون الله تعالى فيعطيهم ماسئلوا .

وروى عن مكحول عن بن عباس انه قال من اراد ان ينظر ارم فليأت نهراً من حفر دمشق يقال له بردى ومن اراد ان ينظر الى المقبرة التي فيها مريم بنت عمران والحواريون فليأت الفراديس .

ونقل بعضهم عن كتاب الفضائل للحافظ بن مسرور ان المواضع التي يجاب فيها الدعاء بدمشق كثيرة منها مغارة الدم في قاسيون والمغارة التي في جبل النيرب كانت مأوى عيسى وامه مريم عليهما السلام ومصلى مسجد قرية القدم قبلي دمشق ونقل ايضاً ان في هذا الجبل كهفاً صغيراً زعموا ان عيسى بن مريم ولد فيه .

نقل القزويني انه رأى في مسجد الكهف في بيت صغير حجراً كبيراً حجمه كحجم الصندوق ذا الوان مختلفة عجيبة وقد انشق هذا الحجر نصفين كالرمانة المنشقة ولاهل دمشق في هذا الحجر اقاويل كثيرة انتهى .

ومن الاماكن المستجاب بها الدعاء مسجد ابراهيم عليه السلام الذي ببرزة فقد ذكر البصروي عن الزهري انه قال من صلى فيه اربع ركعات خرج من ذنوبه كيوم ولدته امه زاد صاحب كتاب الاشارات ان دعا وسأل الله تعالى ما يشاء فانه لا يرد خائباً .

ونقل ابن عساكر في تاريخه عن بن عباس انه قال ولد ابراهيم الخليل

بغوطة دمشق بقرية يقال لها برزة في جبل يقال له قاسيون قال في الاشارات الموضع الذي اختبى فيه ابراهيم من النمرود هو عند الشق وان الآثار التي فوق الشق في الجبل هو موضع رأى ابراهيم الكوكب المذكور في قوله تعالى فلما جن عليه الليل رأى كوكباً .

ونقل الحافظ برهان الدين الناجي عن القاضي ابي بكر بن عربي انه شاهد صحة اجابة الدعاء واستدل بما وقع للسبكي مع تنكز نائب الشام فانه عزم على ضرب ولده القاضي حسين فتوجه السبكي الى المقام بقرية برزة فاقام به يسئل الله تعالى ان يكفيه شره فما نزل حتى اخذ الله تنكز واجاب دعاه .

ونقل ايضاً من تاريخ ابن عساكر انه قال والصحيح ان ابراهيم ولد بالكوفة من اقليم بابل العراق وانما نسب اليه لانه صلى فيه حين جاء مغيثاً للوط وقيل سميت برزة لبروز سيدنا ابراهيم عليه السلام على اعدائه في هذا الموضع بسفح الجبل فانه روى قاتل اعدائه شمال دمشق بهذه القرية فظفر بهم وبرز عليهم وكان متعبده ومقامه فيه ونسب ذلك اليه .

وقيل هاجر ابراهيم الخليل عليه السلام من العراق الى الشام ومعه زوجته سارة وابن اخيه لوط النبي عليه السلام ودخل الديار المصرية ثم رجع الى الارض المقدسة ومعه انعام وعبيد ومال جزيل ثم ان لوطاً توجه بما معه من الاموال باسر الخليل له في ذلك الى ارض الغور فنزل بمدينة سدوم وهي ام تلك البلاد في ذلك الزمان وكان اهلها اشراراً فجاراً كفاراً ثم ان طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط فاسروه واخذوا امواله واستاقوا اغنامه فلما بلغ الخبر الى عمه ابراهيم سار اليهم في عدة اهل بدر ٣١٣ رجلا فالتقيا هو وملك نبط على الجبل في صحراء يعفور .

فعبى ابراهيم ميمنة وميسرة وقلباً وكان هذا العمل اول من عبى الحرب هكذا فاقتتلوا واستنقذ لوطاً واسترجع امواله واهله وقتل من اعدائهم كثيراً وهزمهم وسار في آثارهم حتى وصل الى شمال دمشق فعسكر بظاهرها عند مقامه المنسوب اليه ببرزة لانه كان موضع موقعه وموضع جيشه ثم رجع

الخليل الى بلاده مؤيداً منصوراً وتلقاه ملوك بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين واستمر هناك حتى مات وقبره الشريف ثبت واشتهر .

وفي رواية عن الاوزاعي عن حسان بن عطية ان ابراهيم الخليل صلى في هذا المقام ببرزة واتخذه مسجداً .

نقل صاحب الحاشية العلامة بن عابدين الدمشقي عن العلامة اسماعيل والد الشيخ عبدالغني النابلسي صاحب شرح الدرر والغرران ما اشتهر من كونه اتى برزة هو فضالة بن عبيد ومن كونه مدفوناً بقرية برزة بدمشق ليس بثابت ولعله سميت بهذا الاسم لما قدمنا .

وانما ذكرنا هذا البحث واطلنا فيه القول لانه من الآثار والاماكن المشهورة بدمشق وان ذلك الجبل كان فيه لوط وجماعة من الانبياء كما ذكرناه عن حملة الاخبار وآثارهم في مواضع كثيرة في الجبل بالقرب من مصلى مسجد ابراهيم عليه السلام .

ونقل بن عساكر في تاريخ دمشق ان ابراهيم الخليل عليه السلام كان يكنى بابي الضيفان وقيل ان امه كانت تخبؤه في كهف في جبل بقرية برزة الموضع الذي يعرف بمقامه اليوم .

وقال بن عباس ولد ابراهيم بالغوطة في قرية يقال لها برزة انتهى ما قاله ابو زرعة الدمشقي في كتابه الاخوة والاخوات ونقل بعضهم ان ذلك المحل هو غار ابراهيم الخليل عليه السلام . رأى منه الكوكب والشمس والقمر كما ورد .

وقد أفرد ابن طولون في كتابه فتح الجليل فيما ورد في مقام الخليل بحثاً طويلا لا يسع كتابنا ذكره ولا يخرج عما كتبناه وقد أنشد علاء الدين بن صدقة الشافعي في برزة ومقام الخليل قوله :

لا تمل عن رياض برزة يوماً فهواها شفاء كل عليل
قل صبري عنها وكيف اصطباري عن رياض فيها مقام الخليل

وقال ايضاً شهاب الدين احمد الحسيني :

هذا مقام الخليل حقاً عليه ربي صلى وسلم
فيه امان لكل راج ومن يزره يرجى ويكرم

وقال غيره :

هذا مقام الخليل حقاً كم فيه منحة لعاكف
فهو ملاذ لكل راج وهو امان لكل خائف
صلى عليه الاله ربي ماطاف بالبيت والحجر طائف



الباب الخامس

فيمن بعث من الانبياء العظام ومات فيها على أرجح اقوال المفسرين والمؤرخين ومن دخلها من الصحابة والتابعين وغيرهم من أئمة الدين واقام بها الى ان مات « وفيه ثلاثة فصول »

الفصل الأول

« فيمن بعث ودفن بها وبجوارها من الانبياء عليهم الصلاة والسلام »

قد تقرر في قواعد الشريعة الاسلامية المعظمة ان البقعة التي ضمت اعضاء خاتم الانبياء والرسل محمد عليه الصلاة والسلام هي أفضل بقاع الارض واجمع على ذلك علماء الاسلام وعلى انها افضل من الجنة دار السلام وهي في طيبة مدينة النخل

وكذلك ثبت قبر ابي الانبياء ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام واجمعت الامة أنه مدفون بالمغارة التي هي داخل السور ببلدة قريبة من القدس وقد سموا البلد الذي هو فيه باسمه وهذا اشهر من ان يذكر واوضح من ان يعلم

ويظهر وثبت بالتواتر ان ولده اسحاق وولد ولده يعقوب عليهما الصلاة والسلام مدفونان معه داخل المغارة في مدينة الخليل

واما غيرهم من الانبياء العظام عليهم الصلاة والسلام فلم يثبت شيء من قبورهم وانما المتعين منهم قبره مظنون وغير المعين منهم لا يعلمه الا العالم بالسر المصون لكن لا تخلو منهم غالب الاقطار وببركتهم يزول البلاء والجدب والاخطار

وارض الشام مشتملة على عدة كثيرة منهم كما ورد في الادلة المعروفة الشهيرة عن السلف ولذلك فضلت على كثير من البلدان لان فيها كثيراً منهم كما سنبينه لك مع من اشتهر قبره بدمشق آخذين بذلك أصح الاقوال

فلنذكر الآن من اشتهر قبره بدمشق ونواحيها من الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولنقتصر على ذكر مراقد من علم منهم ومحالها من غير تعرض لمعجزاتهم غالباً الا ما اقتضاه المقام تفادياً عن ملل يستتبعه الاطناب ويعقبه الاسهاب

وقد روي عن عبد الله بن سلام انه قال في الشام من قبور الانبياء الف وسبعماية قبر وفيها عشرة آلاف ممن رأى وجه محمد بن عبد الله النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم

ولكن الآن لم يبق معلوماً من ذلك الا القليل لتوالي المحن واندراس المعالم والدمن وانقراض العلماء حملة الاخبار وخفاء الرسوم وامحاء الآثار

نقل عن كعب الاحبار انه قال بطرسوس من قبور الانبياء عشرة وبالمصيصة خمسة وهي التي يغزوها الروم في آخر الزمان ثم قال وبالثغور وسواحل الشام من قبور الانبياء الف قبر وبانطاكية قبر حبيب النجار وبحمص ثلاثون وبدمشق خمسماية وببلاد الاردن مثل ذلك وبفلسطين مثل ذلك وببيت المقدس الف قبر وبالعريش عشرة وقبر موسى بدمشق

ذكر بعض المؤرخين في قرية امتان قريبة لدمشق مسجد اوانه سكن في ذلك الموضع موسى بن عمران الكليم عليه السلام وبه موضع عصاه لها علامة في الصخر الى يومنا هذا

نقل عبد الله الربعي في مصنفه ما نصه والمشهور في دمشق ان قبر موسى

عليه السلام بالكثيب الاحمر بقرب قرية قرية من دمشق يقال لها مسجد القدم وقد عثرت للحافظ بن طولون الدمشقي على مؤلف لطيف سماه تحفة الحبيب باخبار الكثيب جمع فيه من اقوال العلماء واعتمد فيه ان موسى الكليم بهذا الكثيب وانه قد بنى عليه الشيخ محمد بن قيصر بناء يحيط به

وقد عثرت ايضاً على مؤلف لطيف لشيخ الاسلام برهان الدين بن سباع الفزاري الشافعي سماه تبيين الامر القديم في تعيين قبر موسى الكليم قال ما نصه اما بعد فاني جمعت نقولا واقوالا تقتضي ان قبر موسى عليه السلام في قرب مسجد القدم اما النقل فقد روى الحافظ ابو نعيم في كتاب حلية الاولياء في الجزء العاشر والمائة من نسخة ابي سعيد المطرز انه قال في ترجمة ابي يزيد بسنده عن انس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من نبي يموت فيقيم في قبره الا اربعين صباحاً مررت بموسى ليلة اسري بي وهو قائم يصلي في قبره وهو في عاليه وعويله

قال ابن عساكر ايضاً في تاريخ دمشق في ترجمته لموسى عليه السلام ان مسكنه وقبره بين عاليه وعويله وهما محلتان كانتا بقرب مسجد القدم

ونقل ابن جبير الاندلسي في رحلته في اثناء ذكره لمشاهد وآثار دمشق ذكر مسجد الاقدام والكثيب الاحمر بقربة على الطريق من هذا الموضع وهو بين عاليه وعويله كما ورد في الاثر وهما موضعان قديمان وشأن هذا المسجد في البركة عظيم مع هذا الكثيب وهو الذي يذكر ان فيه القبر عند الحجر المكتوب وله اوقاف كثيرة اغتصبتها الايدي واما الاقدام تجد اثر القدم في كل حجر وعدد الاقدام تسع ويقال انها آثار قدم موسى عليه السلام

ونقل ايضاً ان من جملة الاطوار التي كلم الله عليها موسى الطور الذي بدمشق وهو جبل كوكب موضع الكنيسة الخربة وقد بني في هذا الموضع كنائس باقي بعضها الى الآن الا كنيسة كوكب فانها خراب فظاهر هذا المروي انه يكون قبره الشريف فوق الطور ولم يشتهر تعيين موضع آخر فوق واحد من الاطوار ثم ختم تلك الرسالة بقوله ولاحتمال ان يكون صحيحاً ينبغي ان يعمل به

انتهى ملخصاً وحررت هذه الرسالة سنة ١٠٤٠ وقيل انه دفن بالقدس ونقل الهروي ان في قرية سلخد من بلاد حوران مشهداً ذكروا ان موسى وهرون عليهما السلام كانا به لما خرجا من التيه وذكر ذلك ايضاً النجم الغزي في كتابه الاشارات ونقل عن الشيخ ياسين الفرضي الدمشقي في كتابه روضة الانام ونقل بعضهم انه كانت وفاته بالتيه في سابع اذار لمضي الف وستماية وست وعشرين سنة من الطوفان وكان موته بعد اخيه هارون باحد عشر شهراً . وقيل غير ذلك وكان هارون اكبر من موسى بثلاث سنين وعاش موسى ماية وعشرين سنة ونزل عليه جبريل اربعماية مرة كذا في الانس الجليل

نقل في الصحيح من حديث ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ارسل الله تعالى ملك الموت الى موسى فلما جاء صكه وقلع عينه فرجع الى ربه عز وجل فقال ارسلتني الى عبد لا يريد الموت قال فرد الله تعالى عليه عينه وقال ارجع فقل له يضع يده على متن ثور فله بكل ما غطت يده بكل شعرة سنة قال اي رب ثم ما ذا قال ثم الموت قال فالآن

نبي الله الياس علية الصلاة والسلام

هو الياس بن ياسين بن فنحاس بن العزار بن هرون بن عمران قال الله تعالى وان الياس لمن المرسلين ارسله تعالى الى قوم من بني اسرائيل نزلوا بعلبك وكان عليهم ملك يقال له جب وكان هو وقومه يعبدون صنماً يقال له بعل كما قال تعالى اذ قال لقومه الا تتقون أتدعون بعلا وتذرون احسن الخالقين فدعا قومه الى توحيد الله تعالى فاتبعوه ليقتلوه ففر منهم والمشهور انه دخل غاراً في سفح جبل لبنان من ارض بقاع العزيز عند قرية يقال لها قبر الياس غلب عليها هذا الاسم لاستشهار قبره فيها وقبره بها يزار ويتبرك به ولا يقبل البناء عليه على ما اشتهر وقد جاء في الاخبار ان اربعة من الانبياء احياء اثنان في السماء وهما ادريس وعيسى عليهما الصلاة والسلام واثنان في الارض وهما الياس والخضر عليهما السلام يقول الشهاب المنيني الدمشقي وقد

زرت مرقده ولله الحمد والمنه في القرية المذكورة ورجوت بركته وهذه القرية قريبه من دمشق وقد اشتهرت بعلبك باسم ذاك الصنم الى يومنا هذا وهي معدودة من آثار دمشق القديمة وقبره في صحن الجامع الا انه خرب وقد زال أثره اليوم .

نبي الله ايوب الصابر عليه الصلاة والسلام

هو ايوب بن امرص بن تارح بن روم بن عيص بن اسحق بن ابراهيم عليه السلام كما في العرائس قال الله تعالى في الثناء عليه انا وجدناه صابراً نعم العبد انه اواب وقصة بلواه مسطورة في كتب التفاسير والتواريخ فلا نطيل بذكرها وقبره معروف بالجولان ناحية من نواحي دمشق مشهور يزار في قرية من قراها ومغتسله المذكور في القرآن الكريم وهي العين التي ركض برجله فيها بأمر ربه فانفجرت عين ماء فاغتسل وشرب منها فلم يبق في جوفه داء الا خرج وكسى حلته والعين مشهورة في بلاد الجولان في قرية بالقرب من قرية نوى والحجر الذي كان يأوي اليه في حال بلائه في ذلك المسجد وكان يقول في بلائه اللهم ان كان في هذا رضاك فشدد وان كان من سخطك فاغفر . قال ابن الكلبي في مناسبة منزل النبي ايوب كانت منازله الثنية وهي في ارض حيل قلون من أرض الشام والجابية كورة دمشق ومقامه بقرية تعرف بدير ايوب وقبره بها وهي قرية قريبة من نوى وهناك عين ماء يتبرك بها وكان اعبد اهل زمانه عاش ثلاثاً وتسعين سنة

وهذا مما يدل على ان باب الجابية التي في دمشق سمي بهذا الاسم قبل عهده عليه السلام

نبي الله هابيل عليه الصلاة والسلام

هو ابن آدم لصلبه قتله اخوه قابيل حسداً اذ تقبل الله قربان هابيل ولم يتقبل قربانه وقد قص الله تعالى قصتهما في كتابه العزيز بقوله واتل عليهم نبأ ابني آدم اذ قربا قرباناً الآية وكان علامة قبول القربان ان تنزل نار من السماء

بيضاء تأكل القربان المتقبل واذا لم يتقبل لم تنزل تلك النار بل تأكله الطير والسباع فحقد قابيل على هابيل في رؤوس الجبال ثم اتاه يوماً من الايام فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة واختلف في موضع قتله فقال ابن عباس على جبل نود وهو جبل من جبال الهند . وقال العلامة ابن الوردي يقولون انه في مغارة تقرب من مغارة الدم في جبل قاسيون المشرف على دمشق قتل هناك قابيل أخاه هابيل ويقال انه اغتاله في برية قاع وان ذاك ببلاد الشام يعني دمشق وهي المعروفة اليوم بأراضي البقاع انتهى والمشهور عند اهل دمشق ان قبره في جبل عال مطل على قرية من قرى ناحية سوق وادي بردى وقبره مستطيل كقبر اخيه شيث وعند قبره عين ماء مظللة بأشجار

نبي الله شيث عليه الصلاة والسلام

هو ابن آدم لصلبه ووصيه قال في العرائس ذكر اهل التواريخ وحملة الاخبار ان آدم عليه الصلاة والسلام مرض قبل موته احد عشر يوماً واوصى الى ابنه شيث وكتب وصيته ثم دفع كتاب وصيته الى شيث وامره ان يخفيه من قابيل وولده لان قابيل كان قد قتل هابيل حسداً منه فأخفى شيث وولده ماعندهم من العلم ولم يكن عند قابيل وولده علم ينتفعوا به فاتخذا اللهو من الطبول والمزامير والعيدان والطنابير وانهمكوا في اللهو والمعاصي وشرب الخمور وعبادة النار والزنا والفواحش حتى اغرقهم الله تعالى بالطوفان ايام نوح وبقي نسل شيث . انتهى

يعني نسل شيث هم الذين آمنوا به فحملهم معه في السفينة فنجوا من الغرق وشيث لفظ سرياً في معناه هبة الله قال في الانس الجليل عاش تسعماية سنة واثنتي عشرة سنة ومات لمضي الف ومائة واثنين واربعين سنة من هبوط آدم عليه السلام والى شيث تنتهي أنساب بني آدم كلهم واختلف في مكان قبره قيل دفن في قبر ابيه وقيل دفن بقرية سرعين من اعمال بعلبك قلت وهذا هو

المشهور بين اهل الشام وقد غلب اسمه على القرية الآن فصارت لا تعرف الا بالنبي شيث وقبره معروف مشهور بها يقصد بالزيارة من الاماكن البعيدة . ثم قال الشهاب المنيني وقد زرته وقست مساحة ما يحاذي قبره الشريف سبعاً وثلاثين خطوة .

نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام

اسمه عبد الغفار قال في الاندلس ولد بعد ان مضى الف وستماية واثنتان واربعون سنة من هبوط آدم عليه السلام ويقال ان دمشق كانت دار نوح عليه السلام وكانوا يعبدون الاصنام فلبث فيهم يدعوهم الى الله الف سنة الا خمسين عاماً وكان كلما دعاهم يخنقونه حتى يغشى عليه ثم اذا افاق دعاهم ايضاً ويضربونه حتى يظنوا انه قد مات فلما اعياه امرهم ويئس من ايمانهم باخبار الله تعالى انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن الآية دعا عليهم فاغرقهم الله تعالى وعاش بعد خروجه من السفينة ثلاثماية وخمسين سنة وقد كانت البعث خمسين فيكون مجموع عمره الفاً وأربعمائة سنة واختلف في مكان قبره فقيل بمسجد الكوفة وقيل بجبل الكوفة وقيل بجبل الاحمر وقيل بسفح جبل لبنان بمدينة من اعمال بعلبك يقال لها الكرك ويقال تضاف الى نوح فيقال كرك نوح وقبره بها مشهور يقصد بالزيارة وقبره دون قبر شيث في الطول على ما ذكره الشهاب المنيني ثم قال وقد زرته ورجوت بركته وذكر صاحب الانس الجليل أن قبره بكرك نوح ولم يحك بذلك خلافاً وعلى قبره بناية حسنة بالاحجار الملونة وعليه اوقاف جزيلة موقوفة لمصالح مقامه ويبعد قبره عن المعلقة ربع ساعة وايد ذلك الغزي في الكواكب السائرة وكتابه الاشارات

نبي الله ذي الكفل عليه الصلاة والسلام

وهو ابن ايوب الصابر واسمه بشر على ارجح الاقوال بعثه الله تعالى بعد ابن رسولا الى الروم فآمنوا به وصدقوه ثم ان الله تعالى امرهم بالجهاد فكفوا عن

ذلك وجبنوا وضعفوا وقالوا يا بشر أنا قوم نحب الحياة ونكره الموت ومع ذلك نكره ان نعصي الله تعالى ورسوله فلو سألت الله تعالى ان يطيل اعمارنا ولا يميتنا الا اذا شئنا لنعبده ونجاهد اعداءه فقال لهم بشر بن ايوب لقد سألتموني شيئاً عظيماً وكلفتموني شططاً ثم قام وصلى ودعا وقال الهي امرتني بتبليغ الرسالة فبلغتها وامرتني أن اجاهد اعداءك وانت تعلم اني لا املك الا نفسي وان قومي سألوني في ذلك ما انت اعلم به فلا تؤاخذني بجريرة غيري فاوحى الله تعالى اليه يا بشر اني قد سمعت مقالة قومك واني قد اعطيتهم ما سألوني وطولت اعمارهم فلا يموتون الا اذا شاءوا فكن كفيلاً لهم بذلك فبلغهم بشر رسالة ربه واخبرهم بما اوحى الله تعالى اليه وتكفل لهم كما امر الله تعالى فسمي ذا الكفل ثم انهم توالدوا وتناسلوا وكثروا حتى ضاقت عليهم منازلهم وبلادهم وتنغصت عليهم معايشهم لمزاحمة بعضهم بعضاً وتأذوا لكثرتهم فسألوا ذا الكفل بشراً ان يردهم الى آجالهم فردهم اليها فماتوا بآجالهم فلذلك كثرت الروم وسموا روماً لانهم نسبوا الى جدهم روم بن عيص بن اسحاق كذا في العرائس للثعلبي ونقل في اخبار الدول وكان ذو الكفل بشر مقيماً بالشام حتى مات وله من العمر خمس وسبعون سنة وقبره في قرية كفر حارس من اعمال نابلس انتهى وقيل ان قبره بسفح جبل قاسيون وقد ظهر ذلك القبر وتجدد على يد السيد محمد المرادي الدمشقي وبنى عليه بناء محيطاً به .

وقد نقل ابن عساكر ان خمسة من الانبياء لهم اسمان محمد واحمد وعيسى والمسيح واسرائيل ويعقوب ويونس وذو النون وبشر وذو الكفل قال صاحب روضة الامام ان قبره بالقرب من عين العابد ومن عميق من ناحية البقاع في ذيل جبل لبنان والله اعلم اي الاقوال أصح .

نبي الله يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام

مرقد رأسه الشريف على اشهر الاقوال في الجامع الاموي بدمشق قال صاحب الانس الجليل فيه ان زكريا من ولد سليمان بن داود وكان نبياً ذكره الله

تعالى في القرآن وكان نجاراً وهو الذي كفل مريم وكانت مريم بنت عمران بن ماشان من ولد سليمان بن داود وكانت ام مريم اسمها حنة وكان زكريا متزوجاً باخت حنة واسمها ايساع فكانت زوج زكريا خالة مريم ولذلك كفل زكريا مريم لانه كان اكبر رئيس روحي بالهيكل وارسل الله تعالى جبريل فبشر زكريا بيحيي مصدقاً بكلمة من الله يعني عيسى بن مريم ثم ارسل الله تعالى جبريل فنفخ في جيب مريم فحملت بعيسى وكانت قد حملت خالتها ايساع بيحيي وولد يحيى قبل عيسى بستة اشهر ثم ولدت مريم عيسى فلما علمت اليهود ان مريم ولدت من غير بعل اتهموا زكريا بها فطلبوه فهرب واختفى في شجرة عظيمة فقطعوا الشجرة وقطعوا زكريا معها وكان عمر زكريا وقتئذ نحو مائة سنة وكان قتله بعد ولادة المسيح وكانت ولادته لمضي ثلاثمائة وثلاث سنين للاسكندر فيكون مقتل زكريا بعد مولد عيسى بقليل انتهى قال الشهاب المنيني ما ذكره صاحب الانس من كون مقتل زكريا بعد ولادة المسيح بقليل في حياة يحيى هو ما ذهب اليه صاحب الكشاف والمشهور ان مقتل زكريا كان بعد قتل يحيى كما ذكره صاحب العرائس وغيره قال في العرائس واما يحيى عليه السلام فانه نبيء صغيراً ودعا الناس الى عبادة الله تعالى ولبس الشعر واجتهد في عبادة الله تعالى حتى نهك جسمه وكان عيسى ابن مريم قد حرم نكاح بنت الاخ وكان لهيرودس ملك دمشق وهو الحاكم على بني اسرائيل بنت اخ فاراد ان يتزوجها كما هو جائز في ملة اليهود فنهاه يحيى عن ذلك فطلبت ام البنت من هيرودس ان يقتل يحيى فلم يجبها الى ذلك فعاودته وكررت والحت عليه باساليب مختلفة ذكرها اصحاب السير فاجابها الى ذلك وامر بيحيي فذبح ووضع رأسه بين يدي الملك هيرودس . فكان الرأس يتكلم ويقول لا تحل لك واستمر غليان دمه فامر بتراب فالقي عليه فما ازداد الا انبعاثاً فبعث الله تعالى عليهم ملكاً من جهة الشرق يقال له جردوس فقتل منهم على دم يحيي سبعين الفاً الى ان سكن دمه وقد ذكر لقتله اسباب كثيرة ذكرها صاحب العرائس وغيره والله تعالى اعلم .

وزعم قوم ان بخت نصر هو الذي غزاهم وقتلهم على دم يحيي وليس بصحيح لان بخت نصر خرب بيت المقدس قبل ولادة يحيي بنحو خمسمائة سنة . وكان قتل يحيي قبل رفع المسيح بمدة يسيرة لان عيسى ابتدأ بالدعوة لما صار له ثلاثون سنة ولما امره الله تعالى ان يدعو الناس الى دين النصارى غمسه يحيي وعمده في نهر الاردن ولعيسى نحو ثلاثين سنة وخرج من نهر الاردن وابتدأ بالدعوة ولبث بعد ذلك في الارض ثلاث سنين ورفع وذبح يحيى كان قبل رفع عيسى بسنة ونصف قاله قتادة وكان رفع عيسى بعد نبوته ثلاث سنين والنصارى تسمي يحيى بن زكريا يوحنا المعمدان لكونه عمد المسيح كما ذكر .

روى انه مر يحيي وهو صبي بصبيان يلعبون فدعوه الى اللعب فقال مالهذا خلقنا وفي العرائس عن ابن عباس انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن احد يلقى الله تعالى الا وقدهم بمعصية الا يحيى بن زكريا فانه لم يهم بمعصية ولا عملها وفيه ايضاً قال من هوان الدنيا على الله تعالى ان يحيى بن زكريا قتل لاجل امرأة .

ثم ان المشهور ان قبر رأسه بمسجد دمشق واما جسده الشريف فالمشهور المتواتر عند حملة الاخبار انه مدفون في جامع الدلم في ناحية من نواحي دمشق يقال لها الزبداني وذكر تاج الدين الفزاري عن الوليد قال سألت الاوزاعي قلت يا ابا عمرو اين بلغك رأس يحيى بن زكريا قال بلغنا انه في العامود الرابع المسفط من اسطوانة القبة من جهة الشرق مما يلي المقصورة التي كانت في ذلك الزمان وعن القاسم بن عثمان قال سمعت الوليد بن مسلم سأله رجل يا اباالعباس اين بلغك رأس يحيى بن زكريا قال بلغني انه ثم واشار بيده الى العمود الرابع المسفط من الركن الشرقي وقال ابومسهر ان رأس يحيى تحت العمود المسفط شرقي المسجد يعرف بعمود السكاسك وعن زيد بن واقد قال رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق اخرج من تحت ركن من اركان القبة وكان البشرة والشعر على رأسه لم يتغيرا وعنه ايضاً قال وكلني الوليد

على العمال في بناء جامع دمشق فوجدنا فيه مغارة فعرفنا الوليد ذلك فلما كان من الليل وافى بين يديه الشمع فنزل فاذا هي كنيسة لطيفة ثلاثة اذرع في مثلها واذا فيها صندوق ففتح فاذا سفط وفي السفط رأس يحيى مكتوباً عليه هذا رأس يحيى بن زكريا فامر الوليد به فرد الى مكانه وقال اجعلوا العمود الذي فوقه مغيراً من بين الاعمدة فجعل عليه عمود مسفط الرأس هـذا ملخص ما نقله الشهاب في تاريخه .

وذكر السهيلي في كتابه الاعلام نقل عنه ابن عبـد الرزاق الدمشقي احد مؤرخي دمشق ان اسمه الاول حيا او حنا ويسمى يحيى قتل ظلماً وهو يصلي قال في تهذيب الاسماء اتفق العلماء على أنه قتل ظلماً شهيداً واخذ رأسه ووضع في طست وقدم لاعدائه انتهى وقال البصروي قتل وهو قائم يصلي في المشهد بمسجد دمشق الذي عنـد باب جيرون والسبب قصة ملك دمشق هيرودس واختلفت الاقوال في أي موضع ذبح فعامة المؤرخين على انه ذبح بالقدس وبقيت الجثة في جبال نابلس بقرية يقال لها سبسطيه ذات الاعمدة المشهورة والآثار مثل هيكل الملك هيرودوس وخلافه وقد هدم اعظمهـا السلطان صلاح الدين الايوبي حين اخذ القدس لاجل قطع رغبات الاجانب من قصدها وزيارتها والرأس نقل لدمشق .

وقال قتادة ذبح يحيى بدمشق وقيل في موضع المسجد الصغير عند باب جيرون وقال بعضهم حملت الجثة ودفنت عند ابيه في حلب وقيل انها مدفونة في جبل لبنان في الجامع المعروف بجامع الدولة وقيل في صيدا وانه بالقرب من ضريح ابن الروح وذكر القزويني ان بأنطاكية كنيسة قيل فيهـا قبر يحيى ابن زكريا وهو غريب واغرب منه ماذكره النعيمي في كتابه الدارس ان رأس يحيى نقل من دمشق الى بعلبك ثم نقل منها الى حمص ثم الى قلعة حلب في جرن من رخام ثم حين استولى التتر نقل من قلعتها الى جامعهـا والذي عليه الاجماع الاول والله اعلم بحقيقة الحال وقد روى بعضهم حديثاً عن النبي صلى الله

عليه وسلم انه قال لو علمت قبر اخي يحيى بن زكريا لزرته ولا نعلم درجة نقل هذا الحديث .

نبي الله هود عليه الصلاة والسلام

نقل صاحب روضة الانام ان قبر هود في الجدار القبلي من جامع دمشق تجاه محل رأس يحيى عليهما السلام غير انه غير ظاهر فيه بل مستتر وذكر ذلك ايضاً كثير من مؤرخي دمشق ونقل الهروي ايضاً في الاشارات ان قبر هود في الحائط القبلي من مسجد دمشق وورد بالاسناد الى عثمان بن ابي عاتكه قال في قبلة مسجد دمشق قبر هود وروى ان قبره في حضرموت والله اعلم

ونقل بعضهم ان عند قبره حجراً على شكل لوح مكتوب عليه وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احساناً . انا هود بن الجلود بن عاد بن عوص ابن سام بن نوح . قال جئتهم بالرسالة وبقيت فيهم مدة عمري فكذبوني فاخذهم الله بالريح العظيم . وذكر بعضهم رواية ايضاً بالاسناد الى الوليد بن مسلم قال لما امر الوليد بن عبد الملك ببناء مسجد دمشق كان سليمان بن عبد الملك اخوه هو القيم على الصناع فوجد في حائط المسجد القبلي لوحاً من حجر فيه كتابة فاتوا به الى الوليد فبعث به الى الروم فلم يستخرجوه ثم بعث به الى العبرانيين فلم يستخرجوه ثم بعث بـه الى من كان بدمشق من بقية الاحبار فلم يقدر احد على ان يستخرجه فدلوه على وهب بن منبه فبعث اليه فلما قدم عليه اخبره بذلك الحجر الذي وجدوه في ذلك الحائط فلما نظر اليه وهب حرك رأسه ثم قرأ فاذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم ابن آدم لو رأيت ما بقي من يسير اجلك لزهدت في طول ما ترجوه من املك وانما تلقى ندمك لو زلت بك قدمك وسلمك اهلك وحشمك وانصرف عنك الحبيب وودعك القريب ثم تدعو فلا تجد احداً منهم يجيب فلا انت الى اهلك عائد ولا في عملك زائد فاعمل لنفسك قبل يوم القيمة وقبل الحسرة والندامة وقبل ان يحل بك اجلك وينتزع ملك الموت روحك من بدنك فلا ينفعك مـال

ولا ولد ولدته ولا اخ اتخذته ثم تصير الى برزخ المثوى ومجاورة الموتى فاغتنم الحياة قبول الموت والقوة قبل الضعف والصحة قبل السقم قبل ان تؤخذ بالكظم ويحال بينك وبين العمل وكتب في زمن سليمان بن داود .

نبي الله اليسع عليه الصلاة والسلام

نقل الهروي في كتابه الاشارات ان قبر اليسع بسر من اعمال بلاد حوران قريبة من دمشق وذكر انه زاره في وزار في قرية نجران ايضاً اصحاب الاخدود وزار محل مولد ادريس عليه السلام في قرن قرية الحارة من بلاد حوران وقد زرت ذلك ولله الحمد في سنة ١٣٣٠ .

نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام

قال صاحب روضة الانام انه في الشام على شاطىء بحر صيدا في ساحل الشام من اعمال بيروت على رأس جبل كسراون قبر يونس عليه السلام .

نبي الله يوشع بن نون عليه الصلاة والسلام

ونقل المذكور ايضاً في تاريخه ان قبر يوشع النبي عليه السلام في الشام في قرية يقال لها المنية في بطن جبل تربل من قرى طرابلس الشام داخل غار وقبره الشريف ظاهر .

نبي الله اريا عليه الصلاة والسلام

ونقل ايضاً نبي الله اريا عليه السلام والآن حذفت العامة الهمز من اوله قالوا ريا مدفون بالقرب من قرية يقال كهف ريا مضافة الى اسمه ومشتهرة به والآن حذفت العامة الهاء من كهف الذي هو اسم لجوف الجبل وقالوا كفرريا قرية بناحية البقاع العزيز وقبره في رأس كروم طويل فوق رأس القبر زاوية الآن تهدمت وبقي بعض جدرانها وقيل ان جرجيس عليه السلام دفن بدمشق وذكر بعضهم ان في مسجد قرية الحجة مدفون سبعون نبياً والله اعلم

واما قبور نساء الانبياء فقد ذكر بعض مؤرخي دمشق اسماءهن ومحل دفنهن اكتفينا بذلك عن نقلها لكتابنا . ونقل عن الحافظ بن طولون وعن القاضي محمود ان قبر الملك طالوت شرقي الصالحية وهو المذكور في كتاب الله وكان اعلم بني اسرائيل وذكر انه اوتي الوحي حين اوتي الملك وايد هذا القول ابن طولون في تاريخ الصالحية انه هو المدفون في هذا المكان وقد تهدم من جميع الاركان وقال صاحب روض الانام ان نبي الله لوطا قبره في الشام بسفح جبل قاسيون شرقي الركنية من جهة برزة عند رأس البساتين فوق رأس قبره عمود من حجر وقبره معظم ظاهر محتاج لبناء قبة فوقه . قلت ولعل اهل الجوار يسمون امهل هذا الخبر وهم بنو بوظو من اعيان الاكراد .

ونقل ايضاً عن ضريح حزقيل ما نصه قال : في كتاب الاشارات وفي داريا ضريح يقال له حزقيل من ال فرعون المذكور في القرآن الكريم ومشهور هناك انتهى . ثم قال ابن عبدالرزاق الدمشقي رأيت القاضي محمود ترجمه فقال حزقيل بن بوريا ثالث خلفاء بني اسرائيل بعد موسى عليه السلام واختلف فيه قيل هو ابن العجوز وقيل هو الكفاء لانه حمى سبعين نبياً لليهود عزموا على قتلهم فاطلقهم حزقيل وقال : قتلي وحدي اهون من قتل سبعين نبياً وحماه الله منهم . وفي زمنه قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف وهو الذي دعا الله باحيائهم وقصتهم مشهورة . عاش مائة سنة اقام نبياً ثلاثين وهو مدفون بداريا وقيل بقلعة دمشق والله اعلم . (انتهى)

قلت قد قد اتيت ببعض اخبار الانبياء عليهم الصلاة والسلام واما شرح قصصهم ووقائعهم ومعجزاتهم مع قومهم فمشهورة ومكتوبة في كتب السير والتفاسير يجدها من يطلبها لانه لايسعها هذا المختصر فان مقصودنا بيان محال مدافنهم الشريفة ليقصدهم الزائر ويحترم مقامهم السكان المجاورون لهم وحق الجوار مطلوب بكلام سيد المرسلين .



الفصل الثاني

فيمن دخلها من مشاهير الصحابة واختارها سكنا وعلم قبره بها

قال الهروي في كتابه الاشارات : ان جبانة باب الصغير في دمشق يقال بها سبعون رجلا من الصحابة معلومة قبورهم واسماؤهم وانه نقل بان بعض تلك الجبانة حرثت وزرعت بقدر مائة سنة ثم رجع الدفن اليها فلذلك لا تعرف القبور . وقال بعضهم سمي باب الصغير حين بناء سور دمشق وهو بابها الصغير . قيل كان قديما بستانا لاحدى النساء المسلمات فوقفته جبانة لدفن اموات المسلمين . وقيل ان في احدى قرى دمشق قرية اسمها الحجة بها شهداء من الصحابة والذي يظهر ان دمشق وقراها وما يقرب منها معجون ترابها بدماء الصحابة حين الفتح وقد ذكر الواقدي ذلك مفصلا وان كثيراً من الصحابة الكرام استشهدوا بارض الشام في الفتوح وغيره من وقائع الحروب الاسلامية . ومن توفي في غير القتال من الصحابة فكثير لايحصيهم الا الملك العلام .

فمنهم من عرفت قبورهم ومنهم من لايعرف لتقادم الشهور والاعوام لكن نقدم مقدمة قبل الشروع في الكلام . وهي انه تقرر عند اهل الاصابة ان كل شخص فضل من هذه الامة فهو دون فضل الصحابة فانهم هم الذين سبقوا الناس الى الاسلام وفتحوا بابه ثم فتحوا البلدان بالحسام والسنان وفتحوا القلوب بالهدى والايمان وبذلوا اموالهم وانفسهم في الله ولم يخشوا فيه لومة لائم ولا عتابه . وشيدوا بناء الدين ورفعوا قواعده وثبتوا اعتابه . وجاهدوا في الله حق جهاده حتى اذهبوا اوثان الشرك وانصابه . واستقام الدين لله وحده لا شريك له والف بعد ما كان فيه غرابه . وقد حرض النبي صلى الله عليه وسلم على حبهم ونبه على رفعة شأنهم عند ربهم فيجب الامساك عما شجر بينهم من الاقوال والافعال والاستغفار لهم على كل حال .

اذا عرف ذلك فنحن نذكر في كتابنا هذا من توفي منهم بأرض الشام

المحروسة فأضاء بنورهم وبركتهم ربوعها المأنوسة وبعض ما روى عنهم من الاحاديث والاخبار وبعض كراماتهم المشهورة بين العلماء الاخيار مما تيسر الاطلاع عليه وسهل الوصول اليه مرتباً أسماءهم على حروف الهجاء طلباً للتيسير .

منهم ابو الدرداء الخزرجي الانصاري اسمه عويمر بن عامر وعن شريح ابن عبيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم احد نعم الفارس عويمر اسلم يوم بدر وقال عليه الصلاة والسلام هو حكيم امتي ذكره في الاصابة وقال ابن حبان ولاه معاوية قضاء دمشق في خلافة عمر ونقل بعضهم في خلافة عثمان وهو اول قاض في الاسلام روى عنه انه قال له رجل اوصني قال اذكر الله تعالى في السراء يذكرك في الضراء واذا اشرفت على شيء من امور الدنيا فانظر الى ماذا يصير . وروى عنه ايضاً انه قال ان دنوت من الناس آذوك وان تركتهم لم يتركوك وان هربت منهم ادركوك فقال له رجل يا ابا الدرداء فما تأمرني قال هب عرضك ليوم فقرك وما تجرع مؤمن جرعة احب الى الله من غيظ كظمه فاعفوا يعزكم الله . واياكم ودعوة اليتيم ودعوة المظلوم فانها تسرى بالليل والناس نيام . وما تصدق مؤمن بصدقه احب الى الله عز وجل من موعظة يعظ بها قوماً فيتفرقون وقد نفعهم الله عز وجل . وكان يقول اعبدوا الله كانكم ترونه سبحانه وعدوا انفسكم في الموتى واعلموا ان البر لا يبلى وان الذنب لا ينسى .

واعلم انه ليس الخير ان يكثر مالك وولدك لكن الخير ان يكثر علمك ويعظم حلمك وان تدعو الناس الى عبادة الله تعالى واذا احسنت حمدت الله تعالى واذا أسأت فاستغفر الله سبحانه . وقالت له زوجته يوماً ما عندنا نفقة فقال لها ان بين الدنيا والآخرة عقبة لا يجوزها الا المخفون . ولما مرض ابو الدرداء دخل عليه اصحابه فقالوا ما تشتكي قال ذنوبي قالوا ما تشتهي قال اشتهي الجنة قالوا افلا ندعو لك طبيباً قال الطبيب امرضني مات بدمشق سنة اثنتين وثلاثين في خلافة عثمان ودفن في باب الصغير وله مسجد في قلعة دمشق فهو مقامه ومقره ومتعبده وزوجته التابعية مدفونة بالقرب منه اسمها ام الدرداء .

ومنهم ابان بن ابان قال ابن الحوراني في كتابه الاشارات انه مدفون في مقبرة باب شرقي وهو من أجلة الصحابة .

ومنهم ابومرشـــد كناز بن يربوع دفن في طريق عقربا قبلي قرية فديا نقله الواقدي في تاريخه فتوح الشام مات سنة ١٢ .

ومنهم اوس بن اوس الثقفي سكن دمشق وكان بيته معبده وهو من اهل الصفة ومات في خلافة عثمان ودفن بمقبرة باب الصــغير وقبره معروف يزار قال النووي في التهذيب وهو تجاه المدرسة الصابونية وعليه بناء روى حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم في شأن الجمعة من غسل واغتسل وبكر وابكر ومشى ولم يركب ودنا من الامام واستمع ولم يلغ كان له بكل خطوة عمل سنـة اجر صيامها وقيامها رواه احمد وغيره .

ومنهم ابو الدحداح الصحابي واليه نسبت المقبرة ذكره ابن عبد الرزاق وقال ابن الحوراني بالاشارات في مقبرة الدحداح شمالي دمشق قبر الصحابي ابوالدحداح والله اعلم .

ومنهم ابوسعيد الخدري سعد بن مالك الانصاري كان من اعيان الصحابة وفقهائها شهد الخندق وبيعة الرضوان وغيرهما مات بدمشق الشـام سنة اربع وسبعين والمشهور ان قبره في قرية الرحيبة في ناحية جبل قلمون على رأس جبل عال وربوة عاليه .

ومنهم ابو امامــة الباهلي اسمه حرى بن عجلان بن وهب الباهلي قال ابن سعد سكن الشام مات سنة ست وثمانين وله مائة وست وستون سنة من العمر وذكر ابوالحسن الصفاني انه توفي بالشام وروى حثيمة في فضـائل الصحابة من طريق وهب قال سمعت حرى ابن يوسف بن حزم الباهلي يقول لما نزل قوله تعالى لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبـا يعونك تحت الشجرة قلت يا رسول الله انا ممن بايعك تحت الشجرة قال انت مني . وهو من مشهـوري الصحابة قال بعضهم سكن حمص روى عن النبي صلى الله عليه وسلم مائتين وخمسين حديثاً قال ابن الحوراني دفن بحمص وانه آخر من مات من الصحابة بالشام

ومنهم النعمان بن بشير الصحابي ابن الصحابية وهو قاضي دمشق بعد فضالة واول مولود في الاسلام من الانصار بعد الهجرة قتل بالشام بقرية من قرى حمص سنة خمس وستين انتهى كلام النووي .

ومنهم ابو عبيدة اسمه عامر بن عبدالله الجراح القرشي امين هذه الامة واحد العشرة المشهود لهم بالجنة واحد الرجلين اللذين عينهما ابو بكر الصديق يوم سقيفة بني ساعدة حين اجتمع الصحابة المشاورة في امر الخلافة لما اختلفوا في ذلك . وروى ان الصديق قال لابي عبيدة حين اجتماع الصحابة يتشاورون في الخلافة مد يدك لا بايعك فقال ابو عبيدة ما كنت لاتأمر على رجل قدمه رسول الله فصلى بنا حتى قبض وروى ان عمر بن الخطاب قال ان ادركني اجلي وابو عبيدة حي استخلفته . فان سألني الله عز وجل عن ذلك اجبت اني سمعت رسولك يقول ان لكل امة اميناً وامين هذه الامة ابو عبيدة بن الجراح وقد فتح الله تعالى على يده بلاداً كثيرة وله مع المشركين غزوات شهيرة وفتوحات في الاسلام ومن مناقب وقعاته وقعة حمص الاولى وذلك انه لما فتح الله على يده دمشق وانهزم المشركون من الروم اتبعهم فلما وصل الى حمص نزل اليها فحاصرها فلحق خالد بن الوليد فحاصروها حصاراً شديداً وكان البرد شديداً واصبح الماء جليداً وصبر الصحابة صبراً عظيماً الى ان صالحهم اهلها على ما صالح اهل دمشق على نصف المنازل وضرب الخراج على الارض واخذ الجزية على الرقاب بحسب الغنى والفقر . وروى صاحب كتاب الوسيلة قال لما افضت الخلافة الى عمر بن الخطاب كتب الى من بالشام من الصحابة يعزيهم في ابي بكر وأمرهم بالجهاد في سبيل الله تعالى ثم كتب كتاباً آخر الى ابي عبيدة سلام عليك . اما بعد فانك بحمد الله في كنف من المسلمين وعدد يكفي بعضهم لحصار اهل دمشق فاذا ورد عليك كتابي هذا فاقرأه على من قبلك من المسلمين واعلمهم انك الوالي عليهم وابعث سراياك في نواحي الشام وانظر فكل من استغنيت عنه من المسلمين فابعثه الي ومن احتجت اليه في حصارك فاحبسه عندك وامسك فيمن تمسك عندك خالد بن الوليد فانه لا غنى لك عنه والسلام

فلما جاء الكتاب الى ابي عبيدة بامارته وعزل خالد اخفى عزل خالد بن الوليد ولم يزل يصلي خلفه حتى سمع خالد عزله من الناس فقال لابي عبيدة هلا اعلمتني بعزلي فانك تصلي خلفي ولك السلطان علي .

فقال يا ابا سليمان ماعندنا من سلطان الدنيا وامارتها ليست بشيء وانما نحن اخوان في ذات الله تعالى فاينا ولي اخاه لم يضره ذلك شيئاً في دينه ولعل الوالي ان يكون الى الفتنة اقرب من رعيته الا من عصمه الله تعالى . وبعد ذلك وليتك الحروب وجعلت لك اعنة الخيل ثم عين ابو عبيدة الجيوش فنصره الله عز وجل ثم ان الرومان التمسوا الصلح على مائة الف دينار والجزية على كل محتلم من ذكر اربعة دنانير في كل عام وعلى المرأة نصف ذلك وكتب لهم كتاباً وقبض المال وفتحت له دمشق ودخلها المسلمون يوم الجمعة من رجب سنة اربع عشرة من الهجرة مات بطاعون عام عمواس الذي مات فيه خمسة وعشرون الفا ودفن بغور بيسان عند قرية يقال لها عميا وصلى عليه معاذ بن جبل ونزل في قبره هو وعمرو بن العاص والضحاك بن مزاحم ونقل صاحب النبهة ان له مسجداً خارج باب الجابية وكان في زمن فتح دمشق اميراً على المجاهدين وقد افرد العمادي مفتي دمشق في ترجمته رسالة مخصوصة .

ومنهم اسامة بن زيد نقل بن عبد الرزاق في تاريخه قال رأيت القاضي محموداً ذكر انه بقرية المزة عند البساتين بمسجد هناك معروف قال في الاصابة انه مات في اواخر خلافة معاوية وكان قد سكن المزة من عمل دمشق امر على فضلاء الصحابة على حداثة سنه مات سنة اربع وخمسين . ذكره العدوي والبصروي ايضاً .

ومنهم ابي بن كعب بن قيس الخزرجي الانصاري وهو ابو المنذر البدري سيد القراء قال الواقدي هو اول من كتب للنبي صلى الله عليه وسلم وكان من اصحاب العقبة شهد بدراً والمشاهد كلها وقال له ليهنك العلم يا ابا المنذر وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب ان يسمع منه القرآن فقال له كيف تسمع مني وعليك نزل فقال اني ارى لهجتك لهجة جبريل وقال له ان الله امرني

ان اقرأها عليك لما نزلت الآية لم يكن الذين كفروا ذكره في الاصابة قال البصروي مات في خلافة عمر سنة اثنتين وعشرين وعليه الاكثر وقيل في خلافة عثمان والمشهور ان قبره بدمشق خارج باب شرقي بزار وعليه بناء وقبة وقال الخفاجي قيل دفن بالمدينة والله اعلم .

ومنهم ابو هاشم بن عتبة بن ربيع بن عبد شمس القرشي هو اخو ابي حذيفة بن عتبة واخوه مصعب بن عمير لامه وقال ابن السكن اسلم يوم فتح مكة ونزل بالشام الى ان مات بها في خلافة عثمان روى الترمذي بسنده الى ابي وائل وغيره قال جاء معاوية الى ابي هاشم بن عتبة وهو مريض يعوده فبكى ابو هاشم فقال يا خالي ما يبكيك اوجع يضرك ام حرص على الدنيا قال لا ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد الى عهداً لم آخذ به قال انما يكفيك من الدنيا خادم ومركب في سبيل الله فاجدني جمعت وقال قدم ابو هريرة دمشق فنزل على ابي كلثوم الدوسي فاتيناه فتذاكرنا الصلاة الوسطى فاختلفنا فيها فقال ابو هريرة اختلفنا فيها كما اختلفتم ونحن بفناء بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفينا الرجل الصالح ابو هاشم بن عتبة فقام فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان جريئاً عليه ثم خرج الينا فاخبر انها العصر .

ومنهم اسود بن اصرم المحاربي قدم الشام وسكن داريا نقله ابن عساكر وقال عبد الجبار في كتابه تاريخ داريا والدليل على نزول الاسود داريا قطائع للزرع له بها معروفة الى اليوم .

ومنهم اوس بن سعد ابو زيد الانصاري الخزرجي ولاه عمر بن الخطاب بعض الشام ومات في خلافته بدمشق سنة ست عشرة وهو ابن اربع وستين سنة نقل عنه حديث طويل منه قول اسود يارسول الله اوصني قال لا تقل بلسانك الا معروفاً ولا تبسط يدك الا الى خير الحديث .

ومنهم ابو هاشم بن ربيعة الصحابي الجليل اسلم يوم فتح مكة ونزل بالشام الى ان مات بها كذا قال ابن السكن وحكاه عنه البصروي ولم يعين قبره

ومنهم اوس بن الاعور العامري وقيل شرحبيل ذو الجوشن الضبابي الكلائي وقيل له ذو الجوشن لبروز صدره والجوشن الصدر وهو مدفون بمحلة السويقة المعروفة بدمشق .

ومنهم الزبير بن العوام مدفون شرقي مرج الدحداح داخل بستان قرب المنارة وفيه المقدمية قاله ابن عبدالرزاق .

ومنهم الضحاك بن قيس الصحابي الجليل قيل انه مات بدمشق وقت الفتح

ومنهم بلال قال المدائني كان بلال من مولدي السراة واسم ابيه رباح واسم امه حمامة وهي امة مولى ابي بكر الصديق قال ابن اسحاق اشتراه ابو بكر من المشركين لما كانوا يعذبونه على الاسلام واعتقه لله عز وجل وكان صادق الاسلام طاهر القلب وخازن النبي صلى الله عليه وسلم وشهد المشاهد كلها وآخى النبي الكريم عليه الصلاة والسلام بينه وبين ابي عبيدة بن الجراح وهو اول من اذن في الاسلام واذن الى ابي بكر الصديق بعد الرسول واذن بعده مرة واحدة الى عمر بن الخطاب فلم ير باكيا اكثر من ذلك اليوم وروى عن عمر بن الخطاب انه كان يقول ابو بكر سيدنا واعتق سيدنا يعني بلالا ، ولما فتح عمر بيت المقدس خرج معه بلال مجاهداً وكان يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا بلال ليس عمل افضل من الجهاد في سبيل الله ونقل انه لما مات النبي صلى الله عليه وسلم اراد ان يخرج الى الشام فقال له ابو بكر بل تكون عندي انشدك بالله وبحقي وحرمتي فقد كبرت واقترب اجلي فاقام بلال عنده وروى ان مرة قال له ان كنت اعتقتني لنفسك فاحبسني وان كنت اعتقتني لله عز وجل فذرني اذهب الى الله عز وجل فاذن له بالذهاب فقال فيه ابو بكر ابياتاً منها قوله :

هنيئاً زادك الرحمن خيراً فقد ادركت ثارك يا بلال

وقد اتفق البخاري وغيره على انه مات بدمشق في زمن خلافة عمر بن الخطاب وهو ابن ثلاث وستين سنة . وقال الحنبلي في كتابه (الانس الجليل) انه دفن بباب الصغير سنة عشرين . وقال البصروي سنة سبع عشرة وقيل

سنة ثماني عشرة وقبره بها مشهور له قبة عظيمة وبناء محكم يزار ويقصد . وحققه ابن طولون في شرحه على المنظومة المسماة « باعلام الاعلام بمن ولي قضاء الشام » . وحققه ايضاً ابن كثير وغيره من المؤرخين منهم الواقدي ويحيى بن زكريا المدني نزيل دمشق . واما القول بانه دفن بداريا او في باب كيسان فهو ضعيف . وروى بالاسناد الى عبدالله بن ابي بريدة عن ابيه قال: اصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بلالاً فقال له : يابلال بم سبقتني الى الجنة . مادخلت قط الجنة الا سمعت خشخشتك امامي . وقال مجاهد : اول من اظهر الاسلام بمكة سبعة وهم : رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو بكر وخباب وصهيب وعمار بن ياسر وسمية ام عمار وبلال . وقد ذكر البصروي قصة لطيفة احببت ذكرها ونقلها لانها لاتخلو من عظة حسنة وفائدة قال : ان بلالاً رأى يوماً النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول : ماهذه الجفوة يابلال ? اما آن لك ان تزورنا . فانتبه حزيناً فركب راحلته من دمشق الى المدينة فأتى قبره الشريف وجعل يبكي عنده ويتمرغ عليه . فاقبل الحسن والحسين فجعل يقبلها . فقالا نريد ونشتهي ان تؤذن في السحر فقبل وعلا سطح المسجد فلما قال الله اكبر ارتجت المدينة . ولما قال اشهد ان لا اله الا الله زادت رجتها . ولما قال اشهد ان محمداً رسول الله خرج جميع النساء من خدورهن . قال مؤرخ المدينة المنورة يحيى بن باكير: فما رؤي يوم اكثر باكياً وباكية من ذلك اليوم .

ومنهم بسرة بن فاتك الاسدي اخو خزيم بن فاتك وهو الذي قسم دمشق بين المسلمين بعد فتحها . توفي بدمشق ودفن بها . ذكره الصفاني ابو الحسن وقال لم يعلم قبره .

ومنهم بسر بن ارطأة بن عويمر القرشي الصحابي الجليل يعد في الشاميين واتى اليمن . قال بعضهم مات بالمدينة وقال الاكثر مات بالشام في بقية ايام خلافة معاوية والله اعلم .

ومنهم تميم الداري بن اوس ابن خارجة ابن سويد بن خزيمة الداري

نسبة الى جده . اسلم سنة تسع من الهجرة حين قدم مع وفد الداريين على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف من تبوك وكان من زهاد الصحابة وعلمائهم وهو الذي اختطفته الجن من سطح داره وسكن في بلاد الجن مدة طويلة ورأى العجائب وله قصة طويلة مشهورة تأتي على بعض منها وهي انه رأى الجساسة وهي دابة تتجسس الاخبار الى الدجال التي رواها النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر . كان من اهل الصفة وراهب المسلمين في عصره وواعظ المؤمنين في وقته وروى بالاسناد الى عبدالله بن المبارك قال ما بلغني عن احد من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغني عن تميم الداري قرأ القرآن راكعاً وقرأ القرآن ساجداً وحج حبياً . وقال ايضاً اربعة قرأوا القرآن في ركعة واحدة : عثمان بن عفان وتميم الداري وسعيد بن جبير والامام ابوحنيفة ومناقب تميم الداري كثيرة وهو اول من نصب القناديل التي ينصبونها المتعبدين ويزهو نورها في اوقات السحر المتهجدين نصبها في مسجد النبوي وذلك حين قدم تميم الداري من الشام ففاز بدعاء الرسول عليه الصلاة والسلام على عمله هذا وروى القرطبي انه حمل من الشام الى المدينة قناديل وزيتاً فلما انتهى الى المدينة وافق ذلك ليلة الجمعة فامر غلاماً له فأسرجها وخرج النبي صلى الله عليه وسلم فاذا هو بها تزهى فقال من فعل هذا فقالوا تميم الداري يا رسول الله فقال نورت الاسلام نور الله قلبك في الدنيا والآخرة اما انه لو كان لي ابنة لزوجتك اياها فقال ابن الحارث لي ابنة يا رسول الله افعل بها ما أردت فانكحها اياه واقام تميم الداري بالمدينة مدة ثم انتقل الى دمشق فأقام بها مجاهداً في سبيل الله تعالى مات سنة ست وتسعين بعد ان بنى بدمشق داراً عظيمة سكن بها قيل ان له ذرية الى اليوم والله اعلم .

ومنهم ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابي الجليل مات بحمص ودفن بها ذكره في اسد الغابة .

ومنهم جعفر بن ابي طالب وقد ذكره ابن سميع في من شهد فتح دمشق

ونقل بعضهم ان الذي شهد فتح دمشق ايضاً ثم ايضاً اولاد جعفر شقيق علي ابن ابي طالب وانهم لهم قبور في حمص .

ثم بقال له جعفر الطيار واحد السابقين الى الاسلام اسلم بعد خمسة وعشرين رجلا وكان ابو هريرة يقول انه افضل الناس بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام وهاجر الى الحبشة مع من هاجر من الصحابة فأسلم النجاشي ملك الحبشة ومن تبعه على يديه واقام جعفر عنده ثم هاجر الى المدينة فقدم والنبي صلى الله عليه وسلم بخيبر بعد فتحها ولما قدم هو واصحابه استقبله عليه الصلاة والسلام واعتنقه وقبل ما بين عينيه وقال ما أدري بايهما انا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر وكان ذلك في سنة سبع من الهجرة .

ولا بأس بسياق هجرة جعفر واصحابه الى الحبشة لانها لا تخلو من مواعظ وحكم وفوائد وذلك انه لما بعث صلى الله عليه وسلم بالنبوة والرسالة وصدقه في مكة من اراد الله له السعادة من الصحابة واسلم من اسلم من السابقين الاولين ثم تتابع الناس في الدخول في الاسلام الى ان فشا الاسلام بمكة بين القبائل كلها اقبلت كل طائفة من قريش على من اسلم بالتكذيب والتعذيب والاذى (وهذا يدحض ما يقول عن انتشار الاسلام بقوة السيف) وحمى الله تعالى رسوله منهم بواسطة عمه ابي طالب ومن معه من بني هاشم وبني المطلب مؤمنهم وكافرهم فالمؤمن للدين والكافر للحمية فلما رأى عليه الصلاة والسلام ما يصيب الصحابة من البلاء وما هم عليه من الاذى والمعاقبة لعمه ابي طالب وقومه وانه لايقدر على ان يمنعهم قال لهم لو خرجتم الى ارض الحبشة فان بها ملكا لايظلم عنده احد حتى يجعل الله لكم فرجاً مما انتم فيه فخرج عند ذلك المسلمون من الصحابة وفيهم جعفر بن ابي طالب ومعه ثمانية وثمانون رجلا حتى نزلوا ارض الحبشة فامنوا بها على انفسهم وعلى دينهم وعبادتهم وتلقاهم النجاشي احسن تلق واكرمهم غاية الاكرام واحسن جوارهم وعبدوا الله لا يخافون احداً فلما رأت قريش ان جعفراً ومن معه من الصحابة قد اطمأنوا وامنوا بارض الحبشة وانهم قد اصابوا داراً وقراراً تشاوروا فيما

بينهم ان يبعثوا منهم رجلين ليخرجوهم من دارهم التي امنوا بها عند النجاشي وان يردهم لهم ليفتنوهم عن دينهم . وليؤذوهم عند النجاشي وان يهدوا له هدايا مما يستظرف من متاع مكة فجمعوا له وللبطارقة هدايا ثم بعثوا بذلك عبدالله بن ابي ربيعة وعمرو بن العاص وذلك قبل اسلامهما وقالوا لهما ادفعا الى كل بطريق هديته قبل ان تكلما النجاشي ثم قدما الى النجاشي هديته ثم سلاه ان يسلمهم اليكما قبل ان يكلمهم فخرجا حتى اذا قدما على النجاشي قدما اليه هديته فقبلها بعد ان قدما الى بطارقته هداياهم ثم قالا له ايها الملك انه قد خرج منا الى بلدك غلمان سفهاء فارقوا دينهم ودين ابائهم وقومهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين مبتدع لانعرفه ولا انت وقد بعثنا اليك اشراف قومهم من ابائهم واعمامهم وعشائرهم لترد هم عليهم فهم اعرف بهم واعلم بما عابوا عليهم ولم يكن شيء ابغض الى عبدالله بن ربيعة وعمرو بن العاص من ان يسمع كلامهم النجاشي فقالت بطارقته وهم حوله صدقا ايها الملك قومهم اعرف بهم واعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم اليهما فليرداهم الى بلادهم وقومهم فغضب النجاشي وقال والله لا اسلمهم اليهما فانهم قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى ادعوهم فأسألهم عما يقول هذان في امرهم فان كان الامر كما يقولون اسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم وان كان الامر غير ذلك منعتهم منهم واحسنت جوارهم ماجاوروني . ثم ارسل الى الصحابة فلما جاءهم رسول النجاشي اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض ماتقولون للرجل اذا جئتموه فقالوا نقول الذي علمناه وامرنا به كائن في ذلك ما هو كائن فلما حضروا بين يدي الملك النجاشي دعا اساقفته فنشروا لهم كتبهم حوله فقال لهم ماهذا الدين الذي فارقتم به دين ابائكم وقومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين احد من هذا الملك فكان الذي اخذ الكلام واجابه جعفر بن ابي طالب . فقال ايها الملك كنا قوماً اهل الجاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف وكنا على ذلك حتى بعث الله رسولا الينا وهو منا نعرف نسبه وصدقه وامانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده

ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا دونه من الحجارة والاوثان وامرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الارحام وحسن الجوار والكف عن المحارم والزنا ونهانا عن الفواحش وقول الزور واكل مال اليتيم وقذف المحصنات وامرنا ان نعبد الله لا نشرك به شيئاً وامرنا بالصلاة والزكاة فصدقناه واتبعناه على ما جاء به وعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئاً وحرمنا ماحرم علينا واحللنا ماحلل لنا . فعدوا علينا فعذبونا وفتنونا ودعونا الى عبادة الاصنام دون عبادة الرب جل وعلا وان نستحل مـا كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك من الملوك ورغبنا في جوارك ورجونا ان لا نظلم عندك ايها الملك فقال هل معك مما جاء به عن الله من شيء فقال جعفر نعم فقال له النجاشي فاقرأه فقرأ عليه صدراً من سورة كهيعص ذكر رحمة ربك واخذ يقرأوها والنجاشي يبكي حتى اخضلت لحيته وبكت اساقفته حتى اخضلت مصاحفهم حين سمعوا ما تلي عليهم . ثم قال الملك والله ان هذا هو الذي جاء به موسى وعيسى انطلقا والله لا اسلمهم اليكما ولا يكادون ولا يهانون فخرج القاصدان مقبوحين فاعاد احدهما عليه وقال ايها الملك انهم يقولون في عيسى ابن مريم قولا عظيما يقولون انه عبدالله ورسوله وكلمته القاهـا الى مريم فسألهم فقال جعفر فيه ما يقول نبينا محمد عليه الصلاة والسلام يقول ان عيسى عبدالله ورسوله وروحه وكلمته القاها الى العذراء البتول فلما سألهم الملك واجابوا بهذا الجواب . ضرب بيده الارض فاخذ منها عوداً ثم قال اذهبوا فانتم آمنون بارضي وبلادي فتأخرت بطارقته من حوله ثم قال لبعض فتيانه ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها والله ما اخذ الله الرشوة مني حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه وما اطاع الناس في فاطيع الناس فيه فخرجا من عنده مقبوحين مردداً عليهما هداياهما واقمنا عنده في خير دار عند خير جار . ثم اسلم النجاشي وكتم اسلامه عن قومه من الحبشة ثم بعد ذلك شاع اسلامه وتحدث الناس به فاجتمعت الحبشة عليه وقالوا له فارقت ديننا وخرجوا عليه وبعد ذلك مات

بارض الحبشة ولما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبر وفاته في ذلك اليوم وهي من جملة معجزاته عليه الصلاة والسلام خرج باصحابه الى البقيع ووقف هو واصحابه صفوفاً وصلى على النجاشي صلاة الغائب واستغفر له وفي هذا الحديث حجة لمن يقول من الائمة بصحة الصلاة على الميت الغائب عن البلد وفي سنة ثمان من الهجرة استشهد في ارض البلقا جعفر ذو الجناحين في سرية مؤتة من ارض الشام وهي مشهورة معروفة في كتب السير وقد تقدم منا شيء عن قصة هذه السرية وحربها في معان والتقائهم مع هرقل وقومه بارض البلقا وانقطاع ايدي جعفر حين حمل اللواء ثم احتضنه حتى قتل . وليس له ولا لغيره من الصحابة في البلقا مرقد معلوم لانها لم تكن اذ ذاك دار اسلام .

ومنهم جابر الرعيني والد سعيد بن جابر ذكره ابن عساكر في تاريخه وقال شهد فتح دمشق روى عن الحارث بن عمير الزبيدي الحارثي انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وقيل مات بدمشق .

ومنهم جعيدة بن عبيدة الكلابي كان مع خالد بن الوليد في قتال الردة وفي فتح دمشق وهو القائل :

تقول ابنة المجنون هل انت قاعد ولا وابيها حلفة لا اطيعها
ومن يكثر التطواف في جيش خالد من الروم مطبوع عليها دموعها

وروى عنه وعن انس قال : قيل يارسول الله متى يترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال : اذا ظهر فيكم ماظهر في بني اسرائيل قبلكم . قالوا وما ذاك يارسول الله ؟ قال : اذا ظهر الادهان في خياركم والفاحشة في شراركم وتحول الملك في صغاركم والفتنة في ارذالكم .

ومنهم جبل بن معاذ . قال ابن الحوراني في الاشارات انه بمقبرة باب شرقي معروف ومشهور يزار وتقرأ له الفاتحة .

« انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثاني واوله الصحابي جندب »



فهرس الكتاب

صفحة

صفحة



كتاب

منتخبات التواريخ لدمشق

تأليف

محمد اديب آل تقي الدين الحصني

قدم له

الدكتور كمال سليمان الصليبي

الجزء الثاني

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

ومنهم جبل بن معاذ قال ابن الحوراني في الاشارات انه بمقبرة باب شرقي معروف ومشهور يزار ويتبرك به .

ومنهم جندب بن عمرو الدوسي روى بعض حملة الاخبار انه قدم مهاجر الى المدينة المنورة ثم مضى الى الشام وخلف ابنته عند عمر بن الخطاب وقال له ان وجدت لها كفوا فزوجها ولو بشراك نعل والا فامسكها حتى تلحقها بدار قومها فكانت عند عمر حتى زوجها من عثمان بن عفان ثالث الخلفاء فولدت له عمر من عهد عمر وكان ابو جندب من حكام العرب وروى ابن عباس انه قال بلغ عمرو الدوسي من العمر ثلاثمائة سنة حتى كبر ورأى البطن السابع والتاسع من الاولاد وقتل جندب شهيداً باجنادين وقيل باليرموك من ارض الشام

ومنهم جنادة بن مالك الازدي سكن مصر ثم تحول الى الكوفة روى حذيفة الازدي عن جنادة الازدي انه قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة مع نفر من الازد سبعة منهم انا ونحن صيام فدعانا للطعام بين يديه فقلنا يارسول الله انا صيام فقال هل صمتم امس قلنا لا قال أفطروا رواه بن منده وخرج ابو نعيم عن مصعب عن ابيه عن جده جبارة بن مالك قال قال رسول الله صلى الله وسلم ثلاث من افعال الجاهلية لايدعهن اهل الاسلام الاستسقاء بالكواكب وطعن في النسب والنياحة على الميت ثم ذكر ابو الحسن الصنعاني من صنعاء دمشق ان جنادة مات ودفن بها

ومنهم حسين بن علي بن ابي طالب سبط رسول الله وريحانته من الدنيا وفد على معاوية وتوجه غازيا الى القسطنطينية اخرج الحافظ عن زينب بنت رافع ان فاطمة اتت اباها بالحسن والحسين في شكواه التي مات فيها فقالت تورثهما يارسول الله شيئاً فقال اما الحسن فله هيبتي وسؤددي واما الحسين فقد نحلته نجدتي وجودي فقالت رضيت يارسول الله وعن صبيح بن جنادة مرفوعاً ان الله اصطفى العرب من جميع الناس واصطفى قريشاً من العرب واصطفى بني هاشم من قريش واصطفاني من قريش واختار لي نفراً من اهل بيتي

علياً وحمزة وجعفراً والحسن والحسين قال صاحب شذارات الذهب وفي سنة احدى وستين في يوم عاشوراء استشهد ابو عبدالله الحسين بن علي بكربلا عن ست وخمسين سنة ومن اسباب ذلك انه تدابى البيعة ليزيد حين بايع له ابوه الناس فلما مات معاوية جاءت كتب اهل العراق الى الحسين يسألونه القدوم عليهم فسار بجميع اهله حتى بلغ كربلاء موضعاً بقرب الكوفة فكتب يزيد عليه مايستحق من العذاب الاليم الى الخبيث عبدالله بن زياد بمحاربته فعرض له المذكور مع جماعته فقتلوه وجاء بعض الفجرة برأسه الشريف الى ابن زياد وهو يقول (اني قتلت الملك المحجبا) (قتلت خير الناس اماً واباً) فغضب لذلك ابن زياد وقال اذا علمت انه كذلك فلم قتلته لالحقنك به وضرب عنقه ثم ارسله ليزيد ثم ارسل الى البقيع الى جنب امه فاطمة انتهى ونقل ابن عساكر في تاريخه بقوله بعد كلام طويل في حالة الوقعة مانصه فقاتلوه فقتل الحسين وقتل معه اصحابه ومنهم سبعة عشر شاباً من اهل بيته واتى برأسه الشريف الى ابن زياد فارسله ومن بقي من اهل بيته الى يزيد بدمشق ومنهم علي بن الحسين كان مريضاً ومنهم عمته زينب فلما قدموا على يزيد ادخلهم على عياله ثم جهزهم الى المدينة

ونقل ابن عساكر ايضاً في ترجمة خالد بن غفران من افاضل التابعين وكان بدمشق قال لما اتى برأس الحسين بن علي الى دمشق وصلب بهـا اختفى عن اصحابه فطلبوه شهراً حتى وجدوه فسألوه عن عزلته فقال امـا ترون ماتزل بنا ثم انشأ يقول

جاؤا برأسك يابن بنت محمد ... مترملا بدمائه ترميلا
وكانما بك يابن بنت محمد ... قتلوا جهاراً عامدين رسولا
قتلوك عطشاناً ولم يترقبوا ... في قتلك التنزيل والتأويلا
ويكبرون بان قتلت وانما ... قتلوا بك التكبير والتهليلا

وهو غير خالد القسري من اهل دمشق الذي كان اميراً على مكة المكرمة ايام الوليـد الذي كانت داره بدمشق وهي الدار الكبرى التي بمربعـة القز

وتعرف اليوم بـدار الشريف الزيدي واليه ينسب الحمام الذي يقابل باب سنان بباب توما بدمشق

وقال ابن حجر الهيتمي ولما انزل ابن زياد رأس الحسين واصحابه جهزها مع سبايا آل الحسين الى يزيد فلما وصلت اليه قيل انه ترحم عليه وتنكر لابن زياد وارسل برأسه الشريف و بقية بنيه الى المدينة وقيل بل كانت الرأس في خزانته لان سليمان بن عبد الملك بن مروان راى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام يلاطفه فسئل الحسن البصري عن ذلك فقال لعلك صنعت الى آله معروفاً قال نعم وجدت رأس الحسين مخفياً في خزانة يزيد فكسوته خمسة اثواب من حرير وصليت عليه مع جماعة من اصحابي وقبرته بيدي فقال له الحسن البصري هو ذلك سبب رضاه عليك فامر سليمان للحسن البصري بجائزة سنية

فظهر من هذا ان جميع المؤرخين اجتمعت كلمتهم على ارسال ابن زياد الرس الشريف الى يزيد بدمشق ثم منهم من ذهب الى انه ارسل الرس الشريف الى المدينة المنورة ومنهم من قال بان يزيد وضع الرس الشريف بخزانته شرقي جامع بني امية المسماة اليوم بمشهد الحسين قال الشهاب المنيني ان رأس الحسين داخل باب الفراديس ورأسه الشريف على قول بأنه هناك في الجانب الشرقي منه مما يلي الطريق وفي ظاهر الجدار كوة غير نافذة يقال ان الرس الشريف وراء تلك الكوة وقد جدد محمد المرادي وراء تلك الكوة من داخل المسجد ضريحاً للاحترام بمكان الرس كيلا يوطأ ما يقرب منه بالاقدام وايد هذا القول النجم الغزي في الاشارات ونقل صاحب روضة الانام ان في اصل جدار المحراب رأس الشهيد الملك الكامل وعن يمين الخارج منه بخطوات مكان يسمى بمسجد السادات فيه كثير من شهداء الصحابة لم تعلم اسمائهم ونقل بعضهم وهو القول الضعيف بان نقل الى مصر والله اعلم

ذكر ابن حجر والذهبي انه لما سيق حريم الحسين الى الكوفة كالاسارى بكى اهل الكوفة فجعل زين العابدين بن الحسين يقول الان هؤلاء يبكون

من اجلنا فمن ذا الذي قتلنا وذكر المسعودي في تاريخه ان وقعة الحسين وقتله لم يحضرها دمشقي

ومنهم حرملة بن الوليد بن المغيرة المخزومي اخو سيف الله خالد بن الوليد قال ابن عساكر كان مسكنه عند دير البقر وفي دمشق دران احدهما لخالد بن الوليد اقطعه له ابو عبيدة والآخر لاخيه حرملة مع قرية بالغوطة تعرف بدير حرملة بعد ان كاتب ابو عبيدة فيهما الخليفة عمر بن الخطاب فاذن له وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يكون بعدي خلفاء وبعد الخلفاء امراء وبعد الامراء ملوك وبعد الملوك جبابرة وبعد الجبابرة يخرج رجل من اهل بيتي يملأ الارض عدلا مات بدمشق ودفن في تلك القرية وقبره معروف

ومنهم حبيب بن مسلمة دخل دمشق وكانت داره بها عند طاحونة السقفيين مشرفة على نهر بردى قال ابن عساكر تويت فيه الروايات انه من الصحابة وانه مات بدمشق سنة اثنتين واربعين

ومنهم الحارث بن هشام بن مغيرة القرشي ثم المخزومي اخو ابي جهل وابن عم خالد بن الوليد شهد بدرا ثم شهد احدا مع المشركين حتى اسلم يوم فتح مكة قهراً وكان قد استجار يومئذ بام هاني بنت ابي طالب فاراد اخوها علي بن ابي طالب قتله فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال اجرنا من اجرت وامنا من امنت ولما اسلم وحسن اسلامه اعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة من الابل من غنائم حنين كما اعطى المؤلفة قلوبهم وشهد معه حنينا وخرج في زمن عمر بن الخطاب باهله وماله الى الشام فتبعه اهل مكة واشتد جزعهم فلم يبق احد منهم الا خرج يشيعه وتوجعه وكان يضرب به المثل في السؤدد وحسن التدبير وروى الزبير بن بكار من طريق بن اسحاق في قصته سقيفة بن ساعدة حين اجتمع اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته يتشاورون في الخلافة بعده

وقالت الانصار للمهاجرين منكم امير ومنا امير قال فقام الحارث بن هشام وهو يومئذ سيد بني مخزوم ليس احد يعدل به الا اهل السوابق مع رسول

الله صلى الله عليه وسلم وقال والله لولا قوله الائمة من قريش ماابعدنا منها الانصار ولكانوا لها اهلا ولكنه قول لاشك فيه فوالله لولم يبق من قريش الا رجل واحد ليصير الله هذا الامر فيه .

قال الواقدي توفى الحارث بالشام في طاعون عمواس وقال غيره قتل شهيداً باليرموك من ارض الشام

ومنهم حرملة بن زيد الانصاري اخو بني حارثة روى ابن منده والحافظ ابو نعيم عن عبدالله ابن عمر قال كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ جاء حرملة بن زيد فجلس بين يديه وقال يارسول الله الايمان ههنا واشار الى لسانه والنفاق ههنا واشار بيده الى صدره ولا يذكر الله الا قليلا فسكت النبي وردد اي اعاد القول عليه حرملة فاخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم لسان حرملة وقال اللهم اجعل له لساناً صادقاً وقلباً شاكراً وارزقه حبي وحب من احبني وصير امره الى خير فقال حرملة يارسول الله لي اخوان منافقون وكنت رأسا فيهم افلا ادلك عليهم فقال من جاءنا كما جئت استغفرنا له كما استغفرنا لك ومن اصر على ذلك فالله اولى به ولا نخرق له ستراً وقال البصروي دفن بظاهر دمشق بارض الغوطة بقرب من قرية جوبر ضريح مفرد وعليه بناء

ومنهم حتات بن يزيد بن علقمة التميمي الداري كان في وفد تميم مع الاقرع بن حابس وغيره حين قدموا على رسول صلى الله عليه وسلم في سنة الوفود وهي سنة تسع من الهجرة واسلم معهم وآخى النبي عليه الصلاة والسلام بينه وبين معاوية بن ابي سفيان ولما اجتمعت الخلافة لمعاوية قدم الحتات وحارثة بن قدامة والاحنف بن قيس وكلاهما من بني تميم وكان الحتات عثمانياً وكان حارثة والاحنف من اصحاب علي فاعطاهم معاوية اكثر ماأعطاهم الحتات فرجع اليه فقال فضلت على هؤلاء قال اشتريت منهما دينهما ووكلتك الى هواك من بني عثمان فقال وانا ايضاً اشترمني ديني نقل انه سكن الشام في خلافة معاوية ودفن بها

ومنهم حجر بن عدى بن الادبر الكندي الكوفي وانما سمي الادبر لانه ضرب بالسيف على اليته كان من فضلاء الصحابة مع صغر سنه ولما ولى معاوية زياد العراق وما ورأهما واظهر زياد الغلظة وسوء السيرة حتى ادى الامر لحجر بن عدى ان خلعه بواسطته وتابعه جماعة من اصحاب علي وشيعته ولم يخالفهم معاوية فما مضى مدة قليلة الا انتقم منهم زياد وكتب الى معاوية يحتقهم فامره ان يبعث بحجر بن عدى مع وائل بن حجر الحضرمي في اثني عشر رجلا من الصحابة كلهم في الحديد فلما وصلوا الى عدرا وهي قرية قريبة من الشام لاقتهم جماعة معاوية فقتلوا منهم سبعة وهم حجر بن عدى وشريك بن شداد الحضرمي وصيفى بن فيل الشيباني وقبيصة بن ضبيعة العبس ومحرز بن شهاب السعدي التميمي وكدام بن حيان الغزي وعبد الرحمن بن حسان الغزي واستحبوا البقية فبلغ ماصنع بهم زياد الى عائشة ام المؤمنين فبعثت الى معاوية عبد الرحمن بن الحارث بن هشام الله الله في حجر واصحابه فوجده عبد الرحمن قد قتل مع اصحابه فقال لمعاوية اين بعد عنك حلم ابي سفيان في حجر واصحابه الا حبستهم في السجون وعرضتهم للطاعون قال حين غاب عني مثلك من قومي قال عبد الرحمن والله لاتعدلك العرب حلماً بعد هذا ابداً ولا رأياً . قتلت قوماً بعث بهم اليك اسارى من المسلمين قال فما اصنع كتب الى فيهم زياد يشدد امرهم ويذكر انهم سيفتقون علي فتقاً لايرقع . ثم قدم معاوية المدينة فدخل على عائشة فكان اول مابدأ تبين قتل حجر في كلام طويل جرى بينهما لامحل لذكره هنا ثم قال فدعيني وحجرا حتى نلتقي عند ربنا ثم قال لها ماانا قتلتهم بل الشاهد قتلهم والموضع الذي قتل فيه حجر وجماعته يعرف بمرج عذرا قال بن عبدالرزاق ذكر القاضي محمود ماحاصله.

الصحابة الذين قتلوا في مرج عذرا في سنة احدى وخمسين مع حجر بن عدى قيل دفنوا بمسجد القصب وقيل بمسجد السبعة خارج باب توما ونسبة السبعة اليهم لانهم سبعة في شرقية وقيل هم في غربي مسجد القصب وقيل بعدرا في محل قتلهم من غوطة دمشق والذي ظهر بان جسدهم دفن بعذرا والرؤس مع

اقصاب ايديهم وارجلهم احضروا لمعاوية بالشام ودفنوا بمسجد الاقصاب المعروف اليوم خارج باب السلام احد ابواب دمشق وقصتهم مع معاوية طويلة مصرح بها في كتب التاريخ والذي ذكرناه ملخص ماذكروه فمن شاء الزيادة فليرجع اليها

ومنهم خزيمة بن فاتك الصحابي الجليل دفن في الشام ولم يعلم قبره ذكره صاحب روضة الانام

ومنهم خالد بن سعد اخو عمروا بن العاص قتل بدمشق رمى بسهم فمات منه ودفن ما بين باب شرقي وباب توما ذكره الواقدي في فتوح الشام

ومنهم خالد بن الوليد بن المغيرة القرشي المخزومي فاتح دمشق وسيف الله استعمله امير المؤمنين الخليفة الاول ابو بكر الصديق لقتال مسيلمة ومن ارتد من الاعراب بنجد ثم وجهه الى العراق ثم الى الشام وامره على امراء اقليم الشام وهو احد الامراء الذين ولوا فتح دمشق وقد استعمل في بعض المغازي وكان احد اشراف قريش في الجاهلية وكانت اليه اعنة الخيل ولما حضرته الوفاة قال لقد شهدت مائة زحف اوزهاؤها وما في جسدي موضع شبر الا وفيه ضربة او طعنة اورمية ثم هأنا ذا اموت على فراشي فلا نامت اعين الجبناء مات سنة احدى وعشرين ودفن بقرية على ميل من حمص من اعمال الشام في خلافة عمر بن الخطاب وتولى عمر وصيته وكان عمر يشبه خالد ونقل انه لما بلغ عمر ان نسوة من نساء بني المغيرة اجتمعن في دار يبكين على خالد فقال عمر وماعليهن ان يبكين اباسليمان قال ابوعبيدة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول خالد سيف من سيوف الله نعم فتى العشيرة ونقل انه لما فتح دمشق كان في قلنسوته شعر من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم يستنصر به وببركته فلا يزال منصوراً وقد اشتهر بالشجاعة والشرف والرئاسة

ومنهم دحية بن خليفة بن فضالة الكلبي الصحابي الجليل اول مشاهده الخندق وكان يضرب به المثل في حسن الصورة وبالجمال مشهور وكان جبريل عليه السلام كثيراً ماينزل على نبينا محمد عليه الصلاة والسلام على صورته ذكره

الحافظ بن ناصر الدين الحنبلي وانـه كان جميل الصورة وقد اشار الى ذلك العارف عمر الفارضي حيث قال

وها دحية وافى الامين نبينا بصورته في بدء وحي النبوة
اجبريل قل لي كان دحية اذ بدا لمهد الهدى في صورة البشرية

وقد شهد وقعة اليرموك ونزل دمشق وسكن في قرية يقـال لها المزة وعاش الى خلافة معاوية كذا في الاصابة وقبره غربي القرية مكشوف ليس عليه بناء تقصده الناس بالزيارة والدعاء عنده مستجاب وقيل انـه لايقبل بناء فوقه وروى العجلي في تاريخه عن عوانة بن الحكم قال اجمل الناس من كان جبريل ينزل على صورته قال بن قتيبة في غريب الحديث كان دحية اذاقدم المدينة لم تبق مخدرة الا خرجت تنظر اليه وهو الذي بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قيصر في الهدنة فآمن به قيصر وابت بطارقته ان تؤمن بدين الاسلام فاخبر بذلك دحية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقـال ثبت ملكه في حديث طويل وقد روى هو وابو الازهر الأنماري الصحابي الشامي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان اذا اخذ مضجعه قال بسم الله وضعت جنبي اللهم اغفرلي ذنبي واخسيء شيطاني وثقل ميزاني وفك رهاني وقد افرد في ترجمته رسالة مطولة العلامة حامد العمادي مفتي دمشق سماها جمال الصورة واللحية في ترجمة سيدي دحيه

ومنهم ذو مخمر الحبشي ابن اخي الملك النجاشي وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وخدمه قال في الاصابة نزل الشام والمشهور عند اهلها انه مات بها ودفن في حي القنوات في الحارة المشهورة باسمه الى اليوم

ومنهم ربيعة بن عمر الجرشي وهي قرية من اعمال حوران يعد في اهل الشام له احاديث مروية عنه كثيرة منها انه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول يكون في امتي خسف ومسخ وقذف قالوا بم يارسول الله قال باتخاذهم القينات وشربهم الخمور قيل انـه مات بالشام

ومنهم رضيـة الكلبي الصحابي الجليل قيل انه دفن في قرية المزه في غربي دمشق والله اعلم

ومنهم زيد بن ثابت كان يكتب الوحي وكانت ترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب بالسريانية وكان تعلم قراءتها وكتب بعده لابي بكر وعمر قال في الاصابة واستخلف الخليفة الثاني زيد بن ثابت على المدينة ثلاث مرات في حجتين وفي خروجه الى الشام وكان الخليفة الثالث يستخلفه ايضاً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم افرض امتي زيد بن ثابت وكان الخليفة الاول قد امره بجمع القرآن في الصحف فكتبه فيها وكان زيد على بيت المال في خلافة عثمان قيل انه مدفون في باب السريجه في جامع يقال له التابتية الى اليوم مشهور بهذا الاسم ذكره بعض مؤرخي دمشق منهم الفرضي الدمشقي في كتابه الاشارات

ومنهم زيد بن حارثة بن شرحيل ابن كعب بن عبد العزي بن امرىء القيسي مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت سعدى بنت ثعلبـة قد خرجت به معها لتزور اهلها فلقيه خيل بني العترة فاسروه وباعوه بسوق من اسواق العرب فاشتراه حكيم بن حزام من الشام وقدم بـه مكة ودفعـه الى خديجة وهي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستوهبه منها فوهبته له فاعتقه وكان ابوه قد حزن عليه حزناً شديداً ودار في البلاد يسأل الركبان وكل من توجه يسأله عن ولده ولم يزل على ذلك حتى وصل الخبر الى زيد وما حصل لابيه عليه من الوجد والحزن وبعث بابيات الى ابيه حارثة فلما بلغت اباه اقبل وعمه كعبا حتى قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم وذالك قبل الاسلام فوقف عليه وقال يا ابن عبد المطلب يا ابن سيد قومه انتم جيران الله تفكون العاني وتطعمون الجائع كرام من كرام وقد جئناك في ابننا هذا لتحسن الينا في فدائه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم او غير ذلك فقال وما هو قال ادعيه واخيره فان اختاركما فذاك وان اختارني فوالله ما انا بالذي اختار على من يختارني احداً فقال قد انصفت ودعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاء قال من هذا فقال ابي حارثة وهذا عمي كعب فقال النبي عليه

الصلاة والسلام انا من عرفت ورأيت صحبتي لك وقد خيرتك ان شئت ذهبت معهما وان شئت اقمت عندي فقال ما اريدهما وما انا بالذي اختار عليك أحد انت مني مكان الاب والعم بل اقيم معك فقال له ابوه يازيد اتختار العبودية على امك وابيك وبلدك وقومك فقال اني رأيت من هذا الرجل شيئاً وما انا بالذي افارقه ابداً فعند ذلك اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وقام به الى الملاء من قريش وهم جالسون في المسجد فقال اشهدوا على ان هذا الرجل ابني وارثاً وموروثاً فطابت نفس ابيه عند ذلك وكان يدعي زيد بن محمد فلما نزل قوله تعالى ادعوهم لآبائهم قال انا زيد بن حارثة وكان من عادتهم في الجاهلية ان الرجل يتبنى ولد غيره فينسب اليه فيتوارثان حتى جاء الاسلام فزوجه النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش فلما طلقها تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم فتكلم المنافقون وقالوا تزوج محمد زوجة ابنه وهو ينهى عن ذلك فأنزل الله تعالى وما جعل ادعياءكم ابناءكم اي حقيقة في الحكم والحرمة والنسب والادعياء جمع دعي وهو المدعى من دعي لغير ابيه وقال العلامة البصروي بعد قصة التزوج ان زيداً هو اول ذكر اسلم وبايع بعد ابي بكر الصديق وعلي ابن ابي طالب وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً واحداً والخندق وخيبر واستخلفه النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة حين خرج في وقعة بدر وخرج اميراً في سبع غزوات ولم يسم احد من الصحابة في القرآن باسم غيره واستشهد في وقعة موتة وهي قرية صغيرة في البلقاء من ارض الشام سنة ثمان من الهجرة واخبر النبي عليه الصلاة والسلام بموته يوم قتل

ومنهم سعد بن عبادة سيد الخزرج الانصاري كان يكتب بالعربية اكثر من الكوفية لأن اكثر الصحابة كانوا يالفون الكتابة بهما وبقيت الى زمن الحجاج بن يوسف الثقفي وكان سعد يحسن العوم في الماء والرمي فكان يقال له الكامل سيداً جواداً مشهوراً بالجود والكرم هو وابوه وجده وكان في الانصار مقدماً ووجيهاً ذا سياسة ورآسة يعترف قومه له بها شهد بيعة العقبة وكان احد

النقباء بها وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يزوره ويأكل طعامه ويدعوا له وقال فيه انه من بيت جود شهد بدرا والمشاهد كلها روى الدارقطني في كتاب الاسخياء قال كان منادي سعد ينادي على اجمة اي مكان مرتفع من كان يريد شحماً ولحماً فليأت سعد بن عبادة فكان سعد يقول اللهم هب لي مجداً لامجد الا بفعال ولا فعال الا بمال اللهم انه لايصلحني القليل ولا اصلح عليه وكان يعشي كل ليلة ثمانين من اهل الصفة واختلفوا في سبب وفاته قال بعضهم انه بال في جحر وهو الثقب في الارض فرمته الجن فقتلته وقت خروجه الى الشام حين تخلف عن بيعة ابي بكر الصديق بالخلافة وقصته مشهورة وكانت وفاته بحوران سنة ست عشرة واجمع اهل دمشق على انه نقل ودفن بغوطتها قرية يقال لها المنيحة وعلى قبره عمارة محكمة وقبة ووقف اهل الخير اوقافاً جزيلة على مقامه قال بن الحوراني كان سعد نقيب ابن ساعدة وصاحب راية الانصار في المشاهد كلها

ومنهم سهل بن الحنظلية او ابن الربيع الانصاري من بني الحارث من الأوس كان ممن بايع تحت الشجرة وكان فاضلا عالماً معتزلا عن الناس كثير الصلاة والذكر لايجالس احداً. سكن الشام ومات بدمشق في اول خلافة معاوية ولا عقب له قال سعيد بن عبد العزيز كان سهل لايولد له فكان يقول لي لان يكون لي سقط في الاسلام احب الى من ما طلعت عليه الشمس دفن بباب الصغير

ومنهم سهيل بن عمر بن عبد الشمس القرشي العامري يكنى ابا يزيد كان احد الاشراف من قريش وساداتهم في الجاهلية وكان خطيب قريش وقال الحسن وياله من رجل ماكان اعقله ثم نقل عنه انه قال ايها القوم ان هولاء القوم قد سبقوكم بما ترون ولا سبيل لكم والله الى ماسبقوكم اليه ، فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى الله ان يرزقكم شهادة، ثم نفض ثوبه وقام ولحق بالشام قال الحسن فصدق والله لايجعل الله عبداً له اسرع اليه كعبد بطأ عنه . فخرج

الى الشام ومات بها ذكره صاحب الاصابة وقال البصروي انه مات بالطاعون سنة ثمان عشرة وقيل قتل باليرموق من ارض الشام

ومنهم سبرة بن فاتك الصحابي الجليل قال الواقدي دفن بالشام وقت الفتح

ومنهم سعيد بن زيد القرشي احد العشرة المجاب الدعوة بعثه النبي صلى الله عليه وسلم هو وطلحة يتجسسان الاخبار في طريق الشام وضرب لهما النبي صلى الله عليه وسلم سهمًا من الغنيمة نقله ابن شقدة قال مات ودفن بدمشق

ومنهم سرحبيل بن حسناء الصحابي الجليل . قال بعضهم دفن في ظاهر دمشق خارج باب توما وقيل انه مات في ناحية الغور والله اعلم

ومنهم شرحبيل ابن عبد الله ابن حسنة وهي امه اشتهر بها وكان من مهاجري الحبشة ومن خيار قريش ثم رجع الى المدينة المنورة مع الصحابة الذين كانوا معه في الحبشة وسيره ابوبكر الصديق في فتوح الشام ثم لما فتحت الشام ولاه عمر بن الخطاب على ربع من ارباع الشام . يقال انه طعن هو وابو عبيدة بن الجراح في يوم واحد في طاعون عمواس وهو ابن سبع وستين سنة . قال البصري دفن في ظاهر دمشق خارج باب توما بالقرب من الشيخ رسلان وقال الآخر انه مدفون في الغور قبر عليه قبة معقودة اشتهرت به والله اعلم ايها اصح .

ومنهم شمعون بن يزيد بن خناقة وكنيته ابو ريحانه مشهور بها الازدي الانصاري كانت امه ريحانه سرية النبي صلى الله عليه وسلم . قال ابن السكن نزل الشام وقيل انه كان من الكتاب الفضلاء بدمشق وهو رجل من حضر موت سكن بيت المقدس وذكره ابن سميع من جملة الصحابة الذين نزلوا الشام . قال ابو ريحانة الاسدي هو ممن شهد فتوح الشام وقدم مصر ورابط بمياه فارقين من ارض الجزيرة ثم عاد الى الشام وكان من العباد ومن صالحي الصحابة قال البصروي لم اقف على تاريخ وفاته لكن بدمشق خارج باب الصغير بارض الشاغور ضريح مشهور يعرف بشمعون فيحتمل ان يكون هو ويحتمل ان يكون غيره والله اعلم .

ومنهم صهيب بن سنان بن مالك الرومي وكنيته ابو يحيى وامه من بني مالك وانما اشتهر بالرومي لان الروم سبوه صغيراً . وروى الطبراني من حديث ابن امامة عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه قال السباق اربعة انا سابق العرب وصهيب سابق الروم وبلال سابق الحبشة وسلمان سابق الفرس مات صهيب سنة ثمان وثلاثين وهو ابن سبعين . قال البصروي وقد اشتهر بدمشق انه مدفون في الضريح المدفون به في محله الميدان الحصى خارج دمشق .

ومنهم ضرار بن الخطاب بن مرداس القرشي الفهري . قال ابن حبان انه من الصحابة كان فارساً شاعراً ولم يكن في قريش اشعر منه وكان يقول لابي بكر الصديق نحن خير لقريش منكم ادخلناهم الجنة وادخلتموهم النار اسلم يوم فتح مكة قال الخطيب عاش الى ان حضر فتح المدائن ونزل الشام واستمر بها الى ان مات وقيل قتل باليمامة شهيداً والله اعلم .

ومنهم ضرار بن الازور بن الاسدي قال البخاري وغيره انه من الصحابة واختلف في وفاته قيل استشهد باليمامه وقيل شهد وقعة اليرموك وفتح دمشق ومات بها ويدل على ذلك مارواه يعقوب بن سفيان قال كان خالد بن الوليد قد بعث ضرار في سرية فاغاروا على فرقة من بني اسد فاخذوا إمرأةجيلة فسأل ضرار اصحابه ان يهبوها له ففعلوا فوطئها ثم ندم فذكر ذلك لخالد بن الوليد فقال حتى نكتب الى عمر فكتب عمر بن الخطاب الى خالد ارضخه بالحجارة فجاء الكتاب وقد مات ضرار فقال خالد ما كان الله ليجزي ضرار فهذا يدل على ان هذه الواقعة كانت في فتح دمشق وانه مات بها وله قبر معروف به الآن ظاهر دمشق خارج باب شرقي واخته خولة حضرت فتح دمشق ورمت توما بسهم ففقئت عينه وهي ايضاً دفنت خارج باب توما وقبرها مشهور .

ومنهم عبد الله بن حوالة الازدي نسبه الواقدي في بني عامر نزل الشام وروى عنه من اهلها ابو ادريس الخولاني وتوفي بالشام سنة ثمانين روي عنه انه قال تذاكرنا عند النبي صلى الله عليه وسلم عن الفقر والغنى وقلة الشيء

فقال انا لكثرة الشيء اخوف عليكم من قلته وروي عنه احاديث كثيرة منها قول النبي صلى الله عليه وسلم له يا ابن حوالة اذا رأيت الخلافة قد نزلت الى الارض المقدسة فقد دنت الزلازل والامور العظام ذكره الصفاني ٠

ومنهم عبد الله ابن السعدي القرشي العامري وانما قيل السعدي لانه كان استرضع في بني سعد قال البخاري وغيره انه من الصحابة وانه نزل بارض الاردن قال ابن حبان مات في خلافة عمر بن الخطاب سنة سبع وخمسين وذكر الصفاني انه توفي بالشام وذكر ابن البرقي في تاريخه انه شهد فتح مصر وولي عليها ٠

ومنهم عامر بن ابي عامر الاشعري ذكره ابن سعد في تسمية من نزل من الصحابة وقال ابن سميع كان على القضاة زمن عمر بن الخطاب وقال ابن حبان سكن الشام ومات فيها في خلافة عبد الملك وذكره ابو زرعة الدمشقي في الصحابة الذين نزلوا دمشق

ومنهم عبد الله الخولاني نسبة الى خولة قرية بالشام وهو والد ابي ادريس الخولاني شامي له صحبة وكان من فقهاء اهل الشام ومات بها في احد قراها ذكره في الاستيعاب وقال النجم الغزي في اشاراته ناقلا عن البصروي انه يقال قبر عبد الله بن مسعود شرقي دمشق وعلي بن عبد الله بن العباس دفن جانب بلال الحبشي والله اعلم ٠

ومنهم عبد الله الهاشمي ابن ربيعة وامه ام الحكم بنت الزبير بن عبد المطلب وكان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا وجيهاً ولم يزل مقيماً بالمدينة الى عهد عمر بن الخطاب ثم تحول الى دمشق فنزل بها الى ان مات وكان لولده محمد نور وشرف

ومنهم عبادة بن الصامت بن قيس وجهه عمر بن الخطاب الى الشام قاضياً ومعلماً فاقام بحمص ثم انتقل الى فلسطين ومات بها وقال بن سعد سمعت من يقول انه بقي حتى توفي في خلافة معاوية بالشام روى عنه وعن مالك بن يسار

عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: اذا سألتم الله فاسألوه ببطون اكفكم ولا تسألوه بظهورها .

ومنهم عبسة سكن حمص ومات بها قاله النووي . وبها عوف بن مالك الاشجعي نقله الهروي .

ومنهم عبدالله بن ابي مرداس بن وهب بن حذافة ذكره الزبير وقال مات بالشام في احدى قراها . وبها عبدالمطلب الهاشمي مات بدمشق ولم يعين قبره .

ومنهم عبدالله بن سلام الاسرائيلي حليف الانصار من سبط يوسف بن يعقوب عليهما السلام وقصة اسلامه مشهورة وهو المراد عند بعض المفسرين بقوله تعالى : ومن عنده علم الكتاب . وقوله تعالى : وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله . مات بدمشق ودفن بقرية سقبا من قرى الغوطة وهو مشهور بها ذكره ابن شقدة وشهد له بالجنة .

ومنهم عبدالله بن ابي وقاص وعمر بن عبد العزيز الفارسي الصحابيان قال الشهاب المنيني : انهما بسفح جبل قاسيون فوق المغارة الجوعية قبران مبنيان بالاحجار المنحوتة مكتوب على احدهما هذا قبر عبدالله بن ابي وقاص وهو اخو سعد بن ابي وقاص . وعلى الثاني هذا قبر عمر بن عبد العزيز الفارسي وذكر المنيني ايضاً : ان في طريق الصالحية قبور بعض من الصحابة الذين استشهدوا في فتح دمشق مكتوبة اسماؤهم على حجر . وهي مشهورة الآن بمحلة الشهداء وهم: حرملة بن وائل ومسعود بن جابر والثالث ساعد قال الحافظ بن طولون: سئلت عن قبور شهداء الصحابة في طريق الصالحية أهي عن يمينك وانت نازل منها . فقلت : لا اعلم خبرهم لكن المحدث جمال الدين عبد الهادي ذكر أنهم ثلاثة اخوة لأم هم من الصحابة قتلوا في فتح دمشق وانه عمر عندهم مسجد محمد بن قديدار من اصحاب ابي بكر الموصلي فاخذ عنه التصوف واشتهر بالصلاح . حتى ان تيمور لما اراد قدوم دمشق بعث من حماه وامنه ومن معه فلم يصبهم مكروه ووقف عليهم الارض التي هي شرقي قبورهم . وقد عبثت بها ايدي المتغلبين . وقد اعاد بناية المسجد ولده يوسف قديدار في سنة ٨٤١

وهو باق الى الآن . وبهذه المناسبة نقول ان ماشاع عن الصحابة الثلاثة وهم دثار ابن روق وخفاف بن ندبة وعباس بن مرداس من انه صار دفنهم في جامع السنجقدار وقت الفتح واشتهر ذلك على السن اهل دمشق لااصل له لأني تعقبت الأثر عنهم في الاصابة واسد الغابة والاستيعاب وغيرها من كتب تراجم رجال الصحابة فلم اعثر على أنهم دخلوا دمشق وقت الفتح ولا على قول احد من المؤرخين ذكرهم ، واما بقية الصحابة الذين دخلوا دمشق ثم خرجوا منها ولم يدفنوا بها فلم نذكر احداً منهم فمن اراد احصاءهم فليرجع الى ابن عساكر .

ومنهم عبدالله بن رواحة بن ثعلبة بن امريء القيس الانصاري الخزرجي الشاعر المشهور وهو من السابقين الاولين من الانصار وكان احد النقباء ليلة العقبة شهد بدرا وما بعدها من المشاهد وهو الذي جاء ببشارة وقعة بدر وكان من عادته في الغزوات ان يكون اول القوم اذا خرجوا واذا رجعوا يكون آخرهم ، ولما نزل قوله تعالى : والشعراء يتبعهم الغاوون الم تر انهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون مالا يفعلون . قال عبدالله بن رواحة : قد علم الله اني منهم فانزل الله تعالى : الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا الآية . وهو القائل في غزوة مؤته :

يانفس ان لم تقتلي تموتي   هذا حمام الموت قد صليت
وان تأخرت فقد شقيت   وان تقدمت فقد حظيت

وكان ابن رواحة عظيم القدر في الجاهلية والاسلام قتل في ارض البلقاء .

ومنهم كناز ابن الحصين بن يربوع حليف حمزة بن عبد المطلب شهد بدراً وقد آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه و بين عثمان بن الصامت . قال المنيني : ان المشهور بين الناس انه يوجد قبر شمالي قرية بيت رانس به الصحابي كناز اوكناس . ونقل الواقدي : انه مات سنة اثنتي عشرة من الهجرة وليس على قبره بناء . روى عنه وعن كعب بن عياض الاشعري حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : لكل امة فتنة وفتنة امتي المال ونقل عن الصفاني انه مات بالمدينة ، ونقل ابن عبد الرزاق انه مات في طريق قرية عقربا والله اعلم .

ومنهم فضالة بن عبيد الانصاري شهد المشاهد كلها ومنها بيعة الرضوان وشهد فتح مصر وسكن دمشق وولي قضاءها لمعاوية وأمره على غزوة الروم في البحر . مات بدمشق ودفن بباب الصغير بالقرب من قبر ابي الدرداء سنة ثلاث وخمسين . وحمل بجنازته معاوية وقال لابنه يزيد : أعن بحمل نعشه فانك لاتحمل بعده مثله . وكان لفضالة عقب بدمشق ذكره ابن شقده في تاريخه.

ومنهم مدرك بن زياد الفزاري قدم مع ابي عبيدة الجراح في فتوح الشام . ذكر ابن عساكر انه مات بدمشق ودفن في قرية الست . ويقال انه دفن بينها وبين قرية يقال لها حجيرة من غوطة دمشق وكان اول مسلم صحابي دفن بها . روى حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : سيكون عليكم أئمة او ملوك يملكون رقابكم يحدثونكم فيكذبون .

ومنهم محمد بن ابي حذيفة كنيته ابو القاسم ولد بارض الحبشة على عهد رسول الله صلى عليه وسلم وهو ابن خال معاوية بن ابي سفيان وكان تولى على مصر في زمن عثمان . فلما قتل عثمان ارسل علي بن ابي طالب على مصر قيس ابن سعد اميراً وعزل محمد بن ابي حذيفة . ولما استولى معاوية على مصر اخذ محمداً وحبسه فهرب من الحبس فظفر به مولى لمعاوية فقتله وذكر ابو الحسن الصفاني انه قتل بالشام .

ومنهم معاوية بن ابي سفيان القرشي الاموي كاتب الوحي . لما سير ابوبكر الصديق الجيوش الى الشام استخلف عليهم يزيد بن ابي سفيان وسار معه اخوه معاوية . فلما مات يزيد بلغ خبر موته عمر بن الخطاب فولاه في عمل اخيه . ولم يزل والياً الى ان قتل عثمان فانفرد بالشام ولم يبايع علياً بالخلافة واظهر الطلب بدم عثمان . فكانت وقعة صفين بينه وبين علي . وبقي اميراً عشرين سنة وخليفة مثلها . وتقدم معنا تفصيل ذلك في كتابنا هذا . ولما حضرته الوفاة اوصى ان يكفن في قميص كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كساه اياه . وكان عنده قلامة اظفاره . فاوصى ان تجعل في عينيه وفمه . وقال : افعلوا ذلك وخلوا بيني وبين ارحم الراحمين . وقد اتفق مؤرخوا دمشق على انه دفن بمقبرة باب

الصغير وقبره معروف عليه بناء مكتوب تاريخ وفاته على عامود جانب القبر سنة ستين .وجاء في مروج الذهب انه توفي بدمشق ودفن بمقبرتها. وقال الحنبلي في الأنس الجليل انه صلى عليه الضحاك .ونقل في كتاب الاشارات عن ابن طولون الدمشقي في كتابه بهجة الانام :ان في الحائط القبلي من جامع دمشق في قصر الامارة الخضراء قبر معاوية .وقيل انه دفن بحائط قبر هود وهود عليه السلام باتفاق العلماء لم يجيء الى دمشق بل دفن ببلاد اليمن حيث بعث ، وقيل بمكة حين هاجر ولم يقل احد بدمشق انتهى كلامه. واعتمد عليه ابن تيمية في كتابه منهاج السنة .قلت وماذكرناه واثبتناه في كتابنا هذا عن ذكر هود لاينافي هذا القول لانه من باب دفن الصالحين على الانبياء المكرمين، قال صاحب شذرات الذهب : وفي سنة ستين مات بدمشق معاوية بن ابي سفيان في رجب وله ثمان وسبعون سنة وولي الشام لعمر وعثمان عشرين سنة وتملكها بعد علي عشرين سنة وسار بالرعية سيرة جميلة وكان من دهاة العرب وحلماؤها يضرب به المثل وهو احد كتبة الوحي وهو الميزان في حب الصحابة ومفتاحهم ، سئل الامام احمد بن حنبل ايهما افضل معاوية ام عمر بن عبد العزيز فقال : لغبار لحق بانف جواد معاوية بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من عمر بن عبد العزيز .دفن بدار الامارة وهي الخضراء.وقيل انه دفن بباب الصغير .ولعله معاوية الصغير.وقيل انه دفن في حائط جامع دمشق خوفاً عليه من الخوارج كما نقله العدوي في تاريخه وابن كثير .ولعل قبر دار امارة الخضراء هو قبر معاوية الكبير والله اعلم. نقل بعضهم عن ابي هريرة انه قال يوماً لاصحابه : الصلاة خلف علي بن ابي طالب احكم . والطعام مع معاوية ادسم والقعود على هذه الرابية اسلم .

ومنهم المقداد بن معدي كرب الكندي احد رجال الوفد الذين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو معدود من الشام .روى ابن الاثير باسناده الى خالد بن معدان عن المقداد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال: للشهيد عند الله خصال يغفر له من اول دفعة من دمه ويرى مقعده من الجنة ويحلى

حلية الايمان . نقله البصروي الى آخر الحديث .مات بالشام ولم يعرف قبره عاش من العمر احدى وتسعين سنة .

ومنهم معاذ بن جبل الانصاري الخزرجي امام الفقهاء اعلم الامة بالحلال والحرام .وكان يتشبه بابراهيم الخليل عليه السلام .بعثه النبي صلى الله عليه وسلم الى اليمن قاضياً بعد غزوة تبوك وشيعه ماشياً عندخروجه وكان معاذ راكباً، وليعلم الناس القرآن وشرائع الاسلام ويقضي بينهم .وجعل اليه قبض الصدقات من العمال الذين باليمن .ثم اوصاه وعهداليه .ثم قال:«يامعاذ يسروا ولاتعسروا وبشروا ولا تنفروا وانك ستقدم على قوم من اهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنة فقل شهادة أن لا اله الا الله وحده لا شريك له . يامعاذ واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب . وقدم من اليمن في خلافة ابي بكر. جاء في الاصابة :وكانت وفاته بالطاعون في الشام سنة ثماني عشرة وهو ابن ثمان وثلاثين .قال البصروي :وهو الآن مدفون على الغور عند قرية يقال لها القصير وعلى قبره قبة معقودة.

ومنهم واثلة بن الاسقع كان خادماً للنبي صلى الله عليه وسلم قال ابو حاتم: شهد فتح دمشق ومصر وغيرها .قال ابن سعد :كان من اهل الصفة ثم نزل وسكن بالشام وكان منزله على ثلاث فراسخ من دمشق بقرية بالغوطة يقال لها البلاط وشهد المغازي بدمشق وحمص .وقال ابن سميع مات : في خلافة عبد الملك بن مروان وهو ابن مائة سنة في سنة ست وثمانين روى عنه الشاميون الحديث وانتفع منه الكثيرون من ائمة الحديث بدمشق .قال الواقدي : كنيته ابو قرصافة .وقال البصروي :هو آخر من مات من الصحابة بدمشق رضوان الله تعالى عليهم اجمعين .دفن بباب الصغير وقبره معروف يزار وقدذكره السيوطي ايضاً وروى الامام ابو حنيفة عنه حديثين احدهما: لاتظهر الشماتة لاخيك فيعافيه الله ويبتليك .والثاني :دع مايريبك الى مالايريبك .والاول رواه الترمذي من وجه آخر وحسنه والثاني جاء من رواية جمع من الصحابة وصححه ابن حجر.

الفصل الثالث

فيمن استوطنها ودفن بها من التابعين وتابعي التابعين

منهم اويس بن عامر بن مالك القرني قال الحافظ شهاب الدين ابو شامة الدمشقي في كتابه مختصر التاريخ: نقل انه كان اويس من تابعي اهل اليمن اسلم في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام لكن منعه من القدوم عليه اشتغاله ببر امه ، وقدم على عمر بن الخطاب ومات في زمن خلافته . ويقال ان ذلك كان بدمشق كان يتصدق بما في بيته من طعام وغيره . يقول: اللهم من بات جوعاناً فلا تؤاخذني به ومن بات عريانا فلا تؤاخذني به اللهم اني ابرأ اليك من كل ذي كبد جائع . وروي في بعض الاخبار ان رسول الله صلى الله وسلم قال : اويس خير التابعين ، دفن بباب الصغير وقبره معروف وعليه قبة يقصد للزيارة .

ومنهم الضحاك بن قيس بن خالد المعروف بالاحنف وهو الذي يضرب به المثل في الحلم وكان من اعاظم التابعين ، شهد مع علي بن ابي طالب وقعة صفين على معاوية . ولما استقرت الخلافة والسلطنة الى معاوية دخل عليه يوماً فقال له معاوية: ياأحنف ماأذكر يوم صفين الا كانت حرارة في قلبي الى يوم القيمة ، فقال له الاحنف : والله يامعاوية ان القلوب التي ابغضناك بها لفي صدورنا وان السيوف التي قاتلناك بها لفي اغمادها ، وكانت اخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه فقالت يا امير المؤمنين من هذا الذي يهدد ويتوعد ، فقال لها هذا الذي اذا غضب غضب لغضبه مائة الف من بني تميم لايدرون فيم غضب . روي ان معاوية لما نصب ولده يزيد لولاية العهد اقعده في قبة حمراء فجعل الناس يسلمون على معاوية . فقال له رجل ياامير المؤمنين لو لم تول يزيد امور المسلمين لاضعتها . وكان الاحنف بن قيس جالساً فقال له معاوية جزاك الله عن الطاعة خيراً وامر له بالوف . فلما خرج الاحنف لقيه ذلك الرجل في الباب فقال له ياابا عمرو اني لأعلم ان شر خلق الله تعالى هذا

وابنه ولكنهم قد استوثقوا من هذه الاموال بالابواب والاقفال فليس نطمع في استخراجها الا بما سمعت . فقال له الاحنف : امسك عليك فان ذا الوجهين لايكون عند الله وجيهاً ، ومن كلامه في الحكم : ماخان شريف ، ولا كذب عاقل ، ولا اغتاب مؤمن . وقال : ماادخرت الآباء للابناء ولا ابقت الموتى للاحياء افضل من اصطناع المعروف عند ذوي الاحساب والادب . وقال : كثرة الضحك تذهب الهيبة وكثرة المزاح تذهب المروءة ومن لزم شيئاً عرف به . وسمع الاحنف رجلا يقول ما ابالي مدحت ام ذممت . فقال له : قد استرحت من حيث تعب الكرام . ومن كلامه : جنبوا مجالسنا ذكر الطعام والشراب فاني ابغض الرجل ان يكون زحافاً وزحفه لبطنه وان من المروءة ان يترك الرجل الطعام وهو يشتهيه . وعين والياً على حمص من قبل عثمان بن عفان وهو اول وال بها وكان زياد بن ابيه في مدة ولايته العراق كثير الرعاية للاحنف ولما مات زياد تولى مكانه من قبل معاوية ولده عبيدالله . ثم جمع اعيان العراق وفيهم الاحنف وتوجه بهم الى الشام للسلام على معاوية . وبقي الاحنف مع معاوية بدمشق . ويقال انه ولاه الكوفة ثم عزله ثم ولاه دمشق . وحضر موت معاوية وصلى عليه : قتل الاحنف بمرج راهط من ارض الشام سنة اربع وستين ونقل بعضهم انه كتب الحسن بن علي عليه السلام اليه كتاباً يستنصره فاجاب الاحنف بالحال .

ومنهم ابو مسلم الخولاني اليمني من سادات التابعين وكبارهم وزهادهم وعبادهم وسيد العارفين رحل الى النبي صلى الله عليه وسلم من اليمن فتوفي صلى الله عليه وسلم وهو في الطريق فاتى ابا بكر وعمر وغيرهما من الصحابة ثم رحل الى الشام وسكن داريا الى ان مات بها في خلافة معاوية ودفن بقرية داريا الكبرى في سنة اثنتين وستين ونقل المقريزي وصاحب شذرات الذهب والبصروي وابن عبدالرزاق وغيرهم من مؤرخي دمشق له كرامات ومواعظ كثيرة : وقد افرد له العلامة عبد الرحمن افندي العمادي مفتي دمشق في تاريخه المسمى بالروضة الريا في ذكر من دفن بداريا ترجمة مطولة ومواعظ ومناقب

تبهر العقول يطول ذكرها هنا وكان على بعد القرية لايسبقه احد الى الجامع الاموي بدمشق لاسيا وقت الصبح ،وكان ملازماً للجهاد في كل سنة يغزو بلاد الروم مع اصحابه خاصة نقله ابن كثير وله احوال مشهورة حال حياته بقرية داريا وقبره الى اليوم يزار ويتبرك به واسمه عبدالله بن ثوب .

ومنهم ابو سليمان الداراني واسمه عبد الرحمن بن عطيه كان من اعظم السادات وارباب الجد والمجاهدات وهو من كبار اتباع التابعين نسبة لداريا قرية من قرى دمشق المشهورة مات بها ودفن قبلي القرية وعلى قبره قبة عظيمة ذكره الامام القشيري في الرسالة وابو نعيم في الحلية وابن الجوزي في صفوة الصفوة واثنوا عليه . وذكره النووي وصاحب مجمع الاحباب . جاء في بستان العارفين : ابو سليمان الداراني من اصحاب الاحوال الباهرة والحكم المتظاهرة وهو احد مفاخر بلادنا دمشق الشام وما حولها . قال ابن شقدة وفي سنة خمس ومائتين توفي الزاهد ابو سليمان الداراني العنسي احد الابدال والاقطاب كان عديم النظر وله كلام رفيع في التصوف والمواعظ ومن الطف مواعظه وكلامه . من احسن في نهاره كوفي في ليله وبالعكس، ومن هم في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه والله اكرم من ان يعذب قلباً ترك الشهوة له ، افضل الاعمال خلاف هوى النفس والعنسي نسبة الى عنس بن مالك رجل من مذحج ، ومن كلامه : كل ما شغلك عن الله تعالى من اهل ومال او ولد فهو مشؤم عليك .ومن كلامه الدنيا تطلب الهارب منها وتهرب من الطالب لها فان ادركت الهارب منها جرحته وان ادركها الطالب لها قتلته . ونقل البصروي عنه : قال لقمان لابنه يابني لاتدخل في الدنيا دخولاً يضرك في آخرتك ولا تتركها تركاً تصير به كلاً على الناس ، ومن كلامه: لاخير في قلب يتوقع قرع الباب ويتوقع عطية الناس ،نقل بعضهم انه رؤي بعد وفاته في المنام فقيل له مافعل الله بك فقال :اوقفني بين يديه سنة بسبب عود اخذته من حمل شيح خللت به سني لاادري القيته في الحمل او في الطريق نقله العدوي في ترجمته ،وقد رأيت جملة لطيفة منسوبة اليه احببت نقلها لانها لاتخلو من

فائدة، حكي ان ابا سليمان دخل دمشق فرأى شيخاً فانياً فقال له يا شيخ ايسرك ان تموت ؟ فقال لا والله . قال : ولم وقد بلغت من العمر ما ارى ؟ قال : ذهب الشباب وذهب شره وبقي الكبر وبقي خيره . فاذا قمت ذكرت الله واذا قعدت ذكرت الله تعالى واحب ان تدوم لي هاتان الخصلتان الحرص وطول الامل . وبهذه المناسبة قيل انه دخل رجل على احد خلفاء العباسيين وقال له هل اسمعتني باصاحبي حديثاً . فاجابه سمعت حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : اذا شاب ابن آدم شب معه خصلتان الحرص وطول الامل . فانسر من رؤيته واعطاه مبلغاً وافراً لانه معمر في السن وكان محبته راكباً على ظهر رجل وبعد ان خرج من مجلسه رجع وقال يا امير المؤمنين هذه عطية ام في كل سنة ؟ فقال له صدق معنى الحديث الذي رويته ! وبعد يومين توفي ذلك الرجل وفي رواية « حب المال وطول العمر » .

ومنهم كعب الاحبار بن ماتع العالم بالكتاب والآثار كان من اكابر التابعين وروي عن اكابر الصحابة اسلم في خلافة ابي بكر مات سنة خمس وثلاثين قال الهروي دفن بمقبرة باب الصغير بدمشق .

ومنهم مكحول بن ابي مسلم ابو عبدالله الهذلي التابعي فقيه اهل الشام وعالمهم سمع انس بن مالك وابا امامه وواثلة وكثيراً من الصحابة . قال ابو حاتم لا اعلم احداً افقه من مكحول ولم يكن في زمنه ابصر بالفتيا منه قال الزهري العلماء ثلاثة في ذلك العصر وعد منهم مكحولاً مات سنة مائة وثلاثة . قال المنيني : مات بالشام ولم اعلم محل قبره واني تعقبت اكثر المؤرخين فلم اجد احداً بين محل قبره . قال ابن شقده : مات فقيه الشام ابو عبدالله مكحول مولى بني هذيل ارسل عن طائفة من الصحابة . قال ابن اسحاق : سمعته يقول طفت الارض في طلب العلم . قال ابو حاتم : لايفتي حتى يقول لاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ويقول : هذا رأيي والرأي يخطئ ويصيب . قال سعيد بن عبد العزيز : اعطوا مكحولاً مرة عشرة آلاف دينار فكان

يعطي الرجل خمسين ديناراً . قال ابن ناصر الدين في شرح بديعة البيان هو ابن مسلم بن شاذل بن سعد بن شروان .

الكابلي الافغاني الهذلي مولاهم الدمشقي ابوعبدالله وقيل كنيته ابو ايوب كان فقيه اهل دمشق ومفتيها واحد اوعية العلم والآثار مات بدمشق ودفن بها وبمرور الزمان لم يوجد من المؤرخين احد يقف على محل قبره .

ومنهم عبدالله السلمي بن مالك الانصاري المدني التابعي مات بدمشق سنة سبع وتسعين وكان قائداً الابيه مقيماً بها وهو المدفون بمحلة مأذنة الشحم بدمشق ومكانه مشهور الى اليوم . نقله صاحب شذارات الذهب وابن عبدالرزاق .

ومنهم منصور بن عمار بن كثير السلمي الخراساني من اكابر التابعين كان رجلاً عالماً زاهداً واعظاً قد فتح الله تعالى عليه الحكمة وفصل الخطاب لايتلاعه ورقة بها اسمه الكريم تعظيما واحتراماً مات بدمشق ودفن بجبانة باب الصغير الى جانب الطريق وقبره معروف مشهور .

وقد نقل الهروي في كتابه الاشارات ،ان بعض التابعين دفنوا في السلمية من اعمال حماة الشام وبها قبورهم وهي قريبة من محل المؤتفكة ونقل ان اهل المؤتفكة لما نزل فيهم العذاب رحم الله منهم مائة نفس فنجاهم فعمروا هـذه المدينة فنسبت اليهم وسميت بهذا الاسم وبها المحاريب السبعة .

ثم قال وفي طريقها الى حمص قبر النعمان ابن بشير التابعي وبقربها الرستن وهي مدينة قديمة بها آثار تدل على عظمتها، قيل انه مدفون بها بعض التابعين ولم تعلم اسماؤهم . وبها كان اصحاب الرس وقد ذكرت هذه المدينة في الكتاب العزيز .

وقال ايضاً ان في مدينة حمص مشهد علي بن ابي طالب وبه عامود وموضع اصبعه فيه . وهناك مدفون احد التابعين وقبر سفينة مهران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبها قبور اولاد جعفر الطيار وبها قبر ثوبان والحرث بن عطيف الكندي وخالد الازرق الفاخري والحجاج بن عامر .

ومنهم ابو ادريس الخولاني اسمـه عائذ الله بن عبد الله فقيه اهل الشام

وقاضيهم وهو اول من تلقب بهذا اللقب في دمشق بعد الفتيا لاجتماع الكلمة عليه. سمع من ابي الدرداء وطبقته. مات سنة ثمانين بدمشق ودفن بها نقله العلامة الداودي في مجموعته. قال ابن عبد الرزاق: هو المدفون في داريا وهو ابن عم ابي مسلم الخراساني وخليفته على زوجته بعده. نقل السيوطي عنه مرسلاً قال: اذا وضع الطعام فليبدأ امير القوم او صاحب الطعام اوخير القوم (الحديث). قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: خولان قرية كانت بقرب دمشق وخربت بها قبر الخولاني وبها آثار باقية تدل على انها قديمة وبها دير قيس وهي من اقليم خولان ومحلها الآن بالقرب من قرية داريا.

ومنهم عبد الرحمن بن عمر الاوزاعي الدمشقي ذكره البصروي من التابعين المحدثين. كان في عصره امام اهل الشام وشيخ الاسلام واحد الائمة الاعلام، وعالم الامة منفرداً بالسيادة مع الاجتهاد. كان يسكن دمشق خارج باب الفراديس ثم تحول الى ثغر بيروت فسكن بها وهو من تابع التابعين ولد سنة ثمان وثمانين ببعلبك وقد اجتمعت الكلمة على امامته وكمال فضله واقوال السلف فيه كثيرة مشهورة مصرحة بورعه وكثرة أحاديثه وقيامه بالحق وشدة تمسكه بالسنة لا يسعنا ذكرها. مات سنة سبع وخمسين ومائة وقبره مشهور بساحل البحر في ثغر بيروت. وهو من قرية الاوزاعة خارج باب الفراديس التي هي حي العقيبة بدمشق. قيل انه أجاب في سبعين الف مسألة وصار يعمل بمذهبه في الشام نحو مائتي سنة وآخر من عمل بمذهبه احمد بن سليمان بن جندلم قاضي الشام وعمل اهل الاندلس بمذهبه اربعين سنة ثم تناقص بظهور مذهب الامام مالك. وكان الاوزاعي عظيم الشأن بالشام وامره فيهم اعز من امر السلطان. وكان مع علمه بارعاً في الكتابة والترسل.

ومنهم حزام بن حكيم الانصاري قال ابن عساكر انه من التابعين ونقل عن محمد بن بكار قوله: انه كان حزام بن حكيم الانصاري من اهل دمشق من بني حزام ودارهم شهيرة عند سوق القمح (يعني البزورية اليوم) وبابها

الباب العظيم الذي يفتح شرقاً، ولعلها دار اسعد باشا العظم قبل عمارته لها. قال الحافظ: ان ابن حكيم تابعي ثقة وهو دمشقي مات بدمشق.

ومنهم سيدي قسيم اختلفت اقوال المؤرخين بشأنه واعتمد الاكثر انه تابعي. دفن بقرية التل من اعمال دمشق خارج البلدة وعليه بناء قبة ولاهل تلك الناحية فيه اعتقاد عظيم. نقله العدوي وصاحب روضة الانام وغيرهما ولعله قثم بن العباس.

ومنهم بلال بن سعيد بن تميم الكوفي امام جامع دمشق له كلام في كتب المواعظ، حدث عن ابيه وابي الدرداء روى عنه الامام الاوزاعي وجماعة سواه وكان قارئ الشام جهير الصوت. قال ابو زرعه: كان واعظ دمشق وشيخ علمائها مات في دمشق في زمن خلافة هشام. وقال العجلي هو تابعي من الطبقة الرابعة من اهل الشام وهو ثقة وابوه من الصحابة. روى بأسناده الى ابي هريرة انه عليه السلام قال: الامام ضامن والمؤذن مؤتمن اللهم ارشد الائمة واغفر للمؤذنين قال ابن عساكر في ترجمته نقل عن الاصمعي انه كان يصلي الليل اجمع وكان اذا غلبه النوم في ليالي الشتاء يطرح نفسه بثيابه في ماء بركة كانت في داره حتى ينفر عنه النوم فعوتب في ذلك فقال ماء البركة في الدنيا خير من صديد جهنم وكان من دعائه « اللهم اني اعوذ بك من زيغ القلوب ومن تبعات الذنوب ومن مرديات الاعمال ومضلات الفتن» ومن كلامه: لاتكن ذا وجهين وذا لسانين فتكون عند الله وعند الناس وجيهاً. لم يعلم محل قبره.

ومنهم ابراهيم الناجي شيخ المحدثين كان اماماً ورعاً حافظاً للحديث واللغة والانساب عارفاً بالصحابة ورجال الحديث، سارت بذكره الركبان وشاع فضله في البلدان جاء في الاشارات: له كرامات ظاهرة ومصنفات فاخرة دفن بباب الصغير غربي قبر معاوية الصغير وقبره محجر على الطريق.

ومنهم علي بن مسافر من عمدة رواة الحديث ومن الائمة الاعلام مات بدمشق ودفن في قهوة الجنينة التي صارت اليوم طريقاً وفتحت منها الجادة جانب سوق علي باشا.

ومنهم ابو سلام الحبشي واسمه ممطور الباهلي الدمشقي قال صاحب مثير الغرام:

انه من التابعين الذين ماتوا في الشام. انتقل من حمص الى دمشق وقال: « البركة تضاعف في الشام ».

ومنهم خالد بن ثابت بن ظاعن بن العجلان قال ابن عساكر انه تابعي من اهل الشام وهو الذي وجهه عمر بن الخطاب من الجابية الى بيت المقدس لفتحها، وذكر انه ينتهي نسبه الى قيس بن عيلان الفهمي، ولي مصر سنة احدى وخمسين وقيل انه مات بدمشق.

ومنهم محمد بن عمر بن علي بن ابي طالب قال النجم الغزي انه دفن بمقبرة باب الصغير وعليه قبة ووقار. نقله العلامة ياسين الفرضي الدمشقي في تاريخه، وقد روى عن كنانة بن بنيه مولى صفية بنت حي قالت: اعتقني رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل عتقي صداقي وقالت سمعت النبي عليه الصلاة والسلام يقول: بئس العبد عبد تخيل واعتلى ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد نهى وسها ونسي المبدأ والمنتهى، بئس العبد عبد بغى وعتا ونسي المقابر والبلى، بئس العبد عبد تجمل الدنيا بالدين، بئس العبد عبد يذله الرعب ويزيله عن الحق، بئس العبد عبد طمع يقوده وهوى يضله (الحديث).

ومنهم علي الزرعي. قال ابن عبد الرزاق نقلاً عن القاضي محمود: انه من الاولياء العارفين مشهور عند الناس يتبرك بزيارته، دفن بقرية داريا. ونقل ايضاً الشيخ صلاح الدين الصفدي في كتابه الذي سماه اعوان النصر في تراجم اعيان العصر في ترجمة الصاحب تاج الدين محمد بن حنا قال: وهو الذي اشترى الآثار النبوية على ما قيل بمبلغ ستين الف درهم وجعلها في مكانها قال الصلاحي: وقد زرت هذه الآثار بمصر ورأيتها مرتين وهي قطعة من العنزة ومرود ومخصف وملقط وقطعة من القصعة.

وبهذه المناسبة نذكر الآثار النبوية النفيسة والامانات المقدسة التي نقلت من عاصمة الامويين والعباسيين والحجاز ومصر لما دخلت هذه البلاد تحت اسرة آل عثمان وتوليتهم امر الخلافة الاسلامية والمحفوظة اليوم في سراي طوب قبو في الاستانة (اي استانبول) والتي تزار من سلاطين آل عثمان في

منتصف كل شهر من اشهر رمضان المبارك في كل سنة وهي: البردة الشريفة التي اهداها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى كعب بن زهير ومعها رباعية ونعلان وسجادة وحجر عليه أثر قدمه الشريف واللواء المنيف وقبضة سيفه الشريف وقوس من اقواسه الشريفة وعصوان احداهما للنبي والاخرى لشعيب عليهما الصلاة والسلام وحلة لنوح عليه السلام وحلة كبيرة لابراهيم عليه السلام وقميص ليوسف عليه السلام وسيف لداود عليه السلام وسجادة لابي بكر الصديق وقميص لسيد الشهداء وقميص فخر النساء واعلام الخلفاء الراشدين وعمائمهم وتسابيحهم وسيوفهم وسيوف العشرة المبشرين بالجنة وسيف جعفر الطيار وسيف خالد بن زيد وسيف معاذ بن جبل وسيف شرحبيل وسيف ابي طلحة وعلمان للحسن والحسين وعمامة ويس القرني ومفتاح الكعبة وميزاب من الذهب ومصراع باب التوبة وغطاء مقام ابراهيم من الفضة ومصحف بخط عثمان وآخر بخط الامام علي وآخر بخط زين العابدين وماء اغتسل به النبي عليه الصلاة والسلام .



الفصل الرابع

في بيان من دفن واشتهر قبره في دمشق من نساء آل البيت الطاهرات عليهم وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام

يحيثون لدمشق كان من نتائج المصائب الفادحة والبلايا المؤلمة التي اصابت آل البيت الكرام وعلى رأسهم رئيس البيت العلوي المطهر سيد الشهداء وجماعة من ذوي رحمه في وقعة كربلا وقد نوهنا عن هذه النازلة الشنعاء التي زعزعت اركان العالم الاسلامي في ابان ظهوره فكانت المصيبة الاولى في بابها ثم اعقبها وقعة الحرة في المدينة المنورة ونتج بسببهما من النتائج المشهورة المشؤومة التي نقلها المؤرخون من تشتيت البضعة الطاهرة من آل البيت اطفالاً ونساء في

البلاد الى ان امر يزيد بنقلهم الى دمشق ثم ذكر بعضهم ايضاً انه كان ركبهم على ظهور الابل من غير اقتاب ويقدمهم زين العابدين المقيد بالحديد من رجليه والجامعة في عنقه ومن بعده ركائب النساء والاطفال . ان قلب كل مسلم يقطر دماً ويذوب حسرة وكمداً كلما طالع تاريخ تلك الحوادث الفظيعة وما وقع من يزيد بحقهم فنترك الحكم بالامر الى احكم الحاكمين ولعنة الله على الظالمين . نذكر ما قاله حملة الاخبار عنهم :

ذكر ابن عساكر الوقعة الشهيرة في كربلا وتفصيل قتل الحسين ان سبعة عشر شاباً من اصحاب الحسين ارسلهم ابن زياد مع رأسه الشريف ومن بقي سالماً من اهل بيته الى يزيد بدمشق ومنهم علي بن الحسين وكان مريضاً ومنهم عمته زينب وقال ابن حجر الهيتمي ولما ارسل ابن زياد رأس الحسين واصحابه جهزها مع سبايا آل البيت الى يزيد بدمشق فلما وصلت اليه قيل انه ترحم عليه وتنكر لابن زياد وارسل برأسه الشريف وبقية بنيه الى المدينة وقيل بل كان الرأس في خزانة بدمشق كما تقدم تفصيله في ترجمته عند ذكر الصحابة رضوان الله عليهم . ونقل ابن قتيبه في الامامة والسياسة قال ذكروا ان ابا معشر قال حدثني محمد بن الحسين بن علي قال دخلنا على يزيد ونحن اثنا عشر غلاماً مغللين في الحديد وعلينا قميص الى آخر ماقله مما وقع من الحديث وما فعله يزيد بهم مما هو مشهور فلا حاجة لاعادة ذكره .

ونقل يحيى بن الحسن بن جعفر العبيدي النسابة صاحب تاريخ اخبار المدينة عند ذكر الزينبيين .

قال السيدة زينب الكبرى بنت علي بن ابي طالب رضي الله عنه الملقبة بام كلثوم خطبها عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وانها ولدت قبل وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ولذلك عدها ابن عبد البر النسابة في كتاب الصحابة ممن ولد في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولما خطبها عمر من علي رضي الله عنهما قال له انها صغيرة فقال عمر زوجها لي يا ابا الحسن فاني ارصد من كرمها مالا يرصده احد . فقال علي عليه السلام

انا ابعثها اليك فان رضيتها فقد زوجتكها ، فبعثها اليه ببرد فقال لها قولي هذا البرد الذي قلت لك عنه . فقالت لعمر رضي الله عنه ذلك فقال لها قولي له قد رضيت رضي الله عنك . ووضع يده على ساقها فكشفه فقالت : (مه) اتفعل هذا ؟ لولا انك امير المؤمنين لكسّرت انفك !. ثم خرجت حتى جاءت اباها فاخبرته الخبر وقالت بعثتني الى شيخ سوء ، فقال يابنيتي انه زوجك . فجاء امير المؤمنين عمر رضي الله عنه الى مجلس المهاجرين في الروضة وكان يجلس فيها المهاجرون الاولون فقال لهم رفئوني ، فقالوا بماذا يا أمير المؤمنين ، فقال تزوجت ام كلثوم بنت علي ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كل نسب وسبب وصهر ينقطع يوم القيمة الا نسبي وسببي وصهري فكان لي به السبب والنسب واردت ان اجمع اليه الصهر ، فرفأوه واصدقها اربعين الف درهم فولدت له زيداً ورقية . وذهب بعضهم انها ماتت بدمشق ودفنت في باب الصغير قرب بلال ، يثبت ذلك وجود الحجر القديم المحفور والمنقوش عليه اسمها. ونقل الفرضي المؤرخ الدمشقي في كتابه الاشارات : ان زينب الصغرى هي المدفونة في الحوطة قرب بلال ، والاول هو الأولى . وقال ابن طولون في مصنف له فيها ، وذكر لها مناقب كثيرة ومشهدها المشهور الحاوي على الجلالة والعفاف والنور ، ما هو لائق بمقام بنت الكرام . وقال العدوي : انها هي المدفونة بقرية راوية قرب حجيرة من غوطة دمشق ، المعروفة بقبر الست . وذكرها المؤرخ الناجي وغيره . ونقل بعضهم ان التي دفنت هناك هي اختها السيدة زينب الصغرى ، والله اعلم .

ومنهن السيدة سكينة بنت سيد الشهداء الامام الحسين عليه السلام الذي قال في حقها ابوها ابياتاً نقلها كثير من المؤرخين :

لعمرك انني لأحب داراً تحل بها سكينة والرباب

وذكر المؤرخون انها سيدة الشعراء ، وانها ماتت بدمشق ودفنت في تربة القلندرية داخل القبة ، ووجد عليها تابوت قديم من الخشب ، منقوش ومحفور عليه في الخط الكوفي يشير باسمها ، طوله ثلاثة امتار وعرضه متر

واضف . وارتفاعه بتر صنع في زمن العباسيين حين توليهم الحكم ونبشهم لقبور الامويين .

ومنهن السيدة فاطمة بنت علي رضي الله عنه . نقل النجم الغزي . في كتابه الاشارات . انها دفنت بمقبرة باب الصغير وعلى قبرها تابوت حجر كبير منقوش عليه اسمها . في الخط الكوفي سنة ٤٣٧ هـ .

ومنهن السيده خديجة . بنت زين العابدين . قيل انها ات من المدينة في وقعة الحرة مع بعض من الزوجات الطاهرات . والله اعلم بالحقيقة .

ونقل الهروي والحوراني وغيرهما من المؤرخين ان ثلاثة من ازواج النبي صلى الله عليه وسلم اتين الشام بعد وقعة الحرة في المدينة وانهن متن بها ودفن في باب الصغير وهن ام حبيبة واسمها رملة بنت ابي سفيان وهي اخت معاوية كانت عند النجاشي بالحبشة مع زوجها عبد الله بن جحش الاسدي حليف بني امية فولدت له حبيبة بارض الحبشة وكان عبد الله بن جحش هاجر مسلماً ثم تنصر هنالك وهلك و بقيت ام حبيبة مسلمة بارض الحبشة فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى النجاشي فاصدقها النجاشي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اربعمائة دينار وولي تزويجها عثمان بن عفان بن ابي العاص وهي بنت عمته واولم عليها عثمان رضي الله عنه لحماً ثريداً وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم شرحبيل بن حسنة فجاءه بها وقال ابو عبيدة كان تزوجها في سنة ست من التاريخ وانها ماتت سنة اربعين وقيل انها ماتت في المدينة .

ام سلمة بنت ابي امية زاد الركب حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لوي بن غالب القرشي كانت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ابي سلمة بن عبد الاسد المخزومي ابن عمها كان من كبار الصحابة فرزقت منه عمر ودرة وسلمة وزينب ربايب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت هي وزوجها اول من هاجر الى المدينة من الظعائن فتزوجها النبي عليه الصلاة والسلام سنة اثنتين بعد وقعة بدر عقد عليها في شوال وابتنى بها فيه وتوفيت في امارة يزيد بن معاوية .

وحفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما كانت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند خنيس بن حذافة السهمي القرشي تزوجها النبي في سنة ثلاث من الهجرة وماتت سنة خمس وار بعين وفي ذلك خلاف. وطلقها عليه الصلاة والسلام فبلغ عمر ذلك فحثا على رأسه التراب وقال ما يعبأ الله بعمر ولا ابنته. فنزل جبريل عليه السلام من الغد فقال لرسول الله: ان الله يأمرك ان تراجع حفصة رحمة لعمر. وأوصى اليها امير المؤمنين عمر بعد موته وأوصت هي الى اخيها عبد الله بما اوصى به عمر وبصدقة تصدقت بها وقبض عنها النبي عليه الصلاة والسلام وامها زينب بنت مظعون الجمحي القرشي وقيل انها دفنت بالمدينة. قال الهروي وفي بعلبك قبر ام حفصة اخت معاذ ابن جبل

وقيل انه مات بدمشق ام الحسن بنت جعفر الصادق بن الحسين ولم يعلم قبرها. وذكر بعضهم قبر فضة جارية السيدة فاطمة بنت النبي عليه الصلاة والسلام. وماتت بدمشق اسماء بنت سيدنا ابي بكر الصديق وقبرها يزار وهي ذات النطاقين وخديجة بنت زين العابدين وام الدرداء وخولة بنت الازور اخت ضرار ذكرهن الشيخ ياسين الفرضي في الزيارات وذكر ايضاً رقية بنت علي رضي الله عنه دفنت في مسجد الرأس عند بلاط معاوية في القباقبية داخل باب الفراديس.

قيل انها اخت زينب الكبرى لابيها وقبرها في شمالي المسجد داخل الستر المحيط به وكان عليه قبة والآن صار بيتاً وفي اصل جدار المحراب لهذا المسجد رأس الشهيد الملك الكامل وغربي المحراب المذكور في الجدار طاقة على الطريق يقال ان رأس الحسين عليه السلام دفن بها. ثم قال الفرضي: قال شيخنا النجم الغزي في اشاراته ولذا يقال له مشهد الحسين وفي بعض المآرب في فضل علي بن ابي طالب لابن المبرد عن ابن ابي الدنيا عن الزبير بن ابي بكر انه ولد لعلي ايضاً ولدان عمر ورقية الصغرى توأمان وأمها الصهباء ويقال اسمها ام حبيب بنت ربيعة من بني ثعلبة من سبي خالد بن الوليد. وقال ابن المبرد ذكر ذلك الذهبي وهذا هو المعمول به ولا يلتفت الى غيره فانه هذيان.

وذكر بعض المؤرخين اسماء شهداء كربلا الذين اتي بهم يزيد الى دمشق ووضعهم مقدار ثلاث ساعات عند باب الفراديس ثم امر بدفنهم وهم عبد الله بن الحسين، ابو بكر بن علي . مسلم بن محمد . عبد الله بن عون . جعفل بن عقيل . حبيب بن مظاهر . علي بن الحسين الاكبر . عمر بن علي . جعفر بن علي . عثمان بن علي . عبد الله بن عقيل . الحر الرياحي . العباس بن علي . عبد ابن علي . محمد بن علي قاسم بن الحسين . وقد قال في حقهم عارف بك المارديني والي دمشق لما تم ترميم وتجديد قبور آل البيت بمساعي السيد سليم مرتضى قوله :

قف بالمقام تأدباً وارفع اكفك بالدعا
هـذا ضريح السادة الشـ ـهداء من آل العبا
فرؤس ستة عشرة منهم دفين بذ الخبا
حملت الى الفيحاء من ارض الوقيعة كربلا
مع رأس سيدنا الحسيـ ـن بن النبي المجتبى
واتت دمشقاً من نجيـ ـن بوقعة الحرا فلا
فأقمن فيها مدة حتى انتقلنا الى البقا
كانت قبورهم توت جهلا بهم تحت الثرا
حتى اتاح الله لا فيحاء وال ذي ولا
فاهتم في انشاءها شكري وناظم ابتدا
بدلالة الغر الكرا م سيود آل المرتضى
شكر الاله صنيعهم واثابهم خـير الجزا
ولقد اتيت مكملا للسعي حقاً والبنـا
تمت بحمـد الله ها تيك القباب كما ترى
يازائراً آل النبي ابشر فقد نلت المنـا
ارخ بحسن الفوز في اعلا الجنانـ لك ارتقا

وقد نقل بعضهم ان قبر عاتكة عمة النبي صلى الله عليه وسلم في دمشق وقال

الناجي المؤرخ في مولده المسمى بكنز العفاة انها في المدينة وانما المدفونة بدمشق هي عاتكة بنت يزيد بن معاوية المنسوبة اليها هذه المحلة المعروفة باسمها و بقي ذلك الى اليوم وبها قصرها وحمامها واسمه حمام الذهب وسيأتي ذكرها . ونقل ايضاً ان السيدة رقية بنت الامام الحسين الصغيرة دفنت عند باب الفراديس . ونقل الهروي ان في ميدان الحصى قبلي دمشق قبر ام عاتكة اخت عمر بن الخطاب الخليفة الثاني وهو مشهور يزار .

وكان بودنا ان نذكر اسماء الصحابة اللواتي اتين دمشق ودفن بها وقد ذكرهن احد معاصرينا الافاضل في تاريخه فاكتفينا بذلك حباً بالاختصار وعدم التكرار .

جاء في مثير الغرام ماتت بدمشق جهيمة ام الدرداء خطبها معاوية بن ابي سفيان فأبت وقالت سمعت ابا الدرداء يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « المرأة لآخر ازواجها » فان اردت ان تكوني زوجتي في الجنة فلا تحدثي بعدي زوجاً وتقدم معنا انها دفنت مع زوجها .



الباب السادس

فيمن نشأ من اهلها بها من الحفاظ والمحدثين والقراء والفقهاء والمتكلمين والصناع والادباء والحكماء والاطباء وارباب الفنون من العصر الاول الى عصرنا هذا

الغرض المقصود من تراجم رجال العصور في هذا الباب ايقاف القارىء على كل شخص عثرت عليه له المكانة الممتازة في اي مسلك من مسالك الحياة العالية واية خصلة من خصال المدنية الاسلامية التي ملأت الخافقين واي فن من الفنون التي نشرت في تلك العصور . ومع ذلك فربما تجد كتاباً ضخماً يقصد به المؤرخ الاحاطة باسماء رجال كل عصرانهم من طبقة العلماء والادباء بدون ان يذكر مزايا كل واحد بمفرده وبيان مؤلفاته لتحصل بذلك الفائدة المطلوبة او يذكر رجال عصر واحد فقط او بنوع خاص منهم كما انك تجد قد توفرت كتب للمؤرخين في تدوين تراجم العصر والعصرين فاكثر وانما قصدت في هذا المختصر الالماع الى ذكر اولئك الرجال ذوي تلك الآثار مع الاختصار من اوثق مصادر التاريخ واهمها حرصا على الوقت مع عدم اضاعة الفائدة المقصودة وليس من غرضي الاحاطة بجميع رجال العصور المذكورة الناشئين بدمشق مهما وصل الواحد منهم في دنياه الى المكانة العليا. بدون ان يكون له أثر خالد او قول مفيد يذكر بعده . فأني انما اردت ان يعلم المطالع نخبة رجال كل عصر حسبما وقفت عليه ليسهل وقوفه على نموذج الحالة الاجتماعية والعلمية والاخلاقية في دمشق في كل تلك العصور السالفة لاعطي بذلك درساً عملياً عما يجب الاخذ به للخلف من مسالك السلف في نماذج الحياة الاخلاقية والاجتماعية وليتضح لرجال اليوم مقدار ما بيننا وبين اولئك الاسلاف الصالحين من التفاوت . ودرجة ما نزلنا به عنهم

من الانحطاط بسبب ما تركناه على مر الايام من السير على خططهم المثلى ولو كان ذلك يخالف ذوق بعض شبان هذا العصر كما اني قصدت بذلك ايضاً تقوية العزائم وتحريك النفوس على الرجوع لما كان عليه اولئك الاسلاف الصالحون من معالي الاخلاق وكريم الخصال والتعلق بالكمال الروحي اقتداء باسلافهم الكرام فعسى ان يجد المطالع من هذا المختصر موعظة حسنة ونصيحة نافعة وارشاداً واضحاً .

اما من اراد الاحاطة بجميع الناشئين بدمشق من الائمة الاعلام في اي فضيلة من الفضائل واي فن من الفنون او في اي عصر فعليه ان يراجع كتب الطبقات المطولة الموضوعة لذلك .

وقد رأينا من المناسب ان ننقل ما ذكره المؤرخ الكاتب الشهير محمد افندي كرد علي صاحب الخطط تحت عنوان التاريخ المدني ودرجة العلم في صدر الاسلام قبل ان نشرع في تراجم رجال العلم في الاعصر السالفة قال :

كان الاقتصار على العلم الديني في الصدر الاول للاسلام ثم تسربت العلوم الدنيوية بسرعة ورأى علماء الامة انها نافعة لقوام الدين والدنيا . وبذلك اقنعوا العامة ومن فوق درجتهم فاقبل الناس عليها وكانت العناية اولاً بعلوم القرآن والسنة . ثم اقبل الناس على الفقه « توصلاً الى نيل العز ودرك الجاه » ذلك لان حالة الزمن اقتضت الاقبال عليه لتعدد الخصومات بين الناس واتساع المملكة الاسلامية ثم اقبلوا على علم الكلام . لما رأوا له رواجاً بين السلاطين وللحاجة الماسة اليه خصوصاً وقد دخلت فلسفة القدماء وصادفت لها انصارا وعشاقاً . وتولدت من فتح باب المناظرة في الكلام تعصبات فاحشة وخصومات افضت الى اهراق الدماء وتخريب البلاد . ثم مالوا الى المناظرة في الفقه وبيان الاولى من مذاهب الشافعي وابي حنيفة . ونشأت فتن من تخاصم الحنابلة مع الشوافع والسنة مع الشيعة والمعتزلة مع الحشوية حتى اضطر السلطان سنة ٢٧٩ ان يحلف الوراقين ببغداد ان لا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة . كأنها بعض المخدرات التي تضر بالعقل

ثم كثرت العلوم بين العرب في المدن على توالي الايام ، وضعفت وضعف سندها في القرن العاشر للهجرة . الى ان اخذت بالتطور طوراً جديداً في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل هذا القرن .

واهم العوامل في ضمحلال العلم في كثير من بلاد الاسلام زهد الملوك والامراء فيها واشتغال الناس بالفتن والغوائل ، ومذ اخذ العلماء يتطلبون علوم الدين للجاه والمال ضعفت علوم الدين والدنيا معاً واصبح السلطان للمخرقين والمعطلين والمتهوسين بمسائل الكشف والولاية من علماء الرسم ، وليس الغرض من العلوم كما قال ابن ساعد : الاكتساب، بل الاطلاع على الحقائق وتهذيب الاخلاق . على ان من تعلم علماً للاحتراف لم يأت عالماً وانما يجيء شبيهاً بالعلماء .

واقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الامر . ونطقوا به لما بلغهم بناء المدارس ببغداد فأقاموا للعلم مأتماً وقالوا كان يشتغل به ارباب الهمم العلية والانفس الذكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم . واذا صار عليه اجرة تدانى اليه الاخساء وارباب الكسل . فيكون ذلك سبباً لارتفاعه . ومن هنا هجرت علوم الحكمة وان كانت شريفة لذاتها اهـ .

ان الذين يولعون بالعلم للعلم في هذا العالم قلائل جداً ، ولكنهم يكونون على الاكثر ممن نسميهم باهل النبوغ والعبقرية ، لانهم يتفانون في مقصدهم ويأتون بالجديد والابداع فيبرزون على من اتخذوا العلم آلة لفظاهر وعنواناً للتصدر . وهم هم الذين يذهبون بفضل الشهرة في الارض . وتبقى اعمالهم شاهدة لهم بعد موتهم احقاباً ودهوراً . ومن هذا الفريق انجبت الشام قديماً وحديثاً جماعة افتخرت بهم وعدوا باعمالهم بالقياس الى حال هذا القطر والى مجموع علماء الامة كتلة صالحة اثرت تأثيراً محموداً في العلم والمدنية . وقد عرفنا تراجم اكثر رجال العهد العربي لقربه منا ، ولاطراد التدوين عند العرب في اغلب العصور على طريقة حسنة في الجملة

فوقفنا بها بمعرفة منازعهم واعمالهم الا قليلا . وقد غابت عنا تراجم كثير من المهندسين والنقاشين والمصورين والموسيقيين لانه جاء زمن والقوم على مايظهر يحسبون هذا الصنف النافع من الناس من اهل الصناعات فقط لا من اهل العلم . كأن العلم كله على اختلاف ضروبه ليس صناعة من الصناعات .

وقد اصطلح المتأخرون على ان المراد بالعلم اذا اطلق يقصد منه العلم الديني، ومن الغريب ان بعض المتأخرين ممن دونوا تراجم اهل عصورهم حرصوا على تراجم المجاذيب والمنخرقين ولم يذكروا مثلاً تراجم اهل تلك الايام من المقدرين والبنائين وغيرهم ممن خلدوا بأعمالهم مدنية اعصارهم .

ثم قال : العلم عند العرب وما حملوا منه الى الشام وتاريخ العلم في العرب من اغرب ما سمع في تاريخ البشر . فبعد ان كانوا نصف متمدنين يكثر فيهم الاميون ويقل من يكتب فيهم حتى في اهل الطبقة الأولى . ويعد فيهم من الممتازين من يحسن الكتابة خرجوا فجأة من ظلمات الجهل الى أنوار العلم، ومن ضيق البداوة الى متسع المدنية . ولما جاء الاسلام لم يكونوا مولعين بغير الشعر والخطب . لا يعرفون غير الفصاحة والبلاغة ، وهما في مجتمعهم جماع كل العلوم ، وكانوا ينقلون أنسابهم واخبارهم في الصدور . وعلومهم في الطب والنجوم عبارة عن تجارب شخصية او تقليدية ، ولم يكن التدوين يعهد عندهم وكانت حدثت هذه الكتابة بالخط العربي قبل الاسلام بقليل ، نقلها الى الحجاز حرب بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الاموي ، وكان قدم الحيرة فعاد الى مكة بهذه الكتابة . وقيل لابي سفيان بن حرب ممن اخذت هذه الكتابة؟ فقال من واضعها مرامر بن مرة . واول من علم بمكة الكتابة عبدالله بن سعيد بن العاصي بن امية امره الرسول عليه الصلاة والسلام ان يعلم الكتابة بالمدينة . ثم كان ممن اسر ببدر ولا مال له فقبل منه ان يعلم عشرة من غلمان الانصار الكتابة ويخلى سبيله ، فيومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت . ولما فتحت الشام وكانت اشبه بنصف عربية بمن حكمها من الغسانيين في الجنوب والوسط والتنوخيين في الشمال من عمال الروم ومن كان نزلها من

القبائل والبطون العربية في ارجاء تدمر والفرات وغزة وسينا . كان الشعر مما يفاخرون به . واذا نشأ فيهم شاعر رفعوا من شأنه واعتمدوا على قريحته في الشدائد . وكان جبلة بن الايهم من ملوك الغسانيين شاعراً مجيداً يعجب بالشعر ويجيز عليه وهو ممدوح حسان بن ثابت ومن اهل بيته فصحاء لا يستهان بهم . ولطالما جاء الشام في الجاهلية كثير من شعراء جزيرة العرب فكأنهم كانوا ينزلون على اهل جيلهم وقبيلهم . ومنهم امرؤ القيس وقد ذكر في شعره بعض بلاد الشام . وكذلك حسان بن ثابت ذكر بلاد الغساسنة ومنازلهم . واقام المتلمس الشهير المتوفي سنة ٥٨٠ ميلادية في حوران عند الغساسنة الى وفاته .

قال الجاحظ : لم يكن العرب تجاراً ولا صناعاً ولا اطباء ولا حساباً ولا اصحاب فلاحة فيكونوا مهنة . ولا اصحاب زرع لخوفهم من صغار الجزية ولم يكونوا اصحاب جمع وكسب . ولا اصحاب احتكار لما في ايديهم وطلب ما عند غيرهم . ولا طلبوا المعاش من السنة الموازين ورؤوس المكاييل ولا عرفوا الدوانيق والقراريط . ولا يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة . ولم يستغنوا الغنى الذي يورث البلادة ، والثروة التي تحدث العزة ولم يحتملوا ذلاً قط فيميت قلوبهم او تصغر عندهم انفسهم . وكانوا سكان فياف وتربية عراء لا يعرفون الغمق ولا اللثق (اي الندى والغيم اي ان ارضهم جافة) ولا البخار ولا الغلظ ولا العفن ولا التخم : اذهان حداد ونفوس مفكرة فحين جلوا حدهم ووجهوا قواهم الى قول الشعر وبلاغة المنطق وتثقيف اللغة وتصاريف الكلام وقيافة البشر بعد قيافة الاثر وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم والاستدلال بالآثار وتعرّف الانواء والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس واحكام شأن المناقب والمثالب .

بلغوا في ذلك الغاية وحازوا كل امنية وببعض هذه العلل صارت نفوسهم اكبر وهممهم ارفع . وهم من جميع الامم افخر ولأيامهم اذكر اه .

ثم نبدأ بالذي وصل الينا من كتب التاريخ بحسب القرون التالية :

اسماء رجال العصر الاول من الهجرة

قال ابن كثير في تاريخه انه توفي في العصر الاول من الهجرة بدمشق معاوية ابن يزيد الصغير ودفن بمقبرة باب الصغير وحزن الناس عليه لعقله ودينه وزهده وقد ذهب اكثر المؤرخين الى ان القبر الذي في باب الصغير هو قبره .

وفي سنة خمس وستين توفي بدمشق في رمضان فقيه زمانه ونابغة أوانه الخليفة مروان وعهد بالامر الى ابنه عبد الملك وكان كاتب السر لابن عمه عثمان بن عفان عاش ثلاثاً وستين سنة .

وفي سنة خمس وثمانين مات بدمشق خالد بن يزيد بن معاوية الاموي كان اول من عني بعلوم الفلسفة وله معرفة بالكيمياء والطب وفنون كثيرة من العلم وله معرفة كبيرة في الصنائع والف رسائل حسنة بذلك وله كتاب الحرارات وكتاب الصحيفة الكبير والصغير واشتهرت وصيته الى ابنه في الصنعة وجمع مكتبة عظيمة في دمشق . اخذ الصنعة عن راهب رومي . وله كلام في الشعر ومن قوله في زوجته رملة بنت الزبير .

تجول خلاخيل النساء ولا ارى　　لرملة خلخالا يجول ولا قلبا
احب بني العوام من اجل حبها　　ومن اجلها احببت اخوالها كلبا

مات يوم الجمعة عاشر صفر وعمره خمس واربعون سنة وصلى عليه بالجامع الاموي عمر بن عبد العزيز ودفن خارج باب الصغير . نقله ابن شقده ونقل ابن عساكر عنه وذكر شعره في حق عالية اخت عمر بن عبد العزيز وكانت تحته وهي التي ينسب اليها سوق عالية المشهور في دمشق في ذاك الوقت ولم يعلم مكانه اليوم قال :

فاقسم ما زنيت كفي لريبة　　ولاحملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها　　ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي

واعلم اني لم اصبني مصيبة من الدهر الا قد اصابت فتى مثلي

ثم ننقل ماقاله صاحب الفهرست في حقه : قال محمد بن اسحق الذي عني باخراج كتب القدماء في الصنعة خالد بن يزيد كان خطيباً فصيحاً حازماً شاعراً ذا رأي وهو اول من ترجمت له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء وكان جواداً يقال انه قيل له : لقد جعلت اكثر شغلك في طلب الصنعة فقال خالد : ما اطلب بذلك الا ان اغني اصحابي واخواني اني طمعت في الخلافة فاختزلت دوني فلم اجد منها عوضاً الا ان ابلغ آخر هذه الصناعة . فلااحوج احداً عرفني يوماً او عرفته الى ان يقف بباب سلطان رغبة او رهبة

وفي سنة ست وثمانين مات في دمشق عبدالملك بن مروان وكان ابيض اللون طويلا كبير العينين مشرف الانف عده ابو زياد في الفقه في طبقة ابن المسيب وقال نافع لقد رأيت اهل المدينة وما بها شاب اشد تشمراً ولا افقه ولا انسك ولا اقرأ لكتاب الله تعالى من عبد الملك بن مروان . وولي بعده ابنه الوليد واختلف المؤرخون في مكان دفنه وذهب بعضهم انه مات في المدينة ورجح الكثير انه بدمشق عدفن عليه قبة في اول باب الصغير والله اعلم

وفي سنة ست وتسعين مات في دمشق ابو العباس الوليد بن عبد الملك فاتح الهند والترك والاندلس ومتمم بناء جامع دمشق ومزخرفه بالفسيفساء كان مع جوره كثيراً لتلاوة القرآن يختم في شهر رمضان سبع عشرة ختمة وطاب حاله في دنياه ورزق سعادة عظيمة مع جانب من الدين وعمره ست واربعون سنة وصلى عليه اخوه عبدالله بن عبد الملك . وذهب بعض المؤرخين انه دفن بدير مران من غوطة دمشق وهو قرب قبة السيار المطل على الربوة وقيل خارج باب الصغير . ونقل صاحب كتاب منتخب الزمان في تاريخ الخلفاء والاعيان قال رأيت قبراً بتربة باب الصغير خلف المصلى قريباً من قبر معاوية الصغير مكتوبا عليه هذا قبر أمير المؤمنين الوليد باني مسجد دمشق وكانت خلافته تسع سنين وثمانية اشهر . قال ابن شقده وكان كثير الاكل والجماع وكان جباراً ذا سطوة لايتوقف اذا غضب .

ذكر ابن عساكر في تاريخه ترجمة بلال بن عويمر ابي الدرداء نلخصها بما يأتي : انه كان اميراً ببعض جهات الشام وهو في عداد اهل دمشق وجعله ابو زرعة المترجم في الطبقة العليا وانه كان قاضياً على دمشق في زمن يزيد وبعده حتى عزله عبد الملك . وقال خالد بن يزيد رأيت بلالا على القضاء في زمن عبد الملك ورأيته لايضرب شاهد الزور بالسوط ولكن يوقفه بين عمد الدرج ويقول هذا شاهد زور فاعرفوه . قال الزيادي مات بدمشق سنة ثلاث وتسعين .

ونقل ايضاً في ترجمة رافع مولى هشام المخزومي : مات في ذاك العصر كان من حفاظ القرآن قدم دمشق مع مولاه هشام وبقي بها وكان اول من احدث دراسة القرآن بعد صلاة الصبح في مسجد دمشق في خلافة عبد الملك بن مروان وبقيت هذه الدراسة مع الذكر الى اليوم .

ونقل ايضاً في ترجمة خالد بن الحجاج بن علاط السلمي قال ذكر ابو الحسين الرازي انه كان اميراً على دمشق وان دار الخالديين بناحية سوق القلانسيين بدمشق تنسب الى ولده وانه مات في ذاك العصر .

ذكر القاضي محمود في تاريخه عن عبد الله المتكلاني انه دفن في محلة القيمرية وقبره مشهور داخل البوابة الى جهة باب توما . قال ابن عبد الرزاق يزار ويتبرك به لم يعلم تاريخ وفاته .

ونقل ايضاً عن علي المقعد الصمصاني دفن بالقرب من الشيخ نصر المقدسي في الصالحية وقبره منفرد عال جاء في كتاب الاشارات لما مات ودفن رؤي تلك الليلة النبي صلى الله عليه وسلم قائماً يصلي على قبره وعنده يستجاب الدعاء . ثم قال لم يعلم تاريخ وفاته .

ونقل ايضاً ان ابا يزيد البسطامي سلطان العارفين دفن في قرية البحدلية من اعمال دمشق في الغوطة وهو مكان شريف جليل كان مقره معبده جاء في كتاب الاشارات : لم يعلم تاريخ وفاته . نقل عنه حديث عن الرسول انه قال : « النوم سبعة نوم الغفلة وهو في مجلس الذكر ، نوم الشقاوة في

وقت الصلاة . نوم اللعنة في وقت الصبح . نوم العقوبة بعد الفجر . نوم الراحة قبل الظهر . نوم الزحمة بعد العصر . نوم الحسرة بعد العشاء في ليلة الجمعة » ونقل عنه من كلام الامام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه قال: « طالعت الكتب المنزلة والصحف المطهرة فاكتفيت منها باربع كلمات . قرأت في التوراة من صمت نجا وقرأت في الزبور من قنع شبع وقرأت في الانجيل من ترك الشهوات سلم من الآفات وقرأت في القرآن ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب »

ومن مشاهير المسيحيين في العصر الاول القديس يوحنا الدمشقي كان اعلم علماء اهل عصره الف كتباً كثيرة في اللاهوت . ومنهم قزما المنشى . ومنهم قزما البار . ومنهم ندراوس الاقريطشي . ومنهم البطريرك صفرونيوس وهذا هو الذي سلم القدس لسيدنا عمر بن الخطاب الخليفة الثاني .

وكان من الاطباء في العصر الاول ابو الحكم يستطبه معاوية ويعتمد عليه اعتماده على ابن أثال من الاطباء المتميزين بدمشق . ومنهم تياذوق كان في اول دولة الامويين مشهور عندهم بالطب .

ومنهم عبدالملك بن ابجر الكناني كان طبيباً عالماً ماهراً يقيم في اول امره في الاسكندرية ولما ملك المسلمون الاسكندرية اسلم ابن ابجر على يد عمر بن عبد العزيز فاستطبه واعتمد عليه في صناعة الطب .



اسماء رجال العصر الثاني من الهجرة

وفي سنة ثمان عشرة ومائة مات بدمشق في شهر محرم قاضي الشام ابو عمران عبدالله بن عامر القاريء اليحصبي الدمشقي توفي وله سبع وتسعون سنة . قرأ القرآن على المغيرة بن شهاب عن قراءته على عثمان نفسه نصف القرآن . وورد ايضاً انه قرأ على ابي الدرداء . وحدث عن فضالة بن عبيد والنعمان بن

بشر وولي قضاء دمشق ودفن بها جاء في كتاب فهرست ابن النديم : وقد ثبت سماعه من الصحابة منهم معاوية وغيره .

نقل حملة الاخبار انه امر عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه سنة ثلاثين بنسخ المصحف الذي كتب في زمن سلفه ابي بكر وتفريقه في الامصار . وكان بلغ عثمان ما وقع في امر القرآن من اهل العراق فانهم يقولون قرآننا اصح من قرآن اهل الشام لانا قرأنا على ابي موسى الاشعري ، واهل الشام يقولون قرآننا اصح لانا قرأنا على المقداد بن الاسود . وكذلك غيرهم من الامصار فأجمع رأيه ورأي الصحابة على ان يحمل الناس على المصحف الذي كتب في خلافة ابي بكر رضي الله عنه . وكان مودعاً عند حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وتحريق ماسواه من المصاحف التي بأيدي الناس . ففعل ذلك ونسخ من ذلك المصحف مصاحف وحمل كلاً منها الى مصر من الامصار . وكان الذي تولى نسخ المصاحف العثمانية بامر الخليفة عثمان زيد ابن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام المخزومي وقال عثمان : ان اختلفتم في كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلسانهم .

وقد قتل في جامع دمشق يونس بن ميسرة بن حلبس ثقة دمشق وعالمها حين دخل العباسيون في اول سلطان بني هاشم دمشق . دخلوا مسجدها فقتلوا من وجدوا فيه فقتل يومئذ .

وكان من اطباء العصر الثاني الحكم بن ابي الحكم المتقدم ذكره في العصر الاول وكان ابوه طبيباً في صدر الاسلام .

ومنهم عيسى بن حكم الدمشقي المشهور بمسيح صاحب الكناش الكبير .

ومن شعراء واخباريين ذلك العصر عبيد بن شرية الجرهمي وفد على معاوية بن ابي سفيان ودون اشياء في اخبار الملوك . اخذ عنه علاقة بن كريم الكلابي من بني عامر بن كلاب ايام يزيد بن معاوية وكان عارفاً بايام العرب

واحاديثها وهو احد من أخذت عنه الآثر وربما جاز ان يعد اول من دون التاريخ في دمشق

وفي سنة تسع عشرة ومائة توفي بدمشق سليمان بن ابي موسى الاشدق فقيه دمشق ومرجعها بالفتيا مولى بني امية. روى عن ابي امامة وسلمة وطائفة قال سعيد بن عبد العزيز كان اعلم اهل الشام بعد مكحول وقال بن لهيعة مارأيت مثله. وفي سنة ١١٢ مات مكحول مولى بن هذيل فقيه دمشق وأحد فطاحل العلم والحديث .

وفي سنة خمس وعشرين ومائة توفي بدمشق الخليفة ابو الوليد هشام بن عبد الملك الاموي وكانت خلافته عشرين سنة الا شهراً وكانت داره عند الخواصين بدمشق فعمل منها السلطان نور الدين الشهيد مدرسته الموجودة الى اليوم وكان ذا رأي وحزم وحلم وجمع المال . عاش اربعاً وخمسين سنة وصلي عليه في الجامع الاموي ودفن بمدفن مخصوص وانتهت بعده الخلافة الى الوليد بعد ثمانية ايام . وكان هشام فظاً غليظاً بخيلا يجمع الاموال ويدبر الامور بنفسه ويقف على القصاب بنفسه فيسأله عن اللحم وسعره ورأى رجلاً يشتري لحماً بدرهم فقال له احسنت اكثر من هذا سرف . ودخل بستاناً له فصار خواصه يأكلون من الثمر ويقولون بارك الله لامير المؤمنين فقال كيف يبارك فيه وانتم تأكلون هذا الاكل . ثم قال ادعوا لي قيمه فدعي به فقال له: اقلع شجره واغرسه زيتوناً حتى لا يأكل احد منه شيئاً . وقيل ما كان يدخل بيت المال درهماً حتى يشهد على العامل اربعين عدلاً ويستحلفه اربعين يميناً انه اخذ هذا المال من وجهه وصرفه الى مستحقه . وجرى بينه وبين اخيه مسلمة منافرة قبل ان يلي الخلافة فقال له مسلمة كيف تطمع في الخلافة وانت بخيل جبان فقال اني عفيف حليم ولم يبلغ من بني امية طول خلافته.

وفي سنة اربع وثلاثين ومائة توفي الفقيه يزيد بن يزيد بن جابر الازدي الدمشقي روى عن مكحول وطائفة قال ابو داود اجازه الوليد بن يزيد مرة بخمسين الف دينار . وذكر للقضاء فاذا هو اكبر من القضاء قاله في العبر.

وعن ابن عيينة قال لا اعلم مكحولا خلف بالشام مثل يزيد بن يزيد الامام ابن جابر دفن بدمشق وقبره مشهور عند العامة بقولهم ياسيدي جابر .

وفي سنة ١٤٨ مات بدمشق صعصعة بن سلام الدمشقي المحدث ، كان اول من ادخل علم الحديث الى الاندلس ، وصدقة بن عبدالله السمين من كبار محدثي دمشق وانتقلت ذريته الى طرابلس .

وفي سنة اثنتين وستين ومائة توفي بدمشق ودفن بها السيد الجليل ابو اسحاق ابراهيم بن أدهم البلخي سلطان العارفين الزاهد ، روى عن منصور ومالك بن دينار وطائفته . قال في العبر وثقه النسائي وغيره وكان احد السادات . قال ابن شقدة في كلام العبر ما يشعر بان هناك من لم يوثقه ، ولهذا تعجب اليافعي من نقل الذهبي لتوثيقه عن واحد وغيره مع ظهور فضله وكراماته واجتهاده عند الخاص والعام حتى يقال انه بلغ رتبة الاجتهاد فقيل له يوماً لم لم تتكلم في العلوم وتنفع الناس ؟ فقال كلما هممت بشيء من ذلك يمنعني امور منها اذا قال الله تعالى يوم القيمة «وامتازوا اليوم ايها المجرمون» عجباً مع من الكون ؟ في كلام طويل لامحل لذكره ، وكان اول انقطاعه الى الله تعالى بعد ان كان احد الملوك ، وروي عنه انه قعد تحت رمانة ومعه محمد بن المبارك الصوري فصليا تحتها فخاطبته الرمانة بان يأكل منها شيئاً . فأخذ رمانتين فأكل واحدة وناول صاحبه الاخرى وكانت قصيرة حامضة فعادت حلوة عالية تثمر في كل عام مرتين وسميت بذاك الزمن رمانة العابدين . وكراماته في حال حياته لاتحصى وقبره مشهور يزار ويتبرك به في مرج غوطة دمشق ، ومن شعره اللطيف قوله :

تركت الخلق طراً في رضاك ... وأيتمت العيال لكي أراك
فلو قطعتني في الحب إرباً ... لما حن الفؤاد الى سواك

وفي سنة خمس وستين ومائة توفي عبد الرحمن بن ثوبان الدمشقي الزاهد عن تسعين سنة . روى عن خالد بن معدان وطبقته قال احمد بن حنبل : كان اعبد اهل الشام وذكر من فضله شيئاً كثيراً وقال ابو داود : كان مجاب

الدعوة وكانت فيه سلامة وما به بأس وقال ابو حاتم : ثقة دفن بدمشق .

وفي سنة اثنتين وسبعين ومائة مات امير دمشق الفضل بن صالح بن علي العباسي ابن عم المنصور وهو الذي انشأ القبة الغربية التي بجامع دمشق وتعرف بقبة المال الموجودة الى اليوم فوق ثمانية اعمدة حجر وبقيت مستودعاً لسجلات الجامع وبعض من الكتب المقدسة القديمة ، ودفن بدمشق .

نقل البصروي عمن دفن من رجال دمشق قال : ومنهم الامام عمر بن عبد العزيز بن مروان الخليفة الاموي امير المؤمنين كان احد الائمة المجتهدين والخلفاء الراشدين وكان غريب الشكل عجيباً عديم المثال واحد الزمان في العدل والخير وسائر وجوه البر والاحسان . وكان يقول اذا صلح الراعي فليس على الرعية من بأس يعني اذا صلح الراعي صلحت الرعية على ممر الايام وطهروا من الخطأ والزلل والآثام . وهو اول من اتخذ دار المضيف من الخلفاء واول من اتخذ المحراب في المساجد لموقف الامام مجوفاً وكان كثير الترفه من المأكل والمشرب واللباس فلما ولي الخلافة زهد في ذلك كله . وروي عنه انه كتب الى بعض عماله : اما بعد فقد امكنتك القدرة من ظلم العباد فاذا هممت بظلم احد فاذكر قدرة الجبار عليك واعلم ان الله عز وجل يأخذ من الظالمين للمظلومين والسلام . توفي سنة احدى ومائة وهو ابن تسع وثلاثين سنة في العشرين من شهر رجب وكانت مدة خلافته سنتين وخمسة اشهر ، دفن بباب الصغير وهناك ضريح مشهور انه قبره . وقيل انه دفن ومات بدير سمعان والله اعلم . ونقل عنه انه كان يقصي الشعراء عن حضرته لارتكابهم المطاعن والتشبيب في اشعارهم ولكنه كان يكرم العلماء فقد كتب الى والي حمص « انظر الى القوم الذين نصبوا انفسهم للفقه وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا فاعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين حين يأتيك كتابي هذا وان خير الخير اعجله والسلام . »

وذكر المؤرخون ان اول كتاب نقل الى العربية كتاب اهرن بن اعين . وجده عمر بن عبد العزيز في خزائن الكتب فأمر بأخراجه ووضعه في

مصلاه واستخار الله في اخراجه الى المسلمين للانتفاع به . فلما تم له في ذلك اربعون صباحاً اخرجه الى الناس وبثه في ايديهم . وعمر بن عبد العزيز هو الذي قال كنت اصحب من الناس سراتهم واطلب من العلم شريفه فلما وليت امر الناس احتجت الى ان اعلم سفساف العلم فتعلموا من العلم جيده ورديئه وسفسافه .

نقل ابن عساكر في ترجمة الحكم بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان القرشي الاموي استعمله ابوه الوليد على دمشق وبعد ان ذكر الوقائع التي حصلت له في تلك المدة قال : وكان قتل الحكم سنة سبع وعشرين ومائة .

نقل صاحب مثير الغرام عن المهدي بن المنصور بن حارثة احمد بن ابراهيم ابن هشام قال حدثني ابي عن ابيه قال لما قدم المهدي الشام يريد بيت المقدس دخل مسجد دمشق ومعه ابو عبد الله الاشعري فقال يا أبا عبد الله سبقتنا بنو امية بثلاثة قال وما هي يا أمير المؤمنين ؟ قال بهذا البيت يعني مسجد دمشق ، ولا اعلم على ظهر الارض مثله . وبنبل الموالي فان لهم موالي ليس لنا مثلهم . وبعمر ابن عبد العزيز لا يكون فينا والله مثله ابداً مات سنة تسع وستين ومائة .



اسماء رجال العصر الثالث من الهجرة

وفي سنة اربع وثلاثين ومائتين مات بدمشق ابو محمد عبدالله بن ذكوان القرشي الفهري الامام الشهير الراوي الثقة امام جامع دمشق ، اخذ القراءة عن ايوب بن تميم وهو الذي خلفه في القيام بالقراءة في دمشق ، واخذ ايوب عن يحيى ابن الحارث الزماري وهو عن ابن عامر . وقرأ على الكسائي حين قدم على الشام وروى الحروف سماعاً عن اسحق بن المسيبي عن نافع وروى القراءة عنه ابن احمد . قال ابو زرعة : لم يكن بالعراق ولا بالحجاز ولا بالشام ولا بمصر ولا بخراسان اقرأ من ابن ذكوان في ذلك الزمان ولد سنة احدى وسبعين ومائة وكان من ائمة السنة ، ولم يفرش له فراش خمسين سنة ، وهو

مدفون بسوق الصوف احد اسواق دمشق وقبره معروف ومشهور الى اليوم ذكره ابن النديم في فهرسته .

وفي سنة ثمان وثلاثين ومائتين مات بدمشق ودفن بها صفوان بن صالح مؤذن جامع دمشق الحنفي المذهب . كان فقيه زمانه يرحل اليه . روى عن الوليد بن مسلم وطبقته . وفي سنة ٢٤٢ مات بها هشام بن عمار خطيب دمشق ومحدثها .

وفي سنة خمس واربعين ومائتين مات بدمشق احمد بن ابي الحواري الزاهد الكبير ابو الحسن الدمشقي سمع ابا معاوية وطبقته وكان من كبار المحدثين والصوفية ومن اصحاب ابي سليمان الداراني وله كلام في الحقائق منه : ما ابتلى الله عبداً بشيء اشد من القسوة والغفلة . وقالت له زوجته رابعة الشامية يوماً احبك حب الاخوان لا حب الازواج وكانت من كبار الصالحات الذاكرات وكانت تطعمه الأكل الطيب وتطيبه وتقول له اذهب بنشاطك الى اهلك وتقول عند تقريبها الطعام اليه كل فما نضج الا بالتسبيح وتقول اذا قامت من الليل :

قام المحب الى المؤمل قومة كاد الفؤاد من السرور يطير

وقال السخاوي في طبقات الاولياء : احمد بن الحواري من اهل دمشق صحب ابا سليمان الداراني وسفيان وكان من العارفين والورعين فيتهم بيت الورع والزهد . ومن كلامه من عمل بلا اتباع السنة فعمله باطل : وقال اني لاقرأ القران فأنظر في اية آية فيحار عقلي واعجب من حفاظ القرآن كيف يهنأ لهم ويسعهم ان يشتغلوا بتدبير الدنيا وهم يتلون كلام الرحمن . اما لو فهموا مايتلون وعرفوا حقه وتلذذوا به واستحلوا المناجات به لذهب عنهم النوم فرحاً بما رزقوا . وقال الحافظ الذهبي في التذهيب : قال محمد بن عوف الحمصي رأيت احمد بن الحواري العتمة ثم قام يصلي فاستفتح بالحمد الى اياك نعبد واياك نستعين فطفت الحائط كله ثم رجعت فاذا هو لايجوز تلك الآية ثم نمت ومررت به سحراً وهو يقول اياك نعبد واياك نستعين . فلم يزل يرددها الى الصبح انتهى ملخصا . ونقل عن ابن الحواري ايضاً قال شكوت الى ابي سليمان الداراني الوسواس فقال اذا أردت ان يذهب عنك فأي وقت احسست به

فافرح فانك اذا فرحت انقطع عنك فانه ليس شيء ابغض الى الشيطان من سرور المؤمنين وان اغتممت زادك .

وفي سنة احدى واربعين ومائتين مات بدمشق اسماعيل بن عبدالله القرشي العبدري المعروف بالسكري ولي القضاء بدمشق ودفن بها .

وفي سنة تسع وخمسين ومائتين مات بدمشق ودفن بها الامام الحافظ ابو الحسن محمود بن سميع الدمشقي صاحب الطبقات واحد الاثبات سمع اسماعيل بن ابي اويس وطبقته قال ابو حاتم مارأيت بدمشق اكيس ولا اعلم منه .

ذكر ابن عساكر في تاريخه ترجمة جنادة بن محمد المزي الدمشقي روى عن الرسول باسناده انه قال : ابن آدم شاب في حب اثنتين حب المال وطول الامل ، وروي عنه ايضاً بالسند الى ابن عباس انه قال : كيف تهلك امة انا في أولها وعيسى في آخرها والمهدي في وسطها . وكان جنادة من اهل الفتوى بدمشق وسرجها وله غرائب ، مات بدمشق سنة ست وعشرين ومائتين .

وذكر ايضاً في ترجمة احمد بن المدبر الكاتب الذي تولى شؤون المساجد بدمشق وغيرها في ايام المتوكل على الله سنة احدى واربعين ومائتين وهي أشبه مديرية الاوقاف بهذا الزمان وولاه ايضاً خراج جند دمشق والاردن وكان شاعراً ومن شعره اللطيف قوله :

صباح الحب ليس له مساء ... وداء الحب ليس له دواء
ولي نفس تنفسها اشتياق ... وعين فيض عبرتها الدماء
وليلي والنهار علي مما ... اقاسي فيها ابداً سواء

ذكر ابن القواس ان وفاته بدمشق كانت سنة احدى وسبعين ومائتين

وفي مستهل شعبان سنة ست وسبعين ومائتين مات بدمشق اسماعيل بن عبد الرحمن ابو هشام الخولاني الدمشقي روى باسناده الى ابن عمر ان النبي صلى الله عليه وسلم قال «ان الجنة لتزخرف لشهر رمضان من الحول» الى الحول وذكر ابن عساكر الحديث الى نهايته وهو طويل .

وفي سنة ست وثمانين ومائتين مات بدمشق احمد بن المعلى الاسدي قاضي

دمشق وحكى عن ابن المؤمل من اهل دمشق انه حفر حفرة بدمشق فاستخرج منها حجراً فيه كتابة بالنقش وهي :

ايضمن لي فتى ترك المعاصي وارهنه الكفالة بالخلاص
أطاع الله قوم فاستراحوا ولم يتجرعوا غصص المعاصي

وذكر ابن عساكر ايضاً عن ترجمة احمد بن واقد من اهل بيت لهيا احدى القرى القريبة من دمشق قد روي عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ان الله يوصيكم بامهاتكم ان الله يوصيكم بالاقرب فالاقرب » الحديث رواه ابو نعيم والطبراني ايضاً ونقل عن ابن واقد عن بعض الفضلاء انه قال :

عفا الله عن هذا الزمان فانه زمان عقوق لازمان حقوق
فكل صديق فيه غير موافق وكل رفيق فيه — غير صدوق
عفاء على هذا الزمان واهله فكل صديق فيه غير رفيق

وقال بعض الشعراء بهذا المعنى :

واذا اعتراك الوهم من حال امرئ فأردت تعرف خيره من شره
فاسأل ضميرك عن ضمير فؤاده ينبيك سرك بالذي في سره

مات ابن واقد سنة تسع وثمانين ومائتين ثم قال مهذب ابن عساكر : ان بيت لهيا وسطرا وحور تعلا وصنعاء دمشق كل هذه القرى لم يبق لها اليوم اثر وقد اندرست آثارها وآثار قرى كثيرة غيرها حول دمشق. ونقل عن احد ملوك دمشق قبل الاسلام انه اذا عرض الخيل أقامها صفاًمن دمشق الى صنعاء دمشق وهي قرية على باب دمشق من جهة المرج الاخضر قبل الشرف الاعلى يفصل بينهما نهر بردى ذكر ابن النديم في فهرسته ان حكود قرية بالشام معروفة وهي ايضاً ذهب أثرها مع قريتين حرش وداعيه لم يعلم مكانهما.

وكان اكثر القرى عامراً بالعلماء مثل قنسرين التي خربت في القرن الرابع وكفرطاب التي خربت في أواخر العصر الخامس. نقل ابن العديم انه كانت كفرطاب وقنسرين اكثر اهلها يشتغلون في العلم والادب وهاتان المدينتان اصبحتا الآن خاويتان. وقد كتب بن عساكر في تاريخه روايات اهل

كفرسوسية وداريا وصنعاء دمشق ومن حدث بهم واهل الحميريين وقبية وقذايا وبيت ارانس وبيت قوقا والبلاط وبيت سوا ودومة ومسرابا ولاقانية وجديا وطرميس وبيت لهيا واكثر هذه القرى دثرت في هذا الزمان ودثرت غيرها من قرى الغوطة بعد نكبات دمشق كما سيأتي تفصيل ذلك في محله في الجزء الثالث .

وفي تلك السنة مات بدمشق ابرهيم بن عمر الصنعاني من صنعاء دمشق اعتنى بالحديث ، روى حديثاً بسنده قال اروى هذا الحديث ولا اعلم صحته «ثمانية ابغض خليقة الله اليه يوم القيمة السفارون . وهم الكذابون ، والخيالون وهم المستكبرون ، والذين يكنزون البغضاء لاخوانهم في صدورهم فاذا لقوهم حلفوا ، لهم والذين اذا دعوا الى الله ورسوله كانوا بطاء واذا دعوا الى الشيطان وامره كانوا سراعاً ، والذين لاشرف لهم مالاح لهم طمع من الدنيا الا استحلوه بايمانهم وان لم يكن لهم بذلك حق والمشاؤن بالنميمة ، والمفرقون بين الاحبة ، والباغون البراء الرخيصة اولئك يبغضهم الرحمن تبارك وتعالى » .

وفي سنة خمس واربعين ومائتين مات بدمشق هشام بن عمار بن نصير بن ميسرة بن ابي الوليد السلمي والظفري الدمشقي امام اهل دمشق وخطيبهم ومحدثهم ومقرئهم ومفتيهم ، ولد سنة ثلاث وخمسين ومائة ، اخذ القراءة والحديث عن ايوب بن تميم التميمي وهو عن يحيى بن الحارث الزماوي عن ابن عامر ، لما توفي ايوب بن تميم رجعت الامامة في القراءة الى رجلين هشام وابن ذكوان وكان هشام واسع الرواية مشهوراً بالنقل والفصاحة والعلم والرواية والفهم والدراية رزق كبر السن وصحة العقل والرأي وارتحل الناس اليه في القراءة والحديث كان صدوقاً مكثراً . ماله مايتكر . يقول روي عن مروان بن معاوية عن ابي خالد عن جرير عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «من يتزود في الدنيا ينفعه في الآخرة» وروي عنه ايضاً عن النبي عليه الصلاة والسلام «الفصل فيما بين الحلال والحرام الصوت وضرب الدف» ذكره ابن النديم في فهرسته .

وفي سنة ستين ومائتين مات بدمشق اسماعيل بن ابان بن حوى السكسكي

البتلهي، سمع الحديث من احمد بن حنبل وروى عنه جماعة كثيرون. وروى ايضاً عن الامام مالك قوله «جنة العالم قوله لاادري فان اضاعها اصيبت مقاتله».

قال الدار قطني كان المترجم شيخاً من اهل الشام وقال عمر بن دحيم هو من بيت لهيا قرية قريبة من دمشق ذكره ابن عساكر. قلت وقد تقدم معنا ان هذه القرية ذهبت آثارها مع غيرها من القرى التي بقي اسمها وذهب رسمها.

نقل عن بعض حملة الاخبار ان محل قرية بيت لهيا يعرف اليوم بمحلة القصاع وانتهت العمارة الجديدة والبناء اللطيف من دمشق اليها واتصل بها الى محلها الاصلي قبل جسر تورا. وكان بها مدرسة وحمام وتخرج منها كثير من العلماء الاعلام ولم يزل أثر بنايات القرية الى اليوم ظاهراً وقد بدأ العمار بها اليوم والتاريخ يعيد نفسه. وفي سنة تسعين ومائتين مات بدمشق احمد بن علي ابوبكر المروزي القاضي تولى القضاء بدمشق وحدث بها وروى عنه النسائي في سننه وروي من طريقه الى انس بن مالك ان رجلاً اطلع من بعض حجر النبي صلى الله عليه وسلم فقام اليه بمشقص (يعني بسهم له نصل عريض) ثم مشى نحوه قال فكأني انظر الى النبي صلى الله عليه وسلم يختل له ليطعنه لانه اتى باب النبي عليه الصلاة والسلام فالقم عينه خصاصة الباب (اي الثقب والشق) فبصر به النبي صلى الله عليه وسلم فتوخاه بحديدة او عود ليفقاء عينه فلما ان ابصره انقمع الاعرابي (وفيه تهديد لمن يريد ان يتطلع على الناس في بيوتهم وانه لو فقئت عينه لكانت هدرا) ذكره ابن عساكر.

ثم أتى ابن عساكر بترجمة الحسن الحريري من نجران الشام وهي مابين البلقاء وحوران وقد كانت مدينة كبيرة بها بيعة عظيمة عامرة حسنة مبنية على العمد الرخام منمقة بالفسيفساء وقد خرج منها جماعة من العلماء والمحدثين والحسن هذا هو ابن فرقد الحرستاني والد الامام محمد من اصحاب ابي حنيفة وهو اصله من اهل حرستا قرية من غوطة دمشق كان والده جندياً موسراً قال والده ترك ابي ثلاثين الف درهم فانفقت خمسة عشر الفاً على النحو والشعر وخمسة عشر الفاً على الفقه والحديث.

نقل بعضهم انه نبغ من علماء دمشق في زمن الامويين جماعة كثيرون اهمهم الاخطل وجرير والفرزدق ونبغ في علم الكيمياء خالد بن يزيد احد امراء بني امية وامتاز الفيلسوفان يوحنا بن منصور وتلميذه ابو قره وكلاهما من دمشق واشتهر ايضاً في زمن العباسيين من علماء دمشق النابغين جماعة كثيرون منهم ابن عساكر وكمال الدين مؤلف تاريخ حلب والفيلسوف ابو العلاء المعري .

واما شعراء القرن الثالث فهم كثيرون اهمهم ابو تمام حبيب بن اوس الطائي ولد بقرية جاسم من بلاد جيدور من اعمال دمشق ومات بها سنة احدى وثلاثين ومائتين وله شعر شهير عند العرب وشهرة عظيمة في الادب، ومنهم عبد السلام الملقب بديك الجن كان كاتباً في ايام الخليفة المنصور ولد في حمص ومات في دمشق سنة ٢٣٥ ،ومنهم كلثوم بن عمر العتابي التغلبي الشاعر الشهير احد اصحاب المعلقات واصله من الشام من ارض قنسرين مات سنة عشرين ومائتين وقد اشتهر كل منهم في البلاغة والادب وتنافس باشعارهم بلغاء العرب، ومن أراد التوسع بمعرفتهم فعليه باسفار التاريخ .

وقد اشتهر في العصر الثالث بالهندسة ابو بكر البناء الدمشقي المهندس الذي بنى لابن طولون ميناء عكا .

قال صاحب الخطط: كادت تصبح دمشق دار العلم والفلسفة فتراجعت تراجعاً ظاهراً بانقراض دولة بني مروان منها فانتقل العلماء والنقلة الى عاصمة اتسع صدرها اكثر من الشام للعلوم البشرية ووجد من رجال بني العباس في بغداد معاضدة فعلية وحرية وتسامح مستغرب . فانتقلت مجالس العلم من الشام الى العراق . وكان عمر بن عبد العزيز في خلافته نقل التدريس الى انطاكية سنة ٩٩ ثم انتقل العلم الى حران من ارض الجزيرة مدينة الصابئين. ولما نفذ عهد المتوكل القدح المعلى . في انشاء علماء ورياضيين وفلكيين ولو لم ينبغ فيها غير ثابت بن قرة واولاده وغير البتاني صاحب الزيج لكفاها فخراً على غابر الدهر . ومعظم الصابئة الذين تخرجوا في حران دانوا بعد الاسلام. ونقلوا العلوم الى العراق والشام . الا ان اعمالهم كانت عمل افراد لا عمل

جماعة فلم تسمع لها تلك الرنة القوية كما كان على عهد الخلفاء الاول من العباسيين في بغداد . وكان من آثرها في القرون التالية انشاء المدرسة النظامية ثم المستنصرية من اقدم جامعات العرب. وحافظت انطاكية على مكانتها الاولى من اوائل ظهور الدين المسيحي حتى القرن الثاني للهجرة وقد اشتهر ونبغ فيها من الرجال كثير.



اسماء رجال العصر الرابع من الهجرة

وفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة مات بدمشق محمد بن جابر بن سنان ابو عبدالله الحراني المعروف بالبتاني احد المشهورين بعلم الكواكب ورصدها ولا يعلم احد من علماء الاسلام بلغ مبلغه في تصحيح ارصاد الكواكب وامتحان حركاتها وكان اصله من حران التابعة لدمشق ومن اعمالها .

وفي تلك السنة مات بدمشق القاضي ابو زرعة الدمشقي محمد بن عثمان قاضي دمشق بعد قضاء مصر وكان جده يهودياً فأسلم وكان أكولاً نقله الذهبي في تاريخه .

نقل ابن عساكر في تاريخه ترجمة احمد بن عمير بن موسى بن جوصا مولى بني هاشم انه مات بدمشق سنة عشرين وثلاثمائة وهو شيخ الشام بوقته رحل وصنف وكان اصله يهودياً واسلم وكان ذا مال كثير . وقال الدارقطني: تفرد باحاديث كثيرة ولم يكن بالقوي . دفن بمقبرة باب الصغير .

وقال ايضاً في ترجمة اسماعيل بن الحسين بن احمد : يتصل نسبه بالحسين السبط وكان يعرف بالعفيف ولي نقابة الاشراف بدمشق من المقتدر بالله وهو اول من تقلد هذا المنصب وسمي به، ليكون مساعداً لهم في جميع امورهم قائماً في شئونهم، وصار له مشهد حسن يوم وفاته مشى فيه كثير من الخلق .

اقول: كما اني آخر من تقلد هذه الخدمة الشريفة بدمشق تحت امرة وحكم آخر دولة اسلامية حكمت بها.

وفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة مات بدمشق شيخ الشام احمد بن ابي الدحداح التميمي الدمشقي روى الحديث عن جماعة من الائمة الاعلام وكان يسكن بدمشق في ربض باب الفراديس في طرف العقيبة بجوار المقبرة. قال ابن عساكر وروينا من طريقه عن جابر بن عبد الله قال: كانت اليهود تقول من اتى امرأته من دبرها في قبلها كان الولد احول فانزل الله تعالى « نساءكم حرث لكم فأتوا حرثكم انى شئتم » وروى بسنده الى الشافعي انه قال :

صبراً جميلا ماأقرب الفرجا   من راقب الله في الامور نجا
من صدق الله لم ينله اذى   ومن رجاه يكون حيث رجا

اقول: والذي ظهرلي ان المقبرة المشهورة اليوم بمقبرة الدحداح انما سميت باسمه لقرب داره منها واشتهر ذلك المحل به. وهذا هو الاقرب للصواب والصحة لا كما ذكره ابن عبدالرزاق في تاريخه ان تلك المقبرة اشتهرت باسم الصحابي ابي الدحداح المدفون بها. وقد تعقبت ذلك في الاصابة واسد الغابة والاستيعاب وغيرها فلم اقف على ذكر ذلك عندهم وان كنت نقلت اسمه وذكرته في هذا الكتاب مع اسماء الصحابة الذين دخلوا دمشق وماتوا ودفنوا بها ، واشرت اليه في محله .

قال عبد الله الفرغاني في تاريخه: وفي سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة مات بدمشق الحسين بن عيسى الهروان، ولي القضاء بدمشق ولم يكن ممن يصلح لتقلد الحكم لخلوه من علم الاحكام ، وانما كان يتقلد ذلك طلباً للجاه وصيانة لنعمته وغناه ، وقد تقلد ذلك المنصب بما كان يبذله من المال .

اقول ويستدل من هذا على ان حب الرئاسة والحكم قديم في هذه المدينة ومقبول في كل آن ومكان، تميل اليه اكثر النفوس ولو كان اصحابها غير اهل للحكم والقضاء. وهانحن نراه ينتقل من سلف الى خلف ولذلك قال معلم الخير الصادق الامين عليه الصلاة والسلام « آخر مايخرج من قلوب الصديقين حب الرئاسة» فكيف في زماننا هذا ! . اللهم املأ قلوبنا من حبك ولا تجعل فيها موضعاً لحب رئاسة وغيرها اوشيء يشغلنا عن حبك وعبادتك. اللهم الا ان يكون

عملاً فيه مرضاة وجهك الكريم . يخدم فيه الاسلام اجمع على اختلاف السنتهم، وتحفظ به الاوطان ويكون بعيداً عن وساوس النفس والشيطان — سبب ذلك كله ناشيء عن عدم وجود مدرسة للقضاء —

وفي سنة ستين وثلاثماية مات بدمشق احمد بن خاقان ابن النجاد العابد امام جامع دمشق احد الصالحين المعروفين. اسمع الحديث واقرأ القرآن،وكان يقصد من سائر البلدان . دفن بمقبرة باب الصغير . ذكره ابن عساكر في تاريخه .

وفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثماية مات بدمشق احمد بن سعيد ابو علي الاصبهاني المقري. قال ابن عساكر انه سكن بدمشق وصنف التصانيف المفيدة في القرآت وروى عنه محمود الوراق قوله :

اذا كان شكري نعمة الله نعمة　　علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر الا بفضله　　وان طالت الايام واتصل العمر

وقد دفن بمقبرة باب الصغير .

وفي سنة ثلاثين وثلاثمائة مات بدمشق ابو يحيى البلخي قاضي دمشق في خلافة جعفر المقتدر بالله وكان شيخ الشافعية بالشام. وقد روي عنه دعاء عن النبي عليه الصلاة والسلام : « اللهم اني اعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وتجافي نعمتك ومن جميع سخطك » وكان من الفقهاء ومن اصحاب الشافعي. نقله ابن عساكر .

وفي سنة اربع وثلاثماية مات بدمشق محمد بن احمد بن المرزبان القاضي. قلد قضاء دمشق بعد ابي زرعة من قبل المقتدر بالله فبقي اشهراً ومات.

وفي سنة تسع عشرة وثلاثماية توفي بدمشق ابراهيم بن عبد الرحمن بن عبدالملك بن مرزوق الحافظ ابواسحاق القرشي الدمشقي محدث دمشق. روى عن موسى بن عامر المزي .

وفي سنة عشرين وثلاثماية توفي بدمشق احمد بن عنبر بن جوصا ابو الحسين مولى بني هاشم الدمشقي حافظ الشام . سمع موسى بن عامر المزي ويونس بن عبدالاعلى ومحمد بن عبد الحكيم والربيع المرادي وخلائق كثيرة

بمصر والشام . وصنف وتكلم عن العلل والرجال . روى عنه حمزة الكناني والطبراني والنيسابوري وقال تمت بن جوصا وكان ركناً من اركان الحديث. قال الذهبي وهو ثقة له غرائب فما للضعف عليه مدخل. توفي في جمادى الاولى ودفن بباب الصغير وقد دعاه الى الاندلس اميرها الناصر لدين الله الاموي لاجل ان يتفرج على تأسيس مدينة الزهرا التي بناها ولم يبن في الاسلام احسن منها وقد احترقت وهدمت وزال نعيمها وبقيت رسومها .

وفي تلك السنة توفي بدمشق الحسين بن القسم بن رحيم عبد الرحمن الدمشقي القاضي ابو علي حدث عن ابي امية وجماعته منهم الحسين بن محمد بن عثمان الدمشقي ابو عبد الله بن ابي زرعة قاضي دمشق وابن قاضيها توفي عن ثلاثة واربعين سنة كثرت نوابه ولكن لم تتند ايامه وكان كريماً جواداً عارفاً بالقضاء مستعداً للاحكام .

وفي سنة اربعين وثلاثمائة توفي بدمشق عبد الرحمن بن اسحق ابو القاسم الزجاجي النحوي صاحب الجمل اصله من صيمر من قرى دمشق قال الذهبي صنف الجمل بمكة المكرمة وكان اذا فرغ من الباب طاف اسبوعاً ودعا بالمغفرة وقال غيره من المؤرخين . كان يدعو الله ان ينفع به وقد انتفع به خلق من المشارقة والمغاربة. قال الكناني توفي بطبريا وقيل توفي بدمشق وهو الاصح ولابي القاسم مؤلفات أخر منها الكافي في النحو وشرح الالف واللام للمازني في النحو وله أمالي حسنة جامعة لفنون الادب من النحو واللغة والاشعار والاخبار وقد شرح الجمل جماعة ومن احسن شروحها شرح بن عصفور .

وفي سنة اربع واربعين وثلاثمائة توفي بدمشق يوم عيد الاضحى اسحاق ابن ابراهيم بن هاشم بن يعقوب الاذرعي الدمشقي . كان ثقة وعابداً ومحدثاً وعارفاً . سمع يحيى بن أيوب العلاف وابا زرعة الدمشقي وعبد الله بن جعفر الرافعي الطرابلسي وجماعة كثيرة (اقول ان عائلة آل بني الرافعي في طرابلس الشام المتصلين بهذا المحدث الكبير الى يومنا هذا هم مرجع العلم وشيوخه وهم قدار البلاد الشامية والمصرية وورثوا المجد والفضل كابراً عن كابر

تعرفت بكثير من رجالهم بارك الله بهم) قال عبد القاهر بن عبد العزيز الصائغ سمعت ابا يعقوب الاذرعي يقول: سألت الله تعالى ان يغض بصري فعميت فتضررت في الطهارة فسألت الله اعادة بصري فأعاده تفضلاً منه وقال ابو الحسن الرازي : كان من اجلة اهل دمشق وعبادها وعلمائها وله نيف وتسعون سنة .

وفي سنة سبع واربعين وثلاثمائة توفي بدمشق احمد بن سليمان بن ايوب ابن داود بن حذلم ابو الحسن الاسدي الدمشقي القاضي الفقيه الاوزاعي المذهب سمع اباه وابا زرعة وبكار بن قتيبة واخذ عنه تمام الرازي وناب في القضاء بدمشق. قال ابو الحسين الرازي وهو آخر من كانت له حلقة بجامع دمشق درس فيها مذهب الامام الاوزاعي وقال الكتاني في تاريخه كان ثقة مأموناً نبيلاً.

وفي تلك السنة توفي بدمشق محمد علي الهاشمي الخاطب الدمشقي كان خطيب دمشق في ايام ولاية الاخشدية وكان شاباً حسن الوجه مليح الشكل كامل الخلق دفن بباب الصغير ارخه ابن عساكر. قال ابن كثير واظنه هو الذي تنسب اليه حارة الخاطب من نواحي باب الصغير المعروفة اليوم بزقاق الحطاب.

وفي تلك السنة توفي بالشام محمد بن القسم بن معروف ابو علي التميمي الدمشقي الاخباري، حدث عن الحسين بن اسماعيل المحاملي والقاضي ابي يحيى البلخي، قال الكتاني حدث عن ابي بكر احمد بن علي المروزة باكثر كتبه وكان صاحب دنيا يحب المحدثين ويلازمهم وصنف كتباً كثيرة في الاخبار والحكايات والنوادر وغير ذلك. عاش اربعاً وستين سنة وله شعر لطيف نذكر منه قوله :

ولربما ابتسم الكريم من الاذى   وفؤاده من حره يتأوه

وكان ينفر من الخوض في الفلسفة. وقال المحبي قات والميل اليها جهل وسفه.

وفي تلك السنة توفي بدمشق احمد بن محمد الحسيني بن سعيد ابو علي الاصبهاني المقري نزيل دمشق قرأ على زيد بن ابي بلال الكوفي وروى عنه بدمشق تمام الرازي وله مصنف في القراآت، وكان يقول: الخضوع لقراءة

القرآن بالصوت الحسن والاهتزاز له وهو نعمة من الله عز وجل والنفوس تخشع للصوت الحسن كما تخضع للوجه الحسن. ودفن بباب الفراديس.

وفي سنة ست وتسعين وثلاثمائة توفي بدمشق عبد الوهاب بن الحسن بن الوليد بن موسى الكلابي المحدث ابو الحسين الدمشقي. روى عنه تمام الرازي وعبد الوهاب الميداني الدمشقي ورشاء بن نظيف الدمشقي وابو القسم الشميساطي وخلق كثير. قال عبد العزيز الكناني كان ثقة نبيلاً مأموناً. وقال الذهبي كان مسند وقته بدمشق مات في شهر ربيع الاول.

وفي سنة ٤٢٠ مات ابو الحسين ابن كشكرايا الطبيب العالم صاحب الكناش المعروف بالحاوي. وعيسى الرقي المنجم الطبيب وكلاهما من اطباء دمشق، وكان عيسى ينقل من السريانية الى العربية ويأخذ اربعة ارزاق رزقاً بسبب الطب ورزقاً بسبب النقل ورزقين بسبب علمين آخرين. واشتهر فيها عبد الله بن عطية المقري الدمشقي المفسر كان يحفظ خمسين الف بيت من شعر العرب في الاستشهادات على معاني القرآن واللغة

وفي سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة مات بدمشق احمد بن علي السكري، قال ابن عساكر: كان امام الجامع بدمشق وانه قال في ترجمة احمد بن علي الجوهري بالسند الى انس بن مالك عن الرسول «انصر أخاك ظالماً او مظلوماً» فقلت يا رسول الله انصره مظلوماً فكيف انصره ظالماً؟ قال تمنعه من الظلم فان ذلك نصرك اياه.

وفي سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة مات بدمشق اسحاق بن ابراهيم النهدي الاذرعي من اهل اذرعات مدينة بالبلقاء قريبة من بلاد حوران. قال ابن عساكر كان احد الثقاة روى عن ابن عباس حديثاً مرفوعاً «ان اهل البيت اذا تواصلوا أجري عليهم الرزق وكانوا في كنف الرحمن» وحكى عن ابي خزيمة العابد انه قال الدنيا مأتم فليس ينبغي لاهل المأتم ان يفرحوا حتى ينقضي مأتمهم. وقال ابو الحسن الرازي في تسمية من كتب عنه بدمشق. ان اسحاق الاذرعي من اجلة اهلها وعلمائها.

وفي سنة عشرين وثلاثمائة مات بدمشق ابو عمر الدمشقي ودفن بها بمشهد

عظيم. كان من كبار مشايخ الصوفية الزاهدين وساداتهم روي عنه انه قال: كما فرض الله على الانبياء اظهار المعجزات فرض على الاولياء كتمان الكرامات اثلا يفتتنوا بها او يفتتن بها الخلق واوجب على الانبياء بيانها اظهاراً وبرهاناً للحق. نقله ابن عساكر والشعراني في طبقاته.

وفي سنة تسع واربعين وثلاثمائة في شهر ربيع الآخر مات بدمشق ابراهيم ابن محمد بن سنان الاركون القرشي الدمشقي مولى خالد. والى جده تنسب قنطرة سنان بنواحي باب توما ودفن هناك — كان الاركون قسيساً اسلم على يد خالد بن الوليد حين فتح دمشق.

قال ابن عساكر في ترجمة جماهر بن عيسى القرشي قال ابن ابي العجائز: هو ابو الازهر الغساني الزملكاني من اهل قرية زملكا وكان من ساكني باب الفراديس واخرج الحافظ من طريقه مرفوعاً «من كان صادقاً في الدنيا ينفعه صدقه في الآخرة» وذكر الحافظ ما رواه من قوله: لقد اتى عليّ زمان لو قيل لي هل تعرف في قومك رجلاً صالحاً لوقفت اتذكر! وهذا في ذاك الزمان فما رأيه في زماننا اليوم؟

وفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة مات بدمشق ودفن بباب الجابية الحسين ابن ابراهيم بن جابر ابو علي الفرائضي المعروف بابن الخرائطي. سكن دمشق وحدث بها. وكان يملي في الجامع الاموي وانه ثقة قال ابن عساكر: روى الحديث عن جماعات منهم ابو جعفر الطحاوي وغيره.

وفي سنة ثلاثين وثلاثمائة مات بدمشق ودفن بها الزاهد العابد مفلح بن عبد الله ابو صالح الحنبلي صاحب المسجد المشهور بظاهر باب شرقي. يقال اسمه مفلح وكان من الصوفية. نقله ابن شقدة.

وفي سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة مات بدمشق الامام العلامة ابو القاسم الخرقي ودفن بباب الصغير مقابل جامع الجراح غربي زاوية المغاربة وعليه بناء وكان حنبلياً ثقة وهو صاحب المختصر في الفقه قاله في العبر وقال ابن حجر: هو شيخ الحنابلة وقال العدوي في تاريخه: انه من الائمة الاعلام

الزاهدين له التصانيف الجليلة النافعة منها (كتاب الخرقي في فقه الامام احمد) وقال ابن ابي يعلي في طبقاته : له الكتب الكثيرة في المذهب ولم ينتشر منها الا المختصر في الفقه لانه خرج من مدينة السلام وسكن دمشق لما ظهر فيها سب الصحابة . قرأ عليه جماعة من شيوخ المذهب منهم ابو عبد الله ابن بطة وابو الحسن التميمي وابو الحسن بن سمعون وغيرهم قال ابن خلكان : كان والده من الاعيان وكان يقول :

رأيت رفيع الناس من كان عالماً وان لم يكن في قومه بحسيب
اذا حل ارضاً عاش فيها بعلمه وما عالم في بلدة بغريب

وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة مات بدمشق ودفن بها ابو النصر الفارابي في خلافة الراضي وصلى عليه سيف الدولة له مؤلفات كثيرة ذكرها صاحب الطبقات. قدم دمشق وسكن بها وكان فيلسوفاً اتقن العلوم الحكمية والعقلية وبرع في العلوم الرياضية يسير سيرة الفلاسفة المتقدمين . له قوة في صناعة الطب . كان في اول امره ناطوراً في بستان بدمشق وكان مع ذلك دائم الاشتغال بالحكمة وشرح معانيها والنظر الى آراء المتقدمين ، كان في الليل يستضيء بقنديل الحارس ، وكان في علم صناعة الموسيقى اماماً ، ويذكر انه صنع آلة غريبة تسمع منها الحان بديعة تؤثر بالنفوس وتطربها وربما تكون احدى آلات الطرب الموجودة اليوم. ويذكر ان سبب قراءته الحكمة ان رجلا اودع عنده جملة من كتب ارسطوطاليس فاتفق ان نظر فيها الى ان اتقن فهمها وصار فيلسوفاً . قال بعضهم : اسم الفلسفة يوناني وهو دخيل في العربية معناه ايثار الحكمة اي محبتها وهو في لسانهم مركب من فيلاسوفيا .

وفي سنة ٣٩٠ مات بدمشق ابو الفرج محمد بن احمد الغساني الدمشقي الملقب بالوأواء كان في بدء امره منادياً في دار البطيخ ينادي على الفواكه وما زال يقرض الشعر حتى اجاد واشتهر . له ديوان من انفس الشعر قال فيه صاحب الفوات : شاعر مطبوع منسجم الالفاظ عذب العبارة حسن الاستعارة جيد التشبيه بنى الحريري مقامة على قوله :

واًمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ... ورداً وعضت على العناب بالبرد

ومن شعره قوله :

واني لمشتاق الى من احبه ... فلا معه شوقي ولا صبره معي

ذكره الثعالبي ايضاً وانه دفن بباب الصغير .



اسماء رجال العصر الخامس من الهجرة

قال ابن عساكر في ترجمة احمد بن علي النحوي الرماني انه مات بدمشق سنة خمس عشرة واربعمائة . كان اديباً فاضلاً حدث بكتاب اصلاح المنطق ليعقوب بن السكيت وكان قد سمع اصلاح المنطق على الشيخ علي الاخفش اكثر من عشرين مرة ودفن خارج باب الفراديس وهو دمشقي .

ونقل ايضاً في ترجمة الشريف احمد بن علي ابن الحسين النصيبي من السادة الاشراف انه مات سنة ثمان وستين واربعمائة وكان قاضي دمشق في ايام المنتصر ومن كلامه قوله : وددت اني كنت في الشجاعة مثل جدي علي وفي السخاء مثل حاتم . فقال له محدثه ابو الفتيان وفي الصدق مثل ابي ذر الغفاري يعرض له بانه كذاب — لان صاحب الترجمة يرمى بالكذب — دفن في داره ثم نقل الى مقبرة باب الصغير وهو دمشقي وكان يقول :

اذا كان الشريف له حجاب ... فما فضل الشريف على الوضيع

ونقل في ترجمة احمد بن علي بن منصور ابو الحسن الطائي المعروف بابن الزيات انه دمشقي مات بها سنة ثلاث وتسعين واربعمائة وكان ثقة اعتنى بالحديث وحدث بشيء يسير قال ابو الفرج غيث بن علي : انشدني احمد الطائي بمسجد القدم بظاهر دمشق بقوله :

كفى حزناً اني مقيم ببلدة ... اخلاي عنها نازحون بعيد

اقلب طرفي في البلاد فلا ارى ... وجوه اخلائي الذين اريد

وقال في ترجمة احمد بن عيسى ابي جعفر سمع الحديث بدمشق وروى

عنه ابن عدي وبالسند اليه ثم الى البراء بن عازب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيه واخذ بيده قال : فقلت يا رسول الله ماكنت احسب هذه المصافحة الا من اخلاق الاعاجم وسنتهم فقال عليه الصلاة والسلام « ان المسلمين اذا التقيا فتصافحا ، لم يتاركا حتى يغفر لهما » .

وفي سنة خمس عشرة واربعمائة مات بدمشق احمد بن يحيى الطائي المنبجي الشاهد المقري النحوي ، سكن بدمشق وكان وكيلاً في امور اوقاف الجامع الاموي ، وروينا بالسند اليه الى ابن مسعود مرفوعاً « لا تقتلوا الضفادع فان نقيقها تسبيح » وعن بريدة ان النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يتطير وكان اذا بعث غلاماً سأل عن اسمه فان اعجبه فرح لذلك وبش في وجهه وان كره اسمه رؤيت كراهية ذلك في وجهه واذا دخل القرية سأل عن اسمها . وروى المترجم ابياتاً لابن طباطبا نذكر منها شيئاً :

حسود مريض القلب يخفي انينه ويضحي كئيب البال مني حزينه
ويزعم ان العلم لايجلب الغنى ويحسن بالجهل الذميم ظنونه

الى ان قال :

فيالائمي دعني اغالي بقيمتي فقيمة كل الناس مايحسنونه

وقال في ترجمة ابراهيم بن العباس الشريف القاضي . ولي قضاء دمشق والخطابة بجامعها ، وروينا من طريقه عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعوذ الحسن والحسين فيقول « اعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة » ويقول : هكذا كان ابي ابراهيم يعوذ ابنيه اسماعيل واسحاق .

وقال في ترجمة الحسن بن عبدالله ابي علي الختلي الشافعي الفقيه امام جامع دمشق انه مات سنة ستين واربعمائة ودفن بباب الفراديس .

وقال في ترجمة ابراهيم بن محمد البجلي انه سكن دمشق ومات بها سنة ست وثمانين واربعمائة . كان زاهداً ثقة وكان اماماً في مسجد دار البطيخ . ويكتب المصاحف ليستعين بثمن كتابتها على امر دنياه . ثم تولى امامة الجامع الاموي بدمشق

وقال في ترجمة الحسين بن سباع الرملي المؤدب الشاهد ، امام جامع دمشق وخطيبه : انه مات سنة ثمان وعشرين واربعمائة . وكان قدامّ بالجامع قريباً من عشرين سنة لم يوجد عليه غلط في التلاوة ولا سهو في الصلاة كان حسن الصوت وروى الحافظ عن ابن الاكفاني عنه بسنده الى انس بن مالك ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « ياايها الذين آمنوا ان احدكم لن يموت حتى يستكمل رزقه فلا تستبطئوا الرزق واجملوا في الطلب وخذوا ما حل ودعوا ما حرم » .

وقال في ترجمة الحسين بن علي ابي علي الرهاوي المقري قرأ القرآن برواية الحلواني وبحرف حمزة وكان مصنفاً في القراآت . وحدث بدمشق ومات بها سنة اربع عشرة واربعمائة .

وقال ايضاً في ترجمة الحسين بن علي المعروف بالمقري الدمشقي ، وهو الذي سعى بابي بكر خطيب دمشق الى امير الجيوش . وقال هو ناصبي . فكان سبب اخراج الخطيب من دمشق . مات سنة احدى وتسعين واربعمائة .

جاء في القاموس وشرحه ان النواصب والناصبية واهل النصب هم المتدينون ببغض علي بن ابي طالب . سموا بذلك لانهم ناصبوه وعادوه واظهروا له الخلاف وهم الخوارج الذين خرجوا عليه وقاتلوه .

وقال في ترجمة حمد بن عبدالله بن علي ابي الفرج المقري ، كان من معدلي الشهود . يعني نائب التزكية وانه صاحب الدار الموقوفة بباب البريد المعروفة بدويرة حمد . وفي آخر عمره حفظ القرآن . حكي انه سمع من شيخه ابي سهل المقري عن الرسول « ان من حج ولعق الحجر وسأل ماشاء اعطاه الله ماراد » قال فحججت وفعلت ذلك وسألت حفظ القرآن فرزقته . وكان دارساً حسن التلاوة . ثم انه في سنة احدى واربعمائة وجد في داره في محلة باب البريد في الدار المعروفة بالعثماني مذبوحاً وذبحت ايضاً معه امرأة عجوز كانت تخدمه وصبي كان قريباً له . ولم يعرف فاعل ذلك ودفنوا بباب الفراديس .

وقال في ترجمة حمزة بن الحسن بن ابي الجن الشريف المعروف بفخر

الدولة ، ولي قضاء دمشق وولي نقابة الاشراف بها وبالديار المصرية من قبل ابي الحسن علي الملقب بالظاهر والملقب بالحاكم ، وجدد بدمشق مساجد ومنابر وقنوات ومن ذلك الزمن سميت تلك المحلة بدمشق بهذا الاسم . واجرى الفوارة التي في جيرون يعني النوفرة الباقية الى اليوم وهو الذي انشأ القيسارية المعروفة بالفخرية ، كانت ولادة المترجم في الحرم سنة تسع وستين وثلاثمائة ومات في شهر ربيع الاول سنة اربع وثلاثين واربعماية وكانت وفاته بدمشق. وكان يترنم بقول امرىء القيس بن حجر :

فلو ان ما اسعى لادنى معيشة كفاني ولم اطلب قليل من المال
ولكنما اسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل امثالي

وكان يترنم بقول آخر :

اذا قلت هذا صاحب قد رضيته وقرت به العينان بدلت آخرا
وذلك اني ما وثقت بصاحب من الناس الا خانني وتغيرا

وقال في ترجمة رشا بن نظيف بن ماشاءالله ابي الحسن ، اصله من المعرة وسكن دمشق وقرأ القرآن على حرف ابن عامر ، وقرأ عليه جماعة بعدة روايات ، مات سنة اربع واربعين واربعمائة . قال الكتاني كان ثقة مأموناً مضى على سداد وامر جميل وانتهت اليه الرئاسة في قراءة بن عامر . ثم قال صاحب التهذيب عن صاحب الترجمة انه هو صاحب دار القرآن الرشائية التي كانت بدمشق شمالي الخانقاه الشميساطية بباب الناطفيين وهو باب الجامع الشمالي يعني باب العمارة الموصل الى باب الفراديس الشهير انشأها في سنة الاربعمائة وقال الشيخ عبد الباسط العلموي في مختصر الدارس المدرج في ضمن كتابنا هذا في باب مخصوص : قال والظاهر انها الاخنائية التي عمرها تاج الدين الاخنائي الشافعي ودفن بها سنة اثنتي عشرة وثمانمائة . قلت الظاهر ان باب السلسلة بالناطفيين منسوب الى ناظيف المذكور كما ان ماشاءالله هو الفلكي صاحب الاحكام وقد يأتي ذلك معنا مفصلاً في باب المدارس — وقد زالت عينها وادخلت في غيرها .

وفي سنة تسعين واربعمائة مات في دمشق نصر بن ابراهيم المقدسي النابلسي شيخ الشافعية بالشام ودفن بباب الصغير بجانب ابي الدرداء. درس بالغزاليةو بالاموي.

وفي سنة اثنتي عشرة واربعمائة مات بدمشق باني الكهف في جبل قاسيون شيخنا ابو الفرج بن المعلم . كان عالماً مدققاً عابداً مجاب الدعوة . نقله ابن قاضي شهبة في تاريخه عن عبد العزيز الكناني .

وفي سنة احدى وستين واربعمائة قتل امير الجيوش حيدرة بن ابراهيم بن العباس ابن ابي الجن ابو طاهر الحسيني المعروف بالشريف والمشهور بالسيد . ولي خدمة نقابة اشراف العلويين بدمشق في ايام المستنصر . نقله احد مؤرخي دمشق .

وقال ابن شقدة في تاريخه في ترجمة ابي علي احمد بن عبد الرحمن بن عثمان ابي نصر التميمي الدمشقي ، انه مات بها سنة احدى واربعين واربعمائة ، وكان احد الاكابر الصوفية بدمشق المعدل ، روى عن يوسف الميانجي .

جاء في مختصر دول الاسلام للذهبي . وفي سنة اثنتين واربعمائة مات بدمشق علي بن داود الداراني وهو الذي ذهب اليه كبراء رجال دمشق والتمسوا منه ان يصير خطيب الجامع فوثب اهل داريا بالسلاح وقالوا لانعطيكم خطيبنا . فقال الرئيس . اما ترضون يا اهل داريا ان يسمع الناس في البلدان ان اهل دمشق احتاجوا اليكم في امام ، فقالوا رضينا . فقدمت له بغلة القاضي فامتنع وركب حماره وسكن في المأذنة ولم يأخذ جامكية مابل كان يقتات من ارض له انتهى .

قال عبد العزيز الكناني في تاريخه إنه كان يقتات من غلة ارض له بداريا يحمل مايكفيه من الحنطة كل جمعة وكان ، ثقة انتهت اليه الرئاسة في قراءة الشاميين وكان يذهب مذهب ابي الحسن الاشعري ، قال مرة بلغني ان رجلاً من العلماء قال ،كتبت اربعمائة الف حديث ما انتفعت منها الا باربعة احاديث وما انتفعت من الاربعة الاحاديث الا باربع كلمات . فاول كلمة، اعمل لله على قدر حاجتك اليه ، والكلمة الثانية، اعمل للآخرة على قدر اقامتك

فيها . والكلمة الثالثة . اعمل للدنيا بقدر القوت . والكلمة الرابعة . اعص ربك على قدر جلدك على النار .

وفي سنة خمساية مات محمد القيسراني الدمشقي العالم بالحساب والنجوم والهندسة والهيئة وعلم المساحة والميقات والفلك .

وفي تلك السنة مات جرجس بن يوحنا اليبرودي العالم بالطب وهو من اطباء العصر الخامس له عدة رسائل مهمة ومقالات جمة .

وكان بودنا نقل اسماء شعراء العصر الخامس لكن ضيق المقام حال دون ذلك واكتفينا بما نقله غيرنا في هذا العصر من ذكر اسمائهم واحصائهم .

وفي سنة احدى واربعماية توفي بدمشق ابراهيم بن محمد بن عبيد الحافظ ابو مسعود الدمشقي مصنف اطراف الصحيحين .

وفي تلك السنة توفي بدمشق محمد بن احمد بن عثمان بن الوليد ابن الحكم السلمي الدمشقي العدل سمع ابا الدحداح احمد بن محمد التميمي ولربما يكون من سلالة الصحابي الذي ذكرناه في كتابنا هذا نقلا عن ابن عبد الرزاق ولم نقف له على صحة بانه مدفون في مقبرة الدحداح قال الكتاني عبد العزيز كان ثقة مأمونا وقال الذهبي كان من الاعيان ومسند الشام في وقته قال ابن الصلاح تناول بعض العلماء الحديث المشهور بوهو ان الله يبعث لهذه الامة على راس كل ماية سنة من يجدد لها دينها .

وفي سنة ثمان واربعماية توفي بدمشق محمد بن الحسين بن عبد الله النصيبيني العلوي الشريف قاضي دمشق وخطيبها ونقيب السادة الاشراف بها وكبير الشام ورئيس اعيانها كان عفيفاً نزيهاً اديباً بليغاً له ديوان شعر قال ابن عساكر ولي ذلك بعد ابي عبد الله الريس

وفي سنة سبع عشرة واربعماية توفي بدمشق محمد بن احمد بن هرون بن موسى بن عبد الله ابو نصر الجندي الغساني الدمشقي امام الجامع الاموي ونايب القاضي بدمشق ومحدث البلد قال عبد العزيز الكتاني في تاريخه انه كان ثقة مأموناً مات في صفر

وفي تلك السنة توفي بدمشق عبدالواحد بن محمد بن عمر بن حميد بن معتوق ابو المقدام الهمداني الدمشقي قاضي قرية عين ترما روى عن ابن الخضروابن محمد الحساني الذي يظهر انه كان في كل قرية كبيرة من قرى دمشق قاض ومفت يرجع اليهما في الامور الشرعية والحكمية.

وفي سنة عشرين واربعماية توفي بدمشق عبد الرحمن بن عثمان ابو القاسم بن معروف بن ابي نصر التميمي الدمشقي العدل الريس المعروف بالشيخ العفيف روى عنه بن نظيف الدمشقي وعبد العزيز الكتاني وخلق كثير قال الكتاني في تاريخه قد شاهدت سادات ما رئيت مثله كان قرة عين اقرانه مات في جمادى الآخرة فلم ار جنازة اعظم منها وحضر جنازته جميع اهل البلد حتى اليهود والنصارى ولم الق شيخاً مثله زهداً وورعاً وعبادة ورئاسة.

وفي تلك السنة توفي بدمشق الحسين بن محمد بن عامر ابو طاهر الانصاري الخزرجي المعروف بابن حداشه امام جامع دمشق روى عنه السمان الدمشقي وعبد العزيز الكتاني وقال في تاريخه كان نبيلا يذهب مذهب الاشعري.

وفي سنة ثلاث وثلاثين واربعمائة توفي بدمشق علي بن موسى بن الحسين ابن السمسار الدمشقي حدث عن ابيه وكان مسند الشام في وقته روى عنه عبد العزيز الكتاني قال. ابو الوليد الباجي فيه تشيع يفضي به الى الرفض وكان قليل المعرفة في اصوله.

وفي تلك السنة توفي بدمشق حمزه بن الحسين بن العباس بن الحسن القاضي فخر الدولة ابو يعلي العلوي الحسيني الدمشقي ولي قضاء دمشق من قبل الملك الظاهر العبيدي قال: الذهبي وولي نقابة الاشراف بالديار الشامية

وفي سنة تسع وثلاثين واربعمائة توفي بدمشق المحسن بن محمد بن العباس بن الحسن الشريف ابو تراب الحسيني نقيب السادة الاشراف العلويين وقاضي دمشق بعد اخيه لامه فخر الدولة ابي يعلي حمزة بن الحسين المتقدم الذكر.

وفي تلك السنة توفي بدمشق الحسن بن علي بن الحسن بن شواش ابو علي الكتاني الدمشقي المقري مشرف الجامع الاموي مات في ذي القعده.

وفي سنة اربعين واربعمائة قدم دمشق الحسين بن حاتم ابو عبد الله الازدي الاصولي المتكلم الاشعري الواعظ صاحب ابن الباقلاني قدم دمشق وعقد مجلس التذكير بالجامع الاموي ونشر مذهب الاشعري واقام مدة وقيل مات بها

وفي سنة اثنين واربعين واربعمائة فيها وقع الصلح واتفاق الكلمة بين اهل السنة والشيعة وصاروا يترحمون على الصحابة وصلوا جميعاً في مساجد السنة وخرجوا كلهم الى زيارة آل البيت الاموات واكرموا الاحياء الصحيحي النسب منهم وتحابوا وتوادّدوا وتزاوروا وتصاهروا وهذا امر لم يتفق قط وحصل نظيره في ذلك العصر في بغداد وسامرا وكربلا والنجف الاشرف اللهم الف بين قلوب المسلمين ووحد كلمتهم لنصرة الدين المبين وفي تلك السنة توفي بدمشق محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن الجذامي مولاهم الدمشقي كان اسند من بقي بدمشق .

وفي سنة سبع واربعين واربعماية توفي بدمشق التقي بن نجم بن عبد الله ابو الصلاح الحلبي شيخ الشيعة وعالم الرافضة بدمشق قال يحيى ابن ابي طي في تاريخه هو عين علماء الشام والمشار اليه بالعلم والبيان والجمع بين علوم الاديان والابدان وكان علامة في فقه اهل البيت وله مصنفات في الاصول والفروع منها كتاب الكافي والتقريب والمرشد الى طريق التعبد والعمدة في الفقه وكتاب شبه الملاحدة وكتبه مشهورة بين ائمة القوم عنده زهد وصلاح وتقشف .



اسماء رجال العصر السادس من الهجرة

قال ابن عساكر في ترجمة الحسن بن هبة الله بن عبدالله بن ابي الحسين المزكي والد الحافظ صاحب التاريخ المشار اليه ونقل ولده عما روي عنه بالسند الى البخاري صاحب الصحيح انه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول «تصدقوا فانه يأتي زمان يمشي الرجل بصدقته فلا يجد من يقبلها يقول الرجل لو جئت بها بالامس لقبلتها فاما اليوم فلا حاجة لي بها » قال الحافظ بن

عساكر النافل . كان ابي يذكر انه كان له عند حريق الجامع عشرة اشهر فكان مولده في سنة ستين واربعمائة ومات بدمشق سنة تسع عشرة وخمسمائة ودفن بمقبرة باب الصغير .

وقال ايضاً في ترجمة الحسين النهريني المقرى الفقيه . أسمع الحديث بدمشق في المدرسة الأمينية التي هي في سوق الحرير اليوم مدة وصلى بالناس في مسجد سوق الغزل المعلق وروي بسنده عن ابن عباس مرفوعاً « ان الله بعثني ملحمة ورحمة ولم يبعثني تاجراً ولا زارعاً وان شرار الناس يوم القيمة التجار والزراعون الا من شح على دينه » مات بدمشق سنة ثلاثين وخمسمائة ودفن بقرية حديثة جرش من غوطة دمشق وكان فلاحاً بها .

وفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة مات بدمشق حماد بن مسلم الدباس من اعظم مشايخ بغداد وهو احد العلماء الراسخين واحد من صحب الشيخ عبد القادر الكيلاني الكبير الشهير دفين بغداد . وكانت دباسته لايدخلها زنبور واصله من رحبة الشام دفن بباب الصغير بقبر يعرف بقبر الشيخ حماد نقله العلامة ابن عبد الرزاق في تاريخه .

وفي سنة اربعين وخمسمائة مات بدمشق الشيخ أرسلان الركاني الدمشقي قال المناوي : من اكبر مشايخ الشام المجمع على جلالتهم ومن اهل التصريف له احوال معروفة ومكاشفات مشهورة حكاها شيخ الاسلام تقي الدين السبكي فلا حاجة للاطالة بذكرها هنا . وقال البصروي ومنهم الشيخ أرسلان بن يعقوب بن عبد الرحمن من قلعة جعبر ، ثم الدمشقي النشار في الخشب الزاهد القدوة هو من اكابر مشايخ الشام واعيانها العارفين . صاحب الاشارات والانفاس الصادقة والكرامات الخارقة صحب شيخه ابا عامر المؤدب ، وهو مدفون بتربته المشهورة بظاهر باب توما في القبر القبلي . والشيخ في القبر الاوسط وخادمه ابو المجد في القبر الثالث ولما احتضر شيخه ابو عامر سألوه ان يوصي بالمشيخة الى ولده عامر فقال : عامر خراب وارسلان عامر . فلما مات قام الشيخ ارسلان مقامه وقد ذكر بعضهم ان الشيخ ارسلان بقي عشرين سنة ينشر في

الخشب ويقسم اجرته ثلاثة ثلث لنفقته وثلث يتصدق به وثلث لكسوته ومصالحه وكان يتعبد اولاً في مسجد صغير داخل باب توما وهو معروف الآن بمقام الشيخ أرسلان وحفر البئر الذي هناك بيده ولما تجلى الى الشيخ ترك صنعة المنشار فقطع بيده ثلاث قطع وقال له لسان الحال يا أرسلان ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت فترك العمل وجلس في المعبد المذكور. ويذكر ان الشيخ اعطى نور الدين الشهيد قطعة من المنشار فكانت عنده ولما احتضر نور الدين اوصى ان تجعل تلك القطعة في حفرته مع كفنه وكان هذا المعبد صغيراً فاشترى الملك نور الدين دار المجاورة له وبنى فيه منارة ووقف عليه اوقافاً اكلتها الايام وضيعتها الايام ومن نظمه من قصيدة طويلة قوله :

أنت الغياث لمن ضاقت مذاهبه — انت الدليل لمن حارت به الحيل
انا قصدناك والآمال واثقة — والكل يدعوك ملهوف ومبتهل
فان عفوت فذو فضل وذو كرم — وان سطوت فانت الحاكم العدل

وله الرسالة المشهورة في التصوف اولها «كلك شرك خفي» شرحها القاضي زكريا وغيره من العلماء مثل الشهاب الطيبي وعلاء الدين بن صدقه ويحكى عن يوم مشهده انه لما حمل نعشه على اعناق الرجال جاءت طيور خضر وعكفت على نعشه .

ومنهم زين الدين علي بن غانم الانصاري الدمشقي المعروف بابن منجه الحنبلي كان من اعيان اهل العلم وله رأي صائب وكان صلاح الدين يسميه عمرو بن العاص مات سنة ٦٠٧ .

قال صاحب الطبقات في ترجمة ابن الصلاح هو الامام المحقق نجم الدين ابو الفتوح احمد بن محمد السري ويعرف بابن الصلاح ، تفرد في العلوم الحكمية وأجاد معرفتها وهو مطلع على دقائقها واسرارها بارع التصنيف متميز في علم صناعة الطب مات بدمشق سنة اثنتين واربعين وخمسمائة ودفن في مقابر الصوفية عند نهر بانياس بظاهر دمشق فوق المرج الاخضر — محل بناء مستشفى الغرباء اليوم — .

وقال ايضاً في ترجمة شهاب الدين ابي حفص عمر السهروردي كان اوحد زمانه في العلوم الحكمية جامعاً للفنون العقلية والفلسفية بارعاً في الاصول الفقهية مفرط الذكاء جيد الفطرة فصيح اللسان لم يناظر احداً الا غلبه. كان علمه اكثر من عقله . ذكره ابن العربي في الفتوحات انه بقي مدة طويلة في الرياضة لم يسبقه اليها احد على اوزة واحدة . نقل عن فخر الدين المارديني قوله: ما اذكى هذا الشاب وافصحه. ولم اجد احداً مثله في زماني . الا اني اخشى عليه لكثرة تهوره واستهتاره وقلة تحفظه ان يكون ذلك سبباً لتلفه . وكان الامر كذلك اذ توجه السهروردي الى حلب وناظر علماءها ولم يجاره احد فكثر تشنيعهم عليه فاستحضره الملك الظاهر واستحضر العلماء ليسمع ما يجري بينهم من المباحث ففاق عليهم وحسن موقفه عند الملك وكبر موقعه وقرب اليه وصار مكيناً عنده مختصاً به فازداد غيظهم وعملوا محاضر بكفره وسيروها الى دمشق الى الملك الناصر صلاح الدين وقالوا ان بقي هذا فانه يفسد اعتقاد الملك الظاهر. وكذلك ان اطلق فانه يفسد اي ناحية كان بها من البلاد . وزادوا عليه اشياء كثيرة . فبعث صلاح الدين الى ولده الملك الظاهر كتاباً بخط القاضي الفاضل يقول فيه انه لابد من قتله . ولما بلغ السهروردي ذلك وايقن انه يقتل وليس من سبيل الى الافراج عنه . اختار ان يترك في مكان منفرد ويمنع من الطعام والشراب الى ان يلقى الله تعالى . وكانت وفاته في سنة ست وثمانين وخمسمائة، قيل انه دفن بقلعة حلب وقيل انه نقل الى دمشق . عاش ستاً وثلاثين سنة ووجد مكتوباً على قبره :

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة ... مكنونة قد براها الله من شرف
فلم تكن تعرف الايام قيمته ... فردها غيرة منه الى الصدف

ومن شعره هذان البيتان وهما مطلع قصيدة طويلة مشهورة :

ابداً تحن اليكم الارواح ... ووصالكم ريحانها والراح
وقلوب اهل ودادكم تشتاقكم ... والى لذيذ وصالكم ترتاح

قال ابن عساكر في ترجمة ابن عقيل القيسي الفارسي المعروف بابن ابي

الحوافي ، اصله من بعلبك النابغة لدمشق ، مات سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ودفن بباب الصغير ، كان شيخاً شافعياً صحيح السماع حسن الاعتقاد . قد رويت عنه بسنده الى عروة بن الزبير انه قال : سألت عائشة عن الرجل الذي يقبل امرأته أيعيد الوضوء ؟ ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل بعض نسائه ولا يعيد الوضوء ، فقلت لها : فان كان ذلك ، ما كان الا منك ، فسكتت .

وقال ابن عساكر ايضاً في ترجمة احمد بن محمد علي بن صدقة : هو ابو عبدالله التغلبي الكاتب الشاعر المعروف بأبن الخياط ، ختم به ديوان الشعر بدمشق . وكان شاعراً مجيداً ، حسناً حفظه لاشعار المتقدمين واخبارهم ، جالسته يوماً عند جدي القاضي ابي الفضل ، وتفاوضنا في معان كثيرة لم أحفظ منها شيئاً لقلة اهتمامي في ذلك الوقت فيما أورده من القصائد ، واجازني بجميع ماقاله من النظم والنثر سنة سبع وخمسمائة ، ومن الطف شعره قوله :

لم يبق عندي ما يباع بحبة وكفاك شاهد منظري عن مخبري
الا بقية ماء وجه صنتها عن ان تباع وابن ابن المشتري

توفي بدمشق في سنة سبع عشرة وخمسمائة ولم اشهد جنازته . قال ابن شقدة في تاريخ عن صاحب الترجمة : ابن الخياط احمد بن محمد التغلبي الشاعر الكاتب الدمشقي ، امام اهل الادب المشهور عند مؤرخي دمشق بنوادر الفاظه ولطائف شعره وانه نابغة زمانه .

وقال الحافظ ابن عساكر في ترجمة ابراهيم بن طاهر بركات القرشي المعروف بالخشوعي الرفا الصواف الدمشقي ، اعتنى بالحديث ، وقد كتبت عنه ، وكان ثقة ، روينا من طريقه عن الرسول انه قال « مطل الغني ظلم » مات سنة اربع وثلاثين وخمسمائة ودفن بباب الفراديس .

وقال ايضاً في ترجمة اسماعيل بن ابراهيم بن العباس الحسيني ، ولي قضاء دمشق وخطابتها ، مات سنة ثلاث وخمسمائة بدمشق ودفن بها .

وقال في ذكر اسماعيل بن بوري بن طغتكين المعروف بشمس الملوك . ولي امرة دمشق بعد قتل ابيه بوري المعروف بتاج الملوك سنة ست وعشرين وخمسمائة . وكان شهماً مقداماً مهيباً استرد بانياس من ايدي الاعداء في يومين . وكانت الاسماعيلية قد سلمتهم اياها . ولم يزل اميراً على دمشق حتى كتب الى قسيم الدولة زنكي بن آق سنقر يستدعيه ليسلم اليه دمشق فخافته امه زمرد فرتبت له من قتله في قلعة دمشق في شهر ربيع الثاني من سنة تسع وعشرين وخمسمائة . ونصبت اخاه محمود زنكي مكانه .

وقال ايضاً في ترجمة جميل بن تمام بن علي . كتبت عنه شيئاً يسيراً وكان اسن من اخيه يحيى بن تمام . مات في صفر سنة ست وثلاثين وخمسمائة ودفن بمقبرة باب الفراديس .

وقال ايضاً في ترجمة الحسن الهلالي الحوراني المقري التاجر . كان أبوه من اهل حوران وكان يحفظ القرآن بعدة روايات واشتغل بطلب الحديث . وكان يصلي في جامع دمشق بحلقة الحنابلة صلاة التراويح ويقرأ فيها بعدة روايات يخلطها ويردد الحرف المختلف فيه . فانكر عليه ابن قيس . ذلك وقال ان هذا يذهب ترتيب النظم في القرآن . وكان مثرياً مقتراً على نفسه . مات سنة ست واربعين وخمسمائة .

وقال ايضاً في ترجمة حمزة بن اسد بن علي بن محمد الرئيس ابي يعلي التميمي ٣١
المعروف بابن القلانسي الدمشقي العميد الذي كانت له عناية بالحديث . وكان اديباً له خط حسن . شعر ونظم . وصنف تاريخاً للحوادث من سنة اربعين واربعمائة الى حين وفاته وتولى رئاسة دمشق مرتين ومن شعره اللطيف :

يانفس لاتجزعي من شدة عظمت واَيقني من اله الخلق بالفرج
كم شدة عرضت ثم انجلت ومضت من بعد تأثيرها في المال والمهج

وقد وصل في كتابته عن تاريخ دمشق - على ذيل تاريخ ابن عساكر - الى سنة خمس وخمسين وخمسمائة . وطبع هذا الذيل في بيروت سنة ١٣٢٧ كما تقدم معنا في مقدمة الجزء الاول .

وفي سنة ثمان وسبعين وخمسمائة مات بدمشق مسعود بن محمد النيسابوري الامام البارع الشافعي ، كان له قبول عند اهل دمشق . انفرد بالعلم والبلاغة والفصاحة ورئاسة الشافعية ، دفن بمقابر الصوفية تجاه جامع السلطانية عند المرج الاخضر بدمشق ، ذكره ابن عبد الرزاق .

وقال ايضاً وفي سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة مات بدمشق الامير شرف الدين ابو الحزائم عيسى ابن الامير بدر الدين بن كامل المكاري ، كان مقدماً في الدولة ، معروفاً بالاقدام والشجاعة ، حاز كثيراً من الاوصاف الجميلة اختار السكن بدمشق ودفن بجبل قاسيون .

وقال ايضاً وقد اجازني بمصنفاته احمد بن محمد ابو العباس الاندلسي الشاطبي المالكي المقري من اهل شاطبية مدينة من شرقي الاندلس قدم دمشق واقرأ بها القرآن بعدة روايات وصنف كتاب المقنع في القرآآت السبع وقراءة ابي عمرو بن العلاء والتنبيه على قراءة نافع فيما روى عنه ورش وقالون .

وقال بن شقدة وفي احدى وسبعين وخمسمائة مات بدمشق الحافظ بن عساكر صاحب التاريخ الكبير يبلغ ثمانين مجلداً وهو ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي ، محدث الشام ثقة الدين ، قال ابن شهبة : فخر الشافعية وامام اهل الحديث في زمانه وحامل لوائهم . صاحب التاريخ وغيره من المؤلفات المفيدة المشهورة ، مولده في مستهل سنة تسع وتسعين واربعمائة ، رحل الى بلاد كثيرة وسمع الكثير من نحو الف وثلاثمائة شيخ وثمانين امرأة ، وتفقه بدمشق وبغداد ، وكان ديناً خيراً يختم في كل جمعة ختمة وفي رمضان كل يوم ختمة ، معرضاً عن الدنيا والمناصب بعد عرضها عليه كثيراً . يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، قليل الالتفات الى الامراء واصحاب الدنيا . قال الحافظ ابو سعد السمعاني في تاريخه : هو كثير العلم غزير الفضل حافظ ثقة متق دين كريم حسن السمت ، جمع بين معرفة المتون والاسانيد ، صحيح القراءة متثبت محتاط ، رحل وبالغ في الطلب الى ان جمع مالم يجمعه غيره وصنف التصانيف وخرج التخاريج . وقال ابو محمد عبد القادر

الرهاوي : رأيت الحافظ السلفي والحافظ ابا العلا الهمداني والحافظ ابا موسى المدني فما رأيت مثل الحافظ ابن عساكر . مات في رجب . وقل ان يأتي بمثل مؤلفاته النفيسة احد في عمر كامل . له في مناقب الشباب خمسة عشر جزءاً . ومن تصانيفه المشهورة التاريخ الكبير في ثمانين جزءاً . والمعجم مع شيوخه اثنا عشر جزءاً . وتبيين كذب المفتري على الشيخ ابي الحسن الاشعري مجلد . قال الذهبي : ومن تصفح تاريخه عرف منزلته في الحفظ . وكان حسن الكلام على الاحاديث محظوظاً في الجمع ومن اشعاره :

الا ان الحديث اجل علم واشرفه الاحاديث العوالي
وانفع كل يوم منه عندي واحسنه الفوائد والامالي
وانك لن ترى للعلم شيئاً يحققه كأفواه الرجال
فكن يا صاح ذا حرص عليه وخذه من الرجال بلا ملال
ولا تأخذه من صحف فترمى من التصحيف بالداء العضال

ومنها :

ايا نفس ويحك جاء المشيب فماذا التصابي وماذا الغزل
تولى شبابي كأن لم يكن وجاء مشيبي كأن لم يزل
كأني بنفسي على غرة وخطب المنون بها قد نزل
فياليت شعري فما ذا اكون وما قدر الله لي في الازل

دفن عند والده باب الصغير وصلى عليه الشيخ قطب الدين النيسابوري وحضر الصلاة عليه السلطان صلاح الدين الايوبي وقبره الى اليوم موجود يزار ودفن عنده ولده محمد بهاء الدين القاسم كان حافظاً محدثاً كأبيه ابن عساكر ولكن لم يشتهر مثله مات سنة ستمائة .

وقال البصروي وفي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة مات بدمشق ابو العباس احمد بن قدامة خطيب جماعيل . كان صالحاً زاهداً صاحب كرامات وأحوال ظاهرة ومجاهدات وافرة . قرأ في رمضان خمسمائة وستين ختمة . قال الحافظ ابو الفرج كانت عليه مهابة عظيمة لا يراه احد الا قبل يده . وقد حدث

وروى عنه ولداه ابو عمر والشيخ الموفق ودفن بجبل قاسيون على جانبه قبر ولده الشيخ ابو عمر .

وفي سنة ٥٨٣ مات موفق الدين بن المطران عالم بالطب والفلسفة والفنون الادبية ، له جملة مصنفات .

وفي سنة ثمان وتسعين وخمسمائة مات بدمشق قاضي الشام ابن الزكي محي الدين محمد بن قاضي القضاة بن يحيي القرشي ، من ذرية عثمان بن عفان، الشافعي ، ولد سنة خمسين وخمسمائة وروى عن الوزير الفلكي ، وكان إماماً طويل الباع في الانشاء والبلاغة ، فصيحاً كامل السؤدد . قال ابن خلكان، كان ذا فضائل عديدة في الفقه والادب وغيرها من العلوم وله النظم المليح والخطب والرسائل ، تولى القضاء بدمشق وكذلك ابوه وجده وجد ابيه ٥٠ زكي الدين ، وهو اول من ولي من بيتهم القضاء ، وقد اكتفينا بذكر ترجمته لانها شاملة لذكر آبائه وأجداده ، وكانت له عند السلطان صلاح الدين المنزلة العالية . دفن بتربتهم المختصة بهم بسفح جبل قاسيون . وقد قرأ اول خطبة بالقدس بعد الفتح الاسلامي بحضور السلطان صلاح الدين ، اولها « الحمد لله معز الاسلام بنصره ومستدرج اهل الشرك والمنافقين بمكره الذي قدر الايام دولاً بعدله وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والآمر بما يشاء فلا يراجع ... » الى آخر الخطبة التي ابكت العيون وبهرت العقول ، ولضيق المقام اكتفينا بنقل هذا المقدار منها وفي نهايتها قال هذه الابيات الشهيرة ،

في ملكه يفعل ما يريد ما لامرئ عما قضى محيد
ما زال يؤتي الملك من افادا وينزع الملك اذا ارادا
يعز هذا ويذل هذا اذا قضى امراً مضى نفاذا
ليس لما يفعله تعليل وكلما قدره جميل

وفي سنة ٥٧٦ مات عمر بن علي بن البذوخ الدمشقي عالم بالطب وشاعر وله تآليف .

قال الشهاب المنيني في ترجمة ابي البيان محمد بن محفوظ القرشي ويعرف بابن الحوراني، شيخ الطائفة البيانية المنسوبة اليه بدمشق : كان اماماً عالماً عابداً زاهداً ورعاً . روى عن الشيخ البطائحي قال رأيت الشيخ ابا البيان والشيخ ارسلان مجتمعين في جامع دمشق فسألت الله ان يحجبني عنهما وتبعتهما حتى صعدا الى أعلى مغارة الدم المشهورة . وجلسا يحدثان . واذا بشخص آخر اتى فجلسا بين يديه كالمتأدبين وسألاه عن اشياء . من جملتها : أعلى وجه الارض بلد ما رأيته ؟ فقال لا . فقالا له : هل رأيت مثل دمشق ؟ فقال ما رأيت مثلها . وكانا يخاطبانه أبا العباس القرشي . قال ابن كثير في الطبقات . وله تأليف كثيرة وتعاليق وطرق واذكار واشعار ربانية وزهدية وكان يجاور الشيخ ارسلان في المسجد الذي عند باب توما . مات سنة احدى وخمسين وخمسمائة بدمشق يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الاول .

قال ابن عبد الرزاق في تاريخه في ترجمة من دفن بدمشق ومنهم السلطان نور الدين الشهيد محمود ابن زنكي الملك العادل العالم الحنفي . ولد سنة احدى عشرة وخمسمائة . جاهد وغزا وفتح حصوناً كثيرة . واظهر العدل . قصد دمشق مرتين وفي الثالثة ملكها واحصن سورها وبنى فيها المدارس والمساجد ونشر العلم ووقف فيها اوقافاً كثيرة . جاء في كتاب الاشارات : وهو اول من بنى داراً للحديث بدمشق ووقف كتباً كثيرة بها . وقد جمع مع الشجاعة كثرة العبادة . وكان فقيهاً متواضعاً يحب العلماء ورجال الدين ويبرهم ويجلهم . منع شرب الخمرة وبيعها في جميع البلاد . وقضى ليله ونهاره على عدل ينشره وجهاد يجهزه ومظلمة يزيلها واحسان يوليه . واذا أراد ان يصرف شيئاً من بيت المال أحضر القضاة والفقهاء واستفتاهم في اخذ مايحل له فأخذ ما افتوه بحله . ومن جملة عدله انه أزال المكس ومنع الضرر من جميع مملكته في الشام ومصر والموصل وغيرها . وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف المظلمة بنفسه . وكان لايحيد عن ميزان الشرع . وهو الباني لاسوار الشام وقلاعها . وبنى المدارس والجوامع والمارستانات بها . ومن اعظمها مارستان دمشق فانه

كثير المصرف والنفع حيث جعله على الناس كافة من فقير وغني . ومن أعظم اوقافه ايضاً وقف القرية المعروفة بداريا الكبرى . جعل جميع ما يحصل فيها من القمح في كل سنة للفقراء واليتامى والمساكين وقدر محصولاتها في كل سنة نيف واربعماية غرارة وقد صار الآن اكثرها بايدي من لا يستحقها اه . مات سنة تسع وستين وخمسماية ودفن بقلعة دمشق ثم نقل الى تربته داخل المدرسة التي بناها للعلماء الحنفية جوار الخواصين في الشارع الغربي . وقد ترجمه البصري وغيره من المؤرخين واثنوا عليه بخير . قال ابو شامة الدمشقي : نظرت في سير الملوك كلها فما رأيت بعد عمر بن عبد العزيز مثل نور الدين محمود زنكي وكفاه بذلك منقبة وفخراً . ثم قال وقد بنى البيمارستان بدمشق وهو اجمل البناء عظيم الاقتناء كثير الخرج جداً . وقف له قرى ومزارع مكتوبة على الحجر منقوشة بنقش بديع لم يزل اثره باقياً يقرأ على باب المدرسة . ولولا ضيق المقام لاثبتنا ذلك بنصه فمن شاء ان يطلع على هذا الأثر العظيم فليذهب اليه . وقد تقدم معنا بعض من ذكر حياته وسيرته وفتوحاته .

وفي سنة خمس وثمانين وخمسمائة مات بدمشق عبدالله بن محمد بن هبةالله بن ابي عصرون التميمي الدمشقي قاضي القضاة كان امام الشافعية في عصره واليه المنتهى في الفتاوى والاحكام . ومن اكبر تلامذته الحافظ ابن عساكر . دفن بمدرسته المعروفة به قرب قلعة دمشق في المكان الذي سمي باسمه . توجه لحلب واقبل عليه السلطان نور الدين فقدم معه عندما افتتح دمشق سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وله مصنفات كثيرة منها (الانتصار) في سبع مجلدات و(صفوة المذهب ونهاية المطلب) في سبع مجلدات . وقال ابن الصلاح في طبقاته . كان من افقه اهل عصره والمرجع في الوحيد في القضاء . وتفقه به خلق كثير . وبنى له نور الدين محمود زنكي المدارس بحلب وحماة وحمص وبعلبك وبنى هو لنفسه مدرسته المذكورة ودفن بها وله من العمر ثلاث وتسعون سنة .

وقال ايضاً وفي سنة تسع وثمانين وخمسمائة مات الملك الناصر العالم العادل

فاتح الفتوحات السلطان صلاح الدين يوسف بن الافضل نجم الدين ايوب وكان يوم موته يوماً لم يصب الاسلام والمسلمين بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين والصحابة المجاهدين . وقد تقدم معنا مختصر سيرته وخلاصة ترجمة حياته وشرح فتوحاته. ودفن عند وفاته في قلعة دمشق ثم نقل الى مدفنه شمالي الكلاسة وبنيت عليه قبة عظيمة سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وبعد ذاك التاريخ درست هذه القبة وبقيت الى سنة الف ومائتين واربع وتسعين هجرية حيث جددت هذه التربة كما تقدم معنا في محلها . ثم ان ولده الملك العزيز لما اخذ دمشق من اخيه الملك الافضل بنى الى جانب هذه القبة المدرسة العزيزية لصيق الكلاسة ووقف عليها وقفاً جيداً وجعل في القبة شباكاً مطلاً الى هذه المدرسة وقد طرأ على هذه المدرسة ما طرأ على غيرها من الاندثار ومحلها باق الى اليوم يمكن تجديد بنائها وما ذلك على اهل الخير من المسلمين بعزيز .

وفي سنة ثلاث واربعين وخمسمائة مات بدمشق تقي الدين بن الصلاح وهو عثمان بن عبد الرحمن الكردي الشهرزوري كان مفتياً في مذهب الشافعية اماماً في التفسير والحديث والفقه متبحراً في الاصول دفن بمقابر الصوفية على الطريق تجاه التكية السليمانية او جامعها - مقر المستشفى اليوم

وفي سنة خمس وخمسمائة مات بدمشق ابو المجد محمد بن ابي الحكم الباهلي من الحكماء والعلماء وامام في الصناعة الطبية وفي علم الهندسة وعلم النجوم . كان يعرف علم الموسيقى ويلعب بالعود ويعمل ارغناً .وكان في دولة نور الدين الشهيد . ولما عمر البيمارستان الكبير جعل امر الطب اليه فيه . يعني رئيساً . وكان نور الدين قد وقف لهذا المعهد جملة كبيرة من الكتب الطبية وغيرها من النفائس (اقول ان الاوقاف التي هي ثابتة في الارض معلومة الحدود ذهبت بطول الزمان وذهب شكلها فما بالك بالاشياء المنقولة التي تنقل بالايدي هل يدوم بقاؤها)

قال في الطبقات وفي سنة تسع وتسعين وخمسمائة مات بدمشق ابو الفضل محمد بن عبد الكريم المهندس الحارثي ولد ونشأ بدمشق . وكان يعرف

بالهندسة لجودة معرفته واشتهاره بها قبل ان يتحلى بمعرفة صناعة الطب . وكان في اول امره نجاراً وينحت الحجارة . وباب البيمارستان النوري واكثر ابواب الخانات النفيسة هي صنع يده من حجارة ونجارة واشتغل ايضاً بصناعة النجوم وعمل الزيجات . تفرد في زمانه في العلوم الحكمية والفلكية والرياضية وله مصنفات في رؤية الهلال . واختصر الاغاني الكبير لابي الفرج الاصفهاني في عشرة مجلدات وقفها بدمشق لكي توضع في الجامع الاموي مضافاً الى الكتب الموقوفة في مقصورة ابن عروة الشهيرة بوقعها في الجامع . ووقف لها كتاباً الفه في الحروب والسياسة . وقال بعضهم انه مات سنة ستمائة والله اعلم .

وفي تلك السنة مات بدمشق موفق الدين عبد العزيز السلمي . كان في اول امره فقيهاً في المدرسة الامينية القريبة لجامع دمشق . واشتغل بعد ذلك في صناعة الطب وجعل دأبه علمها وعملها وصار متميزاً بها في البيمارستان ثم صار طبيب الملك العادل ابي بكر ابن ايوب وكان شديد الشفقة على الفقراء يعطيهم ما يحتاجونه من الادوية والاغذية مات بعلة القولنج . وينسب اليه القول المشهور :

وفي خمس توق الماء حتماً فتلك الخمس مجلبة السقام
عقيب الاكل والاعيا وباه وحمام وصحو من منام

وكان يروي الحديث عن الطبراني « من شرب الماء على الريق نقصت قوته »

ومنهم محمد بن حرب النحوي الشاعر الحلبي نزيل دمشق مات بها سنة ٨٠٠ ه نقل عنه انه قال رأيت في النوم انساناً ينشدني هذا البيت .

اروم عطاء الايام والدهر مهلكي عمر لها والدهر رهن عطاهـا

ثم قال فأجزته بابيات .

ايا طالب الدنيا الدنية انها ستر ديك يوماً ان علوت مطاها
صن النفس لا تركن اليها فان ابت فردد عليها آي آخر طاها

ومنهم ابو زكريا يحيى البياسي من اطباء السلطان صلاح الدين . عمل لاستاذه في الطب ابن النقاش علي بن عيسى بن هبة الله آلات كثيرة تتعلق بالهندسة وكان يعرف النجارة . وابن النقاش هذا كان اوحد زمانه في صناعة الطب وله مجلس عام للمشتغلين عليه . وكان يعالج ايضاً كتابة الانشاء مات سنة ٥٧٤ .

ومن شعراء وفقهاء العصر السادس ايضاً كمال الدين الشهرزوري الكاتب الاديب مات سنة ٥٧٢ .

ومنهم عبد القاهر بن عبد الله الوأواء الشاعر الاديب وقد طبع ديوانه حديثاً وتقدم معنا في العصر الرابع ذكر جده محمد حسان بن نمير العقيلي الدمشقي الشاعر الاديب توفي سنة ٥٦٧



اسماء رجال العصر السابع من الهجرة

وفي سنة ثلاثة وستمائة مات بدمشق جمال الدولة واقف الاقبالتين اقبال الخادم بالقدس ، بعد ان وقف داره بدمشق مدرستين شافعية وحنفية ووقف عليهما مواضع وخيرات . الثلثان على الشافعية والثلث على الحنفية وقد يأتي معنا ذكرها

وفي تلك السنة مات بدمشق محمد بن كامل ابو المحاسن التنوخي الدمشقي سمع الحديث من طاهر بن سهل بن الاسفرائيني . وممن حدث عنه الفخر بن البخاري . ذكره ابن طولون .

وفي سنة ست وستمائة جلس سبط ابن الجوزي بجامع دمشق ووعظ وحث على قراءة العلم والجهاد وكان الناس من باب الساعات الى مشهد زين العابدين ونقل انه اجتمع عنده شعور كثيرة وقد ذكر ابو قدامة الشامي حكايته مع تلك المرأة التي قطعت شعرها و بعثت به اليه . وقالت اجعله قيداً لفرسك في سبيل الله . فعمل من الشعور التي عنده مجتمعة شكلة لخيل المجاهدين .

ولما صعد المنبر أمر باحضارها فكانت ثلاثمائة شكال . فلما رآها الناس صاحوا صيحة واحدة واحضروا مثلها ؛ وكان والي دمشق حاضراً والاعيان . فلما نزل عن المنبر قام والي دمشق ومشى مع السبط وركب، وركب الناس وخرجوا الى خارج البلد وتوجهوا نحو العدو . وكانوا خلقاً لا يحصون كثرة . وساروا الى نابلس لقتال الافرنج ، فنصروا عليهم واسروا منهم وهزموهم وهدموا وقتلوا عدداً كبيراً ورجعوا سالمين غانمين . وفي سابع شوال من عودتهم في تلك السنة شرعوا في عمارة مسجد المصلى بظاهر دمشق المعمور والمعروف الى اليوم بجامع باب المصلى المجاور لمسجد النارنج برسم صلاة العيدين وفتحت له الابواب من كل جانب وبني له منبر كبير عال وسيأتي معنا ذكره في باب المساجد .

وفي تلك السنة مات بدمشق ادريس بن محمد ابو القاسم العطار المعروف بالوالوية الدمشقي ، روى العلوم عن محمد بن ابي در الصالحاني وقيل انه جاوز المائة .

وفي تلك السنة مات بدمشق اسعد ويسمى الشيخ بن المنجا بن بركات بن المؤمل التنوخي المعري ، ثم الدمشقي الحنبلي ، القاضي الملقب بوجيه الدين ابو المعالي ، ويقال في كنية ابيه ابو المنجا وفي جده ابو البركات ، سمع بدمشق من ابي القاسم السوسي وهو واقف المدرسة الوجيهية برأس باب البريد ، وهي مدرسة قريبة من مدرسة الخاتونية الجوانية وبها خلاوي كثيرة ولها اوقاف كثيرة اختلستها الايدي بطول الزمان ، وسيأتي معنا ذكرها في باب المساجد . قال المنذري وتفقه في بغداد على مذهب الامام احمد . وقال الذهبي اخذ الفقه عن الشيخ عبد القادر الجيلي دفين بغداد وغيره وتفقه بدمشق على شرف الاسلام عبد الوهاب ابي الفرج . واخذ عن الشيخ الموفق ، وروى عنه جماعة . وقال ناصح الدين ابن الحنبلي ، وكان ابن المنجا يدرس في مدرسة المسمارية يوماً وأنا يوماً ثم استقللت بها في حياته ؛ وكان له اتصال بالدولة وخدمة السلاطين له تصانيف عديدة منها : كتاب الخلاصة في الفقه

والعمدة والنهاية في شرح الهداية في بضعة عشر مجلداً . وسمع منه جماعة منهم الحافظ المنذري وابن خليل وابن البخاري ودفن بسفح جبل قاسيون.

وفي سنة سبع وستمائة مات بدمشق الشيخ ابو عمر المقدسي الزاهد محمد ابن قدامة بن مقدام الحنبلي القدوة اخو العلامة موفق الدين . ولد بجماعيل سنة ثمان وعشرين وخمسمائة وهاجر الى دمشق لاستيلاء الافرنج عليها وعلى البلاد المقدسة وارضها . كان اماماً فاضلاً مقرئاً عابداً كثير النفع لخلق الله ذا اوراد وتهجد واجتهاد وأوقات مقسمة على الطاعات من الصلاة والصيام والذكر وتعلم العلم والفتوى . فلقد كان عديم النظير في زمانه خطب بجامع الجبل الى ان مات . قاله في العبر . وقال ابن رجب في طبقاته هاجر بوالده وباخيه الموفق واهلهم الى دمشق لاستيلاء الافرنج على الارض المقدسة فنزلوا بمسجد ابي صالح ظاهر باب شرقي فأقاموا به مدة نحو سنتين ثم انتقلوا الى الجبل . قال ابو عمر صاحب الترجمة : سمانا الناس الصالحين وذلك بنسبتنا الى مسجد ابي صالح لا انا صالحون. وقد حفظ القرآن بحرف ابي عمرو ومختصر الخرقي في الفقه . كتب بخطه كثيراً من الكتب منها : الحلية لابي نعيم وتفسير البغوي . والمغني في الفقه لاخيه الشيخ موفق الدين : والابانة لابن بطة وكان يكتب في اليوم كراسين : قال الحافظ : كان لايسمع دعاء من احد الا حفظه . وبهمه قضاء حوائج الناس . ولا يسمع ذكر صلاة الاقرأ ودعابه. ولا حديثاً . الا عمل به . قائم الليل من وقت شبوبيته . مات وهو عاقد على اصابعه يسبح الله عز وجل . يكثر الصيام ولا يسمع بجنازة الا حضرها . ولا مريض الا عاده . ولا بجهاد الا خرج فيه . يزور القبور بعد العصر في كل جمعة . وكان يؤثر الفقراء بما عنده من ثيابه للصدقة حتى يبقى في الشتاء بجبة بغير قميص . وكان اذا جاءه شيء الى بيته فرقه على جيرانه ومحتاجيه . وكان اذا خطب ترق له القلوب وتبكي الناس بكاء كثيراً لاخلاصه وهيبته في القلوب . لا كخطباء هذا الزمان . وقد اطال الضياء وسبط بن الجوزي في المرآة ترجمته . ومن جملتها انه كان يحمل من الجبل الدقيق

والدراهم الى بيوت الارامل والايتام في الليل والنهار ولا يعرفونه . وكان ينهي عن صحبة المبتدعين ويأمر بصحبة الصالحين . قال وانشدني لنفسه :

اوصيكم في القول بالقرآن　　بقول اهل الحق والايقان
ليس بمخلوق ولا بفاني　　لكن كلام الملك الديان
اياته مشرقة المعاني　　متلوة في اللفظ باللسان
محفوظة بالصدر والجنان　　مكتوبة بالصحف بالبنان
والقول في الصفات يا اخواني　　كالذات والعلم مع البيان
أمرارها من غير ما كفران　　من غير تشبيه ولا عدوان

ويقال انه لم يكن شيء من انواع البر الا وموضوع في مدرسته من خبز وأكل متنوع في كل يوم . وطعام بلحم في رمضان مع كنافه ومشبك . وطعام مختلف في الاعياد . وحلوى في موسم رجب وشعبان . وزبيب وقضامه في كل شهر مع صابون وحلاوة دهنية عند ختان الاولاد . وقمصان وسراويل في كل سنة . نقله الامام ابن مفلح بخطه دفن بقاسيون في تربته الخاصة وهي الآن محكمة الصالحية جانب المدرسة التي وقف عليها قرية بوادي بردى تسمى الكفر وعشرين قيراطاً من جميع قرية بيت سوى في الغوطة . واحكار بعض بيوت الصالحية . وعلى قبره قبة عظيمة على جانب الطريق قال ابن خلكان : كان كريماً نبيل القدر عالي الهمة بنى بالقاهرة في مصر القيسارية الكبرى المنسوبة اليه رأيت جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون لم نر في جميع البلاد مثلها في حسنها وعظمها واحكام بنائها . بنى باعلاها مسجداً كبيراً وربعاً معلقاً .

وقال البصروي ايضاً في ترجمته . وذكر له فضائل وفوائد لم يسعنا ذكرها فوق ما ذكرناه .

وفي تلك السنة مات بدمشق ابن عنين الصدر ابو المحاسن محمد بن نصر الله بن مكارم الانصاري الدمشقي الاديب . له ديوان مشهور . قال ابن خلكان : كان مولعاً بالهجاء وثلب أعراض الناس وقد نفاه السلطان صلاح الدين من

دمشق بسبب وقوعه في الناس ولما تولى الملك العادل دمشق كتب له قصيدته الرائية المشهورة يستأذنه في الدخول الى دمشق حسب الاصول وهي طويلة جميلة لم يسعنا ذكرها وفي نهايتها يقول :

ومن العجائب ان يفيل بظلكم كل الورى ونبذت وحدي بالعرا

وهو بيت القصيد فامر له الملك بالدخول . ويحكي عن ابن عنين انه كان يوماً فخر الدين الرازي في الدرس فصادف ان شاهينا لحق حمامة فخافت منه وسقطت في حجر فخر الدين وكان ابن عنين حاضراً فقال :

جاءت سليمان الزمان حمامة والموت يلمع من جناحي خاطف

من اعلم الورقاء ان مقامكم حرم وانك مأمن للخائف

وفي عصر البدر الغزي قيل من طرفه لاحد مدرسي الجامع الاموي واسمه سليمان ونقل بعضهم انه دفن بمسجده الذي انشأه في المزة .

قال ابن شقدة وفي سنة ثلاث عشرة وستمائة مات بدمشق الشيخ شرف الدين احمد بن قدامة المقدسي الحنبلي ، كان فقيهاً عالماً عاملاً ، جمع الله له بين حسن الخلق والخلق والامانة وقضاء حوائج الناس والكرم والاحسان الى الضعفاء والمرضى . وكان يقول الحق ولايحابي احداً ، دفن بسفح جبل قاسيون . ورثاه غير واحد . ولما توفي هؤلاء الثلاثة الاحبار المقدسيون : المحب . والعز . والشرف . في مدد متقاربة رثاهم شيخ الاسلام موفق الدين بقوله :

مات المحب ومات العز والشرف أئمة سادة مامنهم خلف

كانوا أئمة علم يستضاء بهم لهفي على فقدهم لو ينفع اللهف

ما ودعوني غداة البين اذ رحلوا بل أودعوا قلبي الاحزان وانصرفوا

وهي طويلة لا يسعنا اضيق المقام ذكرها .

وجاء في الطبقات في ترجمة مهذب الدين احمد بن الحاجب : كان مشهوراً في الصناعة الطبية متقناً للعلوم الرياضية معتنياً بالادب واللغة وعلم النحو . ولد ونشأ بدمشق واشتغل بصناعة الطب على مهذب بن النقاش . كان كثير الصيام

يعتكف في جامع دمشق اربعة اشهر واكثر . ولاجله عمر السلطان صلاح الدين المقصورة التي بالكلاسة شمال الجامع الاموي وله كتاب الزيج المشهور والمنير في الفرائض . وغريب الحديث عشر مجلدات . وله في الطب والشعر كثير من التآليف . مات في عصر الملك المنصور صاحب حماة.

ونقل ايضاً في ترجمة فخر الدين رضوان بن محمد الساعاتي انه ولد ونشأ بدمشق وكان فريداً في معرفة عمل الساعات التي توضع عند باب الجامع الاموي بدمشق في زمن الملك نور الدين الشهيد وله اليد الطولى في صناعة الطب ايضاً ومحباً لكتب وكلام ابن سينا . مات بدمشق سنة ستمائة ونيف .

وفي سنة ثلاث عشرة وستمائة مات بدمشق العلامة تاج الدين الكندي زيد ابن الحسن البغدادي المقري النحوي اللغوي شيخ الحنفية والقراء والنحاة بالشام وسند العصر أكمل القرآت العشر وله من العمر عشرة اعوام . وهذا مما لا نعلمه قد تهيأ لاحد سواه . قرأ على الشيوخ بالروايات الكثيرة واتقن عليهم العربية وقال الشعر الجيد . ونال الجاه الوافر . كان الملك المعظم مديماً الاشتغال عليه وكان ينزل اليه من قلعة دمشق . مات في سادس شوال ونزل الناس بموته درجة في القرآت والحديث لانه آخر من سمع من القاضي ابي بكر وابي محمد الجوهري والقطيعي والكرخي وجماعته روى عنهم سائر العلوم لعله في العمر . ومن شعره :

تمنيت في عصر الشبيبة انني اعمر والاعمار لا شك ارزاق
فلما اتاني ما تمنيت ساءني من العمر ما قد كنت اهوى واشتاق
وها انا في احدى وتسعين حجة لها في ارعاد مخوف وابراق
يقولون ترياق لمثلك نافع ومالي الا رحمة الله ترياق

وفي تلك السنة مات بدمشق العز محمد ابن الحافظ المقدسي ابو الفتح . سمع بدمشق من ابي الفهم عبد الرحمن ابن ابي العجائز وطائفة . وكتب الكثير من الكتب في الحديث . كان موصوفاً بجودة الحفظ والفهم . قال الضياء : كان حافظاً لسائر الفنون . ثم وصفه بالديانة المتينة والمروءة التامة . وقال ابو

شابة . صحب الملك المعظم عيسى سلطان دمشق وسمع الكثير . وقال الذهبي: روى عنه ابناه تقي الدين الحصني السادة الاشراف بدمشق احمد وعز الدين وعبد الرحمن والحافظ ضياء الدين والشهاب القوصي وابن البخاري وآخرون. دفن بسفح جبل قاسيون .

وفي سنة اربع عشرة وستمائة مات بدمشق الشيخ العماد ابو اسحق ابراهيم ابن عبد الواحد المقدسي الحنبلي اخو الحافظ عبد الغني . حفظ الخرقي والغريب للعزيزي والقى الدروس ولازم واشتغل . كان متصدياً لتدريس الفقه ورعاً متواضعاً مفضالاً . وقال الحافظ الضياء : كان عالماً بالحديث والنحو والفرائض وغير ذلك من العلوم وصنف كتاب الفروق في المسائل الفقهية . وكان من كثرة اشتغاله واشغاله لا يتفرغ للتصنيف والكتابة . وكان يشغل نفسه بجامع دمشق من الفجر الى العشاء بالدروس والصلاة وكان داعية الى السنة وتعلم العلم . وما علم انه ادخل نفسه في شيء من امر الدنيا ولا تعرض ولا نافس فيها احداً . وكان كثير الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ويحب الصدق بالقول . قال الراوي سمعته يقول لرجل كيف ولدك . فقال يقبل يدك ... فقال لا تكذب . وقال الضياء : كان يوم وفاته صائماً فاضطر على شيء يسير ولما جاء الموت جعل يقول « يا حي يا قيوم برحمتك استغيث » وقال سبط ابن الجوزي غسل وقت السحر واخرجت جنازته الى جامع دمشق فما وسع الناس . وصلى عليه الموفق بحلقة الحنابلة . وكان يوماً لم ير في الاسلام مثله : كان اول الناس عند مغارة الدم ورأس الجبل الى الكهف وآخرهم بباب الفراديس وما وصل الى الجبل الى آخر النهار . قال وتأملت الناس من اعلا قاسيون الى الكهف الى قريب الميطور لو رمى عليهم الانسان ابرة لما ضاعت . قال السبط ثمت فرأيت العماد في النوم وعليه حلة خضراء وعمامة في مكان متسع فقلت يا عماد كيف بت فاني مفكر فيك . فنظر الي وتبسم على عادته وقال :

رأيت الهي حين انزلت حفرتي وفارقت اصحابي واهلي وجيرتي
فقال جزيت الخير مني فانني رضيت فها عفوي لديك ورحمتي

وانت زماناً تأمل الفوز والرضى فوقيت نيراني ولقيت جنتي

وقد ترجمه جماعة من علماء دمشق ومؤرخيها كالبصروي وابن عبدالرزاق في ترجمة طويلة لم يسعنا ذكرها .

وفي تلك السنة مات بدمشق ابن الحرستاني قاضي القضاة جمال الدين ابو القاسم عبد الصمد بن محمد بن ابي الفضل الانصاري الخزرجي الدمشقي الشافعي . سمع بن عبد الكريم بن حمزة وجمال الاسلام وطاهر ابن سهل الاسفرائيني وغيرهم من الدمشقيين ودرس وافتى وبرع في المذهب وانتهى اليه علم الاسناد . وكان من قضاة العدل . قال ابن شهبة تفرد بالروايات عن اكثر شيوخه ورحل الى حلب وتفقه بها على المحدث الفقيه ابي الحسن المرادي وناب في القضاء عن ابن ابي عصرون . ثم ولي قضاء الشام في آخر عمره . درس بالعزيزية وكان يجلس للحكم بالمجاهدية وكان اماماً عارفاً بالمذهب . محمود الاحكام حسن السيرة قال ابو شامة انه مرجح على فخر الدين بن عساكر . قال سبط بن الجوزي لا تأخذه في الله لومة لائم . اتفق اهل دمشق على انه ما فاته صلاة بجامع دمشق الا اذا كان مريضاً . مات وهو ابن خمس وتسعين سنة .

وفي تلك السنة مات بدمشق الشجاع محمود الدباغ . كانت له ثروة عظيمة ووقف مدرسة للشافعية والحنفية داخل باب الفرج بدمشق تعرف بالدباغية .

وفي تلك السنة مات بدمشق القاضي شرف الدين ابن الزكي القرشي ابو طالب عبد الله بن زين القضاة عبد الرحمن بن سلطان بن يحيى بن علي الدمشقي الشافعي . قال بن شهبة ناب في القضاء عن ابن عمه القاضي محيي الدين ابن الزكي وعن ابيه . ودرس بالرواحية فكان اول من درس بها ودرس بالشامية البرانية . وقال ابن كثير في تاريخه انه اول من درس بها ايضاً . وقال سبط بن الجوزي كان فقيهاً نزيهاً . وقال الشهاب القوصي كان ممن زاده الله بسطة في العلم والجسم .

وفي تلك السنة مات بدمشق السلطان سيف الدين ابو بكر محمد بن الامير نجم الدين ايوب بن شاوي . ولد ببعلبك حال ولاية ابيه عليها ونشأ في خدمة السلطان نور الدين مع ابيه . وكان اخوه صلاح الدين يستشيره ويعتمد على رأيه وعقله ودهائه . ولم يكن احد يتقدم عليه عنده . ثم تنقلت به الاحوال واستولى على الممالك الغربية وسلطن ابنه الكامل على الديار المصرية وابنه الملك المعظم على الشام وابنه الملك الاشرف على جزيرة العرب وابنه الملك الاوحد على خلاط وابن ابنه المسعود على اليمن . وكان شيخ الملوك جليلاً سعيداً طويل العمر عميق الفكر بعيد الغور . جاعاً للمال ذا حلم وسؤدد وبر كثير . كان يضرب المثل بكثرة أكله . ولم يكن محبباً الى الرعية لجيئه بعد الدولتين النورية والصلاحية . خلف سبعة عشر ابناً سلطن منهم الكامل والمعظم والاشرف والصالح وشهاب الدين غازي صاحب ميافارقين له من العمر بضع وسبعون سنة ودفن بالمدرسة . وهو الذي بنى باب السلام أحد أبواب دمشق الشهيرة القديمة الباقي أثره وبناؤه الى اليوم وعليه تاريخ تمام بنائه في سنة احدى واربعين وستمائة وعليه اسمه .

وفي تلك السنة ماتت بدمشق ست الشام الخاتون اخت الملك العادل بنت ايوب . كانت كثيرة البر والصدقة بابها ملجأ القاصدين . وهي ام حسام الدين زوجها محمد بن شيركوه صاحب حمص وبنت مدرسة وتربة بالعونية على الشرف الشمالي من دمشق . ووقفت دارها قبيل موتها مدرسة وهي التي الى جانب المارستان النوري . ووقفت عليها اوقافاً كثيرة . دفنت بتربتها بالعونية وكان خادمها كافور الحسامي ولها نيف وثلاثون محرماً من الملوك سوى أولادهم . فأخوتها صلاح الدين والعادل وسيف الاسلام وولده .

جاء في الطبقات في ترجمة حكيم الزمان عبد المنعم الجلياني الغساني الاندلسي : اتى من الاندلس الى دمشق وأقام بها الى ان مات في سنة خمس عشرة وستمائة . وعمر عمراً طويلاً . كانت له دكان في اللبادين لصناعة الطب والكحل واعمالها . كان بارعاً في الادب وصناعة الشعر والاراجيز . وكان

الملك صلاح الدين يوسف يحترمه لانه فريد زمانه وله اليد الطولى في صناعة الكيمياء .

وفي سنة خمس عشرة وستماية في شهر محرم مات بدمشق الشهاب فتيان بن علي الاسدي الحنفي الدمشقي المعروف بالشاغوري نسبة الى بلاد الشاغور التي تشتمل على قرى وبلاد في أواسط آسيا بين عكا وطبريا واهم قراها المنصورة ومجدل واهلها مسلمون ودروز ونصارى — وكان هذا الشهاب منها — وهو من الشعراء الافاضل ماهراً . قدم على الملوك ومدحهم وعلم اولادهم ، وله ديوان شعر ، سكن بدمشق في محلته المعروفة بالشاغور التي اشتهرت به الى هذا اليوم واقام مدة في الزبداني ، وله فيها اشعار لطيفة . فمن ذلك قوله وقد سقط عليه الثلج :

قد اجمد الخمر كانون بكل قدح   واخمد الجمر في الكانون حين قدح
يا جنة الزبداني انت مسفرة   بحسن وجه اذا وجه الزمان كلح
فالثلج قطن عليك السحب تندفه   والجو يحلجه والقوس قوس قزح

دفن بباب الصغير .

وفي سنة سبع عشرة وستماية مات بدمشق المبارك المجاهد الشيخ عبد الله اليونيني وهو ابو عثمان بن عبد العزيز بن جعفر الزاهد العابد أسد الشام تام الشجاعة كثير الجهاد ، يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر . وكان الامجد صاحب بعلبك يزوره فكان ينهاه ويقول له يا امجد انت تظلم وتفعل وهو يعتذر اليه ، وكان ينشد هذه الابيات ويبكي :

شفيعي اليكم طول شوقي اليكم   وكل كريم للشفيع قبول
وعذري اليكم انني في هواكم   اسير ومأسور الغرام ذليل
فان تقبلوا عذري فأهلاً ومرحباً   وان لم تحنوا فالمحب حمول
سأصبر لا عنكم ولكن عليكم   عسى لي الى ذاك الجناب وصول

جاء في العبر انه دفن في بعلبك ، وقال السخاوي : اقتات سنة بثلاثة دراهم اشترى بدرهم دقيقاً ، وبدرهم سمناً ، وبدرهم عسلاً ، ولته وجعله على عدد

ايام السنة كيباً . يفطر كل ليلة على كبة . وقال ابن شهبة في تاريخ الاسلام : اصله من قرية من قرى بعلبك يقال لها يونين وكان صاحب رياضات ولم يقم لاحد قط تعظيماً لله تعالى . ولا ادخر ولا لمس بيده ديناراً ولا درهماً مالبس قط سوى الثوب الخام وقلنسوة من جلود الغنم . وما قامت غزوة بالشام الا حضرها .

وفي سنة تسع عشرة وستمائة مات بدمشق ابو الفضائل شهاب الدين عبدالكريم بن نجم الدين الشيرازي الدمشقي ابن الحنبلي . قال ابو شامة هو اخو البهاء والناصح وهو اصغرهم . وكان ابرعهم في الفقه والمناظرات والمحاكمات الفكرية بصيراً بما يجري عند القضاة في الدعاوي والبينات . درس بمدرسة جده بدمشق . وهي الحنبلية جوار الرواحية – سكن بني الاسطواني الافاضل – وقال ابن الساعي في تاريخه : كان فقيهاً عارفاً بالمذهب والخلاف . برع وافتى وناظر . وقال غيره : كان ذا قوة وشهامة وانتزع مسجد الوزير من يد السخاوي وبقي للحنابلة . دفن بسفح جبل قاسيون .

وفي سنة عشرين وستمائة مات بدمشق عبد الرحمن بن محمد بن عساكر ابن اخي الحافظ ابي القاسم صاحب تاريخ دمشق كان فقيه وقته وشرف الدين احمد بن هبة الله بن عساكر مسند دمشق .

وفي تلك السنة مات بدمشق الشيخ موفق الدين المقدسي . احد الائمة الاعلام ابو محمد عبد الله بن احمد بن محمد بن قدامة الحنبلي صاحب التصانيف ولد بجماعيل سنة احدى واربعين وخمسمائة وهاجر مع اخيه الشيخ ابي عمر سنة احدى وخمسين وخمسمائة . وحفظ القرآن وتفقه وانتهت اليه معرفة المذهب واصوله . كان يفحم الخصوم بالحجج والبراهين . قال بعضهم لا يوجد في زماننا أحد ادرك درجة الاجتهاد الا الشيخ الموفق . اشتغل بتصنيف كتاب (المغني في شرح الخرقي) فبلغ الامل في اتمامه وهو كتاب بليغ في في المذهب بعشر مجلدات : قال سبط بن الجوزي انه كان يحضر مجلسه العلماء دائماً بجامع دمشق وقاسيون وانتفع بعلمه طائفة كثيرة . وقال ابو

شامة كان شيخ الحنابلة اماماً من أئمة المسلمين وعلماً من اعلام الدين في العلم والعمل ، صنف كتباً حساناً في الفقه وغيره ، عارفاً بمعاني الاخبار والآثار ، سمعت عليه اشياء منها جاء مرة الملك العزيز بن الملك العادل يزوره فصادفه يصلي فجلس بالقرب منه الى ان فرغ من صلاته ثم اجتمع به ولم يتجوز في صلاته وقال العباس بن تيمية ما دخل الشام بعد الامام الاوزاعي افقه من الموفق كان اماماً في الحساب والفلك وعلم النحو بعيداً عن الدنيا واهلها والمناصب واربابها . وقال ابن رجب شيخ الحنابلة والمحدثين بدمشق : كان كثير المتابعة المنقول في باب الاصول وغيره ، لايرى اطلاق مالم يؤثر من العبادات ويأمر بالاقرار والامرار لما جاء في الكتاب والسنة من الصفات من غير تغيير ولا تكييف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تأويل ولا تعطيل . ومن تصانيفه في اصول الدين (البرهان في مسألة القرآن) و (منهاج القاصدين في فضائل الخلفاء الراشدين) وشرح رسالة فخر الدين بن تيمية في عدم تخليد اهل البدع في النار . ورسالة في مسألة تحريم النظر في كتب اهل الكلام . وله في علم الحديث (مختصر العلل) وفي الفقه (المغني ، والمقنع ، ومختصر الهداية ، والعمدة) ورسالة في ذم الوسواس ومناسك الحج والفتاوي والروضة في اصول الفقه وله كتب في اللغة والانساب ، وله كتاب التوابين والمتحابين في الله تعالى وكتاب الرقة والبكاء ونحو ذلك كثير ، انتفع بتصانيفه المسلمون عموماً واهل المذهب خصوصاً . قال ابن عبد السلام ما رأيت في كتب الاسلام العلمية مثل المحلى والمغني لابن قدامه في جودتها وتحقيق مافيها . دفن بسفح قاسيون . نقل المبرد في كتاب له سماه تأذي الابرار بجوار الاشرار ، وعن انتفاع من دفن بجوار الشيخ وغيره من الصالحين .

وفي تلك السنة ايضاً مات في دمشق فخر الدين ابو منصور عبد الرحمن ابن محمد بن الحسن بن هبة الله الامام المفتي الشافعي بدمشق ، سمع من عميه الصائن والحافظ ابي القاسم وحسان الزيات . وبرع في المذهب على القطب النيسابوري وتزوج بابنته ، درس بالجاروخية ثم بالصالحية حين كان بالقدس

ثم بالمدرسة التقوية بدمشق وصار شيخ الشامية . قال ابن شهبة : عرض عليه القضاء فامتنع واشار بتولية ابن الحرستاني . وقال عمر بن الحاجب صنف في الفقه والحديث مصنفات وكان كثير التواضع قليل التعصب يطرح التكلف . دفن بطرف مقابر الصوفية الشرقي مقابل قبر ابن الصلاح في المرج الاخضر

وفي سنة احدى وعشرين وستمائة مات بدمشق الشيخ علي الفرنثي الزاهد صاحب الزاوية بسفح قاسيون وكان صاحب حال وكشف تجتمع عنده الاصحاب وهو الذي حكي عنه انه قال اربعة يتصرفون الشيخ عبد القادر الكيلاني ومعروف الكرخي وعقيل المنبجي وحياة ابن قيس الحراني وهذه المرتبة وهبها الله تعالى لهم خاصة قال الذهبي في تاريخ الاسلام له حكايات كثيرة تدل على ولايته لا محل لسردها هنا وذكر انه بني على قبره قبة نقش على جدار هذه القبة الشمالي فوق الباب اسمه وتاريخ وفاته.دفن بجوار المدرسة المرشدية على الطريق السلطاني بالزقاق المعروف بين المدارس بصالحية دمشق -اللهم ارسل لهذه المدارس مصلحاً يصلح شؤونها ويعيد مجدها ويجدد الدارس منها-

وفي تلك السنة مات بدمشق نجم الدين يحيى بن اللبودي عالم في الحكمة والهندسة وصاحب المدرسة الطبية المنسوبة اليه في دمشق وصاحب دار الهندسة ايضاً وله ثلاث عشرة رسالة في الرد على البغدادي عبد اللطيف وله عدة مصنفات.

وفي تلك السنة مات بدمشق الزكي بن رواحة هبة الله بن محمد الانصاري التاجر المعدل واقف المدرسة الرواحية بدمشق وأخرى بحلب الشهباء .مدحه علي بن الجارود الشاعر بقصيدة مطلعها :

احكم فانك في الجمال امير   واعدل فقلبي في يديك اسير

وفي سنة اثنين وعشرين وستمائة مات بدمشق شبل الدولة كافور الحسامي طواشي ست الشام وخادمها انشأ فوق جسر تورا من صالحية دمشق المدرسة

والتربة والخانقاه ووقف عليها الاوقاف ونقل اليها الكتب الكثيرة ، وفتح للناس طريقاً من الجبل الى دمشق قريباً من عين الكرش الموجود اثرها الى اليوم وبنى المصنع الذي على رأس الزقاق والخانقاه ومصنعاً آخر قربها ، وكان ديناً وافر الحشمة دفن بتربته الى جانب مدرسته .

وفي سنة اربع وعشرين وستمائة مات بدمشق الملك المعظم سلطان الشام شرف الدين عيسى بن الملك العادل . ولد بالقاهرة سنة ست وسبعين وخمسمائة حفظ القرآن وبرع في الفقه وشرح الجامع الكبير في عدة مجلدات ساعده فيه احد العلماء لكثرة اشغاله ، وسمع المسند لابن حنبل وله شعر كثير كان قليل الالتفات الى العظمه وابهة الملوك وكثيراً ما يركب وحده حتى تتلاحق به مماليكه . قال ابن الاهدل : كان شديد التعصب لمذهبه الحنفي ولم يكن في بني ايوب حنفي سواه وتبعه اولاده ، وكان قد شرط لمن حفظ المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة فحفظه جماعة لهذا السبب وله وقت مرضه بالحمى ابيات كثيرة قال في ختامها :

قالت وقد عزمت على ترحالها ماذا تريد ؟ فقلت ان لا ترجعي

قال ابن خلكان : دفن في قلعة دمشق ثم نقل الى الصالحية ، ودفن بمدرسة بها قبور جماعة من اخوته واهل بيته تعرف بمدرسة المعظمية .

وفي سنة خمس وعشرين وستمائة مات بدمشق القاضي الامام جمال الدين عبد الرحيم بن شيث القرشي . جمع الله تعالى له بين الفضل والمروءة والكرم والفتوة وكان القاضي الفاضل يحتاج اليه في علم الرسائل ؛ كتب اليه ابو المظفر كتاب تشوق فاجابه عليه شعراً :

وافى كتابك وهو الروض مبتسماً عن ثغر درطلى من بحرك الطامي
وكان عندي كالماء الزلال وقد تناولته يمين الحائم الظامي
لله نفحة فضل منه رحت بها نشوان اسحب اذيالي واكمامي

تولى الوزارة للملك المعظم بالشام ودفن بتربته بسفح جبل قاسيون .

وفي سنة ست وعشرين وستمائة مات بدمشق الصدر فخر الدين ابو بكر محمد بن عبد الوهاب الانصاري الدمشقي المعدل وهو من بيت امانة وصيانة

ودين . كان اجمل اهل بيته واحسنهم خلقاً . سمع من السلفي وابن عساكر وكان رئيساً سرياً صاحب اخبار وتواريخ . وكان في زمن ست الشام يتولى امر ديوانها وفوضت اليه اوقافها . وترك الوظائف والولايات في آخر عمره وكان التجار يسافرون في تجارته وله معرفة بنظم الشعر وعنده كتب نادرة كثيرة .

وفي تلك السنة مات بدمشق المهذب شمس الدين بن اللبودي سافر من دمشق الى بلاد العجم لتلقي العلوم الحكمية ثم رجع وصار افضل اهل زمانه بها وكان شيخ اطباء البيمارستان النوري ثم تفرد في العلوم الدينية وله مؤلفات منها الرأي المعتبر في معرفة القضاء والقدر وغيره وكان عالماً بالرياضيات وعلم حل الزيج وتسيير المواليد واعقب نجله الصاحب نجم الدين الذي حير العقول في زمانه بعلومه الحكمية والرياضية والادبية له مصنفات كثيرة ومختصرات من القانون لابن سينا والاشارات وعيون الحكمة وله اللمعات وآفاق الاشراق في الحكمة وله كافية الحساب والغايات المحتاج اليه من اوقليدس والمتوسطات وله نزهة الناظر في المثل السائر الفه وله من العمر ثلاث عشرة سنة وله شرح الآيات البينات وله الزيج المقرب المبني على الرصد المجرب مات في اواخر هذا العصر وذكرناه هنا لمناسبة والده .

وفي سنة ثمان وعشرين وستمائة مات بدمشق الزين الكردي محمد بن عمر المقري اخذ القرآآت عن الشاطبي وتصدر بجامع دمشق مع السخاوي

وفي تلك السنة مات بدمشق المهذب الدخوار عبد الرحيم بن علي بن حامد الدمشقي شيخ الطب وواقف المدرسة التي بالصاغة العتيقة على الأطباء واخذ عن الموفق بن المطران والرضي الرحبي واخذ الادب عن الكندي وانتهت اليه معرفة الطب وصنف التصانيف فيه وحظي عند الملوك ولما تجاوز سن الكهولة عرض له طرف خرس حتى كاد لا يفهم كلامه واجتهد في علاج نفسه فما افاد بل ولد له امراضاً كثيرة متنوعة ولما ثقل لسانه كانت الجماعة يجثون بين يديه فيكتب لهم ما اشكل عليهم في اللوح واستعمل المعاجين الحادة الحارة فعرضت له حمى قوية اضعفت قوته وزادت عليه .

وفي سنة تسع وعشرين وستمائة مات بدمشق ابو الربيع سليمان بن نجاح القوصي سكن دمشق وكان بارعاً في الادب ومن شعره اللطيف :

ارالك منقبضاً عني بلا سبب وكنت بالامس يامولاي منبسطا
وما تعمدت ذنباً استحق به هذا الصدود اعل الذنب كان خطا
فان يكن غلطة مني على غرر قل لي لعلي ان استدرك الغلطا

وفي سنه احدى وثلاثين وستمائة مات بدمشق نائب الملك العادل المشهور قال النعيمي في الدارس له بجبل قاسيون تربة ومدرسة وقف عليها اوقافاً كثيرة يأتي معنا ذكرها في باب المساجد . ذكره القاضي محمود واثنى عليه.

وفي تلك السنة مات بدمشق السيف الآمدي ابو الحسن علي بن محمد الحنبلي ثم الشافعي المتكلم العلامة صاحب التصانيف العقلية تفقه وقرأ على ابن المنى وابن شاتيل وابن فضلان وحفظ الوسيط للغزالي وتفنن في علم النظر والكلام والحكمة وكان من اذكياء العالم اقرأ في مصر مدة فنسبوه الى دين الاوائل اي الفلاسفة القديمة قبل الاسلام وكتبوا محضراً باباحة دمه فلما رأى بعضهم ذلك الافراط وتحمل المحضر اليه ليكتب كما كتبوا كتب هذه العبارة الحكمية الاخلاقية اللطيفة :

حسدوا الفتى اذ لم ينالوا سعيه فالقوم اعداء له وخصوم

قال ابن خلكان وضعوا خطوطهم بما يستباح به الدم فخرج مستخفياً الى الشام فنزل في حماة وصنف في الاصلين الفقه والحديث والحكمة والمنطق والخلاف وكل ذلك مفيد ثم قدم الى دمشق فاقام بها مدة ثم ولاه الملك المعظم ابن العادل تدريس العزيزية فلما ولي اخوه الاشرف موسى عزله عنها ونادى الملك في مدارس دمشق من ذكر وقرأ غير التفسير والحديث والفقه او تعرض لكلام الفلاسفة نفيته لبلاد بعيدة فخاف السيف الآمدي واقام في بيته الى ان مات دفن بتربته بقاسيون ويحكى عن ابن عبد السلام انه قال ماتعلمنا قواعد البحث الا منه ولو ورد على الاسلام متزندق يشكك متعين لمناظرته غيره قال الذهبي في تاريخه وله نحو من عشرين تصنيفاً

وقال السبكي وتصانيفه كلها حسنة وقد ظهر في زماننا هذا منها للوجود وطبعت في مصر وظهر فضلها وأتى منها البعض لدمشق ككتاب الاحكام في الفصول .

وفي تلك السنةمات بدمشق سيف الدين علي الثعلبي الآمدي سيد العلماء واذكى اهل زمانه واكثرهم معرفة بالعلوم الحكمية والمذاهب الشرعيةوالمبادي المنطقية اقام سنين كثيرة في حماة مستتراً ممن كانوا تحاملوا عليه ونسبوه الى الانحلال يريدون قتله وقد صنف في اصول الفقه واصول الدين والمعقولات عدة مصنفات طبع منها كتاب الاحكام .

وفي سنة احدى وثلاثين وستمائة مات بدمشق الشيخ عبد الله بن يونس الارموي الزاهد القدوة صاحب الزاوية بجبل لبنان كان صالحاً متواضعاً مطرحاً للتكليف يمشي وحده ويشتري حاجته وله احوال ومجاهدات وتقدم في سائر الاقطار ولقي الابدال والابرار وكان في بدايته لا يأوي الا الى القفار حفظ القرآن والقدوري ومتون المذهب وصحب رجلاً من الاولياء فدله على الطريق . بعث اليه الملك الامجد صاحب بعلبك اربعين ديناراً يقضي بها حوائجه فاخذها الرسول ثمان الامجد زاره وقال له بعثت لك اربعين ديناراً فقال الشيخ وصلت وشكره فجاء الرسول حين بلغه ذلك يستغفر ويعتذر . وحكى عن نفسه غير انه لم يصرح قال كان سائحاً فقيراً يدور في جبل لبنان فوقع عليه زعامة لصوص من الافرنج فعذبوه وربطوه بعد ان اطعموه وبات في اسوأ ما يكون فلما اصبحوا ناموا واذا بزعامة من لصوص المسلمين يطلبون زعامة الافرنج فايقظهم وقال اقعدوا جاءتكم حرامية يقصدونكم فدخلوا مغارة ودخل معهم ولم يرهم احد فلما بعدوا قال له الافرنج هلا دللت علينا وتخلصت منا فقلت لهم اني صحبتكم واكلت خبزكم وفي طريقنا معشر المسلمين ان الصحبة عزيزة فما رأيت خلاص نفسي فشكروه على ذلك وسألوه أن يقبل منهم شيئاً من الدنيا فابى فاطلقوه واخبروا حكومة الجبل بذلك .

وفي تلك السنة مات بدمشق الامير ركن الدين منكورس مملوك فلك

الدين اخي العادل كان عفيفاً ملازماً الجامع بني امية وله بقاسيون مدرسة وتربة وقف عليها شيئاً كثيراً وله داخل دمشق مدرسة كبيرة للشافعية وقرية جبرود باجمعها المعروفة الى اليوم وقف عليهما مات بجبرود وحمل ودفن في تربته المخصوصة بقاسيون وقال العدوي في كتاب الزيارات الامير الكبير منكورس الفلكي العادلي وقال الذهبي انه ناب في الديار المصرية للملك العادل وفي دمشق مرة وكان كثير الصدقات بحيث لا يشعر به احد ومعه الطوافة وقال النعيمي في تاريخه كان من خيار الامراء يحترم العلماء مواظباً على الصلوات في مسجد دمشق مع قلة الكلام وله تضرع وادعية .

وفي تلك السنة مات بدمشق الرضي الرحبي ابو الحجاج يوسف بن حيدرة شيخ الطب بالشام واحد من انتهت اليه معرفة الفن قدم دمشق مع ابيه حيدرة الكحال ولازم الاشتغال على المهذب ابن النقاش فنوه باسمه وبنى على علمه وصار من اطباء صلاح الدين يوسف وامتدت ايامه وصارت اطباء دمشق تلامذته حتى ان من جملة اصحاب المهذب الدخوار وعاش سبعاً وتسعين سنة وكان يقول الاكل مع الشهوة هو المندوب وتركه يعيش الانسان العمر الطبيعي .

وفي سنة اربع وثلاثين وستمائة مات بدمشق الناصح بن الحنبلي ابو الفرج عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب بن الشيخ ابي الفرج الجوزي السعدي العبادي الدمشقي الفقيه المعروف بابن الحنبلي ولد بدمشق وسمع بها من القاضي الشهرزوري وجماعته ورحل الى البلاد ووعظ واشتهر علمه وكانت له حرمة عند الملوك والسلاطين خصوصاً ملوك الشام حضر فتح بيت المقدس مع السلطان صلاح الدين قال واجتمعت بالسلطان في القدس بعد فتحها بسنتين وسالني عن اشياء كثيرة منها الخضاب بالسواد فقلت مكروه ودرس الناصح بمدارس كثيرة منها مدرسة جده شرف الاسلام بالمسمارية ثم بنت له الصاحبة ربيعة خاتون مدرسة بالجبل وهي المعروفة بالصاحبة وانتهت اليه رئاسة المذهب بعد الشيخ موفق الدين قال الناصح وكنت قدمت من اربل سنة وفاة الشيخ موفق الدين فقال سررت بقدومك مخافة ان اموت وانت غائب فيقع وهن

في المذهب ووقع بين الناصح والشيخ موفق اختلاف في فتوى في السماع المحدث في زماننا فاجاب فيها الشيخ موفق بانكاره فكتب الناصح بعده مامضمونه الغناء المحدث كالشعر فيه مذموم وممدوح فما قصد به ترويح النفوس وتفريج الهموم وتفريغ القلوب كسماع موعظة وتحريك لتذكرة فلا بأس به وهو حسن وذكر جملة احاديث في تغني جويريات الانصار في الغناء في الاعراس واحاديث في الحدا واما الشبابة فقد سمعها جماعة ممن لا يحسن القدح فيهم من الصوفية واهل العلم وامتنع من حضورها الاكثر وكون النبي صلى الله عليه وسلم سد اذنيه الشريفتين منها مشترك الدلالة لانه لم ينها ابن عمر عن سماعها واطال في ذلك ورد مقالة الموفق لما وقف عليها فراجعه في طبقات ابن رجب فانه نافع مهم . وللناصح تصانيف كثيرة منها كتاب (اسباب الحديث) وكتاب (الاستسعاد بمن لقيت من صالح العباد في البلاد) وكتاب (الانجاد في الجهاد) وقال الحافظ الدبيثي في تاريخه : للناصح خطب ومواعظ ومقامات . وكتاب تاريخ الوعاظ . دفن بتربتهم بسفح قاسيون .

وفي هذه التربة ابنته امة اللطيف ، صاحبة التصانيف ، من جملتها كتاب التسديد وكتاب بر الوالدين ، وانشأت داراً لقراءة الحديث بالقرب من هذه التربة بالصف القبلي من الطريق الآخذ لجامع الافرم قبل ان تصل الى مدرسة الناصرية بشيء يسير ومنقوش عليها اسمها واسم والدها . وعلى مدفنها قبة عظيمة العمارة ملاصقة ذلك الطريق الآخذ الى نهر يزيد ، اما اليوم فهي خراب آثارها باقية تغلبت عليها ايدي الطامعين .

وفي تلك السنة مات بدمشق الامام موفق الدين احمد بن صديق بن صرون الحراني الفقيه الحنبلي . ولد بحران من اعمال دمشق وسمع بها من ابن ابي حبة وغيره وتفقه على ابن الجوزي ولازمه ورجع الى حران مسقط رأسه وحدث بها وبدمشق وسمع منه المنذري والابرقوهي وابن حمدان

وفي تلك السنة مات بدمشق الملك الكامل سلطان الوقت ناصر الدين محمد بن الملك العادل ابن ايوب قال ابن خلكان كان : عظيم القدر جميل الذكر

محباً للعلماء متمسكاً بالسنة النبوية حسن الاعتقاد حازماً في اموره لايضع الشيء الا في موضعه من غير اسراف ولا اقتار . وكان يبيت عنده كل ليلة جماعة بعض من الفضلاء يشاركهم في مباحثاتهم ويسألهم عن المواضع المشكلة من كل فن وهو معهم كواحد منهم – هكذا كانت الملوك والسلاطين في صدر الاسلام – دفن بقلعة دمشق . قال الناقل . وكنت بدمشق يومئذ . وقال ابن الاهدل وللكامل هفوة جرت منه وذلك انه سلم مرة بيت المقدس الى الافرنج اختياراً منه حفظاً لمركز ملكه وقد تقدم معنا البحث عن اسبابها في موضعها .

وفي تلك السنة مات اخوه الملك مظفر الدين موسى ابن الملك العادل ، تملك بدمشق تسع سنين فاحسن وعدل وخفف الجور . قال الذهبي كان موصوفاً بالشجاعة لم تنكس له راية قط ، ولما فتح دمشق اشترى قاعاز النجمي وجعلها دار حديث . وبنى مسجد ابي الدرداء بقلعة دمشق والمسجد الذي عند باب النصر وخان الزنجاري وهو محل جامع العقيبة اليوم ومسجد الاقصاب خارج باب السلام وجامع الجراح وجامع بيت الابار وجامع حرستا وزاد وقف دار الحديث النورية والتربة التي بالكلاسة لصيق الاموي ، والاكثر من هذه الخيرات باق الى اليوم والبعض باق منه الاثر . وكان له في البستان الذي بالنيرب أماكن مشهورة مزخرفة ، مثل صنعة بقراط وغيرهـا يخلو بها واباح لاهل دمشق الفرجة بها تطييباً لقلوب الرعية .

وفي تلك السنة مات الحكيم الفاضل محمود بن عمر الحابولي المعروف بابن دقيقة الشيباني . صنف كتاب (قانون الحكماء وفردوس الندماء) وكتاب (الفرض المطلوب في تدبير المأكول والمشروب) وغير ذلك ، وله ديوان شعر منه فيما يتعلق بالطب ، ولحسن فوائد شعره احببت نقل بعض كلامه ليزدان كتابنا بذكر ترجمته ولكي يظهر ما في قوله من الفوائد وليطلع اطباؤنا اليوم على ما كان عليه اطباء دمشق قبلاً ولتطبيقه على الطب الجديد اليوم .

توق الامتلاء وعد عنه وادخال الطعام على الطعام

ولاعند الخوى والجوع حتى … تلهى باليسير من الأدام
واكثار الجماع فان فيه … لمن والاه داعية السقام
ولاتشرب عقيب الاكل ماء … لتسلم من مضرات الطعام
وخذ منه القليل ففيه نفع … لذي العطش المبرح والاوام
وهضمك اصلحنه فذاك اصل … واسهل بالايارج كل عام
وفصد العرق نكب عنه الا … لدى مرض بطيب الطبع حامي
ولا تحركن عقيب اكل … وصير ذاك بعد الانهضام
ولا تطل السكون فان منه … تولد كل خلط فيك خامي
وقلل مااستطعت الماء بعد … الرياضة واجتنب شرب المدام
وخل السكر واهجره مليا … فان السكر من فعل الطغام
واحسن صون نفسك عن هواها … تفز بالخلد في دار السلام

ونسب اليه ايضاً قوله

فكم من اكلة منعت اخاها … بلذة ساعة إكلات دهر
وكم من طالب يسعى لشيء … وفيه هلاكه لو كان يدري

وفي تلك السنة مات بدمشق جمال بن محمد ابي الفضل الدولعي خطيب دمشق ولد بالدولعية قرية بالموصل وتفقه على عمه ضياء الدين خطيب دمشق ايضاً وسمع منه ومن ابن صدقة الحراني ولي الخطابة بعد عمه وطالت مدته في المنصب وولي تدريس الغزالية مدة وكان له ناموس وسمت حسن يفخم كلامه قال ابو شامة وكان الملك المعظم منعه من الفتوى مدة ولم يحج لحرصه على المنصب ودفن بمدرسته التي انشأها عند باب جيرون .

وفي سنة سبع وثلاثين وستمائة مات بدمشق امين الدين ابو الغنائم سالم بن الحسن بن هبة الله الشافعي التغلبي الدمشقي رحل به ابوه واسمعه من ابن شاتيل وطبقته وسمع هو بنفسه وولي المارستان والمواريث والايتام ودفن بتربة قاسيون وخلف ذرية صالحة من بني تغلب الشيباني نقل عنه ابن الاهدل انه سمع شعراً لبعض الملوك وهو :

خبرت بني الايام طرا فلم اجد صديقاً صدوقاً مسعفاً في النوائب
واصفيتهم مني الوداد فقابلوا صفاء ودادي بالقذى والشوائب
وما اخترت منهم صاحباً وارتضيته فاحمده في فعله والعواقب

وفي تلك السنة مات بدمشق شمس الدين الخوى هو الصدر العلامة قاضي القضاة حجة الإسلام سيد العلماء والحكماء والحكام ابو العباس احمد بن الخليل كان اصله من مدينة خوى كان اوحد زمانه في العلوم الحكمية وعلامة وقته في الامور الشرعية عارفاً باصول الطب وغيره من اجزاء الحكمة عاقلا كثير الحياء كريم النفس ورد الى دمشق في ايام الملك المعظم عيسى بن الملك العادل استحضره واستخلصه لنفسه وجعله قاضي القضاة بدمشق له تصانيف لا مزيد عليها في الجودة وكان ساكناً في المدرسة العادلية التي فيها المتحف والمجمع العلمي اليوم يلقي فيها الدروس ومن مؤلفاته تتمة تفسير القرآن لابن خطيب الري وكتاب يشتمل على رموز حكمية صنفه للملك المعظم وله في الاصول والنحو ذكرها في الطبقات .

وفي سنة اربعين وستمائة مات بدمشق عز الدين بن السويدي ابو اسحق ابن محمد من ولد سعد بن معاذ من الاوس مولده في سنة ستمائة بدمشق نشأ بها وهو علامة اوانه ونابغة زمانه في العلوم الدينية والحكمية اشتغل بصناعة الطب حتى اتقنها ولم يصل احد من اربابها الى ما وصل اليه ترأس في جميع العلوم حتى في علم الادب واللغة وله شعر جامع لاجناس العلوم وهو اسرع الناس بداهة في قول الشعر في معان مختلفة وكان ابوه تاجراً من السويداء بحوران خدم في بيمارستان باب البريد الباقي اثره الى اليوم وبيمارستان النوري وترأس بالطبابة وكان مدرس الدخوارية وله مؤلفات كثيرة .

وفي سنة احدى واربعين وستمائة مات بدمشق رفيع الدين الجيلي ابو حامد عبد العزيز القاضي كان من المتميزين في العلوم الحكمية واصول الدين والفقه والعلم الطبيعي والطب وكان مقيما بدمشق وهو فقيه في المدرسة العذراوية داخل باب النصر وله مجلس للمشتغلين عليه في انواع العلوم الحكمية والطب

ولما تلك الملك الصالح عماد الدين بن اسماعيل دمشق تولى وظيفة قاضي القضاة بدمشق مكان شمس الدين الخوي . وشرح الاشارات لابن سينا .

وفي سنة اثنتين واربعين وستمائة مات بدمشق عبد الرحمن ابن الحافظ الحنبلي الفقيه الزاهد كان اماماً في جامع بني امية بمحراب الحنابلة . أفتى ودرس . حسن السمت كريم النفس مشتغلاً بنفسه .

وفي تلك السنة مات شمس الدين بن المؤيد العرضي الدمشقي من الحكماء الذين كانوا بدمشق ودعاه نصير الدين الطوسي لبناء المرصد الايلجاني وأقام مرصداً فلكياً في دمشق وكان هو وابنه محمد من علماء الفلك وتولى احدهما الارصاد في مرصد مراغة وقد وضع محمد العرضي كرة تمثل الارض لا تزال محفوظة في متحف درسدن في المانيا .

وفي تلك السنة ماتت بدمشق عائشة الواعظة وكريمة بنت عبد الوهاب الحبقبق روتا عن حسان الزيات وأجازهما ابو الوقت ومسعود الثقفي .

وفي تلك السنة مات بدمشق ابن الصلاح تقي الدين الحافظ شيخ الاسلام عثمان بن عبد الرحمن الكردي الشافعي ، سمع من عبدالله بن السمين في طرابلس الشام وهي اسرة مجد وشرف لم تزل ذريتها ذرية فضل وكمال باقية الى اليوم تفقه وبرع في المذهب واصوله وفي الحديث وعلومه وصنف التصانيف ، قال ابن خلكان : كان احد فضلاء عصره في التفسير والحديث وأسماء الرجال وما يتعلق بعلم الحديث واللغة واذا أطلق شيخ الاسلام في علماء الحديث فالمراد به هو ، تولى تدريس الرواحية . ولما بنى الاشرف دار الحديث فوض تدريسها اليه ومدرسة ست الشام التي هي قبل المارستان النوري ، ودفن بمقابر الصوفية – التي هي جنينة مستشفى الغرباء اليوم ولم يزل القبر موجوداً –

وفي تلك السنة مات بدمشق الحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد السعدي الصالحي الحنبلي محدث عصره ووحيد دهره ، سمع بدمشق من البانياسي وغيره وهو الذي بنى المدرسة الضيائية قال الذهبي بنى مدرسة على

باب جامع المظفري بسفح جبل قاسيون ووقف عليها كتبه وبناها للمحدثين والغرباء الواردين كان محدث الشام قال ابن رجب ومن مصنفاته الاحاديث المختارة وكتاب فضائل الاعمال وكتاب تاريخ وفضائل الشام ثلاثة أجزاء ومناقب أصحاب الحديث وصفة الجنة وكتاب صفة النار وشفاء العليل ، دفن بسفح جبل قاسيون .

وفي سنة اربع واربعين وستمائة مات بدمشق سعد الدين بن ابراهيم بن عبد العزيز ابو اسحق السلمي قد أشبه أباه موفق الدين في خلقه وخلقه ومعرفته وحذقه كان يعتكف بالجامع الاموي شهر رمضان ولم يتكلم فيه وهو الذي تولى عمارة المدرسة الحنبلية في سوق القمح بدمشق — هو سوق البزورية اليوم — وذلك في أيام الملك الاشرف وكان امير المؤمنين المستنصر بالله خليفة بغداد قد امر بعمارتها كان علامة زمانه في صناعة الطب اتقن جزئيات أنواعها واحكم كليات أصولها برع في العلوم الشرعية والفقهية ايضاً ولد بدمشق سنة ٥٨٣ وخدم بصناعة الطب في البيمارستان ثم تولى رئاسته ، وله مجلس عام للمشتغلين بصناعة الطب وللشريف البكري أبيات في مدحه منها :

حكيم لطيف من لطافة وصفه يود المعافى السقم حتى يعوده

وفي سنة ثمان واربعين وستمائة ماتت بدمشق الحافظة أرغوان العادلية عتيقة الملك العادل، وقفت دارها التي داخل باب النصر بدمشق وتعرف بدار الابراهيمي على خدامها وبنت بالصالحية مدرسة تحت نهر تورا قرب عين الكرش وتربة كانت بستاناً للنجيب غلام التاج الكندي فاشترته منه وبنت ذلك ووقفت عليه أوقافاً جيدة منها بستان بصار ويسمى الآن بالحافظية .

وفي سنة خمسين وستمائة مات بدمشق بدر الدين بن قاضي بعلبك عبد الرحمن نشأ بدمشق واشتغل بصناعة الطب وقد جمع الله فيه العلوم الدينية والحكمية كان لا يترك وقتاً من أيامه من التزيد في العلم والعناية في المطالعة والفهم تولى رئاسة جميع الاطباء والكحالين والجراحين بدمشق .

وفي تلك السنة مات بدمشق كمال الدين عبد الواحد بن خلف بن نبهان

خطيب زملكا قرية بغوطة دمشق جد الشيخ كمال الدين بن الزملكاني. كان فاضلاً متميزاً في علوم متعددة تولى قضاء صرخد في الجبل ودرس ببعلبك وناب بدمشق ودفن بها .

وفي تلك السنة مات بها سيف الدين ابو الحسن علي بن ابي الفوارس القيمري صاحب المارستان بصالحية دمشق كان من أجلة الامراء وأبطالهم دفن بالقبة قرب مارستانه على الجادة وكان يقول :

الامر محتـاج الى خمسة ماحازها الاخول الرجال
الصبر والصمت وترك الاسى وعفة النفس وصدق المقال

وفي سنة اربع وخمسين وستمائة مات بدمشق الامير مجاهد بن ابراهيم ادنبا الذي بنى الخانقاه المجاهدية بدمشق على الشرف القبلي وكان والي دمشق ودفن بمدرسته .

وفي تلك السنة مات بها البادرائي العلامة نجم الدين عبد الله بن ابي الوفاء الشافعي الفرضي تفقه وبرع في المذهب ودرس بالنظامية وحدث بحلب ودمشق ومصر وبغداد وبنى بدمشق المدرسة الكبيرة المشهورة به المعروفة بالبدرقية العامرة الموجودة الى اليوم .

وفي تلك السنة مات بها البلداني المحدث المسند عبد الرحمن القرشي الدمشقي الشافعي كان من الحفاظ والمصنفين ولد ببلدا قرية بغوطة دمشق دفن بقريته وهو خطيبها .

وفي تلك السنة مات بدمشق العماد داود بن عمر ابو المعالي الزبيدي الدمشقي الشافعي خطيب بيت الابار قرية بدمشق زالت عماراتها اليوم وذهب رسمها كان فصيحا بليغا لا يكاد يسمع موعظة احد الا يبكي ولي خطابة دمشق وتدريس الغزالية بعد ابن عبد السلام ثم عزل بعد ست سنين وعاد الى قريته ودفن بها .

وفي تلك السنة مات بدمشق الحافظ الكبير زكي الدين عبد العظيم بن عبد

٣٣

القوي المنذري الشامي صاحب التصانيف منها الترغيب والترهيب ولي مشيخة الكاملية ودفن بسفح قاسيون .

وفي تلك السنة مات بدمشق الشيخ يوسف القميني كان صاحب كرامات واحوال قال ابن عبد الرزاق الف في مناقبه شيخنا عبد الغني النابلسي مؤلفاً لطيفاً وانه مات سنة سبع وخمسين وستمائة ودفن بسفح قاسيون وقبره ظاهر معروف .

وفي سنة ثمان وثلاثين وستمائة مات بدمشق محيي الدين بن محمد بن علي الحاتمي الاندلسي الطائي العارف الكبير ابن عربي ذكرناه متأخراً هنا عن محله لمناسبة ذكر اولاده بعده قال الشعراوي في نسب الخرقة كان مجموع الفضائل وكريم الشمائل نظم عقود العقول وفصوص الفصول وحسبك مايقول زروق وغيره من الفحول ذاكرين بعض فضله هو أعرف بكل فن من اهله واذا أطلق الشيخ الاكبر في عرف القوم فهو المراد قال بعضهم برزت عنه مؤلفات لانهاية لها تدل على سعة باعه وتبحره في العلوم الظاهرة والباطنة وانه بلغ مبلغ الاجتهاد في الاختراع والاستنباط وتأسيس القواعد والمقاصد التي لايدريها ولا يحيط بها الا من طالعها بحقها غير انه وقع له في بعض تصانيفه كلمات كثيرة اشكلت ظواهرها وكان سبباً لاعتراض كثيرين لم يحسنوا الظن به ولم يقولوا كما قال غيرهم أن ما اوهمته تلك الظواهر ليس هو المراد وانما المراد أمور اصطلح عليها متأخرو اهل الطريق غيرة حتى لايدعيها الكذابون فاصطلحوا على الكناية عنها بتلك الالفاظ الموهمة خلاف المراد غير مبالين بذلك لانه لايمكن التعبير عنها بغيرها قال المناوي وقد تفرق الناس في شأنه شيعاً وسلكوا في امره طرائق قدداً فذهبت طائفة الى انه زنديق لاصديق وقال قوم انه واسطة عقد الاولياء ورئيس الاصفياء وسار آخرون الى اعتقاد ولايته وتحريم النظر في كتبه .

قال الداودي العلامة الدمشقي نقلا عن الامام الشعراني هو حجة الله الظاهرة وآيته الباهرة واما كتبه ومؤلفاته فالبحار الزواخر مما وضع

الواضعون مثلها وانتاخص الله بمعرفة قدرها اهلها ومن خواص كتبه انه من واظب على مطالعتها وتأمل ما في مبانيها انشرح صدره لحل المشكلات وفك المعضلات وهذا الشأن لا يكون الا لانفاس من خصه الله تعالى بالعلوم الدينية الربانية قال وقد وقفت على اجازة كتبها للملك المعظم فقال في آخرها واجزته ايضاً ان يروي عني مصنفاتي ومن جملتها عد نيفاً واربعمائة مصنف ولولا الاطـالة بذكرها وضيق المقام لسردتها برمتها وهي مطبوعة وقد الف الجلال السيوطي بحقه (تنبيه الغبي عن تنزيه ابن العربي) وانتصر له كثير من العلماء وكان يعرف بالاندلسي بابن سراقة وهو فصيح اللسان بارع ذكي الجنان قوي على الايراد كلما تكلم اوطاب الزيادة يزاد ، مات في الثاني والعشرين من ربيع الآخر في دار القاضي محيي الدين بن الزكي بدمشق وحمل الى قاسيون فدفن بتربة بني الزكي التي هي مقر مسجده اليوم وغسله الجمال بن عبدالحق والقاضي محيي الدين المذكور وكان العماد بن النحاس يصب عليه الماء . وقال الشيخ الامام ابو شامة حضرت الصلاة عليه وكان يوماً مشهوداً . نقله المدوي في تاريخه . ومن كلامه « لا يدوم في الشام ظلم ظالم ولا ينام فيها اثنان على قلب واحد » وله (فاضحة الملحدين) رداً على رسالة كتبها الشيخ علاء الدين البخاري في سنة ٨٣٠ الفها بدمشق وبين فيها زخارف صاحب الترجمة .

وفي سنة اربع وخمسين وستمائة مات بدمشق ولده سعد الدين محمد بن محيي الدين الطائي الاندلسي العربي الحاتمي الشافعي . سمع الحديث ودرس وكان شاعراً مجيداً وله ديوان مشهور ، دفن عند قبر ابيه بتربة بني الزكي ودفن بجنبه اخوه عماد الدين كان عالماً محدثاً سمع الحديث من ابن عبد الدائم واشتهر فضله اكثر من اخيه المذكور . مات سنة سبع وستين وستمائة .

قال البصروي وفي سنة ثمان وخمسين وستمائة مات بدمشق جمال الدين بن حيدرة الرحبي اصلهم من الرحبية ولد ونشأ بدمشق كان من اكابر العلماء اوحد زمانه في العلوم الدينية والحكمية اشتغل بصناعة الطب على والده وكان يترنم بقوله .

من جد في طلب العلوم افادة شرف العلوم زيادة التحصيل

ومن كلامه قال الصوم منع البدن من الغذاء وكف الحواس عن الخطأ والجوارح عن الآثام ونقل عن مهذب الدين قوله

ان سأني الدهر يوما فانه سرّ دهراً
وان دهاني بمال فقد تعوضت اجراً
الله اغنى واقنى والحمد لله شكراً

وفي سنة ٦٥٧ مات بدمشق علم الدين السخاوي الدمشقي المقرى النحوي الفقية له تصانيف .

وفي تلك السنة نقل ايضاً انه مات بدمشق الشيخ ابو بكر بن قوام البالسي الامام الزاهد صاحب الاحوال والمناقب المجمع على علة وورعه ولد سنة اربع وثمانين وخمسمائة بمشهد صفين ثم نقل الى بالس قرية من قرى حلب ونشأ بها ثم ارتحل الى دمشق وكان حسن الاخلاق وافر العقل والادب كثير التواضع شديد الحياء وله احوال خارقة للعادة افردهـا بعضهم وذكرها في مؤلفه وكان يقول والله اني لاعرف اهل اليمين من اهل الشمال من اهل حلب ولو شئت ان اسميهم لسميتهم ولكن لاانكشف سر الحق في الخلق ولحفيده محمد بن عمر مؤلف مخصوص في مناقبه وقبره عليه قبة الى اليوم ظـاهرة بسفح قاسيون من الجانب الغربي اول جادة من طريق المهاجرين قبل باب طريق بستان الجرن .

وفي سنة تسع وخمسين وستمائة مات بدمشق الملك الناصر صلاح الدين بن العزيز ابن الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين صاحب الشام وسلطنوه بعد ابيه سنة اربع وثلاثين وستمائة ودبر المملكة شمس الدين لولو قـال ابن شهبة في تاريخ الاسلام قتل معه جميع اتباعة واقاربه ومن جملتهم اخوه الملك الظاهر غازي وولده العزيز وهو اي الناصر آخر ملوك بني ايوب وبنى بدمشق داخل باب الفراديس مدرسة في غاية الحسن ووقف عليها اوقافاً جليلة وبنى بجبل الصالحية رباطاً وتربة ومدرسة وهي عمارة عظيمة ماعمر

مثلها احضر لها من الرخام والاحجار شيئاً كثيراً وغرم عليها اموالاً عظيمة ونهر يزيد جار فيها .

وفي تلك السنة مات بدمشق نقيب الاشراف السيد بهاء الدين ابو الحسن علي بن محمد بن ابراهيم الحسني ابن ابي الجن سمع الحديث حضوراً وله اربع سنين من الامام يحيي الثقفي وابن صدقة كان النقيب على الاشراف بدمشق وصدر الصدور بها .

وفي تلك السنة مات بدمشق ابن العديم الصاحب العلامة كمال الدين ابو القاسم عمر بن احمد بن هبة الله بن ابي جرادة العقيلي الحلبي من بيت القضاء والحشمة سمع بدمشق من الكندي واجاز له المؤيد وكان قليل المثال عديم النظر فضلاً ونبلاً ورأياً وحزماً وذكاء وبهاء وكتابة وبلاغة درس وافتى وصنف وجمع تاريخاً لحلب في نحو ثلاثين مجلداً وقدناب في سلطنة دمشق عن الملك الناصر وكان خطه في غاية الحسن وكان له معرفة تامة بالحديث والتاريخ .

وفي سنة اثنين وستين وستمائة مات بدمشق العماد الحرستاني ابو الفضائل عبد الكريم بن القاضي جمال الدين عبد الصمد ابن محمد الانصاري الدمشقي الشافعي تفقه على ابيه وافتى وناظر وولي قضاء الشام بعد ابيه قليلاً ثم عزل ودرس بالغزالية مدة وخطب بدمشق وكان من اجلة العلماء ولي تدريس الاشرفية بعد ابن الصلاح ووليها بعده ابو شامة .

وفي سنة ٦٦٠ مات بدمشق عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي شيخ الاسلام له تصانيف كثيرة معروفة .

وفي تلك السنة مات بدمشق الشيخ عز الدين عبد العزيز بن شيخ الاسلام السلمي الدمشقي الشافعي المجتهد تفقه ودرس وولي الخطابة بدمشق وسار الملك الظاهر في جنازته وله مؤلفات منها القواعد الكبرى والصغرى ومقاصد الرعاية ومختصر نهاية الطلب وافتى الفتاوى السديدة وقيل مات سنة ستين وستمائة .

وفي سنة خمس وستين وستمائة مات بدمشق الامام ابو شامة العلامة المجتهد شهاب الدين ابو القاسم عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي ثم الدمشقي

الشافعي المقري النحوي المؤرخ صاحب التصانيف ولد سنة تسع وتسعين وخمسماية وتمي بابي شامة لشامة كبيرة كانت فوق حاجبه الايسر ختم القرآن وهو دون عشر سنوات واتقنه في القرآت على الامام السخاوي وله ست عشرة سنة وسمع الكثير حتى عد في الحفاظ قال الذهبي في تاريخه كتب الكثير من العلوم واتقن الفقه ودرس وافتى وولي مشيخة القراء بالقرية الاشرفية ومشيخة الحديث بالمدرسة الاشرفية وكان مع كثيرة فضائله متواضعاً مطرحاً للتكلف ومن تصانيفه شرح الشاطبية ومختصر تاريخ دمشق احدهما في خمسة عشر مجلداً والآخر في خمسة مجلدات وله كتاب الروضتين في اخبار الدولتين وضوء الساري والباعث على انكار البدع والحوادث وكتاب كشف حال بني عبيد وشرح مفصل الزمخشري وشرح البيبقي وشرح نونية السخاوي وله غير ذلك واكثر تصانيفه لم يفرغ منها ومن شعره

وقد يسر الله الكريم بفضله غنى النفس عن عيش به اتقنع

وقف كتبه بخزانة مدرسةالعدلية الكبرى وشرطان لاتخرج منها فاحترقت جملة واحدة وله شعر قاله عند وفاته وهو .

قال النبي المصطفى ان سبعة يظلهم الله العظيم بظله
محب عفيف ناشيء متصدق وباك مصلو الامام بعدله

دفن بباب كيسان وقيل بباب الفراديس على يسارالداخل في مقبرة الدحداح لم يزل ظاهراً يزار .

وفي تلك السنة مات مرابطاً الامير مقدم الجيوش ناصر الدين حسين بن عزيز القيمري الذي انشأ المدرسة شرقي جامع بني امية والآن تعرف تلك المحلة به كان بطلا شجاعاً رئيساً عادلاً جواداً وهو الذي ملك دمشق للناصر .

وفي سنة سبع وستين وستماية مات بدمشق شرف الدين بن الرضي الرحبي كان قد سلك حذو ابيه واقتنى ما كان يقتنيه له في الطب من كتب كثيرة تولى رئاسة الطب في محل ابيه ولما وقف مهذب الدين الدار التي له بدمشق جعلها

مدرسة يدرس فيها صناعة الطب وانتفع بها الناس اوصى ان يكون مدرسها شرف الدين بن الرضى الرحبي ومن شعره في قصيدة طويلة .

سهام المنايا في الورى ليس تمنع   فكل له يوماً وان عاش مصرع

وفي تلك السنة مات بدمشق التاج مظفر بن عبد الكريم ابو منصور بن الحنبلي الدمشقي مدرس مدرسة جده شرف الاسلام وهي المسمارية افتى وناظر وحدث بمصر والشام ودفن بسفح قاسيون .

وفي سنة ثمانية وستين وستمائة مات بدمشق زين الدين احمد بن عبد الدائم الحنبلي مسند الشام ومحدثها جمع تاريخاً لنفسه وولي الخطابة بقرية كفر بطنا وكتب تاريخ دمشق لابن عساكر مرتين والمغني الموفق مرات وذكر انه كتب بيده الفي مجلد وكان حسن الخلق والخلق وروى عنه الحفاظ الائمة الكبار المتقدمون والمتأخرون منهم النووي وابن دقيق العيد وابن تيمية وآخرهم ابن الخباز الدمشقي دفن بسفح جبل قاسيون .

وفي تلك السنة مات بدمشق ابو المعالي محمد بن زكي الدين القرشي الدمشقي ولي قضاء دمشق مرتين وكان شيعياً يفضل علياً على عثمان مع كونه ادعى نسبه الى عثمان وهو القائل .

ادين بما دان الوصي ولا ارى   سواه وان كانت امية محتدى
ولو شهدت صفين خيلي لاعذرت   وساء بني حرب هنالك مشهدى

وفي سنة ثمان وستين وستمائة مات موفق الدين احمد بن القاسم بن خليفة المعروف بابن ابي اصيبعة الدمشقي الطبيب الاديب مؤلف طبقات الاطباء المطبوع .

وفي سنة سبعين وستمائة مات بدمشق الكمال سلاّر الشافعي مفتي الشام ابو الفضائل صاحب ابن الصلاح وكان معيداً في مدرسة البدرقية عينه لها واقفها وقد اختصر البحر للروياني في مجلدات وانتفع منه جماعة كثيرون منهم الامام النووي واثنى عليه التاريخ بخير دفن بباب الصغير .

وفي سنة احدى وسبعين وستمائة مات ابن هامل المحدث محمد الحراني الحنبلي

ولد بدمشق واصله من حران قال الذهبي في تاريخه عنى بالحديث عناية كلية وكتب الكثير واسمع الحديث ووقف كتبه واجزائه بالضيائية وقال السياطي في حقه سمع منه جماعة من الاكابر مات بالمارستان الصغير بدمشق ودفن من الغد بسفح قاسيون .

اقول والمارستان الصغير بدمشق هو اقدم من المارستان الكبير النوري كان مكانه قبلي مطهرة الجامع الاموي واول من عمره بيتاً وخرب رسوم المارستان منه ابو الفضائل الاخنائي ثم ملكه بعده اخوه البرهان الاخنائي وهو تحت المأذنة الغربية بالجامع الاموي من جهة الغرب وينسب عمارة بنائه الى معاوية وابنه .

وفي تلك السنة مات بدمشق العدل شرف الدين علي بن السكافي كان من كبار اهل دمشق وكان قد عاهد الله تعالى انه مهما كسب يتصدق بثلثه وقد بنى رباطاً بجبل قاسيون ووقف عليه وقفاً كبيراً وشرط ان يقيم فيه عشرة شيوخ ولكل واحد منهم في الشهر عشرة دراهم دفن برباطه .

وفي سنة اثنتين وسبعين وستمائة مات بدمشق حجة العرب محمد بن مالك الشافعي صاحب الالفية في النحو الشهيرة الطائي الاندلسي نزيل دمشق دفن بالصالحية بالروضة قرب الموفق ومن تصانيفه كتاب تسهيل الفوائد في النحو وكتاب الضرب في معرفة لسان العرب وغير ذلك من كتبه المشهورة وكان يصنف ويشتغل في العلم بالجامع الاموي ومدرسة العادلية وينظم الشعر ويقف ويجهر امام المدرسة لاجل تعليم الطلبة العلم (هكذا كانت شيوخ السلف) .

وفي تلك السنة مات بدمشق العارف بالله تعالى الشيخ ابو بكر الملقب بالعرودك هو قطب العارفين ابن قتيان بن سعد الشطي الفراتي وكان من اكابر الاولياء له كرامات ظاهرة واحوال طاهرة باهرة اقام بدمشق بجبل قاسيون وله زاوية معروفة وتربة ظاهرة وكان لها اوقات مشهورة تقصد بالزيارة من كل مكان قال صاحب التاريخ العدوي ان العارف الشيخ

عبد الغني النابلسي نظم قصيدة في فضائله لم يسعنا ذكرها وقال ابن عبدالرزاق تقام عنده الاذكار ليلة الاثنين .

وفي سنة ثلاث وسبعين وستمائة مات بدمشق شرف الدين نصرالله بن عبدالمنعم ابن حواري التنوخي الحنبلي كان فاضلا عمر في آخر عمره مسجداً بدمشق عند طواحين الاشنان وصنف كتاب ايقاظ الوسنان في تفضيل دمشق على سائر البلدان وكانت اقامته بالعادليه الصغرى ولما ولي ابن خلكان قضاء دمشق طلب الحساب من اربابه ومن شرف الدين هذا عن وقف المسجد فعمل الحساب وكتب ورقه فيها :

ولم اعمل لمخلوق حسابا وها انا قد عملت لك الحسابا

فقال القاضي خذ اوراقك ولا تعمل لنا حساباً ولا نعمل لك .

وفي تلك السنة مات بدمشق ابراهيم ابن احمد الموصلي من أئمة الحنفية شارح القدوري له ذكر في طبقات الحنفية دفن بقاسيون وقال بعضهم الاصح انه مات سنة خمس وسبعين وستمائة وانشد لنفسه .

تطلبت في الدنيا خليلا فلم اجد وما احد غيري لذلك واجد

فكم مضمر بغضاً يريك محبة وفي الزند نار وهو في اللمس بارد

وفي سنة خمس وسبعين وستمائة مات بدمشق الشيخ جندل بن محمد العارف العابد صاحب الكرامات والاحوال الظاهرة والباطنة قال تاج الدين الفزاري في تاريخه انه كان من اهل الطريق ومن علماء التحقيق وترجمه ابن كثير وذكر انه زاره الملك الظاهر مرات بقرية منين من اعمال دمشق قال البصروي دفن بقريته المذكورة .

وفي سنة ثمانين وستمائة مات بدمشق قاضي القضاة احمد بن محمد بن خلكان صاحب التاريخ المشهور المسمى بوفيات الاعيان قال ابن عبد الرزاق نقلا عن القاضي محمود في تاريخه انه كان ابن خلكان اماماً عالماً نحريراً فقيهاً نحوياً دفن بسفح قاسيون مقابل الرباط الناصري والعادلية قال ابن شقده انه مات سنة احدى وثمانين وستمائة شيخ مشائخ الاسلام ابو العباس البرمكي احمد

ابن خلكان صنف تاريخاً بديعاً وكان بارعاً في جمعه ومات ايضاً محمد بن علي بن الصابوني المحدث .

وفي سنة اثنتين وثمانين وستمائة مات بدمشق شيخ الاسلام وبقية العلماء الاعلام شمس الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن القدوة الزاهد ابي عمر بن قدامة المقدسي ثم الصالحي الدمشقي الحنبلي ولد بدار والده بسفح قاسيون وسمع من ابيه وعمه الموفق شرح كتاب عمه المقنع في عشر مجلدات وانتهت اليه رئاسة المذهب في عصره بل رئاسة العلم في زمانه وكان معظماً عند الخاص والعام عظيم الهيبة عند الملوك وقد جمع المحدث اسماعيل بن الخباز الدمشقي ترجمته في مائة وخمسين مجلداً وقد ولي قضاء الحنابلة على كره منه ولم يتناول عليه معلوماً ثم عزل نفسه وتولى بعده ولده نجم الدين ودفن عند والده في سفح قاسيون .

وفي تلك السنة مات بدمشق البرهان المراغي ابو الثناء محمود بن عبدالله الشافعي العلامة الاصولي عرض عليه القضاء ومشيخة الشيوخ بدمشق فامتنع ودرس بالفلكية وافتى بالجامع الاموي مدة طويلة وحدث عنه المزي وابن العطار وكان عليه وعلى الشيخ تاج الدين مدار الفتوى بدمشق ودفن بمقابر الصوفية في بستان مستشفى الغرباء اليوم .

وفي تلك السنة مات بدمشق محيي الدين محمد بن الحرستاني خطيب دمشق الشافعي الانصاري الخزرجي كان على خطابته طلاوة وروح وتأثير في قلوب السامعين قال ابن كثير لسبب تقواه وصلاحه وانه كان طيب الصوت في الخطبة دفن بالصالحية .

وفي سنة خمس وثمانين وستمائة مات بدمشق الصاحب محيي الدين ابن محمد بن يعقوب بن النحاس الحلبي الحنبلي ثم الدمشقي انتهت اليه الرئاسة في المذهب وهو شيخ الحافظ المزي وابن تيمية والبرزالي وغيرهم دفن بتربته بقرية المزه .

وفي سنة سبع وثمانين وستمائة مات بدمشق بدر الدين بن مالك صاحب

الالفية اخذ عن والده النحو واللغة والمنطق وسكن بعلبك ثم رجع الى دمشق وتصدر بعد موت والده مات كهلا ودفن بباب الصغير ومن تصانيفه شرح الالفية لوالده والمصباح في المعاني وشرح لامية والده التي في الصرف وكان قليل الحظ من تلامذته يخرج كل يوم ويقف امام باب المدرسة ويقول مثل ما كان يقول ابوه هل من طالب علم يقرأ العلوم اللهم اشهد باني عرضت نفسي ولا مجيب .

وفي تلك السنة مات بدمشق ابو اسحق اللوزي الرعيني الاندلسي سكن دمشق ولي مشيخة الحديث الظاهرية ونقل عن الزبير قوله .

دمشق جنان الله في الارض من غدا مقيما بهـا دهراً فبشره بالفوز
فعيري عن الجوزي يروي حديثها واني لا ارويه الا عن اللوزي

وفي سنة ثمان وثمانين وستمائة مات بدمشق ابن الكمال المحدث الامام شمس الدين المقدسي الحنبلي ولد بقاسيون قال الذهبي كان محدثاً زاهداً كثير الخير له قدم راسخة في التقوى ووقع في النفوس متقللا من الدنيا وكان من سادات الشيوخ علما وعملا وصلاحا قال حكي لي عنه انه كان يحفر مكانا في جبل الصالحية لبعض شأنه فوجد جرة مملوءة دنانير وكانت زوجته معه تعينه على الحفر فاسترجع وضم المكان كما كان اولا وقال لزوجته هذه دفينة ولعل لها مستحقين لا نعرفهم وعاهدها ان لا تخبر بذلك احداً ولا تتعرض اليها وكانت صالحة مثله فتركا ذلك تورعاً مع فقرهما وحاجتهما وهذا غاية الورع والزهد هذا في ذاك الزمان فما قولك في زماننا . دفن عند الموفق

وفي سنة تسع وثمانين وستمائة مات بدمشق عبد الكافي بن عبد الملك القاضي الخطيب جمال الدين ابو محمد الربعي الدمشقي سمع ابن الصلاح كان فقيهاً فاضلا ناب في القضاء ثم ترك ذلك واختصر على الخطابة والامامة بالجامع الاموي .

وفي سنة سبع وثمانين وستمائة مات بدمشق شيخ علماء الادب واللغة رشيد الدين وهو ابو حفص بن ابي الكاتب الربعي الشافعي الدمشقي اشتهر بالنظم

وله ديوان شعر وكتب الانشاء وكان له يد طولى في التفسير والبديع واللغة وانتهت اليه رئاسة الادب وافتى وناظر ودرس بمدرسة الظاهرية وانقطع بها وله في النحو مقدمتان وكان يشارك في الاصول والطب وغير ذلك وله طلاوة وحلاوة في المناظرة انتفع به آخرون وخنق في بيته واخذ ماله .

وفي سنة تسعين وستمائة مات بدمشق العلامة السويدي الحكيم شيخ الاطباء عز الدين بن طرخان الانصاري الدمشقي سمع من الشمس العطار وابن ملاعب وتأدب على ابن معطي واخذ الطب على المهذب الدخوار وبرع في الطب وصنف فيه وفاق الاقران وكتب الكثير من الكتب بخطه المليح ونظر في العقليات والف كتاب الباهر في الجواهر وكتاب التذكرة في الطب وكان مقارناً للطبيب علاء الدين بن النفيس القرشي الدمشقي ومعاصراً له وقد انتخب شيخاً للطب بالديار المصرية والشامية قال الذهبي الف في الطب كتاب الشامل وهو كتاب عظيم تدل فهرسته على ان يكون ثلاثمائة مجلدة وكانت تصانيفه عليها من حفظه ولا يحتاج الى مراجعة لتبحره في الفن وشرح الانموذج في الطب شرحاً ليس له نظير قالوا وكان في اعطاء العلاج وتشخيص الداء اعظم من ابن سينا ونبغ في دمشق ايضاً نجم الدين ابن المنفاخ ويعرف بابن العالمة لان امه كانت عالمة دمشق وتعرف ببنت دهين اللوز طبيب عالم بالحكمة والمنطق والادب له مؤلفات ، مات سنة ٦٥٢ .

وفي تلك السنة مات بدمشق فقيه الشام تاج الدين شيخ الاسلام عبد الرحمن ابن براهيم بن سباع الفزاري المفتي المجتهد الشافعي الدمشقي تصدر لمجالس العلم وله بضع وعشرون سنة وكتب على الفتاوي التي كانت تأتيه من الاقطار قال الذهبي انتهت اليه رئاسة المذهب ودرس وناظر وصنف وجمع تاريخاً لدمشق مفيداً قال ابن شهبة في تاريخه وكان مدرس البدرية دفن بباب الصغير مقابل الجراح قال ابن عبد الرزاق اشتهر بابن مزكاح .

وفي تلك السنة مات بدمشق الفخر بن البخاري مسند الدنيا ابو الحسن علي بن احمد السعدي المقدسي الصالحي ولد بها وسمع من ابن حنبل والكندي

وأجاز له ابو المكارم اللبان الدمشقي وابن الجوزي وطال عمره وصار محدث الاسلام . قال الذهبي في تاريخه هو آخر من كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم ثمانية رجال ثقات وروى عنه من الحفاظ من لا يحصى ... منهم ابن دقيق العيد والحارثي وابن تيمية ومن شعره اللطيف قوله :

تكررت السنون علي حتى بليت وصرت من سقط المتاع
وقل النفع عندي غير اني اعلل بالرواية والسماع
فان يك خالصاً فله جزاء وان يك مانعاً فإلى ضياع

وله ايضاً :

اليك اعتذاري من صلاتي قاعداً وعجزي عن سعي الى الجمعات
وترك صلاة الفرض في كل مسجد تجمع فيه الناس للصلوات

دفن عند والده بقاسيون .

وفي سنة اثنتين وتسعين وستمائة مات بدمشق شيخ الاسلام تقي الدين ابو اسحاق بن علي الحنبلي بركة الشام افتى ودرس بالمدرسة المعروفة بالصالحية بسفح قاسيون باول حارة الاكراد وبمدرسة الشيخ ابي عمر بالصالحية قال الذهبي قرأت بخط كمال الدين بن الزملكاني في حقه كان كبير القدر يعود المرضى ويشيع الجنائز وكان داعية الى عقيدة اهل السنة والسلف الصالح دفن بتربة الشيخ الموفق .

وفي سنة اربع وتسعين وستمائة مات بدمشق علي بن داود القحفازي شيخ اهل دمشق في عصره .

وفي تلك السنة مات بدمشق ابو الرجال عبد الرحمن بن مري صاحب الكشف والكرامات والشيخ جندل المتقدم الذكر خاله واصلهما من بلاد العجم وتوطنا بدمشق دفن بقرية منين بزاويته ومحله مشهور يزار .

وفي سنة تسع وتسعين وستمائة مات بدمشق شهاب الدين ابو العباس احمد ابن فرح الاشبيلي الشافعي المحدث الحافظ كان له حلقة اشغال بجامع دمشق في الذكر قال ابن ناصر الدين وله قصيدة مشهورة يترنم بها اهل دمشق اولها :

«غرابي صحيح والرجافيك معضله، ولقد حفظا جماعة وعلى فهمها عولوا .

وقال في مدح دمشق :

اني ادل على دمشق وطيبها من حسن وصفي بالدليل القاطع
جمعت جميع محاسن في غيرها والفرق بينهما بنفس الجامع

ابو الحسن علي بن رستم بن هردوز ويعرف بابن الساعاتي ولد بدمشق ومات بالقاهرة ودفن بسفح المقطم وله ديوان شعر في مجلدين منه نسخة في مكتبة اياصوفية في الاستانة وهو غير ابن الساعاتي الفقيه مات سنة ٦٠٤ .

ونبغ من المهندسين في العصر السابع ابراهيم بن غنائم المهندس باني المدرسة الظاهرية الجوانية بدمشق واسمه لا يزال منقوشاً على يسار الداخل اليها في زاوية المدخل وهو الذي هندس القصر الابلق الذي قامت التكية السليمانية في القرن العاشر على انقاضه ونوهنا عنه في محله .

ومن نوابغ هذا العصر ايضاً نجم الدين القمراوي وشرف الدين المتاني وهما من قرى صلخد في جبل حوران اشتهر في الحكمة والفلسفة والشريعة وهما اللذان ذهبا الى الموصل ليجتمعا في الفيلسوف الشهير كمال الدين بن يونس وكانا حلاّ لغزه في الحكمة بعد ان عجز عن حله كثير من علماء عصره فسألهما عن موطنهما فقالا الشام فقال من اي موضع منه قالا من حوران فقال لا اشك ان احدكما النجم القمراوي والآخر الشرف المتاني وشهرتهما في ذلك العصر كبيرة في العلوم الدينية والعلوم الحكمية التي يقال عنها اليوم العلوم العصرية .

جاء في السكردان لابن ابي حجلة لبس النصارى العمائم الزرق واليهود العمائم الصفر والسامرة العمائم الحمر في عصر السبعاية وتخصصوا بها . وسبب ذلك ان مغربياً كان جالساً بباب القلعة في دمشق عند بيبرس فحضر بعض كتاب النصارى بعمامة بيضاء التي يلبسها المسلمون فقام له المغربي وحياه بتحية الاسلام وتوهم انه مسلم ثم ظهر انه من غير الاسلام فدخل على السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون يفاوضه في تغيير زي اهل الذمة ليمتاز المسلمون عنهم فاجابه

الى ذلك وصدر الامر بذلك ومشيت هذه العادة الى يومنا هذا وبقيت العمامة البيضاء عند علماء المسلمين اشارة روحية لهم .



اسماء رجال العصر الثامن من الهجرة

وفي سنة احدى وسبعمائة مات بدمشق الامام ابن غانم شمس الدين محمد بن سليمان المقدسي الشافعي كان فقيها واحد الاعيان والاكابر معروفاً بالكتابة والامانة كثير التواضع اقتنى كتباً نفيسة درس بمدرسة العصرونية وكان كثير المروءة لمن يعرفه ومن لا يعرفه وله بر وصدقة .

وفي تلك السنة مات بدمشق مجد الدين يوسف بن القباقبي صاحب الدار المشهورة في زقاق العامود الفاضل الاديب كان من اعيان دمشق وشعرائها ومن شعره في الثلج .

طمث الثلوج على الوهاد مع الربى فالكون يعجب منه وهو مفضض
فانهض لنجمع شمل انس مقبل بلذاذة فاليوم يوم ابيض

وهذه الدار كانت سكناً لبني القوتلي وقد احترقت اليوم عند نكبات دمشق

وفي تلك السنة مات بدمشق الشيخ وجيه الدين محمد بن عثمان بن المنجا التنوخي الحنبلي اخو زين الدين كان صادقاً عالماً فاضلا كثير المروءة والصدقات والتواضع بنى دار قرآن معروفة بقرية من مدرسة الخاتونية الحنفية الجوانية ودرس في اول عمره بالمسمارية ثم تركها لولده وولي نظر الجامع الاموي فاحسن فيه بسيرة حسنة.

وفي سنة ثلاث وسبعمائة مات بدمشق زين الدين عبد الله بن مروان الفارقي خطيب دمشق وشيخ دار الحديث ومدرس الشامية البرانية سمع الحديث من جماعة واشتغل بقراءة العلوم وافتى ودرس وولي مشيخة دار الحديث بعد النووي وهو الذي عمرها بعد خرابها في فتنة غازان ملك التتار التي حصلت بدمشق وتوفي بسببها من شيوخ دمشق اكثر من مائة نفس وقتل بجبل

قاسيون والصالحية خلق كثير ومات برداً وجوعاً نحو اربعمائة نفس واسر اربعة آلاف منهم سبعون نسمة من ذرية الشيخ ابي عمر وكان ذلك في سنة السبعمائة وكانت دمشق مرسحاً للفوضى .

وفي سنة خمس وسبعمائة مات بدمشق خطيب جامعها الامام الكبير شرف الدين احمد ابن ابراهيم ابن سباع الفزاري الشافعي اخو الشيخ تاج الدين احكم العلوم العربية وقرأ الحديث وكان فصيحاً عديم اللحن ولي خطابة جامع الجراح ثم خطابة جامع دمشق وقبل وفاته بسنة اخذه شيخ الاسلام ابن تيمية مع النجارين لاجل قطع شجرة النارنج التي في مسجد النارنجة جوار المصلى فقطعها وكان يزورها الناس وينذرون لها النذور ولهم فيها اعتقاد فمحا ذلك الاثر وبقي المصلى وبنى عليه مسجد النارنجة المعروف الى اليوم .

وفي سنة ستة وسبعمائة مات بدمشق خطيبها شمس الدين محمد بن عثمان الخلاطي ابن امام مدرسة الكلاسة التي هي لصيق الجامع الاموي ولي الخطابة فاقام ستة اشهر ونصفاً وصلى عليه الافرم نائب دمشق عن الملك المنصور وولي بعده الخطابة جلال الدين القزويني صاحب تلخيص المفتاح وفي تلك السنة انشأ في الصالحية تجاه الرباط الناصري جامع الافرم نائب دمشق المذكور وخطب به القاضي شمس الدين الحنفي وبقي معموراً الى اليوم .

وفي تلك السنة مات بدمشق عبد العزيز بن محمد بن علي الطوسي مدرس مدرسة النجيبة ومعيد الناصرية كان عارفاً بالفقه والاصول صنف شرح الحاوي وشرح مختصر ابن الحاجب .

وفي سنة احدى عشرة وسبعمائة مات بدمشق عماد الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم الواسطي الزاهد القدوة العارف وكان ابوه شيخ الطائفة الاحمدية والهمه الله تعالى من صغر سنه اتباع الحق وطلب الصدق ومحبته والنفور عن البدع واهلها سافر الى الحج واجتمع بعلماء البلاد ثم قدم دمشق فرأى شيخ الاسلام ابن تيمية فصاحبه ولازمه فدله على مطالعة السيرة النبوية فاقبل على سيرة ابن اسحاق فلخصها واختصرها واقبل على مطالعة كتب الحديث والسنة

والآثار وتبوع في الرد على طوائف المبتدعة الذين خالطهم وعرفهم وبين عوراتهم وكشف استارهم وانتقل الى مذهب الامام احمد واختصر الكافي في مجلد سماه البلغة والف تآليف كثيرة في الطريقة النبوية قال شيخ الاسلام ابن تيمية هو جنيد وقته قال الذهبي كان يعتاش من اجرة النسخ ولا يقبل من احد شيئاً الا في النادر ومذهبه مذهب السلف في الصفات يمرها كما جاءت دفن بقاسيون قبال زاوية السيوفي .

وفي سنة اربع عشرة وسبعمائة مات بدمشق نقيب السادة الاشراف امين الدين جعفر بن شيخ الشيعة محيي الدين محمد بن عدنان الحسيني توفي في حياة ابيه فولي بعده النقابة ولده شرف الدين عدنان قاله في العبر .

وفي سنة خمس عشرة وسبعمائة مات بدمشق مسند الشام قاضي القضاة ابو الفضل سليمان بن حمزة بن قدامة بن الشيخ ابي عمر صاحب المدرسة في الصالحية سمع عن الحافظ الضياء حتى قال سمعت منه الف كتاب وجزءاً وقال البرزالي الى شيوخه بالسماع نحو مائة وبالاجازة اكثر من سبعمائة ولم يزل يقرأ عليه الناس الى قبل وفاته بيوم كان اماماً محدثاً افتى نيفاً وخمسين في سنة وكان يقول لم اصل الفريضة قط منفرداً الا مرتين وكأني لم اصلهما دفن من الغد بتربة جده الشيخ ابي عمر .

وفي تلك السنة مات بدمشق العلامة شيخ الشيوخ صفي الدين محمد بن عبد الرحيم الارموي ثم الهندي الشافعي الاشعري نزيل دمشق ولي مشيخة الشيوخ ودرس بالظاهرية الجوانية والاتابكية والرواحية والدولعية قال السبكي كان من اعلم الناس بمذهب ابي الحسن وادراهم به متضلعاً بالاصلين دفن بمقابر الصوفية وكل مصنفاته حسنة جامعة لا سيما النهاية في اصول الفقه .

وفي سنة سبع عشرة وسبعمائة مات بدمشق ابو بكر احمد بن ابي بكر الدمشقي المعروف بنقيب المتعممين في النظم والنثر مما يناسب الوقائع ولعله مثل الذي يقال الآن شيخ الادب شيخ الشعراء والبلغاء وكان يحضر التهاني والتعازي وبنايات المساجد وحضر في هذه السنة قبل وفاته الشروع في بناء جامع تنكز

بظاهر دمشق وكان يعرف علم الموسيق والشعبذة وضرب الرمل والجفر ومطالع النجوم والفلك ويحضر مجالس البسط والهزل ثم انقطع لكبر سنه حكاه ابن الجزري في تاريخه .

وفي سنة ثاني عشرة وسبعمائة مات بدمشق ابو محمد عبد الله بن حسان الصالحي الاديب الزاهد الدمشقي قال البرزالي كان شيخاً فاضلا بارعاً في الادب متقللا من الدنيا لم يكن له اثاث بيت ولا طاسة ولا فراش ولا سراج بل كان بيته خالياً من ذلك كله ومن شعره اللطيف .

يامن عصيت عواذلي في حبه واطعت قلبي في هواه وناظري
لي في هواك صبابة عذرية علقت باذيال النسيم الحاجري
وحديث وجدي في هواك مكرر فلذاك يحلو اذ يمر بخاطري

دفن بمقابر المراديين بالقرب من تربة الشيخ عمر .

وفي سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة مات بدمشق السيد المعمر الامام محيي الدين محمد بن عدنان بن حسن الحسيني الدمشقي قال الذهبي كان عابداً فاضلا تخضع له الشيعة وهو والد النقباء على الاشراف زين الدين حسين وامين الدين جعفر وهو جد النقيب ابن عدنان وكانت له معرفة وفضيلة وفيه انجماع وانقباض عن الناس .

وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة مات بدمشق قاضي القضاة نجم الدين احمد بن الرئيس الكبير التغلبي الربعي الدمشقي الشافعي سمع الحديث ولازم جودة الخط على ابن المهتار الدمشقي واتقن الاقلام السبعة واستمر على القضاء الى ان مات درس بالامينية وغيرها له مشاركة في علوم وفنون شتى وعنده حظ من الادب ومن شعره الرقيق .

ومهفهف بالوصل جاد تكرما فاعاد ليل الهجر صبحا ابلجا
ما زلت الثم ما حواه ثغره حتى اعدت الورد فيه بنفسجا

وفي تلك السنة مات بدمشق القاضي المعمر العدل شمس الدين احمد بن

الزبير الحنبلي الدمشقي ثم الشافعي سمع من ابن الصلاح سنن البيهقي وله شعر لطيف منه :

اقول لمسواك الحبيب لك الهنا بلثم فم ما ناله ثغر عاشق
فقال وفي احشائه حرق الجوى مقالة صب للديار مفارق ...

وله البيتان المعروفان في الكفاءة .

شروط الكفاءة حررت في ستة ينبيك عنها بيت شعر مفرد
نسب ودين صنعة حرية فقد العيوب وفي اليسار تردد

وفي سنة اربع وعشرين وسبعمائة مات بدمشق كريم الدين عبد الكريم ابن هبة الله ابن العطار الشهير الشافعي ويلقب في عصره بمختصر النووي تفقه عليه واخذ العربية عن جمال الدين ابن مالك وولي مشيخة دار الحديث النورية ومرض بالفالج وكان يحمل بمحفة وكتب الكثير من الكتب النفيسة وكان يعظم اهل الدين وله بر وآثار عمر البارات واصلح الطرق وعمر جامع القبيبات في الميدان وجامع القابون ووقف عليهما الاوقاف ثم انحرف عليه السلطان فنكبه فنفي الى الشويكة فاصبح مشنوقاً بعمامته ولما احس بالقتل صلى ركعتين . وقال هاتوا ما عندكم عشنا سعداء ومتنا شهداء اعطاني السلطان الدنيا والآخرة وشنق وقد قارب التسعين .

وفي سنة سبع وعشرين وسبعمائة مات بدمشق المفتي الزاهد القدوة شرف الدين عبد الله بن عبد الحليم بن عبد السلام بن ابي القاسم بن تيمية الحراني ثم الدمشقي وهو اخو شيخ الاسلام ابن تيمية تفقه في المذاهب حتى افتى ودرس بجامع المظفري المعروف بالحنابلة الى اليوم كان قانعاً باليسير شجاعاً شريف النفس مقداماً مجاهداً ورعاً يخرج من بيته ليلاً ويأوي اليه نهاراً ولا يجلس في مكان معين بحيث يقصد فيه لكنه يأوي المساجد المهجورة خارج البلد فيختلي فيها للصلاة والذكر ذا صدقات كثيرة بالفضة والذهب في حضره وسفره مع قلة ذات يده صلى عليه اخوه ابن تيمية والشيخ عبد الرحمن وهما في السجن لان التكبير كان يبلغهم والجنازة خارج السجن في القلعة وكان

السبب في صدور الامر بحبس شيخ الاسلام ابن تيمية لانه افتى باعتبار ان الطلقة الواحدة تفدى بمثابة اليمين وذهب معه اخوه عبد الرحمن لاجل ان يؤنسه وعزروا جماعة من اصحابه منهم ابن القيم وكان يوماً مشهوداً دفن بمقابر الصوفية .

وفي سنة سبع عشرة وسبعمائة مات بدمشق الحسين بن علي بن اسحاق بن سلام مفتي مدرسة العدل بدمشق في زمن الافرم وولي تدريس مدرسة العذراوية والجاروخية وكان من فقهاء عصره .

وفي سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة مات بدمشق زكريا بن يوسف بن سليمان بن حامد البجلي مدرس المدرسة الطيبة والاسدية بدمشق سمع من ابن البخاري وغيره قاله السبكي في الطبقات .

وفي سنة اربع وعشرين وسبعمائة مات بدمشق علي بن ابراهيم بن داود ابو الحسن بن العطار شيخ الحديث ومدرس مدرسة القوصية بدمشق سمع القطب ابن ابي عصرون وخرج له الذهبي معجما وهو من اصحاب الشيخ محيي الدين النووي نقله السبكي .

وفي سنة خمس وعشرين وسبعمائة مات بدمشق سليمان بن هلال بن شبل ابن فلاح الداراني خطيب داريا الكبرى كان رجلاً صالحاً تفقه على ابن الفركاح والشيخ محيي الدين النووي وكان يذكر نسبه الى جعفر الطيار حدث عن المقداد القيسي نقله السبكي .

وفي سنة ثمان وعشرين وسبعمائة مات بقلعة دمشق شيخ الاسلام ابو العباس تقي الدين احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الحنبلي بل المجتهد المطلق ولد بحران وقدم به والده وباخوته عند استيلاء التتار على البلاد الى دمشق فسمع من الشيخ بهاء الدين بن عبد الدائم وابن ابي اليسر والمحدث ابن عساكر ويحيى بن الصيرفي وشمس الدين بن الشيخ عمر وغيرهم من الدمشقيين وعني بالحديث والكتب الستة ومعجم الطبراني الكبير ثم اخذ كتاب سيبويه وفهمه واقبل على تفسير القرآن ، ونظر في الكلام والفلسفة وبرز

في ذلك على اهله ورد على رؤسائهم واكابرهم وتأهل للافتاء والتدريس وله دون العشرين سنة وامده الله تعالى بكثرة الكتب وسرعة الحفظ وقوة الادرك والفهم وبطء النسيان حتى قال غير واحد لم يكن يحفظ شيئاً فينساه ثم توفي والده وله احدى وعشرون سنة فقام بوظائفه بعده مدة فدرس بدار الحديث التنكزية المجاورة لحمام نور الدين الشهيد في البزورية وحضر في درسه قاضي القضاة بهاء الدين بن الزكي الدمشقي والشيخ تاج الدين الفزاري الدمشقي وابن المدخل وابن المنجا وجماعة من معاصريه فذكر درساً عظيماً في البسملة بحيث بهر الحاضرين واثنوا عليه جميعاً وبرع في تفسير القرآن وغاص في دقيق معانيه بطبع سيال وخاطر وقاد الى مواضع الاشكال ميال واستنبط منه اشياء لم يسبق اليها وفاق الناس في معرفة الفقه واختلاف المذاهب وفتاوي الصحابة والتابعين بحيث انه اذا افتى لم يلتزم مذهباً بل بما يقوم دليله عنده وعرف اقوال المتكلمين ورد عليهم ونبه على خطائهم وحذر من بعض اقوالهم ونصر السنة باوضح الحجج وابهر البراهين وفي نهاية الامر اوذي من مخالفيه نقله الذهبي في تاريخه الكبير بعد ترجمة طويلة بحيث يصدق عليه ان يقال كل حديث لا يعرفه بن تيمية فليس بحديث وترجمه بن الزملكاني ايضاً وابن سيد الناس باعظم من هذه الترجمة وقال ابن دقيق العيد وقد سئل عن ابن تيمية بعد اجتماعه به كيف رأيته فقال رأيت رجلاً سائر العلوم بين عينيه يأخذ ما شاء منها ويترك ما شاء فقيل له فلم لم تتناظرا فقال لانه يحب الكلام واحب السكوت وذكر ان تصانيفه الى الآن تبلغ خمسمائة مجلد وانه استاذ ائمة الجرح والتعديل واثنى عليه خلق كثير منهم الشيخ عماد الدين الواسطي وتاج الدين الفزاري وابن رجب وبرهان الدين بن مفلح وتقي الدين السبكي وابو عبد الله بن ابي قوام وابو الحجاج المزي قال عنه ما رأيت مثله ولا رأي هو مثل نفسه وما رأيت احداً اعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا اتبع لهما منه .

ثم قال ابن رجب وغيره نبذة من مفرداته وغرائبه اختار ارتفاع الحدث

بالمياه المعتصرة كماء الورد ونحوه والقول بان المائع لا ينجس بوقوع النجاسة فيه الا ان يتغير قليلاً كان او كثيراً والقول بجواز المسح على النعلين والقدمين وكل ما يحتاج في نزعه من الرجل الى معالجته باليد او بالرجل الاخرى فانه يجوز المسح عليه مع القدمين واختار ان المسح على القدمين لا يتوقت مع الحاجة كالمسافر على البريد ونحوه وفعل ذلك في ذهابه الى الديار المصرية على خيل البريد ويتوقت مع امكان النزع وتيسره واختار جواز المسح على اللفائف وغيرها او نحوها واختار جواز التيمم لخشية فوات الوقت في حق غير المعذور كمن اخر الصلاة عمداً حتى تضايق وقتها وكذا من خشي فوات الجمعة والعيدين وهو محدث واختار ان المرأة اذا لم يمكنها الاغتسال بالبيت وشق عليها النزول الى الحمام وتكرره قال انها تتيمم وتصلي واختار ان لاحد لاقل الحيض ولا لاكثره ولا لاقل الطهر بين الحيضتين ولا لسن الاياس وان ذلك يرجع الى ما تعرفه كل امرأة من نفسها واختار القول بان البكر لا تستبرأ وان كانت كبيرة كما هو قول ابن عمر واختاره البخاري صاحب الصحيح والقول بان سجود التلاوة لا يشترط له وضوء كما هو مذهب ابن عمر واختيار البخاري والقول بان من اكل في شهر رمضان معتقداً بانه ليل وكان نهاراً لا قضاء عليه كما هو الصحيح عن عمر بن الخطاب واليه ذهب بعض التابعين وبعض الفقهاء بعدهم والقول بجواز المسابقة بلا محلل وان اخرج المتسابقان والقول باستبراء المختلعة بحيضة وكذا الموطوءة والمطلقة آخر ثلاث تطليقات والقول باباحة وطء الوثنيات بملك اليمين وجواز طواف الحائض ولا شيء عليها اذا لم يمكنها ان تطوف طاهرة والقول بجواز بيع الاصل بالعصير كالزيتون بالزيت والسمسم بالسيرج والقول بجواز بيع ما يتخذ من الفضة للتحلي وغيره كالخاتم ونحوه بالفضة متفاضلاً وجعل الزائد من الثمن في مقابلة الصيغة ومن اقواله المعروفة المشهورة التي جرى بسبب الافتاء بها محن وقلاقل قوله بالتكفير في الحلف بالطلاق وان الطلاق الثلاث لايقع الا واحدة وان طلاق الحرم لا يقع وله في

ذلك مؤلفات كثيرة قال ابن رجب مكث ابن تيمية معتقلا في القلعة ومرض بها ولم يعلم اكثر الناس بمرضه ولم يفاجئهم الا خبر موته ودفن بمقابر الصوفية عند قبر اخيه باحتفال لم يسبقه به احد وقال بعضهم هكذا تكون جنائز ناصري السنة وقد ذكر شيخ الاسلام عن نفسه بكتابه دلائل الاعجاز ان بعض الشياطين تشكل بصفة الشيخ نفسه وذهب الى ملك ماردين ليلة من الليالي وامره ان يقول كلمة الشهادة والا طعنتك بخاصرتك بهذا السهم وانا احمد بن تيمية قال اصبح الملك واجتمع بوزرائه فقص عليهم بانه رأى بعين رأسه انساناً يأمره بالشهادتين وان امتنع طعنه بخاصرته فقال بعض الحاضرين هذا الشيخ بسجن مصر فلا بد من الاستعلام عن حقيقة حاله فارسل بريداً مخصوصاً الى ملك مصر وسأله عن الشيخ فأمر الملك باحضاره فلما حضر سأله بعض الحاضرين هل انت خرجت في ليلة كذا الى بلدة ماردين ودخلت على ملكها وامرته ان يعترف بالشهادتين فقال لا ولكن هذا شيطان فقال بعض الحاضرين وكان محباً للشيخ لعله ان يكون ملكاً من الملائكة فقال الشيخ هذا ليس بملك ولو كان ملكاً لما كذب علي انتهى .

وقد ذكر المؤرخ الشهير محمد افندي كرد علي في كتابه خطط الشام بمناسبة ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية فاحببت نقل مقاله لانه لا يخلو من حكمة وفائدة قال الامام ابن تيمية والاصلاح الديني اختص القرن الثامن بقيام اعظم مصلح فيه وفي قرون كثيرة من قبله ومن بعده اراد ارجاع الدين الاسلامي الى نضرته الاولى وتعريته من القشور التي الصقها به الجهلة المتمسون فآذوه وعذبوه وسجنوه ونفوه ونعني به شيخ الاسلام تقي الدين احمد بن تيمية نابغة النوابغ في الشرع وصاحب التآليف العديدة الممتعة فهو بلا مراء حجة الكتاب والسنة وامام المعقول والمنقول وسيد العلماء ورأس الفقهاء وان دمشق لتفاخر وحق لها الفخر بانها تجلت فيها روح ابن تيمية ودفنت اعظمه في تربتها ولكن عصره يخجل كل الخجل من اعمال من ناهضوه مدفوعين بعامل الحسد ولا سيما المشايخ بنو السبكي الذين آذوه فاكثروا من اذاه طمعاً في نيل الحظوة من

العامة والملوك واستعانوا بنفوذهم السياسي في حكومة مصر والشام فاعتقل زماناً في القاهرة والاسكندرية ودمشق والامة وعقلاء علمائهـا تقدسه حتى لقي ربه .

وقد اشبه ابن تيمية في دعوته في الاسلام لوثيروس صاحب المذهب الانجيلي في النصرانية بيد ان مصلح النصرانيـة نجح في دعوته ومصلح الاسلام اخفق ويا للاسف .

وقد انتشرت بعد عصره الفوضى العقلية بين المسلمين كما قاله العلامة محمد عبده مفتي مصر تحت حماية الجهلة من ساستهم فجاء قوم ظنوا في انفسهم ما لم يعترف به العلم لهم فوضعوا ما لم يعد للاسلام قبل باحتماله غير انهم وجدوا من نقص المعارف انصاراً ومن البعد عن ينـابيع الدين اعواناً فشردوا بالعقول عن مواطنها وتحكموا في التضليل والتكفير وغلوا في ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الامم في دعوى العداوة بين العلم والدين وقالوا لما تصف السنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام انتهى كلامه .

قال السيوطي ان دمشق كثر بها العلم في زمن معاوية ثم في زمن عبد الملك واولاده وما زال بها فقهاء ومحدثون ومقرئون في زمن التـابعين وتابعيهم ثم الى ايام ابي مسهر ومروان بن محمـد الطاطري وهشام ودحيم وسليمان بن بنت شرحبيل ثم اصحابهم وعصرهم وهي دار قرآن وحديث وفقـه وتناقص بها العلم في المائة الرابعة والخامسة وكثر بعد ذلك ولا سيما في دولة نور الدين وايام محدثها ابن عساكر والمقادلة النازلين بسفحها ثم كثر بابن تيمية والمزي واصحابهما .

وكنا اسلفناك كثيراً من هذا البحث واوضحنا لك بعض الشيء منه في الجزء الاول من كتابنا هذا فلا حاجة الى اعادة البحث فيه .

وفي تلك السنة مات بدمشق شيخ الربوة شمس الدين محمد بن ابي طالب الانصاري الصوفي الدمشقي ابو عبـدالله صاحب تاريخ دمشق المشهور الذي

طبع حديثاً في احـد عواصم الغرب وهو نخبة الدهر في الفوزموغرافيا والجغرافيا والسياسة في علم الفراسة .

ونبغ في هذا العصر شيخ الاسلام واحد الائمة الاعلام يحيى بن شرف النووي الدمشقي ولد في محرم سنة ٦٣١ وقرأ القرآن ببلده في حوران وقدم دمشق بعد تسع عشرة سنة من عمره قدم به والده فسكن بالمدرسة الرواحية وكان يقرأ كل يوم اثنى عشر درساً على المشائخ ثم خطر له الاشتغال في علم الطب حتى فاق جميع اقرانه في سائر العلوم والفنون ثم اخذ في التصنيف من حدود الستين الى ان مات وولي مشيخة دار الحديث بعد ابي شامه وصرف اوقاته كلها نحو العلم والعمل به ومن تصانيفه الروضة والمنهاج وشرح المهذب ورياض الصالحين والايضاح والتقريب والتبيان والمهمات وغـير ذلك من المؤلفات المفيدة وقد ذكر نبذة لطيفة في كتاب تهذيب الاسماء واللغات نقلا عن الامام الشافعي انه قال من اراد الدنيا فعليه بالعلم ومن اراد الآخرة فعليه بالعلم وقال من لا يحب العلم لاخير فيه فلا يكن بينك وبينه صداقة ولا معرفة وقال فقر العلماء فقر اختياري وفقر الجهال فقر اضطراري .

اقول اجتمعت في عصرنا هذا برجل من علماء الهند اسمه الشيخ حبيب الرحمن نزيل المدينـة المنورة وكنت اذ ذاك متشرفاً بالزيارة في سنة ١٣١٠ هـ يشبه صاحب هذه الترجمة بوقوفه على علوم شتى تبلغ سبعين علماً قال منها خمسون علماً ما سألني عنهـا سائل وكان يقول :

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي انت فيها

وقريب من هذا المعنى قول لبيد او زهير :

واعلم علم اليوم والامس قبله ولكنني عن علم ما في غد عمي

وفي سنة سبع وعشرين وسبعمائة مات الكمال ابن الزملكاني في احد قرى دمشق الفقيه الاصولي العالم بالعربية صاحب الرسائل الشهيرة .

وفي سنة تسع وعشرين وسبعمائة مات بدمشق شيخ الاسلام ابراهيم برهان الدين ابن شيخ الشافعية تاج الدين عبد الرحمن الفزاري ابن الفركاح المتقدم

الذكر درس بالبدرقية بعد وفاة ابيه وخلفه في اشغال الطلبة والافتاء وعرض عليه القضـاء فامتنع وصنف التعليقة على التنبيه في نحو عشر مجلدات قـال السبكي كان اماماً في علم الحديث وكان فقيه الشام وركنها وله اقوال في جامعها يأتي ذكرها في محلها وله كتاب في فضائل الشام ومحاسنها .

وفي سنة ثلاثين وسبعمائة مات بدمشق الشيخ شهاب الدين احمد بن ابي طالب الصالحي الحجار مسند الدنيا ابن الشحنه هو من قرية من قرى سوق وادي بردى بدمشق انفرد بالرواية عن الحسين الزبيدي وعمر مائة وسبعة اعوام وانفرد بالدنيا بالاسناد عن الزبيدي وكان امياً يخرج للجبل مع الحجارين وكانت الطلبة تخرج اليه وهو يقطع الحجارة ليسمعهم وكان اذا قلب عليه سند حديث يقول لم اسمعه هكذا وانما سمعته كذا وكذا طبق ما في الصحيح دفن بصالحية دمشق بالسكة بالقرب من زاوية الرومي صاحب المجالس بجوار جامع الافرم (اقول وقد حظيت على نسخة من مجالس الرومي بخط نفيس مقدار مجلد وهي من جملة الكتب النفيسة التي من الله علينا بها) .

وفي سنة احدى وثلاثين وسبعمائه مات بدمشق يوسف بن دانيال بن منكلي القاضي بدر الدين بن القاضي ضياء الدين قاضي الشوبك بالشام تفقه على الفزاري ابن الفركاح وابن ابي عمرو وابن البخاري وحدث بدمشق والكرك وعمان وشوبك

وفي سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة مات بدمشق امام مسجد الربوة عماد الدين ابراهيم الكيال الدمشقي الحنفي سمع وقرأ على ابن عبد الدائم وكان محدثاً اماما نحريراً فصيحاً خدم في المواريث وام في مسجد الربوة وغيرها (اقول ان اليوم قد زال أثر تلك القرية المشهورة بالتاريخ ولم يبق عمران لها وزال اثر ذلك المسجد ايضاً وكانت هذه القرية على مكان عال فوق نهر يزيد امتازت بالمناظر الجميلة والهواء اللطيف .

وفي سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة مات بدمشق شهاب الدين ابو العباس احمد ابن يحيى المعروف بابن جهبل الشافعي الدمشقي درس بصلاحية القدس ثم تركها وتحول الى دمشق فباشر مشيخة دار الحديث الظاهرية ثم ولي تدريس

البدرقية واستمر بها الى ان مات قال ابن كثير في تاريخه ووقفت له على تصنيف في نفي الجهة ردا على شيخ الاسلام ابن تيمية لابأس به وسرده بمجموعه في الطبقات الكبرى في نحو كراسين دفن بمقابر الصوفية .

وفي تلك السنة مات بدمشق العلامة شمس الدين الحراني الحنبلي له مؤلف عظيم سماه جامع الفنون وسلوة المحزون يوجد في مكتبة الفوطة .

قال ابن عبد الرزاق في تاريخه مات بدمشق ابراهيم بن سليمان الحموي من العلماء الحنفية شارح الجامع الكبير في ست مجلدات وشارح المنظومة في جلدين ونقله من كتاب الاشارات ولم يبين تاريخ وفاته واشار اليه انه دفن بمقابر الصوفية .

ونقل ايضاً انه مات بدمشق شيخ المالكية بها احمد بن العباس المغربي كان اماماً بارعاً في العلوم وفي فنون كثيرة بلغت نيفاً وثمانين علماً اجمع اهل دمشق على حبه وصلاحه كان له شفقة على اليتامى والغرباء والارامل شديد السطوة على الحكام مع شدة التواضع قال في الاشارات دفن بباب الصغير شمالي تربة القلندرية بين بلال الحبشي والشيخ حماد .

وفي سنة خمس وثلاثين وسبعمائة مات بدمشق رئيس المؤذنين في جامعها واطيبهم صوتاً ابراهيم بن محمد الخلاط الشافعي حدث عن الرضى ابن البران وابن عبد الدائم وغيرهما مات عن عمر قريب المائة .

وفي تلك السنة مات بدمشق نقيب الاشراف شرف الدين عدنان الحسيني ولي النقابة على الاشراف في الديار الشامية بعد موت ابيه واستمر بها نحو عشرة سنة وكان اهل دمشق ينسبون بيتهم الى مذهب التشيع

وفي سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة مات بدمشق يوسف بن ابراهيم بن جملة المحجي من قرية المحجة من بلاد حوران الشام قاضي القضاة تفقه على صدر الدين ابن المرحل ولازمه وبه عرف وناب في الحكم بدمشق عن قاضي القضاة جلال الدين القزويني ودرس بمدرسة الرواحية ثم ولي قضاء القضاة بعد وفاة القاضي علم الدين الاخنائي وولي تدريس الشامية البرانية نقله السبكي .

وفي سنة تسع وثلاثين وسبعمائة مات بدمشق قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ولي الخطابة بدمشق ثم القضاء بها ثم انتقل الى قضاء الشام ومايتبعهما والف تلخيص المفتاح في المعاني والبيان وشرحه بشرح سماه الايضاح قال الذهبي افتى ودرس وناظر وتخرج به الاصحاب واخذ عنه ذوو الالباب دفن بمقابر الصوفية .

وفي تلك السنة مات بدمشق شمس الدين محمد بن ابراهيم بن عبد العزيز بن الجزري صاحب التاريخ الكبير قال الذهبي كان كثير المروءة من كبار عدول دمشق اقام يشهد على القضاة مدة واذا انفرد بشهادة يكتفون به لوثوقهم بوجدانه جمع تاريخاً كبيراً ذكر فيه اشياء حسنة لاتوجد في غيره توفي ببستان الزعفرانية بصالحية دمشق وله احدى وثمانون سنة ولم يزل ذلك البستان معروفاً الى اليوم بذاك الاسم .

وفي سنة ٧٤٠ مات الحافظ علم الدين البرزالي محدث الشام وصاحب التاريخ والمعجم الكبير ونبغ في الفلك والتاريخ والجغرافية .

وفي سنة احدى واربعين وسبعمائة مات بدمشق علاء الدين ابو الحسن علي ابن محمد الشافعي خازن كتب خانقاه السميساطية بدمشق اصيق جامعها سمع الحديث من مشايخ دمشق كان صالحاً محققاً جمع والف فمن تأليفه تفسير القرآن وشرح عمدة الحكام واضاف الى جامع الاصول مسند الامام احمد وسنن ابن ماجه وسنن الدارقطني وسماه مقبول المنقول وجمع السيرة النبوية وحدث ببعض مصنفاته وكان صوفياً بالخانقاه المذكور بشوش الوجه ذاتودد وسمت حسن .

وفي سنة اثنتين واربعين وسبعمائة مات بدمشق الحافظ الكبير جمال الدين الكلبي القضاعي الدمشقي ابن الحجاج يوسف المزي بن عبد الرحمن حامل راية السنة والجماعة والقائم بأعباء هذه الصناعة الشافعي نقله السبكي واثنى عليه بخير وقال ابن شهبة انه كان شيخ المحدثين عمدة الحفاظ بدمشق سمع الكثير من الرجال ورحل وبرع في فنون الحديث واقر له الحفاظ من مشايخه وغيرهم

ولي تدريس دار الحديث الاشرفية قال ابن تيمية لما باشرها بحسب توليته عليها لم يلها من حين بنيت الى الآن احق بشرط الواقف منه لقول الواقف فان اجتمع من فيه الرواية ومن فيه الدراية قدم من فيه الرواية قال الذهبي كان يدري الحديث كما في النفس متناً واسناداً واليه المنتهى في معرفة الرجال وطبقاتهم ومن نظر في كتاب تهذيب الكمال علم محله من الحفظ وكان ينطوي على سلامة باطن وتواضع وفراغ عن الرئاسة وقلة الكلام وقد بالغ في الثناء عليه ابو حيان وابن سيد الناس وغيرهما من علماء العصر وقد جمع الكتب الستة في خمس مجلدات دفن بمقابر الصوفية عند قبر صاحبه ابن تيمية.

وفي سنة ثلاث واربعين وسبعمائة مات بدمشق الامام المشهور الحسن بن محمد بن عبدالله الطيبي شارح الكشاف الدمشقي العلامة في المعقول والعربية والمعاني والبيان قال ابن حجر كان آية في استخراج الدقائق من القرآن والسنن مقبلا على نشر العلم شديد الرد على الفلاسفة مظهر فضائحهم من استيلائهم على زمام الامور وكان يعير الكتب النفيسة لاهل بلده صنف شرح الكشاف والتفسير وشرح المشكاة والتبيان في المعاني والبيان وكان يشغل نفسه في التفسير من بكرة الى الظهر ومن ثم الى العصر في الحديث رأى النبي صلى الله عليه وسلم وقد ناوله قدحاً من اللبن فشرب منه

وفي سنة اربع واربعين وسبعمائة مات بدمشق تقي الدين ابو الفتح محمد بن عبد اللطيف بن تمام الانصاري السبكي الشافعي الفقيه المحدث تفقه على جده الشيخ صدرالدين السبكي وناب في الحكم في دمشق ودرس في الشامية الجوانية والركنية وعلق تاريخاً للتجددات في زمانه ذكره الذهبي في المعجم المختص قال ابن فضل الله ليس في الفقهاء بعد دقيق العيد ادرب منه دفن بتربة اجداده السبكية الكائنة في طريق سفح جبل قاسيون المعروفة اليوم بالحواكير عند محطة الترام وبني عليها البيوت ودرست القبور ووضعت الحواجز من الحديد وتصرفت بها الايدي في البيع والشراء وتناقلها الطامعون الذينهم يتساهلون في امور الشريعة والدين الذي لايسلم منهم عصر ولا زمان .

وفي سنة ثمان واربعين وسبعمائة مات بدمشق الامام الحافظ شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احمد التركماني الذهبي الدمشقي مؤرخ تاريخ الاسلام قال التاج السبكي في طبقاته الكبرى اشتمل عصرنا على اربعة من الحفاظ بينهم عموم وخصوص المزي والبرزالي وشيخنا محدث الذهبي والشيخ الوالد لاخامس لهم في عصرهم فاما استاذنا الذهبي فهو امام الوجود حفظاً وذهب العصر معنى ً ولفظاً وشيخ الجرح والتعديل ورجل الرجال في كل سبيل وهو الذي خرجنا في هذه الصناعة وادخلنا في عداد الجماعة جزاه الله عنا افضل الجزاء واجاز له ائمة اعلام منهم شيخ الاسلام ابن دقيق العيد واقام بدمشق يرحل اليه من البلاد وتناديه السؤالات من كل ناد وهو بين اكنافها كنف لاهلها وشرف تفتخر وتزهو به الدنيا وما فيها (طوراً تراها ضاحكة عن تبسم ازهارها وقرقرة غدرانها . وتارة تلبس ثوب الوقار والافتخار بما اشتملت عليه من ابيات المحدود من سكانها) وسأل الوالد عن الجمع بين المغرب والعشاء تقديماً فأفتاه بذلك ففعله ومات بعد العشاء ودفن بباب الصغير انتهى من بعض ماقاله السبكي وقال ابن تغري بعد ترجمة طويلة حسنة له اوراد هائلة وتصانيف كثيرة مفيدة منها تاريخ الاسلام الكبير في احد وعشرين مجلداً . ومختصر المشهور وسير النبلاء في مجلدات كثيرة ومختصره العبر ومختصر آخر سماه الدول الاسلامية ومختصره الصغير المسمى بالاشارات واختصر تهذيب الكمال للمزي وله ميزان الاعتدال في نقد الرجال وطبقات الحفاظ مجلدين وطبقات مشاهير القراء مجلد والتجريد في اسماء الصحابة واختصر اطراف المزي وتاريخ بغداد للخطيب واختصر تاريخ السمعاني ووفيات المنذري واختصره سنن البيهقي واختصر تاريخ دمشق في عشر مجلدات وتاريخ نيسابور للحاكم واختصر الرد على الرافضة لابن تيمية وصنف الروع والاوجال في بقاء الرجال والزيادة المضطربة وسيرة الحلاج وكتاب الكبائر وكتاب تحريم ادبار النساء كبيرة وصغيرة وكتاب العرش وكتاب احاديث الصفات وجزء في الشفاعة وجزآن في صفة النار ومسألة السماع ومسألة الغيب

وكتاب رؤية الباري وكتاب الموت وما بعده وطرق احاديث النزول وكتاب اللباس وكتاب الزلازل ومسألة دوام النار وكتاب التمسك بالسنن وكتاب التلويح بمن سبق ولحق وكتاب مختصر في القرآات وكتاب هالة البدر في اهل بدر وكتاب تقويم البلدان وترجمة السلف ودعاء المكروب وفضل الحج وافعاله ومعجم شيوخه الكبير والمعجم الاوسط والمعجم الصغير والمعجم المختصر وله عدة تصانيف نضر بناعنها صفحاً لكثرتها وقال الصفدي ذكره الزملكاني بترجمة حسنة وقال له ميزان الاعتدال في نقد الرجال وقال انشدني بقوله :

اذا قرأ الحديث عليَّ شخص واخلى موضعاً لوفاة مثلي
فما جازى باحسان لاني اريد حياته ويريد قتلي

وله: العلم قال الله قال رسوله ان صح والاجماع فاجهد فيه
وحذار من نصب الخلاف جهالة بين الرسول وبين رأي فقيه

وفي سنة تسعة واربعين وسبعمائة مات احمد بن فضل الله العمري الدمشقي امام اهل الادب والتاريخ والجغرافية والاسطرلاب وحل التقويم وصور الكواكب وله عدة مصنفات منها مسالك الابصار والتعريف بالمصطلح الشريف وهما مطبوعان ومات ايضاً عمر بن الوردي المعروف بابن ابي الفوارس صاحب التاريخ وديوان الشعر والمقامات المطبوعة .

وفي سنة احدى وخمسين وسبعمائة مات بدمشق العلامة شمس الدين ابو عبدالله محمد بن ابي بكر الزرعي الجوزي ابن القيم ثم الدمشقي الشهير بابن قيم الجوزية الحنبلي المجتهد المطلق المفسر المفنن في علوم كثيرة العارف بالحديث ومعانيه والفقه ودقائقه والاستنباط منه وانتفع به اهل عصره وله مصنفات كثيرة في فنون ودفن بمقبرة باب الصغير بقرب زقاق القلي تجاه مدرسة الصابونية وقبره الآن مشهور بني عليه قبة انتهت ترجمة العدوي ثم قال صاحب شذرات الذهب وقد امتحن مرات وأوذي وحبس مع ابن تيمية في المرة الاخيرة بالقلعة منفرداً عنه ولم يفرج عنه الا بعد موت ابن تيمية وله مصنفات كثيرة نفيسة معلومة مشهورة لانطيل بذكرها ودرس وام بالجوزية مدة طويلة وكتب

بخطه مالا يوصف من الكتب المتنوعة وكان محباً للعلم ومطالعته واقتناء كتبه النفيسة مالا يحصى لغيره وقد طبعت بعض كتبه في السنة وظهرت في هذا العصر .

وفي تلك السنة مات بدمشق علاء الدين ابو الحسن علي بن زين الدين المنجا التنوخي الحنبلي قاضي القضاة ولي القضاء وحدث كثيراً قال ابن رجب قرأت عليه جزأ فيه الاحاديث التي رواها مسلم في صحيحه عن الامام احمد بسماعه الصحيح من ابي عبدالله محمد بن عبد السلام بن ابي عصرون باجازته من المؤيد دفن بسفح قاسيون .

وفي سنة خمس وخمسين وسبعمائة مات بدمشق شهاب الدين احمد بن عبد الرحمن الدمشقي القاضي الشافعي المعروف بالظاهري سمع من جماعة أعلام ودرس بالامجدية وغيرها وولي قضاء ركب الحج الشامي بضعاً وثلاثين سنة.

وفي تلك السنة مات بدمشق القاضي جمال الدين ابو الطيب الحسيني ابن تقي الدين علي بن تمام الانصاري الخزرجي السبكي الدمشقي الشافعي تفقه على والده وطلب الحديث على المزي والذهبي وغيرهما درس بالشامية البرانية والعذراوية ودرس على الحاوي الصغير دفن بتربتهم المشهورة بهم التي درست اليوم في اول جادة محلة المهاجرين على يسار الصاعد .

وفي سنة ست وخمسين وسبعمائة مات بدمشق الامام تقي الدين ابو الحسن علي بن عبد الكافي السبكي الشافعي المفسر الحافظ الاصولي اللغوي النحوي المقري البياني الجدلي الخلافي المناظر البارع شيخ الاسلام واحد المجتهدين الأئمة الاعلام ولي قضاء الشام بعد الجلال القزويني فباشر القضاء بالعدل والنزاهة غير ملتفت الى الاكابر والملوك ولم يعارضه احد من نواب الشام الاقصمه الله وولي مشيخة دار الحديث الاشرفية والشامية البرانية والمسرورية وكان محققاً مدققاً له الباع الطويل في علم المناظرة وله في الفقه وغيره الاستنباطات الجلية والدقائق والقواعد المحررة التي لم يسبق اليها وكان متصفاً في علم البحث على قدم من الصلاح وصنف نحو مائة وخمسين كتاباً مطولاً ومختصراً فالمختصر منها يشتمل على مالا يوجد في غيره من تحرير وتدقيق

وقاعدة واستنباط منها تفسير القرآن وشرح المنهاج في الفقه ومن نظمه :

ان الولاية ليس فيها راحة الا ثلاث يبتغيها العاقل
حكم بحق او ازالة باطل او نفع محتاج سواها باطل

ولي القضاء مكانه ولده تاج الدين دفن بتربتهم .

وفي تلك السنة مات ابراهيم بن علي نجم الدين الطرسوسي ولي القضاء بدمشق وافتى ودرس وصنف الفتاوى الطرسوسية - التي طبعت في مصر حديثاً - وانفع الوسائل وكان يترنم بقول الشاعر :

اذا خان الامير وكاتباه وقاضي الارض داهن في القضاء

وفي سنة ثمان وخمسين وسبعمائة مات بدمشق محمد ابن احمد بن رمضان الجزيري ثم الدمشقي الحنبلي سمع من ابن عساكر وغيره واجاز له الصيرفي وابن الصابوني وابن البخاري وابن الكمال وخرج له ابن مسعد مشيخة سمعها عليه جماعة منهم الحسيني وابن رجب دفن بسفح قاسيون .

وفي سنة تسع وخمسين وسبعمائة مات بدمشق شمس الدين محمد بن يحيى بن محمد سعيد بن مفلح بن هبة الله الشيخ الامام المحدث البارع الصالحي ذكره الذهبي في معجمه المختصر وقال الحسيني سمع خلقاً كثيراً وجمع ووعى وكتب مالا يحصى وخرج خلق من شيوخه واقرانه واثنى عليه ابن حبيب وابن كثير دفن بقاسيون .

وفي سنة اربع وستين وسبعمائة مات بدمشق شهاب الدين احمد بن عبدالرحمن الدمشقي الشافعي المعروف بابن النقيب سمع بدمشق من ابن الشحنة والفزاري وولي افتاء مدرسة دار العدل وعدة مدارس وناب في الحكم عن ابن المجد دفن بمقبرة الصوفية عند البرامكة .

وفي سنة احدى وستين وسبعمائة مات بدمشق تقي الدين ابو محمد عبد الله الصالحي الحنبلي المعروف بابن قيم الضيائية وكان مسنداً فقيهاً وكان له حانوت يبيع فيه العطر في الصالحية ودفن بالروضة ومن شعره :

من يكن صم واعمى يدخل الحان جهاراً

يسمع الالحان تتلو وترى الناس سكارى

مات عن احدى وتسعين سنة .

وفي سنة ٧٦٤ مات صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي المؤرخ صاحب الكتب المهمة ومنها الوافي بالوفيات مخطوط ونكات العميان وشرح قصيدة ابن زيدون وهما مطبوعان ومات في ذلك التاريخ شيخ الاسلام محمد الاكمل ابن مفلح الدمشقي الفقيه المؤرخ ومحمد بن شاكر الكتبي صاحب التصانيف منها فوات الوفيات المطبوع وعيون التواريخ .

وفي سنة سبع وستين وسبعمائة مات بدمشق برهان الدين ابراهيم ابن العلامة شمس الدين محمد بن قيم الجوزية الحنبلي سمع من ابن الشحنة وغيره وافتى ودرس وناظر ذكره الذهبي في معجمه المختصر فقال تفقه بابيه وشارك بالعربية وله تصدير بجامع الاموي وشرح الفقيه ابن مالك وسماه ارشاد السالك الى حل الفقيه ابن مالك وكانت له اجوبة مسكتة مات ببستان في المزة ودفن عند والده بباب الصغير وترك مالاً كثيراً

وفي سنة تسع وستين وسبعمائة مات بدمشق قاضي القضاة جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن محمد الامام العلامة شيخ الاسلام المرداوي الحنبلي ولي قضاء الحنابلة سبع عشرة سنة بعد موت ابن المنجا بعد تمنع زائد وشروط شرطها عليها واستمر الى ان عزل وتولى شرف الدين بن قاضي الجبل الحنبلي وذلك انه اختار جواز بيع الوقف لمصلحة وحكم به دفن بتربة الموفق بقاسيون .

وفي سنة سبعين وسبعمائة مات بدمشق القاضي شمس الدين ابو عبدالله محمد ابن خلف بن عطاءالله الغزي ثم الدمشقي الشافعي سمع الحديث ودرس واعاد وناب للقاضي تاج الدين السبكي وترك له تدريس الناصرية الجوانية والف كتاب ميدان الفرسان جمع فيه ابحاث الرافعي وابن الرفعة والسبكي وهو كتاب نفيس في خمس مجلدات دفن بتربة السبكيين في اول حي المهاجرين في الصالحية .

وفي سنة اربع وستين وسبعمائة مات بدمشق الشيخ الامام احمد بن عبدالله ابن الشيخ شهاب الدين البعلبكي مدرس مدرسة العدلية الصغرى والمدرسة

القليجية التي دفن بها وكان شيخ الاقراء بتربة ام الصالح والتربة الاشرفية كان فقيهاً عارفاً بالنحو اماماً في القراآت ومعرفة وجوهها مشاركاً في كثير من العلوم ناب في الحكم بالقضاء بدمشق .

وفي تلك السنة مات بدمشق العلامة المحدث سيف الدين ابو جعفر بن عمر الحميري الوكاني الدمشقي الحنفي المعروف ابن ظفر بك له الدر النظيم في ذكر مولد النبي الكريم .

وفي تلك السنة اي سنة سبعين وسبعمائة مات بدمشق بدر الدين المعروف بابن الشريشي امام اهل اللغة في عصره الوائلي البكري مفتي دمشق الشام وكان يستحضر الفائق للزمخشري والصحاح والجمهرة والنهاية والمنتهى في اللغة للبرمكي وهو اكثر من ثلاثين جلداً اخذ عن والده العلامة احمد وله مصنفات منها شرح المقامات وغيرها من الكتب البديعة دفن عند والده بسفح قاسيون مقابل جامع الافرم .

وفي سنة احدى وسبعين وسبعمائة مات بدمشق قاضي القضاة شرف الدين ابو العباس احمد بن قدامة ابن قاضي الجبل شيخ الحنابلة الدمشقي الشيخ الامام جمال الاسلام صدر العلماء الاعلام كان متفنناً بعلم الحديث وعلله والنحو واللغة والاصول والمنطق وقرأ على ابن تيمية وابن القواس وابن عساكر ذكره الذهبي في معجمه المختصر وقال الحسيني في ترجمته انه كان مفتي الفرق سيف المناظرين وبالغ ابن رافع وابن حبيب في مدحه ومن انشاده اللطيف :

الصالحية جنة والصالحون بها اقاموا
فعلى الديار واهلها مني التحية والسلام

قاله وهو في القاهرة وقال ايضاً :

نبي احمد وكذا امامي وشيخي احمد كالبحر طامي
واسمي احمد وبذاك ارجو شفاعة اشرف الرسل الكرام

وله اختيارات في المذهب منها بيع الوقف للحاجة ومنها النزول عن التولية لمصلحة الوقوف وله عدة مصنفات منها كتاب المناقلة في الاوقاف وما

ذلك من النزاع والخلاف وتابعه على ذلك جماعة منهم ابن تيمية مات في منزله بالصالحية ودفن بتربة جده الشيخ ابي عمر .

وفي تلك السنة مات بدمشق قاضي القضاة تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب السبكي الشافعي سمع بمصر من جماعة اجلاء ثم قدم دمشق مع والده وسمع عن ابيه بعد وفاة اخيه القاضي حسين ثم اشتغل بالقضاء وولي خطابة جامع دمشق بعد وفاة ابن جملة ثم عزل وحصل له فتنة شديدة وسجن بالقلعة ثم عاد الى القضاء ودرس بمدارس دمشق الكبار منها العزيزية والعادلية الكبرى والغزالية والشاميتين والناصرية والامينية ومشيخة دار الحديث الاشرفية وخضع له ارباب المناصب من القضاة وغيرهم دفن بتربتهم بالصالحية في اول طريق المهاجرين وله رفع الحجاب مختصر بن الحاجب وشرح منهاج البيضاوي وجمع الجوامع في اصول الفقه وشرحه شرحاً نفيساً وله الطبقات الكبرى والوسطى والصغرى وله معيد النعم ومبيد النقم وقد درس بدمشق بالامينية وهو ابن سبع سنين وهذا من العجائب التي لم تسبق قبله فيما نقول ولا وجد بعده احد بهذه المزية لعصرنا هذا .

وفي سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة مات بدمشق ناصر الدين محمد بن احمد ابن الصفي بن العطار الدمشقي الحنفي الحاسب سمع الحديث ومهر في الفقه وبرع في علم الحساب واتقن علم المساحة الى ان صار له المنتهى في ذلك والمرجع اليه عند الاختلاف ولم يكن بدمشق من يدانيه في ذلك كان مأذوناً له في الافتاء وله شعر لطيف منه :

حديثك لي احلى من المن والسلوى وذكرك شغلي كان في السر والنجوى
سلبت فؤادي بالتجني وانني صبرت لما القى وان زادت البلوى

وكان يترنم بقول ابن سينا الرئيس الطبيب وقيل للفارابي :

هذب النفس بالعلوم لترقى وترى الكل وهو للكل بيت
انما النفس كالزجاجة والعقل سراج وحكمة الله زيت
فاذا اشرقت فانك حي واذا اظلمت فانك ميت

وفي سنة اربع وسبعين وسبعمائة مات بدمشق عماد الدين ابن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي كان عالماً بالاصول والحديث وحفظ المتون والتواريخ حتى برع وصنف التصانيف البديعة وكان يميل الى شيخه ابن تيمية دفن بمقابر الصوفية عند شيخه ذكره العدوي ونقله ابن عبد الرزاق .

وفي سنة سبع وسبعين وسبعمائة مات بدمشق علي بن ابراهيم علاء الدين بن الشاطر الفلكي الدمشقي ويعرف ايضاً بالمطعم الفلكي كان اوحد زمانه يعرف تطعيم العاج وعالماً بالهيئة والحساب والهندسة وكانت له ثروة ومباشرات ودار من احسن الدور وضعاً واغربها وله الزيج المشهور والاوضاع الغريبة التي منها البسيط الموضوع في منارة العروس بجامع دمشق يقال ان دمشق زينت عند وضعه

وفي تاريخ الصالحية ان ابن الشاطر هو صاحب الاسطرلاب والبسيط وكان له نظر على التوقيت بالجامع الاموي والف الزيج والكرة وله الرسالة عليها . ويعرف علم الخط في المزولة وكيفها والزيج كتاب يحسب فيه سير الكواكب ويستخرج التقويمات اي حساب الكواكب سنة سنة . والاسطرلاب قنطرة مقدار ثلث ذراع يدور ابداً على حركات الفلك على اوضاع مخصوصة تعلم منها الساعات المستوية والزمانية والمنحرفات فجعل البسيط ابن الشاطر في مأذنة العروس وهذا مما لم يسبق اليه كالمزولة ولكن المزولة لاتكفي في ذلك جعل البسيط . اقول وقد قل رجال هذا العلم في زماننا وقد ادركنا بعضاً من رجاله كامثال العلامة الشيخ محمد الطنطاوي ونجله الفاضل والشيخ عبد المحسن المرادي وبعضاً من رجال اهل الفن الذينهم استخدموا في الجيش العثماني وغيرهم من اهل الفضل وهذا قليل بالنسبة لعلماء هذا الفن في بلاد الغرب .

وفي سنة ثمان وثمانين وسبعمائة مات بدمشق شمس الدين محمد بن يوسف القونوي الحنفي نزيل المزة قدم شاباً واخذ عن التبريزي وغيره . امارآ بالمعروف يحب الانفراد والانجماع الا لنهي الامراء والسلاطين بل يقدم

لهم كثير النصائح وكان قد اقبل على الاشتغال بالحديث قال بعضهم : كانت له وجاهة عظيمة وكان ينهي اولاده واتباعه عن الدخول في الوظائف وكان الكثير من الناس يتوقون الاجتماع معه لمغالطته في خطابه وكان يتعانى الرباط وآلات الحرب . ويحب من يتعانى ذلك ويتردد الى صيدا وبيروت على نية الرباط . وقد باشر القتال في نوبته في بيروت وبني برجاً على الساحل وصنف كتباً كثيرة منها كتاب في فقه الائمة الاربعة سماه الدرر وهو كتاب كبير على أسلوب غريب واختصر شرح مسلم للنووي وشرح مجمع البحرين في عشر مجلدات وفي آخر مدته انقطع بزاوية في الربوة ثم انقطع بزاوية في المزة الى ان مات شهيداً بالطاعون.

وفي سنة خمس وتسعين وسبعمائة مات بدمشق ابن رجب الحافظ زين الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن المحدث شهاب الدين احمد الدمشقي الحنبلي الشهير بابن رجب اجازه ابن النقيب والنووي وسمع الحديث بمكة والشام باعتناء والده وكانت مجالسه تذكرة للقلوب صادعة وللناس نافعة اجتمعت الفرق عليه ومالت القلوب اليه وله مصنفات مفيدة ومؤلفات عديدة منها شرح جامع ابي عيسى الترمذي وشرح اربعين النووي وشرح البخاري فوصل الى الجنائز سماه فتح الباري . نقل فيه كثيراً من كلام المتقدمين وكتاب اللطائف في الوعظ واهوال القيامة والقواعد الفقهية وتراجم اصحاب مذهبه وغير ذلك من المصنفات وكان لا يعرف شيئاً من امور الناس ولا يتردد على احد من ذوي الولايات وكان يسكن بالمدرسة السكرية بالقصاعين قال ابن حجي اتقن فن الحديث وصار اعرف اهل عصره بالعلل وتتبع الطرق تخرج به غالب اصحابنا الحنابلة بدمشق مات بارض الخميرية ببستان كان استأجره دفن بباب الصغير جوار قبر الشيخ ابي الفرج عبدالواحد الشيرازي المقدسي قال ابن ناصر الدين حدثني من حفر لحد ابن رجب من الحفارين انه جاءه قبل ان يموت بايام . فقال له احفر لي هاهنا لحد واشار الى البقعة التي دفن فيها قال فحفرت له فلما فرغت نزل في القبر واضطجع فيه

فاعجبه وقال هذا قبر جيد ثم خرج . قال والله ما شعرت بعد ايام الا وقد اتي به ميتاً محمولاً في نعشه فوضعته في ذلك اللحد .

ومن مفاخر ذلك العصر وجود النابغة الشهيرة ست العرب بنت محمد ابن الفخر بن البخاري السخية الصالحة الحنبلية المسندة كانت فريدة وقتها وعجيبة عصرها ، حضرت على جدها كثيراً وحدثت وانتشر عنها حديث كثير وسمع منها الحافظ العراقي والتيمي وابن رجب وذكرها في معجمه قال ابن رافع طال عمرها وانتفع بها خلق كثير توفيت بدمشق في تلك السنة ودفنت بسفح قاسيون وتقدم ذكر ولدها شمس الدين .

وفي ذلك العصر مات بدمشق عبد الحق بن سبعين الدمشقي العلامة الشهير المحقق المدقق كان وحيداً في عصره صدر العلماء الاعلام ومرجع الخاص والعام اشتهر فضله بين الانام كان امام الصوفية في عصره وقد انتقده بعض معاصريه ومنهم من كفره ولله في خلقه شؤون .



اسماء رجال العصر التاسع من الهجرة

وفي سنة ثلاثة وثمانمائة مات بدمشق ابراهيم بن مفلح بن مفرج الدمشقي الحافظ شيخ الحنابلة ورئيسهم وقاضي قضاتهم . حفظ كتباً عديدة واخذ عن جماعة منهم والده وجده قاضي القضاة جمال الدين المرداوي وقرأ على البهاء السبكي وانتفع وافتى ودرس وناظر وصنف وشاع اسمه واشتهر ذكره وبعد صيته ودرس بدار الحديث الاشرفية بالصالحية ومدرسة الصاحبة واخذ عنه ابن حجر العسقلاني ومن تصانيفه كتاب فضل الصلاة على النبي الاواب وكتاب الملائكة وشرح المقنع ومختصر ابن الحاجب وطبقات اصحاب الامام احمد وراح غالبها في فتنة تيمور بدمشق وانتهت اليه مشيخة الحنابلة وكان له ميعاد درس في محراب الحنابلة في الجامع الاموي بكرة نهار السبت ويحضر مجلسه الفقهاء من كل مذهب ثم ولي القضاء بدمشق ولما وقعت فتنة التتار

كان ممن تأخر بدمشق ثم خرج الى تيمور ومعه جماعته ووقع بينه وبين عبد الجبار المغربي امام تيمور مناظرات والزامات حضرها تيمورلنك فاعجبه ومال اليه وتكلم معه في الصلح فاجاب الى ذلك ثم غدره فتألم صاحب الترجمة ومات قهراً ودفن عند رجال والده بالروضة بالصالحية .

وفي تلك السنة مات بدمشق بدر الدين محمد بن عمر بن الفقيه ابي بكر ابن قوام الصالحي الدمشقي قال ابن حجر كان به طرش سمع الحديث من الحجار واسحق الآمدي وغيرهما فقرأنا عليه شيئاً بالاذان وكنا نتحقق ما نقرأه بامتحان تارة وبالاشارة اخرى مات محترقاً وقد جاوز الثمانين .

وفي سنة خمس وثمانمائة مات بدمشق سراج الدين عمر بن شهاب محمد البلقيني الكناني الشافعي شيخ الاسلام اشتغل على علماء عصره واذن اليه في الفتيا وهو ابن خمس عشرة سنة واجازه من دمشق الحافظان المزي والذهبي واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها فيقال انه مجدد القرن التاسع وكان مثله كمثل الاحنف بن قيس لا ينعقد الاجتماع الا بحضوره وانفرد برئاسة العلم وولي افتاء دار العدل (التي هي مقر المجمع العلمي اليوم) وتولى قضاء دمشق وصار يجلس في مجلس السلطان فوق قضاة القضاء واكب على الاشتغال والتصنيف واتته الفتاوي من الاقطار وله تصانيف كثيرة منها شرحه على الترمذي وتصحيح المنهاج لكنه لم يكمل وكان اعجوبة زمانه حفظاً واستحضاراً للفقه والاحاديث والاحكام قال برهان الدين المحدث حضرت دروسه وهو يقرأ مختصر مسلم للقرطبي يتكلم على الحديث الواحد من بكرة الى الظهر ولم يفرغ من الحديث واعترف له جميع العلماء بالرئاسة حتى بالاقطار وبالحفظ وكثرة الاستحضار وممن اخذ عنه حافظ دمشق ابن ناصر الدين واثنى عليه بالحفظ والحافظ ابن حجر وقال خرجت له اربعين حديثاً عن اربعين شيخاً حدث بها مراراً وقرأت عليه دلائل النبوة للبيهقي فشهد لي بالحفظ في المجلس العام وقرأت عليه دروساً من الروضة واذن لي وكتب لي خطاً بذلك وقيل مات بالقاهرة بمدرسته التي انشأها .

وفي تلك السنة مات بدمشق جمال الدين محمد بن احمد البهنسي الدمشقي الشافعي حفظ المنهاج واتصل بالقاضي برهان الدين بن جماعة ولما ولي القضاء بدمشق الشام استنابه واعتمد عليه بامور كثيرة وعنده ظرف ونوادر وكان مقلاً مما في يده مع الفقه ولما وقعت الكائنة العظمى بدمشق فر الى القاهرة ثم بعد مدة رجع اليها

وفي سنة تسع وثمانمائة مات بدمشق ابراهيم بن عبد الرزاق الحنفي المحدث الفقيه شارح القدوري كان من الأئمة الكبار والعلماء الاعلام دفن بمقابر الصوفية التي هي مستشفى الغرباء اليوم .

وفي تلك السنة مات خليل بن جمال الدين الاديب المؤرخ الدمشقي صنف تاريخاً للحوادث وغيره .

وماتت ايضاً عائشة بنت عبد الهادي محدثة دمشق .

وفي سنة ست عشرة وثمانمائة ظهر الخارجي بدمشق الذي ادعى انه السفياني وهو رجل عجلوني اسمه عثمان بن ثقاله اشتغل بالفقه قليلا بدمشق على شيوخها ثم قدم عجلون فنزل بقرية الجيدور ودعا الى نفسه فاجابه بعض الناس فاقطع الاقطاعات ونادى ان خراب هذه السنة مسامحة ولا يؤخذ من اهل الزراعة بعد هذه السنة التي سومح بها سوى العشر فاجتمع عليه الخلق بكثرة من عرب وترك وعشائر وعمل له الوية خضراء وسار الى وادي الياس وبث كتبه الى النواحي ترجمتها بعد البسملة من السفياني الى حضرة فلان ان يجمع فرسان هذه الدولة السلطانية الملكية الامامية الاعظمية الربانية المحمدية السفيانية ويحضر بخيله ورجاله مهاجراً الى الله ورسوله ومقاتلاً في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا فثار عليه غانم الغزاوي وجهز اليه طائفة وحاصروه وهو بجامع عجلون فقاتلهم فقبضوا عليه وعلى ثلاثة من اصحابه فاعتقل الاربعة وكتب الى نائب دمشق يخبره فارسلهم الى قلعة صرخد ثم الى قلعة دمشق .

وفي تلك السنة مات بدمشق شهاب الدين احمد بن علاء الدين حجي الدمشقي الشافعي الحافظ مؤرخ الاسلام قال ابن قاضي شهبة في طبقاته سمع الحديث وحفظ التنبيه واجاز له خلق من بلاد شتى وقرأ بنفسه الكثير وكتب اسماء مشايخه في بعض كراريسه على حروف المعجم واخذ الفقه عن والده وعن ابن قاضي شهبة واستفاد من مشايخ عصره منهم الاذرعي والحسباني وابن قاضي الزبداني وابن خطيب يبرود والغزي وتاج الدين السبكي ودرس وافتى وناب في الحكم وصنف وكتب بخطه الحسن ما لا يحصى كثرة فمن ذلك شرح على المحرر لابن عبد الهادي ورد في بعض المواضع من المهمات للاسنوي وعلى مواضع من الالغاز له وبين غلطه فيها وجمع فوائد في علوم متعددة في كتاب مخصوص سماه جمع المفترق وكتاباً سماه الدارس في اخبار المدارس يذكر فيه ترجمة الواقف وما شرطه وتراجم من درس في المدرسة وهو كتاب نفيس يدل على فضله واطلاعه واهتمامه الكثير (وقد ادرجنا في كتابنا هذا مختصره) وكتب ذيلاً على تاريخ ابن كثير وغيره بدأ فيه الى قبيل وفاته بيسير في سبع مجلدات قال ابن شهبة ثم اختصرته في نحو نصفه وقد ولي الشيخ في آخر عمره الخطابة ومشيخة الشيوخ وانتهت اليه في البلاد الشامية وكان يكتب على الفتاوي ويضرب به المثل بجودة ذهنه وحسن اجابته وعنه اخذت هذا الفن واستفدت منه دفن عند والده على جادة الطريق انتهى كلام ابن قاضي شهبة .

وفي سنة سبع عشرة وثمانمائة مات بدمشق ابو بكر بن احمد الكناني العامري نسبة الى قرية كفر عامر من قرى الزبداني وهو ابن قاضي الزبداني الشافعي اشتغل بدمشق فبرع في الحساب وشارك في الفقه وقرأ في الاصول وولي قضاء بعلبك وبيروت وولي قضاء كفر طاب فتقدم في معرفة الفرائض والحساب .

وفي سنة تسع عشرة وثمانمائة مات بدمشق شهاب الدين احمد بن نشوان الحوراني ثم الدمشقي الشافعي قدم دمشق من بلده وقرأ القرآن وحضر

عند مشايخ دمشق الى ان نبه وفضل ومهر واشتهر بالفضل وناب في الحكم بدمشق وافتى ودرس ولازم الجامع الاموي للاشتغال بالعلم وانتفع به الطلبة وقصد بالفتاوى وكان يكتب عليها كتابة حسنة ودرس في آخر عمره بالعذراوية وكان عقله يضاهي علمه وله محاضرة حسنة ونظم رائق منه قوله :

واخجلتي وفضيحتي في موقف صعب المسالك والخلائق تعرض
وتوقعي لمهدد لي قائل اصحيفة سودا وشعر ابيض

وفي تلك السنة مات بدمشق زين الدين عبد الرحمن بن يوسف الكردي الدمشقي حفظ التنبيه في صباه وقرأ على الشرف الشرشي ثم تعانى عمل المواعيد فنفق سوقه فيها واستمر على ذلك اكثر من اربعين سنة وصار على ذهنه من التفسير والحديث واسماء الرجال شيء كثير وكان رائجاً عند العامة مع الورع وكثرة التلاوة وكان ولي قضاء بعلبك ثم طرابلس الشام ثم ترك واقتصر على عمل المواعيد بدمشق وكان يقال بأنه قليل البضاعة في الفقه ومع ذلك كان لايسأل عن شيء الا بادر بالجواب ولم يزل بينه وبين الفقهاء منافرات قال ابن حجر ويقال انه يرى حل المتعة على طريقة ابن القيم وذويه .

وفي سنة عشرين وثمانمائة مات بدمشق عز الدين بن محمد بن بهاء الدين علي المقدسي الحنبلي خطيب المظفري بصالحية دمشق المعروف بجامع الحنابلة وابن خطيبه حفظ المقنع وسمع الحديث وبرع به وفي الفقه واخذ عن ابن رجب وابن المحب وله النظم الرائق وباشر القضاء ودرس بدار الحديث الاشرفية بالجبل وكان عين الحنابلة ورئيسهم والف مؤلفات حسنة منها نظم المفردات سماه نظم المفيد الاحمد في مفردات الامام احمد .

وفي سنة اثنين وعشرين وثمانمائة مات بدمشق ابو نعيم الشهاب احمد ابن عبدالله بن بدر بن جابر العامري الغزي ثم الدمشقي الشافعي ولد بغزة هاشم وحفظ التنبيه وقدم دمشق بعد الثمانين وهو فاضل عالم اخذ عن مشايخ العصر ومهر في الفقه والاصول وجلس بالجامع الاموي يعظ ويشغل الناس في

حياة مشايخه وافتى ودرس وناب في القضاء وولي افتاء دار العدل واختصر المهمات اختصاراً حسناً وكتب على الحاوي وجمع الجوامع واقبل على الحديث حتى لم يبق بالشام في آخر عمره من يقارنه في رئاسة فقه الشافعية الا ابني نشوان وهو المؤسس الاول لجد هذه الاسرة الكريمة بدمشق .

وفي تلك السنة مات بدمشق احمد بن يوسف الدمشقي الشاعر المشهور عرف بابن الزعيفري قال في المنهل الصافي كانت له فضيلة بنظم الشعر ويشتغل بعلم الحرف ويزعم ان له اليد الطولى فيه وحصل له الحظ الكبير بهذا المعنى عند جماعة من اعيان الامراء وقبول كثير عند غيرهم ومن شعره ماكتبه الى قاضي القضاة صدر الدين علي الحنفي قوله :

لقد عشت دهراً في الكتابة مفرداً اصور منها احرفاً تشبه الدرا
وقد صار خطي اليوم اضعف ماترى وهذا الذي قد يسر الله لليسرى

فاجابه القاضي المذكور بأبيات كثيرة وفي ختامها قوله :

وابشر ببشر دائم ومسرة فقد يسر الله العظيم لك اليسرى

وفي اثناء تلك المدة مات بدمشق الامام الاديب شمس الدين محمد بن ابراهيم ابن بركة الدمشقي كان من مشاهير شعراء عصره له اليد الطولى في العلوم كلها وقد انفرد في علم الادب وله شعر لطيف مشهور نقلته حملة الاخبار حين امر الملك الاشرف بوضع العلامة الخضراء للاشراف والسادة الحسينية في سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة

اطراف تيجان أتت من سندس خضر باعلام على الاشراف
والاشرف السلطان خصهم بها شرفاً ليفرقهم من الاطراف

ثم نقل الامام السيوطي في رسالة له ان هذه العلامة ليس لهـا اصل في الشرع ولا في السنة ولا كانت في صدر الاسلام تستعمل ولا الزمن القديم وانما حدثت بأمر الملك الاشرف ثم قال في نهاية كلامه لا يمتنع احد من الاشراف بوضعها ولا يؤمر بها حين تركها .

وفي سنة اربع وعشرين وثمانمائة مات بدمشق جقمق صاحب السوق

المشهور باسمه اليوم بدمشق كان من امراء التركمان قرره الملك المؤيد قال المقريزي كان سيء السيرة شديداً في ايام حاكميته على الناس حصل اموالاً كثيرة وكان فاجراً ظلوماً غشوماً لايكف عن قبيح قتله التتر بدمشق بعد ان صادروا امواله ودفن بمدرسته الموجودة الى اليوم الشهيرة باسمه .

وفي سنة تسع وعشرين وثمانمائة مات بدمشق السيد الشيخ تقي الدين ابو بكر بن محمد عبد المؤمن بن حريز بن معلي بن مؤتمن بن حريز بن سعيد بن داود بن قاسم بن علي بن علوي بن ناشي بن جوهر بن علي بن ابي القاسم بن سالم بن عبدالله بن عمر بن يحيي بن موسى بن يحيي بن علي الاصغر بن محمد المتقي بن حسن العسكري بن علي بن محمد الجواد بن الامام علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق الحصني نسبة الى الحصن قرية من قرى حوران ثم الدمشقي الفقيه الشافعي ولد سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة وقد ترجمه كثير من مؤرخي العرب والترك وذكروا موته ونسبه ونقل بعضهم ان احد اجداده رحل من مكة واختار الاقامة في الحصن نشأ وتفقه بالشريشي والزهري وابن الجابي والصرخدي في حوران والغزي وابن غنوم واخذ عن الصدر الياسوفي ثم انحرف عن طريقته وحط على ابن تيمية وبالغ في ذلك وتلقى ذلك عنه الطلبة بدمشق وثارت بذلك فتن كثيرة ذكرها حملة الاخبار وكان يميل الى التقشف والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وللناس فيه اعتقاد زائد ولخص المهمات في مجلد وكتب على التنبيه قال القاضي تقي الدين الاسدي كان خفيف الروح منبسطاً له نوادر ويخرج الى التنزه ويبعث الطلبة ويحثهم على ذلك مع الشدة في الورع والدين المتين والتحري في اقواله وافعاله وتزوج عدة نساء ثم انقطع وتقشف ثم ازداد بعد الفتنة تقشفه وانجماعه وكثرت مع ذلك اتباعه حتى امتنع عن مكالمة الناس ويطلق لسانه في القضاة والحكام واصحاب الولايات وله في الزهد والتقلل حكايات تضاهي مانقل عن الاقدمين وكان يتعصب للاشاعرة واصيب في سمعه وبصره فضعف وشرع في عمارة رباط داخل باب الصغير المعروف اليوم في

محلة الشاغور بزاوية الحصني فساعده الناس باموالهم واتقسيم ثم شرع في عمارة خان السبيل ففرغ في مدة قليلة وكان قد جمع تآليف كثيرة قبل الفتنة وكتب كثيرة بخطه في الفقه والزهد(وعندنا في مكتبتنا ولله الحمد منها) قال السخاوي شرح التنبيه والمنهاج وشرح مسلم في ثلاثة مجلدات ولخص المهمات في مجلدين وخرج احاديث الاحياء في مجلد وشرح النواوية مجلد وتأديب القوم مجلد وسير السالك مجلد وتنبيه السالك على مظان المهالك ستة مجلدات وشرح الغاية مجلد وشرح النهاية مجلد وقمع النفوس مجلد ودفع الشبهة مجلد وشرح اسماء الله الحسنى والمولد وتوفي بخلوته بزاوية المزاز بالشاغور ليلة الاربعاء خامس عشر جمادى الآخرة وصلى عليه بالمصلى ابن اخيه شمس الدين محمد الحصني الآتي ذكره وترجمته الذي تتفرع منه ذريته الموجودة اليوم من بني تقي الدين الحصني دفن بالقبيبات عند البوابة نهاية محلة الميدان على جادة الطريق عند والدته لانها كانت من حي الميدان وحضر جنازته خلق كثير لا يحصيهم الا الله تعالى مع بعد المسافة وعدم علم اكثر الناس بوفاته وازدحموا على حمله للتبرك به وختم عند قبره ختمات شريفة كثيرة وصلى عليه امم ممن فاتته الصلاة على جنازته ورؤيت له منامات صالحة في حياته و بعد مماته انتهى ما نقله صاحب شذرات الذهب وغيره من حملة الاخبار قال العدوي في تاريخه عن ترجمته مانصه الشيخ تقي الدين ابو بكر بن محمد عبد المؤمن الامام العالم الرباني الزاهد الورع العابد القانت الكامل الولي الحصني الدمشقي الحسيني مولده في اواخر سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة قال مؤرخ الاسلام ابن قاضي شهبة وله في الزهد والتقليل من الدنيا حكايات لعل ان لا يوجد في كبار الاولياء اكثر ومنها لم يتقدموه الا بالسبق في الزمان ثم قال والحاصل انه ممن جمع بين العلم والعمل ومن كراماته انه لما خرج المسلمون الى غزاة جزيرة قبرص والتحم القتال رأى جماعة من العسكر الشيخ تقي الدين الحصني يقاتل امام المسلمين حتى نصرهم الله تعالى فلما رجعوا احكوا ذلك واخبر جماعة من الحجاج انهم رأوا الشيخ بعرفات والمدينة المنورة وهم يعرفونه حق المعرفة فلما رجعوا اخبروا

بذلك والحال انه ما غاب عن اصحابه يوماً واحداً ويحكى من كراماته ان شخصاً معه علبة لبن فباعها لشخص آخر وحملها الحمال الى منزل المشتري ففي اثناء الطريق مر على الشيخ فاخذها وكبها ورماها واذا في وسطها حية كانت قد سقطت في الحليب وماتت وراب الحليب عليها فاطلع الله الشيخ على ذلك والهمه فكبها في الطريق ومنها انه كان يطعم الرطب الجني للصغار والكبار في غير اوانه ولم يكن بدمشق واحدة من ذلك انتهى من تاريخ البصروي وتراجم الرجال من تاريخ العدوي ونقل بعضهم من كلامه قوله :

اذا ما مالت النفس الى الدنيا منعناها تخادعنا ونخدعها وبالصبر غلبناها
لها قوت من الفقر وفيه قد انخناها

وفي سنة ثلاثين وثمانمائة مات بدمشق نجم الدين ابو الفتوح عمر بن حجي السعدي الحسباني الشافعي الدمشقي حفظ التنبيه وكثيراً من المختصرات واخذ العلم عن ابن الشريشي والزهري ولي افتاء دار العدل وجرت له كائنة مع الباعوني هو والغزي وغيرهما فضربهم وطوفهم بشوارع دمشق وسجنوا بالقلعة وولي قضاء الشام مراراً كان حاكماً صارماً مقداماً رئيساً ذا حرمة واحسان لاهل العلم واستمر قاضياً الى ان قتل ببستانه في النيرب خارج دمشق في الصالحية ولم يعرف قاتله .

وفي تلك السنة مات بدمشق بدر الدين محمد الدمشقي الاصلي البشتكي كان ابوه فاضلاً فنزل بخانقاه بشتاك الناصري فنشأ محباً للعلم وحفظ القرآن وعدة مختصرات ومهر في الادب ولازم ابن ابي حجلة وابن الصائغ ثم قدم ابن نباتة فلازمه ثم رافق ابن خطيب داريا واخذ عن البهاء السبكي قال ابن حجر وبالجملة كان عديم النظير في الذكاء وسرعة الادراك الا انه تبلد ذهنه بكثرة النسخ سمعت منه كثيراً ومن شعره ونظمه اللطيف قوله :

وكنت اذا الحوادث دنستني فزعت الى المدامة والنديم
لاغسل بالكؤس الهم عني لان الراح صابون الهموم

قال ابن شقدة ناقل ترجمته مات فجأة في الحمام .

وفي سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة مات شيخ الاسلام محمد الجوزي الدمشقي المقري صاحب المصنفات الجليلة في القرآن .

وفي سنة اربع وثلاثين وثمانمائة مات بدمشق شمس الدين محمد بن محمد الحسيني تقي الدين الحصني ابن اخي الشيخ ابي بكر بن محمد تقي الدين الحصني الشافعي اشتغل على عمه ولازم طريقته في العبادة والتجرد ودرس بالشامية وقام في عمارة البدرائية وتجديدها وكان شديد التعصب على الحنابلة وانتصر لعمه على شيخ الاسلام ابن تيمية قال ابن حجر ثارت فتنة عظيمة بين الحنابلة والاشاعرة بدمشق وتعصب الشيخ علاء الدين البخاري والحصني في اطلاق القول بتكفيره وتكفير من اطلق عليه اسم شيخ الاسلام ثم بعده خرج مرسوم السلطان الى ان كل احد لايعترض على مذهب غيره ومن اظهر شيئاً مجمعاً عليه سمع منه والا لا وسكن الامر انتهى مانقله ابن شقدة (اقول ورسالة الشيخ تقي الدين الحصني هي عندي اليوم وقد طلبها مني احد علماء بيروت لأجل طبعها فامتنعت عن ذلك لتناسي هذا الامر تغمد الله الجميع برحمته وغفرانه ومن صاحب الترجمة تفرعت ذرية بني تقي الدين الحصني الموجودة اليوم

وفي سنة احد واربعين وثمانمائة مات بدمشق قاضي القضاة شهاب الدين احمد ابن اقضى القضاة ناصر الدين الشيخ الامام المحدث الحنبلي الشهير بابن زريق قرأ الخرقي واخذ الفقه عن ابن مفلح وابن القباقبي واذن له في الافتاء وناب في الحكم ثم ترك واقبل على الميعاد بالجامع المظفري قرأ صحيح البخاري فيه ودفن بالروضة قريباً من الشيخ موفق الدين انتهى مانقله صاحب الضوء اللامع في تراجم رجال القرن التاسع .

وفي سنة اثنتين واربعين وثمانمائة مات بدمشق يوسف بن عبد الرحمن المعروف بالحافظ المزي الامام العلامة ولد سنة خمسين وسبعمائة له تصانيف جليلة منها تهذيب الكمال في اسماء الرجال في ثلاثة عشر مجلداً واطراف الكتب الستة في خمس مجلدات وله غير ذلك من المؤلفات والفوائد والشعر الحسن دفن بمقابر الصوفية غربي قبر ابن تيمية في البرامكة .

وفي تلك السنة مات بدمشق شمس الدين محمد القيسي الدمشقي الشهير بابن ناصر الدين الشافعي وقيل الحنبلي حافظ دمشق سمع الحديث وتلا بالروايات على ابن البانياسي ولازم الشيوخ وكتب الطباق من ابن قوام والصدر المناوي وابن الذهبي وصار حافظ الشام بلا منازع والف التاليف الجليلة منها المنهاج والتوضيح ومشتبه الذهبي وجرد منه كتاب الاعلام بما وقع في مشتبه الذهبي من الاوهام وبديعة البيان عن موت الاعيان نظماً وشرحاً في مجلد سماه البيان وقصيدة في انواع علوم الحديث سماها عقود الدرر في علوم الاثر وافتتاح القاري لصحيح البخاري ومنهاج السلامة في ميزان القيامة والتفتيح لحديث التسبيح وجزء في فضل يوم عرفه وفي فضل يوم عاشوراء وبرد الاكباد عن موت الاولاد ونفحات الاخيار في مسلسلات الاخبار ومسند تميم الداري وعرف العنبر في وصف المنبر والروض الندى في الحوض المحمدي وريع الفرع في شرح حديث ام زرع ورفع الدسيسة بوضع الهريسة وجزء فيه احاديث ستة عن حفاظ ستة في معان ستة من مشايخ الامة ستة بين مخرجها وبين رواتها ستة وكتاب نيل الامنية بذكر الخيل النبوية وكتاب املاء الانفس في ترجمة عسعس والاعلام الواضحة في احكام المصافحة دفن بمقبرة دار الفراديس في العقيبة .

وفي سنة احدى وخمسين وثمانمائة مات بدمشق فجأة الشيخ تقي الدين ابو بكر ابن شهاب الدين احمد بن قاضي شهبة صاحب طبقات الشافعية خدم الاسلام في تاريخه تفقه بوالده وغيره وسمع من اكابر اهل عصره وافتى ودرس وجمع وصنف من ذلك شرح المنهاج ولباب التهذيب والذيل على تاريخ ابن كثير والمنتقى من الانساب لابن السمعاني والمنتقى من نخبة الدهر في عجائب البر والبحر والمنتقى من تاريخ ابن عساكر وغير ذلك من المؤلفات المهمة اشتهر فضله وعم نفعه بين الانام .

وفي سنة اربع وخمسين وثمانمائة مات احمد بن محمد عربشاه له عدة مصنفات في الادب والتاريخ مجيد في اللغات العربية والفارسية ومن تأليفه عجائب المقدور

وفي تلك السنة مات بدمشق صالح بن يحيى صاحب تاريخ بيروت وامرائها الغرب المطبوع ومات بها ايضاً ابراهيم بن محمد العجلوني العالم الفقيه ومات بها ايضاً ابراهيم ابن علي الحسني البقاعي له مصنفات في الفقه والنحو والمنطق والحكمة وادب البحث .

وفي سنة خمس وخمسين وثمانمائة مات بدر الدين محمود العيني الفقيه المؤرخ له عدة مصنفات في التاريخ وغيره ومات ايضاً احمد بن حجر العسقلاني صاحب تاريخ الدرر الكامنة .

وفي سنة ست وخمسين وثمانمائة مات بدمشق زين الدين ابو الفرج عبد الرحمن الداودي الحنبلي الدمشقي الصالحي الصوفي القادري شيخ الطريقة وعلم الحقيقة العالم الناسك تفقه بجماعة منهم برهان الدين واكمل الدين ابناء مفلح صاحب الفروع وتخرج بجماعة منهم والده العلامة وكان محبباً الى الناس يتردد اليه النواب والقضاة والفقهاء من كل مذهب واشتغل في فنون كثيرة وكتب بخطه كثيراً والف كتباً عديدة منها الكنز الاكبر في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو اجلها ونزهة النفوس والافكار في خواص النبات والحيوان والاحجار والدر المنتقى المرفوع في اوراد اليوم والليلة والاسبوع وله المولد الشريف وكان يحب قضاء حوائج الناس مسموع الكلمة في الدولة الاشرفية والظاهرية وتكلم على مدرسة شيخ الاسلام ابي عمر والبيمارستان القيمري في الصالحية فحصل له به النفع من عمارة جهاتها وعمل مصالحها ورغب الناس في نفع الفقراء بكل ما يمكن دفن بالتربة التي انشأها قبلي زاويته المشرفة على الطريق يمين الداخل في الصالحية مشهورة مقصودة وقد ترجمه العدوي في تاريخه بقوله قال الجمال ابن المبرد اعظم زوايا الصالحية زاوية الداودي وهي قد بناها والده العلامة الشيخ ابو بكر فزادها ولده عبد الرحمن ووسعها وجعل لها الاوقاف والمرتبات وجعل لها مدار الماء وصهريجاً ومغارة جيدة وخلاوي وميضأت ومحلاً مخصوصاً للكتب الموقوفة ومساكن للنساء ورتب لها اماماً ومؤذناً وقيماً وواعظاً حتى صارت من محال الدنيا الغريبة بجمالها يقصدها الناس من كل جهة ويجعل لهم الوان الاطعمة وعمر خاناً بقرية الحسينية وعمر

مدرسة ابي عمر وكذا المارستان القيمري وكان نفعه عاماً خصوصاً في خلاص المظلومين من الظالمين وكان عالماً بالديانات والالسانيات .

وفي تلك السنة مات بدمشق ابراهيم بن محمد بن محمود الناجي الشافعي قيل كان حنبلياً دفن بباب الصغير له كنز العفاة في المولد المحمدي والوفاة .

وفي سنة سبع وخمسين وثمانمائة مات بدمشق اكمل الدين بن مفلح بن مفرج الشيخ الامام العلامة المفتي الحنبلي اشتغل بعد فتنة تيمورلنك ولازم والده شرف الدين ومهر على يديه وكان ذا فهم صحيح وذهن مستقيم ناب في الحكم وعين لقضاء دمشق ودفن عند والده .

وفي سنة اربع وثمانين وثمانمائة مات بدمشق قاضي القضاة برهان الدين ابو اسحق ابراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي الشيخ الامام العلامة القدوة الرحالة الحافظ مجتهد الامة شيخ الاسلام سيد العلماء والحكام ورئيسهم شيخ العصر وبركته اشتغل وحصل وجمع وسلم اليه القول والفعل بين ارباب العلم كلها وصار مرجع الفقهاء والناس والمعول عليه في الامور وباشر القضاء مراراً مع الورع ونفوذ الكلمة وصنف شرح المقنع في الفقه وطبقات الاصحاب مرتبة على حروف المعجم سماه المقصد الارشد في ترجمة اصحاب احمد وصنف كتاباً في الاصول مات بمنزله بالصالحية ودفن بالروضة عند اسلافه .

وفي سنة خمس وثمانين وثمانمائة مات بدمشق الامام ابراهيم برهان الدين بن احمد بن عمر بن حسن الرباط البقاعي الشافعي المحدث المفسر العلامة المؤرخ نقله جده لامه علي بن محمد السليمي لدمشق فقرأ وحفظ وافرد القراآت وجمعها على الشيخ ابن الجوزي لما قدم دمشق سنة سبع وعشرين وثمانمائة واشتغل بالفقه والنحو واخذ عن اساطين عصره كابن ناصر الدين وابن حجر وبرع وتميز وانتقد على شيوخه وصنف تصانيف عديدة من اجلها المناسبات القرآنية وعنوان الزمان بتراجم الشيوخ والاعيان وتنبيه الغبي بتكفير ابن الفارض وابن العربي وانتقد عليه بسبب هذا التأليف بحق هؤلاء الجهابذة الاعلام وتناولته الالسن وكثر الرد عليه فمن رد عليه العلامة السيوطي

وانتصر لها بكتابه تنبيه الغبي بتبرئة ابن العربي وبالجملة فقد كان البقاعي من اعاجيب الدهر وحسناته ومن آثاره نظم الدرر في تناسب الآي مع السور يوجد منه في احد مكاتب المدينة .

وقد كتب بخطه كتباً كثيرة منها الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني احد مشايخه وقد وقع نكتة غريبة يقول خليل الذهبي اجتمعت به صبيحة يوم الثلاثاء وهو راكب صحيح سليم العافية قبل موته بثلاثة ايام فابدى لي ابياتاً ذيلها على ثلاثة ابيات من نظم ابن دقيق العيد الذي قال لي اربعين سنة مافعلت فعلاً اسأل عنه الا اعددت له جواباً والابيات هذه :

كم ليلة فيك وصلنا السرى لانعرف الغمض ولانستريح
واختلف الاصحاب ماذا الذي يزيح من شكواهم او يريح

الى ان قال :

يارب اسعدهم والحقني بهم لنفوز بالوزن الثقيل الرجيح

وفي سنة سبع وثمانين وثمانمائة مات ابو البقاء تقي الدين البدري الدمشقي المصري الوفائي عبد الله بن محمد الشافعي كان علامة زمانه ونابغة اوانه له اليد الطولى في الشعر والتاريخ وهو صاحب الديوان المشهور راحة الارواح في الحشيش والراح ومجموع شعر ونوادر يوجد في مكتبة باريس اليوم وغرة الصباح في وصف الوجوه الصباح شعر جعله على سبعة عشر باباً يوجد في المتحف البريطاني اليوم وتبصرة اولي الابصار في انقراض القمر بين الليل والنهار وله المطالع البدرية في المنازل القمرية يوجد في مكتبة اكسفورد بخط المؤلف وله نزهة الانام في محاسن الشام وهو عندنا بخطه وهو كتاب ممتع لطيف امتاز ببيان اصناف فواكه دمشق بانواعها وقد طبع في بغداد حديثاً وهو غير البدري بن المزلق .

وفي سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة مات بدمشق عبد الرحمن العيني الصالحي الحنفي صاحب التصانيف الجليلة منها شرح الكنز وشرح البخاري وله شرح النقاية وشرح الفية العراقي وشرح الشمسية وغير ذلك ولي قضاء دمشق

ثمانية عشر يوماً واستغنى عنه وله ترجمة طويلة بالطبقات الحنفية ذكره ابن طولون الدمشقي في شرحه على اعلام الاعلام قال نسبته الى رأس العين من اعمال دمشق ومولده بالصالحية وذكر من مصنفاته شرح الدرر للقنوي وشرح الوشاح في المعاني وشرح الفية ابن مالك وشرح التهذيب للسعد وشرح الخزرجية قال واختصر التلخيص وشرحه ونظم في اللغة التركية قصيدة سماها الدرة المضيئة وكان يحب النزهة والخروج الى البساتين دفن بتربة الجامع الجديد بصالحية دمشق .

ذكر في الضوء اللامع في تراجم اعيان القرن التاسع ترجمة الشيخ العلامة كمال الدين الفرضي واطنب في ذكره وذكر ترجمة اخيه الشيخ الامام ومرجع الشام في المعقول والمنقول نجم الدين الفرضي صاحب كتاب الاشارات دفنا بالقرب من قبر الشيخ ابي البيان الشهير .

ذكر الشهاب احمد المنيني في كتابه الاعلام عند ترجمة ابي القاسم علي ابن محمد بن يحيى السميساطي السلمي الدمشقي المحدث الفاضل والعارف الكامل صاحب الكرامات والمقامات والبركات ذكره صاحب القاموس ايضاً فقال سميساط بلد بشاطئ الفرات منه صاحب الترجمة هو من كبار الرؤساء والمحدثين بدمشق وواقف الخانقاه بها انتهى كلام صاحب القاموس ثم قال المنيني مانصه اقول هذه الخانقاه من الاماكن المشهورة بدمشق بالبركة والخير والفتوح وصدقاتها جارية متصلة من زمن واقفها والى الآن طعام يطبخ ويفرق على المجاورين بها كل يوم تستشفي به المرضى وقد انتفع بها كثير من العلماء واكابر الصوفية ونالوا مطالب علية ومراتب سنية والمجاورة بهما من اسباب الفلاح لطلاب العلوم وبها ولله الحمد والمنة كانت مجاورتي في ابان الطلب مدة تزيد على عشرين عاماً حيث حسنت مستقراً ومقاماً . انتهى

قلت ان الاتراك ابان نهضتهم الاخيرة عقب اعلان الدستور العثماني كان من ضمن نيات بعض رجالهم الصالحين في العمل والصادقين في القول تنظيم وترتيب واصلاح سائر المدارس الدينية في بلادنا وقد عين هيئة مخصوصة من قبل

الحكومة لتفتيش هذه المدارس وبهذه المناسبة افهم ولاة الامر منهم وجوب ايجاد كلية اسلامية دينية بدمشق تضاهي جامع الازهر بمصر وجامع الزيتونة بتونس وبقيت تلك الفكرة اذ لم يتعين مكان الكلية بعد وانما صرف مبلغ عظيم من اوقاف مدرسة السميساطية على اعمارها فبني بذلك قسم من الطابق الاول وبعد ذهاب الاتراك وتشكل حكومة الامير فيصل تشبث بعض رجال العلم مع حاكم البلد العسكري العام بان تكون تلك المدرسة هي موضع الكلية الاسلامية المقتضى ايجادها فصدر الامر باتمام عمارتها وجعلها مكاناً للكلية الاسلامية فتمت بعد ذهاب الملك فيصل وجيوش الانكليز من هذه البلاد ودخول الجيوش الافرنسية مكانها وبقيت بتصور الحكومة الوطنية لافتتاحها ووقع اختلاف بين بعض رجال العلم ودائرة الاوقاف في نقط جوهرية مهمة وهي بيان شكل الدروس العصرية التي يلزم ادخالها مع الدروس الدينية وبعد مدة تم الاتفاق وصار افتتاحها بحضور هيئة من الحكومة ورئيسها حقي بك العظم ورهط من العلماء واعيان البلاد واني قد ادركت الزمن الذي كان يوزع فيه العيش كل يوم وفي يوم من الاسبوع يوزع الطبخ على المجاورين كما أشار اليه الشهاب المنيني في تاريخه وكنت مكثت بها عشر سنين لطلب العلم وبطول الايام تبعثرت اوقافها بين ايدي الطامعين وانقطعت تلك العادة وعسى بفضل رقي العصر ورجاله وبهمة الحكومة الوطنية ومأموري الاوقاف أن ترجع لتلك المدرسة اوقافها ويعاد اليها حالتها الاولى بالطرق المشروعة كما كانت المدارس راقية وعامرة في العصر السابع والثامن على صورة لم يسبق لها مثال . وقد ظهر في ذلك العصر ثلاث مدارس للطب عالية ومدرسة للهندسة في دمشق وكلية كبيرة جامعة اسلامية عربية حوت العلوم الدينية والدنيوية فلم تكن اقل من الازهر ولا اقل من مدرسة الزيتونة في تونس ولا اقل من مدرسة النظامية في بغداد اللهم الهم اولي الامر في هذا الزمان ان يحققوا آمالنا في هذه المدرسة وان لايكون اثمها اكبر من نفعها ومن يعش يره. وبهذه المناسبة ننقل شيئاً عن جامعة آل البيت التي تأسست حديثاً

في عاصمة العباسيين ولمثل هذا فليعمل العاملون في عاصمة الامويين قالت مجلة الزهراء ماخلاصته :

هذه الجامعة اسستها وزارة الاوقاف العراقية في بغداد لتخريج رجال يعرفون فضائل الدين الاسلامي ويفهمون روح العصر . والذي تأسس بالفعل من هذه الجامعة فرع واحد اسمه (الشعبة الدينية العالية) .

انفقت الاوقاف العراقية على انشاء هذه الشعبة سبعمائة الف ربية . وكان من المقرر ان يؤسس الى جنبها (شعب للهندسة والطب والفنون والآداب والحقوق) وان يكون لها متحف اثري ومرصد فلكي ومكتبة عامة ومدرسة للتطبيقات ومدرسة للغات الشرقية والغربية .

ويشترط لدخول الشعبة الدينية ان يكون الطالب متعلماً تعليما ثانوياً . ويكفي ان يكون الطالب مسلما . فهم لايشترطون ان يكون عراقياً . ويرجح خريجوها على غيرهم في وظائف الاوقاف العلمية والادارية . وفي التدريس بمدارس الاوقاف والمعارف . وفي القضاء الشرعي والافتاء .

ويدرس فيها قسم المعاملات من الفقه على مذهب ابي حنيفة وشرح مجلة الاحكام الشرعية واصول فقه اهل السنة واصول فقه الشيعة وتاريخ الاديان والمحاكمات التاريخية وعلم التاريخ والفلسفة الاسلامية وحكمة التشريع . ويدرس علم النفس وعلم الاقتصاد وعلم الاجتماع .

وللجامعة مجلة تصدر بنحو مائة صفحة كبيرة كلما اجتمع لديها ما يملأ هذا الحجم من محاضرات المدرسين .

وبناء الشعبة الدينية مؤلف من قسمين احدهما للتدريس وفيه سبع غرف والثاني لسكنى الطلبة . وبينهما بهو للمحاضرات يسع ١٥٠ شخصاً وفوق هذا الطابق طابق آخر مثله . والبناء في حديقة مساحتها اربعمائة الف متر مربع بالقرب من الاعظمية على دجلة بين الرياض من شرقها ومن غربها .

● ● ●

اسماء رجال العصر العاشر من رجال الهجرة

وفي سنة احدى وتسعمائة مات بدمشق عماد الدين اسماعيل بن محمد السيوفي الشافعي الشهير بخطيب جامع السقيفة بباب توما بدمشق حفظ التنبيه ومنهاج البيضاوي والشاطبية وعرض على التقي الحريري والبرهان الباعوني وسمع على ابن بروس وابن الطحان وغيرهم وهو والد العلامة شمس الدين محمد الشهير بابن خطيب السقيفة بينه و بين ابيه احد عشر سنة توفي ولده قبله ودفن صاحب الترجمة عند ولده جوار الشيخ رسلان .

وفي تلك السنة مات بدمشق شرف الدين موسى بن علي الشهير بالحوراني الشافعي كان يحفظ القرآن والمنهاج ويدرس به وبالقراآت بمدرسة شيخ الاسلام ابي عمر بالصالحية وتفقه على النجم بن قاضي عجلون وسمع على البرهان الباعوني وولي نظر مدرسة الشبلية والامامة بها وكان يقريء بها سيرة ابن هشام كل يوم بعد العصر وانتفع الناس به قال ابن طولون وحضرت عنده مراراً مات بمنزله بمحلة الشبلية في طريق عين الكرش ودفن بالصالحية .

وفي سنة ثلاث وتسعمائة مات بدمشق شهاب الدين احمد الشهير بابن شكم الشافعي الدمشقي الصالحي اشتغل على البدر بن قاضي شهبة والنجم بن قاضي عجلون وغيرهما وكان على طريقة حميدة انتفع به جماعة من اهل الصالحية وغيرهم بدمشق لا سيا في علم النحو والصرف وكان يقول ان مبنى كل طريقة على رعاية الاحكام الشرعية .

وفي سنة اربع وتسعمائة مات بدمشق قاضي القضاة نور الدين ابو الفضل محمد بن يوسف الخزرجي الدمشقي الصالحي المعروف بابن منعة الحنفي حفظ القرآن ودرر البحار للقونوي والمنار للنسفي وسمع بعض مسانيد ابي حنيفة على قاضي القضاة حميد الدين وتصحيح القدوري وتفقه بالشيخ عيسى العلوجي وولي تدريس الجمالية وكانت سيرته حسنة يأمر بالمعروف وينهي عن

المنكر وانفرد في آخر عمره برئاسة مذهب ابي حنيفة بدمشق وولي منصب قاضي قضاة الحنفية واعتقل بقلعة دمشق ثم اطلق مات مطعونا بقرية عين الفيجة من يد ظالم غاشم .

وفي تلك السنة مات بدمشق محمد بن محمد بن سلطان الحنفي شارح الكنز دفن بباب الصغير بتربة مشهورة بالقلندرية .

وفي تلك السنة مات بدمشق محب الدين محمد بن ايوب الانصاري الشهير بابي الفضل الدمشقي الشافعي الف كتباً في الفقه وغيره منها شرح المنهاج وشرح على المنفرجة وتخميسها وكان متفنناً بحل علم الزايرجة السبتية دفن بمقبرة الفراديس شمالي شباك الخانقاه النحاسية غربي الذهبية عند قبر شيخه ابن الشاوي ومن شعره قوله ملمحاً بحديث المسلسل بالاولية رواه عن ابن طولون ومن خطه نقلت :

ان رمتم فوزاً لدى رب السما وان تنالوا في الجنان انعما
فاهل الارض اوسعوهم رحمة لعل ان يرحمكم من في السما

وفي تلك السنة مات بدمشق زين الدين خطاب الكوكبي الصالحي الحنبلي حفظ القرآن واخذ عن الشيخ صفر والنظام ابن مفلح واشتغل في العربية على الشهاب بن شكم وحل عليه الفية العراقي في علم الحديث واعتنى بهذا الشان وانشد له ابن طولون الدمشقي العلامة المؤرخ حين موته بهذه الابيات :

بطشت يا موت في دمشق وفي بنيها اشد بطش
وكم بنات بها بدورا كانت فصارت بنات نعش

ثم قال ابن طولون عرض له ضعف في العقل في بعض الاحيان وكان عند الناس انه فقير فاوصى بمبلغ كبير من الذهب له كمية جيدة ثم بريء من ذلك المرض وعلى أثر ذلك شنق نفسه بالضيائية .

وفي سنة سبع وتسعمائة مات بدمشق شهاب الدين احمد بن عبد الرحمن ابن عبد الكريم النابلسي ثم الدمشقي الشهير بابن مكية الشافعي اشتغل على

الشمس محمد بن حامد الصفدي وكان اول دخوله دمشق فوعظ بها في جامع الاموي على كرسي العلامة ابن عبية وكان حاضراً اذ ذاك فتكلم ابن مكية على البسملة واسماء الفاتحة ونقل كلام العلماء في ذلك فأحسن وصار من مشاهير الوعاظ دفن عند قبر الشيخ ابراهيم الناجي غربي قبر معاوية بمقبرة باب الصغير .

وفي سنة ثمان وتسعمائة مات بدمشق القاضي فخر الدين بن عثمان بن يوسف الحموي ثم الدمشقي الشافعي اشتغل بحل الحاوي الصغير على العلامة مفلح الحبشي وكان يحوك في الصنعة ثم صار بوابا بالبدرئية ثم تعانى صنعة الشهادة بخدمة شرف الدين ابن عبد الحنفي ثم فوض اليه نيابة الحكم عن ابن القاضي شهاب الدين ابن الفرفور الدمشقي دفن بباب الفراديس .

وفي سنة تسع وتسعمائة مات بدمشق نزيلها الشيخ الصالح العارف بالله تعالى ابو بكر بن عبد الله الشاذلي المعروف بالعيدروسي مبتكر القهوة المتخذة من البن المجلوب من اليمن وكان اصل اتخاذه لها انه مر في سياحته بشجر البن فاقتات من ثمره حين رآه متروكاً مع كثرته فوجد فيه تجفيفاً للدماغ واجتلاباً للسهر وتنشيطاً للعبادة فاتخذه قوتاً وطعاماً وشراباً وارشد مريديه واتباعه الى ذلك ثم انتشرت في اليمن ثم في الحجاز ثم في الشام ومصر ثم سائر البلاد في اقطار العالم واختلف العلماء في اول القرن العاشر في القهوة حتى ذهب الى تحريمها جماعة منهم الشيخ شهاب الدين العيساوي الشافعي والقطب ابن سلطان الحنفي والشيخ احمد عبد الحق السنباطي تبعاً لابيه . والاكثر ذهب الى انها مباحة قال النجم الغزي في الكواكب السائرة في تراجم رجال المائة العاشرة ما نصه قد انعقد الاجماع بعد من ذكرنا على ذلك واما ما ينضم اليها من المحرمات فلا شبهة في تحريمه ولا يتعدى تحريمه الى تحريمها حيث هي مباحة في نفسها وقد ذكر العلامة الشيخ ابو الهدى الطيب الغزي في مؤلف له بخصوص القهوة ان ابتداء ظهورها كان في زمن سليمان بن داود عليهما السلام ما ملخصه : كان سليمان اذا أراد سيراً الى مكان ركب البساط

هو ومن احب من جماعته واظلتهم الطير وحملتهم الريح . فاذا نزل مدينة خرج اليه اهلها طاعة له وتبركاً به فنزل يوماً مدينة لم يخرج اليه احد من اهلها فأرسل وزيره على الجن الدمرياط فرأى اهل المدينة يبكون فقال ما يبكيكم قالوا نزل بنا ملك الارض نبي الله سليمان ولم نخرج الى لقائه قال ما منعكم من ذلك ؟ قالوا لان بنا جمعاً الداء الكبير (الجذام) ومن شأنه ان يتطير منه وتنفر منه الطباع خوف العدوى فرجع واخبر سليمان بذلك فدعا الله تعالى باسمه الاعظم ابن خالته آصف بن برخيا ان يعلم سليمان ما يكون سبباً لبرئهم من ذلك فنزل جبريل عليه السلام على سليمان وامره ان يأمر الجن ان تأتيه بثمر البن من بلاد اليمن وان يحرقه ويسحقه ويطبخه بالماء ويسقيهم ففعل ذلك فشفاهم الله تعالى جميعاً ثم تنوسي امرها الى ان ظهرت في اول القرن العاشر (انتهى ملخصاً) . ثم قال النجم الغزي واما مبتكرها صاحب الترجمة فانه من سادات الاولياء وائمة العارفين، وقد الف كتاباً في علوم القوم سماه الجزء اللطيف في علم التحكيم الشريف انتهى .

اقول ذكرت هذه الرواية على عهدة ناقلهـا للدلالة على ما لقهوة البن من الاعتناء في نفوس القوم اذ ذاك وتنافسهم بها الى حد ان تناقلوا عنها أمثال هذه الحكاية الغريبة في بابها التي لا يسلم فيها احد من متنوري هذا العصر .

وجاء في دائرة المعارف ما نصه : والاصل الاول للبن بلاد الحبشة من مقاطعة جنوبية منها تسمى كوفا ويقال ان اسم البن عند الافرنج مأخوذ منها وربما كانت القهوة عند الاتراك والعرب مأخوذة من نفس هذا الاسم خلافاً لمن ظن انهـا مأخوذة من قهوة بالعربية بمعنى الخمر . وكان البن في هـذه من زمان قديم واخذه العرب منها من زمان لا يمكن تحديد قدمه بالضبط وكثر في اليمن لا سيما حول مدينة مخا وحسنت زراعته هناك وكثر استعماله في البلاد الشرقية ويقال انه كان مستعملاً في بلاد فارس سنة ٨٧٥ للميلاد انتهى كلام دائرة المعارف .

ويتلخص من هذه النقول انه لم يقع خلاف بين علماء التاريخ في ان وجود

هذا النبات بعيد العهد وقديم جداً والالیق به ان يكون منشأ ظهوره بلاد الحبشة ويؤيدهذا ما اطلعت عليه في رسالة السر المكنون لاحد علماء العصر العاشر وانه نقل منها الى اليمن استنباتاً واستعمالا كما نقل الى الجهات مثل اميركا وآسيا واوربا ثم فشا استعماله من اليمن الى بلاد فارس والحجاز وعرب بادية هذه البلاد والشرقية ومؤخراً استعملت شرباً في بلادنا في زمن صاحب هذه الترجمة ولا يبعد ان يكون ظهورها اعتباراً من القرن الرابع الهجري كانت مستعملة عندمن لايهم الناس بتقليدهم ولا يحتجون باعمالهم من اواسط الناس واما اختلاف العلماء بتحريمها في اول القرن العاشر فاني اطلعت على رسالة في القهوة وتحريمها الى احد علماء ذلك العصر وخطيب الجامع الجديد بدمشق ردها عليه اهل عصره وعقدوا عليه مجلساً عند سنان باشا حاكم الشام ونائب السلطنة والزموه بالقول بحلها فلم يرجع عن تأليفه واستمر مصراً الا انه خالف الاجماع من العلماء وغاية مافي الباب ان استعمال شربها على هذه الصورة عند الصوفية الذي من شأنهم الزهد في اكثر المباحات انما كان في ذلك الوقت ، وهذا لاينافي ان غير الصوفية من ارباب الحرف والصنائع كان يشربها ويستعملها كباقي المباحات وكما يشرب باقي الطبقات من الناس الدخان .

قال عماد الدين الشاعر الشهير من حي العنابة بدمشق يمدح القهوة

هذه القهوة الحلال اتتكم   تتهادى والطيب يعبق منها
سودوها على الحرام بحل   واماطوا غوائل القول عنها

ونقل العارف النابلسي في رحلته عن القهوة :

اتتنا قهوة من قشر بن   تمين على العبادة للعباد
حكت في كف اهل اللطف صرفاً   زباداً زايداً في وسط الزبادي
يطوف بها رشأ كالبدر لكن   مراتعه ومسكنه فؤادي
وعادات الظبا تأتي بمسك   وهذا الظبي يأتي بالزبادي

القهوة ومتى شربها الاتراك .

كان الشعب التركي يجهل القهوة الى عام ٩٦٢ هجرية واول من ادخل البن الى تركيا رجل حلبي يدعى حكيما وحدث هذا في ابتداء عام ٩٦٣ وهو اول رجل اسس في الاستانة مشرباً للقهوة يقع في حي تخته قلعة . وكان هذا المشرب مزيناً بانواع الزهور العطرة والرياحين العبقة وفي وسطه عدة احواض محفوفة بالاشجار . وكان سكان الاستانة يقصدونه زرافات زرافات فيجلسون في الارض على مراتب ووسائد من الحرير ويشربون القهوة باكواب من الخزف .

ويقول مؤرخ تركي في بحث له مستفيض ان قاضي الاستانة افتى بتحريم شرب القهوة ظناً منه انها من نوع المخدرات التي نهت الشريعة الاسلامية عن تعاطيها . ولكن هذه الفتوى ذهبت سدى . وانتشرت مشارب القهوة في سائر احياء المدينة بصفة سرية وظلت كذلك مدة طويلة حتى بادرت الحكومة باصدار بلاغ اباحت فيه شرب القهوة علناً .

اضرار القهوة .

كثير من الناس يشربون القهوة بكثرة غير عالمين بالاضرار التي تنشأ عنها ـ فان كمية الكافايين التي تتجمع في الجهاز الهضمي اذا شرب المرء اكثر من فنجانين تولد له آلاماً وارقاً وتهيجاً بالاعصاب . كل ذلك من نتائج التسمم بالكافايين .



وفي سنة احدى عشرة وتسعماية مات بدمشق السيد علاء الدين بن احمد بن شهاب الدين الدمشقي الحسيني نقيب السادة الاشراف بالديار الشامية ومن اجلة علماء الحنفية كان بارعاً في العلوم النقلية والعقلية .

وفي تلك السنة مات بدمشق قاضي القضاة شهاب الدين ابو العباس احمد بن محمود الشهير بابن الفرفور الدمشقي اخذ عن البرهان الباعوني والنجم ابن قاضي عجلون والشمس محمد بن السعدي وابي المحاسن بن شاهين وبرع وتميز

على اقرانه وكان جامعاً بين العلم والرئاسة والكرم وحسن العشرة قال بعضهم انه ختام رؤساء الدنيا على الاطلاق وسلطان الفقهاء والرؤساء ولي قضاء القضاة الشافعية بدمشق ثم جمع له بينه وبين قضاء مصر وابيح له ان يستنيب في قضاء دمشق من يختار فعين ولده القاضي ولي الدين واستمرت عليه هاتان الوظيفتان الى ان مات وقيل انه مات بمصر وكان له شعر متوسط منه قصيدته المشهورة التي مدح بها سلطان مصر الاشرف قانصوه الغوري مطلعها :

لك الملك بالفتح المبين مخلد لانك بالنصر العزيز مؤيد

وهي طويلة فلما وقف عليها السلطان الغوري ابتهج بها وقرأها بنفسه على من حضر في مجلسه وكافأه عنها بقصيدة من نظمه وجهزها اليه مطلعها :

اجاز لنا القاضي ابن فرفور احمد مديحاً به اثنى عليه واحمد
وقاضي قضاة الشام جاء يزورنا ويثبت دعوى حبنا ويؤكد

وفي سنة اثنتي عشرة وتسعمائة مات بدمشق شهاب الدين احمد بن عبد الرحيم بن حسن الدمشقي الميداني القبيباتي الشافعي العلامة الشهير بابن المحوجب كان مهاباً عند الملوك والامراء وله كرم وافر وسماطه من افخر الاطعمة كسماط معاوية يأكل منه الخاص والعام حتى حاكم دمشق ونائبها وقاضيها حسب عادة امراء العرب .

اقول قد انقطعت هذه العوائد الحسنة في المدن وبقيت في البادية الى اليوم يتفاخر امراء العرب وشيوخهم بذلك ويجعلونها السبب الوحيد للتحابب وجمع الكلمة ورفع الضغائن فيما بينهم وهذا امر نادت به السنة السنية والشريعة الاسلامية خصوصاً في ايام الاعراس والعقيقة

وفي تلك السنة مات بدمشق شمس الدين محمد بن عيسى الدمشقي الحنفي قاضي دمشق ومفتيها قال الحمصي في تاريخه كان متفنناً يعرف صناعة التوريق والشهادة معرفة تامة متضلعاً في العلوم محجاجاً لايجاريه في بحثه احد دفن بالصالحية .

وفي سنة ثماني عشرة وتسعمائة نقل بعد موته في طرابلس الى دمشق في محفة

شهاب الدين احمد بن ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن منجك الامير الدمشقي صاحب الاوقاف الغزيرة في طرابلس قال في الكواكب السائرة لم يحمد ابن طولون المؤرخ الدمشقي سيرته في اوقافهم دفن بتربتهم بميدان الحصنا . وتولى اوقاف هذه الاسرة مدة الامير عبد القادر بن منجك .

وفي تلك السنة قتل بدمشق القاضي علاء الدين علي الرملي الفاضل خليفة الحكم العزيز بدمشق قال في الكواكب السائرة قتل بين المغرب والعشاء بسوق الرصيف بالقرب من جامع الاموي وهو السوق المعروف الآن بدرويش باشا من باب البريد الى مدرسة نور الدين الشهيد خرج عليه جماعة فقتلوه ولم يعرف قاتله واتهم بقتله القاضي شهاب الدين الرملي موقت جامع الاموي لما كان بينهما من الخصومات الشديدة .

وفي سنة تسع عشرة وتسعمائة مات بدمشق سراج الدين عمر ابن شيخ الاسلام علاء الدين الشهير بالصيرفي الدمشقي الشافعي له اسانيد عالية بالحديث ولي نيابة القضاء بدمشق مدة طويلة وباشر خطابة الاموي نحو اربعين سنة دفن بباب الصغير على والده علاء الدين الصيرفي غربي مسجد النارنجة .

قال النجم الغزي في الكواكب السائرة مات بدمشق محمد بن محمد الشيخ العلامة شمس الدين ابن الشيخ محب الدين الحسيني الحصني الدمشقي في يوم الاربعاء ثامن عشر شوال انتهى كلامه وقد وجدت في السجل الاول في صحفة ١٦٨ في المحكمة الشرعية الكبرى بدمشق وقفية لصاحب الترجمة لكاتبها السيد شمس الدين الايوبي الانصاري تقيدت في ذلك السجل سنة ١٠٤٥ واليك بعض كلام من تلك الوقفية بحرفه وفي محرم سنة احدى وثمانين وثمانمائة نوقف شمس الدين محمد الحصني على ولده بركة الاسلام والمسلمين العالم العامل الورع العارف بالله تعالى السيد الشريف الحسيب النسيب محب الدين ابي عبدالله محمد الحصني القادري الى آخر ما ذكر من البر والاحسان والسكن والاسكان في الزاوية التي انشئت من قبل عم الواقف السيد تقي الدين الحصني ابي بكر المتقدم الذكر .

وفي ابتداء سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة مات بدمشق العلامة شمس الدين محمد بن رمضان الدمشقي مفتي الحنفية بها قال الحمصي في تاريخه كان قد انعزل عن الناس ولازم العزلة الى ان مات قال النجم الغزي في الكواكب وكان سبب عزلته انقطاعه عن الخلق الى الخالق .

وفي سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة مات بدمشق كريم الدين ابن الاكرم الدمشقي الحنفي القاضي بها توفي بمنزله بالعنابة بالبساتين المشهورة خارج دمشق ودفن بمقبرة الشيخ رسلان نقله في الكواكب .

وفي تلك السنة مات بدمشق الشيخ عبد النبي المغربي المالكي مفتي السادة المالكية بدمشق واحد اخوال سيدعلي بن ميمون العارف الشهير ووافق حضور جنازته بالاموي حضور السلطان سليم خليفة المسلمين الجديد فصلى عليه مع الجماعة وكان ذلك يوم الجمعة ثالث عشر رمضان .

وفي ابتداء سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة دخل دمشق السلطان سليم خان سليل آل عثمان فاتح دمشق ونزل في قصر الابلق المنسوب للملك الظاهر محمود بيبرس الجركسي الكائن في المرج الاخضر ظاهر دمشق الذي بنى ولده السلطان سليمان التكية والمدرسة في محل القصر المذكور ومن انقاض الجامع والخانقاه كما سيأتي بعد اخذه الخلافة ومبايعته لها من آخر خليفة من بني العباس في مصر وهو من سلالة آل عثمان من بيت رفع على قواعده فسطاط السلطنة الاسلامية وجمع شمل امراء وملوك الاسلام تحت رايتها . رفعوا عماد الاسلام واعلوا منارة وعرفوا للشرع الشريف مقداره وهو الذي ملك بلاد العرب واستخلصها من ايدي الشراكسة بعد ماشتت شملهم وفرق جمعهم فانقلبوا عن مليكهم وجدوا في الهرب كان شديد التوجه الى اهل النجدة والبأس . عظيم التجسس عن اخبار الناس . وربما غير لباسه وتجسس ليلاً ونهاراً وكان شديد اليقظة والتحفظ يحب مطالعة اسفار التواريخ واخبار الملوك ومجالسة العلماء وقد جمع شمل الاسلام تحت وحدة الجامعة الاسلامية باتحاد كلمتهم بعد تفرقهم قبائل ودولا وملوكا وزعماء كما وقع في هذا العصر وله نظم بالفارسية والعربية

والرومية منه ماذكره القطب الهندي المكي احد منادميه انه رآه بخطه في الكشك الذي بني له حين قدومه بروضة المقياس بمصر ونصه :

الملك لله من يظفر بنيل منى يردده قهراً ويضمن بعده الدركا
لو كان لي او لغيري قدر انملة فوق التراب لكان الامر مشتركا

قال الشيخ مرعي الحنبلي في كتابه نزهة الناظرين كان السلطان سليم لايقاتل اميراً من امراء المسلمين مالم يبلغه عنه مخالفته للشرع مثل ظهور اسماعيل شاه واستيلائه على سائر ملوك العجم وملك خراسان واذربجان وتبريز وبغداد وعراق العجم بحيث قتل مايزيد على الف الف من المسلمين وكان عسكره يسجدون له ويأتمرون بأمره وكان يدعي الربوبية وقتل العلماء واحرق كتبهم ونبش قبور المشايخ واحرقها وكان اذا قتل اميراً اباح زوجته وامواله لشخص آخر فلما بلغ السلطان سليم ذلك تحركت همته لقتاله وعد ذلك من افضل الجهاد فالتقى معه بقرب تبريز بعسكر جرار وكانت وقعة عظيمة فانهزم جيش اسماعيل شاه واستولى السلطان سليم على خيامه وسائر مافيها واعطى الرعية الامان ثم اراد الاقامة بالعجم للتمكن من الاستيلاء على البقية فما امكنه ذلك لشدة القحط وتخلف الميرة التي كان اعدها السلطان سليم لهذا الحروب وما وجد في تبريز شيئاً لان اسماعيل شاه عند انهزامه امر باحراق خزائن الحب والشعير فاضطر السلطان سليم للعود وتفحص عن اسباب انقطاع قوافل الميرة عنه فاخبر انه كان السبب سلطان مصر قانصوه الغوري فانه كان بينه وبين اسماعيل شاه محبة ومراسلات وهدايا فلما تحقق السلطان سليم ذلك صمم على قتال الغوري اولاً ثم بعده يتوجه لمقاتلة اسماعيل شاه ثانياً وحصلت الوقائع المشهورة التي لخصنا ذكرها في محلها في كتابنا هذا وفوض نيابة دمشق الى عريش مصر الى جان بردي الغزالي على مال معين .

ثم امر بعمارة قبة على قبر العارف محيي الدين بن عربي الطائي الاندلسي بصالحية دمشق حسب اشارة الشيخ محيي الدين في مؤلفه وجامع وخانقاه ومدرسة ورتب لها عمارة باطعام الطعام الى الفقراء ووقف لها اوقافاً كثيرة

من قرى ومزارع مضبوطة في الخزينة وهذه الخيرات جارية الى اليوم .

ثم استولى على الارض الحجازية وغيرها بطاعة اميرها ورضاه بعد استيلائه على مصر ورتب الرواتب على علمائها واشرافها والخلع على امراء مكة وابقى الاوقاف على حالتها بلا تبديل ولاتغيير بل زاد ورتب لاهل الحرمين في كل سنة سبعة آلاف اردب حب وقال بعض حملة الاخبار ان اول سلطان امر بالخلع والعطايا لامراء مكة واشرافها هو السلطان محمد خامس سلاطين آل عثمان ثم عاد الى القسطنطينية وقد ملاء خزائنه من اموال الشراكسة بعد ان كان في ضائقة وقد تفنن بضرب المكوس والضرائب حتى امتلأت خزائنه باموال عظيمة كما ذكره النجم الغزي وانه جعل على المومسات المكس فتأسف رجال الدين والورع لما ادى به الطمع وهو في بدء تغلبه على هذه البلاد غير ناظر لما كتبه صلاح الدين في منشوره عند اخذه دمشق ان اشقى الامراء من سمن كيسه واهزل الخلق وابعدهم من الحق من اخذ الباطل من الناس وسماه الحق

وفي تلك السنة مات بدمشق برهان الدين بن قاسم الشهير بابن الكيال الدمشقي الشافعي المحدث دفن بباب الصغير .

وفي تلك السنة مات بدمشق شهاب الدين احمد بن يوسف زين الدين الخالدي الدمشقي الحنفي المتصوف المعمر قال ابن طولون المؤرخ الدمشقي انشدني لنفسه في قضاة زمانه :

قضاة زماننا احتجوا بعلم   وما لهم على ذاك احتجاج
واضحى العلم منفرداً ينادي   اضاعوني واي فتى اضاعوا

ثم قال المؤرخ هذا في زمانه رحمه الله تعالى فما قوله في زماننا ضاع العلم والحق انا لله وانا اليه راجعون وقد بلغ الثمانين من عمره دفن بالحمرية على والده قلت فما نقول نحن في زماننا هذا ندع القول به لاهل هذا العصر ومتنوريه اولي الامر فيه .

وفي سنة ثمان وعشرين وتسعمائة مات بدمشق ابو الصدق بن عبد الرحمن المعروف بابن قاضي عجلون الشافعي الذرعي الدمشقي اشتغل على والده واخيه

شيخ الاسلام نجم الدين وكان افقه اهل زمانه واجل معاصريه واقرانه درس بالجامع الاموي والشامية والعمرية والف منسكاً لطيفاً وكتاباً حافلاً سماه اعلام التنبيه وانتهت اليه مشيخة الاسلام ورئاسة علماء الشافعية ببلاد الشام وكثرت تلامذته في دمشق وبرع اكثرهم في حياته كالشيخ شمس الدين الكفرسوسي والشيخ البلاطنسي والسيد كمال الدين بن حمزة نقيب الاشراف القاضي رضي الدين بن الغزي والبدر الغزي والشيخ القاري والشيخ علاء الدين القيمري وبرهان الدين البقاعي الذي الف كتابه في الرد على حجة الاسلام الغزالي في مسألة ليس في الامكان ابدع مما كان وبالغ في الانكار على ابن العربي وامثاله وكان صاحب الترجمة ابن قاضي عجلون منكراً على تلميذه البقاعي ذلك وهجره لهذا التعرض بهؤلاء الجهابذة الاعلام مع انه كان ينهى عن مطالعة كتب ابن العربي ونقل عنه انه جمع اسماء الذين افتوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله :

لقد كان يفتي في زمان نبينا　　مع الخلفاء الراشدين ائمة
معاذ وعمار وزيد بن ثابت　　ابي ابن مسعود وعوف حذيفة
ومنهم ابو موسى وسلمان جدهم　　كذاك ابو الدرداء وهو تتمة

دفن بمقبرة باب الصغير

وفي سنة تسع وعشرين وتسعمائة مات شمس الدين محمد المعروف بابن المنقار كان رحل من حلب الى دمشق ثم تجاذبت الاخبار فضائله وقد مدحه بعض الشعراء بقصيدة طويلة آخرها :

فدام ممتعاً في ظل عيش　　وخير الدهر عيش مستطاب
له مني ثناء كل وقت　　جزيل او دعاء مستجاب

وسيأتي معنا ترجمة ولده يحيى في العصر الحادي عشر .

قال الغزي في تذكرته ومن رجال ذلك العصر الذينهم كانوا زهرة دمشق ومن محاسنها امثال الذين فقدتهم هذه البلاد ولم يبق من ذريتهم احد وتم عليهم الانقراض كما فقدت دمشق غيرهم من البيوت القديمة الشهيرة بالعلم

والفضل وهم احمد الغاياني ومحمد الصالحي الهلالي وحسن بن البوريني ومن نظمه:

خذها قدتك رواة الشعر قاطبة نقد عليه بمدح فيك مبتكر
طائية الاصل الا انها نشأت بربوة الشام في روض على نهر

ثم قال ومن رجال ذاك الوقت الامير محمد بن منجك الدمشقي منشأ ومولدا والجركسي اصلا اديب اريب ونجيب ابن نجيب اورق عوده بالشام واثمر واذا عدت السجايا عرضاً فسجاياه جوهر .

ثم قال ومن رجال ذاك العصر ومحاسنه العلامة ابو السعود العمادي المفتي بدمشق الشام صاحب التفسير على هامش فخر الرازي وقد نقل عنه ان احد شعراء الشيعة المتطرفين قال بحضوره ابياتاً :

نحن اناس قد غدا دأبنا حب علي بن ابي طالب
يعيبنا الناس على حبه فلعنة الله على العائب

وقد اجابه المفتي في ذلك المجلس وقيل غيره من شعراء دمشق نقلا عن صاحب الخلاصة

ماعيبكم هذا ولكنه بغض الذي لقب بالصاحب
وقولكم فيه وفي بنته فلعنة الله على الكاذب

وفي تلك السنة مات بدمشق زين الدين بركات الشهير بابن الكيال الدمشقي الشافعي صار احد شيوخ الاسلام بدمشق قرأ على ابن قاضي عجلون قال ابن طولون الدمشقي في تاريخه رأس بعد موت شيخه ابراهيم الناجي ودرس بالجامع الاموي في علم الحديث تجاه محراب الحنابلة وخطب بالصابونية ووعظ بمسجد الاقصاب وجامع الجوزة وله مؤلفات كثيرة منها الجواهر الزواهي في ذم الملاعب والملاهي دفن بمقبرة باب الصغير وله ذرية كبيرة في دمشق .

وفي سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة مات بدمشق شمس الدين الكفرسوسي قرية تابعة لدمشق الشافعي الفقيه المفتي بها تفقه بالنجم ابن قاضي عجلون واخذ عن جماعة من الدمشقيين منهم الشهاب الطيبي دفن بمقبرة باب الفراديس

وقد اشترى والدي من ذرية المذكور دارنا الكائنة في الصادرية وكانت مسكناً لهم .

وفي سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة مات بدمشق السيد كمال الدين بن حمزة الحسيني الدمشقي الشافعي احد شيوخ الاسلام بدمشق قرأ على ابن قاضي عجلون وكان اماماً جامعاً لاشتات العلوم مع جلالة وهيبة كان يدرس ويفتي وترك الافتاء آخراً بسبب محنة حصلت له من الغوري الملك بسبب سؤال رفع اليه فيمن بنى بنياناً في مقبرة مسبلة هل يهدم ام لا فكتب انه يهدم فهدم على الفور وكان الحق في جوابه واجاب خاله ابن قاضي عجلون شيخه بعدم الهدم وهو غير المنقول وكأنه ادخل عليه في السؤال مادعاه الى الافتاء بذلك وشرح القصة يطول اكتفينا بالالماع اليها وكان مجلس درسه بالجامع الاموي شرقي مقصورته وممن حمل عنه شهاب الدين الطيبي ورثاه تلميذه تقي الدين القاري بقصيدة طويلة اولها :

توفي قرة العين الكمال وصرنا بعده في سوء حال

ودفن الى جانب خاله شيخ الاسلام ابن قاضي عجلون بمقبرة باب الصغير .

وفي تلك السنة مات بدمشق محمد بن سلطان الشيخ الرئيس القاضي كمال الدين ابن الزيني سلطان الدمشقي الصالحي الحنفي ناب في الحكم وجمع مجلداً سماه تشويق الساجد الى زيارة اشرف المساجد صلى عليه ولده قطب الدين ودفن بتربتهم تحت المعظمية وانتقلت ذريته الى طرابلس الشام .

وفي سنة خمس وثلاثين وتسعمائة مات بدمشق قاضي القضاة نجم الدين محمد بن شيخ الاسلام تقي الدين بن قاضي عجلون المتقدم الذكر اشتغل على والده ودرس بالنيابة عنه بمدرسة ابي عمر وولي خطابة جامع يلبغا وفوض اليه قاضي القضاة شهاب الدين ابن الفرفور الدمشقي نيابة الحكم ودفن عند والده بباب الصغير .

وفي تلك السنة رحل من دمشق الى مصر ولحق ابن عمه الذي ذهب قبله

بثلاثين سنة شمس الدين محمد الحصني من أحفاد الامام شمس الدين محمد الحصني الحسيني ابن اخي شيخ الاسلام تقي الدين الحصني ابو بكر رحل الى القاهرة بطلب امرها واقام بها مدة توفي بها وكان عالماً فاضلاً شاعراً قال النجم الغزي في الكواكب السائرة عند ترجمته ما نصه محمد الحصني الشيخ الصالح العالم العلامة الحسيب النسيب السيد شمس الدين الحصني من اقارب شيخ الاسلام تقي الدين الحصني صاحب قمع النفوس رحل الى القاهرة واقام بها مدة وبها مات في سنة خمس وثلاثين وتسعمائة وصلي عليه غائبة بجامع دمشق يوم الجمعة رابع عشر محرم سنة ست وثلاثين وتسعمائة انتهى كلامه قلت وقد رأيت على نسب قديم مخطوط في سابع ذي القعدة سنة اربع وتسعين وثمانمائة تعليقاً له بعبارة لطيفة ممضاة بامضائه هكذا خادم الفقراء والعلماء ومحبهم محمد بن محمد الحصني الحسيني الشافعي ختم الله له بخير .

وفي تلك السنة مات بدمشق الشيخ عبد الرحمن الشامي قال في الكواكب الفقيه النحوي الصوفي كان يتعمم بالصوف وله تحقيق في العلوم الشرعية والعقلية اقبلت عليه الامراء واكابر الرجال واعتقدوه وكانوا يجلسون بين يديه متأدبين وهو يخاطبهم بأسمائهم بلا تعظيم .

وفي تلك السنة مات بدمشق علي بن شمس الدين محمد البلاطنسي الدمشقي الشافعي شيخ السبع البارزي بالكلاسة لصيق جامع الاموي كان من العلماء الاعلام له كتاب البديعية في علم الادب وغيره شيخه ابن قاضي عجلون .

وفي تلك السنة مات بدمشق رضي الدين الغزي القاضي العامري ابن جابر هو نقطة العلم الحديث والقديم وسيرى ذكره كما سيرى في الرياض النسيم ترجمه حفيده النجم في الكواكب وكان بينه وبين سعد الدين الانصاري بن علي الانطاكي الحلبي الدمشقي مساجلات ادبية وكان شاعراً اديباً ومن قوله :

ظن بالناس جميلا واتبع الخيرات تسمو
واجتنب ظناً قبيحاً ان بعض الظن اثم

وله ايضاً نظري الى الاعيان قد اعياني ونظلي الادوان قد ادواني
من كل انسان اذا عاينته لم تلق الا صورة الانسان

وفي سنة ست وثلاثين وتسعمائة مات بدمشق زين الدين ابن خالد البلاطنسي صاحب نزهة الناظر وقد قرظ كتاب البدر بخطه وبلاطنس حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية .

وفي سنة سبع وثلاثين وتسعمائة مات بدمشق علاء الدين بن الحسن الجوهري الدمشقي الشافعي الاديب كان مؤذناً بالجامع الاموي متسبباً بالتجارة بباب البريد فاضلا بارعاً شاعراً له ديوان شعر لطيف لم يشتهر ومن شعره تخميس ابيات ابن حجر .

امل يطول ومدة متقاصره وبصائر عميت وعين باصره
فالى متى يانفس ويحك صابره قرب الرحيل الى ديار الآخره
فاجعل الهي خير عمري آخره

فالعيش في الدنيا كلذة حالم وسواك يامولاي ليس بدائم
فلئن رحمت وانت اكرم راحم واليك مرجعنا بأمر حازم
وبحار جودك يا الهي زاخرة

يارب ان الدهر ابلى جلدتي وعصيت في جهل الشباب وحدتي
حتى اذا لعب المشيب بلمتي ناديتك اللهم اغفر زلتي
وارحم عظامي حين تبقى ناخره

ان كنت ترحم من مضت ايامه في لهوه حتى نمت آثامه
والعفو منك رجاؤه ومرامه فانا المسكين الذي ايامه
ولت بأوزار غدت متواتره

فبوجهك الباقي وعز جلاله ومحمد سر الوجود وآله
رفقاً بمن انت العليم بحاله فتوله باللطف عند مآله
يامالك الدنيا ورب الآخره

وفي تلك السنة مات بدمشق قاضي القضاة ولي الدين محمد بن شهاب الدين

احمد بن الفرفور الدمشقي الشافعي قال في الكواكب ولي قضاء قضاة الشافعية بدمشق ثم ولي قضاء حلب وبقيت عليه تولية المنصبين في زمن الدولة العثمانية ولم ينتقل عن منصبه ودفن بتربته التي انشأها شمالي ضريح الشيخ رسلان ورثاه جماعة من فضلاء دمشق . اقول انقرض رجال العلم في هـذه الاسرة ولم يبق الا بعض افراد صناع اصنام الفقر والجهل .

وفي تلك السنة مات بدمشق شمس الدين محمـد الوفائي الدمشقي الشافعي واعظ دمشق كان مجاوراً في خلوة بمدرسة الشميصاتية وانقطع بها .

وفي تلك السنة مات بدمشق شمس الدين محمد عبد الرحيم بن المنير البعلي ثم الدمشقي الشافعي كان يحترف بعمل الاسفيداج والسيرقون والزنجار ويبيع ذلك مع سائر انواع العطر وفي كل يوم يضع من كسبه من الدنانير والدراهم في اوراق ملفوفة واذا وقف عليه فقير اعطاه من تلك الاوراق ما يخرج في يده ولا ينظر في الورقة المدفوعة ولا في الفقير المدفوع اليه وكان كثير الصدقة معاوناً على البر والتقوى يعمر المساجد الخراب ويكفن ويجهز الفقراء وابناء السبيل وكان له مهابة عند الحكام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

وفي سنة تسع وثلاثين وتسعمائة مات بدمشق القـاضي عز الدين محمد بن حمدان الصالحي ثم الدمشقي الحنفي احد رؤساء المؤذنين بالجامع الاموي ناب في الحكم لعدة من القضاة منهم ابن يونس وكان على وقف كهف جبريل بجبل قاسيون اقول اين اليوم هذا الوقف لحق بامثاله في بطون الطامعين على مرور السنين والايام .

وفي تلك السنة مات بدمشق السيد تاج الدين عبد الوهاب الصواف الدمشقي الشافعي الشريف المقري قال ابن طولون المؤرخ الدمشقي الشهير سمع معي بمكة على محدثها الشيخ عز الدين وقت الحج وبدمشق على مؤرخهـا القاضي محيي الدين النعيمي وكان يقرأ للاموات وكان يدعو في المحافل ادعية لطيفة وكان صالحاً فقيراً ذا عيال دفن بباب الصغير وهو جد اسـرة آل الصواف بدمشق اليوم .

وفي تلك السنة مات بدمشق الحافظ صدر الدين عبد المعين بن عبد الوهاب الشهير بابن عساكر الدمشقي الشافعي (هو غير صاحب التاريخ المسند المحدث) كانت وفاته بدمشق ودفن بمقبرة الصوفية وقبره الآن داخل بستان الاعجام في جهة الشمال منه ملاصقاً للحائط .

وفي سنة اثنتين واربعين مات بدمشق القاضي جمال الدين يوسف الدمشقي ابن المنقار الحلبي الاصل الصالحي الحنفي ناب في القضاء عن قاضي القضاة ابن الشحنة قطن بصالحية دمشق ولي نظر المارستان القيمري ثم اثبت انه منسوب الى خلفاء العباسيين نقله في الكواكب وله ذرية كبيرة في حلب .

وفي سنة اربع واربعين وتسعمائة مات بدمشق الشيخ مبارك بن عبد الله الحبشي الدمشقي القابوني الصالح المربي . قال ابن المبرد في رياضه صار له مريدون يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من اراقة الخمور التي يراها وغيرها من المنكرات وقد توفق لابطال ذلك وقام على الاتراك حكام البلاد وقاموا عليه وقال ابن طولون قرأ على ابن قاضي عجلون وبنى له زاوية بالقرب من القابون التحتاني واقام هو وجماعته بها وكان هو وجماعته يترصدون الطريق على نقلة الخمور فيقطعون ظروفها ويريقونها فبلغ ذلك الحكام فقبض نائب الشام على بعض جماعة الشيخ وحبسهم في سجن باب البريد فنزل الشيخ ليشفع بهم فحبس معهم فأرسل شيخ الاسلام ابن قاضي عجلون يشفع فيه فاطلق ثم هجم بقية جماعته على السجن وكسروا بابه واخرجوا من فيه من رفقائهم فبلغ النائب فارسل جماعة من مماليكه فوقعت مقاتلة عظيمة عند باب البريد وقتل من الطرفين خلق كثير وحصل في ذلك الرعب في قلوب اهل الشام وسكرت البلد ثم امر الشيخ جماعته بملازمة الزاوية وعدم التعرض وبناء على توسط ابن قاضي عجلون ترك الشيخ الامر بالمعروف والتعرض الى الحكام وبقي متزوياً وهو الذي احدث اللهجة في الذكر ودفن بتربة القابون التحتاني .

وفي سنة ست وعشرين وتسعمائة مات بدمشق جمال الدين بن عبدالله بن

رسلان البويضي من قرية البويضة من اعمال دمشق الشافعي الشيخ الامـام العلامة كان رفيقاً للشيخ البلاطنسي توفي بالمارستان النوري .

وفي سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة مات بدمشق حسن ابن سليمان بن احمد الشيخ الفاضل بدر الدين الاسطواني الصالحي الحنبلي قال مؤرخ دمشق ابن طولون قرأ على شيخنا ابن ابي عمر الكتب الستة ولازم مدرسته وولي امامة محراب الحنابلة بالجامع الاموي من قبل الدولة العثمانية قال النجم في الكواكب نقلا عن شيخ الاسلام الوالد انه حضر بعض دروسي وشملته اجازتي وقرر في الكاملية ودفن بمقبرة باب الفراديس .

قال ابن طولون مؤرخ دمشق وفي سنة احدى واربعين وتسعمائة حضر قاضي مكة المكرمة وشيخ الحرم الشريف بها لدمشق وشربا القهوة المتخذة من البن عند الشيخ علي الكيزاني تجاه مسجد العفيف بالصالحية وسمعا المولد النبوي ولم اعلم انها شربت في بلدنا هذه يعني دمشق وقد تقدم في كتابنا نقل الاقوال عن القهوة وشربها واصل زرعها .

وفي سنة ثمان واربعين وتسعمائة مـات بدمشق شمس الدين محمد بن خليل الصمادي الدمشقي القادري الشيخ الصالح المعتقد العارف ولي الله بلا نزاع شيخ الطائفة الصمادية ورئيس اسرتها بدمشق وللناس فيه اعتقاد كبير خصوصاً اعيان الاتراك وامراءها وطلبه السلطان سليم خان الى القسطنطينية واجتمع به واعتقده اعتقاداً زائداً واعطاه قرية وكتب له استقر الامر على ان عين له قرية كناكر من اعمال قضاء وادي العجم بدمشق وغلالها والى الآن تستوفيه الصمادية بعضه لزاويته في محلة الشاغور وبعضه لذريته واشتهر امره وامر آبائه من قبل بدق الطبول عند هيمان الذاكرين واستفتي به شيخ الاسلام ابن قاضي عجلون والشمس بن حامد والبدر الغزي فافتوا باباحته قياساً على طبل الحج وطبل الحرب .

وفي سنة اثنتين واربعين وتسعمائة مات بدمشق شمس الدين ابو عبد الله محمد ابن يوسف الصالحي الدمشقي وكان يقول :

ان الكريم اذا بنى لم يرض هدم بنائه
واذا اقام صنيعة بقيت بطول بقائه

وفي سنة خمسين وتسعمائة مات بدمشق قطب الدين ابو عبدالله محمد بن عمر ابن سلطان الدمشقي الصالحي الحنفي مفتي الشام كان بيده تدريس القصاعية المختصة بالحنفية (واليوم درست وصارت بستاناً تعرف ببستان القصاع الذي كان موقوفاً لها كما سيأتي معنا في خلاصة الدارس في المدارس) وولي تدريس الظاهرية التي هي مسكنه والنظر عليها وكان له تدريس في الجامع الاموي وغير ذلك من المناصب وتولى قضاء مصر وكان يقول بتحريم شرب القهوة وصنف مؤلفاً في الفقه ورسالة في تحريم الافيون وكتاباً سماه البرق اللامع في المنع من البركة في الجامع وله الجواهر المضية في احوال السلطان سليم الفاتح للبلاد العربية (يوجد في مكتبة برلين احد عواصم الغرب) وقيل بقي له ذرية في مصر وله اقارب في طرابلس الشام دفن بباب الصغير في مكان مسقف معد لدفن العلماء وكان يترنم بقول الميداني صاحب كتاب الامثال في اللغة :

تنفس صبح الشيب في ليل عارضي فقلت عساه يكتفي بعذاري
فلما فشا عاتبته فاجابني ايا هل ترى صبحاً بغير نهار

قال الشاعر ايضاً :

احفظ مشيبك من عيب يدنسه ان البياض قليل الحمل للدنس

وفي سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة مات بدمشق شمس الدين محمد بن علي بن الفلوجي الدمشقي الشافعي الواعظ المقري اخذ عن البدر الغزي والتقي القاري والسعد الذهبي كان يعظ الناس تحت قبة النسر بالاموي عقب صلاة الجمعة في الاشهر الثلاثة ويفتي ويدرس في الشامية البرانية وام بمقصورة الحنفي في الجامع الاموي شريكاً للشهاب الطيبي وكان عارفاً بالقرآت دفن بباب الصغير وتأسف الناس عليه لأنه كان يحب الاصلاح بين الاخوان والتوادد الى الناس .

وفي سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة مات بدمشق ابو عبد الله محمد بن علي الشهير بابن طولون الدمشقي الصالحي الحنفي المسند المؤرخ ولد بالصالحية عند السهم الاعلى قرب مدرسة الحاجبية وقرأ على علماء عصره منهم ابو الفتح المزي وتفقه بعمه الجمال ابو طولون وولي تدريس الحنفية بمدرسة شيخ الاسلام ابي عمر (اقول كانت هـذه المدرسة في تلك العصور تخرج العلماء والمدرسين والقضاة والأئمة والخطباء والوعاظ شبيهة للازهر في مصر والزيتونة في تونس في هذا العصر) وإم بمدرسة السليمية بالصالحيـة وكانت اوقاته معمورة بالتدريس والافادة والتأليف وكتب بخطه كثيراً من الكتب الغريبة النادرة وغيرها من مؤلفاته وعلق ستين جزءاً سماها بالتعليقات وكتب كثيراً من تأليفات شيخه السيوطي وكان طويل الباع في غالب العلوم المشهورة حتى في التعبير والطب واخذ عنه جماعة من الاعيان كالشهاب الطيبي والنجم البهنسي خطيب دمشق وآخرهم الشيخ اسماعيل النابلسي مفتي الشافعيه هو من جدود العارف النابلسي الدمشقي والزين بن سلطان مفتي الحنفية والشهاب العيثاوي مفتي الشافعيةاوالشهاب بن ابي الوفا مفتي الحنابلة وله تاريخ نفيس سماه ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر وقد ذكرنا بعضاً من مؤلفاته في مقدمة كتابنـا هذا ولولا ضيق المقام لسردنا اسماء جميع مؤلفاته النفيسة دفن بتربتهم عند عمه القاضي جمال الدين بن طولون بالسفح قبلي الكهف والخوارزمية .

وفي سنة اربع وخمسين وتسعمائة مات بدمشق القاضي برهان الدين بن احمد الاخنائي الشافعي كان من الرؤساء ماسكا زمام الفقهاء احد قضاة العدل يلبس اجمل الثياب وافخرها ويركب حسان الخيل اخذ عن الكمال ابن حمزة وكانت له ديانة ومهابة ووقار دفن بتربته المعمورة له قرب جامع الجراح وكان يردد ابياتا اولها .

لولا رجائي ان الشمل يجمعنا ماكان لي في حياتي بعدكم طمع

والقصيدة طويلة من ارادها فليرجع اليها في الكواكب .

وفي سنة سبع وخمسين وتسعمائة مات بدمشق ابو اللطف الشمس محمد بن

خليل القلمي الدمشقي الشافعي امام جامع الجوزي بالقرب من قناة العوني كان فاضلا صالحاً زاهداً ورعاً كوالده الشيخ القلمي الشهير متعففاً يعتزل الناس ويخدم نفسه سالكا طريق السلف مؤثر خشونة العيش يلبس العباءة وله زاوية يقيم بها الوقت بذكر الله على طريقة حسنة وكانت له خطب بليغة ارتجالية نافعة ومواعظ من القلوب .

وفي تلك السنة مات بدمشق محمد بن حسن بن سليمان الشيخ ابو الفتح الاسطواني الحنبلي رئيس المؤذنين بالجامع الاموي واخبر الشيخ عبد القادر ابن سوار شيخ المحيا انه من الصالحين الاتقياء الذين ترجى بركة دعائهم دفن بالفراديس .

وفي تلك السنة مات بدمشق سعد الدين الانصاري ابن القاضي علاء الدين ابن محمد بن عبد الواحد الانطاكي ثم الدمشقي قال المؤرخ ابن طولون لازم شيخنا ابا العلاء وتولع بمقامات الحريري وعروض الاندلس وغير ذلك فحفظ غالب كتب الادب واللغة وتفرد بالادب .

كان يعرف اللسان التركي والفارسي وكان ساكناً بخلوة بمدرسة السميساطية دفن بالفراديس .

وفي سنة ستين وتسعمائة مات بدمشق عزالدين بن عبد العزيز الصناديقي الدمشقي الشيخ العارف دفن في جامع مسلوت في محلة خان السلطان خارج دمشق واسمه اليوم جامع عز الدين وقد اقام مدة في بيت سوار في قبر عاتكة .

وفي سنة اربع وستين وتسعمائة مات بدمشق محمد بن عمر بن سوار الدمشقي من سكان محلة قبر عاتكه الشافعي العبد الصالح الورع والد الشيخ الجليل عبدالقادر ابن سوار وشيخ المحيا بدمشق اخذ الطريق عن الشيخ عبدالهادي الصفوري وكان ينسج القطن ويأكل من كسب يمينه وما فضل من كسبه تصدق به ووزعه على الارامل والايتام قال الغزي في الكواكب اخبرني

بعض جماعته قال كان ربما يبدأ بشغل الشاش المعشرة اذرع بكرة النهار فيفرغ من نسجه وقت الغداء من ذلك اليوم.

ومن رجال ذاك العصر محمد ابن عبد العزيز الشهير بعميد زاده الدمشقي مفتيها وناشر لواء الافادة بناديها ومحيي من رسوم المدارس كل داثر بهـا ودارس وكان مدرس السليمانية وهو امام في الادب ومن قوله اللطيف :

لقد جار الزمان على بنيه   عليهم ضاق بالرحب البقاع
ترى الاشعار في الاسعار اغلى   وعلم الشرع اكسد ما يباع
فقد صارت جوائزهم عقوداً   وغايتها خماس او رباع
فكم من شاعر امسى عزيزاً   وقد اضحى له امر مطاع
وذي فضل ينادي في البوادي   اضاعوني واى فتى اضاعوا

وفي سنة ست وستين وتسعمائة مات بدمشق بدر الدين حسن بن يحيي بن المزلق الدمشقي الشافعي الواعظ قال الشيخ يونس العيثاوي كان من اهل العلم والديانة ولي تدريس الاتابكية بالصالحية دفن بتربة اهله خارج باب الجابية بدمشق ولهم بتلك الاراضي بستان كبير معروف وخلف كتبـاً كثيرة عظيمة لها قيمة تاريخية اشتراها جد الشيخ اسماعيل النابلسي .

وفي تلك السنة شنق بدمشق سنان القرماني نزيل دمشق قال في الكواكب هو والد احمد شلبي وحسن شلبي متولي عمارة السلطان سليم خان بصالحية دمشق وناظر اوقاف الحرمين بها ثم ولي نظارة المارستان ثم نظارة الجامع الاموي وانتقد عليه بانه باع بسط الجـامع وحصره وانه خرب مدرسة المالكية التي بقرب المارستان النوري وحصل به الضرر بمدرسة النورية فشنق بسبب هذه الامور .

وفي تلك السنة مات بدمشق الجعيدي شمس الدين محمد الدمشقي الشافعي رئيس دمشق في عمل الموالد كان من جملة محاسن دمشق التي انفردت بها قال الغزي في الكواكب وكان استفتى مصلح الدين العبادي السعدي الانصاري صاحب التآليف الشهيرة . هل اجتماع الدف والشبابة في السماع مبـاح ام لا .

فاجاب ان كلا منهما مباح فاجتماعهما مباح ايضاً واستند الى قول الغزالي في الاحياء ان افراد المباحات ومجموعها على السواء الا اذا تضمن المجموع محذوراً لا يتضمنه الآحاد ونقل قول البلقيني في تحريم النووي الشبابة لا يثبت تحريمها الا بدليل معتبر ولم يقم النووي دليلا على ذلك قال ابن الحنبلي وكان مصلح الدين قد حكم قبل هذا النقل باباحة الرقص ايضاً بشرط عدم التثني والتكسر في كلام مطول من شاء فليرجع اليه انتهى .

وفي سنة سبع وستين وتسعمائة مات بدمشق زين الدين منصور بن عبد الرحمن الحريري الدمشقي الشافعي خطيب السقيفة كانت له اليد الطولى في علم التفسير والعربية وكان صوفي المشرب رسلاني الطريقة اخذ عن جماعة منهم البدر الغزي قال ابن الحنبلي تعانى في الادب ونظم ونثر والف مقامة حسنة سماها لوعة الشاكي ودمعة الباكي ومن شعره اللطيف :

ظن بالناس جميلا ⁂ واتبع الخيرات تسمو
واجتنب ظناً قبيحاً ⁂ ان بعض الظن اثم

وفي سنة خمس وسبعين وتسعمائة مات بدمشق ابو الفتح محمد بن عبد السلام الربعي التونسي نزيل دمشق المالكي قال الغزي في الكواكب دخل دمشق قديماً وهو شاب فكان يتردد الى ضريح الشيخ محيي الدين ابن العربي واخذ عن شيخ الاسلام الوالد وكان فقيها اصولياً يفتي الناس على مذهبه وفتاويه مقبولة وله حرمة ووجاهة وله الباع الطويل في الادب والشعر الا انه كان متكيفاً باكل البرش والافيون لا يكاد يصحو منه وربما قرأ الناس عليه في علوم شتى وهو يسرد العبارة فاذا فرغ الطالب من قراءة المقالة فتح عينيه وقرر العبارة احسن تقرير وكان على مذهب الشعراء من التظاهر بمحبة الاشكال اللطيفة والصور الحسنة حتى حام حول الحمى رمي واتهم وكان هجاء يتفق له النكات في هجائه وشعره وكان يقع في حق العلماء واكابر الرجال واذا وصله من احدهم نوال مدحه واثنى عليه وكانوا يخافون من لسانه وولي القضاء بالمحكمة الكبرى بدمشق زماناً طويلا وتقلد اكبر الوظائف الدينية وحمل عنه

الناس العلم وانتفعوا به وممن تخرج به في الشعر والعربيه العلامة شاعر دمشق الشيخ درويش بن طالو مفتي الحنفية بها ومن شعره مؤرخاً عمارة الحمام الذي بناه مصطفى باشا تحت قلعة دمشق قوله (حمامك اصل راحة الاجسام) ونقل عنه ايضاً قوله :

وانكد الناس عيشاً من يكون له   نفس الملوك وحالات المساكين

وفي سنة احدى وثمانين وتسعمائة مات بدمشق شهاب الدين احمد الطيبي الشافعي اخذ عن الكمال ابن حمزة وغيره واجازوه وعني بالحديث والقراآت فصار ممن يشار اليه فيها وكان اماماً في الجامع الاموي محدثاً فاضلا عديم النظير وبالجملة فكان احد مشايخ دمشق وعلمائها وصدورها .

وفي سنة اثنين وثمانين وتسعمائة مات بدمشق الفلوجي المحدث شهاب الدين احمد ابو العباس الحموي الاصل ثم الدمشقي الشافعي واعظ الشام ومفتيها قبره معلوم بباب الصغير .

وفي تلك السنة مات بدمشق تاج الدين امام الحنفية بالجامع الاموي كان قد اشتغل على شمس الدين ابن طولون وتصدر للتدريس بالجامع المذكور وتولى خطابة جامع السليمية وامامة الحنفية بمقصورة الاموي كان جهوري الصوت له تهزات في القراءة وربما انقطع نفسه فوقف في غير حد الوقف حتى مر به الشهاب الشبي امام الشافعية فسمعه يقرأ في سورة النمل فوقف على انا من قوله تعالى قال عفريت من الجن انا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك فانشد الشهاب الطيبي :

قد رأينا عجباً مذ زمناً   من امام جنسه من جنّنا

كان يقرا في صلاة علناً   قال عفريت من الجن انا

وفي تلك السنة عمر درويش باشا الوزير حاكم دمشق ومتولي امرها جامعاً بدمشق المحروسة على جادة الطريق الملقب سابقاً بوادي الزهور فجعل له تاريخاً .

في دولة السلطان بالعدل مراد   من قام بالفرض واحيا السنة

دَرويش باشا قد اقام معبدا وكم له اجر به ومنة
بناه خير جامع تاريخه لله فاسجد واقترب بجنة

يأتي معنا ذكره في باب المساجد والمعابد.

وفي سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة مات بدمشق السيد تاج الدين عبدالوهاب السلطي ثم الدمشقي نقيب السادة الاشراف بدمشق لم يكن له فضيلة علم زائدة غير انه كان يخالط الحكام تولى نظارة مدرسة القيمرية ثم صار ناظر الاموي ثم ترقى وتولى نظر النظار وحصلت له ولوالده السيد محمود محنة وشدة سافرا الى الروم وصرفا اموالا كثيرة بسبب مضاهاتهما للقاضي كمال الدين الحزاوي .

وفي سنة اربع وثمانين وتسعمائه مات بدمشق بدر الدين محمد بن القاضي رضي الدين محمد بن جابر الغزي العامري القرشي الشافعي شيخ الاسلام بحر العلوم قال ولده النجم صاحب الكواكب السائرة قرأ القرآن برواية العشرة ثم لزم في الفقه والعربية والمنطق على والده وقرأ ايضاً قبل بلوغه على ابن قاضي عجلون ولزم العزلة عن الناس في اواسط عمره لا يأتي قاضياً ولا حاكما ولا كبيراً ولا اميراً بل هم يقصدون منزله للعلم والتبرك وطلب الدعاء واذا قصده قضاة البلاد او نائب البلد لا يجتمع به الا بعد اذنه وكان يحب الصوفية ويكرمهم واما تصانيفه فبلغت مائة وبضعة عشر مصنفاً من اشهرها التفاسير الثلاثة المنظومات واشهرها المنظوم الكبير في مائة وثمانين الف بيت وحاشيتان على شرح المنهاج للمحلي ومنظومة في خصائص النبي صلى الله عليه وسلم ومنظومة في خصائص يوم الجمعة وشرحها وغير ذلك من المصنفات النفيسة الفريدة المفيدة ومن شعره اللطيف قوله .

اله العالمين رضاك عني وتوفيقي لما ترضى مناي
فحرماني عطائي ان ترده وفقري ان رضيت فذا غناي

ومن شعره ايضاً :

بالحظ والجاه لا بفضل في عصرنا المال يستفاد

كم من جواد بلا حمار وكم حمار له جواد

ومن شعره :

وحق المصطفى لي فيه حب اذا مرض الرجاء يكون طبا
ولا ارضى سوى الفردوس مأوى اذا كان الفتى مع من احبا

وله ايضاً :

ولما انقضى شهر الصيام بفضله تجلى هلال العيد من جانب الغرب
كحاجب شيخ شاب من طول عمره يشير لنا بالرمز للاكل والشرب

وقال احد الشعراء مؤرخاً لوفاته :

ابكى الجوامع والمساجد فقد من قد كان شمس عوارف التمكين
وكذا المدارس اظلمت لما اتى تاريخه بخفاء بدر الدين

وفي سنة ست وثمانين وتسعمائة مات بدمشق شمس الدين محمد بن رجب البهنسي الاصل الدمشقي المولد والمنشأ والوفاة شيخ الاسلام تفقه بالقطب بن سلطان وبه تخرج لانه كان يكتب عنه الفتوى لان القطب كان ضريراً ثم افتى استقلالا واشتغل في بقية العلوم وولي خطابة الاموي ودرس به وكان من افراد الدهر واعاجيب العصر دفن بباب الصغير .

وفي تلك السنة مات بدمشق عماد الدين محمد الدمشقي الحنفي العنابي الاصل نسبة الى محلة قديمة بدمشق كانت تسمى بهذا الاسم قال المؤرخ ابن طولون ان بيتهم القديم كان في محلة العنابة وكذلك غالب اعيان الشام وعلمائها كانوا يسكنون بها وكان العمار من باب توما الى جسر تورا وقد خرب كل ما فيها واندرس حتى الحمامات والخانات والمدارس وصارت ارضها بساتين (ثم الآن في عصرنا هذا رجعت الى حالتها الاولى والتاريخ يعيد نفسه وقد بني الآن في تلك المحلة الدور اللطيفة والمساكن الظريفة والخانات والدكاكين ورجع البياعون الى السكن بها واختص بذلك المحل وسكناه اعيان المسيحيين واكارهم وبها القهاوي والمتنزهات) قال النجم في الكواكب قرأ النحو والعروض والتجويد على الشهاب الطيبي وتفقه على الشمس البهنسي وتصدر للتدريس

بالجامع الاموي ودرس بمدرسة الريحانية والجوهرية والخاتونية والناصرية وقرأ عليه الفضلاء والنواب وكان في ابتداء امره فقيراً ثم حصل دنيا كبيرة ونال وجاهة وثروة عظيمة ومن شعره تاريخ في عرس .

هنأتكم بعرسكم والسعد قد خولكم
وقد اتى تاريخه نساؤكم حرث لكم .

وفي سنة سبع وثمانين وتسعمائة مات بدمشق العلامة ابن سكيك المؤرخ الدمشقي الشهير .

وفي تلك السنة مات حاكم الشام درويش باشا تولى ايالة الشام وعمر بها الجامع عند باب الجابية على الطريق وعمر الحمام داخل المدينة بالقرب من الاموي ويعرف بحمام القيشاني وقد زال اثره في زماننا واقلب سوقاً للتجار وعمر القيسارية والسوق والقهوة ووقف ذلك فيما وقفه على جامعه وشرط تدريسه للشيخ اسماعيل النابلسي وكان خصيصاً به وعمر الجسر على نهر بردى عند عين القصارين بالمرج الاخضر الموجود الى يومنا هذا ومات ببلاد قرمان وحمل تابوته الى دمشق فدفن بها .

وفي سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة مات بدمشق القاضي زين الدين عبدالرحمن ابن محمد بن احمد الفرفور الحنفي كان فاضلاً شاعراً بارعاً ومن شعره

اترك الدنيا لناس زعموا ان فيها مرهم القلب الجريح
ذاك ظن منهم بل غلط آه منها ماعليها مستريح

وفي سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة مات بدمشق الشيخ اسماعيل بن احمد الحاج ابراهيم النابلسي الشافعي قال في الكواكب هو شيخ الاسلام ومفتي الانام استاذ العصر ومفرد الوقت تصدر للافتاء والتدريس وصار اليه المرجع ودرس بالجامع الاموي ثم بدار الحديث الاشرفية والشامية والبرانية ودرس بالدرويشية بشرط واقفها وكانت دروسه حافلة لصفاء ذهنه وطلاقة لسانه وحسن تقريره ودفن بمقبرته التي انشأها شمالي باب الصغير بالقرب من جامع الجراح ولتلميذه مفتي القدس شعر لطيف في اوقات النوم نقلناه من ترجمته لفائدته .

النوم بعد صلاة الفجر غيلوله فقر وعند الضحى فالنوم فيلوله
وهو الفتور وقبل الميل قيل له اذ زاد في العقل اي بالقاف قيلوله
والنوم بعد زوال بين فاعله وبين فرض صلاة كان ميلوله
وبعد عصر هلاكاً مورثاً وكذا كنقلة العقل بالاهمال عيلوله

وفي سنة اربع وتسعين وتسعمائة مات بدمشق شمس الدين ابو مسلم محمد بن خليل الصمادي الدمشقي القادري الشافعي قال النجم في الكواكب وكان من امثل الصوفية في زمانه وله شعر في طريقتهم وافتى شيخ الاسلام الوالد وابن قاضي عجلون باباحة طبولهم في المسجد وغيره قياساً على طبول الجهاد والحجيج لانها محركة للقلوب الى الرغبة في سلوك الطريق دفن بزاويتهم داخل باب الشاغور وهو من اهل الحسب والنسب وله مكاتبات مع غرس الدين الخليلي صاحب كتاب كشف الاحاديث الدائرة على السن الناس .

وفي سنة خمس وتسعين وتسعمائة مات بدمشق الشيخ عثمان الرفاعي منسوب الى الامام الرفاعي وهو مدفون بمقبرة سوق ساروجه على الطريق السلطاني مشهور يزار والناس فيه اعتقاد وخصوصاً النساء الى يومنا هذا قال في الكواكب له مناقب وحكايات تدل على ولايته .

وفي سنة تسع وثمانين وتسعمائة مات بدمشق السيد علاء الدين علي بن محمد كمال الدين بن حمزة نقيب الاشراف بدمشق قال في الكواكب كان مواظب دروس شيخ الاسلام والدي ومن اذكياء الناس له قبول تام ومباسطة في الكلام صاحب نكتة ونادرة لطيف المعاشرة وكان نائباً شافعياً بباب القاضي في المحكمة الكبرى بعد تنقله من محكمة العونية كان يقول الاكل في آنية الصيني يجلب السرور انتهى ملخصاً .

وفي سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة توفيت بدمشق عائشة بنت يوسف بن ناصر الباعوني المعروفة والمشهورة بالباعونية الشيخة الصالحة الاديبة العالمة العاملة والمنعوتة بام عبد الوهاب الدمشقية هي احد افراد الدهور ونوادر الزمان والعصور فضلاً وادباً وعلماً وشعراً وديانة وصيانة تنسكت على يد

السيد الجليل اسماعيل الخوارزمي ثم على خليفة المحيوي الشيخ يحيي الاموري ثم حلت ورحلت الى القاهرة ونالت من العلوم حفظاً واقراء واجيزت بالافتاء والتدريس ولها عدة مؤلفات منها فتح الحنفي يشتمل على كلمات لدنية ومعارف سنية وكتاب الملائح الشريفة يشتمل على اشادات صوفية ومعارف ذوقية وكتاب الاشارات الخفية في المنازل العلية وارجوزة لخصت منها القول البديع في الصلاة على الشفيع للسخاوى ومن شعرها هذه الابيات في مدح دمشق .

نزه الطرف في دمشق ففيها كل ما تشتهي وما تختار
هي في الارض جنة فتأمل كيف تجري من تحتها الانهار

ثم قالت :

كم سما في ربوعها كل قصر اشرقت في وجوهها الاقمار
وتناغيك بينها صارخات خرست عند نطقها الاوتار

وهي قصيدة طويلة قال في الكواكب ولها ايضاً قصيدة طويلة غراء في مدح دمشق وختمت مدحها بقولها .

كلها روضة وماء زلال

. وذكر ابن الحنبلي انها دخلت حلب الشهباء في هذه السنة والسلطان الغوري بها لمصلحة كانت عنده فاجتمع بها من وراء حجاب البدر السيوفي وتلميذه الشمس محمد السفيرى وغيرهما من اكابر علماء حلب وشيوخها ولها في مدحهم ووصف حلب والغزل فيها اقوال واشعار رقيقة لامحل لنقلها لانها ليست من موضوع كتابنا ثم عادت الى دمشق وتوفيت بها ودفنت بالصالحية وروى عنها بعض حملة الاخبار انها قالت روى ان عيسي عليه السلام خرج يوماً فلقيه عدوالله ابليس وبيده عسل وفي الاخرى رماد فقال له عليه السلام ماتفعل ياعدوالله بهذا العسل قال اضعه على شفاه المغتابين حتى يخوضوا فيه وارمد وجه اليتامى حتى يبغضهم الناس انتهى .

• • •

اقتطفت قسماً من اسماء تراجم رجال القرن الحادي عشر من كتاب قطف الثمر واقتفيت الاثر بأخذ بعض تراجم الدمشقيين من تاريخ المحبي الذين يهم القارىء معرفتهم .

وفي سنة ثلاث بعد الالف مات بدمشق عبد الكريم مدرس السليمانية بدمشق والمفتي الحنفي بها كان عليه جلالة العلم وسكينة الفضل يقتدي في الصلاة في اكثر اوقاته بائمة الشافعية حج وترك شعر رأسه بعد حلق النسك فلم يحلقه ثم صار يضفره وكان مقبولاً عند الناس مسموع الكلمة .

وفي سنة اربع بعد الالف مات بدمشق محمد بن السيد الشريف كمال الدين بن عجلان الميداني الشافعي شيخ مشايخ الحرف الرفاعي طريقة هو والد نقيب الاشراف كان عبداً صالحاً حسن الاخلاق ياكل من كسب يمينه .

وفي تلك السنة مات بدمشق اكمل الدين محمد بن القاضي برهان الدين ابن مفلح الحنبلي المعروف بالقاضي اكمل كان شاهد عدل في المحكمة يحب النزه والخروج الى السير وصارت له محنة ولرفقائه في بعض الاعياد .

وفي سنه خمس بعد الالف مات بدمشق محمد بن بركات الدمشقي الشيخ العلامة شمس الدين بن الكيال الشافعي كان همه قراءة العلوم الغريبة والتي يقال عنها العلوم العصرية اليوم وتصدر لقراءة الدروس واخذ تدريس مدرسة الشامية البرانية بعد ان استقرت على الشيخ اسماعيل النابلسي فلم يتيسر له ذلك لكون القضاة كانوا يعرفون النابلسي وفضله اما بالمشاهدة او بالسماع ثم ولي بعد والده نيابة النظر بالشامية البرانية وتولية الظاهرية ودفن بتربة بيت الكيال مع والده بباب الصغير .

وفي تلك السنه مات بدمشق محمد بن محمد بن عبد الرحمن ابن الفرفور كان من الشعراء واكابر البلغاء قال صاحب كتاب قطف الثمر حضر درس شيخنا محب الدين الحنفي ولي نظارة اوقافهم له شعر لطيف منه قوله :

اذا اراد الآله امراً قضاؤه في النفوذ مبرم
فوضت أمري وقلت خيراً مادفع الله كان اعظم

وفي تلك السنة مات بدمشق محمد بن محمد بن حسين شمس الدين القبيباني الشهير بابن سعد الدين الجباوي الشافعي تولي مشيخة بني سعد الدين وتصدى لتلقي الصوفية والزوار والمريدين والوارد من المتبركين استعد للناس بالنفائس من الاطعمة وله سماط عظيم كسماط معاوية وامراء العرب في البادية وكان اخوه الشيخ ابراهيم يجعل حلقة ذكر في كل جمعة في الجامع الاموي وعلت كلمتهما في الميدان بل بدمشق حتى نشأ لهما ولدان هما عيسى بن محمد وكمال الدين بن ابراهيم وحصلت بينهما مشاجرات نفسانية ادى الامر لمداخلة الحكام ثم استقل الاكبر في المشيخة ومن بعدهما اغلق باب الكرم بدمشق ودفنا بتربة السيد تقي الدين الحصني ابو بكر .

وفي سنة ثمان بعد الالف مات بدمشق رئيس الاطباء بها محمود بن يونس الشيخ شرف الدين الطبيب شيخ الاطباء وخطيب الخطباء الاعرج الحنفي قرأ على كثير من العلماء بفنون كثيرة وفي الطب على ابيه وفي القرآت والتجويد على الشهاب الطيبي وولي امامة الحنفي في المقصورة بالاموي سنين ثم فرغ عنها لكثرة اشغاله للشيخ ناصر الدين الرملي وولي بعدها خطابة الاموي شركة الامام يحيي البهنسي ثم جاء بحكم سلطاني ان لايخطب العيدين الا هو مات في الطاعون (اقول كما اختص في زماننا بخطبة عيد الفطر بنو الخطيب واختص بخطبة عيد الاضحى بنو المنيني) .

وفي تلك السنة مات بدمشق محمد شمس الدين بن فواد كان من افاضل دمشق وعلمائها البارعين لقي العلماء واخذ عنهم وكان يجتمع اليه العوام بالجامع الاموي وغيره فيأخذون عنه ويحدثهم بالحقائق وكان يجلس في بيوت القهوات كثيراً ويجتمع مع طبقات الناس فيها ويرجعون في حل المشكلات اليه .

وفي تلك السنة مات بدمشق ابراهيم بن محمد برهان الدين العمادي الحنفي المعروف بابن كسباي شيخ القراء بدمشق كان فيه دعابة ومزاح ويغلب عليه التنفل ولي تدريس الاتابكيه وخطبة جامع سيباي .

وفي سنة تسع بعد الالف مات بدمشق احمد بن محمد الصفوري الاصل

الدمشقي المولد المعروف بابن عبد الهادي العمري الشافعي الفقيه النبيل من بيت معروف بقرية الصفورية لهم من الصلاح والعلم خرج منهم فضلاء جمة ينسبون الى سيدنا عمر بن الخطاب واول من قدم منهم الى دمشق محمد والد صاحب الترجمة فقطن بقرية عقربا من ناحية الغوطة ثم انتقل بعض من اولاده الى دمشق .

وفي سنة اثنتي عشرة والالف مات بدمشق محمد بن نجم الدين الصالحي الملقب بشاعر دمشق رافق الشيخ اسماعيل النابلسي وله درس بالجامع الاموي كل عشية في الاحياء والتفسير الهلالي المشهور فرد الزمان واوحد الأوان في دمشق وبلاد الروم .

وفي سنة سبع بعد الالف مات بدمشق احمد بن محمد شهاب الدين الشويكي الحنبلي الدمشقي ولي نيابة القضاء وكان من افضل الحنابلة وذا كام وكان له محاورة وفيه مزاح لطيف وتواضع الا انه كان يرد الزوجة الى زوجها بعد وقوع الطلقات الثلاث على مذهب ابن تيمية خفية ثم كان يظهر امره وينكر عليه شيخ الاسلام احمد ابن ابي الوفا مفتي الحنابلة وغيره والزموه الحجة بمنعه عن اجراء ذلك وكان يحكم ببيع الاوقاف .

وفي سنة اربع عشرة والالف مات بدمشق عبد القادر بن محمد سوار العاتكي شيخ المحيا بدمشق كان والده من الصالحين يأكل من عمل يده في الحياكة كما تقدم في ترجمته كثر مريدوه وانتفع به خلق كثير قال ابن طولون المؤرخ الدمشقي احيا ذكر ابائه واجداده اشتهر في البركة والادب والصلاح .

وفي تلك السنة مات درويش بن محمد ويقال ابن احمد الشهير بابن طالوى الحنفي احد افراد الدنيا فضلاً وادباً وشعراً وفصاحة وبلاغة وكان اول امره يلبس لباس الجند على طريقة اهله لازم شيوخ عصره وقرأ عليهم الادب والرياضيات والمنطق والحكمة والتصوف وغيرها من العلوم العقلية والنقلية اكتسب فنوناً عديدة وكان على لطائف الاسمار ومحاسن الاخبار حتى صار الاعجوبة في الكمال ونادرة في محاسن الخلال تفقه على النجم البهنسي خطيب

دمشق ومفتيها والتفاسير على البدر الغزي وولي تدريس الخاتونية مع نيابة القضاء بدمشق وفي نهاية امره تولي تدريس السليمانية وافتاء دمشق وله شعر رائق يحو فيه نحو المتنبي والرضي ومهيار ولا يقصر عن جزالة شعر حسان يأتي معنا شيء منه في كتابنا هذا في الخاتمة دفن بمقبرة باب الصغير قال المحبي في تاريخه ان والده رومي قدم الى دمشق في صحبة السلطان سليم وكان خادماً لبعض اتباعه فتزوج ام درويش وهي عتقا بنت الامير علي بن طولون وله كتاب سانحات جمع اشعاره فيه وله في مدح دمشق شعر كثير ومن قوله يتشوق اليها .

على الشام مني كلما هبت الصبا سلام كمنشر الروض طاب له نشر
بلاد كانفاس الشمول شمالها وتربتها مسك وحصباؤها در

ونقل عن السانحات :

دمشق فلي شوق اليها مبرح وان لام واش او الح عذول
بلاد بها الحصباء در وتربها عبير وانفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق وصح نسيم الروض وهو عليل

وفي تلك السنة مات بدمشق عبدالرحيم بن محمود بن ابي الفتح الاسطواني الحنبلي رئيس المؤذنين بالجامع الاموي كان حسن الصوت لطيف الذات يلف العمائم لاصحابه وكان قد انقطع لخدمة المربي الشيخ محمد بن سعدالدين الجباوي يقف هو واخوه امين الدين وبعض وجوه الناس في الاعياد وغيرها من المهمات وكان الشيخ متجملاً بهم وسافروا معه الى الحج وزيارة بيت المقدس .

وفي سنة تسع عشرة والف مات بدمشق محمد بن موسى بن عفيف الدين ابن الشيخ شرف الدين القابوني سبط شيخ الاسلام شهاب الدين احمد الطيبي عرف بجده لانه ملازم له كان خطيب جامع منجك ومسجد الاقصاب ثم ولي امامة الشافعية بمقصورة الجامع الاموي بعد موت خاله .

وفي تلك السنة مات بدمشق عيسى بن محمد سعد الدين الجباوي الميداني

الشافعي لم يكن لابيه غيره وهو عزيز عنده وكان لايخالفه فيما يريده وكان يجتمع اليه اصحابه فيقدم له والده مايكفيهم من نفائس الاطعمة وانواع الاكرام بالغاً ما بلغ واذا خرج للتنزه معهم بعث اليهم مايكفيهم مات في حياة والده .

وفي تلك السنة مات بدمشق عيسى بن مسلم بن خليل الصمادي الشافعي القادري الشاغوري كان مسرفاً في الصرف يحب ركوب الخيل بحيث ان عزة الشباب اخذت منه بكل مأخذ في حال كبره صار قدوة ذا كرامات مشهورة واحوال وقبول عند الناس واشتهرت الطبول الصمادية في زمانه واختلفت العلماء بها هل تحل ام لا . واجاب اكثرهم بالحل قياساً على طبل الجهاد لتهييج القلوب .

وفي سنة ست عشرة والف مات بدمشق محمد بن ابي بكر الملقب محب الدين ابو الفضل العلواني الحموي الدمشقي جد ابي شامة الشامي فرد الزمان وفريدة عقد الادب تفرد في عصره بمعرفة الفنون خصوصاً التفسير والفقه والنحو والمعاني والفرائض والحساب والمنطق والحكمة والفنون الغريبة والف المؤلفات منها حاشية على التفسير والهداية والدرر والغرر ومنظومة في الفقه سماها عمدة الحكام وله شرح شواهد الكشاف وشرح منظومة القاضي ابن الشحنة في المعاني والبيان وكانت سنه اذ ذاك ست عشرة سنة قرأ على والده الى ان تنبل وانتفع به افاضل دمشق منهم الشمس الميداني وعبد الرحمن العمادي المفتي والنجم الغزي واخوه ابو الطيب وعبد اللطيف الخالقي والشيخ ايوب الخلوتي .

وفي سنة تسع عشرة والف مات بدمشق يحيى بن محمد المعروف بابن النقار الدمشقي الحنفي كان فقيهاً يستحضر فقه الحنفية ويحفظ نقوله ونصوصه تقدم معنا تراجم بعض اجداده .

وفي تلك السنة مات بدمشق احمد بن يوسف سنان المعروف بالقرماني الدمشقي صاحب التاريخ المشهور عمر بيتاً وحديقة بمحلة الجسر الابيض من الصالحية تهرع اليه القضاة والامراء كان محققاً في التاريخ من اخبار

الدول وآثار الاول نقل عنه كثير من المؤرخين حتى جامع هذا الاثر .

وفي سنة احدى عشرة والف مات بدمشق محمد بن محمد الشيخ العالم الجواد المنعوت الشريف محب الدين الشهير بتقي الدين الحصني الشافعي كان ورعاً متقشفاً ملازماً للاعتكاف بمسجد وزاوية الحصنية بمحلة المزاز من الشاغور البراني من دمشق وكان محافظاً على عمارة مطبخ آبائه بخان الكشك المقابل لخان ذي النون بالقرب من قرية الخبارة خارج دمشق باصلاح الطعام في كل عام وكان سخياً لا يمسك شيئاً فكان بسبب ذلك يتلف اجور الاوقاف المتعلقة به فتنقص بسبب ذلك وكان يستدين كثيراً ولا يقطع كرمه وكثير سامحوه بعد موته لسخائه وقد ذكره المحبي في تاريخه انه مات في شهر رمضان وله حفدة ومريدون كلهم عالة مباركة عليه ثم قال وبنو الحصني بالشام اشهر من كل مشهور وهم بيت شرف وعلم بارك الله فيهم من قوادمهم الى خوافيهم وجدهم التقي شيخ الشافعية بالشام في عصره واوحد زهاد زمانه المشهور بسمو قدره تميز بهم الفاضل من المفضول فالتعرض لشرح احوالهم ضرب من الفضول انتهى كلامه بتصرف وقد قيل في تاريخ وفاته :

ان الشريف محمد القطب الذي يدعى محب الدين للاخرى انتقل
ان تسألوني اين حل فأرخوا في وسط جنات النعيم قد نزل

وفي سنة احدى وعشرين والف مات بدمشق محمد بن تقي الدين بن عباده ابن هبة الله الشافعي الحلبي الاصل ثم الدمشقي الشهير بالفرضي احد العلماء الاعلام كانت العلوم نصب عينيه وكان يقرئ بمكتب جامع الدرويشية وكان رئيساً في الهندسة والهيئة والحساب والفرائض وله تصانيف حسنة منها شرح النزهة فيه كثير من الالغاز وفوائد بهية وشرح المنهاج وشرح منظومة الجعبري في الفرائض دفن بباب الصغير قال العلامة الداودي في مجموعته وقد زارني في منزلي وانشدني من لفظه بقصيدة طويلة مطلعها :

فيا فاضلا طال الانام بفضله وقصر عن مقداره كل ذي جد

وفي سنة اربع وعشرين والف مات بدمشق الحسن بن محمد البوريني الشافعي كان فريد وقته في الفنون صنف التصانيف البديعة منها حاشية على المطل وشرح ديوان ابن الفارض وتحريرات على تفسير البيضاوي وله تاريخ عظيم وله رحلة حلبية ورحلة طرابلسية وله رسائل كثيرة وجمع ديوان من شعره كان ذكي الطبع متين الحفظ دفن بمقبرة باب الفراديس .

وفي تلك السنة مات بدمشق ناصر بن الشيخ ناصر الدين الرملي امام الحنفية بالمقصورة بجامع دمشق اخذ الفقه عن علماء عصره والقراآت عن الشيخ ابن الطبي وكان خطيباً بالجامع الجديد خارج باب الفراديس المعروف بالمعلق وولي خطابة السليمية بالصالحية وكان له جرأة وخفة في العقل وكان يأخذ الحكام لبيوت الاكابر وكانت قراءته بجودة جهوري الصوت ليس فيه حسن .

وفي تلك السنة وقيل في سنة خمس وعشرين والف مات بدمشق محمد بن محمد شمس الدين بن السيد كمال الدين بن عجلان نقيب الاشراف بدمشق وكان قبل ذلك كأبيه شيخ مشايخ الحرف والصنائع وكان صاحب المنصب قديماً يعرف سلطان الحرافيش ثم كني عنه احتشاماً بالاشراف وبنفس شيخ المشايخ ثم لما مات النقيب السيد محمد وجهت النقابة لاحد ابناء حمزة فسلك فيها مسلكاً حسناً وتلطف بالاشراف وعاملهم بالاكرام والكرم والمساعدة في الامور المهمة التي تنوبهم وعف عن الضرائب من اموالهم وتصدى لهم بالاحسان وجمع شملهم ووحد كلمتهم واعان فقيرهم واخذ بيد المظلوم منهم مما دل على صحة نسبه وشرفه واما صاحب الترجمة فانه كان مباركاً سيداً شريفاً اشتهر بالكرم وحسن الخلق

وفي تلك السنة مات بدمشق محمد بن عمر الشيخ الصالح ولي الدين بن زين الدين ابن شيخ الاسلام شمس الدين الكفرسوسي الشافعي احد الوعاظ بدمشق وهو منسوب لقرية قريبة منها دفن بتربة باب الفراديس عند ابيه وجده .

وفي سنة ست وعشرين والف مات بدمشق عبد اللطيف بن عبد المنعم القاضي زين الدين المعروف بابن الجابي الشافعي كان ابوه تاجراً لازم الشهاب الطيبي حتى فاق على اقرانه وتقلد وظيفة الوعظ وكان ابن الطيبي فرغ له عن خطابة التبريزية ثم تقلد نيابة القضاء بدمشق .

وفي سنة ثمان وعشرين والف مات بدمشق حسن الديرعطاني من ديرعطية قرية تابعة النبك من اعمال دمشق جاور بالجامع الاموي وكان ينكر على السوقة وبيعهم المآكل الطيبة النفيسة ويقول انهم يكدرون على الفقراء عيشهم وكان لايقتات الا الخبز ويتأدم بالخل والزيتون ذكره المحبي وانه يميل الى الجذب والمكاشفات .

وفي سنة تسع وعشرين والف مات بدمشق عبد الله بن محمود العباس وهو من ذرية آخر الخلفاء العباسية المتوكل على الله وكان قاضي القضاة بدمشق حسن السيرة .

وفي سنة احدى وثلاثين والف مات بدمشق ابو بكر بن احمد الدمشقي المعروف بابن الجوهري الاديب الشاعر احد المجيدين في الصناعات الدمشقية وهو الذي صنع شبابيك القماري الثلاثة المظلمات التي فوق محراب الحنفية بجامع الاموي ولما دخل السلطان سليم كان هو الذي انتخب لاستقباله وله مسجد بالقرب من البيمارستان النوري تقضى عليه الدهر ووقع بيد الظالمين الطامعين وقيل ان بعض ذريته انتقلت الى صيدا في الساحل . اقول وقد بقيت هذه العائلة هناك واشتهر امرها وصارت من اركان واكابر تلك البلاد ولهم ذرية كبيرة اعرف منهم محمود افندي الجوهري رئيس البلدية اجتمعت به في عاصمة دار الخلافة قبل انقلاب الدستور .

وفي سنة ثلاث وثلاثين والف مات بدمشق شمس الدين محمد بن يوسف الميداني الشافعي الامام العلامة عرف بابن ختوش كان ابوه يبيع العباة وغيرها تحت قلعة دمشق الا ان الله تعالى اراد بولده خيراً فنفع فيه الناس

وتصدر للتدريس فاجتمع عليه الخلق طبقة بعد طبقة نحو اربعين سنة وكان اعظم معلوماته الفقه وكان لا يتواضع مع رفقائه العلماء الافاضل ويتواضع مع العوام والاسافل بهذا السبب مكث سنين والناس يقبلون عليه ولم يجعل له نصيب في الوظائف اصلا حتى ظفر بعض تلاميذه بالوظايف العاليـة وهو محروم منها لانه كان يتكبر على القضاة والحكام والاكابر الموجودين اذ ذاك .

وفي تلك السنة مات بدمشق محمد شمس الدين التنوري الميداني الفرضي الحيسوب الشافعي انتهى اليه علم الحساب حتى صار مشهوراً قصدته الطلبـة ورحلت اليمن بعض المراجع وكان مهتما بعمل الكيمياء وكان له حسن اعتقاد وبرع في علم الطب عن عمه يحيى انتفع الناس بحذاقته ومعارفه .

وفي تلك السـنة مات بدمشق نور الدين الزكـاوي له الاشارات الى اماكن الزيارات في ذكـر الصحابة والعلماء المدفونين في دمشق يوجـد في مكتبة برلين .

وفي تلك السنة مات بدمشق عبدالغني ابن اسماعيل الشهير بالنابلسي الدمشقي الشافعي وقد تقدم معنا ترجمة والده وبعد وفاته توجهت اليه وظائف ابيـه منها تدريس جامع الدرويشية المشروط له من قبل الواقف ولذريته من بعده . وهو جد العارف النابلسي الذي يأتي معنا ذكره في القرن الثاني عشر .

وفي تلك السنه مات بدمشق علي بن محمد الشيخ علاء الدين بن ناصر الدين الطرابلسي الحنفي امام الحنفية بمقصورة الجامع الاموي وابن امامهم كان حسن الصوت في قراءته الا انه ربما تكلف او تعسف وكان له تجسس لاخبـار الناس الاكابر لحضور طعامهم وكان وحيداً في علم الفرائض الف فيه كتـاباً سماه سكب الانهر في الالغاز العلائية والمقدمة في التجويد وله تركيب غريب في التاريخ الهجري ذكره المحبي في تاريخه وحله حلا لطيفاً يهم اهل الذوق والادب من رغبه فليرجع اليه لانه نادر في بابه .

وفي تلك السنة قتل في دمشق كيوان بن عبدالله احد كبراء اجناد دمشق المشهور بالطاغية كان في الاصل مملوكا لرضوان باشا نائب غزة ثم صار من

الجند الشامي سرداراً عند صوباشي الصالحية نزع الى التعدي واخذ الناس بالنهب والنكال لاخذ املاكهم حتى استولى على اكثر بساتين الربوة والمزة وضم بعضها الى بعض طوعاً او كرهاً وكان يساعده على ذلك نواب محكمة الباب واعيان شهودها ويعلمونه الحيل كما هو دأبهم في كل آن وهو يبالغ في اكرامهم وقد دعى الى بستان الحجاجية بالقرب من القنوات الى صاحبه نائب الشام محمد باشا الذي غصبه من ابن العنبري بدعوى الوقف وانه من اوقاف نور الدين الشهيد فقتل به وارخ قتله ابو بكر العمري شيخ الادب بقوله في مطلع قصيدة طويلة :

ولما طغى كيوان في الشام واعتدى وارجف اهليها وللظلم فصلا

وفي سنة ثمان وثلاثين والف مات بدمشق شرف الدين المعروف بالدمشقي الشافعي احد افاضل الشام المشهورين بالفضل التام وكان متبحراً ذافنون كبيرة وكان يعرف علم الرمل والزايرجة انتفع به كثير من الافاضل وهو من الاسر القديمة بدمشق .

وفي سنة اربع وثلاثين والف مات بدمشق القاضي شمس الدين بن ناصر الدين الاسطواني الفقيه اخذ عن شيوخ دمشق وتصدر الى ان صار قاضياً بها مثل ابيه وقد تقدمت ترجمته .

وفي تلك السنة مات بدمشق ابو الفضل رئيس المؤذنين بجامع الاموي الشهير بالرملي . اقول وقد بقيت هذه الوظيفة بيد هذه الاسرة الى يومنا هذا .

وفي سنة ثلاث واربعين والف مات بدمشق احمد ابن علاء الدين السيد الشريف المعروف بالصفوري الحسيني الدمشقي الشافعي كانت له معرفة تامة بالفقه والعربية والشعر درس بدار الحديث الاشرفية وتولى قضاء الشافعية بمحكمة الباب ومن شعره اللطيف بالتغزل .

ايارب قد مكنت في القلب حبه وحكمته في الصب بالقول والفعل
والهمته الاعراض عني ولم تدع لقلبي صبراً عنه في الهجر والوصل

الى ان قال :

والا فسو الحب بيني وبينه فانك يا مولاي توصف بالعدل

وفي سنة سبع واربعين والف مات بدمشق ابراهيم بن محمد الدمشقي الصالحي المعروف بالاكرمي الاديب الشاعر المشهور في وقته له خدمة ومحبة في تربة العلامة ابن العربي الاندلسي . اقول وقد بقي في الوظيفة من ذريته رجال صلحاء الى يومنا هذا .

وفي تلك السنة مات بدمشق ابراهيم ابن منصور الفتال الدمشقي العالم الباهر استاذ الاساتذة بحر العلماء ورئيسها ذكره المحبي واثنى عليه وقال اكثر انتفاعه منه وكان اماماً في الادب يحب العزلة له حاشية على شرح الفاكهي وله تحريرات على مواطن كثيرة من التفسير .

وفي سنة ثمان واربعين والف مات بدمشق الصوفي المبارك الشيخ احمد العسالي كان من اكابر الصوفية له كرامات كثيرة منها مع والي دمشق احمد باشا وقد ذكرها المحبي في تاريخه بسبب ذلك عمر له المدرسة والقبة التي دفن فيها معه والي دمشق ووقف لها جميع الاراضي التي حوالي المدرسة الى حدود دمشق وشرط ان يكون ناظراً على اوقاف ذلك المحل كل من تقلد افتاء دمشق فتداولتها الايدي وتبعثرت تلك الاوقاف ولم يبق الا القليل ولم تزل المدرسة باقية على بنائها الاصلي مع القبة التي كان يلبس المحمل الحج الشامي عندها في زمن الحكومة العثمانية .

وفي سنة احدى وخمسين والف مات بدمشق عبد الرحمن بن محمد العمادي المفتي الحنفي الدمشقي احد افراد الدهر وزهرة اعيان رجال العلم وكان يقول كنت ابن سبع حين مات ابي وهو المفتي بدمشق بعد ان كان ابوه بها واجتهد في التحصيل وكان كثير الفضل جم الفائدة وله محاضرة وفطنة تسحر العقول والف مؤلفات كثيرة منها حاشيته على بعض تفسير الكشاف بقيت في مسوداته وله المناسك سماه المستطاع من الزاد وكتاب الهدية في عبادات الفقه والروضة الريا فيمن دفن بداريا وله تحرير التأويل اكثر مؤلفاته في مكتبة برلين والفوكا والخديوية قال المحبي صار علم اعلام الفضل ومرجع

الانام وكان مدرساً في جامع السليمانية في رجب وشعبان صباح كل خميس يقرأ الهداية حسب شرط الواقف وهو تلميذ البدرين ·

وفي سنة ست واربعين والف مات بدمشق عمر بن محمد القاري الدمشقي الشافعي رئيس اجلاء الشيوخ بدمشق وكبير علمائها وصدر الصدور بها كان متفنناً بارعاً وحيداً محدثاً فقيها اصولياً اماماً في العلوم متواضعاً خلوقاً جم الفائدة والادب طويل الباع. اقول ان اسرة بني القاري هي من الاسر القديمة والبيوت الرفيعة بدمشق الباقي من رجال ذريتها الى اليوم اضاعوا انفسهم بعدم تحصيل العلم ·

وفي سنة احدى وخمسين والف مات بدمشق حسن بن احمد الدمشقي المعروف بابن الحجار السيد الشريف الاجل كان عالماً ورعاً واسلافه كلهم تجار تفقه بالشمس محمد الميداني وتصدر للتدريس بجامع دمشق. اقول وهذه الاسرة هي من الاسر الشهيرة بالشرف والنسب بدمشق ·

وفي سنة خمس عشرة بعد الالف مات بدمشق محمد شمس الدين بن الحاج حسين الحمامي ابوه العاتكي الدمشقي الحنفي برع في عدة فنون واشتغل بالفقه وغيره وحضر دروس العلامة الداودي الدمشقي وبحث مع الافاضل وكان لين العريكة رجاعاً في البحث دفن بباب الصغير ·

وفي سنة سبع عشرة والف مات بدمشق محمد بن حسين بن محمد نقيب الشام المعروف بابن حمزة قال الغزي صاحب قطف الثمر كان رفيقنا في الاشتغال في العلم وحضر معه اخوه زين العابدين وكان شيخنا يتألم له ولاخيه من التواني في الطلب ولي نقابة الاشراف بعد اخيه وتصرف بهم بغير الانصاف بخلاف اخيه فانه كان خلوقاً عفيفاً ·

وفي سنة ثمان وعشرين والف مات بدمشق حسام الدين الرومي مدرس جامع السليمانية في رجب وشعبان ومفتي الحنفية بها كان عالماً فقيهاً يعرف الطب معرفة تامة فاق جميع الاطباء في عصره حسن الاخلاق لطيف الذات يعرف قدر

العلماء ويودهم ويدعوهم الى سماطه جمع بين العمل في الطب واشغال افتاء دمشق وهو المفتي الوحيد بهذه الصنعة .

وفي سنة ثمان وثلاثين والف مات بدمشق علي بن عمر العقيبي الامام الصالح العارف كان والده من القدوة العارفين وهو تلميذ الشيخ علوان الحموي وكان له ذوق في بيان خواطي الرجال اذا اشكيت اليه وله شغف في تأليف ذات اليمن .

وفي تلك السنة مات بدمشق احمد بن قنديل شهاب الدين الحنفي احد وعاظ دمشق يقال انه كان خنثى يعظ العامة في كل يوم وكان له خلوة بالمدرسة الحجازية بسوق الخوخ بالقرب من باب البريد له جماعة يترددون اليه وربما تظاهر تارة بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وفي سنة خمس واربعين والف مات بدمشق احمد النخجواني الأصل ثم الدمشقي المولد قاضي القضاة بدمشق الملقب بالمنطقي الاديب الشاعر الناثر احد افراد الدهر ومحاسن العصر ومن شعره .

لايسلني عن الزمان سؤول ان عتبي على الزمان يطول

وفي سنة ستين والف مات بدمشق تاج الدين بن احمد المعروف بابن محاسن الدمشقي كان احد اعيان التجار وكان مع ثروته لاينفك عن قراءة العلم والادب وكان ينظم الشعر لما توجه للقاهرة متشوقاً الى دمشق ويكتب الى والده محمد خطيب جامع بني امية .

منذ فارقت جلقا ورباها لم يزل مقلتي لذيذ كراها

وكتب آخر لوالده المذكور .

ابداً اليك تشوقي يتزايد ولديك من صدق المحبة شاهد

اقول وجد في بعض المجاميع ان نسبة بني محاسن الى بني تميم الداري في القدس وذكر ذلك المحبي والمرادي بتراجم كثير من اكابر رجال هذه الاسرة الكريمة وهي قديمة العهد بدمشق انجبت رجالاً متشرعين وافاضل محترمين .

وفي تلك السنة مات بدمشق علي بن ابرهيم ابو الحسن المعروف بالقبردي

الدمشقي الصالحي الشافعي العالم المشهور اوحد اهل عصره في الجمع بين الفنون والاخذ بدقائقها وكان عنده قوة الحافظة وحسن الاداء والتفهيم وهو الامام في النقليات والشرعيات واعاد درس الحديث تحت قبة النسر في الجامع الاموي الشمس الميداني .

وفي سنة احدى وستين والف مات بدمشق محمد بن علي المعروف بالمنير الحسيني الحموي الاصل الدمشقي الشافعي المذهب اتفق اهل عصره على صلاحه وكان في جميع احواله ماشياً على نهج الكتاب والسنة وخلف اولاداً اكبرهم السيد حسن المترجم في تاريخ المحبي واوسطهم السيد عبد الرحمن وكان عالماً عاملاً تقياً نقياً وثالثهم السيد اسحاق وهو عالم صالح وقد اثنى المؤرخ عليهم بخير .

وفي تلك السنة مات بدمشق الامام نجم الدين محمد بن محمد الغزي العامري قال المحبي في تاريخه وقد تقدم ترجمة اخيه ابي الطيب محدث الشام ومسندها ابو المكارم وابو السعود ابن ابن بدر الدين ابن رضي الدين الغزي الشافعي شيخ الاسلام ملحق الاحفاد بالاجداد ترجم نفسه في كتاب بلغة الواجد في ترجمة والده البدر وهو صاحب الكواكب السائرة وله الذيل الذي سماه لطف السمر وذكر مؤلفاته ومنظوماته وقد نقل عنه قوله .

اخبر الصادق فيما قد روي في حديث قد اتانا بالسند
ان اذا نجم الثريا طلعت ترفع العاهة عن كل بلد

وفي سنة خمس وستين والف مات بدمشق محمد بن نور الدين المعروف بابن الدراع الدمشقي الشافعي الاديب الشاعر كان نبيلاً فاضلاً حسن المحاضرة حضر درس عبد الرحمن العمادي المفتي وغيره من علماء عصره وقد ترجم المحبي بعضاً من اقاربه واثنى عليهم بخير (قلت بلغني ان لصاحب الترجمة ديواناً لطيفاً كبيراً لا يوجد منه سوى نسخة في مكتبة برلين .

وفي سنة سبعين والف مات بدمشق عبد الكريم العبادي الدمشقي الفاضل كان له مشاركة تامة في الفنون وخبرة في نقد الشعر وله في المعميات وحلها اليد

الطولى تخرج على المفتي عبد الرحمن العمادي وصار متولياً على اوقاف الجامع الاموي وهم ينتسبون الى الصحابي الجليل سيد الخزرج .

وفي تلك السنة مات بدمشق محمد ابن ابي بكر المعروف بالزهري الدمشقي الشافعي صار خطيباً في جامع المعلق وصنف تآليف كثيرة منها شرح لامية ابن الوردي وشرح ديوان ابن الفارض وكان يتهم بحبه للكذب (وهذا عيب لايجتمع مع مكارم الاخلاق الاسلامية والاوامر الآلهية والسنة السنية فما قول المؤرخ في رجال عصرنا اليوم .

وفي سنة احدى وسبعين والف مات بدمشق ايوب بن احمد بن ايوب الحنفي الخلوتي الصالحي الدمشقي له تحريرات ورسائل لايمكن حصرها واكبر ماروى له رسالته التي سماها ذخيرة الفتح وعقيلة التفريد وخيلة التوحيد وذخيرة الانوار سخيرة الافكار جمع بين علم الشريعة والحقيقة دفن بتربة باب الفراديس

وفي تلك السنة مات بدمشق العلامة المحقق عبد الباقي مفتي الحنابلة بها وفي تلك السنة ايضاً مات العلامة الشهير نعمان بن احمد قاضي قضاة الحنابلة بدمشق.

وفي سنة ست وسبعين والف مات بدمشق محمد بن بركات بن مفرج الشهير بالكوافي الحمصي الدمشقي الشافعي كان من العلماء الصلحاء قدم الى دمشق في ايام كهولته وقطن بالمدرسة الطيبة بمحلة القيمرية واخذ عن علماء دمشق وكان اكثر اعيانها يذهبون اليه ويقصدون التبرك به ومن عجائبه انه كان يكتب صفحة الورق من مؤلفاته بخطة قلم وكان ينقل حكاية غريبة عن تاريخ ابن عساكر عن علي ابن عبدالله الهاشمي انه قال دخلت بعض قرى الهند فرأيت شجر ورد اسود ينفتح عن وردة كبيرة طيبة الرائحة سوداء مدورة مكتوب عليها بخط ابيض لااله الا الله محمد رسول الله ابو بكر الصديق عمر الفاروق فشككت بذلك وقلت انه عمل معمول فعمدت الى جنبذة لم تفتح ففتحتها فاذا فيها وردة سوداء مكتوب بها ذلك ورأيت في البلد من

الورد شيئاً كثيراً عظيماً واهل البلد يعبدون الحجارة لايعرفون الله عز وجل انتهى .

وفي سنة خمس وسبعين والف مات بدمشق ابراهيم بن عثمان المعروف بابن كيوان احد اعيان دمشق المشهورين بالرأي الصائب والنعمة الطائلة وكان له دراية في الامور ومحبة للعلماء وكان له شأن عال عندهم نافذ الكلمة عند الحكام وله خيرات وصدقات واشتهر بابن كيوان لأن والده كان ربيب كيوان الطاغية المشهور وهو جدا سرة بني كيوان الموجودين اليوم .

وفي تلك السنة مات بدمشق فضل الله ابن محب الله المحبي الدمشقي المولد الشافعي هو والد صاحب التاريخ الشهير قال نجله هو ركن فضلاء الوقت البارعين وبلغائه المعروفين وكان حسن المعرفة بفنون الادب ومن شعره .

رعى الله ايام الشبيبة من عصر وهز نسيم العيش ريحانة العمر

دفن بمدفن اسرتهم الخاص قبالة جامع الجراح في قبر جده ووالده (قلت وهذه من جملة اسر دمشق التي انقرضت ولم يبق منهم احد واخنى عليها الدهر .

وفي سنة خمس وثمانين والفمات بدمشق محمد بن كمال بن محمد بن حسين الشهير بابن حمزة نقيب الاشراف وقد ذكر المحبي نسبه في ترجمة اخيه السيد حسن نقيب الشام كان رئيس وقته في العلم والجاه ووحيد دهره في سؤدده وعلاه وكان بحراً دافقاً وحبراً مدققاً وعالماً محققاً غواصاً على المسائل كثير التبحر علوماً معارف وفنوناً ولي النيابة الكبرى في محكمة دمشق وقسمة العسكر ودرس بالتقوية ولما توفي والده ولي مكانه النقابة .

وفي سنة ثمان وثمانين والف مات بدمشق عبد الباقي بن احمد المعروف بابن السمان الدمشقي صاحب المؤلفات له الاطلاع التام على اشعار العرب كان يسرد من اشعارهم الف بيت في كل مجلس وله تصانيف كثيرة منها شرح الاسماء الحسنى وشرح شواهد الجامي ومختصر التهذيب في المنطق وكتاب

سرقات الشعراء (اقول ولو ظهر هذا الكتاب للوجود لجاء كتاباً عجيباً في بابه . وكان اكثر انتفاعه من شيخه الشيخ احمد القلعي الدمشقي .

وفي تلك السنة مات بدمشق عبد الرحمن بن ابراهيم الموصلي الشافعي الميداني الدمشقي الصوفي كان احد مشاهير المشايخ المتقدين هو واسلافه لهم حفدة ومريدون وينتهي نسبهم الى الشيخ العارف ابي بكر الشيباني اشتهر صاحب الترجمة بالفضل والادب وكان بارعاً ناظماً طالب العلم واقبل عليه وعلى مطالعة الدواوين في الشعر وصار له نظم حسن وديوان شعر (اقول ولم تزل دارهم الى اليوم في الميدان ولهذه الاسرة ذرية وحفدة باقية الى اليوم .

وفي سنة تسعين بعد الالف مات بدمشق حسن ابن مصطفى المعروف بابن قربق الدمشقي مفرد في وقته في المهارة في العلوم الغريبة مثل الطلسمات والزنجيات والاعمال العجيبة وله في الكيميا معرفة تامة واخذ هذه العلوم عن المفنن سيف الدين الصائغ الدمشقي احد اعاجيب الدنيا في هذه العلوم واليه المنتهى فيها كان امره شيخه بطلب الاستخدام مع رياضة اربعين شهراً وخلوة اربعين يوماً وعلمه الاسماء التي ينبغي تلاوتها ذكره المحبي وقال ان الشيخ سيف الدين قصد يوماً التنزه فصحبه صاحب الترجمة هو ورفيقان من طلبته حتى انتهوا الى جامع يلبغا بدمشق فتفقدوا بعض دراهم لاجل نفقة ذلك اليوم فلم يجدوا معهم شيئاً فلما فطن الشيخ بها قال لصاحب الترجمة انا اعطيك نفقة اليوم ثم جاء الى رخامة في الجامع وخط عليها دائرة ثم قال له اسحب فسحب شريطاً من ذهب حتى انتهى الى مقدار ثم قطعه وقال اذهب به وما تزيد دعه معك تنتفع به وكان من جملة ذخائره في هذه الصناعة مرآة اذا ابهم عليه امر يعطيها لاحد جلسائه ينظر فيها ويتلو هوا سماً فيري الناظر فيها المطلوب على كيفية تنتج معرفته حتى يبقى كانه مشاهد فيخبره به الناظر فيشرع في تحصيله ومن امثال ذلك ذكر له المحبي شيئاً كثيراً من شاء فليرجع اليه والعهدة عليه .

وفي سنة اثنتين وتسعين والف مات بدمشق خليل بن زين الدين المعروف بالاخنائي الدمشقي الفقيه الشافعي من ذوي البيوت القديمة بدمشق ويقال لهم

اقدم بيت بها لانهم من نسل معاوية واتصلوا من عهده وتفرعوا واجدادهم غالبها قضاة القضاة ولهم بدمشق آثار كثيرة واوقاف كبيرة (وقد انقرضت هذه الاسرة ايضاً ولم يبق منها احد في هذا الزمان ولهم المدرسة الاخنائية .

وفي تلك السنة مات بدمشق خليل باشا ابن عثمان المعروف بابن كيوان امير الحج الشامي وهو اخو ابراهيم الآتي ذكره كان من صدور دمشق واعيانها المشهود لهم بالرأي الصائب .

وفي سنة خمس وتسعين والف مات بدمشق رجب بن حسين علوان الحموي الاصلي ثم الدمشقي المولد الميداني الشافعي الفلكي اعجوبة الزمان في العلوم الغريبة والفنون العقلية وكان لديه منها فنون عديدة وامهر ما كان في العلوم الرياضية كالهيئة والحساب والفلك والهندسة ويعرف الفرائض حق المعرفة والموسيقي بانواعها (اقول ماقول علمائنا اليوم هل تلزم هذه العلوم في هذه الزمان ام لا وهل يلزمنا الاقتداء في ذلك العصر وعلمائه ام لا هدانا الله واولادنا لما فيه الخير في ديننا ودنيانا .

وفي تلك السنة مات بدمشق رمضان بن موسى المعروف بابن عطيف الدمشقي الحنفي قال المحبي هو شيخنا الاجل صاحب الفنون والآداب الفقيه النحوي البارع له منادمة تأخذ بمجامع القلوب يتصرف فيها تصرفاً عجيباً وله رواية في الشعر وايام العرب واخبار الملوك ونوادر الشعراء والامم قل ان توجد في احد من ابناء عصره .

وفي سنة سبع وتسعين والف مات بدمشق صنع الله بن محب الله المحبي الدمشقي الحنفي هو عم الشيخ محمد المحبي صاحب التاريخ المشهور في تراجم رجال القرن الحادي عشر وكان مربيه وسبباً لتعلمه ونجاحه وقد دعا له في تاريخه واثنى عليه بخير .

وفي سنة ثمان وثمانين والف مات بدمشق محمد بن علي مفتي دمشق الملقب علاء الدين الحصكفي الحنفي كان مدرساً بالعمرية والجركسية بالصالحية وله وظائف دينية غيرها وكان ذري الهيئة كثير السعي والحركة في تحصيل الدنيا

الا انه كان مغرماً بالكيمياء وكان لايحصل شيئاً الا صرف اكثره اليها ولم يحصل منها على طائل وكان له جراءة في مطالبة الحكام في العدل له التصانيف العديدة منها شرح تنوير الابصار المسمى الدر المختار وغيره من المؤلفات المفيدة .

اقول والذي سمعته من افواه المتقدمين عن سبب توليته افتاء دمشق وحصوله عليها انه يوماً كان راكباً حماراً رثاً ماراً امام دار بني العمادي والمفتي مع جلسائه قاعدون فاستهزأ المفتي بقوله لهم انظروا لحالة هذا الشيخ الطبيعية الدمقراطية لربما يرغب ان يكون مفتياً بدمشق وهو على هذه الحالة فسمع ذلك الحصكفي واسرها في نفسه ولما ذهب لدار السلطنة وتحقق شيخ الاسلام علو مكانه في العلم في مسئلة شغلت علماء دار السلطنة مدة طويلة فلما وضحها الحصكفي عرض عليه افتاء دمشق فقبله ورجع الى بلده .

وفي سنة سبع وتسعين والف مات بدمشق عبد الرحمن التاجي البعلبكي ثم الدمشقي الحنفي الشهير كان من اجلة العلماء انتفع به خلق كثير من رجال دمشق وطلب الخطابة وامامة جامع دمشق لما انحلت عن علاء الدين الحصكفي مفتي الحنفية وله ديوان شعر .

وفي تلك السنة مات بدمشق محمود بن محمد بن نعيم العدوي القاضي نور الدين الصالحي الدمشقي الشافعي قرأ على جماعة كثيرين وتخرج عنهم وولي قضاء دمشق كان عالماً مقبولاً عند الناس دفن بسفح قاسيون

وفي سنة تسع وثمانين والف مات بدمشق العلامة العكري عبد الحي بن احمد الشيخ الفقيه الفاضل ابو الفلاح بن العماد الدمشقي الصالحي الحنبلي مؤلف شذرات الذهب في اخبار من ذهب وشارح المنتهي ترجمة صاحب الاصل من ديوان الاسلام .

وفي سنة ثمان وتسعين والف مات بدمشق الشيخ ابراهيم الفتال العلامة النحرير والفهامة المحقق الشهير انتفع به جملة من علماء دمشق وحصل الطبقة العالية من فحول علمائها له دروس ومواعظ حسنة في الجامع الاموي تهابه الحكام وتعتقد به العوام .

وفي سنة ست وتسعين والف اجاز الشيخ العلامة ابن علوان المدرس في جامع السنانية بدمشق تلامذة لائمة الاعلام المحدثين بركة الشام وزينتها الشيخ علاء الدين الامام بقلعة دمشق الحافظ الحجة البركة والفاضل اللبيب واللوزعي الكامل الاديب الخطيب الشيخ خليل امام الشافعية بدمشق ومنهم عزيزنا من هو عندي اعز من ولدي الشيخ احمد الصفدي ثم الدمشقي الامام بجامع الدرويشية نقل ذلك من اجازة بخطه هي عندنا قال بختامها ولقد كانوا يجتمعون عندي بعد العصر في جامع السنانية ويقرؤن الشفاء ثم لما ختم الكتاب بعد سبع سنوات بدأنا بقراءة البخاري باعتبار ماعندنا عليه من الآلات انتهى ملخصا .

محمد ابن يوسف الكريمي الدمشقي صاحب الديوان الشهير الموجود في مكتبة برلين العالم الشاعر البليغ مات سنة ثمان وستين و الف ومن انشاده قوله:

من التمس الحوائج من بخيل كمن طلب العظام من الكلاب

وله ايضاً قوله :

قالوا دمشق الشام جنة قلت حفت بالمكاره

وينسب اليه ايضاً قوله في بعض رجال دمشق :

اياك اياك ممن يعزي الفخار اليهم
وفي دمشق اناس لو اطلعت عليهم

ومن انشاده :

واذا تأملت البلاد رأيتها تثري كما تثري الرجال وتعدم

ونقل في ديوان عن بعض الشعراء :

من الناس من يخشى الاباعد نفعه ويشقى به حتى الممات اقاربه
فان يك خير فالبعيد يناله وان يك شر فابن عمك صاحبه

ونقل في ديوان قول الشاعر :

لاتظلمن لتعطى فالشحيح على ما فيه اعذر ممن خان او ظلما

● ● ●

اقتطفت اكثر تراجم الرجال الذين كانوا زينة القرن الثاني عشر من تاريخ المرادي الدمشقي ومن مجاميع خطية من الذين يهم القاري معرفتهم وقد اتينا بذكر اسمائهم على حروف الهجاء .

ابراهيم البهنسي الحنفي الدمشقي له مشاركة في سائر الفنون وانتهى اليه علم الفلك والهيئة اخذ عن مشايخ عصره منهم العارف النابلسي والشيخ عثمان الشمعة واشتهر بعلم الزايرجه وله قصة تقوم مع والي دمشق الوزير سليمان باشا ابن العظم ذكرها المرادي مات بدمشق سنة ثمان واربعين ومائة والف.

ابراهيم بن محمد المعروف بالسفرجلاني الشافعي الدمشقي كان عارفاً شاعراً له في المعميات اليد الطولى وبرع في علم الحرف وفي الرياضيات واعمال الاوفاق والاستخدام من متعلقات هذه الفنون وله ديوان مشهور وله عم اسمه عمر صاحب خيرات ومبرات له آثار منها المساجد الثلاث الواقعة عند دارهم بالقرب من محلة الخراب وكان من اخيار التجار مات بدمشق سنة اثني عشرة ومائة والف ترك من الاولاد عبد الرحمن وعبد العزيز ويوجد الديوان في برلين .

ابراهيم بن محمد الشهير بابن حمزه السيد الشريف الحنفي الحراني الاصل الدمشقي احد الجهابذة المشهورين في العلم والفضل اخذ عن الحصكفي المفتي وابراهيم الفتال الدمشقي والشيخ محمد المحاسن واخيه اسماعيل والشيخ احمد القلعي وعبد القادر الصفوري الدمشقي والقاضي كمال الدين المالكي تولى نيابة محكمة الباب الكبرى بدمشق ثم نقابة الاشراف بها مرات ودرس بالماردينية بالصالحية وسافر الى مصر وتولى نقابة الاشراف فيها ونسبتهم الى حران بلدة بجزيرة العرب بالقرب من بغداد مات سنة ١١٢٠

ابراهيم بن مصطفى المعروف كاسلافه بابن سعدالدين الجباوي الشافعي القبيباتي شيخ الطائفة السعدية وخاتمة السلف الصالحين تقدم معنا ذكر بعض اجداده مات بدمشق سنة ١١٣٥

ابراهيم ابن يوسف الشيباني الجباوي المعروف كاسلافه بابن سعد الدين

الشاغوري الشيخ المبارك المعتقد قد نشر الطريقة المأخوذة عن اسلافهم في البلاد العربية والرومية وسجادة خلافتهم مقرها في الميدان في محلة القبيباتي غير ان المترجم واسلافه كانوا قاطنين محلة الشاغور البراني ولهم هناك زاوية واوقاف لم تزل باقية مات بدمشق سنة ١١٦٥

ابو بكر محمد بن عبد الوهاب الدسوقي الدمشقي الشافعي الخلوتي احد المشايخ المشهورين قرأ من العلوم واقام الذكر على عادتهم في زاويتهم المعروفة بهم الكائنة بالقرب من باب جيرون جهة النوفرة مات بدمشق سنة ١١٩٣

ابو بكر تقي الدين التاجر المعروف بابن الجوهري الدمشقي له في الادب والشعر تجارة لن تبور منها قوله :

هذي المنازل قبلنا كم ذا تداولها اناس
كم سدعت ملكا وكم من هدم وضع الاساس
غرسوا وغيرهم اجتنى من بعدهم ثمر الغراس
دول تمر كأنها اضغاث حلم في نعاس

وكان يردد قول الشاعر :

واذا السعادة لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن امان

ابو الفتح بن محمد بن خليل العجلوني الشافعي الدمشقي المولد كان احد الشيوخ الاعلام تخرج بالعلوم عن والده والشيخ علي كزبر المحدث ومحمد البقاعي واسماعيل العجلوني مات بدمشق سنة ١١٩٣

ابو المواهب بن عبد الباقي البعلي ثم الدمشقي الشهير جده بابن البدر مفتي الحنابلة بدمشق القطب الرباني شيخ المحدثين فريد العصر كان بحراً من العلوم اخذ العلم عن جماعة من مصر والحرمين ومن دمشق النجم الغزي وقرأ عليه العلامة ابراهيم القتال ومحمد الاسطواني ومحمد ابن كمال الدين ابن حمزة ومحمد المحاسن ومحمد بن احمد عبد الهادي العمري وغيرهم من اعلام دمشق مات سنة ١١٢٦

احمد بن محمد بن الحرستي قرية من اعمال دمشق الحنفي العالم الفقيه

كان من البارعين في علم الفرائض والحساب وله رسالتان الاولى الكواكب المضية في فرائض الحنفية والثانية المنح السنية مات بدمشق سنة ١١٦٤

احمد بن محمد اغريبوزي السلامي الدمشقي كان من احد اعيان جند دمشق اديباً نحوياً بارعاً منشئاً يميل الى التصوف له شرح على الشاهدي بالعربي واودعه مقولات مستحسنة مسكنه في داره بمحلة سوق ساروجة وصار تذكرجي دفترخانة التجارات التي كانت سابقاً في دمشق ورفعت عنها قرأ الفتوحات المكية على العارف النابلسي مات بدمشق سنة ١١٢٦ وهو والد يحيى باشا من اعيان دمشق .

الياس بن ابراهيم الكردي الكوراني ثم الدمشقي الشافعي العارف والمتحقق بعلمي الظاهر والباطن له المصنفات الانيفة والحواشي الدقيقة خرج عليه الشهاب المنيني دفن في روضة العلماء بدمشق سنة ١١٣٨

ابراهيم ابن عباس الحافظ الدمشقي الشافعي شيخ القراء والمجودين كان اماماً ماهراً في القراآت لم يوجد له نظير في الاقطار الشامية وله رسالة اللمعة في تحريم المتعة مات سنة ١١٨٦

ابراهيم آغا متولي جامع بني امية كان قد خدم العلم برهة من الزمان فعلق في ذاكرته شيئاً من الدلائل والمسائل فكان كثيراً ما يحضر مجالس العلماء فيبحث ويناظر وسار في خدمة الجامع الاموي احسن سيرة وعمر الحجرة المقابلة لحجرة الساعات في جهة باب جيرون وكانت مهجورة مات سنة ١١٥٠

احمد بن شمس الدين المعروف كأسلافه بابن سوار الدمشقي الشافعي شيخ المحيا بدمشق كان عالماً متبحراً في الفنون محققاً له قدم راسخ في الحديث وتوابعه مات بدمشق سنة ١١٧٣

احمد ابن عبد اللطيف عبد الهادي العمري الدمشقي الشافعي اشتهر في الفضل والعلم وقد تقدم معنا ذكر بعض اجداده قرأ على جماعة . منهم الشهاب المنيني وحامد العمادي واسماعيل العجلوني درس في آخر امره بالجامع الاموي مات سنة ١١٧٣ وله ذرية كبيرة في دمشق .

احمد الشهاب بن علي بن عمر الحنفي الطرابلسي الاصل المنيني المولد الدمشقي المنشأ العلامة المحدث الكبير له مؤلفات ومصنفات كثيرة قدم من قرية منين الى دمشق وقطن بحجرة داخل مدرسة السميساطية عند اخيه عبد الرحمن وكان له اخ آخر رحل الى بلاد الروم وصار شيخ الاسلام ومفتي الانام بها وله رواية في الحديث عن والده عن قاضي الجن عبد الرحمن الصحابي الجليل الملقب بشمهورش وقد اخذ العلم عن جماعة كثيرين منهم العارف النابلسي ومحمد وعبد الرحيم الكاملي وعبد القادر التغلبي المجلد وعثمان الشمعة والشهاب احمد الغزي العامري ومن مؤلفاته انموذج اللبيب في خصائص الحبيب وشرحها ومنها شرح تاريخ العيني وله الرحلة الرومية ورسالة في اصول الفقه ومنها النسمات السحرية ومنها القول المرغوب والعقد المنظم وفتح المنان والقول الموجز ومناسك الحج ومطلع النيرين والاعلام في فضائل وتاريخ الشام وهو عندنا بخطه ومنها الفرائد السنية وشرح البخاري درس بالجامع الاموي ثم توجه عليه تدريس العادلية الكبرى واقام بها وسكنها مدة عمره وانتفع منه خلق كثير رحل الى دار الخلافة مرتين واعطي رتبة الموالي العلية وولي تولية السميساطية والعمرية في الصالحية وولي خطابة وامامة الجامع الاموي والتربدارية وصار بينه وبين شريكه ابن محاسن جدال وشقاق مات سنة اثنتين وسبعين ومائة والف بدمشق ودفن بالدحداح .

احمد بن حسين باشا كيوان ابن مصطفى الشهير الدمشقي فرد الزمان ومن محاسن الشام كان شاعراً عارفاً فاضلاً له اليد الطولى في العلوم والفنون واللغة والادب ومهارة تامة بالانشاد والخطابة والنظم والنثر . مات سنة ١١٧٣ وله ديوان لطيف يوجد منه نسخة في مكتبة برلين وطبع في دمشق سنة ١٣٠١ .

احمد بن محمد الفلاقنسي الاصل الدمشقي المولد السيد الشريف احد حسنات الزمان كان اديباً شاعراً بارعاً عارفاً والفلاقنس هي قرية من نواحي بلدة وحمص كان ينسج الالاجه والديما واسس هذه الصنعة في حمص ثم اشتهر

بها في دمشق في محلة القيمرية ولم تزل هذه الصنعة الرائجة الى يومنا هذا ومن اهم صنائع دمشق يرتزق بواسطتها خلق كثير في حمص ودمشق مات بدمشق سنة ١١٧٣

احمد بن مراد الشهير بالنحلاوي الاحمدي الدمشقي العارف الخاشع الناسك بركة الشام كان مقيماً في مدرسة النورية ويقيم الذكر في مدرسة الخلوتية عند محكمة الباب المشهورة بالخاتونية ويعرف ذلك الحي بالنحلاوي الى اليوم وقد تقدم ترجمة بعض رجال هذه الاسرة الا ان اليوم لم يبق من يقوم بهذه الزاوية صارت نسياً منسياً مات بدمشق سنة ١١٥٧ ودفن بالمدرسة .

احمد المعروف بالشاملي الحنفي الدمشقي احد مشاهير العلماء الاعلام المفيدين بنشر العلم كان يدرس بالمدرسة اليومية الكائنة بالقرب من سراية الحكم التي بناها الوزير محمد باشا الشهير بابن كرد بيرم وهي محل بناية العابد الجديدة اليوم مات سنة ١١٦٣

اسعد بن ابراهيم الدمشقي الشافعي الشهير بابن حجيج الصوفي المسلك الطبيب الماهر كان حاذقاً في صناعة الطب وهو الوحيد في عصره لان ذلك الوقت كان به الطب قليلا لفقد رجاله مات سنة ١١٩٠

اسعد بن احمد بن كمال الدين البكري الصديقي الحنفي الدمشقي الكامل البارع كان صدر اعيان دمشق وواحدهم مقبول الشفاعة عند الحكام موقراً لدى الخاص والعام تقصده الافاضل والمداح وتكرم عنده الوفود تولى نيابة الحكم في محكمة الباب واعطي رتبة قضاء القدس وبنى الدار والجنينة في قرية جرمانا خارج دمشق واتقن بناءها جاءت نزهة للناظرين كان يدعو الاعيان والاحباب اليها مات بدمشق سنة ١١٢٨ وقد اقتفى اثره حفيده في عصرنا خليل افندي .

اسماعيل بن علي بن رجب الشهير بالحائك الحنفي العيني الاصل الدمشقي مفتي الحنفية بها كان من اجلة العلماء الفقهاء المحققين متعبداً زاهداً عاملاً متقشفاً له اليد الطولى في سائر العلوم والفنون كان فقيه الشام في عصره وكان ابوه فقيراً جداً وصنعته الحياكة فكان يفر من حانوت ابيه ويقرأ على

المشايخ وحضر دروسهم منهم محمد المحاسني مفتي خطيب دمشق وابراهيم الفتال وعلاء الدين الحصكفي امام جامع دمشق ومفتيها وكان جل انتفاعه منه صار مدرساً بالشبلية بالصالحية وعرض عليه افتاء دمشق فقبله مع زيادة ورعه وعدم رغبته في التعرض وطلب وظائف الدنيا فباشرها بهمة علية لا دنيوية وفتاويه متداولة جمعها احد تلامذته وولي خطابة الجامع الاموي مات سنة ١١١٣ ودفن بتربة باب الصغير .

اسعد بن محمد بن علي المعروف بابن الطويل الشافعي الدمشقي الشيخ العالم البارع اللغوي كان من ادباء دمشق مات بها سنة ١١٥٠ وله ذرية بدمشق .

احمد بن عبد الكريم الغزي العامري الدمشقي مفتي الشافعية بها أخذ عن العارف النابلسي وغيره من علماء عصره واذنت له شيوخه بالفتوى والتدريس وهو زينة دمشق مات بها سنة ١١٤٣

احمد بن محمد بن سويدان الدمشقي الحنفي العالم المفنن الفقيه كان يسكن في ميدان الحصا وولد به واخذ العلم عن المتصدرين من العلماء بدمشق كالعماد والشيخ اسماعيل والد العارف النابلسي ومحمد المحاسني خطيب دمشق والحافظ النجم الغزي وعبد القادر الصفوري ثم انتفع منه خلق كثير واخذ عنه العارف عبد الغني النابلسي مات بدمشق سنة ١١٣٠

احمد بن كمال الدين البكري الصديقي ينتهي نسبه الى الخليفة الاول الدمشقي الحنفي سبط آل الحسن قاضي القضاة كان علامة زمانه وبالفنون فائق اقرانه صدرا رئيساً فقيهاً اديباً لا يخلو مجلسه من الفوائد العلية ولد بدمشق سنة ١٠٤٢ واشتغل على جماعة من علماء دمشق منهم محمد المحاسني خطيب دمشق وحضر دروس النجم الغزي وبرع وتصدر وساد وظهر وولي نيابة الباب والقسمة العسكرية وارتحل الى الروم ووجهت اليه تولية مدرسة الجقمقية الكائنة بدمشق لصيق الاموي مع رتبة موصلة الصحن من الموالي العلية ثم ولي قضاء المدينة ثم ولي قضاء دمشق وكتب اليه الاستاذ العارف

النابلسي ثالث يوم قدومه هذه الابيات ومعها طبقان داخلهما حلوى تسمى كل واشكر واخرى تسمى معمولاً قال :

ان الحلاوة في شعبان نهديها   بمقتضى ما اشارت من معانيها
فان شكري لكم معمول حضرتكم   عسى القبول اراه من مساعيها
اهدت سليمان يوم العرض هدهدة   جرادة قد اتته وهي في فيها
وانشدت بلسان الحال قائلة   ان الهدايا على مقدار مهديها
لو كان يهدى الى الانسان قيمته   لكان يهدى لك الدنيا وما فيها

مات سنة ١١١٧ وهو والد السيد اسعد المتقدم الذكر ولم تزل تولية مدرسة الجقمقية على بني البكري الاكارم الى اليوم .

اسماعيل ابن الشهاب احمد المنيني الدمشقي الحنفي الخطيب والامام بجامع دمشق احد اعيان العلماء الاعلام تولى افتاء دمشق واصلهم من قرية برقايل تابع طرابلس الشام ثم انتقل جدهم الى قرية منين وقد تقدم معنا ترجمة بعض رجال هذه الاسرة ومؤسسها مات بدمشق سنة ١١٦٣

اسماعيل ابن محمد الشهير بالجراحي الشافعي العجلوني المولد الدمشقي المنشأ والوفاة العلامة الحجة العمدة الرحالة كان محدثا سندا له اليد الطولى في العلوم والفنون لا سيما الحديث ودقائق المنطوق والمفهوم وقد الف ثبتا سماه حلية اهل الفضل والكمال باتصال السند بكمل الرجال وترجم مشايخه به منهم العارف النابلسي والشيخ ابو المواهب مفتي الحنابلة والشيخ محمد الكاملي الدمشقي وعبد الرحمن المجلد الدمشقي واسماعيل الحائك المفتي ونور الدين الدسوقي والشيخ عثمان القطان الدمشقي وعثمان الشمعة وعبد القادر التغلبي الحنبلي وارتحل الى الروم فلما كان بها انحل تدريس قبة النسر بالجامع الاموي وهو مشروط لمن يكون اعلم علماء دمشق فلما بلغ شيخ الاسلام ذلك وجهه اليه لانه كان شيخ العلماء الاعلام في عصره فاخذه ودرس في مشهد بني السفرجلاني لازمه جماعة كثيرون والف المؤلفات الكثيرة الباهرة المفيدة منها كشف الخفا ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على السنة الناس

والفوائد الدراري بترجمة البخاري واضاءة البدرين بترجمة الشيخين وتحفة اهل الايمان ونصيحة الاخوان وعرف الزرنب بترجمة سيدي مدرك والسيدة زينب والاجوبة المحققة والكواكب المنيره المجتمعة وعقد الجوهر الثمين واسنى الوسائل بشرح الشمائل واسترشاد المسترشدين وعقد اللآلي بشرح منفرجة الغزالي واسعاف الطالبين بتفسير كتاب الله المبين والفيض الجاري شرح صحيح البخاري ولو كمل هذا الشرح لكان من نتائج الدهر وكان ينظم الشعر وشعره شعر علماء كما قال ابن بسام ان شعر العلماء ليس فيه بارقة تشام وان بعض اشعارهم من قبيل دعوة البخيل وحملة الجبان وقد ترجمه سعيد السمان الدمشقي في تاريخه وقال في وصفه انه خاتمة ائمة المحدثين مات بدمشق سنة ١١٦٢ دفن بتربة الشيخ رسلان .

تقي الدين الحصني بن محمد شمس الدين بن محمد محب الدين بن احمد بن محمد الحصني الحسيني الشافعي الدمشقي السيد الشريف الشيخ الامام الحبر الهمام العالم العلامة الصوفي الورع الصالح المعتقد الناسك الفاضل التقي النقي الفقيه ولد بدمشق في ٣ صفر سنة ١٠٥٣ واخذ العلم عن جماعة من علماء عصره منهم عبد القادر الصفوري والمحدث محمد بن علي المكتبي الدمشقي ومحمد البلباني الصالحي واخذ علم التصوف عن والده وانتفع به خلق كثير وجلس على سجادة مشيختهم بزاوية اسلافه المعروفة بهم بالشاغور البراني وكان مكرماً للواردين منهلا للقاصدين يتردد اليه الناس ثم قال المرادي في تاريخه ورأيت له مجاميع بخطه تدل على فضله واتقانه ومعرفته بالانساب والتاريخ وكان حريصاً على النوادر يحرر الواقعات والمسائل وكان بهي المنظر منور الشيبة سخي الكف كثير الصدقة وشفاعته مقبولة عند الحكام وغيرهم معظماً عند الخاصة والعامة مواظباً على اجراء صدقة الكشك في خان ذي النون كعادة اسلافه غير انه مع علمه الباهر كان لا يخلو من نوادر وحكايات الى الآن متداولة بين الناس وتولى المشيخة بعد وفاته قريبه السيد عبد الرحمن والسيد يحيى الحصني ثم ان السيد محب الدين اخا السيد يحيى المذكور اخذ

المشيخة جميعا ورفع منها المذكورين بسبب من الاسباب الموجبة لرفعها ثم قال المرادي ومن الاتفاق العجيب ان المترجم شارك جده الاعلى من جهة الام العلامة السيد تقي الدين الحصني الفقيه الشافعي صاحب المصنفات الكثيرة وقمع النفوس المدفون في القبيبات في اشياء منها اللقب والمذهب وخدمة العلم والشهرة بالديانة وعام الوفاة فان جده المذكور مات سنة ٨٢٩ ولم يعقب الا البنات وكانت احداهن قد زوجها ابن اخيه السيد محب الدين جد صاحب الترجمة الاعلى وكان العقب لابن اخيه المذكور وايضاً المترجم لم يعقب الا البنات وسيأتي ذكر اقربائه حسين وبعده محب الدين مات سنة ١١٢٩ ودفن بزاويتهم انتهى كلام المرادي بلفظه .

تنبيه — ربما يتوهم من يطلع على تاريخ المرادي ان بني تقي الدين الحصني المعروفين حتى اليوم بشهرة نسبهم وصحة شرفهم بهذا اللقب هم من فرع تقي الدين الحصني المتوفي سنة ٨٢٩ او الذي اتى المرادي في تاريخه على ترجمته المتوفي سنة ١١٢٩ والحال انهم من فرع محب الدين ابن اخي العارف السيد تقي الدين الحصني المترجم في شذرات الذهب في اخبار من ذهب واتى في كتابنا ذكره في محله ويثبت ذلك ايضاً ما ذكره المحبي والسيد الشهير ابو الهدى الصيادي في كتابه الروض البسام في اشهر البطون القرشية في الشام بقوله ان بني تقي الدين الحصني الموجودين اليوم هم من فرع محب الدين بن شمس الدين محمد الذي تقدمت ترجمته في المحبي وقد وجدت ايضاً في كتاب مخطوط في سنة ٨٩٢ قديم ما يؤيد ذلك وقد درج فيه سلسلتهم وشجرتهم مطابقة لما ذكره صاحب الروض البسام في شجرتهم المصرحة باسمائهم بارك الله بهم وبذريتهم .

حسن بن احمد المعروف بالمغربل الدمشقي شيخ النحو واللغة كان مشتغلا في صنعة غربلة القمح في الميدان ثم اشتغل بطلب العلم وسكن بمدرسة الكوافي المشهورة بالطيبة تابع محلة القيمرية اشتهر في كتابة الصكوك وعقود الانكحة وتفرد في الادب والانشاء مات سنة ١١٦٠

حامد بن علي بن ابراهيم بن عبد الرحيم بن عماد الدين الحنفي الدمشقي المعروف كاسلافه بالعمادي مفتي الحنفية بدمشق وابن مفتيها وصدرها اشتغل بطلب العلم على جماعة واخذ عنهم منهم ابو المواهب مفتي الحنابلة وحضر دروسه في الاموي والباغوشية ومحمد الكاملي حضر وعظه في الاموي ودرسه في السنانية والعارف النابلسي حضر دروسه في السليمية ودرسه في الفتوحات وبرع وعلا فضله وازدان به وجه الزمان ودرس اولاً بالجامع الاموي ثم صار مفتياً ودرس في السليمانيه في المرج الاخضر واستفتح في دروسه خطباً من انشائه وجمعها فبلغت مجلداً وله رسائل منها شرح الايضاح ومن مؤلفاته المشهورة فتاوى الحامدية وبها انتفع الناس والحواشي التي جمعها على دلائل الخيرات والدر المستطاب والحوقلة في الزلزلة ونقول القوم في جواز نكاح الاخت بعد موت اختها بيوم وشرحه خطبة الكشاف وتشنيف الاسماع ومسائل منثوره ومنها في الافيون ومنها في القهوة والقول الاقوى في تعريف الدعوى وزهر الربيع في مساعدة الشفيع واختلاف اراء المحققين في رجوع الناظر على المستحقين والتفصيل بين التفسير والتأويل والرجمة في بيان الضجعة وضوء الصباح في ترجمة ابي عبيدة الجراح ومنها في دعاء الاستفتاح واتحاد القمرين واللامعة في تحريم المتعة وتقعقع الشن في نكاح الجن ومنها في الاحاديث المتواترة والخلاص في ضمان الاجير المشترك والخاص والاظهار لبيمين الاستظهار والمطالب السنية للفتاوي العلية والحامدية في الفرق بين الخاصة والخاصية والنفحة الغيبية والحظ الاوفر في ترجمة الشيخ الاكبر وصلاح العالم بافتاء العالم وعقيلة المغاني في تعداد الغواني وجمال الصورة واللحية في ترجمة سيدي دحية والعقد الثمين وديوان شعر وقد ترجمه سعيد السمان الدمشقي في تاريخه وقال ان اصل بني العمادي هم من بلاد بخاري وان من اجدادهم صاحب الفصول العمادية وقد ذكر والد المؤرخ المرادي عن جدهم محمد عماد الدين الدمشقي البقاعي الاصل مات بدمشق سنة ١١٧١ ·

حسن المعروف بالخياط الدمشقي الامام في اللغة والادب وكان من ادباء دمشق

يداعبونه في ابياتهم وقصائدهم وقد اشتهر وبهر في النظم والنثر مات بدمشق سنة ١١٧١ .

وكان يترنم بقول احد الحكماء :

واذا قعدت بمجلس فانصت به   واجعل كأنك في الورى مجهول

واذا بليت بمنصب فاعدل به   واعلم بانك بعدها معزول

واذا رأيت جنازة فاحمل بها   واعلم أنك بعدها محمول

واعمل لدار لايزال نعيمها   في سائر الايام ليس يحول

حسين بن عبد الرحمن بن محمد الشهير بالسرميني الحنفي الدمشقي قرأ وجالس الاعيان ولازمهم وادعى نظم الشعر والفضل حتى شرع بالتدريس بمدرسة الخصامية الكائنة بسوق الدرويشية وكان احد من يتولى النيابات بالحكم بالمحاكم العونية وغيرها كوالده عبد الرحمن مات سنة ١١٧٤ .

حسين بن مصطفى بن عبد الرحمن بن محمد المعروف كاسلافه بالحصني تقدم ذكر قريبه السيد تقي الدين الحصني الشافعي الدمشقي الحسيني السيد الشريف والعالم الفاضل الفقيه الصالح التقي كان من افاضل وقته خصوصاً في فقه مذهبه مع صلاح واجتهاد في العبادة والتقوى والاشتغال بمطالعة الكتب الصوفية واتباع سنن الاسلاف ولد بدمشق وقرأ بها على اجلة من شيوخها واقرأ دروساً وافاد ثم قال المؤرخ المرادي واخبرت انه الف حاشية على المنهاج وتلمذ على الاستاذ احمد النحلاوي ولازمه فلاحت من حضرته لمحة ونفحة مات في سنة ١١٧٣ ودفن بتربتهم بباب الصغير واخوه السيد علي كان من الاتقياء الاخيار وقد ادركته وهو ممن يتبرك به وبدعواته .

حسين ابن محمد الدمشقي الشافعي الشهير بالمنير الشيخ الامام العالم الفاضل انتفع منه خلق كثير درس شرح الغاية والمنهاج والمنهج في جامع الدرويشة وقرأ دروساً في الجامع الاموي مات سنة ١١٦٠ .

خليل بن محمد بن ابراهيم القتال الدمشقي الحنفي له اليد الطولى في الاصول والفروع واشتهر فضل جده ابراهيم في عصره وكان من اجلة علماء دمشق

تقدم معنا ذكره. قال المرادي وكان المترجم من الشعراء مات سنة ١١٧٦ .

درويش بن ناصر الدين المعروف بالحلواني الحنفي البعلي ثم الدمشقي الخلوتي كان عارفاً فقيهاً نحريراً في الحديث وعلم الكلام قرأ على جماعة منهم ابراهيم الفتال واسماعيل الحائك المفتي وعلاء الدين الحصكفي مات بدمشق سنة ١١٠٧ .

رحمة الله بن عبد المحسن بن يوسف جمال الدين الايوبي الانصاري الحنفي الدمشقي العالم الكامل الفقيه الصدر نشأ في حجر ابيه واخذ عن جملة مشايخ عصره منهم العارف عبد الغني النابلسي واسماعيل الحائك والشهاب احمد الغزي وابو المواهب مفتي الحنبلي واخذ رتبة الموالي العلية مات بدمشق سنة ١١٠٥ .

سعيد بن ابراهيم بن عبد المحسن بن جمال الدين الايوبي الانصاري الحنفي الدمشقي اخذ عن شيوخ دمشق في عصره الفاضل الكاتب المتفوق المحصل مات سنة ١١٤٣ .

سعيد بن محمد بن اسماعيل بن زين بن بهاء الدين المعروف بالجعفري الشافعي العالم العامل هو من شيوخ المؤرخ المرادي مات سنة١١٨٣ .

سعيد بن محمد بن احمد السمان شاعر دمشق ومؤرخها كان بارعاً في اللغة والادب متضلعاً ومن المجيدين صنعة الانشاء والنظم احد افراد الزمان بالادب ونظم المعاني وله معرفة في علم الموسيقى والالحان بحسن الصوت والاداء واجازته جميع علماء دمشق في سائر العلوم وله تاريخ في مدح دمشق وتراجم رجالها سماه الروض النافح فيما ورد على الفتح من المدائح ترجم به شعراء عصره وجمع آثار الفضلاء وجعله كالنفحة للمحبي والريحانة للخفاجي والسلافة لابن معصوم وله ديوان شعر سماه منائح الافكار في مدائح الاخيار ونظم المغني في النحو والف حاشية على الكامل للمبرد مات سنة ١١٧٢ بدمشق وقد ذكر في ديوانه بيتي ابن هاني الاندلسي وهما :

كانت مسائلة الركبان تخبرني ... عن جعفر بن فلاح اطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ماسمعت ... اذني بأحسن مما قد رأى نظري

ثم نقل انه وجد مكتوبا على باب ابن هاني بعد قتله على يد القرمطي بدمشق :

يا منزلاً لعب الزمان باهله فابادهم بتصرف لايجمع
اين الذين عهدتهم بك مرة كان الزمان بهم يضر وينفع
ذهب الذين يعاش في اكنافهم وبقي الذين حياتهم لاتنفع

سعدي بن عبد القادر بن بهاء الدين العمري المعروف بابن عبد الهادي الشافعي العالم الناظم الناثر نادر العصر ونتيجة الدهر كان من جملة محاسن دمشق ونابغة ادبائها تخرج على علماء عصره رحل الى الروم وخدم السلطان احمد خان بقصيدة كل بيت بتاريخ حين بنى خزينة لكتب العلم مات سنة ١١٤٧ بدمشق اقول وقد رأيتها في خزانة الكتب لما كنت في دار السلطنة .

عبد الحي بن علي الشهير بالخال وبابن الطويل الطالوى الحنفي الدمشقي الاديب الشاعر البارع كان اعجوبة وقته في الموشح وغالب هذه الفنون وديوانه مشهور متداول بايدي الناس وجمع كتاباً سماه مرور الصباح والشمول وسرور الصباح والشمول جمع فيه كل حكاية نادرة مات بدمشق سنة ١١١٧ وله ديوان شعر آخر لطيف في مكتبة برلين .

عبد الرحمن بن ابراهيم بن احمد الشهير بابن عبد الرزاق الحنفي الدمشقي خطيب السنانية والمؤرخ الشهير برع في جميع العلوم وتخرج عن مشايخ دمشق ودقق وحرر لاسيما علم الفرائض والفقه والادب ونظم في الفرائض منظومة سماها قلائد المنظوم وشرحها له شرح على الدر المختار سماه مفاتح الاسرار ولوائح الافكار وله ديوان شعر وخطب وترجمه الامين المحبي في ذيل نفحته وله كتاب لطيف في تاريخ الشام وفضائلها ومحاسنها وهو عندنا بخطه وله كتاب اللا لي مات سنة ١١٣٨ .

عبد الرحمن بن عمر بن ابراهيم المعروف بالسفرجلاني الدمشقي الشافعي قال المؤرخ المرادي هو جدي والد والدتي صدر دمشق ورئيس علمائها اعطاه الله السعة الزائدة والثروة التامة وكان يقرأ في دارهم المعروفة بهم جميع العلوم

والف حاشية على البيضاوي وشرحا على حزب البحر واخذ رتبة الموالي من الرتب العلية مات سنة ١١٥٠ .

عبد الرحمن بن محمد بن علي الشهير بالهلال النحلاوي الشافعي الدمشقي اشتغل على علماء دمشق وبرع في الادب على اقرانه خصوصاً في فن التاريخ فانه انفرد به في وقته مع معرفته بالعلوم وترجمه سعيد ابن السمان ومدحه بقصيدة طويلة واشعار ذكرها المرادي وانه حج ماشياً مستخدماً عند بعض الجمالين لقلة ما بيده مات بدمشق سنة ١١٦٣ .

عبد الرحمن بن محمد الشمس بن زين الدين الشافعي الدمشقي الشهير بالكزبري العلامة النحرير والمحدث الشهير شيخ الفن وامامه العابد الناسك اخذ العلوم عن خاله العلامة علي بن احمد الكزبري وعن العارف عبدالغني النابلسي والشمس محمد بن عقيلة المكي درس بالجامع الاموي تحت قبة النسر بعد وفاة خاله وانتفع به خلق كثير لايتردد الى احد من ذوي الوجاهات كان مشتغلاً بخويصة نفسه ويقول بئس العلماء في باب الامراء ونعم الامراء في باب العلماء مات بدمشق سنة ١١٨٥ او شر الامراء ابعدهم من العلماء وشر العلماء اقربهم من الامراء .

عبد الرحيم بن مصطفى بن احمد الدمشقي الصالحي الشهير بشقده صاحب تاريخ شذرات الذهب شيخ الشافعية اخذ عن العارف النابلسي وابي الفلاح عبد الحي العسكري وتصدر للوعظ والتدريس ولوعظه تأثير في القلوب وكان يخطب بجامع قرية البرزه ويؤم بجامع العفيف بالصالحية واختصر تاريخ شيخه عبد الحي المسمى شذرات الذهب في اخبار من ذهب (وقد نوهنا في كتابنا هذا عن اخذنا عنه كثيراً من تراجم الرجال وله غير ذلك من الآثار وله شعر لطيف ولد بصالحية دمشق ونشأ بها مات سنة ١١٩٠ .

عبد الرحيم بن السيد اسعد بن اسحاق المعروف كاسلافه بالمنير الدمشقي الشافعي الشيخ الفاضل له مشاركة في العلوم وكتب كتباً بخطه كثيرة حفظ واخذ عن والده المتقدم الذكر وبعد وفاة والده ذهب الى دار الخلافة لاجل

المعيشة وتعاطي الاسباب لها حيث ضاقت به الاحوال مات سنة ١١٩٣ .

عبد الرحيم بن علي الخلاتي الدمشقي الشافعي العلامة الاديب كان اماماً في الفرائض والحساب والفلك وله يد في سائر العلوم ترجمه سعيد السمان ومدحه واثنى عليه في كتابه مات سنة ١١٤٠ .

عبد الرحيم بن مصطفى الشهير بابن عبد البر الدمشقي امام الحنفية بجامع بني امية كان فريداً في دهره وحيداً في عصره له شرح على ورد الوسائل مات سنة ١١٧٣ .

عبد الغني بن اسماعيل المعروف كاسلافه بالنابلسي الدمشقي النقشبندي القادري العارف استاذ الاساتذة وجهبذ الجهابذة الولي ينبوع العوارف والمعارف الحبر الشهير والعلامة النحرير الكبير شيخ الاسلام صدر الائمة الاعلام صاحب المصنفات التي اشتهرت شرقاً وغرباً وتداولها الناس عجماً وعرباً قطب الاقطاب منبع العلوم الربانية الجامع بين الحقيقة والشريعة ومطلع شمس الهداية الالهية وقطب دائرة العلوم ومركز احاطة المنطوق والمفهوم مع فيض رباني وسر في الكرامات الهي وبالجملة فلم يأت بعد ابن العربي الاندلسي اجل منه في فهم علوم الحقيقة والاشارات والرقائق نشأ يتيماً واشتغل بقراءة العلم والفقه واصوله والحديث والتفسير على مشايخ جمة منهم احمد القلعي ومحمد الحاسني خطيب دمشق ومحمد الاسطواني وابراهيم الفتال والصفوري الدمشقي ومحمد بن كمال الدين حمزة وحضر دروس والده في السليمية وفي الجامع الاموي رحل الى دار الخلافة والف رحلاته القدسية والمصرية والحجازية واللبنانية وله مؤلفات كثيرة مشهورة لولا ضيق المقام لاتينا باسمائها جميعاً واكثرها عند احفاده كلها حسنة متداولة مفيدة ونظم لايحصى من كثرته وقد ذكرها باجمعها المرادي وابن سبطه العلامة كمال الدين الغزي مفتي الشافعية جمعها في كتاب سماه الورد القدسي والوارد الانسي في ترجمة العارف النابلسي تقلد افتاء دمشق بلا رغبة ولا طلب ثم اخذها منه السيد خليل البكري بواسطة بعض حاسدي الشيخ النابلسي من اكابر دمشق

وعلمهم بحقه مضبطة يتخبون البكري بها وهذا منتهى العجب بسبب الحسد ولله في خالقه شؤون وعلى هذه الاسباب نظم الشيخ النابلسي تلك القصيدة التي حمل بها على رجال دمشق واهلها وهي طويلة مطلعها :

يا ايها الداخل للشام لا تدخل ففي الشام شياطين
واهرب من الاقوام في جلق ولا تقل ورد ونسرين
عالمهم يحسد امثاله كأنه في الحقد تزبين
لهم احباء اذا ما التقوا وفي افتراقهم تعابين
بل عندهم في مجلس واحد من بعضهم للبعض تدهين
وباطن التدهين مابينهم في ضمنه عيب وتشيين
تحسبهم انت جميعاً وهم قلوبهم شتى كما شينوا
لا تغتر ر ان اظهروا اللين فالحياة من اوصافها اللين

وهي طويلة لايسع المقام سردها لانها مخالفة لمشرب كتابنا وقد اكتفينا بذكر ماتقدم منها لانه يكفي بقراءته لاصلاح انفسنا وتطهير حياتنا الاجتماعية من النقد والاعتراض ومتى صلح القلب صلح الجسد كله بصرنا الله بعيوب انفسنا . وله قصائد جمة في مدح دمشق واماكنها ومتنزهاتها الشهيرة قد اتينا على اكثرها في الجزء الثالث من كتابنا هذا ولله في خلقه شؤون هذا في زمانه فكيف في زماننا لابد لكل زمن من قيل وقال والمعاصرة حرمان مات بدمشق سنة ١١٤٣ ودفن بدارهم محل المسجد اليوم .

عبد الكريم بن محمد بن محمد كمال الدين الحسيني المعروف بابن حمزة الحنفي الدمشقي نقيب الاشراف بدمشق العلامة الرئيس الاديب كان مائلاً الى التنعم والرفاهية ولطف الاخلاق ومحاسن الشيم مافاق به اهل عصره وزمانه وله شعر لطيف ترجمه المحبي في النفحة وانه رثاه العارف عبد الغني النابلسي مات بدمشق سنة ١١٦٨ .

عبد اللطيف ابن احمد المعروف بالمكتبي الشافعي الدمشقي العلامة النحرير والمعتقد الشهير كان محققاً لغوياً له اليد الطولى في العلوم كلها لاسيما في الحساب

والفلك والهيئة والتقويمات انفرد بهذه العلوم ونزل مصر ثم نوى الحج ومات بعرفات سنة ١١٦٢ وله ذرية بدمشق وحلب .

خليل بن محمد الشهير بالحصاني الدمشقي له اليد الطولى في العلوم سيما في التفسير وكان يحل مشكلات البيضاوي ويكثر مطالعته اجتهد في تحصيل العلوم بهمة على جماعة منهم النجم الفرضي وعلاء الدين الحصكفي وابو السعود القباقبي الدمشقي درس بالجامع الاموي بين المغرب والعشاء وفي رمضان وكان اماماً به ذهب الى دار الخلافة وتقلد رتبة موصلة الصحن من الرتب العلية وركب في موكب المحمل الشامي مات بدمشق سنة ١١٢٣

خليل بن اسعد الصديقي البكري الدمشقي كان من افراد الزمان فقيهاً عالماً اديباً بارعاً اذا نطق تعشق الآذان لسماع كلامه ونوادره وطلاقة لسانه وله النظم والنثر تخرج على جماعة من فحول علماء دمشق واخذ عن العارف عبد الغني النابلسي اخذ افتاء الحنفية بدمشق من العارف المذكور وبعده ندم على ما فعل في ذلك ثم تولى قضاء دمشق ثم قاضياً في دار الملك مع رتبة قضاء عسكر الاناضول مات بها سنة ١١٧٣

عبد الرحمن ابن احمد بن علي المنيني الاصل الدمشقي المولد الحنفي تخرج على والده كان من الشعراء الاذكياء الفضلاء حسن الاخلاق له شعر لطيف ذكره المرادي مات بدمشق سنة ١١٧٢

عثمان ابن بكري الشهير بالنحاس الدمشقي الشافعي العلامة الفقيه احد الائمة الاربعة الذين كانوا باسم واحد وفي وقت واحد في بلدة واحدة وهم صاحب الترجمة مات سنة احدى وثلاثين ومائة والف

وعثمان القطان الكفرسوسي قرية قريبة من دمشق الساكن بها ومدرس السليمانية مات سنة ١١١٠ وعثمان ابن حوده الرحبي امام الشافعية بجامع بني امية مات سنة ١١٢٠ وعثمان بن محمد الشمعة البعلي الاصل مدرس العلوم النافعة في كل فن بالجامع الاموي مات سنة ١١٢٦ وقد اجازهم جميعهم العلامة المرحومي في سائر العلوم وهي عندنا بخطه .

عمر بن علي الشهير بابن السكري الدمشقي الصالحي الفقيه المبارك له مؤلف لطيف نظم الفتوح في طرب النفس والروح مات سنة ١١٢٩

عبد الله بن محمد بن عثمان الشهير بابن الشمعة المتقدم ذكره هو من العلماء والمحدثين زينة دمشق وفخرها في عصره مات سنة ١١٨٠

عبد الهادي بن علي بن برهان الدين الحسيني البقاعي الجنيني الدسوقي العالم الفقيه اخذ عن العارف النابلسي مات سنة ١١٩٠ وقد تقدم ذكر جده في القرن التاسع من كتابنا .

عبد الرحمن بن محمد الذهبي الدمشقي المعروف بابن شاشه نزيل الحرمين والمقيم في المدينة المنورة ترجمه سعيد السمان الدمشقي ثم انتقل الى مكة وكتب منها الى العارف النابلسي قصيدة طويلة مطلعها

ابداً لذاتك دائماً انشوق فعلام برق لقاك لا يتألق

قال المرادي ولا ادري باي سنة مات الا انه كان موجوداً سنة ١١٤١

عبد الرزاق بن محمد البهنسي الدمشقي الحنفي كان عالماً محققاً عرف التفسير والفقه والادب وغير ذلك من العلوم مات سنة ١١٨٩ وله شعر رقيق منه

اقول لكانونين انهكنا القوى وما فيكما للعالمين نشاط
فقالا اذا غبنا سيحمد امرنا ولكن شباط ما عليه رباط

علي بن ابراهيم بن عبد الرحمن العمادي الدمشقي صدر صدور دمشق علامة نحرير فقيه بارع في الادب قرأ على والده وعميه شهاب الدين وكمال الدين وقد تقدم معنا ذكرهم تولى تدريس السليمانية في الميدان الاخضر في رجب وشعبان ثم تولى افتاء الحنفية بدمشق ترجمه المحبي في نفحته وانه سلك بها سلوك اسلافه المتقدمين وقال بعض حملة الاخبار ان هذه الاسرة خدمت الدولتين في العلم والافادة مات سنة ١١١٧

عبد الله بن عمر العجلوني الحنفي النحوي فاق اهل عصره ولد في عجلون ورحل الى دمشق وصار عين علمائها انتفع به الجم الغفير مات سنة ١١١٣

عبد الجليل بن شيخ الشيوخ ومرجع العلماء بالديار الشامية الشيخ ابو المواهب هو سعد زمانه ورئيس عصره واوانه اخذ العلوم عن والده وكان مدرساً في الجامع الاموي والبدرقية لان منزله قريب منها مات قبل والده سنة ١٣١٩

عبد الرحمن السليمي الشهير بالمجلد الحنفي الدمشقي كان مدرساً في خانقاه السميساطية عالماً محققاً له باع طويل في العلوم العربية مات سنة ١١٤٠ بدمشق .

عبد الرحيم الكابلي الافغاني ثم الدمشقي مدرس العذراوية كان من العلماء المتبحرين الورعين مات بدمشق سنة ١١٣١ .

عبد القادر ابن عمر بن ابي تغلب بن سالم التغلبي الشيباني الحنبلي الصوفي الدمشقي الامام العالم الفقيه كان يرزق من عمل يده في تجليد الكتب ومن ملك له في قرية دوما يدرس العلوم بالجامع الاموي بكرة النهار وبين العشائين بعد وفاة شيخه أبي المواهب وكان مصون اللسان في اعراض الناس بشوش الوجه تعتقده الخاصة والعامة يكتب التمائم للمرضى والمصابين باعراض سماوية وارضية لا يخالط الحكام ولا يدخل اليهم صنف شرحاً على دليل الطالب مات سنة ١١٣٥

علي بن احمد بن علي الشهير بابن كزبر الدمشقي الشافعي العلامة الحجة المقرىء الفقيه وحيد في زمانه عارفاً بالعلوم والفنون كلها مات سنة ١١٦٥

علي بن احمد المنيني الدمشقي الحنفي العالم الفقيه قرأ على والده ولما رحل والده للروم تصدر في غيبته للتدريس في مدرسة العدلية الكبرى ترجمه سعيد السمان مات سنة ١١٤٣

علي بن اسماعيل بن حمزة بن حسن الحسيني المعروف كأسلافه بالعجلاني الدمشقي الحسيب النسيب الرئيس نقيب الاشراف بدمشق وكان عليه رتبة من الموالي ولم يصل احد من بني عجلان من متاع الدنيا والثروة الى ما وصل اليه وله القرى والمزارع تولى نيابة محكمة الباب وكان احد صدور دمشق

ومن رؤسائها ارخ وفاته بمرثية طويلة الشاعر مصطفى بن عبد الرحيم اللوجي جاء تاريخه « في المدن قد بات مولانا النقيب علي » سنة ١١٨٣

علي بن محمد بن مراد المعروف بالمرادي الدمشقي مفتي الحنفية بها وعين اعيانها العلامة الصدر وواحد العصر قوالا بالحق يصدع به ولايبالي مات سنة ١١٨٤

محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن العمادي الدمشقي تقدم ذكر ولده حامد صاحب الفتاوي كان صاحب الترجمة عالم العلماء وصدر الصدور بالشام ومفتي الحنفية بها مات سنة ١١٣٥

محمد بن ابراهيم العدوي الدمشقي الصالحي مفتي الشافعية بدمشق كان له حرص لنشر العلم ومثابرة على مطالعته يأتي الجامع الاموي كل يوم للتدريس لا يمنعه حر ولا برد مات سنة ١١٣٢

محمد امين ابن ابراهيم الايوبي الانصاري الدمشقي العالم الكامل كان له ميزة في علم الادب ولي رئاسة محكمة الباب مرتين وعزل عنها مات سنة ١١٧٧

محمد بن عبد الرحمن المعروف بالتاجي تقدم ذكر والده البعلي ثم الدمشقي صاحب الفتاوي الحنفية المعروفة بالتاجية خاتمة العلماء الاعلام فريد وقته في العلوم معقولها ومنقولها مات سنة ١١١٤

محمد بن عبد الرحمن الغزي العامري الدمشقي مفتي الشافعية بدمشق وأوحد علمائها الاعلام كان عمدة في التاريخ والادب وحفظ الانساب والتراجم مات سنة ١١٦٧

محمد بن علي المعروف بالكاملي الشافعي الدمشقي الامام العلامة كان واعظاً محققاً اجازه النجم الغزي وغيره عديم النظير في وعظ درس القبة فصيح اللسان حسن الايراد واستحضار المناسبات في كل مجلس عليه حلاوة وطلاوة قول في الشعر

اذا شئت ان تبكي فقيداً من الورى وتندبه بعد النبي المعظم
فلا تبكين الا على فقد عالم يبالغ في التفهيم للمتعلم
وفقد مليك عادل حاز ملكه بآثار نور العدل لا بالتحكم
وفقد شجاع مخلص في جهاده قد انتشرت اعلامه بالتقدم
وفقد كريم لا يمل من العطا يفرج هم العسر عن كل معدم
وفقد ولي صالح صادق التقى مطيع لرب العالمين مسلم
فهم خمسة يبكون حقاً وغيرهم الى حيث القت رحلها ام قشعم

كان بركة الشام اخذ عنه العلماء منهم الشهاب المنيني مات سنة ١١٣٦

محمد بن عبيد بن عبد الله بن عسكر اصله من قاره ثم الدمشقي الشهير بالعطار الشافعي الفاضل الصالح الشاب الاديب مات سنة ١١٥٧

محمد بن عمر بن ابي بكر المعروف بالحصري الدمشقي (اشتهرت هذه الاسرة اليوم بنصري) سبط البكري الحسيني كان خلاصة الادباء ترجمه المحبي بنفحته ووصفه بالحسيب النسيب ما مثله في كرم الطباع حسيب مات سنة ١١١١

محمد بن عبد الجليل بن ابي المواهب الحنبلي الدمشقي مفتي الحنابلة بها بعد والده وجده اجازه العارف النابلسي ودرس بالجامع الاموي مات سنة ١١٤٨

محمد بن محسن المعروف بابن هبات الدمشقي احد جهابذة عصره تفرد في العلوم والفنون ولد سنة ١٠٩١ هـ وله مؤلفات كثيرة منها تحفة الراوي اقول يوجد في مكتبة شيخ الاسلام ولي الدين ، ومنها التنكيت والافادة في تخريج احاديث خاتمة سفر السعادة اقول يوجد في مكتبة اسعد افندي نقيب الاشراف في دار السلطنة ومنها شرح نخبة الفكر اقول يوجد في المكتبة الخديوية المصرية وله بعض آثار اقول بلغني انها توجد في مكتبة عارف افندي شيخ الاسلام في المدينة المنورة وبعضها في مكتبة برلين والله اعلم مات سنة ١١٧٥

محمد امين بن محب الله المحبي الحموي الاصل الدمشقي المولد والدار الحنفي العلامة الاديب فريد العصر ويتيمة الدهر المؤرخ الشهير الذي يعرف العقول بانشائه البديع الف مؤلفات حسنة منها الذيل سماه النفحة الريحانية موجود في مكتبة الخديوية بمصر لتاريخه المطبوع الذي سماه خلاصة الاثر في تراجم رجال القرن الحادي عشر ومنها قصد السبيل فيما في لغة العرب من الدخيل وحاشيته على القاموس وعلى ديوان المتنبي وله ديوان شعر ولي تدريس الامينية بسوق الحرير بدمشق قال الشمس الغزي في كتابة لطائف المنة اجتمعت به مرتين في خدمة والدي لان بينهما مودة مات سنة ١١١١ ودفن بتربة الذهبية في مرج الدحداح قبالة قبر العارف ابي شامة .

محمد بن اسعد الدمشقي الحنفي الشهير بالعجي خطيب جامع السنانية العالم النبيل الحموي الاصل ولد بدمشق واخذ عن علمائها منهم الشهاب المنيني والشمس محمد بن عبد الحي الداودي وموسى ابن اسعد المحاسني وحضر درس الحديث تحت قبة النسر على اسماعيل العجلوني ودرس بالجامع الاموي مات سنة ١١٧٤ .

محمد بن احمد الشافعي الدمشقي الشهير بابن القطب كان يحترف بيع العطارة في حانوته بمحلة القيمرية قرب المدرسة الفتحية الحافظ المقريء على العشرة في علم القراءة مات سنة ١١٦١ .

محمد بن زين العابدين بن زكريا بن البدر محمد الغزي العامري الدمشقي الامام العالم البارع في سائر العلوم درس بالاموي وفي جامع الخراب مات سنة ١١٨١ .

محمد بن احمد الشهير بالعطار الدمشقي الشافعي نزيل القسطنطينية والمتوفي بها وهو من خيرة علماء عصره وترك ذرية تركية .

محمد بن عبد الحي بن علي الداودي الدمشقي الشافعي كان عالماً صوفياً فقيهاً تخرج على العارف النابلسي وغيره وله اجازات منه ومن الشيخ محمد بن احمد الملقب والشهير بعقيلة وقد رأيت ذلك بخطهما في مجموعة له عندنا وانتقم منه

كثير من علماء دمشق ومؤلفاته كثيرة تدل على سعة فضله وتفننه في العلوم منها مجموعته الحاوية لكل غريبة ومنها حاشيته على ابن عقيل وحاشية كبيرة على شرح المنهاج للقاضي ذكريا والداودي هو جد محمد امين عابدين صاحب الحاشية لامه وهذا المترجم من جملة من غفل عن ذكرهم المؤرخ المرادي كما اشرنا الى ذلك في ترجمته في القرن الثالث عشر من كتابنا هذا كانت وفاته سنة ١١٦١

موسى بن اسعد المحاسني الحنفي الدمشقي احد الشيوخ الاعلام الذين ازدهت بهم دمشق الشام واعطي رتبة الموالي من الرتب العلمية من قبل الدولة العثمانية وكان عجيب التقرير في دروسه لم ير نظيره في الانتقالات عند الدرس الى علوم شتى نظم متن التنوير في الفقه وشرحه ومتن التلخيص في المعاني وشرحه مات سنة ١١٧٣ .

مصطفى بن محمد المعروف كأسلافه بالاسطواني الحنفي الدمشقي ولي خطابة الجامع الاموي بعد وفاة اسماعيل الحائك المفتي كان عالماً اديباً حسن الاخلاق مات سنة ١١٢٥ .

مصطفى بن احمد باشا بن حسين بن اسماعيل بن برهان الدين الدمشقي المعروف بالترزي الاديب الشاعر الاوحد الطبيب الفيلسوف برع في فن الطب ونفع خلقاً كثيراً واشتهر امره مات سنة ١١٦٠ .

مصطفى بن حسين المعروف بالصادي الدمشقي الحنفي احد الادباء والافاضل الذين سحروا برقة بيانهم وبراعة بنانهم العقول والالباب مات سنة ١٢٣٧ وله ديوان لطيف يوجد في مكتبة برلين .

مصطفى بن كمال الدين بن علي البكري الحنفي الدمشقي الاستاذ العارف الرباني الشهير احد افراد الزمان وصناديد العلماء الاعلام والاولياء العظام رحل الى بلاد كثيرة وصار له مريدون وولد له بغيابه محمد كمال الدين والف وهو في مصر مؤلفات نافعة منها الكشف الانسي وقد شرح الهمزية وورد الوسائل وحزب الشعراني وصلوات محمد البكري والمنفرجة وقصيدة الغزالي وتائية ابن الفارض وله اثنى عشر رحلة ومقامه وسبعة دواوين شعرية

والفية في التصوف وورد السحر الذي شاع وعمت به البقاع وله على صلوات ابن مشيش وصلوات سيدي عبد السلام وعدد مؤلفاته المرادي من شاء فليرجع اليه وقد افرد الجبرتي في تاريخه تراجم بني البكري الذين هم في مصر مع ترجمة السيد مصطفى البكري صاحب الترجمة قال المرادي ولد بدمشق وتوفي والده وعمره ستة اشهر فنشأ يتيماً في حجر ابن عمه احمد شفيق علي بن كمال الدين بن عبد القادر البكري وبقي في دارهم الكائنة في محلة البيمارستان النوري بدمشق ثم قال وقد افرد ولده شيخنا محمد كمال الدين مؤلفاً سماه التلخيصات البكرية ورثاه هو وشعراء عصره مات سنة ١١٦٢ ودفن بعد منازعة في تربة المجاورين بمصر وله بلوغ المرام في خلوة الشام .

صفا ابن احمد بن ايوب العدوي الصالحي الدمشقي الخلوتي الامام الصدر العلامة الفاضل البارع المقري النحوي الرئيس ولي افتاء دمشق واستمر مفتياً الى ان مات في ذي الحجة سنة ١١٢٠ .

والعدوي نسبة الى عدي بن مسافر الصحابي واصل اجداده من البقاع العزيز ولهم اقارب في طرابلس .

رافع بن عبد الرحمن بن احمد بن عبدالله الصيداوي ثم الدمشقي الشهير بابن البزرة العالم الاوحد اخذ الفقه عن شيوخ دمشق والحديث عن الشهاب العطار مات سنة ١١٩٦ .

مصطفى بن محمد الايوبي الدمشقي كان عالماً محدثاً متفنناً روى عنه الكمال الغزي صاحب التذكرة الشهيرة مات سنة ١١٧٠

قال صاحب التذكرة وفي ذلك الوقت مات الاديب البليغ عبد الحليم بن احمد اللوجي من افاضل دمشق وشعرائها انفرد بالمهارة في الادب واللغة وله شعر لطيف نذكر بعضا من قصائده الطويلة قوله :

ما احتيالي وللزمان عوادي ... وصروف روائح وغوادي
اورثتنا حزناً طويلاً مداه ... ورمتنا بسيء الانكاد

يوسف بن محمد الطرابلسي الاصل ثم الدمشقي مولداً رئيس الاطباء بها

كان يلقب بابقراط وعنده مهارة تامة في الطب وفنونه والتشخيص واعطاء العلاجات ومعرفة الداء والدواء وله مشاركة في بقية العلوم واطلاع عليها وهو جد يوسف اغا الحكيم الدمشقي الميداني كانت وفاة صاحب الترجمة سنة ١١٠٥ وستأتي معنا ترجمة حفيده المذكور .

يوسف بن محمد بن يحيى بن احمد الشهير بالمالكي الدمشقي الشريف لامه تقلد افتاء المالكية بها بعد وفاة اخيه اسعد كان عالماً فقيهاً عمر قصراً بالجسر الابيض بالصالحية واشتهر به وصار شيخ الخلوتية وعمر زاوية ومنارة قرب دارهم ودار بني البكري في حارة بيمارستان النوري سكنى اسرتهم الى اليوم واتلف امواﻻً كثيرة جداً على ذلك وصار يقيم بها الاذكار مات بدمشق سنة ١١٧٣ ودفن بالدحداح بالذهبية .

يونس الازهري نزيل دمشق ومدرس الحديث تحت قبة النسر بالجامع الاموي في الاشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان كان شجاعاً قوي النفس لايهاب احداً من المخوقين جريء القلب على الحكام يصدع بالحق ولا يخاف لومة لائم انفرد في العلوم العقلية والكلامية وكان علماء دمشق يهابونه مات سنة ١١٣١ ثم بعده انتقل هذا الدرس لبني الكزبري .

يوسف بن عمر الطرابلسي الحنفي الشهير بالذوق احد علماء طرابلس الشام الاعلام ونزيل دمشق الامام زينة العصر الفقيه الصوفي الاديب الاوحد وكان نزيل العارف الشيخ عبد الغني النابلسي .

وقد ذكر الكمال الغزي في مجموعة قديمة انه في سنة ١١٢٥ تحرر اجازة بخط العلامة الذي طلعت من مشارق افكاره انوار التنزيل ولمعت من مطالع انظاره اسرار التأويل الحبر الكامل المتين قدوة الاولياء العارفين وزبدة الاصفياء الواصلين الشيخ محمد بن علي المعروف بالكاملي الدمشقي المتقدم الذكر بما اجازه به شيخه العلامة النجم الغزي بسنده عن والده محمد رضي الدين بسنده عن والده احمد شهاب الدين الغزي العامري الدمشقي بسائر العلوم والحديث المسلسل بالدمشقيين بما نصه: اما بعد فقد اجزت العالم الفاضل البارع

الصالح بن الصالح الشيخ محمد بن الشيخ عثمان البالي الدمشقي بما يجوز لي وعني روايته اوصيته بتقوى الله والاخلاص اليه سبحانه . وقد خفي علينا تاريخ وفاته الا انه مات في ذلك العصر .

صالح بن ابراهيم الجنيني الحنفي الدمشقي شيخ الحديث وامامه ومرجع الاصول والفروع ابوحنيفة زمانه العمدة العلامة الرحالة كان حسن الاستحضار في تقريره عديم النظير في تعبيره كانت كتب المذهب كلها نصب عينيه لكثرة قراءتها وتدريسها تخرج عليه كثير من العلماء مات سنة ١١٧٠ .

محمد بن عيسى بن محمود بن كنان الدمشقي احد العلماء الاعلام والائمة العظام في دمشق له الحوادث اليومية من تاريخ محرم سنة ١١١١ الى آخر سنة ١١٣٤ جاء فيها وصف حوادث السلاطين والقضاة والباشوات في الشام وما رافق ذلك من الحوادث المهمة للمشاهير من العلماء والشعراء يوجد منه نسخة في برلين وله حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين من حيث اساليب مباشرتهم ومعاملتهم وله الاكتفاء في ذكر مصطلح الملوك والخلفاء اقول كلاهما في برلين وهما من قبيل كتب السياسة والادارة وله المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية في وصف دمشق يوجد ايضاً في برلين وله تاريخ معاهد العلم في دمشق بحث عن المدارس وهو في مكتبة برلين ايضاً .

حسين بن الشيخ طعمة البيتاني الشافعي القادري الدمشقي وهو من قرية بيتيا كان احد المنكرين على العارف النابلسي ثم صار من اعز تلامذته له باع طويل في علم التصوف دفن بزاويته الشهيرة به الى اليوم في باب مصلى مات سنة ١١٤٣ .

احمد الصفدي امام الدرويشية في دمشق احد اصدقاء العارف النابلسي ومن معاصريه . الشيخ العالم الشاعر الناثر وحيد البلغاء في عصره مات سنة ١١٤١ ومن كلامه في مدح خير البرية :

ومن جمالك كل الكون مبتهج وكل فضل الى علياك ينتسب

سموت كل الورى فضلاً ومنك زكا | ياسيد المرسلين الاصل والنسب
ياشافع الخلق في يوم الزحام اغث | من جاء بالذنب والعصيان ينتحب
ها احمد الصفدي يرجو الشفاعة في | يوم اللقاء اذا ماطارت الكتب

نقل الشاعر الدوجي الدمشقي عنه تشطير القصيدة الفارضية الخمرية اولها :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة | مقدسة في الذات بكراً لها قدم
ولما بدت في الروح نفحة طيبها | سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
ولولا شذاها مااهتديت لحانها | ولا نالني منها الورود ولا الشم

الى ان قال في ختامها :

فلا عيش في الدنيا لمن عاش صاحيا | ومن ذاقها يوماً فقد شاقه الطعم
تعشقتها قدماً اموت بسكرها | ومن لم يمت سكراً بها فاته الحزم
على نفسه فليبك من ضاع عمره | دواماً مدى الازمان ماطلع النجم



— بيان تراجم اعيان رجال العصر الثالث عشر من الهجرة عسر علينا ذكر اسماء الرجال على مقتضى ترتيب تاريخ وفاتهم بل اكتفينا بذكر من وصل الينا خبره واطلعنا على ترجمته على حروف الهجاء —

ابراهيم بن علي الكردي الدمشقي الفرضي الماهر بالحساب والفلك والميقات وكثير من العلوم الغريبة مات بدمشق سنة ١٢٠٧ .

احمد بن عبدالله الخلاقي الدمشقي الحنفي اخذ عن علماء عصره وانتفع به كثير من العلماء اشتهر بصنعة ابيه وتفرد بسائر العلوم مات سنة ١١٤٥ .

احمد بن اسماعيل بن الشهاب احمد بن علي المنيني العثماني الدمشقي الطرابلسي الاصل الحنفي تقدم في كتابنا ترجمة ابيه واجداده ولد بدمشق سنة ١١٧٦ ونشأ في حجر ابن عمه محمد بن عمر بن احمد المنيني مدرس البخاري الشريف تحت قبة النسر بعد صلاة الجمعة في الاشهر الثلاثة ولما توفي ابن عمه المذكور تحتم عليه القيام بهذا الدرس الا ان قلة مابيده من البضاعة وعلل جسدية وغير ذلك من المعاذير الشرعية منعته عن اداء الدرس فتوكل عنه العلامة سعيد

الحلبي ثم بعد وفاته قام باداء الدرس ولده الشيخ عبدالله الى ان وقعت حادثة ستين بدمشق وابعد الشيخ فباشر ولد صاحب الترجمة محمد افندي الذي صار مفتي دمشق وستأتي معنا ترجمته في القرن الرابع عشر مات المترجم سنة ١٢٥٦ .

احمد بن اسماعيل بن محمد العجلوني الدمشقي الشهير بلقب بيبرس ولد سنة ١١٧٤ تخرج على يده خلق كثير من علماء دمشق مات سنة ١٢٧٤ .

احمد بن عبد اللطيف بن البربير الدمياطي الاصل البيروتي المسكن ونزيل دمشق قال كمال الدين الغزي في تذكرته عن ترجمته مانصه الشاعر المجيد المفلق الناثر الاوحد المفنن قال ولدكما اخبرني في عاشر محرم سنة ١١٦٠ ببلدة دمياط ونشأ بها واخذ عن علمائها ورحل الى بيروت وتوطنها وذلك سنة ثمانين ثم قدم دمشق وصدرت بيني وبينه مساجلات ومطارحات واناشيد عديدة وكتبت عنه اشياء كثيرة انتهى اقول لم يسع المقام هنا ذكرها وبالجملة الشيخ البربير علامة وفضله في العلوم والادب شهير له مؤلفات ومنظومات كثيرة منها الشرح الجلي على بيتي الموصلي طبع في بيروت وقد رأيت له رسالة لطيفة سماها زهر الفيضة في ذكر الفيضة بين فيها الطوفان الذي حصل في دمشق والضرر الكبير لاهلها وايقظهم من نوم الغفلة ثم قال فاذا علمت ذلك رأيت النعم طي النقم والشفاء ضمن السقم فالغيث وان خرب البلاد واهلك بعض العباد لايخرج عن كون باطنه رحمة وان كان ظاهره بلاء ونقم كما قلت :

فعل الاله تعالى كله حسن　　وحكم حكمته خال من الخلل
فربما كان في الاضرار منفعة　　وربما صحت الاجساد بالعلل

ومصداق هذا قوله تعالى وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم فمن عرف الله ازال التهمة وقال كل فعله لحكمة واذا احب الله عبداً ايقظه بيد الاقدار وأراه العبر بعين البصائر والابصار ليبادر بالتوبة قبل ان تصل اليه النوبة واذا غضب على عبد سيبه كالدابة ترعى هملاً ومد له بالاملاء املاً فلا يشعر الا وقد اخذ بظلفه الى محل حتفه انتهى كلامه . ومن شعره اللطيف

ارسل بيتين الى الجزار حاكم ايالة عكا الشهير يخبره بهما عن ظلم ومساوىء حاكم بيروت اسمه البخاري قال له

اميرنا ذو المعالي اكرم بهِ ثم انعم
قدخصنابالبخاري ياليته كان مسلم

فلما وصل كتاب البربير الى الجزار وقرأ البيتين بالحال امر بجلبه لعكا وحكم بقتله لظلمه الذي اشتهر عنه في مدينة بيروت وارسل خلافه مات بدمشق سنة ١٢٢٨ ودفن بالصالحية هجر بيروت لعدم صفاء العيش له فيها وصنع في هجو اهلها بيتين وهما :

بيروت مقبرة العلوم وحفرة اضحت على اهل العلوم سعيراً
كم عالم قد مات من ضغطاتها ورأى هنالك منكراً ونكيراً

وقد ذم بعض اعيان دمشق بقصيدة ختامها:

واقفر الله منهم شامنا زمناً فاصبحوا لا ترى الا مساكنهم

احمد بن عمر الاسلامبولي ثم الدمشقي قدم والده دمشق على مايقال واجتمع بعلمائها وحصل له القبول والاكرام منهم وتخرج ولده عليه وعلى علماء دمشق ثم تصدر للتدريس والتعليم وانتفع منه خلق كثير واشتهر فضله وعم نفعه وله مؤلفات وحواشي على الدرر وطبع له مناسك الحج وقال مؤرخاً وفاة صاحب الترجمة تلميذه الخاص الشيخ عبد السلام الشطي :

زر ضريحاً ضم حبراً عالماً عاملا بعلمه دون مرا
خادم النعمان في مذهبه شارح في الفقه منه الدررا
شيخنا الاسلامبولي احمد الفقيه بن الفقيه عمرا
مذ دعاه الله قلنا لا تخف فلك الغفار ارخ غفرا

مات بدمشق سنة ١٢٨١ وقد اعقب ولداً كان فاضلاً اديباً يتعاطى صنعة المحاماة توفي عقيماً اسمه يحيى .

احمد الشهاب بن عبدالله بن عسكر بن احمد الشهير بالعطار القاري الحمصي الاصل الدمشقي المولد محدث العصر العابد رحل الى مصر واخذ عن علمائها

واخذوا عنه ثم رجع الى دمشق وتصدر للتدريس وتخرج عليه كثير من علمائها وكان ركنها وشيخ علمائها ونقل بعضهم ان اصل هذه الاسرة المباركة من حلب ينتمون الى قضيب البان وقد رثاه العلامة ابن عابدين صاحب الحاشية بمرثية طويلة منها قوله :

ليقدح الجهل في البلدان بالشرر ويسكن العلم في كتب وفي سطر
قد مات من كان للتعليم منتدباً يبدي فروعاً بلا كلل ولا ضجر

الى ان قال :

وذاك خاتمة القوم الكرام ومن تزهو دمشق به كالكوكب السحر
من فاق اقرانه طراً بأربعة العلم والحلم والتوفيق والظفر

اشتهر فضله في سائر البلاد وكان مرجع العلوم النقلية والعقلية تفرد في الحديث والتفسير وانتفع به خلق كثير وهو المؤسس لمجد هذه الاسرة المباركة مات سنة ١٢١٨ وقد مدحه الجندي بقوله :

ياايها الحبر الذي هو لم يزل في الكون بحر فوائد وعوائد

اسعد بن عبد الرحيم بن اسعد بن اسحاق الشهير بالمنير الدمشقي الشافعي وقد تقدم معنا بعض تراجم رجال هذه الاسرة المباركة الشهيرة وأبيه وجده وهم خيار من خيار كان المترجم عالماً صالحاً ولد بدمشق سنة ١١٧٦ ونشأ بها واخذ عن علمائها من اجلهم له انتفاعاً العلامة الشمس محمد الكزبري وكانت وفاته سنة ١٢٤٢ .

امين بن محمد بن عبد الوهاب الجندي العباسي مفتي الحنفية بدمشق ولد في معرة النعمان سنة ١٢٢٩ كما ارخه بعض الفضلاء (ارخ غلام مفلح) هاجر مع ابيه الى حمص وكان والده مفتي المعرة ومدرسها تخلصاً من بعض فساد وحساد رجالها ثم انتخب مكان ابيه مدرساً ومفتياً وبعد ذلك بمدة قليلة توفي والده وكان اكثر انتفاعه منه وفي سنة ١٢٦٦ بحث امين باشا المشير على الجيش في دمشق عن رجل من طلبة العلم يحسن اللغة التركية ليكون كاتباً عربياً في فيلقه العسكري فذكر له فارسل واستحضره وسلمه ديوانه واظهر له العطف

والاحترام ولما تولى صديق المترجم محمد باشا القبرصلي مقام الصدر الاعظم رحل الى الاستانة لزيارته وفي تلك السنة شبت الفتنة بين الدروز والنصارى في الجبل وامتد لهيبها الى دمشق فعين السلطان ناظر الخارجية فؤاد باشا مأموراً مستقلاً فوق العادة بيده الصلاحية التامة في قمع الفساد فلما حضر لدمشق وسكنت الاحوال وابعد من ابعد من اعيان دمشق وعلمائها ومفتيها كما تقدم معنا في محله صدر الامر من فؤاد باشا بتعيينه مفتياً لدمشق وقد ارخه السيد محمود الحمزاوي بقوله من قصيدة طويلة :

فجئتك راجي اؤرخ لاجي   لقد زان فتوى دمشق امين

وفوض المفتي الجندي امانة الفتوى الى سعدي العمري وعبد الله السكري وعلاء الدين عابدين ومحمد البيطار وعين كاتباً لها صالح قطنا ومسوداً ابا الخير عابدين ثم لما ضمت القدس وصيدا وبيروت الى ولاية سورية عين والياً عليها راشد باشا وفي زمانه عزل وعين مكانه السيد محمود الحمزاوي الشهير وذلك سنة ١٢٨٤ ثم عين الجندي عضواً في مجلس الشورى في الاستانة واستصحب معه الشيخ علاء الدين بن عابدين وكاتب الفتوى صالح قطنا وفي تلك السنة احسن اليه في رتبة الحرمين المنيفة والوسام المجيدي الثالث ولما تشكلت لجنة من اعاظم رجال الاستانة لتأليف وجمع مواد المجلة من الاحكام الشرعية عين هو والسيد علاء الدين ابن عابدين عضوين لها ثم بعد ذهابه الى اليمن والحجاز في بعض تفتيشات مهمة عاد الى الاستانة فدمشق وعين رئيساً لديوان التمييز وبقي فيها حتى جاء أجله كان فقيها آية باهرة في الذكاء والنباهة طلق اللسان قوي الحجة اديباً شاعراً ما حضر مجلساً قط الا كان رئيسه وصدر ذلك المجلس صحيح الفكر والحافظة سريع النظم اذا اخذ في النظم لا يلقي القلم من يده قبل ان يتم القصيدة حسن العشرة دمث الاخلاق يحب احترام العلماء والاشراف وذوي البيوت وله آثار لطيفة منها علم الحال المدارس وترجمة رسالة في فضائل الشام وشرح رسالة الشيخ رسلان الدمشقي في التصوف ونظم اسماء اهل بدر ونظم تنبيه العباد وكتاب في الفتاوي ونظم

قصة المولد عرفت هذه الاسرة بالجندي نسبة الى جده محمد الملقب بالجندي المدفون قريب ادلب مع جده الاعلى واول من سكن المعرة اجداده من حسن بن محمد الجندي وهو جد هذا البيت واصل هذه الشجرة الممتدة فروعها في حلب وحماه وحمص ودمشق وغيرها من البلاد وكانت وفاته سنة ١٢٩٠ دفن بالذهبية في مقبرة الدحداح .

امين الجندي الحمصي ولد ونشأ بها وتردد الى دمشق ونزل بها وقرأ على مشايخها منهم عمر اليافي والشهاب العطار واخذ بعض العلوم من علماء حمص وكان اكثر انتفاعه من السادة الاتاسيين العلماء الاعلام وكان يميل اليه ابراهيم باشا خديوي مصر لمدحه اياه وتقربه منه بالقصائد والمدائح ومن شعره اللطيف قوله :

ان تبعديني فان الحب يدنيني من ذا يقيني وسهم اللحظ يرميني

وقد عني بعضهم بجمع اكثر ما نظمه من القصائد والمقاطيع والموشحات والمدائح والتغزل فكان منه ديوانه المشهور الذي طبع في بيروت مات سنة ١٢٥٧ .

برهان الدين ابن صابي ابن عمر الطاهر الزبداني المكي ثم الدمشقي الشافعي الشيخ الاديب اللغوي الماهر المتفنن كان من اجلة شعراء عصره المقبولين بدمشق مات بها سنة ١٢٠١ .

اسماعيل بن عبد الغني الغزي العامري الدمشقي تولى نقابة الاشراف بها لاسباب موجبة وكان صدر اعيانها اشتهر بالفضيلة والرئاسة مات سنة ١٢٥٠

انيس ابن سليم الشهير بالحمصي قبل ان اصلهم من خربة التين ثم الدمشقي الشيخ الجليل رئيس المؤذنين بجامع الاموي واحد المدرسين به ادرك الطبقة العالية من العلماء ولازمهم واخذ عنهم وحضر مجالسهم كان يعظ النساء في كل يوم في مشهد الحسين ويعلمهن دينهن واطاعتهن ازواجهن ويعظ العامة كل يوم بعد العصر ينتفع من وعظه ودرسه خلق كثير كان يغلب عليه صفاء القلب وحسن السريرة له فكاهات اثناء وعظه غريبة ظريفة وحكايات لطيفة

يتناقلونها الى اليوم في المجالس وقد بقي اسم جماعة المؤذنين بنوبة الحمصي الى هذا الوقت وقد ابقى ولداً نجيباً صديقنا ابو الخير افندي تقلد وظائف ملكية عديدة في الحكومة العثمانية وهو لم يزل نزيل الاستانة بارك الله به مات صاحب الترجمة سنة ١٢٩٨ .

جلال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الشهير بابن المنير شيخ الحرم بالجامع الاموي كان فاضلاً كريم الاخلاق حسن السيرة مات سنة ١٢٠١ وقد رثاه مؤرخاً لوفاته كمال الدين الغزي العامري الدمشقي في تذكرته .

جمال الدين بن الرحبي الدمشقي الطبيب الماهر الشهير ذكره ابو الفرج في تاريخه الذي وضعه في سنة ١٢٦٠ قال ومن الاطباء الذين تفتخر بهم دمشق وذكر صاحب الترجمة وذكر اخاه شرف الدين الآتي ذكره بحرف الشين واثنى عليهما بخير وانهما من محاسن ذلك العصر لم يعلم عندنا تاريخ وفاتهما .

حامد بن الشهاب احمد بن عبيد الشهير بالعطار الدمشقي الشافعي العلامة بركة بلاد الشام ولد بدمشق سابع عشر جمادى الاولى سنة ١١٨٦ واخذ عن علمائها من اجلهم له انتفاعاً والده الشهاب والشمس محمد الكزبري وغيرهما من فحول علماء دمشق وغيرها مما هو مذكور في اسانيده المحفوظة عندنا بخطه وخط مشايخه مع ثبت والده الشهاب المتقدم الذكر وجده عبيد الذي سيأتي ترجمته في محله ويحكى انه لما طلب ابن الجندي صاحب الديوان الاجازة من ابيه الشهاب سأله سؤالاً فما اجاب ثم قال له:

ان الفصيح لديك اصبح ابكماً لم يأت من نطق بحرف واحد
اذ حجة الاسلام انت بلا امترا ولنا الدليل باسم ابنك حامد

وقد تصدر للتدريس والافادة بعد وفاة والده الشهاب في بيته وفي الجامع الاموي ثم تولى تدريس جامع السلطان سليمان في كل خميس من رجب وشعبان وهرعت اليه الفضلاء واذعنت له الامراء وتخرج على يده كثير

من العلماء وانتفع به خلق كثير كانت وفاته عند عودته من الحجاز في قلعة القطرانه مابين الكرك ومعان ودفن هناك وقبره ظاهر معروف يزار مات سنة ١٢٦٣ ومن كلامه تخميس ابيات الشيخ محي الدين الاندلسي :

اذا كنت تبغي رفعة وفضيلة فوال لطه عترة وعشيرة
فقد قال محي الدين فيهم عقيدة جعلت ولائي آل طه فريضة
على رغم اهل البعد تورثني القربى
فلازم حماهم واتخذ عندهم يدا فان لهم يوم القيمة سؤددا
ولا تعبأن بالمبطلين اولي الردا فما طلب المبعوث اجرا على الهدى
بتبليغه الا المودة في القربى

حسن بن عمر بن معروف الشطي البغدادي الأصل الدمشقي مولداً شيخ الفرضيين والحنابلة ولد سنة ١٢٠٥ قدم والده الى دمشق مع اخوته تاجراً من بغداد سنة ١١٨٠ اخذ عن علماء دمشق منهم عبد الرحمن الكزبري واجازه المجدد خالد النقشبندي ودرس في محراب الحنابلة بالجامع الاموي وتولى تولية البدرئية وتخرج عنه بعلم الفرائض والحساب والمساحة بعض علماء دمشق فانتشرت بزمانه هذه العلوم بعد ان درست رسومها وله مؤلفات في الفرائض والمساحة والفقه وغيره وارخ وفاته السيد محمود حمزه مفتي دمشق بقوله بعد قصيدة طويلة :

حررت لما ان سكن في ظل مولاه الرحيم
تاريخه الشطي حسن يقرى في دار النعيم

مات سنة ١٢٧٤ لخص ذلك من ترجمته في ذيل طبقات الحنابلة الى الفاضل جميل افندي احد احفاده .

حسين بن محمد الرسامة الدمشقي الحنفي فرضي دمشق ورئيس حسابها وهو احد تلامذة ابن عابدين صاحب الحاشية ذكره علاء الدين ولده في تكملة الحاشية مات بدمشق سنة ١٢٤٠ وهو جد والدة العلامة عبد المحسن الاسطواني واخوانه .

حسين بن حسين بن محمد العطار الحنفي احد رجال العلم في دمشق انتفع منه بواسطة دروسه العامة في جامع دمشق خلق كثير مات في غرة شعبان سنة ١٢٢٠ وهو جد الشيخ راغب السادات اب لوالدته وقد اعقب ولداً آخر اسمه محمد اشتهر في العلوم الشرعية والعصرية وبرع في الطب والفلسفة وكثير من الفنون كان اكثر تحصيله في مصر وبلاد الغرب تخرج عليه في الطب كثير من رجال دمشق مات سنة ١٢٤٥

حسين مفتي دمشق ونقيبها ابن السيد تقي الدين المتقدم الذكر ابن حسن بن مصطفى الشهير بتقي الدين الحصني الدمشقي ولد في دارهم الكائنة في محلة مأذنة الشحم نشأ في حجر والده ولازم العلامة الشيخ نجيب القلعي لوجود النسابة بين الاسرتين وقد تولى منصب الافتاء بدمشق بعد انفصال مفتيها حسين المرادي وقد تفرد في الوجاهة في عصره وفاق على اقرانه في مصره وكان صدر الصدور وزينة الازمنة والدهور له اليد الطولى في اغاثة الفقير تنبه في عصره بشرف البراعة وتنبل حتى احرز وصف الفروسية والشجاعة ذا همة عالية واقدام في الامور مع جاه عظيم وثروة باذخة مقبول الشفاعة عند اولياء الامور كان جسوراً متكلماً فصيح المقال ظهر شأنه وعلا قدره وتبسم ثغر اقباله حتى خطبته العلياء واشتهر عند الامراء وكل من يتولى امر دمشق ينتمي اليه ويقبل بكليته عليه وقد تقلد منصب نقابة الاشراف بدمشق فكان احق بها واهلها بقي بها مدة قصيرة ثم انتقلت للسادة بني العجلان وبقي بمنصب الافتاء وجعل لها رونقاً عظيماً ومن جملة ما فعله لحفظ مقامها انه حين يريد التوجه من داره لمركز الحكومة يكون بركابه اربعون فارساً يصدرهم السلاح وبيدهم الرماح ماشين امامه ساعين لتفضية الطريق وقبل وصوله لمركز الحكومة يستقبله متسلم البلد المعروف اذ ذاك بباش تفكجي وبقي مفتياً مدة ثم عادت الى بني المرادي وبعده تقلد عضوية المجلس الكبير الى ان مات فبالجملة كان رحمه الله يستشار بمهمات شئون البلاد ومما يحكى انه لما حضر الى الشام امين الجندي الحمصي الشهير صاحب الديوان ذهب ليكون نزيلاً في دار

المفتي المذكور فتلقاه واستقبله نجله السيد راغب واجلسه في المنزول عن غير عرف ثم حضر في اثناء ذلك شاعر دمشق الشيخ مصطفى الصلاحي الشهير وكان له حاجة عند المفتي فابتدر مخاطباً للجندي بقصيدة مستشفعاً به فاجابه الجندي على البداهة من نفس البحر قائلاً :

اني الضمين لكم بهمة ماجد   انا ضيفه وبه دعيت امينا
حسن المآثر والشمائل كم له   من نسبة تحمي التقى والدينا

فلما عرف ابن المفتي ان هذا الضيف هو الجندي الشاعر الشهير اخبر المفتي بالحال بقدومه فظهر لاستقباله ومؤآنسته والترحيب به وقد بقيت شهرة فرع بني تقي الدين وقويت باشتهارها بأسم والد المفتي وبقيت شهرة فرع بني الحصني أبناء عمهم الذين هم ساكنون في زاوية الشاغور لبقاء تولية ذلك المحل عليهم وذكر المرادي في تاريخه اسم الذي اساء الاستعمال بتولية امور ذاك الوقف وبينه وهو احد جدود فرع بني تقي الدين لاجل ذلك بقي نظر التولية على جدود فرع بني الحصني الى هذا الوقت . وقد حصل نزاع بين الطرفين في مسألة اوقاف اجدادهم شمس الدين محمد وعب الدين الحصني وامر التولية وتوزيع الريع الى ان افضى الامر بحسم الاختلاف بعد المشاجرة وحصول تلك المؤامرة المشهورة عند الدمشقيين من قتل السيد امين تقي الدين بايعاز ابناء عمه السيد عطا الله والسيد مسلم الحصني متولي اوقافهم واتهم الاول واختفى عن النظر وتبرأ الثاني واعطي الامر من والي دمشق اذ ذاك مدحت باشا انه من وجد المتهم المذكور واخبر الحكومة به له مكافاة نقدية عظيمة وبوقتها القي القبض عليه وبقي معتقلا الى ان طرأ على عقله الاختلال فاخلي سبيله وعلى اثر هذه الحادثة امرت الحكومة بتشكيل هيئة تحت رئاسة مفتي دمشق السيد محمود الحمزاوي مؤلفة من الشيخ محمد الطنطاوي والشيخ سليم العطار وغيرهما من العلماء واعيان البلاد وحصلت التسوية فيما بين الطرفين فأخذ من الوقف فرع بني تقي الدين عشرة قراريط من ريع الوقف واربعة عشر قيراطاً الى فرع بني الحصني وحكم الحاكم الشرعي القاضي بذلك الصلح

والاتفاق واخذ كل من الطرفين حجة شرعية وهي عندنا محفوظة الى اليوم مؤرخة في سنة ١٢٩٢ وكانت وفاة صاحب الترجمة سنة ١٢٤٦

وقد وجدت في مكتوبات العلامة الشيخ خالد النقشبندي المجددي التي طبعت حديثاً كتاباً منه الى صاحب الترجمة ننقله بحرفه قال: الرقعة المائة. كتب من القدس الشريف الى حضرة سليل بيت المجد والشرف الخالص السيد المفضال حسن افندي تقي الدين الحصني مفتي دمشق ونقيب اشرافها .

بسم الله الرحمن الرحيم سلام على الاخ الرفيق والحب الشفيق والخدن الصديق اعني السيد حسن افندي تقي الدين أدام الله اقباله ولا زال تقضى آماله وبعد فقد كنا من وفور الاشتياق الى جنابكم نترصد الوسيلة لتذكار وصال ما كنا نؤمله منكم في الاسفار فبينما نحن مترقبون لذلك اذ جاء اخونا السيد عبد الرزاق القطب وعاد الى طرفكم فبادرنا الى ارسال الالوكة معه وبحمد الله قد شاهدنا بدر مجدكم يلوح ومن تلقاء خيالكم نسيم البهجة يفوح ونرجوان تفرحونا بارسال حالاتكم ولا تنسونا بملاحة مقالاتكم وتسرونا بالمداومة على اذكاركم التي اخبرناكم بها وهي الدواء الناجع لكل مرض قلبي والسلام عليكم .

حسن الشهير كأسلافه بالبكري السيد الجليل كان من اعيان دمشق كريم الاخلاق والصفات لطيف المعشر له احترام ومحبة للعلماء وميل لاكرام الفقراء صدر دمشق وزينتها ترجمه كمال الدين الغزي في تذكرته وقد رثاه مؤرخاً وفاته العلامة النحرير صلاح الدين بن خليل بن عبد السلام بن محمد علي الكاملي الدمشقي بقوله :

يا رضاءً قد توالى في صباح ومساء
لعريق ذي انتساب لابي بكر العلاء
حسن الاسم جدير بامتداح مع ثناء
قد حوى حسن صفات مع لطف وصفاء
ولدار الخلد تودي فسعى طبق النداء

غارب تاريخ مولى من علاه في الوفاء
فعليه الحق راض في نعيم وهناء

حسين بن محمد الكبيسي البغدادي الدمشقي الحنفي الفقيه الشهير تصدر لنفع الخاص والعام واستفاد من دروسه كثير من ذوي الافهام كان اميناً للفتوى في زمن حسين المرادي مفتي دمشق هو ومحمد امين بن عابدين صاحب الحاشية ويحكى ان القاضي بدمشق اطلع على فتوى منه بنص ضعيف بزعمه واهانه عليها فما كان من العلماء واهل الشام الا ان جاؤا الى القاضي واخرجوه من المحكمة الشرعية واغلقوها ومنعوه من الدخول اليها وبلغ ذلك الحكومة فبالحال كتب الوالي بعزله لانه كان الحق بيد امين الفتوى صاحب الترجمة مات سنة ١٢٤٢

حسن بن ابراهيم الشهير بالبيطار الميداني الدمشقي الحنفي الماتريدي نشأ في حجر والده كان من الائمة الاعلام الذين اشتهر فضلهم بين الانام وعم نفعهم وعلا قدرهم عند الخاص والعام كان يدرس في جامع الميدان ويخطب به ذو هيبة ووقار يغلب عليه الورع معتقداً عند الناس له ولع في تعليم وارشاد العامة الامور الدينية من معاملات وعبادات كان انتخب هو والعلامة الشيخ عبد الرحمن الطيبي في خلافة السلطان عبد المجيد للاستانة لاجل حضور ختان ولده عبد الحميد مع من دعي معهما من علماء البلاد الاسلامية فكان الجميع محل الاكرام والاحترام اعقب اربعة اولاد علماء محمد وعبد الغني وعبد الرزاق وسليم وستأتي معنا تراجمهم في العصر الرابع عشر مات سنة ١٢٧٢

حسين بن عبد اللطيف العمري الشهير بابن عبد الهادي القادري الدمشقي له تآليف في تراجم اسلافه العلويين سماه المواهب الاحسانية في ترجمة الفاروق وذريته كان من علماء الادب ذكره لويس شيخو في الآداب العربية مات سنة ١٢١٦

وقال ايضاً عن الشاعر الشهير الاديب احمد زكيه الدمشقي وهو صاحب

الديوان المشهور الموجود في المكتبة الخديوية مات بدمشق سنة ١٢٨٥

حسين المرادي مفتي دمشق وابن اخي خليل افندي مفتي دمشق صاحب التاريخ الدمشقي انتخب وانتقلت اليه الفتوى بعد موت والده نشأ في حجره وكان أكثر انتفاعه منه ولازم بعض علماء عصره وكان عنده اميناً للفتوى كل من الجهابذة الاعلام السيد محمد امين عابدين وحسين الكبيسي وسعدي العمري وهاشم التاجي ومسوداً للفتوى طاهر افندي الآمدي وبقي في المنصب معززاً مكرماً الى ان تخلل في اثناء مدته تولى حسن افندي بن تقي الدين الحصني هذا المقام لامر اداري وبقي مدة ثم استعفى حسن افندي ورجع هذا المنصب العظيم اليه كان صاحب الترجمة فقيهاً فاضلاً كريم الاخلاق تهابه الامراء والعلماء صدر الصدور انتهت اليه الرئاسة وبالكرم مشهور مات سنة ١٢٦٧ ودفن بداره .

خالد بن احمد بن حسين الشهرزوري الشافعي العثماني نسباً ينتهي نسبه الى الولي الشهير بير ميكائيل صاحب الاصابع الست النقشبندي المجددي طريقة ابو البهاء ضياء الدين ذو الجناحين نزيل دمشق ولد سنة ١١٩٣ في قصبة قره داغ من اكبر سناجق بابان في السليمانية ملك ازمة المنطوق والمفهوم ذو اليد الطولى في العلوم من صرف ونحو وفقه ومنطق ووضع وعروض ومناظرة وبلاغة وبديع وحكمة وكلام واصول وحساب وهندسة اسطرلابية وفلك وهيئة وحديث وتصوف وتفسير العارف المسلك مربي المريدين ومرشد السالكين ومحط رحال الوافدين نشأ في حجر والده وتخرج في قراءة العلوم في بلدته وفي السليمانية وحصل الفنون على مشايخ تلك البلاد وانتهى من تلقي المنقول والمعقول ويحكى انه في اثناء وجوده اول مرة في بغداد زاره علمائها ورأوا من علمه الزاهر وذكائه الباهر مما يحسده عليه الاوائل والاواخر وكان يومئذ يشرب الدخان حتى اذا خرجوا من عنده بالغوا بمدحه غير انهم انتقدوا ذلك عليه فلما بلغه صنع لهم طعاماً ثم دعاهم اليه فقبل ان توضع المائدة قال لهم تتذاكر في فائدة علمية واخذ يبحث في ان

الاصل في الاشياء الحظر والاباحة حتى توصل الى بحث شرب الدخان فما برح يناظرهم فيه حتى الزمهم القول بحله بالبرهان فلما سلموا له ذلك قال حيث تبين لكم في الشرع امره فاشهدوا اني ابطلته وانما فعلت ما فعلته لئلا يمر في اعتقادكم اني ما تركته الا لانتقادكم ثم لم يمسه في حياته قط . اشتهر خارق عليه وطار الى الاقطار صيت تقواه وذكائه وفهمه ، دأبه درس العلوم ونشر المنطوق منها والمفهوم غير راكن الى الدنيا ولا الى اهلها لا يتردد الى الحكام ولا يحابي احداً في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واهتم بنشر الطريق ولقب بالمجدد للقرن الثالث عشر ومنح الاقبال والقبول من البشر ولما اتى دمشق في رحلته الحجازية رافقه بها شيخ الحديث ومدرس دار الحديث الشمس محمد الكزبري فسمع منه واخذ عليه لعلو اسناده واجازه بمسلسلاته وبعد عوده من الحجاز رحل الرحلة الاخرى الهندية فوصل طهران وبعض بلاد ايران والتقى مع شيخ علمائها المجتهد اسماعيل الكاشي وقد كان وقف على ما في بعض تفاسير الشيعة من ان قوله تعالى عفا الله عنك لم اذنت لهم نزلت عتاباً مع ابي بكر فقال الشيخ للكاشي ما تقول في عصمة الانبياء فقال الكاشي كلهم معصومون قال الشيخ فما تقول في قوله تعالى عفا الله عنك لم اذنت لهم والعفو يستلزم الذنب فقال الكاشي هذا عتاب مع ابي بكر لا مع النبي صلى الله عليه وسلم قال الشيخ فاذاً اخبر الله تعالى بانه قد عفا عن ابي بكر فانتم معاشر الشيعة لم لا تعفون عنه فانبهت الكاشي وتغير وجهه واختجل ثم وصل الى دهلي جهان اباد وليلة دخوله انشد قصيدته العربية الطنانة من بحر الكامل يذكر فيها وقائع السفر ويتخلص بمدح شيخه الشاه غلام علي عبد الله الدهلوي مطلعها :

كملت مسافة كعبة الآمال   حمداً لمن قد من بالاكمال

ولولا الاطالة لاثبتناها برمتها وهي مشهورة في ديوانه واجازه شيخه وخلفه الخلافة التامة في الطرائق الخمس النقشبندية والقادرية والسهروردية والكبروية والجشتية واجازه بجميع ما يجوز له روايته من حديث وتفسير

وتصوف واحزاب واوراد وبشره بالوصول الى كمال الولاية واتمام السلوك وله مؤلفات بديعة الاسلوب تأخذ بمجامع القلوب وهي شهيرة لا حاجة لاعادة ذكر اسمائها ثم هاجر الى دمشق واتاها عن طريق الزور من بغداد فدخلها عام ١٢٣٨ مع رهط من خلفائه ومريديه ونزل في خلوة بني الغزي التي في جامع الاموي وتزوج منهم بشقيقة اسماعيل افندي ثم اشترى داراً في محلة القنوات وتحول اليها —ووقف بعضها مسجداً— وهرعت اليه العلماء والوزراء وقد مدحه الشعراء بقصائدهم ومنهم مدحه شاعر دمشق محمد الجمله الخلوتي الدمشقي مؤرخاً وصوله الى دمشق منها:

اضحت دمشق ببهجة ومسرة والنور والاشراق منها صاعد
ان قيل من قطب الورى ارخ بقي قطب الورى ياسائلي هو خالد

ولله در العلامة الشيخ داود البغدادي الخالدي النقشبندي حيث قال في تشطيره مرثية العلامة ابن عابدين صاحب الحاشية التي قالها في صاحب الترجمة وهي طويلة منها

ورموه بالافك ظلماً وراموا ان ينالوا منه فعادوا وبالا
زاده الله عزة حين شاؤا ذله مذ رأوه فاق خصالا

وقد احيا كثيراً من مساجد دمشق في الاذكار واخذ عنه اكثر علمائها الاخيار وفحول رجالها الابرار لم يسع المقام ذكر اسمائهم وله في كل بلدة خلفاء ومريدون علماء خصوصاً في الاستانة له فيها تكايا وزوايا مشهورة باسمه الى اليوم وقد افرد في مناقبه وبيان كراماته وبعض مؤلفاته وشرح مكتوباته ابن اخيه رحيمنا الاستاذ المرشد الكامل الشيخ اسعد الصاحب النقشبندي الخالدي كانت وفاته في الطاعون ليلة الجمعة في اليوم الثامن والعشرين من شهر شوال سنة ١٢٤٢ ودفن في سفح قاسيون حسب وصيته وقد امر بانشاء قبة عظيمة فوق قبره خليفة المسلمين وسلطانها الملك عبد المجيد وبتعيين تربدار وبطبخ الطعام للفقراء القاصدين والمريدين العاكفين ورتب لها اوقافاً ومخصصات وجعل النظر على ذلك لذريته لكن

يا للاسف لم يعقب ذرية تحافظ على احياء هذه الآثار في الاذكار واحياء ما اوصى به من اقامة الصلوات وختم الخوجكان من مدرسة داره وقد اقام وصياً على اولاده وخليفة بعده على سجادة الارشاد الشيخ اسماعيل الاناراني وناظراً على كتبه التي اوقفها او هيت في داره الى اليوم وحفيده نجم الدين لم يمكن احداً من ان يراها بل تلاعبت بها اولاد الاحفاد الاميين وبيع البعض منها بثمن نحس لعدم وجود احد منهم يعلم قيمة تلك الكتب النفيسة ومقدار ما بها وليس لهم ولع في العلم بل ولعهم بالملاهي والفجور ويا حبذا لو نقلت الى المجمع العلمي والمكتبة العمومية بدمشق لتحفظ من الضياع واستفاد منها الخلق وانتفع بثوابها الواقف ومن جملة وصيته ان لا يبكي عليه احد وانه محتاج الى صدقة وقراءة فاتحة وسورة الاخلاص وان يصلي عليه احد تلامذته ابن عابدين صاحب الحاشية حسب وصيته وقد انتصر له المذكور برسالة سماها سل الحسام الهندي لنصرة مولانا خالد النقشبندي قال في اولها لما فسد الزمان وتماكس وتقاعد عن الصلاح وتقاعس لم يشتغل غالب اهله بخاصة نفسه وبما ينفعه عند افول شمسه وحلوله في رمسه بل صار يطيل لسانه على اشرف اهل جنسه بمجرد وهمه وحدسه او بمحض الزور والبهتان لداء الحسد والطغيان وغفل عن كون ذلك سبباً للدمار وخراب الديار لما رموا صاحب الترجمة بالسحر والكهانة والجحود وقد قال في ختام الرسالة:

ولا خلاك الدهر من حاسد   فان خير الناس من يحسد

وقد جمع ايضاً اكرامات صاحب الترجمة وتفصيل سيرة وفاته وما اوصى به قبيل مرضه وبعض مناقبه السيد اسماعيل الغزي العامري الدمشقي كتاباً سماه حصول الانس لولا ضيق المقام لذكرنا من فوائده ودرره شيئاً كثيراً كما الف في مناقبه كتاباً جامعاً السيد ابراهيم فصيح الحيدري ايضاً وغيره

خليل مفتي دمشق ابن علي مفتي دمشق الشهير بالمرادي صاحب تاريخ سلك الدرر في تراجم رجال القرن الثاني عشر تخرج عن علماء عصره وكان صدر اقرانه وزمانه ومرجع اهل مصره له الاطلاع على كثير من

كتب التاريخ وولع فيه كان اديباً مطاع الامر بين العلماء والامراء وقد أجاد المفتي السيد خليل في تاريخه حسب الوسع غير ان تاريخه خلا عن الالماع للحياة الاجتماعية واكثر في التراجم الشخصية وفيما كان يجتزئ منه باليسير النافع ناحياً في ذلك نحو المحبي وقد ترك ذكر بعض رجال دمشق الذين لايجوز اغفال ذكرهم اورخ مثله وقد ترنمت بمدحه الشعراء وشهدت بفضله العلماء والادباء من ذلك ماقاله الشيخ عبد السلام الشطي من علماء دمشق مؤرخاً طبع تاريخه :

ياحسنه سلك الدرر قد رق طبعاً واشتهر
ابن المرادي صاغه يروي به حسن الخبر
عن حال سادات مضوا في قرنه الثاني عشر
جزاه ربي جنة وسعيه المولى شكر
لما تناهى طبعه ارخ به قلنا ظهر

ومما كتب اليه كمال الدين الغزي العامري صاحب التذكرة بقوله :

ياخليلا تخلل القلب مني حبه فانطوى عليه فؤادي
فهو روحي ومسلك الروح منه وهو ذخري وبغيتي ومرادي

وكتب اليه معتذراً من قلة الزيارة بسبب مطر حصل :

حبيبي قد نما شوقي ومالي عنك مصطبر
وقصدي ان ازوركم ولكن عاقني المطر

وكتب اليه ممتدحاً حين رجوعه لتولية اوقاف الجامع الاموي وذلك سنة ١١٩١ .

الحق عاد الى محله والشيء مرجعه لاصله

وقال في توليته لافتاء الحنفية بدمشق بقصيدة طويلة منها :

انت الخليل على القدر والدكم مفتي دمشق المرادي سيد النجبا
فخلد الله مولانا بمنصبه وزاده من بحار الفضل ماعذبا
وايد الله مفتي الشام سيدنا بالنصر رغماً على انف الذي كذ

ان العلا حدثتني وهي صادقة ماخاب عبد غدا بالله محتسبا

ثم قال :

يا صاحب المجد فالافتاء منصبها وافى لكم بالهنا لازلت منتصبا

الى ان قال :

وافى المنازل والعليا مؤرخة مفتي البرايا سما قدراً وطاب ابا

وكتب له مؤرخاً توليته منصب نقابة الاشراف بدمشق بقصيدة طويلة منها :

سعت النقابة رغبة بجنابه من غير ما طلب له استشرافا

زاد العوالم رغبة وكرامة قد ارخوه وشرف الاشرافا

وكتب اليه يمدحه عبد الرحمن الميدروسي الدمشقي لما قدم من دار السعادة بقصيدة طويلة منها :

خلد الله سعده بسرور ووقاه شر العدا وحماه

وعبيد الرحمن قال فارخ وخليل بالبدر ازرى سناه

وكتب اليه احمد بن عبد اللطيف البيروتي الشهير بالبربير حين كان نازلا بدمشق سنة ١٢٠٣

م قالوا نراك الى خليل المجد تصبو بازدياد

فاجبت لا يخفاكم ميل المريد الى المراد

وكتب ايضاً كمال الدين الغزي اليه مادحاً له ومهنئاً بعودته من دار السعادة مفتياً لدمشق مع نيله رتبة تدريس ادرنه من الرتب العلمية بقصيدة طويلة منها :

الحمد لله اعطى القوس باريها وحل في الدار حاميها وبانيها

والسن الحمد فاهت في محافلنا تثني على الله شكراً في تهانيها

وعاد عيد المنى والعيش في رغد مذ في ربوع العلا قد حل مفتيها

نجل المرادي مراد الخلق اجمعهم شبل الاماجد وافى من اعاليها

يهنيك ربي بما قدنلت من رتب رفيعة لاولي الارشاد يوليها

الى ان قال :

هواتف اليمن نادتنا مؤرخة ان الامانة قد حلت لاهليها

تولى صاحب الترجمة الافتاء والنقابة بدمشق فهو نجل السراة الصناديد الذي اشرقت سماء الفيحاء بنجوم مجدهم وافتخرت دمشق ببدور رجالهم وشهرة فضائلهم وشرف حسبهم الذين تسنموا مراقي المعالي وازدانت بهم الايام والليالي وقد اطلنا المقال في ترجمته هذه خلافاً لقاعدة كتابنا الا انه نظراً لما قام به في تاريخه من الحسناء مع الطيب الثناء على رجال دمشق وغيرهم من العلماء والفضلاء احببت ان اعطيه بعضاً من مآثره الكريمة وخدماته العظيمة وله آثار كثيرة منها تاريخه المشهور وكتاب آخر سماه مطمع الواجد في ترجمة الوالد مات سنة ١٢٠٦ وله فتاوي لم تشتهر .

وقد مدحه ايضاً عبد المتعال الشهير بالميهي القاهري نزيل دمشق بقصيدة طويلة منها قوله :

ياسيداً في الورى ما زلت ذا كرم ... اذ انت بحر خضم دأبه الكرم
دامت لك العز والعلياء خاضعة ... والسعد والنصر في اطلالكم خدم

خليل بن محمد بن خليل بن عمر بن سعيد الشهير بالخشه الشافعي الدمشقي ابو النور صفي الدين ولد بدمشق سنة ١١٧٩ ونشأ بها واخذ عن علمائها منهم علي افندي الداغستاني والشمس محمد الكزبري والشهاب احمد العطار والملا عبد الرحمن بن حسن الكردي وتصدر للتدريس والاقراء في الجامع الاموي وفي مدرسة الصادرية التي كانت معدة لسكنه جانب دارنا بقرب جامع الاموي وهي اول مدرسة بنيت بدمشق وعليه توليتها وفي عصرنا هذا تولاها بنو الاسطواني وهو جد بني الخطيب الاكارم لامهم انتفع به خلق كثير وله اجازات كثيرة لعلماء دمشق والحجاز وبيروت ومصر وقت ذهابه الى الحجاز وقد اجاز سبطه محمد زاهد من علماء المدينة المنورة وصاحب ادلة الخيرات مات في ذي الحجة سنة ١٢٤٢

درويش بن السيد حسين العجلاني نشأ في حجر والده على حب طلب العلم اشتهر وبرع في علم الفرائض تقصده الناس للانتفاع والفائدة يفصل كل خلاف يقع بينهم له هيبة ووقار ووجاهة واعتبار مات سنة ١٢٩٧ وقد تقلد

رئاسة ديوان التمييز ورئاسة بلدية دمشق مدة طويلة وولي نقابة الاشراف بدمشق مدة يسيرة وقد اعقب ثلاثة انجال وجهاء اتينا على ذكرهم في بحث الاسر وقد ذكر المحبي والمرادي وغيرهم من مؤرخي دمشق رهطاً كبيراً من رجالهم بارك الله بانسالهم وبهم مشيخة مشايخ الحرف الى يومنا هذا .

راغب بن صالح بن امين الشهير كأسلافه بالاسطواني الحنفي الدمشقي نشأ في حجر والده خطيب جامع دمشق وكان اكثر انتفاعه منه وتخرج عن علماء دمشق منهم الشيخ هاشم التاجي واحمد افندي الاسلامبولي والشيخ عبدالله الحلبي ولد سنة ١٢٤٣ تولى خطابة الجامع الاموي بعد وفاة والده وتصدر للنفع والتدريس ثم تولى نيابة المحاكم الشرعية بدمشق كان طلق اللسان فصيح البيان حسن المحاضرة لطيف المعاشرة قوي الحجة طيب الاخلاق حسن السيرة كريم الصفات كانت وفاته سنة تسعين ومائتين والف وقد اعقب ثلاثة اولاد علماء ابو الخير افندي مات سنة ١٣٢٨ وحسن افندي خطيب جامع دمشق ومحمد شكري افندي امين فتوى دمشق اليوم بارك الله بهما .

رشيد بن نجيب بن احمد الشهير بالقلعي الحنفي الدمشقي نشأ في حجر والده وسيأتي بحرف النون ذكره وكان اكثر انتفاعه منه كان يميل الى التصوف ويحكي عنه نوادر متعددة لم يسع ذكرها هنا اشتهر بالصلاح والتقوى محبوباً عند الخاص والعام اعقب ولداً فاضلاً اسمه يحيى افندي تقلد افتاء الاي الجيش العثماني وتنقل معه في كثير من البلاد وكان فقيهاً يميل الى مذهب التصوف والسلف مات سنة ١٣٤١ .

رضا بن اسماعيل بن عبد الغني احد احفاد البدر محمد الغزي العامري الدمشقي الشافعي وقد تقدم ترجمة ابيه واجداده واعتناء المؤرخين وحملة الاخبار بتراجم رجالهم الاخيار وهم زينة الشام والكواكب الابرار مآثرهم شهيرة ومؤلفاتهم كثيرة نشأ صاحب الترجمة في حجر ابيه وتخرج على عمه عمر افندي مفتي الشافعية وعين اعيان دمشق ولي تولية اوقاف الجامع الاموي

كان صدر دمشق وعين أعيانها محبوباً ومحترماً عند العلماء ومطاعاً عند الامراء وقد رثاه مؤرخاً وفاته الشيخ عبد السلام الشطي من علماء دمشق وشعرائها بقوله :

شمس المعارف راقد تحت الثرى وثناؤه قد فاح منه عطور
هو من بني الغزي اجل سلالة هم انجم في شامنا وبدور
لله جاهد في عمارة مسجد فيه النبي وسيد وحصور
لما مضى حتم القضا قلنا رضا فله الاله فأرخوه غفور

وقال مؤرخاً لتجديده محراب المالكية في جامع بني امية :

مولانا فارحم عبدك الغزي رضا فقد سعى بالخير للاموي النظيم
وجدد المحراب هذا ومضى فقال في تاريخه الأجر العظيم

مات سنة ست وثمانين ومائتين والف وقد انجب ولداً فاضلاً اسمه اسماعيل تولى بعد وفاة ابيه تولية اوقاف الاموي وبقي بها مدة ثم تركها وتولى بعدها النيابات الشرعية في الاقضية ثم صار عضواً في عدلية دمشق مع كتابة العدل مات سنة ١٣٢٦ .وقد اعقب اولاد انجباء اشتهر منهم السيد فوزي احد اساتذة معهد الحقوق ومن نوابغ هذا العصر المجاهدين .

راغب بن حسن تقي الدين مفتي دمشق ونقيبها الشهير كأسلافه بتقي الدين الحصني الدمشقي الحنفي نشأ في حجر والده ونمى وتمشق مجالس الادب ثم تقلد المناصب التي تليق بفضله منها عضوية المجلس الكبير وعضوية مجلس الدعاوى كان مسموع الكلمة عالي الهمة وجيهاً يميل الى قضاء حوائج الناس محبوباً لدى العلماء مقبولاً عند الأمراء وله شعر رقيق جمعه ولده سليم بهجت أفندي قاضي جبل الدروز ورئيس محكمته فصار ديواناً نفيساً الا انه كالمعدوم وقد عشق كلامه ومجالسته خديوي مصر ابراهيم باشا حين فتح دمشق وقدمها واخذه معه الى مصر واخذ برفقته ايضاً الشاعر الشهير الشيخ امين الجندي الحمصي وبعد ان لبث مدة بها رجع الى دمشق ثم طلبه ابن الخديوي مصطفى فاضل باشا واخذه معه للاستانة وكان مقيماً في محلة

الشاملحة احد متنزهاتها وكان يرافقهما محمد بك بن حافظ بك المعظم الشهير الدمشقي ومن اعيانها اذ كان وقتئذ كيخية الخديوي الخاص ومعتمده وبقي صاحب الترجمة ملازماً لمرافقة اركان هذه الاسرة الكريمة الى ان تعين اسماعيل باشا خديوياً فأخذه وعينه في معيته وبقي الى ان توفاه الله سبحانه وذلك في سنة ١٢٨٨ ويحكى عنه مرة انه قال له الخديوي ابراهيم باشا كيف رأيت مصر فأجابه قائلاً بذهول وسبق لسان :

تركت جنة الفردوس عمداً ويممت ديار الفاسقين

فتكدر الخديوي من هذا الجواب ثم تخلص له بقوله :

ولكني سمعت قول ربي فمصراً ادخلوها آمنين

سعيد بن حمزة الشهير بالعجلاني مفتي دمشق وابن نقيبها نشأ في حجر والده وتخرج على علماء عصره الشمس محمد الكزبري ونجيب القلعي ومقدم سعد وغيرهم برع في العلوم والفنون خصوصاً في الفقه كان عالماً نحريراً وجيهاً شريفاً زاد هذه الاسرة الشريفة مجداً وشهرة لاتساع ثروته مات سنة ١٢٤٥ .

سعيد بن احمد الصالحي شيخ المولوية بدمشق وقد خدم هذا السلك بصدق وامانة ومكارم اخلاق وحسن سلوك دراويش ذلك الطريق وارشدهم لاقوم طريق وحافظ على املاك التكية من الضياع وتلاعب الايدي فيها وكان يطبخ الطعام في كل يوم الى مريديه القاطنين في التكية مات سنة ١٢٨١ . وخلفه من بعده ولده عطاء الله وكان خير خلف لذلك السلف يطعم الطعام ويؤوي المساكين وابناء السبيل مات سنة ١٢٩٠ وقد اعقب ذرية ارشدهم الشيخ سعيد شيخ المولوية بدمشق اليوم .

سعيد بن علي الشهير كأسلافه بالاسطواني الدمشقي اخذ عن علماء عصره وكان من العلماء الاعلام الاجلاء تولى قضاء بغداد وقد مدحه العلامة السيد محمد امين بن عابدين صاحب الحاشية بقصيدة غراء لولا ضيق المقام لاتينا بها وشرح له كتاباً في النحو مات سنة ١٢٣٠ .

سعيد بن مصطفى بن سعد السيوطي الرحيباني الدمشقي ولد بها سنة ١٢٢٤ نشأ في حجر والده ولازم اخاه في الطلب ثم تولى افتاء الحنابلة بعد اخيه مع تولية اوقاف الجامع الاموي وفي سنة ١٢٦٤ فصل من التولية والنظر لاختلاس ظهر من تشويش حسابات الجامع في زمنه واقيم متولياً في مكانه رضا افندي الغزي المتقدم الذكر رحل صاحب الترجمة الى الاستانة يميل الى لعب الشطرنج مع الحكام وتفرد به ثم ولي قضاء السبط وولي تولية الجامع المظفري المعروف بجامع الحنابلة في الصالحية وبقي مفتياً الى ان مات سنة ١٢٨٨ وقد اعقب ولداً فاضلاً توفيق افندي مفتي الحنابلة وقاضيها وكان مشرفاً على اوقاف الجامع الاموي مات سنة ١٣٤٤ واعقب الدكتور الحاذق سعيد افندي احد مشاهير رجال الطب في دمشق .

سعدي العمري الحنفي الدمشقي امين الفتوى بدمشق فاق اقرانه في الفقه والاصول وكان يرجع اليه في المفهوم والمعقول وفي جميع المسائل المهمة الشرعية التي يصعب حلها اعقب ثلاثة اولاد اكبرهم رشيد كان يقرأ الدر في الجامع الاموي وينتفع منه الناس واوسطهم صادق كان تولى القضاء الشرعي في الاقضية العربية واصغرهم هاشم وكانت وفاة والدهم سنة ١٢٨٢ .

سعيد بن حسن بن احمد الشهير بالحلبي الحنفي ولد في حلب الشهباء سنة ١١٨٨ ونشأ بها واخذ عن اعاظم رجالها العلماء واشتهرت اسرتهم بحلب بالشامي او قضيب البان لعل اصل جدودهم ذهبوا اليها من الموصل وقد عسر علينا التنقيب عن ذلك ثم قدم صاحب الترجمة لدمشق في سنة ١٢٠٧ واستوطنها واحتفل به اهلها واشتهر علمه وفضله بينهم تصدر للوعظ والتدريس تفرد في العلوم النقلية والعقلية وصار فقيه زمانه ومحدث اوانه حاز الرئاسة والمشيخة الحنفية واخذ عنه العلماء وانتفع به خلق كثير واليه تناهت العلماء وخضعت له الحكام والامراء فصار صدر الصدور بدمشق وتفانى اهلها على حبه واطاعة امره واجمعوا على تعظيمه ومما يحكى عنه انه لما اتى ابراهيم باشا الخديوي المصري لدمشق واستولى عليها ذهب العلماء لاداء السلام اليه وبقي

الشيخ الحلبي في حجرته بجامع الاموي لم يزره فلما حضر الباشا الى الجامع الاموي أراد زيارته في حجرته الشهيرة واستكتم غيظه منه وغير خاف على احد بطشه في ذلك الوقت فلما دخل على الشيخ لم يغير وضعيته من القاء الوعظ والتدريس ماداً رجله على عادته فجلس وهو يسمع درس الشيخ وقد وعظه بالرفق بالرعية والعدل بينهم فلما خرج الباشا من عنده ارسل له مع مرافقه الخاص صرة كبيرة من الذهب وامره ان قبلها ان يأتيه به فلما دخل عليه الرسول بلغه سلامه وقدم له الهدية فرفض قبولها وقال ان الافضل ردها لبيت المال وقال له بلغ سلامي الى الامير وقل له ان الذي يمد رجله لا يمد يده فحينئذ كبر مقامه بنظر الخديوي وصار يعتمد على انفاذ اوامره ويحكى عنه انه في دروسه يجادل ويسأل تلاميذه عن فهمهم واعطى لهم الاذن بسؤاله ومجادلته فصادف يوماً بحث المتحيرة من قسم المستحاضة في علم الفقه فنهض احد تلامذته السيد محمد امين بن عابدين وفند فهمه بالمسألة بحث دقيق اعجب الشيخ والحاضرين فأمره ان يؤلف حاشية لكتاب الدر الذي كان يقرأوه ودعاله باتمامها ونفعها للمسلمين مات في اليوم الثاني من شهر رمضان سنة ١٢٠٩ ودفن بالذهبية وقد اعقب ولده العلامة الشيخ عبد الله وسيأتي ذكره في محله

سعدي بن محمد البكري مفتي الحنفية بدمشق الفقيه الورع ولد بدمشق سنة ١١٤٠ ونشأ بها واخذ عن علمائها مات سنة ١٢٢٥ في جمادي الثانية ودفن بتربة الشيخ ارسلان .

سعدعوده بن سليمان بن داود الشهير برئيس الطب الدمشقي كانت اقامته في محلة العصرونية اخذ الطب وفنونه عن ابيه ومهر به وفاق اقرانه له الباع الطويل في فروعه قال بعضهم في مدحه :

هذا سليمان بن داود الذي نال الرئاسة دونكم بالخاتم

وهي طويلة مات سنة ١٢٨٧ .

شرف الدين بن الرحبي الدمشقي شيخ الاطباء ورئيسهم قال ابو الفرج في تاريخه الذي وضعه سنة ١٢٦٠ هجرية ومن الاطباء الذي تقدم هذا الزمن

واكتسبوا الشهرة العظيمة شرف الدين بن الرجا صاحب الترجمة واخوه جمال الدين الدمشقيان وكان شرف الدين بارعاً في الجزء النظري للطب وله معرفة تامة به واطلاع على اصوله واخذ عنه جماعة من الطلبة بدمشق وتخرجوا على يده وكان قليل التعرض لمباشرة المرض ثم قال المؤرخ وسمعت وقت تحصيلي بدمشق ان له تعاليق وحواشي على قانون الطب ولم ارها انتهى ملخصاً (اقول لعل هذه الآثار ذهبت الى مخازن الكتب الغربية في اوربا مثل ماذهب غيرها من نفائس كتب العرب وآثارهم وقد ذكرنا ذلك في صدر كتابنا).

شاكر بن علي بن سعد بن سالم الدمشقي العمري العقاد الشهير بمقدم سعد وشيخ علماء الحنفية بدمشق ولد بها سنة ١١٥٨ تصدر للتدريس في جميع العلوم وكان اماماً في المنقول تخرج عنه اكثر علماء دمشق وانتفع به خلق كثير كان ورعاً مباركاً صوفياً تفرد في سائر العلوم يصدع بالحق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر مات سنة ١٢٢٢ دفن بالذهبية .

صالح بن محمد الدسوقي شهرة ونسباً الدمشقي امام جامع السنانية ومدرسه له اليد الطولى في سائر العلوم والمناظرة بها وله رسالة سماها كشف الغمة ناقش فيها رفيقة في الطلب ابن عابدين صاحب الحاشية وهي شهيرة وله ديوان خطب ومولد وهو آخر رجال العلم من هذه الاسرة وقد انقرضت وتوسيت بفقده كانت وفاته في مكة حاجاً سنة ١٢٤٦ .

صالح المغربي الجزائري نزيل دمشق له باع طويل في العلوم العصرية منها علم الفلك وقد انفرد به بدمشق تخرج عنه كثير من علماء دمشق منهم ولده الشيخ طاهر الشهير الذي ستأتي ترجمته في العصر الرابع عشر وكان صاحب الترجمة يعيد درس البخاري في الاشهر الثلاثة تحت قبة النسر للشيخ عبد الرحمن الكزبري مات سنة ١٢٨١ وقد تولى افتاء المالكية بدمشق

صالح بن ابي الفتح الشهير بالعجلوني تقدم ذكر بعض رجال هذه الاسرة في المحبي والمرادي واثنوا عليهم بخير كان يحب مجالسة الفقراء وخدمتهم واكرامهم

يوزع عليهم ريع البستان الكائن في حي القنوات الموقوف تحت توليته المسجلة في المحكمة الشرعية ثم حوله ملكاً لذريته من بعده ولازم العلامة الشيخ خالد النقشبندي مدة طويلة واخذ عنه الطريق لانه كان مجاوراً له في داره في محلة القنوات مات سنة ١٢٧٠ وقد اعقب ذرية ارشدهم الشيخ احمد ورث مشيخة المحيا عن ابيه مع درس الوعظ في جامع الشيخ محي الدين العربي الاندلسي اخذ العلم عن والده يجتمع في داره الفقراء كل ليلة جمعة ويطعمهم ويوزع عليهم الموقوف لهم تحت توليته مات سنة ١٣٢٠.

طاهر بن اسماعيل العليمي نسبا المغنيصي اصلا الدمشقي مولداً ووطناً الحنفي مذهباً النقشبندي طريقة ومشرباً قرت به عيون الفضل وذويه درة تاج الفضلاء وواسطة عقد النبهاء والنبلاء سليل ذوي العلم والشرف وجليل القدر الذي من بحر المجد اغترف كان اماماً وخطيباً بجامع يلبغا بدمشق اخذ العلم عن علماء عصره واجازه العلامة عبد الرحمن الكزبري بأجازة وجدناها في مكتبة صديقنا العلامة الشيخ عبد المحسن الاسطواني واثنى عليه بخير وهي بخط المجيز وختمه مات سنة ١٢٤١.

علي المرادي مفتي دمشق ابن حسين مفتي الشام تولى الافتاء بعد وفاة والده المتقدم الذكر وبقي بها اشهراً ثم تخلى عنها وتركها لرؤيا رآها لوالده وانه مكتوف اليدين وقال له اياك والافتاء ثم تولاها بعده طاهر افندي الآمدي لمعرفته في اللغة التركية ثم بعد تولية الآمدي لها وقع خصام بينه وبين شقيق صاحب الترجمة السيد ابو السعود والد صديقنا السيد موسى افندي الآتي ذكره في محله في القرن الرابع عشر ذهب السيد ابو السعود للاستانة لاخذ الافتاء واسترجاعها لهذه الاسرة او اخذها لنفسه فما قعد مدة الا وافته المنية هناك مات سنة ١٢٦٨ وله عندنا رسالة من آثاره النفيسة سماها اقوال الائمة العالمه في احكام الدروز والتيامنه.

عبد الله بن حسن بن احمد الشهير كأسلافه بالاسطواني الحنفي الدمشقي العالم المتفنن الجامع بين العلوم الرياضية وبين العلوم الشرعية كان له الباع الطويل

في علم الهيئة واحكام النجوم على استاذه الشيخ احمد العطار المترجم في تاريخ المرادي حتى انه يحكى عنه حكايات في هذا الباب منها انه كان سهران في بيت احد اصحابه ففغلت عيناه فاخذ الجماعة من جيبه الساعة ثم ايقظوه وسألوه عنها ففتش على ساعته ليخبرهم عن الوقت فلم يجدها فقام ينظر الى النجوم فقال لهم الساعة اربعة ونصف ففتحوا جميعهم الساعات فرأوها كما قال ومنها انه كان اذا ولد له ولد يعمل له تقويماً ويقول انه لا يعيش الا خمس سنين او اقل او اكثر فكان كما يقول الى ان ولد له ابنه الشيخ عبد القادر فقال بعد ان عمل تقويماً له هــذا ابني صاحب العمر الطويل الذي يرثني وكان الامر كذلك يأتي ذكره في القرن الرابع عشر كان المترجم طيب الاخلاق حسن الصفات يشتغل ويرتزق من التجارة وقد لازمها مع ملازمة مجالس العلم الى ان مات سنة ١٢٦٢ .

عبد الرحمن بن الشمس محمــد بن عبد الرحمن الشهير بالكزبري الدمشقي الشافعي ولد يوم الفطر سنة ١١٨٤ نشأ في حجر والده الشمس محمد الآتي ذكره بحرف الميم وتخرج عليه وكان اكثر انتفاعه منه ثم اخــذ عن علماء دمشق الذين هم تخرجوا على والده منهم الشهاب احمــد بن عبيد العطار واجازوه جميعهم بالحديث واصوله وسائر العلوم تولى تدريس البخاري بعد وفاة والده تحت قبة النسر برع في علم الحديث والتفسير واشتهر فضله بالتعبير والتقرير سار فضله في الامصار وتخرج على يديه كثير من العلماء الاخيار تفرد في المنقول حتى حــاز مشيخة العلماء الفحول وكان معتقداً كأسلافه وكل من اجتمع به من العلماء والمحدثين اخذ عنه لعلو ثبته في الرواية عنهم ائمة الحديث وكان وفاته حاجاً في مكة المكرمة في تاسع عشر ذي الحجة سنة ١٢٦٢ ودفن في المعلاة وقبره مشهور اعقب اولاداً علماء سيأتي ذكرهم .

عبد الرحمن بن علي بن مرعي الشهير بالطيبي الشافعي العجلوني الاصل ثم الدمشقي ولد سنة ١١٨٤ وقدم دمشق بعد سنة ١٢٠٠ واخذ عن علمائها منهم الشمس محمد الكزبري وغيره من علماء عصره وقد تصدر للتدريس وافرد

في مشيخة ورئاسة الشافعية وتولي الامانة في جامع دمشق برع في المنقول والمعقول وتفرد في الفروع والاصول اعتقده الخاص والعام واشتهر فضله بين الانام عم نفعه في العباد وقصده واخذ عنه كثير من علماء البلاد كان على جانب عظيم من الورع والتقوى والصلاح طلب في زمن سلطنة عبد الحميد للاستانة لحضور ختان والده عبد المجيد مع من دعي من علماء البلاد الاسلامية فكان هو اول من دخل على السلطان بعد دعائه له واختار القعود في جانبه وجلوسه عن يمينه ويحكى انه قبل يده واحسن اليه واليهم جميعاً باحسان وافر كانت وفاته سنة ١٢٦٤ .

عبد الرحمن بن مصطفى الشهير بايزيد البغدادي الاصل الدمشقي المولد له اسلوب غريب في تقرير الدروس يأتي على جميع العلوم من منقول ومعقول ويربط الفروع بالاصول تفرد بعلم النحو انتفع به خلق كثير واخذ عنه كثير من علماء دمشق وقد ارخ وفاته الشيخ عبد السلام الشطي من علماء دمشق بقوله :

هذا ضريح حله ... علامة الوقت الهمام
شيخ النحاة امامهم ... تقريره يشفي السقام
ومع ابيه مصطفى ... في اللحد هذا قد اقام
كم من علوم بثها ... للطالبين وللانام
ذاك الشريف المنتمي ... للهاشمي بدر التمام
قد نال في تاريخه ... فوزاً به حسن الختام

مات سنة ١٢٩١ وكان له مكتبة عظيمة جمع فيها من نفائس الكتب الخطية قل ان توجد عند غيره .

عبدالله بن العلامة سعيد بن حسن الشهير بالحلبي الدمشقي الحنفي الشيخ الامام العلامة محرر مذهب النعمان ومحدث الشام ولد سنة ١٢٢٣ بدمشق ونشأ في حجر والده المتقدم الذكر وتخرج عليه وكان اكثر انتفاعه منه واخذ عن تلاميذ ابيه ولما توفي والده تصدر مكانه للتدريس والافادة

وقد اطلعت على تهنئة بولادته لوالده بقلم احد تلامذته ابن عابدين صاحب الحاشية وذلك بعد وفاة ثلاثة اولاد له في شهر واحد وقد سمي هذا المولود بعبدالله وهي مؤرخة في سنة ولادته مطلعها :

وحيد العصر من فاق علماً ... وحلماً من ذوي فضل كرام
لقد ورث الفضائل عن جدود ... له فرضاً ورداً بالتمام
ايا شمس المعاني يا سناها ... ومن بضياه تشرق في الانام
لك البشرى بمولود نجيب ... به عيناً تقر على الدوام
اتى عوضاً عن الماضين شوقاً ... لفضل الله في دار السلام
وبعد العسر يأتي اليسر فضلاً ... من المولى الكريم على المضام
لعل الله ابدلهم بخير ... كما قد قص من شأن الغلام
ايا فرد الزمان وكل شيء ... لك الاسعاد منقاد الزمام

الى ان قال :

يقول نظمت ابياتي فأرخ ... بعبدالله في شهر الصيام

وهي طويلة لولا ضيق المقام لاثبتناها بجمعها لانها صادرة من اكبر عالم بدمشق لشيخه وهي بشارة منه وقد تحقق ظنه بما اشار اليه وقد تقلد صاحب الترجمة بعد وفاة ابيه درس البخاري تحت قبة النسر في كل جمعة بالجامع الاموي في الاشهر الثلاثة بالنيابة عن القاصر محمد افندي المنيني مفتي دمشق الآتي ذكره في القرن الرابع عشر وبقي على ذلك الى وقت حادثة ستين المشهورة وبوقتها اقتضت حكمة الحكومة وسياستها بتبعيد المترجم الى ازمير مع بعض اعيان دمشق كما اشرنا اليه في محله في تفصيل هذه الحادثة المهمة ثم رجع الى دمشق سنة ١٢٨٢ وقد انشده مؤرخاً لعودته لدمشق من البلاد التركية احد تلامذته الشيخ عبد السلام الشطي بقوله :

بشرى لكم يامعشر الاسلام ... بقدوم عبدالله ذي الاكرام
فرض عليكم شكركم مولاكم ... في سائر الايام والاعوام
فلقد تكامل فضله سبحانه ... مذ جاء بالتاريخ شيخ الشام

اشتهر فضله بين الانام وعم نفعه الخاص والعام اطاعت لانفاذ اوامره الامراء والحكام يرجع اليه في مهام الامور وحل المشكلات لايقع مشكل بين احد وآخر بدمشق من جميع المذاهب والطبقات الا ويصدع بالحق بينهما تفرد بالعلوم النقلية والعقلية تخرج عليه اكثر علماء دمشق وقد حصلت اكثر مشايخي ممن اخذوا العلم عنه وكثيراً ما كانت الحكومة تعرض عليه افتاء دمشق وقضاءها فلم يقبل وكان يأمر احد تلامذته ويحسن له قبول ذلك منهم سعيد افندي الاسطواني قاضي دمشق والمفتيين الحمزاوي والآمدي لقب بزمنه بشيخ علماء الشام ورئيسها تجتمع في مجلسه كل ليلة جماعة من العلماء والتجار يستفيدون من وعظه وارشاده ويعشقون مشربه واخلاقه وقال تلميذه الشيخ عبد السلام الشطي مشطراً ابيات قالها بوفاته الشيخ ابراهيم العطار مطلعها :

شمس المعارف كورت ام بدر اقار السعود
قد غاب من افق العلا في مزدهى روض اللحود
الحبر عبد الله قل استاذنا زاكي الجدود
الماتريدي الحلبي ابو حنيفة الوجود
دعي قلبي ارخوا شيخ الورى وقطب جود
ثم قال : وقيل في تاريخه فنال جنات الخلود

كانت وفاته في ليلة الاحد خامس ذي القعدة سنة ١٢٨٦ في قرية برزة وجيء به الى دمشق ودفن في الذهبية بالقرب من والده .

عبد القادر ابن عبد الرحمن الشهير بالسقطي الصالحي الدمشقي البقاعي الاصل العدوي ولد في منتصف رجب سنة ١١٣٢ كان مباركاً معتقداً مهاباً حسن السيرة والسريرة له كلمة مطاعة عند اهل الصالحية مات ١٢٠٥ واعقب ولد اسمه عبد الغني فاق والده في الفضيلة مات سنة ١٢٤٦ .

عبد القادر بن صالح بن عبد الرحيم الشهير بالخطيب الشافعي الدمشقي نشأ من هذه الاسرة المباركة الكريمة واسس مجدها واخذ من علماء عصره وتصدر للوعظ والارشاد في جامع بني امية وانتفع بتدريسه خلق كثير

اشتهر فضله بين الانام وعم فضله الخاص والعام وكان في بادئ امره يشتغل في تجارة العطارة برع في العلوم النقلية والعقلية وانتهت اليه مشيخة الشافعية معتقد عند جميع الطبقات يصدع بالحق اعقب اربعة اولاد علماء وسادة اتقياء ابو النصر وابو الفرج وابو الخير وابو الفتح وسيأتي ذكرهم في القرن الرابع عشر لانهم اقمار اخيار زينة العصر ويتيمة الدهر وقد قال احد الفضلاء مؤرخاً وفاة صاحب الترجمة بقوله :

دار النعيم ابتسمت بالشمس عبد القادر
اعني الخطيب الشافعي خير نصوح زاجر
علامة الشام الذي ينمي لطه الطاهر
طاب ثراه اذ غدا في رمضان الزاهر
اناخ في دار الهنا ارخ بباب غافر

له مؤلفات وآثار مفيدة لم نقف عليها مات سنة ١٢٨٨ .

عبد الغني بن طالب الغنيمي الشهير بالميداني الحنفي الدمشقي له مؤلفات كثيرة منها شرح القدوري طبع وانتشر وكشف الالتباس فيما اورده البخاري على بعض الناس واسعاف المريدين في اقامة فرائض الدين وله شرح عقيدة الطحاوي ومن النادر وجودها وبالجملة فانه كان من جهابذة العلماء المحققين والفقهاء الورعين المخلصين لايمل عن الافادة ولايستنكف عن الاستفادة صفاته النصيحة والارشاد الى الخلق وعدم الالتفات الى ما في ايديهم له ولع في اعمار المساجد والمعابد وزيارة المشاهد والمعاهد وملازمة الاذكار ومخالطة الفقراء والمساكين تردد الى الحجاز مراراً واخذ عن علمائها كباراً وصغاراً وقد ادركته وزرته مع والدي رحمه الله تعالى في داره مات سنة ١٢٩٨ وقد اعقب اسماعيل الذي خلف والده بالفضيلة وارشاد العامة وتعليمهم امر دينهم مات سنة ١٣٣٢ .

عبد الغني بن شاكر بن محمد السادات الدمشقي الحنفي ولد سنة ١٢١٠ ونشأ في حجر والده واخذ عن علماء دمشق منهم الشيخ شاكر [illegible] والشيخ

عبد الله الحلبي والشيخ عبد الرحمن الكزبري وغيرهم برع في جميع العلوم وتفرد في الفقه في عصره تصدر للتدريس وانتفع منه كثير من الافاضل له مؤلفات وآثار كثيرة منها الفتاوى الشهيرة لم يطبع منها شيء كان بركة السلف والخلف نادرة في عصره اشتهر فضله يميل للتعيش من التجارة وله فيها ورع زائد محبوباً عند الناس يميل لقضاء حوائجهم مات سنة ١٢٦٥ اعقب ولداً عالماً فقيهاً اسمه راغب وكانت مهنته التجارة ايضاً يقرأ جملة دروس في داره له رسالة في حق سماع الدعوى للزوجة في المهر المعجل بعد الدخول وله رسالة ايضاً في اثبات وجود القرآن والنبوة وله غير ذلك في المعاملات الفقهية مات سنة ١٣٣٣ وقد ترك ذرية مباركة واحيا ذكر ابيه في الفضيلة والعلم .

عمر الآمدي الدياربكرلي الاصل ثم الدمشقي امام الحنفية في جامع بني امية الواعظ الشهير اشتهر فضله بين علماء دمشق وعم نفعه لاهلها وكان محترماً محبوباً عندهم تفرد في علوم كثيرة واخذ عنه جماعة من رجال دمشق الافاضل وهو والد طاهر افندي مفتي دمشق وامام جامعها الذي تقدم ذكره بحرف الطاء كانت وفاة صاحب الترجمة سنة ١٢٥٠ .

علي بن محمد بن عثمان بن محمد بن رجب بن محمد بن علاء الدين الشهير بالشمعة الشافعي البعلي الاصل الدمشقي ولد سنة ١١٥٧ واخذ عن الشمس محمد الكزبري الشيخ الجليل العلامة النحرير تقدم ذكر ابيه وجده في تاريخ المرادي مات سنة ١٢٢٩ دفن بباب الصغير وله عندنا رسالة من آثاره النفيسة سماها انفتاق الزهر عن انفلاق البحر .

عمر بن عبد الغني بن محمد الشهير بالغزي العامري الدمشقي مفتي الشافعية بها ولد سنة ١٢٠٠ ونشأ في حجر والده وتخرج عنه واخذ عن علماء عصره منهم عمه كمال الدين الغزي صاحب التذكرة الشهيرة التي اخذنا عنها كثيراً من التراجم والاخبار والشيخ سعيد الحلبي وغيرهما كان عين اعيان دمشق ومرجعها وصاحب الكلمة النافذة بها مات في مدينة المارغوصة وكان هناك مبعداً مع رفقائه وقت حادثة ستين بدمشق المشهورة مات سنة ١٢٧٧ له

مؤلفات وآثار نفيسة تقلد عضوية المجلس الكبير له يد بيضاء في ايواء كثير من اسر النصارى وقت حادثة ستين الشهيرة وقد تولى بعده افتاء الشافعية ولده محمد افندي احيا ذكر والده في المكانة والجسارة والفضيلة وقد مدحه الجندي في ديوانه بقصيدة رنانة مات سنة ١٢٩٢ .

عمر بن احمد المجتهد الدمشقي الحنفي سكن باب المصلى واخذ عن علماء عصره من اجلهم العلامة خالد النقشبندي المجددي وتصدر للتدريس والوعظ واخذ عنه علماء دمشق وانتفع به خلق كثير كان حسن الاخلاق مسموع الكلمة يعمل لقضاء حوائج الناس نافذ الامر عند الخاص والعام محبوباً ومحترماً عند العلماء والحكام مات سنة ١٢٥٤ وقد اعقب ذرية طيبة مباركة ورافقت احد احفاده الشيخ محمد المجتهد في الطلب وهو خير خلف لذلك السلف وقد مات في عام ١٣٤٤ وترك ذرية قاصرة .

عمر بن محمد الشهير باليافي الدمياطي الاصل صاحب الديوان الشهير الشيخ الامام العالم العارف المعتقد الورع شيخ الطريقة والحقيقة ولد سنة ١١٧٣ في يافا ونشأ في حجر والده وتخرج عنه واخذ عن علماء عصره واشتهر فضله وعلمه في البلاد ثم قدم دمشق سنة ١١٩٨ وانتفع به علماؤها وكان موضع الاحترام والاعزاز بها رفع اعلام الطريق ونشره بين الانام واعتقده الخاص والعام وبه انتهت مشيخة الشيوخ بالشام وقد اتخذ له في جامع بني امية حجرة كبيرة تعرف الى الآن بمشهد اليافي مات بها ودفن بالدحداح سنة ١٢٣٣ وقد رثاه الشاعر الشهير الشيخ امين الجندي بمرثية طويلة قال في ختامها :

لمن كان في المشر اصطفاه مؤرخاً   بباء بها حسن الختام بـه يبدو

وقد اعقب الشيخ محمد الزهري والشيخ محي الدين والشيخ محمد ابو النصر اما الزهري فمات بدمشق سنة ١٢٧٧ واما الثاني فتولى افتاء بيروت مات بها سنة ١٣٠٤ والثالث مات بمصر سنة ١٢٨٠

عبد القادر الخلاصي الحلبي ثم الدمشقي الطبيب الحاذق الفاضل برع في هذا الفن واشتهر امره بدمشق مات سنة ١٢٨٥

عبد القادر بن درويش بن محمد الحمزاوي احد علماء دمشق ومن اعضاء المجلس الكبير بها له رسالة في وحدة الوجود اشتهر فضله بين الانام تحترمه العلماء والحكام مات سنة ١٢٧٩ وقد اعقب ولداً اسمه علي افندي مات عقيماً وله رسالة ايضاً في مدح الامام الاعظم ابي حنيفة ونقل بها انه وجد مكتوباً على قبره هذه الابيات :

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة يتيمة صاغها الباري من النطف
عزت فلم تعرف الايام قيمتها فردها غيرة منه الى الصدف

عبد السلام بن عبد الرحمن الشطي الحنبلي البغدادي الاصل الدمشقي الشاعر كان يعد من ظرفاء دمشق حسن العشرة والسمت ولد سنة ١٢٠٦ اخذ عن علماء دمشق وام في محراب الحنابلة بالجامع الاموي ورحل الى القسطنطينية مقر الخلافة الاسلامية فوجه عليه تدريس بروسه من الرتب العلمية وقد اشتهر شعره وفضله بين الانام ومن شعره بالتوسل من قصيدة طويلة قوله :

اليك رسول الله اشكو نوائباً لقد انحلت جسمي واعمت بصيرتي
فيا خير خلق الله يا اشرف الورى على بابك العالي انخت مطيتي

وقال في حديث الرحمة المسلسل بالدمشقيين:

لقد روينا حديثاً عن مشايخنا مسلسلاً اولياً جاء منتظماً
ان ترحموا ترحموا دنيا وآخرة فانما يرحم الرحمن من رحما

وقال في مدح الشام :

حبذا الشام مقر الشرفا وديار الانس فيها وطني
صانها المولى اللطيف الاقطفا من صروف الدهر طول الزمن

ومن أحاسن شعره قوله مضمنا :

اجريت من شوقي اليك مدامعي وازداد من عشقي اليك تلهفي
لو كنت تعرف حالتي لرحمتني روحي فداك عرفت ام لم تعرف

كان مشهوراً بالذكاء والورع والتجمل بالمحاسن لا يمل جليسه منه ولا يعدل صاحبه عنه له حادثة القصيدة التي قدح بها احد اشياخه العلامة الطنطاوي وذكرنا مطلعها في ترجمته في القرن الرابع عشر فانتصر العلامة الامير عبد القادر الجزائري للشيخ الطنطاوي الذي انكسر البسيط على يده فارسل الامير الى صاحب الترجمة واهانه في داره بحضور جماعة من العلماء فبعد ذلك اغبر عيش المترجم وتكدر صفاؤه وضعف جسمه ثم بعد ذلك استسمح منه الامير وقد قال قصيدة من البحر والقافية سبطه الفاضل صاحب طبقات الحنابلة في هذه القصة انتصاراً له ذكرها عند ترجمته نضرب الصفح عنها لانها ليست من موضوع كتابنا وقد انشد العلامة محمود افندي الحمزاوي الى صاحب الترجمة بقوله مخاطباً له في مجلس انس :

مني اسمع قولتي عبد السلام التجلي لا يكرر والسلام

ونوه عنه سبطه في مختصر الطبقات لا يأتي على بعض من محاسنه لانه كان نادرة في عصره بلبل العلماء وكوكب الفضلاء مات في محرم سنة ١٢٩٥ دفن بالذهبية .

قاسم بن صالح بن اسماعيل الشهير بالحلاق الدمشقي الشافعي ولد بدمشق سنة ١٢٢١ ونشأ بها واخذ عن مشاهير رجالها برع في الفقه والتفسير والحديث وكان اماماً في جامع حسان ظاهر باب الجابية وخطب فيه ودرس بحجرته ثم عين اماماً للشافعية بجامع السنانية وذلك في سنة ١٢٧٩ وترك امامة ذلك المسجد لاحد انجاله وقد حج خمس مرات ورحل لبيت المقدس كان مهاباً له ولع بالانقباض عن اهل الرسوم وله نظم ونثر حسن وتآليف جليلة وقد جمع ولده الشيخ محمد سعيد ترجمته في جزء سماه الثغر الباسم مات سنة اربع وثمانين ومائتين والف دفن بباب الصغير ذكره حفيده العلامة المؤرخ جمال الدين في تاريخه الشهير .

كمال الدين بن السيد مصطفى البكري العلامة الصوفي الشاعر الشهير ولد في بيت المقدس ومات في غزة هاشم في بداية القرن الثامن عشر وتقدم ترجمة والده في القرن الثاني عشر .

عبد الغني الشيخ فضلي الدمشقي الطبيب الماهر برع واشتهر في هـذا الفن بين اقرانه وله مؤلفات فيه منها طبع ومنها لم يطبع مات سنة ١٢٨٨

كمال الدين بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن علي زين العابدين بن البدر محمد بن الرضي محمد بن محمد بن احمد بن عبد الله بن بدر بن مفرج ابن بدري بن عثمان بن جابر بن ثعلب بن ضؤ بن شديد مصطفى بن شداد ابن عاد بن مفرج بن لقيط بن جابر بن وهب بن ضباب بن علي بن مغيض ابن عامر بن لؤي بن غالب الدمشقي الشافعي الشهير كأسلافه بالغزي العامري. ولد بدمشق تاسع عشر جماد الثاني سنة ١١٧٣ ونشأ بها واخذ عن علمائها منهم الشمس محمد الكزبري والشهاب احمد العطار وعن بعض رجال اسرته وغيرهم كان علامة زمانه ونادرة اوانه محققاً تحريراً له باع طويل في الشعر والادب والتاريخ برع في زمانه بعلوم كثيرة وله آثار شهيرة منها التذكرة الكمالية التي اخذنا عنها اكثر التراجم والنوادر حذا بها نحو تذكرة الصفدي تقلد منصب افتاء الشافعية بدمشق وقد مدحه العلامة احمد بن عبد اللطيف البربير شاعر بيروت بمدايح كثيرة وجدناها في تذكرتـه وهي طويلة وكثيرة تقتطف منها لما وقعت بينهما المساجلات الادبية والمطارحات الفكرية قوله :

يا كمالا فاق الشموس جمالا ... انت اكملت ديننا بكمالك
كل عبد كاتبته بنظام ... صار للدهر والعلا بك مالك

وانشده العلامة الشمس محمد بن عبد الرحمن الغزي العامري مفتي الشافعية بدمشق ممتدحاً صاحب الترجمة الكمال لما ام بالناس في الجامع الاموي في محراب الشافعية بقصيدة طويلة لخصنا منها قوله :

همام صار في الدنيا اماماً ... فاشرق نوره بدراً تماماً

وجرد نفسه للعلم طفلاً وشرد من لواحظه المناما
وفي المحراب ان صلى بقوم ترى الاملاك حولهم قياما
له نسب الى الغزي يعزى فاضحى في الورى نجماً تساما

كانت وفاته سنة ١٢١٤ وقال مؤرخاً وفاته عبد الحليم اللوجي شاعر دمشق الشهير بقوله :

ايا سحب الرضا سحي على قبر حوى النفس الزكية
محمد النقي الغزي ارخ كمال الدين مفتي الشافعية

قال في التذكرة وانشدني الشاعر الشهير اللوجي الدمشقي مادحاً ومهنئاً بتوليتي منصب فتوى السادة الشافعية بدمشق المحمية وذلك في محرم سنة ١٢٠٣ بقصيدة طويلة منها قوله :

افديه من ماجد طابت ارومته فطاب منشأه شهم قد ملي ادبا
كنز الهداية مصباح الانام فتى جليل قدر غدا بالله محتسبا
لازال يرقى معالي العز سودده ما صاح طير وما قطر السما سكبا

قال في تذكرته وانشدني صاحبنا قدسي بن حسن مفتي الحنفية بحلب سنة ١٣٠٣ لنفسه :

اليس من الخسران ان نهارنا يمر بلا وصل الحبيب وينقضي
رضيت به مولى علي محكما فهل هو يرضاني عبيداً ويرتضي

وقال في تذكرته :

لا تفرحن لمجد جاء عن غلط فللزمان اساآت واحسان
وكن من الدهر ان يصحو على حذر فما تقدمت الا وهو سكران

وقال ايضاً :

ناديت اهل الريف يا قوم استروا ما تظهرون فكلكم عورات
قالوا الذين ترى التستر منهم فرضاً علينا كلهم قد ماتوا

وقال في تذكرته نقلا عن جده البدر الغزي :

اخبر الصادق فيما قد روى في حديث قد أتى بالسند

ان اذا نجم الثريا طلعت ترفع العاهة عن كل بلد

ونقل في تذكرته عن محمود الوراق احد شعراء دمشق قوله :

تعصي الاله وانت تظهر حبه هذا محال في القياس بديع

لو كان حبك صادقاً لاطعته ان المحب لمن يحب مطيع

مصطفى بن خليل بن محمد الشهير بقزيها شيخ علماء الحنفية بدمشق اصلهم من بعلبك جاء والده لدمشق مهاجراً حين تغلب حكم المتاولة عليها ولم يزل احد البساتين وبعض الطواحين مشهورة بقزيها الى يومنا هذا امتاز المترجم بالفضيلة والاخلاق الجليلة وكان مدرساً في الجامع الاموي ويحضر دروسه شيخه الشيخ الحلبي مات سنة ١٢٥٧

مصطفى بن محمد بن رحمة الله الشهير بالرحمتي الحنفي الدمشقي الايوبي البشر بي الانصاري الخزرجي ولد بدمشق سنة ١١٣٠ واخذ عن العارف عبد الغني النابلسي وعن الشهاب المنيني والشيخ علي كزبر وغيرهم ممن ادركهم من علماء عصره كان يلقب بابي حنيفة الصغير تفرد بسائر العلوم وحرر المنطوق والمفهوم تخرج عليه رهط من علماء دمشق كان خاتمة المحدثين والائمة العاملين له مؤلفات كثيرة منها حاشية على شرح التنوير وحاشية على المنح مات حاجاً ودفن بالمعلا سنة ١٢٠٥

مصطفى التهامي المغربي ثم الدمشقي امام المالكية بجامع بني امية كان من العلماء الاعلام مات سنة ١٢٨٣ وقد ارخ وفاته تلميذه الخاص الشيخ عبدالسلام الشطي الشهير بقوله :

قد مات شيخي من غدا يروي احاديث النبي

حبر همام ناسك ومالكي المذهب

يا طالبا احيا الدجى في صالحات القرب

ابن التهامي مصطفى من ارخوه المغربي

مصطفى الدوماني مولداً وشهرة ثم الدمشقي نشأ في صالحية دمشق واخذ عن علماء عصره وكان آية باهرة في العلوم والفنون قد اشتهر امره وعلا قدره

والف مؤلفات عديدة فمن اشهرها بخطه ضوء النير بن لفهم تفسير الجلالين وشرح على الكافي في علمي العروض والقوافي وحاشية على دليل الطالب في الفقه ورحل الى مصر وولي مشيخة الرواق في الازهر ثم رحل الى الاستانة ومات بها في سلطنة عبد الحميد الاول وكان من محاسن العصر الثالث عشر انتهى ملخصاً عن مختصر طبقات الحنابلة للفاضل جميل افندي الشطي .

مصطفى ابن سعد بن عبده السيوطي شهرة الرحيباني مولداً ثم الدمشقي الفرضي مفتي الحنابلة بدمشق ولد سنة ١١٦٠ في قرية الرحيبة ثم رحل منها الى دمشق واخذ عن علمائها وبرع في المذهب وسائر العلوم والفنون وكان اعلم علماء الحنابلة في عصره اعجوبة في استحضار الكلام شدت الرحال للاخذ عنه وانتهت اليه الرئاسة وكان حافظاً للسانه مقبلا على شأنه لين العريكة حلو الفاكهة ولي تولية اوقاف الجامع الاموي والجامع المظفري في الصالحية وله مؤلفات كثيرة منها مطالب اولي النهى في شرح غاية المنتهى وتحفة العباد فيما في اليوم والليلة من الاوراد وانتفع من علومه اناس كثيرون خصوصاً من اهل نجد والقصيم مات سنة ١٢٤٣ انتهى من الطبقات .

مصطفى بن سليمان بن محمد مزهر النابلسي الاصل البرقاوي مولداً الشهير بالحنبلي ثم الدمشقي العالم البارع الكاتب الماهر قدم دمشق واستوطنها واخذ عن علمائها وادرك شيوخها كالشمس محمد الكزبري والشهاب احمد العطار وتفقه على الشيخ مصطفى السيوطي وولي قضاء الحنابلة بدمشق سنة ١٢٢٠ وتصدر للقضاء والامضاء في المحاكم الشرعية وهو المؤسس لمجد هذه الاسرة بدمشق وقد أعقب بعده ذرية طيبة تولوا القضاء . مات سنة ١٢٥٥ وقد أحيا ذكره من بعده ولده محمد بالفضيلة والعلم الذي تولى قضاء الحنابلة وصار رئيس كتاب المحاكم الشرعية . كان جريئاً في فسخ نكاح الغائب وقد أخطأ مرة في مسألة وتمت منه فصنف كتاباً سماه الفوز بالنجاح . مات سنة ١٢٩٧

محمد بن سعيد بن محمد أمين الشهير بالمنير الشافعي الدمشقي نشأ في حجر والده . تصدر للتدريس في الحديث والتفسير في الجامع الاموي والسنانية

وترأس في مجالس العلم . مسموع الكلمة عند الحكام محبوباً ومهاباً عند الخاص والعام . مات سنة ١٢٩٠ وقد أعقب ولداً اسمه سعيد افندي كان وجيهاً محبوباً محترماً عند العلماء ومهاباً لدى الامراء وقد كان صديقاً لنا وحبيباً . مات في أوائل القرن الرابع عشر وأعقب ذرية نجيبة بارك الله بهم .

محمد الشمس بن عبد الرحمن بن محمد بن زين الدين بن عبد الكريم الشهير بالكزبري الشافعي الدمشقي ولد سنة ١١٤٠ ونشأ في حجر والده واخذ عن علماء عصره منهم خال والده علي بن احمد كزبر المتقدم الذكر في القرن الثاني عشر والشهاب احمد المنيني ومحمد سعيد بن محمد الجمفري الشافعي الدمشقي برع في سائر العلوم والفنون وتفرد في علم الحديث . تخرج عليه كثير من علماء دمشق . اشتهر امره وعلا قدره . تولى درس البخاري تحت قبة النسر بالجامع الاموي في الاشهر الثلاثة لانه مشروط لأعلم علماء دمشق وكانت تجتمع عنده جميع العلماء والمحدثين للأخذ عنه . نقل الينا احد حملة الاخبار ان اصل بني الكزبري الاكارم من صفد وان أول من قدم من أسلافهم الى دمشق السيد عبد الكريم في سنة ١٠١٣ وشهرتهم في صفد معلومة وشهرة والنسبة بكزبري جاءتهم من خالهم الشيخ علي كزبر والشمس محمد هو المؤسس لمجد هذه الاسرة الكريمة المباركة، مات سنة احدى وعشرين ومائتين والف وقد تقدم ذكر ولده عبد الرحمن بحرف العين وقد رثاه أحد تلامذته محمد امين بن عابدين صاحب الحاشية بقوله بمرثية طويلة منها :

خطب عظيم باهل الدين قد نزلا   يحسبنا الله في كل الامور ولا
خطب ارانا عجاباً حين بغتته   واضرم القلب بالاحزان فاشتعلا
فلا تغرنك الدنيا وزينتها   ولا يروقك منها زبرجد وحلا
فكم طوت امماً تحت التراب غدوا   من بعد عزتهم فيها لنا مثلا

ثم قال :

ياقبة النسر نوحي مذ فقدت فتى   يكسوك في كل عام بالحديث حلا

فمن لعلم الحديث الآن ينشره ومن لنا بأمام مثله كملا

الى ان قال :

فلم يمت من له من بعده خلف لاسيا ان يكن من بحره نهلا
العالم الاوحد المفضال من بزغت من افق طلعته الحسناء شمس علا

ثم قال :

فالله يبقيك فينا بعده خلفا حتى نرى فيك ماللحزن فيه حلا
ماغاب في الافق شمس يستضاء بها فجاء في أثرها بدر الدجى وتلا
امامنا الكزبري نجم كما افلا غليل جلقه مازال متسدلا
دامت شآبيب عفو الله هاطلة على تراب حوى مذ حله بطلا

محمد امين بن السيد عمر عابدين من شاع صيته في الامصار واشتهر فضله كالشمس في رابعة النهار صاحب الحاشية الشهيرة والتآليف المفيدة الكثيرة احد افراد زمانه وزينة دهره واوانه امام السادة الحنفية في عصره والمرجع عند اختلاف الآراء في الفتوى في مصره ولد سنة ١١٩٨ انشأ في حجر ابيه وكان تاجراً يألف التجارة ثم لاسباب ذكرها ولده في التكملة تشوق لطلب العلم واخذ عن علماء كثيرين ذكرهم في ثبته المطبوع بدأ بعض تأليفه وسنه سبع عشرة وقد عد مؤلفاته ولده في تكملة الحاشية لم نر لزوماً لاعادة ذكرها وهي شهيرة فمن ارادها فليرجع اليها كانت دمشق في زمنه اعدل البلاد وللشرع بها ناموس عظيم لايتجاسر احد من اهل الشام على ظلم احد ولا على اثبات حق بغير وجه شرعي وقل ان تقع واقعة مهمة او مشكلة مدلهمة في سائر البلاد الاسلامية الا ويستفتى فيها وهو المؤسس لمجد هذه الاسرة الكريمة المباركة وقد اشتهرت بهذا اللقب بجدهم الخامس السيد صلاح الدين الشهير بعابدين وبقيت هذه الشهرة الى يومنا هذا وقد اخبرني ابن ابن اخيه السيد ابو الخير مفتي دمشق ان مجيئهم كان من حماه واختاروا السكنى بدمشق ولهم سلسلة مباركة وذرية طيبة له اليد الطولى في جميع العلوم والفنون والمنقول والمعقول انتفع به وبمؤلفاته خلق كثير من المسلمين في مشارق الارض ومغاربها

وتخرج عليه كثير من العلماء الاعلام وقد ترجم علماء الغرب كتابه الى اللغة الافرنسية حتى اذا وقع عندهم امر مهم طلبوا كتاب السوري ورجعوا اليه في تلك المهمة ويحكمون على ما حرره فيه ثم وقعت حادثة في عهد السلطان عبد الحميد بخصوص حاشيته الشهيرة بزعم احد المخبرين ان بها بحثاً يضر بالسلطنة والخلافة فصدرت ارادته بالحال بجمع نسخ الحاشية التي تكرر طبعها احدى عشرة مرة لاعتماد المسلمين على العمل بها في المذهب وباتلافها ثم قام علماء الاسلام ومفتوا البلاد من جميع الامصار تندد وتقبح ذلك فأصدر امراً ثانياً الى المشيخة الاسلامية ونظارة المعارف بارجاعها ونشرها وقد كنت في ذلك الوقت في الاستانة .وله توسلات واشعار ومدائح كثيرة ومرثيات ذكرنا البعض منها في محلها وسنذكر بعض من اشعاره كتابنا في مدح الحضرة النبوية حين كان متشرفاً بالاراضي الحجازية وذلك سنة ١١٢٠ قال من قصيدة طويلة :

ارض من العبير قد تكونت ... والنور جللها كما النهتان
يانوق سبحان الذي ادناك من ... ارض الحبيب وجل من اقصاني
في كل عام تبلغين مقاصدا ... وتشاهدين منازل القرآن
يامنبع الانوار ياشمس العلا ... يامنبع الاسلام والايمان
واختم لناظمها الهي بالرضى ... والعفو والاحسان والغفران

ومن قصيدة طويلة قوله :

اشكو الى الله ماالقاه من نصب ... مستشفعاً بشفيع الخلق كلهم

ثم قال :

اقبل هدية نجل العابدين فقد ... غدا بمدحك معدوداً من الخدم
صلى عليك اله الخلق ماكشفت ... بك الكروب وزاحت ظلمة الغمم

وله ايضاً في المدح :

لولا سناه من جبينك مشرق ... ماضاء طراً مغرب او مشرق

قال صاحب الترجمة وقد دعانا صديقنا المحترم السيد سعيد الاسطواني مع

جناب شيخي الشيخ سعيد الحلبي وجماعة الى جنينة عاصم في ذي الحجة سنة ١٢١٧ وقد ارتجلت قصيدة مطلعها :

جنينة منسوبة لعاصم جئنا لها والله خير عاصم
ياحسنها من روضة لقد زهت اغصانها بلبلة المعاصم
مع سادة باللطف قد عرفتهم هم المنى ووفق قصد الرائم

ثم قال :

والشهم ذو التقى وحيد عصرنا سعيد ابن الاسطواني الهاشمي
قد جاء يدعونا الى رحيبها فزده يا ربي من المعالم

وكانت وفاته في الحادي والعشرين من ربيع الثاني سنة ١٢٥٢ ودفن بمقبرة باب الصغير مجاوراً لقبري العلامتين الشيخ العلائي شارح التنوير والشيخ صالح الجنيني الدمشقي امام الحديث ومدرسه تحت قبة النسر وهذا مما يدل على حبه للشارح لاسيما وقد حشى له شرحيه على الدر والملتقى .

مصطفى بن عبد الرحيم بن محمد بن ياسين بن طه الدمشقي الشافعي الشهير باللوجي الشيخ المتفنن الشاعر الماهر ابو العون ناصح الدين المعمر البركة نشأ من الصغر والشعر به سجية تخرج على علماء عصره وقرأ بعض العلوم وانفرد في المعاني والبيان واللغة والادب واشتهر بين الناس بشاعر دمشق وكان مقبولا عند العلماء والامراء وقد ذكره الكمال الغزي في تذكرته واتى على كثير من شعره وذكر بعض مراثيه منها الى السيد علي بن اسماعيل العجلاني نقيب الاشراف بدمشق وغيره من العلماء والامراء نأتي على بعض منها لضيق المقام .

وقد انشد مادحاً الشيخ الامام الحبر العارف العلامة عبد الرحمن بن مصطفى العيدروسي اليمني الاصل الشافعي نزيل دمشق بقوله من قصيدة طويلة مطلعها :

اقسمت بالليل من فرع وما عبقا طيباً وبالبدر من فرق اذا اتسقا
يا اوحد الدهر عفواً ان يكن خطأ ان تهدي البحر دراً ليس متسقا

تاهت وباهت بمدح فيك أرخــه ... سر تجلى فكم قلب به عاقا

وانشد مادحاً ومهنئاً الوزير الحاج محمد باشا بن مصطفى بك الشهير بابن العظم حاكم دمشق وامير الحج بها وذلك حين قدومه من الحج سنة ١١٩٦ بقصيدة طويلة مطلعها :

امارة الحج ما شهم سواك لها ... يا آصف الدهر قد زادت بكم ولها

انت الامير وزير الشام كوكبنا ... شمس الوزارة في سعد وتاج بها

وانشد مهنئاً علي افندي المرادي بعودة منصب افتاء الحنفية بدمشق اليه بقصيدة طويلة منها قوله :

الحمد لله عاد الماء موضعه ... هنئت ياكوكباً قالهم قد ذهبا

وقال مهنئاً خليل افندي مفتي دمشق صاحب التاريخ بن علي افندي المرادي المذكور بشهر الصيام بقصيدة طويلة منها قوله :

ولك الهناء بشهر صوم مقبل ... وبفطره الآتي عقيب ختام

ما غردت قريــة وترنمت ... بغرائب الالحان والانغام

وانشد مشطراً القصيدة الفارضية بقوله :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة ... مقدسة في الذات بكراً لها قدم

ولما بدت في الروح نفحة طيبها ... سكرنا بها من قبل ان يخلق الكرم

قال الكمال الغزي في تذكرته انشدني شاعر دمشق الموجي مهنئاً لي بتوليتي منصب فتوى الشافعية بدمشق وذلك في محرم سنة ١٢٠٣ بقوله :

شمس المعارف عرف الطيب طاب اباً ... محمد البدر من للنجم قد نسبا

غزي اصل ومفتي الشام سيدنا ... مقدام فضل فلا فيه الجواد كبا

ومن محاسن شعره ودرر الفاظه :

لا تغترر بسحابة وبروقهــا ... ما كل بارقة تجود بمائهــا

ما كل سحب في الانام بممطر ... ما كل رعد مذعر بندائها

الفجر اوله كذوب فــلا تثق ... الا بشمس قد علت بضيائهــا

ما كل صدر في المجالس سيد ... ما كل خود تزدهي بجلائها

ما كل زهر في الغصون بعاقد ما كل خضراء يطيب جناتها
لا سيا خضراء في دمن بدت بنضارة اياك من خضرائهـا
فتظنها ورد الكمال جهالة ان صبتها تبلى بتن بهائهـا
هلا الطاووس نظرت وريشه كزمرد مترصع بردائهـا
ان جردت عن ذاك اصبح شكلها بزراية مطروحة بفلائهـا
ما كل خفاق الجناح مغرد ما كل ورقاء شجت بغنائهـا
كم عندليب مطرب بغنائه كم بومة مطرودة بندائهـا
كم طائر يردى لطول مخالب كم درة معزوزة لحيائهـا

وكان يقول :

وقسمنا ملككنا في دهرنا قسمة اللحم على ظهر الوضم
فجعلنـا الروم والشام الى مغرب الشمس لغطريف سلم
وبطوج جعـل الترك له فبلاد الترك يحويهـا زغم
ولايران جعلنا عنوة فارس الملك وفزنا بالنعم

ووجد في نكاشه ايضاً :

مقامات الغريب بكل ارض كبنيان القصور على الثلوج
فذاب الثلج وانهدم البنايا وقدعزم الغريب على الخروج

ووجد في خطه :

فديت امرءاً قدراقب الله ربه وافسد دنياه لاصلاح دينه
وعزل الفتى في الله اكبر منصب يقيه الذي يخشى بحسن يقينه

وله ايضاً :

لا ورد للقوم ان لم يعرفوا يردى اذا تجرب عن اعناقها الصدف

ووجد في نكاشه عند ذكر ترجمة الامام الشاطبي ملخصة من نفح الطيب قال كان كثيراً ما ينشدهذا اللغز في النعش وهو لابي زكريا يحيى بن سلامة :

أتعرف شيئاً في السماء نظيره اذا سار صاح الناس حيث يسير
فتلقاه مركوباً وتلقاه راكباً وكل امير يعتليه اسير

يحض على التقوى ويكره قربه وتنفر منه النفس وهو نذير
ولم يستتر عن رغبة في زيارة ولكن على رغم المزور يزور

ونقل من نظمه قوله :

خالطت ابناء الزمان فلم اجد من لم ارم منه ارتياداً يخلص
رد الشباب وقد مضى لسبيله اهيا وامكن من صديق مخلص

وحكي ان الامير عز الدين موسك بعث الى الشيخ الشاطبي يدعوه الى الحضور عنده فامر الشيخ بعض اصحابه ان يكتب اليه :

قل للامير مقالة من عاقل فطن نبيه ان الفقيه اذا اتى ابوابكم لا خير فيه

وله غير ذلك اشياء واقوال لطيفة كثيرة لو جمعت لكانت ديواناً باهراً لكن حب الاختصار في كتابنا الجأنا الى اقتباس ما ذكرناه نختمه بقوله مؤرخاً فتح الباب الجديد لدار الكمال الغزي الذي جدده والده بقوله :

فتحت للعلم باباً قيل ارخه باب الفتوح ودار اللطف والكرم

مات صاحب الترجمة سنة ١٢١٧

محمد بن سليمان بن محمد الشهير بالجوخدار الحنفي ولد بدمشق سنة ١٢١٧ ونشأ بها وتخرج على مشاهير رجالها الاعلام منهم سعيد الحلبي وحامد العطار وعبد الرحمن الكزبري ومحمد امين بن عابدين صاحب الحاشية وهاشم التاجي البعلي برع في العلوم والفنون واشتهر فضله وعم نفعه لجميع اعيان دمشق وعلمائها كان ذا هيبة ووقار واخلاق كريمة يصرف اكثر اوقاته بالقائه العلوم المتداولة من شرعية وعقلية استوطن جده دمشق حين كان عائداً من الحجاز وهو من مشاهير تجار أماسيه في الاناضول وذلك في أواخر القرن الثاني عشر وقد ولي في آخر عمره منصب نيابة القضاء الشرعي بدمشق حيث اكره عليه وبقي به من يوم ولايته في سنة ١٢٧٩ الى حين وفاته في اليوم الخامس من شوال سنة ١٢٩٧

وقد اعقب ذرية ارشدها سليمان افندي مفتي دمشق سابقاً واحد اعضاء

مجلس التمييز اليوم وكان تولى قضاء الحرمين وانتخب عضواً عن دمشق في مجلس الامة .

محمد بن احمد الحنفي الدمشقي الشهير بالكنجي كان من شعراء عصره المشهود لهم بالفضل يعظ الناس ويعلمهم في محراب الحنابلة بالجامع الاموي وكان له معرفة تامة في علم الموسيقى وله شعر لطيف ذكر الكمال كثيراً من اقواله وقد اقتطفنا منه قوله :

يارافلاً برداء الحسن يفتخر   الى محياك ضوء البدر يعتذر

مات في اوائل القرن الثالث عشر .

محمد بن الديري الشافعي الدمشقي الفقيه النحوي الشهير كان يفيد الطالبين بحسن سبك عبارته وتفهيمهم وله عليهم شدة بحيث انه يضرب بخفه من لا يفهم من الطلبة في الدرس وكان يدرس بالقرب من باب السنجق في الجامع الاموي وبذل نفسه في اصلاح الفتنة وما وقع بين اهل دمشق وحسين باشا البوستنجي نائب دمشق وحاكمها مات سنة ١٢٠٠

محمد بن عبد الرحيم بن علي بن عبد الله الرحيبي الاصل ثم الدمشقي الشهير بالخلالاتي الشافعي الموقت برع في علم الميقات واشتهر في علم الفرائض ذكره الكمال في تذكرته مات سنة ١٢٠٧

محمد بن عبدالله الشهير بتلو الدمشقي الحنفي بن عمر بن مصطفى المهاجر الى الشام شقيق الغوث فقيرالله التلو بن المنلا قاسم بن محمد بن علي نورالدين الذي هاجر من المدينة سنة ٩٠٠ الى قصبة تلو من اعمال نابلس فهم يتصلون بسيدنا العباس كما اخبرني ولده صديقنا الاديب يحيى افندي الذي مات عند طبع هذا الكتاب وكان صاحب الترجمة اكبر انتفاعه وملازمته بشيخه الخاص السيد محمد امين عابدين صاحب الحاشية وعليه تخرج ومنه انتفع لقرب مجاورتهم له واخذ الطريق عن قطب زمانه المجدد الشيخ خالد النقشبندي الشهير وقد تصدر للتدريس وفي سنة ١٢٥٢هجرية طلب من قبل السلطان محمود وانزله في منزول خاص واكرمه وصادف انه اجتمع هناك باشخاص ينكرون على

الشيخ خالد فألف رسالة بالرد عليهم ثم رجع من الاستانة والف بعض رسائل اخفى عليها الدهر وله تأليف حسن بقصة المولد مات سنة ١٢٨٢ وقد أرخ وفاته الاديب الشاعر الشيخ محمد الهلالي الحموي نزيل دمشق بقوله :

جاد الرضى شيخاً سمي محمد بسحاب غفران وعفو صيب
من آل تلو شهرة معروفة والمرء مجهول اذا لم ينسب

الى ان قال :

والجنة المأوى دعاه مؤرخاً داعي المهات بشهر ميلاد النبي

محمد بن محمد بن عبد الجليل بن ابي المواهب بن عبد الباقي الحنبلي تقدم ذكر آبائه واجداده في المحبي والمرادي بركة الخلف بقية السلف شيخ المحدثين تخرج عليه خلق كثير من علماء دمشق وقد نوهنا في كتابنا هذا في بعض المباحث عن صاحب الترجمة انه كتب كتاباً الى الدولة العثمانية في رفع امارة الحج عن ولاة دمشق وارجاعها لما كانت عليه في العهد السابق في ابتداء ولاية الاتراك لهذه البلاد ودفع مخصصاتها من الاستانة لانه بواسطة ضمها الى الولاة بدمشق يحصل سوء استعمال العمال والجباة من ظلم لايطاق في الرعية بسبب مشاركة الولاة لهم في تلك المغانم كما وقع فعلاً حين صار ضم امارة الحج الى الولاة وبقيت الى عهد ليس ببعيد وقد اتضح ذلك جلياً من كتاب صاحب الترجمة الذي نقله صاحب التذكرة الكمالية المحرر الى الحضرة السلطانية وهاك خلاصته بعد عبارات وسجاعات طويلة :

حمد الله واثنى عليه ودعا لسلطان المسلمين بالنصر واورد الاحاديث الناطقة بفضائل العدل وقبيح الظلم وانه لايدوم معه ملك اودولة ولو كانت مسلمة وشخص الظلم الواقع من الولاة والجباة على البلاد والعباد بسبب ضريبة سفر الحج والمحمل الشامي بعبارات تقشعر لها الجلود ويرأف من اجلها العدو اللدود وذلك في سنة ١٢١٢ قال فيه وقد عرض هذا الفقير هذه الاحوال على الجانب العالي والله عليم بالنيات اني لا غرض لي في ذلك بل هو اخبار بالواقع امل بسبب ذلك يحصل النصر للمسلمين والرحمة للضعفاء والمساكين

وان اطلنا بذلك فانه من بعض مايجب ان يكتب ويسطر بالاقلام فنرجو ان يصرف نظركم الشريف في كشف هذه الغمة عن الخلق لانهم عيال الله وانقاذهم من هذا العناء والشدة وتفريج كربهم بان لاتجعل امارة الحج مضمومة الى من يكون والي الشام فانها اذا استمرت مضمومة لاشك بهلاك اهلها وخراب قراها ودثار عمرانها ورحيل اهلها عن اوطانهم فان استحسن لديكم صدور التوصية باهل الشام وقراها على اختلاف مذاهبهم لكل من يكون واليا على الشام بمفردها بالعدل والرفق كما عودتهم الدولة من الاحسان والجميل الوارد عن حملة الاخبار بحقها انه لايدوم بها ملك الظالمين مهما كانت سلطتهم وجاء في روح البيان فعلى الولاة والمسلمين ان لايتعدوا ماحد الله تعالى في كتابه فان الظلم لايجوز مطلقاً ويعود وباله على الظالم بل يسري الى غيره ايضاً وفي الحديث خمس بخمس اذا اكل الربا كان الخسف والزلزلة واذا جار الحكام بالضرائب والاحكام (قحط المطر) واذا ظهر الزنا كثر الموت واذا منعت الزكاة هلكت الماشية واذا عتدي على اهل الذمة كانت الدولة لهم لم نعثر على تاريخ وفاته بالضبط الا ان الذي يظهر هو من اعيان القرن الثالث عشر .

وقد استحسنا نقل ماكتبه المؤرخ محمد افندي كرد علي في خطط الشام بمناسبة زيادة الضرائب في هذا العصر قال بعد بحث طويل : تخفيف الضرائب عن عاتق الاهلين وقد اصبحوا لايطيقون حملها بالنظر لكثرتها وتعداد اشكالها وزيادتها بالاضافات التي طرأت عليها مع قلة اسباب الرزق وضعف موارد الاقتصاد وبما ان قضية الضرائب قضية مهمة جداً اذكر كلمة موجزة عنها فاقول تتقاضى الحكومة الآن ضرائب فاحشة بحجة الضرورة الماسة لتسديد ميزانيتها واذا كانت القاعدة القائلة (ان ثروة الحكومة من ثروة الشعب) صحيحة وجب على الحكومة ان تراعي ثروة الاهالي والاحوال الاقتصادية الحاجزة ، ولا يمكنها ذلك الا اذا امعنت النظر في حقيقة الثروة التي يملكها الشعب مع نسبة الضرائب التي تتقاضاها الحكومة الى هذه الثروة . فثروة

الشعب اليوم سواء كانت عقاراً او تجارة ضعيفة جداً والدليل المقنع الذي لايحتمل الرد على ذلك هو ان الثروة الحقيقية في البلاد وهي الارض والاملاك التي اصبحت قيمتها الآن اقل من قبل سنتين بمعدل اربعين بالمئة واقل من اثمانها قبل الحرب العامة عشرين بالمئة على اقل تعديل فاذا كانت هذه نسبة اثمان الثروة الحقيقية التي يملكها الشعب اصبح من المتحتم على الحكومة اليوم الاهتمام الكلي لتخفيف هذه الاعباء الثقيلة عن عاتق الشعب ولا يمكن تخفيفها الا بتعديل جباية الضرائب وطرحها على وجه يلائم مصلحة الشعب والحكومة في وقت واحد .

محمد امين بن عمر بن عبد العزيز كان مولده بدمشق سنة ١١٩٨ ذكر صاحب الآداب العربية أنه اخذ عنه علماء دمشق وقد اشتهر وبرز بين ادباء وطنه وانه من خيرة علمائها وله تصانيف في الفقه والتصوف نحو خمسين مؤلفاً مات بدمشق سنة ١٢٥٢ .

محمد بن عبدالله بن مصطفى الخاني النقشبندي الخالدي الشافعي ولد في خان شيخون سنة ١٢١٣ ثم اتى مع عياله الى حماة واشتغل بتحصيل العلوم على علماء عصره عدة سنين واخذ الطريقة القادرية على الشيخ محمد الكيلاني الازهري وتصدر للتدريس فحصل على يده نفع عظيم واشتهر فضله في ارجاء حماة وكان مقره في جامع الشيخ علوان ثم بعده اتى دمشق واختار جامع العداس لاقامته ولازم العلامة المجدد الشيخ خالد النقشبندي واخذ الطريق عنه وامره باحضار عياله سنة ١٢٤١ ولما توفي خليفة الشيخ في جامع المرادية بالسويقة خلفه في محله واذن له بالارشاد والتوجه للاخوان وكان يقرأ للمريدين الحديقة الندية وغيرها من كتب العلوم الفقهية والشرعية وله رحلات كثيرة منها الى الحجاز والقدس والاستانة واجتمع بعلماء تلك البلاد وحصل له الشهرة والاقبال وبرع في العلوم والفنون واخذ عنه بعض علماء دمشق وقد اطال حفيده في ترجمته في كتابه الحديقة الندية الوردية وهو المؤسس الاول لمجد هذه الاسرة الكريمة بدمشق مات سنة ١٢٧٩ .

محمود بن احمد بن حسين الشهرزوري الملقب بالصاحب النقشبندي الخالدي العثماني نسباً نلخص ترجمته من كتاب الفيوضات الخالدية لولده الاكبر حضرتنا المرشد الكامل محمد اسعد اوسع فيه المقال وبرع واجاد قال هو مصدر الارشاد ميزاب الامداد المدد الضيائي الشيخ الكامل المعمر الصالح المرشد ولد سنة ١١٩٧ في نقط من اعمال السليمانية وقد توفي والده وهو دون البلوغ فحضنه اخوه الاكبر الشيخ محمد خان قرأ مع اخيه على اساتذة اعلام في تلك الاصقاع فلما ان ترعرع احلاه بخلع المعارف وحينما ذهب اخوه المجدد الشيخ خالد الى البلاد الحجازية والهندية فقام مقامه على الاهل والمدرسة والعيال حتى رجع اخوه فلقنه الذكر الخفي وحثه على الصراط السوي فاقامه خليفة واجلسه يرشد الخلق الى طريق الحق فاجازه اجازة عامة في تلقين الذكر للمريدين وتسليك المسترشدين والتوجه للطالبين ثم بعد ان عمرت ارشاداته اكناف البلاد قدم صاحب الترجمة دمشق واستمنحت انفاسه لمشيخة الخانقاه والجامع السليماني الكائن في المرج الاخضر بدمشق صدرت ارادة السلطان عبد المجيد بذلك عام ١٢٥٩ بعد ان رتب لها المرتبات فجعل له المشيخة عليها والتدريس في جامعها وقد اخذ عنه الطريق كثير من رجال دمشق وغيرها ذكرنا من اسمائهم في ذلك الكتاب منهم سيدي الوالد والشيخ ابو بكر الكردي الكلالي الشهير والشيخ خليل الموصلي والشيخ سليم خلف الحمصي والشيخ محمد الهراني نزيل ادلب والشيخ احمد السمين مدرس الاعظمية ببغداد، كانت وفاته في رجب سنة ١٢٨٣ دفن بمقبرة اخيه في جبل قاسيون وصلى عليه الشيخ مسلم الكزبري وقد رثاه الشعراء والبلغاء بقصائد كثيرة ذكرها ولده في كتابه المذكور نقتطف بعضاً منها قال الهلالي :

للبقا سار وابقى سره　　اسعداً انجب نجل قد نجب
ومضى لادعي تاريخه　　طاب في الفردوس في شهر رجب

ومنها قول للشيخ عبد القادر نبهان :

عيون العلا تبكي على فقد محمود　　هو الصاحب المعروف بالفضل والجود

شقيق ضياء الدين مولاي خالد مجدد هذا العصر من غير ترديد

وبما ذكره احد الفضلاء في عقد نظم سلسلة السادة النقشبندية بقوله :

فخالد بغدادي غوث زمانه ممد الورى بالرشد في كل نفحة
وبالشيخ محمود اخيه وصنوه هو الصاحب المشهور عند الخليقة
هو الوارث الداعي الى الحق والهدى على مقتضى احكام نهج الشريعة

محمد بن عبدالله الحنبلي الدمشقي الشهير بابي شعر الامام العارف الصالح العابد المتفق على احترامه وعلو قدره المعتقد بدمشق صاحب الاحوال الشهيرة الغريبة والمؤلفات الكثيرة في كلام الصوفية وفي صيغ الصلوات المنوعة وفي التوحيد على لسان القوم وان لسانه في تركيب الصلوات غريب عجيب لا يفهمه الا كل صوفي وذو فضل اريب وكان رشدي باشا الشرواني العالم الشهير والي دمشق اخذ سفراً من تآليفه وبعضاً من صيغ صلواته واعتنى باقتنائها لان له اليد الطولى في كلام القوم ثم اطلعت على ترجمة صاحب الترجمة في مختصر طبقات الحنابلة الذي طبع حديثاً قال مؤلفه الفاضل عند ذكره هذه الابيات :

فساد كبير عالم متهتك واكبر منه جاهل متنسك
هما فتنة في العالمين عظيمة لمن بهما في دينه يتمسك

مات سنة ١٢٠٧ .

مسلم بن عبد الرحمن بن الشمس محمد الشهير كأسلافه بالكزبري الدمشقي الشافعي اخذ عن علماء دمشق الذينهم تخرجوا على والده وكان اكثر انتفاعه منه تصدر لقراءة درس البخاري في الاشهر الثلاثة بالجامع الاموي بعد وفاة اخيه لابيه الشيخ عبدالله المتقدم الذكر ثم لامر اداري تولى نقابة الاشراف بدمشق وكان السبب في ذلك على مايقال انه حين وقوع حادثة ستين الشهيرة بدمشق اغلق باب الحديد عند داره في محلة الشاغور ومنع كل احد من الهجوم على محلة النصارى وحينما عهد الى فؤاد باشا احد وزراء الدولة امر تسكين هذه الفتنة وعقاب مسببيها ومكافأة مطفئيها قلد اليه هذا المنصب الشريف مكافأة له على عمله لاسيما وقد ابعد اغلب اعيان واشراف الطبقة الاولى من

دمشق كما فصلنا ذلك في محله وفي عدادهم النقيب العجلاني الذي كان اذ ذاك فبالطبع انتقلت الوجاهة الى الطبقة الثانية التي هو منها ولم يتصدر لها غيره وقد هنأه بعضهم بقصيدة لطيفة بأنشائه ديواناً لمجلس النقابة مطلعها قوله :

دار الصفا والوفا والمجد والفرج قد عمرت بحديث المصطفى البهج
وروضة للنقيب الكزبري زهت وبدره لم يزل في رفعة الدرج
فلذ به راجياً وادخل حماه تجد تاريخ عز وقل يا شدتي انفرجي

كان مهاباً ذا وجاهة جسوراً له مكانة ومحبة في قلوب الناس وله صوت جهوري في القاء الدرس وبعض ادعيته مأثورة جميلة وقد حضرت بعض دروسه تحت قبة النسر وكنت صغيراً دون البلوغ وخرجت مع والدي بجنازته بعد صلاة العصر مشى فيها خلق كثير من العلماء والامراء والتجار وجميع طبقات الناس بدمشق محتاطين بصفوف الجنود والدرك والشرطة وكان يوماً مشهوداً ودفن بباب الصغير مات سنة ١٢٩٩ .

وقد تصدر بعده لقراءة هذا الدرس ولده الاكبر سليم وبقي مدة طويلة به يذكر في كل سنة عند الختام بحضور العلماء والحكام اسماء رواة حديث الرحمة المسمى بحديث الاولية والحديث القدسي المسلسل عن الدمشقيين ويذكر اجازته المسلسلة عن آبائه واجداده المتصلة برجال الاسناد وكان يقول انه اعلا اسند على وجه البسيطة ، مات سنة ١٣٢٠ وقد أعقب ذرية طيبة مات منهم انجبهم محمد علي الذي ورث هذا الدرس بعد وفاة ابيه وتصدر لقراءته في كل سنة مات سنة ١٣٢٣ وقد احسنت اليه الدولة العثمانية برتبة الموالي من البلاد الخمس واهداه امبراطور المانيا غليوم الثاني خاتماً مجوهراً حين قدم دمشق وهما ختام من قرأ هذا الدرس من رجال هذا البيت .

محمد بن عثمان الشهير بالحلبي الحنفي الدمشقي اشتغل في بادىء امره بالتجارة ثم لازم العلماء وحضر مجالسهم وادرك الطبقة الاولى منهم واخذ عنهم واجازوه حتى صار صدر دمشق وعين أعيانها ثم رحل الى الاستانة مراراً وكان موضع الاحترام من علمائها ووزرائها واحسنت اليه الدولة بالرتب العلمية حتى ادرك

باية استانبول اشتهر صيته عند الخاص والعام واحترمته العلماء والحكام يشار اليه بالبنان ويفتخر به الزمان تقصد زيارته العلماء والحكام واعيان البلاد تقلد وظائف دينية كثيرة منها قضاء بغداد دار السلام وقضاء مكة المكرمة والمدينة المنورة وكان احق بها واهلها خضعت لاحكامه الرقاب ونفذت اوامره عند ذوي الالباب له هيبة ووقار ورفعة وقدر واعتبار وقد اجاز البعض من علماء دمشق رأيت اجازة بخطه الى سيدي العم السيد صالح تقي الدين نقيب دمشق في سائر العلوم وبما تجوز له روايته وقد نقل العلامة صاحب الروض البسام عند ذكر صاحب الترجمة مانصه: ويقال ان من العثمانيين المنتسبين الى ذي النورين عثمان بن عفان آل الجابي بدمشق وقد كان صدر بيتهم وخلاصة رجالهم وذكر اسم المترجم ثم قال وله بقية من ذويه وبنيه كلهم على حسن حال وادب وكمال مات سنة ١٢٩٨ وقد اطلعت على قصيدة الى الشيخ عبد السلام الشطي احد علماء دمشق مهنئاً صاحب الترجمة برتبة قضاء استانبول مطلعها :

محمد جابي افندي زاده ... اعطاه رب العالمين مراده
لازال مرفوع المقام معظماً ... عند الانام وفوقهم وزياده
ورث المفاخر كابراً عن كابر ... وله الاماجد دائماً منقاده
والثالث الخلفاء سيدنا انتمى ... وبه لاهل الشام خير افاده
سلطاننا عبد العزيز اعزه ... رب العباد وعز فيه عباده
لما رأى هذا الهمام بأنه ... اهل لكل فضيلة وسياده
اولاه احساناً وخص جنابه ... بقضاء اسلامبول دار سعاده
فلذا اتى عبد السلام مهنئاً ... مولاه فيما صار فيه اراده
يهدي له التاريخ حاز مرتبة ... محمد جابي افندي زاده

مصطفى الشهير بابن عوده الدمشقي كان من الاطباء يطبب على الطب القديم بدمشق عند تحرة الدقاقة والطب الحديث كان قليل رجاله. كانت تقصده اهل القرى وبعض من اهل دمشق الفقراء للتداوي والعلاج معاً وقد اعقب ثلاثة اولاد سلكوا مسلكه في الطب ولازموا خدمة المرضى في مستشفى

البيمارستان النوري وهم سعيد وعبد القادر وحسين وللاخير بعض آثار تدل على اقتداره في هذا الفن منها الرحلة العودية ومفردات الطب وله المرشد الامين في النصيحة في الدين عاش تسعين سنة مات في صيدا ومات والده صاحب الترجمة بدمشق سنة ١٢٧٥ .

ومن العجب مانقل عنه انه كان يترنم بقول القائل :

بقراط مفلوجاً مضى لسبيله ومبرسماً قد مات افلاطون
ومضى ارسطاطليس مسلولاً وجا لينوس مات وانه مبطون
وابو علي قد مضى من سحجة يوماً وليس يفيده القانون
ما ان دواء الداء الا عند من ان قال للمعدوم كن فيكون

محمود بك بن خليل بن احمد بن عبد الله باشا العظم الشهير صاحب المؤسسات الخيرية والمدارس العلمية بدمشق نشأ في حجر والده وتخرج على علماء دمشق ولازمهم وعشق مجالسهم منهم الشيخ حامد العطار والشيخ عبد الله الحلبي وغيرهما من الائمة الاعلام كان فاضلاً فصيح اللسان قوي الجنان شديد البرهان في مباحثه اديباً شاعراً برع في علوم كثيرة واختص بالتصوف والادب وله مؤلفات ومآثر كثيرة منها البحر الزاخر والروض الزاهر في التصوف وله رسائل الاشواق ووسائل العشاق في الادب ثلاثة مجلدات وله ديوان شعر جامع بين المنظوم والمنثور والمخمسات والرسائل وله الباع الطويل والذوق اللطيف في الصناعات اليدوية منها وضع الورق الملون الناقر على الواح البلور ويجعل له النقوش النفيسة تتزيد قيمتها وتصبح نادرة المثال يقتنيها اهل الذوق اللطيف الذين لهم شغف بالوقوف على النوادر واقتنائها كانت وفاته سنة ١٢٩٢ وقد اعقب ولدين هما المؤرخ الشهير رفيق بك الذي مات في مصر سنة ١٣٤٣ نذكر شيئاً عن حياتـه قرأ مبادىء العلوم العصرية في المكاتب العالية ثم قرأ بعض العلوم العصرية على بعض اساتذة كرام في مصر والشام وانتفع بكثير من العلوم والفنون على والده واختار الاقامة في مصر وكان حسنة من حسنات الدهر إشتهر بتعلقه في اللغة العربية

و لم يشرك في حبها لغة اخرى من اللغات فكان جليل الاسلوب في كلامه وخطبه وفي جميع آثاره ومؤلفاته صحيح اللغة حسن الديباجة لطيف الانشاء خطيباً فطرياً بذكاء جمع فيه بين متانة الاولين ورقة مشرب المحدثين من الشبيبة المتنورين الا انه فاتهم بتجنبه شدة تفرنج بعض المعاصرين منهم بالتقاليد والاعمال العاشقين المدنية الغرب الحديثة التي هاجت بعجرها وبجرها بلاد الشرق وتغيرت بسببها اخلاق اهله لا سيما القابلية متأهلة للتجدد والتبدل بواسطة غلبة تغلبات دول الاستعمار عليه فذهب الجد والآثار ولله الامر الواحد القهار والمرحوم عثمان بك من سراة دمشق .

محي الدين بن محمد عبد الشهير بالعاني الشافعي الدمشقي اصله من عانه وقد تقدم ذكر بعض رجال هذه الاسرة في المحبي والمرادي ولد بدمشق سنة ١٢٢٤ ونشأ في حجر والده واخذ عنه مباديء العلوم ثم تخرج عن علماء عصره منهم عبد الرحمن الكزبري وحامد العطار وسعيد الحلبي وغيرهم تصدر للنفع والتدريس في داره وفي الجامع الاموي في كل ليلة بين العشائين برع في سائر العلوم كان معتقداً عند الخاص والعام اشتهر فضله وعم نفعه ومما يحكى عن زيادة ورعه انه خرج يوماً لمزرعة فلاحته وسأل عن كثرة زرع اليانسون اجابوه لغلاء ثمنه قال لاي شيء يأخذونه اجابوه لاجل المسكرات قال اذاً اقلعوه واطعموه الى الحيوانات ومن جملة اخلاصه في العمل كان رابطاً عنده حصاناً جيداً من الخيل بنية الجهاد وقد بيع بثمن عظيم بعد موته كانت وفاته سنة ١٢٩٠ وقد اعقب اولاداً نجباء فضلاء بارك الله بهم .

ملا ابو بكر بن احمد بن داود الكلالي الكردي الشافعي نزيل دمشق النقشبندي الخالدي استاذ جميع علماء دمشق له اليد الطولى في التفسير والحديث والتصوف الحافظ لكتاب الام والمسند العمدة في الاصلين اصول الحديث واصول التفسير اشتهر فضله وعم نفعه له مؤلفات كثيرة منها وهو اعظمها صفوة التفاسير الذي لم يسبقه احد من المفسرين على اسلوبه ومنواله في التصوف وهو الفريد في بابه لم يوجد منه الا نسخة في مكتبة الشيخ احمد

عابدين من علماء دمشق وهي بخطه وله تنبيه الغافلين على من رد اقوال المتقدمين وخطأ من خطأ أئمة الدين وهي عندنا في مكتبتنا وله كتب كثيرة ورسائل شتى لم نقف عليها وكان مسكنه في حارة الشالق في سوق ساروجة تولى تدريس جامع الورد وامامته وكان من الملازمين له سيدي الوالد حضر جميع دروسه ثم صاهره وكان موانساً له في طول حياته . كان صاحب الترجمة يشخص السلف الصالح في صدر الاسلام كما اخبرني به والدي وحين يمر في الطريق تراه مسبلاً عباءته البيضاء على رأسه ووجهه حتى لا ينظر الى وجه اجنبية او شيء محرم وقد دخل مرة الحمام فاسبل على وجهه الاحرام حتى قاده الحمامي كما يقاد الاعمى عاش نيفاً واربعين سنة مات ١٢٨٠ ودفن بمقبرة حارة الشالق المذكورة وهي منسوبة للامام الدمشقي الشالقي المدفون بها .

محمد السعيد بن السيد محي الدين الجزائري الحسني نزيل دمشق الشقيق والاخ الاكبر للامير عبد القادر تخرج على علماء عصره في بلاده كان يميل الى التصوف وله مؤلفات منها شرحه رسالة في علم الوضع طبعت في بيروت وله رسائل كثيرة في علوم متنوعة وكان شيخ الطريقة القادرية في المغرب وله مريدون وقد عرضت عليه امارة الجهاد قبل اخيه فلم يقبلها وقد حضر مواضع كثيرة في الجهاد مع اخيه وكان له برنص من صوف حين يقدم على عياله من الجهاد ينفضونه فيقع منه الرصاص ولم يزل هذا البرنص باقياً عند بناته السيدات الفاضلات الى اليوم وكان محل اعتقاد واعزاز علماء دمشق حين هاجر اليها وقد اعقب ولدين فاضلين السيد محمد المرتضي والسيد عبد الباقي وسيأتي ذكرهما في القرن الرابع عشر كانت وفاته بدمشق سنة ١٢٧٨ ودفن بجبل قاسيون .

محمد احمد بن الشيخ داود بن حسين التكريتي من اعيان صالحية دمشق وكرمائها انتهت اليه رئاستها كان دمث الاخلاق رقيق الجانب ذا هيبة ووقار وجاه واعتبار ترجمه العلامة البربير السابق الذكر في رسالته زهر الغيضة

في ذكر الفيضة والطوفان الذي حصل في تلك السنة اخرب الزرع والضرع ودمر وخرب لم يقع مثله بدمشق وفي تلك الرسالة تاريخ له قال فيه :

لما طغى الماء على جلق   ودمر الغوطة مع دمر
انجد موتانا لوجه الثرى   والارض في تاريخه غور

يعني سنة ١٢٠٦ وقد اثنى على صاحب الترجمة بها ومدحه بقوله :

في الصالحية شهم   من حاتم الجود احمد
لا زلت اشكر منه   فعل الجميل واحمد

حيث كان اليد العاملة برفع الضرر الذي حصل بتلك الحادثة على الفقراء والمساكين وتخفيف الم المصابين وفقد الهمة التي اجراها مع اهل الصالحية بتصليح نهر يزيد من المقسم الى الشيخ جابر وشكر بتلك الرسالة الشيخ ابراهيم النابلسي والشيخ عبد القادر السقطي ومحمد البقاعي ومحمد البرادعي مات المترجم سنة ١٢٢٩

محمد بن شاكر بن محمد السكري الحنفي الدمشقي اقامة وولادة الازهري تحصيلاً واستفادة وقد توفي والده وهو صغير جداً ونشأ في كفالة عمه سليم السكري الى ان بلغ سن الرشد بعد قراءته في المكاتب الاهلية ثم جد في طلب العلم ولازم الشيخ هاشم التاجي وغيره من علماء دمشق ثم رحل الى مصر وجاور في الازهر واقام فيه ما ينيف على تسع سنين مجتهداً في التحصيل الى ان حصل له المقصود . اخذ العلوم والفنون عن علماء مصر الاعلام وقد اجازه كل منهم باجازة مختومة بخاتمه ثم عاد الى وطنه دمشق وقد ارسل اليه ابراهيم العجلوني الشهير وداعية يمدحه بها وهي طويلة قال في مطلعها :

مالي لحض البعد زاد تفكري   ويفيض دمعي العندمي من محجري

ثم قال :

قد جد في طلب العلا حتى علا   اقرانه وسما بفضل اوفر
حسنت سريرة فطابت سيرة   منه وازرى فضله بالابرر
خذها فريدة العصر عجلونية   راقت وفاقت مشربا كالسكر

وقد اقام في مدرسة الشميصاتية وانقطع لالقاء الدروس فيها ونفع الخاص والعام ثم اخذ عن الشيخ عبدالله الحلبي ولازمه في كثير من اوقاته وصار ملحوظاً بعناياته حتى تقلد وظيفة الخطابة والامامة والتدريس في جامع درويش باشا الشهير وكان يحضر في درسه شيخه المذكور وقد تخرج عليه كثير من العلماء ذكرهم ولده الفاضل محمد افندي في رسالته التي جمع فيها ترجمة والده وعدد محاسنه ومآثره مات سنة ١٢٩٣ ثم قال في آخرها فذيلت ترجمة الوالد بترجمة شقيقي الشيخ محمد سليم وكان اكبر مني سناً حفظ القرآن ومباديء العلوم على والده وقرأ على بعض علماء دمشق ثم ذهب الى مصر وجاور في الازهر مثل ابيه واجيز من قبل اساتذته الاعلام وعاد لدمشق وتصدر للتدريس وقام بوظائف ابيه مات سنة ١٣٢٧ وحيث مات عقيماً وانحصر ارثه بوالدته واخويه اتفقوا على اباحة كتبه التي تركها لمطالعة العموم في الجامع المذكور .

نجيب بن احمد بن حسن بن سليمان بن احمد بن الشمس محمد بن خليل الذي تقدم ذكر بعضهم في الكواكب والضوء اللامع والدرر الكامنة وفي شذرات الذهب . الحنفي الدمشقي الشهير بالقلعي او الشيخ نجيب وقد اشتهر البعض منهم حديثاً بقنبازو . ولد بدمشق سنة ١١٦٠ ونشأ بها واخذ عن علمائها اشتهر بتحرير مذهب النعمان وبرع في المنقول والمعقول والمنطوق والمفهوم كانت وفاته يوم الثلاثاء في سادس عشر شعبان سنة ١٢٤١ دفن بباب الصغير في تربة اويس السقفي وقبره ظاهر ومشهور .

نسيب بن حسين الشهير بإبن حمزة الحسيني نقيب الاشراف بدمشق وصدر صدورها له آثار نفيسة كتبت بخطه جيدة الصنع فائقة الاتقان كان يحسن الخط بأنواعه لم يزل بعض من آثاره موجودة الى اليوم في مشهد الحسين في الجامع الاموي وكانت عليه خدمة المحافظة على ذلك المقام ولم تزل باقية في عقبه الى اليوم وله شعر لطيف نذكر منه البعض من قصيدة طويلة يقرظها محمد علي الكبير خديوي مصر ونجله ابراهيم باشا ويذكر وقائعه بدمشق مطلعها :

بمناك عن الرعايا وحيدا ويسراك يسر للبرايا وحسبما

ثم قال :

ومذ بزغت في الشام اقمار سعده تباشرت الاهلون والعدل نجما

الى ان قال :

ايا كعبة الراجين فاقبل هدية من العاجز المقلال ان يتكلما

وقال نسيب ارخوا بمدائحي وجودك في افق الساكيف خيما

مات سنة ١٢٦٤ . ومن مآثره النفيسة نظمه لنسب اسرته قصيدة مطلعها :

بعد ابتدائي ببسم الله احمده حمداً يليق به والشكر يقصده

ثم قال في ختامه :

هذا وكل محمد الله ذو عقب ارجو ازدياداً بتوفيق يؤيده

وله مولد نظم لطيف مطلعه : « حمداً جزيلا لمن قد شرف الاما »

هاشم بن عبد الرحمن بن تاج الدين الشهير كأسلافه بالتاجي البعلي الحنفي الدمشقي شيخ مشايخ الشام نشأ في حجر والده في دارهم الشهيرة بمحلة القيمرية اخذ عن مشاهير رجال دمشق في عصره وصار نادرة دهره وحيداً مطاعاً في اسره تفرد في جميع العلوم والفنون من منقول ومعقول وبرع في الفقه والاصول وتقدم ذكر بعض اجداده في المحبي والمرادي لم يكن من رجال هذه الاسرة من يستحق الذكر في العلم والفضل سوى نجله الشيخ سعدي الذي تصدر لقراءة الدروس في محل والده بالجامع الاموي وتولى مكانه مشيخة الطريقة الخلوتية في ورد السحر مات بعد والده في برهة قليلة لم تقف عليها وكانت وفاة والده الشيخ هاشم سنة ١٢٦٣ وبقي اليوم من هذا البيت تاج الدين افندي احد نواب الشرع في اقضية دمشق .

هبة الله بن محمد بن يحيى بن عبد الرحمن الحنفي البعلي مفتي بعلبك ولد في تاسع عشر ذي القعدة سنة ١١٥٦ اخذ عن مشايخ دمشق منهم الشيخ مصطفى السيوطي وكان اكثر انتفاعه منه بالاخص علم الفرائض وهو من اقرباء الشيخ هاشم التاجي المتقدم الذكر يجتمعان بعبد الرحمن بن تاج الدين

البعلي ثم الدمشقي والقسم من هذه الاسرة اشتهر ببيت مفتي بعلبك مات بدمشق سنة ١٢٢٤ .

يحيى الشهير بسردست كانت اقامته في مدرسة البدرقية وقد انتفع من علومه خلق كثير منهم تلميذه الخاص العلامة عبد الله السكري الآتي ذكره في القرن الرابع عشر وقد سمعت منه ان صاحب الترجمة كان على جانب عظيم من الصلاح والتقوى والورع يحفظ له كرمات كثيرة كان يسردها علينا في اثناء الدرس مات المترجم سنة ١٢٦٤ وله ذرية معروفة بدمشق .

يوسف بن بدر الدين بن عبد الرحمن المراكشي السبتي البيباني الاصل المصري المولد المغربي شهرة الشافعي نزيل دمشق المحدث الفقيه الشاعر البليغ المتضلع المتفنن توطن دمشق وهو بين سفر واقامة وحركة وسكون ولما ورد الى دمشق الامير الشهير عبد القادر الجزائري منح المترجم داراً غربي مدرسة دار الحديث وقفها عليه وعلى عقبه للسكن اخذ صاحب الترجمة في مصر عن مشايخ عصره وبرع في اكثر العلوم وصنف المصنفات المفيدة الكثيرة وحين قدم دمشق اشتهر فضله عند علمائها واخذ من فحول رجالها وتصدر للتدريس في الجامع الاموي وانتفع منه كثير من العلماء والافاضل وكانت اكثر دروسه في المدرسة المذكورة وكان امام المدرسة خمارة مشهورة الى اليوم فقام برفعها صاحب الترجمة بهمة علياء فساعده من ساعد وتراخى من تراخى وانعقد لذلك مجالس عديدة لدى قاضي دمشق وطال الامر الى ان توفق الشيخ يوسف لرفع هذا المنكر وازالة الضرر عن المدرسة التي لحقها بسبب تلك الخمارة وكان ذلك سنة ١٢٧٠ وقد عمل في تلك القضية قصيدته الشهيرة وهي تزيد على اربعماية بيت ساق بها ماوقع معه في خلال تلك المدة من مدح مساعد وقدح معاكس وكان شيخ الشام ابن استاذه الشيخ سعيد الشيخ عبد الله الحلبي وقتئذ معاكساً المترجم في بعض اعماله وحركاته وفرط اقواله على بعض العلماء ونسبته اليهم القصور في هذه الحادثة ولذا اكثر في القصيدة من ذم بعضهم واليك ابياتاً منها قال :

اشكو الى الله مالاقيت من همج ماذأبهم غير حب الجاه والتيه
فالخير فضل من المولى يمن به والشر للنفس لا لله نعزيه
عرضت نفسك جهلاً للبلاء فخذ بأم رأسك مابالصفح يدحيه
ماذا دهاكم هدمتم مابنت يدكم ايهدم البيت بعد البذل بانيه
وعد هذا لاهل الشام منقبة في جبهة الدهر كل الناس ترويه
كم عالم حل ضيفاً في دياركم ولم يجيء احد منكم يوافيه
وان تعد عقرب فالنعل حاضرة ومن يقم رأسه فالصفع يدميه
كفى بذا بيننا فرقاً فكل انا يجود ياابن سعيد بالذي فيه
ذكرى جميل لدى من كان يعرفني سل عنه من شئت بالتفصيل ينهيه
من لم يكن بين اقوام يسربهم فعيشه بينهم ضنك يقاسيه
لو كان والله في التقديم لي ارب فكلهم خلف ظهري كنت ارميه
والله يعلم اني ماقصدت سوى اظهار حق اضاعوه بتمويه
ارجو من الله في هذا مثوبته ونية المرء خير من مساعيه

وله قصيدة غراء نحو ثلاثماية بيت توسل ومدح في الحضرة النبوية مطلعها:

اليك رسول الله وجهت وجهتي لانك باب الله في اي محنة
الا يارسول الله اني خائف فسل خالقي فضلاً يؤمن خيفتي
الا يارسول الله اني بوحشة فسل مالكي بالانس يبدل وحشتي

الى ان قال :

اذا لم تكن لي في خطوبي فمن لها تجود ياأجل المرسلين بعطفة

ثم قال في آخرها :

ولما شهدت اللطف قلت مؤرخاً لك الشكر يامولاي على اي منة

وكان المترجم كثير التجول والسياحة اقام في المدينة المنورة مدة طويلة وهذه القصيدة التائية عملها وهو في اسلامبول وبالجملة فان من ادركه شهد بغزارة علمه وعلو شأنه في عمل الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وصبره على النوازل والملمات وغيرته على الدين ومحافظته على احكام الشريعة كانت وفاته بدمشق

سنة ١٢٧٩ ودفن في تربة باب الصغير عند قبور بني الكزبري وقد اعقب ولدين احدهما وهو الأكبر العلامة الكبير والمحدث الشهير احد أئمة الحديث العاملين بركة الشام السيد الشيخ بدر الدين متع الله المسلمين بطول حياته وهو والد فخامة الشيخ تاج الدين افندي الحسني رئيس وزارة سورية الحالية الموقتة وفقه الله تعالى لخدمة هذه البلاد المتعطشة لرجال يعملون لاستقلالها ونوال اهلها الميثاق الوطني .

والثاني الشيخ احمد خص نفسه لخدمة الطريق النقشبندي في آخر عمره مات عقيما سنة ١٣٢٩ .



بيان تراجم اسماء رجال عصرنا الرابع عشر من الهجرة عسر علينا ذكر اسماء الرجال على مقتضى ترتيب تاريخ وفاتهم فكتفينا بذكر من وصل الينا خبره او اطلعنا على ترجمته اوحضرنا مشهده ورتبناه على حروف الهجاء .

احمد بن عبد الغني بن عمر الشهير بعابدين الحنفي الدمشقي ولد سنة ١٢٣٩ كان عارفاً بالفقه خبيراً بأحكامه وقواعده مطلعاً على نصوصه حافظاً لسانه من الوقيعة في الناس لايخرج من بيته الا لضرورة مقتصداً في ملبسه وعيشه اشتغل بالتصوف على المنلا ابي بكر الكردي الكلالي وحضر على عمه صاحب الحاشية طرفاً من الفقه وحضر على الشيخ سعيد الحلبي في الكتب الستة واجازه الشيخ يوسف المغربي اجازة مطولة نظماً بعد ما اسمعه حديث الاولية واضافه على الأسودين تولى خطابة جامع الورد وامامته وتولى افتاء قطنا ووادي العجم واقليم البلان مدة طويلة ثم استقال منها ثم صار اميناً للفتوى عند السيد محمود الحمزاوي مفتي دمشق ثماني سنوات وله مؤلفات تربو عن عشرين مؤلفاً منها كتاب في الطهارة والانجاس وشرح علم الحال الذي ترجمه امين افندي الجندي مفتي دمشق وشرح العقيدة الاسلامية للحمزاوي مفتي دمشق وشرح قصة المولد النبوي لابن حجر وهو عندنا ورسالته في الجزء الاختياري ورسالته في اهداء ثواب الاعمال للنبي والآل رداً على قول بعض المعاصرين

القائل ان النبي صلى الله عليه وسلم غير محتاج للاعداء لانه كامل فلا يحتاج ولا يقبل زيادة وشرح حديث ابن عباس احفظ الله يحفظك وكان يميل الى الصوف وكلام القوم وله رسالة في تبرئة شيخ الصوفية الشيخ الاكبر محي الدين العربي الاندلسي من القول بالاتحاد والحلول ولي معرفة خاصة به لانه من اصدقاء سيدي الوالد كانت وفاته يوم الجمعة في السابع والعشرين من ربيع الثاني سنة ١٣٠٧ ودفن بجوار قبر عمه صاحب الحاشية بباب الصغير وقد اعقب الشيخ راغب مات سنة ١٣٢٣ والشيخ ابا الخير افندي مفتي دمشق سابقاً ولد سنة ١٢٦٤ ولازم والده كثيراً وكان اكثر انتفاعه منه ثم اخذ عن كثير من علماء عصره الى ان تفرع في العلوم والفنون وبرز في الفقه حتى انتهى اليه وتواردت الفتيا من كل الجهات عليه تولى بعد ابيه التدريس والخطابة والامامة في جامع الورد ثم تقلد القضاء في بعض انحاء دمشق ونال من الرتب العلمية اعلاها وخدم امانة الفتوى مدة طويلة الى ان تقلد افتاء دمشق ثم بعد ذهاب الاتراك تولى عضوية مجلس التمييز ثم اعتزل ولازم داره وتصدى في آخر امره لنفع الخاص والعام وجمع كثيراً من الرسائل والآثار النافعة وقد طبع منها رسالة التقرير في التكرير بذكر حكمة تكرار القصص الواردة في القرآن وله اثر ايضاً سماه تحرير الاقوال في اخذ الحقوق من سائر الاعمال وغير ذلك من نفائس الابحاث والردود والامل من ارشد انجاله العالم الطبيب الحاذق السيد ابي اليسر اخراج تلك النفائس لعالم الوجود وقد تفرد في عصرنا بجمعه علم الروحاني مع العلم الجسماني وفقه الله للقيام بصنعته الشريفة مات والده المفتي سنة ١٣٤٤

ابو الفرج بن الشيخ عبد القادر الشافعي الدمشقي الشهير بالخطيب نشأ في حجر والده وكان اكثر انتفاعه منه واخذ بعض العلوم من بعض علماء دمشق لم نقف على اسمائهم واجيز من بعض علماء الحجاز ومصر تصدر للتدريس في الجامع الاموي بين العشائين ولازمه كثير من اهل الفضل وانتفع به خلق كثير وله مؤلفات وآثار تدل على مكانته في الفروع والاصول وطول باعه

في المنقول والمعقول منها التنزيل واسرار التأويل في ثلاثين مجلداً وهذا اهم مؤلفاته ومنها الفيوضات الحسان بنصائح الولدان اربع مجلدات وحاشية على القطر في النحو وشرحان على الاجرومية وله تعليقات على مؤلف والده في علم الفراسة وتعليقات على الفية جده لامه الشيخ خليل الخشة الشهير بالشافعي الصغير المتقدم الذكر وله مختصر مسند الامام احمد بن حنبل ومختصر بن عساكر وله رسائل منها في فضل زيارات دمشق ومنها رفع العدل والانصاف بحرمان الورثة الضعاف وله مولد ومعراج وثلاث دواوين خطب ولد سنة ١٢٤٤ ومات سنة ١٣١١ في صفر ودفن بالدحداح بمشهد عظيم كان وحيداً في عصره وزينة اهل مصره عالماً شجاعاً تهابه الحكام والامراء وتنقاد اليه العامة وتقر بفضله العلماء وكانت تقصده الناس من كل مكان في مدرسة النورية الصغرى في العصرونية لحل مشاكلهم الزوجية ومسائلهم الدينية اعقب اربعة اولاد اكبرهم الشيخ حسن كان من اهل الفضل والكمال يدرس في محل ابيه مات سنة ١٣٤١ ومحمد سعيد والشيخ عبد القادر وصلاح الدين افندي وقد اتى ذكرهما عند ذكر الاسر وانهما من افاضل هذا العصر .

اديب الشهير بنظمي أحد ادباء دمشق وشعرائها وكتابها نشأ وتعلم في دمشق ونبغ بين أقرانه وله آثار كثيرة في الادب لم نقف على اسمائها وقد انشأ صحيفة عربية سماها « الكائنات » كانت مثالاً للاخلاق والتربية والتعليم .
مات سنة ١٣٣٧ .

احمد بن السيد محي الدين بن مصطفى الجزائري ثم الدمشقي المالكي الاثري ولد سنة ١٢٤٩ في القيطنة من ضواحي وهران وتربى في حجر اخيه السيد محمد سعيد لوفاة والده قبل فطامه ولما بلغ سن التمييز شرع في حفظ القرآن وطلب العلم على اخيه وعلى ابن اخيه السيد مرتضى جانباً من العلوم وحضر في علم الكلام على اخيه الثاني امير العلماء السيد عبد القادر الشهير واخذ العلم ايضاً على علماء دمشق منهم الشيخ محمد بن عبدالله الخاني والشيخ محمد الطنطاوي ومصطفى بن التهامي امام المالكية بجامع دمشق وغيرهم وتلقن ذكر الطريقة

القادرية اشتهر فضله ونبله واقرأ في داره فنوناً متنوعة وكذا في جامع العنابة الذي في جوار بيته من قسم باب السريجة درساً عاماً بين العشائين كان عالماً زاهداً شديد المحافظة على الجماعة اول الوقت وهي احب الاعمال الى الله تعالى حسن السيرة والسريرة محبوباً عند الخاص والعام الوفاً متواضعاً مقصوداً لحل المشكلات وقضاء حوائج الناس مشربه الحديث والعمل به والدعوة الى التمسك به والحث عليه حسن المحاضرة له اثار ورسائل كثيرة لطيفة يتخلل مباحثها شذرات من اصول الصوفية ومسائل فقهية وغيرهما وجمع اخيراً تاريخاً في سيرة حياة اخيه الامير عبد القادر كانت وفاته سنة ١٣٢٠ لخصت هذه الترجمة من الكتاب الذي طبعه ولده صديقنا السيد بدر الدين الذي سماه نثر الدر .

ابراهيم بن محمود بن الشهاب احمد الشهير بالعطار الشافعي الدمشقي نشأ في حجر والده واخذ عنه وقرأ على علماء دمشق وغيرهم وكان اكثر انتفاعه من عمه العلامة الشيخ حامد وقد ذكر في ثبته الذي طبع حديثاً مشايخه في التصوف وملازمته الى الشيخ خالد النقشبندي المجددي والشيخ صالح السقرجلاني الدمشقي شيخ طريقة الشاذلية رحل صاحب الترجمة الى الحجاز ومصر سنة ١٢٧٦ واجتمع بفحول علماء القطرين وذكر اخذه حديث الرحمة المسلسل بالاولية وقد انشد بها الشاعر الشهير بن هبة الله بقوله :

بادر الى الخير يا ذا اللب مغتنما ولا تكن عن قليل الخير محتشما
واشكر لمولاك ما اولاك من نعم فالشكر يستوجب الافضال والكرما
وارحم بقلبك خلق الله وارعهم فانما يرحم الرحمن من رحما

كان اماماً نحريراً عالماً معمراً مباركاً تعتقده الناس بعيداً عن الظهور ومخالطة الامراء والحكام وكان يدرس في الجامع الاموي في محراب الحنابلة عند حجرته انتفع منه خلق كثير واشتهر فضله وصلاحه له مؤلفات كثيرة كما اخبرني احد انجاله الادباء لم يطلعني على اسمائها كان صديقاً لوالدي وكنت اتردد عليه معه

كانت وفاته سنة ١٣١٤ واعقب انجالاً ادباء فضلاء بارك الله بهم وقد رثاه الشاعر الشهير السيد سليم بهجت تقي الدين الحصني بقوله :

بحر عرفان لقد ضم الثرى ام توارى في التراب الفرقدان
اخسوف وهو في التصغير ما له في ثامن العشرين كان

فقدت دمشق بعده اكبر انجاله صديقنا الشيخ محي الدين نبغ وظهر على يد والده وخلفه بالعلم والفضيلة درس في مكانه في الجامع واحيا ذكره كان عالماً فاضلاً فقيهاً فاق من بين اقرانه مات سنة ١٣٣٠ وله ثلاثة وعشرون مؤلفاً .

احمد بن عبدالله بن سعيد الشهير بالحلبي الحنفي الدمشقي ولد بها ونشأ في حجر والده المتقدم الذكر وتخرج عليه وكان اكثر انتفاعه منه وقد احيا ذكر السلف وتصدر للتدريس في الجامع الاموي وفي حجرة والده التي هي داخل الجامع المذكور كان فقيهاً محققاً تولى تولية اوقاف الجامع الاموي مدة طويلة كان يهتم بتحسين املاكه وعمارته وحفظ اوقافه مات سنة ١٢٠٤ في مكة بعد الحج ودفن في المعلا وقد اعقب ولدين احيا ذكر السلف بالفضيلة والعلم وهما الشيخ محمد علي كان متولياً بعد ابيه مات سنة ١٣٣٤ والشيخ رضا الذي تولى افتاء دمشق بعد ان تولى نيابة المحكمة الشرعية وكان يدرس كل يوم في الجامع الاموي له لهجة فصيحة في الوعظ وقبول من القلوب كريم الاخلاق نقي الفكر يميل للملاطفة وحسن المعاشرة انيس في مجالس اخوانه وهو زهرة عصره من بين اقرانه رافقته مدة في مجلس الادارة الكبير مات سنة ١٣٢٨ .

احمد بن محمد الشهير بالبابيدي الحنفي الدمشقي نشأ في حب طلب العلم واخذ عن كثير من علماء دمشق ثم لازم مسلك القضاء الشرعي وذهب للاستانة في اوقات متعددة وتولى بعض الاقضية في بيروت والشام وكان يقيم في مدرسة نور الدين الشهيد تخرج عنه كثير من رجال العلم له بعض آثار في الفرائض والادب واللغة وله شرح المجلة مجلدان غير مطبوع بقي على المسودة مات سنة ١٣٢٠ .

انيس بن محمد بن عبد الغني الشهير بالطالوي الحنفي الدمشقي ولد في غرة

ربيع الاول سنة ١٢٤٣ ادرك الطبقة العليا من علماء دمشق واخذ عنهم منهم الشيخ التاجي والشيخ الحلبي والشيخ عبد القادر الخطيب وغيرهم برع في الفقه والفرائض وعلم الحساب والاصول واتقن فن الحديث والتفسير اشتهر فضله وعم نفعه درس في الجامع الاموي مدة طويلة بين العشائين وتقلد تدريس جامع السليمانية وخطب في بعض مساجد دمشق كان مقر اقامته في مدرسة نور الدين الشهيد تقصده للاستفادة الطلبة واهل الفضل وكثير من الناس يستفتونه ويراجعونه لعقد نكاحهم الشرعي والبيع والشراء واجارة الوقف وله ولع بالتردد على الحكام والامراء يميل الى مسلك الزهد . له مؤلفات كثيرة منها شرح الهداية الطالوية في العقيدة الاسلامية مجلد كبير لم يطبع وله رسائل ومولد شريف لم نقف عليها وقد لازمته وحضرت عليه اكثر دروسه في كتب مختلفة في الفقه وهو احد مشايخي الكرام كانت وفاته في اليوم الرابع والعشرين من شهر محرم سنة ١٣٢٧ .

اسعد بن محمد الملقب بشيخ عوامه شيخ الكتاب الشهير بالحمصي ولد بدمشق سنة ١٢٤٠ ونشأ على حب طلب العلم واهله ولازم العلماء وحضر دروسهم وادرك الطبقة الاولى منهم واشتغل في التجارة وكان يرتزق منها وقعد مدة في اسكندرية عند بني مدور من تجار دمشق ثم صار واعظاً في قضاء السلط برع في الادب والفقه والتاريخ يستأنس بحديثه كريم الاخلاق عاش قرناً كاملاً ولم يذهب من حواسه شيء اقتنى كثيراً من الكتب النفيسة . مات سنة ١٣٤٠ وقد ترك ذرية طيبة ارشدهم الفاضل الشيخ صالح احد اساتذة المدارس الاهلية والحافظ محمد افندي من مؤذني السلطان عبد الحميد وسعيد افندي .

امين بن عبد الغني الشهير بالبيطار الدمشقي الحنفي امام جامع السنانية بدمشق الشيخ المعمر ادرك الطبقة الاولى من علماء عصره واخذ عنهم . تحترمه الناس ويعتقدونه لورعه تفرد في الفقه والاصول وبرع في المنقول والمعقول عاش قريب التسعين من العمر . مات سنة ١٣١٠ .

امين بن عمر الشهير بالشيب الدمشقي الحنفي نشأ في حب طلب العلم وقرأ

على الشيخ عبد القادر المالكي ولازم غيره من العلماء ثم توجه للاستانة واستخدم نائب التزكية في محكمة القسام في باب المشيخة الاسلامية ثم تولى قضاء عكا وجنين ووادي العجم ودوما وصفد واللاذقية ونابلس وهذه آخر مأمورياته وتقلد رتبة الموالي من الرتب العلمية وله كتاب لطيف طبعه في اسباب التوقي من الزلزلة والحريق وله شرح البردة وله شرح على الادعية المأثورة وله قصة المولد وكان ابوه تاجراً . مات سنة ١٣٢٣ .

امين بن حسن بن مصطفى بك كيوان الدمشقي الحنفي نشأ على حب طلب العلم والتفقه في الدين مع دوامه على امور تجارته فقيهاً ورعاً شديداً في بيعه وشرائه محافظاً على دينه وتجارته المشروعة التي لم يدنسها الربا ولا العينة يعلم الناس ذلك في كل وقت وكان يقرأ الدرس في بيته وفي الجامع الاموي بين العشائين تنتفع منه العامة مات سنة ١٣١٠ وقد اعقب ولداً فاضلاً خلف والده في الوعظ والتدريس اسمه طه مات سنة ١٣٢٤ ، ولصاحب الترجمة اخ اسمه احمد اشتغل في التجارة في بيروت ودمشق ودرس بهما ثم هاجر الى المدينة المنورة ومات بها سنة ١٣٣١ وقد اعقب ولداً اديباً شاعراً اسمه عبد القادر له قصائد جمة في مدح خير البرية عليه الصلاة والسلام وقد كتب قطعة نفيسة واهداها الى المدينة وهي باقية الى اليوم . مات في وقعة ميسلون الشهيرة شهيد الواجب .

احمد بن محمد علي الشهير بالحلواني المقري الشافعي النحوي الدمشقي شيخ مشايخ القراء بدمشق اخذ فن القراآت العشرة مع جميع طرقها من الشاطبية والدرة والطيبة على الشيخ الكبير محمد المرزوقي محدث الحرم المكي كان يغلب عليه الزهد والصلاح اشتهر فضله وعم نفعه حتى احيا فن القراآت بدمشق بعد اندراسه انتفع منه خلق كثير ومن جملتهم هذا الفقير جزاه الله عني خير الجزاء في الدنيا ويوم الجزاء مات سنة ١٣٠٧ وقد اعقب ولداً فاضلاً اسمه الشيخ محمد علي احيا ذكر ابيه بارك الله به لم يوجد له في زمانه مماثل انتهت له الرئاسة في علم القراآت في جميع الامصار وله اخ جليل القدر مبارك

اسمه الشيخ علي كان شيخ الطريقة الرفاعية يعتقده الناس وتحترمه العلماء والامراء مات سنة ١٣١٢

ابو الخير بن الشيخ عبد القادر الخطيب الشافعي الدمشقي نشأ في حجر والده وكان اكثر انتفاعه منه اخذ قسماً من العلوم والفنون عن بعض علماء دمشق مشربه التصوف والحديث يأمر بالمعروف والمواعظ الحسنة اشتهر فضله بين الانام واعتقد به الخاص والعام وله حرمة خاصة عند العلماء والحكام تصدر للتدريس والوعظ والافادة في الجامع الاموي بين العشائين وفي مدرسته القلبقجية التي كان بها صاحب الفية بن مالك الذي سبق في كتابنا ذكره ونوهنا عن مزية خاصة به كان يجريها في كل يوم عند باب هذه المدرسة ينادي باعلى صوته من يقرأ العلوم . ويذكر كل علم على حدة، ثم يقول يارب انت أعلم بي قد خرجت من ربقة الكتمان . تولى صاحب الترجمة الشيخ ابو الخير المذكور خطابة جامع دمشق وهو اول خطيب تولاها من هذا البيت وانتقلت اليه من بني محاسن في سنة ١٢٨٧ وبقيت في عقبه الى اليوم ولد المترجم سنة ١٢٤٧ ومات سنة ١٣٠٧ ودفن بالدحداح بمشهد عظيم وقد اعقب ذرية نجيبة اكبرهم الشيخ جمال الدين كان نابغة من نوابغ هذا العصر وحسنة من حسنات الدهر الذي ضن علينا بها تولى قضاء البصرة بعد أن خطب مدة بعد ابيه وتصدر للتدريس له بعض الرسائل في اللغة التركية وله في العربية لم نطلع عليها مات سنة ١٣٢٩ واما باقي انجاله هم الشيخ كمال والمحامي زكي بك هو من رجال الادارة والفضل والادب انتخب عضواً في المجلس المأسيسي اليوم والطبيب محمد توفيق افندي بارك الله بهم .

ابو الفتح بن الشيخ عبد القادر الخطيب الشافعي نشأ في حجر والده وكان اكثر انتفاعه منه اخذ عن بعض علماء دمشق وتصدر للتدريس والوعظ في الجامع الاموي بين العشائين وانتفع به خلق كثير كان عالماً تقياً ورعاً الوقاً صابراً على امر دنياه راضياً بما قسم له حسن السيرة والسريرة يميل للتقشف والتصوف والزهد اشتهر فضله بين الانام واعتقده الخاص والعام وكان يكره

معاشرة الحكام عين محافظاً واميناً لمناظرة دار الكتب العامة الظاهرية كان بها مثال الجد والفضيلة ولد سنة ١٢٥٠ ومات سنة ١٣١٥ وقد اعقب ولداً من فضلاء وادباء هذا العصر اسمه السيد محب الدين قد اختار الاقامة في مصر وهو صاحب المطبعة والمكتبة السلفية .

ابو النصر بن عبد القادر الخطيب الشافعي الدمشقي نشأ في حجر والده وكان انتفاعه منه جد واجتهد حتى تولى منصب القضاء الشرعي في اكثر اقضية دمشق رحل الى الاستانة مراراً وتعرف بعلمائها ووزرائها تهابه الامراء والحكام واشتهر فضله بين الانام كان فقيهاً شجاعاً جسوراً متكلماً يصدع بقول الحق اجتمعت به كثيراً في الاستانة وهو مثال الفضيلة والاخلاق الحسنة ولد سنة ١٢٥٣ ومات سنة ١٣٢٤ ودفن بالدحداح جانب اخويه وقد اعقب من بعده ذرية نجيبة منهم عبد القادر حكمت افندي وشيخ العرب وكلاهما مثال الفضيلة والوجاهة توليا منصب القضاء الشرعي في اقضية دمشق وهما خير خلف لذاك السلف ولهما اخ ثالث اسمه سيف الدين افندي احد شهداء الواجب الذي قتل في بيروت مع شبان العرب الغيورين على بلادهم واستقلالهم .

ابو السعادات بن حسين الدجاني مفتي مدينة يافا هاجر الى دمشق بعد وفاة والده المفتي يغلب عليه التقشف وسلوك مذهب اهل التصوف وتقليدهم وكان عليه اكثر من عقله كثير الحركة في الكلام يتردد على الامراء والحكام ويحضر مجالس العلماء ويناظرهم ، اشتهر فضله بينهم واشتغل في آخر عمره في الزراعة والفلاحة حريصاً على امر دنياه ، اشتغل قليلاً في المحاماة ومات سنة ١٣٣١ .

اكرم بن عبدالله الافغاني نزيل دمشق كان اتى اليها يصلي اماماً بالسردار غلام محمد خان برزي افغان من عائلة ملوك افغانستان كان فاضلاً زاهداً متعبداً ظهر فضله عند علماء دمشق وكان يحضر مجالس العلم معهم واخذ عنهم يكره الكذب ويصدع بقول الحق ويحب قول الصدق حتى اذا سئل عن

رفيقه السردار يقول تركته حياً بخير . مات بدمشق سنة ١٣١٧ ودفن بمشهد عظيم .

امين بن محمد بن خليل الشهير بالسفرجلاني الدمشقي الحنفي الشيخ الفاضل الفقيه والشاعر النبيل امام ومدرس جامع السنجقدار واحد الادباء الاخيار صاحب المؤلفات والآثار وقد ذكر في كتابه المطبوع المسمى عقود الاسانيد مشايخه الذين اخذ عنهم قال :

اخذت منقولاً مع المعقول من جلة الشيوخ في زماني
اجازة خطاً مع الدراية والبعض منهم خص باللسان
اجلهم محمودنا الحمزاوي مفتي الورى النسيب للعدناني
والكزبري احمدنا المسلم محدث الصحيح بالاتقان
علامة سليم مع اخيه محمد العطار راويان
ايضاً ابو الخير الخطيب في دمشق والسبسبي في الجولاني
والشافعي احمد المنير للفقه محي الدين نجل العاني
والجوخدار الحنفي محمد عبد الحكيم العارف الافغاني
علامة مفتي دمشق الشام محمد المنيني العثماني
محدث بكري العطار والصالح الراعي الى الاخوان
مع غيرهم مشايخ الصوفية من ينتمي للطرق الثمان
والكل منهم قد روى عن فضل في مسند العلوم بالبرهان
كالفقه والحديث والتوحيد لله والتفسير للقرآن
فرائض اصولها الآلات كالنحو والتصريف والمعاني
والوضع والمنطق والبديع آدابها الحكمة البيان

وله القطوف الدانية في العلوم الثمانية والكوكب الحثيث في مصطلح الحديث والعقد الوحيد في علم التوحيد وغير ذلك من نفائس المؤلفات التي تدل على سعة علمه وفضله مات سنة ١٣٣٥ .

اسكندر وابراهيم ابناء ميخائيل مشاقة هما من مشاهير رجال الطب والحكمة

ومن اعيان مسيحيي دمشق كانا ماهرين في فن الطب الداخلي واعماله الجراحية لهما شفقة زائدة لتطبيب الاولاد الصغار اخذا هذا الفن من المدارس العالية ومن والدهما الطبيب الشهير الآتي ذكره في حرف الميم وكان اكثر انتفاعهما منه اشتهر بالمهارة والفضيلة وكانت تميل اليهما اكثر بيوتات دمشق وتعتمد على فطانتهما وكانا يميل طبعهما لمعالجة الفقراء مجاناً وقد ترك الاول ذرية نجيبة منهم الطبيب والكيماوي في فن التحاليل واستخراج اجزاء الطب والصناعي وقد اعقب الثاني ذرية نجيبة منهم الطبيب والمتفنن والاديب الفاضل وكل منهما مات سنة ١٣٤٢ .

احمد بن سعيد بن محمد امين الشهير بالمنير الشافعي الدمشقي تقدم ذكر اجداده في المحبي والمرادي واثنيا عليهم بخير وانشد فيهم المحبي في تاريخه قوله:

اذا نزلوا ارضاً تدلت نخولها   واصبح فيها روضة وغدير
وان رحلوا عنها غدت ورمالها   من المسك ريح والتراب عبير

وبالجملة فهم من خيار الناس فضلاً وعلماً وفلاحاً اخذ عنهم فقه الشافعي في زمانهم وبه عرفوا بيت مجد قديم وفرع اصل كريم وجلس السيد اسعد بن اسحق احد اجدادهم لاقراء الروايات كما هو موضح في تاريخ سلك الدرر

واما صاحب الترجمة ففاق في فقه الشافعية حتى عرف بالشافعي الصغير وكان يستفتى من سائر الاقطار واشتغل بالطريق والذكر وتفقه على الشيخ عبد الرحمن الطيبي والحديث على الشيخ عبد الرحمن الكزبري والنحو والصرف على شيخ علماء زمانه سعيد الحلبي وقد خصه بأقراء ولده عبد المحسن وام في محراب الشافعي في الجامع الاموي في وظيفة والده الظهر والعصر وكان كأسلافه حافظاً للكتاب القديم وانتفع به خلق كثير ورحل الى مصر وقرأ على الشيخ الباجوري وحصل الشيخ القويسني البصير واخذ عنه من بيروت الشيخ عبد الرحمن الحوت والشيخ رجب جمال الدين واقام في مكة اربع حجج وقرأ بها دروساً وحفظ الشاطبية في القرآآت وفي سنة ١٢٨١ استخلص مدرسة الاخنائية من مختلسها واعادها لدرس العلم بها مات سنة ١٣٠٦ ودفن

في المدرسة المذكورة وقد اعقب نجلين عالمين فاضلين يأتي ذكرهما في حرف العين الشيخ صالح والشيخ عارف وهما توءمان وقد ارخ الهلالي وفاة صاحب الترجمة في ديوانه بمرثية طويلة قال في ختامها :

شهر بن عزب المنبر احمد لا بل به ارخت غاب منبر

احمد بن حسن الشطي الدمشقي مفتي الحنابلة بها نشأ في حجر والده وكان اكثر انتفاعه منه واستجاز له والده من علماء عصره وتصدر للتدريس بعد وفاة والده في محراب الحنابلة بجامع دمشق في شهر رمضان وله دروس خاصة في بيته تبين حديث وفقه وفرائض وحساب ومساحة ونحو وكان درسه جم الفوائد تولى النيابة الشرعية في محكمة العونية واحسن اليه برتبة تدريس رؤس ادرنه توفي فجأة عقيب نزوله من وادي الربوة حيث كان مع جماعة من تلامذته ومحبيه سنة ست عشرة وثلاثماية والف نقل مختصراً من ذيل طبقات الحنابلة لحفيد اخيه الفاضل ومهما نوه عن سعة فضله وعلمه فهو قليل بالنسبة لما كان عليه صاحب الترجمة من المكانة العليا في العلوم والفنون والمعارف اختص بمزية لم تكن عند اكثر اقرانه وهي اتيانه في اثناء درسه بالادلة الواضحة من الكتاب والسنة في كل مذهب من المذاهب الاربعة وقد اعقب ذرية مباركة الارشد فيها العالم الشيخ مصطفى افندي مفتي قضاء دوما اليوم وهو خير خلف لذلك السلف وعبد اللطيف افندي من اركان مأموري المالية المشهود له بالادارة وحسن السيرة .

ابو الخير بن الطباع الدمشقي احدنا شرى العلم والتعليم احببنا ان نأخذ ترجمته من مجلة الحقائق التي كانت تخرج في دمشق بقلم نخبة من علماء دمشق وافاضلها قالت المجلة ولد صاحب الترجمة سنة ١٢٩٨ وربي يتيماً في حجر والدته تلك الوالدة التي كانت تشتغل اكثر اوقاتها لاكتساب ماتنفق عليه وبعد ان ترعرع وتعلم المبادي الاولية دخل المدرسة الرشدية وكان نزوعاً لطلب العلوم الدينية ميالاً للصلاح والتقوى واتقاً مع ادب الشريعة الطاهرة ترغب نفسه الادب ومطالعة كتبه فاعتم بعد ان اتم دروس المدرسة وحصل على

شهادتها حتى اصطف مع طلاب العلم الشريف وتحلى جلابتهم فتلقوه على الرحب والسعة فقرأ على اجلة من العلماء كالاستاذ الشيخ عبد الحكيم الأفغاني نزيل دمشق والشيخ بدر الدين المغربي المحدث الشهير والشيخ سلطان الداغستاني والشيخ محمود العطار وغيرهم وبعد ان تذوق لذة العلم والتعليم حنت نفسه الطاهرة الى خدمة بني وطنه فدرس بمدرسة الريحانية مدة لاتقل عن سنتين انتفع به خلق كثير ثم شرع في توسيع نطاق الافادة ونفع اهل الوطن فأسس مدرسته الوحيدة المعروفة بالمدرسة العلمية الوطنية وسعى في تحسينها وترقيتها فاقبل الناس على ابوابها وكان له عدة تأليف منها رسالة في الانتصار للكمال بن الهمام وارجوزة في النحو واخرى في الصرف وديوان كبير ضمنه بديع الشعر ورقيقه ورسالته في انتقاد شرح شعر ابي تمام ومقامة خيالية سبق نشرها في المجلة وله كتابات على كثير من كتب العلم والادب وما زال هـذا دأبه وتلك عادته ينتفع منه صغير القوم وكبيرهم حتى لبى دعاء ربه واجاب نداء خالقه في شوال سنه ١٣٢٩ فأسف عليه كل من عرف ادبه واخلاقه وبكاه الناس وانما بكوا الادب والفضل والغيرة والصلاح والنبل وكثير منهم يردد قول القائل :

الموت على كفه جواهراً يختار منها الجياد

بكري بن حامد بن الشهاب احمد الشهير بالعطار الشافعي الدمشقي ولد سنة ١٢٥١ ونشأ في حجر والده في طلب المعارف والعلوم وكان اكثر انتفاعه منه واخذ عن مشايخ دمشق الاقدمين منهم الشيخ عبد الرحمن بيازيد سيبويه زمانه الدمشقي وتلقى علم الحديث واصوله والتفسير والفقه وفروعه عن ابي بكر الكردي ومحمد الجوخدار واحمد المنير وسليم العطار اجتمع بكثير من علماء الهند ومصر والعراق ورقة واليمن واجازهم واجازوه بكثير من العلوم والفنون بأثناء طريقه الى الحجاز ومصر تفرد في علم النحو اشتهر علمه وفضله بين الانام وانتفع بدروسه الخاص والعام كان اماماً في المنطوق والمفهوم وتميز على اقرانه ومعاصريه في سائر العلوم غلب عليه الزهد والصلاح جمع العلم وتجر

فيه وحوى من الفضل والمعرفة مايكفيه وكان آية في التقوى والصيانة ونهاية في الورع والديانة بيته مفتوح من الصباح الى المساء الى السامعين والمستفيدين يقرأ التفسير والحديث بين العشائين في الجامع الاموي ثم تولى تدريس جامع السليمانية الكائن في المرج الاخضر في شهر رجب وشعبان في كل خميس وكان يجتمع اكثر اهل دمشق وعلمائها واعيانها وتجارها في هذا الدرس وكنت من جملة المستفيدين ومن بعض تلاميذه جزاه الله عني خير الجزاء وقد اشترى ابراهيم باشا خديوي مصر حين فتح دمشق واستولى عليها داراً الى والده وهي سكن ورثته اليوم ثم تنويها لفضله نذكر ماقاله في حقه احد افاضل شعراء المسيحيين امين افندي زيدان من قصيدة طويلة :

علامة الدهر من مصر الى حلب   والشام في علمه العلام تستار

ومنها قوله :

هذا الامام الذي في فضله اعترفت   من البسيطة اقطار وامصار

الى ان قال :

لازلتمو ركن اهل الدهر ماانسجت   بمدحكم خطب منا واسفار

وقد ضارع وناظر هذا الشاعر في قصيدته من نفس البحر والقافية علامة زمانه وسيبويه اوانه الشيخ احمد الشنقيطي نزيل دمشق وضيفها مدح بها صاحب الترجمة بقصيدة غراء منها :

بكر الزمان فلا ثان يماثله   حبر وآباؤه من قبل احبار
في علمه غرقت مصر الى عدن   وسال منه باقصى الغرب انهار

ثم قال :

ناه عن النكر لا يرضى به ابداً   وبالمحامد والمعروف امار

الى ان قال :

كم مجلس في دروس العلم فاز به   يدا به منه ترغيب وانزار
مناقب الشيخ تغلمي لا يحيط بها   لو كان يجدني الاعشى ومهيار

وقد انشده جارنا الفاضل دفين مصر الشيخ مصطفى القباني

الدمشقي احد رجال متنوري هذا العصر ومن المتفننين في سائر اشكال الخطوط القديمة والحديثة بقصيدة طويلة منها :

شيخ الشيوخ وكعبة التحقيق بل تاج على رأس الافاضل هكذا
العالم العلامة البكري من انواره كالصبح تشرق هكذا
عطارنا بل عطرنا من من شذا ه صار ريح المسك ازفر هكذا

مات سنة عشرين وثلاثمائة والف وقد اعقب نجلاً عالماً فاضلاً اديباً اسمه على مسماه مات في حياته سنة ١٣١٦ نشأ في حجر والده على حب طلب العلم ورجاله وكان اكثر انتفاعه منه تصدر للتدريس في حياة والده كان نابغة اقرانه وبهجة اوانه تهاب وجاهته وجرئته الامراء وتحترم فضله وذكاءه العلماء ترك الينا ذرية طيبة وهم الشيخ عبد الحميد افندي امام الشافعي في جامع الاموي ومن مدرسي دمشق ومن اعضاء مجلس ادارة اللواء اليوم والاطباء رشدي افندي وفائق افندي من مشاهير رجال الطب في هذا العصر بارك الله بهم .

جمال الدين بن محمد سعيد بن الشيخ قاسم القاسمي الشهير بالحلاق نشأ في حجر والده واخذ العلم في اول امره عليه ثم قرأ على علماء دمشق ذكر اسماءهم في احد مؤلفاته تصدر للنفع والتدريس في حياة والده تولى مكانه في خدمة امامة الشافعي في جامع السنانية وتقدم ذكر جده في القرن السابق وسيأتي ذكر والده في حرف السين ثم احببت ان انقل ماقاله العلامة صديقنا السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار المصرية في ترجمته قال هو علامة الشام ونادرة الايام واحد حلقات الاتصال بين هدي السلف والارتقاء المدني الذي يقتضيه الزمن الفقيه الاصولي المفسر المحدث المتفنن صاحب التصانيف الممتعة والابحاث المقنعة ولد سنة ١٢٨٣ وتلقى مبادىء العلوم العربية والشرعية عن والده ثم تلقى سائر العلوم عن العلامة الشيخ بكري العطار وكان يحضر مجالس الاستاذ الشيخ عبد الرزاق البيطار مجدد مذهب السلف في الشام وقد استفاد من علمه وعقيدته الأثرية وهديه واخلاقه المرضية فتحت لاستعداده الفطري ابواب البحث والتحقيق وعدم الوقوف عند المسلمات من التقاليد (ثم قال)

بعد بحث ومقال طويل اذا كان عمل القاسمي للاصلاح وتجديد علوم الدين صغيراً فهو كبير جداً في بلاده وبين قومه فالقول فيه اذا كان عمله كبيراً في الواقع وقد عظم المطلوب وقل المساعد كان يقرأ الدروس للطلبة وللعامة ويخطب في المسجد خطبة الجمعة ويصنف الرسائل والاسفار الممتعة وكان نزيه اللسان بعيداً عن المرأ والجدال متجنباً للازراء بغيره والتعريض بغمزة خصمه او مدح نفسه وكان سيال القلم سيال القريحة سريع الذاكرة سريع المراجعة ثم ذكر جميع اسماء مؤلفاته التي تبلغ المائة تمنعنا الاطالة لاعادة درجها فمن رغبها يرجع اليها ونقل ايضاً تعزية محمود شكري الالوسي عالم العراق وبها هذه الابيات :

احيا به الله الشريعة والهدى ... واقام فيه شعائر الاسلام

حكم على اهل العقول بينها ... منعوتة الاوضاع والاحكام

ويريك في الفاظه وكلامه ... سحر العقول وحيرة الافهام

وبالجملة ان دمشق فقدت ركناً عاملاً من اركان رجالها العلماء حيث فاق اقرانه وكان زهرة عصره وزينة اوانه مات سنة ١٣٣١ وقد خدم دمشق خدمة تذكر فتشكر بتاريخه الشهير بثلاث مجلدات نوهنا عنه وعن فوائده في صدر هذا التاريخ .

حسن بهاء الدين بن محمد العطار الشهير باللحام بدمشق وبالشامي في الهند نبغ من بين اسرته في حب طلب العلم على شيخه الخاص الشيخ محمد الخطابي جد واجتهد حتى صار له مكنة في الوعظ والتدريس بين المشائخ في جامع دمشق عند المنارة الشرقية مدة ثم رحل مع شيخه المذكور الى الهند وطاف اهم بلادها واخذ ينشر الطريقة النقشبندية حتى اشتهر بالورع والفضيلة واعتقده اهلها وتبعه رهط كبير وصار الشيخ مريدا لتليفذة ونشر ايضاً كثيراً من الكتب التي جمعها من الادعية والاوراد وسلك سلوكاً حسناً بين جماعته ومعتقديه وترفع في اول الامر عن اخذ شيء من حطام الدنيا منهم حتى صار محلا للاعتقاد وبعد ان تمكنت المحبة منهم صار كلما امر بشيء يحضر بالحال بين

يديه الى ان طاعته جميع اهل تلك البلاد وقد اجتهد بكثير من الاعمال الخيرية منها بواسطة سعيه وتشويقه جمع كثيراً من المال في عهد السلطان عبد الحميد وارسل به اليه لاعمال السكة الحجازية وكان يترفع عن الاختلاط بالناس ويظهر الورع والزهد ثم بعد ادائه فريضة الحج عاد لوطنه دمشق ومات بها سنة ١٣٣١ وقد بقي جميع ما جناه من الاموال والهدايا في بنوك الهند ولندن ولم يخبر احداً بها حتى ضاع اعظمها على ورثته رغم التنقيب والتعقيب وقد مدحه الشاعر الدمشقي الشيخ ابي السعود مراد بقصيدة طويلة طبعت في احدى كتبه في الهند منها قوله :

بحر العطايا والسخا ماشله ... حاوي المكارم والمواهب والندى
لله دره من تقيه بارع ... ومهذب الاخلاق اول مقتدى

خليل الخوري احد افاضل ادباء المسيحيين بدمشق ومؤسس الصحافة العربية بها ولد سنة ١٨٣٦ م كان دمث الاخلاق حسن المحاضرة رقيق الجانب جمع الوجاهة والسياسة والشعر والادب له عدة دواوين مطبوعة اكثرها في الغزل مات سنة ١٩٠٧ ميلادية .

خليل بن مصطفى الراغب الموصلي الاصل ثم الدمشقي احد علماء الصوفية الورعين قدم دمشق ولزم الانزواء في مدرسة الشابكلية في حي القنوات واعتقدته اهلها كان محله مجمع لرجال العلم والفضل ومحط رحالهم وهو متخلف بنشر الطريقة النقشبندية الخالدية حسن السيرة والسريرة محترم عند العلماء محبوب لدى الامراء مات سنة ١٣٢٠ وله ولداً فاضلاً اسمه عز الدين افندي بارك الله به .

درويش بن علي بن السيد موسى الشهير بمرتضى نشأ في حب العلم واهله ومجالسة رجاله كريم الطبع والاخلاق جمع بين الفضيلة والوجاهة رقيق الجانب رحل الى الاستانة واحسن اليه من قبل الدولة العلية برتبة تدريس ادرنه وبقضاء القنيطرة ثم تولى قضاء السليمية وجبل سمعان ثم تولى قضاء يافا ثم اشتغل بالمحاماة وكان محل ثقة ،وكليه برع في هذا الفن تقصده الناس لقضاء

حوائجها وكان في كل سنة يدعو الحكام والامراء والعلماء الى محل سكنه في المزرعة الشهيرة لآل البيت ويقرأ السيرة النبوية ويجعل مائدة عظيمة من الاطعمة النفيسة يميل طبعه للكرم ويحفظ ود اصدقائه مات سنة ١٣٣٦ وحصل له مشهد عظيم وقد اعقب ذرية مباركة ارشدهم محمود افندي المحامي الشهير .

راغب بن محمد بن مصطفى البرتاوي الاصل الشهير بالحنبلي الدمشقي العالم الفقيه الفرضي النبيه كان جسوراً مقداماً فصيحاً لسناً ولد بدمشق سنة ١٢٦٣ ونشأ في حجر والده قاضي الحنابلة بدمشق واخذ عنه وعن بعض علماء دمشق تقلد منصب القضاء الشرعي فولي صفد وحاصبيا والسليمية وغيرها كانت وفاته في سنة ١٣١٤ وقد ذكره ايضاً صاحب مختصر طبقات الحنابلة وهو من اعز اصدقائنا ووالد حبيبنا الفاضل الشهير شاكر بك احد اعضاء المجلس الملي ومن رجال الحكومة الملكية ومن النوابغ المنوه بهم في هذا العصر ووزير المعارف اليوم كانت له يد بيضاء بمساعدتنا لاظهار هذا التاريخ لعالم الوجود بارك الله به .

رشيد بن عمر قزيها الشهير بسنان الشاذلي طريقة ومشرباً الشافعي مذهباً الدمشقي مولداً هو من ابناء عم العلامة الشيخ مصطفى قزيها المقدم الذكر في القرن الثالث عشر برع في النحو والصرف والمنطق والاصول والعروض وتصدر لقراءة الدروس في مدرسة عبدالله باشا العظمي ثم تعين معلماً في في مدرسة الملك الظاهر لتعليم المبادي والعلوم العربية والفنون العصرية كان عالماً فاضلاً بارعاً في اساليب التعليم شاعراً وقد غلب عليه الفناء والحب لمؤسس الطريقة الشاذلية اليشرطية حتى صار يكثر من شطحات كلام الصوفية مات عقبها سنة ١٣٣٣ وهو احد اساتذتي جزاه الله عني خير الجزاء في الدنيا ويوم الجزاء .

زاهد باشا بن الطبيب عبد الغني الشيخ فضلي المتقدم ذكره في القرن السابق نشأ في حجر والده ومهر عليه في هذه الصنعة ودرس في مدارس الطب

الى ان صار واشتهر وترقى في هذا الفن ونال رتبة البشوية وله مهارة تامة به وعلم بفروعه واصوله وكان سلوكه في الجيش العثماني مات سنة ١٣٣٧

سعيد بن محمد امين بن سعيد بن علي المعروف كأسلافه بالاسطواني الماتريدي الحنفي الدمشقي ولد بها سنة ١٢٣٧ وتخرج عن علمائها بعد ان اشتغل بالجد والاجتهاد الى ان بلغ المراد واستفاد وافاد وفاق اقرانه وتفنن واتقن وبرع بالعلوم العربية والشرعية والنقلية والعقلية قرأ الفقه منها على الشيخ هاشم التاجي والشيخ عبد الله الحلبي وتعمق في العقائد الدينية وقرأها على الشيخ عبد الرحمن الكزبري والشيخ حامد العطار والشيخ عبد الرحمن الطيبي فاجتهد بالفقه واصوله والحديث ومصطلحه والتفسير والفرائض ويستخرج من مخبآت بقية العلوم حتى ملك على ازمتها واستكمل على حوزتها وقد تقدم في كتابنا ذكر تراجم بعض رجال هذه الاسرة من تاريخ المرادي والمحبي والكواكب السائرة ومن الضوء اللامع والدرر الكامنة وذكروا عنهم انهم حنابلة اقاموا في صالحية دمشق الى اوائل القرن العاشر والذي برع في فقه الامام الاعظم احد جدودهم ابو الصفا المتقدم الذكر وبالجملة قد حاز رجال هذه الاسرة السبق في العلم والسؤدد في كل عصر كما انعقد الاجماع الى صاحب الترجمة في مشيخة الحنفية بدمشق باشر في خطبة الجامع الاموي وامامة الحنفي سنة ١٢٥٦ وله من الخطب البديهية والموعظة الحسنة موقع في النفوس وتلقن الذكر عن السيد فضل باشا من السادة العلوية ونزيل دار السعادة حين توجه اليها وصدر الامر في تعيينه في المجلس الكبير في ايالة الشام مع توجيه الوسام المجيدي الرابع عليه وبقي الى ان صارت التنظيمات والتشكيلات الجديدة بتأليف مجلسين كبيرين احدهما مجلس ادارة الولاية والثاني مجلس الدعاوي فعين عضواً به سنة ١٢٨٢ ثم تعين نائباً في محكمة الباب الشرعية ثم رئيساً في مجلس الدعاوي ووجهت اليه رتبة ازمير من الرتب العلمية ثم تعين قاضياً الى طرابلس الشام في سنة ١٢٨٤ ثم بعدها تقلد قضاء دمشق وذلك في سنة ١٢٨٦ ثم استعفى منها لخلاف وقع بينه وبين بعض الحكام وبقي ملازماً في داره لالقاء الدروس

والافادة وله تعليقات على حاشية ابن عابدين والطحطاوي والاشباه والنظائر كان كريم الاخلاق والسجايا واسع الصدر متكلماً بالصدق قوالا بالحق محبوباً مقبولا عند الخاص والعام مهاباً عند الحكام جسوراً اذا تكلم احد الاعيان الاعلام المعول عليه في الفروع والاصول بدر العلماء في هذه الديار حسن التقرير فصيح اللسان له في اللغة والادب اليد البيضاء وله مشاركة في نظر اوقاف السادة بني تقي الدين وابناء عمهم بني الحصني من طرف جدته كان مشحوناً مجالسه بالمذاكرة العلمية والمساجلة الادبية مات سنة ١٣٠٥ وصلى عليه العلامة الشيخ سليم العطار في داره بوصية منه فراراً من كراهية دخول الجنائز المساجد ومن وصيته ايضاً ان لا يفعل بجنازته من وضع الشال والحرير والعمامة الخضراء عليها بل يغطى بثوب ابيض وان لا تفعل النساء شيئاً في بيته من المنكرات والمبتدعات التي عمت فيها البلوى في هذه البلاد دفن في سفح قاسيون مشت في جنازته الخلائق على اختلاف مذاهبها وخرجت مع والدي معهم في ذلك اليوم وكان يوماً مشهوداً اعقب اربعة اولاد اسعد افندي من قضاة الشرع مات سنة ١٣٢٩ ومحمد افندي الشاعر الشهير مات سنة ١٣٠٨ وعبد القادر افندي والصغير منهم منير افندي .

سعيد بن عثمان بن عبد الغني الدمشقي الشافعي الشهير بالغبرا نشأ على حب طلب العلم ورجاله لتردده على دار خاله العلامة عبد الرحمن الكزبري وكان اكثر انتفاعه منه واشتغل وجد وقرأ على الشيخ هاشم التاجي والشيخ سعيد الحلبي والشيخ عبد الرحمن الطيبي وغيرهم كان من العلماء الذين هم صدقوا ما عاهدوا الله عليه لا تأخذه في الله لومة لائم تصدر للتدريس والوعظ في الجامع الاموي مدة طويلة يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويكد على تعليم العامة امر دينهم الضروري لهم ويشن الغارة على قمع البدع غير المرضية المخالفة للشرع وقد شد الرحيل مراراً لعاصمة الدولة الاسلامية لرفع وابطال الكثير منها التي ظهرت بدمشق على الاخص كوميدة التمثيل للروايات فلما وصل الخبر الى السلطان عبد الحميد صدر امره بأبطالها ولغوها وقد انتقل مؤسسها ابو

خليل القباني الدمشقي الى مصر ومثلها هناك وقد كثر من بعده فن التمثيل العربي بها وبرع فيه كثير من اهلها الذي تلقوا هذا الفن عنه مات صاحب الترجمة سنة ١٣٠٣ وله حفيد اسمه عزت من مشاهير اطباء هذا العصر .

سعيد بن قاسم بن صالح بن اسماعيل بن ابي بكر القاسمي الدمشقي الشافعي ولد سنة ١٢٥٨ اشتغل بطلب العلم واخذ عن والده المتقدم الذكر في القرن السابق فحضره في فن الفقه والحديث والعربية واستمد من سليقته في فن الادب وحضر بعض دروس الشيخ الطنطاوي ونظم ونثر واكثر المطالعة في كتب الادب ودواوين الشعر واسفار التاريخ وقد ام مكان ابيه في جامع السنانية وثابر على الدروس العامة فيه الليلية والنهارية وقصده كثير من الطلبة لتلقي العربية في داره وانتفع به من لا يحصى وحبب اليه مطالعة الكتب فكان لا يمل من ذلك وكان لقوة ذكائه يحفظ غرر ما يطالعه ويرسخ في حافظته من ذلك الكثير البديع واتفق انه طالع تذكرة داود في الطب فحفظ كلياتها ومهمات مفرداتها وخواصها كأنه ناشيء في مدرسة طبية وقد جمع تصانيف بديعة منها بدائع الغرف في الصناعات والحرف جمع فيه الصناعات والحرف الدمشقية على ترتيب حروف الهجاء فجاء قاموساً لها لم يسبق له بمثال وقد ذيله ولده الشيخ جمال الدين الذي تقدم ذكره بحرف الجيم ومنها تنقيح الحوادث اليومية ومنها الثغر الباسم في ترجمة والده الشيخ قاسم ومنها سفينة الفرج فيما هب ودب ودرج على نمط الكشكول والكنز المدفون يحب الطمأنينة في الصلاة ويرى انها من آكد واجباتها ويصدع بمن اخل بها او قصر في شأنها مات سنة ١٣١٧ ومن شعره اللطيف قوله من قصيدة طويلة :

قصور عزائمي ابداً بواذخ ودور فضائلي بنيت شوامخ

الى ان قال في آخرها :

ومن وصفي التعفف وهو حسبي به استغنيت من بين المشايخ

سليم بن ياسين بن حامد العطار المتقدم الذكر ولد بدمشق سنة ١٢٣٧

حتى بلغ من العمر نحواً من خمس عشرة سنة ولم يشتغل بطلب العلم بل كان يلعب مع الصبيان الى ان مر به ذات يوم رضى افندي الغزي فرآه يلعب فقال له أليس من العار ان تكون حفيد الشيخ حامد شيخ علماء الشام وفي حجره وانت بهذه الحالة فانتبه من غفلته وشمر عن ساعد الجد والاجتهاد ولازم الدروس وثابر على الحفظ والقراءة حتى تضلع سائر العلوم الى ان سبق اقرانه وصار صدر اعيان دمشق وعين علمائها الاعلام واوحدهم ممن تسامى وعلا واشتهر وشاع صيته بين ذوي المفاخر والمحامد فهو من الرؤساء الاعيان والجامع للخصال الجيدة بين الاقران مقبول عند الحكام معتبر موقر بين الخاص والعام قد اخذ العلم عن جده وكان اكثر انتفاعه منه لان والده ياسين لم يطلب العلم واستجاز واجاز لسائر العلماء في الاقطار منهم عالم العراق محمود الالوسي صاحب جلاء العينين والتآليف الشهيرة وبالجملة فانه تقدم على علماء زمانه بالذكاء وحسن المحاضرة والمناظرة وسرعة الجواب وطلاقة اللسان وفصاحة البيان حتى انه كان يتفنن باثناء دروسه ووعظه بالقاء المسائل واخبار السلف بعبارات شتى تبهر العقول وتدهش السامع لشدة فصاحته وفي سنة ١٢٦٤ تولى مكان جده تدريس البخاري في جامع السلطان سليمان وكان يبهر به عقول العلماء والافاضل لانه كان يتكلم على الحديث من سائر العلوم ويمزجه بشيء من كلام السادة الصوفية ويأتي بالاحاديث المناسبة له ويستخرج منها الاحكام ويبين قوة حجة كل مذهب ويتكلم بشيء من الحكم والمواعظ الى ان يذهب بلب السامع مهما كان من الفضلاء وكانت دمشق تفتخر بدرسه على سائر البلاد وقد انتفع منه خلق كثير ونبغ عليه علماء افاضل منهم عمه الشيخ بكري المتقدم الذكر ومن تلاه من علماء هذا العصر وكان يلقي درس التفسير بين العشائين في محراب الشافعي وفي شهر رمضان كان يلقي درساً في الحديث في مشهد الحسين في جامع دمشق ويحضره العلماء من سائر المذاهب ويحصل بينهم المناظرات والمعارضات وكل يقيم ادلة على ترجيح قول امامه في المسألة ويكون الشيخ هو الحاكم بينهم فكان اول درس علمي في البلاد العربية وله اليد الطولى في

التفسير فكانت تتسابق الخلائق لدرسه وتتزاحم على سماعه وكان يجتمع في داره كل يوم الافاضل والمفكرين من التجار واعيان البلاد يحضرون مجالس العلم عنده ويأتونه بجميع الاخبار حتى كبار المأمورين والحكام وبعد وفاته قام ولده العالم الفاضل الشيخ صادق وطلب درس السليمانية في مكانه حيث هو جدير به الا انه عارضه عم ابيه العلامة الشيخ بكري صاحب هذه الوظيفة لوفاة والده الشيخ حامد عنه وهو مراهق فوجهت اليه بالوكالة عن مدرس هذا الدرس اليوم ولده الشيخ احمد الذي كان قاصراً اذ ذاك وكان ذلك سبباً لهجرة الشيخ صادق الى بلاد فاس وهو لم يزل باقياً بها الى الآن مدار عمدة ملوكها ومرجع علمائها وقد مدح صاحب الترجمة من افاضل الشعراء ورثته البلغاء مات سنة ١٣٠٧ دفن بمقبرة الدحداح وارخه الهلالي بقوله :

وغدا التفسير يدعو ارخوا   فرقد العلم توارى بالحجاب

سليم بن خليل الشهير بالمسوتي الارناؤطي الاصل هاجر والده لدمشق وفتح سماناً بمحلة العقيبه ولما نشأ في حجر والده قرأ مبادي العلوم العربية على مدرس تلك المحله الشيخ محمد سعيد البرهاني والشيخ سليم العطار والشيخ بكري العطار وبقي ملازماً لدروسهم الى حين وفاتهم وهو في سن الشيخوخة وقد ادركنا ذلك منه عند بعض مشايخنا كان عالماً فقيهاً معتقداً من اهل محلته كريم الاخلاق حسن السيرة والسريرة يميل طبعه للتواضع ومجالسه الفقراء ويكره الترسم والتردد على الحكام تصدر للتدريس والافادة في جامع التوبة تردد الى الحجاز مراراً وعرفه اهلها ديدنه تعليم العوام من الناس الفقه والاخلاق وحسن الامانة مات سنة ١٣١٤

سليم بن انيس الشهير بقصاب حسن الحنفي الدمشقي نشأ في حب طلب العلم ومجالسة رجاله ولازم القراءة على بن خاله الشيخ احمد الحلبي والشيخ احمد عابدين وغيرهما من علماء دمشق فتلقى العلوم العربية عنهم الى ان برع في الشعر والادب ونبغ من بين اقرانه وصار بدر عصره وزينة اوانه كانت مهنته التجارة وهو عمدة اهلها له ديوان شعر نفيس مطبوع يدل على فضله وعلو مكانته

في اللغة والادب وله البديعية في مدح خير البرية على اسلوب لم يسبقه به احد حيث زاد ما ينيف عن عشرين نوعاً من انواع البديع وله رسائل واشعار كثيرة في مواضيع مختلفة لم تطبع وقد مدحه الهلالي في ديوانه وافرد له قصائد متعددة ومن شعر صاحب الترجمة قوله عند اتمام عمارة جامع دمشق

الله اكبر ان هـذا المسجدا | من عهد هود قد تأسس معبدا
خطت بسيف الفتح خطة حده | انصار دين الله اعـلام الهـدى
فاق الفراقد رفعة لما غدا | مثوى الى يحيى الحصور ومرقدا
كم جد في تعميره ملك وكم | مدت له ايدي اعاظمها يـداً
طرقت عليه طوارق فتهدمت | منه الدعائم ثم عاد مشيداً
ما احرقته النار الا استدركت | همم الملوك بناءه فتـأيدا
قد تم تجديداً بعصر مليكنا | عبد الحميد اعز سلطان بـدا
الحمـد لله اتى تاريخـه | الشام جامعها بخير جددا

مات عقيماً سنة ١٣٣١ وكان والده ايضاً اشعر منه له يد طولى في فن الادب وجمع له ديوان شعر اشتهر به .

سليم بن محمد الميداني الدمشقي الشهير بالشيخ سماره نشأ في طلب العلم وقرأ على علماء دمشق منهم الشيخ محمد الطنطاوي والشيخ محمد البيطار امين الفتوى والشيخ عبد الغني الغنيمي الميداني وغيرهم كان فقيهاً مباركاً نفرد في كل علم حتى اشتهر فضله بين الانام يميل طبعه الى الزهـد والتصوف والتباعد عن مخالطة الحكام يحب الفقراء والمساكين من العوام حريص على قضاء حوائجهم وتفريج كروبهم ورفع ظلاماتهم مقبول الشفاعة عند الامراء كان يدرس في الليل والنهار في جامع صهيب ويقيم الذكر ويجتمع عنده النـاس ويطلبون خير دعائه يغلب عليه الخشوع والورع وسيمة الصالحين الاقدمين ولد سنة ١٢٥٤ ومات سنة ١٣٢٧ .

سردار غلام محمد خان ترزي افغان من ابنـاء ملوك افغانستان الدولة الاسلاميه العظيمة هاجر الى دمشق لاسباب تنافر وقع بينه وبين ملوكهـا

من ابناء عمه والتجأ الى السلطان عبد الحميد خان مع اولاده واسرته وقد خصصت له الدولة العثمانية مقداراً كافياً في كل شهر ما دام ضيفها كان عالماً شاعراً متفنناً ورعاً صفاته الصدق وقول الحق يكره الكذب ويحب مخالطة العلماء والامراء اشتهر فضله بينهم وعلا قدره عندهم حسن السيرة والسريرة كان له في بعض الصنائع النفيسة والفنون الغريبة كمال الاطلاع والاتقان مثل التذهيب ورسم الاشجار والزهور بانواعها مع حسن الخط وصنع الورق اللطيف وتلوينه عنده سلاسة في النظم يتكلم بالعربية والفارسية والافغانية جدير بان يطلق عليه الحافظ الشيرازي الثاني لما له من السليقة الشعرية والاساليب الادبية والمعاني اللطيفة التي قل ما توجد عند غيره وقد نظم ما ينيف عن سبعين الف بيت من الشعر الفارسي كاد ان يضاهي فيه المثنوي له ولد اسمه محمود بك خان اديب فاضل مهذب يشبه والده في اكثر خصاله زوجه من دمشق بنت محمد صالح سديه احد المؤذنين في جامع بني اميه وقد سمعنا عنه من ابن عمه اديب بك انه الآن سفير لتلك الدولة في باريز وقد بلغنا اليوم انه صار وزيراً للخارجية في عاصمة الافغان واخذ جلالة الملك الحالي امان الله خان بنته التي امها شاميه مات صاحب الترجمة بدمشق سنة ١٣١٩ وقد صار له مشهد عظيم حضره العلماء والامراء دفن بالدحداح .

سعد الدين اللطفي بن محي الدين بن عبد اللطيف لطفي الشهير بالباقي ولد بدمشق سنة ١٢٤٠ وقرأ على علماء عصره وادرك الطبقة العالية منهم له في الفنون الغريبة كمال الاطلاع وقد اشتهرت رجال هذه الاسرة الكريمة في هذه البلاد في خدمة الطريق ومحبة الفقراء واعانة البؤساء وقد تولى صاحب الترجمة القضاء الشرعي في اكثر اقضية سوريا وله آثار نفيسة تدل على فضله وكثرة اطلاعه منها تنوير الباب في الاحكام والآداب والرياض المسكية ومرجع الرئاسة في احكام السياسة وفتوحات الارشاد لمن اراد الحكومة بين العباد ونتائج الاحكام للقضاة والحكام واغاثة الملهوف باصطناع المعروف وغاية الضبط في معرفة رسم الخط والروضة الزاهرة في السلالة الطاهرة ونيل الاجور في

ادخال السرور مات سنة ١٣١٢ ودفن في مقبرة الدحداح وهو والد صديقنا فريد باشا مدير الاوقاف الاسلامية مات سنة ١٣٤٤

سليما بن براهيم الصوله الرومي الملكي الكاثوليكي ولد بدمشق سنة ١٨١٤ غريبي تعلم في مصر وقرأ على رجال الفضل فيها ولازم مدارسها وبرع في العلوم العربية والادب ونظم الشعر وتفرد به كان يعارض قصائد ابي فراس الحمداني ويخمس قصائد الحلي ويشطر منظومات المتنبي وقد الف كتاباً سماه حصن الوجود في عقائد اليهود وله ديوان واسم طبع بمصر مات سنة ١٨٩٩ كان زهرة عصره وريحانة آوانه وانتقد عليه في ديوانه لهجاءه اهل دمشق.

سليم بهجت بن راغب بن حسن افندي مفتي دمشق ونقيبها الشهير بتقي الدين الحصني تقدم ذكر ابيه وجده المفتي وهو احد شعراء دمشق وبلغائها نشأ في حجر والده على حب العلم ورجاله وحضور مجالس الادب جد واجتهد في قراءة العلوم العربية والمعاني والبيان والبديع والعروض حتى فاق اقرانه بالنثر والنظم كم له في النظم الرائق والنثر الفائق من منظومات منظومه ومنثورات منثوره هي من اجود الشعر واملح النثر في هذا العصر برع واشتهر في هذا الفن وله مدائح في الحضرة النبوية كثيرة وقصائد متعددة شهيرة لو جمعت لكانت ديواناً لكن تساهل اولاده من بعده وعدم اعتنائهم بذلك ضيع ذلك الاثر فلله الامر ومن كلامه :

ابا الزهراء ياكنز الفقير ويا عوني وكهف المستجير
تشفع بالعبيد فقد تاهت بي البلوى فكن خير النصير
صلاة الله يا خير البرايا مكررة بتسليم عطير
عليك وآلك الامجاد طراً واصحاب الى يوم النشور

ومن شعره في مدح طرابلس الشام واهلها الكرام :

قالوا طرابلس البهية جنة تزهو بأكناف الورى سكانها
سلمت ان الحور وسط خيامها مقصورة فتى ارى ولدانها

ومن قوله حين زيارته لمفتي حماه العلامة محمد الحريري الرفاعي وعدم اجتماعه به بعد ابيات طويلة في ختامها :

تركت شامي عروساً وجئت نحو حماة يعني في سنة ١٣١٧

فعقبه المفتي بالجواب على الفور وارسله اليه حين كان متوجهاً الى السلمية بقصيدة منها :

آنست اهلاً وسهلاً يا ابن الكرام السراة
حماة اضحت عروساً بكم تباهي الجهات

وبهذه المناسبة نذكر ماقاله بها العارف النابلسي لما قدمها :

حماة تلك التي امثالها بلد لكل دان الى الاهلين اوقاصي
ترق قلباً لاحوال الغريب بها حتى نواعيرها تبكي على العاصي

وله ايضاً :

نواعير في وادي حماة اذا بكت تهيج مني بالبكا مدمعاً قاصي
واني على نفسي لاجدر بالبكا اذا كانت الاخشاب تبكي على العاصي

وقال ايضاً :

ان حماة بلدة شريفة ريح الصبا طابت بها مهبه
من جاءها صادف فيها ما اشتهى وانما حماته تحبه

وكتب جواباً الى العالم الشاعر عبدالمجيد افندي الخردجي من علماء دمشق :

عبد المجيد اخي ياعالي الرتب يا منبع الفضل والاحسان والادب
شرفتني بكتاب فازدهيت به فبت نشوان من فرح ومن طرب
تطمنت مهجتي عنكم فصحتكم عندي لعمرو ابي من غاية الارب
شكرت ترميمكم قبراً لوالدتي فعش مع العز مسروراً بلا تعب
ورحت ادعو لكم بالخير مجتهداً عند الحضور وارجو نجحة الطلب
اما الفقير فمالي اليوم مصلحة الا عطاء كريم خالق السبب
تركت للناس دنياهم على ثقة بالله في الرزق من حل بلا نصب
لكنني في اشتياق يا اخي الى رؤياك تطفي احشائي من اللهب

عسى ليالي الصفا يوماً تعود لنا فنجتني لذة الاوقات بالطرب

ووجد في مجموعته

الله يعلم انني لك شاكر والحر للفضل الجليل شكور
لكن رأيت بباب دارك جفوة فيها لصفو صنيعه تكدير
مابال دارك حين تدخل جنة وبباب دارك منكر ونكير

ومما قاله عند حريق جامع الاموي الاخير :

ما زال يحيى حصور الله يشفع في ذنوب اهل دمشق عند سيده
والنار لما استحقوها تحملها فضلاً من الله عنهم سقف مسجده

تولى قضاء جبل الدروز وصار رئيس محكمة السويدا ثم تقلد قائمقامية السليمية وغيرها كان فاضلاً شاعراً رقيق الجانب دمث الاخلاق كريم الطبع محترماً عند العلماء مقبولاً لدى الامراء مات سنة ١٣١٧ دفن بباب الصغير .

سليم بن السيد نسيب الحمزاوي هو الاخ الاكبر الى السيد محمود مفتي دمشق الشهير ولد سنة ١٢٢٥ هـ نشأ في حجر والده واخذ في طلب العلم على علماء دمشق منهم العلامة الشهير الشيخ سعيد الحلبي وحصل مبادي اكثر العلوم وكان له في القلوب محبة واعتقاد من جميع طبقات معاصريه وقد اشتهر بالورع والارتزاق من كسب يده مع توفر ما لديه من النعم الموروثة عن ابائه له المعرفة التامة في انواع السلاح والقدم الراسخة في الرماية وكثيراً ما كان يستصحب خليله الوحيد امير العلماء وعالم الامراء الامير عبد القادر الجزائري ومن جملة رحلاتهما المشهورة ذهابهما الى الحج مستصحبين جملة من العلماء والاشراف وفي اثناء مرورهم من الترعة ووصولهم الى الاسماعيلية جاءتهم رسل خديوي مصر اسماعيل باشا مع وابور مخصوص يدعوهم الى حفلة انجاله فاحتفل احتفالاً شائقاً بوصولهما وتلقاهما بكل ترحاب واحترام وكانت ضيافتهما اذ ذاك سبعة ايام وقد رأيت رسمهما في تلك الحفلة موجودة عند احد الاصدقاء ثم رجعا الى مكة المكرمة وبعد اداء الحج تشرفا بزيارة الرسول الاعظم عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة ومنها الى وطنهما دمشق وبقي صاحب

الترجمة منزوياً عن الناس كما هو مشربه من وقت صباه الى ان كانت وفاته في شهر ذي الحجة عام ١٣٠١ .

شاكر بن اسعد بن نسيب الحزاوي الحنفي الدمشقي نشأ في حجر والده ولازم عمه السيد محمود مفتي دمشق وبرع في الفقه والاصول والمنطق والنحو والفرائض تقلد احدى النيابات الشرعية في محاكم دمشق وبعدها تولى القضاء الشرعي في احد اقضية دمشق ثم تعين لمديرية الايتام في محكمة دمشق احسن اليه برتبة كبار المدرسين من الرتب العلية يحب مجالسة العلماء والمناظرة معهم وكان سديد الرأي عالماً في الفنون والادب رضي الاخلاق حسن الوفادة محترماً عند الحكام محبوباً عند الخاص والعام يميل الى حب الصيد ولعب الشطرنج له شرف وسيادة وقد احببت مانقله وكتبه العلامة الشطي الشاعر البليغ بقوله مطرزاً في مدح صاحب الترجمة مانصه بعينه :

شمس المعارف بدرها   حاوي المزايا والشرف
انسان عين نورها   مطهر زاكي السلف
كنز الهداية بحرها   زاد الفقير اذا عطف
روح السيادة حبرها   هـذا الحبيب المؤتلف

مات عقيماً سنة ١٣٢٨ ودفن بالدحداح بمشهد عظيم وكان يترنم بقول شمس عذب رقيق على لسان القوم :

عظموا ذكر حبيبي   فبه المكسور يجبر
واتركوا الاغيار طراً   ولذكر الله اكبر

ومن كلامه :

اذا كنت ذا حسب حق وذا نسب   ان الشريف غضيض الطرف معروف

وكان يتردد بقول الشاعر :

واذا اردت منازل الاشراف   فعليك بالاسعاف والانصاف
واذا بغى باغ عليك فخله   والدهر فهو له مكاف كاف

صالح بن محمد الشهير بقطنا قصبة قرية من دمشق وهي الآن مركز قضاء للحكومة مشهورة بخصب الزرع وادرار الضرع نشأ في حب العلم واهله ادرك الطبقة العالية من علماء دمشق واخذ عنهم يصدع بالحق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر على قدر المستطاع تولى عدة وظائف مهمة شرعية منها امانة الفتوى عند امين افندي الجندي مفتي دمشق مدة طويلة ورحل معه الى الاستانة حين فصل من الفتوى وطلب اليها لاجل جمع مجلة الاحكام الشرعية وكان قد ندب مع جملة من العلماء الاعلام ثم تولى نيابة المحكمة الشرعية الكبرى مدة طويلة ثم انتخب وتقلد منصب الافتاء بدمشق بعد موت مفتيها المنيني وبقي بها مدة طويلة اشتهر فضله وعم نفعه خطبته العلماء وعلا قدره عند الحكام والامراء وعند اعلان الحكم الشوروي في الحكومة التركية انفصل عن هذا المنصب وبعد انفصاله كافأته جزاء خدماته السابقة بمبلغ وافر من النقود ومنحته رتبة قضاء الحرمين الشريفين وهو الشيخ المعمر الورع الصالح بقية السلف من الشيوخ تفرد في آخر عمره بمشيخة الحنفية كان يرجع اليه اكثر العلماء في المسائل المهمة مات سنه ١٣٣٠ وقد اعقب ولداً اديباً وجيهاً اسمه محمد افندي مات بعد ابيه بمدة قليلة كان كاتباً في احد دواوين الحكومة.

صبري بن الدرويش رجب الحلبي الاصل ثم الدمشقي الحنفي شيخ المولوية بدمشق نشأ في حب طلب العلم وقرأ على الشيخ محمد سعيد البرهاني والشيخ سليم العطار ولازم مشايخ دمشق واخذ عنهم وكان يدعوهم الى التكية الموجودة اليوم مقر مريدي الطريقة المولوية ومحل سكناهم وفي كل خميس من ايام الربيع تجري المقابلة بها وكان في كل سنة يجعل يوم ختم الدرس في جامع السليمانية من قبل شيخه الشيخ سليم العطار دعوة نفيسة يحضرها الحكام والعلماء والامراء ويجعل لهم الذ الاطعمة واتقنها كان فاضلاً يميل الى مباحث العلم والادب لايخلو مجلسه من اهل الفضل مات سنة ١٣١٥ وقد ترك ولده الشيخ امين كان من الادباء الافاضل مشى على طريق والده في خدمة الطريق

مات سنة ١٣٢٥ وله ذرية نجيبة هما ابراهيم افندي ومحمود افندي من مشاهير اطباء الاسنان بدمشق .

صالح جعفر الدمشقي الحنفي له شهرة عظيمة في التقوى والامانة تعتقد الناس في صلاحه ونصرته للحق وكانت عليه وظيفة التربدارية في مقام السيد الحصور عليه السلام بجامع دمشق وله درس عظيم به انتفع منه خلق كثير اشتهر فضله حتى اطلق عليه قاموس العلم والعمل وعد من رجال السلف الكرام وقد قال في تاريخ وفاته احد تلامذته الشيخ محمود الموقع بمرثية طويلة منها .

يارحمة الله امطري رمساً به   شيخ الخليقة مرشد وناصح
بحر العلوم وحبرها في شامنا   دمعي على فراق شخصه سافح

مات سنة ١٣٠١

صالح بن ابو السعود بن اسماعيل بن عبد الغني الشهير بالغزي العامري مفتي الشافعية بدمشق نشأ في حجر والده وكان جده اسماعيل نقيب دمشق ادرك الطبقة الاولى من الاقدمين الاعلام منهم الكزبري والطيبي والحلبي واجازوه بقراءته عليهم بعض العلوم وكان اكثر تحصيله وانتفاعه في بقية العلوم من خاله عمر افندي الغزي مفتي الشافعية بدمشق وعلى عمه رضي افندي المتقدم الذكر كان عالماً فاضلاً فقيهاً فطناً وقوراً شجاعاً تولى منصب القضاء الشرعي في بعض اقضية حلب وبيروت ودمشق وتردد للاستانة كثيراً واحسن اليه برتبة ادرنة من الرتب العلمية ثم في آخر امره تولى افتاء الشافعية بدمشق مات سنة ١٣٢٦ في اول عهد حكم الدستور .

صالح نقيب الاشراف بدمشق بن عبد القادر بن احمد بن حسن الشهير بابن تقي الدين الحصني الحنفي نشأ في حجر والده وقرأ على علماء دمشق ولازم مجالسهم ثم احببت ان انقل ما كتبه يراع صاحب عكاظ الادب المؤرخ الشهير العلامة يحيي ابو النصر السلاوي احد اعضاء مجلس

المعارف الكبير في نظـارة دار الخلافة وقد طبعت ترجمته مجلة الحقائق المنقولة من تاريخ صحيح القياس في حرف الصاد قال ترجمة الاخ الابر الصالح صاحب الفضيلة والسيادة السيد صـالح افندي الشهير بابن تقي الدين احد اعيان دمشق الشام ونقيب القـدس الشريف هو السيد الهام والجهبذ المقدام نابغة الاقران في زمانه ونادرة الامثال من اهل عصره واوانه الحسيب النسيب بضعة الشرف المسلسل وسلالة المجد المؤثل اعز الاخوان في الله تعالى ولد سنة ١٢٠٦ في دمشق ونشأ بها وفي مكاتبها ثم اشتغل بتحصيل المقدمات من العلوم الضرورية وبعدها جعل يترقى في تحصيل كتب المطولات وتدرج في تحصيل فن العربية حتى وصل الى ابن عقيل على الفية ابن مالك والفقه الى شرح الدر على شيخه العلامة محمد الجوخدار الدمشقي وفي علم التفسير الى الجلالين ببعض الحواشي مع مطالعة غيره من التفاسير وفي علم الحديث الى صحيح البخاري والجـامع الصغير والشفا وفي المنطق الى شرح الشمسية وحاشية القطب وغير ذلك من الكتب العربية والفنون الادبية وقد اجازه في جميع العلوم النقلية والعقلية بالرواية والدراية علماء اعلام اقطار دمشق الشام منهم الجوخدار والعلامة علاء الدين بن عابدين والعلامة طاهر الآمدي مفتي دمشق والعلامة احمد مسلم الكزبري وشيخنا العلامـة الورع بكري العطار ومن اكابر الاستانة العلامة حسن افندي فهمي شيخ الاسلام بها ثم انه اخذ الطريق الرفاعي عن حسن وادي افندي والد العلامة الشيخ ابي الهدى الصيادي وتلقن بعض الاوراد والذكر من السيد فضل باشا عين اعيان السادة العلوية واذنا له بالاجازة لغيره كما اني حظيت بمطالعـة اجازاته العلية السالفة الذكر ومن جملتها اجازة سمـاحة محمد افندي الجابي الدمشقي فالفيتها جديرة بان تنشر وتذكر وبمطالعة شجرة نسبه الشريف المبارك فالفيته على نسق قل ان يتيسر حصوله الا لقليل في هذا الزمان لانه موقع عليه من اشراف الحجاز وامرائها وسادات اليمن والعراق والشام اذ شهـد كلهم بانه سيد سند شريف ثابت النسب صحيح الحسب وقد احسنت اليه الدولة العلية

برتبة البلاد الخمس من الرتب العلمية ونقابة الاشراف في بيت المقدس وقد امتدحه بها العلامة المرحوم الشيخ خالد افندي الاتاسي مفتي حمص سابقاً بقوله :

يا بادي القربى التي وجبت لنا دنيا مودتها بغير خلاف
فق سامياً انت ابن طه المصطفى تبدو بسلسلة ابن عبد مناف
ابهج بأشراف دعيت نقيبهم صعدوا ربا الشرفين والاسعاف
بك صالح القدس الشريف سرى لها شرفان فلتحيي بطيب كاف
وبدا لسان الحال منها قائلاً طاب الهنا بنقابة الاشراف

ولله دره حيث ضمن كل عجز منها تاريخاً ان ذلك من البلاغة بمكان ثم اخبرني انه حين قدم الى الاستانة سنة تسع وثمانين وبعد ان اقام بها مدة وحظي من نفحاتها بما حظي توجه لاداء الحج وكان محل اعزاز واكرام من امير مكة واشرافها ومنها توجه الى المدينة المنورة مكث فيها مدة ثم كر راجعاً الى وطنه وان كثيراً من العلماء والاعيان لما سمعوا بقدومه استقبلوه واحتفلوا بملاقاته وكان ممن اعتنى بشأنه غاية الاعتناء حضرة العلامة الامام الحجة السيد السند امير العلماء وعالم الامراء مولانا الامير عبد القادر الجزائري الحسني طيب الله ثراه ثم انه عاد ثانياً الى الاستانة في سنة ١٢٩٢ وبقي بها الى الآن وحسنت له فيها المعاملات وتعرف بكثير من اكابر رجالها واعيانها وقد شهد له منهم بالديانة والامانة كل من عرفه وانا كذلك معهم من الشاهدين انتهى كلام المؤرخ السلاوي وفي سنة ١٣٠٧ احسن اليه بنقابة اشراف دمشق الشام وحضر اليها وصار صدرها يشار اليه فيها اتفق على حبه جميع العلماء والامراء وفي سنة ١٣١٠ توجه الى المدينة المنورة وكان محل احترام علمائها واعيانها ثم ذهب مع الحج الشامي الى مكة المكرمه وكنت اذ ذاك رفيقاً له وحل ضيفاً في دار امارة الشريف عون الرفيق باشا وبعد اداء مناسك الحج ذهب هو والشيخ مصطفى افندي الجندلي نقيب اشراف ازمير الذي كان مع حج تلك السنة الى الطائف بدعوة من الامير وفي تلك الاثناء مات بمكة ودفن في المعلا

بجانب السيدة آمنة في تلك السنة ولما ورد الخبر بوفاته الى والي دمشق وحاكمها كتب الى الاستانة بتوجيه النقابة الى وكيله بها اخيه سيدي الوالد امام السادة الاحناف في الجامع الاموي وقبل ورود المنشور بذلك توفاه الله تعالى واعيد هذا المنصب الى بني عجلان الاكارم وقد اطلعت على قصيدة عالية يمدح بها صاحب الترجمة ويهنؤه بمولود جاءه في سنة ١٣٠٢ اسمه صلاح الدين العلامة طاهر افندي الاتاسي قاضي البصرة ومفتي حمص اليوم وقد ارخه ايضاً الشاعر الشهير محمد اغا السوقية من ادباء دمشق ومن رجال التمثيل العربي بقوله من قصيدة طويلة :

قد آن الى عليا ابيه مسرة   تعيد له عند الهناء المجدد
شريف حسيني له الفخر سيد   حوى شرف الاباء بضعة احمد
سليل بني الزهراء خير عصابة   توارثها عن سيد بعد سيد
فيا ذا العلا ميلاد نجلك قد علا   بطالعه الاسنى على كل مولد
يدوم بمهد العز يربى منعما   الى أن ترى من نسله كل امجد
وتاريخه باليمن لاح مبشراً   بوجه صلاح الدين نور محمد

وقد اطلعت ايضاً على قصيدة طويلة الى الشاعر الشهير السيد رضى مرتضى من اشراف دمشق يمدح بها صاحب الترجمة منها قوله :

وغدت تسألني عن الدنيا وما   في اهلها من ناصح وامين
فأجبتها لم يبق اصلح في الورى   من صالح الدنيا تقي الدين

الى ان قال :

هو نخبة الشرف الذي نالت به   بعد العنا نصراً بنو ياسين

ونقل الفاضل صاحب مختصر طبقات الحنابلة ما نصه قال كتب الشيخ عبد السلام الشطي احد علماء دمشق على نسب السيد الشريف والعالم الغطريف محمد صالح افندي تقي الدين الحصني نقيب الاشراف بدمشق :

نسب عليه من الصلاح لوائح   وختامه مسك وعطر فائح
نسب شريف طاهر بل ظاهر   كالشمس في وقت الظهيرة واضح

نسب تناهى فضله لمحمد وهو التقي الدين وهو الناصح
وفروعه الامجاد سادات الورى ان الاناء بما حواه ناضح
صلى الاله على النبي وآله فتقيهم دينا ودنيا صالح

وقد اتى في ترجمته على اخلاقه وفضله العلامة الشيخ عبد الرزاق البيطار في تاريخه واثنى عليه بخير وقد اعقب ولداً سمه صلاح الدين حاكم الصلح في حلب الشهباء وهو محبوب عند اهلها بارك الله به .

وقد مدح رجال هذا البيت علامة المدنية وشاعرها الشيخ محمد حداد امام وخطيب الحرم النبوي ومدرسه بقصيدة رنانة لما قدم دمشق مطلعها

يا آل بيت تقي الدين ان لكم مزية لم ينلها مثلكم احد
الجد فيكم عريق والسخا لكم وراثة يقتفيها الابن والولد
نزيل بلدتكم في كل آونة لا يعتريه بكم هم ولا نكد
بكم نقابة اشراف الشآم سمت وزاد رونقها واستبشر البلد
اذ بالتقى نلتموها حسبكم شرفا فبيتكم بيت فخر ماله أمد

صادق بن رسلان الطرابيشي احد رجال الطب بدمشق اشتهر فضله وعم نفعه وهو من الاخصائيين في امراض الأذن والحنجرة احصاء جعله في المرتبة الاولى بين اقرانه تخرج من المكاتب العالية في الاستانة واوروبا لذلك عد فقده خسارة كبرى على هذه البلاد وهو فوق علمه وفضله كان رضي الاخلاق ومثال التقوى والورع يميل لتطبيب الفقراء والمساكين ومؤاساتهم مات سنة ١٣٤٠ خلد ذكراً مؤبداً لنفسه من بين اسرته .

صادق بن عبد القادر افندي الميداني الدمشقي كان والد المترجم تولى مديرية اوقاف دمشق وهو من اعيانها وقد شوق ولده هذا لحب طلب العلم بعد ان علمه في المكاتب العالية مبادىء العلوم والفنون ثم حضر على رهط من علماء دمشق وجد واجتهد على تعلم العلوم العربية والدينية حاز الفضيلة والوجاهة يحب المباحثة والمناظرة ومطالعة اسفار التاريخ تصدر للتدريس في جامع الدرويشية ورحل الى الاستانة مراراً وتولى القضاء الشرعي في كثير من اقضية دمشق يميل

الى مخالطة الحكام والامراء ومجالسة العلماء مات سنة ١٣٢٢ وقد اعقب ذرية نجيبة ارشدهم السيد سامي افندي من نوابغ هذا العصر واحد اساتذة معهد الحقوق ومن محامي دمشق الذين هم تلقوا العلوم العالية من معاهد أوروبا وكان يتردد بقول بعض الشعراء بأبيات مختلفة :

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت ولا يلين اذا قومته الخشب

اذا لم تكن حافظاً واعياً فجمعك للكتب لا ينفع

اذا انت لم تزرع وابصرت حاصلا ندمت على التفريط في زمن البذر

ان النساء رياحين خلقن لنا وكلنا يشتهي شم الرياحين

اذا مر بي يوم ولم اتخذ يداً ولم استفد علما فما هو من عمري

طاهر بن عمر الآمدي مفتي دمشق نشأ في حجر والده امام جامع الاموي المتقدم الذكر وكان اكثر انتفاعه منه واخذ عن علماء دمشق تصدر للتدريس وخلف والده بخدمة امامة الجامع بعد موته ثم انتخب وتولى افتاء دمشق بعد علي افندي المرادي سنة ١٢٦٧ وكان عنده امناء الفتوى الشيخ سعدي العمري والشيخ عبدالله السكري امتاز في عصره على جميع اقرانه خطبته العلياء وحاز مشيخة العلماء وكان صدر الصدور بدمشق اميراً في مجلسه فقيهاً مدققاً محققاً عم نفعه بين الانام ونفذ امره عند الحكام مات في جمادى الاولى سنة ١٣٠٦ وكان يتقن اللغة التركية نثراً ونظماً وكان اسمه تاريخ ولادته وقد ارخ وفاته مفتي دمشق الحمزاوي بقوله :

كفل الافتا زماناً في دمشق غير قاصر

اسس للمجد ركناً قصرت عنه الزواهر

وله التاريخ شطر رحم الرحمن طاهر

طاهر بن محي الدين الشهير بابن حمزة الحنفي الدمشقي نشأ في حجر والده وقرأ على ابن عمه المفتي الحمزاوي وغيره من علماء دمشق كان عالماً فاضلاً فقيهاً ورعاً يصدع بالحق يتباعد عن مجالسة الحكام ومخالطتهم يميل طبعه الى الانزواء عن الناس اتقن العلوم النقلية والعقلية كريم الاخلاق حسن السيرة والسريرة

تقلد نيابة الشرعية في محكمة الزورية ثم تولى افتاء قضاء دوما ومن كلامه قوله في ذيل شجرة اسرته النظم :

وها انا طاهر بن الشهم خاتمهم يممت بالذيل اثراً طاب مورده

مات سنة ١٣٣٠هـ وترك ذرية طيبة من شجرة مباركة اصلها ثابت بارك الله بهم لانهم نجباء ادباء خير خلف لذاك السلف اكبرهم منير افندي كاتب العدل بدمشق اليوم وعبد الغني افندي احد وجهائها والدكتور مسلم افندي من مستخدمي رجال الطب في العراق .

طاهر بن صالح المغربي الجزائري الاصل الدمشقي مولداً نشأ في حجر والده العلامة المتقدم الذكر وقرأ عليه مبادىء العلوم العربية والشرعية وكان اكثر انتفاعه منه وقد احببت ان الخص ماكتبه يراع الفاضل الباني في كتابه تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر بعد ان اعترض على ماتألفه المؤرخون الاقدمون في كتاباتهم الالفاظ التي استعملوها في مسلكهم في بعض تراجم الرجال واتهم بإساءة استعمالها . فقال الاطراء محظور شرعاً لانه مضيعة للحقائق مدعاة الى التلبيس خصوصاً اذا كانت العبارة متحدة على نسق واحد واتى في مثال ماوصفه صاحب سلك الدرر في تراجم اعيان القرن الثاني عشر فان كل رجل من رجال الطبقة يوصف بأنه علامة المعقول والمنقول والبحر الزاخر في الفروع والاصول الى آخر ماهنالك من الالفاظ المستعملة عند المدح والاطناب فان المطلع لايتمكن من التفرقة بين الفاضل والمفضول والعالم والاعلم من رجال هذه الطبقة لاسيما اذا جاوز الغلو الحد وقذف بزبد الكذب الصراح كقول من يقول لم يسبقه سابق او ماسمح بمثله الزمان وما يشاكل ذلك من التهويل والتضليل اللذين كان فقيدنا ابعد الناس عنهما كما يجلى ذلك من سيرته واليك الاعراب عنها مجردة عن الاغراق والاطراء وحسبنا مايستنتجه القارىء من دلائل عظمة الفقيد من محصل مضمونها فنذكر نعته على قاعدة عصرية والفاظ توافق مزاجه ومشربه قال هو كوكب العلم البازغ استاذنا العلامة الجليل كان عضواً عاملاً في جثمان الهيئة الاجتماعية وكان لموته رنة اسف واسوأ وقع في

قلوب رجال العلم والادب وقادة الافكار وفلاسفة الاجتماع والعمران من المشارقة والمستشرقين ثم قال والمقصد الذي ارمي اليه هو تبيان سيرة فقيدنا مبتدأ بفواضله التي هي اشرف من الفضائل وهي تشتمل على اعماله وآثاره المتضمنة مايأتي وهي بذله جهد المستطاع في انشاء المدارس واصلاحها ابان نضارة شبابه حينما كان مفتشاً على المدارس الاميرية بعد ان تولى التعليم في المدرسة الظاهرية واستثاره دفائن اللغة العربية وعنايته باحياء التاريخ ونبش الآثار سعيه وراء التوفيق بين الدين والعلم والعمران دعوته الى الاخلاق والتربية تنشيطه على انتشار الصحافة ودعوته الى مطالعة الصحف وتصنيفه الكتب النافعة للاحداث والمبتدئين منها في فن الحساب وقصص الانبياء ومعرفة خواص الاجسام في الحكمة الطبيعية ومد الراحة لاخذ المساحة ومنها في العقيدة الاسلامية ومنها رسالة في العروض وله في الالغاز والخطوط القديمة ثم فند اقوال منتقديه من حساده في مصر وغيرها بقولهم ماهذه المؤلفات الصغيرة اين المجلدات واين الشروح والحواشي فرد الباني في كتابه على ان هذه الحواشي التي ينوهون بقدرها مازادت العلم الا اقتصا وتقهقراً الى ماوراء لحيلولتها بين ذهن المتعلم القاصر الفهم وبين قواعد العلم السمحة وانت ترى ان اكثر اسفار المتأخرين وعجامعهم الضخمة خالية من دواعي التأليف واضاعة الوقت بالمؤلفات الفارغة لذلك ترى بعض المؤلفين مثلاً يتناولون كتاباً قد شرحه من سلفهم شروحاً عديدة على اساليب مختلفة فيعدون شرحه بنفس الفاظ الشراح السالفين بدون ادخال اصلاح او تجديد واختراع في الاسلوب فيزيدونها بلة على ذهن الطالب واني أخل المعذرة لامثال هؤلاء لان روح زمانهم اقتضت ذلك ولكل زمان روح جديدة واما اليوم فلا عذر ولا اعتذار انتهى كلامه ولد صاحب الترجمة سنة ١٢٦٨ ومات سنة ١٣٣٨ ودفن بسفح جبل قاسيون .

طه الشهير بالملا العادي المزوري نزيل دمشق ودفن بها وهو اعلم رجل دخل لهذه البلاد في عصره تفرد في جميع العلوم والفنون انتفع به خلق

كثير في دمشق تخرج عن والده الملا يحيى سلطان علماء العراق على الاطلاق خدم كل منهما الطريق النقشبندي الخالدي مات سنة ١٣٠٠

عبد القادر الجزائري الامير الكبير والمجاهد الشهير ابن السيد محي الدين الحسني نزيل دمشق ولد في القيطنة قرية من اعمال جزائر الغرب سنة ١٢٢٢ ونشأ في حجر والده الى ان بلغ الرشد في مدرستها ثم سار الى وهران لاستكمال فنون العلوم وفي سنة ١٢٤٨ جرت بينه وبين دولة فرنسا حروب عظيمة استمرت خمس عشرة سنة وقت توليته امر الجهاد على اهل الجزائر وفي تلك المدة انشأ معامل للاسلحة والادوات الحربية وملابس للجند وظهرت منه شجاعة خارقة للعادة تحدث بها ودونها حملة التاريخ وكان يتقدم الجيش بنفسه ولا يبالي بكثرة العدو واستعداده ثم بينا كان مهتماً بذلك اذ هاجته العساكر المراكشية من خلفه لاسباب يطول شرحها رأى الصواب الجنوح الى السلم ثم فاوض اعيان من كان معه من المجاهدين في ان يستأمن دولة فرنسا لنفسه واهله ومن يتبعه من قومه على ان يحملوه الى سواحل الشام واخذت عليه العهود على ان لا يرجع الى الجزائر واهداه نابليون الثالث سيفاً ورتب له في الشهر مبلغاً باهظاً من المال ثم ركب ومن معه مركباً حربياً وسار الى الاستانة وحصل له الاكرام والاحتفال من خليفة المسلمين السلطان عبد المجيد وانعم عليه بدار في مدينة بروسه وفي سنة ١٢٧١ عزم على مبارحتها لتوالي الزلازل عليها فاختار الهجرة والاقامة بدمشق فاصدر السلطان امره الى حكومة سورية باكرام هذا الضيف والاعتناء به فتلقاه اهلها باحتفال عظيم وانزلته الدولة الاسلامية في احسن دار وآسى بجميع ما يلزم له من الاكرام وفي سنة ١٢٧٣ توجه لزيارة بيت المقدس وبعد رجوعه اقبل على قراءة الكتب الدينية كالبخاري ومسلم وفي سنة ١٢٧٧ وقعت الواقعة المشهورة في ذلك التاريخ بحادثة ستين فبذل الامير جهده في اسعاف المنكوبين وايوائهم كما تقدم بيان ذلك في محله في كتابنا هذا وبحسن تدبيره تيسر انقاذ الكثير من المسيحيين فاهدته الدولة العلية الاسلامية وسائر الدول الغربية علامات الشرف

من الدرجة الاولى وفي سنة ١٢٧٩ قصد البلاد الحجازية واقام بها مدة واجتمع بعلمائها وحصل له هناك فتح عظيم اشار اليه في قصيدته الرائية التي مطلعها :

امسعود جاء السعد والخير واليسر وولت ليالي النحس ليس لها ذكر

وفي سنة ١٢٨١ توجه الى الاستانة لزيارة رئيس الدولة الاسلامية السلطان عبد العزيز والسعي في اسعاف وتخليص من نسبت اليهم الحادثة ومن قصر بواجبه من اعيان دمشق المبعدين تجاه تلك الواقعة المفظيعة المنوه عنها فاجتمع به واهداه الوسام العثماني الاول واسعفه بمطلوبه ثم توجه الى باريز للقصد نفسه فكان له اليد والفضل في المسألة بدءً وعوداً وقد زاده حينئذ نابليون الثالث على مرتبه الفين وخمسمائة ليرا لينفقه بمعرفته على من يلزم من اهل سورية وبوقتها رتب لكثير من المحتاجين والبيوت المنسوبة اليه ولبعض علماء دمشق مرتبات شهرية وفي سنة ١٢٨٦ دعي الى مصر لحضور الاحتفال بافتتاح خليج السويس وفي سنة ١٢٨٨ ارسل بنسخة من الفتوحات المكية مع عالمين من علماء دمشق هما الشيخ محمد الطنطاوي وتلميذه الشيخ محمد الطيب الى قونية لمقابلتها وتصحيحها على نسخة بخط المؤلف الموجودة هناك وبعد تصحيحها قرأها على بعض الخواص من العلماء فحصل للجميع النفع بذلك فبالجملة كان الامام الاوحد والعلم المفرد عالم الامراء وامير العلماء جمع بين السيف والقلم تولع بكتب الصوفية خصوصاً بمؤلفات الشيخ محيي الدين الاندلسي وله اختصاص بمعرفة تاريخ الاسلام وعرف واشتهر بالفصاحة وشدة البأس والفروسة وقد مدحته الشعراء والبلغاء ورثته العلماء وارخته الادباء كانت وفاته في اليوم التاسع عشر من شهر رجب سنة ١٣٠٠ ومن العجائب التاريخية انه ولد صاحب الترجمة في شهر رجب وعوهد على امارة الجزائر ورئاسة العشائر في رجب وسلم بعد حروبه الشهيرة في رجب ومات في رجب وقد تولى غسله وتكفينه ضيفه نزيل دمشق الشيخ عبد الرحمن عليش شيخ علماء الازهر وكان الاحتفال بجنازته ومشهده يوماً مشهوداً عظيماً بدمشق مشى به الامراء والعلماء والاعيان على اختلاف المذاهب والطبقات الى ان اتوا بمدفنه في الصالحية

جانب قبر حبيبه الشيخ محيي الدين ابن العربي وكنت مشيت ذلك اليوم مع والدي ومارأت دمشق يوماً اعظم منه وله مؤلفات وآثار كثيرة ومن اعظمها المواقف كان بودي ذكر اسمائها لولا الاكتفاء بذكرها في اكثر تراجمه المطبوعة من قبل بعض انجاله الكرام فلا حاجة لتكرار ذكرها وقد اعقب انجالاً نجباء امراء عظماء وهم عشرة كرام الامير محمد باشا والامير محيي الدين باشا والامير ابراهيم والامير الهاشمي والامير احمد والامير عبدالله باشا والامير علي باشا والامير عمر والامير عبد الرزاق والامير عبد المالك وما بقي منهم في هـذه الدار الفانية الا الامير عبدالله حفظه الله وقد تركوا لنا ذرية طيبة من شجرة مباركة اصلها ثابت بارك الله بهم لانهم امراء عظماء نجباء اشتهر منهم الامير سعيد بن الامير علي باشا وقد احيا ذكر ابيه وجده الامير عبد القادر بالكرم والاخلاق الحسنة وقد قلدته الاتراك وكالة الحكم المباشر لهذه البلاد بعد تركهم لها بان يدافع اهلها عنها وتكون مستقلة تحكم نفسها بنفسها ولها الحق بان تختار اية دولة تسعفها على نهضتها وذلك قبل دخول الجيش الانكليزي لها ولما دخل الامير فيصل على رأس ذلك الجيش كما اسلفنا لك ذلك مفصلاً اخذ الحكم الموقت من يد الامير سعيد وبهذه البرهة اغتالت يد اثيمة اخاه الامير عبد القادر وابعدته السلطة الانكليزية الى خارج سورية الى ان دخلت الجيوش الافرنسية عندئذ رجع الى دمشق وهو خير خلف لذلك السلف ولولا ضيق المقام لسردنا جميع الوقائع المبرورة التي جاهد بها وقد اكتفينا بما طبع له في هذا الباب من قبل الفاضل حنا ابي راشد مؤسس جامعة لبنان الكبير وبهذه المناسبة وددت ان اذكر خطاب الامير فيصل في دار الحكومة عند استلامه الحكم من الامير سعيد في ١٧ ايار سنة ١٩٢٠ م المدرج في جريدة حرمون عدد ٣٠ قال.

لي الشرف اخواني ان القي على مسامعكم الكريمة في هذا المساء بعض كلمات وهذه الكلمات ستكون تاريخية بالنسبة لحياة الامة العربية لماضيها ومستقبلها واني لارجو منكم العفو والصفح اذا بدرت مني بعض اغلاط اثناء الحديث

وذلك لاني لست من رجال هذه المواقف فارجو منكم ان تنظروا الي بعين السموح فابتدي واقول .

ان اكثر هؤلاء الذوات الذين انا متشرف بمخاطبتهم والمجتمعين هنا من جميع اطراف سوريا قد جاؤا الى بيروت اولا للاقاتي وتحيتي باسم جميع المواطنين وثانياً ليسمعوا مني ما دار في بلاد الغرب اي في مؤتمر السلام عن بلاد العرب عامة وسوريا خاصة . ولا شك ان في نفسي دافعاً يدفعني الى الكلام بهذا الموضوع تطميناً لاهل هذه البلاد على بلادهم ومستقبلهم مع عدم الامكان بالتصريح التام لبعض الموانع السياسية التي نضطر لمراعاتها الى ان يحين الوقت .

وان بعض هؤلاء الذوات لايعلمون ماهي الثورة العربية التي شبت نيرانها بالحجاز وربما كان البعض منهم قبل اليوم يتهمون القائمين بها بالخيانة للامة والوطن والجامعة العثمانية التي كنا من افرادها .

ولكن هذا الفكر مالبث ان زال بعد انكسار المانيا وحلفائها فعلم عندئذ الجميع ان القائمين بهذه الثورة هم رجال واقفون على سير الحركة السياسية في العالم قد قاموا لتخليص جسم من البلاد العثمانية وانقاذه مما سينزل به بعد هذه الحرب من ضروب الويلات فما هذه الثورة الا لحفظ هذه البلاد وتخليصها .

ولا شك بان المسؤولين عن هذه الحركة العربية هم اولاً والدي ثم الحجازيون مادة لانهم اول من بدأوا باضرام هذه الثورة والسوريون معنا فانهم قد شوقوا لهذه الحركة وعلى كل حال فهذه الثورة انما هي شرف للجميع لايمكن ان نخص بها فريقاً دون فريق .

نعم ان والدي قد قام بهذه الثورة حينما رأى الاتراك يسيرون مع الشعب الالماني وذلك لاعتقاده ان مداومة العرب للحرب مع الاتراك والالمان مما يجر عليهم الوبال ويوقع البلاد العربية في الهلاك وهكذا اراد ان ينقذ تلك الامة التي طالما كانت تتمنى انتهاز فرصة كهذه الفرصة لتكسر قيود الذل والاستبداد

قام في هذه الحركة بعد ان اتيت الى سوريا وواجهت بعض الرجال الذين ربما كان بعضهم حاضراً في هذا المجلس من البادية والحاضرة وقد علمت في مجيئي الى دمشق ان الافكار السورية باجمعها متجهة نحو الانسلاخ عن تركيا وكان والدي ينظر الى سوريا نظر اليأس ونحن اهل الحجاز لانعلم ماصنع فان الامة العربية لم تكن متهيئة غير اني لما قدمت دمشق وعدت الى الحجاز اخبرت والدي بما رأيت فقام بما يجب غير ان موقع السوريين جعلهم قادرين على مؤازرة الحجازيين لضغط الاتراك عليهم وما اتوه من الافعال التي سيسطرها التاريخ ويخلد ذكر من قتل ومن استشهد في تلك الاثناء من السوريين باحرف ذهبية . قام والدي ولم يفكر بما سيحل بالحجاز او الحجازيين من الاتراك الى ان يسر الباري سبحانه وتعالى الامور وانجلى الاتراك عن جميع انحاء سوريا .

لاشك انه جرى قبل ذلك بين والدي والحلفاء معاهدات ومواثيق ودارت بينه وبينهم مذاكرات طويلة واتكالاً على الباري عز وجل وعلى هذه العهود وتلك المذاكرات قام بعمله هذا الى ان انتهت الحرب وشرع بالصلح فانتدبني والدي الى باريس .

وقبل هذا عقيب انجلاء الاتراك جعلت سوريا مقسمة الى ثلاث مناطق لتنفيذ الخطط العسكرية المرسومة لكافة البلاد واسست الحكومة العسكرية العربية الموقتة في داخلية سوريا وذهبت بعد ذلك الى باريس حيث اجتمعت الامم لاخذ كل ذي حق حقه ودخلت المؤتمر لبث رغائب الشعب جميعه على قدر اجتهادي .

رأيت هنالك الامم الغربية تجهل حالة العرب وموقفهم الحاضر كل الجهل وتعلمهم من التواريخ وحكايات الف ليلة وليلة ليس الا ولم تكن تلك الامم لتفتكر بموقف العرب في الوقت الحاضر وبالنهضة الفكرية والسياسية التي حصلوا عليها بل جل ماكانوا يعتقدون ان العرب هم عبارة عن عرب البادية ليس الا ولا شك ان جهلهم هذا جعلني اصرف وقتاً طويلاً لتغيير هذه

الافكار غير الصحيحة واقناعهم ان العرب امة واحدة يقطنون بلاداً واحدة حدودها البحور من الشرق والغرب والجنوب وجبال طورس من الشمال .

لاشك ان الحلفاء قاموا لانصاف المغلوب والاخذ بناصر الحق فبعد ان فهموا عن حالة العرب الحاضرة ووقفوا على الاعمال والخدمات التي بذلها العرب في اثناء هذه الحرب اعترفوا لهم بالاستقلال العربي مبدئياً ولما كانوا ليسوا بعارفين الدرجة التي وصل اليها العرب من الرقي السياسي والادبي رأوا ان ينتدبوا هيئة دولية ليقفوا على حقيقة الامر وهي قادمة اليكم قريباً .

كانت مدافعتي عن بلاد العرب على قسمين (١) ان البلاد العربية لاتجزأ وان العرب امة واحدة تريد الاستقلال (٢) بما ان بين سكان البلاد العربية طبقات متفاوتة وبين بلادهم مفاوز وطرق المواصلات بينها ليست بكافية بان تجعلها بالحالة الراهنة امة واحدة تخضع لحكومة واحدة . فدافعت عن ذلك وقلت ان سورية والحجاز والعراق قطعات وكل قطعة منها يريد اهلها الاستقلال وقلت ان توحدوا باقي قطعات بلاد العرب وتكون تابعة الحجاز فقط واما سورية فيجب ان تكون مستقلة وكذلك العراق ولا يجب ان يباع استقلالها بما تحتاج اليه من المعاونة في تشكلها فالامة السورية تريد ان تستقل وان تأخذ ماتريده من المعاونة بثمنه .

دافعت عن سوريا هــذا الدفاع ولا حاجة لذكر غير ذلك وبما ان هــذا المجلس في سوريا وبما ان الموجودين هنا من السوريين اذكر لكم مادافعته عن سوريا فاقول :—

دافعت عن الحدود السورية الطبيعية وقلت ان السوريين يطلبون استقلال بلادهم بمقتضى الحقوق الطبيعية ولا يريدون ان يشاركهم بها مشارك وان العراق يريد استقلاله وما يعمل في سوريا يعمل ايضاً في العراق الذي ستتأسس فيه حكومة لاعلاقة لها بسوريا وسائر البلاد العربية ولكن تعلمون ان البلاد العربية بالنسبة الجغرافية والقومية هي امة واحدة لايمكن ان يفرق بينها

ويجب ان لايكون بين سكك هذه المقاطعات وجماركها ومشروعاتها الاقتصادية وبين علاقاتها الودية ادنى حاجز .

هكذا كانت مدافعتي عن هذه البلاد وكانت الامم تنظر الى مطالبي بعين الارتياح والقبول وان كان قد حصل هنالك بعض النفور فما ذاك لعدم معرفة الامم بمقاصد العرب وخوفاً من وقوع ما لا تحمد عقباه مما كان بينه الاتراك من الشقاق والنفاق ونظراً لاعتقادهم ان ما كان يحصل من الاتراك واقع من العرب كانت المشكلات التي صادفتها نتيجة عدم معرفة الامم الغربية بنا فبعد ان وقفوا على حقيقة الامر وعرفوا ما هي مقاصد السوريين اذعنوا لهم واعطوهم كل ما يطلبونه وها انا بين ايديكم قدمت من مؤتمر السلام لابلغكم ما ابلغتكم وستصلكم الهيئة الدولية قريباً وتخبركم بما اخبرتكم به وهي ستطلب منكم ان تعربوا لها عن ضمائركم لان الامم لا تريد ان تحكم امة اخرى الا برضاها ان ارادت الحرية او العبودية .

انشئت جمعية الامم لمنع الحروب وحسم الاختلافات التي تقع بين الشعوب والعناصر وسيكون للامة العربية مندوب يمثلها في جمعية الامم . وبعد رجوع الهيئة الدولية الى الغرب ستبين مطاليب كل شعب من الشعوب التي كانت خاضعة تحت نير الاتراك فعلى ما تطلبه الامم سيحكم في مصيرها اما استعباد او استقلال وذلك على حسب اقتدارها فالموقف اذا بيدكم وقد تمت الامور الخارجية بتوفيق الله وحسن نية حلفائنا الذين لانفرق احدهم عن الآخر في الصدق وحسن النية والاخلاص لنا . اقول بكل ارتياح انهم قبلوا ماشرته بين ايديهم من الاقوال وبعد هذا فانني سأبتديء بالقول عما يجب علينا القيام به وقبل كل شيء ارجع الى الوراء فاقول :

قام رجال هذه الثورة الى هذه الساعة ولم يستشيروا احداً في ما حصل لان الوقت لم يكن مساعداً لهم على استشارة تامة واليوم قصصت عليكم ماحصل في السابق واريد من الحضور وان كانوا ليسوا وكلاء عن بلادهم بصورة قانونية ولكن موقعهم ومكانتهم الادبية تجعلهم يمثلون بلادهم تمثيلاً معنوياً

اريد ان اسألهم : احسن ماقمنا به من الاعمال ام لا ؟؟ (... حسن تصفيق حاد ...) .

وهل هو موافق لرغائب الامة ام لا ؟؟ (الجمهور – موافق حسن تصفيق حاد ..)

وهل هذه الاعمال هي مقرونة برضاء الامة ام لا ؟ (هتاف شديد كل الرضاء كل الرضاء) .

هذه هي اعمالنا في السابق ولكن بعد اليوم يلزم لنا نحن رجال الثورة او رجال الحكومة – قولوا ماشئتم – بما ان الوقت قد ساعد واجتمع هؤلاء الذوات لايمكنني الا اراجعهم قبل ان اطلع على افكارهم الخصوصية اريد منهم ان يخبروني هل نداوم على عملنا هذا ام لا ؟ (هتاف شديد – تصفيق حاد – نداوم . نداوم . نداوم .) وهل الامة معتمدة على من هو قائم بامرها ام لا ؟؟ (هتاف جديد – كل الاعتماد) .

ارجوكم الاصغاء لبعض كلمات تجول في خاطري .

وهل الامة تسمح لي بان ادير الحركة السياسية الداخلية والخارجية بعد اليوم ام لا ؟؟ (نعم ... نعم تصفيق حاد قوطع بالهتاف الشديد وقول الجمع فليحي اميرنا فيصل تكراراً او يتكلم بعض الحضور باختصار) ثم عاد الى الكلام فقال :

انني اشكر هؤلاء الذوات لحسن ثقتهم بي ونظرهم الي بعين الارتياح غير انني الفت نظرهم الى هذه المسألة :

لاشك ان الوكيل الذي يدافع عن موكله لايمكنه المدافعة عن حقوقه الا اذا اثبت وكالته بوثائق تمكنه من المدافعة امام الحكام والسياسيون ايضاً لايتمكنون من القيام باعمالهم الا اذا كانوا حاصلين على الشروط القانونية التي تمكنهم من العمل فالهيئة الحاضرة تسأل الامة هذا السؤال واريد الجواب عليه وهو :

« هل الامة تؤيد كل اعمالي في الداخل والخارج قولاً وفعلاً وهل

تساعدني باعطاء كل ماطلبه بدون شرط ولا قيام ؟؟ — الجمهور نعم..نعم... لك الامر .

هذا الذي اريد ولا شك هذه هي النقطة الاساسية التي تكون سنداً للشخص او للهيئة التي تدير الشؤون السياسية الى حين انعقاد المؤتمر السوري الذي سيلتئم قريباً . ولكي اعمل في هذه المدة لزمني الاعتماد فطلبته منكم واعطيتموني اياه وسأعمل فارجو من الله التوفيق لمافيه خيرنا وفلاحنا انتهى كلامه .

وبمناسبة دفن الامير عبد القادر في جوار ابن العربي قال بعض الفضلاء :

ذو الدار والضيف سراجا هدى فنعم رب الدار والضيف

وله قدم راسخة في الشعر جمع في ديوانه نزهة الخاطر ومن كلامه ماقاله وكتبه على رسمه الشمسي :

لان كان هذا الرسم يعطيك ظاهري فليس يريك الرسم صورتنا العظمى
فثم وراء الرسم شخص محجب له همة تعلو لاخمصها النجما
وما المرء بالوجه الصبيح افتخاره ولكنه بالعقل والخلق الاسما
فان جمعت للمرء هذى وهـذه فتلك التي لايبتغي بعدها نعما

وبهذه المناسبة اذكر ماقاله الشاعر على رسم احد الامراء والملوك :

ترون وراء الرسم نفساً ابية وهمة مقدام بها يرتقي النجما
ولي وطن سام واكرام امة بذلت على علياها الروح والجسما

عبد الله بن مصطفى الحموي الاصل ثم الدمشقي الشافعي ولدونشأ بها وجد في حفظ القرآن وترتيله واتقن علم التجويد والقرآآت العشر على الشيخ احمد الحلواني شيخ القراء بدمشق كان تقياً فاضلا ورعاً كريم الاخلاق برع في القرآآت حتى صار شيخ القراء لطيف المعاشرة محبوباً عند العلماء والامراء يكره التكلم في اعراض الناس وتجنب في مجلسه الغيبة يشتغل في التجارة قرأ عليه كثير من حملة القرآن مات سنه ١٣٢٩ وقد كتب اليه الشيخ عبد السلام الشطي احد علماء دمشق حين كان في الاستانة ابياتاً مضمناً بها مدحه قال :

شوقي تكاثر للحموي والبلدي   وازداد للزيني والحلواني في بلدي
من نحو عامين اني ما نظرت لهم   واني راغب فيهم الى الابد
هم نور عيني فارجو الله يجمعني   بهم قريباً مع الاحباب في رغد

عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني الشافعي ولد بدمشق سنة ١٢٦٣ ونشأ في حجر والده وجده قرأ عليه النحو والفقه والتفسير ومصطلح الحديث والفتوحات المكية والجامع الصغير واعطاه الطريق النقشبندي الخالدي واخذ أكثر العلوم النقلية والعقلية عن شيخ والده محمد الطنطاوي وسمع منه في حضور الامير عبد القادر الجزائري أكثر الفتوحات كما انه سمع من الامير المذكور اكثر صحيح البخاري في دار الحديث بدمشق واخذ عن ابيه ايضاً بعض العلوم وعن غيره علم الادب واللغة والعروض فصار فريد الادباء وبيت قصيد الادباء وقرت به من العلماء العيون واقرت له بالتفنن في احسن الفنون له في فن الادب اليد الطولى وله ديوان شعر لطيف وله الحدائق الوردية ومن قصائده الحماسية قوله :

توهم اهل الجهل ادراك شأونا   ومن نال هذا الفضل تسمو مراتبه
وهب انهم قد امطروا منه قطرة   فمن بعد ما انهلت علينا سحائبه

ومن ذلك ما انشده عند دخوله الى بيروت مقرظاً جرائدها السبع سنة ١٣١٠ فقال :

ثمرات مقتطف الجنان بشيرها   بلسان مصباح التقدم قائل
ظل المعارف وارف في روض بيـ   ـروت وحزب الفضل فيه قائل

ومما يحكى انه كان يوماً في مجلس الشيخ الكاملي البصير المغربي الشهير نزيل دمشق وضيف الامير عبد القادر الجزائري وكان ممن ضمهم ذلك المجلس الشيخ طاهر المغربي والشاعر البليغ سليم بك شهاب فاحب الكاملي ملاطفة اهل المجلس ومؤانستهم فانشد مخاطباً الشيخ طاهر بقوله :

مذهبي تقبيل خد مذهبي   ماترى يا طاهر في مذهبي

وبالحال قال سليم بك لصاحب الترجمة ادرك ادباء دمشق فاجابه على البداهة:

ابن هذا مذهب مستعذب ‎ ‎ لم يذقه غير اهل الادب

وكان قد انشد في المجلس نفسه سليم بك المذكور هذين البيتين :

لو كان لي كالعاشقين عواذل ‎ ‎ لسعيت في تشتيتهم وتوصلي

لكن محبوبي تعشق نفسه ‎ ‎ فغدا العذول فما يكون تحيلي

وقال اني قد نظمت هذين البيتين اللذين يعسر نظم مثلهما على افحل الشعراء فما كان من الشيخ الكاملي الا ان بادهه بقوله انهما مأخوذان من جملة قصيدة قديمة وانشدها على البداهة مدمجاً اياهما في صلبها مما يدل على اقتدار الكاملي في نظم الشعر والابداع فيه فاقسم الشهابي انه اوردهما ابتكاراً وانفعل على أثر ذلك انفعالا ادى به الى ان خرج من المجلس وهو مريض مرضاً قضى على حياته ضحية الادب والمناظرة وله تشطير لطيف بهما ذكره في ديوانه ويحكى ايضاً ان صاحب الترجمة زار مرة حماه فهرعت اليه فضلاؤها الا قسماً من أكابر الاعيان فانشدهم بقوله :

بحمد الله قد زرنا حماة ‎ ‎ وزرنا زور عاصيها النزيها

وحيينا باهل الفضل منها ‎ ‎ وجنبنا اكابر مجرميها

وقد تقدم ترجمة جده في القرن السابق وسيأتي ذكر والده في حرف الميم مات المترجم سنة ١٣١٨ .

عبد القادر ابن عبدالله ابن حسن الشهير كأسلافه بالاسطواني الدمشقي الحنفي الشيخ العالم البارع الجامع بين المنقول والمعقول ولد سنة ١٢٤٩ ونشأ بحجر والده واشتغل بطلب العلم على مشايخ كثيرين واخذ الاجازة منهم ولازم القراءة والاقراء الى ان صار في صفوف العلماء فبرع في العربية والادب وفي الفقه واصوله والحديث ومصطلحه والحساب وكان يدرس في الفقه بين العشائين في الجامع الاموي وكان له الاطلاع التام على الطب القديم والهيئة واحكام النجوم وعلم الاوقاف وكان صالحاً كريم الاخلاق على أثر السلف

ذا هيئة حسنة لطيف المعاشرة ميالا الى الانفراد بعيداً عن الرتب والمناصب ملازماً للمساجد مثابراً على القاء الدروس وقد قصد الحجاز سنة ١٢٩٩ واجتمع بعلماء الحرمين منهم الشيخ رحمة الله الهندي والشيخ زيني دحلان مفتي مكة وغيرهما وكان محل الاعزاز والاحترام عند الجميع مات في خامس شوال سنة ١٣١٤ هو والد العلامة الشيخ عبد المحسن افندي احد جهابذة رجال العلم والادب في هذا العصر وهو مشطر البيتين اللذين اقترح عليه تشطيرهما امام السادة الشافعية في الحرم المدني الشيخ محمد افندي جمال الدين :

مدينة خير الخلق تحلو لناظري بمجلا جمال اخجل البدر والزرقا
بذلت لها روحي بنفحة روحها فلست ابالي ان اموت بها عشقا
يقولون في زرق العيون شآمة وليس الذي قالوه حقاً ولا صدقا
فزرقتها حرز منيع لعائن وعندي ان اليمن في عينها الزرقا

عمر بن طه بن الشهاب احمد الشهير بالعطار الشافعي الدمشقي قرأ المختصر والمطول وجمع الجوامع على الملا ابي بكر الكردي ورحل الى مصر اربع مرات واخذ عن علمائها منهم العلامة المبلط والشيخ الباجوري وغيرهما وكان محل الاعزاز والاكرام عندهم وقد تفرد في علم النحو والمنطق وبرع في الحديث ومصطلحه والفقه واصوله حتى اشتهر فضله بين الانام وعم نفعه عند الخاص والعام وكان يصدع بالحق له مؤلفات كثيرة شهيرة منها شرح فصوص الحكم وشرح الصلوات الكبرى للشيخ الاكبر وشرح الاظهار في النحو وشرح الايساغوجي في المنطق وله رد على السعد والملا على القاري انتصاراً للشيخ الاكبر محيي الدين بن العربي الاندلسي وله رسالة نفيسة في المنطق في الموجهات وله رسائل شتى بعلوم كثيرة لم نقف عليها مات سنه ١٣٠٧ وقد اعقب ولداً عالماً فاضلاً برع في النحو والمنطق اسمه الشيخ احمد عمر اشتهر فضله وكان خير خلف مات سنه ١٣٤٣

عبد الحكيم الافغاني القندهاري نزيل دمشق الشيخ الامام العلامة

التحرير المحقق المدقق الشهير اشتهر فضله وعم نفعه بين الانام واعتقده الخاص والعام كان بحراً زاخراً في المنقول والمعقول والفروع والاصول قدوة حسنة في الصلاح والتقوى والورع والزهد والتقشف برع في الفقه واصوله وادلته وفي مصطلح الحديث وتخريجه يميل طبعه الى التخشن من جهة المأكل والملبس والمسكن لايقبل الطعام من احد واذا وجد بين اقوام لا يأكل الا من الطعام الذي يلبسه كانت تقصده الحكام والامراء وهو لا يذهب اليهم ولشدة ورعه كان اذا بلغ بلدة من بلاد الشام واتتاب مدينة منها اشتغل مع العملة باجرة زهيدة تكفيه قوت يومه ومتى اشتهر امره انه من العلماء يفر من تلك المدينة لغيرها حتى قدم دمشق وهو في سن الكهولة واقام بها في في مدرسة دار الحديث الاشرفية زهاء عشرين سنة او اكثر يقرأ الدروس الخاصة لطلاب العلوم وانتفع منه خلق كثير وكان اكثر التجار يأتونه بزكاة اموالهم فان كان محتاجاً اليها اخذها وان كان غير محتاج لها يستأذن صاحبها بتوزيعها لمستحقيها يكره دعوة الولائم والاجتماع بالناس ويحب الانزواء وعدم المخالطة بأحد وله مؤلفات شهيرة وآثار كثيرة منها شرح الكنز مجلدين مطبوع وله حواشي وتعليقات على الهداية وعلى حاشية بن عابدين والمنار وله حاشية على شرح البخاري وعلى تفسير النسفي وحاشية على النخبة وله شرح وتعليقات على الشاطبية وكتب مصحفاً فرغ منه عند وفاته وقد اوصى في جميع كتبه وماله اليسير الى رجل فقير كان يخدمه وقال الرجل الذي ليس له ورثة له الحق ان يوصي بجميع ماله وكان احد اساتذتي الكرام جزاه الله عني خير الجزاء مات سنة ١٣٣٦ احتفل جميع اهل دمشق بجنازته ودفن بباب الصغير بجوار العلائي وابن عابدين .

عبد المحسن بن صالح الشهير كأسلافه بالمرادي وقد تقدم ذكر رجال هذه الاسرة الكريمة وقدمها وماقاله في حق رجالها مؤرخي دمشق كان خاتمة علمائها في هذا العهد عالماً فقيها متواضعاً مباركاً كريم الاخلاق حسن السيرة والسريرة يحب وعظ العوام ومجالسة الفقراء ويكره مخالطة الامراء

والحكام تقلد امانة الفتوى في عهد محمد افندي المنيني مفتي دمشق وكان يدرس بين العشائين في محراب الحنفي في جامع الاموي برع في علم الفلك والزايرجة وبعض من العلوم العصرية عمر داراً في رأس جبل المهاجرين في الصالحية قرأت عليه في بداية الطلب طرفاً من النحو والفقه مات سنة ١٣٣٢ وقد باعت ورثته جميع مكتبته النفيسة بيعاً مجملاً الى ادار الكتب العامة في الملك الظاهر وياحبذا لو مشى على هذه الحالة كثير من بيوت العلم لاستفادت وافادت واكتسب المورث لهذه الكتب الذكر الدائم والثناء الجميل وحفظت الكتب القديمة من الضياع والشتات وبقيت في البلاد لحتاج اهلها لمطالعتها والله من وراء القصد .

عيسى بن شمس الدين الكردي الديار بكرلي الشهير بالملا الدمشقي موطناً النقشبندي الخالدي طريقة الشيخ المعمر بركة السلف وقرة عيني الخلف محقق مذهب الشافعية والخليفة الاكبر والمرشد الاشهر للطريقة النقشبندية الخالدية برع في المنقول والمعقول والفروع والاصول اشتهر فضله وعم نفعه ولازمه كثير من مريديه يصدع بالحق يميل الى الانزواء والبعد عن الامراء معتقداً ومحترماً عند الشعب عاش قريب المئة وكنت احد تلامذته ومريديه واجازني بخط يده بجموز له روايته وهو مجاز عن شيخه الشيخ يحيى المزوري وعن مفتي العمادي من بلاد السليمانيه وله رسالة بمنع صلاة الظهر يوم الجمعة عند الشافعية وهي مطبوعة وغيرها من الآثار مات سنة ١٣٣٢ .

عبد الوهاب بن ارسلان الشهير بالشركة الشافعي ولد بدمشق واصلهم من التيت نشأ في حب طلب العلم ثم ذهب الى مصر وقرأ على فحول علماء الازهر وبقي مدة طويلة بها ثم اتى دمشق واخذ عن علمائها حتى برع في علم اللسان والكلام والمنطق وتفرد في الفقه والاصول والفرائض وتصدر للتدريس ونفع الناس في الجامع الاموي بين العشائين يميل الى التواضع والموآنسة مات سنة ١٣٣٣ وترك ذرية نجيبة ارشدهم محمد اديب افندي وهو من ذوي الاخلاق الحسنة .

علاء الدين بن السيد محمد امين بن عابدين صاحب الحاشية الشهيرة نشأ في حجر والده واخذ عنه وعن علماء دمشق وقد اجازه اجازة عامة بالعلوم الشرعية والفروع بعد ان قرأ النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان والدر المختار مع حاشية والده والحديث والتفسير واخذ الطريقة الخلوتية عن العارف الشيخ محمد المهدي كان فقيهاً كثير الفوائد حسن المحاضرة لذيذ المفاكهة مكرماً لجليسه مؤنساً له بكياسة وحشمة مهاباً عند الناس كريم الاخلاق رقيق الجانب جمع بين الفضيلة والوجاهة تقلد امانة الفتوى في زمن امين افندي الجندي مفتي دمشق ثم رحل الى الاستانة ودخل في جمعية تأليف المجلة ثم طلب منه ان يتمم حاشية والده حين رجوعه الى دمشق ثم صار امين الفتوى عند المفتي الحمزاوي وبعدها تقلد النيابة الشرعية في محكمة الباب ثم اشتغل بتأليف التكملة وساعده في الكتابة ابن عمه السيد ابو الخير عابدين وسماها قرة عيون الاخيار بتكملة رد المحتار على الدر المختار وطبعت في الاستانة على نفقة الحكومة واقبل الناس على مطالعتها ثم تكرر طبعها في مصر وعم نفعها وتداولها العلماء وله شرح على نور الايضاح وله الهدية العلائية ورسالة في العقيدة الاسلامية وغير ذلك يميل مشربه الى كلام القوم ومسلك الصوفية واحسنت اليه الدولة العثمانية برتبة قضاء الحرمين الشريفين وتولى قضاء مدينة طرابلس الشام مات عقيماً سنة ١٣٠٦ ودفن ملاصقاً لقبر والده وكانت ولادته سنة ١٢٤٤ وقبل وفاته بسنة حضرت عليه كتاب نور الايضاح مع جماعة من الطلبة .

عبد القادر بن محمد شفيع خان الداغستاني الشهير بسلطان الحنفي ولد بدمشق ونشأ في حب ملازمة العلماء ومجالستهم والاخذ عنهم ثم صار اماماً وخطيباً في جامع السليمانية واعاد درس الحديث تحت قبة النسر الى الشيخ عبدالله الحلبي وكان رئيس المؤذنين وشيخ الموقتين في الجامع الاموي وسميت جماعة المؤذنين الى اليوم بنوبة سلطان وهي احدى الجماعات الثلاث هاجر

جده المذكور الى دمشق برع في علم الفلك يميل الى مخالطة الناس ومعاشرتهم مات سنة ١٣٠٦ وهو جد الشيخ سليم الموجود اليوم في هذه الوظيفة.

عبد القادر بن احمد المؤيد بن نصوح باشا الشهير بالعظم الدمشقي ولد سنة ١٢٦٤ نشأ في حجر والده وقرأ في المدارس الاهلية العالية حتى نبغ في الآداب العربية ثم لازم العلامة الشيخ عبدالله السكري والملا ابا بكر الكردي وقد برع في كثير من العلوم العصرية الحديثة حتى صار له في العلوم الغربية والرياضيات كال الاطلاع والاتقان وله رحلات الى بلاد اوربا وكتابات كثيرة تاريخية عصرية لم يظهر للطبع منها شيء وله باع طويل في فن الزراعة بانواعها كان له وقوف تام على المناظرات الادبية والخطب النثرية والحالة الاجتماعية يميل الى الفلسفة والى تأييد الفكر من جهة اظهار الحقائق وله حجج دامغة واقوال لطيفة ماتعة في الشؤون الكونية والادارية جمع بين الوجاهة والسياسة ديمقراطي المشرب مات سنة ١٣٢٨ تقلد رآسة البلدية بدمشق في زمن الحكومة العثمانية وصار عضواً في مجلس الادارة وبعد ذهاب الاتراك عين عضواً في مجلس الشورى التأسيسي بدمشق وقد ترك اولاداً ادباء نجباء وهم تقي بك وهو اكبرهم من اهل الوجاهة والسيرة الحسنة يشتغل بالفلاحة وهو والد نزيه بك المجاهد في استقلال البلاد والطبيب ياسر بك والثاني ذو النون بك الذي يشغل الآن منصب مدير الرسومات السنة في دور الاتراك وبعد ذهابها وهو مشهود له بحسن الادارة والاخلاق الحسنة والدكتور منذر بك هو من رجال الطب الماهرين بدمشق صائب بك وكان يقول :

ما كل من طلب المعالي نافذاً   فيها ولا كل الرجال فحولا

عبد القادر بن سعيد الحمصي موطنا الدمشقي مسكنا الشيخ البصير الحافظ يقرأ في المآتم كان فاضلاً اديباً له فطانة في اللمس وذكاء زائد غريب واحساس عجيب صنف مولداً ابتكاراً من ذهنه الثاقب يبهر به العقول باساليبه وادهش الالباب بالفاظه ومعانيه نحا به مذهب التصوف اوله (الحمد لله الذي اظهر من باطن خفاء عماء ليل هويته الاحدية) حفظه كثير من الناس يقرؤنه في

كل آن اشتهر هذا المولد بين اهل دمشق واستحبوه على غيره طبعه مؤلفه قبل موته ببضع سنين سنة ١٣١٤ .

عبد الباقي بن محمد السعيد بن السيد محيي الدين الجزائري الحسني تقدم ذكر والده في القرن السابق وهو ابن اخي الامير عبد القادر الجزائري هاجر مع والده من عنابه بلدة من بلاد الغرب اتى به والده لدمشق خوفاً عليه من الفساد حين ذهبت بلادهم فاراً بدينه وترك الاموال والحبوب ولد صاحب الترجمة سنة ١٢٦٧ ونشأ في حب طلب العلم وملازمة العلماء ومجالستهم وحضر على الامير عبد القادر وقرأ على الشيخ محمد الطنطاوي وغيره من علماء دمشق كان فاضلا فقيهاً في مذهب المالكية دمث الاخلاق لطيف المعاشرة حسن السيرة والسريرة جمع كثيراً من الكتب النفيسة يحب مطالعة الصحف والتاريخ نشر الطريق واقام الذكر في جامع الخضيرية مات سنة ١٣٣٥ وقد اعقب ولدين نجيبين حسن افندي من مهندسي النافعة بدمشق وعبد الحميد افندي من موظفي دار الكتب بها .

عارف بن الشيخ احمد بن سعيد الشهير كأسلافه بالمنير الدمشقي الشافعي تقدم ذكر والده مع رجال اسرته في المحبي والمرادي اثبتناها في كتابنا قرأ العلوم العربية على والده وعمه الشيخ محمد وكان اكثر انتفاعه منهما قرأ تشريح الافلاك ورسالة في الدرج والدقائق واللمعة في حل الكواكب السبعة على الشيخ محمد الطنطاوي صاحب الباع الطويل في علم الهيئة السماوية واجازه السيد احمد دحلان مفتي مكة والشيخ عبد الغني الدهلوي الحنفي محدث الديار الحجازية ونزيل المدينة والشيخ عبد الحميد الداغستاني الشافعي صاحب الحاشية على تحفة المحتاج شرح المنهاج لابن حجر وذلك سنة ٢٩٤ عند ماحج وزار المدينة واجازه ايضاً مفتي خليل الرحمن التميمي الحنفي حين زار القدس والخليل سنة ٩٧ واجازه مفتي الشافعية بها اسعد عشيقين الشهير وبعد وفاة اخيه وجهت اليه امامة الشافعية مع تدريس الشفاء في جامع دمشق ورحل الى الاستانة وقدم مؤلفاً نفيساً بواسطة احد اعيان جبل لبنان الى السلطان عبد الحميد سماه السعادة السامية الابدية في السكة الحجازية الحديدية فاحسن

اليه برتبة الحرمين من الرتب العلية ثم عاد الى وطنه ولازم المدرسة الاخنائية لاقراء الطلبة والتأليف وله مؤلفات كثيرة منها شرح عوامل البركوي وقواصل الفضائل ونظم العوامل المذكورة وحاشية على شرحها ومتن في النحو وآخر في المنطق ورسالة في افضلية الرسول الاعظم بنص القرآن وكتاب سماه نشر الطي في حديث حب الي وكتاب سماه التدقيق في الرد على رسالة التحقيق في بيع الرقيق لمحمد بيرم الخامس والحصون المنيعة في ام المؤمنين عائشة الصديقة باتفاق اهل السنة والشيعة ونظم المعراج سماه حسن الابتهاج ورسالة في الرد على منكري المعراج واثبات كونه بالجسم والروح سماه بغية المحتاج وكتاب في مسح الرجلين في الوضوء وعدم الاكتفاء بمسحها ورسالة في الدراهم والدنانير وكتاب سماه بتبرئة المؤمنين من ذم المنافقين علماء المسلمين وسوابغ النعم في لامية افضل رسول واكرم وكتاب هدي اهل الايمان في جمع الخلفاء رد فيه على مفتي الشام الشيخ ابو الخير عابدين في رسالته في حكمة التكرير في القرآن عن الشعبي من ان علياً عليه السلام لم يحفظ القرآن عن ظهر قلب وله كتاب رد فيه على جودت باشا ناظر العدلية في تأليف القرآن وله تعليقات على تفسير محمد بن مرتضى المدعو بمحسن من غلاة الشيعة الامامية زعم فيه مؤلفه ان جامعي القرآن من الصحابة ايام سيدنا عثمان حذفوا منه ما كان نازلاً في حق اهل البيت وهو ثلث القرآن وان القرآن جميعه كان مكتوباً عند سيدنا علي وانهم حين جمعهم طلبوه منه فلم يقبل ان يعطيهم اياه ومنعهم من الاطلاع وان هذا القرآن اخذه من بعده الحسين وهكذا حتى وصل الى الامام الثاني عشر من اولاده وهو محمد بن الحسن العسكري ودخل به الى السرداب في سامرا العراق وهذا هو المنتظر عندهم واذا عاد من السرداب اعاد معه القرآن وله رسالة في الرد على غلام احمد قاديان الهندي الذي ادعى انه المسيح نزل من السماء (اقول قد اتى ولده بشير الدين الى دمشق يوم الجمعة سابع محرم سنة ١٣٤٣ واخذ ينشر مذهب ابيه وانه خليفة ذاك المسيح والمهدي فذهب اليه احد العلماء السيد محسن

الامين الحسيني العاملي نزيل دمشق ومفتي الشيعة بها وحصلت بينهما المناظرة ورد عليه برسالة نفيسة طبعت على نفقة مطبعة ومكتبة الرشاد دحض بها مؤلفها اقوال ذالك المسيح والمهدي ورد خزعبلاته ومفترياته بالبرهان القاطع والقول الساطع وقد ذكر في آخر الرسالة قوله ومن ادلتهم على ان المهدي المسيح قوله تعالى (ولو تقول علينا بعض الاقاويل الآية) دلت على ان من يتقول على الله يهلكه الله ولا يتم له مراده وهـذا لم يحصل له ذلك فقلت له المذاهب الباطلة في الدنيا كثيرة وكلها تقول على الله وتقدمت ولم يهلك اصحابها قال هذا خاص بمدعي النبوة فقلت لا تخصيص بل يعم كل متقول . ومما استدلوا به ايضاً ما رواه ابن ماجة لامهدي الا عيسى فيـدل على ان عيسى والمهدي واحد وهو والده احمد القادياني وانه يوحى اليه فقلت له ان صحت الرواية دلت على عدم وجود المهدي لا على اتحاده مع عيسى ولا انه والده ثم قال مؤلف الرسالة له ولجماعته الذين اتوا معه ان المهدي اذا ظهر يملأ الارض قسطاً وعدلاً وانتم تقولون ظهر مهديكم على رأس مائة سنة لاصلاح الاسلام ونحن نرى انه من يوم ظهوره للآن قد تأخر الاسلام ولم يتقدم وكثر ترك العمل باحكامه ولم يقل قالوا قد اهتدينا نحن في بلادنا بهذا المهدي وصلحت حالنا قلنا فهل المهدي المسيح على زعمكم مبعوث اليكم خاصة او انتم عبـارة عن المسلمين او عن العالم كله فبهت الذي كفر ويا حبذا لو طبعت رسالة الرد لصاحب الترجمة لان بها من الحجج والبرهان والدلائل العقلية والنقلية ببطلان دعاية هذا المذهب الجديد والمترجم كتاب عظيم ايضاً رد فيه على القائل بان لطيق الصوم ان يفدي مع عدم المبيح والمانع وله رد على احد المعاصرين القائل باشتراط الاشهاد على الطلاق ليصح وان لم يشهد لم يصح وهذا القائل كان يزعم انه من اهل السنة والجماعة وانه مقلد للامام الشافعي وكتاب للرد على فتواه ايضاً انه يجوز للقاضي الحكم بثبوت رمضان بالاخبـار بالتلغراف وله رسالة في الرد على متفاوي الوهابية بانه لا يكفر تارك الصلاة عمداً كسلا لاجحداً ولا مؤخرها عن اول وقتها ولا من يستغيث بالله بالنبي عليه الصلاة والسلام

او غيره من الانبياء والصالحين اذ لم يجعلهم آلهة يميتون ويحيون وله رسالة جمع فيها الاقوال التي قيلت في تفسير الشجرة في الجنة التي نهى الله تعالى عن الاكل منها لحكمة ارادها وله رسالة بانه يجوز للقاضي ان يمنع المسلمين من تكليم ومخالطة المدمن على اقتراف الكبائر ومن السلام عليه ومن رده عليه اذا ابتدأ به وانه اذا منع من ذلك وحكم به تحرم مخالفته الى غير ذلك من الرسائل والكتب المفيدة التي لم نقف عليها وله وظيفة مشيخة حرم الجامع الاموي وبالجملة فان هذه الآثار تدل على علو مكانته في العلوم وتضلعه في المنطوق والمفهوم له اليد الطولى في فن المناظرة وفي سائر الفنون وقد وقف سداً منيعاً في آخر عمره لرد شبه الفرق الضالة مات سنة ١٣٤٢ وقد اعقب ولداً اديباً اسمه محمد يحيى افندي بارك الله به .

عبدالله بن درويش الركابي الشهير بالسكري الدمشقي الحنفي ولد سنة ١٢٢٧ الشيخ الورع المعمر بركة السلف والخلف شيخ مشايخ هذا العصر الفقيه الشهير المعبر عنه بابي حنيفة الصغير صاحب التآليف العديدة والتصانيف المفيدة في اكثر العلوم من منطوق ومفهوم وتآليفه تزيد على الثلاثين مؤلفاً من اعظمها شرحه على صحيح الامام البخاري الذي قرأه درساً بين العشائين اداء لما وظف به في مسجد بني امية تحت قبة النسر ولم نقف على اسماء باقي مؤلفاته وقد بلغ من العمر مائة سنة وزاد عليها سنة واحدة وادرك الطبقة الاولى من الشيوخ الاعلام وقرأ عليهم واخذ عنهم مروياته واجازوه بها وقد قال في ثبته تحدثاً بنعمة الله تعالى علي قد اتصل سندنا في الحديث والتفسير والفقه والتوحيد وآلاتها الجمة وكذا كتب القوم والرقائق والاوراد الواردة من اهل العرفان والحقائق والمسلسلات الشريفة بالاسانيد اللطيفة بجملة من الائمة الاعلام والجهابذة الفخام يضيق نشرهم ويطول ذكرهم واسانيدهم في غاية العلو والاشتهار وهم يزيدون على الثلاثين من مدنيين ومكيين ومصريين وشاميين وواردين فبعضهم اجازني بالكتابة من بلادهم وبعضهم اجازة من افواههم وبعضهم قراءة فقط انتهى كلامه كان يغلب عليه الورع والسوداء ويجهر بقول الحق

ولو على نفسه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر انتفع به خلق كثير وتخرج عليه رهط من علماء دمشق حضرت عليه احد دروس الفقه اشتهر بالسكري لانه لازم اخواله بني السكري في القنوات الذين تقدم ذكر بعض رجالهم مات عقيما سنة ١٣٢٩ دفن بباب الصغير بمشهد عظيم .

عمر بن محمد السبيعي الصالحي ثم الدمشقي الصوفي الوفي الفقيه الشافعي نشأ في التجارة ثم لازم العلامة محي الدين العاني وقرأ وجد في طلب العلم وملازمة اهله كان فقيهاً مباركاً ورعاً تعتقده الناس جهل علينا موضع ارومته الاصلية ومن اي وقت قدمت لدمشق هذه الاسرة ، مات سنة ١٣٠٤ ، وقد رثاه الفاضل محمود الموقع من علماء دمشق في ديوانه بقوله :

اسفي على شيخ الصلاح المعتبر في شامنا ذو العلم والعمل الابر
هو بالسبيعي قد سما اكرم به اذ نفعه للمسلمين قد اشتهر

عبد الرزاق بن حسن بن ابراهيم الشهير بالبيطار احد مؤرخي دمشق الاعلام الشيخ العلامة النحرير والمؤرخ الكبير نشأ في حجر والده في حي الميدان واخذ عن علماء دمشق وجد واجتهد حتى اشتهر فضله في الفنون والادب يأخذ في قوة الحديث وسند اتصاله ويميل للاجتهاد بالعمل به وهو المجدد لمذهب السلف وناشر لواء العقيدة الاثرية للخلف شيخ الشيوخ وكعبة التحقيق والتدقيق برع في سائر العلوم واللغة والادب افرد له العالم الشيخ سعيد الباني في كتابه احكام التصوير ترجمة عاليه ذكر له ماوقع فيه في زمن الاتراك بسبب نشره دعوة الاجتهاد كان مقبولا لدى الناس لما كان عليه من لين العريكة وسهولة الاخلاق رقيق الجانب تفرد في ايراد النكت والنوادر واستحضار اللطائف والامثال والشوارد نبغ في فن الانغام واصوله وفروعه ذو صوت شجي رقيق مع طلاوة في الوضع والايقاع انيساً لطيفاً يميل الى جمال الطبيعة وحسنها ويترنم باميال الاغصان ويهوى انسها كان حسنة من حسنات الدهر ونادرة من نوادر العصر فاق اقرانه بالحكم والبلاغة له آثار كثيرة وتاريخ عظيم في تراجم رجال دمشق من القرن الثالث عشر

الا انه بقي كالمعدوم لعدم طبعه وانتشاره كان صاحب الترجمة يلقي الدروس والوعظ في جامع الدقاق في الميدان وفي داره التي هي قريبة منه مات سنة ١٣٢١

عارف بن محمد الشهير بالجابي الدمشقي نشأ في حجر والده المتقدم الذكر وحضر ولازم بعض علماء دمشق حتى نبغ في الفضيلة والمعارف وسلك مسلك الموالي من رجال العلمية وتولى عضوية التدقيقات الشرعية ثم تولى القضاء الشرعي في طرابلس الغرب وغيرها من الولايات كان تمثال الفضل والفضيلة برع في اللغة العربية والتركية واحسن اليه من قبل الدولة العثمانية برتبة قضاء الحرمين الشريفين من الرتب العلمية ولما رجع الى دمشق صار صدر اعيانها واحد رجالها خطبته العلياء ونفذ امره عند الامراء وعلا قدره لدى العلماء تقصده الناس لانه كان يحب قضاء حوائجهم يتردد الى مجلسه جماعة من اهل الفضل والمفكرين مات سنة ١٣٠٤ وقد اعقب ذرية نابغة كريمة الاكبر منها هو عثمان افندي كان فاضلاً وجيهاً يحسن الخط بانواعه سلك مسلك ابيه فكان خير خلف لذاك السلف تولى مديرية الايتام في المحكمة الشرعية بدمشق مدة طويلة مات سنة ١٣٢١ وترك ذرية نجيبة عبد الوهاب افندي كاتب العدل وزيوار افندي والطبيب منيب افندي .

عبد الغني بن حسن بن ابراهيم الشهير بالبيطار الميداني الدمشقي الشافعي الشيخ الجليل العالم النبيل وهو احد اركان هذا البيت الكريم العريق في المجد والعلم نشأ في حجر والده وتخرج عليه وكان اكثر انتفاعه منه واخذ عن بعض علماء دمشق لم يصل الينا اسماؤهم وكنت طلبت ذلك مراراً من حفيده الفاضل الاديب الشيخ بهجت افندي من اعضاء المجمع العلمي بدمشق وطلبت منه ايضاً سنة وفاته وقد اعقب الشيخ بهاء الدين والد الموما اليه الذي اشتهر بالفضل والعلم والشعر والادب تولى امامة الجامع الذي في حيهم وتصدر به للتدريس كان كريم الاخلاق انيساً في مجلسه تألفه العامة له مكانة واحترام عند الخاص والعام جهل علينا تاريخ وفاته ولم يسعفنا نجله الاديب بها الى اليوم

عبد الباقي الافغاني الكابلي نزيل دمشق الشيخ الجليل والعلامة النبيل

صاحب المؤلفات العديدة والآثار الغريبة منها الاخذ لاثبات رمضان بالاسلاك البرقية قياساً على الاخذ بالساعات والقبلة نامة في البادية وان السلك يعتبر بخبر الافاضة والتواتر قياساً على حكم الطبل واشعال النور في المنارات والجوامع ونحا نحو العلامة محمد عبده مفتي مصر والشيخ محمد بخيت العلامة الشهير والشيخ جمال الدين القاسمي احد علماء دمشق والى صاحب الترجمة ايضاً الحبل الوثيق في نجاة الغريق وله في الاصولين والمنطق كتب مطبوعة في طرابلس الشام كثيرة مفيدة تدل على سعة علمه وغزارة فضله وفهمه مكث في حمص وطرابلس الشام كثيراً وانتفع به علماء البلدتين مات سنة ١٣٢٥

عبد القادر بن الحاج عمر الحمصي ثم الدمشقي الشهير بنبهان نشأ في حب طلب العلم والادب من بين اسرته وقرأ على علماء حمص ثم اتى دمشق وحضر على فحول علمائها حتى برع في اكثر العلوم والفنون واشتغل في التجارة ثم تصدى لمهنة المحاماة في المحاكم الشرعية كان عالماً فاضلاً شاعراً اديباً جم ولده الفاضل عمر افندي احد ادباء وكتاب هذا العصر كثيراً من شعره اللطيف ووعد أن يتحفنا بشيء منه لنزين به كتابنا وبالجملة كان صاحب الترجمة حسنة من حسنات الدهر مات بدمشق سنة ١٣٣١ كنت سمعت من صاحب الترجمة كلاما قال وجدته في احد الكتب القديمة تسع خصال في تسعة رجال الخبث في الاشقر واللجاجة في الاحول والشؤم في الاعور والغفلة في الطويل والظرافة في القصير والكياسة في الكوسج والحماقة في السمين والشقطانة في الاحدب والتكبر في الاعرج انتهى . وكان يقول حين مرضه لبعض من عاده من احبابه :

شكراً لسعيكم الي فانكم عين الزمان وسمعه وفؤاده
وبكم شفيت من السقام وكيف لا يشفى مريض انتم عواده

عبد القادر بن مصطفى الشهير ببدران الدوماني الاصل الدمشقي الموطن الحنبلي احد مشاهير رجال العلم اخذ العلم عن علماء دمشق ومكث ما يقرب نصف قرن في مدرسة عبد الله باشا العظم من معاهد العلم الشهيرة وهو متضلع بكثير من العلوم العصرية والفنون الكثيرة اشتهر في الشعر والتاريخ وقد

اختصر تاريخ ابن عساكر في بضع مجلدات وله نيف وعشرون تأليفاً في كثير من الفنون كان سلفي العقيدة يحب التقشف وعيل طبعه للانفراد عن الناس والانزواء والبعد عن الامراء سبق كثيراً من اخوانه واقرانه في الادب واللغة وله اختصاص تام في علم الآثار والكتب القديمة ومعرفة اسماء الرجال ومؤلفاتهم من صدر الاسلام الى اليوم مات عقيماً سنة ١٣٤٦ قال احد ادباء دمشق عند كتابته عن وفاته في الصحف انه كان خصماً شديد الخصومة لرجال الحشويين الذين ملأوا هذا الدين السهل خرافات وسخافات هو براء منها — حتى رموه بانه زنديق اوانه وهابي كما كانت الوهابية (اتهاماً) زمن السلطان عبد الحميد يرمي بها كل من اتاه الله نصيباً من الحكمة وبعد النظر . وانه ليؤلمك كثيراً ان تعلم أن هذا الفاضل الراحل قد توفي في مدرسة من مدارس الاوقاف في غرفة حقيرة وان الالم ليزداد في نفسك اذ تعلم ان جنازة هذا العالم الشيخ بدران لم يمش وراءها اديب او عالم او لم يحس بها احد على الارجح تلك هي حالة هذا العالم الاديب عاش شريفاً فقيراً ومات كما عاش انتهى كلامه اقول : ما ذهب اليه الكاتب الفاضل هو الصواب والراجح ان وفاته لم تبلغ الناس ليشيع جنازته العالم والتاجر والاديب والذي علمته انه مات في مستشفى الغرباء .

قاسم بن علي مدور الشافعي الدمشقي نشأ في حب طلب العلم وملازمة العلماء وحضور دروسهم وقرأ واخذ عنهم كان فقيهاً خرج من الدنيا متنكباً عن حطامها وعاش فيها ولم يتمتع بزخرفها وظاهرها ولم يتأفف قط من ضيق امر دنياه بل صبر صبر امثاله من اهل التقة والايمان الذين لا تأخذهم الشكوك في السراء والضراء كان يقرأ الدروس للطلبة في مدرسة النورية ويعلم الاولاد في مكتبه المشهور به مات سنة ١٣٣٤ ولسان حاله يقول :

انما الدنيا هبات وعوار مستردة
شدة بعد رخاء ورخاء بعد شدة

كمال بن محمد شريف احد ادباء دمشق قدم والده من ولاية ديار بكر وتعرف بأعيان دمشق وكان له منزلة خاصة عند العلماء واحترام تام لدى الامراء والحكام نشأ صاحب الترجمة على حب الادب والبلاغة ومجالسة العلماء ومعاشرة اهل الفضل جد واجتهد حتى فاق اقرانه بحسن التكلم والكتابة في اللغتين العربية والتركية تقلد وظائف مهمة في زمن الحكومة التركية وله آثار نفيسة في فنون كثيرة ومن الشعر اللطيف يسلك مسلك اهل التصوف وقد ترك ثلاثة انجال نجباء اكبرهم مختار بك رئيس ديوان وزارة الداخلية في زمن الاتراك ثم تعين معاوناً لوالي الموصل ثم بعد ذهاب الاتراك من البلاد العربية صار مديراً لاوقاف دمشق في زمن حكومة الشريف فيصل وعند الانتداب الافرنسي انتخب عضواً في مجلس التمثيلي في دمشق والثاني جميل بك احد مشاهير الاطباء في دمشق ولهم اخ ثالث في بيروت واسمه صبحي بك بارك الله بهم مات والدهم سنة ١٣١٧ وكانت له اليد الطولى في اقناع ولاة دمشق في تخفيف الضرائب والمكوس عن اهلها وقد اراني صورة لائحة كتبها مدحت باشا الشهير احد ولاة دمشق الى الاستانة يرفع بعض من هذه المظالم بتاريخ ١٧ آذار سنة ١٢٩٥ شرقية في سياسة الشام وجبي اموالها ومما قاله ان الاوامر التي تصدر من الاستانة الى الشام محصورة في طلب المال والجند فقط وبذلك بطل العمل بالقانون والاصول المرعية وفتحت ابواب سوء الاستعمال ما عدا بعض الرجال من الموظفين اصبح كبار العمال وصغارهم لايلتفتون الى غير مصالحهم فطرأ على المعاملات خلل وبسوء تأثير ذلك فسدت اخلاق النـاس وكثر القتل والنهب والغارة على الاموال والعروض في كل مكان واختل الامن كل الاختلال قال واذا القينا نظرة على واردات الدولة نرى الخراج والاموال قد نزل ارتفاعها الى النصف وجرت مسائل الاعشار البلاد وقل البدل العسكري وبين بها اضرار القائمة وسقوط اسعارها مما انزلت الواردات في العام الماضي الى النصف وبقي النصف الآخر في باب النفقات بدون تسديد وهلم جرا .

محمد بن مصطفى الشهير بالطنطاوي الشافعي نزيل دمشق ولد سنة ١٢٤٠ في بلدة طنطا بمصر وحصل اكثر العلوم والفنون وجد واجتهد على اكثر علمائها وقدم دمشق سنة ١٢٥٥ فاقام بها واخذ عن علمائها منهم الشيخ سعيد الحلبي وغيره ثم عاد الى مصر واشتغل في جامع الازهر باتمام المادة على فحول علمائه كالشيخ الباجوري والسقا والخضري والمباط والبلتاني وعليش وغيرهم حتى برع في جميع العلوم وتفرد في فهمها ثم رجع الى دمشق بعد خمس سنين وقد اتقن الحديث والتفسير والفقه والهيئة والحساب والميقات والحكمة وغير ذلك من العلوم الحديثة حتى عم نفعه بنشر تلك العلوم وبث في الاذهان ارواح الفهوم طار صيته واشتهر فضله وصار فريد عصره وتخرج عليه جميع علماء دمشق وله تعاليق وكتابات على اكثر الحواشي وآثار كثيرة منها انه لما طرأ على البسيط الذي وضعه ابن الشاطر الفلكي الشهير الدمشقي سنة ٧٧٣ هـ لمعرفة الاوقات في منارة العروس في جامع دمشق قليل من الخلل لتقادم عهده ولما اراد ارجاعه لمحله بعد اصلاحه انكسر نصفين حينئذ اضطر ان يصنع بسيطاً احسن منه وحسبه على الافق الحقيقي وزاد فيه القوس الباقي للعجز وازاله مكان القديم فجاء بغاية الضبط بعد ان جمع علماء دمشق في داره وأراهم جميل صنعه وبراعته في العمل وقد ارخ ذلك العمل مادحاً له شاعر دمشق الشيخ عبد المجيد الخاني احد تلامذته بقصيدة طويلة رنانة مطلعها :

رسم البسيط بغاية التأسيس بحر العلوم رئيس كل رئيس
نعم البسيط وليس يجهل قدره الا البسيط مكابر المحسوس

وآخر بيت منها :

ماقال اهل الشام في تاريخه تم البسيط بنفحة القدوس

وهذه القصيدة دونت معارضة لقصيدة القدح التي قالها الشيخ عبد السلام الشطي احد علماء دمشق الشهيرة مطلعها :

كسر البسيط برأيه المعكوس وبدأ لدرس العلم بعد دروس

وهي طويلة لم تكن من موضوع كتابنا وقد نوهنا عنها في ترجمة القائل

وقد رسم بسيطاً ثانياً عام ١٣٠٥ وجعل حسابه على الافق المرئي ووضعه في جامع الدقاق بالميدان وبالجملة ان صاحب الترجمة تفرد في علم الهيئة السماوية والفلك بعد ابن الشاطر الذي اخذت عنه علماء الغرب ودونت مؤلفاته وللمترجم آثار كثيرة منها في حساب البسيط والربع ورسمه رسائل كثيرة لم نقف عليها وله كشف القناع وله تقريرات مهمة على جميع الكتب التي كان يقرؤها تشهد بعلو باعه وفضله مات سنة ١٣٠٦ دفن بجوار بلال الحبشي وقد اعقب نجلين عالمين الشيخ عبد القادر والشيخ عبد الوهاب بارك الله بهما.

محمد بن محمد بن عبدالله الخاني شهرة الشافعي الصوفي الخالدي النقشبندي طريقة ومشرباً الدمشقي ولد سنة ١٢٤٨ نشأ في حجر والده محمد الكبير وتلقى الطريق وبعضاً من العلوم عنه ثم تخرج وقرأ على الشيخ محمد الطنطاوي وكان اكثر انتفاعه منه حتى برع في المنطوق والمفهوم وطفق ينشر لواء العلم ويبث في الاذهان انواع العلوم وارواح الفهوم اشتهر فضله بين الانام وعم نفعه الخاص والعام وقد ذكر نجله الشيخ عبد المجيد ترجمته مطولة في كتابه الحديقة الندية في تراجم رجال الطريقة النقشبندية مات سنة ١٣١٤ .

محمد بن عثمان بن عباس الحوراني المليحي الاصل ثم الرحيباني الدوماني الشهير بخطيب دوما ولد سنة ١٢٢٧ بقصبة دوما على بعد ثلاثة اميال من دمشق الشيخ المقسر المحدث الفقيه الاصولي الفرضي الحنبلي كان نادرة زمانه وخلاصة اوانه وفخر المجالس ودرة النفائس تخرج على كثير من علماء دمشق حتى برع في المعاني والبديع والحساب والجبر والمقابلة وفن التشريح والميقات وكان جسوراً حافظاً للقرآن العظيم لايفتر لسانه من تلاوته رحل الى مصر واخذ عن علمائها ثم عاد الى بلده محل ولادته واستقر بها اماماً وخطيباً ومدرساً في جامعها كما سبق لابيه وجده من قبله ولم يزل يقرأ ويفيد الى ان حصل له فتنة عظيمة من اهل بلده فآذوه وتكلموا فيه فرحل الى دمشق واستوطنها ثم سافر الى الحجاز وتولى في المدينة المنورة وولي هناك تدريس ومشيخة الحنابلة واوقافهم ثم عزم على الرجوع الى دمشق فرأى في منامه صاحب

الرسالة العظمى عليه الصلاة والسلام فأمره بالاقامة وبشره بأن اللقاء قريب كما نقله الفاضل صاحب مختصر طبقات الحنابلة كانت وفاته سنة ١٣٠٨

محمد بن حسن بن عمر الشطي الحنبلي الدمشقي الفرضي ولد في سنة ١٢٤٨ نشأ في حجر والده وتفقه عليه وكان اكثر انتفاعه منه واخذ عن علماء دمشق تصدر في التدريس لاكثر العلوم وبرع في الفرائض والحساب وله مؤلفات منها توفيق المواد النظامية للاحكام الشرعية والفتح المبين في تلخيص كلام الفرضيين ولخص كتاب والده بسط الراحة في المساحة وله تسهيل الاحكام فيما يحتاج اليه الحكام والمطالب الوفية فيما يحتاج اليه النواب الشرعية وغير ذلك ذكرها حفيده الفاضل في ذيل طبقات الحنابلة ثم قال ولي فرضية البلدية وحاز من الدولة الاسلامية رتبة تدريس ادرنة وتقلد عضوية المعارف والاوقاف بدمشق وعين لوكالة بعض النيابات الشرعية في الاقضية وترأس الكتابة في محكمة العونية والميدان الشرعية وبالجملة كان عالماً فاضلاً فقيهاً اشتهر فضله وعم نفعه حسن السيرة وطيب السريرة مات سنة ١٣٠٧ مات له ولد اسمه عمر افندي كان من اهل الفضيلة والوجاهة والاخلاق الحسنة مات سنة ١٣٢٧ ومات له ايضاً ولد آخر شاب اسمه مراد افندي كان متفنناً نادرة زمانه تخرج من المدرسة الجقماقية الشهيرة بدمشق وتعلم الخط على السباعي وفن التذهيب على طرزي افندي نزيل دمشق وكان من احسن آثاره مدبجات عبد المنعم الاندلسي الموجودة في خزانة كتب المجمع العلمي بدمشق وله اثر في الربع المجيب وفضائل السواك والجبر والمقابلة ومن نظمه قوله :

خالق الناس بخلق حسن ترتقي اسنى المقام الاحسن

وقوله مشطراً :

ماذا تؤمل من زمان جائر اضحى لفعل المفسدين يجاري

ومن شعره اللطيف قوله :

يعاكسني الظلوم بما اعاني ويزعم انه في الكل غالب

واني لا اقابله ولكن الى العرش حسبي فهو غالب

ومن لطائف قوله بعزل احد ولاة الشام :

عزل الطغاة واجب قبل وقوع الحسرة

فالوالي ارخوا عزل بعد خراب البصرة

مات سنة ١٣١٤

محمد بن ياسين بن حامد العطار الشافعي الدمشقي هو شقيق الشيخ سليم الشهير قرأ عليه وكان اكثر انتفاعه منه واخذ عن علماء دمشق منهم الشيخ احمد المنير والشيخ محمد الجوخدار حتى برع في الفقه والنحو والصرف وصار يقرأ الدروس ويعلم الطلبة في مدرسة السميساتية محل اقامته وسكنه وكان يعيش من اجرة بعض الانكحة التي كان يكتبها ومن اعانة شقيقه له كان عالماً فاضلا مثال التقوى والصبر على البلوى كريم الاخلاق والصفات الجميلة انتفع منه خلق كثير وهو احد اساتذتي جزاه الله عني خير الجزاء في يوم الجزاء مات عقيما سنة ١٣٠٦ بحياة اخيه .

محمد بن حسن الشهير بالبيطار الميداني الحنفي الدمشقي الشيخ المعمر امين الفتوى بدمشق قرأ على والده وكان اكثر انتفاعه منه وادرك الطبقة العليا من العلماء الاعلام واخذ عنهم جميع العلوم حتى برع في المنطوق والمفهوم تفرد في الفقه والاصول حتى اشتهر فضله وعم نفعه يقصده الناس ويرجعون اليه في امر دينهم ومعاملات دنياهم وفي كل اختلاف يقع بينهم حتى في اثناء طريقه يقف ويفتيهم وقد اشتهر بأنه كان اعلم المفتين الذي كان اميناً عندهم كان مثال التواضع والخشوع يميل الى مسلك الاوائل من السلف يكره الكبر والرياء والتصنع في الاعمال وهو ذو عيال كثيرة يرزقه الله من اجلها من حيث لا يعلم وكان لا يهتم لأمر قوتها ومصرفها مات سنة ١٣١٧ وقد اعقب ذرية طيبة بارك الله بهم .

محمود بن السيد نسيب الشهير بابن حمزة مفتي دمشق الشام ولد سنة ١٢٣٦ نشأ في حجر والده وكانت المدارس في ايامه ضعيفة فتعلم القرآن واتقن الخط

واشتهر به ثم عكف على اكتساب العلم واكب في الكبر على تلقيه من علماء دمشق فاخذ الفقه والنحو والصرف والاصول وعلم الكلام عن الشيخ عمر الآمدي وسعيد الحلبي . والحديث والمصطلح عن الشيخ عبد الرحمن الكزبري والتفسير عن الشيخ حسن الشطي والحكمة والوضع والادب وفن البحث والمناظرة وبعضاً من العلوم الغريبة الحديثة عن الملا ابي بكر الكلالي نزيل دمشق صاحب كتاب صفوة التفاسير واجيز من الجميع ولما اشتهر فضله وجهت اليه النيابات الشرعية سنة ١٢٦٠ ثم سافر الى الاستانة محط آمال العالم الاسلامي وانتظم في سلك الموالي ورجع الى دمشق ودخل في سلك مجلسها الكبير الذي الغي بعد الحادثة المشهورة وكان يشتغل اكثر ايامه بالتأليف والتدريس والمطالعة والنظم له مؤلفات شهيرة منها تفسير المهمل والقاموس والفتاوي النظم ونظم الجامع الصغير مع نظم اصول الفقه والقواعد الفقهية والاوقاف وترجيح البينات وخلافها مما لم يصلنا خبره وفي سنة ١٢٨٤ تولى افتاء دمشق وظل بها الى آخر حياته واهداه نابليون الثالث امبراطور فرنسا على اثر حادثة الستين بدمشق المشهورة جفتاً بطقم ذهب اقراراً بجميله لما اتاه من الخير والمساعدة لمسيحي دمشق لانه ابى قبول النيشان ولكونه ميالاً الى الرياضة والصيد لتجديد قواه فكانت هذه الهدية اقبل لديه واشتهر في الرمي ولا يخطئ به واشتهر ايضاً في صناعة اليد واتقانها بغاية الانتظام والتفنن فقد كتب الفاتحة على حبة ارز وبقي ثلث الحبة فارغاً والخط واضحاً واغرب من ذلك كتابته على ورقة بمساحة فص الخاتم اسماء شهداء بدر وكان مقصوداً محبوباً عند الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم صادقاً في القول والفعل يأبى الفخفخة الفارغة واضاعة وقته بلا عمل ولذلك كان يميل الى الوحدة لايتدخل فيما لا يعنيه وكان ذا مهابة عظيمة ذهبت مع والدي لزيارته مراراً كنت ارى منه البشاشة والاحسان فبالجملة ان اسرة بني الحمزاوي من اقدم اسر دمشق شريفة الانتساب اصلها من حران وهاجرت الى دمشق منذ قرون وتوالت نقابة الاشراف فيها عدة اجيال حتى عرفوا ببيت النقيب واول من

تولاها منهم اسماعيل بن حسين سنة ١٣٣٠ هـ كما تقدم ذكره في محله ونبغ منهم جماعة من العلماء واهل الفضل والصلاح الى هذا العصر بارك الله بهم وقد دعوا ببيت حمزة نسبة الى حمزة الحراني احد اجدادهم وقد ذكر المحبي والمرادي وغيرهما من حملة الاخبار تراجم بعض رجالهم واثنوا عليهم بخير ولولا الاطالة لذكرنا كثيراً من محاسن اخلاقه وشمائله وقد احسنت اليه الدولة العثمانية برتبة استانبول مع الوسام العالي الثاني اقراراً بفضله وقد ترك في آخر عمره الخروج الى الصيد لوقعة حدثت معه في اثنائه وهي خروج احد الآفات العظيمة وتوقفه لقتلها بعد الجهد والرعب الشديد منها مات سنة ١٣٠٥ بمشهد عظيم مشت بجنازته الخلائق على اختلاف مذاهبها ودفن في الذهبية وكان يوماً مشهوداً لم ار نظيره ويحكى ان الشاعر كامل بك احد علماء مشاهير رجال الاستانة ومن اعضاء الشورى طلب ترجمة حياته فاجابه بعد ان ذكر له في الجواب نسبه الشريف وعمن اخذ العلوم عنهم من الرجال الاعلام ثم بين له في الارجوزة عن كيفية نيله الرتب العلمية وقال انها . لم ترقط علي بل هي في الصندوق محفوظة لدي ومن جملة ماكتبه له ايضاً مخاطباً غيره بقوله له عنده منة الرجال اثقل من الجبال يفر الى الجبال كي لا يحضر مجامع الرجال يتمثل بقول سيدنا علي :

لنقل الصخر من قلل الجبال احب الي من منن الرجال

كما انه كتب اليه شيئاً من الشعر ضمنه اسمه بقوله :

كيف نهدي نقائص للكمال هل تساوي قبائح بالجمال
ليس الا امتثال امرك ادى لارتكابي لديك سوء خصال

وكتب له ايضاً :

ياذا الكمال الذي شاعت فضائله في كل قطر فلا يخفى كبدر سما
لاتعتمد خبر الاحباب متقنا اذحسنوا الظن بي واستسمنوا ورما
ما كل فرد كمال في الرجال ولا كل الحدائق في الدنيا غدت ارما
ان رمت ترجمتي من فخذ خبري انا السراب على بعد لاهل ظما

وقال مؤرخا توجيه فتوى دمشق له الشيخ عبد السلام الشطي احد علمائها بقوله :

محمود حمزة فضله　　قد شاع في الاسلام
حبر همام عالم　　من عمدة الاعلام
من آل طه المصطفى　　حقاً بلا استفهام
لازال من رب الورى　　يزداد في الانعام
قد قلت في تاريخه　　شأن لمفتي الشام

وفوض المفتي الحمزاوي امانة الفتوى عنده الى الشيخ محمد البيطار والشيخ ابي الخير عابدين والشيخ احمد الحلبي متولي الاموي وطاهر افندي حمزة والشيخ حسن العطار سبط المفتي حسن افندي تقي الدين وعين مسوداً ابا الخير افندي الاسطواني وقد اطنب في ذكره وترجمته ايضاً الشيخ الجليل ابو الهدى الصيادي في كتابه الروض البسام في اشهر البطون القرشية في الشام وتمنى ان يكون ولده النسيب بعده في سلكه لكن ما كل مايتمنى المرء يدركه اخذ حظ ذريته في حياته ومن شعره اللطيف قوله :

الناس للخير ماأحلى ظواهرهم　　وفي بواطنهم للشر اخراج
مثل المنارة تاتي العدل ظاهرها　　وفي بواطنها عوج وادراج

وقد انشده الشاعر البليغ السيد سليم تقي الدين الحصني حين احسن اليه برتبة مولوية الشام بقوله :

ايا شهما تفرد بالمزايا　　فما احد نظيرك قط شاما
سميك عم بالانعام مصرا　　وانت تعم بالانعام شاما

وقد ارخ وفاته الهلالي الشاعر الشهير بقوله :

قد دعا الله الى دار السلام　　حجة الاسلام مولانا الهمام
عالم العالم محمود العلا　　من بني حمزة سادات الانام
اذا اتى ظهراً الى روضته　　قالت الحور ادخلوها بسلام
يوم تاسوعا توارى ارخوا　　نجم مفتي الشام محمود المقام

وله ايضاً في مرثية طويلة في ديوانه قال في ختامها :

وفي ليلة الاثنين غاب مؤرخا لتاسع يوم شاهد في محرم

وله جواب لغز ارسله محمد عبد الجواد القاياتي من علماء مصر نأتي على شيء منه قال بعد مدحه والثناء عليه لما قدم دمشق :

أتانا منه لغز لايضاهى على الدر النظيم له اعتلاء
باسم آب من قد رام عنا لاحرفه وليس بذا امتراء

الى ان قال : جوابي باختصار مثل وقتي نهاري ضيق وكذا المساء

وله يحق احد علماء دمشق من معاصريه وهو الشيخ عبد الغني الميداني اختلافهما في مسئلة فقهية قال له:

قبة محكمة ابوابها لسنا ندري مابها قبل سنين
فتح الله لنا اقفالها فادخلوها بسلام آمنين

وكتب له ايضاً البيتين المدرجين في الفتاوى الحامدية وهما :

لعمرك ماكل النقول صحائح ولا كل خل بالمودة ناصح
عليك بأقواها دليلاً ومأخذاً وماهو في الكتب الصحيح راجح

وقد مدحه بعضهم بقوله :

فريد في الكتابة والمعاني بديع اللفظ ليس له نظير

وله ايضاً قوله الى فؤاد باشا في حادث دمشق الشهير بعد ابيات كثيرة وصف بها الوقائع التي حصلت وذم بها تلك الحادثة الشنيعة :

ان للاحكام وقعاً باهراً حكمة الحكام ابراء السقام
اذ قوام الدين والدنيا معاً بابتعاث الرسل او عدل الامام
بئس مصر قد خلت من حاكم جور سلطان ولا عدل العوام

وقد كتب على رسمه في يده :

ايها الناظر ظل صورتي ذا انا من حيث نفسي ذا انا
واذا لاحظت من صورتي فانا باق ومالي من فنا

(تتمة)

لاح لنا بمناسبة سيرة صاحب الترجمة دحض ما عساه أن ينكره عليه بعض الفقهاء لتسامحه بتمكين المصورين من تصويره بدعوى أنه مخالف للشريعة الاسلامية في حين ان الحظر ليس على اطلاقه . بل القضية ذات اختلاف وتفصيل كما يتجلى من اللاحقة التالية الملخصة من (المصباح المنير في احكام الصور والتصوير) [١] وذلك فيما يلي :

(لاحقة)

— قضية الصور والتصوير في الاسلام —

عرضنا حكم هذه القضية على كتاب الله تعالى فلم نجد لها نصاً مشتملاً على حظر أو اباحة . بل وجدنا أنها كانت مشروعة في شرائع من قبلنا بدلالة قوله تعالى (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل) ذكر المفسرون : ان الجن كانت تصور صور الانبياء — صلوات الله عليهم — والعباد حال عبادتهم يجعلونها من نحاس وغيره ويضعونها في المعابد ليراها الناس فيتعبدون بمثل عبادتهم وكان ذلك جائزاً في شريعة سليمان عليه الصلاة والسلام .

ثم عرضناها على السنة فوجدنا أنها حظرت ما سكت عنه الكتاب الحكيم بتغليظ شديد . لكن ما انطوت عليه نصوصها الشريفة من العموم والاطلاق

[١] اطلعنا صديقنا الشيخ سعيد افندي الباني من علماء دمشق على ما كتب بهذا الصدد في عصرنا كرسالة احد شيوخ العلم الاجلاء الشيخ عبد الرزاق البيطار الدمشقي . ومبحث علامة الشرق الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في وصف رحلته الى صقلية . وفتوى العلامة الشيخ رشيد رضا في مناره الزاهر وفتاوي بعض فقهاء زماننا . وطلبنا اليه ان يكتب كلمة بهذا الموضوع فصنف رسالة سماها (المصباح المنير في احكام الصور والتصوير) صدرها بمقدمة رائعة عرض بها هذه القضية على ادلة الشرع . ثم اتى بعدها على المقاصد ذات الابواب والفصول والذيول التي اقتبست من مجموعها هذه اللاحقة المدرجة اعلاه بتمام الايجاز . اهـ

والاجمال يفسح مجالاً لتأمل المجتهدين وتضارب آرائهم بالاستنباط لاحتياج المجمل الى التفصيل ، وقبول العام للتخصيص ، والمطلق للتقييد .

وهذا ما حدابنا الى عرضها على الاجماع بمعناه الحقيقي وهو الاجماع القطعي دون الاجماع الاضافي الظني . وبعد العرض وجدنا ان الأئمة المجتهدين اصحاب المذاهب المتداولة والمندرسة مجمعون على حظر التماثيل ، والمراد بالتمثال المحظور المعنى الأعم [١] وهو الصورة الحيوانية الكاملة الاعضاء الحيوية المجسمة ، اي ذات الظل . فاذا فقد احد هذه الاوصاف فقد اختل الاجماع بمخالفة المذهب المالكي . وينتج عنه جواز صورتين ، الاولى فيما اذا كانت الصورة الحيوانية غير مجسمة ولو كانت كاملة الاعضاء ما دامت نقشاً بدون ظل والثانية الصورة الجثمانية الناقصة بعض الاعضاء الحيوية البادية للعيان . أما تفرقة الفقهاء الموالك بين الصور الممتهنة كالمنقوشة على زربية ونحوها . وبين غيرها كالمنقوشة على ثوب او جدار او معلقة به من وجهة الاباحة المطلقة او المقيدة بالكراهة فهي من المسائل الثانوية الفرعية المحضة .

تلخص من هذا ان حظر التماثيل ثابت بالاجماع القطعي الذي لم يخرق بتصريح المخالف فيما نعلم وفوق كل ذي علم عليم . وما عداها غير قطعي الاجماع ، والله اعلم بالصواب .

وقد تراءى لنا ان المذهب المالكي مؤيد من هذه الوجهة بثلاثة امور

الاول — استثناء اغلب الفقهاء مما له ظل العروسات البنات لما ورد في صحيح الامام مسلم : ان عائشة رضي الله تعالى عنها كانت تلعب بهما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : وذكروا ان حكمة ذلك تدريبهن على امر التربية التي قد شهدنا أثرها اليوم في تعليم البنات اصول التربية الحديثة بتطبيق النظريات على العمليات اقتباساً من طراز التعليم الغربي الحديث المسبوق باصول التربية الاسلامية التي حال دون منافذ انوار مدنيتها الباهرة اصدقاء الاسلام الذين

[١] بمعنى أنه غير مخصوص بما من شأنه ان يصنع ليعبد من دون الله تعالى . اه

كانوا بجمودهم وتنطعهم حجة لاعداء الاسلام على الاسلام . ولله الامر .

الثاني — هو تعامل السلف بالنقود المضروبة بنقش الصور الكاملة بدون نكير . بعلة الحاجة الى التعامل بها . وذلك قبل مايضرب عبد الملك بن مروان النقود الاسلامية .

الثالث — ما يروى عن بعض السلف الصالح من استعمال الستور المنقوشة بالصور . وبهذا يتضح جلياً ان الاجماع الذي يستندون اليه بالحظر هو الاجماع الظني الاضافي الخاص المختص بمذهب او مذاهب . لا الاجماع القطعي العام .

(نتيجة ماتقدم)

ينتج عما تقدم انه لالوم على مالكي المذهب اذا مكن المصورين من تصويره صورة خالية عن الظل مادام ذلك جائزاً في مذهب إمامه الذي اتخذه حجة فيما بينه وبين الله تعالى . كما انه لاحرج بذلك على كل مسلم من مقلدي الائمة المجتهدين الاعلام فيما اذا قلد بهذه القضية إمام دار الهجرة الذي يضرب الناس اكباد الابل في طلب العلم فلا يجدون اعلم منه . لان حصر تقليد العامي بمجتهد واحد دون غيره لم يعهد في عهد السلف . بل حدث حينما سادت دولة التعصب للمذاهب الذي انبعث عنه قضية التلفيق وحظره . على ان مسألتنا هذه ليست من مسائل التلفيق الممنوع . هذا ما كان بالنسبة الى العامي المحض او الملحق به وهو المتفقه الذي حجر باغلال التقليد المطلق على نفسه التدبر بالشريعة واسرارها . والنظر باقوال المجتهدين ومآخذهم . اما الفقيه الذي لم يشأ ان يحرم مداركه العلمية . ومواهبه الفكرية من نعمة التدبر فلا يرى مانعاً في دين الله تعالى من النظر في ادلة الامام مالك . والاستنباط منها بناء على احقية تجزي الاجتهاد الذي جنح اليه عظماء فقهاء الشريعة الاسلامية بالادلة الراجحة . فيتسنى والحال هذه لامثال ذلك الفقيه قياس ماتقتضيه ضرورة الامن في زماننا مثلاً على ماتقتضيه ضرورة التعامل بالدراهم المنقوشة بالصور الحيوانية في عهد اهل القرون المشهود لها الذين لم

يوجب خاصتهم المفتون على عامتهم المستفتين التزام اقوال مفت واحد . بل اوجبوا تحري حكم الله تعالى في المسألة مع البحث عن دليلها الشرعي . كما يتسنى ايضاً قياس ما يقتضيه ارتقاء وسائل العلم العصري كنقش الصور الحيوانية على صفحات في التاريخ الطبيعي وتشريح الاعضاء . وخلاصة القول ان قضية الصور الحيوانية التي لاظل لها من القضايا المجتهد بها وليست من القضايا المقطوع بحظرها في الشريعة الاسلامية السمحة الواسعة الملائمة بعروتها لمقتضيات الزمان والعمران لكونها خاتمة الشرائع المنزلة على خاتم الرسل الذي ماخير بين امرين الا اختار ايسرهما — صلوات الله عليه وعليهم اجمعين — . وقد اضحى من المتعسر جداً منع الناس من هذه الصور التي عمت بها البلوى في عصرنا الحاضر الذي سيطرت به مدنية المغرب المادية على المشرق ، وكادت تجرف اغلب مقوماته الادبية . وما على المبتلى العاجز عن الاستدلال والاستنباط الا تقليد المجتهد القائل بالجواز لان ذلك اخف ضرراً من الاقدام على الامر بدون تقليد لان تعاطي المشتبهات بالتقليد يشف عن شيء من خشية الله تعالى ، والاقدام عليه بدون تقليد استهتار بالدين . وشتان ما بينهما . وقد نقل بعض الحنابلة جواز تقليد كل إمام ثقة حيث لاتحتمل المسألة قيداً . ولا سيا حين تغير الازمان وفساد الاحوال لان الاخذ قال به عالم اولى من الاقدام عليه بغير تقليد .

ولقائل ان يقول : اذا كانت العويات البنات مستثناة من الحظر لحكمة تدريبهن على التربية فليت شعري أفلا يسري ذلك على سبيل المساواة بل الاولوية الى ماهو وسيلة من وسائل العلم بتطبيق نظرياته على عملياته كتشريح الاعضاء وبيان وظائفها ومنافعها وما يطرأ عليها من العلل والاعراض ونحو ذلك مما له علاقة بحياة الحيوان ولا سيا الانسان . وما الفرق بين هذه الصور التي يستعان بها في توضيح نظريات العلم النافع وتطبيقها وبين العويات البنات المستثناة من الحظر باقرار الرسول عليه الصلاة والسلام المعللة بالمصلحة وهي حكمة تدريبهن على امور التربية التي هي دون مصلحة حياة الانسان ، على انا

لا نعلم ماذا يحدث من الضرورات في المستقبل الذي يأتينا كل يوم بشأن جديد وخاتمة الشرائع ارفع وانزه من ان تكون عقبة كؤوداً في سبيل الارتقاء الكوني او الاجتماعي النافع لبني البشر الذي هو فيض من فيوضات العليم الحكيم خالق القوى والقدر ومنزل الشرائع لسعادة عباده في الدارين . ونتيجة ماذكر قياس ماتقتضيه المصالح العلمية او الاجتماعية على العوبات البنات مادام الاصل المستثنى والفرع المقيس عليه مجردين عن صبغة التماثيل المحظورة خشية تسرب الوثنية وغير ذلك من العلل التي بني عليها الحظر . على أن استثناء المالك الصور ذات الظل الناقصة بعض الاعضاء الحياتية من الحظر يعضد ذلك ، ولا سيما اذا اقتضته الضرورات التي تبيح المحظورات . فما قول فقهاء الشريعة بذلك ؟.

الجواب : ان ماعساه أن يحدث في المستقبل لاكلام لنا به لان السؤال عما لم يقع ممقوت في شريعتنا دفعاً للحرج ، فاذا وقع فجوابه عائد الى من يقع في زمانهم من فقهاء المستقبل . وكذلك مسألة الصور الجثمانية الناقصة بعض الاعضاء الحياتية الجائزة في المذهب المالكي فانها لاتحتاج الى الجواب مادام تقليد العامي احد الائمة المجتهدين مفتوح الباب كما تقدم .

اما السؤال عن اباحة ماتقتضيه وسائل العلم . فالجواب أنه لا يخفى على اللبيب الالمعي أن كل فقيه ورع يخشى وعيد الجراءة على الفتيا فلايمكنه القطع والبت بحكم ماذكر اباحة او حظراً . لكن ذلك لايمنعه من عرض الرأي على سبيل الذكرى دون الفتوى . فنقول : ان الذي يتبادر الى الذهن هو اباحة ماكان من هذا القبيل مما تقتضيه المنافع المادية والادبية ولحياة الانسان من الوجهة الجثمانية ، والوجهة الاجتماعية . ولحياة الحيوان التي تقتضيها عاطفة الرفق بالحيوانية . ومنفعة الانسان الاقتصادية . ومستند ذلك القياس على العوبات البنات الخاصة . والاستنباط من قواعد الشرع العامة المنبعثة عن يسر الشريعة وسعتها ومرونتها وشمولها . وهو رأي نعرضه . وليس بحكم نفتي به ، لان كل ماكان كذلك لايسوغ أن يستقل به مفتٍ واحد كما صرحنا به في

كثير من كتبنا . بل ينبغي أن تبت به لجنة الشورى الشرعية التي اقترحنا على اولياء الامور في خاتمة كتابنا (عمدة التحقيق) تأليفها مع بيان وظائفها وما يشترط في اعضائها ليكون كلمن البت في الحكم الشرعي، وتقدير الضرورات التي تبيح المحظورات عليه مسحة من الاجماع ولو كان بالجملة .

وقبل ان نمسح القلم من مداد هـذا الموضوع نختم الكلام بفصل المقـال وهوأن الشريعةجاءت بمرتبتي التشديد والتخفيف لتسع اهل العزائم والرخص فارباب الورع الآخذون بالاحتياط يبتعدون عن الشبهات ، وعن كل مايؤدي اليها . وطريقهم اسلم ، ولا يسوغ لاحد أن يفوق عليهم سهام الملام مادامو مقتصرين على الشؤون الاخروية لان تدخلهم بالشؤون الاجتماعية والعمرانية لاينطبق على مارسموه لانفسهم من خطط التشديد والاخذ بالعزائم . كما انه لا لوم على من يأخذون بالرخص مراعاة لمقتضيات الزمان والعمران صيانة لكرامة الشريعة السمحة ائلا يصمها اعداؤها بالحيلولة دون الترقي الحديث النافع مالم يخرقوها بمنابذة نصوصها القطعية او بتتبع الرخص والاطايب ونوادر العلماء الشاذة لان الاول مروق من الدين ، والثاني تهاون به . ولـكل من ارباب التشديد والتخفيف وجهة هو موليها . وانما الاعمال بالنيات . والله يقول الحق ويهدي الى سواء السبيل .

***

وبهذه المناسبة سألناه عن رأيه في مسألة السبحة في الاسلام وكثرة استعمالها فأجاب حفظه الله بما يلي :

حكم السبحة في الاسلام وانتشارها بين المسلمين

ينبغي قبل التصدي لبيان حكم السبحة وانتشار استعمالها بيان معناها في لغتنا العربية لان فهم معنى الـكلمة من الوجهة اللغوية أساس البحث عنها من جميع الوجهات . جاء في المصباح ماملخصه : التسبيح التقديس والتنزيه . يقال سبحت الله اي نزهته ، ويكون بمعنى الذكر والصلاة . يقال فلان يسبح الله اي يذكره باسمائه . وهو يسبح اي يصلي السبحة فريضة كانت او نافلة .

والسبحة خرزات منظومة . قال الفارابي وتبعه الجوهري والسبحة التي يسبح بها وهو يقتضي كونها عربية . وقال الازهري كلمة مولدة وجمعها سبح مثل غرفة وغرف . والمسبحة اسم فاعل من ذلك مجازاً وهي الاصبع التي بين الابهام والوسطى .

وجاء في التاج مثله لكن قال صاحبه : وقال شيخنا انها ليست من اللغة في شيء ولا تعرفها العرب . وانما حدثت في الصدر الاول اعانة على الذكر وتذكيراً وتنشيطاً .

وجاء في اللسان : والسبحة الخرزات التي يعد بها المسبح تسبيحه ، وهي كلمة مولدة . وفيه ايضاً : وقد تكرر ذكر السبحة في الحديث كثيراً ، فنها : اجعلوا صلاتكم معهم سبحة اي نافلة الخ .

فقد دلت هذه النصوص على ان اطلاق السبحة على الآلة المنظومة من الخرز غير معهود في لسان العرب لكونها غير معروفة في عهدهم وان تعارف المسلمين منذ القديم والحديث التسبيح بها وسماها المحدثون مسبحة .

كما انه لم يؤثر عنه صلى الله عليه وسلم او عن الخلفاء الراشدين التسبيح بها . ولكن بعض الآثار دلت على تسبيح بعض الصحابة بما يكاد يضارعها من وجهة الكم فقط . او من وجهة الكم مع الكيف وان اختلفت المقادير والكيفيات . فقد نقل الجلال السيوطي في رسالته (المنحة في السبحة) ما اخرجه الترمذي والحاكم والطبراني عن صفية رضي الله تعالى عنها أنها قالت (دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يديّ اربعة آلاف نواة اسبح بهن . فقال ما هذا يا بنت حيي . قلت اسبح بهن . قال قد سبحت منذ قمت على رأسك اكثر من هـذا . قلت علمني يا رسول الله . قال قولي سبحان الله عدد ما خلق الله من شيء) وما اخرجه ابن ابي شيبة عن ابي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه (انه كان يسبح بالحصى) . وما اخرجه عبد الله بن الامام احمد في زوائد الزهد من طريق نعيم بن محرز عن جده ابي هريرة رضي الله تعالى عنه (انه كان له خيط فيه الفا عقدة فلا ينام حتى

يسبح به) . وما رواه ابن سعد في طبقاته عن فاطمة بنت الحسين بن علي ابن ابي طالب رضي الله تعالى عنهم (انها كانت تسبح بخيط معقود فيها) . الى آخر ما نقله من الآثار باسانيدها المصرحة بان كثيراً من اعيان الصحابة الكرام كانوا يذكرون الله تعالى ويسبحونه بمقادير معدودة من النوى والحصى او عقد الخيوط . وقد استدل - رحمه الله تعالى - بهذه الآثار على استحسان اتخاذ السبحة اذ قال (ومن المعلوم المحقق ان المائة الالف والاربعين الفاً واقل من ذلك لا يحصر بالانامل فقد صح بذلك وثبت انهما كانا يعدان بآلة والله اعلم) . فقوله لا يحصر بالانامل يومئ الى ما نقله بتخريج ابن ابي شيبة وابي داود والترمذي والحاكم عن يسرة رضي الله تعالى عنها انهــا قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس ولا تغفلن فتنسين التوحيد واعقدن بالانامل فانهن مسؤولات ومستنطقات) . وبهذا التخريج نفسه بزيادة النسائي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما انه قال (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يعقد التسبيح بيده) .

فقد دل هذا الحديث الشريف والذي قبله بقوله وفعله عليه الصلاة والسلام على ان التحديد بالعدد مشروع كما تدل على ذلك ايضاً عبارة نص الحديث الصحيح (تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين) . ثم نرى ان اشارة حديث السيدة صفية الآنف الذكر قــد دلت على شرعية التسبيح على سبيل الاستغراق بالالحاق بالمجمل الذي لا يحصى عده وهو قوله صلى الله عليه وسلم (قولي سبحان الله عدد ما خلق الله من شيء) . ويظهر لي ان اطباء القلوب وساسة الارشاد استنبطوا من هذا الحديث الشريف ونحوه الالحاق بالمجمل العام . وقاسوا على هذا الاصل النبوي ما لا يحصى من صيغ التهليل والتسبيح والاستغفار المختلفة باختلاف الطرق كقولهم لا اله الا الله عدد ما خلق الله وصلى الله على سيدنا محمد عدد ذرات الهواء وقطرات الماء وهلم جرا . ولا يخفى ان عمل البر باعتبار كونه براً عاماً لا يقيد بحد او عد فلا لوم بهذا الاعتبار على المكثر من ذكر الله تعالى . لكن السنة اطلقت وقيدت

فما قدرته بعدد ينبغي التقيد به بدون زيادة ولا نقصان لان لهسراً علمه الشارع ولم نعلمه . والمؤمنون متبعون غير مبتدعين . وقد شبه الفقهاء ذكر الله تعالى المقيد بعدد اذا زيد على مقاديره بدواء زيد على عقاقيره او بمفتاح زيد على اسنانـه . وكذلك النقصان . وهو تشبيه مقبول معقول . وان ما اطلقته يبقى على اطلاقه لان عمل البر لا يقيد بحد - كما قلنا آنفاً - وان ما خصت به اهـل العناية كالسيدة صفية يرجى شموله في كل زمان اهل العناية الذين واللائي على قدم السيدة صفية من المؤمنين والمؤمنات لان فضل الله واسع . فرب قائل من المرادين سبحان الله عدد ما خلق الله من شيء مرة واحدة يحظى بالاجر والقبول ما لا يحظى بها من يجد بالمجاهدة ويكد بالعبادة ويذكر ويسبح بمئات الالوف . لان الاول مراد شملته العناية الالهية فكان قليله كثيراً . والثاني مريد من باب الكد والجد وبعد ذلك اما قبول او رد . وشتان ما بين مريد ومراد . وما بين سيار وطيار . والله تعالى ينظر الى القلوب لا الى الصور . والكل منه واليه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون .

على ان مناهج السالكين بالمجاهدة المريدين وجه الله تعالى تختلف باختلاف امزجتهم على نسبة اللطافة الروحية . والقابلية النفسية والطاقة الجثمانية فالمرشد الكامل الحاذق بطب القلوب لا يلقن جميع مريديه ورداً واحداً كما انـه لا يحده بعدد واحد . بل يلقن احد مريديه مثلاً اسم الرحمن على ان يتلوه في اليوم الف مرة ويلقنه الآخر على ان يتلوه المئين . او خمسمائـة . ويلقن غيرهما اسم الودود على ان يتلوه مائة مرة . وغيره على ان يتلوه الفاً وهلم جرا والاصل في ذلك كله مما يتعلق بمعاملة المريدين والمرادين والمبتدئين في السير والسلوك والمنتهين ارشاد المرشد الاعظم - صلى الله عليه وسلم - اصحابـه الكرام المختلف باختلاف مشاربهم فقد صح عنه أنه نهى عبد الله بن عمر عن سرد الصوم وأقر عليه حمزة بن عمر الاسلمي . وقال في ابن عمر نعم الرجل لو كان يقوم الليل وأوصى ابا هريرة ان لا ينام الا على وتر . وتفقد علياً وفاطمة لصلاتهما من الليل وعائشة تعترض بين يديه اعتراض الجنازة

وأسر لبعض أصحابه أذكاراً مع ترغيبه في عموم العبادة .

ولا ريب ان اختلاف التلقين باختلاف المشارب المستند الى هــذا الاصل النبوي الشريف يقتضي تقدير الذكر بعدد محدود يلائم مزاج الذاكر ومنزلته في عالم السير والسلوك ولا يمكن التحديد الا بآلات العدد اللاتي في عدادها المنظومة الخرزية على اختلاف انواع خرزها المدعوة قديماً بالسبحة وحديثاً بالمسبحة التي أجمع المسلمون على التسبيح بها منذ اوائل القرون المشهود لها حتى يومنا هذا . ويقدمة المسبحين بها رأس التابعين الامــام الحسن البصري رضي الله تعالى عنه وعنهم . فقد روى الجلال السيوطي في المنحة عن شيخه ابي عبد الله محمد بن ابي بكر بالسند المتصل تسلسلاً الى الحسن البصري . وهو ان الراوي عنه قال : يا استاذ مع عظم شأنك وحسن عبادتك وانت الى الآن مع السبحة . فقال (شيء كنا استعملناه في البدايات ما كنــا نتركه في النهايات . احب ان اذكر الله تعالى بقلبي ويدي ولساني) ويروي هذا العبد الضعيف هذا الأثر سنة ١٣١٨ هـ في عداد ما يرويه من كتب السنة عن عالم الشام ومحدثها في عصره — الشيخ ابي بكر العطار — عطر الله ثراه — من طريق مسلسلات ابن عقيلة المكي باختلاف قليل في الالفاظ وائتلاف جزيل في المعنى . وبزيادة قول كل مروي عنه لراوية فخذها . وقد تناولتها مع بقية رفاق الرواة من يده الكريمة كما تناولها هو عن شيخه بالتسلسل (١)

ولسائل غافل ان يقول اذا كان اتخاذ السبحة غير منكر في الشريعة الإسلامية

---

(١) اذكر انه حينما روى كلمة الحسن البصري لفت نظر رواته الى انــه يرويها على سبيل الحكاية رعاية لاصول الرواية لفرط اخلاصه وورعه وتواضعه وطهارة قلبه في حين انه كان من اقطاب العباد في زمانه بصرف النظر عن تضلعه بالعلوم النقلية والعقلية والأدبية وصرف اوقاته في التعليم والتدريس كما يشهد له بذلك كل من عرفه من المنصفين قال لي عقب موته احد اعيان دمشق السيد حسن افندي القوتلي لا فرق عندي بين شيخك وبين السيوطي وابن حجر من وجهتي العلم والعمل لكن المعاصرة حرمان : ا هـ

فلماذا قال للامام الحسن البصري مريده وراويته على سبيل الاستفهام الانكاري ما قال .

الجواب : ان سؤال تلميذ الحسن لم يكن على سبيل الانكار على الحسن من الوجهة الشرعية . بل هو على سبيل التعجب من وجهة ثانية وهي اتخاذ المرشد الكامل السبحة الغني عنها دون المريدين المضطرين الى تحديد مقادير الذكر بالعدد في بدء السير ووسطه حتى نهايته وغير خفي على ارباب هذا الشأن ان سؤال المريد الراوية صادر عن واصل غني عن الذكر لفنائه بالمذكور وجواب المرشد المروي عنه صادر عن وارث كامل واصل الى مقام الفرق الثاني بعد رجوعه من الفناء الى البقاء باندماج بداية السير في نهايته كما يومئ الى ذلك قوله في الجواب : شيء استعملناه في البدايات ما كنا نتركه في النهايات . وقوله : احب ان اذكر الله تعالى بقلبي ويدي ولساني .

فثبت من جميع ما تقدم ان اتخاذ السبحة غير منكر في دين الله تعالى ما دام القصد منه الاعانة على الذكر والتذكر والتنشيط وتحديد مقادير الاذكار الملائمة لسير المريد ومشربه . اما اذا كان القصد من اتخاذها الاتجار بالدين على سبيل التدليس والتدجيل فهو من اكبر المنكرات في دين الله تعالى وذلك بين بنفسه لا يحتاج الى بيان . جاء في الدر المختار عن البحر ما نصه (لا بأس باتخاذ المسبحة لغير رياء) وهي على وزن مفعلة بكسر الميم اسم آلة التسبيح ونقل ابن عابدين في حواشيه عبارات البحر وغيره وجميعها تؤيد استدلالنا اذ لو كان اتخاذها مكروهاً او محظوراً لبينه الرسول صلى الله عليه وسلم للمرأة التي دخل عليها وبين يديها نوى او حصى تسبح به في رواية ابي داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه وهو كحديث السيدة صفية الذي سبقت روايته اذ لم ينهها عن ذلك . بل ارشدها الى ما هو افضل وأيسر . ولا تزيد السبحة على مضمون هذا الحديث الا بضم النوى في خيط ومثل ذلك لا يظهر تأثيره في المنع . وقد نقل اتخاذها عن جماعة من الصوفية الاخيار وغيرهم . اللهم الا اذا ترتب عليه رياء وسمعة

وهذا لا كلام فيه . وهذا الحديث يشهد ايضاً لافضلية هذا الذكر المخصوص على ذكر مجرد عن هذه الصيغة ولو تكرر يسيراً . هذا ملخص ما نقله وقاله ابن عابدين . ولا ريب ان الذكر بالوارد أفضل انواع الذكر . لكن الوارد يختلف باختلاف احوال الذاكرين ما بين مريد مجاهد ومراد مشمول بالعناية كما فصلناه آنفاً ونجمله هنا بكلمة وجيزة وهي ان أساليب سياسة الارشاد وقواعد فقه القلوب لا تقاسان على القوانين الفقهية من جميع الوجوه لاختلاف المسالك وان ادت باعتبار النتيجة الى غاية واحدة وهي الحرص على ما يرضيه تعالى بالظاهر والباطن .

فاذا رجعنا الى ما نحن بصدده وهو قضية السبحه نجد ان فقهاء الشريعة وساسة الارشاد الذين اتخذوها، او أقروا التسبيح بها متحدون بالغاية، وهي ان يكون رائد من يسبح بها الاخلاص والاتباع ، والتجافي عن الرياء والابتداع ، ونحوهما من المحظورات الشرعية كتعليقها في العنق لما فيه من الابتداع ، والدلالة على الرياء ، والتشبه بالرهبان والنساء . قال صاحب المدخل (ومن البدع الشنيعة التي تصدر عن متصوفة هذا الزمان ما يفعله بعضهم من تعليق السبحة في عنقه) أقول والفرق بين المتصوفة والصوفية كالفرق بين المتفقهة والفقهاء ، وهو ان التكحل في العينين ليس كالكحل .

هذا وقد اتضح مما اسلفناه ونقلناه ان الذين اتخذوا هذه المنظومة الخرزية آلة للتسبيح في صدر الاسلام قاسوا التسبيح بها على تسبيح كثير من اعيان الصحابة الكرام بالمقادير المحدودة من النوى او الحصى او عقد الخيوط بدون انكار عليهم من قبله — صلى الله عليه وسلم — او من قبل خلفائه الراشدين — رضي الله تعالى عنهم — بل نقل عن خاتمهم كرم الله وجهه التحبيذ فيما نقله الجلال السيوطي بتخريج الديلمي في مسند الفردوس عن ام الحسن بنت جعفر بن الحسن عن ابيها عن جدها عن علي رضي الله عنهم انه قال : (نعم المذكر السبحة) .

ولما انتشر الاسلام وامتد الفتح الاسلامي وخالط العرب العجم اقتبس الفاتحون من غيرهم تنظيم شكلها . ثم تفنن المسلمون فيها بعد بانواع معادنها وضروب اشكالها والوانها كما تقتضيه سنن الارتقاء الطبيعي في كل شيء ويقول البحاثة جولدزير المستشرق الالماني — كما في مجلة الهلال الغراء — (ان السبحة لم تنتشر في الجزيرة الا في القرن الثالث للهجرة ولعلها جاءت اليها عن طريق مصر) وما قلناه اصح لما سبقت روايته عن الحسن البصري من وجهة استعمالها في الصدر الاول ، واقرب الى القبول من وجهة الاقتباس اذ لم تقيده بطريق مصر . كما اننا لم نطلق هذا الاقتباس باعتبار وجودها الذاتي ، بل قيدناه بما عرض لها من تنظيم شكلها .

ولما فشت البدع بين المسلمين — ولا سيما في القرون المظلمة — اتخذ مبتدعة المتصوفة والمتفقهة السبحة ذريعة للاتجار بالدين . من ذلك انها كانت تستعمل في حلقات الذكر ، ثم تحفظ بصندوق مختص بها ، ويعطى مرتب خاص لمن يستعملونها ، ويلقب كل منهم بلقب شيخ السبحة ، ولكل شيخ من هؤلاء الشيوخ خادم يدعى خادم السبحة ، وقد أقام النكير صاحب المدخل على هذه البدعة وغيرها من البدع التي انكرها غيره كأبي الفرج الجوزي في كتابه (تلبيس ابليس) ، والشاطبي في كتابه (الاعتصام) ، وابي شامة المقدسي في كتابه (الوارث) وابن تيمية ووارث علومه ابن قيم الجوزية في اكثر كتبهما وقد ثبت لدى نوابغ علماء الشريعة الاسلامية منذ العصور السالفة حتى يومنا هذا ان جميع البدع المنتشرة بين المسلمين قد تسربت اليهم من الاعاجم الذين انتحلوا الاسلام ولم يتبطنوه ثم انطلت فيما بعد على المسلمين قلباً وقالباً عرباً كانوا أم عجماً . ومن اقبح ذلك استخارة السبحة التي يستعملها جهالنا فانها مقتبسة من بعض الشعوب الاعجمية فقد جاء في مجلة الهلال عن الآنسة كوليداي ان المرء في بعض المدن الاعجمية اذا مرض تستعمل له السبحة قبل استدعاء الطبيب لمعرفة هل من الضروري استدعاؤه ام لا ؟ وهل ينجع دواؤه ؟ واي طبيب يدعى؟ ويدعونها الاستخارة ، وروى المستر جاردنران ان أهل

مدينة رأس الرجاء الصالح يضعون السبحة في اعناقهم للوقاية من الامراض ويستعملونها بطرق مختلفة لمعرفة البخت . وفي بعض البلاد يستعملونها للوقاية من الحسد والاخطار ويغسلونها بعض الاحيان بالماء ويشربون غسالتها على انها دواء ونحو ذلك من البدع والخرافات المنتشرة بين الشعوب على اختلاف مللهم ونحلهم . ولم يأت الاسلام بها اما في عهدنا فقد اتخذ غير العباد السبحة آلة للهو او التجمل واخيراً انتشر بين الشبان والكهول استعمال السبحة الثلثية المنظومة من ثلاث وثلاثين خرزة اغلظ من خرزات سبحة المئة .

ولا ريب ان اتخاذها للهو اخف ضرراً من اتخاذها شركاً لاصطياد الدنيا بالدين وانما الاعمال بالنيات والله تعالى اعلم .



ونختم ترجمة الحمزاوي بشيء من كلامه مناجياً الحق جل وعلا بقوله :

يا رب ان لم يدارك منك غفران ... فما لغيري يوم العرض نيران
يا رب ذنبي عظيم انت تعلمه ... كيف النجاة ورأس المال خسران

وقد ترك لنا ولداً واحداً سماه السيد نسيب على اسم جده وهو من اعيان دمشق ورئيس بلديتها السابق واحد اعضاء مجلس ادارتها الكبير وكان رفيقنا فيه وفقه الله لاحياء ذكر ابيه .



وقد وقفنا على جواب سؤال رفع الى صاحب الترجمة من قبل العلامة الشهير والفيلسوف الكبير السيد عباس البهائي نزيل عكا احببنا اثباته لنزين به كتابنا لما انطوى عليه من الحكم الغراء وفنون الادب قال : سؤال مرفوع الى حضرة مولانا علامة الاعلام السيد الشريف محمود افندي الحمزاوي مفتي دمشق الشام :

يا ابن رسول الله خلقاً وخلقاً بروحي انت ونفسي افتنا في اسراء وقعوا تحت مخالب ثلة من سلالة عصبة رجعت من شواطئ الفرات بعد ما فتكت بقرة عين جدك اشرف الكائنات فتكاً تزلزلت منه اركان الارضين والسموات

الداعي عباس

الجواب

احمد الله تعالى اما السيد بل والسند الامجد والافضل والاكمل والاروع والاورع ذو السودد حاو للنهى تجل اليها سامي رحاب وجناب حبذا منه كتاب قادح صوان حزن فاضح عن زفرات اي ور بي جمرات كامنات جاءني مستفتياً في الاسراء الاتقياء الانقياء الاصلاء الكرماء الصلحاء العقلاء اللطفاء الصبحاء الفضلاء والعلماء المنشب الاظفار فيهم ضاريات من ذئاب نسل قوم الاشقياء الرذلاء اللؤماء السفهاء الاغبياء المهناء الثقلاء الكناء القبحاء البلهاء والجهلاء اذ رجموا بالويل والخيبة من نحو قرات بعد ما قد فتكوا بل هتكوا لا تسألن ماصنعوا اعظم بمن قد فجعوا كم غدروا كم خفروا اوزارهم ليس يداويها سوى مسبار آس عادل يوم حساب وعذاب حان اسري ان تكن مستخبراً مع ثلة وارثة خذ مثلا قد ضربوا شنشنة اعرفها من اخذم لا تلد الحية الا حية منهم وفيهم صادق بل لائق وانظر لما قد صححوه عن ابي القاسم حزنا قال اواه لفراخ المصطفى أي من خؤن مجرم بل وظلوم يفشم لن يخشى من سوء عقاب وانقلاب .

ذاك في ذا الباب يفي اللوذعي الالمعي الشهم عن فتوى فقيه ذائق نصت على شق قلوب من محب فارسي مزج الدمع دماً في حبه آل العبا لا سيا في المشر يتلو صلوات زاكيات مع تسليم من المولى على زين العلى والآل في كل زمان ومكان وخطاب وجواب كتبه راجي لعناية الملك الودود الشهير بابن حمزة محمود .

اقول يتبين للقارئ اللبيب ان هذا الجواب فيه كثير من الامثال الادبية نثر يشبه النظم وهذا من بعض مزايا صاحب الترجمة وذوقه اللطيف وعلو مكانته في الادب بذكرنا بالامام الشافعي رضي الله عنه الذي هو افقه الفقهاء واشعر الشعراء .

محمد احمد البرزنجي المدني نزيل دمشق هو احد جهابذة رجال العلم والفضل

له اليد الطولى في التفسير والحديث والجرح والتعديل فقيهاً عالماً في الاصولين كان مفتي الشافعية في المدينة المنورة واحد خطباء الحرم النبوي هاجر الى دمشق مع اسرته في آخر حكم الاتراك في زمن الحرب العامة مات في دمشق سنة ١٣٣٥ ودفن بجبل قاسيون بمشهد عظيم وهو والد العلامة الشهير السيد زكي قاضي المدينة المنورة اليوم ومن ساداتها الكرام بارك الله به .

محمد المنيني مفتي دمشق ابن احمد المتقدم الذكر ابن اسماعيل مفتي دمشق ابن الشهاب احمد المنيني العثماني صاحب التآليف العديدة المشهورة الذي تقدم ذكرها مع ترجمته من تاريخ المرادي ولد صاحب الترجمة سنة ١٢٥١ نشأ في حب العلم وعكف على طلب الفنون والمعارف وتخرج وقرأ بعد خروجه من المكاتب الاهلية على علماء دمشق منهم الشيخ عبد الله الحلبي والشيخ محمد الجوخدار وغيرهما ممن لم تصل الينا اسماؤهم تصدر لقراءة العلوم الدينية والفنون والعلوم العربية في مدرسة الملك العادل لصيقة داره المشروطة لسكناه مع تدريس العلوم بها ورث ذلك عن آبائه واجداده وقد ورث عنهم ايضاً وظيفة تدريس البخاري الشريف تحت قبة النسر في جامع دمشق بعد صلاة الجمعة في الاشهر الثلاثة وحصة من الخطابة والامامة مع توليه تدريس بدارية مقام النبي الحصور وقد اشتهر فضله وعم نفعه حتى اسندت اليه رئاسة محكمة الحقوق العدلية ثم بعد المفتي الحمزاوي انتخب لمنصب افتاء دمشق كان عالماً نحريراً فقيهاً محدثاً معمراً حسن الهيئة وقوراً كريم الاخلاق والصفات وبقي مثابراً على القاء الدروس في المدرسة المذكورة الى حين وفاته وقد حضرت عليه بعضاً من الكتب الفقهية منها الدرر وحاشية ابن عابدين برع في الفقه والاصول والمنطوق والمفهوم وقد باشر الخطابة والامامة في اول عمره وكان جهوري الصوت طلق اللسان فصيح البيان لا سيما وقت القائه درس البخاري كانت تجتمع عليه العلماء والامراء وكثير من الناس علا قدره عند الامراء والحكام ونفذ امره عند الخاص والعام وفي آخر عمره صار كثير البكاء على فقد ولده الاكبر واسمه احمد افندي الذي كان عضواً في محاكم عدلية دمشق وقد احسنت اليه الدولة العثمانية برتبة قضاء الحرمين

الشريفين مع الوسام المجيدي الثاني وقد تولى رئاسة لجنة تعمير الجامع الاموي بعد حرقه الاخير وكان في كل سنة ينوي الحج ولم يتيسر له الى ان غلبته المنية وفوض امانة الفتوى عنده الى الشيخ محمد البيطار والشيخ عبد المحسن الاسطواني والشيخ عبد المحسن المرادي وابي الخير افندي الاسطواني واخيه محمد شكري افندي مسوداً وبقي مدة الشيخ ابو الخير بن عابدين يتردد على امانة الفتوى ثم قطع . مات سنة ١٣١٦ وهو خاتمة العلماء الاعلام لهذه الاسرة القديمة في العلم والمجد بدمشق دفن بمقبرة الدحداح ثم تولى منصب الافتا بعده الشيخ صالح قطنا نائب الباب وقد ورث بعده الدرس والخطابة والامامة ولده الثاني توفيق افندي وله ولد ثالث اسمه بهجت افندي من كتاب الحكومة .

محمد الشهير بالاسكندراني ثم الدمشقي احد علماء الطب الماهرين له آثار تشهد على فضله ومهارته بهذا الفن منها كتابه المسمى بكشف الاسرار النورانية لم يسبقه احد في هذا التأليف لانه يبحث عن خلاصة وفوائد النباتات وقد رغبه علماء الغرب وقال بعض الفضلاء يمدحه: لو رآه هرمس الاول لاذعن له وما اول اوطالعه جالينوس لقال اهذه اقمار ام شموس كان صاحب الترجمة حكيماً في كل شيء كريم الاخلاق متنوعاً فيما اخذ يطبب الفقراء ويعطيهم العلاج بلا عوض مات عقيماً سنة خمس وثلاثمائة والف وكنت اعرفه حق المعرفة ومن كلامه :

ان المعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان اذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك ان جفوت طبيبه واقنع بجهلك ان جفوت معلما

محمد بن علي بن عبد الرحمن الطيبي تقدم ذكر والده وجده رئيس الشافعية بدمشق نشأ في حجر والده في طلب العلم وكان اكثر انتفاعه منه ثم قرأ على بعض علماء دمشق لم تصلني اسماؤهم ورحل الى مصر وجد واجتهد وانتفع من علمائها الاعلام حتى برع في علوم كثيرة منها الحديث ومصطلحه والتفسير والفقه والاصول والحكمة والوضع والادب وفن البحث والمناظرة والفلك والجبر والمقابلة والمنطق والحساب واكثر العلوم العربية والفنون العصرية وقد صار له في العلوم الغربية والرياضيات كمال الاطلاع والاتقان وكان يتأسف

ويتألم بقوله انه يعلم كثيراً من العلوم ستذهب معه في التراب ولا من يسأله عنها وكان ينظم الشعر وعنده سلامة الصدر ومن قوله اللطيف :

اذا سكت البلابل في زمـان به نطق الغراب فقل سلاما
ولا تجزع لحادثـة الليـالي وسلم للغراب وان تسامى

تصدر للتدريس والافادة مدة ثم تولى افتاء لواء حوران مات ١٣١٨ وقد اعقب ذرية طيبة ارشدهم العالم الشيخ عبد الرحمن مفتي حوران اليوم وهو والد الفاضل عمر افندي من كتاب هذا العصر .

محمود بن علي بن عبد الرحمن الطيبي الدمشقي شقيق محمد المذكور اعلاه نشأ في حجر والده في طلب العلم وكان اكثر انتفاعه منه وقرأ على بعض علماء دمشق ، كان فقيهاً برع في علم الفرائض يستفتي من سائر الامصار له حجرة شهيرة يقصد بها في مدرسة العصرونية يحب العزلة وعدم المخالطـة ويكره معاشرة الامراء والحكام وهو سليل اولئك الابطال الذين اشتهر فضلهم وعم نفعهم مات سنة ١٣٣٣ .

مصطفى بن احمد الشهير بابي الذهب الدمشقي اصل مهاجر اجداده من بلاد مصر ولد بدمشق سنة ١٢١٠ نشأ من بين اسرته في حب طلب العلم وادرك الطبقة العليا من علماء دمشق منهم الكزبري والعطار والطيبي وغيرهم ولازمهم وحضر مجالسهم واجيز منهم تولى قضاء الحج الشامي ثم قضاء الشرع في بعض اقضية دمشق كان يحب التردد على الحكام والامراء وتحترمه العلماء انيس المعشر لا يمل جليسه من لطافة حديثه حفظ كثيراً عن احوال السلف واخلاقهم عاش قرناً كاملاً وزاد عليه . مات سنة ١٣١٧ واكثر اسرته تشتغل بالصناعة والتجارة وقد ترك له حفيداً اسمه محيي الدين افندي احد قضاة الشرع في اقضية دمشق .

ميخائيل مشاقه احد مشاهير رجال الطب والحكمة ولد في اعمال لبنان وأتى دمشق وقرأ الرياضيات فتلقن جميع العلوم العصرية واكثرها من ابيه وكان على صغر سنه يجالس كبار القوم ويستفيد من احاديثهم هو من افراد

رجال عصره وقد فاق اقرانه اشتغل في الفلك والحساب وفي فن الطب والفلسفة وله مؤلفات كثيرة منها البرهان على ضعف الانسان والجواب على اقتراح الاحباب ومشهد الاعيان مات سنة ١٣٠٧ وقد اعقب ولدين ماهرين في الطب والحكمة مر ذكرهما بحرف الالف هما اسكندر وابراهيم ·

محمد بن علي المرعشي الاصل ثم الدمشقي الحنفي احد ناشري العلم والتعليم بدمشق قل ان تجد عالماً او اميراً الا وهو احد تلامذته اتقن العلوم العربية والفنون العصرية برع في اصول التعليم والتلقين باسلوب غريب يبقى في ذهن الطالب مدى الدهور والايام بقي مدة طويلة تقرب من اربعين عاماً وهو يعلم في المدرسة الجقمقية له اليد الطولى في النحو والمنطق والاصول والصرف والمعاني والبيان اشتهر فضله وعم نفعه ادرك الطبقة العليا من العلماء واخذ عنهم سائر العلوم والفنون وهو احد اساتذتي في تلك المدرسة مات سنة ١٣٤٠ له اثر لطيف سماه نصيحة الخلان حض به على تعلم العلم وتعليمه وذكر قول الامام علي المنسوب اليه :

الا لا تنال العلم الا بستة　　سأنبيك عن مجموعها ببيان
ذكاء وحرص واصطبار وبلغة　　وارشاد استاذ وطول زمان

محمد الحطابي النابلسي وطناً الدمشقي مسكناً اتى دمشق وهو صغير مع عمه وقرأ عليه وكان اكثر انتفاعه منه وهو حنبلي المذهب ثم تحنف لا لامر دنيوي بل حباً وميلاً لمذهب الامام الاعظم وهو من بيت قديم اشتهر في نابلس بالعلم والفضيلة كان عالماً فاضلاً فقيهاً له مشاركة في اكثر العلوم والفنون تصدر للتدريس في جامع دمشق بين العشائين عند المنارة الشرقية وكان يعلم الاولاد في مكتبه الخاص عند سوق الحرير الذي زال اثره اليوم وكنت احد تلامذته في المدرسة والدرس له آثار ومؤلفات تدل على فضله وعلمه منها شرح على الجوهرة في التوحيد وشرح على الايساغوجي في المنطق وكتب شيئاً على التلخيص في المعاني والبيان مات في الهند سنة ١٣٢٢

محمد بن محمد فارس بن احمد الصالحي الشافعي الشهير بالتكريتي وبالشيخ

داود المترجم في زهر النهضة للعلامة البربير نشأ في حب طلب العلم ورجاله وحضور مجالس الادب وقرأ على بعض علماء دمشق منهم محيي الدين العاني وسليم العطار وعبد الله الحيدري الكردي واخذ طريق القوم وسلكه على علي محمد خليفه العقلي المكي والشيخ عبد القادر ابي رباح الدجاني كان يقرأ بعض الدروس المفيدة في داره وفي جامع الشيخ محيي الدين الاندلسي اشتهر في صالحية دمشق بحب قضاء حوائج الناس وكانت ترجع اليه لحسم كل اختلاف يقع بينهم وهو من بيت قديم ذكر السبكي والسيوطي في طبقاتها والغزي في الكواكب وفي مختصر الدارس جماعة من بلادهم مات سنة ١٣١٣ وقد رثاه الشيخ ابراهيم العطار بقوله :

شمس العلوم محمد بحر المزايا والطرف
تكربت منشأ اصله والفرع بالاصل اتصف

محمود بن عبد المحسن الدمشقي الاشعري الشهير بالموقع كان في مدرسة البدرانية ورحل الى مصر والاستانة مراراً ومدح بها بعض رجالها الاعيان كانت تغلب عليه السوداء ويميل طبعه الى الانزواء له شغف في وضع الاوسمة في الايام الرسمية وحب تقلد الرتب وله آثار في الادب وقد شرح الشمائل الكريمة الترمذية ومناسك في الحج وله ديوان شعر طبعه ولده في مصر مات سنة ١٣٢٢

محمد الطيب ابن الشيخ محمد المبارك المغربي الجزائري شيخ الطريقة الشاذلية جعل مقر ارشاده للطريق ووعظه للناس في مدرسة الخضيرية اعتقده الخاص والعام مات سنة ١٣١٣ وله اخ اسمه محمد المبارك الطيب حضرا مع ابيهما لدمشق وتعرف بعلمائها وامرائها وكانا موضع الاحترام عندهم وقرآ على بعض علماء دمشق وبلغائها منهم العلامة الشيخ محمد الطنطاوي وغيره نبغ المبارك في اللغة والادب وتفرد في النثر والنظم اشتهر فضله بين الانام وعم نفعه للخاص والعام له اليد الطولى في اكثر العلوم والفنون برع في المناظرات والمحاضرات والمساجلات وهو احد ناشري العلم والتعليم في مدرسة الريحانية

ومؤسسها خرج على يده كثير من الادباء والبلغاء وكنت احد تلامذته في تلك المدرسة جزاه الله عنا خير الجزاء وله رسائل ومحاورات ادبية كثيرة وبعض حواش على بعض كتب الادب المهمة والذي طبع منها واشتهر بهجة الرائح والغادي في محاسن الوادي كان اديباً فاضلاً شاعراً متفنناً في علم البحث قد نشر له ولده الفاضل الاديب والشاعر اللبيب الشيخ عبد القادر كثيراً من آثاره ونفحاته مات سنة ١٣٣٣ ودفن مع اخيه في المزة عند الجبل المطل على الربوة بمشهد عظيم .

محمد بن علي الشهير بالحكيم الدمشقي اشتهر رجال اسرته في الطب والحكمة ونشأ صاحب الترجمة من بينهم في طلب العلم وكان والده وجده يشتغلان في الطب القديم. جد واجتهد في العلوم العربية والفنون حتى نبغ في اللغة والادب وفن الانشاء كان فاضلاً اديباً حسنة من حسنات الدهر التي عاجلنا باستردادها وعد فقده نكبة من نكبات العصر الذي داهمنا بفقده وقد برع في النحو والصرف والمنطق وكثير من العلوم العصرية وتفرد في اساليب التعليم والتربية وحسن التفهيم في مدرسته الشهيرة الريحانية التي تخرج منها طائفة صالحة من مشاهير كتاب العصر الحاضر وكان اساتذة هذه المدرسة ومنهم المترجم يصرفون معظم عنايتهم الى تربية وتثقيف عقول تلاميذهم وتخريجهم على المبادئ والاخلاق الطيبة وكان مربياً حكيماً صابراً على الضراء شاكراً على السراء انتفع به كثير من الطلبة والنشء الجديد لازم رهطاً من العلماء منهم المحدث الشهير الشيخ بدر الدين المغربي والشيخ طاهر الجزائري الشهير والشيخ محمد الطيب المبارك وغيرهم مات سنة ١٣٣١ وقد اعقب ذرية نجيبة نبغ منها رشدي افندي وهو من رجال الادارة ومن كتاب هذا العصر وادبائه .

محمد المرتضى ابن السيد محمد السعيد الجزائري الحسني الذي تقدم ذكره في القرن الثالث عشر وهو ابن اخي الامير عبد القادر الجزائري نزيل دمشق هاجر مع عمه ووالده من ايالة وهران من اعمال الجزائر وتربى في

حجر والده واخذ في الخوض في عباب المعارف عليه وكان اكثر انتفاعه منه واخذ عن غيره من فحول العلماء ، جد واجتهد حتى برع في سائر العلوم والفنون وقد حضر مع عمه الامير الخطير والمجاهد الكبير عبد القادر معظم وقائعه الحربية المشهورة مع الافرنسيس وله برنس كان يلبسه في الحرب لم يزل فيه أثر الرصاص الى الآن وهو موجود عند رحيمه الفاضل الشيخ محمد سعيد اياس الدمشقي احد علماء بيروت لازم عمه المشار اليه في قراءة العلوم في اثناء المهجر والاقامة في مدينة بروسه من اعمال الاناضول ثم لحق بالامير الى دمشق مع والده واعمامه سنة ١٢٧٣ وبعد ان اقام بدمشق سنتين توجه الى دار السعادة فاكرمت الحكومة السنية الاسلامية وفادته ورتبت له ١٥٠٠ قرش شهرياً وفي سنة ١٢٨١ حج مع عمه الامير ثم بعد ادائه الفريضة آب الى دمشق واقام بها مدة يشتغل في تعليم العلم وارشاد المريدين فانتفع على يده خلق كثير ثم ذهب الى بيروت واختارها موطناً له وقام فيها بخدمة العلم ومن خلفائه في الطريق الشيخ عبد الوهاب الشركة من علماء دمشق والشيخ رجب جمال الدين صاحب كتاب الهدية في النحو والشيخ يوسف علايا الدمشقي كلاهما من اجلة علماء بيروت ولصاحب الترجمة نظم رائق في مدح خير الخلائق لا يخلو مجلسه عن فائدة علمية او نكتة ادبية او حكمة او مسألة تاريخية كان جبلاً راسخاً في العلم وطوداً شامخاً في سمو الادراك والفهم مات في بيروت سنة ١٣١٦ وقد رثاه الشاعر المجيد ابو الحسن الكستي الشهير وهو والد صديقنا العالم الفاضل محمد افندي الكستي قاضي مدينة بيروت اليوم بقصيدة منها قوله :

قضى نحبه مولى عليه بكى الدهر واضحى بملقى ذاته يضحك القبر
هو المرتضى ذو الفضل من خير اسرة اليها ينسب المعروف والكرم الوفر
لقد كان استاذاً جليلاً وقلبه مع الله في حال التجلي له سر

وقد رثاه ايضاً العلامة الشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت اليوم بقصيدة طويلة اخذنا منها قوله :

مات الامـام العالم الرباني   كنز الهدى واليمن والايمان
السيد السند الشريف المرتضى   علامـة العلماء ذو العرفان

الى ان قال :

خطب عظيم ازعج الاسلام في   بيروت بل في سـائر البلدان

وقد كان مدحه ابو النصر يحيى السلاوي صاحب عكاظ الادب في تاريخه صحيح القياس بقصيدة طويلة منها قوله :

بذكر المرتضى اجد المعاني   تساعدني على نشر المثاني
امام فاضل علم همـام   رضاه لنشر سيرتـه دعاني

محمد بن قاسم ابن صالح الشهير بالقاسمي الحلاق نشأ في حجر والده واخذ العلم عن مشايخ دمشق وقد تقدم ذكر اخيه ووالده وجده وابن اخيه تولى الامامة والخطابة في جامع حسان كان عالماً فاضلاً فقيهاً يصدع بالحق انتفع به كثير من الطلبة مات سنة ١٣٢٧ وقد ترك لنا ولداً نجيباً اديباً حسن السيرة والسريرة اسمه احمد افندي رئيس ديوان الاوقاف الاسلامية المتعلم كثيراً من اللغات .

مختار ابن احمد المؤيد ابن نصوح باشا الشهير بالعظمي نشأ في حجر والده وتخرج من المدارس الاهلية العالية وتعشق بطلب العلم وملازمة رجاله فأخذ عنهم حتى نبغ في الآداب العربية والعلوم والفنون رحل الى مصر وسكن في المدينة مدة . له مؤلفات وردود على المبتدعة وآثار نفيسة تدل على علمه وفضله مات عقيماً سنه ١٣٤٠

مصطفى بن علي الشهير بالحلاق اشتهرت اسرته في البيع والشراء في سوق المصرونية بدمشق جد واجتهد في طلب العلم وقرأ على علماء دمشق منهم الشيخ سليم العطار وغيره من العلماء الاعلام تصدر للوعظ والقاء الدروس في جامع الاموي وفي جامع التعديل في حي القنوات وانتفع منه كثير من الناس ثم اشتغل في المحاماة كان فقيهاً متضلعاً بالعلوم والفنون يميل للمؤانسة والملاطفة مع كل احد ويجتمع مع سائر الطبقات ويخالطهم بحديثهم ويسمع

منهم الطيب ويرد لهم الخبيث ويعظهم بموعظة حسنة مات سنة سبع وعشرين وثلاثمائة والف وكان يردد قول شاعر بيروت عمر الانسي في كلامه المشهور:

ولقد كانت بشيشة ما نالها   كسرى ولا ماء السماء لها حوى
اعددتها لي شادياً يشدو على   نغم الحجاز اذا اضر بي النوى
ومن الصبابة اعربت نغماتهـا   ما اضمرته بقلبهـا ايدي الجوى
حتى اذا سامرتهـا وترنمت   كترنم الحـادي بمنعرج اللوى
غنت فاطربت الجليس بصوتها   وكذاك من بفؤاده لعب الهوى

وكنت سمعت في هذا المعنى بيتين من العلامة الاستاذ الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية حين قدم دمشق قال :

ولابسة من الياقوت تاجاً   تقهقه لي اذا قبلت فاها
اذا ما رمت اكتم سر وجدي   ارى فاها بسر الوجد فاها

كما اني اتذكر قول العارف النابلسي الدمشقي الشهير في شرب الدخان قوله :

دخان التبغ هام بـه البرايا   فطيب العود سفل وهو علو
مرارتـه حلاوة ذائقيه   الا فاعجب لمر وهو حلو

وبهذه المناسبة تذكرنا حادثة وقعت بين شيخ الاسلام سنان افندي الملقب بالتي برمق الشهير وبين العارف النابلسي وكان منكراً بها عليه ولما قدم الى دار الخلافة واجتمعا سوية وتحادثا في ما قالته العلماء في مسئلة الدخان وما قاله النابلسي في كتابه وبعد ان حصلت له القناعة وتغير حاله من حال الى حال قال شيخ الاسلام :

جهول منكر الدخان احمق   عديم الذوق بالحيوان ملحق
مليح مـا بـه شيء حرام   ومن ابدى الخلاف فقد تزندق
الا يا ايهـا الصوفي ميـلا   الى الدخان علك ان توفق
ولولا ان في الدخـان سراً   لما فاحت روائحه وعبق
ففي الدخان سر الله يبـدو   وشاهده المحقق التي برمق

وكان يترنم بقول الشاعر في حق النجم المذنب :

هذا المذنب فيه بانت نكتة حارت لحكمتها اولو الالباب
ذنب قبيل الرأس يبدو ظاهراً هــذا دليــل تقدم الاذناب

وكان يقول قد ورد في هذا المعنى الحديث الشريف ومعناه سيظهر في آخر الزمان الفحش والبخل وتظهر التحوت على الوعول فقالوا يا رسول الله ما التحوت وما الوعول فقال عليه الصلاة والسلام الوعول هم اشراف الناس واعاليها والتحوت الذينهم اسفل منهم فتعلو عليهم

محمود بن محيي الدين بن مصطفى الشهير بأبي الشامات الدمشقي الحنفي شيخ الطريقــة الشاذلية اليشرطية بدمشق نشأ من بين اسرة اشتهرت في التجارة وكان في بادئ امره يشتغل في البيع والشراء ثم جد واجتهد في حب طلب العلم والادب ولازم اكابر علماء دمشق وحضر مجالسهم وقرأ على كثير من فحول العلماء منهم الشيخ القاسمي الكبير والشيخ عبد الغني الميــداني صاحب شرح القدوري والشيخ ابن البيطار امام جامع السنانية والشيخ محمد تلو وغيرهم وقد عكف على نشر الطريق وسلوك المرشدين الى اقوم طريق بعد ان حصل له الاذن والفيض المعظم من شيخه الصوفي الكبير والعارف الشهير الشيخ علي نور الدين اليشرطي المغربي نزيل عكا . كان صاحب الترجمــة شاعراً فاضلا حسنة من حسنات الدهر ونابغة من نوابغ هــذا العصر كريم الاخلاق والصفات اشتهر فضله وعم ارشاده له اليد الطولى في النظم والنثر يكثر التغزل بكلام القوم وقد جمع ولده الفاضل الشيخ عبدالرحيم كثيراً من كلامه وسماه السنوحات وقد اقتطفنا بعض الشيء من كلامه منها قوله :

لكل عصر لفرد راية خفقت وعصر رايتنا البيضاء جاءت
عصر الوحيد علي القدر مرشدنا اليشرطي الذي عنه الاشارات

وقال ايضاً يرثي شيخه بقصيدة طويلة مطلعها :

عليك امام الوقت تبلى البصائر كما قد بليت حقاً عليك السرائر

ومن شعره اللطيف ايضاً قوله :

تقول لي الاحباب حين وداعهم متى انت يا استاذ للشام راجع

فقلت لهم والله ما من مسافر　　يروح ويدري ما به الله صانع

وله مؤلفات ورسائل تدل على طول باعه وسعة علمه وقد ترك آثاراً تدل على فضله منها رسالة المعشرات ورسالة الموالاة وله تضمين البردة الشريفة ومنها قوله :

دع ما ادعته النصارى في نبيهم　　من انقسام اقانيم بوهمهم
ومن حلول وما التوحيد يرفضه　　واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

وله رسالة عروج السالك ودنوه وله قصيدة عجيبة نادرة المثال في اثبات وحدة الوجود والمثال المضروب لكلام العارف النابلسي وله مولد على لسان القوم غريب في بابه يدل على علو معرفته في لسان الحقيقة وقد طبع . وله شرح لطيف على الوظيفة الشاذلية وله رسالة في لبس الخرقة المصطلح عليها عند الصوفية ، وله التضمين على الوظيفة والسلوك وله كتاب شرح الحكم وله شرح التائية الكبرى في اربعة مجلدات وله السر المكتم بمعرفة الاسم الاعظم وله مولد آخر نظم بلسان القوم وله تخميس تائية الفارض وبالجملة كان زهرة عصره وزينة اوانه بكت العيون لفقده لايمل جليسه ولا يستوحش انيسه ولد سنة ١٢٦٦ ومات بدمشق سنة ١٣٤١ ودفن في زاويته الكائنة في حي القنوات التي وقفها عليه الوزير رضى باشا القرين الثاني للسلطان عبد الحميد الثاني وكان ذلك المحل قديماً داراً لحكومة دلي بلطة بعد ان اسست قبل ذلك من قبل الحكومة المصرية والدولة الفاطمية زاوية لابن عطاء الله الاسكندري صاحب الحكم وقد ترك من بعده ذرية مباركة نجيبة اكبرهم الشيخ عبدالله على نسق البسملة ثم عبد الرحمن ثم الشيخ عبد الرحيم بارك الله بهم وكنت سمعت منه يوماً يردد قول الشاعر :

لي جبة مجرورة يا طالما　　قد كنت البسها بغير تكلف
كم رمت اقلبها فقالت جهرة　　قلبي يحدثني بانك متلفي

ومن شعره اللطيف قوله :

اذا اعتز بالاموال قوم فعزنا　　هو الله ذو الاكرام جل جلاله

وان قال ان المال يأتي بقوة فقوتنا الرزاق عز نواله

وقد ضاهر صاحب الترجمة احد شعراء هذا العصر واسمه الشيخ سعيد بن علي الشهير بالعطار كان نابغة بين اقرانه في الادب له مدائح كثيرة وتغزلات وفيرة لو جمعت لكانت ديوانا لطيفاً .

نورالدين النقيب على عموم الاشراف في ممالك الدولة العثمانية ابن السيد الحسين بن السيد محي الدين الحسني الجزائري ثم الدمشقي وهو ابن اخي الامير عبدالقادر الشهير ولد في الجزائر وحضر مع ابيه حين مهاجرة اسرتهم لدمشق نشأ في حجر والده وشاركه بالاخذ عن بعض علماء دمشق وقرأ ايضاً على كثير من معاصريه لم نقف على اسمائهم . كان حسن السيرة والسريرة محترماً عند الحكام تقلد وظائف كثيرة منها اول مأمورياته استخدم في معارف الاستانة ثم نقل الى مديرية اوقاف حلب ثم تولى قضاء حيفا ثم لواء حوران وبعدها تولى قضاء اللاذقية ثم طرابلس الشام مرتين ثم انتقل الى سينوب وترقى الى ولاية الموصل ثم رحل الى الاستانة وتولى خدمة النقابة على الاشراف في الممالك العثمانية ومات عنها سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة والف وعند توليته لهذه الخدمة الشريفة جاءنا منه كتاب محول من والي دمشق الى دائرة النقابة بها يشعر تقلده هذه الوظيفة ويوصي به جميع نقباء الاشراف في ولايات الدولة العثمانية برعاية آل البيت الطاهرين وتأمين راحتهم وطلب الادعية منهم لمقام خليفة المسلمين وحضهم على اتباع اوامر جدهم سيد المرسلين وقد سجلناه في سجل النقابة عندنا مع غيره من المحررات الرسمية وقد اعقب صاحب الترجمة انجالا ادباء ارشدهم الآن الامير مختار تولى متصرفية دير الزور وكان يردد في مجلسه قول المقري :

ما اجهل الامم الذين عرفتهم ولعل سالفهم اضل واتبر

يدعون في جمعاتهم بسفاهة لاميرهم فيكاد ينقضي المنبر

وتقدم في كتابنا ذكر من اشتهر من رجال هذا البيت الكريم وازدان في ذكر مآثرهم وقد تفرع منهم جماعة لم يسبق ذكرهم وهم الامير خالد والامير

مختار والامير محمد علي أبناء السيد عبد العزيز بن السيد الحسن ابن عم الامير عبد القادر من خيرة رجال الادارة المتفوقين النابغين في هذا العصر .

ومما قاله في حقهم السيد الصيادي نقيب اشراف حلب في الروض البسام مانصه : ومن آل ادريس في دمشق اسرة الامير الشهير الغطريف الكبير السيد عبد القادر ابن السيد محي الدين الجزائري الحسني نزيل دمشق

كان لنا خلا ومن طبعه ود الأخلاء وصدق الوفا
خلائق قامت بأعراقه وهكذا سلالة المصطفى

هو من اعاظم الأدارسة ومن صدور عصائبهم وسادات فصائلهم ونسبه فيهم نسب صحيح شهير لاريب فيه وقد كان من صلحاء الاشراف الاعلام له علم وذوق وعبارات في التصوف رشيقة ولسان عذب مع عبادة وتقوى وتحقق بالطريق الاقوى وهو من فحول الامراء وانه معدود عند من يعرف قدره وفضله في الطبقة الاولى من الاشراف الكمل وممن ينتظم فيهم سلك عقود الصدر الاول انتهى كلامه

وقد هاجر كثير من رجال الجزائر وتونس وطنجة ومراكش وبرقة وغيرها من البلاد المغربية الى دمشق اكثرهم ينتمون الى الامام الحسن وبيدهم سلاسل تدل على ثبوت دعواهم والناس امناء على انسابهم ولولا خوف الاطالة لاثبتنا الذين اشتهروا منهم

ياسين حلمي الشقيق الوحيد لجامع هذا التاريخ نشأ في حب طلب العلم بعد ان تخرج في المكاتب الابتدائية الاهلية على اساتذة فضلاء كالشيخ الجليل احمد دهمان والشيخ المرشد الكامل محمد عيد السفرجلاني ثم قرأ مبادئ العلوم على علماء دمشق منهم الشيخ عبد المحسن المرادي والشيخ نجيب كيوان والشيخ عبد القادر المالكي والشيخ امين السفرجلاني والشيخ عبد المحسن الاسطواني والشيخ رشيد سنان فقرأها جد واجتهد في النحو والصرف والفقه والفرائض والمنطق . كان شاباً اديباً حسنة من حسنات الدهر التي عاجلنا باسترداده مثال الشاب الصالح والشقيق الصادق ذا مبدأ قويم وطريق مستقيم ساكن

الحركة كثير البركة سليم الصدر حسن السيرة والسريرة مات سنة اربع واثنين وثلاثمائة والف وقد جاءه غلام بعد موته وسمي محمد صالح اصلح الله احوالنا واحواله وجعله خير خلف بمنه وكرمه . وكان سيدي الاخ تولى نقابة الاشراف في قضاء دوما ثم صار كاتباً في المحكمة الشرعية الكبرى بدمشق واحسن اليه برتبة كبار المدرسين العلية

ولقد مضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

بحث تابع للتنبيه الذي كتبناه في الجزء الاول بخصوص القضاء

لا نريد ان نبحث في القضاء من حيث يعرفه الناس انه منصب من المناصب ولا حاجة الى ان يكتب في فضائله واهمية ما كان يكتب ايام ازدهار العلوم وانما نروم الكشف عن منشأ القضاء وبيان من تولاه في صدر الاسلام الى ايام استفحال العلم واتساع مناحيه . ووفرة رجال الفضل وائمة الاجتهاد فيه وما وصل اليه في عهد الدولة العثمانية والفرق بينه وبين وظيفة الفتوى . بيد انا نقتصر على بيان ذلك بكلمة موجزة من لباب هذا البحث التاريخي الاجتماعي ونترك للقارئ التوسع باطرافه بالرجوع الى كتب مدونيه واسفار التاريخ فأقول :

القضاء من وظائف الاسلام الاولية الاساسية وكان النبي عليه الصلاة والسلام يتولاه بنفسه وله قضاة من اصحابه يرسلهم الى النواحي مثل الصحابي الجليل عمار بن ياسر وغيره ليحكموا بين الناس . وهم غير العمال وقد قال صلى الله عليه وسلم اقضاكم علي . وكان الخلفاء الراشدون من بعده يقضون بانفسهم ايضاً وينصبون ويختارون للمدن قضاة من اعلمهم ومن اشهر قضاة التابعين شريح وكذلك ملوك بني امية ومن اشهر قضاتهم اياس بن معاوية ثم ملوك بني العباس بعدهم ومن اشهر قضاتهم القاضي يعقوب ابو يوسف ولما اتسعت الممالك لزم ان يكون لكل بلدة ومدينة قاض ويعود امرهم كلهم الى قاض في كرسي المملكة يسمونه قاضي القضاة وهو لقب مشرقي ويقال له عند دول الاندلس

والمغرب وبخارى وسمرقند قاضي الجماعة واما تفصيل عناية الدول في امره واستثمار فوائده واعتنائهم بانتخاب رجاله فيحجب عما كانت في العصور الاولى عليه . وما آلت في زماننا اليه ولئن كان لضعف العلم في عصرنا مدخل في هذا التباين الا ان اليد الغالبة القوية تفني امة مغلوبة ضعيفة تندرس آثارها وعلومها وتمحو عاداتها ورسومها . ولاختلاف حكم الدول وتعاقبها على الممالك مدخل عظيم في اختلاف قوانين العلم والاخلاق في جميع المسالك

واما وظيفة الفتوى فيرجع تاريخ نشأتها الى بدء الاسلام لكنها لم تكن مخصوصة بواحد معين بل كان المرجع فيها كبار الصحابة والتابعين ثم من بعدهم اشتهر بها اصحاب الرأي وعلى ذلك درجت دول الاسلام الى عصر الدولة العثمانية فأحدثت تخصيص هذا المنصب بشخص سمته امين الفتوى او رئيس المفتين ثم لقبته بشيخ الاسلام وربطت فيه مفتي البلدان ومجلس انتخاب الحكام وجعلت له الاشراف على قضاة الروملي والاناضول واسلفناك في كتابنا عن تعليل اضافتها الى القضاء وكان ابتداء ذلك من عهد السلطان مراد عين لذلك المنصب محمد شمس الدين الفناري الشهير في سنة ٨٢٨ هـ وبقيت تلك الوظيفة معمولاً بها الى انقراض الدولة العثمانية وملوكها . واما دولة جمهورية تركيا الجديدة فقد احدثت في محلها مديرية العلمية الدينية والفرق بين القاضي والمفتي ان القاضي يحكم بالحكم الشرعي مع الزام المحكوم عليه بالتنفيذ . والمفتي يبين حكم الله تعالى في النازلة للسائل ويدعه وشأنه اذ ليست له سلطة على التنفيذ .

فالقضاة بوجه الاجمال من عهد الصحابة لآخر الدولة العباسية كلهم بل اكثرهم ائمة اعلام وكانوا يترفعون عن قبول ذلك المنصب ويرجحون بعضهم على انفسهم بقولهم فلان اعلم مني واصلح للقضاء هرباً منه والبعض منهم وضعوا في السجن لاجل قبوله . وفي زمن ملوك الطوائف كان يوجد بينهم الكفء وغير الكفء حتى اتت الدولة العثمانية ولمت شعث الممالك الاسلامية فكان في ضمن ما اصلحته من الامور العامة الاجتماعية القضاء وكان مبدأ امر القضاة

فيها على احسن الاحوال ينتخب له الاكفاء من العلماء وعلى هذا درجت قريباً من اربعة قرون وبعد ذلك دخل الوهن على امر القضاء كما دخل غيره من شئون الادارة واخذت تتلاعب الاهواء والاغراض بجميع المناصب العلمية والملكية وفي اوائل هذا القرن سادت احوال القضاء لدرجة تلاعبت به الايدي حتى تقلده الجهلاء . والغريب ان القضاء العدلي بجانبه كان يرتقي الى اوج الكمال وكانت الحكام العدليون اكثرهم اكفاء لما يتولونه من الاعمال .

وبنتيجة هذه الفوضى رأت مشيخة الاسلام نفسها في آخر عهد الدولة مضطرة لتأسيس معهد للقضاء وبأول اعلان الدستور العثماني حصرت وظيفة القضاء في خريجي هذا المعهد ومع هذا كله رأت الحكومة العثمانية في آخر عهدها ان الصواب الحاق ادارة امر القضاء الشرعي بوزارة العدلية اي الحقانية وبقي ذلك العمل مرعياً في بلادنا الى اليوم .

وقد عثرت على كتابة نفيسة فيها عظة واعتبار لمن اعتبر في انتقاد هذا الموضوع كتبه العلامة شهاب الدين الخفاجي في كتابه ريحانة الالباء حينما كان نزيل الاستانة في القرن الثالث عشر قال :

لما انهدم من الفضل بنيانه وانقضت عمده واركانه وقوضت خيامه واندرست رسومه واعلامه وصار امر الفتوى والقضاء والمناصب العلمية ملعبة وشعبذة وسخرية والمدارس مأوى الحمر .وتقلد القضاء من ليس في العير ولا في النفير ا ظهرت اشراط القيامة ولبس لباس الجهل من النعل الى العمامة . وولي الفجار الاشرار فصاروا اقسى من الحجارة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وقد قال افلاطون اذا تساهلت في القضاء والاطباء دولة من الدول فقد ادبرت وقرب انحلالها فظهرت اشراط الساعة وصارت كلمة الفحش والشح مطاعة وفشا العجب والغرور وتقدمت اطفال الى منصة الحكم صدرتهم اعجازهم في الصدور الى آخر ما قال وهذا في زمنه فكيف في عصرنا اليوم ترك هذا الامر الهام الى الامراء والحكام من رجال هذا العصر الفضلاء والله الموفق الى سواء السبيل .

الباب السابع

في ذكر بيوت دمشق القديمة ومثريها الذين ورثوا المجد عن اسلافهم وبينهم آل العترة الطاهرين ومن ينتمي الى احد الصحابة ومصير امورهم وما بقي من آثارهم

قد علم فيما سبق ان الغرض من كتابنا هذا هو الوقوف على الحالة الاجتماعية والعمرانية لدمشق من بدء الخليقة حتى الآن فالجأت ضرورة الحال ان يكون ضمن فصول هذا الكتاب باب يبحث عن بيوتها القديمة الرفيعة التي انجبت رجالا دخل قسم عظيم منهم في ادارة شئون البلاد حكاماً واعضاء وعمالا على اختلاف درجاتهم ومسالكهم لكوننا قد رأينا بيان علماء القرون الاربعة عشر تلا بعضهم بعضاً فبعد ان فرغنا من تراجمهم جاءت نوبة الكلام على اخوانهم واخدانهم في تطوير الحالة الاجتماعية لهذه العاصمة الكبرى

ولما كان التنقيب عن تلك البيوتات والتحري في جميع ادوار أعصر هذا الكتاب غير مستطاع الآن وكذلك الحال في الاعصر الاسلامية التي اتت على هذه المدينة ايضاً وبما ان مالايدرك جله لايترك كله اجتزأت من ذلك بذكر البيوتات التي بقيت سلائلها تدل على اسلافها وعاصرنا القسم الاعظم من رجال تلك السلائل غير ملتزمين التنقيب عن مبدأ مجيء من جاء منهم من ديار اخرى وعن بيان ارومتهم في بلادهم القديمة فاكتفينا ببيان حالتهم الحاضرة المرئية بالعين والملموسة باليد ومن سنن الكون ان لايظل الغني غنياً ولاالفقير فقيراً وان من رأيناهم اغتنوا في العهد الاخير بالنسبة لمجموع ثروة الامة هم الذين سعوا الى الرزق من ابوابه ومعظمهم بعد ان اغتنوا لازالوا يعيشون عيش البساطة ولا يبعد ان يجيء يوم يتولى اولئك الذين لانعرفهم الآن او

لانريد ان نعرفهم ازمة الامور ويصبحوا هم اعيان البلاد وانما ذكرنا ابناء العترة الطاهرة ومن يلتحق بهم فقط ولو لم يكن لهم مجد حاضر دنيوي لاجل ان نعظهم اولاً بوجوب التمسك بطريقة اسلافهم الطاهرة وان لايطوحوا بأنفسهم الى مافيه هوانها وابتذالها لقلة ذات يدهم او لكونهم لايعبأ بهم عند الناس ولاجل ان ننصح الى سائر الخلق ثانياً بوجوب رعاية واكرام سلائل العترة الطاهرة ومن يلحق بهم مهما بعدت بهم سلسلة النسب لان الجوهر الثمين لاينقص من قيمته ماعليه من الوضر والوسخ وبوجوب قضاء حوائجهم والقيام لهم مع بعضهم وطلب مرضاة الرسول عليه الصلاة والسلام مع توقيرهم واكرامهم والاحتفاء بهم لان اكثر الطباع درجت في هذا الزمان على حصر العناية والاعتبار لاصحاب الدرهم والدينار وذوي الجاه العريض والبئر والقريض راجين ان يرجع الناس بذلك الى ما كان عليه سلفهم الصالح من علو الاخلاق وطهارة الاعراق والحب في الله والبغض في الله وتكريم رحم رسول الله عليه الصلاة والسلام

وانا لنأسف كل الاسف على الحالة الاخلاقية هنا التي عم بسببها ذلك التهاون واصبح المغب عن مزايا الامم الاسلامية وما اودعته تعاليم دينهم في النفوس من اعظام السادة الاشراف الذين اتى جدهم عليه السلام بتلك التعاليم والعلماء الاعلام الذين وقفوا اعمارهم على نشرها يصعب عليه ربط حلقة طبقات المسلمين في هذه البلاد بما قبلها من حلقات طبقات اسلافهم الذين نشرت بسببهم في اقطار بعيدة واصقاع شاسعة كبلاد الهند وبخارى والغرب والافغان وايران فضلا عما رسخ في انفسهم من المزايا الفاضلة والاخلاق الكريمة

واقرب الاسباب التي يتناولها المؤرخ تعليلا لذلك التهاون هي قلة العناية بسيرة السلف الصالحين وزيادة الحرص على حطام الدنيا والغفلة عن الاقتداء بالسلف وعن تقدير من يقوم بالاعمال العامة حق قدره

وكأن الناس عند هؤلاء المتهاونين خلق افذاذ . لارابطة تربطها ولا جامعة تجمعها . نعوذ بالله من انطفاء نور البصيرة ومن غلبة الحسد على الروح .

ولا انسى ان ادعو قومي في هذه البلاد ان يلهمهم مولاهم تقليد العراق واليمن والاناضول والحجاز والغرب ومصر وبخارى وما يتبعها والهند وبلاد العجم والافغان وجزيرة العرب في الرجوع الى تكريم واحترام من بينهم من السادة الاشراف ، ولو كانت نسبته من الامهات لما ورد في الحديث الشريف الذي رواه عمرو بن مكتوم ونقله الامام العيني انه يجوز نسبة الرجل الى امه اذا اشتهر بذلك .

وقد كتب المؤرخ الشهير والعالم النحرير الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي امام جامع السنانية تأليفاً لطيفاً في صحة شرف الاسباط واورد في مؤلفه الادلة الكافية في قوة شرفهم والتحاقهم بالسيادة . ثم نقل شيئاً عمن تولى نقابة الاشراف من كتاب تحفة الطالب قال اول من تولى النقابة على الطالبيين السيد الحسين النسابة النقيب ابن السيد احمد المحدث بن عمر بن يحيى بن زيد الشهيد ابن علي بن الحسين بن الامام علي بن ابي طالب عليه السلام . وذلك ان السيد الحسين النسابة المذكور لما حضر عند المستعين بالله التمس ان يكون الحاكم على الطالبيين رجلا منهم يطيعونه ويعرف اقدارهم ومنازلهم ، ولا يحكم فيهم اتراك بني العباس فاستصوب الخليفة رأيه وجمع من هناك من الطالبية وامرهم ان يختاروا من يوليه عليهم فقالوا حيث ان الحسين رأى هذا الرأي فانا نختاره ، فولي النقابة عليهم انتهى كلامه

اقول نصبت النقباء وتقررت وظائف النقابة منذ القديم والحديث في ممالك الاسلام بقصد البحث عن حقائق الانساب وتمييز السادة الاشراف من آل البيت ابناء الامام علي وفاطمة رضي الله عنها صيانة ، لذلك النسب الطاهر عن حصول الاختلاط المفضي الى تعلق بعض الاحكام الشرعية بغير اهلها مالا يخفى من اندفاع الكثير في طلب حصول المجد ورفعة الجاه بدعوى الشرف الحسني او الحسيني خصوصاً في زماننا هذا فالنقباء هم الذين ينبغي لهم التدقيق عن هذه الدعوى وفي نسب كل من يمكن الاشتباه في نسبه من عامة الناس لئلا تضيع الحقوق الواجبة الرعاية لآل بيت النبوة وتسقط التكاليف

الواجبة على من سواهم . ونقابة الاشراف وظيفة عالية لها شأنها في نظر العالم الاسلامي ولها تأثير عظيم في اصلاح احوال البيوتات النبوية وتدبير امورها مما اوجب الامر الى محبة هذه الذرية الشريفة وتوقيرها وطاعة الناس لها لنفوذ كلمتها فيهم وكانوا يأتمرون بأوامرهم ويذعنون لرغائبهم الى غير ذلك مما يعود بعظيم الفائدة على هذا المجتمع وهي قديمة العهد في زمن الدول العربية وفي ايام الدولة العثمانية التركية . بدأ بتوظيف نقباء الاشراف السلطان يلدرم بايزيد سنة ٩٠٠ هـ وعين لها سيد علي نطاع عاشق شلبي

وقد سبق ذكر اول من تولاها في تراجم رجال العصر الرابع في كتابنا وقلنا انه تقلد هذا المنصب وسمي به ليكون مساعداً للاشراف في جميع امورهم قائماً في شؤونهم . ونقل الفاضل الشيخ راغب الطباخ المؤرخ الشهير في تاريخ حلب الشهباء الذي طبع حديثاً عما كتبه الماوردي في نقابة الاشراف وبين وظائف النقيب واعمال النقابة وتطوراتها وجدنا من الاختصار عدم نقل ذلك البحث والاكتفاء بما ذكرناه

وانما نقول ان هذه الوظيفة كانت توسد لأكابر ذوي الشرف احفاداً كانوا او اسباطاً الا انه في الحجاز والعراق ودمشق وبخارى والافغان والعجم واشهر البلاد العربية خصوها في الاحفاد . واما في الديار المصرية فانها اعطيت للاشراف من الاسباط وهم رجال البيت البكري فهم من اسباط سيدنا الحسن عليه السلام ولم تزل فيهم من القرن الثاني عشر الى اليوم كما نقل ذلك في كتاب الصديق . وبالجملة فان حب آل البيت الطاهر سواء كان من الاحفاد او من الاسباط امر لازم زرع في قلب الامة الاسلامية وملوكها وغنيها وفقيرها من ظهور الاسلام الى اليوم كرامة الى جدهم عليه الصلاة والسلام القائل : النجوم امان لاهل السماء واهل بيتي امان لامتي . وفي حديث آخر : خيركم خيركم لاهلي من بعدي

واذا ظهر من بعضهم امر يخالف اوامر جدهم وغفل احدهم عن سلوك طريق هديه وسنته فيلزم علينا ان نرشد جاهلهم وننصح غافلهم وندلهم على

طريق الصواب وتجتذبهم بأكف الحكمة الى ما به خير دنياهم واخراهم الذي يوجب لهم نظر الرفق والرأفة من الحبيب الاواب وان نحسن الظن بهم ولا غرو ان احببنا بهم صحة نسبهم ان نكف عن مساويهم جميعاً كما قال بعضهم :

نحبهم والله اولى بأسرهم على ان طـه الهاشمي غيور
محبهم ينجو غداً ومسيئهم عليه هناك الدائرات تدور

قال صاحب الروض البسام قد سألني بعض المحبين ان اكتب رسالة تشير الى بطون قريش التي بالديار الشامية ليعلم لهم المسلم الخالص حقوقهم المرعية فيعظم عظيمهم ويرحم فقيرهم ويؤاسي كريمهم ويؤديهم حق المودة المطلوبة ثم قال ان الآيات القرآنية والاحاديث النبوية التي صرحت بفضل قريش وآل البيت الكرام والذرية المصطفوية كثيرة لا ينكرها الا جاحد او منافق وقد كثر الجهل بالنسب في زماننا ولذلك تلقى العامي يجلس مع جماعة من ذوي جلدته يتحكم بانساب الناس ويدعي جهلاً منه بصحة هذا وتكذيب ذاك اما حسداً او بغضاً والامام مالك يقول الناس امناء على انسابهم انتهى ملخصاً. ولا يخفى الوزر الذي يلحق الداخل بلا نسب والخارج بلا سبب كما ورد في الحديث اشقى الخلق من تبرأ من نسب وان دق . وقد ذكر بعضهم قولاً آخر نقله عن السلف من ادعى انتساباً الى نسب من الانساب الكبيرة كذباً عـزر لا سيما نسب الشرف لئلا يتجرأ كذاب على الدخول في نسب النبي صلى الله عليه وسلم وينبغي لذوي الانتساب الى كل شريف ان يصونوا شرف نسبتهم عن الدنس ويحفظوا ذلك بكمال التحري بصحته فان الناس مؤتمنون على انسابهم كما ذهب اليه الامام مالك وقد حث الشارع على معرفة الانساب اخرج الحاكم عن ابي هريرة ان النبي صلى عليه وسلم قال تعلموا من انسابكم مـا تصلون به ارحامكم فان صلة الرحم محبة في الاهل مثراة في المال منسأة في الاجـل وبالجملة اذا ثبت النسب بشهادة ارباب الرتب فلا يجوز الطعن في اهله ويجب توقير اصحاب نهله لمن اليه انتسبوا وعليه حسبوا ولو قصدنا البسط في هذا المقال لضاق علينا المقام

بيوتات العترة الطاهرة النبوية الشهيرة في دمشق

ومن الفاطميين السادة الاشراف بدمشق اسرة بني العجلان الاكارم ومن متأخري رجال هذا البيت السيد راغب نقيب أشرافها وعين أعيانها مات سنة ١٢٦٣ واخوه السيد احمد نقيب أشرافها ايضاً وصدر صدورها مات سنة ١٢٧٩ وهما ولدا السيد سعيد مفتي دمشق ورئيسها . وقد تقدمت ترجمته في القرن الثالث عشر من كتابنا هذا . وهو ابن السيد حمزة مفتي دمشق ابن السيد علي نقيب الاشراف فيها ابن السيد عباس شيخ مشايخها ابن علي شيخ المشايخ ابن اسماعيل بن حسن بن حمزة بن حسين نقيب دمشق ابن شمس الدين نقيب دمشق وشيخ مشايخها ابن كمال الدين شيخ المشايخ ابن شرف الملك محمد ابن ابي البشائر محمد نزيل دمشق ونقيبها ابن السيد عجلان المصري ابن علي ابن محمد بن جعفر بن حسن الشجاع ابن عباس بن حسن بن حسين الحرّ ابن علي بن محمد بن علي بن اسماعيل الاعرج بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين ابن سيدنا الحسين عليه السلام وقد اثنى المحبي والمرادي على مشاهير رجالهم . وقد مدحهم صاحب الروض البسام وقال ولي ثمانية منهم نقابة دمشق وثلاثة قلدوا منصب الفتوى فيها وأما مشيخة الشيوخ فانها لم تخرج من بيتهم اه . وقد ادركت من متأخريهم السيد عبد اللطيف كان مثال الوجاهة والاخلاق الحسنة مات سنة ١٣٣٧ وقد ترك ذرية نجيبة وهم محمد افندي وعبد القادر افندي وابراهيم افندي وهؤلاء مسكنهم في زقاق الطامود المشهور بهم الى اليوم . ومن أبناء عم هذه الاسرة الذين سكنوا حي الميدان السيد حسين المتوفى سنة ١٢٤٣ وقد اعقب السيد درويش العالم الجليل الذي اشتهر في علم الفرائض وتقدمت ترجمته في القرن الثالث عشر من كتابنا هذا وكان اخوه السيد امين نقيب دمشق وشيخ مشايخها . مات سنة ١٢٨١ وقد اعقب ولدين احدهما السيد احمد شيخ المشايخ ونقيب الاشراف مات سنة ١٣١٤ وهو والد صادق افندي كاتب العدل بدمشق وشيخ مشايخ الحرف بها . ومنه

أخذت النقابة في سنة ١٣٠٧ وأسندت الى السيد صالح تقي الدين الحصني الذي تقدمت ترجمته في القرن الرابع عشر والاخ الثاني السيد عطا الله احد أعيان دمشق ومن أعضاء المجلس التمثيلي السابق . وأما السيد درويش المذكور فقد اعقب السيد محمداً الذي تولى رئاسة البلدية بدمشق وصار نائباً عنها في مجلس الامة في دار الخلافة وكان قبلها عضواً في مجلس ادارة الولاية ومن أصحاب رتبة البلاد الخمس من الرتب العلمية . وله اخوة ثلاثة السيد محمد علي هو والد السيد مصطفى والسيد حسن سهيل من اطباء دمشق والمحامي السيد مختار والسيد منير احد ادبائها وكتابها والسيد عبد القادر والسيد محمود وهم من أصحاب الاخلاق المرضية . مسكنهم في دار الامير محمد منجك الشاعر الشهير .

ومن الفاطميين آل حمزة الاكارم . هم من سلالة السيد اسماعيل الحراني (قيل ان جدهم الاكبر اتى من بغداد) واكثر رجال هذا البيت نقباء وعلماء وقد تقدم ذكر اكثرهم في العصور السابقة من كتابنا هذا . ومن مشاهير رجالهم السيد نسيب والد السيد محمود مفتي دمشق . كان صدر دمشق ونقيبها يحسن الخط بأنواعه وله آثار جميلة الصنع كتبت بخطه وهي موضوعة الآن في مشهد الحسين في الجامع الاموي . كانت عليه خدمة المحافظة التربدارية لذلك المقام ولم تزل هذه الخدمة الشريفة في ذريتهم الى اليوم . وقد اثنى عليهم المحبي والمرادي وغيرهم من المؤرخين وأطنبوا بمدحهم كل الاطناب . وقد ذكر صاحب الروض البسام في كتابه اسماء شجرتهم المباركة نثبتها في كتابنا ونزينه بها خدمة خالصة لهذا البيت العريق في المجد والشرف فنقول : السيد نسيب المذكور هو نقيب دمشق ابن حسين بن يحيى النقيب ابن حسن النقيب بن عبد الكريم النقيب ابن محمد النقيب ابن كمال الدين محمد النقيب ابن شمس الدين محمد النقيب ابن بدر الدين حسين النقيب ابن كمال الدين المحدث الحافظ محمد الشهير بابن حمزة النقيب ابن عز الدين حمزة النقيب ابن ابي العباس احمد بن علاء الدين علي النقيب ابن الحافظ محمد بن علي ابن حسين بن حمزة بن محمد بن ناصر الدين بن علي بن حسين بن اسماعيل

الحراني ابن حسين بن احمد بن سماعيل بن محمد بن اسماعيل الاعرج ابن الامام جعفر الصادق ابن الامام محمد الباقر ابن زين العابدين ابن سيد الشهداء الحسين السبط عليه السلام . وقد كان السيد نسيب المذكور من الشعراء البلغاء ، له ديوان لطيف لم يطبع وقد نظم مولد ابن حجر وله كثير من الآثار التي لم نعثر عليها . وقد قال في الروض البسام عن بعض رجال هذه الاسرة انهم على طريقة مرضية وسيرة حمزاوية ولمثل الاحفاد ان يسلكوا مسالك الآباء ويتصفوا بصفات الاجداد الاعلام ونقل قول العدواني :

ولا عيب الا ان يرى المرء تاركاً — خصالاً حساناً ورثت من جدوده
واحسن شيء ان يرى المرء قائماً — لجد علا قدراً بحفظ عهوده

وقال ايضاً :

وما الفخر بالعظم الرميم وانما — بفضل يسود المرء أبناء جنسه
وفخر الفتى بالاقدمين جهالة — فخار الذي يبغي الفخار بنفسه

وقد نقل عن لسان بعضهم :

لسنا وان أحسابنا كرمت — يوماً على الاحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا — تبني ونفعل مثل ما فعلوا

ومن مشاهير رجال هذا البيت اسعد افندي بن نسيب افندي شقيق مفتي دمشق محمود افندي المتقدم الذكر كان من اهل الوجاهة والوقار تولى مدة طويلة عضوية محكمة استئناف العدلية وقد رثاه كثير من الافاضل وارخ وفاته الشاعر الشهير سيدي ابن العم سليم افندي تقي الدين بقوله :

اذا رمت النجاة فزر ضريحاً — حوى من آل حمزة خير امجد
سقاة الحوض لا خوف عليهم — لهم أعلى مقام ثم مشهد
دعاه الله في شوال حتى — يشاهد جده المختار احمد
فكان به لقد ارخت براً — نسيب محمد في الخلد اسعد

وقد ارخه الهلالي ايضاً في ديوانه بقوله بعد أبيات كثيرة :

لما قضى نحبه نادى مؤرخه — للخلد راح ووافى اسعد الشهدا

وقد أعقب ذرية كبيرة ارشدهم عبد الله افندي مات سنة ١٣٢١ وهو والد عبد الرحمن افندي وسعدي افندي ومراد افندي وحمدي افندي ومنهم شاكر افندي المتقدم الذكر وتوفيق افندي وزين العابدين افندي وهما من سراة دمشق ووجهائها ومن مشاهير رجال هذا البيت درويش افندي بن كمال الدين افندي كان متصفاً بالفروسية والعلم ، مات سنة ١٣١٥ وهو والد سعيد افندي من أدباء دمشق واخيه كمال افندي .

وقد مدح العارف بالله تعالى العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي جدهم السيد عبد الكريم حينما عاد من منفاه الى دمشق بقصيدة منها :

لك في النفوس مهابة لا تنجلي ... يوم الجامع ساعة الخطب الجلي
يا ابن الميامين الكرام ذوي العلا ... اهل الشهامة تلك والقدر العلي
انت ابن من شرع الشرائع للورى ... وأبان عن طرق الهدى للمجتبي
ورأى الذي قد كان يوم الفارض ... اعدائه بل يوم هزم الجحفل
واسأل حنيناً حين أعجب جمهم ... ماذا رأوه وكان نصرهم بلي
لا عار ان نقموا عليك فطالما ... نقموا على عثمان قبلك بل علي
وتشيعت لليوم مع اسلامها ... امم فكانت عن هداه بمعزل
فاثبت وكن في الدين خير مهذب ... طبق الشهامة في الطراز الاول
هم قاوموا بسيف جدك في العدى ... فاصفح بحلمك عن مدى المتأول
واعدد مصابك منحة لا محنة ... بك لا يزول عن المقام الافضل
او ما سمعت نباء جدك والذي ... لاقى الحسين من العدا وهو الولي
ان البدور وان شهدت كسوفها ... هي في السماء لا في الحضيض الاسفل
وكذلك الاسد الغضنفر ربما ... نشبت اليه حبالة المتحيل
مع انه المرهوب في سطواته ... واخو الجهالة في اتم تغفل
والسيف احسن مايكون اذا خلا ... عن غمده يوم الوغى واذا جلي
اولاد حمزة يا كواكب شامنا ... يا من لهم في المجد اشرف منزل
يا آل بيت نبينا نسب لهم ... كالشمس منها كل طرف ممتلي

يا من ندين بحبهم والله قد — اوصى بهم بلسان طه المرسل
قل لست اسئلكم عليه مثوبة — الا المودة تلك بالقربى سل
لا تقص فيكم طاهرون مطهرون — مبرؤن اجل قوم كمل
انسابكم محفوظة ومصونة — اعراضكم عن وصمة وتبذل
عنكم يريد الله يذهب رجس ما — قد اوهمته لكم يد المتقول
فكلوا الامور الى المهيمن واصبروا — فالله ناصركم على رغم العلى
وهو الذي خلق الجميع دعالهم — ابداً يعافي من يشاء ويبتلي
وعليك من عبد الغني تحية — تسري اليك مع الصبا والشمال

ومن الفاطميين السادة الحسينية آل المرتضى الاكارم وقد ذكرهم بعض مؤرخي دمشق واثنوا عليهم بخير ومن مدحهم صاحب الروض البسام في اشهر البطون القرشية بالشام بقوله ومنهم جماعة ببعلبك وغيرها من نواحي الشام قدم اجدادهم من اليمن وتوطنوا دمشق ونسبهم نسب صحيح ذكر الكثير من اسلافهم صاحب المشكاة وغيره ويتصلون بالامام ابراهيم المرتضى من طريق السيد ابي السعادات المرتضوى واطنب في نسبهم الحزاوي مفتي دمشق وقدمهم على غيرهم واثنى عليهم وذم طاعنيهم وادى حق المودة في القربى بصلة رحم البطن المرتضوى هذا واللائق به وبامثاله ذلك انتهى كلامه ومن مشاهير شعراء هذا البيت السيد رضا ابن السيد سليم نأتي على ذكر اسماء سلسلة رجال هذه الشجرة المباركة ونبدأ باسم جدهم الاول هو السيد علي بن موسى بن علي ابن مصطفى بن فضل الله بن مرتضى وبه اشتهر هذا البيت بدمشق وبعلبك ابن علي بن محمد بن ابي طالب بن علي بن العالم الفاضل علوان بن علي بن حسين بن موسى بن علي بن حسين بن محمد بن موسى بن يوسف بن محمد ابن معالي بن علي بن عبدالله امير المدينة بن محمد بن علي بن عبدالله بن محمد ابن طاهر بن حسين القطعي بن موسى المكني بابي سبحه بن ابراهيم المرتضى ابن الامام الذي يبيت الليل ساجداً وقائماً ويقطع النهار متصدقاً وصائماً سيدنا ابي الحسن موسى الكاظم ابن الامام جعفر الصادق بن الامام محمد

الباقر بن الامام زين العابدين بن الامام الشهيد الحسين السبط عليهم الرضوان والسلام ونسبهم هذا اشهر من ان ينبه عليه وقد جاء من رجال هذا البيت المبارك امة من اهل التقوى والفضائل والكمال وجماعتهم الآن بدمشق وبعلبك كثيرون بارك الله بهم وقد مات السيد رضا سنة ١٣٢٢ ومن هذه العترة الطاهرة السيد محمد حسن قاضي بعلبك المتوفي عنها سنة ١٣٤٢ ودفن بها وهو من ذوي الاخلاق الحسنة والصفات المرضية ومن مشاهير رجالهم السيد عباس بن سليم القيم والحافظ لتربة السيدة زينب رضي الله عنها .

ومن الفاطميين السادة الحسينية اسرة بني الأجمي الاشراف الشهيرة بدمشق المنقرضة رجالهم لم يبق من ذريتهم الى اليوم احد كما نعلم وقد ذكرهم المحبي وترجم مشاهير رجالهم وانهم تولوا افتاء دمشق ونقابة الاشراف بها وهم من خيرة اعيانها المشهود لهم بالفضل والوجاهة فسبحان من يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

ومن الفاطميين آل الدسوقي وهم بطن من آل الرضا ابن الكاظم عليهما الرضوان ينتهون اليه بواسطة جدهم السيد موسى اخي القطب الجليل السيد ابراهيم الدسوقي الحسيني قدس سره هو القطب الشهير من اهل الشطح واصحاب الفتح اشتهر شأنه في اقطار الدنيا تفرع من هذه الاسرة المباركة جماعة كثيرون منهم في دمشق وارمناز وحلب وغيرها من الديار العربية وقاعدة هذا البيت بدسوق من ديار مصر وفيها قبر القطب المذكور واخيه السيد موسى وتقدم في كتابنا ذكر الشيخ صالح امام جامع السنانية واحد العلماء وقد داهم هذه الاسرة الانقراض من اكثر مشاهير رجالها في ديارنا وما بقي منهم الا القليل كما داهم غيرهم من الاسر الشريفة التي اخنى عليها الدهر وقد ذكرهما المؤرخان الشيخ جمال الدين القاسمي في كتابه الاسباط وصاحب الروض البسام واثنيا عليهم بخير .

ومن الفاطميين السادة الحسينية آل الحجار الأكارم بدمشق وقد مدح جدهم السيد حسن الحجار صاحب الروض البسام وهم من بيت قديم ونقل

ان اسرتهم صحيحة النسب وذكر الحبي في تاريخه السيد حسن المذكور واثنى عليه وكانت طائفتهم من القديم تشتغل بالتجارة وبقاياهم الى اليوم كذلك والذي ادركناه من متأخري رجالهم السيد سليم ابن السيد محمد كان من تجار الخردة في العصرونية مات سنة سبع وعشرين وثلاثمائة والف والسيد سليم الثاني ابن السيد حسين كان ايضاً من تجار الخردة في جهة جامع السنانية وقد اعقب ولداً نجيباً اسمه محمد شريف بك دخل في المكاتب العسكرية العالية في دمشق والاستانة الى ان صار قائداً للجيش في الدولة الاسلامية ومن امراء اركان الحرب بها وهو من خيرة شبان هذا العصر وقد تفرع اناس كثيرون من هذا البيت لايسع كتابنا ذكر كل فرد على حدته وكنت ارغب اثبات شجرتهم المباركة في كتابنا هذا وقد طلبتها ممن هي في يده ووعدني بحضورها ولم يف بالوعد . ومن اسباط هذه الاسرة المنسوبين اليها والمنتمين لها صديقنا عمر افندي من تجار الاستانة وشقيقاه عبدالرحمن وصالح من تجار الخردة وقد خرج من هذا البيت جماعة من العلماء ذكرهم الحبي وقد اشتهر بلقبهم جماعة بدمشق ايضاً عرفنا منهم السيد احمد واخاه السيد سعيد ابناء السيد عبدالله الحجار وقد رحل قسم منهم الى ايالة صيدا ولهم ذرية كبيرة هناك وجماعة دمشق لايعرفونهم لبعد زمان التعارف فيما بينهم . على كل حال الناس امناء على انسابهم واعرف بعشائرهم

ومن الفاطميين السادة الحسينية آل نصري بدمشق وينتهي نسبهم الى الامام علي الرضا ابن الامام الكاظم وهم قليلون مع ان آل الرضا في جميع الديار من اكثر الفاطميين عدداً وقد ذكرهم صاحب الروض البسام بانهم من السادة الاشراف الذين يجب احترامهم في هذه الديار وكنت ارغب في اثبات شجرتهم المباركة في كتابنا هذا وقد طلبتها ممن هي في يده ووعدني بحضورها ولم يف بالوعد . وتعرف شهرة رجال هذا البيت قديماً بالحصري وقد رأيت في مجموعة احد حملة الاخبار ذكر احد مشاهير رجال هذه الاسرة وهو السيد ابراهيم الحصري الشهير بنصري السيد الشريف الحسيب النسيب لهم

نسبة شهيرة بدمشق مات بها سنة احدى ومائتين والف وعثرت ايضاً على مؤلف لطيف محفوظ قديم اسمه ايقاظ اهل القابلية لما درج عليه اهل الطريقة الخلوتية لاحد رجال هذا البيت هو الشيخ العلامة المحقق العمدة الثقة الفهامة العارف بربه المشتغل به بلسانه وقلبه صاحب التصانيف المفيدة والمآثر الحميدة زبدة المحققين وخليفة الخلفاء المعتقدين السيد نصري الحصري الحسيني الاشعري الشافعي الخلوتي الدمشقي قال في اوله بعد ان حمد الله وصلى على نبيه مصباح الظلام المكشوف له عن الغيوب والمحبب لجميع القلوب وهو مؤلف عظيم في التوحيد والتصوف كتب بخط جميل سها كاتبه عن وضع التاريخ لذلك جهل علينا عصر المؤلف والذي يظهر ان هـذه الاسرة الكريمة اشتهرت به ، وقد ذكر المرادي بعضاً من رجال هـذا البيت واثنى عليهم بخير وقد خرج منهم اليوم الدكتور احمد شفيق نصري احد رجال الطب بدمشق ومحمد افندي نصري من امراء العسكرية في زمن الدولة التركية الاختصاصي في عمل الآثار النفيسة التي اهداها الى الجامع الاموي وهو صاحب الخط الكوفي في محرابه

ومن الفاطميين السادة الحسينية آل زين العابدين الاكارم ، وقد طبعت شجرتهم وسلسلتهم في مؤلفاتهم واشتهرت فلا لزوم لاعادة ذكرها .

واما بقية اشراف دمشق فانه يوجد بها من أهل البيت الطاهر بيوتات كثيرة تفتخر بهم على سائر البلدان وقـد طلبنا من اكثرهم شجراتهم التي بأيديهم ومسلسلاتهم المتنوعة لنثبتها لهم وقـد وعدونا باحضارها ولم يوفوا بوعدهم بوقت من الاوقات وطال علينا الزمان فاضطررنا لذكر من وصل الينا فقط واذا وجد احد نفسه انه من السلالة الطاهرة ولم نذكر اسرته في كتابنا هذا فيكون للاسباب التي نوهنا عنها او لاسباب سهو صدر منا عن عدم تقصد . ومع هذا قد تفرد بذكرهم بعض من المؤرخين وجـدنا من الاقتصار ان نكتفي عن تكرار ذكرهم بارك الله بهم والهمنا حبهم ومودتهم لانهم امان اهل الارض ووديعتهم .

نثبت في كتابنا هذا اسرتنا وما قاله المؤرخون بها . قال السيد ابو الهدى الصيادي نقيب حلب الشهباء وشيخ السلطان عبد الحميد في كتابه الروض البسام في اشهر البطون القرشية بالشام عن بعض رجال هذا البيت مانصه : (ومن الفاطميين آل الرضا بدمشق بنو تقي الدين فهم ينتهون الى الامام علي الرضا من طريق جدهم السيد محب الدين فهو من بني اخي العلامة العارف السيد تقي الدين الحصني ابو بكر دفين القبيبات بدمشق واشتهروا بالنسبة لعمهم هذا لجلالة قدره وقد ذكر المحبي والمرادي في تاريخهما بعضهم واثنيا عليهم بخير وكان من مشاهير متأخريهم السيد حسن افندي آل تقي الدين ولي النقابة بدمشق مدة يسيرة ، ثم وجهت عليه خدمة الفتوى وبقيت النقابة في آل عجلان وكان من اهل المظاهر الوجيهة والهمم العالية والنسب الوضاح ومن بني عمه السيد عبد القادر افندي آل تقي الدين وهو والد حبيبنا الاخ الصالح الكامل السيد محمد صالح افندي نزيل دار السعادة ونقيب القدس مات السيد عبد القادر بدمشق سنة ١٢٧٠ هـ وسنذكر تبركا نسبه المبارك هو عبد القادر بن احمد بن حسن بن مصطفى بن عبدالرحمن بن اسماعيل بن محب الدين بن شمس الدين محمد بن زين العابدين مقبل بن ضياء الدين حميد ابن زين الدين عميرة بن عمر بن نورالدين معلا بن مؤمن بن حريز بن سعيد بن داود بن قاسم بن علي بن عاوى بن فخرالدين ناسي بن جوهر ابن علي بن ابي القاسم بن سالم بن عبدالله بن عمر بن شرف الدين موسى بن يحيى بن علي بن الامام محمد التقي الجواد بن الامام علي الرضا بن الامام موسى الكاظم بن الامام جعفر الصادق بن الامام محمد الباقر بن الامام زين العابدين ابن الامام الحسين السبط عليهم الرضوان ونسبهم اشهر من ان ينبه عليه وقد جاء من رجال هذا البيت المبارك امة من اهل التقوى والفضائل والكمال وجماعتهم الآن بدمشق كثيرون بارك الله بهم انتهى كلامه

وقد اعقب الجد عبد القادر سيدي الوالد السيد محمد حضر كثيراً من مجالس العلم ولازم شيخ علماء دمشق الملا بكر الكردي الكلالي مدرس

جامع الورد وكان اتخذه خليلا وصاهره واخذ الطريقة النقشبندية الخالدية عنه وقداشتغل في بادئ امره بتجارة مال الفاتورة ثم ترك التجارة واشتغل بخدمة امامة الحنفي في الجامع الاموي مدة طويلة تزيد عن نصف قرن . يميل طبعه الى التقشف وسلوك مسلك اهل التصوف . كان مثال الفضيلة والصلاح تعتقده الناس وتحترمه الامراء والعلماء مات سنة ١٣١١ وقد اعقب جامع هذا الكتاب واخي الشيخ ياسين حلمي المتقدم الذكر في هذا القرن وقد اعقب الجد سيدي العم السيد صالح نقيب دمشق وتقدم ذكره . والشيخ عبدالحميد كان من حفظة القرآن يشتغل في التجارة مات عقيما سنة ١٣٠٦ وعبد الله افندي كان يشتغل في تجارة العطارة مات سنة ١٢٩٧ وعطا الله افندي من التجار مات عقيما في سنة ١٣٢٠ . ومن مشاهير رجال هذا البيت احمد افندي بن حسن افندي مفتي دمشق ونقيبها كان من وجهاء دمشق ومن اهل المظاهر الحسنة مات سنة ١٢٥٩ وقد ارخه ابن اخيه سليم افندي الشاعر الشهير بقوله :

رضوان ناداه ارخ نل جنة الخلد احمد
نجل المفتي دمشق زين المعالي محمد

وقد اعقب ولداً اسمه عبد الله افندي من اعيان دمشق كان عضواً في بلديتها وفي مجلس الاوقاف له مزرعة كبيرة في قرية المحمدية مات سنة ١٣١٧ ومن مشاهير رجال هذا البيت ايضاً الشيخ الصالح المعمر محمد ابو الصفا بن سعيد كان فقيهاً متصدأ ورعاً من تلاميذ العلامة الشيخ محمد الجوخدار يشتغل في التجارة مات سنة ١٣٣٦ وقد اعقب ذرية مباركة وله وقعة شهيرة مع السيد قاسم مرتضى من اشراف دمشق انتصر له اخوه السيد سليم بضرب يد ابن مرتضى ثم يبست يد الضارب وقصة هذه المشاجرة شهيرة من اكثر رجال الاسرتين فلا حاجة لتفصيلها ومن ابناء عمهم بنو الحصني الذين يجتمعون معهم في جدهم الاعلى السيد محب الدين هو جد السيد محمد المترجم في تاريخ المحبي وهم القاطنون في مسكنهم زاوية الشيخ تقي الدين الحصني الكائنة في

حي الشاغور الموجودة والمعمورة الى اليوم المشروط لهم السكن بها بمقتضى توليتهم ونظرهم على توزيع ريع اوقاف اجدادهم كما فصلنا ذلك في محله ومن اوقافهم سوق الدق الكائن في شارع مأذنة الشحم وكانت مشيخة هذه الحرفة عليهم مقطوعة لهم بفرمانات قديمة من قبل الدول الاسلامية التي كانت حاكمة البلاد ولم تزل باقية في عقبهم الى اليوم ويشاركهم في هذه التولية بنو الاسطواني

ولما كنت متشرفاً في مكة المكرمة وقت الحج كلفني الشريف عبدالله بن هاشم بزيارة اقاربنا الشريف علي بن الشريف غالب لان والدته بنت عمنا السيدة فاطمة بنت السيد تقي الدين شقيقة السيد حسن افندي مفتي دمشق ونقيبها تزوجت بوالده الشريف فاخر بن الشريف سلطان من ذوي حسن من العبادلة فقد اعقبت هو والشريفة عزيزة المشهورة بالست الشامية وقد تولى اخوها غالب قائمقامية الامارة وكانت هذه الصلة في عهد امارة الشريف محمد بن عون .



واما الذينهم من نسل بعض الصحابة والاولياء وسكنوا دمشق فسيأتي ذكر من وصل الينا خبره على وجه التفصيل فنقول :

ومن القرشيين البكريون ذرية اول الخلفاء الراشدين اسرة شهيرة كثيرة العدد بدمشق وغيرها من المدن الاسلامية ولهم ذيل طويل بمصر وفي المدينة المنورة وكلهم اجلاء نجباء اصفياء . وابو بكر رضي الله عنه عبد الله بن ابي قحافة عثمان بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة جد النبي صلى الله عليه وسلم القرشي التيمي اول سيد في المهاجرة والانصار الصديق الاعظم وفيه قال النبي عليه الصلاة والسلام ابو بكر خير الناس الا ان يكون نبي وفضائله لاتعد ولا تحصى . خرج من هذا البيت بدمشق جماعة قضاة علماء واعيان اغنياء كثير منهم تقلد افتاء دمشق افتخر المؤرخون الدمشقيون المحبي والغزي والمرادي وغيرهم بذكر مشاهير رجال اسرتهم الكريمة

ومن مشاهير رجالهم السيد مصطفى البكري ابن كمال الدين بن علي العارف

الرباني الشهير صاحب التآليف المشهورة واحد افرادالزمان في عصره وقد تقدم ذكره في القرن الثاني عشر انه ولد بدمشق ودفن في مصر عند قبور السادة البكرية .

ومن متأخري رجالهم ايضاً احمد ابن كمال الدين البكري الصديقي قاضي القضاة بدمشق وهو اول من اخذ تولية مدرسة الجقمقية وبقيت التولية في عقب هذه الاسرة الى اليوم ، وقد مدحه العارف النابلسي على كرمه ومكانته في العلم والفضل وتقدم ذلك في كتابنا في محله وهو والد السيد اسعد افندي البكري احد اعيان دمشق ومن صدورها ومن اهل الحل والعقد بها وهو صاحب القصر الشهير الكائن عند الجسر الابيض في الصالحية التي تفننت الشعراء بمدحه وتقدم ذلك في كتابنا في محله ، تولى نيابة الحكم في محكمة الباب وبنى الدار والجنينة في قرية جرمانا خارج دمشق واتقن بناءها جاءت نزهة للناظرين كان يدعو الاعيان والامراء والاحباب اليها وتكرم عنده الوفود مات سنة ١١٢٨ وقد اعقب السيد خليل افندي مفتي دمشق كان اذا نطق تعشق الآذان لسماع كلامه ونوادره وطلاقة لسانه وله النظم والنثر ، ثم تولى قضاء الشام ثم قضاء دار الملك مع رتبة قاضي عسكر الاناضول لم ينلها غيره من ابناء العرب في ذلك الزمان مات سنة ١١٧٣ وقد اعقب السيد عطا الله والسيد رشيد كانا من وجهاء دمشق ، مات الثاني عقيما واعقب الاول ولدين السيد اسعد الذي مات سنة ١٢١٠ والسيد مصطفى مات عقيما واعقب اسعد افندي السيد خليل افندي وعطاء الله باشا كانا من وجهاء دمشق واعيانها مات الاول ١٣٤٤ وترك من بعده ثلاثة اولاد انور افندي ورشدي افندي ومدحت افندي ، كان والدهم احيا ذكر جده في كرم الاخلاق وكرم الخصال حضرت كثيراً مع بعض الامراء والاعيان في ذلك القصر من مجالس الانس مايسر به القلب وتقر به العين وكان كثير العطف على الفقراء وابناء السبيل ولعل انجاله الادباء يحذون حذوه احياء لذكر السلف وقد مات الثاني سنة ١٣٣٤ وترك من بعده ذرية نجيبة وهم فوزي بك

ونسيب بك وسامي بك ومظهر بك قد اشتهروا في جهادهم نحو استقلال البلاد وجميعهم من شبان هذا العصر وحسنة من حسنات الدهر بهم يسعد الاوطان وبهم يفتخر الزمان . كان والدهم عطا الله باشا ركناً من اركان دمشق وزعيا من زعمائها تقلد رآسة البلدية بها ثم صار عضواً في مجلس ادارة الولاية الكبير له ميل لمواساة الناس على اختلاف مشاربهم ، وقد عثرت على قصيدة تاريخية للعارف النابلسي ارسلها الى السيد اسعد افندي الاول وذلك في سنة ١١١٩ لما كان مقبلا من صيدا الى وطنه دمشق وكان معه المولى عبدالرحمن افندي القاري وسليمان افندي المحاسني خطيب دمشق مطلعها :

الحمد لله هذا القصد والغرض ... يامن تباعدهم عنا هو المرض
صار الشفاء لاهل الشام اجمعهم ... بقربكم وبه الاعدا قد انقرضوا
انتم هم الجوهر الكلي في بلد ... محفوظة بعلاكم والسوى عرض
يا آل طه وصديق الرسول ومن ... حبي لهم دون كل الناس يفترض
قد اظلمت شامنا من فقد شمسكم ... وكاد لايستطيع العبد ينتهض
والآن اشرقت الدنيا بطلعتكم ... والبسط عاد وفيكم سر منقبض
وهذه فرحة في الشام ظاهرة ... تكاد انوارها في الجو تعترض
اذ عاد اسعدنا في كل عافية ... وعهد قاري حمانا ليس ينتقض
حتى محاسن ارض الشام قد رحبت ... كما عهدنا عن الاغيار تنتفض
ونحن في الهامة الفيحاء ركب رحا ... لهامة العز قوم للقا نهضوا
منا السلام عليكم ما المشوق تلا ... الحمد لله هذا القصد والغرض

وقد اطلعت على مرثية قالها الفاضل الشيخ محمد ابو السعود مراد من شعراء دمشق يوم وفاة السيد خليل افندي في ٢٧ رجب سنة ١٣٤٤ طويلة منها قوله :

ابي الرشد خدن المكرمات ابن اسعد
اخي المجد والاحسان والجود والبر
قضى نحبه من قد غدونا نحبه
مضى خاتم الاعيان بل حاتم العصر

أصابنا بفضال يموت لموته
كثير من الناس المصابين بالفقر

الى ان قال :

ويا علماء الشام مات حبيبكم ومن صيته قد شاع في البحر والبر
ويا ادعياء المجد ماشئتم ادعوا وتيهوا بلا خوف فقد مات من يدري
كثير العطا ما شمته رد سائلا ولا شم يوماً منه رائحة الفخر

وقال بعضهم ايضاً في حقه :

مات السخاء ومزقت اوصاله وغدت معاهده مقر البوم

ومن ابناء عمهم الافندين محمد بك البكري الشهير الذي نوه عنه المرادي في تاريخه وقد ادركنا من ذريته في عصرنا صالح بك البكري وهو والد درويش بك الموجود اليوم .

ومن العمريين ذرية سيدنا الفاروق عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين وهم جماعة كثيرون منتشرون في اكثر البلاد الاسلامية واقطار الارض ومنهم جماعة بدمشق يجتمعون مع اقربائهم في الموصل وبغداد وهم بيت تسلسل فيهم الفضلاء والصلحاء والاغنياء والتجار والزراع فهو المجد الجامع للسادة العمرية جميعاً رضي الله عنه بن نفيل بن عبد العزى بن رباح ابن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب جد النبي صلى الله عليه وسلم القرشي العدوي حصن الاسلام ناصر شريعة سيد الانام ثاني الخلفاء زين الاتقياء الفارق بين الحق والباطل فاتح البلاد مغلق ابواب العناد رأس المهاجرين شهد بيعة الرضوان وبدراً وكل مشهد وفيه قال عليه اكمل الصلوات والتسليمات : لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب . استشهد وقتله ابو لؤلؤة وكان طعنه بخنجر وهو يصلي . وقد تفرع من هذه الشجرة جماعة كثيرون بيد كل منهم نسب محفوظ عندهم مصدق عليه بخطوط العلماء الاقدمين ولهم ذيل طويل في البلاد الشامية . والذي ادركناه من مشاهير رجالهم سليم افندي ابن السيد عبد الهادي العمري كان وجيهاً محبوبا عند

الامراء محترماً لدى العلماء كريم الطبع حسن الاخلاق صار عضواً في بادئ امره في مجلس البلدية ثم في محكمة البداية الحقوقية والهيئة الاستئنافية ثم صار عضواً في مجلس ادارة الولاية الكبير وقد رحل الى الاستانة مراراً لاجل تولية اوقاف علي بن عليم الكائنة في يافا وفلسطين وبوقتها احسنت اليه الدولة برتبة ازمير العلمية والوسام الرابع . كانت وفاته سنة ١٣٢٣ وقد اعقب ذرية نجيبة منهم علي افندي من اعضاء المجلس البلدي وفريد افندي متصرف لواء حوران وعبد الهادي افندي من وجهاء دمشق وغيرهم لم يسعنا ذكرهم .

وقد ادركنا ايضاً ابن عمه عبد اللطيف افندي ابن السيد سعيد العمري تقلد وظائف كثيرة مثل ابن عمه المذكور منها عضوية المجلس البلدي ثم محكمة البداية والاستئناف كان عضواً بها ثم تقلد عضوية مجلس ادارة الولاية الكبير وكان رفيقنا فيه وقد رحل الى الاستانة لاجل تولية الاوقاف المذكورة في يافا واحسنت اليه الدولة برتبة ادرنة العلمية . كانت وفاته سنة ١٣٣٠ كان وجيهاً من الاغنياء يحفظ كرامة اصدقائه ويعتبر العلماء منهم ويحسن وفادتهم ويفتخر بشعارهم ويحب قضاء حوائج الناس وقد ترك ذرية نجيبة وهم رفيق افندي ونسيب افندي وشريف بك من اعضاء مجلس ادارة لواء دمشق وسعيد افندي وجميعهم مثال الوجاهة ورثوا المجد كابراً عن كابر .

ومنهم الشيخ مسلم ابن السيد حسين بن مصطفى العمري كان من اعيان التجار وقد ترك ذريةنجيبة بارك الله بهم وهو احد المؤسسين لمعمل الزجاج بدمشق وهي مأثرة عظيمة لحياة البلاد الاقتصادية الا انه طرأ على اتمام هذا المشروع اطماع المتمولين ليحتكروه لانفسهم دون غيرهم من المساهمين اخرته عن الظهور وبلغني ان انجاله اليوم اسسوا معملا للدباغة الحديثة وغيرها من لوازم البلاد فحياهم الله واكثر من امثالهم . ومن مشاهير متأخريهم السيد احمد افندي رحيمنا ابن السيد محمد افندي احد قضاة الشرع وقاضي جيرود اليوم وهو من اصحاب رتبة مخرج العلمية مات والده سنة ١٢٧٧ كان من

مشايخ الطرق الخلوتية وله ثلاث اولاد وهم السيد عبدالمجيد مات سنة ١٣٢٩ والسيد علي مات سنة ١٣٠٥ والسيد حسن مات سنة ١٣٣٠ . ومن متأخري رجالهم الشيخ عبد الغني ابن صادق احد قضاة الشرع في اقضية دمشق مات سنة ١٣٢٩ . وقد ذكر بعض رجالهم المحبي والمرادي واثنيا عليهم بخير .

ومن مشاهير الرجال الذين انتموا الى هذا البيت واشتهر بهم في طرابلس الشام الشيخ علي العمري الشهير في الكرامات والاحوال الغريبة واصله من دمشق . وقد ذكر المحبي جد هــذه الاسرة أحمد بن محمد المعروف بابن عبد الهادي العمري انه اتى من قرية الصفورية واول من قدم منهم الى دمشق محمد الذي قطن بقرية عقربا من ناحية الغوطة ثم انتقل بعض من اولاده الى دمشق وذكر ذلك المرادي صاحب التاريخ .

ومن اجل بطون قريش العثمانيون منهم بديار الشام وباديتها ومدنها جماعة كثيرون ذكر المحبي والمرادي بعض البيوتات في البلاد الشامية التي اشتهرت في الانتماء اليه كأسرة بني الزكي الذينهم تولوا قضاء دمشق مــدة طويلة واسرة بني الصــدوي الشهيرة بدمشق واسرة بني الحامي وبني الشهاب المنيني ايضاً . وينتمي غيرهم لهــذه النسبة في سائر الاقطــار الاسلامية كالعلامة الشيخ رحمة الله الهنــدي صاحب كتاب اظهار الحق والمولى عبدالقدير البيرواني الهندي اجتمعنا به في مكة وقت الحج وغيرهما مما لم يصل الينا خبرهم . كما اني اطلعت على نسب عال اشتهر في بلاد الأكراد الى العــلامة الشيخ خالد النقشبندي المجددي ينتهون به الى سيــدنا ذي النورين عثمان ثالث الخلفاء الراشدين رضي الله عنه وهو ابن عفان ابن ابي العاص بن اميــة ابن عبد شمس بن عبد مناف وهو الجد الجامع له مع النبي عليــه الصلاة والسلام كان صهر المصطفى على البنتين الطاهرتين السيدة رقيــة والسيدة ام كلثوم عليهما الرضوان ولا يعرف احد تزوج بنتي نبي غيره اسلم قبل دخول النبي عليه الصلاة والسلام دار الارقم وهاجر الهجرتين وبايع عنــه المصطفى بشماله يوم بيعة الرضوان وهو صلى الله عليــه وسلم اولى بالمؤمنين من انفسهم وجهز

جيش العسرة وفيه يقول المصطفى سيد ولد عدنان لكل نبي رفيق في الجنة ورفيقي فيها عثمان بن عفان ومن ذريته جماعة في المغرب وفي العراق والموصل وهم ينتمون اليه على الغالب من طريق ابان وفوق كل ذي علم عليم .

ومن البطون القرشيـة الحسنية آل السيد الغوث عبد القادر الجيلاني منهم بدمشق وغيرها من المدن الاسلامية مثل بغداد والموصل وديار بكر وحماة وطرابلس الشام وحوران وهم بيت تسلسل منهم العلماء والفضـلاء والصلحاء والاغنياء والفقراء والتجار والمزارعون فهو الجـد الجامع لهم . من اولاده المتعددين نزين كتابنا بذكر نسبه الشريف هو السيد محي الدين ابو محمـد عبدالقادر ابن ابي صالح موسى جنكي دوست ابن عبدالله بن يحيى الزاهد ابن محمد بن داود بن موسى الثاني ابن عبدالله بن موسى الجون ابن عبدالله المحض ابن الامام الحسن المثنى ابن السيد الامام الحسن السبط رضي الله عنه وقد ذكر المؤرخون اكثر مشاهير رجال هذا البيت واثنوا عليهم بخير . قال صاحب الروض البسام في حقهم مانصه : ومن الفاطميين بالشام آل الشيخ عبدالقادر الجيلاني قدم جدهم الشيخ سيف الدين يحيى من بغداد وسكن حماه وبها مات واعقب بها الذرية الموجودة اليوم ومنهم جماعة بعـذراء من قرى الشام وآل الجيلاني في الديار الشامية كثيرون بالاخص دمشق ولهم ذيل طويل في حوران وحلب ونابلس انتهى كلامه . وبواسطة نقيب بغـداد السيد سلمان افندي كانت عفت عنهم الحكومة التركية من الخدمة العسكرية .
وقد عرفنا من مشاهير رجالهم بدمشق سعيد افندي ابن صالح افنـدي من اعيان دمشق كان حسن الهيئة نير الوجه بعمامة خضراء مهاباً عنـد الحكام والامراء تقلد رآسة بلدية دمشق ثم عضوية مجلس ادارتهـا الكبير مات سنة ١٣١٦ وقد اعقب عطا افندي كان وجيهاً تقلد رآسة البلدية بعد والده وعضوية مجلس الشورى جمع بين الشهامة ودماثة الاخلاق مات سنة ١٣٣٨ وقد اعقب ذرية نجيبة اكبرهم سعـدي افندي . ومن مشاهيرهم ايضاً شريف افندي ابن حافظ افندي احد اعيان دمشق الموجود اليوم وهو والد الشاب

الاديب نسيب افندي من موظفي العدلية . ومنهم فارس افندي ابن خليل افندي احد وجهاء دمشق واغنيائها مات سنة ١٣٢٠ وقد اعقب هائل باشا وسهيل افندي والاديب وجيه افندي وحمدي افندي من موظفي العدلية وخليل افندي ولهم اقرباء كثيرون بدمشق بيدهم شجرات تدل على الانتماء اليهم وقد عرفنا من الزعبية الشيخ عبد الفتاح من علماء طرابلس وتقيها والشيخ عبدالقادر الاسكندراني من علماء دمشق ومدرسيها ولو اردنا ذكر كل واحد منهم على حدة او على اختلاف طبقات الزمان لفقدنا الاختصار . وقد افرد صاحب كتاب شمس المفاخر بذرية الغوث عبدالقادر الموجودة بدمشق وحماة وبغداد وحوران وطرابلس الشام وذكر درجة مسلسلاتهم واحصى جميع من ينتمي لهذه الفترة المباركة وجدنا الاوفق ان نكتفي عن تكرار ذكرهم ونقلهم من كتاب لآخر فمن اراد ان يطلع عليهم جميعاً فليرجع اليه .

ومن البطون القرشية السادة الرفاعية بدمشق وقد افرد صاحب الروضة البهية السيد محمد عز الدين افندي عربي كاتبي الدمشقي خادم سجادة جده الرفاعية لهم باباً خاصاً في مدحهم وذكر افرادهم وقال عنهم نجوم المفاخر وشموس المآثر الذين توارثوا الصلاح والفلاح كابراً عن كابر وهو والد السيد امين افندي رئيس ديوان متصرفية دمشق اليوم المشهود له بالاقتدار والاخلاق الحسنة . وذكرهم ايضاً صاحب الروض البسام وان منهم فرع السيبي في حماة ومنهم في دمشق وحوران كثيرون وقد تفرد ايضاً بذكرهم صاحب كتاب نور بهجة الصدق في ذكر سلالة الغوث الرفاعي بدمشق فوجدنا من الاختصار عدم نقل اسمائهم وانه لا يمكننا ذكر كل قبيلة او كل بيت او كل فرد منهم على حدة بل اكتفينا عن تكرار ذكرهم . فمن شاء معرفتهم فليرجع اليهم او الى انسابهم التي بايديهم المصدق عليها من قبل الحكومة العثمانية باعفائهم من الخدمة العسكرية في زمن عهد السلطان عبدالحميد استرضاء لشيخه السيد الجليل الشيخ ابي الهدى الصيادي صاحب التآليف الشهيرة .

ومن البيوتات الشهيرة في الفضل والعلم بدمشق بنو الخطيب الأكارم

خرج منهم جماعة من اجلة علماء الدين تقدم ذكر مؤسس مجدهم في القرن الثالث عشر وهم ينتمون الى الشيخ الامام السيد عبد القادر وقد ادركنا منهم الشيخ ابا الفرج والشيخ ابا الخير والشيخ ابا النصر والشيخ ابا الفتح العلماء الاعلام الذين تقدم ذكرهم وقد تفرع من هذا البيت جماعة كثيرون منهم الفضلاء والصلحاء والتجار . ومن مشاهير رجال الفضل فيهم الشيخ رشيد ابن السيد محمد ابن السيد عبدالله كان يخطب في جامع السنانية بصوت جهوري واخلاص تام رافقناه الى الحجاز ودار السلطنة وكان موضع احترام اعيان تلك البلاد ذا هيبة ووقار مات سنة ١٣١٦ وقد اعقب الشيخ هاشما من خيرة علماء دمشق ومدرسيها واخاه الشيخ عبد الرحمن من افاضل رجال العلم وخطيب جامع السنانية بعد والده . ومن مشاهير رجال الفضل فيهم ايضاً الشيخ عبدالرحمن بن السيد احمد احد ائمة الجيش التركي واخوه الشيخ كمال كان من مدرسي الجامع الاموي ومن المتضلعين بالعلوم العربية والدينية يعتاش من تجارة بيع زيت الكاز مات شهيداً في وقعة ميسلون الشهيرة . ومن مشاهير رجال الفضل والعلم فيهم ايضاً الشيخ عبد القادر من علماء دمشق وخطيب جامعها واخوه رئيس المحكمة البدائية صلاح الدين افندي وابن عمهم زكي بك المحامي الشهير المشهود له في الادارة والادب والفضيلة الذي انتخب عضواً في المجلس التأسيسي المنعقد بدمشق اليوم وصاحب الخطب والمواقف الهائلة لخدمة البلاد واخوه توفيق بك احد اطباء دمشق . وقد تفرع من هذا البيت الكريم جماعة كثيرون منهم التجارة والصناعة يجتمعون جميعهم في جدهم الاعلى الشيخ عبدالرحيم ابن السيد محمد الخطيب حفيد الشيخ وهبي بارك الله بهم

ومن الاسر المنسوبة الى بني المكتبي والمعروفة بزمننا تقدم في كتابنا ذكر عبداللطيف المكتبي احد مشاهير رجالهم في القرن الثاني عشر واثنى عليه المرادي نذكر منهم اليوم الشيخ سعيداً احد قضاة الشرع في اقضية دمشق كان من اهل العلم والفضيلة ومن مشاهير رجالهم ايضاً الشيخ يحيى افندي من علماء دمشق وخطيب مدرسة دار الحديث الاشرفية وهو احد خواص

تلاميذ محدث الشام وبركتها الشيخ بدر الدين وهو خليله وامينه وبيده شجرة مباركة .

ومن البيوتات المباركة القديمة آل الباقي الاكارم ، اشتهر رجال هذا البيت في الصلاح واقامة الاذكار ومحبة الفقراء واغاثة البؤساء ومؤاساة الضعفاء في مصر ودمشق وبيروت ويافا وغزة وهم خيار رجال هـذه البلاد لهم في كل بلدة زاوية اشتهرت بهم والمؤسس لمجد هذا البيت جدهم الاكبر العارف الشهير السيد الشيخ عمر الحسيني الباقي صاحب الديوان الشهير الذي تقدم ذكره في كتابنا وقد اشتهر المشهد الذي داخل الجامع الاموي به حين قدم الى دمشق واشترى سكناً قريباً منه وهو ناشر الطريقة الخلوتية وشيخ السادة الصوفية في هذه البلاد وقد تفرع من هذه الشجرة الطاهرة في بيروت ودمشق جماعة كثيرون وقد ادركنا منهم في عصرنا السيد عبدالكريم ابا النصر نقيب اشراف بيروت اليوم وهو والد الفاضل عمر افندي احد كتاب هـذا العصر الادباء والسيد ابو السعود كان من قضاة الشرع في داخل اقضية دمشق ومثال الفضيلة والوجاهة مات سنة ١٣٣٦ وهو والد الفاضل ابي النصر افندي مأمور تمليك دمشق اليوم وابي الهدى افندي الكاتب الشهير ومن طلاب معهد الحقوق وقد تقدم في كتابنا ذكر فريد باشا عند ترجمة والده وقد ترك لنا ولداً نجيباً اسمه لطفي بك من شبان هذا العصر ومن طلاب معهد الحقوق وقـد استوطن منهم في الحجاز السيد عبد البديع وهو والد السيد عمر افـندي من تجار جدة اليوم .

ومن الاسر الشهيرة بدمشق بنو الحسيبي الاكارم وقد اشتهر منهم بالزعامة والوجاهة السيد احمد افندي بن علي افندي بن السيد محمد مؤسس مجد هذا البيت وهو الذي اقطعته الدولة التركية بعضاً من قرى دمشق كما كانت عادتها باقطاع الاراضي والقرى المتروكة من الرؤساء واهل الزعامة في البلاد وبسبب ذلك نال الغنى وكثر عنده المال وترك من بعده لذريته ثروة كبيرة مات سنة ١٢٩٣ وهو والد السيد ابي السعود افندي احد اعيان دمشق وسراتها كان

ذا هيبة ووقار واخلاق مرضية واعتبار له مكانة سامية عند العلية واحترام تام لدى الامراء وله ميل وشغف باقتناء الكتب الخطية والآثار النفيسة القديمة التي قل ان يوجد عند غيره منها . انتخب في بادئ امره عضواً في المجلس البلدي ثم رحل الى دار السلطنة واحسن اليه برتبة ادرنة من البلاد الخمسة والوسام المجيدي الثاني بعد ان تقلد نقابة الاشراف بدمشق مدة قليلة بعد بني العجلان وقبل وفاته بخمسة اعوام احيلت الى جامع هذا التاريخ وذلك في عهد السلطان عبد الحميد مات سنة ١٣٣٢ وقد اعقب ذرية كبيرة نجيبة كان الارشد فيهم السيد علي افندي الذي احيلت اليه نقابة الاشراف في زمن قريبه رضا باشا الركابي الذي كان تولى الحكم الاداري والعسكري في دمشق عند احتلال الانكليز لها بعد ذهاب الاتراك وقد مات عنها سنة ١٣٤١ وبقيت بعده لاخيه السيد احمد افندي احمد وجيه دمشق ورئيس بلديتها السابق وهم يسكنون اليوم في حي القنوات وكان مسكن جدهم الاكبر السيد احمد حسيب في حي العقيبة وهو من اعضاء مجلس الشورى الكبير الذي كان تشكل سنة ١٢٧٧ بدمشق وقد رأيت ختمه المكتوب به (احمد الله) على مضبطة مخرجة من ذلك المجلس يحصر بها بعض اشراف دمشق ليخصص لهم مرتب من خزينة الدولة يقيهم من الفقر . وقد اخبرني انهم ينتسبون الى السيد الجليل محمد علي الجرجاني وذكر محمود افندي الحمزاوي مفتي دمشق في تاريخه انهم حديثو عهد في دمشق

ومن الاسر الشهيرة في العلم والحديث بنو الكزبري الاكارم بدمشق . اشتهر رجال هذا البيت في علو السند واخذ عنهم كثير من رواة الحديث في الممالك الاسلامية وقد انجب هذا البيت جماعة من ائمة الحديث الاعلام مثل جدهم ومؤسس مجدهم عبد الرحمن الكبير وولده الشمس محمد وولده عبد الرحمن وولده مسلم وخالهم الشيخ علي كزبر الذي تقدم في كتابنا ذكرهم وقد ذكر المرادي بعض رجالهم واثنى عليهم بخير وقيل انهم اتوا من صفد وان اول من قدم منهم دمشق السيد عبد الكريم في سنة ١٠١٣ وشهرتهم بصفد معلومة ولقبهم بالكزبري جاءهم من خالهم الشيخ علي وكانت قراءة الحديث تحت قبة

النسر في جامع دمشق في بيتهم الى عصرنا هـذا وقد طرأ على اسرتهم ماطرأ على غيرها من اسر العلم في دمشق من فقد رجالها وهو الذي يؤتي الحكمة من يشاء وقد ادركنا من رجال هذا البيت الذي لم يأت معنا ذكره ابا السعود افندي كان عضواً في محاكم العدلية بدمشق وهو والد نسيب افنـدي مدير الايتام في محكمة دمشق ومنهم نوري افندي من مأموري الامن العام وهو والد زكي افنـدي من اعضاء المجلس البلدي اليوم ، ومن ابناء عمهم الشيخ عبدالله افندي بن السيد كمال وهو من اهل الفضيلة والوجاهـة والاخلاق الحسنة وقد اطلعنا على نسب عال في يده وصورة شجرة مباركة اصلها ثابت وفرعها في السماء ولولا ضيق المقام لزينا تاريخنا بذكرها

ومن ابناء عمهم ايضاً الشيخ عبد القادر افندي بن محمد افندي هو احـد اركان رجال هذا البيت ومن قضاة الشرع في اقضية دمشق وغيرها الشيخ المعمر النسابة جمع تاريخ وفاة بعض مشاهير الرجال في القرن الثالث عشر في كناش له كنت اطلعت عليه واستوثقت منه بأخذ اسماء بعض الرجال كان مثال الوجاهـة والفضيلة ودوداً لاصحابه ولاقربائه لايمل جليسه من كلامه العذب وحديثه المستطاب الذي يروي فيه حكايات السلف وتطورات الرجال الاقدمين ودرجة انتساب بعضهم لبعض رحل الى دار السلطنة مراراً وتزوج في بلاد الترك وترك بها ذرية لم نقف على اسمائها مات سنة ١٣٣٠ وهو والد محمد افندي من تجار دمشق ومن اصحاب الهمم العالية لقضاء حوائج الناس

ومن الاسر القديمة بدمشق بنو الطالوي وقد ذكر المحبي جدهم العلامة الشيخ درويش ووصفه انه احـد افراد الدنيا فضلا وشعراً وقال ان والده رومي الاصل قدم الى دمشق في صحبة السلطان سليم وقد تقدم في كتابنا ترجمة بعض رجال هذا البيت وذكرنا قسما كبيراً من شعرهم وقد ادركنا منهم الشيخ انيسا المتقدم الذكر .

ومن الاسر التي اشتهرت بدمشق آل بدرخان باشا وهم من امراء وزعماء بلاد الاكراد قدم هذا الذات الى دمشق بعـد محاربته وعصيانه على الحكومة

العثمانية لاجل استقلال بلاده وحفظ قوميتها وكانت وقعته التاريخية الشهيرة في عهد السلطان عبدالمجيد وبقيت مدة طويلة الى ان اعطته الدولة الامان على نفسه وسلامة حياة اولاده سلم نفسه اليها وأتي به الى دار السلطنة ومنها اخـذ الى جزيرة كريد ثم اختار الاقامة بدمشق واعطته الدولة بعض القرى والاراضي الخالية واذنت له ان يستورد ضرعها مع تحفظه بمحصولات مزارعه في بلاده وخصصت له احسانا كبيراً وقد اعقب ذرية كبيرة احدا واربعين شخصاً بين ذكور واناث شغل اكثرهم في جسم الدولة وظائف مهمـة عرفنا منهم بدري باشا ونجيب باشا وعثمان باشا وبحري باشا ومصطفى باشا وعلي شامل باشا وامين بك وعبدالرزاق بك وخالد بك وغيرهم من مشاهير الرجال . وقد اخبرني احد اركانهم انهم ينتمون الى عبد العزيز بن خالد بن الوليد رضي الله عنه وقد تفرع منهم جماعة كثيرون هم مثال الشهامة

ومن البطون القرشية بالشام بنو شيبة بن عثمان بن طلحة بن ابي طلحة بن عبد العزي بن عثمان بن عبد الدار بن قصي جد النبي عليه الصلاة والسلام وفي بني شيبـة حجابة الكعبة الى الآن ومن اشهرهم بديار الشام آل القطب سعدالدين الجباوي فهو شيباني وذريته وبنو عمه وذراريهم كآل تغلب وآل سعد الدين كثيرون بدمشق وجبا القرية التي فيها قبره مات سنة ٦٢١ وقـد انجب هذا البيت جماعة من خيار الصالحين وبهذه المناسبة نذكر لطيفة جرت مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم واول اصحابه الصديق ابي بكر رضي الله عنه كانا يمشيان بباب بني شيبة فانشد رجل من بني عبدالدار

يا ايها الرجل المحمل رحله هلا نزلت بآل عبد مناف

هبلتك امك لو نزلت برحلهم منعوك من عدم ومن اقراف

الخالطين غنيهم بفقيرهم حتى يعود فقيرهم كالكافي

فتبسم الرسول عليـه الصلاة والسلام حين قالوا بآل عبد مناف ولم يزل الى اليوم بيـدهم مفتاح الكعبة وحجابها وهم الذين نزلت بهم الآية الكريمة

ومن بني تغلب بدمشق آل بيت التغلبي وهم ينتهون الى عبد القـادر بن

عمر بن عبدالقادر بن عمر ابي تغلب بن سالم التغلبي الشيباني الحنبلي الصوفي الدمشقي وقد ترجمه المرادي في تاريخه واثنى عليه بخير وقال انه كان يرزق من عمل يده في تجليد الكتب ومن ملك له في قرية من قرى دوما الشام وكان يكتب التمائم للمرضى والمصابين ولا يخالط الحكام، وذكر له انه شرح دليل الطالب في مذهب الحنابلة وانه مات سنة ١١٣٥ هـ ومن متأخري رجال هذا البيت الشيخ يونس بن عمر كان مثال التقوى والصلاح ومحل اعتقاد الخاص والعام يقيم الذكر في زاويته المعروفة بالتقوية داخل داره الكائنة في حي العمارة المتوفى سنة ١٢٩٥ هـ وقد اعقب ذرية ارشدهم الشيخ محمد احد قضاة الشرع من اقضية دمشق والقائم اليوم بمشيخة زاويتهم من اقامة الاذكار عمه الشيخ عبدالمحسن الذي هو مثال الفضيلة والاخلاق المرضية وله ذرية احسنهم الشيخ حسن بارك الله به

ومنهم آل بيت سعد الدين بدمشق وقد تقدم في كتابنا تراجم بعض رجالهم وقد ادركنا من احفادهم الشيخ حسن ابن ابراهيم الميداني القبيباتي كان مثال الفضيلة والوجاهة ومحل اعتقاد واحترام الخاص والعام يقيم الاذكار في زاويتهم التي هي داخل دارهم في الحي المذكور الشهيرة بهم مات سنة ١٣٣٠ ولهم ذرية كبيرة الى اليوم . وقد ادركنا ايضاً منهم الشيخ اسعد بن ابراهيم له زاوية شهيرة في حي الشاغور مات سنة ١٣٢٥ ، ومن مشاهير مشايخهم الذي ادركناه الشيخ ابراهيم بن الشيخ محمد بن الشيخ امين خادم سجادة الطريقة السعدية في زاويته الكائنة في حي القيمرية وهو من اكابر رجال هذا السلك له اعتناء تام في اقامة الاذكار تجتمع عنده العلماء والامراء والحكام يميل طبعه للتودد اليهم وله احترام تام عندهم ذهب والده الى دار السلطنة لاخذ تولية الاوقاف ومشيخة الزاوية وبأثناء ذلك مات بها ودفن بتربة اسكدار سنة ١٢٨٧ ، ثم تخلف بعده ولده الشيخ ابراهيم وجد باعمار بناء قبر الشيخ حسن سعد الدين ابن القطب الجباوي الملاصق لتربة باب الصغير مات المذكور سنة ١١٤٣ وكانت والدته من بني تقي الدين الحصني وقد ترك ذرية

تخلف من بعده ارشدهم الشيخ بدرالدين افندي وقد احيا ذكر والده بالكرم وضيافة الامراء والعلماء .

ومن الاسر الشهيرة القديمة التي اختى عليها الدهر بنو العدوي وقد ذكر المرادي جدهم مفتي دمشق والعدوي نسبة الى عدي بن مسافر الصحابي واصلهم من البقاع ولهم اقارب في طرابلس الشام ادركنا من بقية رجال هذا البيت محمود افندي وهم امويون .

ومن اجل البطون الخزرجية بدمشق اسرة آل الايوبي الانصاري . اشتهر رجال هذا البيت في الديار الشامية بنسبتهم الى الصحابي ابي ايوب الخزرجي الانصاري دفين القسطنطينية والذي يظهر انهم اتوا دمشق بعد عصر الحافظ ابن عساكر باعصر كثيرة اذ وجد في بعض التواريخ انهم قدموا الى هذه البلاد في القرن العشر لذلك قال في تاريخه ونقلناه في كتابنا عند ذكر فتح القسطنطينية انه انقرض نسله ولا يعلم له عقباً في عصره فلا يتأتى ان يحيط الانسان علماً بجميع الذرية مع وجود الجم الكثير منها في البلاد البعيدة وعدم العلم لايستلزم الانقراض او عدم الوجود . وقد سبقنا ابن شقدة والمحبي والمرادي وغيرهم من مؤرخي دمشق في ذكر بعض من ذرية هذا الصحابي الجليل امثال الشيخ رحمة الله بن عبد المحسن بن يوسف جمال الدين والسيد سعيد بن ابراهيم بن عبد المحسن بن جمال الدين وغيرهم ممن تقدم ذكر تراجمهم في كتابنا . وقد ادركنا من مشاهير رجال هذا البيت محمد علي افندي بن عطا الله افندي بن سعيد افندي كان احد اعيان دمشق خطبته العلماء واحترمته الحكام والامراء . تقلد عضوية الاستئناف في المحاكم العدلية ثم عضوية مجلس ادارة الولاية الكبير واحسنت اليه الدولة العثمانية برتبة البلاد الخمس مع الوسام المجيدي الثاني مات سنة ١٣٢٣ وقد اعقب نجله عطا الله بك من خيرة رجال الحكومة الملكية تقلد وظائف عالية في زمن الاتراك ثم تولى وزارة الداخلية والعدلية بدمشق بعد الاحتلال وهو شريف ايضاً من جهة والدته من بني الحصني .

ومن مشاهيرهم ايضاً شقيقه سعيد افندي احد المتصدرين بالرآسة له مكانة عالية عند الحكام والامراء وله احترام خاص عند العلماء تقلد وظائف شرعية كثيرة آخرها رآسة الكتاب في المحكمة الشرعية بدمشق مكث فيها مدة طويلة كان مدار اعتماد القضاة عليه وقد منحته الدولة العثمانية موالي ادرنة من الرتب العلمية مع بعض الاوسمة . جمع تاريخاً في تراجم رجال القرن الثالث عشر الا انه لم يطبع . مات سنة ١٣٣٠ وقد اعقب انجالا نجباء اكبرهم حسن افندي وجمال الدين افندي من سراة دمشق

ومن مشاهيرهم ايضاً الاخ الثالث ابراهيم خليل افندي كان كريم الاخلاق له مكانة عالية وفضيلة سامية تهابه الحكام والامراء ويترأس في مجالس العلماء يعتمد على افكاره في مهام الامور انتخب في اول امره عضواً في المجلس البلدي ثم تقلد عضوية استئناف الحقوق والجزاء في محاكم عدلية دمشق ومنحته الدولة العثمانية رتبة الحرمين وقد كلفته ايضاً بآخر عهدها باخراج واعطاء امتياز جريدة الشرق اليومية التي كانت تصدر بدمشق كان يحررها رهط من العلماء الافاضل منهم الامير شكيب ارسلان الشهير والشيخ عبدالقادر المغربي من اجلة علماء هذا العصر . يميل طبعه لقضاء حوائج الناس وحفظ ودهم مات سنة ١٣٣٧ وقد اعقب اولاداً نجباء من خيرة شبان هذا العصر اكبرهم وجيه بك من موظفي العدلية ومختار بك قائمقام جيرود من اقضية دمشق ونصوح بك من طلاب معهد الحقوق بدمشق اليوم ولهم اخ رابع اسمه احمد مهدي بك تقلد وظائف كثيرة في ادارة شئون البلاد ثم رحل الى الاستانة وتعين في اعظم دوائر الحكومة بها ثم عين معاوناً لوالي الحجاز ومات في الاسكندرية سنة ١٣١٩ وقد اعقب ذرية نجيبة ارشدهم رفعت بك الذي تقلد معاونية والي حلب ومات بها سنة ١٣٤٤

ومن ابناء عمهم شكري باشا الذي كان احد امراء اللواء في الجيش العثماني والحاكم العسكري في دمشق وحلب وبيروت بعد ذهاب الاتراك مات سنة ١٣٤٠ واخوه العلامة المحقق والصوفي المدقق الشيخ توفيق افندي مدير

الكلية العلمية الدينية بدمشق اليوم وهو ختام رجال العلم في هذا البيت

ومن مشاهيرهم وابناء عمهم ايضاً محمد علي افندي بن عبدالمحسن افندي احد رؤساء الاستئناف في المحاكم الحقوقية والجزائية المشهود له في الفضيلة وحسن الاخلاق والسريرة الحسنة وهو والد رؤف بك الذي تقلد وظائف ملكية كثيرة في زمن الاتراك ثم تقلد وزارة الداخلية عند نكبات دمشق مدة قليلة ولبعض رجال هذا البيت اتصالات شتى من جهة الامهات فيتصلون ببني حمزة الاشراف وبالسادة البكرية وآل سعدالدين .

ونقل العارف الشيخ محي الدين الطائي الاندلسي في كتابه الفتوحات المكية في الجلد الثالث صفحة ٤٣٨ انه سمع الحديث على شيخه ابي الحسن الذي هو من ذرية الصحابي الجليل ابي ايوب الانصاري وهذا يثبت وجود ذريته في البلاد الاسلامية . ونقل العلامة صاحب الروض البسام في اشهر البطون القرشية بالشام في تاريخه ان السيدة فاطمة والدة الامام الغوث الرفاعي هي من ذرية ابي ايوب الانصاري ايضاً . وجاء في كتاب عقلاء المجانين في الصفحة ٣٧ قال : حدثنا قاسم بن محمد بن عريب من ذرية ابي ايوب الانصاري وقد شاركهم ايضاً بهذا الانصال جماعة كثيرون في سائر الاقطار والامصار منهم ذرية في الهند اشتهر منها الشيخ عبدالحي اللكنوي احد جهابذة العلم ساق نسبه واثبت اتصاله في بعض مؤلفاته المطبوعة في الهند الى ابي ايوب الانصاري وقد عرفنا صهره العلامة الشيخ عبد الباقي اللكنوى الايوبي نزيل المدينة المنورة واجتمعنا به في تلك الاماكن المقدسة وهو صاحب كتاب النفحات في التصوف

وقد شاركهم ايضاً بهذا الاتصال العلامة الشيخ محمد افضل الهراتي الايوبي قاضي القضاة في هرات من بلاد الافغان والمحدث الكبير شيخ الاسلام ابو اسماعيل عبد الله الايوبي دفين هرات وصاحب كتاب منازل السائرين .

وشاركهم ايضاً اسرة كبيرة في ماردين عرفنا منها الشيخ محمد علي الذى اتى دمشق وضاف في دار بني الايوبي وهو من ابناء عم الشيخ ايوب الايوبي

الانصاري احد العلماء المتقدمين وكان طلب الى دار السلطنة من قبل السلطان عبدالحميد وانزله ضيفاً عنده في مضيف خاص كما اخبرني بذلك احد اركان رجال هذا البيت واخبرني ايضاً انه يشاركهم بهذا الاتصال مصطفى بك الايوبي احد اعيان سعرد . وبلغني ان في مدينة ديار بكر ذرية كبيرة منهم لم تقف على اسمائها وفوق كل ذي علم عليم . وكفى رجال الانصار ان منهم حسان بن ثابت شاعر النبي عليه الصلاة والسلام القائل يوم قتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنهما :

ضحوا باروع عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا
لتسمعن صحيحاً في ديارهم الله اكبر يا ثارات عثمانا

قيل لانس بن مالك ارأيت اسم الانصار كنتم تسمون به ام سماكم الله قال بل سمانا الله وقد قال في ذلك حسان :

سماهم الله انصاراً بنصرهمو دين الهدى وعوان الحرب تستعر
وجاهدوا معه في الله واجتهدوا في النائبات وما خانوا وما ضجروا
والناس الب علينا فيك ليس لنا الا السيوف واطراف القنا وزر
نجاهد الناس لانبقي على احد ولا نضيع مانوحي به السور

ونقل المحبي في تاريخه عند ترجمة العلامة عبد الكريم العبادي الدمشقي واسرته انهم ينتسبون الى الصحابي الجليل سيد الخزرج

وترجم المرادي في تاريخه محمد امين بن ابراهيم الايوبي الانصاري الدمشقي العالم الكامل كان له ميزة في علم الادب ولي رآسة محكمة الباب مرتين وعزل عنها مات سنة ١١٧٧ وتقدم ذكره في كتابنا وفقنا الله الى حبهم

ومن الاسر القديمة في المجد التي استحقت الذكر في تاريخ دمشق ومسكن رجالها اليوم طرابلس الشام بنو زيني سلطان وقد تقدم في كتابنا ذكر بعض مشاهير رجال الفضل فيهم وهو محمد بن عمر بن سلطان الدمشقي الصالحي مفتي الشام ومدرسها صاحب التصانيف العديدة منها الجواهر المضية في احوال السلطان سليم الفاتح للبلاد العربية قال الحمصي في تاريخه بقي له

ذرية في مصر وله اقارب في طرابلس الشام ودفن بباب الصغير . ثم ذكر ابن طولون في تاريخه القاضي كمال الدين ابن الزيني سلطان الدمشقي انه انتقلت ذريته الى طرابلس الشام ودفن في تربتهم تحت المعظمية . وقد استوطن في دمشق عبد العزيز افندي بن احمد افندي قاضي طرابلس الشام الاسبق اتى منها الى دمشق وسكن بها كان من موظفي رجال العدلية مات بدمشق سنة ١٣٠٠ ودفن بباب الصغير واعقب ذرية نجيبة وهم : راشد افندي ورائف افندي وغالب افندي وسعدي افندي . وقد اتى دمشق من اركان رجال هذا البيت ايضاً وسكن بها عثمان بك بن كامل افندي وهو من نوابغ هذا العصر واحد اساتذة معهد الحقوق بعد ان كان عضواً في المؤتمر السوري في زمن الملك فيصل بعد ذهاب الاتراك وهو مثال الفضيلة والادب طبع له كثير من الآثار النفيسة في العلوم الحقوقية والسياسية . وقد تفرع من رجال هذا البيت افراد كثيرون يسكنون طرابلس من اهل الكمال والوجاهة كان بودنا نشر اسمائهم وتخليد ذكرهم في تاريخنا كرامة لاسلافهم لكن عدم معرفتنا باشخاصهم حال دون هذه الامنية

ومن الاسر القديمة الشهيرة في الفضل والعلم بدمشق بنو الاسطواني الاكارم ذكر مناقب رجالهم مؤرخو دمشق . قدم اسلافهم من جبل نابلس ثم استوطنوا في صالحية دمشق قبل العصر السابع . ينتمون الى ابن مفلح الحنبلي الشهير تلميذ شيخ الاسلام ابن تيمية ولم يخل عصر ولا قرن من ذلك التاريخ عن وجود افاضل منهم كما تقدم في الاعصر السالفة من كتابنا . وقد كانوا قديماً يتمذهبون بمذهب الامام احمد بن حنبل الا انه في القرن الحادي عشر انتقلوا الى مذهب الامام ابي حنيفة ولهم قدم راسخة في الفضيلة والمكانة ونبغ منهم جماعة من العلماء الاعلام حتى ان العارف النابلسي الدمشقي هو احد تلامذتهم . وقد اسندت اليهم الوظائف الشرعية من ذلك التاريخ كما انه قل ان يوجد سند شرعي او وقفية لمؤسسة خيرية او ذرية الا وهي موشحة بامضائهم ووجدت وقفيات بامضائهم مؤرخة قبل تاريخ دخول الدولة العثمانية

لدمشق . ولهذه الاسرة اتصالات شتى من جهة الامهات فتتصل الى بني الايجي الاشراف المترجمين في تاريخ المحبي، والى السادة بني حمزة وبني تقي الدين الحصني وبني الكيلاني والايوبي الانصاري والنابلسي . ومنهم الشيخ زين الدين مفتي دمشق شارح الكنز الموجودة نسخته في مكتبة الظاهر بدمشق . وقد اشتهر من رجال هذا البيت ممن لم يذكر اسمهم المؤرخون حسن افندي جامع فتاوى العلامة عبد الرحمن افندي العمادي المتداولة والفلكي عبدالله افندي واحمد افندي رئيس الكتاب في المحكمة الشرعية واخوه علي افندي وسعيد افندي قاضي بغداد الذي امتدحه العلامة ابن عابدين الدمشقي بقصيدة غراء وتقدم ذكرها في كتابنا وولده امين افندي خطيب جامع دمشق وسعيد افندي قاضي دمشق وهو والد اسعد افندي من قضاة الشرع وله ذرية نجيبة وهم : عزت افندي من امراء الجيش التركي ونور الدين افندي كان نائب الشرع في اقضية دمشق وحسني افندي من موظفي عدلية دمشق المشهود له بالمعرفة والسيرة الحسنة وصبحي افندي من وجهاء دمشق . وتقدم في كتابنا ذكر عبد القادر افندي وهو والد العلامة الشيخ عبد المحسن افندي الذي تقلد وظائف شرعية مهمة منها رآسة مجلس الشورى في حكومة دمشق بعد ذهاب الاتراك وكان قبلا من اعضاء مجلس الامة في دار السلطنة وقاضي دمشق اليوم وهو والد عبدالله بك من مشاهير محامي دمشق وله اخوان الشيخ عبد الرزاق افندي من علماء دمشق ونائب محكمة الشرع في بيروت وعبد الهادي افندي احد قضاة الشرع في اقضية دمشق . ومن مشاهير رجال هذا البيت صالح افندي خطيب جامع دمشق وولده الشيخ راغب افندي المتقدم ذكرهما وقد وجهت هذه الخطبة الى اسلافهم بعد وفاة العلامة الشيخ اسماعيل الحائك مفتي دمشق وصاحب الفتاوى الشهيرة . ولم تزل في عهدتهم الى اليوم يتوارثونها فاضلا عن فاضل وكابراً عن كابر . ومن متأخري رجالهم عبد الحميد افندي ابن عبد الرحمن افندي الذي كان نائب الشرع في محكمة دمشق . ومن اركان هذا البيت صادق افندي بن حسن افندي وهو من مشاهير رجال

العدلية بدمشق وعضو محكمة التميز فيها . ومنهم الفاضل يحيى افندي بن ابراهيم افندي احد قضاة الشرع في اقضية دمشق . ومنهم الاديب وجيه افندي من اعضاء محاكم عدلية دمشق ابن حسن افندي .

ومن مشاهير الاسر القديمة في الفضل والعلم بدمشق بني المحاسني الاكارم خدم رجال هذا البيت الشريعة الغراء في الاعصر السالفة الى عصرنا هذا وقد ذكر المحبي والمرادي بعض مشاهير الرجال منهم وانهم تولوا افتاء دمشق وخطبة جامعها تقدم ذكر بعضهم في كتابنا . ومن متأخري رجالهم الذين لم يسبق ذكرهم في تراجم الرجال وقد خدموا العلم والشريعة السمحاء علي افندي ابن خليل افندي . كان تولى القضاء الشرعي في اكثر اقضية دمشق وتقلد بعدها رآسة الكتاب في المحكمة الشرعية الكبرى مات سنة ١٢٩٩ وقد ادركنا من عقبه ارشدهم محمد خيري افندي الذي تولى قضاء دمشق بعد حكم الاتراك وقد كان في زمانهم رئيساً لكتاب المحكمة الشرعية وهو مثال الفضيلة والوجاهة حاز ثروة كبيرة في جده واجتهاده مات سنة ١٣٤٥ وهو والد فوآد افندي وشوكت افندي من مأموري عدلية دمشق . ومنهم سعيد افندي ابن سليم افندي خطيب جامع دمشق تولى النيابات في المحاكم الشرعية مات سنة ١٣٠١ وقد اعقب ابا الخير افندي احد مأموري المالية وهو والد سعيد افندي احد المحامين المشهود لهم اليوم في الاقتدار ومن اساتذة المجلة في معهد الحقوق ثم تقلد وزارة الداخلية عند طبع هذا الكتاب مدة قليلة . ومنهم محمد امين افندي ابن سليم افندي وهو ايضاً خطيب جامع دمشق تقلد النيابة الشرعية مع رآسة كتاب المحكمة الشرعية الكبرى مات سنة ١٢٨٤ وله ذرية لم نقف على اسمائها . ومنهم ابو السعود افندي ابن سليم افندي تولى القضاء الشرعي في اكثر اقضية دمشق مات سنة ١٣١٤ . وقد نظرت في يد ولده حسني افندي احد المحامين بدمشق شجرة تدل على انسابهم لبني تميم الداري الموجودين اليوم في القدس جاء جدهم الاكبر الى دمشق واشتهر من اولاده محاسن الشرابيشي التميمي الحنفي وذلك في اثناء القرن السادس

للهجرة فنسبت الاسرة اليه وعرفت باسم بني محاسن وارجال هـذا البيت تآليف ودواوين شعر كثيرة منها كناش المحاسني جد والد صاحب الديوان اسماعيل بن تاج الدين وكان المذكور سبط الشيخ حسن البوريني قرية من نابلس وهو المؤرخ الشهير . وفي خزانة الكتب عنـدنا بعض من آثارهم النفيسة وقد امتدح هـذا البيت العلامة محمد بن عبد الرحمن الغزي العامري مفتي الشافعية بدمشق بقوله :

اذا افتخر الانام بارض شام وعدوا دورها ثم المساكن
اقول مفاخراً قولا بديعاً محاسن شامنا بيت المحاسن

وقد مدحهم ايضاً محمود الحمزاوي مفتي دمشق في ديوانه

ومن مشاهيرهم ايضاً رشيد افندي بن خليل افندي خطيب جامع دمشق له صوت جهوري حسن السيرة والسريرة مات سنة ١٢٨٥ وله ولد سمـه عبدالقادر افـندي كان من كتبة المحكمة الشرعية بدمشق مات سنة ١٣٢٣ ومنهم صالح افندي وهو والد محمد صالح افندي احد كتاب المحكمة الشرعية بدمشق اليوم . ومنهم نوري افندي وهو والد سامي افـندي احد مشاهير الطب المقيم في الديار المصرية .

ومن الاسر القديمة في دمشق بنو سردست تقـدم ذكر جدهم العلامة الشيخ يحيى في القرن الثالث عشر وقد عرفنا منهم اليوم احمـد افندي من اعضاء محاكم العدلية بدمشق وراسم افندي من مرافقي ملك العراق اليوم

ومن آلاسر الشهيرة في سوريا ودمشق بنو الصلح الاكارم وقد استحقت الذكر في تاريخ هذا العصر لما قام به رجالها اليوم من الخدم السامية والهمم العالية في قضية سورية التي شغلت جميـة الامم في بلاد الغرب . نقل حملة الاخبار ان رجالهم قديماً كانوا يشتغلون بالتجارة في ايالة صيدا وفيهم خدمة الفتيا بها الى اليوم . ثم ظهر احمد باشا بن محمد افندي مؤسس مجد هـذا البيت وقد تولى وظيفة المستشارية في الجيوش العثمانية التي اتت البلاد السورية لمحاربة ابراهيم باشا المصري وتقلد بعدها وظائف عالية في عهد هذه الدولة

وحاز من الرتب اولاها والاوسمة اعلاها اشتهر بالزعامة وسداد الرأي يستشار في مهام الامور في ادارة شئون البلاد وقد صاهر مفتي دمشق ونقيب اشرافها حسن افندي تقي الدين الحصني وله مواقف شريفة وخطيرة في حادثة الستين الشهيرة ابعد على اثرها الى جزيرة رودس ثم عفي عنه وعن أعيان دمشق وبقي في بيروت الى ان مات سنة ١٣١١ وترك ثلاثة اولاد نجباء اكبرهم كامل بك الذي تقلد وظائف كثيرة في العدلية . ثم في آخر عهده تولى رآسة محكمة استئناف الجزاء والجناية بدمشق . كان مثال الفضيلة والاخلاق الراقية السديدة وصاهر اسرة بني المالكي من اشهر بيوتات دمشق . مات بها سنة ١٣٣٧ وترك ولدين نجيبين منيف بك من اعضاء مجالس العدلية وعفيف بك احد نوابغ هذا العصر وله خدمات جلية في القضية العربية ومساع مشكورة وراء نيل البلاد السورية امانيها وحقوقها والاخ الثاني رضى بك احد مشاهير رجال هذا العصر تقلد متصرفيات كثيرة زمن الحكومة العثمانية مع ادارة بعض ولاياتها ثم بعد ذهابهم تولى وزارة الداخلية في عهد الملك فيصل للبلاد السورية . وله اياد بيضاء وغيرة شماء لاستقلال البلاد العربية وحفظ قوميتها وهو والد رياض بك الذي ذهب لاوربا وضم صوته مع المشتغلين في القضية السورية مطالباً بمنح سورية حقها في الحرية والحياة والاخ الثالث منح بك احد اعيان بيروت ومن اعضاء مجلسها الكبير مات سنة ١٣٤٠ .

ومن مشاهير رجال هذا البيت عبدالرحيم افندي من اعيان بيروت كان تولى مديرية البرق والبريد في اكثر الولايات العثمانية مات سنة ١٣٠٧ وهو والد سامي بك قاضي محكمة الجناية في بيروت اليوم وشقيقه مختار بك من ممتازي امراء العسكرية في زمن الدولة التركية .

ومن الاسر الشهيرة في العلم والمجد بنو المرادي وهم ينتهون الى السيد مراد بن علي النقشبندي البخاري السمرقندي الشهير قدم دمشق سنة ١٠٩٧ وقد انجب بيتهم جماعة من الاعيان والعلماء الاعلام واحرز جماعة منهم

منصب الفتوى والنقابة في دمشق ووقع الاجماع بديارنا على احترامهم وتقدم ذكر بعض آثار مشاهير رجالهم الاقدمين وقد ينتمي الى علي افندي المفتي الروض الرائض في عدم صحة وتزويج أهل السنة للروافض واقوال الائمة العالية في احكام الدروز والتيامنة وقد عرفنا في عصرنا موسى افندي احد اعيان دمشق بن مسعود افندي ابن حسين افندي مفتيها برع في الادب وله يد طولى في النثر والنظم لو جمعت اقواله لكانت ديواناً مستقلاً وله ولع في مجالس الانس ، كان عضواً في محاكم عدلية دمشق مات سنة ١٣١٠ وقد اعقب ولداً نجيباً اسمه مراد افندي الذي عين في عهد السلطان عبد الحميد مديراً لاوقاف دمشق وقد ظهر منهم اليوم الطبيب الحاذق حكمت افندي المرادي من مشاهير اطباء دمشق وهو اول رجل خرج من هذا البيت متعلماً ومتقناً علم الابدان مات في اثناء طبع هذا الكتاب

ومن الاسر الشهيرة في العلم والفضل بنو العطار ، كانت رئاسة العلم في دمشق برجالهم وقد تقدم في كتابنا ذكرهم ويقال ان اصلهم من حلب ينتمون الى قضيب البان وجدهم الشهاب احمد هو المؤسس لمجد هذا البيت ، وقد اشتهر منهم في عصرنا خمسة اقمار الشيخ سليم واخوه الشيخ محمد والشيخ عمر والشيخ ابراهيم والشيخ بكري وهم فخر بني العطار وزينة دمشق والامصار وقد ادركنا من رجال هذا البيت نجيب افندي بن سعيد افندي ، كان احد سراة دمشق ومن اعضاء محاكم العدلية والاوقاف مات سنة ١٣٢٨ ، ومنهم حسن افندي بن الشيخ مصطفى افندي سبط مفتي دمشق حسن افندي تقي الدين كان مثال الفضيلة والوجاهة حسن الاخلاق تقلد رتبة الحرمين والوسام العثماني الثاني مات سنة ١٣٣٦ وقد اعقب حمدي بك وعبد القادر افندي من مأموري عدلية دمشق والفاضل مسلم بك من مأموري معارف حكومة شرقي الاردن . ومن ابناء عمهم الشاب الاديب سهيل افندي بن عبد الرحمن افندي ، وقد انجب هذا البيت جماعة فضلاء ادباء ومنهم اطباء تقدم ذكر بعضهم عند تراجم آبائهم ، وقد ظهر منهم اليوم

في علم الطب رضى افندي بن حسن افندي . ومن مشاهيرهم ايضا الشيخ رشيد افندي كان من قضاة الشرع في اقضية دمشق . ومنهم الشيخ عبد الرحمن كان احد اساتذة مدارس المعارف .

ومن الاسر القديمة في العلم والحديث بدمشق بنو المنيني . خرج من هذا البيت جماعة من ائمة الحديث ومن اجلة علماء الدين تقدم ذكرهم في كتابنا منهم جدهم ومؤسس مجدهم الشهاب المنيني صاحب التآليف الغزيرة والتصانيف الشهيرة . ومنهم اسماعيل افندي مفتي دمشق وخطيب جامعها ذكر المرادي اصلهم من قرية برقايل تابع طرابلس الشام ثم انتقل جدهم الى قرية منين من اعمال دمشق وكان للشهاب اخ من العلماء الاعلام تولى مشيخة الاسلام في بلاد الروم وبقيت ذريته هناك . وقد ادركنا من مشاهير رجالهم بل ختام رجال العلم في هذا البيت استاذنا العلامة محمد افندي المنيني مفتي دمشق ومدرس الحديث تحت قبة النسر والامام والخطيب في جامعها وعليه خدمة تربة مقام السيد الحصور عليه السلام وقد تقدم ذكره في كتابنا

ومن الاسر القديمة الشهيرة في العلم والفضل بدمشق بنو الغزي العامري تقدم في كتابنا ذكر مشاهير رجال هذا البيت في الاعصر السالفة مع ذكر مؤلفاتهم وآثارهم واقوالهم التي نقلها الخلف عن السلف من المؤرخين ونوهوا عن مخطوطاتهم ونفائس اشعارهم من اجلها الضوء اللامع والكواكب السائرة ومنبر التوحيد وتفسير القرآن النظم وغيرها من اليواقيت والجواهر التي بقيت في خزائن كتبهم وتناقلتها الايدي ولم يطبع منها شيء وهي اندر من الكبريت الاحمر . وقد ظهر من رجال هذا البيت جماعة ائمة كرام وعلماء اعلام اقمار هذه البلاد . اعتنى المؤرخون بنقل اسمائهم وذكر مؤلفاتهم جيلا بعد جيل وبقي في سلالتهم افتاء الشافعية بدمشق من الاعصر السالفة الى اليوم وهي في يد المفضال الشيخ توفيق افندي وهو مثال الفضيلة والعلم ومظهر الغيرة والكمال والحلم . ورث الفضل والمجد كابراً عن كابر وله شقيق نجيب نبغ من هذا البيت في فن الطب وهو اول من ظهر منهم في هذه

٥٢

الصنعة اسمه رشدي افندي من مشاهير رجال الطب في دمشق وله اخ اصغر منه صيدلي يشتغل في فن تحليل الادوية والكيميا . ومن مشاهير رجالهم امين افندي بن محمد افندي مفتي الشافعية بدمشق مات سنة ١٣٢٣ وترك ذرية نجيبة اكبرهم فهمي افندي من كتاب وادباء دمشق . ومن مشاهيرهم ايضاً الذي لم يسبق ذكره في تراجم الرجال حسين افندي بن اسماعيل افندي ابن عبدالغني وهو احد اركان هذه الاسرة التي تفتخر بها دمشق على سواها بظهور جهابذة رجالها وسطوع كواكبهم ، تقلد النيابة الشرعية في احد محاكم دمشق مات سنة ١٣٢٢ وقد اعقب ذرية نجيبة اكبرهم عبد اللطيف افندي تولى القضاء في اقضية دمشق واصغرهم عزت افندي من وجهاء دمشق ومن اركان هذا البيت ايضاً عبد الوهاب افندي احد وجهاء دمشق وهو والد الشاب النجيب المهذب سعيد افندي من مشاهير محامي دمشق ، وقد انتخب حديثاً عضواً في المجلس التأسيسي وخليل افندي احد مأموري المالية.

ومن الاسر التي اشتهرت وازدانت بها دمشق آل العلامة الكبير والامام الشهير الشيخ خالد النقشبندي الكردي العثماني مجدد القرن الثالث عشر واخوه الشيخ محمود الصاحب ابناء احمد الشهرزوري وتقدم في كتابنا ذكر كل منهما عند تراجم مشاهير الرجال ونقلنا ماقاله في حقهما الشعراء والعلماء وقد انورت ربوع البلاد الشامية بسطوع كوكبهما فيها فهما جهابذة الفضل والارشاد وينبوع مكارم الاخلاق والعرفان . وقد اعقب احدهما وهو الشيخ محمود الصاحب في عصرنا هذا الشقيقين شيخي مشايخ الطريق النقشبندي الشيخ محمد اسعد افندي المتوفى سنة ١٣٤٧ وقد ترك ذرية نجيبة منهم الدكتور محمود افندي رئيس اطباء دير الزور وصلاح الدين افندي من مستخدمي الهندسة في النافعة بدمشق والآخر الشيخ خالد افندي احد علماء دمشق ومن مشاهير وعاظها وجهابذة رجال الفضل فيها بارك الله به .

ومن البيوت التي تستحق الذكر في التاريخ بيت الشيخ سليم افندي الشهير بالبخاري احد جهابذة مشاهير رجال العلم . كان والده ضابطا مستخدماً

في دائرة الترك بدمشق ويعرف بالداية الصغير ادرك الطبقة العالية من العلماء واجازوه في سائر العلوم . اشتهر في فن البحث والمناظرة وبرع في العلوم العصرية والشرعية . عمل الى تهذيب المسائل الفقهية المطولة وتحريرها على مقتضى الزمان واهله وتلخيصها بما يوافق روح هـذا العصر بحيث لا يبقى مجال لمتقول بان الاسلام مانع لتقدم اهله في المدنية الحديثة . تولى وظيفة افتاء الآي في الجيش التركي ثم بعد ذهابهم عين عضواً في مجلس الشورى ثم بعد الانتداب الافرنسي تولى رآسة علماء دمشق وبسبب اصراره على مبايعة ملك الحجاز السابق الحسين بن علي بالخلافة بعد ان نبذها الاتراك الجأ نفسه للانسحاب من هذه الوظيفة واختار العزلة في داره . مات سنة ١٣٤٧ بمشهد عظيم مشى فيه كثير من الخلائق وهو والد الفاضل نصوح بك احد امراء الجيش التركي ثم بعد ذهابهم تولى وزارة النافعة والمعارف في حكومة دمشق وله اخوة نجباء منهم جلال بك الذي اغتالته يد الظلم مع رفقائه الشهداء في آخر عهد الاتراك لهذه البلاد

ومن الاسر الشهيرة آل متولي اوقاف السنانية بدمشق . ذكر المحبي في تاريخه منهم مصطفى بن قاسم بن عبد المنان انه كان عين الاعيان ومجموعة النوادر الحسان ورث هذه الوظيفة عن ابيه وجده بمقتضى شرط الواقف . ثم قال المؤرخ هو واحد الوقت في المحاورة وسرعة البداهة والنكتة والنادرة ومن الشعراء الادباء . وفيه يقول الامير المنجكي :

لنجل ابي المعالي حسن فهم وطبع كالزلال العذب صافي
تطاوعه المعاني حين ينشي وتخدمه النكات مع القوافي

ومن احفاده في عصرنا الشيخ اديب افندي المتولي الحالي على اوقاف جامع السنانية الذي سيأتي ذكره في باب المساجد . له همة في خدمة الوقف ومساعدة تامة لمرتزقته فشكرهم عظيم اليه وثناؤهم حسن عليه وهو من اهل العلم والفضيلة ومن شعراء هـذا العصر له ديوان لم يطبع سماه فتح المتجلي في

منظومات المتولي وفي شعره رقة وحلاوة فمن ذلك قوله :

تركتم عيون الصب لا تألف الكرى   وقلباً معنى بالجفا زاد حرقه
فواش رمى قلبي بنيران هجركم   عليه من القهار ما يستحقه

ومن مشاهير بيوت دمشق القديمة في المجد والرئاسة آل العظم وقد ذكر مؤرخو دمشق اكثر مشاهير رجالهم ونوهوا عن آثارهم واعمالهم في هذه البلاد . قدم جدهم الاعلى لدمشق من المعرة وقيل من قونية اسمه اسماعيل وقد اعقب سليمان باشا والي مصر والشام ، وابراهيم الذي هو والد اسماعيل باشا الثاني والي دمشق وباني المدرسة والحمام في سوق الخياطين . وقد اعقب اسعد باشا والي الشام وامير الحاج وهو باني الخان العظيم في البزورية وواقف الاوقاف الكثيرة والدار الكبيرة الشهيرة التي هي دار الآثار النفيسة الشرقية اليوم المنوه عنها في كتابنا ، وسعدالدين باشا المدفون بحماه وهو والد نصوح باشا وهو والد احمد مؤيد باشا . وتفرعت منه اسرة بني المؤيد اليوم ولنسبت اليه وقد اعقب المؤيد ذرية كبيرة اشتهر منهم عبد القادر بك ومختار بك وشفيق بك الشهير احد اركان رجال الحكومة العثمانية الذي اغتالته اليد الغاشمة مع رفقائه الشهداء في الحرب العامة وتقدم ذكرهم جميعاً في كتابنا مع ذكر تراجم رجال الفضل منهم وهو والد واثق بك مدير المصالح العقارية بدمشق اليوم والذي كان تقلد وزارة الداخلية بها ، وشقيقه المحامي الشهير هشام بك الحائز على شهادة الحقوق من جامعة باريس ، توفي في مصر سنة ١٣٤٧ فكانت لفقده رنة حزن واسى في دمشق لما له في القلوب من محبة واعجاب بذكائه واخلاقه المرضية . ومن مشاهيرهم ايضاً صالح بك وهو والد صادق باشا الفريق الشهير الذي تولى ايصال الاسلاك البرقية الى الحجاز المتوفى سنة ١٣٢٩ وسعيد بك احد اركان العسكرية في الجيش العثماني والممتاز بالفنون الحربية ثم اختار العزلة واقبل على تعلم العلوم الغربية والرياضيات . كان يتكلم باربع لغات وحفظ القرآن ، ورضي بالانزواء

والانفراد عن الناس زهـد في حطام الدنيا له مؤلفات جمها في التصوف والمتشابهات وتشطير البردة مات سنة ١٣١٩ واكليل بك احد اركان رجال الحكومة الدمشقية المشهود له بالادارة الحسنة ودماثة الاخلاق صفوح بك ومأمون بك وهما اصغرهم سنا من خيرة شبان هذا العصر .

ومن مشاهيرهم ايضاً وجيه بك كان وجيهاً في قومه المتوفى سنة ١٣٠٦ وقـد اعقب واصل بك محاسب المكتب الطبي السابق المشهود له بالفضل والعرفان وبديع بك الذي كان تولى بعـد ذهاب الاتراك وزارة العدلية والداخلية بدمشق .

ومن مشاهيرهم ايضاً عبدالله بك الذي كان تولى رآسة البلدية بدمشق المتوفى سنة ١٣٢٩ وقد اعقب ذرية كثيرة ارشدهم الشاب النجيب نصوح بك محاسب الجامعة السورية . واما اسعد باشا المذكور فانه اعقب بنتاً اسمها آسية تزوجها محمد الايشلي ابن عبد الله باشا العظم صاحب المدرسة والمكتبة الشهيرة والاوقاف الكثيرة فأعقبا عبد الله بك صاحب الدار الشهيرة والذي كان صدر دمشق وعضو مجلسها الكبير ومنه تفرعت اسرة بني العظم وقد اعقب اولاداً اشتهر منهم علي باشا احد اعيان دمشق المتوفى سنة ١٢٩٧ وترك اولاداً اكبرهم احمد بك كان من اعضاء محاكم العدلية بدمشق مات سنة ١٣٣٦ وهو والد عزت بك من وجهائها والثاني محمد باشا كان تولى في بادئ امره نظارة النفوس بدمشق ثم رآسـة بلديتها ثم انتخب عضواً لمجلس الادارة الكبير، وكنت رفيقاً له كان سديد الرأي ثم تولى مديرية الاشغال العامة في السكة الحجازية وبعد ذلك انتخب عضواً في مجلس الامة العثماني ومنها تقلد وزارة الاوقاف العامة في الممالك العثمانية . وقد نال من الرتب والاوسمة اعلاها يستشار بمهام الامور وهو صدر الصدور . وقد اعقب ولداً نجيباً اسمه خالد بك من ادباء دمشق وسراتها . والاخ الثالث خليل باشا كان تولى رآسة البلدية بدمشق وهو احد وجهائها . ومن مشاهير اولاد عبد الله باشا ايضاً اسعد باشا احـد اعيان دمشق المتوفى سنة ١٣٢٣ وله ذرية كبيرة محمد بك وخليل بك

وعبدالله بك وعبدالقادر بك مدير معهد الحقوق بدمشق ومن اساتذته الافاضل الذي كان تقلد وزارة المالية بدمشق ومن مشاهير رجال الفضل من هـذا البيت اليوم جميل بك بن مصطفى بك بن حافظ بك الذي تسلم جده زمام الحكم في سورية بعد ابراهيم باشا المصري وهو من اركان المعارف والنهضة العلمية بدمشق وصاحب الآثار الشهيرة منها الذيل لكشف الظنون . ومن مشاهيرهم ايضاً سامي بك بن جميل بك بن محمود بك رئيس ديوان وزارة العدلية بدمشق . ومن مشاهير رجالهم عصمت بك من اعضاء مجلس الادارة واخوه عبدالرحمن بك ابنا محمود بك وهو والد حسني بك احد وجهاء دمشق . ومن مشاهيرهم ايضاً شمسي بك بن سليم بك وهو والد فخري بك من وجهاء دمشق . ومن مشاهير رجالهم حقي بك الذي كان تولى حاكمية دمشق وتقدم ذكره في الجزء الاول وهو رئيس مجلس الشورى اليوم . وقد مدح رجال هذا البيت العلامة محمود الحمزاوي مفتي دمشق في ديوانه بقصائد جمة . وقال العلامة المؤرخ الشهير عبد القادر بدران صاحب الكواكب الدرية في حقهم مانصه : عائلة بني العظم هي الاسرة الكبيرة العريقة بالمجد والوارثة للمفاخر والسؤدد كابراً عن كابر كما تنطق اسفار التاريخ بذلك ومفاخر اجدادهم لم تزل باقية حتى اليوم تترجم عنها ابنيتهم العجيبة ومدارسهم العلمية في دمشق لم تزل محط رجال العلم والفضلاء وتفنن الشعراء في مدحهم قديماً وحديثاً انتهى كلامه . وقال العارف الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي في واقعة حال جرت لاجدادهم :

يا قائلا ان العظام تكسرت ابداً ولا يعلو لهن مقام
اقصر فهم باقون في اوج العلا ابد الورى ان العظام عظام

وقد عثرت على بعض من اقوال جدهم الوزير محمد بن عبدالله باشا المتوفى سنة ١٢١٣ احببت ان انقل شيئاً من نفائس اقواله قال :

عجبت لقلب ليس يملكه الحب وطرف يرى وجه المليح ولا يصبو
اذا المرء لم ينظر الى الحسن قلبه فذاك من الانعام ليس له قلب

ومن الاسر الشهيرة بدمشق بنو العظمة وهم اسرة كبيرة اكثر رجالها تشتغل في الزراعة والتجارة ومن مشاهير التجار في الاستانة اسعد بك وفي مكة ياسين بك ويحيى بك . وقد ادركنا من مشاهير رجالهم محمد بك عضو المجلس البلدي بدمشق كان حائزاً على رتبة ازمير المجردة مات سنة ١٣٢٢ ومنهم محمود بك له اليد الطولى في فنون الزراعة مات سنة ١٣٣٨ وقد اعقب ذرية كبيرة اشهرهم حسني بك من رجال العلم وسليمان بك من وجهاء دمشق وعزت بك احد قواد الجيش التركي ومنهم عطا بك كان من اعضاء المجلس البلدي وقد اخبرني بوجود حجة شرعية قديمة عندهم تاريخها قبل ثلاثمائة سنة تشعر انهم من امراء التركمان وبهذه الحجة مشترى جدهم الاعلى موسى بك لدارهم القديمة في حي سوق القطن التي احترقت مع زقاق سيدي عامود عند نكبات دمشق الاخيرة ومن مشاهير رجال هذا البيت ايضاً عزيز بك وهو من الذين خدموا الحكومة العثمانيــة وتقلد وظائف كثيرة آخرها كان متصرفا في اليمن ثم صار في طرابلس الشام رحل الى دار السلطنة مراراً ونال من الرتب اعلاها وهو مثال الغيرة والاقتدار وله ولدان نجيبان نبيه بك وعادل بك المقيمان في مصر اليوم اشتهر امرهما في خدمة البــلاد العربية واستقلالها . ومن مشاهير رجال هذا البيت عمهما شقيق والدهما المجاهد الكبير شهيد الواجب والوطن يوسف بك وزير الحربية عند الملك فيصل بدمشق ورئيس الدفاع الوطني بعد ذهاب الاتراك من هــذه البلاد ودفين ميسلون وتقدم ذكره في محله من كتابنا . ومن متأخري رجالهم الشاب الاديب جواد بك بن عارف بك احد مأموري الزراعة بدمشق واخوه رفيق بك من ضباط الدرك . ومن مشاهيرهم عارف بك امام حي الشاغور بدمشق وعبد الرزاق بك خطيب جامع الخضيرية .

ومن الاسر القديمة بدمشق آل صالح بك وهم ينتمون الى جــدهم كنج يوسف باشا احد ولاة دمشق وصاحب الدار الكبيرة الشهيرة التي كانت تضاهي دار اسعد باشا العظم في ذاك العصر ثم تحولت داراً للحكومة في زمن الاتراك

ومسكناً لاولادهم وبعد ذلك بيعت من قبل الحكومة الى المثري الشهير عزت باشا العابد ثم خربها من اساسها وبناها بناء حديثاً يضاهي ابنية بلاد الغرب في اكبر عواصمها وصرف عليها نحواً من نصف مليون قرش وقد استعملت ذلك المكان الحكومة التركية في آخر عهدها زمن الحرب العامة منزلاً لادارتها العسكرية ثم بعد ذهابهم اتخذ مقراً للمؤتمر السوري ومحل اجتماعه في عهد ملكية فيصل الشريف وبعد الاحتلال والانتداب الافرنسي اعيد ذلك المكان الى يد صاحبه . وقد بقي في عصرنا من ذرية صالح بك اولاده القاطنون في حي العقيبة في دارهم الشهيرة بهم وهم سعيد بك هو والد فريد بك وعلي بك هو والد خليل بك وسليم بك هو والد مصطفى بك ومحمد بك ولهم في قرية المحمدية حانوت للزرع والضرع

ومن الاسر الشهيرة بدمشق بنو الركابي قد اخبرني احد اركان رجالهم انهم من عشيرة بني ركاب القاطنة في جهة الكويت وهي قبيلة كبيرة مشهورة في جزيرة العرب ومنها قبيلة النعيم والطحان والجلان وهؤلاء مقرهم في بادية الشام كان جدهم الاكبر سليمان يشتغل في الزراعة وقد اعقب ولدين احمد ومراد اعقب الاول ثلاثة اولاد اكبرهم محمود افندي كان من موظفي مالية دمشق مات سنة ١٣١٨ وقد ترك عبد الرزاق بك من امراء العسكرية وعلي رضا باشا الذي نوهنا به في كتابنا انه تولى الحكم العسكري في دمشق بعد ذهاب الاتراك واحمد بك من موظفي مالية دمشق اليوم والثاني عبد الله افندي كان من رجال العلم والثالث صالح باشا كان متصرفاً في اركلي مات عقيماً ١٣٢٥ واما الاخ الثاني مراد افندي فكان من تجار دمشق اعقب سعيد بك وصادق بك كلاهما من امراء العسكرية في زمن الاتراك ومن اركان رجال هذا البيت درويش بن حامد هو والد العلامة الشيخ عبد الله الركابي الشهير بالسكري الذي تقدم ذكره في القرن الرابع عشر وله اخ اسمه ابراهيم وهو والد درويش افندي من تجار دمشق المشهود له بحسن السيرة اعقب صديقنا رشدي افندي من اعيان تجار دمشق الذي اشتهر بالصدق والامانة واغاثة

الفقير وهو مثال الادب والكمال تقلد عضوية المجلس التمثيلي الذي تشكل بدمشق قبل نكباتها ومن متأخري رجالهم ممدوح افندي بن حسين افندي مأمور البنك الزراعي في الزبداني ومن ابناء عمه زكي افندي ورأفت افندي ابنا محمد افندي من شبان هذا العصر المجاهدين في سبيل استقلال البلاد ونوال حريتها .

ومن البيوت الشهيرة الاسرة اليوسفية بدمشق وقد افرد احد معلمي ابناء هذه الاسرة المؤرخ ابن بدران كتابا سماه الكواكب الدرية وصف فيه تراجم مشاهير رجالها وذكر سبب سكناهم في دمشق قال كان محمد بك ابن يوسف جدهم من قبيلة الزركلية ومن اعيان اكراد ديار بكر احب تجارة الغنم واختار موضع تجارته دمشق فاتسعت ثروته وجعل منزله منهلاً للقاصد والوارد مات سنة ١٢٥٠ وقد اعقب ولده احمد وسلك مسلك ابيه في التجارة وقد اشتهر بالشجاعة واصالة الرأي حتى اتصل بالامير بشير الشهابي حاكم لبنان فعينه مديراً في احد النواحي ثم جعله وكيلاً له في اموره كما حكى ذلك في كتابي الاعيان والبطل اللبناني وقال انه منحه قسما من قرية مجدل عنجر التي هي في يد منيف بك احد اسرة بني اليوسف اليوم وغيرها ثم قلدته الدولة العثمانية وظيفة امين الكلار ومحافظة ركب الحج الشامي وانعمت عليه برتبة مير ميران مع لقب باشا مات سنة ١٢٨٠ وقد اعقب ولده محمد باشا الذي تولى مأمورية جردة الحج الشامي ثم تقلد عضوية مجلس ادارة الولاية ثم عين حاكماً ادارياً في الاقضية ثم سافر الى الاستانة ورجع منها متصرفاً على عكا وبعدها الى البلقا في حوران ثم طرابلس ثم حماه ثم عين محاسباً لاوقاف دمشق كان حسن الاخلاق يحب معاشرة اهل العلم والادب مدحته الشعراء في جميع ادواره وقد ادركناه ورأينا من اعماله واخلاقه فوق ما ذكره صاحب الكواكب المذكورة وقد ساعدني بعد فقدي لوالدي بنيل وظائفه الدينية عند اولياء الامور وعطف علي بحنان لم اره من غيره من اعيان البلاد وكان ذلك قبل وفاته بخمسة اعوام مات في حلوان سنة ١٣١٤ وقد اعقب ذرية

كثيرة منهم عبد الرحمن باشا سبط سعيد باشا شمدين المتوفى سنة ١٣١٩ هو احد اعيان الاكراد ومحافظ الحج الشامي نشأ عبد الرحمن باشا بين كوكب جده وبدر والده ولما لم يكن لجده سوى والدة عبد الرحمن تبناه وتخلى له عن جميع ثروته الطائلة ملكاً له من بعده وادخله المدارس واعتنى بتعليمه الى ان تقلد وظيفة جده المذكور بعد عجزه عنها وتقلد عضوية مجلس ادارة الولاية وانعمت عليه الدولة برتب متوالية واوسمة عالية مترادفة لما قام به من الخدم تجاه قاصدي بيت الله الحرام واني شاهدت ذلك منه بعيني في اول حجة له كان مثال الشهامة والكرم والاخلاق الحسنة والشجاعة يداري الكبير والصغير والغني والفقير وقديماً قيل من اكبر الاشياء شهادة على عقل الرجل حسن مداراته للناس وان حسن المداراة يشهد لصاحبه بالتوفيق وقد روي في الاثر من حرم مداراة الناس فقد حرم التوفيق وقد مدح اعماله المبرورة كثير من الشعراء درجت في ذلك الكتاب من اجلها قول الفاضل الشيخ فؤاد الخطيب من شعراء لبنان من قصيدة طويلة مطلعها :

يا من يفوق مقامه الادراكا إياك اعني ان مدحت سواكا

قال صاحب الخطط في ترجمته ما نصه ويطول بنا نفس الكلام اذا اردنا تعداد مزاياه العالية ومكارم اخلاقه وبيض اياديه على الناس ثم قال في اثناء مقاله لما انتشر القانون الاساسي العثماني كان من اول معاضديه في هذه الديار وانتخب نائباً عن دمشق في مجلس النواب ثم عين عضواً في مجلس الشيوخ حين طالبت الامة العربية بحقوقها ولما صار الاحتلال الانكليزي لدمشق اعتزل في داره ثم بعد دخول جيش الانتداب الافرنسي عين رئيساً للشورى مات في حادثة خربة الغزالة الشهيرة في محرم سنة ١٣٣٩ وقد اعقب اولاداً وجهاء هم محمد سعيد بك وعمر بك وراتب بك وفؤاد بك وممن اشتهر ايضاً بالوجاهة اخوهم الاكبر احمد بك اعتنى والده محمد باشا بتعليمه وتربيته في المدارس العالية الى ان صار حاكماً ادارياً في الاقضية منها صيدا والزبداني والنبك وبذا وغيرها ثم انتخب عضواً في المجلس التمثيلي المنعقد في دمشق وهو مثال الوجاهة

والمكانة والاعتبار لما عنده من حسن الشيم وطيب الاخلاق وهو والد حبيبنا وقرة عيننا شوكت بك احد مصاهري الامير علي باشا الجزائري نجل الامير عبد القادر الشهير ومنهم الاخ الثالث راشد بك كان غاية في الرشد والادب وبدراً طالعاً في اوج الكمال مات سنة ١٣٢٣ وقد ترك ولداً مهذباً اسمه منيف بك من اعضاء مجلس ادارة دمشق وهو من ذوي الوجاهة والمزايا العالية .

ومن اعاظم قبائل العرب اسرة شهيرة بدمشق وهم آل العابد نثبت هنا ما قاله صاحب الروض البسام عن رجال هذه الاسرة الكريمة قال ومنهم هولو باشا فهو ابن عمر بن عبد القادر بن محمد بن قانص آل العابد المشرفي ومحمد هذا نزل دمشق سنة ١١١٢ واعقب بها هذه الذرية وهم من ارباب الشيم العربية والاخلاق العالية وقد انجب هولو باشا اولاداً اعزهم لدي الوزير الكبير احمد عزت الكاتب الثاني للسلطان عبد الحميد وان قبيلتهم المشارقة من اعز بطون العباسيين انتهى كلامه بهم . اقول والذي علمته انهم من قبيلة ابو ريشه المدفون بالقريتين من عشيرة الموالي قال في تاريخ همبر المستشرق الالماني الشهير المترجم للافرنسية انه لما جاء السلطان سليم وفتح البلاد العربية ساعده على فتح الشام ادريس بك رئيس عشيرة الموالي في ذلك العصر وهو احد اقرباء هذا البيت ومن مشاهير رجال هذه الاسرة محمود باشا الاخ الثاني الى هولو باشا وهو احد اعيان دمشق مات سنة ١٣٢٧ وقد انجب ذرية كثيرة اكبرهم عبد الغني باشا ورضى بك وهما مثال الوجاهــة والشهامة وجمال بك من موظفي المالية ورئيف بك وفوزي بك وغيرهم لم نقف على اسمائهم ومن مشاهير رجال هذا البيت هلال بك الاخ الاكبر الى هولو باشا وهم من اركان هذه الاسرة المشهود لهم بحسن الحال وطيب الاخلاق وقد ترك ذرية كبيرة منهم علي بك وجميل بك وعمر بك وسعيد بك وقد مدحت سيرتهم وطابت حالتهم واما مصطفى باشا فهو الولد الثاني الى هولو باشا تقلد وظائف كثيرة اولها القائمقامية ثم المتصرفية ثم ولاية الموصل وهو من ذوي الاخلاق الحميدة واما الوزير احمد عزت الشهير المجدد لمجد هذه الاسرة مات

في مصر ونقل الى دمشق سنة ١٣٤٣ اذا لم يكن له في زمن اقباله من الاعمال المبرورة تجاه الامة سوى سعيه الحثيث لمد الخط الحديدي الحجازي وايصال السلك البرقي من الشام الى الحرمين الشريفين لكفاه ذلك فخراً وذخراً بعد ان كان ذلك من المستحيلات وقد ترك ثروة لذريته تبلغ المليون من الذهب وتبرع بخمسة الاف ليرا لبناء مدرسة اهلية بدمشق وقد انجب ولدين نجيبين هما محمد علي بك الذي كان في زمن الدولة العثمانية سفيراً لها في اميركا ايام اقبال ابيه ثم بعدها كان المدير العام لمالية الاتحاد السوري وعبد الرحمن بك وهو من مشاهير رجال الهندسة والفنون العصرية وقد تفرع من هذه الاسرة جماعة بدمشق كثيرون بارك الله بهم وقد صاهرهم حسني بك سيفي كان من وجهاء دمشق تولى رآسة محكمة التجارة في دمشق ثم صار متصرفاً في طرابلس الشام وهو والد حسن بك ناظر النفوس السابق بدمشق ومن وجهائها

ومن الاسر القديمة في الصلاح وغرائب الاحوال بنو الصمادي في دمشق تقدم ذكر بعض من مشاهير رجالهم الاتقياء في العصر العاشر من كتابنا هذا وقد افرد العلامة المؤرخ الغزي في كتابه الكواكب السائرة محلاً واسعاً لرجال هذا البيت واطنب في مدحهم واتى على سلوك طريقهم وذكر جملاً كثيرة من كراماتهم منها ما وقع لجدهم محمد بن خليل الصمادي الدمشقي مع السلطان سليم وذهابه الى الاستانة واحسانه له بقرية كناكر من اعمال وادي العجم وقال ان غلالها تستوفيه السادة الصمادية البعض لزاويته بمحلة الشاغور والبعض لذريته ثم قال وقد اشتهر امره وامر ابائه من قبل بدق الطبول عند هيمان الذاكرين واستفتى به شيخ الاسلام ابن قاضي عجلون والعلامة البدر الغزي فافتوا مع غيرهم من علماء ذلك العصر باباحته قياساً على طبل الحجيج وطبل الحرب وذكر انه منعهم مرة احد حكام دمشق عن ضربه في الجامع الاموي يوم وقفة العيد وامر باخراج الطبول الى خارج الجامع فدخل الطبل محمولا يضرب عليه ولا يرون له حاملا ولا عليه ضاربا فاستمر الطبل في هواء الجامع من باب البريد حتى اصطدم ببعض عواميد الجامع مما يلي باب جيرون

ثم قال صاحب الكواكب ناقل هـذا الخبر والعهدة عليه وكان شيخ الاسلام الجد والوالد يحضران مجالس الصمادية وذكرهم ثم ذكر ابياتاً طويلة مدحهم بها منها قوله :

الحمد لله الذي قد انهجا | لمن اراد الخير منه منهجا
وبعد ان في جواب والدي | كفايـة لمبتغي الفوائد
ليس على جوابـه مزيـد | لانـه مهذب سديد
بين مـا الهمه الله على | من حكمه الشرعي ثم فصلا
وانمـا طريقة الصمادي | طريقة واضحة السداد
احوالهم ظاهرة وصادقه | وكم بدت على يديهم خارقة
وبعده الشيخ الحفيد عيسى | قد صار عصرنا به مأنوساً

ثم بعد ان ذكر اسماء ابائهم قال :

قفا الجدود في الطريق والشيم | ومن يشابه ابه فما ظلم
فربنا يرحم منه من سلف | ويمنح التوفيق فضلاً من خلف

قضت القدرة الالهية من ذلك العصر الى عصرنا هذا بفقد امثال تلك الاقمار والائمة الاعلام المرشدين العظام ولله في خلقه شئون يفعل ما يشاء ويختار وقد بقي من ذرية هذا البيت الكريم جماعة يشتغلون في التجارة ومن مشاهيرهم الذي ادركناه الشيخ اسماعيل مات سنة ١٣٣٠ وهو والد عبد الوهاب افندي الموجود اليوم مع اخوته بارك الله بهم والهمهم احياء ذكر اسلافهم واعمار زاويتهم وهم من خيرة التجار ولا شك بانهم فاعلون.

ومن الاسر التي تشتغل في التجارة والصناعة بنو المصرافي احببنا تخليد ذكرها في التاريخ لانه ظهر منها الشيخ رشيد بن محمد بن احمد احد علماء دمشق ومن شعرائها لازم بعضاً من علمائها واخذ عنهم وتردد الى دار السلطنة وتعرف بعلمائها واعيانها وكانوا يميلون اليه ويستأنسون بمجالسته لفضله وسليقته في الشعر يميل الى مجالس الانس والطرب له معرفة تامة في علم الموسيقى وانواعها وقد احسنت اليه الدولة برتبة قضاء الحرمين مع الوسام المجيدي الثاني

ثم اقام في آخر حياته بدمشق محترماً لدى علمائها عزيزاً عند امرائها وحكامها له اشعار في مواقع كثيرة ومواضع عديدة لو جمعت لكانت ديواناً مات عقيماً سنة ١٣٢٠

ومن الاسر القديمة الشهيرة في العلم والمجد بنو النابلسي بدمشق اتى جدهم الاكبر الى دمشق من نابلس ونقل بعضهم انهم يجتمعون مع بني جماعة وتسلسل منه العلماء الاعلام حتى ظهر جدهم ومشيد مجدهم العارف الشهير والولي الكبير السيد عبد الغني المعتقد بالولاية عند اهل دمشق وقد اثنى المؤرخون عليه وعلى ابائه واجداده الائمة الاعلام وذكروا مؤلفاتهم وآثارهم التي طار ذكرها في الآفاق وتقدم ذكر اكثر رجالهم في كتابنا من الضوء اللامع والكواكب السائرة والمحبي والمرادي والغزي وقد تنافس المؤرخون بنقل مآثرهم واقوالهم جيلاً بعد جيل ومن مشاهير رجالهم في عصرنا الشيخ عبد الله بن عمر افندي اشتهر فضله بين اقرانه كان فاضلاً فقيهاً جسوراً وقوراً يصدع بالحق حفظ القرآن ثم اشتغل في المحاماة وبرع بها وقد كتب اليه الشيخ عبد السلام الشطي حين كان في دار السلطنة بقوله بعد ابيات طويلة :

شوقي اليكم زائد　　متى يكون الملتقى
دمتم بخير وافر　　نرجو لكم طول البقا

وهو والد ابراهيم افندي احد وجهاء دمشق له رحلات كثيرة لدار السلطنة برع في لعب الشطرنج مات سنة ١٣٠٧ ومن مشاهيرهم ايضاً امين افندي ابن الشيخ رحمة الله بن يحيى افندي برع في علم الادب وله ولع بكلام القوم وقلم سيال في النثر كان فاضلاً وجيهاً كريم الاخلاق والطباع حسن الصفات له مكانة ممتازة عند العلماء والامراء يميل طبعه لمجالسة اهل الفضل ويحب التنزه والرياضة مع جماعته المترددين عليه وكان يقول سماع مجالس الطرب خير من الغيبة والنميمة والخوض في شئون الناس وأكل لحومهم وشرح احوالهم تقلد القضاء الشرعي في بعض اقضية دمشق ثم تولى عضوية الاستئناف في عدلية دمشق كان نصير الضعفاء مظهراً للشهامة والاخلاق الفاضلة ولد سنة ١٢٥٧

وكانت وفاته سنة ١٣١٧ وقد كتب اليه مرة الشيخ عبد الله السلام الشطي من دار السلطنة بقصيدة لطيفة طويلة من جملتها قوله :

ان شاء ربي نلتقي من بعد هذي الغربة
في مرجة أو ربوة أو نمر أو هامة

وقد مدحه الهلالي في ديوانه بقوله :

اعني الامين على سريرة جده عبد الغني الاقدسي صفاء

كانت احسنت اليه الدولة التركية رتبة ازمير من الرتب العلية وقد اعقب ولدين نجيبين احييا ذكر والدهما بالوجاهة والفضيلة وهما السيد رضا افندي عين محاسبة الولاية في زمن الحكومة العثمانية واسماعيل افندي الذي توفي عقبها كان عضواً في المجلس العمومي بدمشق . مدح هذه الاسرة العريقة في المجد العلامة البربير البيروتي الشهير نزيل دمشق بقوله :

في الصالحية ذوو اياد عندهم ملق الضيوف كفرض عين لازم
قوم قد استغنوا بعبد غنيهم وتعلموا من جود ذاك الحاتمي

ومن مشاهير رجال هذا البيت محمود افندي بن ابراهيم افندي بن الشيخ سعد الله وهو من احفاد العارف النابلسي نشأ في حب العلم واهله الى ان تولى منصب القضاء الشرعي في اقضية دمشق وبيروت ثم لواء الحلة ثم القدس الشريف وانشده الشاعر الشهير السيد سليم بهجت تقي الدين الحصني بقوله :

لواء القدس تم له سرور بشهم لا يضاهى في السجايا
له رأي الرضا ارخت جداً وقاضي القدس محمود المزايا

وقد ذكر الهلالي في ديوانه جملة مدائح وهنأه في قضاء القدس بقصيدة طويلة قال في تاريخها :

وقدومه للمسجد الاقصى اتى تاريخ تبريك لبيت المقدس

كان فاضلاً فقيهاً اتقن علم الفرائض دمث الاخلاق بهي المنظر لطيف المعشر مثال المروءة والكرم مات سنة ١٣١٤ وقد ترك ذرية كبيرة اشتهر منها ابراهيم افندي قاضي عكار اليوم ومن مشاهيرهم ايضاً شاكر افندي حاكم

محكمة الصلح في الزبداني ونسيب افندي قائمقام معرة النعمان . ومن اركان هذا البيت الشيخ محب الله له رحلات كثيرة الى الاستانة كان مهاباً جسوراً يصدع بقول الحق ترك ذرية كثيرة اشهرهم الشيخ عبد اللطيف رحل الى دار السلطنة ايضاً واعتقده اهلها . واهل الشام لهم به ظن حسن واعتقاد تام مات سنة ١٣٤٥ وقد تفرع من هذا البيت جماعة كثيرون منهم الفاضل والاديب والتاجر والصانع والمزارع والوجيه .

ومن الاسر الشهيرة القديمة في الديار الشامية آل العلمي وارومتهم في القدس وغزة هاشم بقي منهم جماعة من اهل الفضل والكمال الى يومنا هـذا ينتهون الى الامام الحسن السبط من طريق السيد احمـد الحكاري الحسني . ودرة القلادة في بيتهم العلامة القطب الكبير السيد محمـد العلمي المقدسي صاحب الديوان الشهير ودفين الطور ومن كلامه :

نعم ترقص الاكوان شوقاً لذكره ونطرب باللذات من كل جانب
وتعلن بالتصريح للسر جهرة لقد راق وقت الانس بين الحبائب
ونادى لسان الحال عنها مخبراً هلموا لنيل الوصل من غير حاجب

ومنهم جماعة في دمشق سكنوا بها ذكرهم البوريني في تاريخه والمرادي ونقل المحبي في ترجمة احد رجالهم قوله وهو يشير الى الوحدة :

سلم اذا ذكر اتحاداً عاشق وافطن فطور المرء ليس يزيد
فالنار يدخلها الحديد فيقتدي ناراً فذاك معاين مشهود
فاذا تخلى عن مقام وصالها فالنار نار والحديد حديـد

ومن متأخري رجالهم حسين افندي وهو والد الفاضل امين افندي والشاعر الاديب توفيق افندي وكلاهما من محامي دمشق . ومن شعره قوله :

اقبال هذا الدار او ادبارها عندي سواء وصلها وتفارها
وبأي ارض قـد اقمت قائماً سيان عندي مدنها وقفارهـا

ومن الاسر الشهيرة في العلم والفضل في حي الميدان ودمشق بنو البيطار قيل ان اصلهم من الغرب خرج من رجال هذا البيت جماعة من اجلة العلماء

والشعراء تقدم ذكرهم في كتابنا في العصر الاخير وهم الشيخ محمد امين المفتوى وله ذرية كبيرة نجيبة والمؤرخ الشهير الشيخ عبد الرزاق وله احفاد نجباء والشيخ عبد الغني وله ذرية ادباء والشيخ سليم احد اركان رجال هذا البيت ومن مدرسي جامع الدقاق مات سنة ١٣٤١ وتداعقب ذرية نجيبة عرفنا منهم الشيخ جميل مدرس جامع الدقاق وحسني افندي المحاسب المركزي لمالية دمشق اليوم واشتهر منهم بالفضيلة والعلم الشاعر الشهير الشيخ بهاء الدين وهو والد صديقنا الشيخ بهجت من علماء دمشق ومدرس الحرم المكي اليوم.

ومن الاسر القديمة الشهيرة في حي الميدان بنو الحكيم اصلهم من طرابلس الشام ذكر المرادي في تاريخه جدهم يوسف بن محمد رئيس الاطباء بدمشق مات سنة ١١٠٥ وهو جد يوسف اغا الحكيم احد وجهاء ذلك الحي وقد عرفنا منهم صالح اغا واشتهر من رجال هذا البيت اليوم الوطني الشهير حسن افندي احد المجاهدين لنيل استقلال البلاد العربية وحفظ قوميتها تقلد وظائف كثيرة في امور المالية في زمن حكومة الاتراك وتقلد نظارة البرق والبريد بعد ذهابهم في زمن الحكومة العربية ومليكها الشريف فيصل وقد اختار الاقامة في مصر ومن مشاهير رجالهم هاشم اغا ومصطفى اغا ومحيي الدين اغا وجميعهم من وجهاء ذلك الحي .

ومن الاسر الشهيرة في حي الميدان بنو حتاحت اصلهم من حماة اشتغل اكثر رجالهم في تجارة الحبوب والغنم واشتهر منهم طالب اغا ومحمد اغا وابراهيم اغا والد الشاب النجيب المحامي عادل افندي من نوابغ الادباء .

ومن الاسر القديمة الشهيرة في حي الميدان آل الموصلي تفرع من هذا البيت جماعة كثيرون اشتهروا بالثروة والزعامة وقد ذكر المحبي في تاريخه جدهم وقال ان لهم نسبة الى ابي بكر الشيباني وقد ادركنا منهم اليوم السيد محموداً اقتفى اثر آبائه واجداده بالجد والامل لازدياد الثروة وتقويتها فاصبحت اسرته اليوم اغنى اسرة في حي الميدان . وكان من رجالهم بعض امراء العسكرية في الجيش العثماني .

ومن الاسر التي ينبغي ذكرها في التاريخ اسرة الشيخ رضا بن محمد بن يوسف الدقاق الشهير بالزعيم من محلة العقيبة ، كان احد علماء دمشق ويقوم بفحص طلبة العلم في دمشق وحلب وحماة وحمص ومفتياً لاحد الجيوش العثمانية مات شهيداً مجاهداً في الهجوم على قنال السويس في الحرب العامة سنة ١٣٣٢ وهو والد الفاضل المجاهد الشيخ صلاح الدين .

ومن الاسر الشهيرة في دمشق آل بايزيد ، اصلهم من بغداد ، وتقدم ذكر جدهم السيد عبد الرحمن الذي أعقب صهرنا السيد محمد عيد من اعيان تجار هذه المدينة وهو والد السيد شريف احد طلبة العلم الذي أعقب نسيب افندي من مشاهير رجال الطب .

ومن الاسر القديمة في العلم والفضل بنو المنير الاكارم ، ذكر المحبي والمرادي مشاهير رجالهم وقالا انهم حسينيون أتوا دمشق من بعلبك واصلهم من حماة وقد تقدم في كتابنا ذكر مشاهير رجال العلم منهم . وبقي جماعة لم نذكرهم منهم الشيخ ابو الخير بن ابراهيم المنير المشهور بالكزبري عن طريق جدة ابيه كانت مهنته التجارة المشروعة التي لم يدنسها الربا والعينة ، تقضى فيها زهرة حياته متنقلاً ما بين مصر وبيروت ودمشق حتى جمع ثروة طائلة بسعي معتدل بين الرجاء والخوف ثم في آخر عهده اعتزلها وعوضها بالاشتغال في امور الزراعة في قرية مضايا احد متنزهات الزبداني من أعمال دمشق واتخذ بها داراً لطيفة مرتفعة تشرف على السهل وفي سنة ١٣٢٠ دعانا اليها برفقة المؤرخ الشهير الشيخ عبد الرزاق البيطار وصهرنا الشيخ محمد شريف ضبيان وجلسنا في ذلك المكان بضعة ايام بين رقة الهواء ولطافة المناظر والمساجلات الادبية ، مات سنة ١٣٣٦ واعقب ذرية نجيبة تشتغل في الزراعة والتجارة . ومن رجال هذا البيت الشيخ محمد والد السيد ابي الخير من أساتذة مدارس المعارف وله اخوة نجباء . ومنهم السيد امين والد السادة علي وعبد الرحمن وشفيق . ومنهم السيد خليل وقد اعقب ذرية كبيرة اكبرهم السيد عبدالله والسيد عبدالقادر والد السيد صادق قائد درك الزبداني . وقد تفرع رجال هذا البيت من

ثلاثة اخوة هم السيد اسحق جد الشيخ احمد المتقدم الذكر والثاني السيد حسن جد السيد ابراهيم جد بني الباني والثالث السيد عبد الرحمن جد الاسرة التي كانت اشتهرت بشيخ الحرم وقد انقرضت اليوم .

ومن الاسر الشهيرة بالثروة والمجد آل القوتلي . ومنه اكثر رجالهم التجارة والزراعة . اول من اسس مجد هذا البيت هو محمد افندي بن اسعد افندي وقد اتى جده من بغداد . أعقب خمسة اولاد الاول سعيد افندي المتوفى سنة ١٢٩١ كان من وجهاء دمشق وهو الذي انشأ السبيل عند باب النوفرة لصيق جامع دمشق وقد ارخه الشاعر الشهير الشيخ عبد السلام الشطي سنة ١٢٧٦ بقوله :

قوتلينا أعني سعيداً لقد أنشاء مبتكراً جميلا

وقد ترك عبد الوهاب افندي والد الطبيب الشهير عبدالنبي افندي واخوانه والشيخ عبد الله افندي الشهير واحمد افندي احد وجهاء دمشق ومن أعضاء مجلسها البلدي . وبقي عندهم صورة الكتاب الذي ارسله النبي صلى الله عليه وسلم الى هرقل عظيم الروم وهو من الآثار التاريخية القديمة . كانت وفاة هؤلاء بأوقات متقاربة . والاخ الثاني سليم افندي المتوفى سنة ١٣٠٨ الذي اعقب ابراهيم افندي وعثمان افندي . والاخ الثالث عبد الغني افندي المتوفى سنة ١٣٠٢ اعقب عبد المجيد افندي والد محمد خير افندي احد وجهاء دمشق ومحمود افندي احد أعيانها مات سنة ١٣٣٣ واعقب ولدين نجيبين هما شكري بك من نخبة شبان هذا العصر له خدمات كثيرة ارفع شأن هذه البلاد . وأخوه عادل افندي الشاب الاديب . وعبد العزيز افندي مات سنة ١٣٣٢ ورضا افندي من وجهاء دمشق وعبد الحميد افندي وتوفيق افندي . والاخ الرابع حسن افندي الذي حاز رئاسة التجار . ورحل الى الآستانة وتعرف بأعاظم رجالها . واحسنت اليه الدولة العثمانية من الرتب الملكية اولاها والاوسمة اعلاها كان يذكر في مجلسه بعض الاحاديث النبوية وكثيراً من امثال العرب وشواهد الشعراء ونكت الحكماء والادباء يميل الى مطالعة اسفار التاريخ وسير

السلف مات سنة ١٣٢٢ وقد اعقب ذرية نجيبة ارشدهم شفيق بك كان عضواً في مجلس ادارة دمشق وخلف والده برآسة التجار ثم انتخب عضواً في مجلس الامة في دار السلطنة مات سنة ١٣٤٠ ومنهم مختار بك رئيس بلدية دمشق اليوم والاخ الخامس مراد افندي وقد اشتهر الاخير عند الحكام بسداد الرأي وكانوا يعتمدون عليه في مهام الامور ويرسلونه لاعظم الوقائع التي كانت تقع في جبل الدروز وحوران وبعض القبائل العربية لحلها بحكمته وفصل اختلافهم على اصول العشائر وكان صدراً رئيساً يكره ان يذكر في مجلسه احد بسوء تقلد عضوية مجلس ادارة الولاية الكبير مدة طويلة كان مثال الغيرة والاخلاق الحميدة مات سنة ١٣٢٦ وقد اعقب ذرية مباركة اكبرهم رشيد افندي مات سنة ١٣٤١ وهو والد الشيخ راشد افندي من علماء دمشق واحد مؤسسي المدرسة العلمية الوطنية ومن اساتذتها واعقب ايضاً صادق افندي المتوفى سنة ١٣٣٨ وهو والد خليل افندي من ادباء دمشق واعقب ايضاً محمد عارف افندي احد اعيان دمشق سلك مسلك ابيه في كرم الاخلاق والسيرة الحسنة واعقب الشاب الاديب احسان افندي .

ومن الاسر الشهيرة بالثروة آل الدالاتي بدمشق قد هاجر جدهم اليها من الغرب اشتغل منهم جماعة في بيع الطحين ثم ظهر من رجال هذا البيت بالثروة والوجاهة الاخوان علي افندي واحمد افندي ابناء سعيد افندي الذي كان يشتغل في الطحين تفرع منهما ذرية كبيرة منهم امين افندي ومنير افندي من اصحاب السيرة الحسنة لهما اختصاص تام في فن الزراعة . ومن ابناء عمهم جماعة يشتغلون في صنع الحلويات السكرية عاصرنا منهم الشيخ يوسف والشيخ ابا الخير وهو والد محمد افندي صاحب جريدة الانباء ومن الادباء .

ومن الاسر القديمة بدمشق بنو سيباي حاكم الشام ونائبها وصاحب الجامع والمدرسة والزاوية والتربة وسيأتي في كتابنا ذكرها وقد اسس ذلك سنة ٩٢١ وجعل بناءه بالحجر الابلق والرخام لم يدع بدمشق مسجداً مهجوراً ولا مدفناً معموراً الا واخذ منه الاحجار والعواميد ما احب واراد الى ذلك

البناء حتى سمي ذلك الجامع بدمشق جمع الجوامع ويوجد جماعة في دمشق يدعون انهم من نسله لاجل توليتهم على اوقافه ولا نعلم احداً ينتمي اليه اليوم.

ومن الاسر الحديثة الشهيرة بالثروة بنو البارودي في دمشق جمع هذه الثروة العظيمة جدهم حسن اغا كتخدا عند عبد الله بك العظم وقد اتى الى دمشق من مصر ثم ترك هذه الثروة الكبيرة لولده محمد بك الحسن تقصده الناس لاستقراض النقد منه وهو من الوجهاء والاعيان بنى داراً كبيرة في حي القنوات جاءت روضة للناظرين ثم اقتنى كثيراً من المزارع والقرى التي تركها شريف باشا المصري حين برح دمشق وجرت المصاهرة بينه وبين آل البكري وقد مدحه الهلالي الشاعر الشهير بقصائد شتى لم تزل في ديوانه فلاحاجة لتكرارها كان شديد الذكاء قوي الحاضرة وقد طرأ مرض خفيف على دماغه ذهب للاستانة لاجل التداوي ثم ذهب اليها مرة ثانية لحل الخصام والنزاع الواقع بينه وبين اهل قرية حلبون وكان بها نزيلاً في دار محمد باشا المرقسوسي الدمشقي احد حجاب السلطان عبد الحميد وقد احسن اليه اذ ذاك بالرتبة الاولى السامية وكان محل اكرام وزرائها واهلها مات سنة ١٣٠٧ وقد اعقب ولدين ارشدهما محمود بك احد اعيان دمشق ومثال الخبرة والوجاهة له اليد الطولى في فن الزراعة والفلاحة مات سنة ١٣٤١ وقد اعقب الشاب الاديب فخري بك احد وجهاء دمشق ومن شعرائها الاذكياء له يد بيضاء لنيل هذه البلاد حقوقها وقد انتخب حديثاً لعضوية المجلس التأسيسي المنعقد اليوم لوضع دستور البلاد ومعاهدتها مع دولة الانتداب والثاني سهيل بك .

ومن الاسر الشهيرة في الوجاهة والثروة بنو الزالق في دمشق وهم من اهل الكمال والمظاهر الحسنة ومن مشاهير رجالهم محمود افندي وهو والد الشهم الهمام غالب بك احد اعيان دمشق تقلد وظائف كثيرة في الحكومة العسكرية العثمانية ونال من الرتب اولاها ومن الاوسمة اعلاها ثم تولى رآسة البلدية في دمشق مدة طويلة كان بها مثال الاستقامة والجد والعمل لما فيه تقدم البلاد .

ومن الاسر الشهيرة بالثروة والوجاهة في حي الميدان بنو المهايني اصلهم

من قرية مهين التابعة لقضاء النبك ومن مشاهير رجالهم جدهم صالح اغا كان مثال الزعامة والوجاهة والشهامة العربية له ميل كثير للعطف على البؤساء واغاثة الفقراء وايواء ابناء السبيل ذو كلمة نافذة عند الحكام والامراء تقلد عضوية المجلس الكبير يرجع اليه في حل المشاكل في ذلك الحي ويستشار في مهام الامور مات سنة ١٢٨٥ وقد ادركنا من مشاهير رجالهم هاشم اغا ابن سليم اغا احد اعيان دمشق مات سنة ١٣٢٤ وهو والد عبد الله اغا من وجهاء دمشق ومن اعضاء المجلس البلدي ومنهم كمال افندي بن حسن افندي كان عضواً في المجلس البلدي ومثال الوجاهة والاخلاق الكريمة ومنهم حسني افندي وزكي افندي من اعضاء مجلس اللواء في دمشق اليوم ومن اصحاب السيرة الحسنة ومنهم سرور اغا احد تجار الطحين وقد تفرع من هذا البيت جماعة من اهل الوجاهة لا يسع كتابنا ذكر كل فرد باسمه .

ومن الاسر الشهيرة في حي الميدان بنو الحباب وهم من تجار الحبوب ومن وجهاء ذلك الحي اشتهر منهم ابراهيم اغا وهو والد محمد اغا ابي جبل وحسن افندي وهو من كتاب دوائر العسكرية في زمن الحكومة التركية ومن مشاهير رجالهم ايضاً عبدالله اغا ابو شحاده كان مثال الوجاهة والزعامة وكرم الاخلاق وقد تفرع منهم جماعة كثيرون بارك الله بهم .

ومن الاسر المعروفة في حي الميدان واشتهر رجالها بتجارة الحبوب وعمل الخبز بنو الصباغ اشتهر من رجالهم في هذا العصر يوسف ابو انيس ابن الحاج عيسى وهو من خيرة التجار الامناء مثال الوجاهة والعمل الطيب له كلمة نافذة مقبولة في حيه وهمة عالية في بناء المساجد .

ومن الاسر الشهيرة في ذلك الحي ايضاً آل النوري وقد تفرع منهم جماعة يشتغلون في تجارة الحبوب عرفنا منهم توفيق افندي من امراء الجيش التركي .

ومن الاسر الشهيرة بالتجارة في حي الميدان ودمشق بنو البعلبكي اصلهم من بعلبك قدم احد اجداد رجال هذا البيت الى دمشق وسكن في حي الميدان وهم جماعة طابت سريرتهم وحسنت سيرتهم اشتهر منهم اليوم صبحي

افندي ورشدي افندي ابناء عزو البعلبكي كان من اهل الثروة والوجاهة في حيه وولداه من خيرة التجار المشهود لها في الصدق والامانة .

ومن الاسر القديمة في العلم والادب بنو الشيخ عثمان الباني وقد نقل الكمال الغزي في تذكرته انه في سنة خمس وعشرين ومائة والف تحررت اجازة بخط العلامة الذي طلعت من مشارق افكاره انوار التنزيل ولمعت من مطالع انظاره اسرار التأويل الحبر الكامل المتقن الشيخ محمد بن علي المعروف بالكاملي بما اجازه شيخه النجم الغزي بسنده عن والده محمد رضي الدين بسنده عن والده احمد شهاب الغزي العامري الدمشقي بسائر العلوم والحديث المسلسل بالدمشقيين قال ما نصه اما بعد فقد اجزت العالم الفاضل البارع الصالح ابن الصالح الشيخ محمد بن الشيخ عثمان الباني الدمشقي بما يجوز لي وعني روايته واوصيه بتقوى الله والاخلاص اليه سبحانه وقد ذكرنا ذلك في كتابنا هذا عند تراجم الرجال وقد اشتهر من رجال هذا البيت اليوم الشيخ عبد الرحمن ابن محمد بن الشيخ عثمان الباني ولد سنة ١٢٣٨ ومات سنة ١٣٠٢ اخذ عن علماء دمشق وكان يعيد درس البخاري ويتولى بدايته تحت قبة النسر في حلقة الشيخ مسلم الكزبري وقد ترك لنا ولدين فاضلين من خيرة رجال العلم في هذا العصر وهما الشيخ توفيق كان يعيد درس البخاري ويتولى بعايته في زمن الشيخ سليم الكزبري مشربه حب العزلة والتباعد عن الحكام والتودد للفقراء والمساكين واتباع مذهب السلف يشتغل في امور التجارة مات سنة ١٣٣٨ والثاني الشيخ سعيد احد علماء دمشق ومن الكتاب الممتازين في اللغة والادب له آثار نفيسة منها عمدة التحقيق وتنوير البصائر في ترجمة الشيخ طاهر والفرقدان النيران وقلائد الياقوت والزبرجد والكشاف على الاوقاف واصول الانتقاد الذي لم يسبق اليه احد قبله ومن صلحاء رجال هذا البيت الشيخ عبد الله وولده عبد الحميد كانا يشتغلان في صنعة الديما وكان موتهما متقاربا وعبد الله هذا هو جد ولدي عبد الحفيظ من متخرجي معهد الحقوق وعبد الرؤف جعلهما الحق جل وعلا من سعداء الدنيا والآخرة .

وقد لاح لنا بهذه المناسبة ان نتعرض لبعض الاسر المنتسبة الى الشيخ قضيب البان الذي تنتمي اليه هذه الاسرة وقد ذكر شهاب الدين في كتابه شجرة الانساب ترجمة قضيب البان وهجرة ذريته من الموصل الى حلب وغيرها من بلاد الشام .

والذي وصلت اليه خبرتنا بعد طول البحث ان ذرية قضيب البان في بلاد الشام انقسمت مع تقادم العهد الى اسر عديدة . ففي حلب اسرتان تدعى الاولى باسم الجد الاعلى آل قضيب البان . وقد اندرست اخيراً هذه الاسرة ولم يبق منها احد مشهور . والثانية تدعى آل القدسي نسبة الى احد اجدادهم الذي سمي قدسي لكونه ولد في بيت المقدس . وهي لا تزال حتى يومنا هذا من الاسر الوجيهة في حلب ورأسها احد اعيانها الفريق كامل باشا القدسي والارجح ان هاتين الاسرتين من سلالة السادة الشهيرين الذين ترجمهم المحبي كالسيد محمد . والسيد عبد القادر صاحب الفتوحات المدنية في التصوف وغيرها والسيد عبد الله صاحب حل العقال في الفرج بعد الشدة . ومن شاء الوقوف على عظمتهم فليرجع الى تاريخ المحبي وكذلك توجد في حماه اسرة من سلالة قضيب البان تدعى آل الحافظ وفي دمشق اسرة تدعى آل الشيخ عثمان الباني وهي التي نحن بصدد تراجم رجالها وهي من سلالة السيد محمد بن الشيخ عثمان الباني الذي اجازه السيد الكاملي كما سبق في ترجمته نقلا عن تذكرة الغزي هذا ما وقفنا عليه بالوثائق المخطوطة والاقوال المنقولة

وقد بلغنا ان آل الحكيم بدمشق المقيمين منذ القديم في محلة مأذنة الشحم بيدهم شجرة تدل على انتسابهم له ونابغة هذه الاسرة اليوم الطبيب الاديب اسعد بك الحكيم والذي يظهر لنا ان ليس لهم اتصال مع آل الحكيم الذينهم ذكروا في كتابنا ومسكنهم في حي الميدان وباب السريجة والناس امناء على انسابهم .

ومن الاسر القديمة في العلم بنو قدامة في صالحية دمشق خرج من هذا البيت جماعة من الائمة الاعلام تقدم ذكرهم في الاعصر السالفة من كتابنا هذا امثال مسند الشام قاضي القضاة ابو الفضل سليمان بن حمزة بن قدامة بن الشيخ

ابي عمر صاحب المدرسة الشهيرة في الصالحية وقد انقرض رجال العلم في هذا البيت ثم ظهر في عصرنا من ادعى الانتماء اليهم هو حسن بن ابراهيم الشهير بحورا مشفاية لانه كان طويل القامــة نحيف الجسم كان يتردد على رجال العلم ويحضر مجالسهم له مسكن في حي السويقة مات سنة ١٢٥٠ ولم يزل بقايا رجال هذا البيت في ذلك الحي الى يومنا هذا وقد اطلعت على حجج شرعية تثبت انهم من بني قدامة ينتمون ويتصلون بجدهم الاكبر الشهير المدفون في صالحية دمشق واصلهم من بيت المقدس وقد ادركنا من ذريتهم اليوم محمد بن انيس واخاه سعيد افندي وهما من كتبة دواوين الحكومة وبسبب عدم اعتناء آبائهم بطلاب العلم درست شهرتهم وتقوضت مكانة اجدادهم الذينهم كانوا زينة العصور السالفة .

ومن الاسر الشهيرة بدمشق بنو المكي الشهير بالشريف اشتهر في عصرنا من رجال هذا البيت ابو الخير افندي بن محـمد شريف افندي بن محمود افندي الذي قدم الى دمشق من مكة وشهرتهم هناك بالمسكي نشأ ابو الخير افندي على حب العلم ورجاله ولازم المحكمة الشرعية وكان كريم الاخلاق عظيم المهابة ومثال الوجاهة تقلد رآسة الكتاب بهـا ثم حاز مميزية القسام الشرعية ثم مديرية الايتام له حرمة خاصة عند الحكام والامراء يحب قضاء حوائج الناس ويقدر الناس منازلهم ذكي الحافظة يدفع المبطل بالتي هي احسن منحته الدولة التركية رتبة الموالي من الرتب العلمية مات سنة ١٣١٨ وقد اعقب انجالاً نجباء وترك لهم مزارع واملاكاً ومجداً ارشدهم محمد افـندي احد قضاة الشرع في اقضية دمشق ثم تقلد مديرية الايتـام والثاني المحامي الشهير احسان افندي من نوابغ هذا العصر والحائز على شهادة الدكتوراه من بلاد الغرب والثالث رامز افندي من اعضاء محكمة الجنايات بدمشق .

ومن بيوت العـلم القديمة في المجـد والفضيلة في مدينة دمشق آل العمادي سبق في كتابنا ذكر بعض مشاهير رجالهم ونوه ابن شقـده والمحبي والمرادي عن آثارهم وذكروا مؤلفاتهم وانهم خدموا الدولتين وانــه لا يوجد

في دمشق بيت خرج منه المفتون مثلهم مع الثروة ورآسة العلم والوجاهة وقد انقرض رجال العلم في هذا البيت ويا للاسف وقد ادركنا من متأخري رجال هذا البيت عبد الله افندي ابن اسعد افندي كان مكتسياً لبـاس آبائه واجداده قلدهم بزيهم فقط وسلك في مظاهر الوجاهة مات سنة ١٣٠٩ وقد ختم به هذا البيت بشعاره العلمي واما اليوم فانه بقي من رجال هذا البيت جماعة مهنتهم الزراعة وفلح ما ترك لهم آباؤهم من المزارع والثروة سبحان من يرث الارض ومن عليها .

ومن الاسر القديمة في الفضل والعلم بدمشق بنو الزكي وهم اقدم اسرة تولى رجالها القضاء الشرعي مـع منصب قاضي القضاة في الديار الشامية والمصرية على ما نعلم وقد نوه المؤرخون بفضائل رجال هذا البيت وبينوا مآثرهم وحصروا رآسة العلم فيهم وتقدم ذكر اسلافهم في اعصر مختلفة من كتابنا وقد انقطع رجال العلم منهم واخنى عليهم الدهر وطرأ عليهم ما طرأ على غيرهم من بيوت العلم من الانقراض وقد ادركنا في عصرنا من هـذه الاسرة سليم افندي ابا خليل الزكي كان من الادباء الاذكياء جمع كتاباً لطيفاً في تاريخ الآثار والمخترعات القديمة والحديثة مات سنة ١٣٤٠ وهو والد الاديب خليل افندي الصيدلي الشهير .

ومن الاسر الشهيرة في دمشق بنو السفرجلاني ذكر منهم المرادي في تاريخه ابراهيم افندي صاحب الديوان الشهير وولده عمر وذكر انه من مشاهير التجار بنى في دمشق اربعة مساجد احدها بمحلة القنوات وجعل له منارة والثلاثـة بقرب داره في حي القيمرية ورتب لها الوظائف الدينية وقراءة القرآن وكان مشهوراً بفعل الخيرات مات سنة ١١١٢ وكان عليهم مشيخة مشهد السفرجلاني الكائن في الجامع الاموي الشهير بهم لنشر الطرق واقامة الاذكار وقد اشتهر عنهم ذكر الششتري وتقدم في كتابنا ذكر احد علماء رجال هذا البيت في القرن الرابع عشر ومن متأخري رجالهم الشاعر الشهير والموسيقي الخبير احمـد افندي ابن خليل افندي احد مؤرخي دمشق مات سنة ١٣٠٥ ومن مشاهير

رجالهم ايضاً الشيخ عبد افندي ابن عبد الرحمن افندي احد مشايخ الطريق القائم بالارشاد والذكر وقد عم نفعه واشتهر فضله بتعليم الناشئة من ابناء البلاد على النهج القويم وهو والد عبد الرحمن افندي من ادباء دمشق واحد مديري مدارس المعارف وقد اشتهر بلقبهم ايضاً جماعة من اهل الفضل والصلاح منهم الشيخ حمدي افندي ابن عمر افندي وهو مثال الفضيلة والاخلاق الحسنة وشهرته هذه حديثة عهد ونسبته الحقيقية لبني الاسطواني المتقدمي الذكر.

ومن البيوت الشهيرة في الطب بدمشق بنو الساطي اشتهر منهم السيد مصطفى كان يطبب الناس على مقتضى الطب القديم مات سنة ١٢٨٢ قدم احد اجداده لدمشق من بعلبك قبل ان بيدهم شجرة تدل على نسبتهم ولهذه الاسرة شهرة هناك وقد اعقب ولدين السيد احمد والسيد سعيد اشتهر كل منهما بفن الطب والجراحة مات الاول سنة ١٢٩٢ وقد اعقب الطبيبين الحاج اديب والحاج مصطفى وقد اعقب الاخير احمد سامي بك الشهير والاختصاصي بالامراض الداخلية تخرج من المدارس العالية في عاصمة الاستانة وعواصم اوروبا وشهد ببراعته اطباء تلك العواصم وابراهيم افندي الشهير ايضاً بهذا الفن والمتخصص بالاعمال الجراحية وصبحي افندي البارع في فن التحليل والكيمياء وغيرهم واما الاخ الثاني السيد سعيد فانه مات سنة ١٣١٢ واشتهر ايضاً في الطب وتطبيق القديم على الحديث وقد اعقب علي افندي البارع في فن الطب والجراحة على مقتضى ترقي الفن في هذا العصر وبالجملة ان هذه الاسرة حازت الثقة التامة من جميع الطبقات بدمشق وكانت عليهم خدمة طبابة الحج الشامي من عهد السلطان سليم ولهم في خدمة هذا الفن قدمة بدمشق .

ومن الاسر التي اشتهرت في فن الطب بدمشق بنو شورى . اشتهر منهم الشيخ علي ابن الشيخ عبده شورى المصري الاصل الدمشقي الموطن اتى مع ابيه دمشق وكان والده من اطباء مصر ولهما مهارة تامة في هذا الفن وتطبيقه على الكتب القديمة من الطب القديم وان احدهما يكتب الحجب والرقية وفي

زمنهما كان رجال الطب في دمشق قليلين مات الشيخ عبده سنة ١٣٠٥ ومات والده علي في حياته واعقب الشيخ عبد الرحمن فسلك مسلك ابيه وجده في الطبابة ومؤآنسة من يقصده حتى كان يصنع الادوية بيده مات سنة ١٣٣٢ وقد اعقب اولاداً نجباء منهم الطبيب صالح افندي تخرج من المدارس العالية في دار السلطنة اشتهر بمهارته وفطانته وملاطفة قاصديه له اختصاص تام في الأمراض الداخلية ومنهم مصطفى افندي الذي اشتهر في فن الطباعة ومنهم صادق افندي الصيدلي احد الاختصاصيين في استخراجات اجزاء الطب وله بقية اولاد لم نقف على اسمائهم .

ومن الاسر القديمة بدمشق آل المورهلي ينتمون الى جدهم اسماعيل باشا الذي قدم دمشق من بلاد الارناؤط قبل اربعمائة سنة وترك لهم اوقافاً كثيرة

ومن بيوت المجد القديمة في دمشق آل الشمعة وقد تقدم في كتابنا احد اجدادهم العلامة الشيخ علي الشمعة صاحب كتاب انفتاق الزهر في انفلاق البحر لدينا نسخة منه . وذكر بعض مؤرخي دمشق جماعة منهم واثنوا عليهم بخير ومن مشاهيرهم في هذا العصر احمد رفيق باشا الشهير بالشمعة احد اعيان دمشق ورؤسائها تقلد كثيراً من الوظائف العالية والرتب السامية في زمن الدولة الاسلامية العثمانية وكان آخر وظائفه عضوية المجلس العمومي بعد ان كان من اعضاء مجلس ادارة الولاية الكبير وكنت في ذاك الوقت من رفقائه كان مثال الفضيلة والوجاهة والغيرة الوطنية والشهامة العربية يحب عمل الخير واغاثة الملهوف كريم الاخلاق حسن المعاشرة يميل الى التواضع وحب العلماء واكرام آل البيت الطاهر ويسعى لمساعدتهم في كل آن يستشار في مهام الامور من قبل الحكام والامراء يصبر على الشدائد مات سنة ١٣٣٢ وله اخوة ثلاثة من وجهاء دمشق اكبرهم اسعد بك وقد ترك ذرية نجيبة اكبرهم فهمي بك والثاني عبد المجيد بك كان موظفاً قائمقام في زمن الاتراك وقد اعقب ذرية كبيرة منهم محمود بك من وجهاء دمشق وبكري بك مدير احد النواحي القريبة لدمشق والثالث ابراهيم بك وهو والد الشاعر الاديب لطفي بك احد

تجار دمشق اليوم ثم اعقب احمد باشا ذريــة كثيرة ارشدهم رشدي بك كان احد فضلاء هذا العصر ومن مشاهير ادبائه وكتابه بالعربية والتركية متضلعاً بالقوانين وحقوق الدول صدوقاً في خدمة بلاده لنيل استقلالها تقلد وظائف كثيرة منها رآسة ديوان مجلس ادارة الولاية الكبير وعضويته ثم انتخب عن دمشق في مجلس الامة في دار السلطنة وقد اغتالته يد الظلم والغدر في آخر عهد الاتراك في هذه البلاد قرب انتهاء الحرب العامة مع رفقائه الشهداء قرة عيون البلاد السورية كما اشرنا الى ذلك في محله .

ومن الاسر القديمة في دمشق اسرة الرملي نقل المحبي ان جــدهم حسام الدين جمع بين العلوم الدينية والعلوم العصرية وهواول رجل ظهر من دمشق تفرد في علم الطب وحاز على افتاءدمشق وذكر المرادي بان عليهم رآسةمؤذني جامع دمشق ولم تزل باقية في عقبهم الى اليوم وقد ادركنا منهم الشيخ المعمر الرئيس ابراهيم الرملي وهو ذو صوت جهوري عليه سيما القبول والخشوع مات سنة ١٣٢٣ ومن متأخري رجالهم محمد صادق افندي بن حسن افندي احد محامي دمشق واخوه فؤاد افندي من طلاب الحقوق ولهم اقارب يشتغلون في الصناعة .

ومن الاسر القديمة بدمشق التي اشتهرت بالشعر والادب بنو اللوجي وقد ذكر المرادي وغيره من المؤرخين مشاهير رجالهم واقوالهم واثنوا عليهم بخير وقد بقي من ذريتهم جماعة كثيرون يشتغلون في التجارة .

ومن الاسر الشهيرة بنو الصلاحي بدمشق وقد ادركنا منهم جماعة كثيرين منهم من خدم الطرق والاذكار ومنهم من خدم في وظائف الحكومة التركية ومنهم في التجارة ومن متأخري رجالهم تاج افندي يشتغل في صنعة الطباعــة ولهم اوقاف كثيرة موقوفة عليهم من قبل اجدادهم الاقدمين وقــد اشتهر منهم اليوم حسام الدين افندي مدير السجن واخوه فوزي افندي احدموظفي وزارة الزراعة بدمشق .

ومن الاسر الشهيرة بدمشق بنو الطباع اصلهم من بغداد ينتمون الى الامام

المحدث محمد عيسى الطباع التجيح البغدادي ونقل حملة الاخبار ان قريـة الديماس القريبة من دمشق اعطيت من قبل احد ملوك آل عثمان الى احد زعماء رجال هذا البيت الامام جلال الدين الطباع من احفاد المذكور وقد صاهر العارف عبد الغني النابلسي الدمشقي ابراهيم افندي احد مشاهير رجال هذا البيت وقد تفرع منهم التاجر والفاضل والصانع والمزارع عرفنـا منهم عبد اللطيف افندي من تجار دمشق هو والد كامل افندي احـد اصهارنا الكرام واشتهر ايضاً صالح افندي من اعيان تجار شنغاي الصين وهو والد عارف افندي الطباع احد تجار بيروت اليوم ومن اسباط رجال هذا البيت الذي اشتهر بهم صبحي بك الطباع مدير البنك الزراعي في دولة دمشق وله اختصاص ومعرفة في الامور المالية وقد اشتهر منهم ايضاً رشدي بك الطباع من مأموري العدلية واحد محامي دمشق اليوم ومن مشاهيرهم الشيخ ابو الخير كان احد ناشري العلم بدمشق والشيخ مسلم والشيخ عبد العزيز .

ومن الاسر القديمـة بدمشق بنو السمرمتي ذكر بعض مشاهير رجالهم المرادي في تاريخه وانه نبغ منهم العالم والشاعر ومنهـم من تولى النيابات الشرعية في محاكم دمشق ومن مشاهير رجالهم ايضاً حسين افندي بن عبد الرحمن افندي كان مدرساً في الخصاصية الكائنة في جادة الدرويشية بالقرب من دائرة الحكم وكان متولياً عليها ذهب اثرها كما انقرض رجال هذا البيت .

ومن الاسر القديمة بدمشق اسرة اغريبوزي السلامي الدمشقي احد اعيان جند دمشق وصفه المرادي في تاريخه بانه برع في الادب والنحو وفن الانشاء يميل الى التصوف وله مؤلف فيه تقدم ذكره في كتابنا في العصر الثاني عشر مسكن رجال هذا البيت الى اليوم في حي سوق ساروجه ومن مشاهير رجال هذا البيت احمد بك احد اعيان دمشق مات سنة ١٢٧٦ وقد اعقب ولداً اسمه يحيى باشا وهو مثال الوجاهة تقلد عضوية محاكم العدلية ثم عضويـة مجلس ادارة الولاية الكبير رافقته في مدة انتخابه في ذلك المجلس ثم انتخب عضواً في المجلس العمومي كان مقداماً سديد الرأي تميل لمحبته نفوس الحكام والامراء

ويميل طبعه الى تعظيم الاشراف والعلماء مات سنة ١٣٢٨ وقد اعقب ذرية نجيبة اكبرهم حمدي بك احد حكام الادارة الملكية في اقضية دمشق المشهود له في حسن الادارة واحمد بك ومصطفى بك وهما من وجهاء دمشق .

ومن الاسر القديمة الشهيرة بالجد بنو المالكي وقد ذكر المرادي بعضاً من مشاهير رجالهم واثنى عليهم بخير وقال انهم قدموا لدمشق من الغرب تقلد منهم جماعة افتاء المالكية واشتغل اكثر رجالهم بالفلاحة والزراعة ومن مشاهير متأخريهم احمد افندي ابن سليمان افندي بن يوسف كان احد اعيان دمشق وصدر صدورها تولى النظر العام على جميع اوقافها وهو اول مدير لها ثم تقلد رآسة مجلس الشورى وعضوية المجلس الكبير وعين مديراً عاماً لقيد النفوس وهو الجد لجد هذا البيت مات سنة ١٢٧٠ وقد اعقب مصطفى افندي وعلي افندي وهما من وجهاء دمشق وقد تقدم في كتابنا ذكرهم وممن يستحق الذكر منهم ايضاً الشيخ محمد ابو الصفا ابن ابراهيم افندي احد مشايخ القراء بدمشق برع في فن القرآت العشر من الشاطبية والدرة والطيبة اخذ عن الشيخ احمد الحلواني الشهير وعن حافظ باشا الفريق التركي نزيل دمشق يقرأ بعد صلاة العصر في الجامع الاموي في رمضان مات سنة ١٣٢٠ وقد اعقب ولدين اكبرهما محمد افندي من حفظة القرآن وعبدالله افندي وهما يشتغلان في الفلاحة والزراعة ومن مشاهير رجال هذا البيت سعيد افندي مات سنة ١٣١٧ وهو والد برو افندي والشيخ سعدو افندي من طلبة العلم ويحيى افندي الذي مات سنة ١٣٢٩ وهو والد اسعد بك من امراء العسكرية في عهد الاتراك وتوفيق افندي وحمدي افندي وصلاح افندي ومن مشاهيرهم ايضاً الشيخ عبد القادر افندي ابن عمر افندي كان من علماء دمشق مات سنة ١٣٣٢ وترك ولداً نجيباً اسمه وجيه افندي من مأموري الزراعة ولعبد القادر افندي اخوة ثلاثة اكبرهم ابو الخير افندي من وجهاء دمشق وهو والد عبدالوهاب بك من نوابغ دمشق ومفكريها تخرج هذا الشاب في اعاظم مدارس دار السلطنة وباريز واتقن فن الهندسة وهو اول دمشقي يحمل شهادة

هندسة الطرق والمعابر من أكبر عواصم الغرب وهي اعظم شهادة تدل دلالة واضحة على ما في دمشق من بقايا الذكاء العربي القديم وله اثر نفيس في كتاب خطط الشام ذكر فيه بحث الطرق والمرافئ . والثاني شمس افندي من وجهاء دمشق ومن المتخصصين في فن الزراعة والثالث اسماعيل افندي من امراء العسكرية في عهد الاتراك وقد مدح بعض رجالهم العلامة الحمزاوي مفتي دمشق في ديوانه .

ومن الاسر القديمة بدمشق بنو الشويكي وقد ذكر المحبي في تاريخه جدهم احمد بن محمد شهاب الدين الحنبلي وانه تولى نيابة القضاء بدمشق وقد تفرع من هذا البيت جماعة كثيرون في عصرنا يشتغلون في التجارة والصناعة واشتهر بعضهم في قراءة الرقى .

ومن الاسر الشهيرة بدمشق بنو القنواتي تفرع من هذا البيت جماعة من اهل الوجاهة والتجارة وقد ادركنا منهم احمد افندي كان من حفظة القرآن ومن اهل الكمال والوقار مات واعقب ذرية كبيرة اشتهر منهم مصطفى باشا تقلد زمن الحكومة العثمانية وظائف ملكية منها قائمقامية الاقضية ومنها متصرفيات في بلاد اليمن وغيرها ثم بعد ذهاب الاتراك من البلاد العربية عين متصرفاً لدير الزور وحوران من اعمال دمشق ثم ترك واستخار الاقامة في بيروت ومصر وهو والد صديقنا ابراهيم بك من اركان موظفي كمرك بيروت وخرج من هذا البيت جماعة يشتغلون في الطب والصيدلة والتجارة وبرعوا في تركيب الادوية اشتهر منها الليتينال القنواتي وغيره من الادوية المفيدة التي قلدوا بها ادوية الغرب ومن مشاهير رجالهم موجد هذه الادوية عبدالوهاب افندي من صيادلة دمشق الاذكياء واحد اساتذة المعهد الطبي بها اليوم .

ومن الاسر الشهيرة في التجارة اليوم بنو الخيش خرج منهم الوجيه امين باشا كان من اعيان تجار بيروت له خدمات جليلة للدولة التركية وله اخ اسمه عبد الرزاق افندي من تجار دمشق وكان والدها مسكنه في حي القيمرية وبقي منهم اليوم الصيدلي الاديب سعيد افندي وبقي في بيروت اولاد امين باشا وهم

سليم بك احد اعيان تجار بيروت اشتهر بالبر وعمل الخير وايواء ابناء السبيل وله اخ اسمه «صباح بك من تجار الاستانة اليوم ولهم اخوة واقارب لم نقف على اسمائهم .

ومن الاسر الشهيرة بدمشق بنو اياس وهم اسرة كبيرة يشتغل رجالها في التجارة بين بيروت ودمشق اشتهر منهم محمد افندي صاحب السوق الشهير باسمه في بيروت كان من اعيان التجار وهو والد الشيخ سعيد افندي احد علماء بيروت اليوم .

ومن الاسر الشهيرة بدمشق آل حلابه اصلهم من حمص اشتهر منهم المثري التاجر الشهير والمحسن الكبير الحاج سعدالله بك استوطن في الاسكندرية وصار رئيس التجار بها له مراكب وبواخر تشتغل في البحر وصاهره من اعيان اسكندرية بنو طليبات وقد مدحه الهلالي الشاعر الشهير في ديوانه واثنى عليه بخير مات سنة ١٣١٧ وهو والد الفاضل الاديب عبد السلام بك من مشاهير محامي دمشق ووجهائها اليوم .

ومن الاسر الشهيرة بنو الجابي بدمشق ينتهون الى رابع الخلفاء الراشدين الصحابي الجليل عثمان بن عفان من طريق جدهم عدي بن المسافر وقد اطلعنا على شجرتهم المباركة وتقدم في كتابنا ذكر محمد افندي احد علماء دمشق ومن اعيانها مات سنة ١٢٩٨ وهو والد السيد عارف افندي احد اعيانها مات سنة ١٣٠٤ وقد اعقب ذرية مباركة اكبرهم عثمان افندي كان مدير اموال الايتام بدمشق ومن اعيانها مات سنة ١٣٣٤ وهو والد المحامي الشهير عبد الوهاب افندي كاتب العدل اليوم وزبور افندي من موظفي دائرة الحكومة واشتهر منهم ايضاً حسن بك استخدم في وظائف الحكومة التركية الى ان صار معاون والي بيروت وبانية ثم طرأ على عينيه مرض اضطره للزوم داره وهو كاتب فاضل اشتهر بسداد الرأي ومن اقربائهم الحاج محمود وهو والد الشاب الاديب ياسين بك احد امراء الجيش التركي ومن نوابغ هذا العصر وله اخوة ادباء نجباء عرفنا منهم الطبيب رشدي بك وقد اتى من حلب

جماعة اشتهروا في هذا اللقب عرفنا منهم القانوني الشهير رؤف بك الجابي رئيس محكمة الاستئناف بحلب اليوم وله اخوة ادباء فضلاء اشتهر منهم صبحي افندي مدير المدرسة التجهيزية في معارف دمشق وقد اجتمعنا في دار السلطنة باحد مشاهيرهم راغب افندي الجابي كان مثال الوجاهة والكمال وقد اعقب ولداً اسمه كمال .

ومن الاسر الشهيرة في دمشق بنو القضماني منهم القاطنون في حي القيمرية وعندهم بعض من الآثار المباركة ادركنا منهم الشيخ صالح ابن الشيخ علي الشيخ المعمر التقي المتعبد لازم ورد السحر في جامع دمشق كان مثال الفضيلة والوقار حسن السيرة والسريرة مات سنة ١٣٢٣ وهو والد كمال الدين افندي احد اعضاء المجلس البلدي ومن وجهاء دمشق مات سنة ١٣٣١ وترك ولدين نجيبين رضا افندي من مأموري الاوقاف وخير الدين افندي من مشاهير محامي دمشق الافاضل وقد عرفنا منهم ايضاً الشيخ عبد القادر احمد قضاة الشرع في اقضية دمشق وهو والد المحامي الشهير فؤاد افندي لهم مخصصات وبدل اعشار عن اوقاف اجدادهم لعمل البر والموقوفة لاقامة الذكر واطعام الطعام وايواء ابنـاء السبيل ويحصل عندهم في ليلة القدر في رمضان اجتماع عظيم تقام به الاذكار ويطعم الطعام ويتبرك ببعض الآثار الموروثـة من اجدادهم وقد تسمى بهذا اللقب ايضاً جماعة من وجهاء دمشق قاطنون في محلة السويقة اشهرهم محمد علي باشا امير الاولاء في الجيش التركي وهو مثال الوجاهة والاخلاق الحسنة ومن مشاهيرهم ايضاً احمد افندي الذي تولى قيادة الدرك في زمن الاتراك في دمشق وطرابلس الشام وبعد ذهابهم انتخب عضواً في المؤتمر السوري في عهد الحكومة العربية واميرها فيصل وهو والد صبحي افندي من وجهاء دمشق ومن مشاهيرهم عوني بك استخدم قائداً في الجيش العثماني وانتخب عضواً في مجلس الامـة العثماني في زمن الاتراك وبعـد ذهابهم انتخب عضواً في مؤتمر دمشق السوري في عهد الحكومة العربية ومن مشاهيرهم ايضاً عبد الغني بك احد قائدي الدرك اليوم .

ومن الاسر الشهيرة بالعلم والفضل بدمشق بنو الحلبي قدم جدهم العلامة الشيخ سعيد لهذه البلاد من حلب في سنة ١٢٠٧ هـ وهو المؤسس لمجد هذا البيت وتقدم الكلام عليه في كتابنا في القرن الثالث عشر ثم ترك من بعده ولده شيخ علماء دمشق ومرجعها العلامة الكبير الشيخ عبد الله وقد نوهنا عن فضائله ادركنا ولده الشيخ احمد متولي الجامع الاموي وولديه الشيخ محمد علي الذي تولى التولية بعد ابيه وهو والد الشيخ حمدي المتولي الحلبي والشيخ رضى افندي مفتي دمشق ومدرس جامعها وهو والد الشاب الاديب فؤاد افندي من متخرجي معهد الحقوق . ومن مشاهير هذا البيت الشيخ كمال افندي احد قضاة الشرع في اقضية دمشق والشيخ عبد افندي بن الشيخ رشيد خطيب جامع القيمرية . وقد قال في حق رجال هذا البيت العلامة ابن عابدين صاحب الحاشية شعراً كثيراً في مدحهم . وقد تفرع من رجالهم اليوم جماعة كثيرون يشتغلون بالتجارة والفلاحة

ومن الاسر الشهيرة بالعلم والصلاح بدمشق بنو الطيبي وتقدم في كتابنا ذكر مشاهير رجالهم العلماء الاعلام وهم زينة العصور والاعوام وقمر الليالي وشمس الايام يتفاخر بذكر اسماء رجالهم المؤرخون ويتباهى بآثارهم المتنافسون اشتهر رجال هذا البيت في كثير من العلوم كما انهم اختصوا في علم الفرائض وبقي ذلك في رجالهم الى يومنا هذا وهم خيار من خيار . ومن اقربائهم المعظام الفرضي الشيخ سليم افندي فرضي دائرة البلدية وهو والد احمد افندي من ادباء دمشق وعلي افندي من حكام العدلية وتقدم ذكر مشاهيرهم في تراجم الرجال .

ومن الاسر القديمة في خدمة العلم بنو الداودي . خرج من هذا البيت رهط من العلماء . وقد اطلعت على كثير من مؤلفاتهم عند سبطهم الشيخ ابي الخير عابدين مفتي دمشق وعندي مجموعة مهمة جامعة لكثير من العلوم والفنون لاحد رجال هذا البيت وهي نادرة المثل . وقد اثنى كثير من المؤرخين عليهم . ومن متأخري رجالهم الذي جد واجتهد لاقتفاء اثرهم

الشيخ محمد الداودي من افاضل رجال هذا العصر ، كان يعلم العلوم العربية والادبية في احد المكاتب العاليـة بدمشق مات سنة ١٣٤٥ وختم به رجال العلم في هذا البيت وقد خرج منهم جماعة كثيرون يشتغلون في التجارة والزراعة

ومن الاسر الشهيرة بالعلم والفضل بنو الشطي الحنابلة قدم جـدهم الاكبر الشيخ عمر من العراق الى دمشق تاجراً في سنة ١١٨٠ هـ وتقدم في كتابنا ترجمة ولده الشيخ حسن شيخ علماء الحنابلة والفرضيين ، وقد ادركنا ولديه الشيخ احمد افنـدي والشيخ محمد افندي وهما من خيرة علماء دمشق وقد نوهنا عن فضلهما في كتابنا واختصاصهما في علم المساحـة والفرائض ومن متأخري رجال هذا البيت الشيخ مصطفى افنـدي احد علماء دمشق ومفتي قضاء دوما واخوه الفاضل عبد اللطيف افنـدي من مشاهير كتاب دائرة الحكومة في هذا العصر ومنهم حسن افندي قاضي الشرع في دوما ومنهم الفاضل المؤرخ الشيخ جميل افنـدي قاضي الحنبلي في محكمة دمشق وامام محراب الحنابلة في جامع الاموي وقد تفرع من هذا البيت جماعة كثيرون من اهل الفضل والادب

ومن الاسر القديمة في المجـد بدمشق بنو الاخنائي الذينهم بنوا المدرسة الاخنائية شمالي جامع دمشق وقد ذكر مشاهير رجالهم المحبي في تاريخه واثنى عليهم بخير ولم يبق من ذريتهم احـد ومدفن رجالهم في مدرستهم المذكورة التي اتخذها بنو المنير مدفناً لهم في هذا العصر وقد اخنى عليهم الدهر

ومن الاسر الشهيرة المعروفة بنو السباعي اصلهم من حمص تفرع منهم في حلب ودمشق والاستانة وبيروت وبعلبك جماعة من اهل الوجاهة والكمال وقد عرفنا منهم بدمشق مصطفى افنـدي الخطاط الشهير كان من اعضاء محاكم العدلية بدمشق مدة تزيد على نصف قرن جمع تاريخاً لطيفاً ذكر به مشاهير الرجال في دمشق مات عقيماً سنة ١٣٣٨ وله اخ اسمه سليم افندي من موظفي ديوان المحاسبة بدمشق مات سنة ١٣٤٣ وهو والد احمد بك احد اركان موظفي وزارة المالية اليوم وقد اجتمعنا في دار السلطنة باحد مشاهير

رجال هذا البيت سليمان بك السباعي مدير صندوق الامانات بها وله اولاد نجباء تولوا وظائف الشهبندرية في بلاد الغرب

ومن الاسر الشهيرة في الفضيلة والصلاح بنو العاني بدمشق تقدم في كتابنا في القرن الثالث عشر ترجمة مؤسس مجد هذا البيت العلامة الشهير الشيخ محي الدين العاني احد رجال جهابذة العلم وشيخ مشايخ الصوفية في دمشق وقد انجب ذرية من الافاضل وهم الشيخ محمد افندي من علماء دمشق ومن مدرسي الجامع الاموي اليوم والشيخ احمد افندي كان من افاضل العلماء مات سنة ١٣١٥ وهو والد الشيخ عبدالقادر افندي والشيخ عبدالرحمن افندي كان من رجال العلم له ميل في الشطرنج مات قضاء بسبب احد راكبي الدراجات سنة ١٣٤٦

ومن الاسر التي تقدم في كتابنا ترجمة بعض رجال الفضل منها بنو تلو بدمشق . تفرع من رجال هذا البيت جماعة كثيرون منهم من يشتغل في المحاماة وهو اديب آغا كان له مدافعات غريبة في بابها له وقوف تام على اسماء جميع الكتب الفقهية الغريبة النادرة وهو والد الشاب الاديب رشدي افندي احد محامي دمشق اليوم ومنهم من يشتغل في التجارة والفلاحة وقد عرفنا منهم سعدو افندي وهو والد الشاب الاديب حسني افندي من مشاهير تجار الذخيرة ومن اهل الثروة

ومن الاسر التي استوطنت بدمشق واشتهر رجالها بها بنو الجولاق اصلهم من بلاد القفقاس عرفنا منهم مصطفى بك بن سليمان بك من موظفي الحكومة في زمن الاتراك وكان والده يتوكل بمحافظة الحج الشامي وقد نبغ منهم حمدي بك القانوني الشهير رئيس محكمة الاستئناف اليوم المشهود له بالمعرفة والسيرة الحسنة ومنهم عمر بك تولى قائمقامية الاقضية بدمشق في زمن الدولة التركية

ومن الاسر الشهيرة بالثروة بدمشق بنو الخرسا اصلهم من حمص قدموا دمشق منذ ثلاثمائة سنة واستوطنوا بها ثم ذهب بعض رجالهم الى بيروت

ومنهم الى ازمير يشتغل اكثرهم في التجارة والزراعة . اشتهر منهم محمد افندي وقد اعقب ذرية كبيرة اشتهر منها الاخوة الثلاثة مصطفى باشا الشهير كان من تجار بيروت واعيانها مات سنة ١٣٢٥ ولا نعلم عقبه والاخ الثاني احمد باشا وهو من تجار ازمير واعيانها له كلمة نافذة بها مات سنة ١٣٢٦ وقد اعقب ذرية نجيبة ارشدها زكي بك رئيس بلدية ازمير ومن اعيانها مات سنة ١٣٤٦ وترك ذرية لانعلم اسماء افرادها والاخ الثالث ابو الخير افندي وهو والد عبدالقادر افندي الذي استشهد مع رفقائه في بيروت آخر حكم الاتراك زمن حكم جمال باشا وتسلطه على مفكري هذه البلاد واعماله البربرية التي لاتنطبق على الوجدان والانسانية وكان نتيجة هذه الاعمال ماحل بنا الآن

ومن الاسر التي تستحق الذكر في التاريخ بنو ضيف الله مراد بدمشق اصلهم من حمص . يشتغل اكثر رجال هذا البيت في التجارة والصناعة ظهر منهم في عصرنا الشيخ ابو السعود من مشاهير شعراء دمشق ومن اساتذة مدارس المعارف واخوه محمد سعيد افندي مدير مدرسة الملك الظاهر التابعة لدائرة المعارف وجميل افندي مدير مدرسة الزبداني

ومن الاسر الشهيرة بدمشق بنو الالشي . اشتغل اكثر رجال هذا البيت في التجارة واشتهر منهم بالفضيلة والعلم زاهد افندي بن محمد افندي بن نجيب افندي نشأ في اول امره بتعاطي امور التجارة ثم لازم الشيخ عبدالله الحلبي وحضر دروسه ورافق جاره الشيخ احمد مسلم الكزبري وحضر مجالس العلم عنده ثم لازم اكثر علماء دمشق الى ان ظهرت فيه الفضيلة والبلاغة وتصدر في مجالس العلماء وعلا قدره عند الحكام والامراء وكان مقربا لديهم مقبولاً عندهم لانه درة من الدرر والنفائس ومفخر حسن من مفاخر المجالس بنوع احاديثه بذكر انواع اللطائف ويتفكه بالنكت والظرائف لايدع مناسبة ادبية كانت او علمية او مفاكهة عصرية الا ويأتي بها . تقلد نيابة المحاكم الشرعية بدمشق ثم رحل الى الاستانة واحسنت اليه

للدولة العثمانية رتبة علية مع القضاء الشرعي في مدينة بعلبك بعد ان تولى قضاء دوما وقد عثرت على بعض كلامه اللطيف قال :

كن زاهداً فيما حوته يد الورى تضحي الى كل الانام حبيباً
او ماترى الخطاف حرم زادهم فغدا قريباً في البيوت ربيباً

مات سنة ١٣١٩ وكان يقول ان احــد اجداده اتى الى دمشق من الغرب مهاجراً وكانوا يتقلدون في بلادهم بوظيفة الالشية وقد اعقب انجالاًنجباء من نابغة امراء العسكرية وهما امين افنــدي من وجهاء دمشق اليوم وجميل بك الذي تولى رآسة وزارة دمشق وتقدم ذكره في محله وقــد تولى اليوم حين طبع هذا الكتاب وزارة المالية في الحكومة الموقتة بعد حكومة الداماد الذي سبق ذكرها في الجزء الاول

ومن الاسر الشهيرة بدمشق بنو الدردري اشتهروا بهذه الشهرة لان احد اجدادهم كان قيما على جامع ابي الدرداء الكائن في قلعة دمشق وكان مسكنهم هناك قديماً وعليهم تولية اوقافه يستغلون ريع الطاحون مع الدور التي كانت داخل القلعة وبيدهم وثائق شرعية وشجرة تثبت لهم ذلك وقــد اشتهر من رجال هذا البيت في الفضيلة والعلم في عصرنا محمد راغب افندي بن نورالدين افندي بن عبد القادر افندي ادرك الطبقة الاولى من علماء دمشق ولازمهم كان فقيهاً فاضلا يحفظ من المسائل الفقهية وله معرفة تامة في علم الفرائض تولى القضاء الشرعي في اقضيــة دمشق مات سنة ١٣٢٠ وقد ترك ذرية كبيرة اشتهر منهم عطا الله افنــدي قاضي الشرع الشريف في لواء حوران اليوم ورضى افندي من مأموري المالية . ومن مشاهيرهم في العلم والفضل ايضاً عبدالرزاق افندي وهو الاخ الثــاني الى راغب افندي كان فقيهاً فاضلا من اعيان دمشق وعلمائها تولى القضاء الشرعي في بعض اقضية دمشق ثم مديرية الايتام بعد ان كان موظفاً في رآسة كتاب المجلس الكبير ثم تولى نيابة المحاكم الشرعيــة وبقي مدة كبيرة في المحكمة الكبرى وكان يقول ان اسرتهم اتت دمشق من خليل الرحمن وانهم من اسرة منسوبة هنــاك معروفة الى اليوم

مات سنة ١٣٣٩ وقد ترك ولدين نجيبين نور الدين افندي احد كتاب المحكمة الشرعية وعبدالله افندي والاخ الثالث سعيد بك كان من امراء الجيش العثماني مات عقيما

ومن الاسر الشهيرة في التجارة بنو الخردهجي . ظهر من هذا البيت عبدالمجيد افندي بن اسماعيل افندي بن محمد افندي ولد في دار السلطنة ثم اتى به والده الى دمشق اشتغل في بادئ امره بالتجارة مع والده ثم عشق طلب العلم ولازم اهله الى ان تولى رآسة كتاب اوقاف الحرمين ثم رحل الى دار السلطنة ولازم شيخ السلطان عبدالحميد اذ ذاك السيد ابو الهدى افندي الصيادي الشهير شيخ مشايخ السجادة الرفاعية وتخلف عنه لنشر الطريق واحسنت اليه الدولة التركية برتبة الموالي العلية مع قضاء الشرع في حمص ثم عين عضواً في محكمة التمييز ومصححاً للكتب العربية في المطبعة الاميرية في دار السلطنة وبقي مدة بها ثم تولى قضاء محكمة الطوبخانة ثم انتقل الى اللاذقية وعكا وبعد انتهاء مدة القضاء اختار الاقامة في دمشق ومات بها سنة ١٣٢٥ كان شاعراً اديباً فاضلا نقل بعض قصائده الشعرية العلامة السلاوي صاحب عكاظ الادب ونشرها في مجلة الحقائق منها قوله في مدح والد شيخه المذكور

ايا شبل صياد السباع ابي المجد ويا فخر اهل البيت يا وافر الجد

ومن الاسر الشهيرة بدمشق بنو الشاش . اشتغل اكثر رجال هذا البيت في التجارة ثم ظهر منهم الشيخ فوز الله افندي من علماء دمشق تولى القضاء الشرعي واستقام مدة في ازمير من بلاد الاناضول وله شرح السمرقندية . كان فقيهاً فاضلا مات سنة ١٣٢٠ ولم يزل منهم جماعة في ازمير وله اخ اسمه الشيخ حسين احد افاضل دمشق ومن اساتذة المعارف المشهود له في الفضيلة والعلم

ومن الاسر القديمة بدمشق وتستحق الذكر بنو القتال تقدم ذكر جدهم خليل احد علماء دمشق وشعرائها في العصر الثاني عشر كما ان جده الشيخ

ابراهيم هو من اجلة علماء عصره وبقي منهم في عصرنا ذرية كبيرة تشتغل في التجارة والصناعة

ومن الاسر الشهيرة القديمة في حي الميدان آل سكر . ومن مشاهير متأخري رجالهم مصطفى آغا وعبدالمجيد آغا وحسن آغا وهم ابناء عم مثال الوجاهة والزعامة وكرم الاخلاق وقد ادركنا من مشاهير رجالهم ايضاً عبدالقادر باشا احد تجار ازمير واغنيائها اختار الاقامة بها وصار من اعيانها تقلد رآسة البلدية بها مات سنة ١٣٢٢ وهو والد توفيق بك وقد شابه اباه بكرم الاخلاق واكرام اهل وطنه وغيرهم من البلاد العربية وقد تفرع منهم اليوم جماعة يشتغلون في تجارة الحبوب بدمشق لايسع كتابنا ذكر كل واحد بمفرده وهؤلاء مسكنهم في حي الميدان عرفنا منهم المجاهد عبدالقادر آغا والوجيه زكي افندي ويوجد اسرة كبيرة اشتهرت بهذا اللقب ايضاً يسكنون في حي الصالحية ويشتغلون في التجارة وبيدهم نسبة ينتمون بها الى الغوث الرفاعي وقد اشتهر منهم في الفضيلة الشيخ محمد سكر احد علماء القرن الثالث عشر وكان مجيئهم لدمشق من بعلبك

ومن الاسر الشهيرة في حي الميدان بنو العسلي . ومن مشاهير رجالهم محمد آغا تقلد عضوية الادارة والمجلس البلدي له اليد الطولى في الفلاحة والزراعة كان مثال الوجاهة وكرم الاخلاق ترك ثروة عظيمة وذكراً حسناً مات سنة ١٢٩٠ واعقب ذرية كبيرة منهم علي آغا شابه اباه في كرم الاخلاق وحسن السيرة تقلد عضوية المجلس البلدي وهو والد شكري بك الشهير بالكتابة والخطابة والمتضلع بالادب والفنون العصرية واحد المجاهدين المطالبين باستقلال البلاد العربية من يد كل غريب عنها . كان درة ثمينة في جيد هذه الاسرة وبين اقرانه تقلد عدة وظائف في زمن الاتراك الى ان صار متصرفاً ومفتشاً للامور الملكية ثم انتخب عضواً في مجلس الامة بعد اعلان الدستور عن دمشق وهو اول من نادى في المجلس المذكور بالمطالبة بحقوق العرب المهضومة واستقلال البلاد فكان نداؤه مثل الصاعقة عند رجال الحكومة

التركية وفي اندية الانحاديين الذين بيدهم زمام الحكم وحنقوا عليه من ذلك الوقت واضمروا له المكيدة فكان ما كان من نهاية امر موته مع الشهداء في اواخر الحرب العامة وزمن تسلط جمال باشا على هذه البلاد وتصرفه بها كما يريد من الاعمال الجبروتية التي كانت سبباً لضياع البلاد وتشتيت العباد في الجبال والقفار كما ذكرنا ذلك مفصلا في محله . والاخ الثاني زاهد افندي بن محمد آغا المذكور الشهير بحسن السيرة وطيب السريرة ومثال الوجاهة والغيرة لخدمة بلاده وهو والد الشاب المجاهد في سبيل استقلال بلاده صبري افندي من متخرجي معهد الحقوق بدمشق وقد استشهد عند نكبة دمشق الاخيرة فائق افندي بن محمد افندي بن علي آغا المذكور كان من خيرة شبان هذا العصر وقد تفرع من رجال هذا البيت اليوم جماعة كثيرون من اهل الادب والمظاهر الحسنة منهم المجاهد عبد اللطيف افندي بن علي آغا المتقدم الذكر ويوجد اسرة ثانية سكن رجالها في حي القنوات اشتهرت في هذا اللقب وتفرع منها جماعة من اهل الوجاهة والاخلاق الحسنة عرفنا منهم احمد افندي من موظفي عدلية دمشق وهو والد المحامي عبدالغني افندي

ومن الاسر القديمة الشهيرة في حي الميدان بنو الشملي وهم من قبيلة شمر من اشهر قبائل العرب ومن مشاهير رجالهم اعرابي عبدالغني آغا كان تولى محافظة الحج الشامي ومتسلمية دمشق في زمن الاتراك اشتهر بالثروة والمكانة وكرم الاخلاق له كلمة مطاعة عند العلماء والامراء مات سنة ١٢٥٠ وقد اعقب محمد آغا كان مثال الوجاهة مات سنة ١٢٨٥ وقد اعقب محي الدين آغا الشهير بالثروة والوجاهة مات سنة ١٣٢٥ ترك ذرية كبيرة اكبرهم سعيد آغا

ومن الاسر الشهيرة في دمشق بنو الادلبي . تقدم في كتابنا بعض مشاهير رجال الفضل فيهم وقد ادركنا منهم السيد علي افندي من وجهاء دمشق وهو والد روحي بك قائم مقام قضاء الزبداني اليوم ومن رجال الادارة المشهود له في المعرفة والاخلاق الحسنة تولى وظائف مهمة في زمن الحكومة التركية

وبعدها ومن مشاهير رجالهم ايضاً عمه شقيق والده احمد افندي كان عليه وعلى اخيه تولية اوقافهم في حوران ، ومن اركان رجال هذا البيت عزت افندي بن علي افندي بن عبد افندي من اعيان تجار بيروت ومانجستر وهو مثال الوجاهة والاخلاق الكريمة وقد اشتهر جدهم الشيخ محي الدين الادلبي احد العلماء الاعلام في القرن الثالث عشر وهم خيار من خيار ينتمون الى الامام عبدالقادر كما اخبرني بذلك احد اركان رجالهم ، وقد تفرع من رجال هذا البيت جماعة كثيرون من موظفي الاوقاف والعدلية وغيرها من دوائر الحكومة بارك الله بهم .

ومن الاسر القديمة في المجد والصلاح في دمشق بنو النحلاوي مشايخ الطريق الاحمدي وقد ذكر المرادي في تاريخه جدهم الشيخ احمد ووصفه بالعارف الخاشع الناسك انه بركة الشام ومصدر الطريق الخلوتي للخاص والعام كان مقيما في بادئ امره في المدرسة النورية ويقيم الذكر في مدرسة الخاتونيه عند المحكمة الشرعية المشهورة بالخاتونية الباقية الى اليوم وتعرف تلك البقعة بزقاق النحلاوي وقد هجرت تلك الزاوية والمدرسة وبقيت نسبا منسبا وقد تفرع من هذا البيت في عصرنا جماعة من اهل الوجاهة اختاروا العمل بالتجارة والصناعة ومنهم من رحل الى مصر و بقي بها وصار من خيرة تجارها وقد اجتمعنا بهم وعرفنا منهم السيد مصطفى وهو والد محمد افندي و بدوي افندي وعبد الوهاب افندي ومراد افندي وبقي اكثر رجالهم يتعاطون امور التجارة بدمشق وهم خيار من خيار سكنهم اليوم في حي القنوات ومن اقربائهم خليل افندي احد وجها دمشق ومن اعضاء مجلس الاوقاف اليوم وهو سبط هذا البيت ومن اقربائهم الشيخ سليم احد رجال العلم والتعليم بارك الله به

ومن الاسر القديمة بدمشق بنو القوادري وقد ذكر المؤرخون بعض مشاهير رجالهم واثنوا عليهم بخير وتقدم ذكرهم في كتابنا وقد تفرع من رجال هذا البيت جماعة كثيرون واكثرهم مهنتهم التجارة والفلاحة وقد رحل منهم جماعة الى ازمير يشتغلون في التجارة عرفنا منهم محمد افندي

ومن الاسر القديمة في دمشق بنو القاري تقدم ذكر جدهم الأكبر في كتابنا وانه مات سنة ١٠٤٦ وقد ذكر المرادي جدهم الاصغر عبدالرحمن افندي بن احمد افندي ووصفه انه من اعيان دمشق وصدورها وقد تفرع في عصرنا من رجال هـذا البيت جماعة كثيرون منهم من يشتغل في التجارة ومنهم في الزراعة والصناعة

ومن الاسر الشهيرة في دمشق بنو الفرا كان احد رجال هذا البيت قديماً يشتغل في صنعة الفروة على ماظهر لنا وقد تفرع من هذا البيت جماعة كثيرون في عصرنا يشتغلون في امور التجارة وهم من اهل الكمال والامانة ومن مشاهير رجال العلم والفضل فيهم الشيخ محمـد سعيد افندي كان من علماء دمشق وهو سبط الشيخ علاء الدين بن عابدين صاحب تكملة الحاشية الذي تقـدم ذكره في كتابنا مات سنة ١٣٤٥ وقد اعقب ذرية مباركة الارشد فيها سعدي افندي من خيرة تجار دمشق ومن مشاهيرهم الشيخ علي والشيخ ياسين من خيرة تجار دمشق والمدينة المنورة وهما شقيقا ابي الخير افنـدي الذي كان تولى رآسة بلدية دمشق في عهد الأتراك . واشتهر فيهم ايضاً محمد عارف افنـدي كان من التجار يحسن للفقراء وابناء السبيل مات سنة ١٣٤١ وترك من بعده ذرية نجيبة مهنتها التجارة

ومن الاسر الشهيرة في العلم ونشر الطريق النقشبندي الخالدي في دمشق بنو الخاني . تقدم في كتابنا تراجم مشاهير رجال العلم فيهم وانه اتى جدهم الاكبر لدمشق من خان شيخون وقد تفرع من رجال الفضل فيهم وادركناهم الشيخ احمد افندي والشيخ محمود افندي والشيخ عبدالله افندي بن الشيخ محمد الكبير احد مشايخ التكيـة النقشبندية في حي السويقة مات سنة ١٣٤١ وهو والد الشيخ سعيد افنـدي قاضي قضاء الزبداني اليوم وخالد بك وعبد الحميد بك وهما من امراء العسكرية ومن شبان هذا العصر الاذكياء . ومن مشاهير رجال الفضل والعلم فيهم اليوم الشيخ محي الدين افنـدي احمد

علماء دمشق ومن جهابذة اساتذة التعليم في المعارف ومن اصحاب التآليف النفيسة ومنهم الشيخ مصطفى افندي نائب القضاء الشرعي في مكة المكرمة ومنهم عبدالعزيز افندي مدير دائرة الاوقاف الاسلامية بدمشق ومن افاضل رجالها ومنهم الطبيب الشهير جميل افندي احد اساتذة رجال الطب في المعهد الطبي بدمشق

ومن الاسر التي تشتغل في الزراعة والتجارة بدمشق بنو الدقر . وقد ظهر من هذا البيت اليوم العالم الورع الصالح الشيخ علي افندي احد ناشري العلم والفضيلة في هذا العصر يعظ الناس ويرشدهم لاتباع سيرة سلفهم الصالح بالموعظة الحسنة تصدر للتدريس في جامع دمشق وجامع السنانية وجامع السادات وقد اقبل الناس عليه وانتفع منه خلق كثير . ومن رجال الفضل في هذا البيت ايضاً توفيق افندي احد مشاهير رجال الطب في دمشق واحمد افندي بن سليم افندي من اساتذة مدارس العلم في المعارف بدمشق

ومن الاسر التي تشتغل في التجارة وتستحق الذكر اليوم بنو الكسم اصلهم من حمص تفرع منهم جماعة كثيرون بدمشق يشتغلون في صناعة الصابون ومنهم كسم وقباني قد احدثا معملا لاخراج الاقمشة الوطنية ونسيج الحرير وقد ضاهى مصانع الغرب ويا حبذا لو اقتفى اثرهما بعض متمولي اغنياء دمشق وقد اشتهر اليوم من رجالهم العلامة الفقيه الشيخ عطاء الله الكسم بن ابراهيم افندي مفتي الديار الشامية انتهت اليه في هذه الايام رآسة العلماء اسس مجداً عظيما لرجال هذا البيت وقد نبغ ولده حسني افندي بالفضيلة والادب وهو محافظ دار الكتب الظاهرية في المجمع العلمي بدمشق اليوم

ومن الاسر التي تشتغل في التجارة والفلاحة وتستحق الذكر اليوم بنو سويد بدمشق اشتهر منهم في عصرنا العلامة النحرير والرحالة الشهير الشيخ امين بن محمد بن علي سويد تفرد في علم البحث والمناظرة والاصول في هذا العصر فاق على اقرانه بكثير من العلوم والفنون وله باع طويل في علم التصوف والفرائض والتوحيد وقد اختار الاقامة في القدس فاراً بدينه لما

ظهر بدمشق من البدع ووسد الامر لغير اهله وهو والد الشاب الاديب رشدي افندي من موظفي دائرة المالية بدمشق

ومن الاسر القديمة بدمشق ذرية القاضي تاج الدين المعروفة اليوم بني ايوب آغا ترك كثيراً من الاوقاف وتولى امرها بنو كيوان الشهير الذي تقدم ذكر بعض رجالهم في كتابنا . ومن متأخري مشاهير رجالهم ايضاً العالم الفقيه الشيخ نجيب بن حسين افندي كيوان احد مدرسي الجامع الاموي بدمشق وهو مثال الاخلاق الفاضلة والسيرة الحسنة بارك الله به وقد تفرع من كلتا الاسرتين جماعة كثيرون يشتغلون بالتجارة والفلاحة

ومن الاسر الشهيرة بالثروة والتجارة بنو الحلبوني اتى جدهم طالب احد زعماء حلب ومن موظفي حكومتها قدم دمشق وسكن في حي القيمرية واستملك اراضي للفلاحة في قرية حلبون ثم وقفها لهم ملجأ في الحي المذكور يأوي فقراؤهم اليه وانقطع ذلك بعد وفاته . وقد اعقب ولداً اسمه احمد اشتغل في التجارة وكان من اغوات تلك الحارة ثم ظهر ولده اديب افندي واشتغل بصناعة نسيج الاقمشة الشامية وارسالها الى البلاد التركية وآخر امره ارسل ولد اخته محمد افندي عبود المثري الشهير الى الاستانة وشاركه مع اولاده الثلاثة حسن افندي وطالب افندي وابي الخير افندي . ثم بعد وفاة والدهم ذهب الاكبر منهم وهو حسن افندي واستوطن بها مدة طويلة ثم اسس محلاً خاصاً له في بيروت ومكث بها مدة طويلة تزيد على ربع قرن اشتهر امره بها في عمل الخير وايواء ابناء السبيل وبنى مسجدين احدهما في حي الحرش والثاني قريب منه ووقف لهما ريعاً لاقامة الشعائر الدينية بهما وله اياد بيضاء مع اخوته لاتمام عمل الخط الحجازي باعاناتهم له المتواترة في عهد السلطان عبد الحميد وحين بلغه ذلك انعم عليهم جميعاً من الرتب اولاها ومن الاوسمة اعلاها وله مع اخوانه اعانة كبيرة لبناء قبة النسر في جامع دمشق عند حرقه الاخير وقد ذكرنا في باب المساجد عن الجامع الذي بناه حديثاً جانب داره الشهيرة وقصره اللطيف في بستان الاعجام في زقاق الملا وقد جاء هذا القصر من

مفاخر ابنية دمشق ووقف دارين ريعها لبقاء هذا المسجد خوفاً عليه من الاندثار من بعده مات سنة ١٣٤٢ وترك اربعة اولاد نجباء اكبرهم عارف افندي وهو رئيس غرفة التجارة بدمشق اليوم وعلي افندي وبشير افندي وغالب افندي واما الاخ الثاني طالب افندي مع انجاله الادباء فهمي افندي وشفيق افندي وولد ولده شوكت افندي فقد اختاروا الاقامة في مصر مع حمدي افندي ولد اخيه الثالث ابي الخير افندي واسسوا محلاً تجارياً اشتهر بالامانة والصدق في المعاملة وهم مثال الكمال والوجاهة في القطرين المصري والسوري

ومن الاسر التي ظهرت بالثروة الحديثة من ابناء دمشق بنو عبود اوجد هذه الثروة محمد افندي الذي ذهب الى الاستانة ضيقاً من امر المعيشة شارك اولاد خاله بني الحلبوني وكان ابوه آغة حي القيمرية يشتغل في انوال نسيج الاقمشة الشامية وقد فتح عليه الرزاق في التجارة وصار من اكبر تجارها ورئيسها وتقلد رتبة الوزارة وتقرب من الملوك والوزراء وبنى املاكاً كبيرة باعظم شوارع دار السلطنة منها خان عبود الشهير بها الى اليوم ، كان فطناً كريم الاخلاق يحب مجالسة العلماء والادباء له ميل لمطالعة اسفار التاريخ مات سنة ١٣٣٧ بها وترك ذرية كبيرة لم نعلم اسماءهم وله شقيق ايضاً اسمه احمد افندي اشتهر مثله في الثروة والوجاهة ورآسة التجار وهو من اصحاب الرتب العالية والاخلاق الحسنة مات قريباً من وفاة اخيه وترك ذرية نجيبة لم أعلم اسماء كل فرد منها .

ومن الاسر الشهيرة في دمشق بنو الهبل تفرع من هذا البيت جماعة كثيرون منهم من اشتغل في التجارة وفي الزراعة ومنهم في وظائف الحكومة استوطن منهم صهرنا عبد الجليل افندي في الاستانة اشتغل في اول امره مع خاله راغب افندي المالح احد اعيان التجار في التجارة ثم صار عضواً في مجلس المبايعات الخاصة الى السلطان عبد الحميد وتقلد وكالة املاك واشغال ابناء السلاطين ونال من الرتب والاوسمة اعلاها مات سنة ١٣٤٢ ومن مشاهير هذا البيت زاهد باشا احد امراء العسكرية المتقاعدين مثال الغيرة والشهامة ومن مشاهيرهم

عبداللطيف افندي من امراء العسكرية وهو والدالاديب صلاح الدين افندي وخرج منهم الصيدليان الكيماويان خليل افندي وحسني افندي وهما من خيرة شبان هذا العصر

ومن الاسر القديمة الشهيرة بالمجد والثروة بنو القدسي في دمشق ارومة هذا البيت في القدس الشريف تعرف بآل الحسيني تخرج من هذه الاسرة جماعة خدموا الشريعة الغراء وتقلدوا وظائف دينية في جامع دمشق رأيت حججهم في ايديهم وقل ان تجد حجة قديمة صدرت من احدى المحاكم الشرعية في دمشق الا ولهم امضاء فيها ومن مشاهير رجالهم الجامع لفروعهم عبدالرزاق افندي وهو والد ابراهيم افندي احد كتاب المحكمة الشرعية مات سنة ١٢٩٥ ومنهم سليم افندي بن محمد افندي تولى القضاء الشرعي في احد اقضية دمشق مات سنة ١٣٠٥ وله اخ اسمه عمر افندي كان احد كتاب المحكمة الكبرى مات سنة ١٣٠٨ وكان ابوهما رئيساً لكتاب محكمة القسام الشرعية مات سنة ١٢٧٥ ومن مشاهيرهم الذين اشتغلوا في التجارة عبد الفتاح افندي كان من اعيان التجار في الاستانة مات بها سنة ١٢٨٧ وله اخ اسمه سعيد افندي وهو من تجار دمشق مات سنة ١٢٩٤ وقد اعقب ولداً اسمه على اسم ابيه سعيد كان من وجهاء دمشق وصاحب السوق والبنك المشهور باسمه الى اليوم في العصرونية مات سنة ١٣١٧ ومن مشاهيرهم ايضاً محي الدين افندي وهو احد اعيان التجار تولى رآسة بلدية دمشق مات سنة ١٢٩٥ وهو والد عارف افندي كان تقلد رآسة بلدية دمشق وهو مثال الوجاهة والاخلاق الحسنه ومن مشاهيرهم ايضاً كمال افندي ابن علي افندي كان تولى رآسة بلدية دمشق ومات بها سنة ١٣٢٠ وهو والد الوجيه صبحي بك ومن مشاهيرهم توفيق افندي احد تجار الاستانة تولى رآسة محكمة الحقوق في جدة الحجاز ثم انتخب سنة ١٢٩٢ عن دمشق عضواً في مجلس الامة ذهبت ثروته العظيمة في لعب البرص ومات فقيراً سنة ١٣٣٩ ومن مشاهيرهم ايضاً شقيقه عبدالله افندي رحيمتا كان من تجار الاستانة ومات بها سنة ١٣١٥ وهو والد ابن الشقيقه محمد لطفي افندي احد تجار الاستانه

اليوم الشهير بالصدق والامانه ومن مشاهيرهم ايضاً امين افندي ابن محمد افندي ابن عبد الرزاق افندي المتقدم الذكر تقلد وظائف كثيره في دوائر المالية في زمن الحكومة التركية ثم اشتغل في آخر عهده في التجاره واختار الاقامة في بيروت وقد تفرع من هذا البيت جماعة كثيرون منهم التاجر والاديب والوجيه . وقد ظهر من هذه الاسرة اليوم السيد حسام الدين الذي تخصص في عصرنا في نشر الكتب النفيسة القديمة وطبعها مثل ذيل طبقات الحفاظ وشروط الائمة الخمس ودفع شبهة التشبيه وانتقاد المغني وغيرها من الكتب النفيسة

ومن الاسر الشهيرة في التجارة والثروة في دمشق بنو الكحالة يشتغل اكثر رجال هـذا البيت في التجارة واشتهروا في الصدق والامانة ومساعدة الفقير وعمل الخير وقد اسسوا معملا لعمل الاقمشة الحريرية وغيرها في حي المهاجرين يضاهي معامل الغرب وهي همة وطنية يشكرون عليها ومنهم اختار صنعة المحاماة وهو عبدالرؤف افندي ومنهم في التجارة وهم عبدالفتاح افندي ومحمود افندي ومصطفى افندي لهم يد كبيرة في اعمار جامع دمشق ولهما اولاد نجباء . ومن مشاهيرهم محمد راغب افندي ابو عارف الكحالة وهو من التجار . ويوجـد جماعة من بني الكحالة والدتهم من اسرة بني الادهمي من سلالة السلطان ابراهيم بن ادهم نبغ منهم نعيم بك تقلد وظائف العدلية ثم صار عضواً في مجلس الامة في الاستانة مات سنة ١٣٤١ وله اخ سعدي بك وهو احـد امراء العسكرية المتقاعدين وهو مثال الوجاهة والاخلاق الحسنة

ومن الاسر القديمة الشهيرة بالثروة والوجاهة في دمشق بنو مردم بك وهم ينتمون الى لالا مصطفى باشا صاحب الاوقاف والخيرات الشهيرة في فلسطين ودمشق وهو اعقب يحيى بك وهو اعقب مصطفى بك وهو اعقب عبدالرحمن بك الجد الجامع لافراد بني مردم بك المتفرعين منه والموجودين اليوم في دمشق وهو اعقب محمد بك وعبدالله بك وسعدالدين بك ومصطفى بك وقد

تفرع منهم جماعة كثيرون يصعب علينا ذكر كل بمفرده بل نأتي على ذكر مشاهيرهم فنقول : اما محمد بك فقد اعقب ولدين شهيرين احدهما علي بك احد اعيان دمشق ومن اعضاء مجلسها الكبير ومن اصحاب الرتب العلمية مات سنة ١٣٠٥ وهو اعقب حكمت باشا الشهير احد وجهاء دمشق ورؤسائها مات سنة ١٣٢٣ وهو اعقب سامي باشا كان احد رفقائنا في مجلس الولاية الكبير وفي زمن حكومة الاتراك انتخب عضواً عن دمشق في مجلس الامة في الاستانة ثم بعد الاحتلال انتخب عضواً في المجلس التمثيلي المنعقد في دمشق وهو والد الشاب الدكتور حيدر بك من متخرجي معاهد الحقوق في باريس واما الولد الثاني عثمان بك المثري احد وجهاء دمشق الذي كان من اسباب زيادة غناه بنائه السوق الجديد المعروف به اليوم في الجنينة التي اشتراها من بني المرادي بثمن بخس جانب داره في زقاق البوس عند باب البريد مات سنة ١٣٠٤ وقد اعقب خمسة اولاد وهم عبد القادر بك الشهير بالوجاهة والصفات الجميلة وهو والد الوطني جميل بك احد اعيان دمشق ومفكريها ومن فضلاء شبان هذا العصر المتعلمين الفنون العصرية تقلد مستشارية وزارة الخارجية عند ابتداء تشكيل الحكومة العربية بدمشق بعد ذهاب الاتراك واحد المجاهدين لنوال مطاليب البلاد وله اخوة نجباء اديب بك وعثمان بك ومحمد بك والثاني منهم عبد الله بك مات عقيماً والثالث احمد مختار بك كان رئيساً لبلدية دمشق ومن وجهائها ومن اصحاب الاخلاق المرضية وهو والد الاديب الشاعر النجيب خليل بك احد كتاب هذا العصر والرابع راشد باشا احد وجهاء دمشق كان تقلد عضوية مجلس الشورى الذي تأسس بعد ذهاب الاتراك في دمشق والخامس رضى بك وهو شاب نجيب مهذب مثال الوجاهة والكمال وقد مدح مشاهير رجال هـذا البيت الشاعران الهلالي والحزلوي المفتي الشهير في ديوانيهما . واما سعد الدين بك فقد اعقب اسعد بك وهو اعقب صالح بك والد بهجت بك احـد مأموري رجال العدلية في دمشق المشهود له في حسن السيرة والمعرفة

ومن الاسر القديمة في العلم والمجد بنو الفرفور تقلد منهم جماعة منصب قاضي القضاة بدمشق ومصر حين كانت فحول العلماء تخطب ذلك المقام وترغب الوصول اليه وذكر المؤرخون جماعة منهم خدموا الشريعة كابراً عن كابر وما ترك الاول للاخر اشتهر فضلهم وعم نفعهم كانت تهابهم الملوك والامراء . وقد تقدم في كتابنا تراجم مشاهير رجالهم وذكرنا محاسن اقوالهم وانهم ادركوا الدولة العثمانية وبلغني انه بقي من سلالتهم جماعة فقراء في حي العمارة مهنتهم الصناعة داهمهم الفقر والجهل ودرس هذا البيت كما درس غيره من بيوت العلم بانقراض رجال الفضل فيه وقد ذكر المحبي احد اجدادهم ووصفه بالشعر والبلاغة وذكر من شعره قوله :

اذا اراد الاله امراً قضاؤه في النفوذ مبرم

ومن الاسر التي يجدر ذكرها في التاريخ واشتهرت بالصلاح بنو الحبال وقد اسس مجدها الشيخ العابد المعمر سعيد بن عمر الشهير بالحبال الشافعي احد مشايخ دمشق المتقدمين يقصده الناس للاستخارة ويطلبون خير دعائه اشتهر فضله وعلا قدره والناظر اليه كأنه ينظر الى رجال صدر الاسلام تهرع اليه الامراء والعلماء والحكام حتى وصل خبره الى الملوك كان يميل الى التصوف والزهد وسلوك مسلك السلف من الصوفية بعيداً عن العجب والانانية ومخالطة الناس لايخرج من داره الا الى جامع دمشق حيث كان يصلي الفجر فيه اماماً وبقي على هذه الحالة من ايام شبابه الى يوم وفاته زاد عمره عن المائة وهو صائم الدهر يذهب في اكثر ايامه الى الحجاز مات سنة ١٣٢٦ وقد ترك جماعة من رجال هذا البيت يشتغلون في صنعة الحبالة

ومن الاسر الشهيرة في حي الميدان بنو الشيخ ضبيان شيخ الطريقة القادرية ابن يوسف بن عبدالعال بن محمد الحفيد بن محمد بن الشيخ محمود الشهير براعي الغزالة القادري الجيرودي ثم الدمشقي ولد سنة ١٢١٧ في جيرود من اعمال دمشق اخذ الطريق القادري من السيد محمد علي افندي الكيلاني شيخ السجادة القادرية بحماه وادرك الطبقة العالية من علماء دمشق

واخذ عنهم وهو المؤسس لمجد هـذا البيت ، كان شيخاً مباركا جليل القدر يعتقده الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم مشربه التصوف والعزلة يقصده الحكام والامراء يقيم الاذكار في داره في القبيبات ويكتب الحجب والرقية مات سنة ١٢٨٨ وقد اعقب صهرنا الشيخ شريف افنـدي الذي احيا ذكر ابيه من اقامة الذكر وقراءة الرقية على المرضى وكتابة الحجب يقصده الناس للشفاء ببركة مايتلوه عليهم من القرآن الكريم الذي هو شفاء ورحمـة كان مثال الفضيلة والوجاهة لازم كثيراً من علماء دمشق واخـذ عنهم وتخلف بالطريق عن والده مات سنة ١٣٤٦ وله من العمر مايقرب المائة وقد ترك من بعده ذرية نجيبة ارشدهم الشيخ محمد علي افندي احد قضاة الشرع في اقضية دمشق ومن شعرائها المشهود له في الفضيلة والادب واصغرهم محمـد اشرف ابن الشقيقة من موظفي العدلية بدمشق

ومن الاسر القديمة في دمشق بنو جبري اشتهر جد هذه الاسرة يوسف آغا جبري آغة اليرلية بدمشق ذكره المرادي في تاريخه وذكر الوقعـة المشهورة التي وقعت بينه وبين الشيخ سليمان المحاسني نائب المحكمة الشرعية وخطيب الجامع الاموي ومدرسه حين دخلت العساكر المصرية الى دمشق واخذتها نسب اليه المحاسني انه خان الدولة وارتشى من رئيس العسـكر الامير محمد وكان الامر بخلاف ذلك فبعد تمهيد الامور وعودة دمشق الى الدولة التركية حصل للمحاسني رعب شديد من يوسف آغا المذكور وتحقق اذاه وما مضى مدة قليلة الا وغضب والي دمشق الوزير عثمان باشا على يوسف آغا وخنقه في قلعة دمشق وضبط ماله لطرف الدولة وقد الف المحاسني في حقه رسالة سماها البغي والتجري في ظهور ابن جبري وذكر فيها ترجمتـه واحواله واعماله لولا الاطالة لذكرناها برمتها . ومن مشاهير رجال العلم والفضيلة في هذا البيت الشيخ سليم ابن عثمان جبري الحنفي اشتغل في العلم واجازه العلماء حتى تصدر للتدريس في الجامع الاموي ثم تولى نيابة التركية في المحكمة الشرعية ثم رحل لدار السلطنة وتقلد القضاء الشرعي في اقضية

دمشق وبيروت . كان فقيهاً فاضلا محبوباً عند العلماء والامراء لأنس مجلسه ولطافة حديثه مات بعد خروج الاتراك سنة ١٣٣٨ وله اخ مقيم في بيروت اسمه محي الدين افندي وهو من تجارها . ومن تجار رجال هذا البيت ايضاً درويش افندي وهو والد الشاعر الكاتب الشهير شفيق بك رئيس ديوان وزارة المعارف وصاحب القصيدة المشهورة التي خاطب بها ملك الحجاز الشريف حسين بن علي بعد استيلاء سلطان نجد الامام عبد العزيز آل السعود على مكة مطلعها :

ماذا جنيت فانت اليوم مسلوب   تاج الملوك وانت اليوم مغلوب

وله غيرها من الشعر اللطيف الذي امتاز به في هذا العصر على اقرانه واكثر رجال هذا البيت يشتغلون في التجارة بين دمشق والحجاز منهم سامي افندي بن سعيد افندي صاحب الدار الشهيرة في حي القيمرية التي فيها قاعة نفيسة تعد من آثار دمشق الشهيرة . ومن تجار رجال هذا البيت ايضاً طلعت افندي بن نعمان افندي وتوفيق افندي بن راغب افندي . وقد ارخ وفاة جدهم العلامة محمود الحمزاوي مفتي دمشق في ديوانه بقوله بعد ابيات طويلة :

تاريخ زاه باسم   عثمان جبري في النعيم

ومن الاسر القديمة الشهيرة في الديار الشامية آل الجندلي نقل الوتري في كتابه مناقب الصالحين والصفدي في تراجم اعيان العصر وسراج الدين في صحاح الاخبار والقرماني في تاريخه وذكروا جميعهم السيد جندل بن احمد ابن شمس الدين محمد سبط الرفاعي انه كانت وفاته سنة ٦٧٥ هـ بقرية منين من اعمال دمشق بزاويته المشهورة به وكان على جانب عظيم في علم التوحيد مقتفياً آثار السلف وله ذرية بدمشق وحمص اشتهر منهم السيد مصطفى افندي الجندلي نقيب اشراف ازمير الذي ذهب اليها لاجل التجارة ومات هناك وترك من بعده ذرية كبيرة يشتغلون في التجارة وهم من اعيان تلك البلاد اليوم وقد جاء في كتابنا ذكر مشاهير رجال الفضل منهم في حمص

ومن الاسر القديمة بدمشق بنو الكناني : تفرع من هذا البيت جماعة اعلام

منهم محمد بن ابراهيم بن سعدالله بن جماعة الامام العالم قاضي القضاة بدر الدين ابو عبدالله الكناني الحموي الشافعي ولد بحماة سنة تسع وثلاثين وستمائة ذكر الصفدي انه مات بمصر ومنهم عبد العزيز الكناني صاحب التاريخ الشهير . وقد ادركنا في عصرنا الشيخ مصطفى الكناني الصالحي الدمشقي كان من اهل الجذب تعتقده الناس . مسكن رجال هذا البيت في صالحية دمشق منهم المزارع والتاجر والصانع وقد طرأ على رجال الفضل فيهم ماطرأ على غيرهم من الانقراض ولهذا البيت جماعة كثيرون في القدس ونابلس منهم خطباء المسجد الاقصى عرفنا منهم بدمشق ذكي افندي من مستخدمي العسكرية في الدرك ويوسف افندي من موظفي البرق والبريد وهما ابنا محيي الدين افندي بن الشيخ عبدالكريم خطيب المسجد الاقصى .

ومن الاسر القديمة بدمشق بنو الجعفري ذكر المرادي في تاريخه احد مشاهير رجالهم سعيد افندي ووصفه بالعلم والفضل وانه كان من مشايخه ومن مشاهير رجالهم ايضاً عبد الفتاح افندي وولده سعيد افندي الذي مات سنة ١٢٥١ توليا نيابات المحاكم الشرعية مع قضاء الشافعية وقد ادركنا احد احفادهم عبد الفتاح افندي وهو والد الفاضل اسماعيل افندي قاضي النبك اليوم واحمد افندي من موظفي رجال العدلية ومن اسباط رجال هذا البيت الطبيب الحاذق اديب افندي الجعفري الشهير والاختصاصي بالامراض الداخلية .

ومن الاسر التي اشتهرت في التجارة في دار السلطنة ودمشق وحلب بنو الجوبجاتي وقد عرفنا منهم سعيد افندي من تجار الاستانة وله ذرية هناك ونوري افندي واخيه وحيد افندي كان من تجار دمشق ومن اصحاب الاخلاق الحسنة وهو والد الشيخ ياسين من اهل الفضل وحفظة القرآن

ومن الاسر القديمة في دمشق بنو الترزي وقد ذكر المرادي جدهم مصطفى ابن احمد باشا ووصفه بالشعر والفلسفة والطب تقدم ذكره في كتابنا تولى احمد باشا امارة اللجان كما ذكر ذلك حلة الاخبار . ومن متأخري مشاهير رجال

هذا البيت ياسين افندي مات سنة ١٣٢٥ وهو والد صديقنا امين افندي احد مشاهير اعيان دمشق تولى كثيراً من الوظائف الادارية ثم تقلد متصرفية اليمن ووضع على رأسه العمامة كما هي قاعدة جميع المأمورين في تلك الاصقاع ورافقناه في عضوية مجلس الولاية ثم انتخب عضواً عن دمشق في مجلس الامة في الاستانة بعد اعلان الدستور كان مثال الوجاهة والاخلاق الحسنة مات سنة ١٣٤١ وقد اعقب ذرية نجيبة منهم رشدي افندي الطبيب وهو من اسباط العارف النابلسي وقد تفرع من رجال هذا البيت جماعة من اهل الوجاهة والادب بارك الله بهم

ومن الاسر القديمة في دمشق بنو الدكدك وقد ذكر المرادي جدهم ابراهيم بن محمد الدكدك الحنفي التركماني الاصل الدمشقي المولد ارخ ميلاده العارف النابلسي ووصف بلاغته في المعاني والبيان والنحو وذكر والده ايضاً واثنى عليه بخير وقد ادركنا من متأخري هذا البيت مصطفى افندي الدكدك كان عضواً في مجلس المعارف الكبير في الاستانة مات بها سنة ١٣١٥

ومن الاسر الشهيرة في حي الاكراد بدمشق بنو اجليقين، من مشاهير رجالهم محمود باشا كان محافظ الحج الشامي واميره انتخب لهذه الوظيفة من قبل الدولة العثمانية بعد ان كانت ضمن وظائف ولاة دمشق مات سنة ١٢٨٦ وقد اعقب ذرية كبيرة ارشدهم احمد بك كان تولى قائم مقامية القنيطرة ثم مديرية الشرطة بدمشق وانجب ذرية كبيرة مات سنة ١٣٤١

ومن الاسر الشهيرة في حي الاكراد ايضاً اسرة بوظو ومن مشاهير رجالهم الذين ادركناهم محمود باشا تقلد في زمن الدولة العثمانية كثيراً من الوظائف الملكية كان من اعيانهم ومن اهل المظاهر الحسنة مات ١٣٤١ وقد اعقب اولاداً نجباء ومن مشاهيرهم ايضاً صالح بك ومحي الدين بك وهما من اهل الوجاهة والاخلاق الحسنة وترك كل منهما ذرية نجيبة .

ومن الاسر القديمة في صالحية دمشق بنو الاكرمي ذكر المحبي والمرادي بعض مشاهير رجال هذا البيت وانهم اشتهروا بالشعر وعليهم خدمة تربة

العارف الشهير ابن العربي الاندلسي وقد ادركنا من رجالهم الشيخ سليماً كان من حفظة القرآن ويحفظ كثيراً من ابحاث الفتوحات المكية مات سنة ١٣٣٧ واعقب ولداً نجيباً قائداً في العسكرية اسمه سعيد افندي ومن شعر جدهم الشيخ ابراهيم الاكرمي من قصيدة طويلة يمدح بها الصالحية ودمشق مطلعها

الصالحية جنة من تحتها الانهار تجري

ومن الاسر الشهيرة في صالحية دمشق بنو المحملجي كان عليهم وظيفة تلبيس كسوة المحمل الشامي في كل سنة من قبل الدولة العثمانية لذلك اشتهروا بهذا اللقب وقد استحقوا الذكر في التاريخ لانه ظهر منهم الشيخ عارف بن محي الدين احد شعراء هذا العصر ومن افاضل رجال العلم والحديث تخرج على شيخه الخاص خاتمة المحدثين العلامة الشيخ السيد بدر الدين الشهير مات في عنفوان شبابه سنة ١٣٣٥ وله مدائح كبيرة في الحضرة النبوية شهيرة مستعملة يقرؤها الناس كان شديد الورع والصدق في القول نادرة اقرانه في الكد والجد بتلقي العلوم الشرعية والعربية وحفظ الحديث واكثر رجال هذا البيت يشتغلون بالصناعة

ومن الاسر القديمة الشهيرة في صالحية دمشق بنو السقطي قد تقدم في كتابنا نقل ما كتبه المحبي والمرادي وغيرهما من المؤرخين في تراجم مشاهير رجالهم في القرون السالفة والذي ادركناه من مشاهير رجالهم الشيخ عبد المجيد افندي بن عبد الرزاق افندي كان مثال الفضيلة والوجاهة يحب قضاء حوائج الناس يرجع اليه اهل حيه في مهام الامور ويقصدونه في حل المشكلات توكل عن شيخه المنيني مفتي دمشق تولية اوقاف المدارس التي كانت تحت اشرافه مات سنة ١٣١٨ وقد اعقب عبد الرزاق افندي محاسب دائرة الاوقاف بدمشق سابقاً وعبدالله افندي امين صندوق دائرة الخط الحجازي بدمشق وهما خيار من خيار

ومن الاسر الشهيرة في حي الاكراد وبدمشق بنو الايبش وقد ادركنا

منهم احمد بيك وهو مثال الوجاهة والاخلاق الحسنة يشتغلون في تجارة الخيل بين مصر ودمشق وفي كلا القطرين له مكانة زائدة لدى الحكام والامراء وقد اجتمعنا به في مصر واخبرنا انه اختار الاقامة بها وله اولاد نجباء عرفنا منهم حسين بك احد اعضاء المجلس التمثيلي التي امرت بتشكيله السلطة المنتدبة بعد ذهاب الاتراك

ومن الاسر الشهيرة في الوجاهة في حي الاكراد و بدمشق بنو شمدين وهو مؤسس مجد هذا البيت وزعيمه الذي مات في حادثة ستين الشهيرة كان صاحب ثروة عظيمة وسطوة كبيرة عند عشيرته وقومه وله مواقف عظيمة بالمدافعة عن دمشق ايام براهيم باشا خديوي مصر وقد شكره على عمله في ذاك العصر السلطان عبد المجيد وقد اعقب ستة اولاد عبدالله اغا وسعيد باشا احد اعيان دمشق وصدر صدورها وامير الحج الشامي وهو المجدد لمجد هذا البيت مات عقيما سنة ١٣١٩ وترك ثروته الكبيرة وداره الشهيرة الى سبطه عبدالرحمن باشا اليوسف المتقدم الذكر والاخ الثالث خالد اغا احد اعيان الاكراد مات سنة ١٣٢٧ وهو والد رشيد اغا احد امراء العسكرية وعجاج اغا الشهير بالوجاهة والفضيلة له ولع بمطالعة اسفار التاريخ مات سنة ١٣٣٠ وقد اعقب عمر اغا الشاب النجيب احد اعضاء المجلس البلدي في دمشق اليوم والرابع رجب اغا والخامس حسن اغا صاحب الخدمات الحسنة المعروفة بدمشق

ومن الاسر الشهيرة في حي الصالحية ودمشق بنو النكريتي تقدم في كتابنا ذكر بعض مشاهير رجال العلم منهم في الاعصر السالفة وبينا قدمهم في هذه البلاد ومن مشاهير رجال هذا البيت اليوم الشيخ امين واخوه الشيخ علي ابناء الشيخ محمد المتقدم الذكر وهما من اهل الفضيلة والعلم ومن وجهاء ذلك الحي ومن وجهاء رجال هذا البيت ايضاً داود افندي محاسب دائرة امارة الحج الشامي مات سنة ١٣٣١ وقد اعقب اولاداً نجباء اكبرهم رضي افندي من موظفي مالية دمشق والثاني الطبيب الحاذق وجيه افندي والثالث احسان

افندي الصيدلي الشهير وقد خرج من هذا البيت ايضاً جماعة كثيرون يشتغلون في التجارة في مصر وسورية .

ومن الاسر التي اشتهرت في دمشق بالتجارة آل هاشم العبجي وقد اشتهر من رجال هذا البيت في عمل الخير وايواء ابناء السبيل واسعاف الفقير الحاج راغب وهو والد محمد واحمد وهاشم والحاج حسن والد مصطفى وعمر وعلي ومحمد وقد تفرع من رجال هذا البيت جماعة استوطنوا في مكة واشتهروا في الوجاهة والتجارة بها وقد تركوا من بعدهم ذرية كبيرة بارك الله بهم .

ومن الاسر الشهيرة في الصناعة بنو الحموي بدمشق اشتهر اكثر رجال هذا البيت في صناعات كثيرة ورثوها عن آبائهم واجدادهم وقد ظهر من رجالهم في عصرنا الحاج عبد الغني وهو الذي صنع الآلة الكبيرة لجر عواميد الجامع الاموي من جبل المزة الى دمشق ووضعها في الجامع وبذلك استحق ثناء اهل الفن من المعماريين والمهندسين ولم تزل هذه الآلة الى اليوم موجودة في جامع دمشق .

ومن الاسر التي اشتهرت بدمشق ومصر في فن صناعة الفسيفساء والعجمي القديم والحديث ورسم القيشاني بنو الحاج محمد ابو نجيب الدهان وقد ترك ولدين درويش ومحمد وهما من مشاهير رجال الصناعة في هذا العصر .

ومن الاسر التي تستحق الذكر اليوم بنو علايا في حي باب السريجة بدمشق وهم كثيرون يشتغل اكثرهم في الزراعة والصناعة ظهر منهم في عصرنا الشيخ يوسف احد علماء بيروت هاجر اليها وكان مستخدماً في امانة الفتوى بها واستاذاً في كثير من مدارسها العالية وهو والد الفاضل الشيخ محمد افندي من موظفي المحكمة الشرعية بها .

ومن الاسر التي تستحق الذكر بالتاريخ في هذا العصر بيت تحسين باشا الفقير مسكن اسرته في حي الشاغور بدمشق ظهر من بين رجال هذا البيت وجد واجتهد في المكاتب العالية الى ان تقلد قيادة الجيش العثماني ثم بعد ذهاب

الاتراك من البلاد العربية تولى امارة جيش ملك الحجاز السابق الشريف علي بن الحسين وهو مثال الاخلاق الحسنة والشهامة العربية .

وممن يستحق الذكر ايضاً الشيخ عبد الرحمن القصار ظهر من بين اسرة اشتغل اكثر رجالها في الصناعة والتجارة اشتهر في الفضيلة والشعر والادب

ومن الاسر الشهيرة في الزراعـة والوجاهة آل الكرد علي بدمشق يقولون ان اصلهم من الكرد . وقد ادركنا منهم عبدالرزاق افندي كان من اهل الوجاهة والاخلاق الحسنة وهو والد المؤرخ الكاتب الشهير محمد افندي صاحب خطط الشام ورئيس المجمع العلمي بدمشق ووزير المعارف اليوم واحمد افندي الكاتب الشهير الذي كان يرأس تحرير جريدة المقتبس اليومية التي تصدر في دمشق المشهود له في خدماته الجليلة عن هذه البلاد ونيل استقلالها مات سنة ١٣٤٦ ثم تولاها بعده اخوه الاصغر الفاضل الاديب عادل افندي مقتفي أثر اخوانه لخدمة هذه البلاد وتقدمها ولهم اخ اسمه محمود افندي اختار الاقامة في مصر . ومن ابناء عمهم محيي الدين افندي كرد علي كان يشتغل في صنعة الخياطة ويؤذن في جامع دمشق

ومن الاسر الشهيرة في الوجاهـة والتجارة آل الشهبندر بدمشق ادركنا منهم صالح افندي من اعيان التجار ومن اهـل الوجاهة والوقار وهو والد الدكتور زعيم سورية الشهير عبدالرحمن افندي الذي جاهد وسعى وترك ثمرة اقتناء تحصيله في السعي وراء استقلال بلاده وحفظ سيادة قوميتها من تسلط كل يد غريبة عنها وقد تفرع من هذا البيت جماعة من اهل الوجاهة والكمال منهم احمد آغا بن عبدالقادر آغا وهو والد الدكتور عبدالغني افندي من مشاهير اطباء بيروت وادبائها وصبحي افندي من موظفي البرق والبريد وقد اشتهر منهم ايضاً سعيد افندي كان من اعيان دمشق ورئيس المالية بها مات عقيماً سنة ١٣٢٧ وترك من بعده ثروة كبيرة وله اخ اسمه اسماعيل افندي كان متخصصاً في فن الهندسة والمهار وهو والد حمـدي بك من موظفي حكومة

دمشق واشتهرا في لقب خالها سليمان افنـدي الجعفري البنا ابني وهو والد ثروت افندي احد محامي دمشق

ومن الذين استوطنوا دمشق واوجب ذكرهم في تاريخها القانوني الشهير والشاعر الكبير مصباح بك محرم نزيل الفيحاء ظهر من بن اسرة قديمـة عريقة في المجد والادب في بيروت ، شغل كثيراً من وظائف العدلية وهو من قدماء رجالها حتى اصبح في عصرنا قاموس القوانين وشيخ الحقوقيين تقلد رآسة محاكم الاستئناف الحقوقية والجزائية الى ان تولى رآسة محكمة التمييز وعين استاذاً في معهد الحقوق وقد انتفع منه كثير من افاضل هـذا العصر امتاز على اقرانه في سداد الرأي والحزم والعزم والصدق والامانة في جميع اقواله واحكامه وهو تمثال العدل والانصاف عرف باقتداره للاخذ بيد المظلوم له آثار نفيسة في علم الحقوق ومدائح كثيرة في الحضرة المصطفوية وقد اطلعت على قصيدة من شعره اللطيف مدح بهـا جلالة ملك الفرس الجديد احمد رضا خان بهلوي بمناسبة ماقام به من الاهتمام برفع شأن العالم الاسلامي والمسألة الشرقية وجامعتها حين تولى سلطنـة دولة ايران المعظمة نقتطف منها قوله :

فرح الناس ببشراه وقد   جبر الله بها القلب الكسير
كافأ الله الامير البهلوي   وارتضى الله رضاً شاهاً نصير

ومن الاسر الشهيرة في التجارة آل الجلاد بدمشق . وقـد ادركنا من اهل الوجاهة فهيم محمـد افندي كان من اعيان التجار وقد اعقب ولدين اكبرهما انيس افنـدي اشتهر في التجارة والصلاح والامانة مات سنة ١٣٤٦ وهو والد عزت افندي وصبحي افندي وهما من خيرة التجار في دمشق ومارسيليا والولد الثاني حمدي بك الذي كان مديراً لشرطة دمشق بعد ان تولى وظائف ملكية كثيرة في عهد الاتراك وقد استوطن منهم جماعة يشتغلون في التجارة في ازمير ودار السلطنة اشتهر منهم ابن عمتنا الحاج محمود افندي المشهود له في مكارم الاخلاق مات عقيما سنة ١٣٤٧

ومن الاسر التي اتت دمشق واستوطنت بها الجديرة بالذكر لما لها من الفضيلة والادب بيت العالم الشهير الشيخ سعيد افندي الكرمي من علماء فلسطين الذي حكم عليهم بالنفي المؤبد في اواخر حكم الاتراك لهذه البلاد وعند انتهاء الحرب العامة عين من قبل حكومة دمشق عضواً في مجلس الشورى ثم تولى قاضي القضاة في امارة شرقي الاردن وهو والد فقيد الادب احمد شاكر الذي مات بدمشق عند طبع هذا الكتاب كان نابغة من نوابغ هذا العصر ومفخرة من مفاخر الادب وقد حفظت له دمشق ذكر تاريخ حياته الادبية واجتهاده الفكري الذي كان يجهر به في مجلته الميزان وكتاباته في الصحف

ومنهم بنو المدور تقدم ذكر احد رجالهم الشيخ قاسم عند تراجم مشاهير رجال الفضل بدمشق وقد عرفنا منهم ايضاً عبد الكريم افندي من تجار اسكندرية وربما لهم صلة بالقرابة مع اسرة بني المدور في بيروت وهم من اهل الوجاهة والفضيلة والادب عرفنا منهم الاخوين منير بك معاون والي حلب اليوم وطه بك صاحب جريدة الرأي العام اليومية التي تصدر في دمشق وهو من مشاهير الكتاب الادباء

ومن الذين قدموا دمشق ويستحقون الذكر احمد نائلي افندي من مشاهير رجال القفقاس وهو من اسرة عريقة في المجد والسؤدد في تلك البلاد وقد تقلد وظائف هامة في ادارة شئون البلاد اظهر فيها كمال الاستقامة والدراية مات سنة ١٣٣٥ وهو والد صديقنا الفاضل القانوني غالب بك احد مشاهير رجال الادارة ومن اعضاء مجلس الشورى اليوم

ومن الاسر التي تستحق الذكر آل بابيل . اكثر رجال هذا البيت يشتغلون في التجارة والصناعة . ظهر منهم في عصرنا الكاتب المجيد الشاب الاديب نصوح افندي بن الحاج عبد القادر وقد اجتاز مرحلة طويلة في عالم الصحافة والادب

ومن البيوتات التي اشتهرت في التجارة بين دمشق والاستانة بنو الرهونجي وقد صاهر نا منهم رشيد افندي الذي مات بها واعقب ذرية كبيرة منهم صادق

بك وعارف بك وصبحي بك وممن اشتهر من هذا البيت محمد افندي والد زاهد افندي احد تجار الدقيق بدمشق ومنهم سليم افندي المتوفى سنة ١٣٢٣ وهو والد عبد القادر افندي ورسلان افندي وولده شوكت بك وهما مقيمين في الاستانة ومن تجارها اليوم

ومن اقربائهم آل صدقي عرفنا منهم المرحوم عبدالله افندي صدقي مأمور التحقيقات الاوليــة في دائرة شرطة دمشق المشهور بالرهونجي ايضاً عن طريق والدته وهو والد فوزي افندي صدقي احد ادباء دمشق ومن نابغي فن الطباعة الحرفية فيها .

ومن الاسر التي اشتهرت بدمشق بالتجارة والاعمال الخيرية آل بيضون وقد تفرع من هــذا البيت جماعة كثيرون في بيروت وعكا ودمشق ومن مشاهير رجال هذا البيت الحاج يوسف افندي كان من اعيان التجار واشتهر في عمل البر والاحسان وهو الذي اسس مدرستي الاناث والذكور في حي الخراب يتعلم فيهما ابناء الفقراء والاغنياء على السواء وقــد اسسهما من ماله الخاص وصرف عليها ثلاثة آلاف ليرة عثمانية ووقف لهما مرتباً في كل سنة ثلاثين ليرة ذهبية وهــذه واحدة من كثير من صدقاته الجارية وله خدمات مبرورة لاعمار القبور المندرسة من آل البيت الكرام وقــد مات في بيروت حين طبع هذا الكتاب واستحق الذكر الخالد في التاريخ ليقتدي به اهل اليسار وقد ترك ذرية كبيرة نجيبة وهم محمد افنــدى وحمزه افندى ورشيد افندى بلغني انهم من خيرة التجار المشهود لهم بالامانة وحسن الاخــلاق وفقهم الله لاقتفاء اثر والدهم . وقد ظهر من رجال هذا البيت السيد وجيه صاحب مطبعة ابن زيدون بدمشق وهو من الكتاب الادباء في هذا العصر

ومن الاسر الشهيرة بدمشق بنو تمر اشتهر منهم قديماً حسن اغا كتخدا يوسف باشا حاكم دمشق واشتهر ايضاً بعده اسماعيل اغا امير الاي مركز دمشق في الحكومة العثمانية وهما من رجال القرن الحادي عشر والثاني عشر وقد اشتهر في عصرنا من رجال هذا البيت مصطفى بك رئيس مفتشي وزارة المعارف بدمشق اليوم وهو مثال الفضل والغيرة لخدمة البلاد وبنيها المشهود له

بالمعرفة التامة لنشر المعارف وقد انتفع منه كثير من افاضل هذا العصر .

ومن الاسر بدمشق التي تستحق الذكر اليوم آل شيخ السروجية نبغ في هذا البيت عز الدين افندي علم الدين احد شعراء هذا العصر الذي امتاز على اقرانه في اللغة والادب وله آثار كثيرة انتشرت حديثاً في دمشق وبغداد . وقد انجب هذا البيت جماعة من امراء العسكرية في عهد الدولة التركية وكثير منهم يشتغل في صنعتهم في سوق السروجية

ومن الاسر الشهيرة بدمشق بنو القطب ذكر المرادي في تاريخه جدهم محمد بن احمد الحافظ المقرئ على العشرة في علم القراءة وانه كان يحترف العطارة في حانوته بمحلة القيمرية قرب مدرسة الفتحية وقد تفرع من هذا البيت جماعة كثيرون يشتغلون في التجارة وهم من اهل الكمال والامانة عرفنا منهم صالح أفندي كان من خيرة التجار قد اعقب ولدين الحافظ على العشرة المقرئ الشهير الشيخ محمد كان جهوري الصوت لطيف الالحان كفيف البصر مات سنة ١٣٤٦ وقد ترك صادق افندي من تجار مصر اليوم وياسين افندي من تجار دمشق والولد الثاني السيد اديب افندي وهو شريف النسب من جهة والدته ومن خيرة تجار دمشق . ومن اقربائهم سعيد افندي ابن محمد افندي من تجار دمشق كان من اهل الوجاهة والامانة في باب البريد وقد ترك من بعده ذرية كبيرة ارشدهم علي افندي

ومن الاسر الشهيرة في العلم والتجارة بدمشق بنو البزرة اتى جدهم من صيدا ولهم فرع كبير هناك وهم من اهل الفضيلة والكمال . ذكر المرادي في تاريخه احد اجدادهم الشيخ رافع بن عبد الرحمن بن احمد بن عبدالله الصيداوي ثم الدمشقي الشهير بابن البزرة العالم الاوحد في عصره مات سنة ١١٩٦ وقد تقدم ذكره في كتابنا ولهم شرف نسبة الاسباط الى بني تقي الدين الحصني وغيرهم من السادة الاشراف وقد عرفنا من متأخري رجالهم الشيخ محمد شيخ الطريق الخلوتي كان يرأس حلقة الذكر في كل يوم في جامع دمشق بعد صلاة الفجر كان معتقداً مات سنة ١٣١٥ وتفرع منهم جماعة كثيرون

يشتغلون في تجارة صنع الحلويات السكرية في سوق البزورية عرفنا منهم الشيخ سليم بن السيد سعيد من رؤساء مؤذني الجامع الاموي

ومن بيوتات دمشق المعروفة آل شيخ الارض . يشتغل اكثر رجال هذا البيت في المهن الحرة كالتجارة والزراعة والطبابة وقد عرفنا منهم محمد علي كان تولى القضاء الشرعي مات سنة ١٣٢٢ وهو والد الفاضل الشيخ فائق افندي قاضي الزوية اليوم ومنهم الحاج محمود المتوفى سنة ١٣٢٠ وقد اعقب زكي افندي من وجهاء دمشق ومن رجال الادارة في ديوان العسكرية في زمن الاتراك وهو والد الطبيب منير افندي الذي تلقى علم الطب في جامعة جنيف ومن نبغاء رجال هذا الفن والصحافي الاديب عادل افندي احد صاحبي جريدة فتى العرب اليومية التي تصدر بدمشق وصلاح الدين افندي من طلاب مدارس الهندسة في جامعة باريس ونبيه افندي الحائز على شهادة الجامعة العلمانية بدمشق

ومن مشاهيرهم مدحت أفندي بن الحاج رفعت وهو اليوم الطبيب الخاص لجلالة عبد العزيز السعود ملك الحجاز ونجد ومنهم جودت افندي بن الحاج سعيد احد اعضاء محاكم العدلية بدمشق

ومن البيوتات المعروفة ايضاً آل يعقوب سكنهم في حي سوق ساروجة ، وقد عرفنا منهم منير افنــدي كان تولى رآسة بلدية دمشق ومن مشاهيرهم يحيى افندي حاكم الصلح في قضاء الزبداني وهو والد الشاب الاديب محمد علي افندي من متخرجي معهد الحقوق بدمشق

ومن الاسر القديمة بدمشق بنو الكيال ، خرج من هذا البيت كثير من العلماء والوعاظ والمدرسين ونوه المحبي في تاريخه بجدهم شمس الدين محمد واثنى عليه بخير وقال ان اصلهم من حلب وتفرع من رجال هــذا البيت جماعة يشتغلون في التجارة والصناعة ظهر منهم اليوم الطبيب الفاضل جودت افندي احد مشاهير رجال الطب في دمشق وقد عرفنا من مشاهيرهم في حلب الطبيب

الشهير عبدالرحمن بك الكيالي احد اعيانها ومفكريها المجاهد في سبيل نيل مطاليب البلاد وامانيها وجماعتهم هناك كثيرون بارك الله بهم

ومن الاسر القديمة بنو سوار العاتكي . اشتهر رجال هذا البيت في الاعصر السالفة بمشيخة المحيا بدمشق وتقدم ذكر اكثرهم في كتابنا واثنى عليهم المحبي والمرادي وابن طولون وذكروا انهم بيت علم وصلاح وبقي من ذريتهم جماعة يشتغلون في التجارة والصناعة في حيهم قبر عاتكة عرفنا منهم الشيخ رضى له دكانة في حي باب الجابية

ومن الاسر القديمة الشهيرة بدمشق بنو الصواف . تقدم في القرن العاشر من كتابنا ذكر احد اجدادهم السيد تاج الدين عبدالوهاب الصواف الدمشقي الشافعي الشريف المقري . قال ابن طولون المؤرخ الدمشقي الشهير سمع معي بمكة على محدثها الشيخ عزالدين وقت الحج وبدمشق على مؤرخها القاضي محي الدين النعيمي وقد تفرع من هذا البيت جماعة كثيرون يشتغلون في التجارة بين مصر والحجاز ومنهم من يشتغل في الزراعة وقد اشتهر من رجالهم السيد محمد عارف بن محي الدين افندي مات سنة ١٢٩٨ كان شديد العطف على ايواء المساكين وابناء السبيل يوزع في كل سنة من الاقمشة الدمشقية على الفقراء بمبلغ كبير تسر به القلوب يسكن في حي القيمرية وهو من اعيان التجار وقد اعقب ذرية نجيبة هم يحيى افندي تقلد رآسة بلدية دمشق وعضوية مجلس الشورى بعد ذهاب الاتراك وكان في زمنهم عضواً في المجلس البلدي واحمد افندي من تجار دمشق وعبدالرؤف افندي من وجهائها . والشيخ عبد الله كان من حفظة القرآن ومن رجال العلم مات سنة ١٣٢٤ ومن مشاهيرهم صادق افندي وعبدالغني افندي من تجار بيروت

ومن الاسر الشهيرة في الوجاهة والتجارة بدمشق آل الخجا وقد نقل لي بعضهم انهم اتوا دمشق من مكة ويعرف جدهم عبد الباقي الشوكة واشتهروا بهذا اللقب لان سكنهم كان في حي الشوبكة المعروف في مكة الى اليوم ثم تبدل لقبهم بالخجا وهم جماعة كثيرون يشتغلون في التجارة اشتهر منهم رشيد

افندي مات سنة ١٢٩٢ وقد اعقب اربعة اولاد وجهاء اكبرهم راغب افندي مات سنة ١٣١٩ واعقب امين افندي وتوفيق افندي واحمد افندي ورشدي افندي والأخ الثاني محمود افندي من اعيان تجار دمشق وبيروت والحجاز كان سخي الطبع كريم الاخلاق من اهل الوجاهة والوقار تقلد رآسة بلدية دمشق مدة طويلة في زمن الاتراك مات سنة ١٣٢٧ وهو والد صادق افندي وعادل افندي وواصل افندي وهم من خيرة التجار اقتفوا اثر والدهم بالوجاهة وكرم الاخلاق والأخ الثالث محمد علي افندي وهو من تجار المدينة مات بها كان مثال الامانة والسيرة الحسنة وهو والد كامل افندي من مشاهير تجارها اليوم المشهود له في الامانة والاخلاق الحسنة له احترام زائد عند اهلها والاخ الاصغر لهم عطاالله افندي مات سنة ١٢٩٩ وقد اعقب عزت افندي وشكري افندي وهما من خيرة رجال الادب ومن اصحاب السيرة الحسنة والاخلاق المرضية وقد اشتهر في هذا اللقب ايضا جماعة يشتغل اكثرهم في التجارة وبيع التبغ نبغ منهم الشيخ محمد افندي ابن ابراهيم افندي الشهير بالحجا احد افاضل المتضلعين في احكام قوانين المدنية وهو رئيس احدى محاكمها في دمشق اليوم

ومن الاسر التي تستحق الذكر اسرة كمال الدين افندي ابن الشيخ حسن الشهير بزبارو الدهان الصوفي الدمشقي نشأ من بين اسرته التي يشتغل اكثر رجالها في الصناعة والتجارة في طلب العلم والادب حتى فاق اقرانه في الفضيلة حفظ كثيراً من كلام العرب وامثالهم وشواهد الشعراء مع نوادر الحكماء و بعضا من حكايات الصوفية يحب مطالعة اسفار التاريخ رحل الى دار السلطنة وتخلف بالطريق الرفاعي عن شيخه السيد الجليل ابي الهدى الصيادي شيخ السلطان عبد الحميد ارسله الى مصر والهند لنشر الطريقة الرفاعية واعطاء الاجازة لمن اراد الدخول بها وطبع بعض الكتب المتعلقة بمدح السلوك والدخول في هذا الطريق واظهر صحيفة القاهرة المصرية التي خرجت للدفاع عن الشيخ وحزبه وبقي مدة طويلة بين الهند ومصر

ودمشق حتى نال بواسطة شيخه رتبة البلاد الخمس من الرتب العلمية ليعرف الناس ان الشيخ حريص على تلطيف جماعته ونشر لوائه فوق رؤس اعيان البلاد العربية مات سنة ١٣٢٢ وهو والد السيد بهاء الدين افندي من موظفي عدلية دمشق اليوم

ومن الاسر التي اشتهرت في التجارة بين دمشق وبيروت واوربا آل القتلان عرفنا منهم محمد افندي وهو والد حسن افندي صاحب القصر الشهير الذي بناه حديثاً على الطرز الاندلسي ابهر العقول في هندسته التي احيا بها الهندسة العربية صار بهجة للناظرين ويعد اليوم من محاسن دمشق وهو اول بناية عظيمة بنيت في قرية الجرجانية التابعة لقضاء الزبداني ومن ابناء عمه عبد الفتاح افندي احد اصحاب المكتبة السلفية في مصر

ومن الاسر التي اشتهرت في صنع الحلويات السكرية بدمشق بنو قويدر عرفنا منهم محمد افندي الذي اختار الاقامة في المدينة المنورة ومات بها ومن الذين اشتهروا ايضاً في صنع هذه الحلويات بين مصر ودمشق بنو الفراوي عرفنا منهم احمد افندي واولاده النجباء

ومن الاسر التي تستحق الذكر أسرة عبد الحميد باشا ابن الحاج رسلان السروجي القلطقجي الدمشقي ظهر من بين اسرة يشتغل البعض منها في التجارة ومنهم في الصناعة جد واجتهد في المكاتب العالية والحربية الى ان خرج ضابطاً من امراء الحربية وتقلد رتبة الباشوية وتولى الحكم العسكري والقيادة على الجيش في مواقع كثيرة منها القدس وطرابلس الشام وحلب وكان مثال الاخلاق الحسنة والغيرة العربية له يد طولى في العلوم العصرية والفنون العسكرية ثم صار بعد ذهاب الاتراك عن البلاد وزير الحربية لحكومة الملك فيصل ثم صار عضواً في المجلس التمثيلي بعد دخول عسكر دولة الانتداب مات سنة ١٣٤٣

ومن الاسر التي تستحق الذكر الشيخ عبد العال الشهير بالشعار الدمشقي هو من اسرة تشتغل في الزراعة والتجارة ظهر منها وتمشق طلب العلم والادب ولازم شيخه الشيخ ابراهيم العطار الى ان ظهرت فيه الفضيلة كان

مثال الغيرة والمروءة والشهامة العربية له كلمة نافذة عند اهل حيه في مسجد الاقصاب تعتمد عليه العوام وله حرمة خاصة عند العلماء والحكام مات سنة ١٣٠٨

ومن الأسر الشهيرة في التجارة بنو الحفار وهم جماعة كثيرون في دمشق مثال الكمال والامانة وقد ادركنا منهم رحيمنا حسن افندي كان من مشاهير التجار وقد اعقب اولاداً نجباء اشهرهم في الفضيلة الشاعر الاديب لطفي افندي الذي تقلد وزارة النافعة والتجارة بدمشق ثم انتخب عضواً في المجلس التاسيسي المنعقد اليوم وقد ادركنا من مشاهير رجالهم رشيد افندي وكان رفيقنا في الحج عام سنة ١٣١٠ اعقب ذرية كبيرة اكبرهم صالح افندي استوطن منهم جماعة في بيروت صاهرنا منهم محمود افندي بن محمد افندي كان من خيرة التجار وله ذرية باقية الى اليوم ومن مشاهير رجالهم ايضاً سعيد افندي وهو والد محمد الحجي واخوانه النجباء وجميعهم يشتغلون في التجارة

ومن الاسر الشهيرة في التجارة بنو دياب في دمشق اصلهم من صفد قدموا دمشق قبل مائتي سنة وقد ادركنا من مشاهير رجالهم الحاج اسعد كان عمدة التجار في هذه البلاد وله شهرة تامة في سائر الامصار يميل الى مواساة الصلحاء واغاثة الفقراء وقد اعقب الحاج مصطفى افندي والحاج ياسين افندي والفاضل ابا الخير افندي وهم من خيرة التجار اليوم ومن ابناء عمهم احمد افندي بن الحاج عبده وهو من مشاهير التجار ايضاً وجميعهم من اهل الكمال والسيرة الحسنة

ومن الاسر الشهيرة بدمشق بنو الدرة وقد ادركنا منهم الشيخ سليم بن محمد افندي كان اماما في جامع السادات مات سنة ١٣٢٠ وقد ترك من بعده ذرية مباركة وهم الشيخ امين والشيخ كمال والشيخ توفيق وجميعهم تولوا امامة الجيش في زمن الاتراك والشيخ عبد الجليل من علماء دمشق وخطيب جامع دنكز وامام جامع السادات وناظر على توزيع اللحم والطبيخ في جامع السلطان سليمان تقلد امور تفتيش المكاتب الابتدائية

في دائرة المعارف ثم عين عضواً في لجنة تعميرات مساجد الاوقاف ولهم اخ خامس الشيخ محمد خير احد اساتذة مدارس العلم والتربية في دائرة المعارف

ومن الاسر الشهيرة بدمشق وتستحق الذكر آل الموقع خرج من هذا البيت العالم والفاضل والتاجر والصانع وقد تقدم في كتابنا ذكر رجال الفضل منهم ومن مشاهير رجالهم سعيد افندي وهو والد ابي الخير افندي احد وجهاء دمشق وفضلائها مات سنة ١٣٤٦ كان مثال الفضائل والكمال والشهامة العربية والرأي السديد وابو الفرج افندي من خيرة تجار دمشق اليوم

ومن الاسر التي تشتغل في التجارة والصناعة واستحقت الذكر في التاريخ اليوم بنو حجانو لانه خرج منها الشيخ يحي افندي احد فقهاء دمشق ومن علمائها وهو امام حي باب المصريجه ومدرسه . ومنهم بنو ملص يشتغل اكثر رجال هذا البيت في تجارة الخشب وصناعته خرج منهم الاديب المهذب كمال افندي احد مشاهير المحامين بدمشق . ومنهم بنو المعجة اشتغل اكثر رجال هذا البيت في التجارة والصناعة وبعضهم كانوا امراء الجيش التركي وتفرع منهم ذرية كبيرة بدمشق نبغ منهم اليوم الطبيب احمد ياسين افندي والجراح الشهير سليم بك وكلاهما من مشاهير رجال الطب في هذا العصر . ومنهم آل العوا يشتغل اكثر رجال هذا البيت في التجارة خرج منهم في عصرنا صفوت باشا رئيس امناء ملك العراق اليوم وكان في عهد الاتراك من أساتذة المدرسة العسكرية في دار السلطنة ومنهم آل الصفدي يشتغل اكثر رجال هذا البيت في التجارة ظهر منهم رشدي باشا احد امراء العسكرية في عهد الاتراك ثم تولى رآسة الجيش عند ملك الحجاز السابق الشريف حسين بن علي ثم صار رئيس بلدية دمشق . ومن نوابغ كتاب هذا العصر اديب افندي مكاتب الصحف وقد اتى الى دمشق اليوم واستوطن بها المحامي بدر الدين عيسى افندي نجل اسعد افندي مفتي صفد ومدرسها وهو من رفقائنا في طلب العلم بدمشق وقد اشتهر بلقبهم ايضا المحامي ابراهيم افندي الصفدي كان من اعضاء محاكم عدلية دمشق . ومنهم آل النص خرج منهم الفاضل الاديب شريف افندي

وهو من خيرة تجار دمشق المثابرين على طلب العلم وعمل الخير وقد احترقت داره مع جميع الكتب والآثار التي تقدر قيمتها بمبالغ عظيمة عند نكبة دمشق الاخيرة واما بقية الاسر التي تشتغل في التجارة والزراعة والصناعة بدمشق فهم كثيرون يعسر علينا ذكرهم باجمعهم بل اتينا على ذكر من نبغ منها تقديراً له وتخليداً لذكره في التاريخ . ومن الاسر التي تشتغل في التجارة والصناعة بنو الزركلي وقد نبغ منهم خير الدين افندي الشاعر الشهير والكاتب الكبير صاحب المطبعة العربية ومكتبتها في مصر له آثار كثيرة طبعت في الشعر والادب وهو نزيل مصر اليوم . ومنهم بنو المارديني بدمشق اتى جدهم من ماردين عرفنا منهم الورع الصالح الشيخ سعيد كان من تجار دمشق له ذرية كبيرة نجيبة نبغ منهم الشيخ جودت افندي رئيس المدرسة الهاشمية الثانوية الشهيرة بدمشق وهو من ادباء هذا العصر الافاضل ومن مشاهير رجال هذا البيت ايضاً الرحالة الشهير حسني افندي والاديب الفاضل عبد الحميد افندي من موظفي العدلية بدمشق . ومنهم بنو الايتوني بدمشق خرج منهم الطبيب الشهير المتخصص بامراض العيون رضى سعيد بك وزير المعارف السابق ورئيس الجامعة السورية وله اليد البيضاء لبناء الجامعة السورية ورقي المعهد الطبي الموجود اليوم تقلد رآسة البلدية بدمشق في عهد الاتراك كان بها مثال الغيرة والسيرة الحسنة . ومنهم بنو الصبان خرج منهم الجراح الشهير احمد راتب بك من مشاهير رجال الطب بدمشق اليوم . ومنهم بنو استاذ عين التينه وقد اشتهر احد احياء دمشق بهم خرج من رجال هذا البيت جماعة كثيرون من اهل الوجاهة والكمال ونبغ منهم في هذا العصر الفاضل عزة بك وعبد الله بك من محامي دمشق . ومنهم بنو الطباخ وقد اشتهر من رجال هذا البيت ثلاثة اخوة اكبرهم يحي كاظم بك من امراء العسكرية في زمن الاتراك والثاني محمد بك اسماعيل من نوابغ امراء اركان الحرب في الجيش التركي ومن رجال النهضة العربية المجاهدين لاستقلال البلاد وحفظ قوميتها والثالث اصغرهم عبد المجيد افندي هو من التجار الاماثل . ومنهم بنو الزهرا

خرج من رجال هذا البيت الدكتور الشهير عبدالقادر افندي من نوابغ رجال الطب في دمشق اليوم ومنهم بنو عايش يشتغل اكثر رجال هذا البيت في التجارة وصناعة الاقمشة الشامية نبغ منهم في هذا العصر الطبيب الحاذق عادل افندي نجل صبرنا كامل افندي من خيرة تجار دمشق ومنهم بنو الرجلة نبغ منهم في هذا العصر الطبيب الشهير طاهر افندي ابن سعيد اغا الاختصاصي في مرض العيون . ومنهم بنو القباني يشتغل اكثر رجال هذا البيت في التجارة والصناعة نبغ منهم في هذا العصر الفاضل الكاتب مصطفى بك مفتش المعارف في زمن الاتراك ومحاسب وزارة المعارف بدمشق اليوم وهو والد الطبيب محمد نظمي افندي وقد بلغنا أن السيد محمد والسيد علي والسيد عبد الله اولاد السيد صالح القباني من تجار دمشق ايضاً بيدهم شجرة تدل على انسابهم لم نتوفق لرؤيتها وكانوا يعرفون قديماً ببني زين الدين . وقد اشتهر في هذا اللقب ايضاً اديب افندي بن عبد القادر الشهير بالقباني كان من علماء دمشق تقلد افتاء الاي جيش الاتراك تخلف في نشر الطريق القادري مات سنة ١٣٣٣

ومن الاسر المعروفة التي اشتهر منها احد جهابذة العلم والفضل في عصرنا اليوم الشيخ كامل القصاب مؤسس مدرسة الكاملية الهاشمية بدمشق اتى والده تاجراً من حمص واستوطن في حي العقيبة بدمشق ونبغ ولده بها ودرس بجامعها ورحل الى مصر والى الحجاز وصار ناظراً للمعارف بها في زمن الملك حسين والملك عبد العزيز آل السعود ثم ترك الحجاز واختار الاقامة في مدينة حيفا يشتغل في نشر العلم ويجاهد في استقلال البلاد العربية وحفظ قوميتها من أيدي العابثين بها وفقه الله

ومن الاسر المعروفة ايضاً في حي العقيبة بنو احمد ياسين وقد نبغ ولده الشيخ محمود في هذا العصر واشتهر بالعلم والفضيلة والتعليم وهو مؤسس ومدير مدرسة العلم والتهذيب الاسلامي بدمشق اليوم ومن الاسر المعروفة التي نبغ منها الواعظ الشهير الشيخ احمد النويلاتي احد جهابذة رجال العلم بدمشق

وهو احد مدرسي جامعها ومن حفظة القرآن على العشرة من جميع طرقها ومن مشاهير القراء ايضاً بدمشق المقرئ على العشرة الحافظ الشهير الشيخ عبد الله بن الحاج سليم المنجد ومن مشايخ القراء بدمشق الشيخ الجليل المعمر احمد دهمان اشتهر امره في التعليم والتهذيب في مدرسته في سوق العصرونية وكنت احد تلامذته بها سنة ١٣٠٠ وعاش مائة سنة وهو والد الفاضل الشيخ محمد صاحب مجلة المصباح . ومن الاسر المعروفة في حي باب السريجه بنو الطرابلسي نبغ منها عبد الحكيم افندي احد رجال الفضل والادب بدمشق ومؤسس مدرسة التوفيق . ومن الاسر المعروفة في حي قصر حجاج بنو التقي وقد ادركنا من رجالهم الشيخ اديب افندي كان امام الحي في جامع حسان وهو والد الفاضل الشيخ حامد افندي احد اساتذة العلم في دائرة المعارف بدمشق . ومن الاسر المعروفة في حي القنوات بنو حموده نبغ منها الطبيب الشهير محمود افندي رئيس المجلس الصحي في مملكة الحجاز والطبيب الخاص لجلالة سلطان نجد وملك الحجاز اليوم ومن الاسر المعروفة في حي القيمرية بنو المتقي نبغ منها الطبيب محمد توفيق افندي . ومن الاسر الشهيرة في التجارة في حي القيمرية بنو الطويل نبغ منها في عصرنا الشيخ موسى افندي احد علماء دمشق ومن تجارها ومن مشاهير اطباء دمشق مصطفى فخري بك وهو جار لنا ومنهم بنو النحاس يشتغل إكثر رجال هذا البيت في التجارة عرفنا منهم الشيخ حسن من علماء دمشق ومحمد بك النحاس من اعاظم موظفي المالية بدمشق . ومن الاسر التي اشتهر بها احد احياء دمشق بنو الشرابي وقد نبغ منها الطبيب جميل افندي وقد ذكرنا عند تراجم مشاهير الرجال امراً كثيرة اشتهر بعض رجالها في خدمة الشريعة والعلم والحديث والشعر وقد علاها الانقراض واخنى عليها الدهر ولم يبق لها اثر كما اننا اشرنا الى اكثرها في محالها مثل ابن شاهين الشاعر الدمشقي الشهير الذي ذكره المحبي في تاريخه وبني العجلوني والشيخ خليل الحشي والحائك مفتي دمشق والجلاد والكناني وعبد البر والبقاعي الجنيني والاختائي والشيخ عثمان النحاس وابن السمان الشاعر الشهير والشاعر

الوجي الدمشقي وطولون المؤرخ الشهير وعثمان حموده الرجي وعثمان القطان الكفرسوسي والعدوى مفتي دمشق والاسلامبولي شيخ الحنيفية بها والصبان ومقدم سعد العقاد الشهير بشيخ الشيوخ والمحبي المؤرخ الشهير والشيخ جعفر والشيخ الرسامة وغيرهم ممن لم يسع ذكرهم هنا لاننا اكتفينا بالذي ذكرناه حبا في الاختصار ومن اراد التوسع بمعرفتهم فعليه باسفار التاريخ وفوق كل ذي علم عليم

وبعد ختام ذكر من فقدته دمشق من مشاهير الرجال اذ فاجأتنا الاخبار عند ختام طبع هذا الكتاب بفقد الشيخ المعمر الرجل العظيم والعميد الكبير غريغوريوس الرابع بطريرك انطاكية وسائر الشرق لطائفة الروم الارثوذكس وقد حزن اهل دمشق على اختلاف مذاهبهم لفقده حزنا بليغاً لما كان عليه من الاعمال الممدوحة والخصال الجميلة والاخلاق النبيلة وقد خلد له تاريخ دمشق ذكراً جميلا لانه كان من جهابذة رجال العلم والانسانية وقد نعاه الرأي العام في دمشق بما يلي :

فجع العرب عامة والطائفة الارثوذكسية خاصة باغتيال يد المنون العميد الكبير والرهط الجليل غبطة غريغوريوس الرابع بطريرك انطاكية وسائر المشرق لطائفة الروم الارثوذكس وذلك أثر داء لم يمهله سوى بضعة ايام . وقد وقع هذا النعي وقعاً عظيما هلعت له القلوب وكيف لاتهلع . قلوب السوريين وفي مقدمتهم المسلمون قبل النصارى على فقد ركن عز على الدهر ان يتحف العرب بمثله وهو ذلك العربي الابي والوطني الجليل والعلامة الفذ والذي كانت اخلاقه ومحامد صفاته تخلب الباب عارفي تلك المزايا السامية

وما ذكر اسم غريغوريوس في محفل او ناد عربياً كان او غير عربي اسلامياً كان ام مسيحياً الا وترفع الايدي اجلالا وتكريماً لهذا الشخص العالي المحبوب الذي افل نجمه فأفلت معه روح العبقرية

واذا ذكرنا شيئاً قليلا من مزايا هذا العميد الراحل فلا ننسى ان نذكر له ذلك الكرم الحاتمي وتلك الايدي البيضاء التي مدها على دور العلم وبناء الملاجي للفقراء والعطف على البائس والمعوز حتى اصبح يضرب بجوده المثل . واذكر

مواقفه الشريفة الخالدة ابان الحرب العامة والثورة السورية تجاه البؤساء والمنكوبين والسهر على اعاشتهم وحمايتهم



خطر لنا ان نزين كتابنا بذكر اسماء علماء البلاد العربية خصوصاً جيراننا سكان البلاد الشامية في هذا العصر. بعد ان فرغنا من ذكر تراجم مشاهير رجال دمشق خدمة للتاريخ واهله وحفظاً للروابط القديمة وحقوق الجوار الا انه لعدم وقوفنا التام على جميع تراجم كثير من مشاهير اولئك الرجال لنوفيهم حقهم اجتزأنا بذكر من وصل الينا خبره والذي لا يدرك كله لا يترك قله وقد تركنا بيان التوسع بسيرتهم الى مؤرخي بلادهم . وانما قصدنا ذكرهم اجمالا تأييداً عرى الاتصال وزيادة التعارف بين اهل البلاد ولتكون روابط المحبة باقية مدى الازمان ولو اقتضت السياسة الغربية في عصرنا هذا تقسيم هذه البلاد الى حكومات شتى . لعل الله تعالى يحدث بعد ذلك امراً ويمن على هذه البلاد بجمع شملها ويسعفها بتوحيد كلمة اهلها ليكون لها مركز بين الامم في المستقبل باجتهاد مفكريها ويحسن لهذه الأمة العربية بنيل امانيها من الحياة الحرة لتعيش متحدة وما ذلك على الله بعزيز

نبدأ بذكر من اشتهر من العلم والادب في عاصمة بغداد وهم : الشيخ عبدالسلام الشواف كان زاهداً صالحا وحيداً في العلم بلغ من العمر ما فوق المائة يدرس في مدرسة القادرية انتفع في زمانه كثير من العلماء وله شرح حافل على الاظهار ومن اقربائه واقرانه في العلم الشيخ طه كان مفتي البصرة وهو من افاضل الشعراء

السيد محمد سعيد الداودي خطيب جامع الكيلاني كان من المدرسين الزاهدين . السيد محمود شكري الالوسي كان علامة العراق تفرد في التحقيق والتدقيق وله مؤلفات كثيرة اشتهرت في البلاد الاسلامية ظهر من هذا البيت جماعة من اهل الفضل احمد بك الشاوي كان مفتي البصرة ومن العلماء الشعراء السيد يوسف آل عطا من بيت رفيع نجيب اصحاب صدقات كثيرة وهو

من افاضل العلماء كان يدرس في القادرية اشتهر في التقوى والصلاح

الشيخ محمد سعيد النقشبندي كنت سمعت قولا منه لما اتى دمشق . لايكمل الرجل في الدنيا الا باربع بالديانة والامانة والصيانة والرزانة وقال ايضاً الشفاعات ذكاة المروآت كان مدرس الفضل وجامع الامام الاعظم وشقيقه عبد الوهاب افندي كان نائباً في محكمة الباب الشرعية وهما من جهابذة رجال العلم والفضل

السيد احمد النقشبندي شيخ التكية الخالدية ومدرسها

السيد محمد فيضي الزهاوي الكردي الخالدي مفتي بغداد انفرد في سائر العلوم والفنون له شهرة عظيمة في البلاد وقد اشتهر منهم في الشعر والادب السيد جميل صدقي الفيلسوف الكبير . السيد سلمان نقيب اشراف بغداد كان تولى منصب قضاء العسكر في عهد السلطان عبد الحميد وتقدم في كتابنا ذكره انه بواسطته عفى عن ذرية الجيلاني في البلاد العربية من الخدمة العسكرية وتولى النقابة بعد اخوه السيد عبد الرحمان الذي تقلد رآسة الوزارة في مملكة العراق بعد ذهاب الاتراك وله ذرية وجيهة من اعيان البلاد منهم السيد احمد والسيد محي الدين بك احد اعضأ مجلس الاعيان في زمن الاتراك . السيد الجليل محمود درويش الحيدري الحسيني كان من اصحاب الرتب العالية صدراً فاضلا له كلام نافذ في البلاد وله اسرة كبيرة اشتهر رجالها في العلم والفضل عرفنا منهم السيد ابراهيم الذي تولى مشيخة الاسلام في آخر عهد الدولة العثمانية ثم تقلد وزارة الاوقاف في مملكة العراق

محمد بك آل جميل اشتهر بالوجاهة والزعامة غيور على بلاده لنيل استقلالها جسور على المدافعة عن حقوقها

عبد الرحمن بك الباشه جي كان من افاضل اعيان البلاد من بيت قديم عريق في التجارة وعمل البر له وجاهة كبيرة ومكانة عالية وهو والد محمد بك الذي هو اليوم من افاضل اعيان البلاد قد احيا ذكر ابائه واجداده .

الشيخ مصطفى السويدي تفرد في علم الفرائض احيا ذكر ابيه الشيخ الجليل محمد صالح امين فتوى بغداد في الفضيلة والعلم ومن ابنأ عمه العلامة الشيخ

احمدكان تولى القضاء الشرعي وهو صاحب الصاعقة العقلية والنقلية في الرد على الفرقة الاثنى عشرية وقد اتى دمشق من علمائهم جماعة ذكرهم المرادي في تاريخه وقد عرفنا من مشاهير رجال الفضل فيهم الشيخ يوسف افندي الذي اتى دمشق بعد ذهاب الاتراك ثم تولى اليوم رآسة مجلس الاعيان في مملكة العراق وهو والد الافاضل ناجي بك وزير الحقانية وتوفيق بك وزير المعارف في هذه المملكة ولهم صلة شهيرة في الملوك العباسية

ومن مشاهير شعراء بغداد وكتابها الادباء السيد معروف الرصافي والسيد الكاظمي والسيد حلمي العمر

ذكر بعض اسماء علماء البصرة واشرافها

الشيخ مصطفى الملالى مفتيها الحالي ومن اجلة علمائها

الشيخ عبدالله آل باش اعيان وهو عباسي النسب سخي الطبع له مواعظ فائقة ومكانة عالية في النفوس

ومن اشرافها السيد الجليل رجب بك كان عين اعيان البلاد ونقيب اشرافها وهو من سلالة الرفاعي الكبير له مكانة عالية في النفوس وهو والد الزعيم الشهير طالب بك النقيب تقلد في زمن الاتراك كثيراً من المناصب الرفيعة مع الرتب والاوسمة العالية ومن مشاهير هذا البيت ايضاً السيد هاشم بك بن السيد احمد باشا نقيب السادة الاشراف اليوم

ومن مشاهير اعيان البصرة الحاج محمود باشا آل عبد الواحد

ذكر من اشتهر من رجال العلم والفضيلة والوجاهة في الموصل وهم الشيخ محمد الرضواني من اجلة العلماء الاعلام وله حرمة عظيمة عند كافة الناس اشتهر بالتقوى والورع . الشيخ محمد الصوفي تحترمه العلماء والحكام مسموع الكلمة عند الخاص والعام . الشيخ سعيد الغلامي هو من افاضل المدرسين . الشيخ محمد النعمة هو من اسرة كريمة اشتهرت في الفضيلة والسيرة الحسنة . الشيخ عثمان والحاج حسين آل الديوهجي لهما نفوذ عظيم ومنزلة كريمة في بلادها . السيد احمد آل امين الفتوى يعد من افاضل العلماء والشعراء وقاضي الموصل.

الشيخ حبيب العبيدي مفتي الموصل الحالي هو احد جهابذة رجال العلم والفضل ومن شعراء هذا العصر عرفناه لما كان نزيل دمشق قبل ذهاب الاتراك .

السيد عبد الغني افندي نقيب السادة الاشراف في الموصل ومن اعيانها

السيد محمد علي فاضل افندي من سادات الفخريه له مكانة في العلم والفضل والشعر كان انتخب عضواً عن الموصل لمجلس الامة في دار الخلافة في زمن الاتراك ثم صار اليوم من اعضاء مجلس الاعيان في مملكة العراق .

الشيخ احمد الجوادي من فطاحل رجال العلم والفضل في هذا العصر

محمد امين بك الجليلي آل عبد الجليل له منزلة عظيمة في النفوس وهو من اسرة قديمة رفيعة القدر عظيمة الشأن اكثر رجال هذا البيت وزراء حكام تلك الديار وقد عرفنا منهم هذا الذات في الديار الحجازية ومن مشاهير رجالهم اسماعيل بك له اخلاق فاضلة وسيرة حسنة

مصطفى بك الصابونجي هو من اصحاب الوجاهة والفضيلة له منزلة رفيعة ونفوذ عظيم في بلاده

السيد سعيد بن حسن افندي العمري من اعيان افاضل الموصل وقد تفرع من هذا البيت الفاروقي جماعة من اهل الفضل والادب ولهم منزلة عظيمة في البلاد

ذكر مشاهير رجال العلم في حلب في هذا العصر

الشيخ حسين الغزي توطن حلب وتخرج عليه بعض علمائها مات سنة ١٢٧١ والد العالم المؤرخ الشيخ كامل الغزي صاحب (نهر الذهب في تاريخ حلب) .

الشيخ محمد الجذبة كان تقياً وفرضياً توفي سنة ١٢٧٣

الشيخ احمد الحجار كان زاهداً وروعاً عالماً عاملا توفي سنة ١٢٧٨

الشيخ مصطفى الاصيل كان عالماً قارئاً بالروايات السبع خطاطا انتفع به خلق كثيرون توفي سنة ١٢٧٩

الشيخ عبد القادر الكيال بعد ان حصل جملة صالحة من العلم والادب حصل له جذب فترك الدنيا وروى له كرامات شتى توفي سنة ١٢٨١ .

الشيخ عبد القادر سلطان ولي الافتاء بحلب مات سنة ١٢٨١

الشيخ مصطفى الاريحاوي كان اميناً للفتوى بها مات سنة ١٢٨١

الشيخ هاشم الطباخ احد جهابذة رجال العلم في حلب وشيخ الطريقة الخلوتية بها مات سنة ١٢٨٢ وهو جد العالم الفاضل الشيخ راغب صاحب تاريخ الشهباء

الشيخ عقيل الزويتيني كان عالماً متضلعاً بالمذاهب الاربعة مات سنة ١٢٨٧

الشيخ احمد الترمانيني كان شيخ الشيوخ في حلب اماماً في الحديث والتفسير مفتياً للشافعية له مؤلفات في فنون متنوعة لم يطبع منها شيء مات سنة ١٢٩٣

الشيخ عبدالقادر الحبال كان عالماً محدثاً زاهداً مات سنة ١٣٠٠

السيد الشريف الشيخ احمد الكواكبي كان عالما فقيها فرضيا على جانب عظيم من حسن الخلق ولي امانة الفتوى بحلب له شرف النسب من جهة جده الشيخ محمد ابي يحيى اول من اشتهر بالكواكبي ومن جهة امه الى السادة بني الحسيني ولد سنة ١٢٤٠ وتوفي سنة ١٣٠٠ بمشهد عظيم اعقب ولدين هما العلامة رجل الشرق السيد الشيخ عبدالرحمن الشهير صاحب كتاب ام القرى وكتاب طبائع الاستبداد مات في مصر ١٣٢٠ وهو والد الطبيبين السيدين اسعد ورشيد . والشيخ مسعود احد جهابذة رجال العلم والفضل ونزيل دمشق اليوم كان عضواً في مجلس النواب العثماني سنة ١٣٢٦ وولي نقابة الاشراف بحلب مدة طويلة ثم عين كاتب سر لرئاسة اتحاد الدول السورية ثم نقل الى عضوية محكمة التمييز بها كان الله له وبارك نافيه.

الشيخ علي الكحيل كان عالماً محدثاً صالحاً ولي امانة الفتوى توفي سنة ١٣٠٤

الشيخ عبدالسلام الترمانيني كان عالماً محدثاً مات ١٣٠٥

الشيخ بكري الزبري كان عالما ازهرياً ولي افتاء حلب مات سنة ١٣١٢

الشيخان العالمان احمد الزويتيني ومحمد الجزماتي وليا امانة الفتوى بها

الشيخ حسن الكيال من علماء مشايخ الطريقة الرفاعية مات سنة ١٣٢٩

الشيخ محمد بشير الغزي اشتهر بشهرة اخيه لامه الشيخ كامل كان عالماً فاضلا متضلعاً في اللغة والادب له شعر رائق ورسالة في التجويد ونظم الشمسية وهما مطبوعان ولي امانة الفتوى وانتخب عضواً في مجلس النواب ثم عين رئيساً في محكمة الحقوق وعند استقلال دولة حلب عين قاضي القضاة مات سنة ١٣٣٩

الشيخ محمد العيسى حموي المولد ولي افتاء حلب مات سنة ١٣٤١

الشيخ احمد المكتبي كان ازهرياً محدثاً صالحاً افاد في مصر وفي حلب كثيراً وله رسائل وحواش لم يطبع منها شيء توفي سنة ١٣٤٢

الشيخ محمد الحنيفي ازهري صالح حسن الخلق له مؤلفات في فنون متنوعة طبع بعضها توفي سنة ١٣٤٢

الشيخ محمد الزرقا علامة شهير وقور تبحر في الفقه والصكوك شديد الذكاء والحفظ حلو الحديث لازم التدريس نحواً من ستين سنة فافاد خلقاً كثيراً . ولي امانة الفتوى في حلب ومعاونية امانة الفتوى في المشيخة الاسلامية ثم قضاء حلب لم يتسع وقته للتأليف ولد سنة ١٢٥٨ وتوفي سنة ١٣٤٣ وهو والد العالم الفاضل الشيخ احمد السائر على منهاج ابيه

ومن العلماء الاعلام الموجودين الآن قاضي حلب الشيخ علي الكيالي ولي القضاء منذ ثماني سنين ومفتي حلب الشيخ عبد الحميد الكيالي ولي الافتاء منذ ست سنين ومدرس الولاية الشيخ حسين الارقلي والشيخ عمر المرتيني والشيخ سعيد الادلبي والشيخ نجيب سراج وابن اخيه الشيخ احمد سبط الشيخ احمد الترمانيني الكبير والشيخ عبدالله معطي والشيخ بدر الدين النعساني والشيخ عبد الرؤف الحافظ والشيخ عبد اللطيف الخياط وسواهم ممن لم تحضرنا اسماؤهم من الكتاب والادباء اما اعيان الشهباء فقد ورد ذكر الكثيرين منهم في نهر الذهب وفي اعلام النبلاء المشار ذكرهما وذريتهم خلف لهم في الوجاهة . احببنا ان نزين كتابنا باسماء الذين وصل الينا خبره منهم الجديرين بالذكر

وهم آل الصيادي الرفاعي ادركنا من اعيان رجالهم الشيخ السيد ابا الهدى الشهير بشيخ السلطان عبد الحميد صاحب المؤلفات ونقيب حلب توفي بدار السلطنة سنة ١٣٢٧ وهو والد حسن خالد باشا رئيس حكومة شرق الاردن اليوم وفقه الله ثم تقلد الآن النقابة شقيقه السيد الجليل عبد الرزاق افندي قاضي عسكر الاناضول ومنهم آل الجابري من اعيان رجالهم نافع باشا . الحاج مرادافندي . فاخربك . الزعيمان سعدالله بك واحسان بك . عبدالحميدافندي

رضا افندي . وجيه بك . نوري بك . حامد افندي . عاكف افندي . آل النيال اعيان رجالهم الحاج احمد قدري بك . الحاج حكمت بك . محمد نشأت بك . سليمان بك صبحي بك وزير العدلية اليوم بدمشق . آل المدرس اعيان رجالهم حسن تحسين بك . زكي بك . ثابت افندي . احمد ظريف افندي . حسيب افندي رشيد بك وزير النافعة بدمشق السابق . احمد بك . اسعد بك . فؤاد بك . الحاج محمد افندي . خليل افندي . آل الكوراني اعيان رجالهم . الوزير في الدولة العثمانية شفيق باشا . حسني بك من اركان رجال العادلية . عزت بك . نشأت بك . آل كتخدا اعيان رجالهم . احمد توفيق بك . راغب بك المدعي العام . اسماعيل افندي . آل القدسي اعيان رجالهم . الفريق كامل باشا والي حلب السابق تقي الدين افندي . بسيم افندي . جلال افندي . راغب بك دفتردار المالية آل العادلي اعيان رجالهم فؤاد بك كامل بك . آل الملاح اعيان رجالهم مرعي باشا والي حلب السابق ونجله عبدالقادر بك . آل قطر اغاسي اعيان رجالهم غالب بك بن ابراهيم باشا رئيس البلدية . صفوت بك رئيس الاستئناف وعارف بك . آل العنتابي أعيان رجالهم اسعد افندي . احمد سامح افندي . آل الشلبي اعيان رجالهم . عبداللطيف افندي مصطفى افندي . آل الكيالي اعيان رجالهم . محمد فائز افندي . طاهر افندي . اسماعيل افندي . الدكتور الوطني الشهير عبدالرحمان بك . آل هنانو اشتهر منهم في عصرنا الزعيم الكبير ابراهيم بك . آل السباعي اشتهر منهم الدكتور نافع ساطع بك . آل المرتيني اشتهر منهم في عصرنا القانوني الفاضل نبيه بك والي حلب اليوم . آل الرفاعي اعيان رجالهم السيد صفوت افندي . والشيخ رضى افندي واحمد بك من اعضاء مجلس التاسيسي . آل طلس اشتهر منهم نافع افندي والشيخ عبد الوهاب افندي . آل اشرقيه اشتهر منهم كامل بك مدير المعارف . آل الشعباني اشتهر منهم شاكر نعمت بك وزير المالية السابق بدمشق

●●●

ذكر من اشتهر من رجال الفضل والادب في حماة

الشيخ ابراهيم الحافظ من كبار المحدثين العارفين بعلم الظاهر والباطن وله اتصال بسلسلة قضيب البان .

الشيخ احمد الدباغ شيخ علماء حماة وامين الفتوى بها .

الشيخ حسن حيدان صاحب المؤلفات الكثيرة تفرد في علم الاصول الشيخ عبد الرحيم القوشجي كان امينا للفتوى عالماً فقيهاً . الشيخ محمد طربيه من فقهاء الشافعية تفرد في علم الفرائض . الشيخ فارس الشقفه هو من علماء وفقهاء الشافعية ضليع بعلوم الآلات . الشيخ مصطفى الحداد قاضي حماة الحالي وله معرفة تامة في اكثر العلوم لاسيما بالحقوق عالم نحرير مدقق انتخب عضواً في محكمة التميز بدمشق .

الشيخ علي الدلال من العلماء الافاضل خصوصاً في الفقه والاصول يدرس في جامع الشيخ ابراهيم الكيلاني

الشيخ صالح الامير من الفقهاء الافاضل تولى قضاء حماة . الشيخ محمد الحريري مفتي حماة كان من العلماء والشعراء وهو والد الشاعر الاديب السيد عز الدين افندي من سراتها . الشيخ احمد الصابوني تفرد بالادب والتاريخ . الشيخ اديب الحوراني مدرس جامع السلطان

الشيخ سعيد لطفي من الفقهاء الافاضل . الشيخ توفيق الصباغ من رجال العلم والفقه ومدير مدرسة العلوم الشرعية في حماة . الشيخ احمد الكيلاني نزيل دمشق من فطاحل رجال العلم له باع طويل بالنحو والآلات يغلب عليه الزهد والتصوف والقناعة . الشيخ سعيد النعسان مفتي حماة الحنفي واخوه الشيخ طاهر وهما من اجلة العلماء والشعراء . السيد عبدالله فضل الله الكيلاني نقيب اشراف حماة كان من الشعراء رفيق الشاعر الحسن المشهر . الشيخ حسن الفتوحي الجندي من العلماء المدرسين . الشيخ حسن رزق عالم بالادب والشعر السيد عمر بن الشيخ يحيي الفرجي من اجلة علماء حماة وزهادها . الشيخ سعيد الجابي من علماء حماة ومدرسيها . السيد عبد القادر بهاء الدين الكيلاني الملقب

باني هارون له مؤلفات في علم التصوف تدل على علمه وفضله . ومن شعراء حماة الافاضل الشيخ خليل الشكلي ، والشيخ محمود الزبزوقي والشيخ عبد الرحمان المصري . والمحامي محمد افندي الخطيب من كبار الحقوقيين كان من اعضاء محكمة التميز بدمشق وهو والد القانوني الفاضل عارف بك متصرف مركز دمشق اليوم .

ذكر مشاهير اعيان رجال بيوتات حماة

وهم السيد امين الكيلاني الفاضل الشهير من كبار الكتاب والادباء . ومن اعيان وجهاء حماة وادبائها السيد نوري باشا الكيلاني . والسيد محمد افندي الكيلاني من افاضل الشعراء . والسيد بدر الكيلاني مفتي حماة ومن افاضلها ثم صار متصرفا بها بعد ان كان عضواً في مجلس الشورى بدمشق بعد ذهاب الاتراك ووالده السيد عبد الجبار افندي شيخ السجادة القادرية بها . ومن اعيان فضلاء حماة السيد عبد القادر حسني الكيلاني مبعوثها في المبعوثين ووزير الزراعة في حكومة دمشق اليوم له اليد الطولى في تأسيس المدرسة الشرعية الدينية في حماة وهي نواة تنتج ثمرات علمية في المستقبل تسر كل مسلم حريص على دينه . ومن مشاهير رجال هذا البيت السيد مكرم افندي والسيد عبد الرزاق افندي والسيد صالح افندي والسيد محمد علي افندي وولده السيد وجيه افندي وهو والد السيد نورس افندي متصرف مركز دمشق السابق . وفي اعيان رجال هذا البيت الكريم نقابة الاشراف الى اليوم ولهم في البلاد المكانة العالية

الشيخ احمد البارودي كان من المدرسين وهو والد عبد الحميد بك رئيس محكمة الاستئناف في عدلية دمشق اليوم ومن كتاب حماة وادبائها نجيب افندي الريس نزيل دمشق اليوم واحد اصحاب جريدة القبس التي تصدر بها . ومن اعيان رجال حماة آل العظم منهم حقي بك . رفعت بك خالد بك . جميل بك . ثريا بك . محمد بك الاسعد . ومن الاعيان آل البرازي وهم خالد اغا . مصطفى بك . سليمان اغا . اسعد اغا . نجيب اغا . يوسف اغا . نجيب بك . حسني بك . آل طيفور اعيان رجالهم . خالد باشا .

رفقي بك . صالح اغا . آل علوان اعيان رجالهم . عارف افندي . محمد افندي . ابو الخير افندي . نعمان افندي . آل الشكلي اعيان رجالهم . حسن اغا محمود اغا . عبده اغا محيي الدين اغا . عبد القادر افندي . آل الحوراني اعيان رجالهم . رشيد افندي والدمحيي الدين افندي آل نصر الله اشتهر منهم مرشد افندي

ذكر من اشتهر من رجال الفضل في مدينة حمص

وهم الشيخ العالم الجليل محمد افندي الاتاسي تولى افتاء حمص وهو والد العلامة النحرير خالد افندي الشهير بمؤلفاته النفيسة تولى مقام الافتاء بعد والده وله ذرية مباركة عرفنا منهم العالم الجليل طاهر افندي قاضي البصرة السابق ومفتي حمص اليوم وهاشم بك من اعظم رجال الادارة في البلاد الشامية ورئيس المجلس التأسيسي المنعقد في دمشق وقد نوهنا عن بعض خدماته الصادقة نحو البلاد في الجزء الاول من كتابنا ومن مشاهير رجال هذا البيت العلامة المدقق عبد اللطيف افندي مفتي حمص وهو والد العالم الفاضل الشيخ توفيق افندي ومن مشاهيرهم ابراهيم افندي احد جهابذة رجال العلم في هذا العصر وهو والد الفاضل محمد افندي رئيس البلدية الحالي وقد تقدمت حمص في عهده تقدما عظيما في عمرانها وانتظام شوارعها ومن مشاهيرهم العالم الورع الزاهد عبد الستار افندي بن امين افندي ومن رجال الفضل فيهم العلامة الشهير الشيخ محمد المحمود وولده الشيخ محمود وهما من جهابذة رجال العلم ومن مشاهيرهم نجم الدين افندي بن محمود افندي من علماء حمص واعيانها وقد تفرع من هذا البيت العريق في المجد والعلم جماعة في عالم الادب منهم الشيخ فهمي ابن محمود افندي وابن عمه المؤرخ الشاعر عمر افندي وهم خيار من خيار

ومن مشاهير رجال حمص حافظ افندي الجندي كان مفتيها ومن اجلة علمائها الافاضل وتقدم في كتابنا ذكر ابن عمه امين افندي مفتي دمشق . ومن رجال الفضل فيهم الشيخ عبد الغني ووالده محمد افندي وابن عمهم احمد افندي امام جامع البازر باشي وقد تفرع من رجال هذا البيت جماعة كثيرون

من اهل الوجاهة والادب اكثرهم في وظائف الحكومة في دمشق وحمص وحماة وهم زينة البلاد الشامية ورثوا المجد كابراً عن كابر

ومن مشاهير علماء حمص في هذا العصر الشيخ عبد الغفار عيون السود المحدث العالم المتفنن في الاصول والفروع وطبع له في التفسير الرياض النضرة

ومنهم الشيخ احمد صافي احد جهابذة رجال العلم تفرد في عصره في العلوم والفنون ومن ابناء عمه نجم الدين افندي من نوابغ رجال العلم له باع طويل في المنطق والعلوم العصرية

ومنهم الشيخ عبد الحميد الزهراوي العالم الشهير الذي تقدم ذكره في كتابنا عند شهداء دمشق في زمن الاتراك ومن ابناء عمه الشيخ كمال امام جامع الكبير وكانت باجدادهم وظيفة نقابة الاشراف في حمص واليوم هذه النقابة بيد السيد حوري جحو الرفاعي من اشراف حمص وتجارها

ومنهم الشيخ رضى الجمالي كان من مشاهير العلماء رحل الى الاستانه كثيراً وتعرف باكبر رجالها وهو والد العالم الفاضل الاديب الشيخ جمال الدين خطيب جامع النوري

ومنهم الشيخ عبد القادر الخوجه من فطاحل رجال العلم والتحقيق له اختصاص تام في الجرح والتعديل واكثر العلوم والفنون

ومنهم الشيخ محمد الياسين من رجال العلم والفضل له وقوف تام في علم القراآت . ومنهم الشيخ محمد الفصيح والشيخ محمد خالد الانصاري وهما من رجال العلم والادب ومن شعراء هذا العصر

ومنهم السيد الشيخ سعيد افندي زين العابدين احد رجال الفضل والادب في حمص وشيخ التكية البدوية في دار السلطنة وقد مات بها وكان يعتقده كثير من امرائها ووزرائها وهو من اصدقائنا .

ومنهم العالم المتصوف الشيخ ابو النصر خلف نجل الشيخ الجليل سليم خلف النقشبندي الخالدي كان يعتقده اكثر الناس ومنهم الشيخ طاهر الرئيس والشيخ عبد الجليل مراد بن الشيخ عبد الرحمن وهما من الفقهاء الافاضل

ومنهم الشيخ زكريا الملوحي كان من الشعراء الافاضل داعية للتجديد وهو من اساتذة الشيخ امين الجندي الشاعر المعروف صاحب الديوان وهو والد الشيخ انيس التقي الزاهد امام الجامع الكبير وخطيبه وكان امين الفتوى في حمص ومن علمائها الافاضل وهو والد الفقيه الفاضل الشيخ سعيد امام وخطيب الجامع الكبير وولده الاديب انس افندي من كتاب حمص ومن رجال هذا البيت رشيد افندي بن نجيب انيس احد الكتاب الادباء في هذا العصر

ذكر مشاهير اعيان رجال بيوتات حمص

آل الاتاسي الاكارم تقدم ذكر اعيان رجالهم . آل الدروبي من اعيان رجالهم . عبد الحميد باشا . نجيب افندي . علاء الدين بك رئيس حكومة دمشق المتقدم الذكر . آل الحسيني من اعيان رجالهم . مصطفى باشا . رفيق بك . كمال افندي توفيق بك . شفيق بك . وجيه بك . عبد الجواد بك .

آل الجندي من اعيان رجالهم حافظ افندي المتقدم الذكر سعيد افندي شكري بك من اعضا مجلس التأسيسي اليوم . عارف افندي ابو الخير افندي وحسني بك مفتش وزارة المالية بدمشق . آل ارسلان اعيان رجالهم مظهر باشا رئيس حكومة شرقي الاردن السابق وابو الخير افندي . آل الجندلي من اعيان رجالهم . طاهر افندي . ابو الخير افندي . صالح افندي . آل الزهراوي تقدم ذكر مشاهير رجال الفضل فيهم . آل حلابة تقدم ذكر مؤسس مجدهم سعد الله بك آل عبد الرحمن عجم انتقلت ذريته الى طرابلس الشام وهم من اعيانها آل الحكيم من اعيان رجالهم . خالد بك . وزكريا بك من السابقين في فن الهندسة في هذا العصر آل السباعي من اعيانهم امين افندي وآل المأمون من اعيانهم مأمون بك رئيس ديوان رأسة الدولة بدمشق ومن اقربائهم الزعيم الوطني خالد بك من متقاعدي العسكرية ونزيل مكة اليوم

آل الحراكي من اعيان رجالهم ياسين بك المقيم في بيروت . ومحمود افندى

آل الحسامي من اعيان رجالهم رفيق بك مفتش وزارة المالية اليوم . واخوه سعد الدين افندى

« انتهى الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث »

فهرست الجزء الثاني

صفحة

كتاب
مُنتخبات التواريخ لدمشق

تأليف

محمد أديب آل تقي الدين الحصني

قدم له

الدكتور كمال سليمان الصليبي

الجزء الثالث

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

الباب الثامن

« في ذكر مساجد دمشق الشهيرة وكنائسها ومعابدها ومدارسها الكثيرة »
« ومعاهد العلم وآثارها القديمة التي تقصد من اقاصي البلدان لشهرتها »
« وذكر تكاياها ورباطاتها وخوانقها وفي ذكر جامعها وتاريخ عمارته »
« وما طرأ عليه من الحريق قديماً وحديثاً وما تعاقب عليه من التجديد »
« والاصلاح وذكر بقية المساجد والمدارس والاديرة وبيان ما بقي من »
« ذلك وما غيرته الحوادث وطرأت عليه الكوارث ؟ »

من طبائع تاريخ المدن الاسلامية الشهيرة ان تجد خلفاء الاسلام وملوكه وافراد امرائه قد صرفوا شطراً من عنايتهم لتشييد المساجد فيها وتعمير المدارس المختلفة الانواع لتقام شعائر الدين في الاولى ويذكر فيها اسم الله جل وعلا وتقام اسواق العلوم في الثانية وليست عنايتهم بهذا النوع من الابنية الذي يراد منه غالباً التقرب الى الله تعالى وطلب ما عنده من ثواب الآخرة باقل من عنايتهم بتشييد القصور لاستيفاء ملذاتهم الدنوية بل المحقق ان ما صرف من الاموال في بناء المساجد والمدارس في مجموع الدول الاسلامية اكثر مما صرف في تعمير القصور الملوكية واذا قايسنا بين المدن العظيمة التي بلغت النهاية في العمران في العصور السالفة وجدنا دمشق في مقدمتها بالنظر لكثرة مساجدها ومدارسها ومن قرأ ما ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه منها علم ما قلناه . مع ان اكثر ما ذكره غير موجود اليوم وكذلك ما ذكره المؤرخون بعده مما تجدد من ذلك .

وقد اشتهر بالتأليف في نوع المدارس الشيخ العلامة المؤرخ محي الدين ابن النعيمي الدمشقي في كتابه الدارس في المدارس فاحببت ان اثبت مختصره

للمؤرخ العلبوي رئيس مؤذني جامع دمشق في كتابنا هذا لمناسبته القوية وازيد عليه ما بقي الى الآن من هذه المدارس ودور العلم والقراءة معموراً واين ما اندرس منها وزال أثره او تبدل شكله وقد دمجت به ايضا ما كتبه احد البقاعي في مختصره الدارس وتاريخ معاهد العلم في دمشق لابن كنان الشهير وقبل ان ابدأ بذكر ذلك احببت ان اذكر شيئاً من محاضرة كان القاها البحاثة المؤرخ رفيق بيك العظم احد سلائل من بنى في دمشق من هذه المدارس لمناسبتها في موضوعنا .

قال ان تاريخ كل امة سواء كان مجيداً او غير مجيد قد لا يخلو مستقبله من ارتباط بماضيه لا من حيث التشابه بين طرفيه بل من حيث النتائج التي تترتب عليها نهضة الامم احيانا وتغير مجرى الحياة الاجتماعية بان تسرع بخطأ الشعوب الى مراقي الصعود ومعناه اذا كان ماضي الامة عظيما محترما في التاريخ تحرص على ان يكون اعظم احتراما في حاضرها او على ان تسترد ذلك الاحترام اذا فقدت شيئا منه . واذا كان ماضيها سيئا غير محترم في التاريخ تدأب على التخلص منه وتطلب لنفسها حاضرا اسعد منه . فالنتيجة واحدة في الحالين ولكن لمن ؟ ومن يحصل على مثل هذه النتيجة من الامم ؟ مسئلة فيها نظر حينئذ تحصل عليه امة تعلم ان لها تاريخا فتدرسه وماضيا فتبحث وترجع اليه لا سيما اذا كان تاريخا مجيدا له آثار معروفة في الوجود واثر محقق في الاجتماع . والامة كالفرد فخورة بالماضي الجميل اذا تمثل لها نفخ فيها من روحه فملأها نشاطا ودفعها الى الامام اشواطا . وان امة لا تعرف تاريخها احرى بها ان يتنكر لها الزمان وتزدري بها الشعوب لجهلها بماضي التاريخ وتنكرها الانسانية وتنكرها السماء والارض .

ان المدنية الاسلامية التي رفع منارها اسلافنا الطاهرون وغيرت شكل الارض ومجرى الاجتماع كان لمدينة دمشق هذه حظ وفير منها لا سيما في التوفر على انشاء معاهد العلم ودور التربية والتهذيب ان ما انشيء من معاهد العلم والمساجد ودور العجزة اي (التكايا) في دمشق قد بلغ عدد ذلك مأتين وبضعاً وثمانين لو وزعت المدارس منها على السنين منذ انشأ اول مدرسة في القرن الخامس الى سنة احدى وتسعين واربعماية الى عهد المؤلف في اواخر القرن التاسع لاصاب

دمشق كل سنتين مدرسة تنشأ او دار للعجزة والمرضى تشاد هذا فضلا عما انشيء من المدارس بعد ذلك التاريخ ولم يدركه المؤرخ المذكور الى ان قال :

وحسبكم ان ممن درسوا في هذه وتولوا رئاستها او نبغوا فيها من علماء الشريعة مثل الحافظ الذهبي صاحب التاريخ والأمام ابن تيمية وقاضي القضاة صدر الدين الاذرعي صاحب الجامع الصغير والعماد ابن كثير والنووي وابن الصالح والحافظ جمال الدين المزي صدر دمشق واشباههم من العلماء الكبار ومن علماء الطب مثل الرؤساء ابن ابي اصيبعة صاحب تاريخ الاطباء ومهذب الدين ابن الحاجب ونجم الدين اللبودي وموفق الدين ابن المطران ومهذب الدين الدخوار وعماد الدين الدينسري واضرابهم . ومن علماء العقليات والرياضيات والموسيقى مثل محمد ابن ابي الحكم الباهر وعز الدين السويدي البغدادي وابي الفضل الحارثي المهندس الذي بنى باب البيمارستان النوري القائم الى اليوم من عمل يده واضرابهم من الذين ملؤا المكتبة العربية بالمؤلفات النافعة في كل فن ومن راجع منكم كتاب الكواكب لابن عروة الحنبلي في اكثر من مائة مجلد وتاريخ الحافظ ابن عساكر وهما موجودان في المكتبة العمومية بدمشق وقس عليهما ما الفه علماء تلك القرون وما قبلها من الكتب في علوم شتى وغير ذلك من العلوم والفنون العصرية علم مقدار ما لهذه المدارس ومؤسسيها من الفضل على الامة وما للنابغين فيها من الاثر العظيم في الوجود بما سهروه من الليالي الطوال في التحرير والتحبير وما عانوه من النصب في وضع كتب العلم لافادة الناس حتى ملؤا بها المكاتب ونشروا العلم . وما قولكم في ان عالما واحدا من علماء الطب وهو موفق الدين ابن المطران المتوفى سنة ٥٨٧ ترك في مكتبته عشرة آلاف مجلد في الطب والعلوم الحكمية .

ولا يظن بعضكم ان هذه المدارس كانت مدارس دينية فقط وان اكثر علمائها وطلبتها من طلبة العلوم الشرعية وآلاتها فقط كلا فان فيها مدارس لغير العلوم الشرعية كالطب مثلا ومن هذه المدارس المدرسة الدخوارية والدينسرية واللبودية ولقد اخبرنا التاريخ ان معاهد العلم كانت مشاعة بين طلابه من كل فن وان الطبيب او الفلكي مثلا كان يلقي دروسه في اي مدرسة كانت من مدارس العلم

له فيها وظيفة بل في الجوامع والمساجد ايضا لانها كانت قبل ان توجد المدارس على شكلها المعهود اي قبل القرن الرابع اشبه بمدارس للعلم بل هي المدارس بعينها وما زالت كذلك معاهد للعلم والعبادة معا الى اليوم كما تعلمون.

واذكر لكم مثالا واحدا على ان المدارس الدينية كانت مشاعة لطلاب كل علم على ما نقله ابن ابي اصيبعة في ترجمة رفيع الدين الجيلي قال وكان مقيما في دمشق وهو فقيه في المدرسة العذراوية داخل باب النصر وله مجلس للمشتغلين عليه في انواع العلوم العصرية والطب وقرأت عليه شيئا منها هذا يدلكم على ان العلوم والفنون كانت مشاعة بين العلماء وان العالم بالشرع قد يكون عالما بعلوم اخرى من العلوم الحكمية والنظرية والعملية كالفلسفة والطب والموسيقى والفلك والرياضيات وغيرها من العلوم التي قامت على دعامتها المدنية الاسلامية وكانت الحلقة الوسطى بين المدنية القديمة والمدنية الحديثة الغربية الموجودة بين اظهرنا اليوم حتى اعترف بفضلها على التمدن الغربي كثير من علماء التاريخ والاجتماع في اوروبا كدربي ومونتسكيو وكوستاف لوبون وافردوا للمدنية الاسلامية كتبا خاصة أتوا فيها على ذكر ما تركته هذه الحضارة من آثار الترقي والعلم التي يجهلها اهله لهذا العهد بالاسف والعار ثم قال: تعلمون ايها السادة ما كان لترجمة كتب اهل التمدن القديم كاليونان والفرس الى العربية من الاثر الكبير في تأسيس المدنية الاسلامية في بغداد على عهد الخلفاء العباسيين وقد يتوهم بعضهم ان الذي عنى في ترجمة هذه الكتب انما هم الخلفاء وحدهم واخصهم المأمون والحال ان لكثير من الافراد ورجال الفضل والنبل من الامة يداً لا تنكر في هذا السبيل وهذا يدلكم على ان عمل الاشخاص منفردين لا يقل تأثيرا في الهيئة الاجتماعية عن عملهم مجتمعين. ولذا فلا ابالغ اذا قلت ان نوابغ الامة الذين خدموا بذكائهم وعلمهم المدنية وشيدوا اركانها الرفيعة انما قاموا بهذه الخدمة وقامت تلك المدنية بفضل اهل السخاء والجود الذينهم أسسوا تلك المدارس من محيي العلم وانصار النجاح والذين كانوا ينفقون من مالهم على المترجمين للكتب العلمية الى اللغة العربية ومن هؤلاء الاجواد الذين رصدوا جزءاً كبيراً من اموالهم على المترجمين

لكتب العلم في تلك العصور « علي بن عيسى العباسي ، ومحمد بن عبد الملك الزيات الوزير ، وبختيشوع الطبيب ، ويوحنا بن ماسوية الطبيب والعدد الكثير من امثالهم المولعين بنجاح العلم وكان ينفق الزيات في كل شهر على ذلك الف دينار قال هذا فضلا عما كان ينفقه الخلفاء من بني العباس لهذا القصد النبيل » انا والله اتمنى ان تجمع هذه الالف الدينار في كل شهر من الف غني من اغنيائنا اليوم لتنفق في نشر العلم وتربية الناشئة من ابناء هذه البلاد ولو فعلوا ذلك اليوم لعوضها عليهم ابناءهم اضعافا مضاعفة في الغد بل لو فعل ذلك اهل كل بلدة او كل قرية لأصبحت تلك القطعة بعد عشر سنين جنة قطوفها العلم وسياجها القوة والحياة ، لظهر فينا اليوم مثل الذي ارتفع بهم شأن التمدن الاسلامي وذلك مثل ابي موسى بن شاكر رئيس المهندسين الرياضيين وبني بختيشوع وابن سهل وابن ماسوية وابن حنين وابن ثابت ابن قرة وابن زهرون وابي عثمان الدمشقي وابن كرنيب ويحيى بن عدي المنطقي الشهير وابي الفرج الطبيب وابي الريحان البيروني والشيخ الرئيس ابن سينا وابي نصر الفارابي والفخر الرازي وابن الشاطر واضرابهم من العلماء الذين ظهروا في الشرق في عصور متفاوتة ابان الحضارة الاسلامية .

ومثل ابي زهر ويحيى بن السمينة وابي القاسم المرحيطي امام الرياضيين والفلكيين في عصره وابن السمح الغرناطي المهندس وسعيد بن عبد ربه الدمشقي الصالحي وابي جعفر الترحالي وابي الوليد ابن رشد واضرابهم مثل ابن الهيثم البصري صاحب التأليف في الرياضيات والفلك والمبشر بن فاتك وعلي بن رضوان وتلميذه افرائيم بن الزفان والشيخ السديد رئيس الاطباء وشمس الرئاسة ابن جميع الاسرائيلي ورشيد الدين ابي حليقة وامثالهم ممن ظهروا في مصر .

كل هؤلاء من علماء الفلسفة والطب والرياضيات والحكمة الطبيعية وغيرها من العلوم والفنون ونسبتهم كنسبة واحد في المائة ممن ظهروا في عصرهم في دمشق وبغداد ومصر وفارس والمغرب والروم والاناضول اي آسيا الصغرى وغيرها من الامصار ونهضوا بالامة واعلوا ذكر المدنية الاسلامية في الشرق والغرب وانما وضع لهم الاساس افراد من الامة قدروا قدر العلم فشيدوا معاهده (واتينا

بعدهم هدمناها) وترجموا كتبه واكرموا اهله فتكون من عمل اولئك وهؤلاء وتعاونهم جيلا بعد جيل بناء تلك المدنية العظيمة . التي فقدناها بعد . . ولم نستطع اللحاق بهم وبأبناء التمدن الحديث لاعراضنا عن العلم وغفلتنا عن تحدي الامم الراقية وقبض اكفنا عن امداد معاهد العلوم وانشاء دورها مع انا قد يطالب منا الآن ونحن جماعات فلا نجيب ما كان يعمله اسلافنا من تلقاء انفسهم ومحض رغبتهم بالعلم والمعارف وحبهم للارتقاء فما هذا الفرق العظيم انتهى كلامه .

وبالجملة نحن امة ذات ماض مجيد وتاريخ جميل وقد ترك لنا اسلافنا درساً لا يمحوه الزمان ونقشا له في كل زاوية من المشرق مكان فلن يبلغ بنا ضعف النظر او ضعف القلوب والهمم او فساد الاخلاق واستحالة الدم الى ان تتناساه ولا نقرأ صحفه الزاهية التي يدعونا كل سطر منها الى التذكر والتفكر والسعي الحثيث الى الترقي والتقدم الذي مناطه العلم والا قضي علينا بالدمار ولحق بنا العار وتبرأ منا اسلافنا الطاهرون واستعمرنا الغربيون بما وقعنا به في هذا العصر انا لله وانا اليه راجعون .

يحكى ان تيمور قبل استيلائه على دمشق كان ارسل كشافين لاحوالها من ذوي الخبرة من رجاله فعادوا اليه يحملون ان اهل هذه البلدة في نهضة علمية شملت جميع اصحاب الحرف والصنائع فكان يمتلئ قلبه يأسا من الغلبة عليهم وهكذا الى المرة الثالثة اخبره ان حالتهم تغيرت الى الجهل والخصام والنزاع وتتبع الشهوات وحب الزعامة والرئاسة وقبض الاغنياء ايديهم عن معاونة المشاريع العامة وانصراف الفقراء الى تحصيل القوت باشد ما يكون من الكد وتسلط الاغنياء وذوي الزعامة عليهم وحبس انفاسهم في صدورهم حتى انحصر العلم في افراد قليلين من الامة لا يسدون ثلمة ولا يقومون بالفرض المطلوب عدا عن انهم اصبحوا في نظر العامة غرباء في بلادهم لا يسمع لهم قول ولا يطاع لهم امر كما هي حالتنا الآن عند ذلك اشرأب عنق الطاغية تيمور الى التهام هذه المدينة الجميلة لقمة سائغة باردة فالتهمها على تفصيل ما اسلفناه لك في محله (والتاريخ يعيده نفسه) في حالتنا اليوم مع الداء القتال حب الرياسة والمرض العضال

في سبيل (الكرسي) تساير القوي وتظلم الضعيف وتؤثر طائفة على اخرى وتعطي حق هذا لذاك !

واذا غمض عليك امر من امورنا فتش عن (سياسة الكرسي) كما يفتش في شؤون اخرى عن المرأة !

هي سياسة احتكار الوظائف في اركان هذه الحكومات وانسبائهم واصدقائهم ومريديهم من يوم الاحتلال الى اليوم وهذه امراض خلقت مع الجسد فلا يمكن نزعها .

ومن الغريب ان حملة الاقلام يطلبون انعاش الاقتصاديات المائتة وتفريج كربة هذه الامة البائسة الرازحة تحت رحمة رجال الانتداب واثقال الضرائب المتنوعة والازمات الفادحة من حكومة وطنية لا تعرف من السياسة الاقتصادية الا (سياسة الكرسي) ومن التدابير الادارية الا ما يطيل بقاءها على (الكرسي) ومن الاجراءات العمرانية الا ما يجلس انسباءها واصدقاءها على (الكراسي) !

ومكلف الايام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

هذه هي اعمال ساسة آخر زمان ، بل هذه احوال وألعاب صبيان !

اناس رفعتهم الاقدار — وللاقدار حالات غريبة عجيبة — الى ذرى المعالي وأئتمنوا على مقدرات البلاد والعباد فاساؤا الى الحق والعدل والانصاف والى مصالح البلاد والعباد وهم عن اعمالهم ساهون وبملذاتهم الدنيوية لاهون .

كما قيل « اذا وسد الامر الى غير اهله فانتظر الساعة » .

هذا وصف دقيق لاخلاقنا الظاهرة والخفية بل هذه صورة روحها الحقيقية تبقى عبرة خالدة وعظة بالغة لابناء العصور فترجع الاجيال المقبلة صدى هزئها وانينها ، ضحكها وبكائها .

« وان حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل . والعدل اساس الملك »

اما ان تظهر الحكومة الوطنية بوجهين ولسانين وتكيل بكيلين ومقياسين كما فعلت الحكومات السابقة الى اليوم فهذا منتهى الظلم وسوء الادارة .

ولما كان « الحق بين الدول » في آخر الامر للسيف والمدفع قالوا ان حق الشعوب تحت ظلال السيوف .

وانا اقول : اذا اختلت الادارة واعتل العدل وضاع الحق وساد الظلم في بلد فان حق الافراد تحت ظلال الاقلام .

اجل « ان لصاحب الحق مقالا » وصاحب الحق سلطان . ولا يضار كاتب ولا شهيد ولا يدوم الظلم مهما كانت القوة ولا عدوان الا على الظالمين

وبهذه المناسبة نذكر ما قاله العلامة الشيخ عبد المحسن الاسطواني احد جهابذة رجال العلم وقاضي دمشق اليوم عن الحالة العلمية التي وصلت اليها دمشق وبين فيها مالرجال العلم من التصورات وما نابت مدارس العلم من الاضمحلال والاختلال بقصيدة طويلة رنانة اخذنا منها ماينناسب موضوعنا قال :

اصبر فدهرك غادر متناسي ... عهد الاخاء كذاك جل الناس
حسبي من الخلان تجربتي التي ... جعلتني ابره من جميع الناس
في بلدة فاقت على ارم سنا ... حصباؤها نثرت من الالماس

الى ان قال في حق المدارس

درسوا المدارس واستحلوا مالها ... ملكا فهاهي نهبة الخلاس
غفلت عيون القائمين بامرها ... واللص يرقب غفلة الحراس
فلسانها نادى فقدت نفائسي ... اهلي ومالي وافتقدت حواسي

وقد وصف ابو الفضل بن منقذ الكناني هذه المدارس بما يناسب عصره فقال

ومدارس لم تأتها في مشكل ... الا وجدت فتىً يحل المشكلا
ما أمها مرء يكابد حيرة ... وخصاصة الا اهتدى وتمولا
وبها وقوف لا يزال مغلها ... يستنقذ الاسرى ويغني العيلا
وأئمة تلقي الدروس وسادة ... تشفي النفوس وداؤها قد اعضلا
ومعاشر تخذوا الصنائع مكسباً ... وافاضل حفظوا العلوم تجملا

قال العلموي صاحب المختصر في بداية كتابه وبعد فهذا تعليق لطيف اختصرت فيه كتاب تنبيه الطالب وارشاد الدارس المنسوب للعلامة محي الدين ابي التعيمي الشافعي الدمشقي ورتبه على احد عشر بابا وخاتمه الاول في دور القرآن الثاني

في دور الحديث الثالث في مدارس الائمة الشافعية الرابع في مدارس الائمة الحنفية الخامس في مدارس الائمة المالكية السادس في مدارس الائمة الحنابلة السابع في مدارس الاطباء والحكمة الثامن في الخوانق التاسع في الرباطات والتكايا العاشر في الزوايا الحادي عشر في الترب الخاتمة في الجوامع اقول وقد زدت عليه ذكر بعض الجوامع المستحدثة وذكر بعض المعابد الشهيرة من الكنائس والاديرة الموجودة في دمشق مع بيان بعض اشياء مهمة . فمن الله تعالى استمد العناية واطلب التوفيق والهداية الى سواء الطريق وهو حسبي ونعم الوكيل .

الباب الاول في دورة القراءة : (الخيضرية) واقعة شمالي دار الحديث التنكزية بالقصاعين انشأها قاضي القضاة قطب الدين الخيضري الدمشقي الشافعي سنة ٨٧٨ هـ ووقف عليها وعلى تربته بمحلة مسجد الذبان وعلى غيرها اوقافا دارة وهي عامرة اليوم في حي الخضيرية حصل وتفقه بابن شهبة وغيره وله مؤلفات منها طبقات الشافعية وشرح الفية العراقي وشرح التنبيه مات سنة ٨٩٤ هـ وتولية اوقافها اليوم على بني الركابي .

دار القراءة الجزرية : قيل انها بدرب الحجر منسوب وقفها الى محمد ابن الجزري المقري المحدث الدمشقي عين لقضاء دمشق مرة وكتب توقيعه عماد الدين ابن كثير مات سنة ٨٢٣ هـ درست . قال في كشف الظنون قد فرغ الجزري من تأليف كتابه الحصن الحصين سنة ٧٩١ بمدرسته التي انشأها برأس عقبة الكتان في آخر باب شرقي وجميع ابوابها مشيدة بالاحجار والناس في جهد عظيم من الحصار والمياه مقطوعة والايدي اليه سبحانه مرفوعة وكل احد خائف على نفسه وماله ولقد احسن من قال

ان نابك الامر المهول اذكر اله العالمين
واذا بغى باغ عليك فدونك الحصن الحصين

دار القراءة الدلامية : واقعة بالقرب من الماردانية التي في جسر صالحية دمشق انشأها احمد ابن زين الدين دلامة رتب لارباب الوظائف في كل شهر خمسة عشر رطلا من الحلوى ورأسين غنما ولكل من الايتام جبة قطنية وقميصا ومنديلا ورتب ثلاثين

درهما في الشهر لمن قرأ حزب الصباح والمساء لابن داود ذكر ذلك ابن طولون في كتابه القلايد الجوهرية في تاريخ الصالحية مات سنة ٨٥٣ هـ وقد درست .

دار القراءة الرشائية : واقعة شمالي الخانقاه الشميصاتيه بباب الناطفيين انشأها في حدود الاربعماية رشا ابن نظيف الدمشقي مات سنة ٤٤٤ وقد زالت عينها ودخلت في غيرها والظاهر انها الاخنائية انشاء قاضي القضاة بدمشق شمس الدين ابن القاضي تاج الدين الاخنائي الدمشقي دفن بها سنة ٨١٦ قلت هي المدرسة الموجودة اليوم

٨ وبها مدفن لبني المنير والظاهر ان باب السلسلة المعروف بالناطفين منسوب الى نظيف المذكور وابوه ما شاء الله هو الفلكي صاحب الاحكام .

دار القراءة السنجارية : واقعة تجاه جامع الاموي الشمالي الشهير بباب العمارة المسمى بالناطفيين اليوم انشأها علي ابن اسماعيل السنجاري مات في مصر سنة ٧٣٥ هـ وقد درست ولم يبق من آثارها سوى قنطرة الباب وهي دار للسكن اليوم .

دار القراءة الصابونية : خارج باب الجابية معروفة غربي الطريق العام قرب مزار اوس انشأها احمد ابن علم الدين سنان ابن محمد البكري الدمشقي المعروف بابن الصابوني فرغ منها سنة ٨٦٨ ودفن بها وهي موجودة الى اليوم بيد بني البكري القاطنين بدمشق اليوم

- دار القرآن الوجيهية : واقعة قبلي المدرسة العصرونية انشاء وجيه الدين ابن النجا شيخ الحنابلة الدمشقي التنوخي كان ناظراً لاوقاف الجامع الاموي وهذه الدار اليوم درست وصارت مخزنا ودكاكين للبيع والشراء توفى الباني سنة ٧٠١ هـ .

الباب الثاني في دور الحديث ، دار الحديث الاشرفية : جوار باب القلعة الشرقي غربي المدرسة العصرونية كانت داراً للامير قيماز وله بها حمام وبناه مسكنا لشيخ المدرسين بها وذلك سنة ٧٨٢ وفتحت هذه المدرسة سنة ٦٣٠ واملى بها تقي الدين بن الصلاح الحديث وكان بها نعل النبي صلى الله عليه وسلم ويقال انها كانت الفردة اليسرى وان الفردة اليمنى كانت بالمدرسة الدماغية ولم تزل الى زمن تيمور فلما دخل دمشق اخذهما مات بانيها الاشرف سنة ٦٣٥ اول من درس ابن الصلاح وابن الحرستاني فابوشامة فالامام النووي قال السبكي :

وفي دار الحديث لطيف معنى   على بسط لها اصبو واوي
لعلي ان امس بحر وجهي   مكانا مسه قدم النواوي

فزين الدين الفارقي فكمال الدين الشريشي فصدر ابن الوكيل فكمال الدين ابن الزملكاني فكمال الدين ابن الشريشي ايضا فالحافظ المزي فتقي الدين السبكي فجماعات لم يصح الترتيب فيهم كالشيخ عماد الدين ابن كثير والقاضي تاج الدين السبكي وولده قاضي القضاة ابي ذر وزين الدين القرشي والحافظ ابن ناصر الدين وعلاء الدين ابن الصيرفي والعلامة ابن حجر والقاضي قطب الدين الخيضري قال السبكي في الطبقات ان ممن ولي مشيختها والده الامام تقي الدين علي ابن عبد الكافي بعد وفاة الحافظ ابن الحجاج يوسف المزي ثم قال والذي نراه انه ما دخلها اعلم منه ولا احفظ من المزي ولا اورع من النووي وابن الصلاح انتهى كلامه والحاصل ان جميع هؤلاء الائمة العظام تولوا مشيختها وتدريسها نعم تداولتها ايدي جهابذة الخلف بعد السلف عصر بعد عصر الى ان وصلت في عصرنا الى يد العلامة الكبير والمحدث الشهير ركن السلف والخلف من اشتهر فضله في الآفاق وانتهت اليه رآسة العلم على الاطلاق الشيخ بدر الدين الحسني بن الشيخ يوسف المغربي المراكشي خاتمة رجال الحديث بدمشق اليوم متع الله المسلمين بطول حياته وقد بلغني بان بيت القيمة في حي العمارة لصق دار بني الغزي من جهة الشرق كان مقرا لتدريس الامام النووي ايضا والله اعلم بالحقيقة وقد جددها في عصرنا الحاج سعد الله بك حلاب من اعيان تجار الاسكندرية وتقدم معنا ذكره في تراجم من سكن دمشق واستوطنها وقد مدحته شعراء دمشق بقصائد مختلفة منها:

يا ابن الكرام دع اللئيم ولا تخف   كيد الحسود عليك عون الله
فلك الهنا مولاك من بفضله   وافاك سعد الله سعد الله

وقال بعضهم:

هذه مدرسة قد اشرقت   بحديث المصطفى الهادي البشير
جد سعد الله في تجديدها   مخلصا لله مولاه الكريم

دار الحديث الاشرفية: الثانية واقعة بسفح جبل قاسيون تجاه تربة الوزير تقي

الدين السكريتي وشرقي المرشدية الحنفية وغربي الاتابكية الشافعية بناء الملك المظفر موسى ابن العادل باني المدرسة دار الحديث المتقدمة وقف تدريسها لكل من يتولى منصب قضاء الحنابلة في دمشق وهي موجودة الى اليوم.

دار الحديث الداودارية : والمدرسة واقعة داخل باب الفرج في زقاق بحرة الدفاقة وقد صارت بيتا ولم يزل بناؤها وحيطانها وما بها على حالته القديمة الى اليوم كانت رواقا للامير علم الدين سنجر الداودار المحدث فوقفه دار حديث ومدرسة مات سنة ٦٩٩ .

دار الحديث السامرية : وبها خانقاه قلت هي بالقرب من محلة مأذنة الشحم بزقاق الشيخ الدسوقي وهي مسكن شرعي اتخذت اليوم كانت دار الصدر الكبير يوسف الدين احمد البغدادي السامري فوقفها دار حديث وخانقاه وهي التي الى جانب مدرسة الكروسية ودفن بها سنة ٦٩٦ .

دار الحديث السكرية : بالقصاعين داخل باب الجابية وقد تحولت دارا واقعة في الزقاق الذي هو شرقي جامع الجركس في سوق القطن.

دار الحديث الشقشقية : بدرب البانياس كانت دار نجيب الدين الشيباني الدمشقي الصغار الشاهد المعروف بابن الشقشقة وقفها دار حديث وقد درست وبجهول محلها

دار الحديث العروية : لمشهد عروة بالجانب من الجامع الاموي قبالة الخطيبة المعروفة قديما بمشهد علي قيل له ذلك لأن اول من فتحه بعد ان كان مسجونا بالحواصل شرف الدين ابن عروة الموصلي وبنى به البركة وعمل له المحراب والخزانتين ووقف فيها كتبا وجعله دار حديث مات سنة ٦٢٠ وهي لصيقة الجامع الاموي من جهة باب القيمرية وقد صارت دارا وتكية لكل من يتولى ذكر النقشبندية في الزاوية التي هي جانب الباب.

دار الحديث الفاضليه : واقعة بجانب الجامع الاموي من جهة مدرسة الكلاسة المعروفة بالقاضي الفاضل وزير للسلطان الملك الناصر صلاح الدين قال ابن خلكان في تاريخه ووقف عليها مزرعة بزتايا تابع قرية حوره والفاصل بينهما النهر اقول قد تحولت دارا وسكنتها بني الحمصي ثم هدمت تلك الدار في آخر حكم

الاتراك واليوم باقية على حالها من الخراب وبها قبر الواقف ظاهر مات سنة٥٩٦ وقيل هو قبر محب الدين ناصر الجيش الذي تولى امرها سنة ٩١٥ درس بها الذهبي والنجم الغزي وغيرها .

- دار الحديث القلانسية : بها رباط ومنارة وتعرف الآن بالخانقاه قلت هي التي نهر يزيد جار في وسطها وينزل اليها من درج غربي مدرسة أبي عمر بصالحية دمشق وهي معروفة اليوم بجامع التكريتي واختلس جانب منها انشاء عز الدين ابن علي التميمي الدمشقي المعروف بابن القلانسي الوزير مات سنة ٧٢٩ .

دار الحديث الكروسية : غربي مأذنة الشحم بزقاق الشيخ الدسوقي جانب دار الحديث السامرية المتقدمة الذكر كانت دار محمد ابن كروس محتسب دمشق مات سنة ٦٤١ ودفن بها وهي باقية على حالها الى اليوم واختلس شيء منها وصار بيتا للسكن .

دار الحديث النورية : هي غير المدرسة النورية الكبرى والصغرى انشاء نور الدين محمود زنكي سنقر التركي قال ابن الاثير وعمر السلطان نور الدين الشهيد داراً للحديث ووقف عليها وقوفاً كثيرة هو اول من بنى داراً للحديث فيما علمنا مات سنة ٥٦٩ عن ثمان وخمسين سنة وهي واقعة شرقي دار الحديث الاشرفية ومقابلة للعدلية الصغرى وهي موجودة الى اليوم بيد بني الخطيب في سوق العصرونية .

دار الحديث النفيسية : انشاء النفيس اسماعيل الحراني ثم الدمشقي ناظر الايتام مات سنة ٦٩٦ كما قاله تلميذه ابن كثير واقعة في سوق الحرير داخل دخلة قيم الحمام القيشاني الذي صار سوقاً اليوم وقلبت دوراً بيد اربابها .

دار الحديث الناصرية : وبها رباط واقعة بالسفح قبلي الأفرم وهي الناصرية البرانية انشاء الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز بن صلاح الدين فاتح بيت المقدس وواقف الناصرتين كان يذبح في مطبخه كل يوم اربعماية رأس غنم سوى الدجاج والطيور والاجدية وله نظر حسن بنى بدمشق مدرسة وبالجبل رباطاً ومدرسة وربط لها قرية مات سنة ٦٥٩ اقول وقد بقيت عامرة يقرأ

ويصلي بها الى عام ١٣١٠ وبعدها درست وصارت جنينة للزرع وموقعها في أول حي المهاجرين عند مقبرة ابن السبكي وقد وضع يده عليها اليوم بنو المؤيد وغيرهم .

دار الحديث والقرآن التنكزية : واقعة في سوق التبن وراء سوق البزورية المعروف قديماً بسوق القمح كانت حماماً يعرف بحمام سويد فهدمها نائب السلطنة تنكز وجعلها دار قرآن وحديث عمر الخانات والمساجد وله الجامع الشهير به الى اليوم المدفون بجواره بالتربة المخصوصة سنة ٧٤٤ اقول هي موجودة الى اليوم عامرة للقراءة وتعليم الاولاد .

دار الحديث الصبابية : قبلي العادلية وشمالي الظاهرية انشاء ابن الصباب الدمشقي التاجر وقد درست وهي الآن بيوت اتخذت بيد اربابها ولهذه الدار باب من الزقاق وباب من الدخلة بجوار بني المنيني والحايري .

دار الحديث المعيدية : والمشهور انها دار قرآن انشاء الامير علي بن معيد البعلبكي وهي غربي الصبابية ويحتمل انها المعينية وقد درست وصارت دوراً وهي سكن الملا يوسف الكردي .

الباب الثالث في المدارس الشافعية

المدرسة الاتابكية : بصالحية دمشق غربيها المرشدية ودار الحديث انشاء اخت نور الدين بن ارسلان بن اتابك صاحب الموصل قال الذهبي الاتابكية امرأة الملك الاشرف صاحب المدرسة والتربة قال الصفدي ماتت سنة ٧٤٠ ودفنت بتربتها والمدرسة التي انشأتها بسفح قاسيون وقد درست .

المدرسة الاسعردية : بالجسر الابيض من صالحية دمشق انشاء ابن الاسعردي الدمشقي مات سنة ٨٢٦ هـ ودفنوه بتربته عند مدرسته وهي واقعة في الطريق ودرست .

المدرسة الاسدية : ظاهر دمشق مطلة على المرج الاخضر انشاء اسد الدين شيركوه والي مصر مات سنة ٥٦٤ معناه في العربي اسد الجبل نقل الى المدينة المنورة حسب وصيته ودفن بها وهما مدرستان برانية وجوانية وقف على ذلك

من قرية برزة ثلاثة قراريط وثمانية قراريط من قرية ضمير فالبرانية في دمشق والجوانية في مدينة حلب واما القدرية فابتلوا بالقلة لعدم رجوعهم لشرط الواقف وهي مركبة على نهر بانياس المعروفة بالقرمانية وقد درست وصارت بستانا يباع ويشرى .

مدرسة الاصفهانية : تجاه الغربا من درب الشعارين بناها تاجر من اصفهان قلت حارة الغربا وراء القجماسية وهذه المدرسة مجهولة اليوم اللهم الا ان تكون موضع مدرسة الاحمدية في سوق الحيدية او دخلت بها .

المدرسة الاقبالية : داخل باب الفرج والفراديس بناها جمال الدولة اقبال خادم الملك قال الذهبي ثم انشأ مدرسة اخرى بعد اتمام الاولى سنة ٦٣٢ وقد بليتا بتولية بني الدوركلي عليهما ومع طول الايام جعلاهما دورا ثم في آخر حكم الاتراك استخلصت الاولى الكبرى وصارت مدرسة لتعليم البنات وهي الى اليوم بيد دائرة المعارف واما الثانية لم تزل مختلسة يسكنها غاصبها وهما واقعتان في الزقاق المعروف بسبع طوالع اليوم تجاه الحمام ولم يزل بناهما العظيم باقي الى اليوم آخر من تولى بها الدرس ابن قاضي شهبة .

المدرسة الاكزية : قبالة الشبلية الحنفية بناها اكز صاحب نور الدين الشهيد اقول هي في زقاق المحكمة الشرعية وهي الزاوية التي اقام بها بنو التحلاوي الذكر ويوجد بها قبر ، آخر من درس بها ابن الحرستاني والبدر النابلسي وقد اتخذت مسكنا اليوم .

المدرسة الامجدية : واقعة بالشرف الاعلى بزقاق الصخر بناها الملك الامجد صاحب الديوان المعروف قال ابن الشحنة في تاريخه قتل سنة ٧٢٩ ومن شعره :

يذهب هذا العمر في الخسران في غفلتي عنه وفي نسياني
ضيعت عمري كله في لعب يا عمر هل بعدك عمر ثاني

قيل انه رآه بعض اصحابه في النوم فقال ما فعل الله بك اجابه :

كنت من ذنبي على وجل زال عني ذلك الوجل
امنت نفسي بوائقها عشت لما مت يا رجل

آخر من درس بها القاضي عز الدين ابن حمزة الحسني البعلبكي رئيس المؤذنين

بالاموي وابن قاضي عجلون وبها قبتان عظيمتان دفن باحداهما بانيها وقد درست وصارت بستانا لم يبق منها الا القبتان داخل البستان اليوم .

المدرسة الامينية : قبلي باب الزيادة من ابواب الجامع الاموي المسمى قديما بباب الساعات بناها امين الدين اتابك العساكر بدمشق قيل انها اول مدرسة بنيت للشافعية اقول هي واقعة في سوق الحرير باقية الى اليوم لتعليم الاولاد القراءة وقد اغتصب بعض الشيء منها اهل الجوار .

مدرسة الباذرائية : وهي البدرقية داخل باب السلام قال ابن شهبة في تاريخه سنة ٦٥٣ اشترى الباذرائي البغدادي دار سامة الكبيرة التي هي امام حمام سامة الموجود الى اليوم وهي باقية عامرة لطلبة العلم بتولية بني الشطي آخر من درس بها شمس الدين محمد الحسيبي ابن اخي تقي الدين الحصني الشهير دفين ميدان الحصا في القبيبات وهو جد بني تقي الدين وبني الحصني الموجودة ذريتهم الى اليوم بدمشق .

المدرسة البهنسية : بناها مجد الدين المعروف بابن الاشبال وزير الملك ايوب وهي واقعة بجبل الصالحية وقد درست مع غيرها من المدارس .

المدرسة التقوية : داخل باب الفراديس العمارة من اجل مدارس دمشق بناء الملك المظفر عمر شاه ايوب ابن شادي وهي واقعة في زقاق سبع طوالع اتخذها بعضهم مسكنا وزاوية لاقامة الاذكار آخر من تولى امرها ودرس بها البدر الغزي وبقيت الى سنة ٩٧١ يقام بها الذكر الى اليوم .

المدرسة الجاروخية : داخل باب الفراديس والفرج لصيق الاقبالية الحنفية شمالي الظاهرية في زقاق سبع طوالع بناها جاروخ التركماني درس شكلها وصارت دورا مطلوبة عند الجوار .

المدرسة الخصية : تجاه المدرسة الشامية البرانية في حي سوق ساروجة كان ساكنا بها الجمال المصري امام سيباي نائب الشام ثم تركت وهجرت وخربت وهي الآن بين البيوت وغصب منها اكثرها وما بقي منها الا قسم صغير لتعليم الاولاد وقد خربت واجهتها اليوم :

المدرسة الحلبية : واقعة بناحية السبعة في باب شرقي اقيمت الجمعة بها سنة ٨١٣ وقد درست اليوم ولم يعلم لها اثر .

المدرسة الخبيصية : قبلي الزنجاري وقبلي جامع التوبة قلت هي الآن خرابة وربما دخلت في البساتين وقد استحالت دوراً .

المدرسة الخليلية : بانيها سيف الدين الخليلي المتوفى سنة ٧٤٦ ولا يعرف عنها شيء .

المدرسة الدماغية : داخل باب الفرج غربي الباب الثاني قبلي الطاحون وهي قبلي وشرقي الطريق الآخذ الى باب القلعة الشرقي والطريق بينها وبين الخندق انشأتها عائشة بنت الدماغ سنة ٦٣٨ وقفت عليها ثمانية اسهم من قصر اللبان وثلث مزرعة الدماغية وحمام اسرائيل وحصة بدير سلمان ومزرعة شرحوب عند قصر ام حكيم شرقي عراد وقبلي شقحب قال ابن شهبة في تاريخه ان فردة النعل اليمنى للنبي صلى الله عليه وسلم كانت بها واليسرى في دار الحديث الاشرفية درس بها جماعة كثيرون آخرهم ابن قاضي عجلون وقد درست وصارت قاعة لعمل النشا وبيتا ولابد دائرة الاوقاف الاسلامية اخذت مايصيبها من هذا الاستبدال .

المدرسة الدولعية : واقعة بين باب جيرون وباب السلام قبلي المدرسة البدرقية للغرب وهي في حارة الداغستاني المعروفة وبها المدفن باق الى اليوم بناها الدولعي الدمشقي خطيب جامع دمشق واصله من الدولعية من قرية الموصل استولى على وقفها وعليها ابن قاضي عجلون آخر من درس بها العلائي الطرابلسي امام الحنفية بالجامع الاموي سنة ٩٧٤ وقد صارت دوراً اليوم .

المدرسة الركنية الجوانية : غربي المقدمية داخل الدخلة لبني عبد الهادي وهي منضمة الى دارهم وشمالي الاقباليتين في حي العمارة واقفها ركن الدين آخر من درس بها كمال الدين الحسيني ابن حمزة وقد صارت بيتا ولم يزل باقيا من آثارها الى اليوم .

المدرسة الرواحية : شرقي الجامع الاموي ولصيقة له وشمالي باب جيرون وغربي الدولعية وهي مسجد ومدرسة بناها التاجر ابن رواحة سنة ٦٢٢ شرط ان لا يدخل مدرسته حبلي حـ ى قال الذهبي في تاريخ الاسلام اقول انها واقعة

عند فرن الغزي قبلي بحرة السبيل على الجادة وصارت بيتا ومسكنا لبني القيمة وهي ملاصقة لدار بني الغزي وكان بها خزانة كتب مقصودة خاصة برجال العلم .

المدرسة الشامية البرانية : تعرف بالحسامية قال ابن خلكان في تاريخه بناها زمرد خاتون ست الشام وهي في حي سوق ساروجة على الجادة عامرة وموجودة الى اليوم يصلى بها .

المدرسة الشامية الجوانية : واقعة قبلي البيمارستان النوري بناها ست الشام المتقدم ذكرها كانت دارا لها وفيها توفيت ودفنت بها وتعرف هذه المدرسة ايضا بالحسامية لانه دفن ابنها حسام الدين بها عند والدته في القبر الثالث والذي يليه زوجها وابن عمها وقد صارت بيتا الا انه لم تزل القبور باقية في داخلها وعلى بابها الحجر الكبير مكتوب عليه اوقافها ومن جملتها احد عشر سهما من قرية جرمانا

المدرسة الشاهينية : وهي حلقة تدريس في جامع التوبة للامير شاهين الذي عمر الجامع المذكور من ماله بعد احراقه في رمضان سنة ٨١٦ وهذه البقعة معروفة الى اليوم .

المدرسة الشومانية : انشأ خاتون بنت شومان وهي المسماة بالطيبة والظاهر انه احترقت في فتنة التيمور وغير اسمها بالطيبة وهي جانب زاوية النحلاوي في زقاق المحكمة وقد صارت بيتا .

المدرسة الشريفية : وفي تاريخ مرآت الشام انها قبلي الجامع الاموي بالصاغة لم يعرف واقفها واضحت حوانيت .

المدرسة الصالحية : تربة ام الصالح غربي الطيبة والجوهرية وقبلي الشامية الجوانية وقفها الصالح اسماعيل ابن الملك العادل وكان ملكا دفن بها هو وابنه الملك السعيد سنة ٦٦٨ ودفن بها ايضا اخوه الملك المنصور سنة ٧٢٧ ودفن بها ايضا الملك الكامل سنة ٧٢٣ ودفن بها ايضا خاتون بنت الملك الصالح وبجانبها المدرسة الظبيانية وهما في الدخلة المسدودة امام دارين البكري قبلي البيمارستان وقد تحولتا اليوم ثلاثة بيوت وفي احدهما القبور موجودة الى اليوم وربما يوجد تحت جدرانهما كثير من الاشياء الثمينة .

المدرسة الصارمية : بناها صارم الدين جاوك قيماز واقعة قبلي العذراوية نقل

حملة الاخبار انها هي دار القيافيي ولصيقها التي كانت دار للحكومة في زقاق العامود

المدرسة الطبرية : بباب البريد طويت بالنورية لم يعلم مكانها .

المدرسة الظبيبية : قبلي النورية وهي الآن دار لبني العظمة وبني كيوان .

- المدرسة الصلاحية : قبلي الشامية الجوانية وغربي الصالحية التي هي غربي الطبية اذا وقف الناظر عند باب البيمارستان قابله طريق وباوله من الجانب الشمالي باب مدرسة قديم وكان الحجر الذي فوقه مكتوبا عليه اوقافها وهي المدرسة التي ظهرت في عصرنا وكانت بيتا ثم تغير شكلها ببناء عظيم بحجر اسود وجعل من هذا البناء مخازن يستغلها اربابها .

المدرسة الظاهرية البرانية : خارج باب النصر شرقي الخاتونية الحنفية وغربي الخانقاه الحسامية بين نهر بانياس والقنوات بالشرف القبلي بناء الملك الظاهر ابن الملك الناصر صلاح الدين درست وهي غير معلومة اليوم :

المدرسة الظاهرية الجوانية : وقفها على الحنفية والشافعية الملك المتقدم الذكر داخل باب الفرج والفراديس قبلي الاقباليتين وشرقي العادلية الكبرى كانت دار العقيقي فاشتراها من تركته ايوب والد صلاح الدين فكانت داره فانشأها الظاهر بيبرس مدرسة ودار حديث وتربة في سنة ٦٩٠ مات سنة ٦٧٦ بقصره الابلق الذي بنى مكانه التكية السليمانية الموجودة في مرج الاخضر ودفن في تربته وهي موجودة الى اليوم عامرة بها المكتبة العمومية ومدرسة للتعليم .

المدرسة العادلية الكبرى : تجاه الظاهرية يفصل بينهما الطريق اول من انشأها نور الدين الشهيد ولم تتم ثم العادل ولم تتم ثم ولده الملك المعظم ووقف عليها الاوقاف ودفن فيها والده سيف الدين ونسبها اليه وقبره لم يزل بها موجودا كانت دخلت توليتها على بني المنيني قديما ثم في عصرنا هذا اخذت وصارت دار الآثار ومقر المجمع العلمي الذي تأسس حديثاً في دمشق وجمع بها كثير من الآثار القديمة العهد المتنوعة الشكل وكل من دخل دمشق من مشاهر رجال الشرق والغرب يندهش من تكوين بناء هذا المعهد وما حواه من النفائس اذ صار يعد من اجل محاسن دمشق يقصده علماء الآثار من كل مكان وقد اتينا في الباب

التاسع على وصف هذا المجمع ومتحفه وما به من الآثار والكتب النفيسة. واليوم تقررت الحكومة الوطنية بافراز المكتبة العامة وادارتها عن ادارة المجمع ومتحفه المربوط ادارته في دائرة المعارف من يوم تأسيسه وارجاع ادارة المكتبة الى دائرة الاوقاف الاسلامية العامة كما كانت منذ يوم تأسيسها في عهد الحكومة التركية

المدرسة العادلية الصغرى: داخل باب الفرج شرقي باب القلعة الشرقي قبلي الدماغية بناها زهرة خاتون بنت العادل كانت مسكناً وداراً لابن سوسك وهي مقابل دار الحديث النورية الصغرى في سوق العصرونية اليوم فملكتها زهرة خاتون ووقفت عليها جميع ماورثته من عمة ابيها بابا خاتون وملكته وذلك قرية كامد والحصة من قرية برقوم تابع حلب والحصة من قرية بيت الدار والحمام وهو المعروف بحمام العصرونية الصغير وقديما بابن سوسك وجعلتها مدفنا ومدرسة وهي باقية عامرة الى اليوم يصلى بها .

المدرسة العذراوية : داخل باب النصر وجوار دار العدل وبها باب ينفذ اليها بحارة الغرباء بناها على الشافعية والحنفية عذرا خاتون بنت السلطان صلاح الدين يوسف ودفنت بها اول من درس بها الفخر ابن عساكر هي اليوم في زقاق مبلط في اول الدخلة الغير نافذة التي بها جامع السنانية الصغير صارت بيتا ولم يزل بعض من آثارها ظاهراً الى اليوم.

المدرسة العزيزية: غربي التربة الاشرفية وشمالي دار الحديث الفاضلة في الكلاسة لصيق الجامع الاموي اول من اسسها الملك الافضل ثم تممها الملك العزيز توفي عن ثمان وعشرين سنة كان شابا ونقل والده السلطان صلاح الدين يوسف ودفن بقبر في جوارها بعد ان دفن بالقلعة درس بها بنو الزكي وابن شهبة وقد اخذ قسم كبير منها وصار دوراً وفي آخر حكم الاتراك دفن بجانب مدفن السلطان الطيارون الاتراك الذين استشهدوا في طريقهم لدمشق .

المدرسة العصرونية : داخل باب الفرج والنصر شرقي القلعة وغربي الجامع الاموي بناها في محلته قاضي القضاة شرف الدين عبد الله ابن ابي عصرون التميمي الجويني الموصلي ثم الدمشقي توفي عن ثلاث وتسعين سنة ودفن بمدرسته هذه

قبالة داره وفوض السلطان القضاء لولده روى عنه الائمة العظام وكان المرجع في الاحكام والف كتباً كثيرة عظيمة جداً لم نر من آثر لها في بلادنا وربما توجد في مكاتب مصر والآسلامبول والغرب وله شعر رائق وديوان معروف وشرط ان يكون المدرس بها من ذريته فان لم يكن اهلا استناب قلت والله اعلم لما انقطعت الذرية من العلم تخلل بين الذرية في التدريس والتولية عليها من ليس منها من العلماء وهم اروع من ان يأكلوا حراماً لو لا سوغ ذلك شرعا لتعذر الذرية انتهى وقد بقيت هذه المدرسة عامرة وبها القبر الى يومنا هذا ثم طرأ الحريق عليها وبقيت خرابا وتسلط على بعض منها جماعة من جيرانها هيأ الله لها معاونة دائرة الاوقاف لاعمارها وهيء لها من اجل اهل البر والاحسان لأرجاعها .

ومن شعر شرف الدين ابن ابي عصرون قوله :

اؤمل ان احيا وفي كل ساعة   تمر بي الموتى تهز نعوشها
وما انا الا منهم غير ان لي   بقايا ليال في الزمان اعيشها

ووجد بخطه في احد كتبه ومؤلفاته :

يا ناظراً في الكتاب بعدي   مجتنيـا من ثمار جهدي
لي افتقار الى دعاء   تهديه لي في ظلام لحدي
اصبحت بعد الغنى فقيراً   وبعد جمع الجموع وحدي

المدرسة العمادية : داخل باب الفرج لصيق الدماغية بناء عماد الدين بن نور الدين والواقف عليها السلطان صلاح الدين اقول لعلها المسجد والمصلى الموجود اليوم تجاه باب القلعة من جهة العصرونية وقبليها سوق القدمي اليوم ، وهي كتاب للصبيان .

المدرسة الفارسية : غربي الجوزية تجاه الخارج من باب الزيادة وقفها فارس الداودار سنة ٨٠٨ والظاهر انه هو واقف التتمية بميدان الحصى كان يفرق بها في كل جمعة ربع قنطار خبز وهي جامع بين البحرتين باقية الى اليوم مسجد او مصلى ومن نظم بانيها : هذه دارنا التي نحن فيها   دار حق وما سواها يزول
فاعتمر للذات داراً اليها   عن قريب يقضي بك التحويل

المدرسة الفتحية : انشاء الملك فتح الدين صاحب ماردين وبها قبر الواقف وقفها وهو بالديار المصرية قلت هي مجهولة المكان والله اعلم .

المدرسة الفخرية : بين السورين انشاء الاستاذ فخر الدين وتم بناؤها في رمضان سنة ٨٢١ وفوض تدريسها لشمس الدين البرماوي قلت هو شارح البخاري وقد درست وصارت داراً .

المدرسة الفلكية : غربي المدرسة الركنية الجوانية بحارة الافتريس هي بالزقاق الساكن به القاضي ابن مفلح الحنبلي انشاء فلك الدين اخي العادل لامه وبها قبره مات سنة ٥٩٩ واقعة في زقاق بين السورين درست وصارت دوراً .

المدرسة القليجية : داخل باب شرقي وباب توما شرقي السمارية انشاء مجاهد الدين وهي في موضع يعرف بقصر الحديد قال العلموي هذه المدرسة مجهولة عندي

المدرسة القواسية : بالعقيبة الصغيرة بحارة السلماني قرب مسجد الزيتونة كانت داراً للامير عز الدين قواس ومباشر عند السلطنة فلما حضره الموت اوصى بجعلها مدرسة

المدرسة القيمرية الجوانية : بناها ناصر الدين القيمري الذي سلم الشام للملك الناصر مات مرابطاً بالساحل سنة ٦٦٥ وهي مدرسة القطاط الموجودة اليوم .

المدرسة القيمرية الصغرى : بالقباقبية العتيقة غربي المقدمية هي في العمارة مسجد القحقي والديناري يصلى بها اليوم وذهب قسم منها وصار دوراً نزل بها الباعوني سنة ٨٩٢ .

المدرسة الكروسية : جانب السامرية الشافعية واقفها محمد بن كروس محتسب دمشق سنة ٦٤١ سكنها الشيخ ابي البقا البقاعي الخطيب الشافعي المنحف آخر ايامه درست وصارت داراً .

المدرسة الكلاسة : لصيق الجامع الاموي بناها الملك الاشرف موسى ابن الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن ايوب وبها البحرة الكبيرة الى اليوم اعمرها نور الدين الشهيد سنة ٥٥٥ واحترقت هي ومأذنة العروس سنة ٥٧٦ سميت بذلك لانها كانت موضع عمل الكلس ايام بناء الجامع الاموي ثم امر بتجديدها السلطان صلاح الدين آخر من درس بها رضي الدين الغزي وقد اختلط بها

قسم من المدرسة العزيزية وبها قبر السلطان صلاح الدين ومدرسة الفاضلية وبها المدفن.

المدرسة الجاهدية الجوانية : بالقرب من باب الخواصين واقفها مجاهد الدين مات سنة ٥٥٥ ودفن بمدرسة الجاهدية الاخرى بباب الفراديس في حي العمارة المعروفة به والعمارة الموجودة وهي جامع السادات اليوم داخل باب الفراديس عند باب الحديد واما الجوانية هذه فهي واقعة في زقاق البورص لصيق المدرسة القلبقجية من جهة اليمين ولها حيطان جسيمة بحجر كبير وقد خرب اكثرها وصار مخازن للتجارة وبيوت للسكن تجاه بناء المرابط .

المدرسة المسرورية : بباب البريد انشاء مسرور الطواشي وقفها عليه شبل الدولة الحسامي واقف الشبلية قال العلموي مجهولة عندي في اي مكان هي .

المدرسة المنكلانية : وهي معروفة قرب المدرسة القيمرية الجوانية قال العلموي هي جوار محمود ابن البابا وهي جامع المنكلاني الذي يصلى به اليوم .

المدرسة الناصرية : شمالي الجامع الاموي في حي العمارة انشاء الملك الناصر يوسف ابن السلطان صلاح الدين ايوب آخر من درس بها قاضي القضاة ابن فرفور الدمشقي وهي لم تزل آثار جدرانها باقية الى اليوم مع بابها الكبير وصار داخلها دوراً وبجانب بابها بحرة السبيل على الطريق .

المدرسة المجنونية : شرقي الشامية البرانية بالعقيبة واقعة على الطريق انشاء شرف الزرزاري المعروف بالسبع المجانين بعد الثلاثين وستماية قال العلموي والآن معروف بالسبع المجاهدين قلت هي اليوم معروفة بالشيخ مجاهد يقام بها الذكر من قبل بني العكر .

المدرسه النجيبية : لصيق المدرسة النورية والباب وضريح نور الدين من جهة الشمال انشأها النجيبي مات سنة ٦٦٧ وهي محل مدفن دقيق العيد وبيت ركاب الذي هو مخازن اليوم وكان قديما بيتا للسكن .

الباب الرابع في مدارس الحنفية

المدرسة الاسدية : تقدم ذكرها وانها على الفريقين الحنفية والشافعية واقعة

في ارض الشرف تنظر على المرج الاخضر وقد درست وصارت بستاناً يباع ويشرى .

المدرسة الآمدية : بالصالحية العتيقة جوار الميطور من الغرب لا يعلم حالها .

المدرسة البدرية : قبالة الشبلية عند جسر الشبلية بناها بدر الدين ابن الداية كان من امراء نور الدين الشهيد سكنها سبط ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان صارت بستان السذبوسكي في طريق عين الكرش .

المدرسة البلخية : تعرف قديماً بدار أبي الدرداء رضي الله عنه انشأها الزقاقي بعد سنة ٥٣٥ كان لها باب عند حمام باب البريد الذي قلب قهوة وفرناً ثم جعل لها باب داخل الصادرية من جانب مدرستها وتعرف ببيت الشيخ برهان الدين البلخي .

المدرسية الناشية : وكانت تعرف بمسجد الناشي انشأها الامير ناشق الدقاقي قال العلموي هي مجهولة عندي ولا يعرف مكانها .

المدرسة الهلالية : وبها تربة الواقف قاضي القضاة حسام الدين الرازي هي قريبة من البيمارستان وقد بقي منها اليوم محل التربة والمصلى في الزقاق الذي اشتهر به .

المدرسة الجمالية : بسفح قاسيون انشأها الامير جمال الدين يوسف ولا يعرف مكانها .

المدرسة الجقمقية : معروفة الى اليوم شمالي الجامع الاموي وبجانبها خانقاه يفصل بينهما الطريق اسسها سنجر الهلالي وولده شمس الدين فانتزعها منه الملك الناصر سنة ٧٦١ ثم امر بعمارتها فعمرت وجعلوا لها شبابيك من شرقيها وبنوها بالحجر الابلق ثم في الفتنة احترقت وبعد ان تولى دمشق سيف الدين جقمق سنة ٨٣٢ شرع في عمارتها ووسعها من جهة القبلة وجعل لها شبابيك من جهة مدرسة الكلاسة ومن جهة الشمال وبنى الخانقاه مقابلها للصوفية وجعلها تربة وجعل في قبلة التربة مكتباً للايتام وهي باقية الى اليوم بتولية بني البكري .

المدرسة الجركسية : واقفها جركس فخر الدين الصلاحي وبها قبره وكان نائباً عن العادل بانياس قال العلموي لم يعين المصنف مكانها وهي بالصالحية

بطرف السوق فوق يزيد عند الجامع الجديد ومكانها معروف مشهور لم يبق منها سوى القبتين وجدرانها حجر نحيت .

المدرسة الجوهرية : بحارة البلاطة شرقي تربة ام الصالح ومدرسة الصالحية في دخلة بني الدردري في زقاق المحكمة الشرعية كانت تحولت بيتاً ثم استرجعت من قبل الورثة وصارت مدرسة لتعليم الاولاد انشأها الصدر نجم الدين ابن عباس مات سنة ٦٩٤ ودفن بها .

المدرسة الحاجبية : والخانقاه بها قبلي المدرسة العمرية قلت هي بالصالحية انشأ الامير ناصر الدين ابن المبارك مات سنة ٨٧٨ ودفن بالقرب من تربة السبكيين تحت كهف جبريل من سفح قاسيون وقد خربت وصارت ساحة سماوية محاطة بدك وبها حوض ماء .

المدرسة الخاتونية البرانية : مسجد خاتون على الشرف القبلي هي ام شمس الملوك اخت الملك دقاق وزوجة تاج الملوك توري قلت الظاهر ان نهر توري منسوب اليه او جدده ماتت بالبقيع في المدينة سنة ٥٥٧ وليست هي خاتون بنت معين الدين التي يأتي ذكرها قلت هذه الخاتونية هي شمالي نهر بانياس مطلة على الميدان الاخضر وكانت قديما بمأذنة ومنبر وبقي ذلك الى اوائل الدولة العثمانية واول من خربها واخذ رخامها ومحاريبها سيباي حاكم دمشق ووضع ذلك بمدرسته الكائنة بباب الجابية الملقبة بجمع الجوامع وهي اليوم حدائق .

المدرسة الخاتونية الجوانية : بمحلة حجر الذهب انشاء خاتون بنت معين الدين زوجة نور الدين الشهيد ثم السلطان صلاح الدين وقفها سعد الدين اخوها عليها ثم على عقبها وماتت ولم تعقب وهي بانية الخانقاه ظاهر باب النصر اول الشرف القبلي راكب على نهر بانياس قلت واقعة هذه المدرسة بجانب طريق الارماني في شارع النصر الجديد ويليها جامع تنكز من الغرب ومن القبلة الجادة الكبيرة وقد ذهب قسم منها الى الطريق وبقي شيء منها جعل دارا لتعليم الاولاد جانب الجنينة ودكاكين ماتت خاتون سنة ٥٨١ ودفنت في سفح جبل قاسيون قبلي الجركسية .

المدرسة الركنية البرانية : بالصالحية انشاء الامير ركن الدين منكورس الفلكي سنة ٦٣١ غلام فلك الدين اخي الملك العادل لأمه مات الامير بقرية جيرود وحمل الى تربته الخاصة به في هذه المدرسة قلت هي واقعة في حي الاكراد موجودة الى اليوم في بنائها القديم .

المدرسة الريحانية : واقعة جوار النورية انشأها ريحان الطواشي خادم السلطان نور الدين الشهيد سنة ٥٦٥ كان من اكبر خدمه وولي القلعة والسجن من قبله في دمشق واستماله السلطان صلاح الدين اليه وهو نائب القلعة حتى سلمه اياها ووقف عليها اوقافا كثيرة لم تزل مكتوبة على حجر كبير فوق باب المدرسة نعرف منها المزرعة الريحانية التي هي شهيرة في حي الميدان واكثر اوقافها مغصوبة والمدرسة باقية الى اليوم يعلم بها الاولاد وقد وجدت في هذه المدرسة في زمن الاستاذ الشيخ محمد المبارك والمزرعة بيد صبحي بيك اجل يقين وبلغني بأن متولي المدرسة الشيخ اسعد الصاحب النقشبندي سلم اليه حجة الوقف في هذه المزرعة مقابل فائدة دنيوية وحسابه على ربه .

المدرسة الزنجارية : واقعة خارج باب توما ويقال لها الزنجيلية السبعة وبها تربة انشأها الزنجيلي صاحب اليمن سكن الشام ايام العادل وبها دفن كانت من احسن المدارس على بابها الرخام الذي هو من عجائب الدنيا في الصنع والاتقان وقد غصبت وصارت جنائن ودرس بنائها .

المدرسة السيبائية : هو جامع سيباي الشهير بالمعلق الموجود اليوم انشاء نائب الشام سيباي سنة ٩٢١ وجعلها جامعا ومدرسة وزاوية وتربة عمرها بالحجر الابلق والرخام لم يدع بدمشق مسجدا مهجورا ولا مدفنا معمورا الا واخذ من الاحجار والالات والرخام والعواميد ما احب واراد ونقله اليها حتى سماها علماء دمشق جمع الجوامع قتل سيباي ولم يدفن بمدفنه بها كما قال تعالى فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا .

المدرسة الشبلية البرانية : واقعة بسفح قاسيون انشأها شبل الدولة كافور الحسامي الرومي وهو المستحث على عمارة الخانقاه والتربة والساباط والسبيل والمصنع

كان وافر المروءة مات سنة ٦٢٣ ودفن بتربته هناك وقد درست هذه المدرسة وغصب اكثرها ولم يبق منها الا قطعة يسيرة وله ايضا المدرسة الشبلية الجوانية واقعة جانب المحكمة الشرعية الكبرى على الطريق وهي المصبغة الموجودة اليوم قبالة الاكزبة وزاوية النحلاوي .

المدرسة الصادرية : داخل باب البريد انشأها صادر بن عبدالله وهي اول مدرسة انشئت بدمشق سنة احدى وتسعين واربعماية درس بها ابو الحسن البلخي صاحب المدرسة البلخية لصيقها التي كان لها باب من جانب حمام باب البريد وتقدم ذكرها واما الصادرية آخر من تولى امرها ودرس بها العلامة الشيخ خليل الخشة وقد خرب سقفها وبقي محرابها وبابها القديم وبجانبه الشباك وهي قبلي دارنا وغربي باب الجامع الاموي ذكرها صاحب تلخيص ابن عساكر .

المدرسة الطرخانية : واقعة قبلي مدرسة البدرقية المتقدمة الذكر انشأها طرخان احد الامراء الكبار بدمشق مات سنة عشرين وخمسمائة وقد غصبت وصارت بيتا للسكن اليوم .

المدرسة الطومانية : واقعة في سوق العصرونية القديم تجاه مدرسة دار الحديث الاشرفية غربي الشريفية والفقاعية غصبت وصارت جنينة وسميت بحارة يانكو وبعد ذلك صارت سوقا بجانب البنك الموجود اليوم قال العلموي لعل واقفها طومان النوري وقد سعى لأرجاعها العلامة الشيخ يوسف المغربي والد المحدث الشيخ بدر الدين الشهير فلم يفلح .

المدرسة العزيزية : واقعة بجوار المدرسة المعظمية في صالحية دمشق بناه الملك العزيز عثمان ابن العادل شقيق الملك المعظم مات سنة ٦٣٠ وقد درست وهي اليوم مقبرة محوطة .

المدرسة العزية البرانية : واقعة في زقاق الصخر فوق الوراقة شمالي عين القصارين تطل على المرج الاخضر بناها الامير عز الدين سنة ٦٣٦ الذي استنابه الملك المعظم على صرخد دفن في تربته فوق الوراقة وقد درست وصارت بستانا وقد انشأ ايضا العزيزية الجوانية في الصالحية المعروفة بالكشك .

المدرسة العلمية : شرقي جبل الصالحية وغربي الميطورية درست وفقدت ولم يعلم مكانها اليوم .

المدرسة الفتحية : مجهول مكانها اليوم قال العلموي برحبة خالد بن ابي الهيثم البجلي الفنوي امير مكة الوليد بن عبد الملك بن سليمان قال ابن عساكر وداره بدمشق الدار الكبيرة بقرب القدم بدار الشريف الزيدي واليه ينسب الحمام الذي هو مقابل قنطرة سنان بباب توما درس بها صدر الدين الاذرعي صاحب الجامع الصغير ومن شعره :

اذا شئت ان تعطي الامور حقوقها وتوقع حكم العدل احسن موقعه
فلا تصنع المعروف مع غير اهله فظلمك وضع الشيء في غير موضعه

المدرسة الفرخشاهية : واقعة في الشرف الاعلى وقد صارت بستانا اليوم واقفتها زوجة شاه نشاه ابن ايوب صلاح الدين مات سنة ٥٧٨ ودفن بمدرسته بالشرف الاعلى بقيته الموجودة الى اليوم والى جانبها الامجدية لولده .

المدرسة القجماسية : داخل باب النصر والسعادة بناها حاكم الشام ونائبها قجماس الجركسي تمرض في حي الصالحية ببستان ابن دلامة وأتي به ودفن بتربته بالمدرسة المذكورة وهي في سوق الجديد موجودة الى اليوم يصلى بها ويقام بها الاذان .

المدرسة القصاعية : واقعة جهة محلة الخضيرية درست وصارت دورا شرط واقفها ان يكون المدرس بها اعلم الناس بالاصلين درس بها الرازي وكان يدرس بالرواق الشمالي من جامع دمشق رؤي في المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال مفرد

ما كان لي شافع عنده غير اعتقادي انه واحد

المدرسة الظاهرية : بالصالحية على حافة نهر يزيد لصيق القلانسية المشهورة بالخانقاه يفصل بينها الطريق وغربي العمرية وقد درست وصارت جنينة ودارا .

المدرسة القليجية : لسيف الدين قليج النوري وبها قبر الواقف انشأها سنة ٦٤٥ واقعة في سوق التبن جانب السبيل قبلي الخضرا شمالي الصدرية وجددت سنة ٩٧٠ وهي باقية الى اليوم .

المدرسة القيمازية : داخل باب النصر والفرج بناها قيماز متولي اعمال السلطان

صلاح الدين مات سنة ٥٩٦ وكلما فتح بلدة سلمها اليه ليروضها قلت هي واقعة في سوق العصرونية جانب دار الحديث من جهة الشرق وقد غصب اكثرها ولم يبق منها الا قسم صغير وبه قبر .

المدرسة المرشدية : على نهر يزيد بصالحية دمشق جوار دار الحديث الاشرفية الصغرى بناء بنت الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن العادل سنة ٦٥٤ وهي باقية الى اليوم .

المدرسة المعظمية : بالصالحية بسفح قاسيون القربي جوار المدرسة العزيزية بناها الملك المعظم عيسى المذكور كان يحفظ المفصل ونقل انه جعل لمن يحفظ المفصل والجامع الكبير مأتي دينار ويحفظ الايضاح وهو الذي جدد البرك والمصانع في طريق الحج وبنى سور دمشق وبنى بمعان مضيفا وحمامين قلت هي باقية الى اليوم معروفة عند اهل الصالحية وبها قبور .

المدرسة المعينية : واقعة بالطريق الآخذ الى العصرونية قرب بحرة الدفاقة بناها معين الدين بن اتابك صاحب دمشق توفي سنة ٥٥٥ ودفن بقبة تربة العونية شمالي دار البطيخ قلت هذه المدرسة هي في صدر الزقاق النازل من تجاه مدرسة عصرون وقد جعلت بيتا ودخل في ملكية علي افندي القرملي ثم وقفه الى الجامع الاموي ورتب من ريعه ستمائة قرش الى امامية الحنفي في كل سنة .

المدرسة الماردانية : على حافة نهر ثورى لصيق الجسر الابيض بناها عزيزة بنت صاحب ماردين وزوجة الملك المعظم سنة ٦١٥ ودفن بها ابن ازدمر سنة ٨١٦ وهي معروفة ومشهورة الى اليوم يصلى بها ويقام بها الاذان وقد دفن بها ايضا جد بني المؤيد .

المدرسة المقدمية الجوانية : داخل باب الفراديس بناها الامير ابن المقدم في ايام الصلاحية وهو الذي سلم سنجار لنور الدين وصار نائبا عن صلاح الدين بدمشق وله دار كبيرة جانب مدرسته قلت صارت الدار الكبيرة دورا متعددة والمدرسة باقيه الى اليوم وله المقدمية البرانية في صالحية دمشق بسفح قاسيون وهي تربة ابن المقدم موجودة الى اليوم ومن اوقافها الازوار المعروفة بجهاء

وقرية المحمدية وجسرين بغوطة دمشق وداخلها غرف تؤجر وحرمها مخزن .

المدرسة المنجكية : بالخلخال قبلي الصوفية وغربيها بناها الامير سيف الدين منجك اليوسفي الناصري من مماليك ابن قلاوون ووقف عليها حمامه المعروف والقرن والخلخال محلة كان بها سويقة وحوانيت وحمام وفرن ولم يعلم محلها الآن وقلبت حدائق .

المدرسة الميطورية : شرقي جبل الصالحية والميطور الشرقي وقف فاطمة خاتون بنت سلار الدولة سنة ٦٣٩ وهي امام الجامع المظفري بالقرب من التربة الصارمية والميطور على جانب يزيد مشهور الى اليوم وقد درست .

المدرسة النورية الكبرى : بناها ابن السلطان نور الدين الشهيد ونقل السلطان من القلعة ودفن بها وهي دار هشام ابن عبد الملك ونقل حملة الاخبار انه كانت قبلا ملكا لمعاوية الخليفة ابن ابي سفيان كان السلطان يأكل من عمل يده وهي عامرة الى اليوم يصلى بها ويقام بها الاذان وقد غصب بعض اطرافها من الجيران .

المدرسة النورية الصغرى : تجاه باب قلعة دمشق من جهة الغرب واقفها السلطان نور الدين المذكور وقد ادخلت في مسجد سيدي خليل وهدم ايضا في عصرنا في زمن الحرب العامة واستبدلت دائرة الاوقاف بدمشق عنها وعن غيرهما من المدارس والمساجد بقطعة ارض كبيرة في الشارع الجديد .

المدرسة اليغمورية : بالصالحية الظاهر ان واقفها جمال الدين ابن يغمور الباروهي من اعيان الامراء ولي نيابة مصر ثم دمشق قلت لم يبق منها سوى بابها وقسم كبير من هيئتها الخارجية وغصب داخلها تماماً يعرفها اهل الجوار وتعرف من الحجج الشرعية التي بايديهم .

الباب الخامس في مدارس الائمة المالكية

المدرسة الشرابشية : واقعة بدرب الشعارين لصيق حمام المرادنية بناء الشرابشي التاجر سنة ٧٢٤ درست وصارت مخازن قال ابن بطوطة في رحلته وصلت الى

دمشق سنة ٧٢٦ في اليوم التاسع من رمضان فنزلت فيها بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابشية .

المدرسة الصمصامية : بمحلة حجر الذهب شرقي دار القرآن الوجيهية وضع يده عليها سنان الرومي ناظر البيمارستان النوري سنة ٩٦٨ درست ودخلت في طريق سوق الحميدية الجديد .

المدرسة الصلاحية : انشأها السلطان صلاح الدين بالقرب من البيمارستان النوري تحول شكلها الى دور السكن ولم يزل احجارها الضخمة باقية الى اليوم وربما تزول ويذهب اثرها بعد طول الايام وتدخل في بطون الغاصبين .

الباب السادس في مدارس الائمة الحنابلة

المدرسة الجوزية : بسوق القمح يعني البزورية اليوم انشاء ابن جمال الدين الجوزي البكري سنة ٥٨٠ قتل لما دخل هولاكو ملك التتار الى بغداد وقتل الخليفة معه قلت هي في اول السوق من جهة اليسار كانت مقراً للمحكمة الشرعية ثم عادت مدرسة لجمعية الاسعاف الخيري لتعليم الاولاد الفقراء والايتام لم تزل باقية الى اليوم وقد احترقت عند نكبات دمشق .

المدرسة الجاموسية : غربي العقيبة خارج دمشق لم يعلم لها واقف طمست من عهد بعيد ولم يعلم لها مكان اليوم اغتلسها الغاصبون .

المدرسة الشريفية : عند القباقبية العتيقة في اول طريق الماره امام فرن الغزي ودارهم بابها ينزل اليه بدرج لم يزل باقيا مع حائطها وصارت دخلة صغيرة بها ابواب الى بيوت متفرقة انشاء شرف الاسلام الشيرازي ثم الدمشقي شيخ الحنابلة بدمشق مات سنة ٥٣٦ وظلت بيد اولاده واحفاده ثم تصرفت بها الايدي .

المدرسة الصاحبية : بسفح قاسيون موجودة الى الآن في حي الاكراد انشاء ربيعة خاتون اخت صلاح الدين وست الشام توفيت سنة ٦٤٣ ودفنت بمدرستها هذه

المدرسة الصدرية : انشأ صدر الدين التنوخي مات سنة ٦٥٧ ودفن بها ومحل هذه المدرسة في درب الريحان قرب الجامع الاموي جانب قبر معاوية غصب

اغلبها ولم يبق منها سوى مسجد صغير لصيق قيم حمام دار اسعد باشا العظم اوقافها كثيرة منها الدكاكين بين العواميد من الجهتين بباب الزيادة والصاغة الآن .

المدرسة الضيائية : بسفح جبل قاسيون شرقي جامع المظفري انشاء الحافظ ضياء الدين المقدسي وهو صاحب الاحكام وفضائل الاعمال المختارة يوجد منه نسخة في احد مكاتب الاستانة لم يبق منها سوى الباب والجدار وفيه اربعة شبابيك وداخلها شغل مسكنا واتخذ بيتا .

المدرسة العمرية : وسط دير الحنابلة بناها الشيخ ابو عمر الكبير حفيد ابن قدامة في عصر الخمسمائة كان آخر كلامه ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون وقد تقدم في كتابنا ذكرهم وعن مهجرهم من بيت المقدس لما تملكها الافرنج فنزل بمسجد ابي صالح خارج باب شرقي ثم صعد الجبل وبنى هذا الدير وكانوا يعرفون برجال الصالحية لنزولهم بمسجد ابي صالح ثم قيل جبل الصالحية ولم يكن حينئذ بالسفح عمارة سوى دير الحوراني وبقيت تسمية الصالحية الى اليوم وسرايانها للمدارس والبساتين والحواكير قديمة قلت ان هذه المدرسة هي اعظم مدرسة في جبل الصالحية ولها اوقاف غزيرة متعددة في بيروت والشام وطرابلس وبها ما ينيف على ثلاثين حجرة خربت في عصرنا هذا واستولت عليها دائرة الاوقاف واخذت من يد الشيخ عبد المجيد السقطي وكيل متوليها مفتي دمشق المنيني وبقيت على هذه الحالة ولم يلتفت لاعمارها وكان بها مكتبة عظيمة تحت تصرف بني السقطي وهي بالقرب من جسر النحاس جانب بستان الميطور في حي الاكراد .

المدرسة العالمة دار الحديث : شرقي الرباط الناصري تحت الجامع الافرم وهي في اول طريق الحواكير بشيء يسير وقد درست وصارت دوراً وبقي في الارض شيء من اثارها .

المدرسة المسمارية : قبلي القيمرية الكبرى داخل دمشق قرب مأذنة فيروز واقفها مسمار الحوراني التاجر وهي لم تزل باقية الى اليوم مخفراً للشرطة .

الباب السابع في مدارس الطب والحكمة

المدرسة الدخوارية بالصاغة العتيقة قرب الخضرا قبلي الجامع وقد درست وهي محل الصاغة اليوم انشأها الدخوار سنة ٦٢١ آخر من درس بها الرحبي الشاعر ومن شعره قوله :

تساق بنو الدنيا الى الحتف عنوة ولا يشعر الباقي بحالة من يمضي
كانهم الانعام في جهل بعضها بما تم من سفك الدماء على بعض

المدرسة الربيعية : غربي البيمارستان النوري والصلاحية بآخر الطريق قلت يقال انها الآن المسجد الذي بناه محمد بيك قاضي القضاة بدمشق وجعل به مكتبا لتعليم الاولاد انشاء الربعي سنة ٦٨٦ صاحب التأليف منها كتاب المقالة المرشدة في درج الادوية المفردة وارجوزة في الترياق ونظم المقدمة المعروفة لابقراط وكتاب الشرود لبطليوس وحسن السمت .

المدرسة اللبودية : خارج البلد في حي باب السريجة على طريق المزة لصيق بستان الفلك وحمام الفلك بناها ابن اللبودي سنة ٦٦٤ كان علامة وقته في العلوم الحكمية شرح ملخص الرازي وفصول ابقراط ودفن بتربته بطريق المزة قلت هذه المدرسة شرقي بستان الشموليات وبستان اللبودي جانب المدرسة وكلاهما وقف الجامع الاموي عند جسر النهر الصغير الخارج من حمام الفلك مقابل بابه وهي الآن دمنة خراب ورسم بابها وشباكها من عهد قريب تغير شكلهما مع المقبرة التي هي لصيق المدرسة .

الربيعية : لم يذكرها في المدارس وقال في مختصره انها غربي البيمارستان النوري ثم جعلت دار لبني البكري ونسفت في الثورة الأخيرة بالدناميت .

الباب الثامن في الخوانق

وهي كلمة فارسية قيل ان اصلها خونكاه اي الموضع الذي يأكل فيه الملك في القرن السادس وهي زوايا للصوفية واول من بناها السلطان صلاح الدين .

الخانقاه الاسدية : وهي زوايا الصوفية داخل باب الجابية المعروف بدرب الوزير درست ولم يعلم محلها ، وقد نشأت طريقة الصوفية بعد عصر الصحابة لما اخذ الناس يتكالبون على الدنيا وزخرفها .

الاسكافية : على نهر يزيد بسفح قاسيون لم يبق لها اثر ولم يعلم محلها .

الاندلسية : شرقي العزيزية والاشرفية ولصيق الجقمقية قلت هي داخل الكلاسة مع بابها وقد تحول شكلها بيتاً للسكن تباع وتشرى ولها شباك يطل على الجامع الاموي .

الباسطية : واقعة قرب جسر الابيض بناها عبد الباسط بن خليل هي غربي الاسعردية وشمالي العزية كان ناظر الجيوش بدمشق وقفها سنة ٨٢٣ وقد درست وباعها عبد الستار من اهالي الصالحية الى الفريق نوري باشا من امراء جيوش الاتراك وبنا في محلها داراً ومسكناً له ولابناء السبيل .

الحسامية الشبلية : شمالي الشبلية البرانية عند جسر كحيل درست وربما يكون محلها في طريق عين الكرش .

الخاتونية : ظاهر باب السعادة اول الشرف القبلي على بانياس شرقي جامع تنكز ولصيقه وبابها يفتح قبله منسوبة الى زوجة نور الدين الشهيد قلت هي في نصف الشارع الجديد في اول زقاق رامي اخذ قسم منها للطريق وبقي قسم جعل بناية عظيمة بنتها دائرة الاوقاف لتستفيد من ريعها .

الدويرة : واقعة بدرب السلسلة بباب البريد لعلها تكون بين حمام السلسلة وحي باب البريد وقد تحول شكلها بيتاً .

الروزنهارية : بالبرج المسجد خارج باب الفراديس الاول والتربة منسوبة للشيخ الروزنهاري قلت هي في سوق محلة العمارة جانب باب الحديد تعرف اليوم بمدرسة الكردي وهي في جانب النهر .

السميصاطية : نسبة للشيخ علي السميصاطي من أكابر رؤساء دمشق المدفون بها سنة ٤٥٣ وقفها على الصوفية وكانت هذه الدار دار عبد العزيز بن مروان ثم لابنه عمر بن عبد العزيز وسميصاط قلعة على الفرات بين قلعة الروم وملطية

ولما قدم دمشق سكن بها وهي باقية الى اليوم وقد جدد بناءها بعد ان تسلمتها دائرة الاوقاف من متوليها وناظر اوقافها المفتي الحنبي ولها اوقاف كثيرة تصرف على من يقطنها وقد جعلت مدرسة علمية دينية كلية اسلامية تعين لها مدراً لشؤنها الشيخ توفيق الايوبي احد علماء دمشق ثم اهملت وهي مقر دائرة الاوقاف اليوم .

الشهابية : داخل باب الفرج غربي العادلية الكبرى وشمالي المعينية وقد خربت ايام التيمور وجعلت بيتاً بيد بني العدوي وهي تجاه الطريق الآخذ الى العصرونية في نفس المفارق الثلاث وهي رابع باب لجهة الشمال وهي دار للسكنى تباع وتشرى .

الشبلية : واقعة عند جسر ثورى بالصالحية درست وصارت بستاناً .

الشريفية : بحارة البلاطة في الصالحية لم يعرف مكانها .

الشريفية الكبرى : تجاه العروية شرقي دار الحديث الاشرفية لصيق الطوماية وشرقي باب القلعة وغربي العدلية الصغرى وبها تربة قلت قسم منها دخل في الطريق الجديد سوق الحميدية الذي كان جنينة لبني المرادي ثم انتقل ذلك لبني مردم والقسم الآخر صار مخزناً .

خانقاه الطاحون : خارج البلد منسوبة الى سعيد الكاشاني شارح تائية ابن الفارض .

الطواويسية : بناها الملك دقاق ومعها رباط وهي اول جادة الصالحية عند حي البحصة باقية الى اليوم بيد دائرة الاوقاف .

العزية : بالجسر الابيض قبلي الباسطية وغربي الماردانية درست وصارت بستاناً واليوم تحول شكلها الى دكاكين وفوقها بيوت للسكن ومدفون بها العز ابن عبد السلام وكان عليه قبة ادركناها في عصرنا ثم صارت مدفناً لبني العمري اليوم اشتهر مسجدها في جامع العمري والوثائق الشرعية التي في ايدي اهل الجوار تنطق بذلك وقيل هي مكان محطة الترامواي اليوم .

القصر : المطلة على الميدان الاخضر في المرجة وهي بستان القصر اليوم

القصاعية : ربما يكون موضعها في بستان القصاع .

الكجحانية : بالشرف الاعلى بين الطواويسية والمدرسة العزية قلت هي امام مستودع الجر ودائرة التنوير على بابها كتابة كوفية درست واتخذت اليوم جنينة وقهوة للملاهي وللفسق والفجور انشأها ابراهيم الكجحاني سنة ٧٦١ بها مشيخة وامام وفقرا وخيرات مما هو مفصل في كتاب وقفها ومكتوب على بابها.

المجاهديه : درست ولم يعلم مكانها وقيل انها في الشرف القبلي بناها الملك الصالح سنة ٦٥٦ .

النجيبية : بحارة القصر الابلق مطلة على الميدان الاخضر وهي على جانب طريق التكية السليمية والسليمانية اليوم وبها قبة بقيت من آثارها وقد درست وصارت جنينة للزرع .

النجمية : بناحية باب البريد درست لم يعلم مكانها .

الناصرية : بجبل قاسيون على نهر يزيد وقد تقدم ذكرها في دور الحديث وقلبت اليوم حاكورة صبار .

النهرية : باول شارع القنوات في طريق النهر قرب مدفن سيدي خمار لم يبق منها سوى الباب والشباك والباقي درس وصار بستانا وداراً للسكن .

اليونسية : باول الشرف الشمالي شرق الخانقاه الطواويسية درست وصارت دوراً في حي البحصة وقسم منها صار طريقا .

الباب التاسع في الرباطات ويقال لها التكايا بالتركية

رباط ابي البيان : داخل باب شرقي وهو جامع باب شرقي اليوم يصلى به ويقام به الآذان .

التكريتي الوزير : بالقرب من الرباط الناصري بقاسيون درس وصار بيتاً .

صفية القلعية : بالقرب من المدرسة الظاهرية درس هذا الرباط كما درس غيره .

زهرة : بالقرب من حمام جاروخ هو مقام القرن المعروف بفرن خليفة درس .

طومان : تحت القلعة درس وغير ذلك من الرباطات كلها درست ذكرها العلموي .

اول من اتخذه داراً لضيافة الواردين الوليد واتخذه بعده عمر بن عبد العزيز لانه في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام اتخذ لفقراء الصحابة الذين لايأوون الى اهل كانوا يقيمون فيه وعرفوا باهل الصفة .

الباب العاشر في الزوايا

الزاوية الارمزية : بسفح قاسيون والرومية بالسفح ايضا والحريرية ظاهر دمشق بالشرف القبلي والدهينانيه عند سوق الخيل والديتورية بالسفح ايضا والسيوفية بالسفح غربي الناصرية والداودية بالسفح ايضا والسراجية بالصاغة العتيقة قبلي الجامع الاموي والشريفية شرقي الناصرية الجوانية والطالبية بقصر حجاج والطيبة شمالي القيمرية والعبادية عند كهف جبريل والغسولية بالسفح ايضا والفقاعية بالسفح ايضا والقوامية غربي جبل قاسيون والقندرية الدركزية في مقبرة باب الصغير واليونسية بالشرف الشمالي غربي الوراقة كلها درست ولم يعلم مكانها واما الزاوية الحصنية لم تزل باقية في الشاغور والزاوية الوطية هي جامع الشيخ مسعود اليوم في الشاغور واما اليوسفية المتقدمة فهي داخل حاكورة ابن عبد ربه وقد ذكر العلموي في الباب الحادي عشر جميع الترب الخاصة في الملوك والامراء وبعض ترب الاحياء في جميع اطراف دمشق وفي زمننا هذا وضعت يدها عليها دائرة الاوقاف ونبشت قبورها وبنت في محلها بنايات تستورد ريعها ولا نعلم على اي قول من المذاهب الاربع استندت اليه ويبين ذكر مواقعها العلموي فمن شاء فليرجع اليها .

واما التكايا الموجودة اليوم فهي التكية السليمانية والسليمية والزوايا الحديثة الشاذلية في حي القنوات انشئت سنة ١٢٩٠ والسعدية والغواصية في الميدان والصمادية في الشاغور سنة ١٠٥٣ وفي القيمرية الزاوية السعدية وبها مقر الطريقة الجباوية والشيبانية في حي العمارة التغلبية ويوجد في حي سوق ساروجة زاوية يقام بها الذكر للشيخ العكر والزاوية البخارية النقشية وتوليتها على بني المرادي والتكية المولوية وغيرها مما لم يصل الينا خبره .

ذكر المدارس التي احدثت بعد عصر العلموي صاحب مختصر الدارس والبقاعي

وقد احدثت مدارس عديدة بعد عهد البقاعي وصاحب الدارس نأتي على ذكر الذي وجدناه منها في غضون التاريخ مثل (المدرسة الحجازية) التي نزل بها احمد بن شمس الدين الصفوري ولم يعرف محلها الآن .

الجوزية : انقطع اليها ابراهيم السقا سنة ١٠٥٨ هـ ودرس بها ابراهيم بن حمزة سنة ١١١٩ هـ

الحافظية : بصالحية دمشق درس بها حمزة بن محمد نقيب الشام المتوفى سنة ١٠٦٧

احمد شمسي باشا : في سوق الاروام موجودة الى اليوم وتوليتها على بني مردم بك

السلطان المؤيد : التي بناها سنة ٨١٧ وانشأ سوقاً نسب اليه ولا يعلم محلها اليوم

ابن القاري : قال ابن طولون لم يكن في الصف الشمالي مسجد غير مسجد البيعة من باب الجابية الى باب شرقي يوجه الى القبلة قيل ان الصحابة بايعوا فيه وهو الآن مدرسة بناها الخواجه محمد بن يوسف القاري سنة ٨٨٧ هـ وبنى الى جانبها داراً عظيمة بالغ في اتقانها وقد اصبحت هذه الدار والمدرسة دوراً صغيرة وحواصل للخشب

المزلقية : بطريق مقابر باب الصغير الآخذ الى الصابونية انشأها شمس الدين محمد المعروف بابن المزلق التاجر الخاص ميلاده سنة ٧٥٤ كان ابوه لباناً من قرية كفرسوسة حكى عن نفسه ان اول سفرة سافرها في البحر كسب فيها مائة الف ديناراً وثمانمائة الف درهم وانفتحت عليه الدنيا وعمر املاكاً كثيرة وانشأ على درب الشام الى مصر خانات عظيمة بالقنيطرة وجسر بنات يعقوب والمنية وعيون التجار انفق على عمارها ما يزيد على مائة الف دينار وكل هذه الخانات فيها الماء وجاءت في غاية الحسن ولم يسبقه احد من الملوك والخلفاء الى مثل ذلك وهو صاحب المآثر الحسنة بدرب الحجاز وبين الحرمين ووقف على سكان الحرمين الاوقاف الكثيرة بما يحق لحكومة الحجاز طلبها من حكومة دمشق .

المرادية : بناها الشيخ مراد بن علي بن داود بن كمال الدين بن صالح ابن محمد البخاري الاصل النقشبندي في سنة ١١٠٨ واقعة في حي باب البريد على جادة

الطريق الموصل الى المدرسة الظاهرية والعدلية الكبرى وقد خربت اليوم ولها اوقاف كثيرة .

المرادية الثانية الصغرى : انشأها الواقف المذكور واقعة في دار بني المرادي في دخلة المفتي في سوق ساروجة وبها مسجد له باب من طريق عين الكرش وقد خصص لها ريع كبير .

الخياطين : واقعة قرب المحكمة الشرعية الكبرى بناها الوزير اسماعيل باشا العظم ثم جاء ولده اسعد باشا وانشأ الطابق العلوي فوقها ووقف على هذه المدرسة اوقافا كثيرة من مزارع وغيرها محررة في كتاب الوقف وذلك في سنة ١١٤١ هـ

السليمانية : انشأها سليمان باشا العظم حاكم الشام ووزيرها واقعة في قرب حي باب البريد في الزقاق الموصل الى مدرسة نور الدين الشهيد ووقف عليها اوقافا كثيرة من مزارع وعقارات والذي يزيد من مصروفها يوزع على بني العظم وبني الكيلاني وذلك في سنة ١١٥٠ ويسكنها اليوم مهاجري الافغان .

عبد الله باشا العظم : والي دمشق وحاكمها انشأها ووقف عليها اوقافا كثيرة وكتباً نفيسة ثم وقفت بنت فاطمة خاتون عقارات كثيرة منها معصرة الزيت في قرية القدم والدار الشهيرة الكبيرة عند حمام الباشا وجعلت تلك الخيرات والمبرات لكل من سكن بها من طلبة العلم وذلك في سنة ١١٩٣ هـ

السليمية : انشاء الخليفة السلطان سليم خان فاتح البلاد العربية حين قدم دمشق واقعة في جانب الجامع والتكية السليمانية في المرج الاخضر وبها كثير من الحجر لطلاب العلم وابناء السبيل وهم على جانبي المسجد والمصلى وفي وسطها بحرة كبيرة

الياغوشيه : في حي الشاغور يتولى النظر عليها بنو العش وهي مدرسة ابتدائية جعلتها المعارف لتعليم الاولاد ويقال انه كان بها مكتبة خطية عظيمة نقلت الى المكتبة العمومية وقفها سياوس باشا .

دار المعلمين والحقوق اليوم : انشأتها الدولة العثمانية في آخر حكمها لهذه الديار في المرج الاخضر لصيق الجامع السليمانية وشمالي المدرسة السليمية وهي عامرة باقية الى اليوم خرج منها كثير من الحقوقيين من رجال هذا العصر ولها اساتذة

اشتهر اكثرهم بفضيلة العلم والنبل وهي من اجزاء الجامعة السورية ومدارس الحكومة الى اليوم تقوم على انقاض البيوت القديمة او الحديثة او بقايا الجوامع والمدارس وهمم الافراد فاترة لسد هذه الثلمة ومدارس الطوائف والتبشير تجعل في الكنائس والبيع على الاغلب ومن اهم مدارس الحكومة مدرسة التجهيز والمعلمين وهي دار خاصة في شرقي المدينة كانت لفتى اسرائيلي اسمه عنبر فوقعت في ملك الحكومة العثمانية لدين كان لها على صاحبها وجعلت مدرسة اعدادية في سنة ١٣٠٤ هـ وفيها من ضروب الصناعات في البناء شيء كثير يبهر العقول .

الطب : كان ابتداء تأسيسها في زمن الاتراك كما فصلنا ذلك في محله وكانت في طريق الصالحية وقد بنيت الجامعة السورية بهمة رئيسها الدكتور الشهير رضا سعيد بك الذي نوهنا عنه في اسر دمشق جانب المستشفى الوطني في مقبرة الصوفية

واتماماً للفائدة : قد احببت ايضاً نقل ما كتبه صاحب الخطط لمناسبة الموضوع قال لهفة على المدارس وغيرها ارأيت ايها الناظر في هذا الكتاب كيف كان عمل الأجداد في انشاء المدارس والربط والخوانق والمستشفيات وكيف تساوى في تأبيدها والوقف عليها من الملوك والعظماء وجمهور الناس من الرجال والنساء وكيف جودوا بناءها واحكموا وقوفها الدارة ومع هذا لم تقو على مقاومة المخربين والغاصبين فعاد اكثرها دورا وحوانيت ازهرت في اربعة قرون واستصفيت في اربعة استصفاها من ارتكبوا العار في الاستيلاء عليها من دون حرج عملوا هذا وهم متمسون بالدين يصلون ويصومون ويقال عنهم انهم المسلمون وربما كان على ابدان بعضهم شعار العلماء وما هم في الواقع الا من اهل الرسم لا من اهل العلم وقد يكون اقرب الناس الى مخالفة الشرع القائمون عليه . ترى هل تلام الحكومات على هذا العبث بالمدارس وانتهاك حرمتها ام تلام الامة لاشك ان الحكومات ينالها قسط كبير من الملامة لانها هيأت سبل السرقات وربما كانت مشتركة بالسرقة احيانا ولكن اللوم كل اللوم على الجماعة فالبلاد بلادهم والمدارس مدارسهم والدين دينهم ومنذ عبث العابثون بالمدارس وسرق السارقون عينها ومغلها تراجعت دروس الدين وتراجعت معها دروس العلوم الاخرى ففشا الجهل

المطبق في الامة وكادت تعود سيرتها الاولى من الجاهلية الجهلاء واصبح من وسموا بالعلم اذا سئلوا افتوا بغير علم وجوزوا ماحرمه الشرع وحرموا ماجوزه ومن جملة شعائرهم اكل اموال الاوقاف واستصفاء اعيانها وعدم تهضم خصوصاً المساجد والمدارس .

اضاع الخلف ما ابقاه السلف معموراً زاهراً من المدارس التي كانت في العصور الغابرة غاية ما وصل اليه العقل البشري ظرفاً ومظروفاً وبها اثبت اجدادنا قبل القرون الوسطى انهم كانوا شيئاً مذكوراً في اتقان الهندسة والبناء وانهم على جانب من سلامة الذوق وانهم حراص على مجد امتهم وان الاعمال العظيمة لم تقم بنفسها لو لم يفكر فيها عقول كبيرة وما كانت تلك المدارس تعمر لو لم يدرس فيها نوابغ من رجال العلم والآداب ولو لم تكن ذات قانون معقول نعم لم تسر هذه الصناعة التي مثلتها لنا هذه المدارس ولعله يقوم في الجيل المقبل من ابنائنا علماً بالآثار والبحث يكشفون سر اعمال الاجداد كما توفر علماء الآثار في اوروبا مائة سنة حتى كشفوا لامهم اسرار البيع العظمى التي قامت في خلال القرون الوسطى وعسى ان يبرهن الباحثون منا انه لم يقم في الارض شيء من العظمة الا كان جانبه عظماء يتعهدونه ويغذونه بمادة عقولهم ويفيضون عليه من معين قرائحهم .

ثم قال للاثر القديم من الموقع في النفس ما ليس للاثر الحديث فان الاول يذكر بامور كثيرة يذكر بمجد السلف واياديهم البيضاء وارادتهم الصحيحة يذكرنا بان فلانا الذي تحترمه الامة بنى ذاك المصنع وتلك الدار وان فلانا العالم درس هناك او كان يألف المكان الفلاني وكم من اثر تاريخي او مصنع من مصانعنا تمر به دون ان تحفل بما فيه من عبر ولو كنا على شيء من مدنية اجدادنا ما زهدنا هذا الزهد البشع في تراثهم ولو اقتبسنا المدنية الحديثة بمحاسنها ومساوئها لرأيتنا اسرع الى التقاط آثار الجدود والاحتفاظ بها من الماء الى الحدور لا تستطيع امة ان تقطع الصلة بينها وبين ماضيها خصوصا اذا كانت ذات غابر عظيم كغابر الامة العربية قام على اساس متين وتقاليد جميلة ومقدسات متسلسلة اما ونحن لا نرقى بدون القديم والاخذ من نافع الحديث فواجب العقلاء ان يفكروا في

اقرب الطرق الى هذه الغاية وهذا لايتم بغير احياء دور العلم ومعاهد الفضل واحياؤها موقوف على قليل من العناية والهمة .

الى ان قال ولكن الجهل قضى على تلك المدارس واكل المتولون اوقافها فخربت وتغيرت معالمها وكم من وقف يستمتع به النظار عليه يصرفون ما وقف على الخير في سبيل شهواتهم بدون محاسب من نعمهم ولا رقيب من اصحاب السلطان ولو كتب لهم ان يأكلوا منها بالمعروف ويصرفوا حقوق تلك المعاهد او بعض مغلها على رمها واجراء الرزق على ساكنيها والدارسين فيها لأتته بثمرات جنية ولما اكلوا في بطونهم النار وركبوا متن العار والشنار وكم من بيت كان موسوما في القديم بالعلم والتقى فخلف من بعد السلف خلف عبثوا بالحرمات فاستحلوا اموال المدارس والمعابد فدثر البيت وانقرضت الاسرة وذهبوا وما يملكون جملة لم يرحموا لانهم لم يرحموا ضبطت الحكومة السابقة اكثر اوقاف الملوك والسلاطين وكان ريعها كثيراً جداً في هذه البلاد فلم تصرفها فيما خصصت له ولم تنجح في الغاية التي توختها منها واستقل بعض ارباب النفوذ بالأوقاف التي اؤتمنوا عليها او انتهت اليهم بحكم الوراثة فأساؤا الاستعمال الا من عصم الله . فالسبب اذاً في خراب مدارسنا الجليلة سوء ادارة الحكومات السالفة وعبث المتولين عليها واخراجها عما وضعت له من عمل الخير بصنع اولئك الذين يعدون انفسهم في جملة متممات هذا المجتمع وهم اعدى عداته انتهى كلامه .

احببت ايضاً ان انقل ما كتبه الفاضل الدمشقي مكاتب مجلة المقتطف تحت عنوان : عمران دمشق في سنة ١٣١٨ هـ لمناسبته في موضوعنا قال :

من طالع فهارس الكتب العربية ودخل دور الكتب الشهيرة يعلم ما كانت عليه الأمة العربية من التوفر على التآليف في كل فن وعلم ايام افتقادها ومن طاف في بلاد دمشق وضاحيتها وشاهد ما هناك من آثار طامسة ومدارس دارسة يدرك ولا شك ما كان في هذه الحاضرة من صنوف العمران وضروب الحضارة ايام كانت سوق العلم نافقة وكلمة العدل نافذة .

ولقد ذهب بعض متأخري المؤرخين الى ان المدارس بدمشق كثرت على عهد

الدولة الايوبية وهذا القول لادليل عليه من التاريخ البتة فقد ظهر بعد البحث ان المدارس في الاسلام على هذا الطرز المعروف لعهدنا لم تكن الا في اواخر القرن الخامس للهجرة قال السيوطي في محاضراته ان اول من بنى المدارس لطلبة العلم ورتب فيها لهم المعاليم من الواجب والارزاق نظام الملك يعني اول من بنى في العراق

ونظام الملك هو ذاك الوزير الكبير الذي تفتخر به الدولة السلجوقية التركية وهو مؤسس المدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٥٩ المعدودة اليوم من اعظم كليات المسلمين

ويؤخذ من مطالعة كتب السير ان تاريخ المدارس وكثرتهم في هذه الحاضرة يرد الى عهد الملك العادل نور الدين الشهيد وحاشيته وذريته فانه كان اول من تقرب بهذه المآثر وعني باشادتها. وربما خطر لبعض الناس ان هذه المدارس البادية انقاضها للعيان اليوم في سفح قاسيون والشرفين الاعلى والاوطى عمرت وسط البساتين والحدائق كما هي الآن. والصحيح انها لم تكن الا وسط عمران منبسط من دور وقصور ومصايف. قلت والتاريخ يعيد نفسه فقد كثر في ايامنا هذه البناء والعمار للسكن في ذلك المحل.

قال البدري ومن محاسن الشام الصالحية وهي مشحونة بالزوايا والترب والمدارس ببناء جميل استولت عليها يد المباشرين والنظار فازالوا منها العين فلم يبق سوى الآثار فكم من مدرسة اندرست بعد الصلاة والتراويح وامست في ظلمة بعد تلك المصابيح وهي تقول اصبحت حاصلا بعد ما كان ايواني بالقراءة عامرا آهلا. وهذه تقول اصبحت مربطاً للبهائم بعد ما كنت للصائم والقائم، وهذه تقول اتخذوني مسكنا وهذه تقول جعلوني متبنا وهذه تقول هدوني واخذوا سقفي وكشفوني. وهذه تقول جعلوني مزبلة وغرسوني فلاحة. وهذه تقول خربوا جداري وباعوا الباب وجعلوني مأوى الكلاب.

هذا مارثيت به المدارس في القرن التاسع فيم ترثى اليوم. وقد امسى بعضها مجمعا للموبقات والخبائث ومستودعا للقمامات والقاذورات وما برحت انقاضها

تسرق سراً وجهراً وتبنى بها البيوت والقاعات واوقافها تضيع بين رجع السماء وصدع الارض وما بقي منها يدعى باسم مدرسة .

هذه المدارس التي كانت بدمشق فتخرج فيها قديما العلماء والفقهاء والحكماء والخطباء والشعراء والاطباء والقضاة والحكام .

ثم ذكر احصاء خاصاً في عدد المدارس الاهلية ومدارس المعارف وقال انها تقترب المأتين من ابتدائية وعالية .

ثم قال اما مدارس الاجانب فلم ار احصاء بها وبكلياتها . ودعوتها سارية وتعاليمها مبثوثة ولقد هم القوم مراراً لتأسيس مدرسة وطنية كلية عظيمة في هذه المدينة لكنهم رجعوا على الاعقاب اذ لا يعرفون الطرق المنتجة وكل شعب غير متنور لا يجيد القيام على مثل هذه الشئون ما لم تأخذ حكومته بيده وتدله على سواء السبيل بل كل حكومة ربت شعبها على الخضوع المطلق وتقديس اعمالها ينتهي به الحال الى ان لا يعمل عملا ما قل اوجل انتهى .

عدد المدارس في سورية وعدد طلابها وطالباتها

تبين للدوائر المختصة من نتيجة الاحصاء الرسمي ان عدد المدارس الاميرية والاهلية والاجنبية في سورية بلغت (٤٢٠) مدرسة للذكور و (١٥٢) للاناث وقد بلغ عدد الطلاب في هذه المدارس (٣٨ ٣٢١)طالبا و(١٧٧١٦) طالبة وذلك في المدارس العالية والثانوية والابتدائية فقط .

وفي دمشق اليوم مستشفيات كثيرة منها مستشفى المركز العسكري وهو عند بوابة الصالحية ومستشفى الانكليزي ومستشفى الفرنساوي في باب توما في آخر جادة بغداد ومستشفى المجاذيب المسمى بمستشفى ابن سينا ومستشفى الراهبات وهو قديم ومستشفى الغرباء الذي تم بناؤه ١٥ ذي القعده سنة ١٣١٧ واحتفل بافتتاح هذا المستشفى الجديد وجعلت الحكومة بجانبه داراً للمعتوهين وداراً للايتام وخصصت اوقاف المستشفى النوري ومبلغ خمسمائة ليرة تؤخذ مسانهة من واردات بلدية دمشق لتصرف عليه اما البيمارستان النوري فقد جعل مدرسة

صنائع للاناث ودارا للتعليم وزاد هذا المستشفى الجديد رونقا كونه امام جامع السلطان سليمان وبه جنينة لطيفة بها مقابر السادة الصوفية امثال شيخ الاسلام ابن تيمية واضرابه من ائمة الدين التي ضمت اليه وجعلت حديقة للمستشفى مغروسة بأشجار تلطف الهواء وتعدل المناخ وهو يطل على المرج الاخضر .

قال ابن عساكر في تاريخه كان الوليد عند اهل الشام من افضل خلفائهم كان يعطي اكياس الدراهم لتفرق على المجذومين وغيرهم من المحتاجين وابناء السبيل واعطى كل مقعد خادما وكل اعمى قائدا وقال لا تسألوا الناس وهو اول من اتخذ المستشفيات في صدر الاسلام كما انه كان اول من اتخذ دار الضيافة للواردين وقد اقام في دمشق مستشفى للمجذومين في باب شرقي يسمى اليوم بالاعاطلة لما ان في ماء دمشق سريرة لدفع مرض الجذام عن اهلها وقد تقدم في الجزء الاول من هذا التاريخ عن اوقاف المجذومين وتسلط الايدي عليها وما بقي منها . وروى البلاذري في فتوح البلدان ان عمر ابن الخطاب الخليفة الثاني رضي الله عنه لما اتى حي باب الجابية من ارض دمشق مر بقوم من المجذومين من النصارى فأمر ان يعطوا من الصدقات وان يجري عليهم القوت .

وذكر ابن جبير انه كان في القرن السادس بدمشق مارستانان قديم وحديث والحديث احفلهما واكبرهما وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر دينارا وله قومة بايديهم الازمة المحتوية على اسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون اليها في الادوية والاغذية وغير ذلك والاطباء يبكرون اليه في كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون باعداد ما يصلحهم من الادوية والاغذية حسبما يليق بكل انسان منهم والمارستان الآخر على هذا الرسم لكن الاحتفال في الجديد اكثر واغلب الظن ان البيمارستان الكبير هو المستشفى النوري والآخر غيره كان في باب البريد قال الظاهري وفي دمشق بيمارستان لم ير مثله في الدنيا قط واتفقت نكتة احببت ذكرها وهي اني دخلت دمشق في سنة ٨٣١ هـ وكان يصحبني شخص عجمي من اهل الفضل والذوق واللطافة وكان قاصد الحج في تلك السنة والف مناسك الحج على اربعة مذاهب فلما دخل البيمارستان المذكور ونظر ما فيه من المآكل والتحف

واللطائف التي لا تحصر قصد اختبار حال البيمارستان المذكور فتضاعف واقام به ثلاثة ايام ورئيس الطب يتردد اليه ليختبر ضعفه فلما جس نبضه وعلم حاله وصف له ما يناسبه من الاطعمة الحسنة والدجاج المسمنة والحلواء والاشربة النفيسة والفواكه المتنوعة ثم بعد ثلاثة ايام كتب له ورقة من معناها ان الضيف لا يقيم فوق ثلاثة ايام وقيل ان البيمارستان المذكور منذ عمر لم تطفأ فيه النار والمستشفى القيمري في صالحية دمشق بجوار جامع العارف محي الدين ابن عربي الاندلسي لمنشئه سيف الدين القيمري المتوفى سنة ٦٥٣ لم يبق منه اليوم سوى بعض جدرانه وواجهة بابه من اجمل الهندسة العربية تريد ان تنقض وقد رم هذا المستشفى على عهد العثمانيين بزمن حسن باشا المعروف بشوربزي حسن ونظر الى اوقافه المختلسة واقام شعائره كما فعل في البيمارستان النوري وقد اصبح اليوم حديقة ومسكناً الهم الله من بيدهم الامر الى ارجاعه لأصله والنظر اليه .

واحببت نقل صورة وقفية من كتاب الدارس فاذا فيه هذا وقف ابي الحسن ابن ابي الفوارس القيمري على بيمارستان في الصالحية على معالجة المرضى والمعاجين والاشربة واجرة الطبيب يصرف الى الطبيب في كل شهر لواحد سبعون درهماً ونصف غرارة من قمح والادنى ستون درهماً ونصف غرارة قمح وللمشارف في كل شهر اربعون درهماً ونصف غرارة قمح وللكحال في كل شهر خمسة واربعون درهماً ونصف غرارة قمح وللحوائج في كل شهر ثلاثة عشر درهماً وربع غرارة قمح والى ثلاثة رجال يقوم لكل منهم في كل شهر ثلاثة عشر درهماً وسدس غرارة قمح ولمن يقوم بمريضات النساء والمجنونات في كل شهر لكل واحدة عشرة دراهم وسدس غرارة قمح والى الشراب وبائعه لعمل الاشربة والمعاجين في كل شهر ستة وعشرون درهماً وثلث غرارة قمح ولأمين المشارفين والمتولين في الوقف الى كل واحد في كل شهر ستون درهماً وغرارة قمح وغرارة شعير وللامام في كل شهر اربعون درهماً وثلث غرارة قمح وللمعمار المرتب لعمارته في كل شهر ثلاثة عشر درهماً وسدس غرارة قمح ويكون بواباً وللحوايج في كل شهر ثمانية دراهم وسدس غرارة قمح وللناظر العشر عن المغل وربع الوقف ويصرف الى

رجلين اثنين بخدمة البيمارستان عن ثمن قدور نحاس وفرش ولحف ومخدة وفي كل شهر الى قيمه والمؤذن بالمسجد بقرب البيمارستان خمسة وعشرون درهما فان فضل يصرف الى فكاك الاسارى من الكفار وبعد ذلك عاد وقفا على الفقراء.
وتاريخ الوقفية سنة ٦٥٣ هـ وتاريخ المسجد سنة ٨٨٠ هـ ثم ذكر القرى والبساتين والحوانيت والطواحين التي وقفها على بيمارستانه.

وقد بني اثناء طبع هذا الكتاب بعد ذهاب الاتراك مستشفى لمرض السل في المزة قام به اهل البر والاحسان ومن يهمهم حياة البشر من الانسان. وقد بنت احدى الجمعيات الخيرية في دولة ايطاليا مستشفى عظيم كبير في طريق الصالحية امام دارنا القاطنين بها فجاء بهجة للناظرين.

رأي ابن خلدون في تعليم القرآن للولدان

ذهبت الدولة الاموية ببداوتها وقامت الدولة العباسية تجري في عروق رجالها روح عبد الله بن عباس حبر الامة الاسلامية وعالمها الفذ الى الروح الفارسية التي جاهدت في اقامة هذه الدولة فكان لهذا وذاك اثرها في اهتمامها بالتعليم المدني مع التعليم الديني الذي لم يكن يعنى بغيره في الدولة السابقة فكان للملوك العباسيين جهاد محمود في نقل علوم اليونان والفرس والهند الى اللغة العربية واخذ المسلمين بتعليمها حتى نبغ منهم الحكماء والاطباء والمهندسون والفلكيون ونحوهم كما نبغ منهم الفقهاء والمحدثون والمفسرون والادباء والنحويون، وكان كل هذا التقدم والرقي والنهوض بسبب توزيع جهود النشء في طلب العلم توزيعاً عادلا بين العلوم الدينية والعربية والطبيعية والرياضية.

ثم خلف من بعد هذا خلف رجعوا بالتعليم الى الوراء وجعلوه دينياً محضاً وصار القرآن الكريم اصل التعليم يؤخذ به المتعلمون من اول ادوار التعليم الى آخرها على اختلاف ما بين اهل الامصار الاسلامية في ذلك.

فاهل المغرب كان مذهبهم في تعليم الولدان الاقتصار على تعليم القرآن واخذهم اثناء الدراسة بالرسم ومسائله ولا يلتفتون في تعليم الولدان الى غير

غير ذلك من حديث وفقه وشعر ويستمرون في ذلك الى ان يحذقوا فيه او ينقطعوا دونه فيكون انقطاعهم في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة .

واهل الاندلس كان مذهبهم في تعليم الولدان ، تعليم القرآن من حيث هو ، ولكنهم لم يكونوا يقتصرون عليه بل كانوا يأخذون الولدان معه برواية الشعر والترسل وقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتابة الى ان يخرج الولد من دور الطفولة الى الشبيبة وقد شذا بعض الشيء في العربية والشعر وبرز في الخط والكتابة وتعلق باذيال العلم على الجملة .

واهل افريقية « تونس » كانوا يأخذون الولدان مع القرآن بالحديث ودراسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها الا ان عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان له ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءته كانت أكثر من سواه ، فطريقتهم كانت اقرب الى طريقة اهل الاندلس ، بل هي متصلة السند بالطريقة الاندلسية بسبب جالية الاندلس الذين هاجروا من نواحيه الشرقية عند تغلب الفرنجة عليها الى تونس .

واهل المشرق في مصر والشام وما اليهما كانوا يأخذون الولدان مع القرآن بدراسة صحف العلم وقوانينه ولا يعنون بتعليمهم الخط ، بل كان لتعليم الخط عندهم معلمون له على انفراده كما تتعلم سائر الصناعات ولا يعنى بها في مكاتب الصبيان فكانت الالواح تكتب لهم في المكاتب بخط قاصر عن الاجادة ، ومن اراد تعلم الخط بعد ذلك طلبه من اهل صنعته .

وقد عاب ابن خلدون على كل تلك الطرق اهمالها فيما تعني به الاخرى ، فعاب على الطريقة المغربية والافريقية اهمالها فيما تعني به الطريقة الاندلسية من علوم العربية فلم يكن لاهل المغرب بسبب هذا ملكة في اللسان العربي وانما حظهم الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام ، والقرآن الكريم الذي يقتصرون عليه لايفيد تلك الملكة لان له اسلوباً خاصاً به قصد به الاعجاز ، والبشر مصروفون عن الاتيان بمثله واحتذاء طريقته .

وعاب على الطريقة الاندلسية اهمالها فيما يعني به غيرها من مدارسة القرآن

والحديث ، والقرآن هو اصل العلوم واساسها فأفادهم هذا تقصيراً في العلوم وان كانوا اهل حظ وادب .

والطريقة المثلى عند ابن خلدون هي التي يكون فيها القرآن اساس التعليم ويؤخذ فيها الولدان مع هذا بمدارسة علومه ودراسة الحديث ورواية الشعر والترسل وقوانين العربية واجادة الخط فتجمع كل محاسن تلك الطرق وتخلو من عيوبها . وان ابن خلدون متأثر بما صار اليه المسلمون في عصره غير ناظر الى ماضيهم البعيد بل القريب في التعليم على العهد الاول للدولة العباسية التي ما كان ينظر ملوكهم الاولون الى التعليم تلك النظرة الدينية المحضة :

وابن هو في جعله تعليم القرآن للولدان شعاراً من شعار الدين ، اين هو من ذلك القاضي الجليل ابي بكر بن العربي الذي ساح في امصار المشرق والمغرب ودرس طرق التربية فيها ، فاحزنه ما صار اليه المسلمون في تلك الامصار من ارهاقهم اطفالهم بدرس القرآن واستظهاره وما يترتب على ذلك من اماتة قواهم العقلية وقتل استعدادهم للتعليم في مهده .

ولهفي على ذلك القاضي العظيم ينادي — ياغفلة اهل بلادنا في ان يؤخذ الصبي بكتاب الله في اول امره ، يقرأ مالا يفهم وينصب في امر غيره اهم . فلا يجد من يسمع له نداء او يعي له قولا ، اللهم الا مؤرخنا الجليل الذي لم يخف عليه حسن مذهبه ، ولكنه كان كما قلنا متأثراً بعادات عصره فرأى انها لا تساعد عليه واخذ ينتصر لها انتصار الجامد على القديم يتعلق باوهى من بيت العنكبوت ويؤيدها بما يؤيد به الجمود في كل زمان ومكان .

ففي تقديم دراسة القرآن للولدان ايثار التبرك والثواب واتقاء مايعرض للولد في جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفتتم في زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن لئلا يذهب خلوا منه ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي اولى ما اخذ به اهل المغرب والمشرق .

ومذهب القاضي ابي بكر في تعليم الولدان ان يقوم لهم تعليم العربية والشعر على

سائر العلوم كما هو مذهب اهل الاندلس لان الشعر ديوان العرب ويدعو الى تقديمه وتقديم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ، ثم ينتقل منه الى درس القرآن فانه يسهل عليه بهذه المقدمة ، ثم ينتقل منه الى اصول الدين ، ثم اصول الفقه ، ثم الجدل ، ثم الحديث وعلومه .

ومع ان قاضينا ابا بكر لم ير ان يحرم الولدان في التعليم الاولي من العلوم الرياضية فأتى لهم بفن الحساب وكان من المتيقن ان يحدث هذا المذهب او عمل به نهضة عظيمة في البلاد الاسلامية كالنهضة التي قامت بعده في اوروبا على اساس الاهتمام بتلك العلوم الا اننا نلاحظ عليه امرين :

١ — ان حظ العلوم الرياضية فيه قليل بجانب ما لها من الاهمية في الحياة واستعداد عقول الولدان لها حتى انها ما سميت علوماً رياضية الا لانها يراض بها الاطفال عند اخذهم في التعليم .

٢ — انه يرى ان يأخذ الولدان هذه العلوم واحداً بعد واحد فلا يمكنهم في الدور الاول من التعليم وهو دور الثقافة ان يلموا بكل العلوم اللازمة لها كما هو متبع الآن في التعليم ولم يفت ذلك الامام الغزالي رحمه الله فهو على ما نعلم اول من ذهب الى تقسيم العلوم الى دورين ، دور ثقافة ودور تبحر في ناحية من نواحي التعليم .

وانا لنضم صوتنا في هذا العصر الى صوت القاضي ابي بكر عسى ان يعلم الناس انه ليس من الدين ولا من النافع لمستقبل اولادنا ان نرهقهم بحفظ القرآن الكريم كله فيأخذ منهم لاول امرهم كل ما عندهم من قوة ونشاط واستعداد ولا يبقي لما بعده من العلوم شيئاً منها . وما كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد مماته يهتمون بحفظ القرآن كله كاهتمامنا به . وقد مات النبي صلى الله عليه وسلم والاسلام قد انتشر في الجزيرة العربية من اقصاها الى اقصاها فكان الذين حفظوا القرآن كله منهم نفراً يعد على الاصابع ، وقد شغلهم عن الجهاد والعمل الذي شغلوا به في حياتهم ، وحياتنا الآن تتطلب من الجهاد والسعي

اضعاف ما كانت تتطلبه حياتهم ، وقد كان الرجل منهم اذا حفظ سورتي البقرة وآل عمران عظم في اعينهم . فعلى ادارة المعاهد الدينية ان تكتفي بهذا القدر من المنتسبين اليها ثم تجعل فيها مكافآت لمن يتم حفظ القرآن الكريم بعد انتسابه اليها او تفرض عليهم ذلك فرضاً اذا شاءت .

وهذه التقاليد البالية التي كان لها اثرها في نفس ابن خلدون يجب ان لا تعوقنا في هذا العصر عما نراه لمصلحة اولادنا بعد ان وصلنا الى ذلك التدهور والانحطاط في التعليم في سبب تلك التقاليد وما هي الا اسابيع قد لا تبلغ عدد اصابع اليد يملأ فيها العامة واشباه العامة الجرائد عويلا وصياحاً ثم يهدأ كل شيء ويذهب ذلك الماضي القاسي على اطفالنا المساكين الى حيث لا يرده الله تعالى .

الاوقاف

كنا اسلفناك في الجزء الاول من كتابنا بكلمة مجملة عن الاوقاف والآن نظراً لشروعنا في باب المساجد والجوامع والكنائس وغيرهم من اعمال البر والاحباس رأينا من المناسب واتماماً للفائدة نقل ما كتبه في الاوقاف وطرق اصلاحها صاحب كتاب الكشاف قال : يقسم الوقف الى خيري واهلي وينقسم الخيري الى ديني محض كحبس المساجد والمعابد والى ديني دنيوي وهو يشمل جميع انواع الوقوف الخيرية كوقف مدارس العلم ودور الصناعات ورباطات المجاهدين وفنادق ابناء السبيل ومستشفيات المرضى ومقابر الموتى ونحو ذلك من وسائل الارتفاق العام . ومثله ما تحبس عينه لينتفع بريعه مصارف الصدقات الشرعية سواء أكان الحبس على جميع المساكين ام على فئة مخصوصة منهم . واما القسم الثاني وهو الاهلي فينقسم الى طائفي وذري ، فالاول ما حبسه الواقف على طائفة مخصوصة من الناس ، والثاني ما حبسه على ذريته من بعده . وهذه الاقسام تبع لانقسام الوقف باعتبار المتعلق لانه ينقسم باعتبار متعلقه وعوارضه الى اقسام كثيرة ، فالمتعلق الموقوف له كالعبادة التي وقفت لاجلها المعابد ، والثاني الموقوف عليه وهو المخلوقات التي تتمتع بنعمة ما حبس عليها ، والثالث الاعيان الموقوفة .

واما العوارض فهي كالصحة او عدمها من الوجهة الشرعية ، وكالضبط او الالحاق من الوجهة الادارية . وقد يتداخل بعض هذه الاقسام مع فروعها فيقال مثلا وقف خيري صحيح مضبوط . ولانقسام الاعيان الى ثابتة ومنقولة انقسم الوقف باعتبار هذا المتعلق الى وقف الاموال الثابتة ووقف الاموال المنقولة . فالثابتة كارض الزراعة المملوكة الرقبة والحوانيت والبساتين والعرصات والعقارات المسقوفة ، وهذا النوع لا خلاف بين جمهور علماء المسلمين بصحة وقفه . واما الاموال المنقولة صامتة كانت او ناطقة ، فقد اختلفت الفقهاء بصحة وقفها والمعتمد الصحة وفقاً لما جرى عليه تعامل المسلمين في القديم والحديث من وقف المصاحف والكتب والجنازة ونحو ذلك وبالاولى معدات الجهاد كالسلاح والكراع . والارض الاميرية سواء كانت عشرية ام خراجية لا يصح وقفها الا اذا كانت مملوكة الرقبة فاذا ملكها السلطان ملكا شرعيا فله ان يقفها على من يشاء كتصرفه ببقية امواله المملوكة . والواجب اذاً تقييد وقف السلاطين الارض الاميرية بالاوقاف الاهلية اذ لايسوغ للسلطان ان يفرز مزرعة من ارض بيت مال الامة العام ويخصها بفئة من الناس على سبيل الحبس والتأبيد كما فعل السلطان سليم الاول العثماني حينما استولى على الشام بافرازه كثيراً من المزارع بدون تملك رقبتها ، ووقفها على ارباب الزعامة الدينية وذراريهم والعشر الذي تتقاضاه اليوم البقية الباقية من الذرية وادعياء النسب المندسون بها هو ضرب من السحت يجب ان يتحول مجراه عن هذه الحلمات الطفيلية الى مصالح الامة ومرافقها الخيرية العامة . وخلاصة القول ان هذا النوع من الاوقاف السلطانية غير صحيح وبالاخلق وقف الوزراء وعمال الولايات ولو اقترنت بموافقة سلطانهم الاعظم لان عمال القرون المظلمة في عهد الاقطاعي كانوا يقترفون في ايالاتهم ما شاؤا وشاءت اهواؤهم فيقتلون البررة والابرياء ويعفون عن الجناة وقطاع السابلة الاشقياء ويصادرون اموال من يشاؤن ويصلون بها من يشاؤن فاذا كان الموت والحياة بين شفتيهم وحقوق العباد الخاصة العوبة بين ايديهم واموال الرعية مباحة لنهبهم

فأخلق بهم ان يعبثوا بالحقوق العامة كارض بيت المال الشائعة الانتفاع بين افراد الامة فراغا بالبيع او انتقالا بالارث او حياء بالعمل مقابل البدل فقدكان هؤلاء الظلمة يضعون ايديهم على ما يختارونه من ارض ايالتهم الاميرية المملوكة الانتفاع فضلا عن الشاغرة (وهي ما تدعى بمصطلح قانون الارضين بالمحلولات الاميرية) ويتملكون هذا الحق بالتفويض من انفسهم لانفسهم لانهم الكل بالكل لا يسئلون عما يفعلون ماداموا يشترون الولاية على الايالة بثمن مقطوع يؤدونه مسانهة الى سلطانهم او اعوانه. وبعبارة ثانية يعهمها عوام الموظفين الحكوميين، ما دام الولاة يلتزمون الولاية على الايالة من اعوان السلطان بالمزايدة حتى تصل الى بدلها اللائق او الفاحش ويقع عليهم المزيد الاخير وتحال الى عهدتهم احالة قطعية. وكل وقف من اوقاف السلاطين يتحول من منفعة خاصة الى مصلحة عامة فهو صحيح والعكس بالعكس. وحكمة ذلك سد الذرائع بوجه الوزراء وعمال الايالات الظالمين الذين كانوا يطوقون بنفوذهم الارض الشاغرة ويختصبون المملوكة وينتفعون بحق قرارها ثم يحتالون بوقفه خشية المصادرة، وقد مهد لهم سبل الاحتيال المتفقهة المصانعون فافتوهم بصحة الوقف على النفس الذى روى القول بصحته عن بعض علماء السلف لمصلحة عامة، وهي ترغيب الناس بالوقف لان مصيره بعد موت الواقف وانقراض ذريته الى جهة لا تنقطع وهي الفقراء والمساكين الذين لا تخلو منهم الارض في كل عصر وقطر. لكن متفقهة السوء قلبوا هذه المصلحة مفسدة. فاعانوا الظلمة بهذه الفتوى واضرابها على افراز المزارع من ارض بيت المال وحبس حق قرارها على انفسهم في حياتهم وعلى ذرياتهم من بعد مماتهم. هذا رأي نبديه من الوجهة الفقهية النظرية، ولا نفتي ولا نقضي به من الوجهة الشرعية العملية وان كان مناطه المصلحة العامة التي ترمي اليها الشريعة السمحة الواسعة ما لم تتفق عليه كلمة اهل الحل والعقد من علماء الشريعة الاسلامية، لان الفرد يخطىء ويصيب لكن الذي نقطع باجحافه من الوجهة القانونية هو مصادرة حق قرار الارض

من المتصرف بها بمجرد تعطيلها ثلاث سنوات عن الحرث والزرع بدون معذرة شرعية ، لان المتصرف بالمنفعة لم يملكها الا باسباب شرعية ، وكل ما يملك بسبب شرعي لا يجوز نزعه من مالكه الا باسباب شرعية .

ضروب الحيل وانتهاك حرمة الاوقاف

الناس محتاجون بسائق الاضطرار الى البيع والابتياع والمقايضة والمقاسمة ما دام الانسان مدنياً بالطبع مضطراً الى التعامل بالتبادل الذي هو محور دائرة المنفعة الاقتصادية وهي دعامة العمران . وقد اورث تهافت السلف على الوقف اصطدام سكونه المؤبد بحركة التعامل الاقتصادي الضروري الاستمرار ، لان التصرف بالعقارات الموقوفة بيعاً او شراء ممنوع شرعاً وبواعث العمران والاقتصاد تقضي هذا التصرف طبعاً درءاً لخطر الآفات الاجتماعية والازمات الاقتصادية التي تؤدي بحياة العباد وخراب البلاد ولذا اخترعوا (والحاجة ام الاختراع) اختراعاً على ما يقولون من قواعد ناصر السنة الامام احمد بن حنبل نضر الله وجهه ، ما يدعى في الديار الشامية بالمرصد وهو الدين الذي على ذمة العقار الموقوف او الاستيفاء من اجرته بعد استيفاء المتولي عليه مقداراً مالياً معجلا من المستأجر يسمى « خدمة » وفرض مقدار مؤجل عليه يستوفى منه مسانهة يسمى « ديناً مؤجلا » بشرط ان يكون المستأجر على الموقوف لعمارته او ترميمه ديناً بذمة شخصه ، فاذا أيسر فللمتولي ان يؤدي الى صاحب المرصد ما كان له على رقبة الوقف ليعيدها الى جهته طوعاً او كرهاً . ومرمى هذا المخرج ومغزاه تحرير العقارات الموقوفة بالجملة بمنح التصرف بها بيعاً وشراء مراعاة للمصلحة الاقتصادية ، مع تقدير مرتب مقابل هذا المنح ، ومع الاحتفاظ بحق الرجوع بعد اداء الدين حرمة للاحكام الشرعية ، وبنسبة تكاثر العقارات الموقوفة بدمشق مثلا تكاثرت المراصد .

هذا فيما يتعلق بالعقارات المسقوفة ، واما الارضون الصالحة للزراعة فقد اخترعوا لمنع التصرف بها ، فراغاً وانتقالا ، مخرجاً آخر وهو سراية « شد السكة »

من الارض الاميرية الى الموقوفة . ومعناه استحقاق الحراثة في الارض التي ليست مملوكة الرقبة للحرث مقابل اداء العشر او الخراج ان كانت اميريه ، واداء مرتب الوقف ان كانت موقوفة الرقبة بعد اداء حق قرارها . وقد اصبحت قضية ارض الزراعة الموقوفة في الشام ذات غموض عظيم في زماننا ، لاختلاط الموقوفة بغيرها ، واختلاط الموقوفة وقفاً صحيحاً لتملك رقبتها بالموقوفة وقفاً غير صحيح لعدم تملك الرقبة ، وكذلك لاختلاط ذات الوقف الاهلي بذات الوقف الخيري فضلا عن ضياع وقف اغلبها واندثاره بتقادم العهد ، ماعدا الارضين التي صانت الحكومة وقفها وضبطته ، مقابل افراز العشر والاعتراف باستحقاقه لجهة الوقف سواء أكانت خيرية ام اهلية ، وسواء أكان الوقف صحيحاً ام غير صحيح .

واذا كانت قضية الارض الاميرية باعتبار ذاتها من اشكل المشكلات لما طرأ من التبديل على الخطة التي رسمها سيدنا عمر رضي الله عنه بعد فتح الشام ، فكيف بما عرض لها من عوارض الوقف المختلفة الانواع التي استترت على ابناء هذا الزمان ، ما لم يتح لهم الاطلاع على كتب الواقفين ، ومناشير السلاطين المصونة بيد المستحقين او المتولين ، ويندر ان يطلعوا عليها احداً لعبثهم بشروط الواقفين من الوجهة الخيرية ، واختلاسهم حقوق المستحقين من الوجهة الاهلية . على ان اغلب ارض الزراعة الموقوفة لا تختلف احكامها في عهدنا وربوعنا عن بقية الارضين من وجهة الفراغ والانتقال .

ونحن مع اعترافنا بضرورة اختراع هذا المخرج لعلمنا بيسر الشريعة واتساعها وملاءمتها لمقتضيات الزمان والعمران لا يسعنا انكار ما نجم عن اختراعه من اندثار الاوقاف الاسلامية وانهيار معالمها ، لانه فسح مجالا لابتداع الحيل التي مهدت السبل لاختلاس الاوقاف وطمس معالمها ، ودرس معاهدها . ولما ادرك ارباب الطمع ان المرصد لا يملكهم العقار الموقوف ملكا باتاً لان لمتولي الوقف الرجوع على صاحب المرصد متى أدى اليه دينه على الوقف ، كادوا للاوقاف الاسلامية بحيل ابتدعها بعض متفقهة القرون الوسطى ، ما عرفها

الشرع ولا عرفته ووضعوا اسماء لم سموها ما انزل الله بها من سلطان وهي : القيمة ، الجدك (الكدك) ، القميص ، الحكر ، الاحترام . ويشمل هذه الانواع ما يسمى حق (١) القرار في البلاد الشامية والكردار في بلاد خوارزم ، وهو غير حق القرار في الارض ، بل يريدون به تجوزاً الاعيان القائمة سواء أكانت متصلة كالجدران والسقف ، أم منفصلة كالآلات والعدد . وتختلف اسمائها باختلاف ما حلت به من الامكنة ، فان حلت في البساتين والحدائق فاسمها في ديارنا - قيمة - والمراد بها جدران البستان (الدكوك) وما يشتمل عليه من جذور نجمه . وبمصطلح العامة (شروش الفضة ومعجن مشمشه) وبمصطلح العامة (جرن معك مشمش القمرالدين) وقمامته (المزبلة) . وأن وجدت في الحامات فالمراد بها الفرش والاساس كالسجاد والوزرات والطاسات . وان كانت في الحوانيت فتسمى (جدكا) وهو ما يضعه المستأجر متصلا كالابواب والرفوف . اما اذا كان منفصلا كعدد المقاهي وآلات الحلاقة فيسمى (خلوا او حق السكنى) . ويغلب على الظن ان هذا غير الخلو الذي اصطلح عليه متفقهة القطر المصري ، بل الارجح انهم يعنون بالخلو ما يدعوه متفقهة الشام (بالمرصد) ويقرب منه ما يدعوه متفقهة بلادالروم بذي الاجارتين وهو بلا ريب غير الخلو المراد به وضع اليد والقدم .

ثم ان هذه الاعيان اذا كانت في المطاحن فانها تسمى (قيصا) والمراد به آلات الطحن كالقطب وحجري الرحى ونحو ذلك من آلات الطحن المنقولة . واذا كانت مادة بناء قائم في عرصة موقوفة فتسمى (حكراً) وصورة احتكارها ان يأذن متولي الوقف للمستأجر بالانشاء في العرصة الموقوفة على ان يكون ما يبنيه ملكا له ، بعد ان يؤدي الى المتكلم على الوقف مقداراً معجلا يسمى(خدمة)، ويتعهد بأداء مؤجل يؤدى مسانهة يسمى (ديناً مؤجلا) . واذا كانت غراساً فيسمى غراسها (احتراما) ، وصورته ان يأذن المتولي على ارض موقوفة — ما

---

(١) هو غير حق القرار بالاراضي الاميرية المراد به التمتع بحق حراثتها وزرعها =

عدا ارض الزراعة . بغرسها للانسان على ان ما يغرسه يكون ملكه . او ان يكون البعض ملكه والبعض الآخر ملك جهة الوقف على سبيل التابعية للارض بعد ان يؤدي الى المتكلم على الوقف مقداراً معجلا يسمى ايضاً (حدمة) ويتعهد بمقدار مؤجل يؤدى مساناة يسمى ايضاً (اجرة) او دينا مؤجلا . هذا ملخص ما نص عليه المتفقهة المتأخرون .

مصائب الاوقاف

ان غلو الواقفين بالتهافت على الوقف . واتخاذ الظلمة المتحرين بالدين الوقف ذريعة لصيانة اموالهم المغصوبة من المصادرة . وتحريج أئمة الحرج الذي سماهم بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم . وهم المتفقهة المتنطعون . وتشديدهم على الناس . او تضييقهم ما وسع الله تعالى على عباده . وتساهل متفقهة السوء بابتداع حيل الاوقاف لاغنام جيوبهم واشباع بطونهم النهمة التي لا تشبع بالقليل لانهم يأكلون بسبعة امعاء . - كل ذلك كان من اعظم البواعث على اضاعة الاوقاف الاسلامية في قطر الشامي . لان اغراق الاسلاف المتقدمين بالتهافت على الوقف ضيق على الذين يلونهم من الاخلاف المتأخرين سعة الارض الحرة بالحبس عن التعرف بيعاً او ابتياعاً او مقايضة او مقاسمة الى آخر ما هنالك من ضروب التصرف المدني . على حين مبنى الشرائع الآلهية كما قال ابن القيم على الحكم والمصالح . وكلها رحمة وحكمة . ومصلحة وعدل . وكل قضية خرجت عن الرحمة الى النقمة . وعن الحكمة الى العبث . وعن المصلحة الى المفسدة . وعن العدل الى الظلم . فليست من الشريعة وان ادخلت فيها بالتأويل . وارى ان كل ما كان كذلك فهو من الشرع المبدل .

اضاع هؤلاء الجامدون حكمة الوقف ومصلحته . وحالوا دون نمو ريع العقارات الموقوفة لحرصهم على شرط الواقف وصفته ولو اقتضت منفعة الوقف التغير والتبديل . وقد نجم عن التهافت على الوقف غلو في الدين او اتجار به . وعن تشديد المتفقهة على الناس ابتداع الحيل التي اودت بالاوقاف . فطفق الناس

يتملكون العقارات الموقوفة تملكا محضاً وان ظلت عليه شية من مسحة الوقف باسم الحكر او القيمة او القميص ونحوها من الحيل الكردارية التي جرأت الظلمة فيما بعد على اختلاس المساجد والمدارس والمقابر مباشرة مع عقاراتها الموقوفة عليها بدون التذرع بهذه الحيلة في زمن آثر كثير من ابنائه الدنيا على الدين لفرط جشعهم . فانفجر بركان الجرأة على الشريعة لتضييق أئمة الحرج ، وفجر المتأخرون لغلو المتقدمين بالتهافت على الوقف ولم يجد اختراع مخرج المرصد نفعاً لصيانة العقارات الموقوفة . اذ لم نسمع ولم نشهد ان المتكلم على وقف أدى الى صاحب المرصد ما كان له ديناً على رقبة الوقف واسترجعها الى جهته ، بل نمي الينا عكس ذلك وهو ان اصحاب المراصد كانوا يرشون المتكلمين على الاوقاف ليغضوا الطرف عن انتقال العقارات من الوقف المرصد الى الملك الحر ، ويرشون ايضاً مفوضي العقارات ليسجلوا العقار الموقوف ملكا صرفاً ، بل ان بعض المتولين انفسهم كانوا يخونون الوقف باتخاذهم مخرج المرصد حيلة ، اذ يتذرعون به بدون اضطرار اليه لتحويل العقار من الوقف المحض الى المرصد ، انعاما للجيوب ويرشون قضاة السوء ليثبتوا اضطرار الوقف الى الدين والاستدانة .

اوقاف الذرية

قوام الوقف ركنان ، وهما : الحبس والتأبيد ، فبحبس الواقف العين عن التمليك وأبد الحبس بالتقييد الى جهة لا تنقطع ، اصبح الوقف مبرما واضحت العين محبوسة شرعاً . ولا يمكن تحريرها من قيد الوقف ، ورجوعها ملكا صرفاً كما كانت البتة ، لان الشرع صانها للجهة الموقوف عليها من تصرف الانتقال والتمليك . ولخوف الواقف من سفهة ذريته ، وتبديدها الثروة من بعده ، او لخوفه من المصادرة او لغير ذلك من الاسباب المختلفة باختلاف النيات ، لجأ الى الوقف وقيده بقيود وشروط تلائم رغائبه ، وأبده بالتقييد الى جهة لا تنقطع بعد انقطاع الذرية لئلا يفقد الوقف احد ركنيه . وما التجاء الواقف الى الوقف الا التجاء الى كنف الشريعة التي شرعت الوقف وصانته باحكامها . وغير خفي

ان حامي حمى الشريعة امام المسلمين المكلف برعاية احكامها ، والنائب عنه من هذه الوجهة وزارة الاوقاف في العاصمة ودوائرها الفرعية في الايالات وملحقاتها . والشريعة لا ترد اللاجيء الى حماها بالطرق الشرعية . ولهذا لم تفرق قواعدها واحكامها بين الاوقاف الخيرية والاهلية بالمناعة والصيانة ، فكل من النوعين منيع مصون بنظر الشريعة . واللاجيء الى الشريعة لاجيء طبعاً الى المكلف بحمايتها ورعاية احكامها . فكان حقاً على امام المسلمين والنائبين عنه من الوجهة الوقفية ، صيانة الاوقاف الاهلية كحرصهم على صيانة الاوقاف الخيرية . فهذه القواعد منشأ سيطرة دائرة الاوقاف الحكومية على الاوقاف الاهلية المحضة ، ولاسيما ان الوقف الاهلي الصرف يحتمل ان ينقلب خيريا محضاً في اقرب وقت ، بانقراض الموقوف عليهم ، لان مآل الاهلي الى الخيري بالعاجل او الآجل ، لتقييد الوقف بالتأبيد الى جهة لا تنقطع . وكل ما يعود الى هذه الجهة فهو من الاوقاف الخيرية لحق على دائرة الاوقاف ان تكون في كل آن واقفة بالمرصاد امام تصرف نظار الاوقاف الاهلية . على ان اغلب من تذرعوا بالوقف الاهلي لصيانة الثروة ، ولا سيما الوزراء وعمال المقاطعات ، كانوا يتبرعون بالاوقاف الخيرية ليوطدوا الاولى بالثانية ، ويعهدوا بالولاية على الجميع الى الارشد من ذريتهم . فرعاية لشروط الواقفين لا تنتزع دواوين الاوقاف الولاية من المتولين على الاوقاف الخيرية المتحدة بالولاية على الاوقاف الاهلية ما دام المتولي يؤدي دفتر المحاسبة نقياً من الشوائب . واذا كان الامر كذلك لا يسوغ لديوان الاوقاف ان يضبط الوقف بل يذره ملحقاً ، لكن يحق له ان يجبر المتولي ان يؤدي حساباً عن الوقفين الخيري والاهلي لتداخلهما ، وان لم ترفع اليه شكوى من ارباب الاستحقاق .

الاوقاف في العهد العثماني الاخير

لهذا العهد ثلاثة ادوار ، الاول : دور السلطان عبد الحميد الثاني ، الدور الثاني : دور اخيه محمد رشاد الخامس ، الدور الثالث : دور اخيهما وحيد الدين محمد

السادس خاتمة ملوك بني عثمان . ولم تكن دوائر الاوقاف في الشام على العهد الحميدي اقل من بقية الدوائر الحكومية من جهة تخلل الفوضى والاختلاس وقلة النظام والانتظام . بل كانت اكثر اختلالا عن غيرها لان لها وجهة دينية ذات اتصال بمشايخ الدين الحشويين او الدجالين الذين هم ابعد الناس عن النظام والانتظام . فكانت الشؤون الدينية في عهد عبد الحميد مسرح الفوضى لتهاونه بالدين واكتفائه على الجملة بالتمويه بشعائره العتوية ورسومه الرسمية . وكان اعوانه يبيعون على مسمع ومرأى منه الوظائف الدينية كالقضاء الشرعي والفتيا والتدريس العام والوعظ والارشاد . ومن جملة ما يبيعون وظيفة مدير الاوقاف التي كانت تكد وتجد وتبذل الجهد في جباية اموال الاوقاف ، لتبعث بها بعد السلب والنهب والمقاسمة الى العاصمة ، فيفيض السلطان من هذه الاموال على الدجالين من مشايخ الطرق وعلماء الرسوم والرتب والاوسمة باسم (احسانات اوصدقات سلطانية او فدية عن عافية ذاته الملوكية) ويمسك يديه بالصرف على علماء الدين العاملين فسارت لذلك حال أئمة المساجد وخطباء المنابر والسدنة والمؤذنين والواعظين لفرط التقتير عليهم حتى انحصرت هذه الاعمال في البائسين والكسالى والزمنى .

تنقسم الاوقاف الى خيرية واهلية ، وتنقسم الخيرية الى مضبوطة وملحقة : تناط الاولى بدائرة الاوقاف مباشرة . وتركت الثانية لنظارها مع احتفاظ ديوان الاوقاف بالنظارة العامة عليها . وللديوان حق السيطرة على الاوقاف الاهلية ولا سيما اذا كانت مختلطة بالخيرية . وهي تنقسم الى جلية وخفية : فالاولى من متعلقات الاوقاف الخيرية المضبوطة ، وهي نفقات ارباب الشعائر الدينية والاختلاس منها تافه جداً بالنسبة الى نفقات تنوير المساجد والمعاهد وابتياع ما يلزم من الاثاث ، وهو ايضاً حقير بالنسبة الى ترميمها وترميم الاعيان الموقوفة عليها . واما الانشاء المحدث او المجدد فلم يكن معهوداً في ذلك العهد لان ديوان الاوقاف يجبي الاموال من الشام ليبعث بها الى العاصمة .

وبالجملة لم تكن وسائل الاختلاس الجلية شيئاً مذكوراً قياسياً مع الوسائل

الخفية وهي عديدة : اولها ان كثيراً من المساجد والمدارس والزوايات (زوايا مشايخ الطرق الصوفية او المتصوفة) والمعاهد الخيرية كالمستشفيات او مطاعم الفقراء (التكايا) ونحوها من الامكنة المضبوطة اوقافها ، كانت مهجورة او مقفلة الابواب لكونها في القرى او في احياء منزوية عن المدينة . فكان ديوان الاوقاف يحسب عليها جميع ما تحتاج اليه من النفقات اضعافاً مضاعفة كما لو كانت عامرة آهلة مفتحة الابواب ، في حين انها لا تنفق عليها شيئاً سوى مقدار زهيد لقاء تطبيق المعاملة على الاصول المرعية الاجراء ، بالحصول على وثائق وصول النفقات الى البائسين المستعارين الذين يستعيرهم الديوان مقابل توقيع الوقائع والاسناد الكاذبة . والوسيلة الثانية أشد خفاء من الاولى ، وهي مواطأة دائرة الاوقاف مع نظار الاوقاف الملحقة الغزيرة الريع على ا كل اوقاف المسلمين الكثيرة العدد وهي ما حبسه السراة والامراء والوزراء الاسبقون على ذرياتهم ، وعلى المعاهد الخيرية والمعابد ، وجعلوا الولاية عليها في الارشد من ذريتهم . وذلك ان هؤلاء النظار نظار الاوقاف الخيرية الملحقة كانوا يتقاضون اعشار القرى المضبوطة الوقف من الخزانة العامة باسم الاوقاف الخيرية والاهلية ، على حين درس جل بل كل المدارس والمساجد واصبحت اسماء لا مسميات لها ، درست وانقلبت حوانيت وفنادق ودور وقصور ، وسجلت في سجلات التمليك ملكا حراً لهؤلاء النظار المختلسين ، ثم انتقلت لورثتهم ولمن ابتاعها منهم . وكانوا يتقاضون اموال العشر الخاصة لهذه المعاهد ، ويدرجون بكل قحة وجرأة مبلغاً وافراً باسم النفقة على تنويرها وترميمها وفرشها واقامة شعائرها ، ثم يتغاضى ديوان الاوقاف عن محاولة النظار تحويل الاعيان الجارية بملك الوقف الى مرصد او كردار بدون سبب قوي ثم اغضاء هذا الديوان عن تحويل الاعيان الموقوفة من الوقف المحض او المرصد الكردار الى الملك الصرف ، ثم تسجيل العقارات الموقوفة على المعابد والمدارس ملكا صرفاً للنظار المختلسين الى غير ذلك من انواع المواطآت بين ديوان الاوقاف والنظار عليها وكلها ترجع الى اختلاس الريع وتغيير الاعيان الموقوفة . وكان ديوان الاوقاف يكتب من

حين الى آخر الى وزارة الاوقاف في العاصمة بانه ضبط مدرسة كان بعض الاشرار اتخذها سكنا فارجعها معبداً تقام فيه الشعائر والصلوات والاوراد والاذكار والادعية للخليفة الخ .

اما القلب وأعني به مجلس ادارة الاوقاف الاعلى فقد كان على جانب عظيم من الضعف ، وفقاً لمقتضيات العهد الحميدي التي يرومها عباد المنافع الخاصة واعداء المصالح العامة . واذا كان القلب الذي هو مصدر الحياة ضعيفاً بتعفن حجيراته المنبعث عن تغلب الجراثيم الذريعة الفتك ، فكيف تكون حالة شرايين الجثمان واعضائه ودورة دمه . لاريب انها تكون كحال هيكل ديوان الاوقاف وادارتها ما دام اعضاؤها عاطلين من الاهلية علماً وخلقاً ، ولا كثرهم علائق بوقف خيري او اهلي ، مما هو مخالف للقانون . فهم لا علم ولا نزاهة ولا غيرة . اما نظار الاوقاف الاقوياء بالجد الكاذب . فقد كانوا يتصرفون تصرف الملوك بالاعيان الموقوفة الريع على المعاهد الدينية والخيرية وعلى ذرية الواقفين فضلا عما يختلسونه من المدارس واوقفية المساجد يتخذون جميع ذلك دوراً وحوانيت وحدائق وينقلونها في سجلات التمليك من الوقف المحض الى الملك الصرف . واذا طالب بعض ارباب الغيرة باعادة الاوقاف الى حالها واجراء امورها على حقيقتها تقام عليهم الدعاوي المزورة ، وتنصب لهم المكايد واشراك الانتقام وكأن لسان حال ديوان الاوقاف ومجلس ادارتها ورئيسه يقول لنظار الاوقاف المختلسين (سكتنا عنكم لتسكتوا عنا) لان جميعهم باستنذاف الاموال وسحق الضعفاء سواء .

ولقد انتظم ديوان اوقاف الشام في الجملة بعد اعلان القانون الاساسي (١٩٠٨) وتسرب اليها شيء من الاصلاح بفضل الخطط التي رسمها وزير الاوقاف العثمانية العربي خليل حمادة باشا وتناقص النهب والاختلاس بالنسبة الى العهد المنصرم . غير ان معاهد البلاد ومعابدها لم تنل حظاً من زيادة الواردات لانها كانت تنفذ الى العاصمة فتنفق كغيرها من واردات اوقاف الايالات العثمانيـــة كانشاء فنادق كبرى للوقف في الاستانة . وظلت قوانين الاوقاف كما كانت في

عهد السلطان عبد الحميد حبراً على ورق . ومما يسجل من اعمال الدولة في الحرب العالمية انها انتهكت الحرمات باسم الجهاد المقدس وذلك باتخاذ المعابد والمدارس والمعاهد الخيرية وملاجىء الاسعاف العام ثكنات لمأوى الجنود واصطبلات لربط الخيول وحبس الانعام ومستودعات لادخار انواع الذخيرة وضروب الميرة . ولما انجلى الترك آخر الحرب الكبرى عن ربوع الشام اغاروا على سجلات الاوقاف ووثائقها واوراقها الخطيرة ونقودها كما اغاروا على وثائق اغلب الدواوين وسجلاتها ونهبوا نقودها وفي عدادها اموال اليتامى وامانات المصارف الزراعية فاصيبت دواوين الاوقاف من اجل هذا بمصيبة عظيمة .

الاوقاف بعد العهد التركي والى اليوم

وفي عهد الحكومة العربية الفيصلية ألف ديوان الاوقاف تأليفاً جديداً ولم تلبث ان فاضت واردات الاوقاف عن نفقاتها لان المبالغ الباهظة التي كانت ترسل الى العاصمة التركية ظلت في خزانة الدائرة التي شرعت توسع على ارباب الشعائر وتنشىء المعاهد كالمدرسة السميساطية بدمشق التي نقضت من اساسها وانشئت خلقاً جديداً ، ومثل ذلك الاصلاح الذي تم في ترميم الاعيان الموقوفة او انشاء الجديد منها في حلب وغيرها حتى اذا تقلص ظل سلطان الملك فيصل واحتلت الجيوش الافرنسية داخلية بلاد الشام ، اصيب ديوان الاوقاف بتبلبل مالي وذلك لاستبدال الورقة السورية بالمصرية (بل المصرية بالسورية) واتخاذ القرش السوري محور التعامل وحظر التبدال بالنقدين الذهب والفضة قبضاً وصرفاً في حين ان الورقة السورية كميزان الحرارة لا تثبت على حالة واحدة في اليوم الواحد فارتبكت معاملات دواوين الاوقاف بهذا التبلبل وزاد في نضوب خزائنها على الرغم مما زاده القائمون بادارة شؤونها من زيادة الضمائم الفاحشة على الديون المؤجلة .

وقضت ارادة المفوض السامي الاول الجنرال غورو ان يتدخل المنتدبون في الشؤون الاسلامية المحضة وذلك بالاشراف على اوقاف المسلمين دون اوقاف

اليهود والنصارى المنضوين تحت لوائها سواء كان ذلك ابان قوتها ام ايام ضعفها وتركت ادارتها الى المجالس الطائفية كما ان الدولة البريطانية لم تتدخل في مصر بشؤون الاوقاف الاسلامية فاستثنت وزارة الاوقاف المصرية من سيطرة الاستشارة وسلطة المستشارين وتركتها مناطة بشخص عزيز مصر مباشرة ، وقد نهجت ايضاً هذا النهج في فلسطين فتركت ادارة اوقاف المسلمين وجميع شؤونهم الدينية كتقليد القضاء الشرعي والفتيا والارشاد والوعظ والخطابة والامامة الى مجلس ينتخب اعضائه المسلمون يدعي (المجلس الاسلامي الاعلى) اما في البلاد المشمولة بالانتداب الفرنسي فقد انشئت المراقبة العامة على شكل مبتدع بين الاشكال الحكومية . ووضع غريب غير معهود بين الاوضاع الادارية . وكذلك يقال في مجلس الاوقاف الاسلامية التي قضت بتأليفه ، ففصلت بذلك دواوين الاوقاف الاسلامية عن الحكومات المسلمة الاهلية ووصلتها مباشرة بالمفوضية العليا وجعلت لها مستشاراً غير مسلم يتصرف في شؤونها الادارية والمالية بسلطة واسعة ، وكان من احداث مراقبة الاوقاف ارهاق خزائنها بالرواتب المستحدثة العظيمة ولم تأت بعمل يذكر بمجاراة لمقتضيات العمران والترقي الحديث استنادا الى قواعد الشريعة العامة التي يحظرون الاستنباط منها ذلك لان معظم اعضاء مجلس الاوقاف من اعداء التجدد وعشاق الاحتفاظ بالقديم وابقائه على قدمه . فقد نقضوا قرار مجلس رياسة العلماء المنطوي على ضرورة التذرع باستبدال المساجد الخربة التي لم تعد صالحة لاقامة الصلوات مع استناده الى مذهب الامام حنبل بالشروط المنصوص عليها .

وسائل اصلاح الاوقاف

ضيق بعض متفقهة القرون الوسطى دائرة الشريعة الواسعة وقلبوا يسرها عسراً ومرونتها صلابة وصوروها عقبة كؤوداً في سبيل الارتقاء والعمران . بما ابتدعوه من القيود المنبعثة عن الجمود وبما اقاموه من السدود المنيعة دون دخول منافذ ينابيع العلم ، وما اسدلوه من الحجب الكثيفة على نوافذ نور العقل

كما ان فريقاً منهم احتالوا على الشريعة فاختلقوا باسمها حيلا تقلبها رأساً على عقب انقياداً لاهواء العلماء والاغنياء والامراء بسائق الجشع وحب الجاه وافتأتوا على دين الفطرة بحشو او دس ما تنبوا عنه حكمته واصوله وفروعه التي ترمي جميعها الى السعادة البشرية في الدارين . فقد قيد المتنطعون بالتحريف والتشديد الوقف بقيود وشروط وحدود حالت دون ارتقاء الاوقاف وعمرانها ونمو ثروتها وقضت على حكمة الوقف وارادة الواقفين . كما ابتدع المحتالون حيلا نجم عنها ضياع الاوقاف كالمرصد وضروب الكردار حتى آل حال الاوقاف الى ما آل من المصير الفاجع .

وبعد فالواجب الآن على اهل الحل والعقد تأليف لجنة مختلطة من علماء الشريعة المجددين وعلماء الحقوق والادارة والاقتصاد ليدون اعضاؤها مجموعة لاحكام الاوقاف الشرعية على نسق جديد مغترفين من بحر الشريعة المحيط ومن كل مذهب من مذاهب الائمة المجتهدين ما هو اصلح واضمن لسعادة الاوقاف وارتقائها واثرائها وصيانتها من عبث العابثين واعتداء المعتدين وجمود الجامدين ، وما هو اكثر ملائمة لروح الزمان ومقتضيات العمران ، وفقاً لما يرمي اليه الشرع وقواعده العامة من انتقاء الاصلح وترجيح الاحسن . ثم ان الملحق بالشعائر الدينية نوعان ، وهما : التدريس الخاص بالمدارس الدينية ، والارشاد الدقيق في الزوايا الصوفية . اما الاول فهو تعليم العلماء تلامذتهم العلوم الدينية ووسائلها ، وجل هؤلاء ان لم نقل كلهم متبرعون ، فلا تعلق والحال هذه لدواوين الاوقاف بهم ، وانما التذرع باصلاح اساليب تعليمهم واستئصال الفوضى الضاربة اطنابها في هذه المدارس ، وهذا شأن من يتولى شؤون العلوم الدينية كرئيس العلماء او شيخ الاسلام مثلا . اما اذا وجدت وظيفة تدريس خاص باحد العلوم في احدى المدارس بأجر رتبه الواقف ، وكان صاحب هذه الوظيفة يتقاضى الراتب من خزانة الاوقاف ، فان للدائرة حق النظر والاشراف ، فاذا كان صاحب الوظيفة غير قائم بها لعدم اهليته فانه يعزل ، وان كان غير قائم بها كسلا فانه ينذر . اما النوع الثاني وهو الارشاد الدقيق فقد اجدبت الزوايا

الصوفية من التصوف بمعناه الصحيح واقفرت من المرشدين الكاملين والمريدين الصادقين ، واضحت مقر المشايخ الدجالين المعطلين والمريدين الكسالى العطلين. فامثال هؤلاء يجب طردهم من الزوايا التي لم ينشئها الواقفون ليأوي اليها الضالون المضلون باسم التصوف والطرق الصوفية ، واذا كان لهم اوقاف يجب تحويلها الى مصارف البر والاحسان والاسعاف العام .

اشرنا الى ما انتاب الاعيان الموقوفة من الدرس والطمس والاختلاس سواء أكانت معابد ام مدارس ام مقابر ام ملاجيء اسعاف ام عقارات موقوفة الريع وهذا النوع الاخير اضحى من المتعسر ان لم نقل من المتعذر انقاذه من الاختلاس بعد مرور الزمن وعدم دلالة الظاهر عليه كدار كانت جارية بملك الوقف ثم لعبت بها الايدي فانتقلت من ملك الوقف الصرف الى ملك مختلسها المعتدي الاثيم . اما اذا لم يمض عليها مرور الزمن وكانت معلومة الحدود والبقعة فيجب حتما على دواوين الاوقاف اقامة الدعوى على المختلس او ورثته ، كما يجب عليها التنقيب على ما كان من هذا القبيل ، والمرجع في الاهتداء هو سجلات المحاكم الشرعية وكتب الواقفين ، والواجب على دواوين الاوقاف الايعاز الى نظار الاوقاف الاهلية والخيرية الملحقة بابراز كتب الواقفين فيما اذا لم يعثر عليها بين سجلات المحاكم الشرعية وانذارهم بوضع اليد على الوقف اذا ابطأوا بالابراز . اما النوع الاول فهو اسهل انقاذاً من العقارات الموقوفة الريع لان ما اختلس من نحو المساجد او المدارس او المقابر وانقلبت حوانيت او دوراً او حدائق او غير ذلك واضحى ملكا صرفاً للمختلسين او ورثتهم او المبتاعين منهم مطموسة لتبدل شكل المدرسة مثلا بعد اختلاسها وطمس معالمها فان كانت آثارها لا تزال قائمة كالقباب والقبور والمحاريب فعلى دائرة الاوقاف التذرع بالوسائل القانونية لانقاذها من المختلسين وان تبدل شكلها ومحي رسمها وجهلت حدودها ومضى عليها مرور الزمن وانقطع الامل من ارجاعها فهي برقبة مختلسيها . ومصباح الهداية المنير الى المعابد والمعاهد المختلسة والمدارس

الدارسة والمقابر المندرسة ، هو كتب تواريخ المدن الشامية والرسائل والاسفار الموضوعة في الخطط والآثار .

وما دعا الى هذا العبث باعيان الاوقاف وريعها الا فقدان وازع يزع القائمين بهم ، او مؤثر ادبي يردعهم ، او رأي عام يكبح جماحهم ، او مؤاخذة حكومة تضرب على ايديهم . ولم نسمع ولم نشهد في ربوعنا ان ناظر وقف خائن مختلس عوقب بسجن او تعزير وتشهير او بتضمين ومصادرة ، بل ما شهدناه في عصرنا الحاضر ان الناظر الضعيف اذا ظهر اثناء محاسبته ادنى شبهة او خيانة ينحى عن العمل ويساق الى المحكمة الشرعية ، وهي اما ان تحكم بعزله ، واما ان تبرىء ساحته وهو الاغلب ، لان مؤثرات الشفاعة والحنان ونحوهما تعمل عملها . واما الناظر القوي فلا يسأل عما يفعل ، وربما اعين على غلله وخياناته واختلاسه مع التبجيل والتوقير !

واذا كتب لدواوين الاوقاف خط من التجدد والاصلاح فالواجب ان تشرع بمحاسبة النظار ، تناقشهم الحساب ، فتبدأ بالاقوياء منهم ، وتغلظ عليهم ، وتكرههم على ابراز كتاب الواقف الاصلي المسجل بحكم الحاكم الخالي من شائبات التحريف والتبديل ، الحالي بتوقيع او بخاتم القاضي بصحته ، فيما اذا فقدت سجلاته ، وان لاتعتبر الصورة المنقولة عن اصله لانها عرضة للتحريف والتبديل كما يقع ذلك من النظار الخائنين . واذا ابرز الناظر على وقف كتاب الوقف الاصلي يعثر ديوان الاوقاف في الغالب على موارد اموال غزيرة مختلسة ، وعلى مساجد ومعاهد دراسة ومدارس مندرسة ، كما يعثر عرضاً او اتفاقاً من يحفر بئر ماء على كنز ثمين او ركاز دفين . واذا امتنع الناظر من اظهار كتاب الوقف يستفيد ديوان الاوقاف من اعتبار الوقف من قبيل ما انقطع ثبوته ، واشتبهت مصارفه ، وجهلت شرائطه ، لعدم وجوده في سجلات القضاة ، وما كان كذلك يتحول الى الاسعاف العام ما لم يبرهن المرتزقة على استحقاقهم باثبات الوقف وشروط الواقف ونسبتهم اليه او الى الطائفة الموقوف عليها .

وارى ان تتخلى المفوضية العليا في بلاد الانتداب الفرنسي من التدخل باوقاف

المسلمين بواسطة مستشارها الفرنسي المستمد منها نفوذه مباشرة ، فانه لا فرق بين هذا التدخل وبين التدخل بشؤون الصلاة والزكاة والصيام والحج ، لان الولاية على الاوقاف الخيرية ولا سيما الدينية المحضة هي من القضايا الشرعية الصرفة ، فلا فرق والحال هذه في الخطر بين إمامة النصراني المسلمين في الصلاة ، وبين ولايته على اوقاف مساجدهم ومعابدهم . وهذا الخطر غير محصور على الاسلام بل هو من ضروريات جميع الديانات ، فان النصرانية مثلا تحظر ان يتعاطى احبار المسلمين ومشايخهم ما يتعاطاه اساقفة النصارى وقسيسوهم من التعميد والتكليل والتكريس والحرمان والغفران ، كما تحظر ولاية المسلمين الموحدين على اوقاف كنائس النصارى المثلثين واديارهم . وهذا سر احجام الدولة العثمانية المسلمة عن التدخل باوقاف اليهود والنصارى من رعاياها وتركها ادارة اوافقهم والولاية عليها لمجالسهم الطائفية . فالواجب على حكومة الجمهورية الافرنسية الفخمة ان تترك المسلمين في هذه الديار طلقاء التصرف في اوقافهم وتقتصر عنايتها على الارشاد في الشؤون المدنية .

ولا اجنح بتة الى رأي من يقول بالغاء دواوين الاوقاف الحكومية واناطة الولاية على الاوقاف الاسلامية بمجلس اسلامي اهلي ينتخبه الاهلون على منوال مجلس اوقاف فلسطين ، لان المجالس الاهلية مهما بلغت من النظام والانتظام لا تضارع دواوين الحكومة المسؤلة والمؤاخذة قانوناً على الكبيرة والصغيرة . وليسع الشام ما يسع مصر والعراق . ومن رأيي ان تربط ادارة الاوقاف بالحكومات المحلية ويجعل لها ديوان خاص يعد في جملة دواوينها . اما اوقاف فلسطين فقد قضت الضرورة اناطة ادارتها بمجلس الاسلامي الاهلي . لان البلاد محكومة حكما مباشراً ، بيد انه قد نشأ من إنشاء هذا المجلس من الشقاق والتخاذل بين الفلسطينين ما انقسم الناس في الحكم عليه الى مادح وقادح بدافع المؤثرات الحزبية المتضاربة .

اما شرقي الاردن او حكومة الشرق العربي فانها مليئة باوقافها التي انتابها ما انتاب اوقاف بقية الاقاليم من الاختلاس في القرون المظلمة ، ولعل الحكومة

توسس فيها ديوان اوقاف يشرف على ما في صقعها من معاهد وقف ووقوف محبوسة الريع . اه

وقد احببت ايضاً نقل ما كتبه بن نجيم الحنفي في مؤلفه في بحث الاوقاف وما يجب على الامة الاسلامية في حفظها وعن القول الصحيح في معاملة الاستبدال سماه تحرير المقال في مسئلة الاستبدال ولكن حب الاختصار منعني عن نشر ذلك المؤلف اللطيف نزولا عند مسلك التاريخ كما انني وجدت حبا في الاختصار ايضاً عدم نشر ما كتبه العلامة الكبير الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية سابقاً في مؤلفه الذي سماه المرهفات اليمانية في عنق من قال ببطلان الوقف على الذرية ، وقد اكتفيت بنقل ما ورد الينا من طرابلس الشام في هذا الصدد :

قال : لسماحة الاستاذ الجليل الشيخ اديب تقي الدين

ان مجلس الاوقاف الاعلى سيلتئم بعد ايام قلائل للبحث والمداولة في امر الاوقاف الذرية وشأن إلغائها ، والحكم بعد ذلك بما يراه موافقاً لقواعد الشرع المنيف ، فمن الواجب عليكم ان تثابروا على مطالبتكم بالغاء هذه الاوقاف المبتدعة التي لا تنعقد في حال من الاحوال ، لانها بخلاف الوقف الذي أذن به الله وارتضاه لعباده ، اذ ان الله لم يأذن الا بما كان صدقة جارية تصرف في سبيل بره واحسانه ، لا بما كان إثماً جارياً وعقاراً مستمراً ، الا فليعلم ذلك منكم لكي لا يجد المضللون من المتولين ومن يقود جيوش اضاليلهم واباطيلهم الى الادمغة الآمنة والنفوس السالمة سبيلا .

وقد افتا بجواز حل الاوقاف الذرية وإلغائها فطاحل علماء طرابلس ، ومنهم العالم الجليل ، والفقيه الورع السيد محمد رحيم بعد سؤال ورد اليه وهذا نصه : (ما قولكم في بيع الاوقاف الذرية هل يجوز ام لا ؟) . فاجاب فضيلته بما يأتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

ان الجواب على هذا السؤال فرع القول بصحة تلك الاوقاف او عدم صحتها . فليعلم ان تلك الاوقاف لا ينبغي القول بصحتها من وجوه :

احدها : انها لا تستند الى كتاب ولا سنة ولا اجماع ولا قياس . بل القياس الصحيح يقضي عدم صحتها ، لانهم قالوا ان الوقف يشتق من الوصية ، والوصية لا تصح للوارث ، فكذا الوصية عليه .

ثانيها : انها مما جاء ذمها والنهي عنها في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله « وشر الامور محدثاتها ؛ واياكم ومحدثات الامور » يعني بها ما احدث بعد الخلفاء الراشدين . ووقوعنا في كثير من المحدثات لا يقتضي تبرير هـــذه المحدثة لان ما ذمه النبي او نهى عنه لا يجوز القول بصحته البتة .

ثالثها : ان الاوقاف المذكورة ليست من البر ، والدليل عليه شيئان :

الاول : انها تقتضي الحجر عليهم فيما كان يباح لهم التصرف فيه وجعلهم فيه كالقاصرين ، والحجر عليهم ينافي البر اليهم ، والوقف انما جاز لما فيه من البر ، ولا بر في وقف الرجل على اولاده لان مصير المال اليهم بوجه اهنى لعيشهم . فان قيل ان مراد الواقف من وقفه على اولاده ان لا يبيعوه من بعده فيفتقروا فيكون الوقف عليهم براً بهم ، قلت ان عمله هذا عين الاثم ، وهل يستطيع ان يدفع الفقر عنهم اذا كان مقدراً عليهم ، فقد رأينا من آلت بهم الحال الى فقر مدقع واوقافهم وافرة جداً .

الثاني : لو كان وقف الرجل على اولاده من البر لفعله احد الصحابة او التابعين ، ولو فعله احدهم لتكلم عليه الامام ابو حنيفة واصحابه واحتج به بقية المجتهدين ، ومن اكبر دليل على عدم كلام الامام فيه اتفاق كتب المذهب كلها على عدم النقل فيها عنه ، بل عدم ذكرها في مبسوط السرخسي يدل على عدم كلام محمد فيها ايضاً ، لان مبسوط السرخسي قد شرح به (كافي الحاكم) الذي جمع كتب الامام محمد في ظاهر الرواية . ومما يؤيد هذا ما جاء في البزازية من ان محمداً لم يفرع مسائل الوقف بل فرعها بعض اصحابه كهلال وغيره . وما جاء في الخانية مما يوهم النقل فيها عن محمد ينبغي حمله على تفسير الولد وولد الولد لا على وقف الرجل على اولاده بدليل ما ذكرناه عن المبسوط والبزازية .

رابعها : اذا لم ننظر الى جميع ما تقدم ووجهنا نظرنا الى ما قاله الامام ومحمد

في الوقف فاردنا ان نقيس الوقف على الذرية على الوقف على غيرها نجد ان كل الموقوفات على الاولاد في هذه العصور الاخيرة او جلها لم تصح في قولهما المفتى به . وذلك ان الوقف عند ابي حنيفة الذي يراد التصدق بغلته انما يلزم عنده اذا خرج مخرج الوصية والوقف على الاولاد بهذا الوجه لا يصح اذلا وصية لوارث . واذا لم يخرج مخرج الوصية كان الوقف عنده كالعارية يباع ويوهب ويورث . وقوله هو الذي ينبغي الافتاء به .

قال في الدر عن السراجية وغيرها : ان الفتوى عـــلى قول ابي حنيفة على الاطلاق . وصحح في الحاوي قوة المدرك وفي رد المحتار عن الخيرية . لا يفتى ويعمل الا بقول الامام الاعظم وان صرحوا بان الفتوى على قولهما الا لضرورة كمسئلة الزراعة . وفي البحر مثله وزاد وان لم يعلم من اين قال . اه

فما بالك اذا كان كلامه مؤيداً بالرواية والدراية . قال السرخسي « وقوله اقوى من حيث المعنى اه » وفي العيني عن الطحاوي ولابي حنيفة قوله عليه السلام (لاحبس عن فرائض الله تعالى) وحديث ابن عمر لا يدل على لزومه . لهذا اراد عمر رضي الله عنه ان يبيع ما وقفه بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم كره ان ينقض ما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم اه .

فان قيل ان حكم الحاكم يرفع الخلاف وما من وقف الا حكم به حاكم ، قلت جاء في الخانية والبزازية ان الذي يرفع الخلاف هو حكم من له اجتهاد لا كقضاة زماننا .

اما محمد فانه يشترط لصحة الوقف خروجه من يد الواقف وتسليمه الى المتولي وهذا مفقود في زماننا . لانهم يذكرون التسليم في اللسان فقط دون ان تصحبه حقيقة ، كما شاهدته بنفسي وسمعته من ثقاة كتبة المحكمة . وكذلك هو مفقود من اوقاف العصور القريبة منا ، والدليل عليه امور :

الاول : اننا لا نجد في صكوك اوقافها ما يدل على التسليم حقيقة كالتصريح بفراغ الدار او الحانوت من امتعة الواقف كما كان يصرح به المشايخ المتقدمون لان فراغهما شرط لصحة التسليم . الثاني عبارة تلك الصكوك السقيمة مع اتفاقها

على مؤدى واحد تقريباً دليل بين على جهل كاتبها وانه لم يوف شرائط الصحة حقها الثالث ما يذكر في تلك الصكوك من الوقف على نفس الواقف لانه ينافي اخراجه من يده . وقد صرح في الخانية والبزازية وغيرهما ببطلان الوقف على النفس . قال السرخسي في المبسوط وفتوى عامة المشايخ على قول محمد اهـ . اي من اشتراط التسليم لصحته وبطلان الوقف على النفس . ولا يخفى ان كلمة المشايخ في كلام السرخسي يريد بها من كان من المجتهدين او من اهل التخريج او الترجيح فلا يعارضه ما قد يوجد في كلام بعض المتأخرين من ان الفتوى على قول ابي يوسف لان فتوى هؤلاء لا تعارض فتوى اولئك . قال في رد المحتار قال العلامة الطرسوسي ومبسوط السرخسي لا يعمل بما يخالفه ولا يركن الا اليه ولا يفتى ولا يعول الا عليه اهـ .

فبما قدمنا يعلم ان الوقف على الاولاد باطل البتة في قول الامام وهو الذي ينبغي الافتاء به لما قدمنا عن السراجية ، والحاوي ، والخيرية ، والبحر ، بل لو أردنا ان نتنزل عن قوله الى ما اعتمده مشايخ الرواية والدراية من قول صاحبه لاعتمدنا القول ببطلان الاوقاف على الاولاد في العصور الاخيرة ايضاً لما بينا من عدم التسليم الحقيقي الذي اشترطه محمد لصحتها وبقوله افتى مشايخ الرواية والدراية كما قدمنا عن السرخسي .

خامسها : لو فرضنا ان الوقف على الاولاد غير مبتدع وان اصحاب المذهب تكلموا فيه وفرضنا ان اقوالهم متكافئة في القوة صحة وبطلاناً ، فان ما صار يؤدي اليه في هذه الازمنة الاخيرة من الشحناء وقطيعة الرحم ، واكل نظاره له كاف لترجيح قول من يشترط الشرائط القاضية ببطلان الموقوف منها في هذه العصور الاخيرة فضلاً عن كونها من محدثات الامور المنهي عنها في الحديث الشريف . وفقنا الله لاتباع رضاه وسلوك سبيل هداه انه ولي التوفيق .

فهذه هي فتوى الاستاذ الفاضل ، فنشكره على ما ابداه من علم جامع واطلاع واسع ونسأل الله له الاجر وحسن العاقبة .

وانتم يا اعضاء مجلس الاوقاف الاعلى ، كلكم يعلم ان الامور التي تنسب الى

الدين ولا تستند على كتاب او قياس او اجماع فهي باطلة ورد على اصحابها فالى متى انتم صامتون ساكتون عن مثل هذه الاوقاف المبتدعة بعد ما رأيتم عواقبها الوخيمة وحوادثها المؤلمة ، فهل يا ترى اعجبتكم وراق لديكم ان تروا املاك العباد ينعق على اطلالها بوم الخراب ، وسركم منظر اولئك المتولين متسنمون عروش عظمتهم المرتكزة على جماجم الاطفال والفقراء والارامل والبؤساء يقتاتون بلحومهم التي عضها الدهر بنابه ، ويرتوون بدمائهم المهدورة على المطامع الاشعبية، حتى سكتم عنهم هذا السكوت المريب ؟

لقد كان تشرين الاول موعد اجتماعكم فاصبح اليوم كانون الاول ، ونخشى ان يمسي في يوم لا يعد ينفع فيه اجتماع ، اذ تكون تلك الاوقاف قد اتى عليها اسنان المتولي الغاشم او ساعد القوي الظالم ، وازدردوا ما ابقوا منها ، وما ابقوا سوى ظل غير ظليل .

ان مرتزقة الاوقاف باجمعها هي التي تطلب امر الغائها وتحبذه ، ولا تنفك مطالبة فيه لموافقته لقواعد الشرع المنيف . والمرتزقة هم السواد الاعظم من الامة ، فالامة اذاً هي التي تطلب اليكم تنفيذ هذا الامر ، وما احسبكم الا عند ارادتها نازلين ، وبما هو اقرب للتقوى حاكين . ولا شك عندها تهتز لكم امواج الاثير بالثناء والشكر ، وتذكرون مع الذاكرين كما يذكر العبد المخلص في الملأ الاعلى بين عباد الله المخلصين .

هذا ما بعث به الينا اخواننا الطرابلسيون ، وبهذه المناسبة نذكر كيف تنفق اموال المسلمين جزافاً .

عقد مجلس الاوقاف الاعلى في هذه السنة جلسة للنظر في موازنة الاوقاف عن العام الحاضر . وقد وزعت هذه الموازنة على اعضاء المجلس ليقوم كل منهم بدرسه درساً مدققاً والاطلاع على ما تضمنته وعلى سبل الانفاق الكثيرة المشروعة وغير المشروعة التي فتحت ابوابها فيما سلف لتكون اموال الاوقاف التي يجب ان ترصد للقيام بالاعمال العامة للنهوض بالمسلمين الى المستوى العالي وتأسيس الملاجيء والمستشفيات ودور العجزة وصيانة لبيضة الدين الحنيف

واشادة المعاهد والمدارس ودور العلم والمحافظة عليها ، على حين ان اموال الاوقاف اليوم لا تنفق الا على جماعات من المرتزقة وطلاب المنافع ومصطاديها.

وقد كانت موارد الاوقاف الغزيرة التي تتجاوز الـ ٥٠٠ — ٦٠٠ الف ليرة مطمح انظار كل طامع ، وقد نصبت حولها الشراك ونظمت القرارات لحجرها عن المصالح العامة وارسالها الى جيوب بعض الاشخاص .

ومن المؤسف له ان اوقاف جميع الطوائف على قلتها وضيق مواردها قد استخدمت في انشاء المعاهد الخيرية والمستشفيات والملاجيء العامة ، وهذه البلاد لا تخلو طائفة من طوائفها على كثرتها من مختلف المعاهد والملاجيء الخيرية ، على حين ان الطائفة الاسلامية التي اختير لها فيما مضى ان تنفق اموال اوقافها الغزيرة على مصالح الاشخاص ، فهي لا تملك شيئاً من ذلك ولا شيئاً من المقومات العامة . وهؤلاء العاجزون والفقراء يجوبون الشوارع العامة فلا يجدون معيناً ولا نصيرا .

الى هذا تلفت انظار الحكومة الوطنية وجمعية الدفاع عن حقوق الاوقاف الاسلامية المشكلة حديثاً من خيرة رجال دمشق ونرجو ان يخصص المال الكافي من الواردات الوقفية للمصالح العامة الاسلامية .

ثم ورد الينا ايضاً تقرير اللجنة الحقوقية بحلب ، احببنا نشره لانه جدير لاثباته في التاريخ ، وهي اللجنة المختارة من ارباب الاختصاص في علم الحقوق .

عما ينتقد قانوناً في التعليمات المنشورة بشأن وظائف مدير الاوقاف العام
وما ينشأ عن تطبيقها من المحاذير المخلة بالمصالح العامة

نشرت صحيفة (الايام) في نسختيها المرقمتين بعددي «٢٣٣٢» و «٢٣٣٣» الصادرتين بتاريخ ٧ و ٩ من جمادي الأول سنة ١٣٥١ وايلول سنة ١٩٣٢ التعليمات الجديدة بشأن وظائف مديرية الأوقاف العامة وهي المسماة بالتعليمات المنصوص عليها في المرسوم (١٠٣) وقد اثارت هذه التعليمات استغراب الرأي العام وتساءل الناس عن مصدرها لا سيما عندما علموا ان مجلس الوزراء وقف تنفيذها مستنكراً لها . وقد آنس الرأي العام ومن يهمه اصلاح الاوقاف ، ان

هذه التعليمات اذا طبقت اصبحت الاوقاف المنشود اصلاحها كالمستجير من الرمضاء بالنار ، لان الناظر في هذه التعليمات يرى انها تستمد موادها من فكرة طالما كانت هي البلاء المصبوب على الاوقاف الا وهي فكرة الاستبداد والاستئثار فبينما كان الامل يخطو بنا الى رؤية الطائفية محققة في ادارة اوقافنا الاسلامية وفقاً لمضمون المادة «١٤٤» من الدستور السوري . وبينما كل مطالع خبير يبشر بان الاوقاف اصبحت قاب قوسين او ادنى من ايدي الطائفة الاسلامية التي لن تفتر عن المطالبة بان تكون اوقافها اسوة باوقاف بقية الطوائف ، وتدول تلك الدول الاستئثارية ، دولة اولئك الرجال الذين جعلوا من مؤسسة الاوقاف مستعمرة لهم يتقاسمون فيها الحكم المطلق لمآربهم باسم حسن الادارة والتنظيم بينما نحن ننتظر ذلك الفرج اذ بنا نفاجأ بهذه التعليمات التي تعيد لنا دور العهد القديم في الاثر ومخالفة مصالح الطائفة الاسلامية .

وبناء على ذلك قد كلفنا فريق من اخواننا الساهرين على مصلحة الاوقاف ان نقوم بدرس هذه التعليمات وبيان ما يؤخذ عليها من الوجهه القانونية والمخالفة للمصلحة الاسلامية ، فقمنا بما عهد به الينا مؤملين ان يصادف من اولياء الأمر اذناً واعية فيثمر ثمرته .

ان هذه التعليمات نشرت تحت عنوان « التعليمات الجديدة بشأن وظائف مدير الاوقاف العام » وان ذلك المدير العام قد استند في تعيينه الى المادة الرابعة من « قرار التنظيمات الجديدة للاوقاف » الصادر من المجلس الاسلامي الاعلى والمصدق من المفوضية العليا . فجاءت هذه التعليمات مشتملة في معظم موادها على مخالفات ومناقضات ونسخ ومسخ صريح لمواد قرار التنظيمات المذكور. وقد كان هذا القرار موضوعاً خصيصاً لجعل الاوقاف طائفية وثارت عليه الثائرة لانه اشتمل على مخالفات لروح الطائفية . فزادت هذه التعليمات الطين بلة فابعدت الاوقاف عن ايدي الطائفة كبعد ما بين المشرقين . وجعلتها ككرة يتلقفها من يكون مدير اً عاما بصولجانه ويتصرف بها كما تشاء مشيئته . وقد كان الرأي العام يشكو في العهد القديم من جعل زمام الاوقاف بيد المراقبة العامة فما

كاد يستبشر بنبأ قرب الخلاص مما يشكو منه الا وقد حدث الى جانب المراقبة موظف فرد جعلت له صلاحية تزيد على صلاحية المراقبة . فاذا كان هذا هو الاصلاح افلم يكن في المراقبة العامة وحدها كفاية تخلصاً من زيادة اعباء النفقات التي آستوفى من واردات الاوقاف التي لا يجوز صرفها في غير ما شرطت له ؟. على ان المراقبة العامة نفسها قد اخذت صلاحيتها السابقة واعطيت للمجالس الطائفية في قرار التنظيمات . فما معنى سلب هذه الصلاحية الآن من المجالس قبل ان تتشكل وتتمتع بالتمتع بها بعد . ومنحها في سوريا خاصة للمديرية العامة المحدثة ؟ وها اننا الآن نشرع في تفنيد التعليمات المذكورة مبتدئين من اسمها . ثم نفي بما فيها من مخالفات لمصلحة الاوقاف ومناقضات لقرار تنظيمات الاوقاف الجديدة ، فاننا رغم ما شرحناه في احتجاجاتنا الماضية من عدم شرعية قرار التنظيمات المذكور لانه مبني على مادة من الدستور السوري الذي كان مؤجل التنفيذ حينئذ . ولأنه غير ممكن التطبيق قانوناً في الاوضاع الادارية الحاضرة — رغم عدم شرعية القرار نفسه وطلبنا وقفه لا نرى مانعاً من بيان التناقض بينه وبين التعليمات الجديدة بشأن وظائف مديرية الاوقاف العامة التي احدثت استناداً الى المادة « ٤ » من القرار المذكور نفسه . خاصة حينما جاءت مخالفة ايضاً للمصلحة الاسلامية المنشودة .

١) يفرق الحقوقيون والاداريون في مؤلفاتهم بين معاني هذه الالفاظ الثلاثة (التعليمات ، النظام ، القانون) وخلاصة ما يذكرونه في ذلك دون تعمق في التفصيل ان القانون هو ما يصدر عن المجالس النيابية التشريعية دون سواها اذ ليس لاحد غيرها صلاحية اصدار قانون . لان المواد التي تتضمنها القوانين هي امور هامة لا ينبغي ان يتولى تشريعها الا الامة نفسها بواسطة نوابها .

والنظام هو ما يصدر عن السلطة الاجرائية . اي عن رجال الحكومة الاعلين لاجل تسهيل تطبيق القوانين وتفصيل مجملها . فالنظام خادم للقانون . وهو خاضع للمراقبة القضائية . اي انه اذا خالف صراحة القانون لا يجبر القضاة العمل به . اما التعليمات فهي البيانات الادارية التي يوجهها موظف اعلى الى موظف دونه

تابع له . وهي انما تتضمن تنظيم الاعمال وترتيبها وما يستلزمه حسن تسييرها فقط . ولم تكن التعليمات يوماً ما تنسخ القوانين او الانظمة وتحدث اوضاعاً جديدة يجب ان تكون من مواضيع القوانين لأن ذلك يعد تطاولا وتجاوزاً على السلطة التشريعية ، يقصر دونه كل موظف اداري مهما علت رتبته . لكن التعليمات الجديدة بشأن وظائف مديرية الاوقاف العامة اشتملت على ما لا يحتمله اسمها وتضمنت تشريعات في الاوقاف جديدة لا تكون الا في القوانين . ونسخت كما سنبين كثيراً من قرار التنظيمات الوقفية الذي تعتبره الحكومة كقانون .

٢) نصت المادة الثانية من هذه التعليمات على ان مدير الاوقاف العام « يمثل الاوقاف الاسلامية في الجمهورية السورية » ونحن نتساءل ما المراد هنا من تمثيل الاوقاف ؟ اما ان يكون المراد انه يمثل مديري الاوقاف ، واما ان يراد انه يمثل الاوقاف نفسها .

وعلى افتراض الاول ، فاذا نظرنا في منطوق المادة العاشرة من قرار التنظيمات التي تنص في آخرها على انه « يحضر المدير او المأمور المحلي اجتماعات المجالس العلمي والمجلس الاداري بصفة ممثل للادارة » .

وفي منطوق المادة التاسعة والثلاثين منه التي تقول « ان يكون مديرو الاوقاف ومأموروها السلطة المنفذة للقرارات الصادرة من مجالس الاوقاف » واعتبرنا المدير العام داخلا في حكم هاتين المادتين ، يجب ان لا يكون للمدير العام اكثر من صلاحية مديري دوائر الاوقاف المحلية انفسهم ، الذين هم مجرد واسطة رسمية لربط العلائق بين ادارة الاوقاف وغيرها ، ولتسيير اعمالها فيكون حينئذ المدير العام ممثلا لهم في تلك الادارات ومنفذاً مثلهم لقرارات مجالس الاوقاف ، وليس ممثلا للاوقاف نفسها .

على اننا اذا نظرنا الى منطوق المادة الرابعة من قرار التنظيمات التي كان تعيين المدير العام مستنداً اليها والتي تقول « يتولى رؤساء الدول صلاحية رقابة الاوقاف الاسلامية فتربط دوائر الاوقاف في دولة سوريا برئيس حكومتها الذي يمكنه تعيين مأمور كبير مسلم او مفتش لمساعدته » نرى ان المدير العام ليس له الا

صفة مساعد لرئيس الحكومة في رقابة الاوقاف ، وهذه الرقابة ليست سوى اشراف مجرد وذلك يقتضي ان يكون المدير العام ممثلا للحكومة لدى الاوقاف بأن يعرض ملاحظاته ونتائج اشرافه على مجلس الاوقاف الاعلى وليس ممثلا للاوقاف لدى الحكومة ، حتى ان المادة الرابعة هذه تنفي عن المدير العام حق ذلك التمثيل الاداري للاوقاف ، لانها لا تنص الا على المساعدة في الاشراف المجرد ، فمن اين هبطت على المديرية العامة للاوقاف تلك الصلاحيات الواسعة العظيمة في مواد هذه التنظيمات الصادرة بشأن وظائفها ؟ فأن هذه الصلاحيات لايحق ان تكون ممنوحة لرئيس الحكومة نفسه فضلا عن مساعده في الاشراف .

واننا اذا تعمقنا في تحليل هذه المادة الرابعة من قرار التنظيمات نرى انه يجب ان يكون راتب المدير العام من ميزانية الحكومة لا من الاوقاف ، لانه مساعد لرئيس الحكومة في الاشراف على الاوقاف ، ورئيس الحكومة نفسه لا يتقاضى من الاوقاف راتباً عن هذا الاشراف .

هذا كله اذا فسرنا تمثيل المدير العام للاوقاف المنصوص عنه في المادة الثانية من التعليمات تفسيراً مستنبطاً من مواد قرار التنظيمات الذي كان تعيين المدير العام مستنداً اليه ، وهو تمثيل للادارة لا للاوقاف نفسها ، او تمثيل للحكومة في الاشراف على الاوقاف .

واما ان كان المراد من التمثيل المنصوص عنه في التعليمات ، ان المدير العام المذكور يمثل الاوقاف نفسها باعتبارها عنصراً اسلامياً طائفياً فيه مجالس منتخبة بيدها جميع مقدراته فكيف يصح هذا التمثيل بغير انتخاب ؟

٣) جاء في المادة الرابعة من التعليمات « ان للمدير العام حق اقامة الدعاوي لمصلحة الاوقاف لدى عموم المحاكم الخ . . . » ومقتضى ما بينا من المعنى القانوني الحقوقي للتعليمات مما مؤداه انها عبارة عن ايضاحات ادارية توجه الى الموظفين الادنين لانارة الطريق لهم في تطبيق القوانين والانظمة المقررة ، مقتضى هذا المعنى ان لا تشتمل هذه التعليمات الجديدة على احداث حقوق وميزات ضخمة كحق اقامة الدعاوي عن الاوقاف من اي نوع كانت لدى عموم المحاكم . واننا اذا

فتشنا قرار التنظيمات لا نرى فيه ادنى اثر يبنى عليه منح التعليمات هذا الحق للمدير العام ، المادة الرابعة من القرار المذكور — وقد تقدمت — تفيد انه مساعد في الاشراف فقط فبأي مسوغ قانوني يملك هذا الحق الكبير الخطير ، لان الاشراف مهما توسعنا في معناه لا يمكن ان يشمل هذا الحق .

٤) نصت المادة السادسة من التعليمات على انه لا يعد « الموظف مثبتاً في وظيفة او درجة او معاش الا بعد صدور مرسوم من رئيس الجمهورية يتضمن تثبيته الخ » وهذا يخالف صراحة لمضمون المادتين الخامسة والعشرين والسادسة والثلاثين من قرار التنظيمات الجديدة للاوقاف . فأن المادة الخامسة والعشرين منه — وهي التي تشرح وظائف لجنة التصنيف التي تتألف من مجموع المجلسين الاداري والعلمي — تنص في الفقرة (ه) على ان « تثبيت الموظفين الحائزين على الشروط المطلوبة منهم وتسريح الموظفين غير الحائزين على هذه الشروط » هو من وظائف لجنة التصنيف هذه .

والمادة السادسة والثلاثون من القرار تنص على ان مرجع تصديق اعمال لجنة التصنيف في التصنيف انما هو مجلس الاوقاف الاسلامي الاعلى . فكيف يتفق منطوق هاتين المادتين مع منطوق المادة السادسة من التعليمات ؟

٥) ان المادة السابعة من التعليمات المذكورة تنص على ان للمدير العام حق تعيين الموظفين عامة دون حاجة الى تصديق الا في تعيين المديرين والمحاسبين ومأموري الالوية فان تعيين هؤلاء يحتاج الى تصديق رئيس الوزارة .

ولو رجعنا الى المادة الثانية والاربعين من قرار التنظيمات لرأيناها تصرح بان حق التعيين انما يقوم به رؤساء الدول بعد اقتراح المديرين المحليين واخذ رأي المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى .

٦) ونصت المادة الثامنة من التعليمات المذكورة على ان نتيجة اعمال لجنة تصنيف اصحاب الجهات والوظائف الدينية — التي تتشكل من مجلسي الاوقاف العلمي والاداري — يستحسن ان تعرض على لجنة التصنيف الادارية التي تنعقد سنوياً في وزارة الداخلية من الولاة والمتصرفين للنظر فيها .

وان منح لجنة الولاة والمتصرفين حق التدخل والنظر في تصنيف ارباب الجهات الدينية غير معقول ولا مستحسن لان موظفي الحكومة الاداريين لا ينبغي ان يتدخلوا في تصنيف رجال الدين ، كما لا يتدخلون في الوظائف الدينية عند الطوائف الاخرى ، بل يجب ان يكون هذا الحق للمجالس العلمية الدينية فقط كما تنص عليه المادة السادسة والثلاثون من قرار التنظيمات .

٧) وجاء في المادة التاسعة من التعليمات ، ان المدير العام هو الذي يقوم بامانة السر العام للمجلس الشرعي الاسلامي الاعلى وبتعيين مواعيد اجتماعه ، وان الناظر ليعجب كل العجب حين قراءة هذه المادة فانها فضلا عما فيها من تشريع حق للمدير العام ليس مما يحدث مثله بتعليمات تخالف القواعد المقررة في تعيين امناء السر للمجالس والهيئات الرسمية . فان امين السر يجب ان تنتخبه تلك المجالس انتخابا بنفسها لا ان يطرح عليهم كضريبة مفروضة ، لان امين سر المجلس يجب ان يكون للمجلس ثقة به ، ولا يكون حائزاً للثقة اذا لم يكن المجلس هو الذي يختاره ، حتى ان المادة السادسة عشرة من قرار التنظيمات اقرت هذه القاعدة المفروغ من اثباتها فقالت فيما يتعلق بامانة سر المجلس الانتخابي الطائفي « يباشر مجلس الانتخاب الطائفي في جلسته الاولى بانتخاب اميني السر على طريقة الاقتراع السري » فهل تتفق مرامي هذه المادة من التعليمات مع روح هذه المادة من قرار التنظيمات ؟

هذا اذا صرفنا النظر عما في منح المدير العام حق الاستقلال في تعيين مواعيد اجتماع المجلس الاسلامي الاعلى من الافتيات على المجلس ورئيسه .

٨) وجاء في المادة الثالثة عشرة من التعليمات الجديدة ، ان للمدير العام حق تدقيق القرارات التي تصدرها مجالس الاوقاف . . . اما بالتصديق والاعادة واما باحالتها الى المجلس الشرعي الاعلى الخ . . . » وقد وضع في هذه المادة من التعليمات عند كلمة « تدقيق القرارات » اشارة الى المادة (٤٠) من قرار التنظيمات .

ونحن اذا رجعنا الى المادة (٤٠) المشار اليها نجدها تصرح بان « جميع قرارات

المجالس هي نافذة الا اذا كانت تتعلق بالميزانية ومخالفة لاحكامها فيحق للسلطة الادارية ان توقف تحت مسؤوليتها هذه القرارات بشرط ان تعطي حالا علما عن ذلك الى المجلس الشرعي الاعلى بواسطة رئيس الدولة ، وهذا يتنافى تمام التنافي مع المادة الثالثة عشر من التعليمات التي جاءت بسلب هذا الحق من المجلس الاعلى واعطائه للمدير العام ليقوم مقام المجلس بالتصديق او الاعادة ، مع ان المدير العام الذي يقوم بمساعدة رئيس الدولة ليس له بموجب هذه المادة الا وساطة التبليغ للمجلس الاعلى . فهذا النسخ والمسخ المسلط على المادة (٤٠) من قرار التنظيمات بموجب تعليمات ليس لها تلك القوة ، كان من الغرابة بمكان . فان هذه التعليمات التي انما يقصد من مثلها ايضاح كيفية تنفيذ المادة (٤٠) وغيرها من مواد القرار قد نسفت مواده نسفاً واحدثت مالا يتلائم مع روح الطائفية فرحى لهذه التعليمات الرشيدة !

٩) وجاء في المادة الخامسة عشر من التعليمات أن « للمدير العام حق تأليف لجان علمية لتحسين حالة المدارس العلمية والوعظ والتدريس الديني الخ » واننا لو اعدنا النظر الى المادة الرابعة من قرار التنظيمات لرأينا ان الصلاحية التي منحتها لمن يعينه رئيس الحكومة وهي المساعدة في الاشراف فقط كما سبق بيانه ، مهما توسعنا في معناها لا تشمل حق تشكيل هذه اللجان ، بل هذا التشكيل من حق مجالس الاوقاف التي بيدها مقاليدها .

١٠) نصت المادة السادسة عشرة من التعليمات ان « للمدير العام حق وضع الميزانية العمومية لدوائر الاوقاف في سوريا بناء على ما يأتيه من ميزانيات هذه الدوائر ويعرضها على رئيس الوزارة لابداء مطالعته ثم تقدم الى المجلس الشرعي الاسلامي الأعلى لتدقيقها ثم ترفع الى رئاسة الجمهورية لتوثيقها بمرسوم »

وان القارئ اذا استطاع ان يتغاضى عما في هذه المادة الى هنا من احداث تدخلات امير المجلس الاعلى الاسلامي في تصديق ميزانيات الاوقاف لا يستطيع الا ان يتكهرب بدنه ويرتعش حينما يقرأ ما سطرته تلك المادة بعد ذلك من قولها « ثم ترفع اي الميزانية العامة الى المفوضية العليا للتصديق وبذلك يصبح لها حكم

القانون النافذ الذي لا يجوز تعديه البتة ، فأي دخل للمفوضية العليا في تصديق ميزانيات الاوقاف التي هي امر طائفي بحت يتعلق بشعائر الدين ووظائفه وما يتصل بذلك من خدمات اصلية وفرعية ووسائل كلها تعود الى المصالح الدينية للطائفة الاسلامية .

وان قرار التنظيمات نفسه المصدق من المفوضية نفسها بقرار خاص في العهد الماضي غير الدستوري والذي تستند اليه هذه التعليمات لم يجعل للمفوضية هذا الحق بل هو اقرب الى الاستقلال الطائفي للاوقاف من هذه التعليمات الجديدة الصادرة في العهد الدستوري فان المادة (٤٢) منه نصت على ان ميزانية الاوقاف تصدق من رئيس الدولة بعد اخذ رأي المجلس الاسلامي الاعلى ، فهل لهذه التعليمات الجديدة من القوة القانونية ما يبرر لها جعل ميزانية الاوقاف غير نافذة الا بعد تصديق المفوضية التي لم ترد هي لنفسها هذا الحق في التصديق ؟..

اننا لا يسعنا هنا الا ان نتمثل بالمثل الافرنسي القائل ما تعريبه (يميل الى الملك اكثر من ميل الملك الى نفسه) وقد يظن ظان ان هذه التعليمات لم يتقرب فيها الى المفوضية بجعل الحق لها في تصديق الميزانية الا ليتخذ هذا التقرب وسيلة لاقرار هذه التعليمات التي اخترقت القوانين وجاءت بتشريعات جديدة يسخط منها الرأي العام .

١١) ثم نصت المادة (١٧) من التعليمات على ان « للمدير العام ايقاف اي نوع من انواع المصرف تحت مسؤوليته ولو مما هو داخل في الميزانية المصدقة بموافقة رئيس الوزارة على ان يعلم المجلس الاسلامي الاعلى بذلك في اول اجتماع يعقده » .

وهذا حق تعجب منه الحقوق والقوانين !! فهل يسوغ لاي كان ان يقف مصرفاً مصدقاً عليه في الميزانية دون انتظار قرارات قانونية من المراجع ذات الحق في الابرام والنقض والتصرف في المصارف ؟ ان هذا هو التصرف الكيفي الذي كان داء الاوقاف كله منه . على ان المادة (٤٠) من قرار التنظيمات لم تسمح للسلطة الادارية بان تقف تحت مسؤوليتها شيئاً من قرارات مجالس

الاوقاف المحلية ولو كانت متعلقة بالميزانية الا اذا كانت تخالف احكام الميزانية كما يستفاد من صراحة تعبيرها .

١٢) هذا وقد جاءت المادة (١٨) الاخيرة من هذه التعليمات بالطامة الكبرى التي قضت على كل حرف من حروف كلمة الطائفية واقامت مقامها (ديكتاتورية) واستبدادا فرديا وتصرفا كيفيا بحيث جعلت عنصر الاوقاف الاسلامية بما فيه من مؤسسات وحقوق وعلائق الخ ... منوطا بشفتي حاكم مطلق لا يسئل عما يفعل هو المدير العام الذي احدثت وظيفته احداثاً لا يظهر له سبب او موجب فقد قالت تلك المادة الأخيرة : « المدير العام هو المرجع الاعلى المستقل لجميع دوائر وشؤون الاوقاف الاسلامية في الدولة السورية وليس لسواه حق المداخلة بشيء من ذلك ، وعلى مديري ومأموري الدوائر الوقفية تمام الانقياد لكل مايصدره من البلاغات والتعليمات واصول الادارة وليس لهم حق المراجعة لغيره في شيء ما ولو على سبيل الاستيضاح او اعطاء المعلومات بدءا او جوابا الخ .. »

ولسنا ندري ولا المنجم يدري ماذا بقي للاوقاف من الاستقلال الطائفي الذي يقال ان قرار التنظيمات الجديدة جاء لتحقيقه وها هي هذه المادة من التعليمات قد جعلت مقدرات الاوقاف ومقاليدها وكل مافي كلمة الاوقاف الاسلامية من معنى ومشمول بين اصبعين من اصابع فرد يقلبها كيف يشاء كقلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن !! واين يتفق قول هذه المادة « وعلى مديري ومأموري الدوائر الوقفية تمام الانقياد لكل ما يصدره من البلاغات الخ ... » مع قول المادة (٣٩) من قرار التنظيمات « يكون مديرو الاوقاف ومأمورورها السلطة المنفذة للقرارات الصادرة من مجالس الاوقاف » .

فما اشد حيرة مديري ومأموري الاوقاف !!! أينفذون قرارات المجالس التي تكلفهم هذه المادة بتنفيذها ويهملون ما يخالفها من بلاغات المدير العام ام يضربون بتلك القرارات عرض الحائط ويتبعون وحي حاكمهم المطلق ؟ اللهم انقذهم من تلك الحيرة كما انقذت يونس من بطن الحوت .

هذا ولا نرى اخيرا ما نقول الا ان هذه التعليمات يتجلى فيها التناقض ومخالفة

المصلحة العامة في الاوقاف ، واحداث امور وتشريعات لايحدث مثلها بتعليمات، والقضاء على الطائفية المنشودة بتاتاً ، وقلب وظيفة المدير انعام المستند تعيينه الى المادة (٤) في قرار التنظيمات من صفتها الاصلية وهي مساعدة رئيس الحكومة في الاشراف على شؤون الاوقاف الى صفة حاكم بامره ، وجلها مناقضات صريحة لقرار التنظيمات الجديدة [سجل انها التاريخ فقد بلغني اهتمام الحكومة بهذا الشأن]

الاجتماع والدفاع عن الاوقاف الاسلامية

١ — ان الاوقاف العشرية ليست مسقفات وابنية ضمن المدينة بل هي اراضٍ زراعية وقرى كانت تخص الوزراء وامراء الجراكسة والمجاهدين الذين كان الخلفاء يقطعونهم بعض الاراضي مكافأة على خدماتهم الجليلة في دولة الخلافة الاسلامية فكان هؤلاء يقفون تلك الاراضي على ذراريهم وعلى جهات دينية وخيرية كما ان الخلفاء انفسهم كانوا مباشرة يقفون بعض تلك الاراضي العائدة لهم كما فعل السلطان سليم والسلطان عبد الحميد قد وقف اوقافاً كثيرة من خزينته الخاصة المعروفة فهذه الاوقاف الاعشارية لا تفترق شيئاً عن اوقاف المسقفات والابنية والاراضي في المدن وانما سميت اعشارية لان اراضي تلك القرى الموقوفة تعتبرها الحكومة من الاراضي العشرية اي التي تفرض الحكومة عليها العشر كما انها من جهة اخرى لم تكن تستغل من طرف الوقف مباشرة بل تبقى في يد العاملين عليها ويؤخذ للوقف حصته من غلتها فان كلمة عشر في المحاصيل لم تعد خاصة بجزء من عشرة بل تفيد معنى الحصة المخصصة وان كانت اكثر من العشر حقيقة او اقل .

٢ — ان هذه الاوقاف الاعشارية ليست كما يتوهم البعض ذرية محضة اي منافعها شخصية لذراري الواقفين فقط بل ان معظمها موقوف على الجوامع والمدارس الدينية وسائر جهات الخيرات الاسلامية الطائفية فكثير من هذه الجهات الدينية والخيرية ليس لها اوقاف تدر عليها سوى هذه الاوقاف العشرية حتى ان الجامع الاموي بحلب قسم عظيم من وارداته هو من هذه الاوقاف العشرية وغيره كثير في حلب وغيرها .

٣ ـ هذه الاوقاف العشرية منها ما هو تحت تصرف دائرة الاوقاف ومنها ما هو تحت تصرف المتولين مباشرة كبقية الاوقاف المعلومة في المدن وقد كان المتولون ودائرة الاوقاف الى تاريخ سنة ١٢٨٠ هجرية يجبون بانفسهم مباشرة عائدات تلك الاوقاف العشرية لكن بما ان كثيراً من القرى كان قسم منها موقوفاً والقسم الاخر يخص الخزينة اتفقت نظارة المالية مع نظارة الاوقاف لاجل منع الاضطراب في الجباية ان تستقل المالية في جباية الموقوف وغيره وتعطي الاوقاف حصتها من المجبيات . ثم في سنة ١٢٨٦ توسلت المالية لان تربط عائدات هذه الاوقاف الاعشارية ببدل يعادل متوسط مجبيات السنين الخمس من سنة ١٢٨١ الى سنة ١٢٨٥ لكن المالية لم تدفع للاوقاف من هذا البدل الا ثلثيه تارة وثلثه تارة اخرى . وقد كان المتولون الى سنة ١٣٢٧ هـ ١٩٠٨ م يأخذون هذه الابدال من المالية رأساً ثم بعد هذا التاريخ اصبحت المالية تعطي الابدال لدائرة الاوقاف وهذه تأخذ ما يخص صندوقها وتعطي المتولين ما يخص الاوقاف التي تحت ادارتهم واستمر ذلك الى يومنا هذا .

٤ ـ بعد الاحتلال الافرنسي ابتدأت دائرة المالية تمتنع عن دفع عائدات الاوقاف العشرية لدائرة الاوقاف متعللة بحجج واهية تقصد منها اغتصاب حقوق هذه الاوقاف اغتصابا نهائياً فعلى اثر الخلاف بين الدائرتين صدر سنة ١٩٢٦ قرار رقم ١٦٧ من المفوضية العليا بتشكيل لجنة العائدات الوقفية لتكون حكما بين الاوقاف والمالية غير ان القرار المذكور جاء بضربة جديدة على هذه الاوقاف حيث ألزم اللجنة بان يكون تثبيتها لحقوق الاوقاف على اساس تخفيض ٤٥ في المائة من المبالغ التي تثبتها .

٥ ـ اما خاتمة الضربات فقد كانت في القرار الجديد الان رقم ٣٥ ل . ر . الصادر من المفوضية العليا في ٤ شباط سنة ٩٣٤ القاضي بان تستملك الحكومة تلك الاوقاف العشرية باسم استبدال ببدل يعادل ستة امثال ما تدفعه الخزينة للاوقاف سنويا .

الاحتجاج على هذا القرار

ان منطوق القرار غير معقول في ذاته لان ما تدفعه المالية من هذه الاوقاف العشرية لا يبلغ في الحقيقة جزءاً من عشرة اي ان بدل السنوات الست المراد دفعه لا يعادل بدل سنة واحدة من حقيقة واردات تلك الاوقاف التي استبدت بها المالية . فبأي عقل او شرع يجوز ان يستملك عقار بأجرة سنوية واحدة مع ان معظم عقارات بلادنا لا تسدد رأس مالها بثلاثين سنة هذا علاوة على كثير من نقط شتى في هذا القرار تناقض حكم الشرع الاسلامي وترمي الى محق الوقف مثل نص هذا القرار في مادته الثالثة على جواز توزيع بدل الوقف على المرتزقة مع ان عين الوقف لا يجوز توزيعها . ان هذا القرار معناه في الحقيقة تسويغ الخزينة ان تبتلع الاوقاف وبالنتيجة ان تخرب الجوامع والمدارس الدينية وتنعدم المصالح الخيرية الاسلامية المربوطة بهذه الاوقاف العشرية هذا علاوة على ان هذه الاوقاف العشرية يعود قسم عظيم من وارداتها الى ذراري واقفيها كسائر الاوقاف وتحيى بها عائلات عظيمة . فالامة الاسلامية لها ملء الحق ان لا تعترف بامثال هذه القرارات التي تهدم مصالحها الدينية وتسلب حقوق افرادها ان صك الانتداب قد منع صراحة تدخل الدولة المنتدبة في الاوقاف والشؤون الدينية فليس للمفوض السامي صلاحية في ان يصدر مثل هذه القرارات يتصرف في الحقوق الطائفية تصرف ارادة الفرد في ماله فان في هذا القرار بيعاً لاوقاف المسلمين وتعطيلا لمصالحهم الطائفية وتدميراً لاحكامهم الدينية فباسم التاريخ نطالب من فخامة رئيس الوزارة الحالي اقناع المفوض السامي بالعدول عن هذه الامور

اول الجوامع والمساجد التي بنيت في الشام

كانت في البلدان التي سبق فتحها من قبل الصحابة رضي الله عنهم وكانوا اذا اجتمعوا يقيمون الصلاة جماعة وقد عرف اهل اللغة كلمة المسجد المعبد الذي يسجد فيه والجامع الذي يجتمع المصلين فيه ايام الجمع والاعياد بقيت الحالة في

المساجد على السذاجة من اول عهد الاسلام حتى تولى معاوية بن ابي سفيان امر دمشق وكان بعيد النظر في العمران واظهار شأن الخلافة الاسلامية وابهتها وقد اقنع الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه حين عاتبه على العظمة والابهة التي كان يفعلها بدمشق ابان امارته بقوله أكسروية يا معاوية فاقنعه بضرورة ذلك ولم يزل به حتى اذن له بها ووافقه ايضاً على توسيع المساجد والجوامع وبدخالها في مظهر مدني فيه الجلال والجمال وقد نقل حملة الاخبار واهل السير ان المراد بقوله المسجد اسس على التقوى من اول يوم هو مسجد قباء في المدينة وانه اول مسجد بني في الاسلام وان النبي صلى الله عليه وسلم حين هاجر من مكة لما ورد قباء صلى باصحابه في مسجد قباء الى بيت المقدس ثم روي انه عليه الصلاة والسلام بنى مسجد قباء وحول القبلة الى موضعها اليوم وكان ينقل الاحجار بنفسه ثم ننقل ما قاله المؤرخون وما اتفقوا عليه بحق جامع دمشق .

قال ابن بطوطة جامع دمشق هو اعظم مساجد الدنيا احتفالا ، واتقنها صناعة وابدعها حسنا وبهجة وكمالا . ولا يعلم له نظير ، ولا يوجد له شبيه ، وقد قام بناؤه على اربع وخمسين سارية ، وثماني ارجل جصية تتخللها ، وست ارجل مرخمة مرصعة بالرخام الملون ، قد صور فيها اشكال محاريب وسواها ، وهي تقل قبة الرصاص التي امام المحراب المسماة بقبة النسر كانهم شبهوا المسجد بنسر طائر والقبة رأسه وهي من اعجب مباني الدنيا ومن اي جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ذاهبة في الهواء منيفة على جميع مباني البلد وسعة صحنه مائة ذراع وهو من اجمل المناظر واتمها حسنا وبها يجتمع اهل المدينة كل عشية فمن قارئ ومحدث وذاهب ويكون انصرافهم بعد العشاء الاخيرة . وممن حدث تحت القبة المذكورة محمد بن طولون وقد وجدت في ترجمته ما يلي قال : كنت اعقد عقد النكاح باذن من الخليفة بمصر لما قيل ان حكام الشريعة انما يولون القضاء بالرشوة فتختل التولية بها ، والابضاع يحتاط فيها ما امكن ولذا كنت اعقد العقد مرتين مرة بذكر الصداق واخرى بتركه فانه قد يكون الصداق دون مهر المثل فينعقد ثانياً عليه وتركت ذلك في هذه الدولة الرومية وكنت اتبرك في خطبة النكاح

بما روى الاربعة والحاكم عن عبد الله بن مسعود قال : علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة الحاجة ، الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور انفسنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له واشهد ان لا اله الا الله وحده لاشريك له واشهد ان محمداً عبده ورسوله (يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيباً) (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون) (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً) الآية . وكان الامام احمد اذا لم تذكر هذه الخطبة في عقد انصرف وكان القفال يقول بعدها : اما بعد فان الامور كلها بيد الله يقضي فيها ما يشاء ويحكم ما يريد لا مؤخر لما قدم ولا مقدم لما اخر ولا يجتمع اثنان ولا يفترقان الا بقضاء وقدر وكتاب قد سبق وان مما قضى الله وقدر ان خطب فلان بن فلان فلانة بنت فلان على صداق كذا اقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم اجمعين . ازوجك على ما امر الله به من امساك بمعروف او تسريح باحسان وقد زوجتك فيقول الزوج قبلت . وروى المحب الطبري والحسين بن سهل ان خطبة النبي صلى الله عليه وسلم ، الحمد لله المحمود بنعمته المعبود بقدرته المطاع بسلطانه المرهوب عقابه وسطواته المرغوب اليه فيما عنده النافذ امره في سمائه وارضه الذي خلق الخلق بقدرته وميزهم بحكمته وأمرهم باحكامه وأعزهم بدينه واكرمهم بنبيه صلى الله عليه وسلم ان الله تبارك اسمه وتعالت عظمته جعل المصاهرة نسباً لاحقاً وامراً مفترضاً أوشج بها الارحام وازال بها الآثام واكرم الانام فقال عز من قائل (وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً) فأمر الله تعالى يجري الى قضائه وقضاؤه يجري الى قدره ولكل قضاء قدر ولكل اجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب ان الله امرني ان ازوج فاطمة من علي وقد اجبت على اربعمائة مثقال من فضة ان رضي بذلك علي فقال علي رضيت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال جمع الله شملكما واسعد جدكما واخرج منكما كثيراً طيباً ، قال جابر فوالذي بعثه بالحق لقد اخرج

الله منها كثيراً طيباً . وخطبت مرة بلفظ : الحمد لله الحاكم بعدله الهادي الى الخير وسبله الذي ابان لنا حرام الدين من حله وعم البسيطة بآدم ونسله وجعل النكاح عصمة من الشيطان لمن اعتصم بحبله القائل تعالى (وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) احمده وأعوذ به من وسواس الصدر وخبله واشهد ان لا اله الا الله وحده لاشريك له شهادة تظلنا بظله واشهد ان محمداً عبده ورسوله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسائر انبياء الله تعالى ورسله . وغيرها :

الحمد لله الذي خلق الانسان من ذكر وانثى ليتعاطفوا وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا وفصائل ليتواصلوا ولا يتفاصلوا وندبهم الى النكاح ورغبهم فيه ليكثروا ويتناسلوا واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له الواحد الاحد المنزه عن الصاحبة والولد واشهد ان محمداً عبده ورسوله المبعوث من اشرف القبائل المخصوص باكرم الفضائل صلى الله عليه وعلى آله وصحبه السادة الاماثل . وغيرها :

الحمد لله راحم المستضعفين وجابر الفقراء والمساكين وسائر الايامى والاماء والعبيد الصالحين وضامن الغنى والعون للناكحين المقصرين القائل تعالى وهو اصدق القائلين (وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم) . احمده حمد مجبور بعد كسره وغني بعد فقره واشهد ان لا اله الا الله وحده لاشريك له شهادة سالمة من الشك صادرة عن قلب سليم راغب في رحمة ربه وعفوه واشهد ان محمداً عبده ورسوله خاتم انبيائه ورسله وعلى آله وصحبه وصهره ونصره وغيرها :

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي زين السموات بزهرها ، ورياض الارض بزهرها ، وسقى بغيث كرمه ، وسحائب فضله ، ارض المصاهرة ففاح نشرها الاريج ، فاخذت زخرفها وازينت وربت وانبتت من كل زوج بهيج . سبحانه قرب بين البعيدين فصارا بنعمته زوجين اثنين بعزة قدرته يتصرف ، وهو الذي الف بينهم ، لو انفقت مافي الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف ، نحمده حمد من رقى باتباع السنة الشريفة اعلى الدرج ونشكره شكرا يأتنا عند كل

شدة بفرج . ونشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة مقبولة عند رب العالمين . ونصلي ونسلم على سيدنا محمد امام الانبياء وخاتم المرسلين . وعلى اهل بيته الطاهرين واصحابه الكرام ائمة الدين واساطين الاسلام وسلم تسليما كثيرا

وفي هذا الصحن ثلاث من القبات احداها في غربيه وهي اكبرها وتسمى قبة عائشة وهي قائمة على ثماني سواري من الرخام مزخرفة بالفصوص والاصبغة الملونة مسقفة بالرصاص يقال ان مال الجامع كان يختزن بها وبعض من آثاره القديمة . والقبة الثانية في شرقي الصحن على هيئة الاخرى الا انها اصغر منها قائمة على ثمان من سواري الرخام وتسمى قبة زين العابدين لقرب مسجده ومصلاه اليها وقد تدور البناء عليها اليوم وصارت شبابيك وضع بها الساعات وصارت مقرا للتوقيت قيل انها بنيت في سنة ستين ومائة في ايام المهدي وجددت في عهد السلطان محمود سنة ١٢٢٤ والقبة الثالثة في وسط الصحن وهي صغيرة مثمنة من رخام عجيب محكم الالصاق قائمة على اربع سوار من الرخام الناصع وفي وسطها انابيب الماء اقيمت في سنة ٢٩٦ قال جعفر بن دراوس الكناني المعروف بقمر الدولة يصف الفوارة المذكورة :

رأيت في الجامع المذكور معجزة ... في جلق كنت احذر من لها سمعا
فوارة كلما فارت فرت كبدي ... وماؤها فاض بالانفاس فاندفعا
كأنها الكعبة العظمى فكل فتى ... من حيث قابل انبوبا لها ركعا

وقد جدد بناؤها في زمن عثمان باشا في عصر الثاني عشر .

ونقل ابن جبير في رحلته عند ذكر جامع دمشق بقوله هو من اشهر جوامع الاسلام حسنا ، واتقان بناء وغرابة صنعه وتنميقه وشهرته المعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه ومن عجيب شأنه انه لا تنسج به العنكبوت ولا تدخله ولا تلم به الطير المعروفة بالخطاف وصرف على بنائه مائة صندوق في كل صندوق ثمانية وعشرون الف دينار وقد اشتمل هذا الجامع على اربعة مشاهد في كل جهة منه مشهد عظيم به محراب وبركة ماء جارية ، احدها كان فيه رأس الحسين وبازائه مسجد ينسب لعمر بن عبد العزيز ومصلى الامام زين العابدين قال ابن

عساكر عليه المهابة كان يصلي فيه كل يوم وليلة الف ركعة وقد كان مهجورا فجدده سليمان باشا محافظ الشام .

واما ابوابه فسبعة ففي جهة القبلة باب المنبرانية محل مبيع العنبر والذي سمي ايضا بباب الزيادة واشتهر ايضا بباب الساعات نقل ابن عساكر انه سمي باب الساعات لأنه كان هناك مكان الساعات يعلم بها كل ساعة تمضي من النهار عليها صورة حية وعصافير من النحاس وغراب فاذا تمت الساعة اضطربت الحية فصفرت العصافير وصاح الغراب وسقطت حصاة . ونقل بعضهم ان على صفة باب صغير يسمى باب الخضر الذي يلي المقصورة يمر منه خلفاء بني امية الى قصر الخضرا .

وفي جهة الغرب باب البريد جدد بابه وغلقه في النحاس المنقوش الاصفر فرج ابن برقوق عام ٧٠٨ هـ وفي جهة الشرق باب جيرون وفي جهة الشمال ثلاثة ابواب احدها صغير يفتح الى مدرسة الكلاسة والثاني نظيره لجهة الشرق يسمى باب السلسلة والكاملية . والثالث في الوسط يسمى باب الفراديس غلقه بالنحاس ابن برقوق ايضا ويسمى الناطفانيين والعمارة اليوم وعند كل باب منه سقاية ومرافق للغرباء وسواهم وقد قيل لبعضهم :

اری الحسن مجموعا بجامع جلق ... وفي صدره معنى الملاحة مشروح
فان تبتغي لي بالجوامع كلها ... فقل لهم باب الزيادة مفتوح

ونقل ابن طولون ان الوزير صفي الدين بن شاكر من اهل المئة السابعة بلط جامع دمشق واحاط سور المصلى عليه .

ونقل ايضا صاحب المؤلفات الشهيرة الشهاب المنيني في تاريخه عند ذكر جامع دمشق وما اشتمل عليه من الفضائل قال هو المعبد الذي لا تنتهي عجائبه . ولا تنقضي غرائبه . والمسجد الذي هو لانواع المحاسن جامع . ونور الاسلام منه مشرق وساطع . قد البست جدرانه حلل الرخام . مزينة بالنقوش والاصباغ على اتم احكام . مرصعا اعاليها بفصوص الفسيفساء الدقيقة . مجلوة بصور الاشجار والبلدان الانيقة . منزهة عن صور الحيوان . الى صور الرياض الملتفة الاغصان

تجنى ثماراتها مدى الايام بإبصار ، ولا تعتريها آفات الاشجار والثمار . باقية على مدى الازمان . مدركة في كل وقت واوان . لا يمسها عطاش على فقدها القطار ، ولا يصيبها ذبول مع تصاريف الدهر . وقد ذكره الله تعالى في كتابه العزيز ، على احد الاقوال في تفسير قوله تعالى : والتين والزيتون وطور سينين ، وهذا البلد الامين . قال قتادة : لقد اقسم الله تعالى باربعة مساجد ، فالتين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس وطور سينين حيث كلم الله موسى ، والبلد الامين مكة وقد تقدم معنا من هذا البحث شيء من ذلك . وذكر القرطبي ايضا في تفسيره التين مسجد دمشق ، وكان بستانا لهود عليه السلام وفيه تين قديم ويقال ان الاحجار المدورة تجاه قبة النسر الى شمال في الصحن وضعوها على شروش اشجار تين كانت بصحن الجامع من قديم وطمرها قطعوها حال البناء ووضعوا هذه الاحجار المدورة على اماكن شروشها حتى لا يختلف مكانها وذكر بعضهم ان القدماء ادركوا هذه الاشجار قبل ان يبنيه الوليد والآن مكان كل شجرة تين بلاطة مستديرة ويقال ان اول من بنى جدران هذا المعبد الاربع هود عليه السلام وكان قبل ابراهيم عليه السلام بمدة طويلة نقل البصروي حكاية عن الطلاسم والارصاد التي كانت في هذا الجامع انه لما شرع الوليد في بنائه وجد مغارة فيها صورة انسان من حجارة على فرس ويداه مقبوضتان وفي اليد الواحدة درة بقدر البيضة اخذها الوليد ووضعها فوق المحراب فكانت تضيء في الليل وباليد الأخرى حبتان حبة قمح وحبة شعير فأمر بكسر هذه اليد فكسرت فقيل لو تركت لم سوس بهذه البلاد قمح ولا شعير ، وهذا الشخص من وضع حكماء اليونان وقد بطل الآن بعض تلك الارصاد ، اما لانتهاء مدته او لما وقع فيه من الحريق الذي اتلف كثيراً من محاسنه .

ثم ذكر بعضهم بالاسناد لابي الحسن بن يحيى الخشني ان النبي صلى الله عليه وسلم ليلة اسري به صلى في موضع مسجد دمشق ، ونقل عن سفيان الثوري من كبار التابعين ان الصلاة في مسجد دمشق بثلاثين الف صلاة ، ونقله ابن عساكر ايضا والكمال الدميري في حياة الحيوان الكبرى ثم اكد ابن عساكر والشهاب المنيني

ما نقله حملة الاخبار بانه دفن به رأس يحي ابن زكريا عليه السلام وهذا على اشهر الاقوال . روى ابن طولون في تاريخه حكاية نقلها بعد الاسناد قال اخبرنا ابو الفضائل محمود عن زيد بن واقد قال وكلني الوليد على العمال في بناء جامع دمشق فوجدنا فيه مغارة فعرفنا الوليد ذلك فلما كان الليل وافى وبين يديه الشمع فنزل فاذا هي كنيسة صغيرة وجد فيها صندوق . ففتح فاذا فيه سفط مكتوب عليه هذا رأس يحي بن زكريا فامر به الوليد فرده الى مكانه وقال اجعلوا العامود الذي جنبه مغير الشكل وهذا لا ينافي ماورد في الحديث الذي اخرجه الديلمي في مسند الفردوس من قوله عليه الصلاة والسلام لو اعرف قبر يحي بن زكريا الحديث لانه يجوز ان يكون المقصد الجثة في كاملها واما الرأس الشريف فيجوز ان يكون وجد بعد القتل ونقل من ذلك المحل الى هذا المكان واما الجثة الشريفة فلم يعلم احد مكانها الى اليوم وقيل انهـا فقدت في جهة جبال ايالة صيدا . ونقل حملة الاخبار ان يد يحي عليه السلام وعظم جسده الشريف على ما يقال هما موضوعان في علبة ذهبية في احد قصور آل عثمان في الاستانة والله اعلم بالحقيقة .

ونقل عن اسحق ابن احمد قال سمعت ابا زرعة يقول مسجد دمشق خطه ابو عبيدة بن الجراح حين الفتح وكذلك مسجد حمص . واما مسجد مصر فخطه عمرو بن العاص في زمن عمر بن الخطاب ونقل حاكم البقاع في كتابه نزهة الانصار انه روي بالاسناد الى الحسن بن يحي الحسين ان النبي صلى الله عليه وسلم ليلة اسري به صلى في موضع مسجد دمشق وانه يبقى بعد خراب الدنيـا اربعين عاما ونقل ابن عسـاكر عن ابن ثوبان انه قال لاينبغي ان يكون احد اشد شوقا الى الجنة من اهل دمشق .

قال صاحب خريدة العجائب نقلا عن ابن عسـاكر ان الوليد اشترى العمودين اللذين تحت قبة النسر وهما على باب السنجق الكبير من خالد بن يزيد بن معاوية بألف وخمسمائة ديناراً وهما مزجان بحمرة وخضرة لم ير مثلهما قط . قلت وفي الحريق الأخير الذي حصل في زماننا وضع غيرهما واستعملا للمحاريب . ثم قال وقد جعل الوليد في صحنه مجامر على اعمدة رخام لم تزل باقية الى اليوم

يوضع عليها انواع البخور حتى كان يشم روائحه من مسيرة فرسخين ، ثم ذكر عن موسى ابن حماد قال رأيت في جامع دمشق كتابة بالذهب في الزجاج محفورا فيه سورة الهاكم التكاثر ، ورأيت جوهرة في قاف المقابر فسألت عن ذلك فقالوا ماتت بنت كانت هذه الجوهرة في اذنها فآلت عليه امها ان يدفن هذه الجوهرة معها في القبر فامر الوليد بتلك الجوهرة ان توضع في قاف المقابر فوضعت وحلف لأمها انه اودعها المقابر فسكتت .

نقل ابن عبد الرزاق خطيب السنانية في تاريخه ما نصه : واما ارض الجامع فانها كانت كلها مفصصة بقطع صغيرة من اشكال الرخام والفسيفساء فتخربت من المطر والدوس فلما عمر الملك المدرسة الكاملية شمالي الجامع اراد فتح شبابيك اليه فما مكنه المسلمون الا بتجديد تبليط الجامع وحصل ذلك في سنة اثنين وسبعمائة .

ثم قال واما محاريب هذا الجامع فاربعة : محراب الحنفية الذي هو جانب المنبر جدد في سنة سبعمائة وثمانية وعشرين وجدد معه محراب الشافعية ، ومحراب الحنابلة الغربي ، والسبب في ذلك ان الجانب القبلي الغربي من جدار الجامع حصل فيه خلل اشرف على الوقوع ، فكتب حاكم دمشق دنكز الى السلطان بمصر يخبره بذلك ، فورد الخط الشريف بعمارته فنقضه وعمره في خمسة اشهر . واما الرابع فهو محراب الصحابة الذي هو محراب المالكية اليوم من جهة الشرق وهو اول محراب اسس في الاسلام يوم الفتح في هذه البلاد ، وكان يصلي به الصحابة والخليفة معاوية وكان قديما في كل زاوية من هذا المعبد صومعة عالية بناها الروم ثم جددها اليونان وجعلها للرصد فسقطت الشماليات وبقيت القبليات احدهما منارة الغربية التي جددها الملك قايتباي ، وكان يسكن في اسفلها حجة الاسلام الغزالي وكان يدرس بالبقعة الشمالية من المسجد وهي معروفة بالغزالية ، ثم اتخذها فقراء الافغان مسكنا لهم ، ثم خربت في زماننا . والثانية المنارة الشرقية فهي من بناء الروم ايضا جددت في حريق الجامع سنة ٧٩٥ وهي التي ينزل عندها عيسى ابن مريم عليهما السلام على احد الاقوال كما جاء في الحديث ، وعندها حجر يقال انه قطعة من الحجر الذي ضربه موسى عليه السلام بعصاه فانبجست منه اثنتا

عشر عينا ذكر ذلك الوردي صاحب حياة الحيوان الكبرى والشهاب المنيني والعهدة عليهم واما المنارة التي بناها المسلمون فهي الشمالية المعروفة اليوم بمأذنة العروس انشأها الوليد وقد تغزل فيها بعضهم بقوله :

معبد الشام يجمع الناس طرا   واليه شوقا تميل النفوس
كيف لا يجمع الورى وهو بيت   فيه تجلى على الدوام العروس

وقال الفتح ابن شهيد :

قاسوا حماة بجلق فاجبتهم   هذا قياس فاسد وحياتكم
فعروس جامع جلق ما مثلها   شتان بين عروسنا وحماتكم

وقال العارف النابلسي الدمشقي :

حبذا الجامع الذي في دمشق   اتقنته البانون وفق النفوس
ملأوا صحنه من النقش حتى   وضعوه قدام تلك العروس

ونقل الشهاب ايضا عن الحافظ عبد الواحد القدسي انه عند باب جيرون صخرة كان القربان يوضع عليها قديما في الامم الماضية فما تقبل منه نزلت نار من السماء احرقته وما لم يتقبل بقي على حاله . وأتى بمثال لذلك وقصة قابيل مع اخيه هابيل ولا يزال ذلك الحجر العظيم المقدار باقيا الى يومنا هذا اقول اني اشك في ذلك والله اعلم فيما هنالك والعهدة عليها وفي اسفل المنارة الشرقية بيوت للوضوء يغتسل فيها المعتكفون وبيوت للوضوء والفوارة العظيمة التي تحت درج باب جيرون يعني النوفرة الموجودة اليوم عملها الشريف فخر الدولة ابو يعلى وكان ناظر الجامع وذلك في سنة عشرة واربعمائة وعمل حولها قناطر وعقد عليها قبة فسقطت ثم اعيدت ثم سقطت اعدتها واما الشاذروان الذي فوق الفوارة فعمل سنة اربع عشرة وخمسمائة .

وذكر النعيمي في الدارس عن الذهبي في تاريخ الاسلام ان في جيرون بين البابين مسجداً صغيراً يطل على الفوارة يقال انه اول محل وضع فيه رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام ثم قال انه في شرقي الجامع مسجد عمر ابن الخطاب .

قال صاحب عيون التواريخ بدئ في اول تعمير الجامع وتجديده بالفسيفساء

والذهب ونقش الاشجار ذات الثمار في الحيطان داخلا خارجا بصورة مكملة كان في سنة ٨٦ هـ في زمن الوليد بن عبد الملك بن مروان احد خلفاء بني امية وتكامل بناؤه في سنة ٩٦ في زمن اخيه سليمان الذي تولى الخلافة بعده وقد اتفق جميع حملة الاخبار على ذلك وهو احد عجائب الدنيا لتركيبه على الفلك اشتغل فيه اثنا عشر الف صانع وايده صاحب شذرات الذهب ومن ذلك التاريخ اشتهر هذا الجامع باسمهم وبقي على هذه الشهرة الى يومنا هذا . ويقال ان غالب رخام الجامع كان مطبوخا ومعجونا فلهذا اذا وضع على النار ذاب . ونقل عن احمد ابن هشام يقول سمعت ابي يقول مافي مسجد دمشق من الرخام شيء الا رخامتي المقام فانه يقال انهما من عرش سبا او من عرش بلقيس واما الباقي فكله مرمر .

ونقل بعضهم ايضا ان في المحراب عامودين صغيرين يقال انهما كانا في عرش بلقيس ثم ذكر في تاريخ التمدن الاسلامي في الجزء الخامس عما بناه الامويون في دمشق يقول لم يصلنا من اخبار مباني الامويين ما يستحق الذكر الا الجامع الاموي وكان قبل الاسلام كنيسة وقبل ذلك معبداً فلما فتح المسلمون دمشق صالحوا اهلها على ان يبق النصف الغربي في يد المسلمين ايضا وعوضهم الوليد عنه والتحق في النصف الشرقي الذي اخذ بالسيف حسما للتشويش والخصام .

وقال صاحب تلخيص الآثار ومن عجائب الدنيا الجامع الاموي وقد عبد الله فيه من يوم خلقت الدنيا الى ان فتح الاسلام بلاد الشام وجدد بناءه الوليد واتفق على عمارته خراج المملكة سبع سنين وجعل نمط بنائه بزانطي روماني غربي قديم قال ابن طولون ان هذا الجامع لم يزل معبدا لسائر الملل منذ خلقت الدنيا الى ان كانت ملة الاسلام فاتخذ جامعا ثم قال ومن عجائبه لو ان احدا بقي مائة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأى في كل يوم ما لم يره من حسن الصنعة ومبالغة التنميق قال بعض السلف مكثت اربعين سنة ما فاتني فيه صلاة من الخمس وما دخلت الا وقفت على شيء لم اكن رأيته قبل ذلك من صناعته وحكمة هندسته . وحكي انه بلغ ثمن البقل الذي اكله الصناع حين عمارته ستين الف دينار . وان اول من جدد سقف الاموي وجعله معبـــدا تحت سقف روما ارقاديوس

سنة ٣٧٩ ميلادية . وذكر غيث ابن علي الارمنازي في كتاب دمشق ان الوليد امر ان يستقص في حفر اساس حيطان الجامع فبينهم يحفرون اذ وجدوا حائطا مبنيا على سمت الحفر سواء فاخبروا الوليد بذلك وعرفوه احكام الحائط واستأذنوه في البنيان فوقه فقال احب الاحكام واليقين فيه ولست اثق باحكام هذا الحائط حتى تحفروا في وجهه الى ان تدركوا الماء فان كان محكما مرضيا فابنوا عليه والا استأنفوه فحفروا في وجه الحائط فوجدوا بابا وعليه بلاطة من حجر مانع وعليها منقور كتابة فاجتهدوا في قراءتها حتى ظفروا بمن عرفهم انها من خط اليونان وان معنى تلك الكتابة ما صورته (لما كان العالم محدثاً لاتصال امارات الحدث به وجب ان يكون له محدث . كما قال ذو السنين وذو اللحيين فوجبت عبادة خالق المخلوقات حينئذ) امر بعمارة هذا الهيكل من صلب ماله محب الخير على مضي سبعة الاف وتسعمائة عام لاهل الاسطوان فان رأى الداخل اليه ذكر بانيه بخير فعل والسلام . واهل الاسطوان قوم من الحكماء الاول كانوا ببعلبك حكى ذلك احمد بن الطيب السرخسي الفيلسوف وكان مكان هذا الجامع في ايام الآراميين هيكل عظيم لمعبودهم رامون القديم امر الملك يهودا ان يضع مثله في هيكل اورشليم ثم صار معبدا لليونان ثم الرومان . وخرب في ايام ارقاديوس قيصر ثم بناه اليه كنيسة وفي الفتح الاسلامي جعل نصفه مسجداً وبقي النصف الآخر كنيسة باسم القديس يوحنا المعمدان ثم جمع الوليد اليه النصارى وهدمها واضافها الى الجامع وكان فوق باب هذا المعبد الجنوبي الذي كان باب الكنيسة ، وهو محراب الحنفية اليوم منقوشا في اعظم نقش غريب لم ير مثله في البلاد ، وهو باق الى اليوم يرى من سوق الصاغة عليه كتابة يونانية ، هي : سبوح قدوس ، ملكوتك دائم ، وسلطانك يمتد مدى الادوار . وهي باقية الى اليوم . ونقل صاحب مروج الذهب ، ان مسجد دمشق كان قبل ظهور النصرانية هيكلاً عظيماً فيه التماثيل والاصنام ، على رأس منايره تماثيل منصوبة . وقد كان بني على المشتري وطالع سعد ، ثم ظهرت النصرانية فجعلته كنيسة وظهر الاسلام وصار مسجداً واحكم بناؤه الوليد ، وبقي منه صومعتان لم تزالا باقيتين للآذان الى هذا الزمان .

ونقل صاحب تذكرة العماد ان موضع الجامع الاموي كان معبداً بنته اليونان الكلدانيون الذين عمروا دمشق وكانوا يعبدون الكواكب السبعة ، وهي : القمر في السماء الدنيا ، وعطارد في الثانية ، والزهرة في الثالثة ، والشمس في الرابعة ، والمريخ في الخامسة ، والمشتري في السادسة ، وزحل في السابعة ، وكانوا قد رصدوا على كل باب من ابواب دمشق هيكلاً من الكواكب السبعة ، وكان ابواب دمشق وضعوها قصداً لذلك ، وكان لهم عند كل باب عيد في السنة ، وهؤلاء هم الذين وضعوا الارصاد وتكلموا على حركات الكواكب ، وبنوا دمشق واختاروا لها هذه البقعة الى جانب الماء الوارد من بين هذين الجبلين ، وضربوا انهاراً تجري الى الاماكن المرتفعة والمنخفضة ، واوصلوا الماء الى ابنية الدور ، وبنوا هذا المعبد ، وكانوا يصلون الى القطب الشمالي ، وكان محاريبه تجاه الشمال وبابه الى جهة القبلة وعن يمينه ويساره بابان صغيران كما هي الحالة في باب جيرون وباب البريد اليوم ، وكان غربي المعبد قصر مبني تحمله الاعمدة الضخمة التي بباب البريد الموجودة الى اليوم وعليها الاحجار المنقوشة ، وبمقابل هذا القصر قصر آخر من جهة الشرق يقال له قصر جيرون وهي دار تكون لمن يملك دمشق . ونقل بعضهم ان هيكل رامون كان محل الجامع الاموي .

ذكر العلامة البستاني البيروتي صاحب دائرة المعارف في جامع دمشق ما نصه: واما جامعها فهو الذي يضرب به المثل في حسنه واتقانه ، وجملة الامر انه لم توصف الجنة بشيء الا وفي دمشق مثله ، ومن المحال ان يطلب بها شيء من جليل اعراض الدنيا ودقيقها الا وهو منها ، فاق مسجدها عن غيره في جميع البلاد . وقد وصفه ايضاً بعض افاضل دمشق فقال : جامع المحاسن ، كامل الغرائب ، معدود من احدى العجائب ، قد زوق بالرخام والفسيفساء ، وألف على احسن تركيب ونظام . انتهى ملخصاً .

وحكى الحافظ في كتاب البلدان عن بعض السلف ان من جملة محاسن جامع دمشق بناءه على الاعمدة طبقتين ، الطبقة التحتانية اعمدة كبار ، والتي فوقها صغار (كما عليه الحالة اليوم) . وفي خلال ذلك صورة كل مدينة في الشرق واشجارها

بالفسيفساء والذهب الاخضر والاصفر . وفي قلبه القبة المعروفة بقبة النسر ليس في دمشق شيء اعلى ولا ابهى منظرا منها . ولما ولي عمر بن عبد العزيز قال : اني ارى في اموال مسجد دمشق كثرة انفقت في غير حقها . فلو استدركت ما انا مستدرك منها فيرد الى بيت المال لكنت انزع هذا الرخام والفسيفساء . وانزع هذه السلاسل الذهب والفضة وأصير بدلها حبالا او حديدا . فاشتد ذلك على اهل دمشق حتى وردت عشرة رجال من ملك الروم الى دمشق . فسألوا ان يؤذن لهم في دخول المسجد . فاذن لهم ان يدخلوا من باب البريد . فوكل بهم رجلاً يعرف لغتهم ويسمع كلامهم وينهي قولهم الى الخليفة من حيث لا يعلمون . فمروا في الصحن حتى استقبلوا القبلة . فرفعوا رؤوسهم الى المسجد فنكس رئيسهم رأسه . واصفر لونه . فقالوا له في ذلك فقال : انا كنا معاشر اهل رومية تتحدث ان بقاء العرب قليل . فلما رأيت ما بنوا علمت ان لهم مدة لابد ان يبلغوها . فلما اخبر الخليفة بذلك قال : اني ارى مسجدكم هذا غيظاً على اعدائكم . وترك ما هم به . وقد كان رصع محاريبه بالجواهر الثمينة وعلق عليه قناديل الذهب والفضة . وقد امر الملك الناصر الملك المؤيد بكتابة القرآن على حيطان الجامع من اوله الى آخره .

ونقل عن الوليد انه قال : رأيتكم يا اهل دمشق تفتخرون على الناس باربع خصال . فاحببت ان يكون مسجدكم الخامس . تفتخرون بكثرة مائكم . ويبوسة هوائكم . ورائحة فاكهتكم . وحسن حماماتكم . فأحببت ان يكون مسجدكم الخامس

وصف الصاحب صفي الدين دمشق في رسالة كبيرة نثراً ونظماً ومما قاله نثراً : مضيت الى مسجدها الجامع . وشفعت بادراك البصر منه ادراك المسامع . فلما وصلت اليه وحللت لديه . رأيت نوراً يجلي الابصار . وجمعاً يفضل على جموع الامصار . والبركات تحف بجوانبه . والعلوم تنشر في زواياه ومحاربه . والاحاديث الشريفة تسند فتروى . والمصاحف بين ايدي التالين تنشر فلا تطوى . واعلام البر فيه ظاهرة فلا تخفى ولا تزوى . والاسلام فيه فاش . والجهل به متلاش . ليله للمتهجدين . ونهاره للعلماء المجتهدين . ومما قاله نظماً :

دمشق قد شاع حسن جامعها وما حوته ربى مراعيها
بديعة المدن في الكمال لما يدركه الطرف من بدائعها
طيبة ارضها مباركة باليمن والسعد اخذ طالعها
جامعها جامع المحاسن قد فاقت به المدن في جوامعها
وان تفكرت في قناطره وسقفه بان حذق رافعها
وان تبينت حسن قبته تحير الالب في أصانعها
وارضه بالرخام قد فرشت ينفسح الطرف في مواضعها
مجالس العلم فيه مونقة ينشرح الصدر في مجامعها
في كل باب فيه مطهرة قد أمن الناس دفع مانعها

ومما قيل فيه ايضا :

بجامع جلق نعم الاقامة اقم تلك العناية والكرامة
ويمم نحوه في كل وقت وصل به تصل دار الاقامة
مصلى فيه للرحمن سر ومثوى للقبول به علامة
دمشق لم تزل للشام وجها ومسجدها لوجه الشام شامة

ومما قاله المؤرخ فقيه الشام ابراهيم برهان الدين الفزاري ابن الفركاح في تاريخه الموجود عندنا ، المترجم في كتابنا هذا في العصر الثامن :

الجامع الاموي أضحى حسنه حسنا عليه في البرية اجمعا
حلوه اذ حلوه فانظر محته تلقاه اصبح للحلاوة مجمعا
سقى بدمشق الغيث جامع نسكها ورروضا به غنى الحلم المفرد
اذا مازها في العين من ذاك معبد لذكر جلا في السمع من ذاك معبد
دمشق بواديها رياض نواضر بها ينجلي عن قلب ناظرها الهم
على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم

ومنها ما قاله علي بن منصور السروجي الدمشقي من ابيات طويلة يصف فيها دمشق وجامعها :

في كل قطر بها للعلم مدرسة وجامع جامع للدين معمور

كأن حيطانه زهر الربيع فما   يمله الطرف فهو الدهر منظور
يتلى القرآن به في كل ناحية   والعلم يذكر فيه والتفاسير

ومنها ما نقله الكمال الغزي في تذكرته ابياتا لشاعر دمشق اللوجي ارخ بها تجديد عمارة الجامع لما هدم في الزلزلة وذلك في سنة ١١٧٤ يقول الغزي وهو تاريخ عجيب :

سلطاننا مصطفى طابت مآثره   من آل عثمان اهل العدل خيرفئه
ما ام مورده الراجون فيض ندي   الا وعادت بغيث البر مرتوئه
فالمسجد الرابع المشهور جدده   بابدع الصنع حتى فاق مبتدئه
فعاد في اكمل الاتقان منظره   يزهو ببهجة حسن غير مختفئه
واف لاتمامه بيت حوى عجبا   من التواريخ خمسا فيه مختبئه
في ضمن مهملة تبدو ومعجمة   منطوقة ثم مصراعية مجتزئه
وعام تجديده قرره جاز على   الف وسبعين ثم اربع ومائه

ومنها ما انشده في مدح علي افندي المرادي مفتي دمشق ومؤرخا تجديد عمارة الجامع ايضا بقصيدة طويلة آخرها :

فاتى ببيت كامل تاريخ ما   يحلو به للسامع الانشاد
اموي جلق ان هوى بزلازل   فبمصطفى الملك المجيد يشاد

ومنها ما قاله الشيخ احمد البربير البيروتي الشهير صاحب كتاب الجلي :

عرج على اكناف جامع جلق   فلقد اقيم على الصلاح عماده
واقصد به يحيى الحصور فانه   من زار يحيى لا يموت فؤاده

ثم قال الغزي في تذكرته : وانشدني اللوجي مؤرخا تجديد ثوب ضريح النبي يحيى عليه السلام على يد نائب الشام وحاكمها الوزير محمد باشا وذلك سنة ١١٩١ بقصيدة طويلة منها :

قف بالخضوع لدى مقام اشرف   قد لاح من ارجائه نور الهدى

ثم قال في التاريخ :

في ذلك العام المبارك جاءنا   تاريخه كسي الضريح مجددا

ومن اجمل ما وصف به الجامع الاموي قول ابن منقذ الكناني من قصيدة طويلة

وكأن جامعها البديع بناؤه ملك يميز من المساجد جحفلا
ذو قبة رفعت فضاهت قلة ومنابر بنيت فحاكت معقلا
تبدوا الأهلة في اعاليها كما يبدو الهلال تعالياً وتهللا
ويريك سقف بالرصاص مدثرا يعلو جداراً بالرخام مزملا
قد الف الاقوام بين شكوله فغدا الرخام بذاته متشكلا
لم يرض تجليلا بجص قانبري بالفص يعلو والنضار مجللا
يغشى سوام اللحظ في ارجائه من عسجد ارضا ومن فص خلا
فاذا تذر الشمس فيه تخاله بلقاً تألق او حريقا مشكلا
فكأنما محرابه من سندس او لؤلؤ وزمرد قد فصلا
وتخال طاقات الزجاج اذا بدت منه للحظك عبقريا مسدلا
تبدو القبابه بصحنه لك مثلما تبدو العرائس بالحلي لتجتلى
وعلت به فوارة من فضة سالت فظنوها معينا سلسلا
وببابه حركات ساعات اذا فتحت لها باب تراجع مقفلا
ويريك باريها وكل قد رمى من فيه بقذفه بصيب سجنجلا

ومما قاله في وصف الجامع الفاضل مكاتب مجلة المقتطف المصرية تحت عنوان عمران دمشق .

يرى المتفلسف في عمران المشرق ان اهله قلما يحفلون بتنميق المباني العامة وتزويقها ، الا ما كان منها تحت اسم الدين كالمعابد والمساجد والتكايا والزوايا . وان تكن الديانة الاسلامية مثلا لا تجيز الزخارف ولا تبيح اقامة مساجد تشغل ذهن الداخل اليها عن العبادة الحقة التي يراد بها حضور القلب والخضوع والخشوع ، ولذا عد من محدثات البدع تنميق بناء المساجد والاسراف في الانفاق عليها وتعددها لغير حاجة ماسة ، فقد كان في المدينة المنورة صدر الاسلام مسجد واحد ، فلو فرض ان دمشق مع كثرة سكانها وما يجيء اليها كل جمعة من سكان القرى يزيد عشرة اضعاف سكان المدينة كان الاحرى ان يكتفي بعشرة

مساجد جامعة . ولكن هي الاسماء عليها يتهالك الاقوام حرصين . وفيها يتنافس البشر غير مأمورين . ومن ثم لاتسل عن اهل الاديان اذا خرب لهم مسجد او معبد . فقد تقوم قيامتهم كأنما تقوض الدين برمته . او اخذ الملك بامته . فيتسابق خاصتهم قبل عامتهم الى اعادة ما دثر وتجديد ما بلي . اذ يخيل لهم ان مجد الامم متوقف على اظهار شعائر دياناتها . وعلى نسبة معابدها يرضى عنها صديقها ويخافها عدوها .

مرت القرون ودمشق بفضل ما تقدم من الدواعي محتفظة بكيان معابدها لم تصب بما اصيب به سائر الآثار من الهد والهدم .

ولابن عبد الهادي رسالة كتبها في اواخر القرن التاسع اتى فيها على ذكر القسم الاعظم من مساجد دمشق فكانت زهاء الف مسجد . هذا ولم يستقصر اسماء كثير من المساجد في هذه الحاضرة وضاحيتها فما يناهز الفاً وخمسمائة مسجد . واما ما هو محيط بمعاملها مما وراء جبالها فهو كثير للغاية .

اخنى الدهر على معظم هذه المساجد الآن . اما لنزوح السكان من جوارها او لتعطل اوقافها . فضاعت الفائدة التي بنيت لاجلها . مع ان العقل والشرع يقضيان ببيع المساجد الخيرية على قول احد الائمة والاستعاضة عنها بمكان آخر فيما اذا قل الانتفاع بها اودعت الضرورة لازالتها .

وما برح الناس ذهابا مع الاهواء . ودفاعا عن الاسماء يفضلون بقاء القديم على قدمه .

رأس معابد دمشق ورئيسها رابع جامع في الاسلام . الجامع الاموي المشهور في كل العصور . الذي يباهي به اهل هذه الحاضرة غيرهم من سكان البلدان . ويعدونه من مفاخرهم ومآثرهم شرع الوليد في بنائه وفرشه بالرخام الابيض المختم بالازرق . وحلي سقفه وجدرانه بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء . خلط بها من غريب الاصبغة ما يدهش الابصار .

هذا المسجد عريق في القدم . اصيل في اقامة الشعائر الدينية . اتى عليه كما روى بعض المؤرخين ردح من الزمن وهو لمؤسسيه الصابئة يصلون فيه . ثم صار في

ايدي اليونانيين ، ثم لليهود وملوك من عبدة الاوثان . ثم النصارى ، ثم للمسلمين قال سيد بليو ان مسجد قرطبة بني على شكل مسجد دمشق ، كما ان مساجد الشام وفلسطين ومصر مبنية على شكل الكنائس التي قال المؤرخ اوزيبوس احد اهل قيصرية في سيرة السلطان قسطنطين انها ذوات احواش واواوين وفساقي ومساكن للقسس بدليل ان في تلك المساجد ما كان يصفه البناؤون من الخافقي المزوق باشكال من حصا منوع الاشكال والالوان .

ولما فتحت دمشق كتب عمر الى عامله ابي عبيدة الجراح كتاب امان واقر ما بايدي النصارى اربع عشرة كنيسة ، واخذ منهم نصف هذه الكنيسة التي كانوا يسمونها كنيسة مار يوحنا . بحكم ان البلد فتحه خالد بن الوليد من الباب الشرقي بالسيف ، واخذت النصارى الامان من ابي عبيدة وهو على باب الجابية بالصلح فاختلفوا ثم اتفقوا على ان جعلوا نصف البلد صلحا ونصفها عنوة فاخذ المسلمون نصف هذه الكنيسة الشرقي فجعله ابو عبيدة مسجداً . وكانت قد صارت اليه امارة الشام . وكان المسلمون لجهة الشرق والنصارى الى جهة الغرب لا يستطيع اهل الانجيل ان يجهروا في قراءته ولا يضربوا بناقوسهم اجلالا للصحابة . فلما اخذت اصواتهم ترفع في صلواتهم احب الوليد ان يبعدهم عن المسلمين وطفق يجتهد في اخذ المعبد كله .

روى ابن عساكر ان المغيرة بن عبد الملك دخل يوما على الوليد فرآه مغموما من هذا الشيء وقال له : يامغيرة ان المسلمين قد كثروا وقد ضاق بهم المسجد . وقد بعثت الى هؤلاء النصارى اصحاب النصف من هذه الكنيسة لتدخلها الى المسجد فأبوا علينا . وقد اقطعتهم قطائع كثيرة وبذلت لهم مالا كثيرا فامتنعوا فقال له المغيرة : يا امير المؤمنين لا تغتم ، قد دخل خالد ابن الوليد الى دمشق من الباب الشرقي بالسيف ودخل ابو عبيدة من باب الجابية بالامان فاسحهم الى اي موضع بلغ السيف . فان يكن لنا فيه حق اخذناه . وان لم يكن لنا فيه حق داريناهم حتى نأخذ باقي الكنيسة فندخلها في المسجد . فقال له : فرجت عني فتول انت ذلك . قال فتولاه فبلغت المسحة الى سوق الريحان حتى جاز من القنطرة

الكبيرة اربعة اذرع وكسر بالذراع الفارسي فاذا باقي الكنيسة قد دخل في المسجد فبعث اليهم فقال : هذا حق قد جعله الله عز وجل لنا لم يصل المسلمون اليه في غصب ولا ظلم ، فقالوا يا امير المؤمنين قد اقطعتنا اربع كنائس وبذلت لنا من المال كذا وكذا فان رأيت ان تتفضل به علينا . فامتنع حتى سألوه وطلبوا اليه . قال فاعطاهم كنيسة حدين (لعلها حديس) وكنيسة اخرى جانب سوق الخبز وكنيسة مريم وكنيسة المصلبة .

ثم ان الوليد بعث للمسلمين حتى اجتمعوا لهدم الكنيسة . واجتمع النصارى فقال للوليد بعض الاقباء والفأس على كتفه ، وعليه قباء سفرجلي ، وقد شد بدور قبائه ، اني اخاف عليك من الشاهد ، قال ويلك ما اضع فأسي الا برأسه . وهي صورة في اعلى الكنيسة . ثم انه صعد فكان الوليد اول من وضع فأسه في هدم الكنيسة وسارع الناس في هدمها وكبروا ثلاث تكبيرات .

ننقل ما قاله صاحب تاريخ محاسن الشام ان ارض الجامع كانت مفروشة بالفصوص المزمكة بالذهب المسماة بالفسيفساء ، وان الرخام كان في جدرانه سبع وزرات ، ومن فوقه صفات البلاد وما فيها من العجائب ، وان رسم الكعبة المشرفة وضع صفاتها فوق المحراب . ثم بجانبها البلاد يمينا وشمالا وما فيها من الاشجار المثمرة والمزهرة وغير ذلك وجعلت سلاسل المصابيح فضة محلاة بالذهب . وبعضها من نحاس ورتبت له من الشموع ما يوقد منه في اماكن مختصة

وفي هذه السنة عند طبع هذا الكتاب نقلت احجار القيشاني المكتوبة التي كانت موضوعة في مدفن اقواص جمال الدين النجيبي من امراء دمشق في عصر دولة المماليك في مصر ، وقد خرب هذا المدفن من ضرب المدافع عند نكبات دمشق الاخيرة وقد وضعت تلك الاحجار فوق المحراب في المحل الذي كان فيه رسم الكعبة المشرفه كما تقدم ، ونقل بعضهم ان الرخامتين اللتين في جانبي المقام هما من عرش سبا وقيل انهما من عرش بلقيس وفي عهد الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل عمل وزيره المعروف بالسامري طلسما لمنع دخول الحمام الى الجامع وبعد موته خرب ذلك الطلسم ورجع الحمام يأوي اليه .

وروى شيخ الربوة في كتابه انه كان يحمل من زيت نابلس الى جامع بني امية في كل سنة الف قنطار دمشقي . وقال ايضاً يوقد فيه ليلة النصف من شعبان وفي شهر رمضان اثنا عشر الف قنديل بخمسين قنطاراً من الزيت .

وفي بعض تواريخ دمشق حكي ان النصارى رفعوا الى عمر بن عبد العزيز في خلافته ما بيدهم من عهد ابي عبيدة الجراح من ان كنائسهم لا تهدم ولا تسكن وان الوليد اخذ كنيستهم بغير حق قهراً . فلما رأى عمر ذلك منهم دفع لهم مالا يرضيهم به حتى بلغ مائة الف دينار ، فأبوا ، فكتب عمر الى محمد بن سويد النهري ان يدفع اليهم كنيستهم او يرضيهم في ذلك فلما وصل كتاب عمر الى دمشق اعظم الناس ذلك وفيهم يومئذ بقية اهل الفقه فشاورهم محمد بن سويد فقالوا هذا امر عظيم . كيف ندفع مسجدنا وقد اذنا فيه بالصلاة فيهدم ويعاد كنيسة ، فقال رجل منهم هنا مسئلة ، لهم كنائس عظام حول مدينتنا ، وهي دير مران والكنيسة بباب توما وغيرها من الكنائس ان احبوا ان نعطيهم كنيستهم ونرجعهم اليها فلا يبقوا حول مدينة دمشق ولا بالغوطة كنيسة اخذت جهتها بالسيف الا هدمت او نبقي لهم جميع كنائسهم ويتركوا هذه ونسجل لهم بذلك سجلا . فدعاهم محمد بن سويد وعرض عليهم ذلك ، فقالوا امهلونا ننظر في امرنا ، فتركهم ثلاثة ايام وطلبهم فقالوا نحن نأخذ الذي عرضته علينا ونكتب الى الخليفة اننا قد رضينا بذلك ويسجل لنا الخليفة من قبله سجلا منشوراً بامان على ما بدمشق والغوطة من كنيسة ان تهدم او تسكن . فكتب الى عمر بن عبد العزيز بذلك فسره الامر وسجل لهم بذلك انتهى .

قال في تاريخ القلانسي صاحب سوق القلانسيين بدمشق ما نصه وفي سنة ٤٦١ هـ وقع الخلف بدمشق بين العسكر وبين اهلها وطرحت النار في جانب منها فاحترقت واتصلت النار منه بجامعها من باب العنبرية ، فاحترق في ليلة يوم الاثنين انتصاف شعبان فقلق الناس لهذا الحادث ، والملم المؤلم الكارث ، واسف القاصي والداني لاحتراق مثل هذا الجامع ، الجامع للمحاسن والغرائب ، المعدود من احد العجائب ، حسناً وبهاء ورونقاً ، وكيف اصابت مثله العيون الصوائب ، وعدت

عليه عاديات النوائب . وقد أيده ابن عساكر وغيره . ونقلوا انه وقع هذا الحريق في قرب الجامع واتصل لهيبها به فاضطرم وعجز الناس عن اطفائها فاتت على جميع محاسنه وما فيه من الزخارف والنقوش البديعة من الفسيفساء الموجودة فيه من زمن تعميره الاول ايام الوليد . وسبب ذلك فتنة وقعت بين المغاربة والمشارقة . وفي سنة ٦٠٦ جددت ابواب المسجد الغربية بالنحاس الاصفر وبقيت الى اليوم ثم نقل بعض المؤرخين قال وفي سنة ٦٨١ حصل حريق هائل في دمشق لم يسمع بمثله اقلت النار ثلاثة ايام ليلا ونهاراً .وكان مبدؤه من الذهبيين وذهب للناس شيء كثير . ومن جملة ما ذهب للشيخ شمس الدين الكتبي غرف بالقاشوشة خمسة عشر الف مجلد .

وحكي السيد جمال ابن السراج قال بتنا في الجامع الاموي ونحن مرتعشي القلوب عليه خوفاً واذا الهواء القى ورقة من الحريق مكتوب فيها :

سلم الامر راضياً جف بالكائن القلم
جل من يرزق الصغير وهو لحم بلا وضم
ليس في الرزق حيلة انما الرزق في القسم
ان للخلق خالقاً لا مرد لما حكم

ثم قال في العبر : وفي سنة ٧٤٠ سادس عشر شوال وقع بدمشق حريق كبير شمل سوق اللبادين القبلية وما تحتها وما فوقها الى عند سوق الكتب ، واحترق سوق الوراقين وسوق الذهب وحاصل الجامع وما حوله والمأذنة الشرقية وعدم للناس فيه من الاموال والمتاع مالا يحصر . كان الاصل فيه من النصارى بدمشق كما قال ابن مفلح ، واشتهر ذلك عنهم وكتب عليهم محضر به وضربت اعناقهم ، ثم حرقوا بالنار . وزاد صاحب محاسن الشام ان مأذنة عيسى عليه السلام نقضت وجددت من اموالهم لكونهم اتهموا بحريقها باقرار بعضهم ، واقيمت المنارة على شكلها الاول وهذا الحريق عم جميع المسجد وماحوله من الدهستاني والرواقات الشرقية والمباني باجمعها . وذهبت اموال الناس بهذا الحريق . وقد تم بناؤه في سنة ٧٧٤ كما نقله ابن طولون .

ثم نقل ابن حجر وفي شعبان سنة ٧٩٤ ايام الظاهر برقوق كان الحريق العظيم بدمشق فاحترقت المأذنة الشرقية ثانياً وسقطت واحترقت الصاغة والمعزبة الى بيت المقصورة ، وتلف من الاموال ما لا يحصر ، ثم أعيد كل شيء الى ما كان عليه ، وعمل في ذلك تقي الدين بن حجة الحموي مقامة في نحو كراس من رائق النظم وهي المجوبة في بابها ، لولا اطالة المقال لسردناها .

ثم في سنة ٨٠٣ هـ حرق جميعه ايضاً ، واحترق المصحف العثماني الموضوع وجميع ما كان بها من كتب العلم وغيرها ، وذلك عند حضور تيمورلنك واستمر الجامع خرابا الى ولاية الشيخ الخاصكي نائب الشام فشرع في عمارته سنة ٨٠٥ واعيد الى ما كان عليه .

وفي سنة ٨٨٤ حدث حريق احترق الجامع والمأذنة الغربية وثمانية اسواق ، وحصل في تلك السنة بدمشق وباء اهلك فيه كل يوم الف انسان ومات صاحب دمشق امير برقوق .

ثم لم نقف على تاريخ يدل على خراب الجامع او حرقه بعد ذلك الا ما كان من زلازل سنة ١١٧٣ ، فان قبة النسر والرواق الشمالي خربا اذ ذاك واعيد بناؤهما ، والحريق الاخير كان يوم السبت لاربع مضين من شهر ربيع الثاني الذي هو من شهور سنة ١٣١١ في الساعة الرابعة من النهار ، وهو انه شبت نار عظيمة في سقف الجامع من الجهة الغربية في المعزبة الوسطى فوق شباك مشهد اليافي بسبب نار وقعت من نرجيلة احد العملة الذينهم كانوا يصلحون ذلك السقف ، ووصلت النار الى الخشب ، ولما اجتمعت الخلائق واهتمت الحكومة لاطفاء ذلك بواسطة المضخات الحربية كان لما يصل الماء الى الخشب كانه زيت حار زاد الحريق به ، وبمجرد فتح ثقب من السقف اشتد الهواء واشتعل الحريق بزيادة واهتم الناس لاخراج السجاد وبعض الاشياء الثمينة والآثار القديمة والمصاحف وقد احترق جميع الامتعة الموجودة في ضريح النبي يحي عليه السلام وبقي الحريق ساعة ونصفا وذهب بجميع سقف الجامع مع العواميد كلها على الارض وقد ارخ ذلك

الشيخ عبدالرحمن القصار احد شعراء دمشق وبكى ذلك الحريق الذي اصاب محاسن الجامع وذهب باركانه بقوله :

يا مسجداً قد هدمت اركانه   ابشر بتشييد مع الاتقان
واخلع ثياب الحزن عنك فانها   قد بدلت لك في ثياب تهاني
كم من فؤاد ذاب لما أرخوا   باجيج حرقك في ربيع الثاني

وفي سنة ١٣١٤ ابتديء بالعمل وكشفت الهيئة الفنية عن مقدار المبلغ الذي يلزم لارجاع بناء هذا الجامع بصفته الاولى فقدروا ذلك بسبعين الف دينار ثم لما جاء الوالي حسن باشا الى دمشق جمع اهلها وطلب رأيهم بهذا المبلغ فقرروا استكتاب الاعانات من اهل البر ثم بوشر باعمار المشاهد الاربع وسقف الروقات الغربية والشمالية وصار الناس يصلون فيها ، ثم لما عجزت الهيئة عن تحصيل الاعانات أو بقول افصح اشتغلت بذلك الاختلاسات اعطى القرار من الحكومة والاهلين بوضع ضريبة على الذبيحة وجمع في كل شهر مقدار عظيم وبدأ بعمارة المسجد شيئاً فشيئاً وتأسس لجنتان احداهما للمشترى ، والثانية للعمل في الاعمار وهم من اعيان دمشق واخترع احد رجال دمشق وصناعها عبدالله الحموي عربة لجر العواميد ووضع لها منشار لقطع ذلك من جبل المزة مما ادهش اهل الفن والمعمار وصار محل تعجب اهل الغرب بذكاء اهل الشرق الفطري وقد تم العمار سنة ١٣١٦ هـ وقد ارخه احد شعراء دمشق سليم افندي قصاب حسن بقوله :

الحمد لله أتى تاريخه   الشام جامعها بخير جددا

وقد ارخه ايضا الشيخ عبدالرحمن القصار احد شعراء دمشق بقوله :

يحي الحصور تلألأت   بالبشر بهجة طالعه
لما بخير ارخوا   كملت عمارة جامعه

وقد مدحه بعض المؤرخين بقوله :

تقول دمشق اذ تفاخر غيرها   بمعبدها الزاهي البديع المشيد
جرى ليباهي حسنه كل معبد   وما قصبات السبق الا لمعبد

وقال آخر :

دمشق لم تزل للشام وجها ومسجدها لوجه الشام شامة
ادام الله بزهته وابقى محاسنه الى يوم القيـــامة
مصلى فيه للرحمن سر ومثوى للقبول به علامة

وقال العارف النابلسي في مدحه :

ما الجامع الاموي الا نزهة فيها تراه بالعبادة مشرقا
قد اتقنت صناعه بنيانه فأتى المزخرف ذاته وتأنقا

فيظهر للقاريء انه تم ابن العمار في سنتين وبعض الاشهر وهذه السرعة كانت سبب كثرة العمال فانهم يقدرون بخمسمائة عامل أشتغل به في كل يوم .

وفي سنة ١٣٤٣ قد صار تجديد عواميد الجهة الشرقيـة التي هي امام مشهد الحسنين وقد ظهر داخل العضادة التي أزيلت عامود مكتوب عليه باليونانية تاريخ وضعه واسم المعمار والمهندس فظهر من ذلك الاثر ان وضعه كان قبل الميلاد بقرون وسينقل هذا العامود الى دار الآثار الشرقية بدمشق .

نقل صاحب مشاهد الممالك من متأخري هذا العصر ان في دمشق ١٧٣ جامعا أهمها جامع الاموي المشهور وقد احترق سنة ١٨٩٣م اعيد بناؤه من تبرعات الناس وضرائب اللحم طوله ٢٥ متراً وعرضه ١٨٢

وقد تفنن ايضا محمد ودرويش اولاد ابو نجيب الدهان من مشاهير صناع الفسيفساء والعجمي بدمشق الذي تقدم ذكرهما عند مشاهير الصناع لصنع الثلاث شبابيك الذي هم فوق المحراب والمقابل لهم وبهم الالوان اللطيفة والنقش البديع على الهندسة القديمة التي كانت قبل الحريق ونقشهم السقف على صناعة الدهان العجمي .

نذكر هنا جملة في بحث الجامع الاموي وانتظامه على غيره بواسطة كثرة المؤذنين به وترتيب الاذان فيه في سائر الاوقات واستحسان آذان الجوق وبقائه الى يومنا هذا نقل ابن عابدين في حاشيته النصر في جوازه وايده بعضهم ايضا بقوله : ان أول من احدث اذان جمع من المؤذنين هم خلفاء بني امية في جامع دمشق

وقالت الشافعية لا يكره الا اذا حصل منه تهويش او تشويش وقال ابن دقيق العيد واما الزيادة على الاثنين فليس في الحديث تعرض اليه ونص الشافعي على جوازه ولفظه ولا يضيق ان اذن اكثر من اثنين ونقل بعضهم في مناسبة اذان بلال وابن ام مكتوم بان اذان المراسلة وما يعقبه الموجود في زماننا في جامع دمشق هو مطابق له واقرت عليه العلماء قديما وحديثا ولو كان محدثا لأن فائدته لا تنكر . قال ابن عابدين في حاشيته ان التذكر المعروف بدمشق بين العشائين هو بدعة حسنة كان ابتدائه سنة ٧٩١ هـ في ايام السلطان الناصر صلاح الدين وهو بأمره وقد ذكر السيوطي ان اول من احدث اذان الجمع بنو امية في معابد دمشق كما ذكرناه اذا ما رآه المؤمنون حسنا فهو حسن وقد ورد في الحديث ما يثبت ما قدمناه وهو ان بلال يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن ام مكتوم الحديث . قال الازرقي في تاريخ مكة عن ابتداء تخصيص عمل المؤذنين نقله عن ابي الوليد ان اول من عمل الظلة للمؤذنين التي في الحرم المكي عبد الله بن محمد ابن عمران الطلحي وهو امير مكة في خلافة هارون الرشيد وذكر ايضا انه اول من خطب على المنبر الذي قدم به معاوية بن ابي سفيان من الشام سنة حجه في ايام خلافته منبر صغير على ثلاث درجات وكان الخلفاء الراشدون قبل ذلك يخطبون يوم الجمعة على ارجلهم قياما في وجه الكعبة وكان ذلك الذى جاء به معاوية من دمشق ، مما خرب فيعمر ولا يزاد فيه . حتى حج الخليفة هارون الرشيد فاهداه عامل له على مصر منبرا عظيما في تسع درجات منقوش . ثم اخذ منبر مكة القديم فجعل بعرفة حتى اراد الواثق بالله الحج فكتب لعماله بعمل ثلاثة منابر له وجعل منبرا بمكة ومنبرا بمنى ومنبرا بعرفة ثم بقي منبر هارون الرشيد والذي قبله ومنابر الواثق جميعها بمكة الى اليوم . وقد ورد في صحيح الامام البخاري حديث الجزع حين ما صنع به المنبر وصعد اليه ثم جاء اول الخلفاء ونزل درجة احتراما للرسول عليه الصلاة والسلام ثم جاء بعده ثاني الخلفاء ونزل درجة اخرى فلما جاء ثالث الخلفاء امر برفعه .

ومن الآثار القديمة الباقية الى اليوم وجود الاربع سواري القائمة في مدخل

الجامع الاموي من جهة الغرب مكتوب عليها اربع وثائق تاريخية في ابطال المكوس تاريخ الاولى سنة ٨٦٣ هـ على عهد قانباي الحمزاوي كافل الممالك الشامية ابطل بها الرسم المقرر على الاسواق والطواحين وغيرهما من المكوس بدمشق. والثانية كتبت سنة ٨١٥ وهي مما امر به الظاهر جقمق بابطال المكوس على الاقمشة الحمصية وفرع الاردية وفرع القطن وغيرها . والثالثة بتاريخ سنة ٨٥٢ تقول بانه ورد مرسوم شريف من مولانا السلطان الملك الظاهر ابو سعيد جقمق بابطال بعض المكوس ومنها التمر والعفص والسمك النوري والحنا والقماش المصري قال وهذا في صحائف الدولة العادلة . والرابعة فيها ذكر القلي والخروع والقلقاس وجلود الجاموس والماعز ونقش الملك الظاهر المذكور رخامة والصقها على باب الجامع المذكور بابطال ما كان لنائب الشام على المحتسب في كل سنة .

نقل ابن طولون بخطه من تاريخ ابن شداد الحلبي قال قرأت بخط ابي عمار ابن صابر عن عاصم بن عمر بن الخطاب انه سئل عن دمشق وما حولها فقال مصلى الخضر بغوطة دمشق ونقل الشهاب المنيني في تاريخه قائلا وقد جمع بين اسمه وكنيته ولقبه واسم ابيه من قال :

ادرك ادركني بعون الله عليَّ انتصر يا ابا العباس بليا يا ابن ملكان الخضر

وفي سبب تلقيبه بالخضر اقوال اشهرها انه صلى على فروة بيضاء فصارت خضراء والفروة وجه الارض وهو صاحب موسى الكليم الذي قص الله تعالى قصته معه في صورة الكهف واختلف في حياته ونبوته والاصح الذي عليه جمهور العلماء انه نبي وانه حي معمر موجود بين اظهرنا محجوب عن الابصار الا لبعض الخواص ممن اراد الله سبحانه اطلاعه عليه واكثر المحدثين على موته واطبق اهل الكشف والمعرفة على حياته وقال ابن الصلاح هو حي عند جماهير العلماء وقال الثعالبي الخضر على جميع الاقوال نبي محجوب وقيل انه لا يموت حتى يرفع القران قال النووي في الفضائل . رأى الخضر في الجانب الشرقي القبلي من مسجد دمشق يصلي في الليل ولعل هذا المكان الذي يقرب من باب الخضر ونقل بعضهم ايضا ان مقام الخضر هو في الحائط القبلي من مسجد دمشق لجهة الشرق واسمه بليا.

والخضر لقب له . واختلف في نسبه هل هو ابن آدم ام ابن لقابيل ام من ولد فارس اقوال كثيرة . وكذلك هل هو نبي ام رسول ام ملك ام ولي والذي اعتمده الاكثر انه نبي . كما اختلف في حياته وعدمها وادلة كل منهم في المبسوطات

ونقل العلامة الشيخ مرعي الحنبلي في رسالته في الخضر عن الحافظ السيوطي ما نصه واما الخضر بخصوصه فأئمة الحديث لايثبتون له الآن وجوداً وما يروى في حقه من الاحاديث رأوه في ديوان الموضوعات معدوداً . واما انا فلا اقول في حقه نفياً ولا اثباتاً ولا انطق بشأنه بلا ولا تا، مراعاة لاهل الحديث والصوفية ولعدم وجود الأدلة باثباته ونفيه . غير ان عندي بعض ميل الى مذهب القائلين بعدم وجوده الآن لأن الحجة النقلية والعقلية معهم بخلاف القائلين بحياته فانه ليس بذلك حديث واحد صحيح يؤيد قولهم . وانما هو مجرد رأي او حسبان . وصورة دعوى بلا برهان . والدعوى بلا دليل كل احد يقدم عليها وينهض اليها . وانما الدعوى المعتبرة هي الدعوى بدليل يصدقها وبرهان يحققها .

والأصل ان الانسان لايعيش هذه المدة كما هو مشاهد فلا ينتقل عن هذا الأصل الا بدليل ولا دليل هناك لا من حديث ولا من غيره فيرجع الى الاصل وهو عدم حياته هذه المدة حتى يثبت بالدليل الصحيح وجوده والدليل منتف فانتفت حياته الى الآن فتأمل . والله اعلم .

وقال في الاصابة الخضر صاحب موسى عليه السلام اختلف في نسبه وفي كونه نبيا وفي طول عمره وبقاء حياته وعلى تقدير بقائه الى زمن النبي صلى الله عليه وسلم وحياته بعده فهو داخل في تعريف على احد الأقوال . ولم أر من ذكره فيهم من القدماء مع ذهاب الاكثر الى الاخذ بما ورد من اخباره في تعميره وبقائه . وقد ذكر المؤلف ما انتهى اليه علمه به وبين ما صح من ذلك وما لا يصح فليرجع اليه من اراد .

وهذا آخر ما قصدنا ذكره من الحوادث في هذا الباب ونسأل الله تعالى ان

يجزل لنا على ذلك الثواب . ولولا بذل الهمة للاختصار في ذكرها ، لطال شرح امرهـــا .

ثم ذكر العلموي في المختصر قال الخاتمة في الجوامع ولنقدم منها الأموي فنقول هو انشاء الأقدمين قبل الاسلام ثم زخرفه وجدد بناءه الوليد و كان اولا كنيسة ثم استقر الحال حين الفتح الاسلامي على ان النصف منه للمسلمين والنصف الثاني للنصارى ، فانتزع الجميع منهم بعد نزاع طويل شديد ، فارضى الوليد النصارى عن النصف الآخر بكنائس صالحهم عليها فرضوا ثم هدمه سوى حيطانه الأربعة وانشأ قبة النسر والقناطر ، وطلاه بالذهب والفضة والجواهر . ثم نقل عن ابن كثير انه هدمت القنطرة الرومانية عند الباب الشرقي ونشرت حجارتها بتبليط الجامع فكمل تبليطه سنة ٦١٤ هـ . ونقل عن ابي شامة ايضاً انه في سنة ٦١١ بدأ في تبليط داخل الجامع ، وكانت ارض الجامع قبل ذلك حفراً وجوراً ، ثم قال: واما القبة الصغيرة التي بها الفوارة في صحنه فعمرت سنة ٣٩٦ وفي سنة ٧٢٧ كمل ترخيم حائطه الشرقي ، ثم نقل عن الذهبي انه في سنة ٥٠٧ كان بطبرية مصحف سيدنا عثمان فنقله طغتكين الى جامع دمشق فهو الذي بمقصورة الخطابة انتهى قلت وهذا المصحف الثاني الذي احترق في الحريق الاخير .

الجامع الكريمي : في حي الميدان في القبيبات انشأه القاضي كريم الدين سنة ٧١٨ وأجرى الماء اليه من النهر الذي اشتراه بخمسة واربعين الفاً ، وهو موجود الى اليوم يعرف به وله جامع آخر في قرية القابون بناه في سنة ٧٢٤ قلت وقد اشتهر اليوم بالدقاق .

المصلى : بمحلة ميدان الحصا انشأه العادل سيف الدين ابو بكر بن ايوب في سنة ٦٠٦ ولم يقف عليه شيئاً ، وبني لصلاة العيدين وهو موجود الى اليوم في حي باب المصلى تقام به الشعائر وبهمة اهل جواره عامر .

جراح : خارج باب الصغير بمحلة سوق الغنم ، كان يعرف اولا بمسجد الجنائز فجدده جراح المنجي ثم انشأه الملك الاشرف سنة ٦٣١ وبعد ذلك خرب وتجدد بناؤه سنة ٩٧٤ وهو لم يزل معموراً وموجوداً ، وله منبر جميل مهم

الكريمي : بالقبيبات انشأه عبدالكريم بن هبة الله المصري سنة ٧٢٤ هـ

الملاح : انشأه الصاحب ناظر الدواوين المتشرف بدين الاسلام سنة ٧٠١ قلت لم يعلم مكانه .

خليخان : خارج باب كيسان بناه بن خيلخان سنة ٦٧٣ وقد درس وصار بستانا وهدمت منارته في عصرنا .

المزاز : في الشاغور خرب ايام الفتنة ، وجدد سنة ٨١٣ وهو موجود الى اليوم بناه شاه السيد تقي الدين الزيني :

يلبغا : على شاطيء نهر بردى ، انشأه الامير يلبغا كان قبل ذلك تلا يشنق عليه المجرمون تم بناؤه سنة ٨٤٧ وفيه يقول ابن حبيب :

يمم دمشق وعج الى غربيها　　والمح معاني حسن جامع يلبغا

من قال من حسد رأيت نظيره　　بين الجوامع في البلاد فقد لغا

قلت : اخذ من النصف البراني وجعل مدرسة لتعليم الاولاد من جهة دائرة المعارف وبقي النصف البراني مع القسم الداخلي لأجل الصلاة وهو باق الى اليوم وانشد بعضهم فيه ايضاً :

كم نزهة في يلبغا تبتغى　　ومدرج لم يخل من دارج

يموج في بركته ماؤها　　تحت منار ليس بالسائج

مأذنة قامت على بابه　　تشهد للداخل والخارج

تنكز : بناه الأمير تنكز سنة ٧١٧ تقدم الكلام عليه جعلته الحكومة التركية مدرسة عسكرية قرناً كاملا ، ثم بعد ذهاب الاتراك تصرفت به السلطة الاجنبية ، وبواسطة ذوي الهمم العالية عاد الى اصله واقيمت به الصلوات الخمس وصار مقراً لتعليم العلوم الدينية .

الحيواطية : للامير علي بن حيوط بني سنة ٨٨٥

التوبة : بالعقيبة بناه الملك موسى بن العادل ٦٣٢ ، وكان اولا يعرف بخان الزنجاري وكان به كل مكروه من الفحش والمعاصي كما تقدم ، وهو باق الى اليوم .

الجوزة : عند قناة العوني تم في سنة ٧٣٠ هـ هو موجود عامر في العمارة البرانية .

مسجد الافصاب : جدد وزاد فيه الامير ناصر الدين محمد بن منجك وذلك سنة ٨١١ وهو موجود الى اليوم ويسمى بالسادات .

السقيفة : خارج باب توما تم بناؤه في سنة ٨١٤

داريا : انشأه نور الدين محمود بن زنكي الملك الشهيد ، وعمر به ايضا مشهد ابي سليمان الداراني سنة ٤٢٤

قرية المزة : عمره الوزير صفي الدين بن شكر سنة ٦٢٢ ثم بنا في عصرنا هذا مسجداً آخر في تلك القرية في زقاق الصخر يشرف على مناظر دمشق امين افندي الخوجه احد التجار ووقف له دوراً في جانبه تم في سنة ١٣٥٠

الأفرم : المشهور غربي الصالحية تم بناؤه في سنة ٧٠٦ وقد درس وهو في اول طريق حي المهاجرين ، وقد جدده اهل البرمن اهل بخارى في عصرنا هذا ، وتم منارته محمود افندي القوتلي من الأسر الشهيرة في دمشق .

جامع المظفري المشهور بجامع الحنابلة : شرع في عمارته ابن قدام المقدس وكمله المظفر اربل وذلك سنة ٤٩٨ ، قلت هو الذي ذكره الناجي في مولده وانه اول من قرأ المولد ، واعتنى به وبمن صنفه ، واعطى العطايا الجزيلة اليه واكرمه .

العسالي : لأحمد كوجك باشا انشأه سنة ١٠٥٤ للشيخ احمد بن علي العسالي شيخ الخلوتية وشرط في وقفيته النظر لمن يكن مفتي بدمشق .

النيرب : بالقرب من الربوة ، والنيرب من محاسن دمشق تابع بيت لهيا ، ويقال في شرقيه قبر حنه ام مريم ، وليست مريم بنت عمران . وفي تاريخ ابن عساكر ان الخضر عليه السلام يتردد الى هذا المسجد ، يصلي فيه وبنى الطهارة الى جانبه والسوق الذي هناك سنة ٧٣٤ .

ثم قال العلموي رحم الله من كان في ذلك الزمان وهذا الزمان الآن يكاد ذلك المكان لا يعرف ، واذا كان الانسان فيه وقت الظهر ربما يشلح ثيابه وتؤخذ اسبابه انتهى . قلت :

واما في زماننا فلم يبق جامع ولا سوق الا وذهب الأثر ، بتقلب الزمان

والبشر وبقي الأمن والامان . قيل ان به ضريح حنه ام مريم عليها السلام . ذكر ذلك يوسف بن عبدالهادي الدمشقي في كتابه ثمار المقاصد في ذكر المساجد .

ابن العنبري : بدرب الصالحية الآخذ الى الجسر فوق جامع ابن سيباي . قال العلموي : ان هذا المكان الآن لا رسم له ولا اثر . ولا عين سوى هذا الخبر . بانه كان جامع هناك والله اعلم . وقد درس وصار بستاناً يعرف ببستان العنبري وبه محراب خراب .

الحاجب : بني سنة ٨٣٠ هو في الصالحية امام حمام الحاجب قرب مسجد العارف النابلسي .

الحلاج : في حي الميدان على الجادة لم يزل موجوداً جدد بنائه في عصرنا .

المرجاني : بالمزة ذهب اثره ولم يعلم مكانه .

النحاس : شرقي الركنية في الصالحية في بستان النحاس عماد الدين بن عبدالله بني في سنة ٦٥٤ هـ

قلعة دمشق : ويقال له جامع ابي الدرداء . فيه منارة وبركة وعلى بابه سقاية انشاء نورالدين الشهيد وهو باق الى يومنا هذا .

ومن الجوامع التاريخية التي لم تشتهر كثيراً جامع الحشر في الجانب الغربي من القلعة لارغون شاه جدده سنان جاووش يكنيشهري سنة ١٠٠٨

السابقية : في آخر جادة القنوات وهو جامع زيد ابن ثابت الصحابي الجليل كما قيل .

السادات : داخل باب الفراديس وفيه بعض قبور دفن بها من بني حمزة .

منجك : بميدان الحصا انشأه الامير ابراهيم ابن الامير سيف الدين منجك اليوسفي الناصري . واما والده فقد مرت ترجمته في المدرسة المنجكية . وهي التي بالخلخال . فسبحان مغير الاحوال . وله ذرية كبيرة بدمشق اشتهرت به عليهم تولية الجامع والسكن في داره الى اليوم .

ذكر صاحب كتاب الروضتين قال نقلت من خط الشيخ الامين ابي القاسم الحسين الخضر ابن عبدالله الازدي الدمشقي . انه وقف المولى نورالدين بستان

الميدان سوى الفيضة التي من قبليه بعد عمارته واصلاح ما يحتاج اليه على تطييب المساجد التي يأتي ذكرها ، وهي جامع دمشق الشهير وجامع قلعة دمشق ومدرسة الحنفية التي جددها نور الدين ، ومسجد ابن عطية داخل باب الجابية ، ومسجد ابن لبيد بالفسقار ، ومسجد سوق الرماحين ، ومسجد المعلق بسوق الصاغة ، ومسجد دار البطيخ المعلق ، ومسجد العباسي بسوق الاحد ، ومسجد نور الدين بجوار بيعة اليهود وجامع الصالحيين بجبل قاسيون يبتاع بذلك الريع عود وطيب ويفرق على هذه الاماكن وتطيب في الاوقات الشريفة ومواسم الاجتماعات وليالي شهر رمضان والاعياد وايام الجمع والليالي المباركة كل ذلك من جملة حسنات الواقفين واعتنائهم في ذاك العصر .

الجوامع التي استحدثت بعد عصر العلموي والبقاعي

المعلق : وسموه جامع الجديد ، بناه برد بيك خارج باب الفراديس وهو الذي عمر الجسر على نهر بردى غربي التكية الذي زال اثره في هذه الايام وعلى بابه منارة وهي من الآثار في فن المعمار جدد بناءها والي دمشق سنة ١٠٨٥

الشيخ الاكبر : بناه السلطان سليم العثماني وقت دخوله لدمشق ونقل انه لما تم بناؤه قيل عنه انه قال :

الملك لله من يظفر بنيل مني ... يرده قهراً ويلق بعده الدركا
لو كان لي او لغيري قدر انملة ... من التراب لكان الأمر مشتركا

وقد امر باعمار محل لأطعام الفقراء والمساكين شمالي الجامع باقية الى اليوم وبه مدفن العارف الشهير الشيخ محي الدين الطائي الاندلسي ولسان حاله مكتوب على بابه

لكل عصر واحد يسمو به ... وانا لباقي العصر ذاك الواحد

السليمانية : في المرج الاخضر انشأ السلطان سليمان خان من ملوك آل عثمان سنة ٩٠٤ وبه المدرسة والتكية لاطعام الفقراء والمساكين وابناء السبيل وقد الحق في هذا العصر قسم كبير من المدرسة من جهة الشمال الى الجامعة السورية

لأجل تعليم فن الكيمياء والتحليل لطلاب المعهد الطبي بدمشق . وقد دفن فيه في عصرنا السلطان وحيدالدين وغيره من آل عثمان .

السنانية : واقع في جادة باب الجابية . بناه سنان باشا والي الشام سنة ٩٩٩

المرابط : بني حديثاً في الصالحية عند نهاية الجادة الاولى من حي المهاجرين اوصى ببنائه التاجر مراد المرابط المغربي الذي مات عقيماً . وقد سعى في بنائه اخيه علي افندي وتم بناؤه في عام ١٣٤٩ هـ

الدرويشية : بناه درويش باشا احد حكام دمشق في سنة ٩٨٥ هـ وفيه من نفائس القيشاني الباقية الى اليوم وعلى بابه منارة جميلة البناء تعد من الآثار اللطيفة في فن البناء والهندسة . وقال الشاعر في تاريخه (لله فاسجد واقترب في جنة) وقد عمروا انشأ ايضاً حمام القيشاني الذي صار اليوم سوقاً واسمه القديم الاخصاصية

مراد باشا : في حي السويقة بناه وخصص له مرتباً لختم الخاجكان النقشبندي حين كان والياً بدمشق له منبر ومحراب بديعان .

جامع الشنواني : من تجار خان الباشا بناه في جادة الصالحية الجديدة في شارع بستان الوز وتم بناؤه في سنة ١٣٤٩ .

السرايا : بناه عيسى باشا وقد هدم في زماننا آخر حكم الاتراك لتوسيع الجادة والشارع الجديد الذي هو اجمل شوارع دمشق بجماله وحسنه . وقد تقرر ارجاع الجامع الى اصله حقق الله الآمال .

جامع السادات : الذي بناه بنو القوتلي في اول سوق مدحت باشا الشهير .

جامع دك الباب : واقع في طريق الصالحية عند قبر عرنوس . بناه الحاج يوسف ابو علي دك الباب في سنة ١٣١٥ ودفن هناك بقبر خاص . ولهذا المسجد اهمية عظيمة في ذلك الحي ووقف عليه كثير من المال والسبب في بنائه انه ارغم على مشتراة ذلك البستان الذي بني فيه هذا الجامع وكان سبباً لغنائه من ذلك المكان .

العارف الشيخ عبدالغني النابلسي : في الصالحية بناه ابن ابنه الشيخ مصطفى بعد ان كان داراً له وسكناً لتلاميذه وفيه قاعة عظيمة تعد من الآثار النفيسة .

الورد : واقع في حي سوق ساروجه بناه الملك الاشرف برسباي سيفي ملك

دمشق ويوجد فيه الى اليوم المصحف والربعة الذي كان يقرأ بهما سنة ٨٥٣

الشهدا : واقع في طريق الصالحية بني قديما وجدده اهل البر والاحسان في هذه السنة

جامع الحلبوني : في زقاق الملا بناه حسن افندي الحلبوني من تجار دمشق جانب داره الشهيرة تم بناؤه ١٣٤٠ .

الشمسية : في حي المهاجرين انشأه السلطان عبد الحميد خان خاتمة سلاطين آل عثمان وفي زمنه أعلن الدستور وقد جدد جامع الدلبة قبلي عين علي في خان الباشا في زماننا وجدد ايضا جامع سوق السروجية :

جامع جادة حي المهاجرين : بناه نافذ افندي مدير التمليك في دمشق زمن حكم الاتراك :

جامع الآغا : الكائن في سوق المناخلية بناه سنان اغا خارج باب الفرج بينه وبين النهر .

جامع الشيخ نوري الشعلان : شيخ عشيرة الروله في عرب الباديه انشاه سنة ١٣٤٩ جانب داره في جادة الصالحية الجديدة .

الكنائس والاديرة

ولكل طائفة من النصارى كنيسة او اكثر فللروم الارثوذكس ثلاث منها كنيسة مريم العذراء يظن ان بانيها ارقاديوس قيصر وهي اعظمها وفيها مقر البطريرك الانطاكي خربت في ادوار كثيرة وآخر خرابها في وقعه يتمورلنك .

وللروم الكاثوليك ثلاث كنائس عظيمة ايضا كانت الكبرى كنيسا لليهود القرائين فاشتراها الكاثوليك واسست ايام الحكومة المصرية تم بناؤها سنة ١٨٤٠ وفيها مقر البطريركية اليوم .

وللسريان الكاثوليك كنيسة وكنيسة للارمن الارثوذكس واخرى للسريان الارثوذكس واخرى للارمن الكاثوليك وللبروتستانت كنيستان وبها دير للرهبان العازاريين وفيه مدرستان ودير للفرنسيسكانيين وفيه مدرسة ودير للموارنة ولهذه الاديار كنائس فاذا اضيف الى هذه الكنائس كنيسة الصالحية للسريان

الكاثوليك يكون مجموعها ١٧ كنيسة وانشئت في العهد الاخير كنيسة في المدرسة الايطالية بطريق الصالحية واخرى وراء المستشفى العسكري لراهبات الفرنسيسكان وغيرها من الكنائس الصغرى .

وللبهود كنائس عديدة يكاد يكون لكل غني منهم كنيس في بيته خاص به والاماكن المشهورة بذلك تزيد على العشرة ثم اكثر الكنائس في دمشق جددت بعد سنة ١٨٦٠ .

وبهذه المناسبة نذكر الاديرة القديمة منها من بقي اسمه ومنها من بقي رسمه ثم احببت نقل ما كتبه بعض حملة الاخبار في مصنفه قال : ما وجد في التاريخ مستندا يركن اليه في وصف بيوت العبادة عند الاقدمين من سكان الشام ايام كانوا يعبدون الاصنام والاوثان والنيران والهياكل الا ان اليهود شرعوا بانشاء ٢١
بيعة لهم في سبي بابل ولما رجعوا منها بنو بيعتهم في القدس بل عرف التاريخ عن موسى وعن قضاة اسرائيل وداود عليهم السلام واما المسيح عليه السلام والحواريين عرف عنهم شيئا قليلا والنصرانية لم تنتشر في الشام الا في القرن الرابع للميلاد على يد بن قسطنطين باني القسطنطينية وهو الذي بنى كنائس كثيرة بدمشق ونواحيها فخصصت الكنائس والبيع في المدن والامصار واما الاديرة فهي في الصحاري ورؤوس الجبال محل يتعبد فيه الرهبان وبين في اللغة ان الدير هو من الدار والديراني نسبة الى صاحب الدير ونقل المؤرخون انه لما فتحت القدس وجاء الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين ادركته الصلاة لم يرض ان يصلي في كنيسة القيامة لئلا يكون بعده للمسلمين حجة في استصفاء تلك الكنيسة العظيمة بل بنى مقابل ذلك المعبد جامع عمر الذي اشتهر به وبنى بجانبها مصلى آخر .

دير قيس هو في قرية خولان كانت قرية قريبة من الشام وتخربت مع القرى التي خربت وبقي اسمها . دير مق واقعة بقرية كفر العواميد شرقي سوق وادي بردى من اعمال دمشق لم تزل آثارها باقية الى اليوم .

دير وادي القاق ودير مارجريوس هما من جملة سبعة اديرة الواقعين باطراف

قصبة الزبداني وهم معابد قديمة وكان دير مارجرجيوس لعباد الشمس. ولم يزل آثارها ونقش ابوابها باقية الى اليوم وقد امر ببناء ثلاثة اديرة ملك الشام عمرو ابن جفنة وسماها دير صالي ودير ايوب ودير هند . وابنه ثعلبة الملك امر في بناء الغدير في اطراف حوران مما يلي البلقاء وآثاره موجودة الى اليوم .

دير فأخور بارض الشام عند نهر الاردن وهو الموضع الذي تعمد فيه المسيح من يوحنا المعمدان عليهما السلام . ودير العشائر قبلي الزبداني ودير قانون ودير مقرن في وادي بردى الغربي .

وقد اشرنا الى مقام (بولس) الرسول حيث تدلى من السور لما سجن في دمشق وهو باب مسدود له مقام وكذلك محل (حنانيا) الرسول في الزقاق الى يمين الداخل من الباب الشرقي وفيه كنيسة بيد الفرنسيسكان وقربها جامع خرب

ونقل بعضهم عن دير ابان قرب قرحتاء سكنه بعض الامويين وعن (دير بونا) بجانب الغوطة في انزه مكان قال ياقوت وهو من اقدم ابنية النصارى يقال انه بني على عهد المسيح عليه السلام او بعده بقليل وهو صغير ورهبانه قليلون اجتاز به الوليـــد بن يزيد فرأى حسنه فاقام به يوما في لهو ونظم في وصفه ابياتا خلاعية لانحل لذكرها .

(دير محمد) قال ابن عساكر ان عمر بن عبد العزيز يراه اهلا للخلافة واليه تنسب المحمديات التي فوق الارزة ودير محمد الذي عند المنيحة من اقليم بيت الآبار

دير الاسمر قرية من قرى اللجا الجنوبية قرب بصر الحرير من اراضي حوران

دير ايا قيل هو دير بالشام عنده مات ابو قلابة الجرمي سنة ١٠٤ هجرية (ولعلها هي اليوم داريا)

دير بشر عند حجيرا بغوطة دمشق ينسب الى بشر بن مروان الحكيم .

دير الباعقي قبلي بصرى الشام من ارض حوران وهو منزل بحيرا الراهب صاحب القصة الشهيرة مع خاتم الانبياء والرسل عليه الصلاة والسلام وكنت مسرورا يوم قصدت زيارته .

دير باعنتل على مرحلة من قرية جوسية في طريق دمشق من اعمال حمص وهو

على يسار القاصد الى دمشق وفيه عجائب وآثار قديمة منها ابواب فيها صور الانبياء المرسلة محفورة ومنقوشة فيها وهناك هيكل مفروش بالمرمر لا يستقر عليه القدم وصورة مريم عليها السلام في حائط منتصبة كلما ملت الى ناحية كانت عينها اليك .

دير البخت على فرسخين من دمشق كان يسمى دير ميخائيل وكان عبد الملك ابن مروان قصده وقد ارتبط عنده بختاً وهي جمال الترك فغلب عليها وكان لعلي ابن عبد الله بن عباس عنده جنينة يتنزه فيها ولعل القرية التي من الجيدور سميت به ودير سابر ايضاً من نواحي دمشق من اقليم خولان سكنه عمر بن محمد ابن عبد الله ابن يزيد الاموي وبيت سابر قرية في سفح جبل الشيخ بقرب قطنا

دير خالد هو دير صليبا بدمشق مقابل باب الفراديس منسوب الى خالد ابن الوليد لنزوله فيه عند حصاره دمشق وفيه يقول ابو اللقاء

جنة لقبت بدير صليبا مبدعا حسنه كلالا وطيبا
جئته للمقام يوما فظللنا فيه شهرا وكان امراً عجيبا
شجر محدق به ومياه جاريات والروض يبدو اضروبا
من بديع الالوان يضحي به الثا كل مما يرى لديه طروبا

والى جانبه دير للنساء فيه رهبان ورواهب واياه اراد جدير بقوله :

اذا تذكرت بالديرين ارقني صوت الدجاج وقرع بالنواقيس
فقلت للركب اذ جد النجاء بهم يا بعد يبرين من باب الفراديس

دير الخصيان بغور البلقاء بين دمشق وبيت المقدس يعرف ايضا بدير الغور وسمي بدير الخصيان لان سليمان بن عبد الملك نزل فيه فسمع رجلا يشبب بجارية له فخصاه .

دير سمعان بنواحي دمشق في موضع نزه وبساتين محدقة به وعنده قصور ودور وهناك قبر عمر بن عبد العزيز وفيه يقول ابو فراس بن ابي الفرج البزاعي وقد مر به فرآه خرابا ونقل آخر انه يوجد باسمه :

يا دير سمعان قل لي اين سمعان واين بانوك خبرني متى بانوا

وابن سكانك اليوم الاولى تسلفوا   وقد اصبحوا وهم في الترب سكان

دير عطية بنواحي دمشق الى الشمال الشرقي من النبك واقعة بينه وبين تدمر الحيرة وبه تعرف القرية .

دير مارت مريم دير قديم من بناء آل المنذر بنواحي الشام وقال الخالدي بالشام وفيه يقول الشرواني عارت مريم آوي وظل فنائها فقف زعم بعضهم انهم رأوا الحسين يصلي فيه فعمره المنذر .

دير قره بازاء دير الجماجم الذي نزل فيه الحجاج في وقعة دير الجماجم قيل لما نزل الحجاج سأل ما اسم الموضع الذى نزله ابن الاشعث قيل له دير الجماجم فقال تكثر فيه جماجمهم وما هذا الذي نزلناه قيل دير قره قال يستقر فيه امرنا وتقر اعيننا وهكذا كان التفاؤل وهذا الدير منسوب الى رجل من لخم اسمه قره بناه في ايام المنذر بن ماء السماء وقيل الى رجل من بني حذاقة بن زهر بن اياد .

دير مران قال الخالدي انه بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنه وبناؤه بالجص واكثر فرشه بالبلاط الملون وهو دير كبير وفيه صور رهبان كثيرة وفي هيكل صورة عجيبة دقيقة المعاني والاشجار محيطة به وهو في محل قصر يزيد بن ابي سفيان اخي معاوية الذي كان واليا على دمشق من طرف ابي بكر الخليفة وهو مطل على الربوة فوق نهر يزيد ولم تزل بعض آثاره موجودة الى اليوم عند حاكورة السروة وقد لحق الاندثار بالقصر ما لحق بالدير وحسبك من وصفه ما حكاه الثعالبي وغيره .

وروى صاحب قضاة دمشق قال لما وافى المأمون دمشق سنة خمس عشرة ومائتين نزل بدير مران ومكانه المعروف بالسهم الى قرب النيرب خارج دمشق في سفح قاسيون فعمر المأمون هذا الدير وبنى القبة التي فوق الجبل وهي المعروفة الآن بقبة النصر ولم يعثر على اثر لهذا الدير العظيم وكان هذا الدير لقربه من دمشق وجمال موقعه مقصد الملوك والامراء والراغبين في النزهة والشراب قال ابن بطريق ان كنائس الغوطة ودير مران كان المسلمون ينزلونها ويسلفون فيها وقد نزل يزيد بن معاوية دير مران ومات فيه الوليد واجتاز به الرشيد والمأمون

وقد اكثر الشعراء من التغزل به حتى قال يزيد بن معاوية وقد اصاب المسلمين سباء وقتل بارض الروم:

وما ابالي بما لاقت جموعهم بالغذو فدونه من حمى ومن موم
اذا انكأت على الانماط مرتفقا بدير مروان عندي ام كلثوم

ومن جملة ما قيل في هذا الدير قول ابي بكر الصنوبري:

امر بدير مران فاحيا واجعل بيت لهوي بيت لهيا
ويبرد علي بردى فسقيا لايام على بردى ورعيا
ولي في باب جيرون ظباء اعاطيها الهوى ظبيا فظبيا
ونعم الدار داريا ففيها صفالي العيش حتى صار ريا
سقت دنيا دمشق ليصطفيها وليس يريد غير دمشق دنيا
تفيض جداول البلور فيها خلال حدائق ينبتن وشيا
مظللة فواكهها بابها المنـ ـاظر في نواظرها وأهيا
فمن تفاحة لم تعد خداً ومن رمانة لم تخط ثديا

قال الفضل بن سهل للمأمون وهو بدمشق بدير مران مشرف على غوطتها يا امير المؤمنين هل رأيت لحسنها شبيها في شيء من ملك العرب يعني الغوطة قال والبه كتاب فيه ادب يجلو الافهام ويذكي القلوب ويونس الانفس احسن منها

ومن الطف ما قيل فيه ايضا لما نزله الرشيد وشرب فيه ومعه الحسين ابن الضحاك الخليع قال له الرشيد قل فيه شعرا فقال:

يادير مران لا عريت من سكن قد هيجت لي شجنا يا دير مرانا
سقيا ورعيا لمران وساكنه يا حبذا قاطنا بالدير من كانا
حث المدام فان الكاس مترعة فما يهيج دواعي الشوق احيانا

ونقل المصيصي من ابيات ابن ابي حبة الدمشقي قوله .

يادير مران مالي عنك مصطبر وفي فنائك احسان واكرام
دير نعمت زماناً في مسارحه كأن ايامه في الحسن احلام

وقال شهاب الدين العمادي دير مران من منتزهات دمشق في سفح جبل

قاسيون وهو من الاماكن البديعة في الجاهلية والاسلام ومدحه بقوله :

ايا دير مران سقاك غمام تروح وتغدو غيهن سلام
وحياك من دير وحيا معاهداً بمغناك ما ناح الزمان حمام

بقي دير مران عامراً الى القرن الثالث وكان فيه قصر خاردية ايضا وفيه قتل ولحق به ما لحق بغيره .

دير بلودان مر به ابن فضل الله العمري فقال فيه ان بناءه قديم بديع الحسن يقربه قرية بلودان وهي محادية لكفر عامر تطل من مشرقها على جهة الزبداني وفي رواية ان بلودان بالذال المعجمة قال محاسن الشوا :

حييا ساكني بلوذان عني ورجالاً بدير قانون زهرا

دير الحنابلة في تاريخ صالحية دمشق لم يكن في الجبل اي قاسيون الا بناية يسيرة من الناحية الغربية دير ابي العباس الكيفي ودار بيت الضيا وغيرها من الناحية الشرقية دير يقال له دير الرهبان فاتفق انهم احدثوا شيئاً فاخرجوا منه ثم بنى الشيخ ابو عمر مسجد الحنابلة .

دير سعد كان من ديرة الشام نزله عقيل بن علقمة المري وكان يصهر اليه خلفاء بني امية وهذا ما عرف عنه قديماً .

دير هزقل قال الخالدي هو بالشام وذكره دعبل بن علي حين هجا ابا عباد كاتب المأمون فقال :

فكانه من دير هزقل مفلت حنق يجر سلاسل الاقياد

قال ابن فضل الله ولا ادري في اي موضع هو .

دير مياس نقل عنه الياقوت انه بين دمشق وحمص على نهر يقال له مياس واليه نسب وهو في موضع نزه وبه شاهد على عزمهم من حواري عيسى عليه السلام زعم رهبانه انه يشفي المرضى قال الشاعر في قصة البطين الشاعر الشهيرة

يا رحمة لبطين الشعيران لعبت به شياطينه في دير مياس
وافاه وهو عليل يرتجي فرجا فرده ذاك في ظلمات ارماس
وقيل شاهد هذا الدير اتلفه حقاً مقالة وسواس وخناس

أأعظم باليات ذات مقدرة على معضرة ذي بطش وذي بأس
لكنهم اهل حمص لا عقول لهم بهائم غير معدودين في الناس

نقل الخالدي وبالشام دير يقال مارت مريم وهو من قديم الديرة ونزله الرشيد وفيه يقول بعض شعراء الشام .

بدير مارت مريم ظبي مليح المبسم

دير الماطرون بدمشق قال حمزة بن القاسم قرأت على حائط بستان الماطرون هذه الابيات اولها .

ارقت بدير الماطرون كأنني لساري النجوم آخر الليل حارس

ويروى ليزيد بن معاوية شعر فيه :

دير صيدنايا يؤخذ مما قاله صاحب مسالك الابصار انهما اثنان احدهما يقصده النصارى بالزيارة وهو في ضمن القرية . يعرف بدير السيدة وهذا الدير لم يزل عامر الى اليوم يزوره الناس وقد دعيت اليه قديما وبت فيه وقد رأيت اكراماً كثيراً من الراهبات وفي عيد الصليب من كل سنة تجري في قربه اجتماعات وافراح ويأتيه الناس من البلاد المجاورة وغيرها .

والدير الآخر على بعد منها مشرف على الجبل شماليها بشرق وهو دير مارشربين ويقصد للتنزه من بناء الروم بالحجر الابيض وفي ظاهره عين ماء .

دير بونا بجانب غوطة دمشق واقع في احسن مكان ، رياض مشرقه ، وانهار متدفقة . واشجار كثيرة يذكر انه بني على عهد المسيح عليه السلام او بعده بقليل واجتازه الوليد بن يزيد فرأى حسنه وطيبه فأقام به يوما في لهو ولعب وفيه يقول ابو صالح عبد الملك بن سعيد الدمشقي ابيات كثيرة منها :

تمليت طيب العيش في دير باؤنا بندمان صدق اكلوا الظنا
خلعنا عذار اللهو فيه ولم نزل اذا اسرف العذال في العذل اسرفنا
وهان علينا القول في طاعة الهوى فان اكثر اللوم في اللوم هوننا
فسقيا لذاك العيش لو كان عايدا عليه وكنا فيه مثل الذي كنا

يوجد ديران اسمهما نجران احدهما باليمن كانوا يحجون اليه لآل عبد المدان

والثاني بارض الشام في حوران واليه ورد النبي صلى الله عليه وسلم وعرفه الراهب بحيرا وهو دير عظيم عجيب العمارة وله في كل مدينة مناد ينادي من نذر الدير نجران وللسلطان على الدير هدية .

قال صاحب النقل هذا الذي ذكرناه في الاديرة منقول . اما حرفيا او ببعض تبديل من الكتب المتفرقة فكلام اصحابها انما يتعلق بزمان غايته زمانهم وهو مختلف التاريخ بين الواحد والآخر مدة طويلة ولذلك لا يعرف من هذه الاديرة شيءٌ في هذه الايام الا ما ندر والله اعلم وقد كان المسلمون يختلفون الى الديرة يجعلونها محال النزهة لانها في اماكن لطيفة الهواء والمنظر والموقع ·

ثم نزين كتابنا عند ختام بحث الاديرة ما قاله العارف النابلسي في مدح دير مران .

يا صباحا بدير مران راقا ... همت منا القلوب والاحداقا
ومشت نسمة تأمك حتى ... رقصت بالعبير فيك رواقا
واتينا اليك نقطع ارضا ... ملأتنا الى اللقا اشواقا
وسمعنا الطيور تصدح زهرا ... حيث سكران طيبها ما افاقا
وصبا قاسيون تنفح فينا ... سبكت من هبوبها رقراقا
فجلسنا في مجلس مستطاب ... فيه كأس السرور كان دهاقا
ونظرنا من ربوة الشام مرأى ... قلبنا لم يزل له مشتاقا



الباب التاسع

« في اسماء القرى المحيطة بدمشق وقد تقدم في كتابنا ذكر من تخرج ببعضها »
« من العلماء ومن دفن فيها من اكابر الرجال وسنبين لك عدد سكانها ودورها »
« بوجه الاجمال وما في بعضها من الهياكل والآثار وفيه ثلاثة فصول . الفصل »
« الاول فيما اشتملت عليه الغوطة البهجة من اسماء القرى وعدد سكانها ودورها »
« تقريباً . الفصل الثاني فيما اشتمل عليه وادي بردى من القرى . الفصل الثالث في »
« اسماء القرى التي هي على ضفاف وادي معربا الى نهـــايته » ؟

تقسم دمشق الى ستة اقضية مربوطة بها في زماننا هذا وهي: دوما النبك، قطيفة ، جيرود ، الزبداني ، وادي العجم والقنيطرة . وكل واحد من هذه الاقضية يقسم الى نواح مختلفة ويدخل ضمنه قصبات من القرى كما سيأتي بيانه وقد فصلنا لك ذلك الى ثلاثة فصول الفصل الاول منها فيما اشتملت عليه الغوطة من القرى .

فنقول : هي تبدأ من فم وادي دمشق في الربوة الى الشرق وتنتهي في اراضي المرج راهط ومساحتها تقريبا ستون كيلومتر مربع كلها مشجرة باشجار مثمرة مختلفة الاشكال والانواع وبها قرى كثيرة منها في الخط القبلي ومنها في الخط الشمالي اما التي هي واقعة في الغرب من الخط القبلي فهي المزة في العبرانيـــة معناه الخوف وربمـــا هي يونانية بمعنى التلة او الربوة وقربها الربوة المدينة الخربة الآن بعد احراق الصليبيين لها وهي قريبة من دمشق وعدد سكانها اربعة آلاف نسمة او اكثر وبها جامع ومساجد كثيرة ومدرسة وحمام السعودي وبها ضريح الصحابي دحية الكلبي وكثير من العلماء وبعض من الآثار النفيســة والمعالم الشهيرة تقصدها اعيان دمشق للاصطياف ولهم فيها قصور عالية وسميت بالشام الجديدة وقد احدث بها الافرنســيون مطاراً للطيارات وقلع ومتاريس ومواقع عسكرية وبنايات للسكن وجميع اراضيهـا موقوفة من قبل

السلطان سليمان . وبقربها كفرسوسة وعدد سكانها خمسة آلاف او اكثر وبها جامع عظيم يخطب فيه الشيخ محمود العطار احد علماء دمشق اليوم وبها قبور حمراء اليمن والشيخ سراج الدين ابن الوردي وبقربها القدم وهي قرية لدمشق متصلة في مركز الخط الحجازي وعدد سكانها الفان او اكثر وبها جامع حجر القدم ومدرسة اهلية وبقربها حوش بلاس والاشرفية ومن قرى القبلة داريا الكبرى وهي شهيرة امتازت بعنبها وانواعه كما تقدم ذلك في محله من كتابنا وموقعها الى الغرب الجنوبي من دمشق وتبعد عنها ثمانية آلاف متر وعدد سكانها عشرة آلاف نسمة او اكثر والقسم الاعظم من اهلها مسلمون قال المؤرخ ابن طولون الدمشقي ان اكثر ارضها موقوفة من قبل السلطان نور الدين الشهيد على طلبة العلم وبعضها موقوف من قبل السلطان سليمان العثماني وبها ضريح الخولاني والداراني وبعض من الآثار وبها جامع ومدرسة ومعاصر للزيت وكان بينها وبين قرية المزة قصور ملوك العباسيين وقد ذهب رسمها وبقي اسمها منها قرية القصور والبرج والقبيبات والايوان اى اللوان والمزاز العراقي . وبقربها المعضمية ، الجديدة ، سبينة ، يلدا ، بابيلا ، وبيت سحم ، جرمانا ، بلاط وعقربا ومن اهمها واشهرها بالعمران المنيحا وهي قرية كبيرة تقدمت على غيرها بالمدنية وعدد سكانها خمسة آلاف او اكثر وبها جامع ومكاتب اهلية وبقربها زبدين وهي قرية كبيرة يبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف او اكثر وبها جامع ومدرسة اهلية ومنها دير بعدل ، الخياره ، بيت نايم ، شبعا ، قبر الست (واسمها راوية) وبزنيه .

واما خط القرى الشمالي الشرقي فاشهرها القابون بمعنى ابينا لدير وهي قرية من دمشق اشتهرت بلطافة منظرها وطيب هوائها وهي مقصودة للاصطياف بها من جميع اهالي دمشق وعدد سكانها ما يقرب من الف نسمة ، وبها جامع ومدرسة اهلية ، وبقربها حرستا بمعنى الشمس او حوراسم الله وموقعها الى الشمال الشرقي من غوطة دمشق وتبعد عنها ستة آلاف متر ولا يقل عدد سكانها عن ثلاثة آلاف نسمة ، وبها مدرسة ومسجد ، ومن اشهرها ايضاً عربيل أو عربين وموقعها الى الشرق من دمشق تبعد عنها ثلاثة آلاف متر ولا يقل عدد سكانها عن سبعة آلاف

نسمة . وفيها جامع عظيم يخطب به الشيخ محمد عبده . وهو العالم الوحيد في القرية يرشد الناس لأمور دينهم . وقد مات في هذه السنة . وبها كنيسة ومكاتب اهلية ومن اهمها جوبر والفارسية منجويبار بمعنى سيل النهر الصغير . وموقعها الى جهة الشرق من دمشق وتبعد عنها ثلاثة آلاف متر وعدد سكانها احدى عشر الف نسمة وتخرج منها كثير من الافاضل وقد عرفنا منهم في عصرنا الشيخ احمد الجوبري احد علماء دمشق ومن ائمة الشافعية في جامعها . تخرج على يده كثير من مدرسي الجوامع وخطبائها وقد اهتم لتعليم كثير من اهل قرى الغوطة في نشر العلوم الدينية كما اهتم المحدث الشهير الشيخ بدر الدين المغربي الحسني وتلميذه العالم النحرير الشيخ علي الدقر في نشر العلوم الدينية في حوران وتشويق اهلها لاخذها وبهذه الواسطة انتقل العلم من بيوت دمشق اليهم وكاد ان يفقد . وبها جامع يقال له مسجد النبي ومدارس اهلية . قال ابن طولون المؤرخ الدمشقي انه كان اكثر اهلها من اليهود يسكنونها حتى القرن الخامس عشر الميلادي . وبها كنيس لهم . ومن اهمها ايضا دومة التي هي مركز القضاء اليوم وتبعد عن دمشق ثمانية آلاف متر وعدد سكانها اثنا عشر الفا او اكثر ولا تخلو في كل وقت من شعراء او ادباء وخرج منها كثير من علماء الحنابلة وكثير من اهلها اغنياء يميلون لاكرام الضيف وبها لبعض اعيان دمشق مزارع كثيرة وقصور شهيرة وبها جادة جميلة وفي نصفها الجامع ويقرب منه المدرسة الاميرية والمدارس الاهلية وبها العنب والزبيب ومن القرى الكبيرة ايضا حمورية عدد سكانها ثلاثة آلاف نسمة او اكثر . وبها جامع ومدرسة اهلية نقل ابن طولون المؤرخ الدمشقي انه كانت هذه القرية وقفا على اولاد الملك الظاهر وبوسعها كفر بطنا . سقبا . واما زملكا . العبادية . المحمدية . حزة . الافتريس تحريف فاراتريس اي ضارب الاعداء . ومبدعم وعين ترما اي الحة وهي العين الحارة المياه . جسرين . بيت سوا . ومديرة فهي اصغر القرى في الخط الشمالي الشرقي .

ولا تخلو جميع هذه القرى في الغوطة من آثار قديمة وبعض قبور الصالحين

وانه خرج منها رجالا ، في كل عصر لا يستهان بهم منهم العلماء والحكماء يتناقلهم المؤرخون في كل عصر ، وتقدم في كتابنا ذكر الكثيرين منهم وقرى الغوطة قليلة اليوم بالنسبة لما كانت عليه في الاعصر السالفة وكثير منها درس وذهب رسمه وما بقي الا اسمه وقد ذكر عن ذلك ابن طولون الدمشقي في رسالة له سماها الغوطة ، في بيان اسماء واحوال قرى الغوطة ، ثم نقل في هذه الرسالة عن كتاب سفر السعادة ان جلق لقب دمشق وانه اسم معرب وهو دمشق ذكر بعض حملة الاخبار قال انما سميت دمشق بذلك لان الجلق هي المرأة الرتقاء :

وانبئت ان ظبية جلق تجوب الصفا العار مالا يجوبها

ثم قال وشرقي دمشق قرية يقال لها الذنوبة فيها صنم على صورة امرأة رتقاء مطبقة الفرج يخرج الماء من فيه واذنيه وعينيه الى بركة هناك وجلق اسم لهذا الصنم ثم سميت مدينة دمشق بذلك وهذه القرية كان ينزلها في الصيف يزيد بن معاوية

وبعد قرى الغوطة المرج راهط وهو الى الجهة الشرقية منها يبتدئ حيث تنتهي الغوطة وينتهي في البادية واهم قراه عذراء ، ميدعا ، البحارية ، حزرما البصل ، الغريفة ، الجرباء ، العبادة ، دير سلمان ، حوش الصالحية ، والقاسمية واما جهة المرج الجنوبية فاهم قراها الهيجانة ، تل مسكن ، الغزلانية ، قارحتا ، العتيبة ، النشابية ، حران العواميد والبلالية ، وكل هذه القرى يبلغ عدد سكانها خمسة آلاف نسمة او اكثر واكثر هذه القرى ملك لبعض اعيان دمشق ،

الفصل الثاني فيما اشتمل عليه سوق وادي بردى من القرى ، يبتدأ من الربوة الى الشادروان المقصف الشهير بلطف موقعه ومنه الى قرية دمر التي بناها دمر ، وهي تبعد عن دمشق سبعة آلاف متر ، وعدد سكانها ما يقرب الف نسمة ، وبها قصور كثيرة لبعض اعيان دمشق للاصطياف ، فيها كثير من المقاهي والمقاصف ، تقصدها الناس وتبلغ دورها مائتين او اكثر وبها مسجد ومدرسة اهلية، ويقع غربيها قرية ادميا الشهيرة بطيب هوائها وعلوها وقد شيد بها في عصرنا قصراً جميلا نزيل دمشق السيد آغا جعفر من اعيان فارس والعراق ثم من بعدها قرى وادي العجم ويليها قرية الهامة تبعد عن دمشق احد عشر الف متر

تقصدها الاغنياء للاصطياف وعدد سكانها الف نسمة او اكثر وتبلغ دورها مائتين . وبها الجسر الروماني القديم فوق نهر بردى وبعض من الآثار القديمة الواقعة قرب مزرعة حرايا الشهيرة بقدمها وطيب هوائها المذكورة في كتب المؤرخين والموصوفة عند الشعراء. قال في معجم البلدان : وفي دمشق قرية يقال لها حرايا او جرايا بين الهامة والاشرفية كانت مصيفا قديماً لملوك دمشق وقد وقف احد الملوك هذه القرية وجعل ريعها لأحد مدارس دمشق ولبعض علمائها ووصف هذه المزرعة ايضا صاحب شذرات الذهب . وقد عثرت على قصيدة مطبوعة رقيقة المباني ، لطيفة المعاني . لشاعر زمانه ابي القاسم الحسين الواساني تتضمن ذكر الدعوة التي عملها في قرية حرايا من عمل دمشق ويليها مزدوجة غرا وغادة هيفاً للشاعر البارع ابي محمد الحسن بن وكيع التنيس تتضمن ذكر الفصول الاربعة بها ولولا الاطالة لذكرناها برمتها لكن نذكر بعض الشيء منها تفكهة للقرا. قال بعد وصف الجوع التي حضرت من سائر الاصقاع لاجل قرانه .

قصدت هذه الطوائف حرا ... يا لحتكي وثلتي وامتحاني
قلت ما شأنكم فقالوا اغثنا ... ما طعمنا الطعام منذ ثماني
نزلت حجرتي واطلقت الاضرا ... س بين الرطبان والفصلان
اكلوا لي مع الجداء ثلاثيـ ... ن قريصا بالخل والزعفران
اكلوا لي كشكية قرحت قلبي ... وهاجت لفقدها اشجاني
اكلوا لي سبعين حوتاً من النهـ ... ر طريا من اعظم الحيتان
اكلوا لي من القريشاء والبر ... ني والمعقلي والصرفان
ومن البيض والخلال ما تعجـ ... ز عن جمعه قرى حوران
فتتوا لي من السفرجل والتفا ... ح والبرازقي والرمان
والرياحين ما رهنت عليه ... جبتي عند احمد الفاكهاني
درسوا لي من البنفسج والنرجـ ... س ماليس مثله في الجنان
ذبحوا لي بالرغم يا معشر النا ... س ثمانين من معيز وضان
افقروني وغادروني بلا دا ... ر ولا ضيعة ولا بستان

اكلوا كل ما حوته يميني وشمالي وما حوى جيراني
هل سمعتم فيما سمعتم بانسا ن عراه في دعوة ما عراني
اسعدوني يا اخوتي وثقاتي بدموع تجري من الاجفان
لم يكن ذا القران الا على شؤ مي فويل من نحس ذاك القران

ويقربها قرية جديدة الوادي وهي تبعد عن دمشق خمسة عشر كيلو متر يبلغ عدد دورها ما يقرب المائتين وعدد سكانها ستمائة نسمة او اكثر وبها جامع بخطبة ومدرسة اهلية يقصدها الناس للاصطياف . وبها طاحونة كبيرة على البخار وقد احترقت مع بعض دورها عند نكبات دمشق . ويقربها اشرفية الوادي وقد مدحها كثير من الشعراء وذكرها المؤرخون واني عثرت على مؤلف في حقها للامير محمد بن يوسف قاتباي سماه الاشارة الوفية . في خصائص الاشرفية . تقصدها الناس الى اليوم للاصطياف بها ، وهي قرية صغيرة يبلغ عدد سكانها خمسمائة نفس ، وعدد دورها ما يزيد عن المائة ، وبها مسجد ومكتب اهلي وبقربه جسر قديم روماني فوق نهر بردى وهو الطريق الموصل الى قناة الماء التي حفرت في عهد بلقيس في ذيل الجبل وقد قال الشاعر في حقها :

الشـــام جنة خلد فيها رياض زكية
حوت المحاسن طرا لا سيما الاشرفية

ويقربها قرية بسيمة ، وهي اشهر منها وامتازت عليها بطيب الماء ، وحسن الهواء ، واقعة في ذيل الجبل يمر من جنائن بعض دورها ماء عين الخضراء الشهير المقصود من سائر الاصقاع ، وقد ثبت عند اهل الفن بان ماء هذا العين اطيب وافيد من ماء عين الفيجة ، وهي صغيرة واجمل موقع من بين تلك القرى يقصدها اهل دمشق للاصطياف .

ويليها قرية عين الفيجة واسمها الفيجاء بيجة بمعنى الينبوع . وهي قديمة العهد يخرج ماؤها من اسفل جبل ، وبجانبها المعبد الباقي اثره الى اليوم وقيل انه مكرسا لاله النهر وقد اشرنا اليه في محله من كتابنا . وبها جسر قديم من قبل عهد المسيح عليه السلام وبعض من الآثار النفيسة والمعالم القديمة الباقي اثرها الى اليوم

ويبلغ عدد دورها ما يقرب المائتين ويزيد سكانها عن الستمائة نفس ويقصد الناس ماءها من جميع البلدان لمشاركة نبعها الشهير الذي تسقي دمشق منه ، وامتازت ببرودة مائها ولا يمدح هواؤها . وبها مسجد ومكتب اهلي وهي تبعد عن دمشق تسعة عشر كيلو متراً .

ثم يليها القرى الصغيرة وهي دير مقرن او مقرم ، كفير الزيت ، دير قانون ، الحسينية ، كفر العواميد ، برهليا وسوق وادي بردى . وفي منتهاه معمل ومولد القوة لشركة الجر والتنوير الكهربائي بدمشق . وفي ذلك المحل تلول من عظام متحجرة بقيت من عهد الرومان ، ويقربها موقع التكية الذي كان قديماً محل بناء لقرية عظيمة سميت التكية لانه كان يأوي اليها الفقراء وكل عابر سبيل وآثارها لم تزل باقية الى اليوم هنا ينتهي الوادي المار فيه الخط الحديدي الواصل بين دمشق وبيروت وبعد ذلك الموقع لمسافة قليلة على ذيل جبل قرية صغيرة اسمها الجرجانية ، وتصعد منها الى قريتين متقابلتين شهيرتين بلطافة موقعهما وطيب هوائهما وهما مضايا وبقين ، ويصعد منهما الى قرية بلودان وفي تلك القرى منابع العيون الشهيرة بخفتها وبرودتها ، وبها المناظر الطبيعية النضرة المطلة على الزبداني يقصدها المصطافون من كل مكان وبها قصور فاخرة للأعيان ، يزداد عمرانها في كل آن .

وقد شيدت الحكومة الوطنية في عصرنا فندقاً كبيراً على حسابها في قرية بلودان لينزل به المصطافون ، قصدت في بنائه مصلحة القرية وتحسينها فقط غير ملتفتة لتحسين غيرها من القرى المجاورة لها ومشاركتها بما صرفته عليه من اموال الخزينة بدون حساب ، بدعوى ان هذه القرية احق من غيرها في التحسين لطيب هوائها وعذوبة مائها وانها مقصودة في ايام الصيف من سائر البلاد ، وفيها جامع بخطبة جدد بناءه ابن جبر احد تجار بيروت ، وبها مدرسة اميرية ومدارس اهلية ، وبها كنيسة ومعبد قديم ، وعدد دورها مايزيد على الخمسمائة وارتفاع هذه القرية عن سطح البحر الف وخمسمائة متراً ، واكثر سكانها من الطائفة المسيحية وبها قصور جميلة حديثة البناء لاغنياء دمشق وبيروت وهي

بطرقاتها اجل القرى المجاورة لها وفواكهها اطعم الفواكه الموجودة في تلك الجهة مقصودة للتنزه من جميع البلدان والجهات .

ويلي هذه القرى مدينة الزبداني وهي مركز القضاء اليوم وعدد سكانها سبعة آلاف نسمة او اكثر وبها جامع بخطبة ومسجدان ومدرسة اميرية ومدارس اهلية واسر وجيهة قديمة وبعض من الآثار الظاهرة اثرها الى اليوم وعدد دورها ما يقرب الألف وبها كنيستان وقد بنت الحكومة بها حديثاً مدرسة كبيرة للتعليم ومستوصفا عظيما لأمور الصحة ومتنزها لطيفاً للمصطافين امام المحطة جعلت فيه اجمل الرياحين وبركة ماء وفوارة وبنى بعض اعيان دمشق قصوراً جميلة لهم .

الفصل الثالث : في ذكر اسماء قرى جبل قلمون التي هي على ضفاف وادي معربا الى نهايته . نبدأ في ذكر اول قرية منه وهي برزة تبعد عن دمشق ثلاثة ٢١
آلاف متر وموقعها في آخر سفح جبل قاسيون واول جبل قلمون في مكان صحي تشرب من جدول معربا المستمد من عين منين وعين الصاحب وغيرهما . وتحتوي هذه القرية على ثلاثة آلاف نسمة وفيها جامع بخطبة ومدرسة اميرية واهلية ، وبها مقام ابراهيم الخليل ، وقد تقدم ذكره في كتابنا ومن برزة يمتد مضيق طويل بين جبلين يجري في يساره ماء معربا وينتهي عند الجسر وهو اول قرية معربا بمعنى المغرب وموقعها متناسب مع برزة . هواؤها لطيف ، وماؤها خفيف تبعد عن دمشق مسافة ساعتين ، عدد سكانها الف وخمسمائة نسمة وفيها مسجد ومدرسة يجري بها ماء عين الصاحب الممتزج مع مياه عدة اعين ، ويليها بعد كيلومترين قرية التل الراقية في ابنيتها ، واقعة على ظهر جبل وهي اكبر قرية في تلك الانحاء يبلغ عدد سكانها اربعة آلاف نسمة وتحتوي على جامع واسع انشيء على نسق الجامع الاموي بدمشق . وبها مدرسة أميرية حسنة البناء جيدة الموقع وثلاث مدارس اهلية وقد برع اهلوها في صناعة البناء حتى اصبحوا يشيدون اعظم ابنية دمشق ، ومنهم من يشتغل بنسج الخام . وتجري منها عين منين ويليها بعد ثلاثة كيلو متر قرية منين ومعناه رجل كبير او من مي بمعنى الحجر فتكون بمعنى الخرس ، وفيها ما ينيف على ثلاثة آلاف نسمة اكثرهم يتعاطون الصناعات الحيوية والعمرانية

والبنا . وينبع فيها العين الشهيرة بها . ولها جداول عديدة ضمن البلدة تحدث مقاصف جميلة . ومواقع لطيفة . قد اتفقت الكلمة على حسن مائها وخفته . وبها جامع تقام فيه الجمعة يباهي جوامع المدن . وبها مدرسة اهلية ومسجد صغير على ضفة العين البراقة وجسر عظيم قديم يمتد الطريق منه الى صيدنايا والى المعرة حيث توجد الآثار القديمة . وارتفاع منين على سطح البحر ٣٨٧١ قدماً وتعلو عن دمشق الف وستمائة قدم . وفي جبالها من آثار الرومانيين قبور متنوعة منحوتة في الصخور . عليها بعض كتابات تاريخية يجدر بالزائرين رؤيتها وهي تبعد عن دمشق ثلاث ساعات ونصف وقريب منها عين الصاحب . ومنها الطريق الموصل الى قرية حلبون وبها المنارة العالية المتحولة عن قلة ناقوس . وبجانبها الجامع المجدد بناؤه والعين السخية التي تجري من تحته . والاعمدة الحجرية الجسيمة المحاطة بها . يبلغ عدد نفوس سكانها ما ينيف على الالفين . وصناعة اكثر اهلها نسج الاعبية الصوفية ونقل الثلج من الجرد . الى دمشق . وفي اكنافها منابع جمة منها عين الفاخوخ وعين الحمة وكلهن يلتحقن بعين الصاحب . ويشاهد المتجول فيها من الآثار والاحجار الضخمة والاعمدة وقواعد العضادات الجسيمة والمنقوشة . وهي مستعملة الآن ضمن البيوت وفي جدران الحدائق.

ومن قرى قلمون الاعلى دير عطية وعدد سكانها سبعة آلاف نسمة ثلثهم مسيحيون وبها جامع وكنيسة ومن قراه ايضاً يبرود وهي اكبر قرى الجبل . وعدد سكانها ثلاثة عشر الف نسمة ربعهم مسيحيون وفيها عيون كثيرة وبها جامع بخطبة ومدرسة علمية وابتدائية ومدرسة للروم الكاثوليك وفيها كنيسة للروم الارثوذكس يقال انها بناء الملكة هيلانة . ومن قراه الشهيرة ايضا صيدنايا: وفيها دير كبير لطائفة الروم الارثوذكس . يقال انه من بناء جوستانوس الروماني ويقصده قبيل عيد الصليب كثير من نصارى لبنان وجبل قلمون ودمشق وفي جميع البلاد . يشاركهم رهط كثير من الاسلام ومن القرى المشهورة ايضا القطيفة : وتبعد عن دمشق ٣٧ كيلو متر وبها مسجد وكنيسة ومدرسة اهلية وعدد دورها ما يقرب المائة . ومن اشهرها ايضا جيرود : وهي مركز القضاء

ويغرب القصبة مستنقع كبير يستخرج منه الملح ويبلغ عدد سكانها خمسة آلاف نسمةوبها جامع وكنيسة ومدرسة اميرية واخرى اهلية. ويقدر دورها بخمسمائة بيت او اكثر وقد انتقل مركز القضاء اليوم الى قرية القطيفة لكونها على الطريق.
ومن اشهرها ايضا النبك: وهي مركز القضاء اليوم وموقعها شمالي دمشق وتبعد عنها ٧٧ كيلو متر ، وعدد سكانها سبعة آلاف نسمة اكثرهم مسلمون وفيها عيون ماء ومدارس وجوامع وكنائس مختلفة ، وفي مزرعة قلدون الواقعة على يمين الطريق جنوبي النبك اناس من التركمان يتكلمون الى اليوم باللغة التركية المحرفة ، كما ان اهل معلولا وجبعدين ونجعا يتكلمون باللغة السريانية المحرفة مع معرفتهم اللغة العربية ، وهذه القرى الثلاثة هي التي احتفظت باللغة السريانية في عموم سوريا . واما بقية قرى جبل قلمون الاعلى فهي رنكوس ، حوش عرب ، عيال ، طفيل ، الجبة ، قاره ، عرسال وجبعدين وهن صغار بالنسبة لغيرهن من القرى الكبيرة الشهيرة . ومن قرى القلمون التحتة : التواني ، عكوبر ، بدا ، جفير الفوقا والتحته ، معلولا ، المعضمية ، الرحيبة ، ضمير ، معرونا ، تلفيتا ، والعطنة الدريج ويبلغ عدد سكان هذا الجبل نحو سبعين الف نسمة اشتهروا بجمال الخلقة ، منهم عشرة الاف نسمة مسيحيون ، والباقون دينهم الاسلام وقد اشتهر جبل قلمون بآثاره ومعالمه القديمة ، وفيه آثار وعاديات ضخمة يونانية ورومانية ولا تزال ماثلة آثارها الى اليوم مثل النواويس المحفورة في الصخور تشبه نواويس منين ، عين الصاحب ، معلولا ، يبرود وقاره .
وفي شمالي يبرود قصر (بردويل) وبقاياه ماثلة الى اليوم مع الرواق العظيم وفي قبلي معلولا عين التينة وفيها شجر الفستق الشهير الذي فاق بحسنه فستق حلب وله شهرة زائدة في سائر البلاد وقبول تام ، لكن يا للاسف لم تعن السكان في حفظ تلك الاشجار والذي يفقد منها لا يعوض غيره ، والحكومة غير ملتفتة الى تلك الواردات العظيمة لو اخذت عشر ثمارها .
نقل الفاضل جرجي زيدان صاحب دار الهلال في مصر قال يقدر سكان دمشق بنحو ثلاثمائة الف نفس اكثرهم من المسلمين . العرب بينهم اخلاط من الاتراك

والشركس وغيرهم لكن اكثرهم توطنوا دمشق وتوالدوا فيها فصاروا يعدون عربا ، وفيهم طائفة من المهاجرين لم تتأصل عربيتهم بعد ، منهم بضعة آلاف من الاكراد ونحو ذلك من المغاربة وغيرهم اما غير المسلمين فهم المسيحيون وعددهم ٢٥٠٠٠ واليهود نحو ١٥٠٠٠ وشرذمات من سائر الملل، والثروة اكثرها في يد المسلمين وهم اصحاب الابنية والمزارع واكثر مزارعهم في الغوطة. والدمشقيون واهل الغوطة اهل لطف وكرم ودماثة اخلاق وضباقة ، وهم يشبهون اهل القاهرة من حيث رقة الجانب وسهولة الخلق.

نذكر ما ورد نظما في بعض قرى دمشق وما ورد على السنة الشعراء في مدحها عما طاب منه ، قال العارف النابلسي الدمشقي في قرية حلبون موالا لطيفا مطلعه :

انزل بحلبون حول الماء والوادي بين التشابيك من اقفاص اعواد
والوقت راق وقد رقت جوانبها كانما هي في تجديد ايجاد
ولا حسود ولا واش يكدرنا
فقف هناك على الوادي وقل طربا لله درك ما تحويه يا وادي

وقال وهو في حديقة العمادية بالقرب من القابون في دعوة المولى الهمام محمد افندي العمادي مفتي دمشق وذلك في سنة ١١٢٠ من قصيدة لطيفة مطلعها :

حدائق جنة لبني العماد حوت لظريف جلق والتلاد
زهت باجل مولى زاد فخرا له غرر العلوم اجل زاد
وزارته الاكابر من دمشق زيارة كعبة حج العباد
وبيت العز طال له عماد وقد اربي على ذات العماد
حماه الله من سوء وابقى له شرفا هنالك في ازدياد
على امد الزمان بلا انتهاء يوفق للهداية والرشاد

وله ايضا في مدح قصر لهم من قصيدة مطلعها :

وقصر قد تعلق في الهواء فاصبح نزهة لعيون رائي
ولا تحفل بزيد او بعمرو والق الكل في بحر الفناء
وكن مستغنيا بالله واقنع بما يولي اليك من العطاء

وقال في قرية حرستا من قرى الغوطة :

رب يوم بحرستا رطب وسط روض بالصبا مضطرب
وعقود الكرم لما انتظمت فتدلت بعقيق الرطب
سترتها حلة من ورق اخضر خوف عيون العرب
هذه اللذة من فارقها صار يفديها بام واب

وقال في عين الصاحب حين غار ماؤها :

لئن عين في الرياض تفجرت واتت بكل عجائب وغرائب
وجرى بها ماء زلال رائق غارت وحقك منه عين الصاحب
ارى ماء عين الصاحب العذب غائرا فقلت لماذا قيل شأن المصاحب
قسا الصخر حتى لم يعد عطف صاحب على صاحب فانظر الى عين صاحب

وله في المزة حين دعاه اليها اهلها مع جماعة من الاعيان :

في قرية المزة جئنا ها باكرام وعزة
واكلنا التين فيها هو حلو وهي مزة

وقال في مدحها نجم الدين الطرسوسي :

اهواك يامزة الفيحاء اهواك اهوى هواك وماءك البارد الزاكي
قد طفت في البر والبحر المديد فلم ابصر جمالا وحسنا مثل مغناك
نباتك الطيب والازهار اجمعها ولم اذق قط طعما مثل مجناك
انهارك كرحيق السلسبيل جرى بين الرياض ونشر المسك رياك
فالحمد لله مولانا وسيدنا اذ خصنا وحبانا طيب سكناك
ثم الصلاة على المختار من مضر خير البرية من عرب واتراك

ومما قاله في قرية داريا الكبرى وكان مع جماعة من الاعيان :

ياليلة نامت عيون زماننا عنا بها وعيوننا ايقاظ
ولنا قلوب بالسرور تقلبت ولنا الى وجه المنى الحاظ
وكأن داريا فم غنت بنا وكأننا لغنائها الفاظ

وقال يوما لما مر في عقبة بيلان :

قطعنا عقبة البيلان ليــــلا وجاوزنا الجبال من البلاط
ولم نحصل على عبث ولكن تعلمنا المرور على الصراط

قال وقد ذهب مرة الى قرية الزبداني وانشد مادحاً ماءها واحد بساتينها :

جنينة في اصلها جنة وصفرت لما جناها اتى
اطاب بها للناس برد الهوا ولذ حتى حرها شتتا
واهلها في الشام في لذة الناس في الصيف وهم في الشتا

وقال حين مروره في واديها :

وادي دمشق الذي يعزى الى بردا اليه كل فؤاد في الهوى صاد
فيه المياه هي العذب الزلال مشت على الحصا بين اهباط واصعاد
فياله في الورى واد لطيف شذا طلق الجوانب اضحى نزهة الغادي
لما نسيم به قد فاح قلت له لله درك ما تحويه ياوادي

وقال في مدح قرية منين من وادي معربا :

هـــذه قرية هواها هواء الصيـ ـف اضحى والماء ماء الشتاء
وحكت ارضها الربيع اخضراراً وخريف بيوتها للرائي
فلها الاربع الفصول تبدت جملة فهي نزهة العقلاء

ثم قال ذهبنا يوما في اواسط الربيع مع جماعة من اخواننا الى قرية المزة ، فكنا في بستان يقال له الحرة ، فقلنا في التين الذي هناك .

بالمزة التين زاك في حلاوته كفوف اوراقه مدت على الاسل
لمــا تبسم في اغصانه سحرا سالت مراشفه بالقطر والعسل

وقال مؤرخا عمل جنينة للشيخ الفاضل اسعد المعروف بابن الطويلة في قرية المنيحة من قرى دمشق في الغوطة :

منحتنا المنيحة الروض ريا زائد الابتهاج طلق المحيا
وحبتنا بكل لطف وانس كشفت للقلوب سراً خفيا
يا لها من جنينة السعد فيها اسعد الفضل حاز قدراً عليا
روضــة تنشر الرياض نشراً وهي تطوي عرف الازاهر طيا

انها جنة النعيم فأرخ ضاحكا بكرة بها وعشيا

وقال قاضي القضاة محي الدين الشهرزوري قاضي حلب من قصيدة ينشد بها دمشق :

يا نسيم الصبا العليل تحمل حاجة المتيم المستهام
عج على النيربين فالسهم فالمزة مسترسلا بغير احتشام
وتعثر بكل روض انيق ضاحك الزهر من بكاء الغمام
وتحمل ري البنفسج والنرجس والصيمران والنمام
ثم قبل ثرى دمشق وبلغ ساكنيها تحيتي وسلامي
وتحدث عن لوعتي بلسان الحال ان لم يكن لسان الكلام

ومما يستملح نقله من العبر ما رواه المؤرخ ابن طولون الدمشقي : ان الدنيا امد ، والآخرة ابد . ونقل ان عيسى بن مريم قال : يامعشر الحواريين كلوا خبز الشعير واشربوا ماء القراح ، واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين نحو ما اقول لكم ان حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ، وان مرارة الدنيا حلاوة الآخرة . وان عباد الله ليسوا بالمتنعمين نحو ما اقول لكم . وان شركم عالم يؤثر هواه على عمله ، يود ان الناس كلهم مثله ما احب ان عبيد الدنيا ان يجدوا معذرة ، وابعدهم منها لو كانوا يعلمون .

وقيل انه مكتوب في التوراة : تسع خصال في تسع رجال . الخبث في الاشقر ، واللجاجة في الاحول ، والشؤم في الاعور ، والغفلة في الطويل ، والظرافة في القصير ، والكياسة في الكوسج ، والحماقة في السمين ، والشطانة في الاحدب ، والتكبر في الاعرج ، « خص ما شاء بما شاء ، ولله في خلقه شئون »



الباب العاشر

«في ذكر ما في دمشق من الآثار القديمة الباقي اثرها الى اليوم والتي يقصدها المستشرقون »
« وفي ذكر معالمها المشهورة ، ومعاهدها المأثورة ، واقوال المؤرخين في وصفها »
« وبيان تقسيم انهارها ، وذكر حماماتها واسواقها ومتنزهاتها وحدائقها ، وما فيها »
« من الظلال والثمار والازهار التي تفوق الحصر ، مما قد لا يوجد له نظير في »
« سائر الجهات والاقطار ، وذكر اوديتها واسماء العيون التي فيها »

ان مدينة دمشق هي اقدم مدن سوريا كما تقدم ذكره في كتابنا . حتى ان استرابون المؤرخ الشهير ذكر مغاورها في الاعصر السالفة ولا تزال آثارها فيها وحولها ، فلهذا كانت هذه المدينة الغريقة في القدم اشهر مدن سوريا وافخمها آثاراً . ما عدا مدينة بعلبك وتدمر ، ولقد ابتها آثار قصر الكرنك المحفور على جدرانه في مصر منذ القرن السابع عشر للميلاد ، ثم مراسلات تل العمارنة بعد قرنين ، كما ذكر ذلك في التوراة وكثير من كتب التاريخ القديمة .

وبهذه المناسبة استحسنت نقل ما ذكره المؤرخ الشهير صاحب الخطط في بحث دور الآثار والمتاحف والعرب قال : لا نعلم انه كانت تعهد للعرب متاحف ايام مدنيتهم على الصورة التي هي اليوم في كل بلد تذوق الحضارة ، بل كانت متاحفهم في جوامعهم وقصورهم التي اختاروا لنقشها وتزويقها امهر صناع ايامهم على نحو ما كان في جامع بني امية في دمشق والاقصى في القدس وبعض جوامع بغداد والقاهرة وفي الحمراء والزهراء في الاندلس وفي قصور الخلفاء ببغداد وقصورهم في الاندلس وقصور الفاطميين في القاهرة ، وكانت دور العظماء في الشرق كما كانت في الغرب تتنافس في بدائع الصناعة وتجعلها بحيث يراها من يختلفون الى قصورهم ، لاتزال البيوت القديمة الى اليوم في الشام تفاخر بما عندها من مجموعات الصيني والقاشاني والسلاح القديم والحلي والاواني الفضية والذهبية

القديمة على كثرة ما طرأ على البلاد من الحوادث التي عزت فيها الحاجيات ، دع الرغبة في الكماليات . وكان اقتناء هذه البدائع في هذه الديار من دلائل الظرف وآيات التعين والرياسة كما كان اقتناء الكتب في قرطبة بل في حلب ودمشق الى عهد قريب .

وكان الفاتحون لهذه البلاد والمسيطرون عليها في القرون الوسطى في جملة ما يغنمون الطرائف البديعة وادوات الزينة والابداع . هكذا فعل تيمورلنك فحمل معه من دمشق صناع هذه البدائع وما ابدعوه ، وهكذا فعل السلطان سليم العثماني فاتح مصر فنهب منها اجمل آثارها التي استطاع حملها وزين بها قصره وقصور جماعته . وذكر المؤرخون ان بعض ملوك الاندلس من العرب كانوا يعرضون في قصورهم التماثيل الجميلة من غير نكير وفيها صور الآدميين وغيرهم .

اما نحن سكان هذه الديار فلم تكن لنا عناية بهذا الشأن بل قل جداً من اهتدى الى الاحتفاظ بما خبأته الايام في بطون هذا الصقع ، وكنا ازهد الناس فيها حتى نقلت آثارنا ونفائسنا امام اعيننا ، كما نقلت كتبنا ونحن ضاحكون مستبشرون وانتفع بها القوم هناك واكملوا بها تاريخ المدنية ، ونقل في الخطط ايضاً عن نشأة علم الآثار الى الامير جعفر الحسني قال :

عنيت الامم منذ القديم بالفنون الجميلة وكان حظ كل امة من هذا الشأن بحسب رقيها وحضارتها ، وكان الافراد يجمعون الآثار ويتنافسون باقتنائها لا لغاية علمية بل للزينة والتفاخر ودام هذا حالهم حتى سنة ١٧٦٤ م . لما ظهر كتاب تاريخ الفن عند الاقدمين لمؤلفه وانكمان الالماني وهو اول من وضع اسس هذا العلم الحديث . ان علم الآثار القديمة فرع من فروع التاريخ ومن اصعبها مراساً اذ يحتاج صاحبه الى قوة انتباه وذوق سليم ، فان هـذا العلم لا يقتصر فيه فقط على جمع الآثار القديمة في المتاحف ووصفها بل ان الصعوبة كل الصعوبة في حل رموزها وفهم كنهها واستجواب تلك الشهود الصامتة واستنتاج الحقائق منها ، ولقد اصبح النظر اليوم في ابحاث علماء الآثار وتحقيقاتهم من الواجب على كل مؤرخ ومحقق ، كما يستنير بها كل لغوي ومفسر ، فكم من

معضلة تاريخية ولغوية حسمت بفضل هذا العلم ، وها هي كلمة فرعون التي لا يجهل اليوم الاحداث معناها ، ذهب المتقدمون من علماء اللغة في تفسيرها مذاهب حتى قيض لنا علماء الآثار ، فاظهروا وثائق تثبت انها لقب كل من ملك مصر ، وكم من حوادث جاءت في كتب السلف بل وفي الكتب المنزلة فذهب الناس في تأويلها وشك بعضهم في صحتها ولولا علم الآثار الذي اماط عنها اللثام واظهرها للعيان ملموسة محسوسة لقالوا انها اساطير الاولين . اليست جهود الذين اكتشفوا آثار بلاد آشور والكلدان ومصر وفارس ويونان وبعثوا ذكر تلك الامم بعد ان كانت نسياً منسيا الوفاً من السنين شاهداً عدلا على اخبار تلك البلاد .

الى ان قال : وبعد فقد عرفنا بما تقدم مقدار العناية التي بذلتها البعثات الاجنبية بآثار الشام غير الاسلامية واعراضهم عن هذه الاخيرة ، لا جرم ان معظم الآثار الاسلامية في بلاد الشام محفوظة في الجوامع والمساجد والمدارس مع محتوياتها وهي بتصرف الاوقاف ، ولذلك يتحاشى الاجانب ما امكن ان يثيروا عواطف عوام المسلمين حتى ان السلطات المنتدبة تركت لدوائر اوقاف البلاد حرية التصرف بهذه الاماكن المقدسة ، وقد اكتفت بان تسدي اليها من حين الى آخر النصائح لبذل العناية لهذه الآثار ولكن اكثر هذه الدوائر في شغل شاغل عنها ، فكل يوم نسمع بضياع اثر او تشويهه لا عن قصد منهم بل لانهم لا يقدرون قيمة ما هو تحت تصرفهم . حتى اصبحت اكثر هذه الامكنة الأثرية في حالة يخشى عليها من الاندراس ، وبذلك تفقد البلاد هذه المفاخر التي تشهد بمدنية السلف العظيمة في ازهى عصور البلاد الشامية فعسى ان تحذو البلاد حذو شقيقتها مصر وتؤلف لجنة للآثار الاسلامية تعني بجمعها وتفقد شؤون الابنية منها ، وقد انشأت السلطة الافرنسية في دمشق معهداً افرنسيا لدرس الآثار وخاصة منها الاسلامية على منوال المعهد الافرنسي في القاهرة ، وقد سبق للبعثات الاجنبية ان اسست في القدس معاهد لدرس الآثار مثل المدرسة الأثرية الافرنسية والمدرسة الاثرية الانكليزية والمدرسة الاميركية للابحاث الشرقية ، ولهذه المعاهد فضل كبير بكشف غوامض تاريخ بلاد الشام القديم ، لم تدع

السلطتان الافرنسية والانكليزية في منطقتي سوريا وفلسطين باباً الا وطرقتاه لنشر الدعاية في البلاد الاجنبية عن آثار بلاد الشام ومكانتها . وقد تجلى ذلك في دعوتهم لمؤتمر الآثار الدولي الذي عقد في سوريا وفلسطين في شهر نيسان سنة ١٩٢٦ فكانت نتائجه مرضية . وبفضل هذه الدعاية نرى عدد السياح بازدياد في كل سنة . ولا شك ان الشام اذا صرفت العناية بفنادقها وطرق مواصلاتها تصبح مقصد السياح من اهل الارض وتجني من ذلك فوائد مادية وادبية لاتقدر . انتهى كلامه .

ومما يستملح ذكره هنا ما قاله احد المستشرقين الافرنسيين المسيو استاش دي لوري ضيف هذه الديار : ان دمشق لها صيتاً قد ذهب في آفاق الارض ، فهي مدينة مشهورة لها تاريخ عظيم والمستشرقون مولعون في الاطلاع على احوالها في كل حين ، فيجدر برجال دمشق ان يمهدوا في هذا السبيل الهمم العالية ومن موجب الاسف ان كثيراً من آثارها قد ضاع لتعاقب الدول والفاتحين لها فكلما دخلتها دولة طوت محاسن ما خلفته غيرها . وعلى هذا السبيل لم تستطع دمشق من الاحتفاظ برسومها وآثارها على تراخي الاحقاب . واما مصر القاهرة فان المقادير قد ظاهرتها على حفظ ما ابقاه ملوكها من الآثار والمعاهد فهي بمنزلة متحف طبيعي .

وقد افرد ابن بدران الدوماني احد مؤرخي دمشق كتاباً في هذا الباب سماه الآثار الدمشقية والمعاهد العلمية ذكر فيه الابنية والقصور التي شيدها بدمشق خلفاء بني امية وغير ذلك من الآثار النفيسة ، والمعالم الجليلة الذي يعسر علينا تكرار نقلها واعادة ذكرها ، لانها وضعت في كتاب خاص يمكن الرجوع اليه في كل وقت لمن اراد ، وان خطة كتابنا التلخيص والاختصار بالنقل ما امكن ومن حفظ حجة على من لم يحفظ .

ومما يستعذب اخذه ايضا ما قاله المؤرخ الكبير اسكندر عيسى معلوف احد اعيان جبل لبنان ونزيل دمشق ، في محاضراته بمناسبة الآثار والتاريخ نقلنا بعض الشيء منه في كتابنا تتميما للفائدة قال :

غاية علم الآثار معرفة آداب من تقدمنا، واستطلاع اخلاقهم وعاداتهم وصناعاتهم وادبانهم وخرافاتهم ومعارفهم. فالآثار انما هي السنة قوم قد مضوا تصرح بحروف غير مكتوبة احيانا عن عمرانهم وذكائهم وصناعاتهم وما كانوا عليه من التطورات. فلنا بالآثار عبر لنقتدي بمن احسن العمل، ونعرض عمن اسائه ونستفيد من المجتهدين والمتمدنين حضارة نضمها الى ما عندنا ونربأ بانفسنا عن الكسل والاهمال لانهما آفة البشر، وعامل التأخر. ثم قال: ان للآثار اليد الطولى في تصحيح التواريخ القديمة وتمحيص الآراء المضطربة، وكشف الحقائق الغامضة ومعرفة صناعات القدماء وشئونهم ثم اورد كلاما لطيفا على التماثيل والصور وهل عرفها العرب. قال عندنا ادلة كثيرة على ان العرب عرفوا التماثيل في اليمن وغيرها ووضعوها في قصورهم من انسان وحيوان، واشتهر بها الفرس والاندلسيون وصوروا النقود ولا سيما في عهد السلاجقة وربما كان اقدمها ما ضرب سنة ٥٩٧ هـ وعليه صورة فارس متقنة وقد ذكر بول كازانوفا ان احد سياح العرب في آخر القرن التاسع للميلاد شاهد في الصين وغيرها صورة النبي محمد عليه الصلاة والسلام وكبار رجال الاسلام وكان التصوير البيزنطي شائعاً في الدولة الاموية ومنه الفسيفساء. وذكر المقريزي الصور الاسلامية بتطويل. ولا سيما في زمن الفاطميين وعدد اسماء المصورين. ثم قال: وحكى ابن خرداذبك عن فرس نحاس بارض الاندلس باسط يده كأنه يقول ليس خلفي ملك. وقال: ان في مدينة طليطلة تصاوير افراس مكتوب عليها لا تفتح هذه الارض حتى يأتيها قوم يشبهون هذه التصاوير، وكانت تلك التصاوير تمثل العرب على خيولهم بعمائمهم وقد ذكر في آخر كلامه ان العرب انشأوا في دمشق متحفا بزمن الامويين لآثار القدماء معتنين بجمع آثار الادب والصناعة والدين سموه (سوق الطرائف) وان دمشق مسورة بسور عظيم منيع فيه ابواب حديدية ضخمة وبقي سورها وابوابها الى زمن ابراهيم باشا المصري سنة ١٨٤٠ م فسلمه السكان مفاتيح المدينة عندما فتحها ودخل من (بوابة الله) مع حاكم لبنان الامير بشير الشهابي الكبير وولده الامير خليل وامن الاهلون فبقي الآن بعض السور والابواب

وحوله خندق عميق للحصار . تمل حملة الاخبار ان من اهم الآثار القديمة بدمشق الشارع الذي كان يخرقها من الشرق الى الغرب اي من الباب الشرقي الى باب الجابية وطوله ١٦٠٠ متر وعلى جانبيه رواقان من العمد وهو اليوم مستور مردوم وقامت عليه الدور والحوانيت . وكان مقسوما الى ثلاثة اقسام الوسط للدواب والعجلات والرصيفان بجانبه للذاهبين والجائين والباب الشرقي اليوم على ما يرى هو احد الرصيفين فقط بحيث يستدل من ذلك ان الشارع لم يكن عرضه اكثر من خمسة وثلاثين متراً . ثم قال : ومن اغرب ما وصفت به جيرون قول صاحب مراصد الاطلاع . جيرون سقيفة مستطيلة على عمد وسقائف حولها مدينة تطيف بها وهي بدمشق في وسطها كالحلقة . وكنا ذكرنا في الجزء الاول انه وجد بعض من هذه الاعمدة حين حفر الارض . وذكر بعضهم ان الوليد عقد ميداناً لسباق الخيل كما هو جار اليوم عند الافرنج ، ولا يزال ذلك المضمار الى يومنا هذا يحي (الميدان) وهو من احياء المدينة المشهور بحسن هوائه قال مجير الدين بن تميم يصف الميدان :

عجبا لميداني دمشق وقد غدا كل له شرف اليه يؤول

والنهر بينهما لغير جناية سيف على طول المدى مسلول

وروى ابن القلانسي : انه حين خربت محلة الفراديس المعروفة اليوم بمحلة العمارة في فتنة القرامطة سنة ٣٦٣ كان فيها من الآثار والبنيان الرفيع في الحسن والبهاء ما لم ير مثله وهو احسن مكان كان بظاهر دمشق خارج الصور ثم نقل ايضا من اقتراحات شمس الملوك صاحب دمشق الدالة على قوة عزيمته ومضاء همته ما احدثه من البابين المستجدين خارج باب الحديد انشئ ذلك في سنة ٥٢٧ مع دار المسرة بالقلعة وذكر سبط ابن الجوزي : ان اسامة الحلبي بنى داراً بدمشق بانقاض بيوت الناس فخربت على يد ايوب بن الكامل في سنة ٦٤٧ وبيوت الظالمين خراب . وذكر ايضا ان اهل دمشق هدموا قصر السلطنة في القرن الخامس ودرسوه وكان عظيما يسع الوفا من الناس ومن آثار دمشق التي درست قصر ابن حجة الشهير ، كان على كتف نهر ثوري في الصالحية ،

واليوم بستان يسمى بالدهشة ، ومنها قصر بني كريم الدين الذي كان تجاه مدرسة المرشدية في الصالحية ذكره العارف النابلسي والامير ابن منجك . وقيل فيه :

قصور الشام محكمة المباني ولا قصر كقصر بني الكريم

وذكر ابن عساكر في تاريخه . ان محمداً بن عمرو السكسكي كان في اقليم من اقاليم غوطة دمشق يعرف ببيت لهيا . وكان له في هذا الاقليم عدة قصور لكل جليل يقدم من بغداد او من مصر ينزل عنده في قصوره ، وكان ذلك في القرن الثالث ومن الآثار المعدودة قصر عنترة بن شداد واقع جهة ميسلون وقصر دير العشائر قبلي الزبداني ولم تزل آثاره باقية الى اليوم وتحته حفرة مغارة جسيمة . ومنها قصر الأبلق مكان جامع السليمانية اليوم واكثر حجارته دخلت في الجامع وقد وصفه بهاء الدين الموصلي بقوله : يبهر الناظر حسن معناه . ولا يقدر على وصف محاسنه من يراه قال شيخ الربوة بحقه : في تاريخه انه من المباني العجيبة الحديثة بدمشق بناه الملك الظاهر بيبرس وسمي بالابلق لكونه مبنيا بالحجارة البيض والحجارة السود وذكر صاحب الروضتين ان الملك صلاح الدين يوسف ابن ايوب كان يزور القاضي الفاضل ليستضيء برأيه فيما يريد فعله . في قصر ابن الفراش الكائن بالشرف الاعلى في بستانه المشهور به . ومن جملة وقف الملك الظاهر طاحون الشقراء بمرجة دمشق بالقرب من زاوية الأعجام التي صارت بستانا لبني الملا وبني فيها اليوم قصر بني الحلبوني ، وبجانبه الجامع والدور الحديثة بديعة الشكل والمنظر ، وهي من اجمل مباني دمشق اليوم ، وكان بينهما قديما قصبة سوق وحوانيت ، وقد رجع ذلك الى اصله في عصرنا والتاريخ يعيد نفسه ومن البدائع والآثار الجليلة مدخل المستشفى القيمري في صالحية دمشق الموجود الى اليوم وقال ابن شاكر : ان اللؤلؤتين كانتا منظرتين جميلتين ظاهر دمشق مما يلي باب الحديد غربا وكانتا من اعجب البناء احرقهما المصريون لما حاصروا دمشق وموضع اللؤلؤتين الصغيرة والكبيرة هما اليوم حدائق في ارض باب السريجة بينها وبين قرية كفرسوسة . ذكر ابن عساكر ايضا ان حمزة بن الحسن المعروف بفخر الدولة قاضي دمشق من قبل الفاطميين جدد في دمشق مساجداً ومعاهداً

للدلم ومنابراً وقنوات واجرى الفواره التي في جيرون قرب باب الجامع الاموي وذكر انه وجد في تذكرته سبعة آلاف دينار صدقة في كل سنة ، وهو الذي انشأ القيسارية المعروفة بالفخرية توفي سنة ٤٣٤ . وكان لشمس الدين بن المقدم من كبار امراء الدولتين النورية والصلاحية في سنة ٥٨٤ دار كبيرة بدمشق الى جانب المدرسة المقدمية ، ثم صارت لصـــاحب حماة . ثم صارت مقراً لسنقر المنصوري ثم للسلطان الملك الناصر وله تربة ومسجد وخان . وكان الملك الامجد صاحب بعلبك يقيم بداره التي داخل باب النصر بدمشق وهو اول شارع النصر الذي فتح حديثـــاً في آخر حكم الاتراك وهذه الدار معروفة ومشهورة بدار السعادة ، وهي التي كان ينزلها النواب وامراء دمشق ، واسمها دار المشيرية في زمن الاتراك التي اتخذتها البعثة الافرنسية مقراً لها في هذه الايام .

ومن آثارها القديمة مرصدها الفلكي على جبل قاسيون الذي اشار ابن القفطي في تاريخ الحكماء الى الرصد فيه ثم اتخذ منارة للتخاطب بالنار .

وبهذه المناسبة ننقل ما ذكره الفاضل الدمشقي ابن الساعاتي صاحب كتاب مشكاة العلوم والبراهين قال : انه قد تعددت المراصد الفلكية في البلاد الاسلامية ، شرقا وغربا ومن اشهرها مرصد بغداد المنشأ على قنطرتها ، ومرصد المراغة الذي انشأه نصير الدين الطوسي ، ومرصد سمرقند ، ومرصد جبل المقطم بمصر انشأه ابن يونس الفلكي ، ومراصد دمشق . وقد تقدم ذكر بعضها في كتابنا .

ومما نقله صاحب عيون التواريخ ان اليونان وضعوا الارصاد على حركات الكواكب لابواب دمشق ، وبنوها في طالع سعيد . وقال ديلامير في تاريخ علم الهيئة يمكنك ان تعد من العرب عدداً كبيراً غير محصور من الراصدين ونقل بعضهم انه ارصد بكلب على نهر بيروت في الزمن الغابر كلما ظهرت سفينة من البحر يصرخ وينبه مرة واحدة وان اكثر فعلى قدر العدد لذلك سمي بنهر الكلب ، بخلاف بئر الكلب المشهور بقرية من قرى حلب الشهباء اذا شرب منه من عضه الكلب واستكلب ولم يمضي عليه اربعون يوما فانه يبرأ .

ونقل بعض حملة الاخبار عن المرصد الذي بناه السلطان صلاح الدين يوسف

في قرية سبينه وسبينات من غوطة دمشق . وخصص له ربما ينفق لاصلاحه وقد بنى ذلك على منازل الاشهر القمرية كي يعلم منزلة كل شهر حين بزوغ الهلال وقد استثنى اهل تلك القرية من الضرائب الاميرية محافظة عليه . وبقي الى امد غير بعيد وقد ذكرنا في كتابنا هذا في العصر الرابع عند ترجمة محمد بن جابر ابن سنان ابن ابي عبد الله الحراني المعروف بالبتاني احد جبابذة علماء الفلك المشهور برصد الكواكب . ولم يعرف احد من الاسلام بلغ مبلغه في تصحيح ارصاد الكواكب وامتحان حركاتها . وكان اصله من حران حوران . وكان له ولغيره من علماء صدر الاسلام في علم الهيئة كتب كثيرة وجدت في مكاتب الاستانة والقاهرة واوربا وفي مكتبة الاندلس للخلفاء . وظهرت تلك العلوم الغريبة في اوروبا من تلك الكتب التي يسمونهـا اليوم العلوم العصرية : قال العلامة منوتكلا في تاريخ العلوم الرياضية ولم يقم من الافرنج عالم بالرياضيات الا كان علمه من العرب مدة قرون عديدة .

ذكر القرماني في تاريخه ان عمر بن عبد العزيز لم يسكن في دار الخلافة الاموية بباب الخضراء وسكن شمالي جامع دمشق بمكان يعرف اليوم بخانقاه السميصاطية وقال ايضاً كانت دار هشام بن عبد الملك عند سوق الخواصين مكان تربة السلطان نور الدين الشهيد وقيل في الكلاسة .

وروى بن عساكر ان دار مسلمة بن هشام كانت معروفة بدار اماجور متصلة بالجامع الاموي من ناحية باب البريد ملاصقة لدار ابي الدرداء .

نقل محمد بن علي بن طباطبا في تاريخه المسمى بالفخري بمناسبة ذكر باب البريد ما نصه قال البريد ان يجعل خيلا مضمرات في عدة اماكن فاذا وصل صاحب الخبر المسرع الى مكان منها . وقد تعب فرسه . وركب فرسا غيره مستريحا . وكذلك يفعل في المكان الآخر حتى يصل بسرعة واما معناه اللغوي فالبريد هو اثنا عشر ميلا . والغاية التي كانوا قدروها بين بريد وبريد هي هذا القدر .

وذكر الصاحب علاء الدين عطا ملك جهان كشاي . ان من جملة محسنات الايام وترقي الاحوال وتجدد العلوم والمخترعات فيها وضع وانشأ البريد بكل مكان

طلباً لسرعة وصول الاخبار . وذكر بعضهم ان اول من وضع البريد في دمشق معاوية بن ابي سفيان وكان له قصر عظيم بجانب باب البريد .

وذكر ابن خلكان ان دار سليمان بن عبد الملك كانت موضع سقاية جيرون، وقد افرد محمد ابن طولون الدمشقي المؤرخ الشهير عجالة في ذكر باب جيرون سماها قرة العيون في اخبار باب جيرون ، نثبتها بحروفها لندرة وجودها . قال بعد البسملة الحمد لله الذي لا تغيره الازمان ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه الاعيان . وبعد فهذا تعليق سميته قرة العيون في اخبار باب جيرون قال ابن شاكر في كتابه عيون التواريخ في سنة ٧٥٣ في سادس عشر صفر منها وقع حريق عظيم عند باب جيرون واستمر الحريق بالباب الاصفر النحاس فبادر ديوان الجامع فكشفوا ماعليه من النحاس ونقلوه من يومه الى خزانة الحاصل، وكان من خشب الصنوبر ، وهو في غاية القوة والثبات وتأسف النـاس عليه لكونه من محاسن البلد ومعالمه ، وله في الوجود ما ينيف عن اربعة آلاف سنة وله غلقان من النحاس الاصفر بمسامير نحاس كبار بارزة ، وقد ذكرته الشعراء في اشعارها ، والعرب في امثالها . وهو منسوب الى ملك يقال له جيرون ابن سعد بن عاد بن عوض بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام وهو الذي بناه ، وكان بناه قبل ابراهيم الخليل ، بل ثمود وهود ايضا عليهم السلام ، وكان فوقه حصن عظيم ، ويقال بل هو منسوب الى اسم المارد الذي بناه لسليمان بن داود عليهما السلام وكان اسم ذلك المارد جيرون والاول اشهر واظهر . فعلى القول الاول يكون لهذا الباب من المدد المتطاولة ما يقارب خمسة آلاف سنة ، ولـكل اجل كتاب .

وقد ذكر ابن عساكر ان نوحا عليه السلام هو الذي اسس دمشق بعد حران وقيل اسس دمشق غلام ذي القرنين باشارته وقيل غاري الملقب بدمشق غلام الخليل عليه السلام ، وقيل غير ذلك من الاقوال التي تقدمت معنا واظهرها انها من بناء اليونان لان محاريب معابدها كانت من جهة الى القطب الشمالي ، ثم كان يعدهم النصارى فصلوا فيها الى الشرق ، ثم كان بعدهم المسلمون فصلوا الى الكعبة

وذكر شرف الدين موسى بن جمال الدين يوسف بن ابي الانصاري الشافعي في تاريخ دمشق ، ان ابوابها كانت سبعة ، يتخذون عند كل منها عيداً لهيكل من الهياكل السبعة . فللقمر باب السلام ، ولعطارد باب الفراديس اي البساتين وللزهرة باب توما ، وللشمس الباب الشرقي ، وللمريخ باب الجابية ، منسوب الى قرية الجابية وهي مدينة عظيمة في الجاهلية ، وللمشتري باب الصغير ، ولزحل باب كيسان منسوب الى كيسان مولى معاوية ، وهو الآن مسدود (وباب النصر قبل دار السعادة وباب الفرج متجددان فتحه السلطان نور الدين تفاءلا باسمه) وقد استقصى اخبار دمشق التاج نصر الله بن حراري الحنفي التنوخي في كتاب سماه : ايقاظ الوسنان ، وافضل ما يسكن من البلدان ، وهو في ثلاثة مجلدات كبار مَن احسن ما صنف في معناه ، ذكر فيه انه عمل لمدينة دمشق ثلاثة ابواب جيرون مع ثلاثة ابواب البريد انتهى . اقول ولم يزل اثر ذلك البناء الجيل باقيا الى اليوم تأخذ رسمه رجال الغرب ، وهو من آثار دمشق القديمة ومعالمها الشهيرة .

وقد ظهر اثر نفيس في هذه الايام بينما كان يحفر اساسا في حي باب البريد من قبل بني المرادي في دارهم المعروفة في زقاق السلطان صلاح الدين الايوبي على عمق اربعة امتار ، وهي قطعة ارض مرصوفة بالفسيفساء الملونة ، متقنة الصنع طولها متر ونصف ، بها صورة عنقاء ، وثعلبان متقابلان ، وخلف كل منهما طير ما ، وفي الوسط شكل نباتي . ويرجع تاريخ هذا الاثر الى اوائل العهد البيزنطي ، ويرجح بان له بقية لانه قسم من ارض غرفة ، وقد وضع ذلك في مجمع الآثار العربية بدمشق في الغرفة الخاصة بامثالها وبهذه المناسبة ننقل عن الذي ظهر من الحفريات في سورية . ارسلت (بعثة شافروشينه) تقريراً الى مجمع الفنون في باريس ضمنته خلاصة مهمتها في اعمال الحفر في سورية وقد عثرت في تلك الحفريات على كنز ثمين من العاديات كالآنية النفيسة والجواهر الفاخرة ولعاب الزينة والكتابة الاثرية وغير ذلك من التحف .

واكتشفت ملعباً مستدير الشكل في مكان يدعى (الميناء البيضاء) واكمة

راس شمرا . وقد قامت عليها مدينة عامرة من نحو ٣٥ قرناً ، وهيكلا كانوا يؤدون فيه العبادة لآلهة السوريين ، وقصراً حفظت في خزائنه الواح كتبت عليها كتابات اثرية ، وكانت السفن المصرية والقبرسية والكريتية تغشى الميناء البيضاء .وقد حشدت حول القبور الملكية النذور المقدسة المقدمة من (مدينة الاموات) كجرار الزيت وزقاق الخمر والاكواب المملوءة زيتوناً او ثماراً وزجاجات الطيوب وتماثيل الآلهة والاحقاق والجواهر وهي تقدم من الشعب والتجار والسادة والغرباء والفقراء ايضاً . فكان هؤلاء يجلبون الاصداف ويستخرجون منها الارجوان الذي اشتهرت به مدينة صور بعد ثمانية قرون ، وامتدت شهرتها الى موانيء البلدان الغربية . ولكن حل الدمار بتلك المدافن والمستودعات والقصور على اثر الغارات التي شنت عليها قبل المسيح بالف ومائتي سنة .

وفي ربيع ١٩٢٩ كانت ثلاثة مضارب منصوبة في ذلك المكان يأوي اليها المسيو شافر مدير متحف العاديات السابقة للتاريخ في ستراسبورغ ورفيقه المسيو شينه المساعد في المجمع العلمي وهناك كان العمال يقومون باعمال الحفر ويعثرون على عاديات شتى الاشكال كالخزف القبرسي والكؤوس والقوارير المخصصة للطيوب النادرة والجرار المزخرفة ، وكان هنالك ثماني عشرة جرة في حفرة وهي باقية على الوضع الذي وضعت عليه من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة .

وكشف التراب عن المدافن فرأوا الى جانبها مساكن كان الناس يأتون اليها مرة في السنة لقضاء مدة من الزمان على مقربة من الموتى ليطلبوا منهم تفسير احلامهم ، وكان في كل من تلك المساكن بئر او حوض . اما اضرحة الملوك فكانوا ينحدرون اليها بدرج وهي مصفوفة الواحد منها الى جانب الآخرة في رواق ضيق له باب مستدير ، وثمة ايضاً ضريح اسرة دفن فيه عدة اشخاص ووضعت عند مدخله جمجمة خادم ذبح ، وقد وجدت البعثة في هذا الضريح من ثلاث سنوات اجمل قطعة عاج في العالم واهدتها الى متحف اللوفر وهي تمثل الالاهة العظمى لابسة ثوباً موشحاً وقابضة بيدها السخية على سنابل قمح .

وقد جمعوا في احد المضارب العاديات التي عثروا عليها وعهد الى عقيلة شافر الاشراف عليها والعناية بها.

وعثر احد اعضاء البعثة على كأس من الفخار وقال انها من جملة ادوات الزينة التي اكتشفوها قبلا وهي مؤلفة من اربعة احقاق من الرخام الناصع البياض كانت احدى الغواني تضع فيها خضابها ومساحيقها من نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة ويخيل الى الناظر الى تلك التحف انه في الحلم فهي على جانب عظيم من الاتقان ودقة الصنعة ولكنها سريعة العطب، ويظهر ان جدرانها الشفافة حفظت آثار الارجوان والانتيمونيا اللذين كانا يستعملان لتحمير الشفاه وتزجيج الحواجب.

وسيترجم قريباً ما كتب على الالواح التي وجدت في رأس شمرا فيستدل منها على ما كانت عليه تلك المدينة العامرة وتعرف حينئذ حقيقة حضارة الشعب الذي كان مقيما فيها.

والقائمون بالبحث عن العاديات في ذلك المكان يبذلون جهدهم من ثلاث سنوات مع ما يتصدى لهم من المصاعب والمشقات في سبيل خدمة العلم والتاريخ اجل خدمة.

ومن مدة ارسلت جامعة اكسفورد بعثة للتنقيب عن الآثار ما بين العراق وسوريا. وقد عثرت في كنيس بالقرب من موقع بابل القديمة على جواهر كان الاقدمون يتحلون بها وهي لا تقدر بثمن، واما تاريخها فيرجع الى عهد الملك نبوخذ نصر، وعلى نقوش بديعة من عهد الدولة الساسانية، وقبور ملوك عاشوا منذ اكثر من خمسة آلاف وخمس مئة سنة. وبعض هذه الآثار يعود الى عهد الدولة البابلية، وبعضها الى قبل التاريخ المسيحي بمئتين وخمسين سنة، وبعضها الى عهد الدولة السامرية. وبين هذه الآثار لوحات من الآجر مكتوب عليها بالخط السماوي وهي منذ ٥٥٠٠ سنة. ولهذه اللوحات شأن كبير لان علماء الآثار يجمعون على ان الطوفان حدث قبل المسيح بثلاثة آلاف واربع مئة سنة. ولما كانت هذه الكتابة ترجع الى تاريخ اقدم من ذلك فقد استنتج منها ان الكتابة معروفة لدى الانسان قبل الطوفان.

وقد احصى احد كبار علماء الآثار عدد اللغات والكتابة التي تكلم وكتب بها البشر في القارات الخمس فكانت الفين وسبعمائة وخمسين لغة .

ومن آثار الشام الشهيرة مدينة بصرى ، نقل أبو الفداء في كتاب تقويم البلدان عن هذه المدينة وقد اكتفي بقول العزيزي ان بصرى مدينة كورة حوران وهي ازلية مبنية بالحجارة السود مسقفة بها ، وفيها سوق ومنبر وهي من ديار بني فزارة وبني مرة وغيرهم ، ولها قلعة ذات بناء متين وبساتين ، وبناء قلعتها شبيه ببناء دمشق وهي على اربع مراحل من دمشق . وذكر الزبيدي في تاج العروس انها اول بلاد الشام وينسب اليها السيوف البصرية .

وقال الطبري ايضا ان بصرى كانت مدينة حصينة جداً في زمن الفتح آهلة بالخلق ، عامرة بالناس ، وكان العرب يقصدونها ببضائعهم وتجارتهم من اقصى اليمن وبلاد الحجاز وجزيرة العرب ، فاذا كان في ايام الموسم ينصب لبطريكها كرسي يجلس عليه ، ويجتمع الناس اليه ، يستفيدون من علمه وحكمته ، وكان صديقاً لابي بكر الصديق الصحابي الجليل رضي الله عنه .

وهي من المدن القديمة ، وقد وجدها الاسكندر المكدوني عامرة حصينة لما فتح الشام كما تقدم الكلام عن فتحها في صدر كتابنا ، وبقيت في يد خلفاء الاسكندر من ملوك الشام الى ايام انطيوخس فاستولى عليها ملك من ملوك العرب . ثم اخذها الامبراطور طراجنس سنة ١٠٥ وبنى فيها المباني الفخيمة واباح لاهلها ان يسموها باسمه كولونتيه رومانية ، وبقيت سنين كثيرة بعده وجعل لها تاريخ خاص مثل تاريخ الاسكندر والتاريخ المسيحي والهجري ، يبتدأ من تلك السنين وهو التاريخ البصري المشهور الذي ارخ به الفرس زمناً طويلا .

وننقل ما قاله الدكتور بورتير الانكليزي الذي زار هذه المدينة وكتب عنها قال : محيطها خمسة اميال ، لها سور عالي الجدران وثيق البنيان ، وقلعة لا يوجد أحصن منها في كل بلاد الشام ، الذي تبين في هذه المدينة خرائب مشهدين وستة هياكل وعشر كنائس ، عدا القصور والحمامات والسبل والقنوات واقواس

النصر وغير ذلك من المباني الكبيرة ، وهي تدل على ان اهالي بصرى كانوا على جانب عظيم من الغنى وحسن الذوق ، لان بعض هذه المباني يصلح لأن تزدان به اعظم عواصم اوروبا الآن . ثم قال :

ولقد يتعب القارئ اذا اردت ان اصف له كلما رأيته هناك ، كما تعبت من البحث عنه لأنها رأيت ما يفوق الوصف من غرائب الصناعة وبدائع البناء واساليب النقش في الهياكل والكنائس والقبور والمذابح ، وركام الانقاض تدل على ما مر بهذه المدينة من العمر ، وتقلب عليها من الازمان . كما تدل طبقات الارض على العصور الجيولوجية ، هناك ترى بيوت الاقدمين التي كانت ابوابها وسقوفها من الحجر ، وكان يسكنها الرفائيون قبل مجيء ابراهيم الخليل عليه السلام الى بلاد الشام ، وفوقها هياكل اليونان والرومان وكنائس رأيت كتابة على حجر يقال فيها ان الهيكل جعل كنيسة على اسم القديس يوحنا : ودخلت هذا الهيكل او هذه الكنيسة فرأيت انه جعل جامعاً ومسجدا وكتب عليه كلمة الشهادة .

من اول المباني التي دخلتها القلعة ، مررت في طريقي اليها بقوس النصر التي اقيمت للقائد فيلبس الحوراني العربي ، الذي صار امبراطورا على مملكة الرومان قبل الاسلام باربعمائة عام ولبس الارجوان ، وكان من اهالي تلك المدينة ، ودخلت الى كنيسة بصرى المشهورة في التاريخ وهي كنيسة الراهب بحيرا النسطوري المشهور في كتب الحديث عند المسلمين ، وعلى مقربة من الكنيسة جامع كبير يقال ان الخليفة عمر بن الخطاب . بناه على اعمدة كبيرة ، منها عمود من الرخام الابيض . وعلى اثنين منها كتابة تدل على ان اصلهما من كنيسة ، ولعلهما كانا قبل الكنيسة في جامع يوناني .

ثم قال : هذا ما بقي من عاصمة كورة الرومان في بلاد العرب . ونقل ايضا ان ٧٥ مليون من الناس كانت ساكنة جهة حوران وجبل الدروز والازرق لجهة البلقاء . مع وجود الاحراش والنخل ، مع العمران المتواصل المسكون من جميع الطبقات . وقد سمي اقليم حوران باسمه وبقي الى اليوم .

ونقل بعضهم : من بعض الكتب المقدسة ان لوطا عليه السلام لما خرج باهله من سدوم هاربا من قومه وولدت احد نسائه ولداً سمته عمان ، وولدت الاخرى ولداً سمته مآب . فلما كبرا وصارا رجالا بنى كل واحد منهما مدينة بالشام سماها باسمه . وهما متقاربتان في برية الشام .

وقال ابو عبد الله محمد بن احمد البشاري : عمان على سيف البادية ذات قرى ومزارع ، ورستاقها البلقاء وهي معدن الحبوب والانعام ، بها عدة انهار وارحية يرويها الماء ولها جامع في طرف السوق . وقصر جالوت على جبل يطل عليها . وبها قبر اورياء النبي عليه السلام ، وعليه مسجد وملعب سليمان بن داود عليه السلام ، وقد قيل بها :

اعوذ بربي ان ارى الشام بعدها وعمان ما غنى الحمام وغردا

قال القرماني في معان انها مدينة صغيرة على قارعة طريق الركب الشامي ، وهي على عشرة مراحل من دمشق ، كان غالب اهلها نصارى والآن ليس فيها احد منهم ، وهي بلدة قديمة من نواحي البلقاء . واما قلعة السلط كان يسكنهـا من يحفظ تلك البلاد من الملوك ، وينبع من تحت قلعتها العيون ، وهي تمتد من حصن الشوبك الى وادي موسى ، ولهذه البلاد تاريخ مجيد قبل الاسلام . ثم قال والبلقاء كورة من اعمال دمشق بين وادي القرى قصبتها عمان . وبها الآثار الغريبة الشهيرة الباقي اثرها الى اليوم . ومن البلقاء قرية الجبارين التي ارادها الله تعالى بقوله ان فيها قوما جبارين . ومنها قرية مؤتة من مشارف الشام ، وبها كانت تطبع السيوف العربية ، وفي قرية موتة المذكورة قبر جعفر بن ابي طالب ، بعث النبي عليه الصلاة والسلام اليها جيشا في سنة ثمان من الهجرة وامر عليهم زيد بن حارثة مولاه ، وقال : ان اصيب زيد فجعفر بن ابي طالب الامير ، وان اصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ، فساروا حتى كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية مشارف ، ثم دنا العدو وانحاز المسلمون الى قرية موتة . فالتقى الناس عندها ، فلقيتهم الروم في جمع عظيم ، فقاتل زيد حتى قتل ، فاخذ الراية جعفر حتى قتل ، فاخذ الراية عبد الله بن رواحة فكانت تلك حالة ،

فاجتمع المسلمون الى خالد بن الوليد ، فانحاز بهم حتى قدم المدينة ، فجعل الصبيان يحثون عليهم التراب ويقولون : يا فرار فررتم من الجهاد في سبيل الله فقال النبي عليه الصلاة والسلام ليسوا بالفرار لكنهم الكرار . وقال حسان ابن ثابت :

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا ❊ بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر

وزيد وعبد الله هم خير عصبة ❊ تواصوا واسباب المنية تنظر

ومنها قرية صرفة من نواحي مآب ، يقال بها قبر يوشع عليه السلام ، اما بلاد موآب او مآب وكانت العاصمة بها بين بحيرة لوط فيما وراء عبر الاردن وهم ابناء لوط ، لا يعلم من تاريخهم الا انهم اولي بأس شديد ، يخاف اليهود عاديتهم لغزوهم اياهم ، وهي مدينة الكرك اليوم واسمها موآب واستولى اهلها على الاسرائيليين وخضعوا لسلطان داود النبي موقتاً ، ثم استعبدهم السوريون فالاسكندر فالروحيون . وعلى عهد العرب امتزجوا بهم وفنوا فيهم كما فنيت شعوب كثيرة في الفاتحين . وقد ساعدوا بختنصر في حصار اورشليم واسترجعوا بعد السبي املاكهم القديمة ، والذي يظهر ان تلك البلاد كانت قبل الاسلام وبعده عامرة بالسكان ، وفيها قرى ومزارع كثيرة لم يبق منها الا القليل فيما نعلم من بعض القرى الشهيرة اليوم ، وما عدا ذلك فقد دثر واصبح خراباً . واما البلاد التي بها الآثار مثل مدائن صالح ومدائن لوط ما بين المدينة والشام تاريخها متعثر جداً قبل الاسلام وبعده وليس لدينا من النصوص التي يستأنس بها الا مارواه ياقوت الحوي في معجمه وقال مؤرخوا الفرنجة ان اليونان والرومان ادعيا هذه البلاد بترا اي صخراً ودعاها العرب الحجر وقالوا انها مدينة ثمود وان الفرجة الصخرية الواقعة فيها المدينة هي صدع الصخرة الذي خرجت منه ناقة صالح وهذه بوادي موسى قرب بيت المقدس قال ياقوت اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام قال الاصطخري الحجر قرية صغيرة قليلة السكان وهو وادي القرى على يوم بين الجبال وبها كانت منازل ثمود قال الله تعالى : (وتنحتون من الجبال بيوتاً

قارهين) قال ورأيتها بيوتا مثل بيوتنا في اضعاف الجبال وتسمى تلك الجبال الاثالث وهي جبال اذا رآها الرائي من بعد ظنها متصلة فاذا توسطها رأى كل قطعة منها منفردة بنفسها .

ونقل احد افاضل دمشق ما ذكره بن عساكر ان ملوك بني العباس لم يزالوا يخفون الى دمشق طلبا للصحة وحب المنظر . منهم المأمون فانه اقام بها واجرى قناة من نهر منين في سفح جبلها الى معسكره بدير مران ، وبنى القبة التي في اعلى الجبل وصيرها مرقبا يوقد في اعلاها النار لكي ينظر الى ما في عسكره فاذا جن عليه الليل كان ضوؤها الى ثنية العقاب (الذي قال عنها ياقوت هي مشرفة على غوطة دمشق والى جبل الثلج) اما هذه المناور فقد كانت تستعمل في بلادنا قديماً اعلاماً بحركات التتر اذا قصدوا البلاد للدخول في حرب اولاغارة . ثم قال الكاتب وبهذا ترى ان القبة القائمة انقاضها اليوم في قمة جبل قاسيون المشار اليها في كلام صاحب التعريف والمعروفة اليوم بقبة النصر ان لم تكن من بناء العباسيين فقبتهم كانت مكانها ، ثم خربت وتجدد غيرها ، وما يقال عن قبة النصر واستخدامها منارة فيما مضى يصح ان يقال عن قبة السيار المسافة لها من الشق الآخر من الجبل .

قال بعضهم عنها انها كانت مجمع الحمام الزاجلة ، تستعمل لنقل الاخبار لممالك الشام ثم قال اما القناة التي جر بها ماء قرية منين لمعسكر المأمون بدير مران وهو اليوم حدائق صبار وآس فهي من اهم الامثلة في العمران على عهد هذه الدولة لأن المسافة بين منين ودير مران لا تقل عن ثلاث ساعات وما من اثر يدل على القناة الا ما كان من بقايا مجرى نهر في سفح الجبل باد للعيان ، على ان طوارئ الحدثان عفت للقريب عهده من الاثار ، فما بالك بما مضى عليه زهاء الف سنة والناس قد نسوا تاريخ اجدادهم وتخطيط بلادهم حتى لو قلنا لهم ان المأمون بنى مرصدا فلكيا في جبل قاسيون لرصد الاجرام لاستغربوا ذلك منا ولو جئناهم بالشواهد التاريخية انتهى كلامه .

وذكر ايضا العلامة الحسن البوريني في كتابه منازل الانسية في الرحلة

الطرابلسية ، قبة عظيمة مشرفة على جانب الربوة وعلى دمشق ، ويوجد بها نسيم يحيي الفؤاد السقيم وغالب اهل دمشق لا يعرفون قبة السيار الى من تنسب وكذلك قبة النصر ، والذي علمناه ورأيناه في التاريخ ان سيارا والد نصر ونصر ابن سيار ، وقد اشتهر ذلك في التاريخ وكان كل منهما اميرا في الشام في زمن الخلفاء العباسيين ، وبنى سيار القبة المذكورة وجاء ولده بعده اميرا فبنى القبة المعروفة به الآن . واكثر اهل دمشق يقولون ان القبة المشهورة بقبة النصر كانت لقلاون المنصور ، والحال انها بناء الامير نصر ، وربما ان قلاون اقام بها لاجل صحة الهواء بها حين ابل من علة لحقته ، انتهى من كتاب حلة الذهب الابريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز للعارف عبد الغني النابلسي الدمشقي .

ونقل بعض الثقاة انهما بنيا مراصد ، وقال بعضهم ان الذي بناها بلقيس في زمن سليمان عليه السلام ، وفي ايامها سحبت المياه بمجرى سرداب من قرية التكية في سوق وادي بردى الى قرية تدمر ذات الآثار العجيبة والمعالم الشهيرة التي تقصد من قبل رجال الغرب ويقال بان مجرى الماء باق اثره الى اليوم . ونقل الارمنازي في تاريخه ان في دمشق محل كان يعرف (بصفة بقراط) حيث كان يجلس هذا الفيلسوف فيه كما قيل . وهو في غربي الصالحية تحت قبة السيار .

وقد ذكر المؤرخ الشهير اسكندر عيسى معلوف في المحاضرات ايضا عن حقائق تاريخية في دمشق احببت نقل بعض الشيء منها قال : ولما تنصر اليونان والرومان نقضوا الحضارة الوثنية وهدموا هياكلها العظيمة وحطموا تماثيلها واستبدلوها بالحضارة المسيحية نعضدتها القبائل المتنصرة ، ومعظمها كان من غسان وقضاعة واياد من السلائل العربية .

ومن آثار النصرانية فيها الكنيسة المريمية الكبرى ، وهي من بناء اركاديوس قيصر المتوفى سنة ٤٠٨ م ذكرها كثير من المؤرخين مثل ابن عساكر والرحالة ابن جبير ، ومنها كنيسة يوحنا (في الجامع الاموي) ايضا وقربها محلة الكلاسة ولعلها تحريف كليسيه اليونانية بمعنى الكنيسة ايضا ، وليس في دمشق الآن كنيسة اقدم من ستين سنة لانها حرقت كلها سنة ١٨٦٠ .

ومن اهمها كنيسة السويداء التي تشبه كنيسة القديس بولس في رومية واجمل قطعة من هندسة الروم في بلاد حوران . ثم قال ولكن الفرس غزوا هذه البلاد ولا سيما نحو سنة ٥٤٠ م فخربوا ابنيتها وغيروا اسماء مدنها (مثل جلق وجوبر وحرستا ومنين) بلغتهم وصادروها حتى كاد ذكرها يمحى .

ولما فتحها العرب سنة ١٤ هـ ٦٣٤ م اشتهرت حضارتها في عهدهم ولا سيما في زمن الدولة الاموية التي اتخذت دمشق حاضرة لها فصكت فيها اول النقود العربية بزمن عبد الملك بن مروان . وانشاء معاوية الاسطول المؤلف من ١٧٠٠ سفينة مجهزة بالاسلحة والجنود وزعه في سواحل الشام والمغرب والاندلس . وذكر ابن النديم في الفهرست ان اول من حفل بجمع الكتب من امراء المسلمين خالد ابن يزيد الاموي ، فانشأ مكتبة في هذه الحاضرة وامر بترجمة كتب الطب والكيمياء من اليونانية والقبطية فانشأ دار الترجمة ، وكان عنده راهب مسيحي يتولى ذلك ومن الابنية العظيمة والآثار النفيسة التي شيدوها ايضاً بيت المال والدار الخضراء الى جنوبي الجامع الاموي ، وبلاط معاوية ، ودار سليمان بن عبد الملك ، ودار عمر بن عبد العزيز ، ودار هشام ، ودار ابنه مسيلمة ، وهذه كلها حول الجامع ايضاً ، وحولت فيها الدواوين من اليونانية الى العربية فرتبت على نمط جديد . ووضع ديوان الختم ، وحزم الكتب والبريد وغيرها .

وقد نقل ايضاً انه ضربت دمشق ضربات كثيرة منها المظالم التي اجتاحتها سنة ٤٦١ هـ ١٠٦٨ م بزمن ولاية الامير حصن الدولة الكتامي فجلا السكان عنها واقفرت وخلت الغوطة من فلاحيها فلما حكم صلاح الدين ونور الدين ابطلا المكوس والمظالم وخففاها عن عاتق السكان ، فجدد عمرانها بعودتهم اليها وعدت هذه الغوطة من منتزهات الدنيا الاربعة فكان عدد بساتينها في القرن الثامن مائة واحدى وعشرين الف بستان كما ذكر ذلك شيخ الربوة في كتابه نخبة الدهر على انها لا تتجاوز في عصرنا الالفين عداً وهي التي وصفها المأمون العباسي بقوله انها خير مغن على وجه الارض ولقد كان خراج دمشق على عهد معاوية اربعمائة الف وخمسين الف دينار ، وكان ارتفاع دمشق سنة ٢٠٤ هـ ٨١٩ م ثلاثمائة

الف دينار وفي زمن المأمون كان خراجها اربعمائة الف دينار وعشرين الف دينار فلهذا كانت المظالم والتضييق على الفلاحين من اسباب تأخر زراعتها واعراض الوطنيين عن معاضدة صناعاتها وحصرها بأسر معلومة انقرضت او اهملتها . ومن اهم الضربات في تأخر الصناعة ومنافسة المدن والثغور بها بانحطاط تجارتها ومعلوم ان التجارة تقوم بجناحيها اللذين هما الزراعة والصناعة فصارت مهيضة الجناح متأخرة ولعلنا نتسابق الى رفع شأن اسباب العمران فنعيد الى هذه المدينة القديمة مجدها او شيئا منه بمعاضدة رجال الدولة المنتدبة والحكومة الوطنية ولكل اجل كتاب انتهى كلامه .

ومن معالم دمشق الشهيرة ما بناه ابراهيم باشا المصري حين دخل الشام وهي ثلاثة مراكز للجيش . وقد هدم ذلك جمال باشا في آخر حكم الاتراك واخذ قسما عظيما منها للشارع الجديد .وبقي منها فضلات في الجهة القبلية باقية الى اليوم . واسس ايضا المستشفى الكبير في اول جادة الصالحية . وهو باق الى اليوم مركز الضعفاء .

ومن معالم دمشق المشهورة . ومعاهدها المأثورة قلعة دمشق ذكر المؤرخ الدمشقي الكبير ابن طولون الشهير في وصفها قال : هي بناء كنعان . ثم ان بني اسرائيل قتلوا بني كنعان . ونفوا من بقي منهم فصارت لهم . ثم وثب الروم على بني اسرائيل فغلبوهم . ثم جاءت العرب فقتلت الروم وسبتهم وهرب من سلم منهم الى بلاد الروم . فعمر العرب بعضها وقيل اول من بنى قلعة دمشق اقس بن اوق احد كبراء اليونان وقيل ان اول من بناها واسسها ارسميس الخوارزمي ولما جدد القلعة الملك العادل ابو بكر بن ايوب اذهب باب العمارة . ثم ان الاتراك احدثوا في دولتهم بابا لها ويسمى بباب الجديد ثم صفحته العوام بباب الحديد وهو يفتح للقلعة ويليه من الغرب باب السر سمي بذلك لكونه يفتح للقلعة ايضا وكانت الاتراك ينزلون منه سرا ويطلعون منه ويجتاز الخارج منه على جسر من خشب من تحته الخندق الدائر بالقلعة يزيد عمقه على مائة ذراع بذراع العمال . به يخزن الماء . واصطلح في آخر دولة بن قلاون ان من يلي حكم دمشق يصلي

عند هذا الباب ركعتين بحيث يبق الباب على يساره وتقف جنود القلعة حاملين السلاح الى ان يفرغ من صلاته ودعائه وفيها دار العــدل التي انشأها الملك العادل نور الدين الشهيد وهي التي تسمى اليوم بدار السعادة وهي تلي باب السر وعلى شرقيها باب النصر فتحه الملك الناصر بن ايوب للمدينة وكان قد وقع روشنها وعمل بها قبة مرتفعة .

وذكر العلامة ابن شــداد الحلبي في كتابه اعلاق الخطيرة في تاريخ القدس والجزيرة عن هذه القلعة قال : كان بنو امية ينزلون في الخضراء . فلما ملك بنوا العباس واخربوا دورهم وسور دمشق . وعفو آثارهم ، ثم بنوا سورها ودار امارة بها تسمى القصر وانشئ فيها قاعة الذهب وبهذه القلعة جامع تقام فيه الى زمننا الجمعة وبه مدرسة بناها نور الدين الشهيد تولى الخطبة والتدريس بها تاج الدين بن سوار الدمشقي سنة ٧٣٥ هـ شيخ الحيا وله احفاد اليوم في باب السريجة

ذكر صاحب الاغاني ان المأمون دخل دمشق فطاف فيها وجعل يطوف على قصور بني امية ويتبع آثارهم ، فدخل صحنــا من صحونهم فاذا هو مفروش بالرخام الاخضر كله وفيه بركة ماء يدخلها ويخرج منها من عين تصب اليها ، وفي البركة سمك وبين يديها بستانـ على اربعة زواياه سروات كأنها قصت بمقراض من التفافها ، وفي ذلك دليل آخر على ان قصور بني امية ظل بعضها الى اوائل القرن الثالث ولم تخرب كلها .

ولم يزل الامراء ممن يملك دمشق ينزلونه الى ان كانت بين الرعية وبين اميرها من جهة المستنصر صاحب مصر وهو امير الجيوش بدر الدين سيرى ، مناوشات ومنافرات أوجبت الوحشة بينهم وبينه ، فاحرقوا القصر ونقضوا اخشابه وشمله الخراب ، ولم يبق بدمشق دار امارة الى ان ملكها تاج الدولة تتش سنة ٤٧١ هـ فبنى بها قلعة لطيفة جعلها دار امارة وسكنها ، ولما ملكها شمس الملوك دقاق وولده في سنة ٤٨٨ هـ زاد فيها وشيدها . ولما ملك نور الدين الشهيد دمشق بنى بها دارا حسنة وهي الآن تعرف به وانشأ بها دارا تسمى دار المسرة ، في غاية الحسن . ولما ملك الملك العادل دمشق هدمها ووزع بناءها على امرائه واولاده

وجعلها اثني عشر برجاً ، كل برج منها في قدر قلعة ، وحفر لها خندقاً واجرى اليها الماء فعمرت احسن عمارة من اموال من وزعت عليه من الامراء ، ثم جدد عليها ولده الملك المعظم مباني من دور وقصور . ولما ملك التتر البلاد واستولوا على دمشق هدموا شرافاتها وشعثوا ابرجتهـا وهدموا كثيراً منها . فلما ملكها الملك الظاهر جددها وشيدها ورم ما كان التتر المخذولون هدموه منها .

نقل صاحب دائرة المعارف عن هذه القلعة ايضا : ان قلعة دمشق اسست في صدر الاسلام ، وكانت جميلة يسكنها الملوك والحكام ، طولها ٢٣٠ ذراعاً وعرضها ١٧٠ ، وارتفاعها اكثر من تسعين قدماً ، امست خربة الا مخازن الذخائر العسكرية في زمن الدولة العثمانية ، وبدأ خرابها منذ اكثر من خمسين سنة .

ومن آثار الشام الشهيرة مدينة تدمر : فهي نحو الشرق من حمص ينسب بناؤها الى عهد سليمان عليه السلام ، ولعل المراد انه زاد فيها وبنى صرحا او حصنا ، وقد ورد منها الى معارف دمشق كتاب انه وجد في رواق دار الحكومة ثلاثة احجار ضخمة من رخام ، قد نقش على الاول صورة زنوبيـا ملكة تدمر ، وعلى الآخرين صور الاسرة المالكة ، وبعد التحقيق فهم انه اكتشف في آخر عهد الاتراك مغارة لها دفتان ، وفي داخلها سريران بهما قبر الملكة زنوبيا وعليه رسمها وغيره ، وعلى كل منهما رسم يد جميل الشكل عليه طلاء من الزيت وقد بقي ذلك متحفا الى اليوم ، ذكره ياقوت في معجمه .

ومن معالم دمشق الشهيرة التي يقصدها الافرنج للتفرج عليها دار اسعد باشـا المعظم ، احد حكام دمشق وقاعاتها الشهيرتان بجمال الصنعة ولطافة الاحجار وتحلية الجدران بالذهب ، مما يندر مثاله في هذه البلاد وغيرها وهي الآن محل الآثار الشرقية ، بعد ان كانت وقفا لسكن الذرية ، وقد تقدم ذكر ذلك في محله من كتابنا واليك الآن ما رواه ابن بدير في كيفية اقامة هذه الدار قال وفي سنة ١١٦٣ هـ شرع اسعد باشا في بناء داره جنوبي الجامع الاموي فهدم الدور التي حولها وادخلها فيها ، وشغل اكثر بنائي البلدة ونجاريها ونقاشيها ، وجلب البلاط من اكثر دور المدينة ، وحيثما وجد بلاطا ورخاما واعمدة وفساقي ، يبعث بمن

يقتلعها ويعطي القليل في ثمنهـــا . وكان على مقربة من مقبرة البرامكة فوق نهر بانياس قصر يقال له الزهرانية ، مطل على المرجة الخضراء ، قيل انه بناء الملك الظاهر ، كان من المتنزهات العظيمة ، تهدم فاخذ انقاضه . ونمي اليه ان في وادي كيوان طاحونة قديمة تهدمت فاخذ انقاضها . ونقل ايضا : انه اولم حسن السفرجلاني له وليمة شائقة في قاعة ابن ترتق بالصالحية ، فرأى فيها ثلاث سروات فطلبها لداره ودفع لصاحبها شيئا من المال القليل . وقد نقل المذكور من بصرى الشام احجارا وعمدا من الرخام كثيرة العدد ، واخذ من مدرسة الملك الناصر في الصالحية عمداً غلاظاً حملها على عجلات وجرها بالثيران ، وهدم سوق الزنوطية فوق حارة العمارة المعروف اليوم بسوق مسجد الاقصاب وكان كله معقودا بالاحجار ففكه واخذ احجاره ونقل احجارا من جامع يلبغا ومن تحت القلعة وانما سمع ببلاط لطيف او عمد حسنة يأتي بها شراء كان او اغتصابا ويشغل العملة بأجرة وبدونها ومثل هذه تم بناء هذه الدار بخراب كثير من الدور والآثار وقد علق المؤرخ بقوله ولعل غيره من الحكام والامراء حذا حذوه في الهدم والسرقة ، فلا هم يريدون ان يروا آثار غيرهم في الوجود ، ولا هم يستطيعون تقليدها فتاختذهم الغيرة والنعرة ويخربون بيوتهم بايديهم .

ونقل بعضهم بان هذه الدار كانت مقرا ليزيد ومعاوية الصغير . ثم ذكر جملة لطيفة عن بعض الآثار التي تستحق الذكر احببنا نقلها قال : ولما بنى معاوية داره بدمشق المعروفة بالخضراء ، لقبة خضراء بناها عليهـــا عرفت الدار بها ، ولما استخلف عبد الملك بن مروان طلب من خالد بن يزيد بن معاوية شراء الخضراء وهي دار الامارة فاشتراها باربعين الف دينار ، وقد بنى الامويون بعده بيوتاً لهم كانت بجوار الجامع منها دار عمر بن عبد العزيز مكان المدرسة السميساطية ، الآن ودار هشام مكان تربة نور الدين ، وقصر سليمان مكان سقاية جيرون ، ودار مسلمة بن هشام بباب البريد قال الذهبي بنى سليمان بن عبد الملك دار السلطنة ، وعمل بها قبة صغرى عالية بدمشق بدرب محرز ، وكان لعاتكة ابنة يزيد ابن معاوية قصر خارج باب الجابية (جانب قبرها اليوم) وقال ابن عســـاكر

كانت دار هند بنت معاوية في درب القبلي . وقصر حجاج منسوب الى الحجاج ابن عبد الملك بن مروان (لم تزل بعض من آثاره ظاهرة الى اليوم) . وقد بنى الامويون قصوراً لهم في الغوطة لانهم كانوا يملكون جانبا عظيما منها ولكن لم يظهر لها اثر ولا خبر .

ثم قال اشتهرت في القرن الخامس دار ابن بي عقيل صاحب صور (٤٦٥) ، دخلها اسامة بن منقذ فرآها وقد تهدمت وتغير زخرفها فكتب على لوح من رخام هذه الابيات :

احذر من الدنيا ولا تغتر بالعمر القصير
وانظر الى آثار من صرعته منا بالغرور
عمروا وشادوا ما ترا ه من المنازل والقصور
وتحولوا من بعد سكناها الى سكنى القبور

ومن الابنية الشهيرة بدمشق ، القاعة المشهورة بباب جيرون وباب السلسلة ، انشاها الامير محمد بن منجك الذي عمر العمارات الفائقة بدمشق ، فانه تأنق في عمارتها بالقاشاني والرخام التي كانت مقر يزيد حين تولى الملك . وعمر القصر المعروف به في الوادي الاخضر سنة ١٠١١ وذكر الخياري انه كان في القرن الحادي عشر في المرجة بدمشق مقابل القصر المنجكي قصر الباشا محمد ابن الناشف وكان في الصالحية محل يقال له القصر ، عمره ابو البقاء الصموري المتوفى سنة ١٠٣٥ وكان من احسن المتنزهات ، وفيه يقول الامير المنجكي من قصيدة :

اقسمت بالبيت العتيق وما حوت بطحائه من حجره وحجونه
ما ضمت الدنيا كقصرك منزلا كلا ولا سمحت بمثل قطينه

ومنها قاعة حسين ابن قرنق في صالحية دمشق عمرت في سنة ١٠٧٧ وكان يضرب بها المثل ، وهي في مكان دار محمد افندي الشريف جانب حمام العفيف دثرت في القرن الماضي وكان ابن قرنق عارفا بالعلوم الغريبة وكان صدر دمشق وعمر الاماكن البهية من جملتهـا قصره وقاعته قال فيه مفتي دمشق الشيخ احمد المهمندار مؤرخا عام بنائه :

لقد شيد الشهم الحسيني الذي له مآثر مجد لا يحيط بها عد
بناء الى اعلى السماكين ارخوا هي القاعة الحسنا فطالعها السعد

نقل حاكم البقاع في كتابه نزهة الابصار في ذكر الاقاليم وملوك الامصار قال: انه اول من بنى قلعة دمشق اقسر بن اوق احد كبراء اليونان، وهم الذين وضعوا الارصاد وبنوا دمشق في طالع سعيد، ليكون من سكنها في دنياه سعيداً وصرفوا انهارا تجري الى الاماكن المرتفعة والمنخفضة، وبنوا هذا المعبد الكبير وكانوا يصلون الى القطب الشمالي وكانت محاريبه للشمال وبابه يفتح الى جهة القبلة (حيث المحراب اليوم كما هو مشاهد عياناً، وهو باب حسن مبني بالحجارة المنحوتة بنوافذ هندسية بديعة ظاهرة الى اليوم يرى ذلك من السوق، وعن يمينه ويساره بابان صغيران). ووسعوا المدينة وبنوا سورها وجعلوا لها سبعة ابواب كل باب باسم كوكب من الكواكب السبعة وكانوا يعبدونها وكان لهم على كل باب عيد ونقل ايضا في كتابه عند ذكره مدينة دمشق قال: هي مدينة يقال لها جلق موضع بالشام، وهي جنة الارض لما فيها من الاماكن النزهة.

انهار دمشق

مخرج نهر دمشق من تحت كنيسة من جبل بواد يقال لها الفيجة، ثم يجتمع هناك مع نهر بردى ومنبعه بارض الزبداني يقال لها عين التوت، ولولا اختلاط عين الفيجة بنهر بردى لكان اطيب ما يكون من المياه، وينقسم ذلك كله لما يقرب دمشق الى سبعة انهر: يزيد، ثورى، الدراني، بانيـــاس، قنوات، عقربا، بردى. وهو الاصل نذكر ما قاله العماد الاصفهاني في وصفها:

الى ناس باناس لي صبوة لها الوجد داع وذكر مثير
يزيد اشتياقي وينمو كما يزيد يزيد وثورا يثور
ومن بردى بردقلبي المشوق فها انا من حره مستجير

ثم نبدأ بذكر ما قاله المؤرخون في وصفها وبيان تقسيم انهارها ومتنزهاتها وحدائقها قال صاحب تاريخ نزهة الانام في محاسن الشام المقسم الذي يتقسم منه بردى

الى سبعة انهر اصله من ينابيع عيون التوت وقال آخر في مرج الزبداني عند قرية يقال بردى خربت مع طول الايام وهي قرب قرية يقال لها قنوا لو صنوا من كورة الزبداني كالبحر الى ان يلتقي في نبع قرية الفيجة واسمها الفيجا. وقد انتقل هذا اللقب الى دمشق توسعاً للمجاورة والمطابقة وحسن التناسب.

ثم قسم الانهار السبعة فقال: منها يزيد وثورى بذيل الجبل الشرقي ويشق بردى في بطن الوادي. وبانياس. قنوات. القناية والداراني بذيل الجبل الغربي وآخر ما ينفصل من هذه الانهار هو نهر بردى ومعناه البارد. كان يعرف قديما بنهر ابانية. وهي لفظة عبرانية معناها مياه الصخر. وسماه اليونان خريستيورواس اي مجرى الذهب وقد اصابوا في تسميتهم هذه كل الاصابة.

روى ابن عساكر في تاريخ دمشق ان نهر يزيد كان صغيرا يجري فيه شيء يسير. يسقي بعض الضيع في الغوطة لقوم يقال لهم بنو فرقا. ولم يكن لاحد فيه شيء غيرهم فماتوا في خلافة معاوية بن ابي سفيان ولم يكن لهم وارث. فاخذ معاوية ضياعهم واموالهم. فلم يزل كذلك حتى مات معاوية وولي ابنه يزيد. فنظر الى ارض واسعة ليس لها ماء وكان مهندسا. فنظر الى النهر فاذا هو صغير. فامر بحفره فمنعه من ذلك اهل الغوطة ودافعوه. فلطف بهم الى ان ضمن لهم خراج سنتهم من ماله فاجابوه الى ذلك. فاحتفروا نهرا سعته ست اشبار في عمق ست اشبار. فلم يزل كذلك حتى استخلف سليمان بن عبد الملك فاقام عنده رجل من اهل الذمة يقال له جرجي. ثم اتى بشاهدين يشهدان ان له في النهر قناة تجري الى حمام له بديره. فسجل له سليمان بذلك سجلا واشهد به شهودا. ونسخته: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب كتبه سليمان بن عبد الملك امير المؤمنين الى جرجي بن قمرا بثبات قناته في نهر يزيد لما قامت له البينة وفيه من الشهود عمر بن عبد العزيز وعبد العزيز بن الحصين الهمداني ويزيد بن اسلم وعبد الله بن عبد الملك من اهل الغوطة. وذلك يوم الخميس في شهر رمضان سنة ثمان وتسعين. واشهد على نفسه وكفى بالله شهيدا.

وقل الماء في خلافة سليمان بن عبد الملك حتى لم يبق في نهر بردى الا شيء

يسير ، فشكا اهل الغوطة الى سليمان أمرهم ، فوجه مولاه عبيد بن اسلم الى اصل ماء العين ليكروها ، فبينما هم يكرون فيها اذا هم بباب حديد مشبك يخرج الماء من كوع فيه يسمعون داخلها اضطراب السمك في الماء ، فكتبوا بذلك الى سليمان ، فامرهم ان لا يغيروا شيئاً عن اصله . فلم يزل كذلك حتى ولي هشام ابن عبد الملك ، فسأل اهل حرستا ماء للشرب ولمسجدهم ، فكلم فاطمة ابنة عبدالملك يعني ابنة عاتكة ، وعاتكة ابنة يزيد ، على ان يحفروا نهراً صغيراً الى مساجدهم للشرب لا لغيره ، وفتح الذي امر به فتراً في فتر مستدير يرى على قدر شبر من ارتفاع الارض . ثم فصل ابن عساكر تقسيم الانهار والجداول زمن هشام ابن عبد الملك مما لا فائدة في ذكره لفقدان الاصطلاحات التي ذكرها في ميزة الانهار فاعطى الجدول ماء غدقاً والنهر غيضاً وشلا .

وقد حصل قلة المياه في هذا العام سنة ١٣٤٣ فأوفدت الحكومة المحلية لجنة التجاوز على المياه وقدمت اللجنة تقريراً بعد التكشف على مياه ثورى ويزيد ، والتحقيق في الخلاف الواقع بين اصحاب النهرين ، قالوا فيه ان نهر يزيد يقسم من بردى ، قرب قرية الهامة بفوهة سعتها ٣٤ متراً و ٧٠ سنتيا بنسبة ٢٥ من مجموع نهر بردى ، وان قناة المزة تقسم بين الهامة ودمر بفوهة سعتها ٤٠ متراً اي بنسبة ٧٥ في المئة من مجموع نهر بردى ، ونهر الديراني يتفرع عن بردى بين دمر والشادروان بفوهة سعتها ٤٠ متراً اي بنسبة ٢٥ في المئة من مجموع مياه النهر ، ونهر ثورى يتفرع بعد دمر قرب جسر الخط الحديدي ، وتنقسم المياه ١٤ جزءاً لنهر ثورا ، وعشرة اجزاء في نهر بردى ، وينقسم نهر قنوات من بردى قرب الشادروان بفوهة سعتها ١٨ متراً و ٣٣ سنتيا اي العشر بالنسبة لمجموع مياه بردى ، وينقسم نهر بانياس قرب الربوة بمقدار خمسة في المئة من مجموع نهر بردى الباقي فتنساب فيه مياه قليلة تكونها بعض الينابيع والعيون الصغيرة الموجودة على مجراه بعد الربوة .

وقد عثر على حجج قديمة مختلفة التاريخ عند اهل القرى من الزراع تقول بان تكون السدود مسدودة بالشوك والبلان والغبا اي الشيح ، وتوضع

كباشات الواح خشبية من دون تراب ولا احجار على نسق واحد .

قال الامام العلامة تقي الدين السبكي في رسالة له في حكم الانهار الجارية في دمشق ما نصه :

اما بردى فلا اشك انه غير مملوك لانه مذكور في شعر حسان بن ثابت فهو موجود في ذلك الوقت وقبله فارضه والعين التي تجري الماء منها اما مباحة وهو الظاهر ، واما ان يكون مملوكا للكفار وانتقل عنهم الى المسلمين فيئاً باقياً على ذلك او وقفا من عمر بن الخطاب كارض السواد ، واما ما كان قبلا فليس ملكا لاحد . واما بقية الانهار التي فيها مثل يزيد وثورى وبانياس ونهر المزة ونهر القنية المسمى بقنوات وغيرها فالظاهر انها كذلك ايضا وانها متقدمة ، لان دمشق مذكورة في الزمن القديم وانها ذات انهار ، ويحتمل ان تكون حادثة بعد الاسلام واذا كان كذلك فما كان بانخراق في موات فليس بمملوك ، وما كان بحفر فان قصد به من حفر الاباحة فكذلك ، وان قصد به نفسه فملك له ، لكنه الآن لا يعلم الحافر ولا ورثته فهو لعموم المسلمين انتهى كلامه .

اقول انه من راجع اقوال فقهاء الحنفية بعد ذلك يجده مملوكا لاربابه كل نهر يسقي اراضي متعددة تقسم عليهـا بالساعات والدقائق بموجب تعامل قديم وحجج شرعية .

وكتب شيخ الربوة في الربع الاول من القرن الثامن نبذة بشأن انهار دمشق انها لم تتغير الى اليوم اسماؤها واصطلاحاتها فقال ان نهر دمشق ينبعث من مرج الزبداني ومن عين الدلبة فوق الزبداني واسمه خريستورواس القديم ومن عين الفيجة الذي هو نهر ابانة ، ومن اعين صغيرة في طول وادي بردى ، واصل عين بردى من تحت جبل يحاطه اساس متين بجنب قرية يقال لها الصنبرة ثم قال : ان عدد بساتين دمشق مائة الف واحد وعشرون الف بستان تسقى بماء واحد ، ثم يتفرق هذا النهر الى سبع فرقات كل فرقة نهر يسمى باسم منها نهر يزيد الذي وسعه ٦٢ سمي به بعد ان يوزع على محلة الصالحية ، ونهر ثورى فتحه تاج الملك ثورة ونسب اليه وهو من ملوك الروم او جدده وكان اسمه

نهر سقط وقال بعضهم نهر ثورى أي نهر النظر في اليونانية . وهو الخلخال ونهر بانياس فتحه بانياس الحكيم اليوناني . ونهر القنوات الذي كان اسمه قديما شكور اوقنية وكلاهما يجريان الى المدينة ويتفرقان في المصارف والبرك والقنى والحمامات ويوزعان في معابدها وشوارعها ودورها . ونهر مزة منسوب الى قرية المزة وكان اسمه المنزه . ونهر داريا واسمه بشلوز وهو سادس النهور وارفعها مجرى وابعدها مقسما . وسابعها بردى الجاري في قرارة الوادي ولا يقبل الارتفاع من مجراه وعند بلوغه القلعة يتفرع منه نهر عقربا واسمه قديما نهر عادية . ثم ينقسم من هذه الانهار فرق وجداول وتتفرق متشعبة باراضي الغوطة حتى لا يبقي منها بقعة يمكن وصول الماء اليها الا ويصل وركبها سقيا لها بتقسيط معلوم في الليل والنهار بساعات معلومة لا تزيد ولا تنقص ثم يخرج عمود بعد ذلك وينبعث في جهة الشرق ويسقي قرى واراضي مرجية وصحراوية حتى يصب آخره في بحيرة شرقي دمشق بارض عذراء ينبت بها القصب . وهذه البحيرة يصب فيها نهر آخر يسمى الاعوج . يجتمع عند تحليل الثلج من عصارات المياه والمواضي فيكون نهرا كبير انتهى .

اقول ان غزارة هذه المياه وكثرتها لو بني عليها معامل متنوعة مثل معمل الحرير والغزل الذي كان على نهر ثورى في طريق برزة لاصبحت البلاد غنية لا تحتاج لغيرها واهلها اغنياء في حياة مستقلة . وقل ان تجد في غير دمشق هندسة توزيع مياهها على دورها واحيائها توزيعا ذا اصول . فتدور المياه باقنية وانابيب نافذة من دار الى اخرى وقد زاد حسنها في عصرنا سحب ماء العين من قرية الفيجة بقسطل من حديد صرف عليه مبلغ جسيم من اهل دمشق وبقي مختصا للشرب في المساجد والمعابد والاحياء بحالة حسنة . وفي عامنا هذا اي سنة ١٣٤٣ استحسن اهل الرأي السديد ان يجلب نظير هذا الماء في قسطل آخر ويوزع على دور البلدة في اشتراك مقدار معين من الدراهم واجتمع بواسطة ذلك مبلغ جسيم وبديء في العمل وسيوزع على مقدار رغبة كل انسان .

وبهذه المناسبة نذكر ما قاله بعضهم عن الزبداني قال هي قرية من ضواحي

دمشق في وادي نهر بردى يكثر في نواحيها التفاح والبساتين متصلة من هناك الى دمشق . كانت قديما على ما ذكر ياقوت كورة مشهورة معروفة بين دمشق وبعلبك . منها يخرج نهر دمشق ، واليها ينسب العدل الزبداني الذي في طريقه، فقال الشاغوري الدمشقي يهجوه :

بالعدل تزدان الملوك وما ... شأن ابن ايوب سوى العدل

هو دلو دولته بلا سبب ... فيها ارى ذا الدلو في الحبل

ولفتيان الشاغوري غرام بالزبداني ورباعها ، وكان اقام فيها مدة وهو القائل في جنتها ، وهي ارض فيحاء جيلة صبحاء وقد ابدع ابياتاً ساقها في ترجمته ابن خلكان وذكرناها في كتابنا هذا منها قوله :

يا جنة الزبداني انت مسفرة ... بحسن وجه اذا وجه الزمان كلح

وصف متنزهاتها نظما قال الشاعر الراعي الدمشقي :

وانظر الى السهمين والمبطور ... تراها جنات بلا محظور

والنيرب الاعلى محل الانس ... كذلك الادنى حيات النفس

ونزهة الدنيا اراضي سطرا ... لم تلق الا روضة او نهرا

وفي نصيب جحفل الاطيار ... ومجمع الازهار والانهار

تمشي بها الامواه مشي الصل ... وحليها الزهر ونقش الظل

وفرشها الياقوت والزمرد ... وفوقها شحرورها يغرد

فكم بها روض وكم من مغنى ... طير التصابي في رباها غنى

وفي رياض السفح واللوان ... هبت رياح الشيح والحوذان

والجبهة الغرا على البسطه ... وسرحة الوادي مكان الشطه

واذكر رياض القصر والخلخال ... والقيجة الخضراء والسلسال

مسارح الارام والغزلان ... معاهد الحور والولدان

محاسن الدنيا رياض الغوطه ... لما غدت في حسنها مغبوطه

تشقها الانهار والخلجان ... وكل نهر منهم سيحان

فاين منها الشعب بالوان ... وما حوى الخابور والميدان

وبجمع الامواه جسر الغيضة وحيث ما يممت تلقى روضه
ملتفة الاغصان بالاغصان ومرتع الاطيار والغزلان
ومنتدى الافراح وادي الربوة واد حباه ربه بالحظوه
تجري به الانهار كالكواكب لكنها تمشي على المراتب
قد ساقها حكيمها المهندس وخطها فهو الرئيس الاكيس
وكلهم قد جاور الرياضا وبره عليها قد افاضا
فقسموا من بعضها اقساما وخصصوها للقرى سهاما

وقال ايضا في تفصيل انهارها :

اولهـا اصل النهور بردا كم شوق مجرور لديه بردا
وعند نورها يثور الوجد غذاؤه القيصوم ثم الرند
كذا يزيد اطيب الانهار اذ جريه في داخل الاحجار
يا طيب ماء القنوات العذب اذ خصصوه اهلها للشرب
وصنوه في فضله باناس نهر زهي في حسنه باناس
يتلوه نهر اسمه الداراني يمشي كمشي الواله الحيران
وجدول يسمى قناة المزة مقامه فيها مقام العزة
هذي النهور السبعة الاصول اسمع فدتك النفس ما اقول
اما ابو الانهار زاهي البهجة يشق جوف الارض نحو المرجه
المرجة الخضراء ذات الشرف وقد زهت اكتافها بالغرف
يمر مثل السهم كالمجتاز حتى يرى قد شق صدر البـاز
وقد جرى في ذلك الميدان كانه سابور في الايوان
تضمه قناطر من جلمد ترنو كالحاظ الغزال الاغيد
هنـاك يلقى جدولا قد عذبا سماه اهل الشـام نهر عقربا
وبعده من المتصابي داعية سموه من انهارها بداعيه
ثم المنيحي جدول كبير كانه من بينهم امير
كذلك نهر اسمه الزبديني يسير بين الورد والنسرين

وثم نهر اسمه الوسطاني ومقسم الغربي نهر ثاني
يا مجمع الاحباب يا در ميناً كم ذابا شراك الهوى ترمينا
ويا حياة النفس نهر الماصيه والحاجي نهر سما في الساميه
ولست انسى الجدول الطحان يسير سير الآبق الولهان
يمشي رويداً صنوه الزابون كذلك نهر الملك المصون
كذا خليج اسمه الشيداني ونهر تل الذهب الساماني
ويبت نايم نهرها قد عظما وجدول يسقي اراضي حزرما
وجدول يسعى الى القريفه يمشي كخرد شيق مفهفه
وآخره يسقي رياض المتبن يمشي اليها كالحكيم المتقن
وللبلاليئة خصوا جدولا يمشي الى صحرا بها مهرولا
وما بقي يجري الى العباده يسعى كسعي الحية المرتاده

اما وصف منتزهاتها فقد اطلعت على كتابة تاريخية تناسب الموضوع الى العلامة احمد تيمور باشا احببت اثباتها نقلا عن كتاب ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر لابن طولون الدمشقي المتوفى سنة ٩٥٣ ه قال: قد وقفت على فصل بديع استطرد الى ذكره في وصف ربوة دمشق ومنتزهاتها وما كانت عليه من العمران لعهده، ووصف ميدان القبق ودقائق ما فيه، فرأيت ان انقله خدمة للتاريخ وانما دعاني لذلك امران: الاول اشتمال هذا الفصل على فوائد يعز العثور عليها كل حين حتى في كتب البلدان، فلا سبيل اليها الا بابتحاثها من مثل هذه الدقائق وهو شيء موكول للمصادفات. والثاني ان ما بايدينا من معاجم البلدان كتب قبل القرن العاشر الهجري، فالوقوف على شيء من وصف العمران حوالي ذلك العصر مما يصبو اليه الباحثون في هذا الموضوع. قال ابن طولون سألني حيدر ابن جمال النصر اباذي عن منتزهات دمشق فقلت له: اعظمها الربوة وكان بها دكاكين لسمانين وبواردية وافسهاوي وقفاعي وفرن وتنور واربعة شراتحية وطباخ غير من يأتي اليها من البساتين، وكان بها اربعة مساجد وجامع بخطبة ومدرسة يقال لها المنجكية، موقوفة على مدرس حنفي وطلبته، وكان بها ميدان

شرقي نهر بردى على الارض وغربيه ، يصعد اليه بسلم حجر ، وكان بها النخوت وهو قصر مرتفع على سن جبل به قاعة لبوابة وطبقات على هيئة الايوان ينظر الجالس هنالك من مسافة يوم ، لو لم يكن حائل ، وبه مأذنة ، ومسجد وميضاة وتحته نهر ثورى وفوقه نهر يزيد ، ويصعد اليه من سلم حجر بناه نور الدين الشهيد للفقراء فان الاغنياء لهم قصور ، وكان بها حمام وخمسة مقاصف اثنان شرقي نهر بردى ، وثلاثة غربيه ، وفي كل واحد منها بيت للمقاصفي وعنده فرش للمتنزهة .

(اقول وقد تجددت هذه المقاصف والبيوت في عصرنا) ، وكان بها مكانان لعينين احداهما تسمى المثلثم قبال المهد الشرقي ، والاخرى السخنة شمالي المقاصف الغربية ، وعليهما قبة بين نهر بردي والقنوات وهي من العجائب ، فان ماءها فاتر صيفا وشتاء ، وشماليها اربع عيون ، وكان قبليها خانان لربط الدواب وكان بها العاشق والمعشوق وهما برجان للحمام في خلف الجبل الغربي وشماليها برج عتيق يسمى العذول .

وكانت هذه الربوة تقصد بالزيارة ، ثم تغير امرها وصار يقع بها المنكر وتقصدها الناس يوم السبت والاحد دائما ، وبعض الناس يوم الثلاثاء والاربعاء ويقال لها المحفل تطلع اليها فيها الحلقية والمشعبذون والمخايلية هم اللاعبون بخيال الظل والحكوية ، وهذا في ايام الصيف واما في الشتاء فلها ناس تسمى المجاورين ، ومع ذلك كله لا تخلو من الصلاة جماعة في المساجد وغيرها ثم خربت ثم عمرت ، وهكذا مرارا (والآن بقيت مأوى الوحوش)

وفي الوادي شرقيها في طريقها من جهة المدينة على حافة نهر بردى مسجد ودكاكين للتعيشة ومقصف وبركة ماء تقصد ، وعلى كتفها حمام النزهة خربت وعمرت مرارا والآن خراب وشرقيها في الطريق المذكور المرجة الشهيرة وبها القصر الابلق وكان من عجائب الدنيا يشرف على الميدان الاخضر شرقيه ، انشأه الملك الظاهر ركن الدين عقب رجوعه من حجته في محرم سنة ٦٦٨ كذا رأيت هذا التاريخ على بابه الشمالي وعليه ضرب خيط من رخام ابيض وفي

وسطه مكتوب على ابراهيم بن غنائم المهندس ، وبابه الآخر ينفذ الى الميدان وفي واجهته القبلية ثلاثون شباكا سوى القماري ، ووسطه قاعة باربعة لواوين او اواوين قبلي وشمالي ، في صدرها شاذروانان غربي وشرقي في صدر كل منهما ثلاثة شبابيك ، فالغربيات مطلات على الطريق الآخذ الى الحام وتربة الصوفية، والشرقيات مطلات على الميدان الاخضر وعلى واجهته الشرقية مائة اسد منزلة صورتها . وعلى الشمالية اثنا عشر أسداً منزلة صورها ابيض في اسود .

اقول وهذا المكان بحدوده هو محل جامع السلطان سليمان العثماني المعمور والموجود اليوم . وشماليه على حافة نهر بردى قصر شيخنا الزين ابن العيني ،وقبليه اعلى الكججانية قصر شيخنا قاضي القضاة الشهاب ابن الفرفور ، وغربيه قصر شيخنا الشهاب ابن الصميدي ، وكان لكل هذه القصور بوابون صيفا وشتاء ، وقدخرب جميع ذلك في الدولة العثمانية ولم يبق الا واجهة القصر الابلق الشرقية .

وكان من ثم الى الربوة من جهتي واديها قصور وجواسق وابنية لم يبق منها الا القليل ذكرها كثير من المؤرخين . ومن متنزهات دمشق ميدان البلكي وقريب منه بستان السيرجي . ويعرف بالجودة تهرع الناس اليه في ايام زهر التفاح لكثرته به ، ومنها بستان الرشدية بالقابون التحتاني تهرع الناس اليه في يوم خميس البيض للفرجة على زهر اللوز لكثرته به ، ومنها بستان ست الشام بالوادي التحتاني تهرع الناس اليه في ايام حفلة الزهر من حيث هو موجود كزهر المشمش وهو الغالب فيه ، ومنها المحلات لدود القز بين عدة انهر قرب ضريح الشيخ رسلان تهرع الناس في ايام حل جوز القز حتى يصير حريرا للفرجة عليه ، ومنها باب كيسان احد ابواب دمشق تهرع الناس الى ظاهرة في اواخر الشتاء للفرجة على المسابقة بين الخيل في مكان يقال له طابق البريكات ومنها مسجد شيخ سعيد قبلي المزة تجاه محل استسقاء اهل دمشق ، وقد ادركت به منبراً من حجر حتى قبة ، والى جانبه محراب من حجر ودائرة حيطان يهرع الناس الى هنالك للفرجة على الوادي الفوقاني ذهابا وايابا .

ومنها قرية عين الفيجة يهرع الناس الى اصل هذا الماء في ايام نضج القراصيا

فانه لا يوجد بدمشق احسن منها ولا اكثر ، ولأجل ذلك كان يذهب منها احمال في على بغال الى سلطان مصر في دولة الجراكسة .

ومنها قرية برزة شرقي جبل قاسيون يهرع الناس اليها لزيارة مقام الخليل عليه السلام الواقع اعلاها وذلك ايام تضج تينها فانه لا يوجد اذ ذاك احسن منه ويكون التين الماسوني قد فرغ ، وقد ارسل صاحب اربل ما لا جزيلا ليساق به الماء من قرية برزة الى مسجد قاسيون فلم يمكن من ذلك الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ولو اذن ان يجر قناة من برزة الى الصالحية لكان امتد عمرانها اكثر ولكانت الدور المشيدة بها بدلا من ان تسقى من نهر يزيد بالقلل والقرب .

ومنها الخيسيات قبلي مغارة الجوع في الصالحية ايام وجود البلح وحب الآس وربما يختصر بعضهم فيجلس عند عين الكرش ويسمى ذلك المكان بالمقصبة . ثم ختم قوله الاستاذ التيمور بقوله انتهى ما اورده بنصه وعامية عبارته .

ومن اعظم متنزهاتها الغوطة ، قال شهاب الدين الخفاجي في كتابه ريحانة الالبا في حقها قوله : ومن برز من سيره وبأها وبطن واديها وتغذى بنسيمها وتربى في حجر رياض نعيمها ، وقال : في ظلال اغصانها المتعانقة هوى وودا ، تقطر بانفاس شمائلها التي صارت للند ندا . وطعم من مائها العذب ، وروى بذوب لؤلؤها الرطب . فجرها يطيب ، ومنظرها كبدر على قضيب . وغوطتها هي في جبهة الشام غرة ، وفي حدائقها النضرة زهرة ، وفي سماء كمالها الزاهية زهرة . وبها مرج الصفر ، ومرج راهط ، ومرج عذرا .

وذكر صاحب مجلة المقتطف عن وصف غوطتها قال : قل من يدخل دمشق او يقرأ عنها شيئاً في الاسفار الا تطرق اذنه كلمة غوطة ، وهي الكورة التي عدت من مفاخر هذه الحاضرة قديما وحديثا ، لخصب ارضها ، وكثرة مياهها ووفرة متنزهاتها وضياعها . تحيط بها الرياض احاطة الاكمام بالاثمار ، ولكن كان هذا ايام استبحارها في العمران ، وتمتعها بنعيم الزمان ومن الغضاضة الآن ان المتنزهات المستوفاة شروط الصحة والراحة مفقودة ، على حين انها

ما انعدمت في كل الادوار حتى في زمن تخريب التتر وبعدهم . فمدينة دمشق فيها نهر كبردى يشقها من غربيها الى شرقيها وهي على جانب من اتساع الرقعة وانبساط البقعة ، لا ترى داخلها ولا خارجها متنزها يصلح ان ينتابه الفقير والغني ،وما برحت متنزهاتها عبارة عن محال للقهوة كثيبة مظلمة يتكاثف الدخان فيها . واحسنها هي التي بنيت قرب المياه والانهر . وكان مدحت باشا الشهير احد ولاة دمشق فكر ان يكشف البيوت والحوانيت المبنية على نهر بردى ويجعل في ضفيه رصيفاً يظلل المارة بالاشجار ويقيم به المتنزهات والاماكن العمومية لكن الاقدار عارضته .

يروى ان المأمون قد نظر يوما الى دمشق وآثارها ، والغوطة واشجارها ، والحدائق وانهارها قال : انهـا خير بقعة على وجه الارض ، ثم قال عجبت لمن سكن غيرها كيف ينعم مع هذا المنظر الانيق الذي لم يخلق مثله .

وقال ابن الاعرابي الغوطة مجتمع النبات ، وقال ابن شميل الغوطة الوهدة في الارض المطمئنة ، والغوطة هي الكورة التي منها دمشق ، والغوطة هي انزه بلاد الله تعالى واحسنها منظراً واحدى جنان الارض الاربع صغد وسمرقند ونهر الابلة وشعب بوان والغوطة ، ويصعب تحديدها بالتدقيق . وذكر صاحب نزهة المشتاق ان طولها مرحلتان في عرض مرحلة ، وبها ضياع كالمدن مثل المزة ، داريا ، كفرسوسة ، حرستا ، كوكبا ، بلاس ، بيت لهيا . وبها جامع قريب الشبه بجامع دمشق ومن بابها الغربي وادي البنفسج يبدأ اوله من باب جامع يلبغا الى صدر الباز كما تقدم ذكره في كتابنا هذا .

وقال الاصطخري : ان عرض الغوطة مرحلة في مرحلتين . وروى المقدسي انها تكون مرحلة في مثلها يعجز عن وصفها ، وفي رأي شيخ الربوة ان الغوطة هي من خيرة دمشق ناحية يكون طولها ثلاثون وعرضها خمسة عشر ميلا مشتبكة القرى والضياع لا تكاد الشمس تقع على ارضها لاحتفاف اشجارها والتفاف ازهارها . ولعل ما ورد في شعر وجيه الدولة ابن حمدان من ذكر الغوطة بلفظ التثنية يراد به غوطة شرقية وغوطة غربية وهو قوله :

سقى الله ارض الغوطتين واهلها فلي بجنوب الغوطتين شجون
وما ذقت طعم الماء الا استخفني الى برد ماء النيربين حنين
وقد كان شكي في الفراق يروعني فكيف اكون اليوم وهو يقين
فو الله ما فارقتكم قاليا لكم ولكن ما يقضى فسوف يكون

وقد وصف غوطة دمشق ابو بكر الصنوبري في ابيات كثيرة منها قوله :

نعمنا في دمشق نعمة ليست بقموطة فيا بهجتها اذ هي في البهجة مغطوطة
هي الجنة في الارض افي الجنة اغلوطة

ذكر الشاعر الشهير سليم بك عنحوري احد اعيان افاضل دمشق في مجلة المجمع على كتاب نزهة الانام في محاسن الشام قال : كنت وعدت قراء هذه المجلة بافراد مقالة خاصة تبحث عن مشاهدات مؤلفة في وصف ما كانت عليه معالم دمشق وابنيتها ومعاهد لهوها وثمارها وانهارها منذ خمسة قرون ليتسنى لابناء دمشق اليوم المقابلة بين الحالتين والحكم فيما تفعله المؤثرات الكونية من التطورات حتى في عالمي الجماد والنبات . ولقد صدق من قال :

واذا نظرت الى البلاد رأيتها تشقى كما تشقى العباد وتسعد

تكلم عن وصف بين النهرين فقال هو مبدأ الوادي يشتمل على فرجة سماوية فيها دور وقصور ، وسويقة بها حانوت وطباخ وقفاعي وحواضري وفاكهاني وحمام وقنطرة يتوصل منها الى جزيرة لطيفة من رأسها ينقسم نهر بردى فيصير نهرين والمقسوم منه نهر الشيخ رسلان ، وهنـــاك مقصفان للبطالين فيما بين المقسمين قبالهما بردى فيصير نهر تقام بها السبت والثلاثاء . ما يصير الحاضر غائبا ويتوصل الى زقاق الغرايين الواقع بين باب السلام وباب توما قرب الشيخ رسلان ويشتمل على قاعات وطباق وغرف ورواق . والجميع يطل على بين النهرين ولكل مكان من ذلك ناعورة يلتذ صاحبها بأنينها .

ثم ذكر شرفيها الاعلى والادنى فقال: ان كلا منهما يطل على الشقراء والميدان الاخضر والقصر الى الآن والمرجة ذات العيون والغدران ، ثم اتى ببيتين تورية بالشرف الاعلى وهما :

الا ان وادي الشام اصبح آية　　محاسنه ما بين اهل النهى تتلى

وان شرفت بالنيل مصر فلم يزل　　دمشق لها بالغوطة الشرف الاعلى

ثم اخذ في وصفه بما يقرب مما قاله المؤرخون وما بقي اثر لذلك البناء الا انه في عصرنا جدد غيره باجمل منه .

ثم ذكر الخلخال فقال : ان فيه سويقة وحوانيت وفرنا وحماما ، وهي مسكن الاتراك ، ويقول كاتب حلبي انه كان في المرجة قصور عالية مشهورة في الآفاق لا يتأتى ايفاؤها حقها من الوصف سيما التي بنتها البرامكة وفيها منظر يقال له الجبهة ثم ذكر منتزهاً سماه قطية وقال : هو مقصف على نهر بردى وعليه النواعير متشعبة ارضه بجداول الماء والبرك والبحرات ، وفيه قصبة ذات حوانيت يعلوها اربعة اطباق .

ثم وصف البهنسية بقوله : انها متنزه جامع بين الاشجار ذات الفوا كه والازهار مع عيون الماء وتظهر منه الى مرجة جسر بن شواش ، وهي اعظم الامكنة وانضرها وفيها سويقة وحمام يقال له حمام الزمرد ، وجامع يخطب به ، وهي مسكن الرؤساء والاعيان ، وفيها دار قاضي القضاة نجم الدين يحيى بن جحى وفيها قتل ، ومنها تدخل الى ارض الربوة وهي بين النهرين (اقول واليوم خرب ذلك كله وصار بستانا يسمى عند اهل الصالحية بالاعسر .

ثم وصف الربوة ومنتزهها فقال : انها مغارة لطيفة بسفح الجبل الغربي سميت ربوة لانها تشرف على غوطة دمشق ومياهها ، ثم قال : وهنالك حمام ليس على وجه الارض نظيره لكثرة مائه ، وقد جدد نور الدين الشهيد هنالك المسجد الديلمي وقاعة كبرى سماه قصر الفقراء يضاهي به قصور الاغنياء وعز عليه ان يحترموا الفقراء مثلهم في الحياة فعمر هذا القصر واوقف له اوقافا منها قرية داريا وفي ذلك يقول تاج الدين الكندي :

ان نور الدين لما ان رأى　　في البساتين قصور الاغنياء

عمر الربوة قصرا شاهقا　　نزهة مطلقة للفقراء

وقد احدث بعض اغنياء دمشق في عصرنا هذا قصوراً عالية جميلة المنظر .

كنا نود ان نذكر مواقعها ونصرح باسم كل بناء لصاحبه لو لا ان عارضنا الحديث الشريف عن النبي بتطاول البناء وان لا تقوم الساعة الا وترى تطاول البناء في كل مكان وقد احببنا نقل هذا الحديث الشريف موعظة حسنة وذكرى لأولي الالباب .

اخرج الحافظ والخطيب ، عن ابي موسى الاشعري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تقوم الساعة حتى يجعل كتاب الله عاراً ، ويكون الاسلام غريباً . وحتى ينقص العلم ، ويهرم الزمان ، وينقص عمر البشر ، وتنقص السنون والثمرات ، ويؤتمن التهماء ، ويصدق الكاذب ، ويكذب الصادق ، ويكثر الهرج ، قالوا وما الهرج يا رسول الله ، قال : القتل ، وحتى تبنى الغرف فتطاول ، وحتى تحزن ذوات الاولاد ، وتفرح العواقر ، ويظهر البغي والحسد والشح ، ويغيض العلم غيضا ، ويفيض الجهل فيضا ، ويكون الولد غيظا ، والشتاء قيظا ، وحتى يجهر الفحشاء ، وتزول الارض زوالا .

وقال صلاح الدين الصفدي صاحب التذكرة :

انهض الى الربوة مستمتعا تجد من اللذات ما يكفي
فالطير قد غنى على عوده في الروض بين الجنك والدف

ثم قال : ومن محاسن الشام الصالحية هي قصبة دون ميل ، يمشى فيها بين ترب ومدارس ببناء جميل استولى عليها المباشرون والنظار ، فازالوا منها العين ولم يبق سوى الاثر ، وبعد ان ذكر كيف تلاعبت بها أيدي الطامعين بخريبوها واستولوا على احباسها واوقافها قال : فيـــا شوقاه لحسن الجركسية وحلاوة الركنية ، ويا لهفاه على جامع الافرم والناصرية ، لقد تغيرت تلك المعاهد ، وغلقت ابواب تلك المساجد والمعابد . وفي الصالحية نهران يجريان وهما ثورى ويزيد ، وكم عليهما من غرفة جميلة وقصر مشيد ، ثم قال : ان شمس الدين الصائغ الحنفي لما قدم من القاهرة الى دمشق نزل في الجسر الابيض عند الامير مجد الدين بن تميم ، وجلس بجانب نهر ثورى وهو يمر في تلك الدار ، فرأى الفواكه تمر على وجه الماء فاخذ يأ كل منه ما استطاب ، ثم قال : لمضيفه افلا تستغنون

بهذا النهر عن شراء الفاكهة بما يفيض من فضله فاجابه مرتجلا :

يقول وقد رأى ثورى خليلي ... يفيض بطيب الثمرات فيضا
ايكفيكم فلا تشرون شيئاً ... فقلت له نعم ونبيع ايضا

وصف اهل الصالحية انهم يهادون سكان المدينة بالبلح والاترج والكباد لنموه وحسنه عندهم ثم ذكر الريباس والصنوبر والموز وقصب السكر .

نقل بعضهم ان الصالحية اشتهرت بقرية النخل ، وهي من انزه المواضع في دمشق ، قيل في مدح قصورها :

قصور الصالحية كالعذارى ... لبسن حليهن ليوم عرس
مطلات على لطف الميـــاه ... دبيب الماء طيبة كل غرس
تقنعها الرياض بكل نور ... وتضحكها مطالع كل شمس
اذا برد الزمان على هواها ... تنفر نورها من كل نفس

ومن متنزهاتها النيرب ، قال صاحب القاموس : اسم محل متنزه بدمشق واسم محل في حلب وربما قيل له النيربان ولم ادر ما السبب ، وهي قرية عدت قديما من المتنزهات المفرحة المقصودة ، بقي الاسم منها فقط ، وهي على نصف فرسخ من المدينة وسط الرياض ، ويذهب بعض المحققين الى ان حي المهاجرين المعمور اليوم في الصالحية كان داخلا في النيرب . قال القرماني في تاريخه انها قرية بدمشق في وسط بساتينها من جهة الغرب ، وقال ابن بطوطة في رحلته انها بأسفل الربوة والآن قد تكاثرت بساتينها وتكاثفت ظلالها وتدانت اشجارها فلا يظهر من بنائها الا ما سما ارتفاعه ، وقال ياقوت : هي انزه موضع رأيته وذكر البدري ان محلة النيربين تعلو متنزه البهنسية ومتنزه جسر بن شواش وانها من اعظم المحلات واخضرها وانضرها . اقول واما اليوم فانها قريبة من الرجوع الى مجدها الاول حيث تكاثر بها العمران الى حدود مدخل الربوة .

ومن متنزهاتها العنابة : كانت محلة نزهة تشتمل على دور وقصور لا يعرف لهذا العهد سوى اسم ارضها فقط . ذكر البدري ان السبب في تسميتها انه كان كاهن في زمن الروم يتعبد في صومعته بتلك الارض ، فحصل له علة اشرف

منها على الهلاك ، فنزل عليه تاجر من تجار الروم ومن جملة متجره خمسة احمال من العناب فحلها ونشرها ، فصار هذا الكاهن يتناول منه وقد طاب له ، فلما اصبح جاء اليه الطبيب فوجده قد نصل من تلك العلة ، ووجد الكاهن في نفسه نشاطا ، فقال له : اما استعملت عناباً ؟ قال له نعم ومن اخبرك بذلك ؟ قال لعلمي ان علتك لا يبرأها سواه وهو معدوم ، وخشيت ان اعلق خاطرك بهذا الدواء ؛ فزرع الكاهن الارض التي حول صومعته جميعها عناباً ، وتقرب بها الى كل من احتاج منها شيء ان يأخذه ، حتى يقال انه وجد في الاسلام من ذلك العناب شجرة واحدة وبنى حولها ، فسمي الحي به الى اليوم .

ومن منتزهاتها ايضا محلة قيس والتين ، يبدأ اولها من زقاق الصخر الى فوق ارض الشرف ، وكان يقع بين سكان حيها قتال شديد في الزمن السابق .

ومن منتزهات دمشق الشهيرة محلة المنيبع كان بها زاوية الادهمية والهنود ، وهي محفوفة بالناس والاعيان ، لها سويقة وحمام وبها مدرسة الخاتونية ، كانت من الاعاجيب ، يشقها في فنائها نهر بانياس ونهر القنوات على بابها ، ولها عدة خلاوي للطلبة ، وبجوارها دار الامير منجك ، والى هذه المدرسة وصل الصليبيون لما نزلوا في ظاهر الفيحاء في القرن السادس ، ولا اثر اليوم للبناء في هذه الاماكن بل انقلبت كلها بساتين وحدائق .

ومن محاسن الشام حواكر الآس وهي من منتزهات دمشق ، قال هي كالحدائق في سفح جبل قاسيون ، فان الفاصل بينه وبين جبل الربوة عقبة قرية دمر احدى منتزهات الفيحاء التي تحد قبة السيار ، ويقال ان سياراً هذا وبشارا كانا يتعبدان على رأس هذين الجبلين فبنوا لهما هاتين القبتين اللتين تقدم ذكرها في كتابنا هذا ثم قال عن قرية الزبداني انها قلعة ورد يستخرجون بها ماء الورد ويرسلونه للقاهرة المحروسة ومكة المكرمة وغيرهما من البلاد وكذلك فاكهتها .

ثم ذكر من محاسن دمشق النرجس والبنفسج ، ثم انتقل الى الاشجار فذكر الحيلاني والسرو والزيزفون ، ثم انتقل الى ارض المزة والالوان فعدها من محاسن دمشق وقال ان حكماء اليونان لما رأوا الجانب الشمالي يصلح لزراعة الازهار

ورأوا طيب ارض الجانب القبلي اختاروها لغرس الاشجار من المشمش المنوع والكمثرى هو باليونانية الانجاص ، الجانرك ، التفــاح وانواعه ، الآجاص ، البرقوق ، الزيتون ، العنب وانواعه ماينوف عن ٦٠ نوعا ، وذكرها البدر في تاريخه القول . لو لا الاطالة لذكرناها باسماءها . ثم ذكر اللوز ، التوت ، القثاء ، الخيار والقرع وبعد ان قال انها من طعام المحرورين ويضر المبرودين اتى ببيتين لابن المعتز في القثاء غاية في الابداع وهما :

انظر اليه انابيبا منضدة   من الزبرجد خضرا مالها ورق
اذا قلبت اسمه بانت محاسنه   وصار مقلوبه اني بكم اثق

ومن متنزهات دمشق ومحاسنها في هذا العصر . الشارع الجديد المفرد باشجاره ونفاسة ازهاره . الذي تم انشاؤه في آخر حكم الاتراك وقد ضاهى بمحاسنه وهندسته شوارع البلاد الغربية والعواصم الشرقية ، وقد تفرع منه شارع آخر ينفذ منه الى محلة باب السريجة .

ومنها شارع بغداد الممتد من الصالحية الى باب شرقي وكان ، مخطوطا في زمن الاتراك كما اسلفنا ذلك في محله ، ثم بعد الاحتلال حدث شوارع كبيرة بديعة في الحسن منها شارع ينفذ من طريق مرج الاخضر الى طريق الصالحية اشترك به جادات كثيرة ، وبني فيها البنايات الجميلة ، والجنائن اللطيفة ، حتى ارتبطت ونفذ بعضها على بعض فصارت بهجة للناظرين . وانشأ بها معامل لصنع المنسوجات الوطنية ، وبعض المساجد ، وبعض الكنائس ونشأ بها ايضا دائرة كبيرة للاشغال العامة ، ودائرة عظيمة للصحة العامة غاية في الحسن والانتظام ، مما الفت انظار رجال الغرب بان في الشرق رجالا يقدرون على رقي بلادهم تضاهي رجالهم وعندهم الاستعداد التام لاستقلال بلادهم وحكمها بلا معاونة احد يتداخل في شؤونهم جزئية كانت او كلية . كل ذلك بهمة مديرها الدكتور يوسف عرقتنجي

ومن محاسن دمشق باب البريد ، وقد اكثر الشعراء من ذكره ووصفه والتشوق اليه ، ومن قول ابن رضوان الساعاتي فيه :

شديد الى باب البريد حنينه   وليس الى باب البريد سبيل

ديار فاما ماؤها فمصفق زلال واما ظلها فظليل

كان لمعاوية بن ابي سفيان قصر مشهور في جانب القبة التي هدمت في عصرنا ، والذي كان بناها مراد باشا حاكم الشام حين رجع من حرب شاه العجم، ووقعت جنوده في الاسر ونجا بنفسه الى دمشق ، ونذر ان يبني خان المرادية الموجود اليوم ، ووقفه الى الحرمين ، وقصته مشهورة ، وعمر هذه القبة بجانبه وكتب باركانها الاربعة البيتين المتداولين على الالسن ، قيل انهما كانا مكتوبين بجانب قوس النصر في مدخل المعبد القديم الذي قام الجامع الاموي على انقاضه وهما :

عرج ركابك عن دمشق فانها بلد تذل لها الاسود وتخضع

ما بين جابيها وباب بريدها قمر يغيب والف بدر يطلع

وقد هدمت تلك القبة حين فتح سوق الحميدية الى سوق الجديد النافذ الى جادة الدرويشية . وبهذه المناسبة نذكر الاسواق التجـارية بدمشق الموجودة اليوم والتي تبلغ نيفاً وخمسين سوقاً وهي : العلبية ، البذاقين، الحبالين ، العبجية ، جقمق، الطويلة ، القطن ، الصوف وكلهـا على خط واحد ممتد من الشرق الى الغرب . وسوق باب الجابية ، السلاح ، البزورية ، العقادين وقد زال الآخر كله في عصرنا بعد حريق الجامع الاموي ، الصاغة ، القباقبية ، الخراطين ، القوافين ، الحرير ، القلبقجية ، النورية ، الخياطين ، باب البريد ، العصرونية ، الحميدية ، باب القلعة الجديد ، مدحت باشا ، الدرويشية ، السنانية ، سوق الخوجه ، علي باشا ، سوق الاحد الممتد الى باب شرقي ، سوق التبن ، الخضر ، خان الباشا العتيق ، الزرابلية السروجية ، السنجقدار ، القيشاني الذي بني مكان الحمام ، خان الكمرك السلطانية ، بناية المرابط ، وغير ذلك مما لم يحضر في ذاكرتنا .

وقد ذكر ابن طولون الدمشقي في تاريخه ذيل التمتع بالقران ، في تراجم الشيوخ والاقران ، عند ترجمته ابراهيم القطاري الصالحي في العصر العاشر ، وفيها يقول : تذاكرت مع صاحب الترجمة عن حارات دمشق القديمة فقلت له : داخل باب الجابية حارة الفسقار ، ومنها حارة البزورية وتعرف قديما بسوق القمح ، حارة مأذنة الشحم وتعرف بعقبة الصوف ، وقبليها حارة الخاطب ، الشاغور ، وشرقيها

حارة درب البغل ، وبعده حارة مسجد البيعة ، لم يكن في الصف الشمالي مسجد غيره من باب الجابية الى باب شرقي يوجه الى القبلة . قيل ان الصحابة بايعوا فيه وهو الآن مدرسة بناها محمد بن يوسف القاري الخواجه الشهير سنة ٨٨٧ هـ وبنى دارا عظيمة ، وقبليها قاطع الطريق العام الآخذ الى باب شرقي ، وبنى ابن اخيه عبد القادر حماما ودوراً عظيمة في تلك المحلة ، ومنها حارة درب الريحان . ثم شرقي ما ذكر حارة الكشك وكان فيها آثار جامع باعمدة نقلت الى عمارة الجامع الاموي بعد حريقه سنة ٧٧٤ ، ثم شرقي ماذكر الى جهة القبلة شمالي باب كيسان حارة القط ، وحارة الكنيسة ثم شرقيهـا حارة النسطون ثم داخل باب توما حارة الجنيق ، ثم قبليها بغرب حارة القيمرية . ثم غربيها بشمال حارة الشلاحة ثم قبليها بغرب حارة البدرانية . ثم قبليها حارة الخضراء وحارة الفليحية التي كانت مجمع العقلاء والاعيان للاستشارة اذا دهم اهل دمشق امر مهم وصارت اليوم تعرف بحارة الهنود الشامية ، وهناك البلاط ودور خلفـاء بني امية ، قيل انه ما تعرض احد لتجديد بنائها وافلح ولقد رأينا بعض ، ذلك ثم داخل باب دار السعادة حارة الاندوني ، وحارة الظاهرية داخل باب الفرج . ثم داخل باب الفراديس حارة مسجد الرأس ، وخارج دمشق حارة القروانة خارج باب كيسان في الشاغور . وشرقيها حارة الجالين وقرب تربة سيدي ابي حارة النحامنه وشرقيها حارة القيشاني وحارة الملاحة ثم شماليها حارة الشيخ رسلان ، ثم منفق حي الزنجاري حارة عين الحد وقربها حارة السبعة ، وشرقيها حارة الفرايين ، وشرقيها حارة الملاحة وطواحين الشنان ثم حارة السوس ثم حارة العنابة . ثم حارة بيت الالهت ، ثم حارت حكر الآس ، ثم حارة شطر الغرب . ثم حارة بير الرويص ، ثم حارة الجهنية . ثم حارة دار الطعم . ثم حارة عين اللؤلؤ . ثم حارة بير الاكراد ثم حارة السلماني . ثم حارة مرج الدحداح . ثم حارة الجرن الاسود . ثم حارة الجاموسية . ثم حارة السميرية ثم حارة حكر الحلال . ثم حارة باب الخوخه . ثم حارة حكر بن سبح ثم حارة حضيرة ستم . ثم حارة سوق ساروجة ، ثم حارة حمام الورد ، ثم حارة الديلم ، ثم حارة السودان اي العبيد

ثم حارة جدرة ملكاش والكيججانية ، ثم حارة الشالة اي حارة المتقاعدين او جالق ثم تحرفت ، ثم حارة زقاق القصاصين ، ثم حارة خان الظاهر ، ثم حارة عين دار البطيخ ، ثم حارة زقاق الشميرية ، ثم حارة الشرف القبلي، ثم حارة حمام الناصري،ثم حارة النبع، ثم حارة القمر ، ثم حارة السلاوية غربي جامع تنكز ، ثم حارة جامع العداس ، ثم حارة الحكر، ثم حارة جانبك المجنون ، ثم حارة الهنكامي، ثم حارة القنوات، ثم حارة الخلخال، ثم حارة المزاز ثم حارة الشويكة، ثم حارة باب مصلى ، ثم حارات حي الميدانيين، باجمعها انتهى ملخصا .

اما حماماتها فهي من اشهر حمامات الدنيا لكثرة المياه فيها ، ولها شهرة عظيمة وترتيب غريب احسنها حمام سوق الخياطين الموجود ليومنا هذا مع حمام الملكة بجادة الدرويشية، حمام البزورية، حمام السنجقدار وقد فقدت دمشق حمام القيشاني المشهور في صناعته الهندسية وشكله اللطيف ،وقد بني في محله سوق وهذه الحمامات جميعها غزيرة الماء البارد والحار وهي تقرب بزهاء خمسين حماما اليوم ، وكانت قديما اكثر لزوال بعضها وعدم تشييد محلها ، وكان في دمشق في القرن التاسع مائة حمام افردها ابن عبد الهادي في رسالة كما كان في عصره الف جامع ومسجد وقد استغنى عن هذه الحمامات في عصرنا باحداث غيرها في اكثر بيوتات دمشق.

وفي دمشق مائة وتسعة وثلاثون خانا اعظمها واشهرها خان اسعد باشا الفريد في هندسة بناء بابه الجليل ، ثم خان سليمان باشا ، خان الزيت ، خان العامود ، المرادنية ، الخياطين ، الزعفرانجية ، الشيخ قطنة ، خان الجوار وخان المرادية .

ومن محاسن دمشق اليوم مجمع الآثار القديمة الموجودة في مدرسة العادلية الكبرى وقد اعتنى بوصف ذلك المجمع ومتحفه ومكتبته احد الادباء فاحببنا اثبات مقاله تتميما للفائدة قال : وفي داخل المدرسة قاعة التماثيل وفيها اكثر من ١٥٠ تمثالا بين فينيقي ، يوناني ، تدمري ، روماني وسوري من اهمها ميثرة معبودة الفرس واسكولاب اله الطب وباخوس اله الخمر وآلهة النصر . وهناك آثار كثيرة من صناعات دمشق النحاسية ، ولا سيما ما عرف منها

بالظاهري ، الخزفية ، القيشانية ، الزجاجية من اشكال كثيرة . وفي صدر المدرسة قاعة فيها نقود الامويين المسكوكة من اواخر القرن الاول للميلاد الى ما بعدها ثم نقود الدول العربية ، والايوبية ، العثمانية . وفي جهة اخرى نقود الفرس ، البيزنطيين ، السلجوقيين والرومانيين . وكلها مئات والوف بين ذهبية ، فضية ونحاسية رائعة الاشكال والنقوش وبينها دينار ضرب في زمن فيصل بن الحسين مع آلته وقوالبه . ثم قاعة ثانية فيها الزجاجيات نحو ستة آلاف قطعة بديعة من اشكال مختلفة ، واعصر قديمة حتى قال عنها احد الاثريين الذين شاهدوها انها من احسن المجاميع الزجاجية التي رآها في متاحف اوروبا ، وهناك بعض صناعات دمشق ومنها سيف الامام ابي عبيدة الجراح الذي وجد في ضريحه في الغور ، وفي هذه القاعة المحمل الشريف واللواء بطرازهما البديع الموشى والمزركش بالقصب المذهب ، وقد احييت وضع رسميهما عند سفرهما في ايام الحج احدهما للمرحوم والدي سنة ١٣٠٧هـ ، والثاني لجامع هذا التاريخ سنة ١٣٢٦ هـ . حيث جرت العادة في زمن الدول الاسلامية باخذهما الى القدم ومنها الى الحجاز بدلالة نقيب الاشراف والامراء والوزراء باحتفال عظيم . وهناك ايضا اصناف القيشاني من صنائع دمشق البديعة التي لم يبق لها من اثر ولا سيما بعد غزوة تيمور ثم انواع الاسلحة الدمشقية القديمة وبها صناعات الخشب الدمشقية القديمة والبناء بزمن ملوك مصر حكام سورية ، والآلات الفلكية العربية للارباع وغيرها ، وبها مجاميع من مكتبات بعض علماء دمشق الكبار كابن قيم الجوزية وغيره ، وفي المكتبة المذكورة نحو ستة آلاف مجلد مطبوعة هي في محل مدفن الملك الظاهر بيبرس وولده الملك السعيد ، وفيها ايضا نحو عشرة آلاف مجلد مخطوط من النفائس واقدم مخطوطاتها كتب سنة ٢٦٦ هـ

ومن الآثار العظيمة ، والمعالم القديمة ، وجود خريطة دمشق وسورية ، من الفسيفساء في مأدبة ، وهي مرسومة على وجه الارض معمولة قبل الرومان ، ثم بعد عمر عليها كنيسة ، وآثارها باقية الى الآن ، وما برح السوريون قاعدين عن الانتفاع بكنوز ارضهم الطبيعية غير باحثين عما في طي ترابهم من المعادن

والخزائن ، ولا ساعين في الانتفاع بها مع ان بعضا من المتخصصين قالوا بوجود معادن كثيرة بجبال الشام متنوعة الاشكال . وقد ظهر بعض المعادن في جبالنا منها : المعدن الحديد في الجبل الاقرع ، الرصاص في شمالي الاسكندرونة ، الفحم الحجري في جبال لبنان ، الملح في جهة النبك وجبل قاسيون . الا ان الآمال معقودة بقرب اهتمام الناس لكشف واخراج كنوز الارض لتغنى البلاد بها .

ونقل بعضهم انه يوجد بعض آثار قديمة بصفة آبار في محل الهوى الكائن في طريق كفيريبوس غربي الزبداني ، وبها ادراج منقورة من الجبل والى الآن لم يعلم تاريخها ولا قعرها وذكر ايضا انه يوجد آثار قديمة العهد من قرية التكية الى قرية برهليا ، وفي ذيل الجبل عند جسر بكوش وجد نقوش في الحجر لم تزل ظاهرة الى اليوم وتحته معابد محفورة في نفس الجبل لم نعثر على ما كتب فيها .

ثم ننقل ما قاله المؤرخ محمد الراعي الدمشقي في ذكر اوديتها نظما ونزين كتابنا بدرر الفاظه قال بعد مقدمة طويلة :

ولنشرع الآن بذكر الاودية   وهي لامراض القلوب ادوية
اذ كلها في دوحة المعطار   بالطيب يحكي جونة العطـــار
تخـاله يختال كالعرائس   في حلل الديباج والاطالس
وكلهـــا في حسنه تياه   تحفه الازهار والامواه
اولها ياصباح وادي بردا   واد ترى للانس فيـــه مددا
تجري عليه بالدموع الاعين   اذ قصرت عما حواه الالسن
ثانيهم وادي حيـــاة النفس   الربوة الغنا محل الانس
وادي المكرم عنده كيوان   كلاهما في حسنه عمدان
بالقرب منها وادي الجنادلة   دع عنك في اوصافه المجـــادلة
وادي السفرجل منظر فتـــان   انهاره في وسطه غدران
وادي الخصي صديق الروح   كم ذا يغني طيره للدوح
واذكر محل الشطح وادي الشقرا   فاين وادي آش اين الزهرا
تظله الشرفين من طرفيـــه   يفاخر المريخ في شرفيـــه

وادي الصفيرا موسم اللذات ... ارقاته من اطيب الاوقات
واشرف الوديان وادي برزه ... فيـه بقاع الفضل حتى ارزه
لحرنة وادي ووادي معربا ... كلاهما عن حسنه قد اعربا
ووادي النـل الرفيع القدر ... يضوع نشرا من عبير الزهر
وادي الدريج الطيب الارواح ... قد غص بالامواه والادواح
ووادي حلبون بسقاه القطر ... على غناء الطـير فاح العطر
وزهة الدنيـا بديع السيا ... وادي التصابي والهنـا بسيا
ووادي الخضرا عط الرحل ... كم ذا شددنا نحوه من رحل
يا صاحباي ناز شوقي هيجا ... وعرجا بي نحـو وادي الفيجا
واطربا سمعي بذكر الوادي ... واد سيا يا صـاح بالمراد
ونهره الطامي البهي المنظر ... وليس مرائي العين مثل الخـبر
ووادي الشرقي عروس الدنيـا ... اذ بينهم بالحسن نال العليا
ونتبع الذكرى بذكر الاعين ... وقاها رب الشام شر الاعين
اشهرها في الحسن عين الصاحب ... تفوق بالمنثور نثر الصـاحب
وفي صفا الراووق عين الخضرا ... ماء كذوب الدر حاز الفخرا
كذلك عين اسمها سيافه ... وماؤها في غاية اللطافة
واجل صدأ قلبي بعين منين ... بين الربا والتين والزيتون
يا عين ذاك الروض يا فتانه ... يا من سميتي عندهم مرجانه
ولا تسل عن لطف عين الكرش ... ماء قراح لؤلؤي الفرش
وكم جمعنا الشمل في الوراقه ... عين تراها بالصفا براقه
يا عين من بالزينبية عرفت ... من لي باوقات لديك سلفت
وعند عين الشرش روض زاهي ... تأوي اليه زمر الملاهي
وانعم بعين اللـذة الفضيه ... قد سميت يا صـاح بالدقيه
وعين قرقوز سقي عهدي بهـا ... كم للتصابي بعث غايات النهى
وعين اقلايا حكت بالرصف ... ضياء مرآة بروض القصف

عين حروش كالزلال الصافي قد احرزت محاسن الاوصاف
فهذه العيون ذات القدر اذ سقيها الرياض سقى النهر
فالبعض منها قارب المدينه والبعض منها للقرى معونه
وما سواها صاح ليست تحصى ولا تروم العد والاستقصا
فانهض وشمر للتصابي باعا قد خص بالحرمان من اضاعا
فهذه الدنيا : وهـذا العيش وغير ذكر الشام عندي طيش
الامناط العز والتمكين ومهبط القرآن والتبيين
واد حباه الله بالتشريف وخصه بالسعي والتعريف
وعنده الاوزار حقاً تطرح وفيه للغفران نعم المسطح
وبلدة المختار عين الملك حامي حمى الاسلام ماحي الشرك
قد صحت الاقوال عند السنة في ان فيها من رياض الجنة
ونالت العليـا بخير الخلق وخيركم بعدي خدين الصدق
وصنوه الفاروق محيي الدين وثالث الخلفاء ذو النورين
هواطل الرضوان فيها تهمي وبالرضى والعفو ارجو ختمي

ونذكر ماقيل في وصف الانهار التي بدمشق نظماً وحسبك ما قاله بها العارف النابلسي الدمشقي من قصيدة طويلة اخذنا منها ما يوافق الموضوع قال :

على السبعة الانهار من جانب الغرب بوادي دمشق الشام مفرجة الكرب
فنهر لداريا تسلسل ماؤه زلالاً فما اشهاه في لذة الشرب
ومن دونه نهر القناة بعزة صفا جاريا في الصخر من كدر الترب
وللقنوات الغر نهر لذا جرى حسبت حساما مطلق الجد في الحرب
لقد فاض نهر البـانياس بمائه كما فاض دمع العين من فرقة السرب
وفي وسط الوادي ترى بردى له هنالك نهر زاد في الخبط والضرب
ومن فوقه ثورى جرى نهر فضة بدرب صفا مجراه ناهيك من درب
ونهر يزيد فوقـه زاد رونقاً وليس له في العجم مثل ولا العرب
سقى الله وادي الشام غربي جلق وحياه من واد قضيت به اربي

فان صال او ان طال حزنك في الورى فلا تتـــأخر بي الى نحوه سر بي

وقال ايضا شهاب الدين قتيان الشاغوري يصف اصول انهار دمشق ومواضع من القرايا الجبلية بقصيدة طويلة اخذنا منها المطلوب :

فاول عــــين الفيجة الانهر التي دمشق بها في البحر وسواحل
وبالبقعة الفيحاء عوجا فانها تهيج لرأيتها رسيس البــلابل
وبالسفح من اعلى سنير منازل نعمت بها واها لها من منازل
وبالزبداني زبدة العيش جامني بها الخفض من محض الضروع الحوافل
ومازال ربع الانس في كفر عامر يرى عامر الارجاء عذب المناهل
وفي عين طور حور عين فواتك اللحاظ فصاح اللفظ خرس الخلاخل
ودير قبيس جنة اي جنــــة مشاربها مشفوعة بالمآكل
احن الى افنــــاء اشجار دمر واصبو الى الظل الظليل بآبل
ويا حبذا تلك الجديدة التي مرابعها معمورة بالمنـــاهل
مرابع قد القى الربيــع جرانه بها مقسما ان ليس عنها براحل

وقال صاحب المرقص والمطرب في نهر بردى بظاهر دمشق :

لما بدا بردى تجول فروعه بين الرياض دعى الى التشبيه
فكأن فيها سبايك فضة وكأنها قطع الزبرجد فيه

وقال ايضا قد بت في بستان بجبل الصالحية في اوان زهر النارنج :

باكر الى نغمات الطير مستمعاً وانظر الى حسن هذا المنظر البهج
وقد غدا زهر النــارنج مبتسما ينمو فيملو جيب الافق بالارج
والجو في حلل حمر ممسكة ما بين منعقل منها ومنفرج

وله ايضا قوله لما رحلت الى دمشق وابصرتها فتنى منظرها واكثرت القول فيها الى ان وقع لي من قصيدة طويلة :

في جلق نزلوا حيث النعيم غدا مطولا وهو في الآفاق مختصر
القضب راقصة والطير صادحة والنشر مرتفع والماء منحدر
وقد تجلت من اللذات اوجهها لكنها بظلال الروح تستتر

وكل واد به موسى يفجره وكل نهر على حافاته الخضر

وقد وصف البحتري دمشق بقصيدة طويلة منها قوله :

اما دمشق فقد ابدت محاسنها وقد وفى لك مطريها بما وعدا
اذا اردت ملأت العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا

ولابن منير الطرابلسي :

سقى دمشق ومغنى للهوى فيها حياً يهز له اعطافها تيها
دار هي الجنة المحبور ساكنها فاتى تكنها والا فهي تحكيها

وللصنوبري من ابيات كثيرة بحق دمشق :

صفت دنيا دمشق لمصطفيها فلست اريد غير دمشق دنيا

وقال ايضا :

سقى الله ما تحوي دمشق وحياها فما اطيب اللذات فيها واهناها

ونقل عنه ايضا في آخر ايامه قوله :

فديت امرأ قد راقب الله ربه وافسد دنياه لاصلاح دينه
وعزل الفتى في الله اكبر منصب يقين الذي يخشى بحسن يقينه



(الباب الحادي عشر)

« فيما اشتهر به اهل دمشق منذ القديم من التفنن في اختراع الصناعات اليدوية »
« ودقتها ، والذوق اللطيف في سائر مرافق الحياة ، تجارة وفلاحة ، وفي الصناعات »
« التي كانت اخترعت فيها ، ونقلت عنها ونسبت اليها ، وفي الصنائع الكثيرة »
« التي كانت رائجة بها ، وفقدت منها ، وفي الصنائع الحديثة الموجودة لهذا »
« العهد ، وفيه بيان فضيلة الصناعة ، والحث على تعلمها ، وان لا حياة للمجتمع الا بها »

من أقوى الاسباب في تأخر الشرقيين عامة والمسلمين خاصة عدم تضامنهم واتحادهم للقيام بالمشاريع الاقتصادية والاجتماعية والعلمية ، فنجد ان التجارات الكبيرة في الشرق والاعمال الصناعية والمدارس الاهلية قوامها فرد واحد ، فاذا مات أو تخلى عن العمل تدهورت تجارته أو صناعته أو مدرسته . هـذا بخلاف ما عليه اهل الغرب فان اغلب مشاريعهم الاقتصادية والاجتماعية تقوم بها الجماعات المتضامنة المتضافرة ، وبذلك يضمن بقاؤها ونموها ولا تتأثر بموت الفرد او تخليه عن العمل . فالتجارة في اوربا واميركا تقوم بهـا الجماعات ، والاعمال التجارية والمصانع الكبيرة تقوم بها شركات مساهمة ويدير دفتها الخبيرون ، ولذلك ترى النجاح حليفها وبفضل ما اوتيت من قوة وعلم وخبرة اصبح الشرق سوقاً ومغنماً لتجارة اوربا وصناعتها ، وكذلك ترى المستوصفات والملاجيء والاعمال الخيرية الكثيرة تقوم بها الجماعات على اختلاف انواعها — وليس في هذا الضمان بقاء العمل واستمراره فقط كما قدمنا ولكنه ضمان ايضا لتقدم ورقي الامة على غيرها ممن هم دونها في العمل والكفاءة والتضحية .

فاذا اردنا معشر المسلمين والشرقيين ان تأخذ باسباب الرقي والحضارة ونلحق بمن سبقنا من الامم فعلينا ان تتحد وتتضامن للقيام بما يلزمنا من التجارة والصناعة والزراعة فتؤسس الشركات التجارية والمصارف المالية وتنشيء الدور الصناعية وتعمل على انتشار الجمعيات الخيرية وما الى ذلك من سبيل .

قال الفاضل كرم بك ملحم كرم مقالا تحت عنوان :

دمشق تريد ان تستغني عن مصنوعات اوروبا

في عاصمة سورية امر واحد لم يعرفه معاوية ولا ابنه يزيد ولا عبد الملك ابن مروان . ذلك هو المعرض الصناعي .

واذا كان لنا ان نثني على دمشق ونغتبط بهذه العادة الشرقية الخالصة ، التي القت رأسها على جبل قاسيون وتاهت قدماها في اطراف الصحراء ، فاننا لنثني على همتها الشماء وسعيها المتواصل لاعلاء شأن الصناعات الوطنية في النسيج والرياش.

وان دمشق في مسعاها الحميد بلغت شأواً رفيعاً . فالمعرض المفتوح الابواب فيها دلنا على انها سبقت اوروبا في المضمار اشواطاً . فان نسيج دمشق امتن وارخص واروع من نسيج اوربا ، ولو قيل لمن يشتري ان اوروبا صاحبة ذلك النسيج لاعجب به شديد الاعجاب .

ومعرض دمشق يقع على مقربة من تكية السلطان سليم ، في بنيان فخم جميل انتصب على مدخله عمودان رصعتهما مصابيح الكهرباء ، بل ان بناية المعرض بكاملها مرصعة بتلك المصابيح . فاذا ما دجا الليل وانير المعرض بدت كشعلة من نور تضيء الظلمات .

ومعرض دمشق شعلة من نور سواء اتقدت فيه مصابيح الكهرباء او لم تتقد. فبكل من ارتاده وطاف ارجاءه شعر بالثروة الكبرى التي توفرها للبلاد صناعات النسيج اذا اتقنت واقبل الوطنيين عليها ففي وسعنا الاستغناء كل الاستغناء عن اوروبا اذا تقدمت صناعة النسيج في دمشق وحلب وفي كل بلدة تهتم بهذه الصناعة التي كادت تضمحل عندنا وتزول .

فالاقدمون منا كانوا في غنى عن اوربا . فان معامل النسيج انتشرت في كل حدب وصوب من لبنان وسوريا . وبيروت نفسها كانت تعج بمعامل الحياكة. واشتهرت بهذا الفن معامل دمشق ودير القمر والذوق . على ان نسيج اوربا

زاحم تلك المعامل وقوض اركانها فصارت الى التلاشي . ولولا بقية معامل في الذوق لقلنا ان هذه الصناعة لم يبق من اثر لها في لبنان .

ولكن دمشق وحلب عز عليهما ان تموت صناعة هي للبلاد مورد رزق عظيم: فما برحتا تغالبان اوربا الى ان جارتاها . واذا كان لهما من فضل فهو فضل الاحتفاظ بصناعة اوشكت ان تبور وتموت .

وفي معرض دمشق الصناعي رياش فاخر . فمن خزائن الى اسرة الى مقاعد الى كل ما يحتاج اليه رب البيت من رياش فخم وهاج . وصناعة الرياش عندنا ذات شأن عظيم . فالبلاد في غنى بها عن اوربا . ومعامل الرياش تملأ بيروت وحلب وكل مدينة سورية ولبنانية .

على ان ما رأيناه من هذه الصناعة في المعرض جامع لاقصى ضروب الفن . فان معامل دمشق تفننت في ترصيع المقاعد بالصدف بما لا يشق لها فيه غبار . ومعامل حلب اوجدت المبتكرات . ومعامل بيروت غالت في الزخرف والاتقان فكان لمعامل السيوفي ومارون متى وسواها نصيب من الاعجاب غير قليل .

وادهش ما في معرض دمشق اصناف الحلوى المعروضة فيه . وقد سبق الدمشقيون الجميع في هذه الحلبة . فالحلوى التي اخرجوها آية من آيات الفن ، وبها افهمونا ان بلادنا اقدر من صنع الحلوى وتفنن بها ، وان من يسلم لاوربا بالتفوق علينا احق جاهل غبي .

وليس لمن يريد ان يتأكد صحة ما نقول الا ان يقوم بزيارة المعرض . فهنالك يجد من المدهشات ما لم تقع عليه عين . فالدمشقيون جاءوا بالبدع في ما عرضوه من حلوى . فهناك قطع البطيخ حمراء كالدم كأنها بنت ساعتها ، وهناك الكوسا والقثاء والفول اذا ابصرتها على حدة قلت انهم جاءوا بها فوراً من البساتين بينما هي قطع من الحلوى تفننت بها ايدي الدمشقيين ما شاء لها التفنن .

وفي المعرض مصنوعات للمجانين . من مناديل مطرزة وما اشبه . وفيه رسوم لمصورين ماهرين ، وخطوط لا برع الخطاطين ، وسجاد من صنع دار النجمة البيضاء في بيروت ومأوى العميان في غزير .

وابدعت معامل الجلد في حلب فلم تترك لاوربا مجالا للفخر . فكل نوع من انواع الجلد موفور لديها . وعرض المختبر الطبي في دمشق انابيب لقاح الجدري من صنعه الخاص . وتبارى الخياطون وارباب الصناعة فزادونا اعتقاداً بان بلادنا قادرة على كل شيء ، حتى ان الجوارب وجدت لها من يعتني بها ويضاهي في صنعها معامل « هوابروف » .

وابى السيد عبسي في حلب الا ان يأتي بالدليل على كون بلادنا لا تقف دون اوروبا في صناعة الحديد . فرأينا من صنع معامله في المعرض ما يدهش العقول . فعرض مكبساً للزيت من احدث طراز ، ومطاحن كبيرة للبن ، ودولاباً للغزل وآلات لدفع الماء . وقد سرنا ان تتضاءل قوة الاجنبي امام آياتنا الساحرة ، وخرجنا من المعرض ونحن نقول :

— اي حاجة بنا لاوروبا بعد هذه الروائع الغاليات؟ ... انتهى كلامه .

وقد افاض كثير من مؤلفي الافرنج ومؤرخي العرب بان التوسل لاسباب المعيشة هي الصناعة والزراعة ، والتوسل لاسباب الرقي والعمران هي الامارة والتجارة ، بذلك قال الشاعر :

بزراعة وصناعة وتجـــارة ... تجد البلاد تقدما وفلاحا
اركان عمران فشيد صرحها ... وخذ العلـــوم لنيلها مفتاحا

وقال آخر :

روح البلاد صناعات فليس لها ... بدونها في مراقي المجد آمال
فاعضد صناعات اوطان اقمت بها ... ففي صناعاتها فوز واقبال

ثم بين ابن الصائغ الدمشقي في منظومة له في ثلاثة آلاف بيت اهمية الصناعة وفضيلتها ، جمع بها الفوائد والفرائد ، وحث على تعلمها ، وقد الف ابن القاسمي كتابا سماه بدائع الغرف في الصناعات والحرف جمع فيه الصناعات والحرف الدمشقية على ترتيب حروف الهجاء فجاء قاموسا لها لم يسبق له بمثال ، وقد ذيله ولده الشيخ جمال الدين ، ولولا الاطالة لسردنا منه شيئا كثيرا .

وقد ذكر ابن خلدون بمباحثه الفلسفية والعمرانية ، ان الصنائع لا بد لها

من العلم وانك تجدها في الامصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها الا البسيط ، فاذا تزايدت حضارتها ودعت امور الترف فيها الى استعمال الصنائع خرجت من القوة الى الفعل ، وان على مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة ، وان رسوخ الصنائع في الامصار انما هو رسوخ الحضارة وطول امدها ،ولهذا نجد في الامصار التي كانت استجرت لما تراجع عمرانها وتناقص، بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست في غيرها من الامصار المستحدثة العمران ولو بلغت مبالغها في الوفور والكثرة وما ذاك الا لان احوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الاحقاب وتداول الاحوال وتكررها .

وان الصنائع واجادتها انما تطلبها الدولة ، فهي التي تنفق سوقها وتوجه الطلبات اليها وانها اذا ضعفت احوال المصر واخذ في الهرم بانتقاص عمرانه وقلة سكانه ، تناقص فيه الترف ورجع اهله الى الاقتصار على الضروري من احوالهم ، فتقل الصنائع التي كانت من توابع الترف لان صاحبها حينئذ لا يصح له بها معاشه فيفر الى غيرها من المدن او يموت ولا يكون خلف منه .

ثم قال ان العرب ابعد الناس عن الصنائع وانها رسخت في الشرق منذ ملك الامم الاقدمون من الفرس والنبط وبني اسرائيل واليونان والروم احقابا متطاولة فرسخت فيهم احوال الحضارة ومن جملتها الصنائع ، ومن تأمل سير الصناعة في دمشق قديما وسير صناعتها حديثا يتجلى له ما تقدم باجلى برهان .

ونقل بعض المؤرخين عن الصناعة في سورية في القرون الاول قال ما نصه :

قد اشتهر السوريون في تلك الاعصر في اتقان الصنائع وتوفيرها عندهم خلافا لما نراه اليوم من ندورها وقلة احكامها، فقد كانت هذه البلاد منشأ لكثير من الصنائع ولا سيما نسج الكتان والبرفير والحرير وصنع الزجاج ، فنسج الكتان الذي بدي. فيه في بلاد الكلدان قد تطرق اليه السوريون من اقدم الدهر ، فقد قال : كاتب الجغرافية في منتصف القرن الرابع ان باسان ، اللاذقية ، جبيل ، صور ، بيروت ودمشق كانت ترسل انسجتها الى العالم كله ، وجاء في شريعة

ديوكلتيان التي شهرها سنة ٣٠١ م معينا فيها اثمان ما يباع واجرة العملة .

ان مصنوعات هذه المدن كانت من احسن المنسوجات لا تقل قيمة عن منسوجات ترحيس ومصر بل تفضل عليهـــا ، وما لا يحتاج الى برهان ان البرفير السوري استمر حائزاً الافضلية على كل ما سواه ، وقد وفرت المعامل التي انشأت لمباراته . وقد اشتهرت معامل اخرى بسوريا في اصبغتها ونسجها للبرفير في صرفند ، الطنطورة ، قيصرية ، فلسطين واللد وكانوا يأتون حينئذ بالحرير غير منسوج من الصين فتصبغه وتنسجه معامل سورية وعاصمتها دمشق ولا سيما معامل الساحل .

واما معامل الزجاج في دمشق وصيدا فقد بقيت على شهرتها في ايام الملوك الرومانيين ، وتجد في متاحف اوروبا كثيرا من الآنية الزجاجية منقوشا عليها اسم عاملها في صيدا .

وروى رنان في بحثه فرنيقي عن شريعة ديوكلتيان المشار اليها ان مدينة جبيل احرزت ثروة كبرى من تجارتها بالمنسوجات .

(الفنون والصناعات في عهد الدول الاسلامية)

بعد ان استتب الأمر للعرب فيما فتحوه من الامصار والاقطار ، وجهوا همتهم الى التبريز في جميع العلوم والفنون والصنائع ، وكان لهم القدح المعلى فيما استطالوا اليه من مخلفات الأقدمين ، وكان على جميع اعمالهم مسحة من الكمال والجمال والبساطة ، شأنهم في بداوتهم الاولى التي رافقتهم آثارها ولازمتهم في ادوار حياتهم كافة ، وكانوا يحملون بضاعتهم المزجاة اينما حلوا وحيثما ذهبوا ، فاينعت مدنيتهم وراج سوقها في جميع الممالك التي خضعت لسطانهم من قصرا شبيلية واعمدة هرقل في الاندلس الى مساجد سمرقند وخرائب جور في البنغال .

وبالطبع كان نصيب دمشق من هـــذه الحضارة موفورا جرف امامه مدنية اكثر البلاد ، كما كان نصيب جارتها مصر من ظهور جميع الصناعات النفيسة المقبولة في الغرب الى اليوم ، المنقوشة بالفسيفساء من خشبية وغيرها مثل العاج

الذي استعمله العرب ، واستعمال الدماشقة التطعيم مع الابنـــوس والقصدير والخشب الاحمر بشكل فسيفساء كان له الشأن العظيم في القرن الثاني الهجري وانتقل استعماله من دمشق الى مصر ولم تزل آثاره باقية الى اليوم .

ومما يحكى عن ذكاء العرب واستخراجاتهم واستنباطهم الصنائع الغريبة والآمال العجيبة التي ادهشت بها الغرب والشرق ، يحكى ان ابا القاسم عباس ابن فرناس حكيم الاندلس هو اول من استنبط بالاندلس صناعة الزجاج من الحجارة واول من فك بها كتاب العروض للخليل .

واول من فك الموسيقى وصنع الآلة المعروفة بالمنقال ليعرف الاوقات على غير رسم ومثال .

واول من احتال في تطيير جثمانه وكسا نفسه الريش ومد له جناحين ، وطار في الجو مسافة بعيدة ، ولكنه لم يحسن الاحتيال في وقوعه ، ولم يدر ان الطائر انما يقع على زمكه ، ولم يعمل له ذنبا وصنع في بيته هيئة السماء وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود .

ونقل جملة الاخبار ايضا ، ان اول من اخترع مسئلة الطيران هو عبد الرحمن الداخل الاندلسي الملقب بصقر قريش واستدل على امكان طيران الانسان كالطيور ، وصنع ليديه جناحين وطار بها . وهو اول من نبه الخواطر على ذلك .

مات في هذه السنة الكندربل مخترع ومحدث التلفون الذي عم انشاءه البلاد الغربية والشرقية ١٩٢١ .

ظهر في المانيا مخترع الشعاع المغناطيسي لتوقيف حركات الطيارات في جو السماء والوابورات الحربية التي على ظهر الماء .

وقد ذكر المؤرخ اسكندر عيسى معلوف في كتاب المحاضرات بحثا لطيفا جامعا في هذا الباب فاحببت ان انقل شيئا من كلامه لانه اعطى البحث حقه .

قال لما احتك العرب بمجاوريهم ومحاربيهم من الامم استفادوا منهم صناعات كثيرة برعوا باتقانها فوق ما كان من الصناعات الوطنية في العراق وبلاد العرب والاقطار الاخرى التي تفوقوا فيها ، ومن بناء السدود مثل سد العرم وطبع

السيوف الثمانية وبناء القصور وعمل الاسلحة والخزف والقاشاني والزجاج وبناء السفن والنسج والحفر والنقش وعمل الورق واشباه ذلك . ولما كانت دمشق وما يجاورها في ايام الجاهلية وما بعدها قطبا لرحلات الاقوام ومحطا لرحالهم ومقرا لهم اجتمعت فيها الصناعات المختلفة وترقت بحسب الحاجة اليها بل تفوقت بها على غيرها لاسباب كثيرة اهمها رواج سوقها . وانحصر كثير منها في اسر خاصة كتمت اسرارها واحتكرت آثارها . فألف بعض العلماء في كشف تلك الاسرار كتبا بينوا فيها غش الصناعات وحيل اربابها . منها كتاب كشف الدك وايضاح الشك لابن شهيد المغربي . وارخاء الستور والكلل في كشف الدكات والحيل لسعيد النيسابوري . والمختار في كشف الاسرار للشيخ عبد الرحيم الجوبري الدمشقي وهذا طبع في دمشق منذ اربعين سنة . وللصناعات الدمشقية اصول تعرف بالشد لها آداب وانظمة وموظفون بقواعد معلومة عندهم يتناقلها الخلف عن السلف . وقفت على اهمها في بعض التعاليق والمخطوطات الموجودة في خزانتي وغيرها . وطالعت مقالة فيها لرصيفي الياس بك القدسي الدمشقي مطبوعة في اعمال مؤتمر ليدن (هولندة) الذي عقده المستشرقون سنة ١٨٨٣ م . فمن كل هذه المصادر استفدت انه كان للصناعات رئيس اعظم يسمى نقيب الاشراف وشيخ المشايخ . وكان هذا المنصب يتناقله الاسر الحسينيون مثل بنو العجلاني وغيرهم خلفا عن سلف . قال المحبي المؤرخ الشهير في خلاصة الاثر : ان السيد محمد العجلاني نقيب الاشراف وشيخ مشايخ الحرف هو الذي يعقد الشد والعهد لأهل الصنائع ويعين المشايخ لاكثر من مائتي حرفة في دمشق ويفصل الخلافات ويحسم المشاكل التي تقع بين ارباب الحرف آمراً وناهيا ومقاصا للمخالفين وبالجلة فانه كان الحاكم العام الذي نال هذا المنصب بأمر الخليفة فلا يعزل . ولا يترك منصبه الا بالموت او الاستقالة (وهي قريبة الشبه في وظائف بني شيبة المقدسة في مكة المكرمة . لورود الحديث الشريف عن الخلفاء الراشدين في حقها « خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة لاينزعها منكم الا ظالم » ويقيت سلطته هذه مرعية الجانب الى ان اعلن السلطان العثماني الخليفة عبد المجيد

التنظيات الخيرية ، فبقي له من وظيفته التصديق على مشـايخ الحرف ، ولكنها تدل على احترام الصناعة كما احترمها القدماء وترقيها بهذه الاصول المتبعة فاهملت بكساد الصناعات ، وكثرة المصادرات ، وبقيت بعض آثارها في قليل من الاسر . ثم قال : وصناعة السيوف اقترن ذكر اليمنيين بصناعة الشفار والنصال وكذلك الهنود فقيل سيف يمان ، وحسام هندي وهندواني او مهند . فلما قدمت قبائل اليمن الى مشارف الشام نقلت معها تلك الصناعة ، فانتشرت واتقنت فقيل لسيوفها المشرفية والشامية . ولما كثر الحديد في سوريا وعمل منه الفولاذ ، طبعت منه المحددة والشفار المجوهرة ، وكان الفولاذ الهندي الذي فيه قليل من الألومين والسلكا ، ينقل من الهند الى بلاد الشام منذ زمن بعيد ، فيتخذ للشفار والنصال والجوارح ، فاشتهرت دمشق بعمل القواطع كالشفار والنصال والسهام والحراب والمدى ، وكانت هذه تخرج من بين ايدي الصياقلة شديدة الصلابة ذات جوهر بديع التلوين والرسوم ، تغطي سطوحها الصقيلة بخطوط دقيقة كأنها عروق سوداء او بيضاء فضية اللون متحاذية او متقاطعة ذات اشكال مختلفة . ولقد اكتشف الدمشقيون اسرار هذه الصناعة متفوقين فيها حتى اغلقت عن سواهم فلم يهتدوا اليها حتى يومنا مع كثرة تفننهم وتجاربهم ومهارتهم ، ولذلك لا تقبل السيوف الدمشقية الكسر عند الضرب بها مثل غيرها . وسمي جوهرها الحناوي ، واتخذ الدمشقيون لكل نصل كتلة ، فتميز النصل الدمشقي بثبات جوهره وتحسينه عند تحضيره اي (احمائه) بالنار او عند تطريقه . وبالتحليل عرف ان فولاذه كان ممزوجا بمعدن آخر يسمى التيتان او الخزوم وهو موجود الآن في نواحي دوما . ومنه اخذ ابراهيم باشا المصري كميات لمعمل الاسلحة عندما استولى على البلاد سنة ١٨٣٠ ، فلذلك اشتهرت السيوف الدمشقية بجودة صقلها ومتانة فولاذها ، وكانت صناعتها مشهورة بزمن الرومانيين وفي عهد العرب ومنهـا انتقلت الى طليطلة في الاندلس ، ومن هذه الى ميلانو في ايطاليا . وفي المتحف البريطاني وغيره سيوف دمشقية بديعة الصنع . وفي متحف دمشق بعضها ايضا وصارت الناس تغالي بالسيوف وبقية الاسلحة كالنصـال والحراب والسهام والمدي

والدروع والخود والبنادق الدمشقية ، حتى أن السلطان بيبرس البندقداري لما اراد تقديم هدايا سياسية لباراق سلطان المغول في تركستان اختار الاسلحة الدمشقية لنفاستها وروتقها وندرتها وقال الجواليقي في المعرب : وبصرى موضع بالشام وقد تكلمت به العرب واحسبه دخيلا ونسبوا اليه السيوف فقالوا سيف بصروي وقال الحصين بن الحمام :

صفائح بصرى اخلصتها قيونها ومطرداً من نسج داود محكما

وبقيت هذه الصناعة رائجة الاسواق بديعة الطراز الى ان غزا تيمورلنك الاعرج الحديدي سورية ودخل دمشق سنة ٨٠٢ هـ فسبى كثيرا من صناعها والماهرين في غيرها فتصوحت ازهارها وذوت نضارتها متنقلة الى بلاد فارس مزهرة فيها ، ويقال انه اسر مائة وخمسين الفا من دمشق بينهم الاطباء والصناع والبناؤون والحاكة والتجار وارباب الصناعات الاخر ، ولا سيما الصياقلة المشهورين الى سمرقند فبنوا في بلادهم مصانع خراسان الشهيرة بصناعاتها .

ولقد اشتهر الدمشقيون بهذه الصناعة واستخراج المعادن الحديدية من مشارف حوران ولبنان والقلمون ولا تزال آثار خبث الحديد الذي تسميه العامة (الكشته) تدل على اماكن المسابك ، وكذلك اسم المسبكين الجواني والبراني في دمشق ، وكانت تقطع اشجار السنديان لتذويب الحديد واستخراج الفولاذ ، فتعرت الجبال من حلاها النباتية وبقيت جرداء الى يومنا ومن التسميات بهذه الصناعات اسماء بيت بولاد وزند الحديد ، ولعل اسم قرية حلبون قرب دمشق من اليونانية بمعنى الفولاذ لاستخراجه منها . ومما يروى ان اسرة الحدادين التي كانت مشهورة في اذرع (حوران) منذ القديم بهذه الصناعة ضاق عيشها بها فتفرقت في مطاوي القرن السادس عشر في بلاد الشام ، ونقلت صناعتها اليها وفي دمشق اشتغل ابناؤها بعمل البنادق والبواريد ، فصادرتهم الحكومة وفروا الى جبل قلمون ، وكذلك اشتهرت به الاجراس العبودية ، وبقي حدادو دير عطية يشتغلون البنادق سراً بعقود تحت الارض الى زمن قريب ومما يتعلق بالحدادة عمل ادوات كثيرة لها في دمشق شأن كبير مثل عمل الابر والمسلات

والقبابين ولا تزال سوق الابارين خارج باب الفرج تدل على ذلك ، ومثلها سوق المرادنية لعمل المردان وهي قضبان حديدية لدواليب الردن المتخذ للنسج وسوق الحدادين ايضا على انه لما جلب الحديد السويدي من اسوج واشتهر استعماله بدمشق بطل استخراج الحديد الوطني ثم بين صناعة القيشاني وسبب انتقاله لدمشق فقال :

القاشاني هو نوع من الخزف الصلب المموه بالوان واصباغ بديعة ونقوش رائعة منسوب الى بلدة كاشان على ثلاث مراحل من اصفهان في بلاد فارس ، وهذه الصناعة اتقنها البابليون وعرفها الكنعانيون كما دلت الآثار الموجودة اليوم في مدفن البابي البهائي الكبير في حيفا ، وتناولها الفرس واليونان والرومان واتصلت بالعرب في صدر الاسلام وتدرجوا بها فاتقنوها في بلاد فارس ، وقد زين الملوك الاخانيون قصورهم بنقوشها الرائعة ، وابدعها في بلاد فارس ابنية اصفهان ولا سيما في زمن الشاه عباس الاول وفي قونية وبروصه آثار القاشاني السلجوقية ، وبمتحف الأستانة ناووس بابلي معلي بمينا اخضر وانتقلت هذه الصناعة الى دمشق وعرفت فيها ، ويوجـــد منها في دمشق صنع سنة ٦٥٩ هـ وكانت في دمشق معامل كثيرة لهذه الصناعة منها ما اكتشف امام الباب الشرقي في سنة ١٨٨٧ م حين حضر الطبيب النمسوي وردشانو لدمشق واشترى هذا المكان فوجد معاملا له و آثاراً منه ، ومما عرف من هذه المعامل مصنع بين آخر القيمرية واول الجورة من احياء دمشق فيه اجران حجرية لسحق الزجاج والتمويه به وله نوافذ لخروج الدخان عند ايقاد النار للتذويب ، وقـــد فقدت هذه الصناعة منذ قرن ونصف وفي المعامل التي اكتشف امام الباب الشرقي في حديقة الطبيب النمسوي المذكور ما على يدل ترك العمال اشغالهم فجأة وتخريب اتاتين الشيّ بحادث فجائي ولعله الزلزلة العظيمة التي ارتجفت منها اعطاف دمشق مرارا في سنة ١١٧٣ هـ فهدمت مآذنها وقوضت كثيرا من ابنيتها ومعالمها ، فترك العمال اعمالهم وطمر المحل . قرأت في ديوان العارف النابلسي الدمشقي انه ارخ مدرسة في عاصمة الأستانة حين ذهب بعض معلمي

دمشق يضعون فيها القاشاني وطلب منه عمل تاريخ يكتب على القاشاني لسنة ١٠٩٢ هـ الموجود اثره الى اليوم ، وهذا يدل على بقاء هذه الصناعة في ذلك العهد مشهورة ومن اسباب انقراض تلك الصناعة ايضا انحصارها بأسر خاصة فتقلص ظلها بها وفي حلب الى اليوم اسرة القاشاني التي يقال انها انحصرت فيها هذه الصناعة ثم انقرضت الصناعة وبقيت الأسرة جاهلة اسرارها وتركيبها منسوبة اليها بالإسم فقط ، ولطالما تنافس الدمشقيون باقتناء هذه الآثار الفاخرة في دورهم ورصفت بصفائحه جدران البيوت ومرافقها حتى انها بعد حادثة سنة ٦٠ المشهورة صار السكان ينتزعها من البيوت ويستعيضون عنها بالرخام فانتقلت الألواح النفيسة الى اوروبا وقل وجودها عندنا ولا سيما بعد تكرار الحرائق والتدمير وكان اشهر قاشاني يوجد في الجامع الاموي في دمشق فقده بالحرائق المتوالية عليه ، وتجد في بعض المساجد والحمامات والبيوت آثارا نفيسة منه اهمها ما في جامع الدرويشية وسلسبيله المؤرخ في سنة ٩٨٢ هـ ، وجامع الشيخ محي الدين العربي الاندلسي ، وفي جامع سنان آغا في المناخلية ، وفي دار اسعد باشا العظم وغيرها مما لا يسع المقام ذكره . واشتهر الاندلسيون بمعاملهم القاشانية في مدينة ما لاكا سنة ١٣٥٠ م وفيها نقلت الى ايطاليا فعرفت اولا في لورنسة ثم اشتهرت بها مدينة فاينسة فنسبت القطع القاشانية اليها فقيل المالكي والفانيسي واقتبسها منهم الافرنسيون وتفرقوا بعملها في معامل مدينة (روان) ، ثم اقتفى اثرهم الالمان والانكليز ووصف ابن بطوطة وغيره من المؤرخين والسياح هذه الصناعة . وذكر الادريسي خزف دمشق المطلي بالميناء ، ومما عرف من آخر اسرار هذه الصناعة انه كان يعمل آجر مختلف الاشكال والحجوم والزوايا مجبول من الرمل الابيض والجص مفرغ بقوالب حسب الحـــاجة فيكتب على سطوحها آيات واشعار ، وترسم نقوش معدنية وصور بمواد ثابتة وبعد ان تجف يذر عليها مسحوق الزجاج الدقيق جدا او تطلى به محلولا عليها بسائل غروي وتشوى في وطيس (تنور) معدلها فيذوب الزجاج ويغشي تلك السطوح بطبقة رقيقة متناسبة لماعة تشف عما تحتها من الالوان والاصباغ .

والميناء كلمة فارسيتها مينه اي جوهر الزجاج ، وهي اكاسيد معدنية تصير بمادة زجاجية وتطلى بها الاواني المعدنية والأدوات لاظهار رونق نقوشها وجمال رسومها فهي في المعدن كالقيشاني في الخزف ولذلك يسمى القاشــــاني بالميناء احيانا . وصناعة الميناء عرفها الطورانيون وتفوقوا فيها واشتهرت في اشور ومصر وفنيقية ، ثم في الصين والهند قبل الميلاد بقرون ثم عرفها الفرس ونقلها عنهم البزنطيون والدمشقيون واتجروا بها من فارس ثم اتقنوا عملها ولكنها لم تكن من صناعاتها الوطنية الشائعة مثل غيرها نقلها الصليبيون في القرن الحادي عشر للميلاد الى اوروبا فبلغت كمالها عندهم في القرن السادس عشر المسيحي ،ولا يزال اهل الهند وفارس والارناؤوط ولا سيما الشركس والداغستان متفوقين فيها الى يومنا حتى يقال (ميناء شركسية) وهي من الطبقة الاولى من الصناعات عند غيرهم، وكان الافرنسيون يتغالون باقتنائها فذكرها المؤرخون كثيراً في زمن الصليبيين ، وقال المؤرخ راي ان المسيو (بيو) وجد سنة ١٨٧٢ م انقاض معمل لهذه الآنية قرب مدفن اللاتين في دمشق .

ونقل بعضهم عن القيشاني انه كان في المسجد الاقصى مصنع له كامل الادوات وذلك في عهد الملوك العثمانيين واولهم سليمان القانوني وهو اول من استعمل القاشاني في زخرفة خارج قبة الصخرة ولا تزال بعض قطعه محفوظة في المسجد ويوجد الآن مصنعان فيها لرجلين ارمنين ، اتيا بيت المقدس من كوتاهية التي كانت ولم تزل من اشهر معامل القاشاني في بلاد الدولة التركية وقد زادها تحسنا مصطفى كمال باشا الذي كان سببا لتخليص تلك البلاد من ايدي المستعمرين بعد ان وضعت الحرب اوزارها . ويشتغل المصنعان بصناعة القاشاني في القدس الى اليوم التي يرغب الافرنج في اقتنائها ، وهي جيدة الصنعة بعض الشيء ، الا انها لا تحاكي الانواع القديمة طبعاً . ويؤخذ التراب لهذه الصنعة من مطحون حجارة الصوان والرخام المشكل الذي يطحن بآلة بخارية قوية . وقد ادرك كثير من رجال دمشق من يعرف هذه الصناعة العظيمة في دمشق اوائل القرن الثاني عشر .

والفسيفساء كلمة يونانية معناها قطع صغيرة مرتبط بعضها ببعض ، وقد عربتها العرب بلفظ (الفسفس) قال ايمن بن خزيم في بشر بن مروان :

وبنيت عند مقام ربك قبة خضراء كلل تاجها بالفسفس

فسماؤها ذهب واسفل ارضها ورق تلألأ في البهيم الحندسي

ثم قال وقد شيد الوليد ابنية عظيمة في دمشق واستقدم اليها من بزنطية القسطنطينية ومن العجم وغيرها صناعاً . وقد اشتهر فيها الصناعات النفيسة منذ ذلك العهد ولا سيما الترصيع بالفسيفساء . ويدلنا على ذلك ما استكشفه في زماننا المسيو استاش دي لوري الأثري الافرنسي الشهير في حيطان جامع دمشق ، وقد ذكر حملة الاخبار ان صنعة الفسيفساء التي يسمونها الافرنج موزاييك نسبة الى موزه آلهة الفنون ، فقد نقلت هذه الصنعة الى دمشق ايام استقدم الوليد بن عبد الملك الاموي اثني عشر الف صانع من اهل بزنطية لبناء هيكل امون او المشترى بعد نقضه وتحويله الى كنيسة المريمية ثم الى الجامع الكبير المنسوب اليهم فزينوا بانواعها جدران الجامع حتى كان آية في الابداع والاتقان ، ثم في القرن السابع للهجرة استعيض عن قطع الفسيفساء بالقاشاني الوطني ، واندثرت هذه الصناعة واستعيض عنها بالفسيفساء المعدنية او الخشبية المعروفة بالتطعيم والترصيع ، وهي مشهورة بقيت الى زماننا هذا يتفنن فيها صانعوها . وكتب المستشرق رنيو الافرنسي رسالة في فن الفسيفساء عند العرب ضمنها فوائد جديرة بالمطالعة لكل من له شغف وولع واختصاص في هذه الفنون .

وقد تلا المسيو ديلا نورت في اكاديمية الآثار في باريس بيانا عن اللغة الحثية التي كانت لغة حية في آسيا الصغرى قبل التاريخ الميلادي بالفي سنة وتلقت الاكادمية بيانا من المسيو ديلوري مدير المعهد الفرنسي لآثار الفن الاسلامي في دمشق عن حجارة الفسيفساء التي اكتشفت حديثاً في الجامع الاموي وقد هيئت في القرن الثاني في عهد الخليفة الوليد الاول وجددت في القرن الثالث عشر في عهد السلطان بيبرس وهي صنع عمال السوريين خلافاً للاعتقاد بانها من صنع عمال بيزنطيين وهي تتمم سلسلة حجارة الفسيفساء البديعة في قبة الصخرة

في بيت المقدس . وقد اعرب المسيو ديسو عن الرغبة في ايجاد جميع التدابير اللازمة لصيانة هذه الآثار النفيسة التي تمثل الفن السوري في ذروة مجده ، وقد نشرت جريدة « اكسلسيور » كثيراً من صور تلك الحجارة وقال المسيو ديلوري ان مميزاتها في دقة الصناعة تمثيل مدن باكملها ومن ذلك رسم يمثل على الارجح مكة المكرمة .

نقش البيوت والجدران

هي صناعة شرقية قديمة اشتهر بها الفرس والبزنطيون فشاعت في مصر وسورية ونقلها السلجوقيون الى بلاد اخرى ولكن الدمشقيين تفوقوا فيها فزخرفوا بيوتهم باصباغ والوان ورسوم دقيقة وبديعة فوق الحجر الابيض واشتهر بها الاندلسيون في قصورهم المشهورة وكانت تحتاج الى الذهب فاشتغلت به اسرة خاصة في دمشق تعرف ببني الذهبي الى يومنا لانها كانت تتجر بالذهب وانواعه من محلول ومسحوق مما يصلح للنقش وتزيين الجدران ولقد فقدت هذه الصناعة منذ اقل من قرن ولها بقيـــة صالحة عندنا وعرف بعض الذين مارسوها بالقاب الدهان والنقاش والمراشي والذهبي والرسام والمصور ومن بقاياها الماثلة اليوم ما في الدار العظمية في البزورية ودار آل مردم بك في زقاق الفخر الرازي ودار آل القوتلي وغيرهم ومن هذا النوع نقوش سقف الجامع الاموي الحديثة بعد تجديده على اثر احراقه الاخير فبعضها قديم الطراز والآخر عجمية واحدثها ما في موقف محطة السكة الحجازية في آخر الشارع الجديد وفي دار والي دمشق في المهاجرين التي سكنها الامير فيصل ايام حكمه لدمشق .

النسيج والحياكة

اشتهرت دمشق قديماً بالنسيج الى ان فتحها العرب فحاكوا اقمشتهم على طراز ساساني فارسي او قبطي او رومي فكانت ترقم عليه صور الطرائد والوقائع والفرسان .

ثم قال واري ان كلمة دمقس ودمقاس ودقمس التي اطلقت على الحرير

المنسوج ربما كانت محرفة عن كلمة دمشق وذكر كثير من مؤرخي دمشق ما كان للنسيج من المنزلة فقالوا ان العنابات اسم حرير نسب اليه بعض العلماء لاشتغالهم به وكذلك الحرير فقيل العناباني والحريري وذكروا ان بني الفلاقنس في دمشق منسوبون الى بلدة فلاقنس من نواحي حمص اذ جاء جدهم محمود الى محلة القيمرية ينسج الالاجة واشتهرت فيها صنعته ونشأ من حفدته السيد احمد الكاتب الشاعر في القرن الثاني عشر للهجرة واشتهر ايضا كثير من العلماء بنسج هذا القماش. ومنهم احد الامراء الحرافشة في دمشق فلقب بالحريري وكانت الاسر الكثيرة تنسب الى صناعات النسيج وما يتعلق بها مثل الفتال، الرباط، الطباع، الشالاتي، الرسام، المطرز، الطراز، العقاد، الغزال، الغزولي، القطان، القصار، الحلاج، الكبابة، الحائك، الكتاني، المنير، مسدية، الخوام، الطوا، البصمجي. وبعضها ينسب الى آلات النسج مثل النويلاتي، المكوكجي، المشاطي وبعضها ينسب الى الصباغة مثل بني الصباغ ولقد جلب كثير من الوزراء العثمانيين الذين تولوا دمشق معهم خياطيهم وخدمتهم وارباب بعض الصناعات التي كانوا يحتاجون اليها وتدبروا دمشق ونشروا فيها صناعات جديدة تركية او وطنية. نسب بعضهم اليها مثل الترزي، الفراء،

الزجاج

نقلت هذه الصناعة من صور الفنيقية، الى دمشق الارامية، فانشئت فيها المعامل واشتهر الزجاج الدمشقي مثل غيره من الصناعات الدمشقية ولا سيما في زمن الصليبيين.

قال ابن بطوطة: لما نزل دمشق ما نصه وفيها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع اواني الزجاج العجيبة، وقال الرحالة بوجيبومي سنة ١٣٤٦ م انه رأى معامل الزجاج في دمشق تشتغل على طول الجامع الاموي ومن ذلك الزجاج الملون المتخذ بالقماري. وله بقايا في بعض الدور القديمة،

ونقلت هذه الصناعة الى الاندلس مع الدمشقيين الذين رحلوا الى تلك الاصقاع والقزاز الذي يعمل بها الزجاج اليوم في حي الشاغور هي على لغة العامة في لفظ الزجاج . اقول لعل الاقرب ان تكون قازوزة وهي الكأس والقدح .

صناعة الورق وما يتعلق بها

ان صناعة الورق تناولها العرب عن الفرس كما يظهر من اسماء كثيرة منها مثل الكاغد والمهرق اوتخذوا الورق من الحرير ، ثم من القطن ، وانشئوا له المعامل الكبيرة في هذه المدينة وعنها نقلت الى الاندلس ثم الى اوربا ووصف مؤرخوا اليونان الورق الدمشقي القطني المعروف عند الافرنج « كرتاداماسينا » ووصف ابن بطوطة الرحالة سوق الوراقين في دمشق | وقد فقدت هذه الصناعة من دمشق ولم يبق لها اثر | وكان قديما تشكل معملا للورق في جوار بيروت .

وقد احببت نقل ما كتبه صاحب مطبعة الفيحاء مصطفى افندي شوري مشوقا ابناء دمشق لتأسيس معمل الورق والكرتون .

كم انا معجب بهذا التقدم غير المنتظر للخطوط التي خطتها مدينة دمشق برقي معاملها ومصانعها منذ بضع السنين بعد ان نزلت بها النكبات والخسائر من عهد الثورة السورية الى يومنا هذا . ها هي معامل النسج تحيك لنـــا الانسجة على اختلافها وتضاهي بها معامل اوربا بذوقها ومتانتها . وها هو معمل الدباغة الحديث وقد سد فراغاً عظيما وحفظ قسما كبيراً من ثروة هذه البلاد وزعه على عمالنا وابنائنا واعدانا افضل الاحذية واحسنها بأوفق الاثمان . وها هي معامل الجوارب والقمصان تنسج لنا افخر واطيب هذين النوعين وتمتاز عن منسوجات اوربا بثمنها وقوتهـــا . وها هو معمل الجوخ المشيد بين اراضي الربوة يسمعنا بين آونة واخرى انغام اواثله الشجية ويطربنا بها وانه سيحيك لنا استقلالنا الاقتصادي في القريب العاجل . وهناك العدد الكثير من المعامل الحديثة سكتنا عن ذكرها لعجز القلم عن حسنأتها ومنفعتها للبلاد . كل هذه المعامل الحديثة في مدينة دمشق

ترى الاقبال هائلا على شراء منسوجاتها . اجل من كان منا يسمع قبلا كلمة منسوجات وطنية ؟ ؟ بل من كان يقبل على شرائها ؟ ومن كان يفكر بانشاء معمل وطني يستفيد منه ويفيد به ابناء وطنه ؟ نعم ان الروح في جسم كل سوري تدفعه لان يقوم بعمل يذكر وبمشروع نافع لبلاده وقد كانت تكمن قبلا في اسرته ويحملها في قلبه تلك الروح التي شعارها (الوطن) وحبه فهيا بنا يا ابناء سوريا فهذه هي ساحة العمل تنادينا وتستنجدنا لان نبني عليها معاملنا ومصانعنا وها هي انهارنا العذبة تنحدر من اعالي الجبال تدعونا لان نحرك بها معاملنا لتسمعنا انغامها فيرقص لها القلب فرحاً . غداً انتظروا فانه في القريب سيعلو في الفضاء دخان اكبر معمل اسسناه في بلادنا وهو معمل للشمنتو ومواد البناء . غداً يبطل العاطلون وتشتغل اسواقنا التجارية ونحتفظ بالبقية الباقية من ثروتنا ...

لقد اصبح من المحتم علينا القيام بالمشاريع الوطنية ضناً وحرصاً على ثروتنا ولنبني استقلالنا على سواعدنا . فالى هذا ادعو ابناء وطني الكرام والفت نظرهم الى ضرورة القيام بمشروع معمل الورق والكرتون الذي نحن بأشد الحاجة اليه للكميات الاجنبية التي تصرف منه في بلادنا والارباح التي تذهب للاجانب ثمن تبن وماء . وقد فكرت للقيام بهذا المشروع العظيم تدريجاً ولكي نتوصل الى منتهاه بكل حذق وامانة فرأيت من الواجب والصالح القيام ابتدائياً بمشروع عمل كرتون على اختلاف انواعه والذي يبلغ رأسماله اثني عشر الف ليرة عثمانية ذهباً ثم تدريجاً نرتقي الى معمل ورق جرائد وصر ثم ننتهي باصـــدار انواع الورق الممتاز بانواعه . وفائدة هذا المشروع محققة ، ولا يمكن مضاربته مطلقاً كما ان ارباحه هائلة تبلغ من ٥٠ الى ٦٠ في المئة لذلك ادعوكم للتآزر بالقيام بهذا المشروع مساهمة وليتفضل من احب منكم ان يكون في عداد الدارسين لهــذا المشروع والقائمين به ان يخابرنا بعنواننا .

ثم قال وهناك صناعات اخرى يحتاج لوضعها مجلد كبير . منها عمل الآلات الفلكية والاسطرلابات ونحوها فاشتهرت دمشق بساعتها وبتكاماتها ، وبقيت

هذه الآلات التي صنعها كثير من سكانها ومن ساعاتها القديمة واحدة عليها عصافير من نحاس ووجه حية وغراب. فاذا مضت ساعة من الوقت خرجت الحية وصفرت العصافير وصاح الغراب وسقطت حصاة. تتجدد تلك الحركات على هذا النمط كلما تجددت الاوقات. ومن تلك الساعات ما وصفه المؤرخون ولا حاجة لاعادة ذكره ولا يزال يقال باب الساعات في الجامع الاموي الى اليوم، دالا على ذلك وهو الذي ذكره ابن بطوطة انه عن يمين الخارج من باب جيرون محدثا عنها. وكذلك ابن جبير فانه وصفها بدقة. وذكر ابن ابي اصيبعة ان مهذب الدين احمد بن الحاصب الدمشقي كان قوي النظر في صناعة الهندسة وخدم في الساعات عند الجامع في دمشق. وقال ان فخر الدين الساعاتي هو الذي عمل الساعات عند باب الجامع الاموي اقول:

اما الحديث منها لا يعلم المؤرخون حتى اليوم في اي عصر اخترعت الساعات ولكن الذي يعلمونه ان انتشار صناعاتها قد بدأ في القرن الخامس عشر للميلاد فقد كان يضع في مدينتي باريس وبترنبورج ساعات مختلفة الحجم لاتدل على الوقت الا على وجه التقريب وفي سنة ١٥٧٦ م اخترعت ساعات من النوع الذي يدل على الوقت بدقات خاصة الموجودة اليوم بين ايدينا ويرجع الفضل في اختراع الساعات المعروفة بالساعة الاسطوانية الى جراهام الانجليزي اما الساعات الحديثة التي تستعمل الآن في الجيب فيرجع تاريخها الى النصف الاول من القرن الماضي والله اعلم وفوق كل ذي علم عليم.

ثم قال: ومنها الغناء وفن الموسيقي والضرب على الآلات فلقد عرفت هذه الفنون منذ القديم في دمشق كما تذكر التواريخ اخبارها من ذلك ما ذكره الكتبي في فوات الوفيات من ان ابن المسجف الدمشقي قال يصف الكمال وضربه على القانون:

لو انت ابصرت الكمال وجسه ... اوتار قانون له في المجلس

لرأيت مفتاح السرور بكفه ... اليسرى وفي اليمنى حياة الانفس

وروي عن جمال الدين بن فرفور الدمشقي انه كان موسيقيا اتقن صنعة

الخطوط وقال عن نسيبه عبد الرحمن بن فرفور انه كان عارفا بالنغمة باصطلاح الموسيقى حتى انه كان يخلو بنفسه ويدفع عنه الوحشة بصوته الرخيم .

أقول وقد انتشر في عصرنا هذا الفن انتشارا عظيما،وقد تقدم محسوساً في كل مكان . واصبح مهنة شريفة لجميع الطبقات ، ومورداً سهلا لاسباب الغناء والترفه بالحياة واقتناء الثروة الباهظة التي تضاهي كل عمل فني واختراع عصري جديد . اكتشفه صاحبه بفضل العلم والجهد . وبهذه الواسطة نشط كثير من الدمشقيين في فن الموسيقى،واستعمل اكثر الآلات الحديثة.ولولا الاقتصار لاثبتنا في كتابنا هذا اسماء مشاهير رجال الفن خدمة لهم وللتاريخ .

ومنها صناعة استقطار العطور : وهي صناعة قديمة لكثرة ما في دمشق وغوطتها من الرياحين وازهار النباتات ، ولقد وصف شيخ الربوة الدمشقي المؤرخ الشهير في نخبة الدهر التي طبع في اوروبا طرق استقطارها في قرية المزة ، حيث كثرت معاملها هناك . وصور المقاطر « الكركات » والانابيق والقرعات ، واطال في ذكر طرق الاستقطار بها في عصره اي القرن الثامن للهجرة ووصف الرياحين وانواعها ، وذكر انه كان يحمل الورد المستخرج بالمزة الى سائر البلاد الحجازية ، وكذلك العطور كانت ترسل الى الهند والى بلاد السند والصين والى ما وراء ذلك ، ويسمى هناك الزهير . ومما ارخوه انه كان لقاضي القضاة الحنفية ولاخيه الحريري قطعة بارض المزة تسمى شور الزهر باع منها عشرين قنطارا باثنين وعشرين الف درهم وذلك في سنة ٦٦٥ هـ. وقد فقدت هذه الصناعة من تلك القرية وبقيت في دمشق الى يومنا هذا انتهى

ذكر صاحب دائرة المعارف بحثا لطيفا قال فيه ما نصه :

ان الصنائع في سورية كاد لا يذكر لها شأن في الوجود . لان معظم الشعب يحسبونها احط من اقدارهم مع ان الافرنج الذين سبقونا في الحضارة يتهافتون على التشاغل بها والاهتمام بشأنها والتفاخر بالتفوق فيها والتنافس باجادتها . ونرى الكثيرين يقلدون اولئك السابقين في مظاهر المدنية ، ولكنهم يحجمون كليا عن لهم ان المقلدين يحلون الصناعة من مجتمعهم محلا عليا ، ويحسبون

الاشتغال بها فخرا ابلا ، وهذا سر امتلاكهم ناصية العمران وبقائنا في حال التأخر . نعتبر ذلك بما نحتاج اليه من صناعاتهم مع انا لو باريناهم لادركنا الشوط البعيد من النجاح ، اذ ان العقول الشرقية ذكية في السليقة ، ولا تحتاج في استنتاجها الا الى التثقيف والممارسة . واعجب من تقاعد جمهورنا عن الاهتمام بالصناعة ان الاغنياء والضاربين في كبد الدهر سعيا وراء الرزق لا يرون في الصناعة ضرعا يستدرون منه العيش الهنيء . الا ان هذا القول ليس بالقاعدة المطردة ، لانه لم يزل في القطر الشامي بقية صناعات قديمة وجرثومة رغبة في بعض الاعمال ، الا ترى ذلك في اصطناع الصابون والحرير والنساجة وامثالها . اما الصنائع البسيطة كالحدادة والنحاسة والبناء والنجارة والصياغة والدباغة والعقادة واشباهها ان هي الا على الطرز القديم المألوف منذ عدة من السنين الا ماتحسن بعض بالاقتداء والمزاولة كالبناء والحجارة . ومثل عصر الزيتون ، فان القوم يجرون به على طرز قديم وقليل منهم انتفع باستعمال ما اخترعه الاوروبيون من الادوات

واما اصطناع الصابون فان انطاكية وطرابلس ونابلس مشهورات به ولا تخلو بيروت وجبل لبنان ودمشق ويافا وعكا من معمل الصابون والمصابن ، غير ان صابون البلاد المذكورة له شهرة زائدة في البلاد .

واما صناعة الحرير فكانت تحل على الدولاب السوري على اثره القديم ، ولكن بعض التجار الافرنج ادخلوا الدولاب الافرنجي والمخانق على طرز بلادهم فتكاثر وجود هذه المعامل في بلادنا ومهر صناعنا بالعمل فيها فاصبح عداد العملة في الحرير كبيراً .

واما النساجة فقد كانت بلادنا مشهورة فيها منذ القديم ، وظلت هذه الصناعة ناجحة خصوصا في دمشق الى عهدنا هذا .

واما صناعة النحاسين والنحاس الاصفر المحلى بالنقوش والرسوم اللطيفة ، وصناعة الاخشاب المزخرفة المسماة اليوم (بالموبيليا) فانها اتقنت حق الاتقان ونجحت نجاحا باهرا في معامل بيروت ودمشق .

اما صناعه الزرق الحديثة التي تأسست في احدى قرى جبل لبنان فانها فاقت جميع بلاد اوروبا بلطافة فنها وقوة استعمالها .

اما صناعة السجاد فقد نقلت من بلاد العجم والفرس وانتشرت في هذه البلاد ، وقد كثر صناعها ايضا في قرية الفاكهة القريبة من مدينة بعلبك .

اقول إن اكثر الصنائع رواجا واتقانا في دمشق على وجه الاجمال النجارة ، النحاته ، البناء ، النقش بالوان والتذهيب ، النساجة ، الحدادة ، الصياغة ، الصباغة ، السكافة ، الدباغة ، الحياكة ، النحاسة ، عمل السروج وتقليد صناعة القاشاني . فقد كان ولا يزال لكل حرفة زعيم . قال ابن جماعة ان هذه الصنائع استخرجتها الحكماء بحكمتها ثم تعلم الناس منهم وتعلم بعضهم من بعض فصارت وراثة من الحكماء للعلماء ، ومن العلماء للمتعلمين ، ومن الاساتذة للتلامذة ومن التلامذة للصناع .

وقد ذكر صاحب مشاهد الممالك عن صنائع دمشق مانصه :

امتازت دمشق بصنائعها القديمة ، ومن ذلك الصيني وقد زالت صناعته ومعامله من نحو ٢٠٠ سنة فالقطع الباقية منه في المتاحف او دور الاعيان تعد من نفيس الآثار ، ومنها السيوف الدمشقية المشهورة لم يدرك الافرنج سرها الا من نحو مائة سنة . ومنها صناعة الخشب المرصع بالعاج او بصدف اللؤلؤ ، ومنها الحرائر المعرقة والمخططة نقلها الافرنج عن دمشق ، فهي تعرف عندهم باسمها « داماس » وكثير من اشكال الصنائع بعضها زال وبعضها باق الى الآن .

قال المقدسي : اخذت العرب صناعة نقوش الفسيفساء عن الروم ، وكانت في الجامع الاموي قبل حريقة الاول في القرن الرابع ملونة مذهبة تحوي صور اشجار وامصار على تلك الحيطان . وقال غيره : انه مثلت في صور الجامع صفات البلاد والقرى وما فيها من العجائب ، وان الكعبة المشرفة صورت فوق المحراب ، كما قال فيه بعض الشعراء :

اذا تفكرت في الفصوص وما فيها تيقنت حذق واضعها
اشجارها لا تزال مثمرة لا ترهب الريح في مدافعها
كأنها من زمرد غرست في ارض تبر يغشى بفاقعها
فيها ثمار تخالها ينعت وليس يخشى فساد يانعها

تقطف باللحظ لا بجارحة الا يدي ولا تجتني لبائعها
وتحتها من رخامة قطع لا قطع الله كف قاطعها
احكم ترخيمها المرخم قد بان عليها احكام صانعها

وذكر ابن جبير عن صناعة التصوير وقدمها في سورية ، وانه كان منها في كنيسة مريم بدمشق في القرن السادس من التصاوير امر عجيب ثم ذكر صناعة النحاسين واربابها مثل ابن ابي اصيبعة وعلي بن عريف النحاسين الدمشقي الذي ركب مواداً انفجارية نسف بها الابراج الصليبية في حصار عكا .

الصناعات الحديثة في سورية ودمشق

قال صاحب جغرافية سوريا لا تزال الصناعة بها في تأخر ، وسبب ذلك عدم وجود المواد الاولية اللازمة لها وقد كثرت الآن فيها المطاحن واكثرها تشتغل على الماء والقليل يشتغل على البخار ، ومعاصر الزيت ايضا والدبس والسيرج والمصابن وقد بقيت على الطريقة القديمة . ومنها معمل الجبن والزبدة والسمن واللبن ومنها صناعة الحلويات واشكالها والسكاكر وانواعها والمعكرونة والنشاء ومنها صنع الاحذية بأنواعها ونسج القطن والصوف والحرير وحياكة الشعر والديما والخام ومنها صناعة الحبال والطباعة والجليد ولفائف التبغ وغير ذلك من الصناعات اليدوية

الصحافة ومنشئها يوليوس قيصر

منذ مدة أزيح الستار في نادي الصحفيين في روما عن تمثال نصفي لفاتح بلاد « الغال » يوليوس قيصر اول صحفي في العالم لمرور (٢٦٨٥) منه على انشاء روما ورد في الخطب التي القيت في حفلة ازاحة الستار انهم يكرمون يوليوس قيصر لأنه كان اعظم الرومان واول منشيء صحيفة « اكتاديورنا » « الاعمال القومية » التي كانت تنشر اخبار الرومان مثابرة على ذلك مدة اربعمائة سنة تقريباً .

لما صار قيصر قنصلا عام ٥٩ قبل المسيح كان اول سلاح صوبه الى صدور

اعدائه السياسيين من الطبقة الارستوقراطية قوة نشر الاخبار والحوادث الجارية واعمال الحكومة . وكان اهم أمر اصدره في هذا الشأن نشر ما يجري في اجتماعات الشعب وما يدور في مجلس الشيوخ يومياً ليطلع عليه الجمهور .

وكانت هذه الاخبار تنشر على ألواح كبيرة منصوبة في الساحة العمومية في روما وهي الساحات المعروفة (بالفروم) بحيث يراها جميع الناس ويقرأها أو ينسخها من أراد .

وكان مجلس الشيوخ حتى ذلك الوقت يبقي ما يدور في جلساته ومحاوراته سراً .

فالذي أقدم عليه قيصر كان من اغرب ما سمع به الناس اذ انه قضى بارسال نور النشر الكشاف على اعمال الشيوخ وحذر اعضاء ذلك المجلس وكبار الزعماء من الاقدام على ما يثير حفائظ الشعب أو يباين مصلحة الدولة والا فانهم يعرضون انفسهم لغضب الرأي العام الذي ينتقم لنفسه منهم . وهكذا قيدهم جميعاً بارادته . واضيفت بمرور الزمن اخبار أخرى متنوعة الى « اكتاديورنا » حتى ماثلت صحف الاخبار المعروفة . فكانت تنشر على الواحها حوادث روما وسائر البلدان التابعة لها .

وخصصت فيها حقول لاخبار البلاط الامبراطوري وحوادث الجيش وانباء البلاد والخطب السياسية والادبية والنكبات والطوارىء المختلفة والضرائب والمواليد والزيجات والوفيات وحوادث الطلاق وحكايات مختلفة . واتخذها يوليوس قيصر وسيلة لابلاغ الجمهور ما يريد وما عول عليه وما قام به .

تلك كانت اول طريقة صحافية لاذاعة الاخبار لمبتدعها يوليوس قيصر وقد عرف فائدتها من قام بعده من الامبراطرة فثابروا على نشرها وتوسعوا في ذلك الى حد ما تبلغه جرائد هذه الايام .

الا انه لنكد طالع التاريخ لم يقم ممن جاء بعدهم من احتفظ بتلك الالواح .

وقد احببنا بهذه المناسبة ان نذكر ما فقدته دمشق من مهاجرة اكثر صناعها في هذا العام أي سنة ١٣٤٤ هـ . ١٩٢٥ م . باسباب الاضطرابات التي حصلت

بها وقد افرد أحد المفكرين الافاضل في جريدة القبس التي تصدر في دمشق مقالا تاريخياً قال ليس في قدرة أي انسان الآن أن يضع احصاء كاملا يبين فيه الخسائر التي نكبت بها مدينة دمشق منذ أن امتدت يد الاضطرابات اليها وبدأت ألسنة نيران الثورة تندلع في اطرافها . ولكن من الممكن ان يلم المفكر ببعض الالمام ببعض الشيء من تلك الخسائر التي نرجو ان تقف عند هذا الحد الذي وصلت اليه فلا تتعداه لأبعد منه .

وقد لفت نظرنا الى نوع من تلك الخسائر جملة من كتاب ورد الينا من عمان عاصمة الشرق العربي يقول : انه اصبحت تغص بالنازحين اليها من دمشق وتضيق على رحبها بهم . وانهم جميعاً من ارباب الصناعة . وان عددهم يزيد على خمسة آلاف . وانهم أسسوا دور عمل لهم في تلك العاصمة . واستخدموا من ابنائها المتهافتين على تعلم الصناعات الدمشقية على اختلاف اجناسها واصنافها وانواعها . لو اقتصرت الهجرة على هذا العدد من ابناء دمشق لهان الأمر جداً . ولكن اضعافاً مضاعفة لهؤلاء نزحوا بقضهم وقضيضهم وتفرقوا في جهات مختلفة من سوريا . والى سواها من أقطار العالم ولما كان جلهم ان لم نقل كلهم من ارباب الصناعات .

ومن الذين يعيشون براتب شهري أو يومي ، فقد اصبحت عودتهم الى هذه المدينة البائسة اليوم العظيمة في التاريخ مشكوكا فيها . والارجح انهم لا يعودون بعد الآن تفادياً من ذكرى مؤلمة تمثل اشباحها أمام عيونهم في كل حين . ولذلك نقول ان دمشق قد خسرتهم الى الأبد . ولو وقف امر الخسارة عند فقد يد عاملة لهان نوعا الامر . لان وارد المواليد مادام متواصلا فبالامكان ان يحل رجل محل رجل آخر . ولكن الصناعة نفسها أصيبت بضربة كبرى هي ضربة المزاحمة التي لابد من حصولها . بعد أن اصبحت البلدان التي كانت تستورد من مصنوعاتنا الدمشقية لتستهلكها اصبحت تستخرج تلك المصنوعات نفسها . ومن المعلوم ان دمشق كانت تعتمد في تصريف مصنوعاتها المتنوعة على البلدان المجاورة كفلسطين والشرق العربي والعراق ومصر وغير ذلك من الاقطار القريبة التي نزح اليها الصناع الدمشقيون . وأسسوا فيها دور تلك الصناعات واخذت تنمو

شيئاً فشيئاً ويتسع نطاقها حتى ان هذه البلدان في بضع سنوات لا تكتفي الا بشحن مصنوعاتها الى الخارج وامامها من التسهيلات الجمة ما يفسح لها المجال لقتل المصنوعات الدمشقية .

ثم احببنا نقل ما قاله صاحب الخطط تتميا للفائدة .

ما يجب للنجاح في الاقتصاديات

لا يجد المفكر في احوال التجارة والصناعة امامه سوى الطرق الآتية لنجاح تجارتنا ووضعها على اساس اقتصادي متين ورقي صناعتنا لتضاهي الصناعات الغربية وتقاوم مزاحمتها العنيفة .

اولا — تأليف الشركات الصناعية لتأسيسها على الاصول الميكانيكية الحديثة ولقد جربنا القيام لتأليف شركات مساهمة في احوال مختلفة ، واتخذنا وسائط التشجيع فلم نتوفق لذلك الى الآن ، ذلك لاننا لم نألف بعد مثل هذه الاعمال المشتركة . ولا سبيل الى تحسين صناعتنا واتقانها الا بتأليف هذه الشركات المنوعة ، ومتى تم لنا الظفر للقيام بمثل هذه المعاهد نعتقد اننا بدأنا نقاوم تيار الصناعات الغربية لتحل محلها صناعتنا الجميلة ، الممتازة بقوتها ومتانتها ، والتي تحتاج الى مفاداة ابنائها لتوسيعها واتقانها . خصوصاً وان رخص اليد العاملة ورخص المواد الاولية كفيلان بنجاح كثير من صناعتنا بالنظر لتوفر هذين الشرطين الاساسيين .

ثانياً — وضع الرسوم الجمركية على قاعدة حماية الصناعة الوطنية .

ثالثاً — العناية الفائقة بتحسين زراعتنا وعلى الأخص منها القطن والقنب والفاكهة المعروفة بجودتها في ارض الشام والعناية بتصديرها الى الخارج فان جارتنا مصر تستورد من انواع الفاكهة حسب احصاآتها ما تساوي قيمته ٣٧٥ الف جنيه فهل فكرنا في تحسين وسائل الاصدار لانواع فاكهتنا المعروفة بكثرتها وطيبها ؟ ثم رغب في زراعة التبغ ، وبذل الغيرة في استعمال المصنوعات الوطنية لا سيما الحلويات والسكاكر الافرنجية فان مصنوعات البلاد من هذه

الأنواع تفوقها جمالا واتقاناً ولذة ، فقد ارتقت هذه الصناعة في البلاد رقياً حسناً كان من أثره كميات كبيرة منها الى البلاد الغربية ايضاً وخصوصاً أصناف مربيات الفاكهة على اختلاف انواعها والاختصار على مصنوعات البلاد من هذه الانواع يوفر مبالغ طائلة تقدر بمئات الالوف من الدنانير الذهبية .

ثم قال تخفيف الضرائب عن عاتق الاهلين وقد أصبحوا لا يطيقون حملها بالنظر لكثرتها وتعددها وزيادتها بالاضافات التي طرأت عليها ، مع قلة اسباب الرزق وضعف موارد الاقتصاد .

وقال بعضهم غدا يزول الكابوس وتذهب تلك اليد الغاشمة عن دمشق فتفتح عينيها لتبصر ما حولها فعلى م تفتح عينيها على دماء سفكت ومنازل هدمت ومتاجر عطلت وصناعات بارت ونساء رملت واطفال يتمت وجنان خربت واقفلت ابواب معالمها الى الابد اما المسؤلية فتترك للتاريخ تسطيرها بشرط ان ينصف لان للتاريخ صفحات مملوءة بالصدق والصراحة كما ان فيه صفحات اخرى سودها الكذب طبقا لغايات المدونين الذين يخدمون مآرب خاصة ليجعلوا من الماضي سلما للمستقبل ويربطون مقدرات الخلف باعمال السلف انتهى وما يوافق المعنى قوله :

عجبت لأمر حكام تعدت ... بظلم والاله المستعان
يرومون الدخان يزول عنا ... وهم نار وبالنار الدخان
ومن يرجي العليل من البلايا ... اذا كان البلاء من الطبيب
وان الجرح ينفر بعد حين ... اذا كان البناء على فساد
وراعي الشاة يحمي الذئب عنها ... فكيف اذا الرعاة لها ذئاب
من الدين كشف الستر عن كل كاذب ... وعن كل بدعي أتى بالعجائب
ولولا رجال مؤمنون لهدمت ... صوامع دين الله من كل جانب

بلوغ المعالي ليس يدرك بالامل ... ولكن بجد المرء والكد بالعمل

فبادر سبيل المجد لا تخشى من عذل   اذا انت اعطيت السعادة لم تبل

وان نظرت شزرا اليك القبائل

انما العقل لا تأت الهوى متبسطا   ولا تك يوما في الامور مفرطا

ودونك نصحي لا تكن متورطا   فان كنت تبغي العز فأبغ توسطا

فعند التناهي يقصر المتطاول

وهل طمع الانسان الا مذلة   وفي الذكر في قصد السبيل اذلة

وان تمام الشيء للنقص علة   توقى البدور النقص وهي اهلة

ويدركها النقصان وهي كوامل



(الخاتمة)

« في ذكر ما جرى على السنة الشعراء من محاورات نظمية ونثرية »
« ومساجلات خيالية في مدح دمشق والتغزل بمتنزهاتها وازهارها وانواع ثمارها »
« ووصف حدائقها وانهارها من منتخبات اقوالهم » !

اقول لا يخفى ان من جملة مآخذ التاريخ (لا سيما تاريخ العرب) ومصادره التي يرجع اليها عند البحث في الاخلاق والعادات والوقائع هو الشعر ، وقد امتاز من بين غصون الكلام بسهولة الحفظ وميل الطباع الى تلقنه واستظهاره : وبحق ما قيل ان الشعر ديوان العرب ، ويجمع آثارهم وانسابهم .

فالشعر مرآة تتجلى فيها احوال الامة واخلاقها رقياً وانحطاطا ، وتتمثل فيها هياكلهم واوضاعهم وعاداتهم . والشعراء مؤرخون يدونون من ذلك ما يبقى حقائق واضحة وشواهد صريحة وان غلب عليهم الخيال (وهاموا في كل واد) .

ولم يزل ينشأ في كل عصر وجيل شعراء يزينون جيد زمانهم بقلائد منظومهم ويوشحون اعطاف اوطانهم بما هو افخر من الديباج والسندس . ناهيك بما لشعراء الاندلس من التفنن في وصف معاهدها ومعالمها ومجاهلها وازاهيرها ورياحينها وانهارها وبساتينها وكلها ملامح تاريخية ، وكذلك شعراء بغداد وما لهم من الابداع في الرصافة والجسر ودجلة والكرخ وغيرها من محاسن الجانبين .

ولا ننس ما للشعراء من الهيام في روابي نجد والدهناء واكناف حاجر ودومة الجندل ورمال المنحني وهضاب سلع وزرود ورامة وحزوى والجزع وذي سلم وكاظمة واضم والغميم والرقتين ومنى وجمع والاباطح ووادي العقيق

وجبال فاران ونعمان وأجاء وسلمى وغيرها من مواطن العرب وحللهم ، من بدائع التغزلات وروائع المخاطبات .

ومعلوم ان هذه الطائفة مفتونة بإجمال المحاسن الطبيعية والمكتسبة اياً كانت ولما كانت مدينتنا هذه قد ضربت في اللطافة والحسن بسهم وافر ، واكتست من حلل الجمال بالبرد القشيب ، فقد تناغى الشعراء من قديم الزمان الى يومنا هذا بذكر ما تزدان به وتزدهي وتلبس به من حلل الثناء الملبس البهي ، ولم يختص بذلك الشعراء الذين نشأوا في حجرها واستظلوا بسمائها وغذوا بما تنبته ارضها ، بل طالما تشوق الاجانب عنها اليها وهاموا بها ، وحنوا الى ربوعها حنين المشوق المستهام .

ولم يزالوا على تعاقب الاجيال ينظمون من مفاخرها ما هو ابهى من سموط الجمان ، وينسجون من محاسنها ما هو الطف من الديباج الخسرواني وقد وقفنا لهم من ذلك على البدائع والروائع ، وغرضنا ان نثبت في هذا السفر ما استحليناه واخترناه واستملحناه من منظومهم ناسبين كل قول لقائله .

نبدأ في ذكر ما قاله العلامة المؤرخ محمد بن مصطفى الراعي الشاعر الدمشقي احد معاصري العارف النابلسي في مدح دمشق من قصيدة مطلعها .

الحمد لله مفيض النعم   مول لمن شاء صنوف الكرم
مكون الاكوان بالاتقان   صنع حكيم مبدع متقان
بلا مثال سابق قد صورا   هذا الوجود فكن بذا معتبرا
ففيه اكبر شاهد التوحيد   ولقوة الايمان كالنشيد
فكم بقاع خصها بالشرف   واختها قضى لها بالسخف
مشيئة قد شاءها الرحمن   بكفه الاعطاء والحرمان
هذي دمشق الشام دار اللهو   فاسند حديثي عن رباها وارو
حاكت جنان الخلد عندالعرض   بل قيل عنها جنة في الارض
بل شامة الدنيا وعين الملك   وتعرف الدينار عند السبك
قد خصها الرحمن بالانهار   وطيب الارواح والازهار

ودير مران على قاسونا　　كأنه في ملك افريدونا
وتحتــه تلك الرياض الفضه　　وبينها الامواه مثل الفضه
كذا الحواكير التي ينساب　　فيها يزيد السلسل الطيـــاب
كم ان دولاب عليــه وشكا　　وشاقه عهد الرياض فبكى
وقطر الدموع في الحياض　　وباح بالاسرار للرياض

ومما قاله الامام العارف النابلسي الدمشقي في مدح دمشق من قصيدة مطلعها :

ان سامك الخطب المهول فاقلقا　　انزل بارض الشام واسكن جلقا
بلد سمت بين البلاد محاسنا　　ونمت بهاء واستزادت رونقا
لا ينبغي حث الركاب لغــيرها　　هام الفؤاد بحسنها فتعلقا
هي صفوة الدنيا وشائع فضلها　　بالقدس والحرمين اضحى ملحقا
ان تعشقوا وطنا فذا اولى بكم　　دون البلاد بان تحب وتعشقا
خير الاناس اناسها يرعون انوا　　ع الوداد ويحفظون الموثقا
هي جنة للطائفين معــدة　　يتمتعون ولا يرون بها شقا
طابت هواء للنفوس وماؤها　　عذب زلال سائغ لمن استقى
وبها ترى الولدان والحـــور التي　　وعد الاله بهن في دار البقا
بالقاسيون قست قلوب احبتي　　ولكم سرى فيه الصبا فترفقا
لله سفح النيربين فكم به　　من روضة غناء طابت رونقا
ضحكت ازاهرها على اغصانها　　فاتى النسيم يميلهن وصفقا
قد دندنت انهارها في جريهـــا　　لما شدا ذاك الحمام وشقشقا
والصالحية يا لها من منزل　　فيها مقر الصالحين اولي التقا
وبها القصور العاليات تزخرفت　　مثل النجوم زهت بكل من ارتقى
كم نزهة للعين فيها قد زهت　　وسرت على طرف الهموم فاطرقا
فيها ترى ما تشتهي وتلذه　　وبيوت قهوات شذاها عبقا
هي شامنـــا اعلى الاله منارها　　وبها ادام الله عيشاً ربقا
لم ترض عيني غيرها من منظر　　ولذا ترى قلبي بها متعلقا

لذ بالفؤاد بمن بها من معشر ... ان سامك الخطب المهول فاقلقا

يا حبذا جلق من بلدة ... اليمن للأمن بها قد تلا
يا سفحة الوادي سقاك الحيا ... كم فيك من يوم لنا قد خلا
حيث النسيم الرطب في النهرقد ... خاض ومنه سلسل السلسلا
بالنيربين القلب اودعته ... يشم من تلك الربا الشمالا
لله ايام تقضت لنا ... بظله اعهدها اولا
والربوة الربوة كم لي بها ... من مجلس للبال قد بلبلا
كم مر بالمزان لي مجلس ... انادم الصحب به الكملا
محاسن لو انها فصلت ... كل لسان المرء ان يجملا
ما جلق في الشام والشام في ... الارض سوى انسان عين العلا
تكفل الرحمن للمصطفى ... باهلها من نازلات البلا
وجاء في الآثار ما لفظه ... طوبى لاهل الشام فاسترسلا

وهبت صبا من قاسيون فحركت ... صبابة قلب قلبته يد البعد
وشط بريد زاد قلبي تولعا ... بمن شط عني والاضالع في وقد
يجرد سيفا في الحدائق مصلتا ... بمقطع الاحزان من داخل الكبد
عليه لهاتيك الذوائب أنة ... كأنه صب ريع بالهجر والصد
اسالت دموعها من عيون سواهر ... على خد روض بالندا فائح الند
سقى الله ذاك العهد ما كان في الربا ... الذواهنا منه يوم اللقا عندي

وقال رحمه الله تعالى يتشوق الى دمشق من بلاد الروم :

حدثوني عن نسمة الاسحار ... وغناء الطيور في الاشجار
وصبا النيربين والمرجة الفيـ ... حاء لما تفوح بالازهار
وخرير المياه بين غصون ... خافضات الرؤوس بالاثمار
وصفوا لي دمشق اني مشوق ... لحماها وطيب تلك الديار
بلد آمن ورب جواد ... ببلوغ الاوطان والاوطار
وعلى ساكني دمشق سلام ... من طريح بالروم نهب القفار

ومما قاله في مدحها الشاعر الدمشقي احمد بك كيوان صاحب الديوان من قصيدة مطلعها :

سقى دمشق ومن فيها بما رحبت من الغمام السواري كل منهمر
ارض بها كل فتان من البشر يزهو على الحور بالالحاظ والحور
ارض بها رقت الارواح فاعتدلت فليلها ابدا في رقة السحر
ومن صفا ماءها تبدو ضمائره فكل ما قد طواه غير مستتر
كأنه ذائب البلور حيث جرى يجري على الماس والعقبان والدرر

ومما يستعذب قول ابن الفارض :

جلق جنة من تاه وباهى وربا منيتي لولا وباها
قيل لي صف بردى كوثرها قلت غال بَرداها بِرداها

وقال ابو الحسن احمد بن مفلح الطرابلسي يصف دمشق بقوله :

سقى دمشق ومغنى للهوى فيها حيا تهز له اعطافها تيها
لازال المدوح عطارا يراوحها والسحايب خمارا يغاديها
دار هي الجنة المحبور ساكنها ان لم تكنها والا فهي تحكيها
تبارك الله كم من منظر بهج يستوقف الطرف في بطحاء واديها

وقال الاصفهاني الكاتب في وصفها ايضاً :

اهدي النسيم لبادي الرياحين لم طيب اخلاق جيران بجيرون
هبت لنا نفحة في جلق سحرا باحت بسر من الفردوس مكنون
دار النعيم ومن اداني محاسنها ثمار تموز في ايام كانون
نعيمها غير ممنوع بساكنها كالخلد والمن فيها غير ممنون
كانما هي للابرار قد فتحت من الفراديس ابواب البساتين
فاي عين اليها غير ناظرة واي قلب عليها غير مفتون

وقال يحيى بن سعد المهراني الحموي في وصفها ايضا :

ما بعد جلق في البسيطة دار تجري خلال قصورها الانهار
دار تلذ بها النفوس وتجتني من حسنها ثمر المنى الابصار

زادت بها الدنيا جمالا بارعا وزهت بحسن صفاتها الأمصار

وقال الدهان الموصلي في وصفها بقصيدة طويلة منها قوله:

سقى دمشق وأياماً مضت فيها مواطر السحب ساريها وغاديها
ونحن في جنة لاذاق ساكنها بؤسا ولا عرفت بأسا مغانيها
ترى البدور بها من كل ناحية محسودة للنجوم الزهر ايديها
اذا الغصون هززناها لنيل جنى صارت كواكبها حصباء اراضيها
شهية الطعم تحلو عند آكلها بهية اللون تجلى عند رائيها

ومما قاله في مدحها السيد عبد الرحمن بن حمزة من قصيدة مطلعها:

حيا دمشق فكم فيها لذي وطر منازه هي ملء السمع والبصر
فان توخيت منها طيب مختبر وتجتني عنده باكورة العمر
فاعمد الى الفيجة الفيحاء مرتشفا بها زلال معين رائق خصر
وانزل ببسيمة الزهراء منتشقا نسيمها اللدن في الآصال والبكر
واسلك خمائل وادي اشرفيتها بظل مشتبك الاغصان والشجر
ثم الجديدة الغراء فالو بها عنان طرفك وانزل جانب النهر
واقصد ربا الهامة الغناء مستمعا شدو القيان من الاطيار في السحر
واسرح مدى الطرف من الفاف دمرها بين الفياض لدى مستشرق خضر
واصعد ذرى السفح وانشد فيه مذكرا عهود انس مضت في سالف العمر
وقف على دير مران التي شخصت آثاره تلق فيه مسرح النظر
واقصر مدى الخطو واعبر صالحيتها ترى القصور بها تسموا على الزهر
وعد الى الربوة الغناء تلق بها محاسنا تجتلى في احسن الصور
وعج الى نيربيها كم بها فتن من المحاسن قد دقت عن الفكر
واعطف على المزجة الميثاء تلق بها داع الى اللهو معوانا على الوطر
وادبه للمنى اغصان مهتصر تهدلت بفنون الزهر والثمر
حيا الاله بصوب الودق غوطته وصانها من عيون الزهر والبشر

ومما قال في مدحها ايضا السيد عبد اللطيف المقاري الحلبي نزيل دمشق من قصيدة مطلعها وهو جد ربيع افندي النقاري احد اعيان حلب اليوم :

سقى دار سعدى من دمشق غمام … وحيا بقاع الغوطتين سلام
وجاد هضاب الصالحية صيب … له في رياض النيربين ركام
فنحت على تلك الربوع تشوقا … كما ناح من فقد الحميم حمام
وهل اعشب الروض الدمشقي بعدنا … وهل هب في الوادي النزيه بشام
وهل ربوة الانس الذي شاع ذكرها … تجول بها الانهار وهي جمام
وهل شرف الاعلى مطل وقصره … على المرجة الخضراء فيه كرام
الا ليت شعري هل اعود لجلق … وهل لي بوادي النيربين مقام
سلام على تلك المغاني واهلها … وان ريش لي من نأيهن سهام
لقد جمعت فيها محاسن اصبحت … لمدرج فخام الشام وهي ختام
بلاد بها الحصباء در وتربها … عبير وانفاس الشميم مدام
وغرتها اضحت ببهجة روضها … تضيء وخلخال الغدير لذام
تنائيت عنها فالفؤاد مشتت … وذعر الفيافي بيننا ورغام

ومما قاله في مدحها محمد امين المحبي صاحب نفحة الريحانة من قصيدة مطلعها :

سقى دمشق موطن الاوطار … دمعي وصوب العارض الزخار
والربوة الغناء حياها الصبا … فتنفست عن جونة العطار
اعيذ بالسبع المثاني دوحها … على احتواء السبعة الانهار
والمرجة الفيحاء والوادي الذي … منظره الباهي جلا الابصار

ومما قاله ايضا في مدحها احمد المقري في كتابه عرف الطيب من قصيدة مطلعها

اما دمشق فحضرة … لعبت بالباب الخلائق
هي بهجة الدنيا التي … منها بديع الحسن فائق

وقال ايضا بحقها وابدع بالمقال :

دمشق راقت رواء … وبهجة وغضاره
فيها نسيم عليل … صحت فوافت بشاره

وغوطة كعروس ... تزهي بأعجب شاره
يا حسنها من رياض ... مثل النضار نضاره
كالزهر زهرا وعنها ... عرف العبير عباره
والجامع الفرد منها ... اعلى الاله مناره
وحاصل القول فيها ... لمن اراد اختصاره
تذكيرها من رآها ... عدنا وحسبي بشاره
دامت تفوق سواها ... اناله واناره

قال لي ما تقول في الشام حبر ... كلما لاح بارق الحسن شامة
قلت ماذا اقول في وصف قطر ... هي في وجنة الممالك شامة

تزيد على من الزمان طلاوة ... دمشق التي واقت بحسن المشارب
لها في اقاليم البلاد مشارق ... منزهة اقمارها عن مغارب

واذا وصفت محاسن الدنيا فلا ... تبدأ بغير دمشق فيها اولا
بلد اذا ارسلت طرفك نحوه ... لم تلق الا جنة او جدولا
ذا وصف بعض صفاتها وهي التي ... تعني البليغ وان اجاد وطولا

ومما قاله الشيخ الطالوي الشاعر الدمشقي في مدحها من قصيدة مطلعها :

حمى الشام جاد الغيث ما حل تربه ... مغاني الهوى فيها مغاني احبتي
وبانت باعلى النيربين مع الصبا ... تطارحها ذكرى عهود بربوة

ومما قاله في مدحها السيد الجليل ابن قضيب البان الحلبي نزيل دمشق من قصيدة مطلعها وله ذرية كبيرة في الديار الشامية اشتهروا في صحة الشرف

سقى جلقا صوب السحاب المزرد ... وباكر من افنانها كل معهد
وقلدا جياد الربا في عراصها ... يد الغيث عقدي لؤلؤ وزبرجد
اشيم بروقا بالشآم منيرة ... عقابيل شوق بالفؤاد المشرد

ومما قاله البدر بن حبيب الشاعر الاديب في مدحها من قصيدة مطلعها :

سقى جلق الفيحاء مغنى النواسم ... وجاد رباها هاطلات الغمائم

وحيا الحيا تلك المعاهد من فتى　　يرى حفظ عهد الود ضربة لازم

ومما قاله في مدحها السيد كبريت المدني احد شعراء المدينة المنورة وعين اعيانها

وما الشام الا في البلاد كشامة　　واقمار وادية الشهام تمام

فحيا محياها الاله وزانه　　ولا زال برق الحسن فيه يشام

ومما قاله في مدحها القيراطي الشاعر الشهير من قصيدة مطلعها:

اشتاق في وادي دمشق معهدا　　كل الجمال الى حماه ينسب

ما فيه الا روضة او جوسق　　او جدول او بلبل او ربرب

وضياعها ضاع النسيم بها فكم　　اضحى له من بيننا متطلب

وحلت لقلبي من عسال حبة　　فيها لارباب الخلاعة ملعب

ولكم طربت على السماع بذكرها　　وغدا بربوتها اللسان يشبب

فتى ازور معالما ابوابها　　بسماعها كتب الكرام تبوب

ان للروح في دمشق لمأوى　　ذا قرار وذا معين وربوه

وبروضاتها بساتين ورد　　لي بازوارها صبابة عروة

ولابن عنين الشاعر وقيل لشرف بن محسن:

دمشق بي شوق اليك مبرح　　وان لج واش او الح عذول

بلاد بها الحصباء در وتربها　　عبير وانفاس الشمال شمول

تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق　　وصح نسيم الروض وهو عليل

وقال الشاعر عرقلة الدمشقي في وصفها من قصيدة مطلعها:

والشام شامة وجنة الدنيا كما　　انسان مقلتها الغضيضة جلق

في نيرب ضحكت ثغورا قاحه　　لما بكاه العارض المتألق

سيما وقد رقم الربيع لربعها　　وشياً به حدق الحدائق تحدق

ومما قاله التلعفري صاحب الديوان:

جادتك ياشرف الميدان سارية　　ولا تعداك هامي الودق هتان

وفاح ياوادي الشقراء منك شذا　　يضيع حين يضوع الورد والبان

وراق ماؤك ياثورا ولا برحت　　تميل فوقك بالاطيار اغصان

ودام دفقك يا باناس متصلا حتى يرى كل ظام وهو ريان
تلك الجنان التي حيث التفت ترى قصراً منيفاً به حور وولدان
تدعوك فيها الى اللذات اربعة بيع الحياة بها ما فيه خسران
ظل ظليل وماء بارد غدق وجوسق مشرق عال وبستان

يا بارق الشام حي الأثل والبانا وانقل حديثك عن لبني ولبنانا
وهات ما حملت عطفاك من خبر فان لي بربا جيرون جيرانا
سقت ليالي بالاحباب سارية تعيد ظامي ذاك الترب ريانا
ولا تعدي الربا من قاسيون حيا يعيد فوق الصياصي منه غدرانا
تلك الربوع التي لم تأل مذ عمرت في الارض للهو والاوطار اوطانا

وقال ابو الوحش سبع بن خلف الاسدي في مدحها من قصيدة طويلة

مدينة ليس يضاهي حسنها في سائر الدنيا ولا آفاقها
تود زوراء العراق لانها تعزى اليها لا الى عراقها
فارضها مثل السماء بهجة وزهرها كالزهر في اشراقها
لا تسأم العيون والأنوف من رؤيتها يوما ولا استنشاقها

وقال في مدحها شمس الدين الأسدي :

اذا ذكرت بقاع الارض يوما فقل سقيا لجلق ثم رعيا
وقل في صفها لا في سواها بها ما شئت من دين ودنيا

وقد جمع الامير ابو الفضل اسماعيل ابن الامير ابي العساكر سلطان بن منقذ الكناني في قصيدة له طويلة محاسن دمشق فاجملها هنا لاني استقصيت اطايب ما قاله فيها واثبت لك ما اخترته منها وهي قوله :

يا رائداً يرجى الغروم البزلا دع عنك بغداد وخل الموصلا
لا ترجها لسوى دمشق فانه سيطيل ضرا من تعدى المفصلا
بلد جلا صدا الخواطر فانجلت كالمرهفات البيض وافت صيقلا
عوضته عن موطني فوجدته احلى واعذب في الفؤاد واجملا
لم التمس فيه لجسمي منزلا حتى وجدت له بقلبي منزلا

ذو ربوة جاء القران بذكرها ومساجد بركاتها لن تجهلا
ومدارس لم تأتها في مشكل الا وجدت فتى يحل المشكلا
ومعاشر تخذوا الصنائع مكسبا وافاضل حفظوا العلوم تجملا
وكأن جامعها البديع بناؤه ملك يمر من المساجد جحفلا
ذو قبة رفعت فضاهت قلة ومنابر بنيت فحاكت معقلا
فكأنما محرابه من سندس أو لؤلؤ وزمرد قد فصلا
واذا مررت على المنازل معرضا عنها قضى لك حسنها ان تقبلا
واذا عنان اللحظ اطلقه الفتى لم يلق الا جنة أو جدولا
أو روضة أو غيضة أو قبة او بركة او ربوة او هيكلا
او وادياً او ناديا او ملعبا او مذهبا او مجدلا او موئلا
وفواكه متخالف اصنافها مما يشوق مطعما وتأملا
وغريب وصفي قد اتاك مفصلا وسواه لا يأتيك الا مجملا

ومما قاله في مدحها وابدع في وصفها الشهاب احمد بن علي المنيني الذي تقدم ذكره في كتابنا من قصيدة مطلعها

كم ليلة بالنيربين قطعتها من بعدها لي رنة وشهيق
وبدير مران ونهر يزيدكم زاد السرور وقد صفا الراووق
والربوة الغناء كم فيها مضى عيش به وجه الزمان طليق
آه على زمن مضى في ظلها عجلا ووجه شبيبتي مرموق
حيث الزمان مساعد وضميره كمياهها ابداً تراه يروق
والسبعة الانهار تخرق دوحها هي لؤلؤ قد نضدت وعقيق
يا ليت شعري هل تبل بوقفة من على وادي منين عروق
واري بعيني رأس عين مائها يشفي العليل وما به ترنيق
عين عدت عين الحياة تمدها عنها نضال للسلاف رحيق
يا جنة فارقتها ذادني عنها زمان دأبه التفريق

ومما قاله في مدحها وابدع في وصفها بديع زمانه الشاعر الناثر محمد سعيد السمان الدمشقي من قصيدة طويلة قال فيها :

ورأيت مسرح غوطتيها يانعا ومن العيون تحفة الأحداق
واجتزت بالوادي الخصيب وقد غدا فيه لك الارعاد والابراق
وأخذت حظاً من نصيب زهورها اللاتي لارواح الندام رفاق
وسبرت جامعها الذي ارجاؤه فيها لارباب الهدى اطراق
وسموت قبة نسره متأملا ما اتقن الصناع والحذاق
وبي السراة الغر من نادمتهم فيها وطابت منهم الاخلاق
فاذا ذكرت لهم احاديث الهوى طربوا الى تكرارها واشتاقوا
يتعللون بذكر من قتل الجوى ولمثل ذاك حديثهم يشتاق
لهفي وهل يجدي التلهف من قضى نحبا ولازمه نوى وعاق
ياليت شعري والشعور مزايلي هل من حظوظي تفتح الاغلاق
تبا لما ابديت يا زمن العنا هل فيك يرجى للكمال نفاق
ويعود في فيحاء جلق شملنا منتظما وتساعد الارزاق
وتمن من بعد التنائي باللقا ويلذ من كنز المنى الانفاق

ومما قاله في وصفها الشاعر الشهير محمد بن عثمان المعروف بابن الشمعة احد بلغاء دمشق ومن اعيانها من قصيدة مطلعها وهو جد اسرة بني الشمعة الاكارم :

حيا الحيا جلقا دارا بها وطرى وجادا ربعها سح من المطر
دارا بها جمع لذاتي ومرتبعي زمان انسي غدا صفوا من الغير
ايام ارتع في زهو الشباب وقد صفا لي الوقت من هم ومن كدر
في ظل روض يباهي حسنه ارما ما مالت ادواحه كالمن بالزهر
كم بت فيه قرير العين مرتشفا ثغور غيض تضاهي بهجة القمر
فيا بروحي دمشق الشام من بلد عن وصفها صاح كلت السن البشر
احبب بها جنة الدنيا التي جمعت من كل منتزه مستكمل الصور
وحبذا المرجة الفيحا وجهتها من شامها يفتدى مستوقف النظر

والصالحية جنـات مزخرفة | من كل قصر وروض مدهش البصر
تحوي زهوراً وانهاراً مدفقة | جرت عليها ذيول انسمة السحر
فهذه جنة الدنيا وزينتهـا | فلا شبيه لها في البدو والحضر

ومما قاله الشاعر البليغ انسان عين الزمان احمد بن حسين كيوان في مدح دمشق من قصيدة مطلعها وهوجد اسرة كيوان الموجودة اليوم :

ولجلق الفيحاء من بلد | منـكبة الادواح والنشر
هي وجـنة الدنيا ورونقها | وجبينها الزاهي بلا نكر
هي جنة في الارض واحدة | انهارها من تحتها تجري
قد صح معتل النسيم بها | فامال ناشقه من السكر
لا زال خفاق النسيم بها | يحي موات الهـم اذ يسري
دمشق فلا زالت تحيا ربوعها | وهمى على تلك السطوح سفوح
فكم مرتع تاهيد فيها ومنزه | وربع خصيب للوفود فسيح
منازل شيدت للمكارم والندى | فتغدوا الفوادي دونها وتروح
وفي كل وجه رونق من ملاحها | يريك جميل الصبر وهو قبيح
اذا القطر حيا ارضها وبقاعها | تبسـم زهراً وتنفس شيح

ومما قاله في مدحها الشاعر الاديب مصطفى اسعد اللقيمي الدمياطي من قصيدة مطلعها :

قسما سماحسناً بصـدق المقسم | بالربوة الفيحا بعز المقسـم
الشام يزهو بالمشـاهد حسنها | فلها بسامي الحسن فضل تقدم
فغياضهـا قد وشحت بازاهر | ورياضها اهدت لطيف تنسم
وبدوحها ورق الحمام صوادح | بديع الحان وحسن ترنم
فمياهها ورياضها وهوائهـا | وقيانهـا الصب حسن تنعم
دمشق الشام في وصف تسامت | فكم تحوي رباها من محاسن
بها الازهـار دانية قطافها | كذا الانهار ماء غير آسن
واضنى الجوى قلبي بتذكار معهد | بوادي دمشق الشام عذب الموارد

شهدت بسفح السفح منه مشاهدا · تحمت بها انعم بتلك المشاهد
الا زدني ولوعا بامتداحك · محاسن جاق وقت اصطباحك
وزد بالنيربين ولوع قلبي · وربوتها فيا حسن اقتراحك

وبما قاله البحتري صاحب الديوان من قصيدة له :

العيش في ظل داريا اذا بردا · والراح تمزجها بالماء من بردا
اما دمشق فقد ابدت محاسنها · وقد وفى لك مطريها بما وعدا
اذا اردت ملات العين من بلد · مستحسن وزمان يشبه البلدا

وبما قاله الشاعر الشهير ابن المشد في مدح دمشق :

كأن جاق حيا الله ساكنها · اهدت الى الفور من ازهارها مددا
فأرسل الجو منها لا يزيد على · نوراً ويعقد محلول الندا بردا

وبما قاله في مدحها لسان الدين بن الخطيب :

ان تكن جنة الخلود بأرض · فدمشق ولا تكون سواها
أو تكن في السماء فهي عليها · قد ابدت هواءها وهواها
بلد طيب ورب غفور · فاغتنمها عشية وضحاها
بلد تحف به الرياض كأنه · وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة · ومن الجسور المحكمات سواره

ولابن تميم في مدحها :

عجباً لميداني دمشق وقد غدا · كل له شرف اليه يأول
والنهر بينهما لغير جناية · سيف على طول المدى مسلول

برزت دمشق لزائري اوطانها · من كل ناحية بوجه ازهر
لو ان انسان تعمد ان يرى · مغنى خلا من نزهة لم يقدر

الا ان وادي الشام اصبح آية · محاسنه ما بين اهل النهى تتلى
وان شرفت بالنيل مصر فلم تزل · دمشق لها بالغوطة الشرف الأعلى

دمشق لا يقاس بها سواها · ويمتنع القياس مع النصوص
حلاها راقت الابصار حسنا · على حكم العموم او الخصوص

بســـاط زمرد نثرت عليه　　من الياقوت انواع الفصوص

وعا قاله في وصفها عرقلة الدمشقي الكلبي :

الشام شامة وجنة الدنيا كما　　انسان مقلتها الغضيضة جلق
من آسها لك جنة لا تنقضي　　ومن الشقيق جهنم لا تحرق
اما دمشق فجنـــات معجلة　　للطالبين بها الولدان والحور
يا حبذا ودروع الماء تنسجها　　اتامل الريح الا انها زور
ما صاح فيها على اوتارها قمر　　الا وغناه قمري وشحرور

يا برق هل لك في احتمال تحية　　عذبت فصارت مثل مائك سلسلا
باكر دمشق بمشق اقلام الحيا　　زهر الرياض مرصعا ومكللا
واجرر بجيرون ذيولك واختصص　　مغنى تأزر بالعلا وتسربلا

وعا قاله في مدحها سعيد الغرناطي الشاعر الشهير من قصيدة مطلعها :

دمشق منزلنا حيث النعيم بدا　　مكملا وهو في الآفاق مختصر
القصب راقصة والطير صادحة　　والزهر مرتفع والماء منحدر
وقد تجلت من اللذات اوجهها　　لكنها بظلال الدوح تستتر
وكل واد به موسى يفجره　　وكل روض على حافاته الخضر
خيم بجلق بين الكأس والوتر　　في جنة هي ملء السمع والبصر
ومتع الطرف في مرأى محاسنه　　وروض الفكر بين الروض والنهر
وانظر الى ذهبيات الاصيل بها　　واسمع الى نغمات الطير في الشجر
وقل لمن لام في لذاته بشرا　　دعني فانك عندي من سوى البشر

اما دمشق فجنة　　ينسى بها الوطن الغريب
انظر بعينك هل ترى　　الا محبا او حبيب
وغدت ازاهر روضة　　تختال في فرح وطيب

وعا قاله ابن الرومي الشاعر الشهير في مدح دمشق

لما علمت همتي صيرتها وطني　　وليس يقنع غير الدون بالدون
دار النعيم ومن ادنى محاسنها　　ثمار تموز في ايام كانون

وعما قاله في مدحها ابن الشيخ عماد الدين الدمشقي الشاذلي :

يمم ربا جلق والثمة من امم ... وول وجهك العالم الفخم
وانزل بسفح مقام المرسلين به ... علا على الدوح بالتشريف والاكم
واترك عراقك والبحرين يمن ... فحسب جلق ما خصت من النعم

وعما قاله الصنوبري في وصف دمشق من قصيدة مطلعها :

صفت دنيا دمشق لقاطنيها ... فلست ترى بغير دمشق دنيا
تفيض جداول البلور فيها ... خلال حدائق ينبتن وشيا
مكللة فواكهين ابهى المنا ... ظر في مناظرنا واهيا
فمن تفاحة لم تعد خدا ... ومن اترجة لم تعد ثديا

وعما قاله في مدحها عبد الله بن الحسين البقار من قصيدة مطلعها :

سقى الله ما تحوي دمشق وحياها ... فما أطيب اللذات فيها واهناها
نزلنا بها واستوقفتنا محاسن ... يحن اليها كل قلب ويهواها
فان كانت الايام انست عهود ... نا فلسنا على طول المدى نتناساها
سلام على تلك المعاهد انها ... محط صبابات النفوس ومثواها
رعى الله اياما تقضت بقربهــــا ... فما كان احلاها وامراها

وقال شهاب الدين الخفاجي لما ورد من حمص لدمشق :

وما يستوى المصران حمص وجلق ... ولا حمص جيرون بها والخورنق

وعما قاله السيد محمد السعيد الدمياطي من مزدوجة منسوجة على منــوال اللطافة مطلعها :

سقى دمشق الشام صوب عهد ... وحيها تحية من عندي
فكم بها من نزهة وفرجه ... وروضة بالورد ذات بهجه
وللعروس بالمقام لجه ... تختال كالمزاز حول المرجه

كأنها الفردوس دار الخلد

وقاسيون ان سطا وصالا ... مفوقا من سهمه نصالا

بالنيربين ارتجي اتصالا كعاشق قد ابتغى وصالا
من وجنة المعشوق لثم الخد

والصالحية حلها ابن العربي العارف القطب الرفيع النسب
مقامه بالحق كنز الطلب فكم له كرامة بها حبي
لا يستطاع حصرها بالعد

وقد ذكر المؤرخون جبل قاسيون المطل على دمشق بكثير من الوصف والمدح ونفائس الاخبار وجعله ربنا تعالى مرقد الانبياء ، وموطن الاولياء والاصفياء ، ومعدن العباد ، ومجمع الصلحاء والزهاد ، وقد تقدم في كتابنا ما ورد في حقه من الآثار وعن مغارة الدم لا كما وصفه بعضهم من مؤرخي دمشق بان مشاهده وصروحه هي قصص العامة ومن قبيل الامور الروحانية بل نقلها علماء التاريخ جيلا بعد جيل الا انه لايجبرنا احد التصديق بها وقد قال بعض الشعراء في حقها :

مغارة الدم في قاسيون مشرقة نورا بها لذوي الحاجات ميقات
فانزل بسوح حماها داعيا ابدا عسى توافي من المولى اجابات

ثم نزين كتابنا في ذكر نفائس ما تداولته الشعراء ، وتغزلت به البلغاء ، في مدحه ، فمن ذلك قول العارف النابلسي الدمشقي من قصيدة مطلعها :

انما قاسيون في الشام نور وله بهجة وفيه سرور
جبل مشرف بارواح قوم في ذراه لهم هناك قبور
كم ولي وكم نبي له في سفحه الرحب رونق وحضور
ان في الصالحية الشام سرا ليس يدريه غير من فيه نور
عذب ماء جرى وطيب هواء ينفح المسك ليس فيه كدور
جنة صالحية الشام لكن ليس فيها ولدانها والحور

جاء النسيم باطيب النفحات من قاسيون ومنزل السادات
يامعهدا بالسفح من ذاك اللوى لازلت ماوى الخير والبركات
كم من ولي فيك واراه الثرى بل من نبي في ذرى الهضبات

ياحبذا الكهف الرفيع وحبذا تلك المغارة منجح الدعوات
سقيت دمشق اجش منبعث الحيا ابدا على الآصال والغدوات
وحبا الاله منازلا نسبت لها من رونق الاقبال جل هبات
ولكم بها من جنة قد زخرفت بصنوف ازهار وحسن نبات
بلد على البلدان قد فاقت كما فاق الضياء بها على الظلمات
لو قيس بالمقياس نيرٍ بها رمى مصرا بذاك السهم في الجبهات
تعلو على ذات العماد ببهجة ما ان تراها في سوى الجنات

قال ابن عساكر انشد في بعض الصالحين لبعض المتأخرين في مدح جبل قاسيون :

يا صاح كم في قاسيون وسفحه من مسجد يستوجب التعظيما
والربوة العليا فضلها الذي اضحى بتشريف البقاع عليما
والنيرب المشهور يعرف فضله من زاره او ذاق فيه نعيما
ومغارة الدم فضلها متواتر ما زلت اسمه قديت عظيما
ولكم مكان ليس فيه مسجد اضحى على المتعبدين كريما

وبهذه المناسبة نذكر ما قاله صاحب الخطط في حق هذا الجبل قال : نقل احد المستشرقين أن احسن مناظر سورية ثلاثة جبال : جبل الصبر في نابلس ، وجبل الكرمل في حيفا ، وجبل الشيخ المعروف بالكتب القديمة بجبل حرمون . ولو انصف لعد ايضا جبل قاسيون المطل على دمشق وغوطتها . ولقد كان له في القديم شأن ما برح يتردد ذكره على المدى ، وفيه من القصور والصروح وفي سفحه من المتنزهات والجنان ما يكل عن وصفه اللسان وللعامة قصص على مشاهد الجبل لا تزال دائرة على الافواه ، وما هي في الحقيقة الا من قبيل الامور الروحانية ، واكثرها ان لم اقل كلها لا يثبت تاريخيا انتهى كلامه .

ومن تحته الحواكير وهى حدائق في ذيل الجبل ذوات افنان بل روضات ، ولكنها جنان ازهار ، تفوح على خرير انهارها الاطيار . فان حكماء اليونان اختاروا زرع الرياحين والازهار في سفح قاسيون لحكمة ، وهى انه يقيها

البر دكونها في ذراه . وان النسيم اذا مر بها تحمل من عرفها ، وتسقى رياضها بواسطة الدولاب من نهر يزيد وفي ذلك يقول العارف النابلسي :

وحاكورة تحكي سماء زبرجد　　كواكبها حب الجمال المتضد
اتينا اليها في الصباح نؤمها　　فبشت بوجه من خمائلها ندي
وقد عطرت ارجاؤها نفحة الصبا　　بالطف هبات وطيب تردد
ومن حولنا ماء الجداول رائق　　كصفحة سيف في الرياض مجرد
ومد علينا الدوح وارف ظله　　وكان بساط الروض فيهن احمدي
فلله ذاك اليوم ما كان في الهنا　　الذ واهنا منه للمغرم الصدي

والدواليب في تلك الحواكير تأن على خرير انهارها ، وتحن لمفارقة مغرس اشجارها ، وتبدد دموعها بين تلك الحدائق ، فتتناثر كالدرر تحت هاتيك السرادق . وفيها يقول الشاعر :

وباكية والروض يضحك كلما　　الحت عليه بالدموع السواجم
يروقك منها ان تأملت نحوها　　زئير اسود والتفات اراقم
تخلص من ماء الغدير سبائكا　　فتنبتها في الروض مثل الدراهم

وقال ابن الآبار الشاعر الدمشقي من قصيدة مطلعها :

لله دولاب يدور كأنه　　فلك ولكن ما ارتقاه كوكب
للماء فيه تصعد وتحدر　　كالمزن يستسقي البحار ويسكب

ومطل على هذه الجنات والحواكير قبة السيار التي تقدم ذكرها في كتابنا وبها يقول الأمام العارف النابلسي:

اتينا قبة السيار يوما　　مع الاصحاب نركض في الصباح
ومنها هدمت اركان عز　　تخبر عن علا اهل السماح
وقد كان المسير على رياض　　معطرة بانفاس الرياح
فغنت ساجعات الدوح فينا　　مهيمنة بالسنة فصاح
فيا لك قبة رفعت وطارت　　على نسر السماء بلا جناح
تبث بها النسائم عرف زهر　　من الوادي وهاتيك النواحي

قد اعتنى المؤرخون بذكر الصالحية ومحاسنها، وذكر رياضها، وما قيل فيها من الشعر والنثر وقد تقدم بعض ذكر منتزهاتها في كتابنا، وقد اخترنا ذكر بعض اقوال الشعراء في وصفها ووصف رياضها البهيجة وتغنيهم بذكر منتزهاتها الارجة، فمن ذلك قول العارف النابلسي:

والصالحية يالها من منزل ... فيها قبور الصالحين اولي التقى
وبها القصور العاليات تزخرفت ... مثل النجوم زهت بكل من ارتقى
تسمو على اطراف جلق بهجة ... وطلاوة فيها السرور تحققا
كم نزهة للعين فيها قد زهت ... ومررت على طرف الهموم فاطرقا

ياحبذ الربوة من دمشق ... بالفضل حازت قصبات السبق

وعشية رقت لنا نسماتها ... معان في الوادي الصخور غلاظ
وادي دمشق الشام من غربيها ... نزهو به تتنزه الالحاظ
والماء يدفق من خلال رياضه ... مثل الفهوم تقيدها الالفاظ
فكأننا اذ طاب مجلس انسنا ... لا نائمون به ولا ايقاظ

أدمشق لابعدت ديارك عن فتى ... ابداً اليك بكله يتشوق
انفقت في ناديك ايام الصبا ... حبا وذاك اعز شيء ينفق
فالارض في طول وعرض دائما ... لم تحو مثلك غربها والمشرق
لله وادي النيربين وظله ... لا الرقتان وحاجر والابرق
وسقى ديار الصالحية وابل ... يهمي على تلك المنازل مغدق
لله مرجة ذلك الوادي الذي ... قلبي يهيم به وذاك الجوسق
ففياضه ورياضه بعيونه ... هذا يعوم بها وهذا يغرق
والقصر والشرفان والميدان ... والشقراء عشق للذي لا يعشق
وفي الربوة الفيحاء للقلب جاذب ... وللغبن مسلاة وللعين مرمق

مرجة الشام بهجة الابصار ... عطرتها روائح الازهار
يتمشى بها لطيف نسيم ... صافحت كفه يد الانهار

واقتراب الربيع بهجة روح ‏ ‏ ‏ ‏ وانجبار للجسم بعد انكسار
وزمان به قد ود غصون ‏ ‏ ‏ ‏ حاملات لأوجه الاقمار
واذا مشيت خلال هاتيك الربا ‏ ‏ ‏ ‏ لك درهم بالزهر او دينار

سقى الله يوم المرجة الفضة التي ‏ ‏ ‏ ‏ مغارتها تلك المبيضة ازدهت
جلسنا بها في مجلس حاز بهجة ‏ ‏ ‏ ‏ به العين عن كل المجالس قد لهت
وكدنا نظن الوقت كاس مدامة ‏ ‏ ‏ ‏ لكون عيون الدهر عنا لقد سهت
وذو الحب لا يخفى على الناس وصفه ‏ ‏ ‏ ‏ لأن معاني الحب في قلبه زهت
واحشاؤه تصلى بنار صبابة ‏ ‏ ‏ ‏ وان كانت الالحاظ منه تنزهت

وقال العلامة ابن عابدين الدمشقي صاحب الحاشية الشهيرة : ذهبت يوما مع شيخي وجماعة آخرين الى شرف المرجة وقلت في مدحها :

في مرجة ياصاح نلت الشرفا ‏ ‏ ‏ ‏ فوق مكان قد تسمى الشرفا
يا حسنها روضة انس وصفا ‏ ‏ ‏ ‏ بها انشراح للقلوب وصفا
جداول من مارها رائقة ‏ ‏ ‏ ‏ وغصنها قد ضاء وجها وقفا

كان العارف النابلسي يوما في وادي كيوان فوق الطاحون الذي هو قرب وادي الغزى فانشد قوله .

لي بوادي كيوان مجلس انس ‏ ‏ ‏ ‏ حوله الماء دائر في السواقي
واذا الغصن عانق الغصن ميلا ‏ ‏ ‏ ‏ كدت ادري المعنى بذاك العناق

جلق الشام جنة الخلد تجري ‏ ‏ ‏ ‏ بالسواقي من تحتها الانهار
شاهدي صالحية هي فيها ‏ ‏ ‏ ‏ وهي ايضا للصالحين قرار

ومما قاله بها السيد عبد الرحمن بن حمزة :

سقى الله عهد الصالحية والصبا ‏ ‏ ‏ ‏ وحيازما نامر في جانب السفح
مواطن اتراب ومربع صبوة ‏ ‏ ‏ ‏ ومرتع غزلان مخصرة الكشح
خلال قصور شاهقات تناظرت ‏ ‏ ‏ ‏ مناظرها تدعو المشوق الى الفتح

ومما قاله في مدح الصالحية شاعر دمشق المرحوم الامير منجك :

نزلنا الصالحية في العشايا ‏ ‏ ‏ ‏ فاغنانا الضياء عن الضياء

وابواب القصور لها صرير ... الذ لمسمعي من صوت ناي

والماء يجري بساحات القصور بها ... قد حف جدولها آس وريحان

ونهرها العذب يحكي في تسلسله ... سيوف هند لها في الجو لمعان

تأمل لحسن الصالحية اذ بدت ... مناظرها مثل النجوم تلالا

وللطلعة الغراء كالبدر طالعا ... تفجر صدر الماء منه هلالا

واذا نظرت الصالحية خلتها ... من جنة الفردوس حين تخيلا

مجلس انس — اتفق ان بعض اعيان دمشق استدعى العارف النابلسي صحبة سادات كرام من الاعيان منهم السيد ابراهيم افندي النقيب والشيخ عبد الرحمن ابن عبد الرزاق صاحب تاريخ دمشق وخطيب جامع السنانية وخلافهما من الشعراء والبلغاء ، فدعاهم داعي الانس والجمال فقال النقيب :

الشـــام دار قرار ... لذى النفوس الزكية

بل جنة الخلد اضحت ... عنوانها الصـــالحية

قال العارف النابلسي :

دمشق دار سرور ... رياضها سندسية

كجنة الخلد اضحت ... عنوانها الصـــالحية

ذات العماد دمشق ... اخبارها مروية

بذا اتانا كتاب ... عنوانه الصـــالحية

قل ما تشا عن دمشق ... وانسب اليها المزية

فانهـــا دار خلد ... عنوانها الصـــالحية

فاجابه ابن عبد الرزاق :

دار النعيم دمشق ... ذات الرياض الزكية

تزهو كجنة خلد ... عنوانها الصالحية

بادر لروضة انس ... في الشام اضحت زهية

تحظى بجنة عدن ... عنوانها الصالحية

ثم قال العارف النابلسي :

لمـــا الربيع اتانا ‌ ‌ ‌ ‌ في جلق المحمية
جاءت مكاتيب زهر ‌ ‌ ‌ ‌ عنوانها الصـــالحية

مجالس القوم طابت ‌ ‌ ‌ ‌ لي بالموالي العلية
كجنة ذات انس ‌ ‌ ‌ ‌ عنوانها الصـــالحية

فقال النقيب :

دمشق موطن انس ‌ ‌ ‌ ‌ يهوي اليهـــا العليل
حكت لجنة خلد ‌ ‌ ‌ ‌ لهـــا النفوس تميل
والصالحية فيها ‌ ‌ ‌ ‌ منها عليها دليل

الورد طاب شـــذاه ‌ ‌ ‌ ‌ بطيب خير البرية
بذا اتانا حديث ‌ ‌ ‌ ‌ عنوانه الصـــالحية

وقال عين الموالي يوسف افندي قاضي دمشق :

مدارس العلم طابت ‌ ‌ ‌ ‌ بالسادة الهـــاشمية
والشـــام جنة خلد ‌ ‌ ‌ ‌ عنوانها الصـــالحية

وقد ختم المجلس ابن عبد الرزاق بقوله :

قعدت مقعد صدق ‌ ‌ ‌ ‌ بين الموالي عشيـــة
فقلت ذي دار عدن ‌ ‌ ‌ ‌ عنوانها الصـــالحية

وللعارف النابلسي قصيدة لطيفة قالها حين تم بناء داره في الصالحية مطلعها :

جيرة الصالحين في الصالحية ‌ ‌ ‌ ‌ اخبرتنا ان العناية نية
وهي في اهلها من الله بشرى ‌ ‌ ‌ ‌ بقبول وحالة مرضيـــة
يا رعى الله شعب قاسون كم لي ‌ ‌ ‌ ‌ من غرام به ووجد شجية
جبل تشرف الجوانب منه ‌ ‌ ‌ ‌ بتجلي القبور بعـــد العشية
فترى فيـــه روح كل نبي ‌ ‌ ‌ ‌ وولي مثل الشموس المضية
وليال مرت لنا فيه كنا ‌ ‌ ‌ ‌ نشرب الانس في كؤوس بهية
مع صحب كانجم في سماء الـ ‌ ‌ ‌ ‌ علم والفضل والعهود الوفية

لا عدمناه من زمان سرور بالهنــا دام والمزايا العلية

حبذا حبذا بقاسون دار زار فيها هوى النفوس الابية

ومكان لنا هناك مكين واسع الصدر مقتضى الامنية

يجلس المرء في الشبابيك منه فيرى اوج قبــة اموية

ويرى الدور في دمشق جميعا والبساتين والرياض السنية

وقال ايضا حين ذهب الى بستان الشحطي بالنيرب الفوقاني بقرب دير مران من قصيدة مطلعها :

وهبت صبا من قاسيون فحركت صبابة قلب قلبته يد البعد

وشط يزيد زاد قلبي تولعــا بمن شط عني والاضالع في وقد

وقد عطفت بالنيربين حديقة علينا فنها نحن في جنة الخلد

سقى الله ذاك العهد ما كان في الربا الذ واهنا منه يوم اللقا عندي

وقال في مجلسه ذاك الشيخ يوسف الشهير بابن الرز احد شعراء دمشق مواليا مطلعه:

خاطبت طحان فيه فكرتي حارت وقلت جد لي بوصلك جفونك جارت

فقال لي حين شاهد دمعتي غارت الما مقطوع والطاحون ماادارت

وقال العارف النابلسي موالين بحق جبل قاسيون :

ياسفح قاسون لو لك من عرا شلناك على السحاب وما رحنــا وخليناك

ان كان ياسفح هذا غايتك ومناك نحن ارتحلنا ونوصي بالنزول حداك

بالله عليكم حبايب بالجفا من شار ما تعلمون المحبة في الحشا منشار

في سفح قاسون والربوة مع المنشار لؤلؤ مدامع بدرنا يا ترى من شار

سقى الله اياما مضت في مسرة وساعات انس ساعدتها يد القرب

قطفنا بها اللذات من روضة المنى وكانت زهور الدوح تزهر كالشهب

هي العمر لو لا ان بهجتها انقضت كأن علينا الدهر قد جد باللعب

يا ليلة ضن الزمان بمثلها ابدا علي وخنت الحسنــاء

بات المحب وانت في فلك القبا تبدو السها اذ تطلع الجوزاء

زرت العشاء ولا رقيب كأنما امن ازديارك في الدجا الرقباء

نحن بالاعجدية الزهراء وعلينا سحت سحابة ماء
ودواعي السرور قد حلتنا نحو قصر في مرجة خضراء

وقال مؤرخاً قصره المنيف الذي شيده للعلم الشريف وذلك في ذي الحجة سنة ١١١١ بقرب الجامع الاموي :

جمعت الحسن في غرفات داري وقصري فوق هام الكل راكب
رأيت له العلو فقلت ارخ حلا قصر تعلق بالكواكب

ياحسن قصر مشرف لعبت به ريح الصبـــا
قد قلت في تاريخه قصر المسرة والنبـــا

وقال مؤرخاً بناء قصر السيد خليل افندي البكري أحد اعيان دمشق المعدود من محاسنها :

بنيت يابن الكرام قصراً زها على سائر البلاد
لك الهنا والسرور ينمو ممتعـــاً فيه بازدياد
وقد حباك الاله مجداً بجدك الصادق الجواد
رفيق طه النبي لمـــا حواهما الغار خير نادي
ويهدم الله كل حين ماقد بنته لك الاعادي
يقول هذا الكمال ارخ بادي بقصر الخليل بادي

وقال في قصر ابي البقا في صالحية دمشق :

وصاحب خط فيه كبر بخطه وكل خفيف عند باغضه حظ
له الخط فيه نقطة النفس قدمت ولو اخرت عنه لكان له الحظ

وقد تغزل الراعي الدمشقي في ارض سطرا وقال : هي محسوبة من منتزهات دمشق الغراء رياضها حلت في منظر الناظر . وتاهت بوشيها على كل روض ناضر تخفق الوية الافنان في هضابها . وتلعب خيول النسيم في ميادين شعابها . اعلام روضاتها مرفوعة . وثمارها لا مقطوعة ولا ممنوعة :

انظر الى الاشجار تلق رؤسها شابت وطفل ثمارها ما ادركا

وعبيرها قد ضاع من اكمامها وغدا باذيال الصبا متمسكا
وفاح للورد نشر من كمائمه والنهر كالصل في الارواح ينسحب
غنى الهزار على اغصانه طربا حتى تراقصت الافنان والقضب

وقد اعتنت الشعراء بذكرها لما اعتبتهم من طيب اثمرها وعدوها من متنزهات دمشق فقال ابن خطيب داريا :

يسألنكما ان جئتما الشام بكرة وعاينتما الشقراء والغوطة الخضرا
قفا واقرءا مني كتاباً كتبته بدمعي لكم مقرى ولا تنسيا سطرا
قالوا اما في جلق نزهـــة تنسيك ما انت به مغرا
يا عاذلي دونك من لحظة سهما ومن عارضه سطرا

ومن التوجيه الحسن قول الاسعردي الشاعر البليغ في بعض متنزهات دمشق وعددها منها فقال :

وريم حلالي الخمر في مزة جلت همومي وقد عاينت في خده سطرا
كغصن تهادى فوق هامة ربوة وفي كفه كاس كياقوتة حمرا

وقال ايضاً عجائب الدنيا اربعة واحسنها غوطة دمشق واحسن الغوطة الصالحية واحسن الصالحية الجسر الابيض ومحاسنها كثيرة لا تعد ، والاقوال فيها غزيرة العد . فلنمسك عنان اليراعة ، ولنكتفي بقول الشاعر ذي البراعة :

تلك المنازل والملاعب لا اراها الله محــلا
حيث التفت وجدت ما سايحاً وسكنت ظلا

ومما قاله ايضاً في مدح دمشق العارف النابلسي في مجلس علم دعا داعي الانس والجمال فقال :

ان رمت مدح دمشق وما بها من معان
فانهض لدعوة علم ولا تكن متواني

وقال من الموشح أدوار يصف الشام ومحاسنها :

في رياض الشام لطف وصفا وسرور طارد للحزن
وبصفو من لها قد وصفا صادق في وصفه لم يمن

حبذا المرجة ذات الشرفين صادت الناس بصدر البازي
حيث فيها النهر زاهي الطرفين وهو يجري بسواها هازي

قم الى الربوة والمنشار وتنشق طيب ذاك الوادي
ومياه السبعة الانهار دافقات لارتواء الصادي

والحواكير التي قد نفحت بزهور الياسمين البهج
وبارض النيربين انفتحت اعين الزهر بطيب الأرج

وبقاسون وسفح الجبل وسواقي الماء من نهر يزيد
كم ضريح لنبي وولي صار منه النور يبدو ويزيد

هذه الشام وفي جامعها للقناديل ثريات تلوح
كنجوم في ذرى طالعها مبهرات كل ذي عقل وروح

احمد المختار طه ذو الكمال صاحب المعراج للسبع الطباق
من له الأسراء في جنح الليالي وترقى راكباً فوق البراق

خاتم الرسل وكل الانبيا من أتى بالحق والذكر الحكيم
وامام النجبا والاوليـــا قد هدانا لصراط مستقيم

وله موشح ادوار آخر قاله في بستان بالنيرب الفوقاني مطلعه :

يا نسيما خاض ماء النيربين واتانا وهو مبلول اليدين
هات حدثنا عن الاحباب اين هم بذاك السفح ام بالربوتين

قل صبر القلب عن ماء يزيد وهو ينمو في السواقي ويزيد
واشتياقي ما عليه من مزيد للمصلى والنقـــا والرقتين

يا لعمري هل ارى تلك الربوع وتقر العين بالبرق اللموع
ولماضي عيشنا هل من رجوع في ظلال المنحنى والواديين
وعلى مقصودنا طه الرسول كل حين صلوات لا تزول
فعسى عبدالغني يلق القبول والمنى بين الصفا والمروتين

قال وكان من بدائع الاتفاقات انا اتممنا بناء القصر في صالحية دمشق قبيل عاشر محرم سنة ١١١٢ فخطر لي ان انظم تاريخاً فارتجل صديقنا علي الشيكي المكي وقال:

اري الاستاذ قد احيا المآثر ... بقصر كل قصر عنه قاصر
سما سمكا حلا سمتا بديعا ... على اركانه عقد الخناصر
كما احيا علوما دارسات ... وكم ترك الاوائل للاواخر
فقلنا يا اخا الغبراء مهلا ... فارخنا واتممنا بعاشر

وقال العارف النابلسي يوما لبعض حساده في دمشق:

رب قوم علي بالشام منهم ... كثر الافتراء والاحتقار
كلما اوقدوا تزايد نشري ... انني عنبر واعداي نار

وقال مرتجلا في الحالة الاجتماعية والاخلاق ومعادات الدهر:

من عادة الدهر صفو بعد اكدار ... فلا تكن فيه في هم وافكار
صبراً فأي امرئ دامت مسرته ... واي دهر تراه غير غدار
واترك غرورك بالدنيا وزخرفها ... غر الفراش فالقى النفس في النار
واصبر اذا ضقت ذرعا والزمان سطا ... لا يحصل اليسر الا بعد اعسار
لم يخل من نكد الايام ذو نفس ... حتى الحجارة في بلوى بنقار
دع التفكر في دنياك محتقراً ... عظيم لذتها تحظى باسرار
اياك والجهل فارغب في ازالته ... لابد يعثر من في ظلمة سارى
لا تصحبن سوى ذي الفضل من نفر ... وان صحبت جهولا فزت بالعار
فلس الحلال ولا دينار مظلمة ... شتان ما بين نيران وانوار
على الاله توكل دائماً فله ... مشيئة في الورى تمضي باقدار
جربت دهري فما أبقى التجارب بها ... مشيئة في الورى تمضي باقدار
وحاربتني الليالي والانام معاً ... بالسم البين حتى قل انصارى
والحمد لله في الاحوال اجمعها ... والشكر لله في جهر واسرار

قال وقد جاء ماء السمرمر من بلاد انكوريه الى دمشق الشام لاجل قتل

الجراد ودفع افساده بالزروع فاحببت ان اقولا شيئاً فيه :

جاء ماء لدمشق صفوة يشبه مرمر
فيه للناس انتفاع حين طعم العيش مرمر
سيقول الناس ارخ اتى ماء السمرمر

وقال يوما في محضر العلامة محمد افندي الحاسني خطيب الجامع الاموي :

في دمشق الشام جسمي ذو احتراز وتوقي
وفؤادي كل حين بألاهي في الترقي
قل لقوم جحدوني مستخفين بحقي
كيف لا اقطع ضدي وانا السيف الدمشقي

جزى الله النوائب كل خير وان ألفت فؤادي في مضيق
فتحوجني الى الاصحاب حتى تعرفني عدوي من صديق

وداريت كل الناس لكن حاسدي مداراته عزت وعز نوالها
وكيف يداري المرء حاسد نعمة اذا كان لا يرضيه الا زوالها

روضها الازهر وجاً وقفا كادت الارض به لم تبن
كل من مر عليها وقفا يتمناه كحب الوطن

والحواكير التي قد نفحت في زهور الياسمين البهج
وبأرض النيربين انفتحت اعين الزهر بطيب الارج
وزناد البسط فيها قدحت للذي يقرع باب الفرج

موشح في مدح دمشق للسيد عبدالكريم افندي الحمزاوي النقيب وشيخ المشايخ بها :

يا زماناً بالتهاني سلفاً في ربا جلق ذات الحسن
لم اجد بعدك يوما خلفا لا عدت ذكراك رطب الالسن
كم بلغت الحظ في ربوتها اذ غدت ذات قرار ومعين
ولباناتي بها بلغتها حيث من اهواه لي طوع اليمين

يا لها من ربوة نضرتها صيقل الابصار والقلب الحزين
لا عدمناها لقصف مألفا وبجمع الشمل ازهى موطن
وسقتها المزن منها ماصفا وشئون الدمع ماء الاعين

يا رعاك الله عهد النيربين واراانا منك عوداً احمدا
يا لشجوى بهما من جنتين فيهما الانهار تسري سرمدا
حق تشبيهما بالرقتين اذ غدا طيرهما معربدا

ان تكن يا صاح حقا منصفا بالربا حق لنا ان نعتني
اذ غدت لا غرو روضا أنفا قد حباناها عظيم المنن

ورعى الغوطة من منتزه فاق في الحسن سواه وسما
في ذرى اضيائها كم نزهة تجتلي والنجم يحكي الا نجما
بالمزايا قد حوت كل بهى فهي للآمال تلقى مغنما

وقال موشحا لطيفا الشيخ يعقوب الكيلاني الشامي المتوفي سنة ١١٨٥ مطلعه :

يا رعى الله اويقات الصفا في رياض الشام ذي الروض السني
كم قطفنا زهر انس ووفا واغتنمنا صفو عيش الزمن

في ربا المرجة مع ربوتها مذغدت ذات قرار ومعين
تدهش الابصار في نضرتها وبهاها اذ بدت للناظرين
نوب الاطيار من جنتها يذهب الهم عن القلب الحزين

وسقاك الله وادي النيربين وكذا اعلاه غيث المطر
وكذا قاسون ثم الشرفين نزهة الروح ونور البصر
حيث فيها النهر زاهي الطرفين في رياض وبزهر عطر

وعلى ادواحه قد هتفا عندليب الروض فوق الغصن
حرك الاحشاء مني شغفا وغدا قلبي كثير الشجن

يا له واد به شرح الصدور طارد الغم ومجلى الكرب
حيثما يممت نهر وزهور باسمات عن لآل شنب

نجتني اللذات فيها والسرور مع حبيب نلت منه مأربي

وقال موشحا آخر الشيخ صادق الخراط الدمشقي المتوفي سنة١١٤٣ مطلعه :

جاد ربع الشام غيث وكفا وسق عهدي بتلك الدمن
لم يكن الا وصالا ووفا واختلاساً من ايادي الزمن

يا حمى الله زماني في حمى نبريها قد تقضي كالخيال
حبذا ثغر الروابي ابتسما وعيون الزهر تندى باللآل
ونسيم الانس منها نسّما وثنى الاغصان خفاق الشمال

يا ليالي الوصل ايام الصبا جادك صوب الحيا كل صباح
في ربا ربوتها مرعى الظبا وقنا افنانها ذات المراح
كلما هبت بها ريح الصبا اوشدت في دوحها ذات الجناح

اذكرتني طيب عيش سلفا يا له في الدهر من عيش هني
لم ازل ابكي عليه اسفا وفؤادي لم يزل في شجن

فعلى المرجة ذات الشرف عج ونعمها بانواع النعيم
فلواديها رفيع الغرف لم يزل شوقي مدى الدهرمقيم
نجتني اذ نحن في الغرباك كاس ساق اجيد الجيد كريم

وقال موشحاً لطيفاً الشيخ سعدي العمري الدمشقي المشهور بابن عبدالهادي المتوفى سنة ١١٤٧ مطلعه :

يارعى الله زماناً سلفا في رياض الشام بالعيش الهني
كم حللنا من رباه غرفا قلدتنا بعقود المنن

بابي افديه من ساق رشيق واضح الغرة معسول الشنب
في صفا خديه ورد وشقيق وبكنز الدر خمر و ضرب
والشفاه اللعس مسك وعقيق غشيت اسلاك در وحبب

جاد ربع الشام غيث وكفا وسق عهدي بتلك الدمن
اذ تجاريت وحسبي شرفا مدح خير الخلق جد الحسن
خير من شيد اركان الهدى بيد التوفيق من باري النسم

وجلا الرشد لاهل الاهتدا بمساع ارهفت بيض الهمم
وامترى بالقرب اخلاق الندى وارتوى بالصدق من ضرع الكرم

وقال موشحاً آخر الشيخ عبد الرحمن البهلول الدمشقي المتوفي سنة ١١٦٣

غنياني بسعاد وصفا مطلع الشام بمعنى حسن
دار انس وسعود وصفا جنة الارض عروس المدن

ما لواديها لعمري من نظير مسرح الابصار مطلوب النفوس
كم لنا في روضة الغصن النضير صبوة اطيب من حسد الكؤس
وازدهاء الجامع الرحب المنير غادر المدن كسوداء عروس

شامة الدنيا دمشق وكفى انها مثوى الكرام الفطن
كيف لا وهي بنص المصطفى معدن الايمان حين الفتن

كلل الطل ربا ربوتها فاكتسى الدوح لجينا وشذور
ولقد نم شذا بقعتها بابتسام الروض عن شروى الثغور
ان للابصار من مرجتها مرتعا بين تهان وسرور

حبذا الترب مذ طاب الهنا حيثما زف لنا الروض الاريض
ساحبا بالتيه اذيال المنى ولنا لاح من الزهر نضيض
مع معيسيل اذا ما قد رنا نثر اللؤلؤ نثرا والقريض

وقال ايضا ابن عبد الرزاق صاحب تاريخ دمشق وخطيب جامع السنانية :

كم جنينا زهر انس وصفا في رواني الشام ذات الاعين
واجتنينا من اويقات الوفا شمس افراح لدى عيش هني

يا لواديها المندى بالعيون في ربا ربوتها الرحب الوسيم
حيثما يممت نهر وعيون ونسيم لطفه يحيي الرميم
طالما حييت واديه المصون والندى يثنيه انفاس النسيم

لست انساه اويقات السحر والصبا يعطف اعطاف المياه
وغصون البان تندى بالزهر وجنى الورد يندى من حياه

بهج تجلو بمرآه النظر   وترى الاطيار تشدو في رباه

كل طرف كم تراه وقفا   عنده زهر التهاني يجتني
وبه ما زال طر في كلفا   جاده دمعي غزير المزن

بأبي والروح عالي الشرف   دير مران حمى الانس
لم تزل أكناف ذاك الطرف   بالبها تزهو على الاندلس
كم به الندمان بالانس الوفي   مزجو الصهبا بماء اللعس

فسقى جلق وسمي العهاد   ورعى غوطتها مجنى السرور
اذ هواها لم يزل يحيي الفؤاد   حبذا ما بين انفاس الزهور
انها الشامة في جيد البلاد   يا لها تزهو بولدان وحور

بل هي الجنة حفت بالصفا   دورها الحصباء غالي الثمن
بعت نفسي في هواها سلفا   كيف عنها غصن شوقي ينثني

قال العارف النابلسي واتفق ان الشيخ العلامة ابراهيم الخياري عالم المدينة المنورة وشاعرها ارسل الى دمشق الشام هاتين القصيدتين وشنف بهما السمع ، واقر العين لتعرض على علمائها ونابغة شعرائها فوصلت الي فكتبت اليه معارضا لقصيدته الاولى من الوزن والقافية :

قال الخياري :

تعطف بعضي عليل المقال   ودع عنك هذا الجفا والمطال
اما قد علمت بأني امرؤ   احب الجميل واهوى الجمال
واغشى المغاني اذا ما حوت   لطيف البنان حليف الدلال
وجسم حكى الماء في رقة   عليه من الشعر مثل الظلال
فخذ ما صفالك من وده   ولا تخش عارا ولا ان يقال
ولا الدهر في كل ساعاته   يغيث الفقير ببذل النوال
وان لاح فاجتل انواره   فما كل يوم يلوح الهلال
فكم في بقايا الركايا ندى   وكم في خبايا الزوايا رجال

ايا من سبا الغصن بالاعتدال وازرى ببدر الدجا في الجمال
الى كم جفاك وحتى متى فجد بالوفا طال هذا المطال
فؤادي بحبك في صبوة يريد اللقا فيزيد اشتغال
وصبري وصبري عليك انقضى ولكن شوقي الذي لا يزال
رماني زماني فلم يرعو وقد يرتمى بالكسوف الهلال
وما كل دوح بحلو الجنى ولا كل ورد بعذب زلال
وكم في بقايا الركايا ندى وكم في خبايا الزوايا رجال

القصيدة الثانية مطلعها :

من ذا الذي من مقلتيه يقيني فهي التي بسهامها تصميني
يا من يظن الشرك في حبي له هذا الذي اخلصت فيه يقيني
يا للرجال ويالها من فتنة كم اوقفتني في مواقف هون
حتى شهدت بديع حكمة خالق في وضع ذاك النقط فوق النون
علمته باب المضاف تفاؤلا بوصاله وطمعت ان يدنيني
فغدا يعاملني بضد مذ بدا ورقيبه يغريه بالتنوين

قال العارف النابلسي وقد خمست قصيدة ابن سناء الملك وارسلتها الى الجباري المدني وقابلت بذلك تشطيره لها طمعا في ادخال السرور فقلت :

يا عاذلي حتى متى تغريني من ليس دينك في المحبة ديني
هبني استعطت سلوه ذا الحين

الله اكبر من قساوة قلبه مع ما يرى في عطفه من لين
نمقت من شوقي اليه رسائلا وطفقت اتبعهن دمعا سائلا
حتى اذا وافى الي مسائلا علمته باب المضاف تفاؤلا
ورقيبه يغريه بالتنوين

قال محمد قوله معربا بيتين باللغة التركية للعلامة الشهير صاحب التآليف العربية والتركية شيخ الاسلام ابن كمال باشا وقد طلب منه ذلك :

لابن الامير من الامير امارة تبقى له مع جهله او لعبه
وابن الذي هو عالم ان لم يكن علم لديه فموته اولى به

قد عن لي ان اذكر ما قيل في الازاهر مما ترك الاول للآخر . واختار ما قاله الشعراء ،وتنافست به البلغاء . وقد اعتنت الشعراء بذكرها لما اهدتهم من طيب نشرها . ومن ذلك ما قاله العارف النابلسي :

ظهر التغير في الزمان واهله ... وفصوله اختلفت الاركان
فربيعنا يحكي الشتاء وشتاؤنا ... يحكي الربيع كما اقتضاه زمان
فكأنما نيسان كانون الشتا ... وكأن كانون الشتا نيسان

قال ابن عبد ربه الصالحي الدمشقي وله من ذريته جماعة من اهل الفضل والكمال في مصر والشام الى يومنا . كنت ارغب ان اذكر كل باسمه وانوه عن فضله منعني ضيق المقام اعطائهم حقهم من التاريخ .

وريحان يميس على غصون ... يطيب بشمه شرب الكؤوس
كسودان لبسن ثياب خضر ... وقدشطحوا مكاشيف الرؤوس

روض بروض هجوم قلبي حسنه ... فيه لكاس الانس اي مساغ
واذا مضت قضبان ريحان به ... حيث يمثل سلاسل الاصداغ

جاء في الأثر : من عرض عليه ريحان فلا يرده ،فانه خفيف الحمل طيب الريح . يعني بالريحان كل ذي رائحة زكية من الازهار . قال ابقراط ينبغي للمعتني بمصالح بدنه ان لا يضيع حظه من الاستمتاع بروائح الازهار والرياحين فانها تقوي الروح وتنعش الحرارة الغريزية التي بها قوام الحياة ، والعليل احوج اليها من الصحيح لانه قد يعجز عن الاخذ من المطاعم والمشارب فهي تنوب عن بعض فعلها في التقوية . وسأل ابرويز بعض ندمائه عن روائح الرياحين فقال : النرجس كرائحة الشباب والورد كرائحة الاحباب والمنثور كرائحة الاصدقاء والريحان كرائحة الاولاد وانما خص هؤلاء بالريحان لان الله سبحانه وتعالى انبته نباتاً حسنا غضا طريا سريع الزوال ولا يتمتع به كغيره والله اعلم .

وقال ابن طباطبا في الآس :

الآس فرد بديع في محاسنه ... ما مثله في معانيه لموجود
يبدو باغصانه خضرا مليته ... كألسن الطير تشوى في السفافيد

وقال العارف النابلسي فيه ايضا وفي حبه الذي هو احد فاكهة الشتاء :

ولقد اتينـــا للحدائق بكرة والطل يقطر فوق روض انضر
وكأن حب الآس فوق غصونه عقد اللآلي ضمن سلك اخضر

وقال عبد الحميد الرافعي احد علماء طرابلس الشام وقاضي المدينة المنورة ولهذه الاسرة الكريمة شهرة عظيمة بالعلم والفضل في مصر والشام من القديم الى الآن :

وروضة آس قد جلسنا بظلها على ضفة نهر قد تدفق صافيا
حكى آسها خد الحبيب معذرا وجدولها دمعي على الخد جاريا

خليلي ما للآس يعبق نشره اذ شم انفاس الرياح الهواجر
حكى لونه اصداغ ريم معذر وصورته آذان خيل نوافر

وقد ورد في الأثر : عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام انه قال: اهبط آدم عليه السلام من الجنة بسيد رياحين الجنة الآس اخرجه ابن السني عن ابن عباس واخرج ابن حاتم عنه ايضا قال اول شيء غرسه نوح عليه السلام الآس فهو سيد الرياحين لوجوده في كل حين وقد احسن من قال :

اني طربت الى زيتون بطياس بالصالحية ذات الورد والآس

وقال العلامة المحدث باكثير عبد المعطي المكي الحضرمي نزيل دمشق في مدح الورد في وقت الربيع :

قلت اذ اقبل الربيع ووافى ورده الغض ليت ذاك نصيبي
فخدود الملاح تعزى اليه وشذاه اربى على كل طيب

الورد سلطان الزهو ر وما سواه الحاشيه
فللونه الحمر يفضـ حسن خـــد الغانيه
واذا تضوع نشره يهدي اليك الغـــاليه

وفاح للورد نشر من كمائمه والنهر كالصل في الارواح ينسحب
غنى الهزار على اغصانه طربا حتى تراقصت الافنان والقضب

وقال ابن الرومي في زهر الخيري :

خيري ورد اتاك في طبقه   قد ملاء الخافقين من عبقه
قد خلع العاشقون ما صنع الـ   ـهجر بالوانهم عـلى فرقه

وقال في حقه السيد عبد الرحمن بن حمزة الدمشقي :

واقبل الورد من برعومه خجلا   يبدي لنا فوق ريّا نشره العبق
در اهما من يواقيت على قضب   تراكمت تحت دينار على طبق

وقال ابن طباطبا :

اما ترى الورد يحكي حجلة ظهرت   في صحن خد من المعشوق منعوت
كانه فوق ساق من زبرجـــدة   نثر من التبر في اقداح ياقوت

وقال ابن طاهر :

اما ترى شجرات الورد مظهرة   لنا بدائع قد ركبن في قضب
اوراقها حمر اوساطهـــا جحم   صفر ومن حولها خضر من الشطب

وقال الخوارزمي :

اما ترى الورد يدعو للورود على   عذار صافية في لونها صهب
ترى مداهن ياقوت مركـــبة   على الزمرد في اوساطها ذهب

قال في الفردوس بسند عن سيدنا انس بن مالك قال : ان الله عز وجل خلق الورد من بهاءه وجعل له من روائح انبيائه ، فمن اراد ان ينظر في بهاء الله ويشم روائح انبيائه ، فلينظر الى الورد ويشمه . قال ابن نباته فيه . فككت ازراره من اجياد القضب النسيم . وخرجت اكفه من اكامه تأخذ البيعة على الازهار بالتقديم . انتهى .

قال في كتاب ازدهاء الازهار للشقاقي لم اسمع في زر الورد الاخضر الحاوي للزهر الاحمر ابدع من قول الشاعر :

انظر الى الورد ما احلى شمائله   سبحان خالقه من يابس الحطب
كأنه وجنة المحبوب نقطهـــا   كف المحب بدينار من الذهب

فكانمـــا الورد الجني اذا بدا   من ريحه يزهو بخد عسجدي
اصداف ياقوت لطاف نضدت   من حول دينار بكف زبرجد

وقال العارف النابلسي في الآس :

نزل الغيث بعد طول رجاء　　فهنيئاً به لكل النـــاس
وحلا عندهم وطاب كثيرا　　فهو احلى من ماء حب الآس
نزل الثلج في البـــلاد عموما　　ابيض اللون فهو كالألماس
فترى كل قطعة منه تحلو　　فهي احلى من ماء حب الآس

واما الورد الاصفر فهو زينة الرياض النواضر ، فاقع لونه يسر النواظر قال ابن عنين :

شجرات ورد اصفر بعثت　　في كل قلب متيم طربا
يا من رأى من قبلها شجرا　　اسقى اللجين فانبت الذهبا

وقال الوأواء الشاعر المشهور الدمشقي :

ياحسنها من وردة　　بيضاء جاءت بالعجب
كجام بلور به　　قراضة من الذهب

وقال خطيب النيربين بدمشق .

وورد ابيض قد زاد حسنا　　فمند الضد للخجل احمرار
بمثله النــــديم اذا رآه　　مداهن نفدت فيها الصغار

وقال الراعي واما الورد الابيض فهو نديم الظرفا لكن له في طول العهد وفا قال فيه السر الوفا :

بدا ابيض الورد الجني كانما　　تنشم للناشي بمسك وكافور
كان اصفرارا منه وسط بياضه　　برادة تبر في مداهن بلور

قال الراعي واما ازهار دمشق فهي لعمري عدد قطر السما ، والتي تركيبت من العجمه كثيرة جمه ، تركتها خوف الغلط ، وان يقصر بي العجز عن التشبيه والنمط ، فاكتفينا من الازهار بباقة ، ولنحبس عنان البراعة على حسب الطاقة

ثم قال اراض السهمين هي رياض يا لها من رياض ، وحدائق ترنو اليك ازاهرها . من عيون مراض . تساهمت طيب الهوى ، وملكت القلوب بمنظرها الباهر دون السوى . تنساب فيها انهار كالزلال ، واعذب من لقا المحبوب بعد

اليأس والمطال . تقلدت اجياد اغصانها بيواقيت الثمار ، بعد ما توجت رؤوسها بجواهر الازهار . بالها من رياض اذ رآها السامع اطابت منه العيون والمسامع وما احسن قول القيراطي :

دمشق تماسيهما على قوس الهوا لديه . وامدت من كذا بيب زهورها في مواكب . وتحرك عودها حتى غنت عليه من الورق قيان . وطفح بردها فعلت وهذا مما يعجب ابا سفيان .

دمشق وواديها مسير لسائر   فمعت بماني جلها مونسا

بقاع اذا قوس الرباب بسهمه   رماها غدت بالوشي بدامسها

ولابن سينا الملك الدمشقي :

دمشق بواديها رياض نواضر   بها يجلي عن قلب ناظرها الهم

على نفسه فليبك من ضاع عمره   وليس له فيها نصيب ولا سهم

قال الراعي : قوله نصيب ولا سهم ، يعني اراضي نصيب . والسهمين الاعلى والادنى ، وهذا من التوجيه الحسن واراضي نصيب هي بالقرب من اراضي الصالحية بل معدودة من جنانها البهية . ومن منتزهات دمشق المرضية . كلها رياض وجنان . تحلت في رفرف خضر وعبقري حسان . ازهار تتفح بلبانها واطيار تصدح بلغاتها ونقل قول صاحب المرقص والمطرب بمظاهر دمشق في اوان زهر النارنج :

باكر الى نغمات الطير مستمعا   وانظر الى حسن هذا المنظر البهج

وقد غدا زهر النارنج مبتسما   ينمو فيملا جيب الافق بالارج

والجو في حلل حمر ممسكة   ما بين منعقل منها ومنفرج

وقال ايضاً اراضي النيربين التي طار صيتها في المشرقين والمغربين ، وتداول ذكر محاسنها جهابذة الشعراء وهاموا في وصفها حتى ملؤا اصداف الاسماع من قطر بلاغتهم دررا . وليست تحضرني عبارة تقوم بحقوق وصفها ، وتخدم معاني بديع ظرفها . لكن سرد الاقاويل ، يوضح لك السبيل فمن ذلك قول البدر الذهبي

أرأيت وادي النيربين وماؤه   يبدي لناظرك العجيب الاعجبا

يتكسر الماء الزلال على الحصى فاذا غدا بين الرياض فشعبا

رعى الله وادي النيربين فانني قطعت به يوما لذيذا من العمر
درى انني قد جئته متنزهـا فمد للقاي بساطا من الزهر
واخدمني الماء القراح فحيثما التفت رأيت الماء في خدمتي يجري

وقال محمد بن زين العابدين الجوهري الصيداوي نزيل دمشق قصيدة طويلة :

باكر لارض النيربين ومائسها وانظر الى الازهار في اجناسها
ما بين زنبقها الانيق وورودها وبديع نرجسها الغضيض وآسها
وترنم الاطيار فوق غصونها تروي لطيف اللحن عن عباسها
جمعت معاني اللطف في الحانها وبيان منطقها وحسن جناسها
فترى الغصون لما بها من نشأة تهوي اليك من السرور براسها
طاف الغدير بها فأثمر فرعها وغدا يخبرنا بطيب غراسها
فانهض نديمي نصطبح في ظلها ودع المناصب في الزمان لناسها

وقال العارف النابلسي :

يا مجلسا بالنيربين انيسا حركت وجد اكامنا ورسيسا
واستوقفت انواع حسنك مقلتي فزجرت نحوك للسرور العيسا
وتركت اطلالي بحلق رغبة عنها اليك لكونك المأنوسا
سيما وقد ورد الربيع بورده فسبى نواظر واسترق نفوسا
ومعاطف النارنج يعطف زهرها بنوافح المسك العتيق مروسا
وجداول الانهار تركض حولنا فرحا فكان سرورنا محسوسا
ومشى النسيم مجرراً اذياله فادار منه على الغصون كؤوسا

وعشيـة بالنيربين تروق تزجي الهنا تعلو بنا وتسوق
وقفت نواظرنا تصافح صفوها وله طلوع بيننـا وشروق
وعواطر النسمات قبلت الربا بشم على المسك الفتيق يفوق
والطير يخطب فوق منبر غصنه وله علينا في السماع حقوق
والجو قد رقت حواشي برده والروض ينفح مسكه المحقوق

في مجلس مشت الجداول حوله ولقلبها بين الرياض خفوق

ورياض بالنيربين انيقة تتثنى بها الغصون الرشيقه
وبهـــا نسمة الصباح تمشت غضة رطبة الهبوب رقيقه
اسكرتنا بطيبها فانتشينا ازاحت عن الفؤاد حديقه
وجرت حولنا جداول ماء ذات ثغر قد ارشف الدوح ريقه
وعلى عودها البلابل غنت فابانت من الغرام طريقه
واهاجت صبابة واشتياق ولنا اذكرت عهودا وثيقه

وصباح بالنيربين سعيد فيه ضج الحمام بالتغريد
يتمشى به رطيب نسيم شاقني بالهبوب والترديد
وجرا في الرياض جدول ماء كصقيل من السيوف حديد

ياسقى الله سفحة النيرب الغض وحيا الاله خير الاراضي
كم مضت لي بها ليـالي انس بين تلك الربا وتلك الرياض
والازاهير قد بدت في سماء الدو ح مثل النجوم ذات انقضاض
والنسيم الرطيب ينثر نشرا قد تمشى بذيله الفضفاض

رب يوم بالنيربين الفوقاني قد خطفناه من كفوف الزمان
وجلسنا على اخضرار بساط طرزته شقائق النعمان
يا سقى الله ذاك اليوم من يو م الينا اهدى نعيم الجنان

وقال الشاعر الشهير منجك باشا :

قصر الامير بوادي النيربين سقى رباك عز من الوسمي مدرار
حيث الخمائل افلاك بها طلعت زهر من الزهر والندمان اقمار
حيث الرياض تغنين حمائمها بالدف والجنك والميطور لي جار

ثم قال : اراضي الميطور عاذبة لهذه الجنان . لكنها في المحاسن فرسا رهان . بل هي صيغة منتهى الجموع . واللفظ المركب من رقيق المحبة والولوع . جمعت المحاسن جمع تصحيح . فنالت في المدائح مقام الترجيح . انتصبت في حدائقهـــا

أعلام الاغصان ، وارتفعت فوق عساكر ازهارها سرادقات الافنان . وامتدت ظلالها على ذائب اللجين . ونادى مغردها لا تطلبوا أثرا بعد عين .

رياضها نصبت اعلامها وغدا ... ذيل الصبا بين مرفوع ومجرور
قد جمعت جمع تصحيح جوانبها ... والماء يجمع فيها جمع تكسير
فالنهر ما بين مصروف وممتنع ... والظل ما بين ممدود ومقصور

توشحت بالازهار اغصانها الملد ، التي تشوق رائيها لجنة الخلد . وقد اجاد الاديب الحلي بقوله :

ان جزت بالميطور مبتهجا به ... ونظرت باطن دوحه المطور
وارك بالآصال خفق هوائه الـ ... ممدود تحريك الهوى المقصور
سل بانه المنصور اين حديثه ... المرفوع عن ذيل الصبا المجرور

ومن الازهار اللطيفة بدمشق المنثور ، وقد ابدع العارف النابلسي بقوله :

واصابع المنثور غضتها الصبا ... لما غدا دون الازاهر يعبق
فاصفر من هذا البهار مقهقها ... والآس في دمع الندا مغرورق

وقال الاسعردي :

مذعاين المنثور طرف النرجـ ... ـس المزور قال وقوله لا يدفع
فتح عيونك في سواي فانه ... عندي قبالة كل عين اصبع

وانشد عرقلة الدمشقي الشاعر المشهور بين يدي شمس الدولة حين احضر المنثور :

قد اقبل المنثور ياسيدي ... كالدر والياقوت في نظمه
نسيم انفاسك من عطره ... وراس من عاداك مثل اسمه

قال العارف النابلسي بوصف المنثور :

لله حسن حديقة ... يوم بها يوم قصير
ما راع الا نرجس ... فيها ومنثور كثير
بتنا بهـــا متجردين ... موسدين بلا نكير
هذاك يغمز بالعيون ... وذا بأصبعه يشير

ومن محاسن دمشق زهر السوسن وقد قال الشاعر في حقه :

وسوسن راق مرآه ومخبره بعد المجوع به ضرب النواقيس
كأن سوسنه في كل شارقة على الميادين اذناب الطواويس

بدا سوسن الروض المديح ازرقا واصفر يعلو طوله فوق مبيض
كأن الربا ارخت ذيول غلائل مصبغة والبعض اطول من بعض

قال اللقيمي السوسن حوى زينة الرياض والفراديس ، المشبه باذناب الطواويس وقد انشد ابن المعتز حين تمايل غصنه واهتز :

يارب سوسنة قبلتها كلفا وما لها غير نشر المسك من ريق
مصفرة الوجه مبيض جوانبها كانها عاشق في حجر معشوق

ومن الطف الازهار زهر الخشخاش وقد قال الشاعر في حقه :

ولما بدا الخشخاش في الروض مزهرا وقد نظرت شزرا اليه الحدائق
حكى قلعة ابراجهـا مستديرة مشرفة دارت عليهـا الصناجق

ارى الخشخاش كالندماء لكن اتت اقداحهم فوق الرؤوس
وقالوا قد طربنا اذ شربنـا الى ان قد رقصنا بالكؤوس

وقال العارف النابلسي في زهر الخشخاش النابت في بيته في الصالحية يشبه الورد

وخشخاش زهى بالزهر لما تبدى منه في روض اريض
كاقداح من الياقوت حمر واقداح من الالماس بيض
واقداح لها ضلع بياض وضلع احمر كدم المريض
والا كالعمائم في رؤوس مصبغة طويل في عريض

لاحت لعيني فوق غصن وردة حمراء تشبه وجنة المعشوق
لبياضها في وسط احمرها ضيا كهلال در في سماء عقيق

وزهر قرنفل في الروض يحكي قطور دم على صفحات ماء
رأى وجنات من اهوى فاغضى فبان بوجه اثر الحياء

فديت بالروح من حيا متيمة بوردة اوردتني منهل الطرب

حمرا من وسطها قد لاح ابيضها كدرهم فوق دينار من الذهب

لاتعجبوا من ناقص دعوى الكمال قد نهب
فاحمر الزهر من الدف لي بجمر التهب
يحكي لنـــا ورد الربا تبت يدا ابي لهب

وقال ابن خلوف الشاعر المشهور في القرنفل :

وللقرنفل راحات مخضبة على معاصم خضر فتنة الرأي
كانجم من عقيق في ذرى فلك من الزجاج ارت اشطان لألأ

وقال العارف النابلسي في الابيض منه

هيا بنـــا فالطير صاح بمفرد ما ان يقاس لدى الوردي بمفرد
والروض مد من القرنفل للندى كاسات در في زنود زبرجد

حكى القرنفل محمرا على قضب خضر لها صار بالتفضيل منعوتا
كفا على معصم نقش به خضر غداله كافر العذال مبهوتا
ابدته خود وقد ضمت اناملها كأسا تسمر لطفا صيغ ياقوتا

مثل القرنفل فاتحا بين الحدا ئق ليس يوجد
فكأنه سرج العقيق على منارات الزبرجـــد

النرجس المأمون : وقد تداولت ذكر محاسنه الناس واحسن ما قيل فيه قول الشاعر :

وياقوتة صفراء في رأس درة مركبة في قائم من زبرجد
كأن جمان الطل في جنباتها بقية دمع فوق خـــد مورد

وقال ابن عامر :

انا نرجس حقا بهرت عقولهم ببديع تركيبي فقيل بهار

وقد ورد في الخبر عن سيد البشر : شموا النرجس فان في القلب حبة من الجنون والجذام والبرص لايقطعها الاشم النرجس . وروي عن ابقراط الحكيم : ان النرجس غذاء للروح والعقل . وروي عن الحسن بن سهيل : ان من ادمن

شمه في الشتاء امن البرسام في الصيف . فهو عيون الرياض الناظرة . وزهراتها الناضرة . به يوصف تضعيف الاجنان . وهو المبشر بمقدم طيب الزمان .

وقال كسرى : النرجس ياقوت اصفر بين در ابيض على زمرد اخضر .

المضعف : وهو نوع من النرجس . لكنه اعطر رائحة منه . وابهج منظراً . واكثر نفعاً . وقد قال الشاعر فيه :

ونرجس الروض قد حيا بمضعفه في اصفر فاقع مع ابيض يقق
كأنه وهو في قضب منعمة يلقي النسيم عليها نفس معتبق
امشاط در من الابريز في حجم جعد فما بين مجموع ومفترق

الزنبق : صاحب الخفا وقد تداولت ذكر محاسنه اكثر الشعراء . ومما قال فيه حيدر الرومي الشاعر الشهير :

وزنبق مجلس بين الندامى كشيخ حاز لطفاً في وقار
يريك اذا تلا انا فتحنا عمود الفجر في ضوء النهار

انظر الى الزنبق الانيق وقد ابدع في شكله وفي نمطه
يحكي قناديل فضة غرست شموس تبر تضيء في وسطه

وقال العارف النابلسي :

كانما الزنبــق في الروض مذ جن من الزهو على الساق هب
عليه قد علق من فضة ماسورة فيها حجاب الذهب

وزنبق روض مذ بدا لي خلته وقد مال يزهو بالصبا المتردد
صحون لجين اودعت حب عسجد مركبة من فوق قضب زبرجد

وقامة زنبق كالرمح قامت لتغزو زهر هاتيك الجنان
لساعدها الزبرجد كف در تقبله النسائم باللسان

وقال العلامة محمد بن الشمعة شاعر دمشق واحد اعيانها وهو احد جدود هذه الاسرة الكريمة .

وزنبق روضة قد حاز حسناً حكى في شكله لما يميس

زتود زبرجد حملت كؤوسا   من البلوري داخلها شموس

شقائق النعمان: قال بعضهم فيه وان لم يكن له في العرف زكا ، فقد حاكى في الحسن ابن ذكا . فكم ترنم شاعر بذكره . ورفع له في موكب الازهار راية نصره . ولقد احسن من قال : وشبهه بالوجنة والخال :

حمراء من صنعة الباري وقدرته   مصقولة لم ينلها قط صقال
كانما وجنات اربع جمعت   وكل واحد في وسطها خال

جام تكون من عقيق احمر   ملئت دوائره بمسك اذخر
خلط الربيع قوامه فاقامه   بين الرياض على قضيب اخضر

انظر الى الزروع وخاماته   تحكي وقد هبت عليه الرياح
كتيبة خضراء مهزومة   شقائق النعمان فيها جراح

الجلنار: ويسمى ابن عبد الظاهر . قال بعضهم فيه : هو المشبه به خدود القيان ، ووجنات وجوه الحسان . وقد انشد فيه ابن جلوف : اذ هو بالحب مشغوف :

ارادنا الورد في حمر الخدود   وقد حملته بانات القدود
ولاح الجلنار بوجنتيه   فبشرنا برمان النهود

كانما الجلنار حين بدا   مفتحا في زبرجد القضب
كوب عقيق مشرف حسن   قد اودعوه برادة الذهب

السنبل: قال فيه السيد عبد الرحمن بن حمزة شاعر دمشق وعين اشرافها :

اصبح السنبل الجني لدينا   فوق سوق فيها الندا يتردد
كشنوف لطفن من لاجورد   علقت في مراود من زبرجد

وسنبل وافى على سوقة   غب الحيا في زرقة لا تحد
مكفوفة الحافات زهراته   مذ روبة الاوراق في كل يد
كانما تعقيف اطرافها   محاجز صيغت من اللاجورد

يا حسنه من سنبل ناصع   يبدو لنا في قائم اخضر
كانما من حول زهراته   زرافن صيغت من العنبر

حلقة المحبوب: هو زهر بديع المنظر، عجيب الشكل والتكوين، كامل الظرف والنمط. واظنه من خصوصيات ورياحين رياض جلق الشام، والله اعلم. قال يصف شكله شاعر دمشق السيد عبد الرحمن بن حمزة:

وزهر كامثال الشنوف لطافة تداخل من اجزائه البعض في البعض
لقد احكمت ابرازها المزن خلقه لدينا واعطته امانا من النقض

وقال العارف النابلسي وقد اجاد بوصفه:

رب زهر بين الرياض رأينا ه يسمى بحلقة المحبوب
بعضه ابيض كاقماع عاج نافحات فيها بقية طيب
والذي منه احمر كعقيق سال فيه الندى من الانبوب
ثم نوع يحكي البنفسج لونا فوق غصن زمردي وطيب
ككؤوس البلور قد صبغتها حمرة الراح فوق كف خضيب

النسرين: هو زهر من رياض النيربين، وزين كل بستان، وفيه من الذهب والفضة لونان، يعبق نشره بين الازهار، لكن عزيز الوجود في جميع الامصار. وقد اجاد التشبيه فيه العارف النابلسي ووصفه بقوله:

ابان لك النسرين اذ خلت انه اكف سقاة حملت كؤسا صفرا
مداهن عاج حشوها التبر اذ علت رؤس زنوج البست حللا خضرا

ونسرين من الورد ابيضاضا يرينا غار في روض وانجد
سبائك فضة بيضاء اضحت مركبة على قضب زبرجد

الا قم بنا نسعى لزيني جلق هو العنب الغض الطري فنستحلي
حقاق من البلور صاف اديمها وقد ملئت من ابيض العسل النحلي

الياسمين: وقال عنه بعضهم. عرف الديك. وقد ورد في حقه الحديث ان قاري القرآن يؤتى بياسمين الجنة في قبره. قال اللقيمي هو زين الرياض، والموسوم في الوجه بالبياض، وفيه خواص اذا وضع في الكتب لم يقربها ارضه، وتسلم من اكلها. وقد قال بعضهم في وصفه:

انظر الى خيمة وقد نصبت ... خضراء عندالصباح مبيضه
كأنها قبة لراهبة ... وقد كستها صلبان من فضه

وادواح خلناها سماء زبرجد ... لها أنجم زهر من الزهر الغض
تناولها الجاني من الارض قاعدا ... ولم أر من يجني السماء من الارض

كانما الياسمين حين بدا ... اصفره في جوانب الكثب
عساكر الروم نازلت بلدا ... وكل صلبانهـا من الذهب

وقد انشد الصاحب ابن عباد فاحسن في التشبيه واجاد :

وياسمين على قضب منعمة ... قد قدرته يد الخلاق مقدورا
ما خلت من قبله سبحان خالقه ... قضب الزمرد ان يحملن كافورا

وياسمين ... اصفر ... كأنه في القضب هب
سواعد ... خضر ... وقد ... مدت كؤوسا من الذهب

رياض تردت بالرياض مجودة ... بكل جديد الماء عذب الموارد
كأن جنى الحوذان في رونق الضحى ... دنانير تبر من قوام وفارد

الفاغية : قال اللقيمي : واما الفاغية المفضلة الرياض على الراهبة ، فقد ثبت لها عليهم السلطنة ، واقيم على ذلك الدلائل المبرهنة . فقد روى البيهقي عن ابن عمر مرفوعا للحضرة السامية : سيدي رياحين الدنيا والآخرة . الفاغية وتسمى ايضا بالتمرحنا لان شجرتها حنت على آدم عليه السلام حين اخرج من الجنة . ولما ان زهت بروضها الخصيب ، انشد فيها الشاعر المصيب :

كأنما روحت الحناء اذ فتحت ... انوارها وبدت في عين مرتقب
عروس حسن تجلت في غلائلها ... خضراء قد حليت باللؤلؤ الرطب

رأيت في السمرة الحناء ذا عجب ... قد جاء في طيها انفاس خمار
ان مرت الريح بين الدوح تحسبها ... من طيب نكهتها مرت بعطـــار

الأرغوان وزهر النارنج قال في وصفه العارف النابلسي :

وصبغ الارغوان عليه باد ... كامثال الدوائر يا رفيقي

او الخد المورد من حيـاء خلال عذاره النضر الاريق

العنبر بوي : وهو زهر عظيم المنظر ، شميم الرائحة ، يكون الواناً عديدة ، واطلق هذا الاسم على الرز في الفرس والعراق والحجاز ، ومعناه رائحة العنبر قال السيد عبدالرحمن بن حمزة في وصفه :

وذي قامة في الزهر تندي غضارة بدا فاختي اللون من عنبر الشمر
له جم زغب تفكك حولهـا من الزهر افريز كجوزة العطر
تكون لطفا فوق زر زبرجد تكتب في الالماس سطراً على سطر

وذي هالة في الزهر ابيض ناصع تكون الناشي من العنبر الورد
روقك هداب به راح اشيبا تدور في ذر كبارزة النهـد
احاطت به للزهر في زي دارة ظروف من الكافور مبثوثة الشهد

الاقاحي : هو الاقحوان ، وعند اهل مصر هو البابونج ، وله عندهم خصوصية عظيمة ، يزعمون ان من قطعه بالذهب ، يوم تاسع عشر الحمل فلا يعدم الذهب بقية عامه . والله اعلم ، وقد انشد فيه العلامة الشيخ الرافعي نزيل مصر ومن السادة الرافعية في طرابلس الشام قوله :

لله در اقـاح اضحى كعقد منظم
وقد حكى في بريق ثغر الحبيب تبسـم

قال الشيخ العلامة صالح الجنيني نقلا عن العلامة الشيخ علي الاجهوري في تدبير اكل فاكه دمشق :

قدم على الطعام توتاً وخوخاً ومشمشاً والتين والبطيخا
وبعده الآجاص كثرى عنب كذاك تفاح ومثله الرطب
ومعه الخيار والجميز قثا ورمان كذاك الجوز

النيلوفر : قال ابن الاثير في عجائبه يسمى حب العروس قال : الخفاجي هي صدفة لدر السحاب ، وحقة لجوهر الندى المذاب ، كانها بوتقة اذاب بها الجو نضاره ، أو كأس في يد مصطبح يداوي بها خماره . او مقلة صب كئيب ، قد فاجأه على الغفلة الرقيب . بعد ما امتلأت بدمع الهوى ، وتردد فيها الدمع من

حيرة النوى . وقد طغا عليها الزلال . فبلغ حافتها وسال . وقد انشد من ارتاح لشقه . وهاجت به بلابل عشقه :

يرتاح للنيلوفر القلب الذي لا يستفيق من الغرام وجهده
والورد اصبح في الروائح عبده والنرجس المسكي خادم عبده

وقال العلامة الطالوي الدمشقي الشاعر الشهير الذي تقدمت ترجمته وقد نبغ في عصرنا من احفاده الاخوين محمود افندي من اساتذة مدارس المعارف بدمشق والشيخ سعدي امام جامع يلبغا اولاد العلامة الشيخ انيس الطالوي الذي تقدم ذكره عند تراجم علماء دمشق .

ونوفرة كعين الصب سكرى تجم الدمع خشية ان يراقا
لها ذكر النوى يوما ففاضت وصارت كلها للدمع حاقا

وناظر نحو عين الشمس يرقبها حتى اذا غربت اغضى بتنكيس
كأنه ودروع الماء تشمله تحت الشعاع اكاليل الطواويس

ونيلوفر يحكي لنا المسك طيبة تراه على اللذات افضل مسعد
تركب كالكاسات في ذهبية على قضب مخضرة من زبرجد
وفي وسط منه اصفرار يزينه كياقوتة زرقاء في رأس عسجد

الآذريون : وهو زهر مطبق اصفر من ازاهير الطبيعة وفي وسطه سواد قال ابن المعتز فيه .

سقيا لروضات لنا من كل نور حاليه
عيون آذريونها الشمس فيها كاليه
مداهن من ذهب فيها بقايا غاليه

وحول آذريونه فوق اذنه ككأس عقيق في قرارته مسك

كأن آذريونها من فوق تلك القضب
خيام مسك فوقها سرادق من ذهب

ويلحق بالآذريون الكركيشي وهو زهر معروف قال فيه وهو بدمشق :

انظر الى الكركيش وهو محدق كالتبر محتاط عليه بدار

فكأنه فم شادن متبسم من فوق رأس لسانه دينار

مرزنجوش ، ومردقوش : هو الزعفران او نبت آخر طيب الرائحة : وليس في كلام العرب مردقوش بل من كلام الفرس . كما نقله ابن البيطار وقال الجوهري اظنه معرباً واسمه بالعربية السمسق والعبهر . وبه قال الشاعر :

ومرزنجوش كان القطر شنفه دراً كما شنفت اذان ابكار

اذا أتته هبوب الريح جاذبة كانه مائلا مصغ لاسرار

والحاصل ان ازاهير دمشق كثيرة ، تفنن الشعراء بوصفها مما يضيق بنا المقام في تعدادها بأجمعها وقد اكتفينا بما نقلناه .

نقل صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي ، في كتابه تحفة ذوي الالباب ، فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب . شيئاً عن دمشق . احببنا نقل ما هو مناسب موضوعنا قال : واما الاشعار التي جاءت في اوصاف دمشق وذكر محاسنها ومحاسن ازهارها فشيء كثير خارج عن الحد ينبو الضبط عن حصره ويكل فيه كل حد . ومما ذكره للعماد الكاتب قال :

اهدى النسيم لنا ريا الرياحين ام طيب اخلاق جيراني بجيرون

هبت تنبه اطرابي وتبعثها مني وتوجب للتهويم تهويني

وما درينـا اداريا لنا ارجت ام دار في دارنا عطار دارين

ورب هم فقدناه بربوتها ورب قلب اصبنـاه بقلبين

يصيبك ميطورها طوراً ونيربها طوراً ويوليك احساناً بتحسين

نعيمها غير ممنوع لساكنها كالخلد والمن فيها غير ممنون

اهوى مقري بمقري والرياض بها للزهر ما بين تفويف وتزيين

هاجت بلابل قلبي المستهام بها بلابل الايك غنتنـا بتلحين

تتلو بسطراً اساطير الغرام على صوامع الدوح ورق كالرهابين

وقد ترامت بها الأشجار تحسبها صفوف خيل صفوف في الميادين

وللخلاف لاظهار الخلاف على ازرابه ورق مثل السكاكين

والماء من نكبة النكباء في زرد | مضاعف السرد صافي النسج موضون
جرستها في حرستا العيش من شظف | دوما بدوما على حفظ القوانين
حي الديار على علياء جيرون | مهوى الهوى ومغاني الخرد العين
فالنيربين فالمرج فالميدان فحمرا | يا فجو حواشي جسر جسرين
فالماطرون فداريا فجارتها | فآبل فمغاني دير قانون
تلك المنازل لا وادي الاراك ولا | رمل المصلى ولا اثلاث يبرين
واها لطيب غديات الربيع بها | وبرد انفاس آصال التشارين
اشتاق برزة درنا والارزة من | حربا وابلى لقروى في صبريقين
ويطبيني لدار الروم ما شهرت | بدير مران اعياد الشعانين
ابدت دمشق ربيعاً جل صانعه | يأتيك في كل حين غير مكنون

ومما يكتب بقلم الافتخار والاعتبار ، ما قالته الفاضلة سيدة عصرها ، وعلامة مصرها ، الاديبة العالمة العاملة ، والمنعوتة بام عبدالوهاب الدمشقية الشهيرة بعائشة الباعونية وهي احدى افراد الدهور ، ومن نوادر الزمان والعصور . نزين به كتابنا ونكرر ذكرما قالته في دمشق ، لمناسبته القوية قالت :

نزه الطرف في دمشق ففيها | كل ما تشتهي وما تختار
هي في الارض جنة فتأمل | كيف تجري من تحتها الانهار
كم سما في ربوعها كل قصر | اشرقت من وجوهها الاقمار
وتناغيك بينها صارخات | خرست عند نطقها الاوتار
كلها روضة وماء زلال | وقصور مشيدة وديار

قال في الكواكب : ولها قصيدة ثانية طويلة غراء في مدح دمشق ايضاً ، ختمت مدحها بقولها (كلها روضة وماء زلال) من اراد الالمام بها فليرجع اليها . ومما قاله شاعر دمشق الطالوي الشهير في مدحها نكرر ذكره لحلاوته ومناسبته الموضوع

على الشام مني كلما هبت الصبا | سلام كنشر الروض طاب له نشر
بلاد كأنفاس الشمول شمالها | وتربتها مسك وحصباؤها در

ومما يستعذب قوله ايضاً :

لئن كان هذا الدمع يجري صبابة　　على غير ليلى فهو دمع مضيع
سهر العيون لغير وجهك باطل　　وبكاؤهن لغير فضلك ضائع

ومما قاله في مدحها الشاعر الشهير الشيخ ابو السعود مراد الحمصي الاصل والدمشقي مولدا احد اساتذة مدارس المعارف :

انما الشام شام حسن لها في　　وجنتي ذي الدنيا ازدها وازدهار
فضلها لا يحصى بنظم ونثر　　عن بياني له كفاني استهار
كم أتى مدحوها بنص حديث　　صح يحكي سنا ضياء النهار
وهي ان رمت وصفها باختصار　　جنة تجري تحتها الانهار

ومما قاله في حقها ايضاً شاعر الهوى والشباب الاخطل الصغير بشارة الخوري في بهو المجمع العلمي التي طوق بها الشاعر جيد دمشق وتغنى بمفاخرها مذكراً شعبها بواجب الاتحاد واجتماع الكلمة من قصيدة طويلة مطلعها :

تيها دمشق هل المفاخر والعلى　　غير الجهاد وصلته بجهاد
تلك الشمائل من شيوخ امية　　عباقة النفحات في الاحفاد
رفعوا من الدستور مجد بلادهم　　فوق الدعائم من دم ومداد
ما عابه ان جاء مضطرب الخطى　　وهو القريب العهد بالاصفاد
الخطوة الاولى فلا تتفرقوا　　فالخيبة السوداء بالمرصاد
اودى بلبنان وباستقلاله　　خفض الجناح وثورة الاحقاد
يتقاتلون على الفريسة وهي في　　كنف الوصي وجعبة الصياد

بردى هل الخلد الذي وعدوا به　　الاك بين شوادن وشوادي
قالوا تحب الشام قلت جوانحي　　مقصوصة فيها وقلت فؤادي

نفحات الزركلي الدمشقي وشاعرها الحزين ابنها الحر الوطني خيرالدين رده الله تعالى اليها في اقرب حين :

وضح اليقين فاقسموا الايمانا　　واستشهدوا الانجيل والقرآنا
[هذا] البيان [ولا] خيال لشاعر　　ان الحقيقة لا تود بيانا
[يا] سادة وقفت على [نيل] المنى　　افلاذها والشيب والشبانا

من خال ان المجد يدرك هينا فلينتظر بعد الهوان هوانا
يا راقدين على الهوان تأهبوا وتجلبوا الادراع والا كفانا
ما شاد ملكا أو اعز قبيلة من آثر الاخلاد والاذعانا

ومما قاله الشاعر الشهير فتى الجبل نزيل دمشق في حقها ايضاً .

روعة الحسن والجمال تبدت فوق ثغر الطبيعة الفتان
ما تراها على غياض دمشق تتجلى ملموسة للعيان
قسمت عندها فكانت سواء في الغياني وفي وجوه الحسان
شرفا جنة البلاد ومرحى انت ام الجلال والاحسان
ربة التاج والملوك قديماً خبرينا ما حل بالتيجان
حدثينا عن الفتوح وعما كان للعرب فيك من سلطان
يوم قاد الجيوش (عامر) حتى فتح الشام من اعز مكان
واستمر الجهاد حتى تخلت عنك بالرغم سلطة الرومان
ذكرينا عهد [الوليد] ومن قد دوخوا الارض من بني مروان
واذكري الفاتح العظيم (صلاح الدين) ذا التاج فيك والصولجان
هذه يا دمشق ذكرى اناس قد تولوك في قديم الزمان
فعزاء دمشق اذ كل ملك في البرايا لا محالة فاني

نذكر ما وصل الينا مما قاله شعراء هذا العصر في وصف دمشق ومدحها ، ونبدأ بما قاله في حقها امير الشعراء شوقي بك شاعر مصر في زيارته الاخيرة لدمشق سنة ١٣٤٣ . من شعره الحكيم الذي سحر به الالباب ، واسكر بمغناطيس الفاظه اهل الفضل والآداب . وقد القى هذه القصيدة الغراء في حفلة التكريم التي اقيمت لاجله في دار الكتب والآثار العلمية بدمشق مطلعها :

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا مشت على الرسم احداث وازمان
هذا الاديم كتاب لا كفاء له رث الصحائف باق منه عنوان
الدين والوحي والاخلاق طائفة منه وسائره دنيا وبهتان
ما فيه ان قلبت يوما جواهره الا قرائح من [راد] واذهان

بنو امية للابناء ما فتحوا	وللاحاديث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكا سرير الشرق تحتهم	فهل سألت سرير الغرب ما كانوا
عالين كالشمس في اطراف دولتها	في كل ناحية ملك وسلطان
يا ويح قلبي مهما انتاب ارسمهم	سرى به الهم اوعادته اشجان
بالامس قمت على الزهراء اندبهم	واليوم دمعي على الفيحاء هتان
في الارض منهم سماوات وألوية	ونيران وانواء وعقبان
معادن العز قد مال الرغام بهم	لو هان في تربه الابريز ماهانوا
لولا دمشق لما كانت طليطلة	ولا زهت ببني العباس بغدان
مررت بالمسجد المحزون اسأله	هل في المصلى أو في المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت	على المنابر احرار وعبدان
فلا الآذان آذان في منارته	اذا تعالى ولا الآذان آذان
آمنت بالله واستثنيت جنته	دمشق روح وجنات وريحان
قال الرفاق وقد هبت خمائلها	الارض دارلها الفيحاء بستان
جري وصفق يلقانا بها بردى	كما تلقاك دون الخلد رضوان
دخلتها وحواشيها زمردة	والشمس فوق لجين الماء عقيان
والحور في دمر او حول هامها	حور كواشف عن ساق وولدان
وربوة الواد في جلباب راقصة	الساق كاسية والنحر عريان
والطير يصدح من خلف بها	وللعيون كما للطير الحان
واقبلت بالنبات الارض مختلفا	افوافه فهو اصباغ والوان
وقد صفا بردى للريح فابتردت	لدى ستور حواشيهن افنان
ثم انثنت لم تزل عنها البلال ولا	جفت من الماء اذيال واردان
خلفت لبنان جنات النعيم وما	نبئت ان طريق الخلد لبنان
حتى انحدرت الى فيحاء وارفة	فيها الندى وبها طي وشيبان
نزلت فيها بفتيان جحاجحة	اباؤهم في شباب الدهر غسان
بيض الاسرة باق فيهم صيد	من عبد شمس وان لم تبق تيجان

يافتية الشام شكراً لا انقضاء له | لوان احسانكم يجزيه شكران
ما فوق راحاتكم يوم السماح يد | ولا كأوطانكم في البشر اوطان
خميلة الله وشتها يداه لكم | فهل لها قيم منكم وجنان
شيدوا لها الملك وابنوا ركن دولتها | فالملك غرس وتجديد وبنيان
لو يرجع الدهر مفقوداً له خطر | لآب بالواحد المبكي ثكلان
الملك ان تعملوا ما استطعتم عملا | وان يبن على الاعمال اتقان
الملك ان تخرج الاموال ناشطة | لمطلب فيه اصلاح وعمران
الملك تحت لسان حوله أدب | وتحت عقل على جنبيه عرفان
الملك ان تتلاقوا في هوى وطن | تفرقت فيه اجناس واديان
نصيحة ملؤها الاخلاص صادقة | والنصح خالصة دين وايمان
والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفة | او حكمة فهو تقطيع واوزان
ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم | ونحن في الجرح والآلام اخوان

ونزين كتابنا ايضاً في نقل بعض ما قاله في مدح دمشق شاعر مصر والبلاد العربية حافظ ابراهيم من قصيدته تحية الشام:

عهد الرشيد ببغداد عفى ومضى | وفي دمشق انطوى عهد بن مروان
ولا تسل بعده عن عهد قرطبة | كيف انمحى بين اسياف ونيران
فعلموا كل حي عند مولده | عليك لله والاوطان دينان
حتم قضاؤهما حتم جزاؤهما | فاربأ بنفسك ان تمنى بخسران
اهل الشآم لقد طوقتم عنقي | بمنة خرجت عن طوق تبياني
حسبت نفسي نزيلا بينكم فاذا | اهلي وصحبي واحبابي وجيراني
من كل ابلج سامي الطرف مضطلع | بالخطب مبتهج بالضيف جذلان
يمشي الى المجد مختالا ومبتسما | كأنه حين يبدو عود مران
ابت امية ان تفنى محامدها | على المدى وأبى ابناء غسان
فمن عطارفة في جلق نجب | ومن غطارفة في ارض حوران
عافوا المذلة في الدنيا فعندهم | عز الحياة وعز الموت سيان

لا يصبرون على ضيم يحاوله ... باغ من الانس اوطاغ من الجان

وقال مخاطباً احدى دول الغرب:

بنيتم على الاخلاق اساس ملككم ... فكان لكم بين الشعوب ذمام
فالي أرى الاخلاق قد شاب فودها ... وحل بها ضعف ودب سقام
اخاف عليكم عثرة بعد نهضة ... فليس لملك الظالمين دوام
أضعتم وداداً لو رعيتم عهوده ... لماقام بين الامتين خصام
ابعد حياد لا رعى الله عهده ... وبعد الجروح الناغرات وئام
اذا كان في حسن التفاهم موتنا ... فليس على راجي الحياة ملام

ومما قاله الشاعر الشهير سيدي ابن العم السيد سليم بهجت تقي الدين الحصني في مدحها:

في الشام جنات النعيم تزخرفت ... واليمن اطلع في زراه مناره
بلد يدوم لاهله ارخ بها ... طوبى لمن كانت دمشق دياره

ومما قاله الشيخ عبدالرحمن القصار احد شعراء دمشق في عصرنا من قصيدة بديعة يمدح بها دمشق وربيعها سماها النهج البديع باستقبال فصل الربيع وقد وقع ذلك تاريخ لها أي سنة ١٣١٥.

برز الربيع بجيشه الجرار ... ودحا الشتاء بعزمه البتار
هذي الثرى رانتو لاحت في حلى ... حلل الندى والنور والانوار
وقد اكتست جددا رباها بعدما ... كانون جردها من الاطمار
وتبسم الزهر الانيق تطربا ... لبكا عيون المزن بالامطار
وترنمت ورق الحمام على الغصو ... ن فقابلتها سائر الاطيار
فاغنم اخي ربيع جلق وابتهج ... برياضها ان شئت والازهار
واقطف ثمار الانس من نوروزها ... مع كيس صاف من الاكدار
يا راغباً عود الشباب وطالباً ... ربع الصبا ومرابع الاخيار
يمم دمشق الشام وقت ربيعها ... وارتع بمرجتها لدى الانهار
واعطف فدتيك نحو عين تنتمي ... بصفائها للناظم القصار
واخصص رعاك الله بقعة دمر ... مثوى السرور ومعدن الاسرار

واتح بشاذروانها الزاهي رمل ... للربوة الحسناء والمنشــار
واجنح هديت لسفح قاسيون حيـ ... ـث مرائع الصلحاء والابرار
واقصد رياض النيربين وانسها ... وابرز لبرزة نزهة الابصار
وانشق شذا عبق الزهور وعرفها ... واحي الفؤاد بطيبها المعطار
واطرب وشنف مسمعيك ومهم الذي ... ترديد نغمة بلبل وهزار
من كل طير صيت تغريده ... يزري بصوت العود والمزمار
هذي لعمرك شامنا المصر التي ... بربيعها تزهو على الامصار

تعالوا نعد الصيد منا ومنكم عنوان قصيدة غراء قالها الفاضل سليمان الاحمد في الحالة الاجتماعية بدمشق وهو احد شعراء هذا العصر وحسنة من حسناته قالها في احد المجتمعاته العلمية :

أهذي مغاني جاق والمعــالم ... لك الخير ام هل انت وسنان حالم
بلى هذه ام العواصــم جلق ... وهذي ليوث الغوطتين الضراغم
هنا عرش اقمار العلى من أميـة ... هنا ارتكزت سمر العوالي اللهاذم
هنا ابن ابي سفيان اشرق تاجه ... تؤيده البيض الرقاق الصوارم
هنا اليعربيون الأُلى عز جارهم ... فليس له في غوطة الشام هاضم
هنــا النفر البيض الميامين للعلى ... ملامح في غراتهم وعلايم
هنا العرب الاحرار ان قام ظالم ... مشوا بالقنا أو يرجع الحق ظالم
من القوم ما زفت لغير كرامهم ... حسانهم البيض الغواني الكرايم
اذا انتسبوا في ندوة المجد حلقت ... بهم للملاقيس ونهل ودارم
بني الغرب هاتوا شاهداً عند زعمكم ... بغير دليل لا تقوم المزاعم
تعالوا نعد الصيد منــا ومنكم ... ففي الناس مقبول الحكومة عالم
نعد غداة الفخر كعباً وحاتماً ... فهل في ربوع الغرب كعب وحاتم
وهاتوا لنا انداد موسى وطارق ... لنعرف من تخزيه منا الخواسم
وهاتوا غداة الفخر انداد خالد ... ويحكم فيما بيننا اليوم حاكم
أفيكم لسيف الله والحق خالد ... اذا عدت الافذاذ ند مزاحم

فلا تفخروا الفخر للعرب وحدهم ... وللعرب قصاء العلى والمكارم
لقد زعموا اني بجلق هائم ... أجل والهوى اني بجلق هائم
وفيت بعهد الفوطتين وهذه ... شهودي الفوافي والدموع السواجم
واصفيت ابناء الشآم مودتي ... صميراً وما نيطت على التمائم
اذا رضيت عني صناديد جلق ... فاهون شيء ما تقول اللوائم
اذا ظل مجد العرب في الشام سالماً ... فمجد بني قحطان في الشرق سالم
سلاماً عروس المشرقين ولا مشت ... بظل مغانيك الخطوب الغواشم
خذي قلدي ماشئت جيداً ومعصما ... من اللؤلؤ الرطب الذي انا ناظم
سليني دمي يا ام اسفكه راضياً ... وما انا هياب ولا انا نادم
تبنيت في ابنائك الصيد نهضة ... سيسعد فيها عبد شمس وهاشم
وبشرني بالفوز يا ام انها ... على العلم تبنى في حماك الدعائم
فيا للذي يبنى على الجهل رافع ... ولا للذي يبنى على العلم هادم
وللبطل صولات على الحق جمة ... وتسفر عن فوز المحق الخواتم
طلاسم هذا الذل دقت وانما ... تفك بسر العلم هذي الطلاسم
اذا الشعب نادى بالمحبة مذهبا ... وبالعلم تاهت عن حماه المظالم
تنبه هذا الشرق حتى تصافحت ... قلانسه محمودة والعمائم
تدين بدين الحب شيباً وفتية ... وانف الذي يهوى التفرق راغم
يقولون جد اليعربيين نائم ... لقد وهموا السعي لا الجد نائم
يفوز باوطار الحياة محارب ... ويرجع بالخذلان فيها مسالم
ارى الناس هذا ضاحك متفائل ... غروراً ، وهذا نادب متشائم
وما الناس الا اثنان مهما تخالفوا ... ميولا ، فمزوم ضعيف وهازم
وما الحق الا للقوي ولا العلى ... لغير الذي يغشى الوغى ويصادم
فقل لضعيف راح يسئل رحمة ... رويدك ما للضعف في الناس راحم
وقل للذي جاق على القرب اهله ... رويدك تقوى بالخوافي القوادم
لقد وحدت ما بين عيسى واحمد ... مغانم نلقاها معاً ومغارم

ومما قاله عن حال دمشق الشاعر الزركلي الشهير صاحب الديوان ، ومن شعراء هذا العصر حين تركها مهاجرا لمصر :

فيم الوني وديار الشام تقتسم ... اين العهود التي لم ترع والذمم
هل صح ما قيل من عهد ومن عدة ... وقد رأيت حقوق العرب تهتضم

ويلي على وطن يهدمه ... من كنت آمل ان يشيده
دارت به الايام دورتها ... فارتعت حين رأيت مشهده

ولقد هجرتك حين حاق بك الاذى ... ما للاباة على الهوان قعود

عصفورة النيربين غني ... واروي حديث الانين عني
عصفورة النيربين نوحي ... يضمد النوح من جروحي

وقد قال في المهجر بقصيدة طويلة يشكر بها مصر واهلها الكرام بمساعدتهم لاهل دمشق ومنكوبيها ، مطلعها :

الاهل اهلي والديار دياري ... وشعار وادي النيربين شعاري

وقد قال الشيخ عارف المنير الدمشقي امام الشافعي بجامع دمشق يمدحها :

دمشق من يدخلها ... يلق بها باب الفرج
عن وصفها حدث وقل ... مهما تشاء لا حرج

ومما قاله الشيخ احمد المقري :

محاسن الشام جلت ... عن ان تقاس بحد
كانها معجزات ... مقرونة بالتحدي

وقد جاد نجم الدين الغزي بقصيدة يمتدح بها دمشق مطلعها :

محاسن الشام جلت ... عن ان تعد بعد
عن حسنها يتحدث ... وعن سواها يصد
محاسن الشام اضحت ... لها المحاسن ضد
كانما المدن زهرا ... ونفيذ الشام ورد
والله لو لا فناها ... لعدت جنة خلد

عثرت على رسالة لطيفة لناظم عقدها استاذنا الجليل ، والعلامة النبيل الشيخ محمد المبارك ، مدح بها دمشق وواديها . سماها بهجة الرائح والغادي ، في احاسن محاسن الوادي . اخذت منها ما يطيب للقاري ذكره جمعها في اثنــاء رحلته عام ١٣٠٨ هـ وكان معه بعض من افاضل دمشق وادبائها . وقد بدأ رسالته بخطبة بديعة ثم قال . وبعد فقد ضمني ناد حفة الانس والجمال ، مع صفوة من خلاصة اهل الفضل والكمال . فازمعنا التنقل في ارجاء دمشق ذات النسمات الشذية.لتملي بشهود رياضها البهية ، وورود حياضها الشهية . فهي شامة تزهو بها وجنة المحاسن وجنة فيها انهار من ماء غير آسن ولله دره حيث قال :

واذا وصفت محاسن الدنيا فلا ... تبدأ بغير دمشق منهــا اولا
بلد اذا ارسلت طرفك نحوه ... لم تلق الا جنة او جــدولا

يمم رياضــا في دمشق بهيجه ... تغنم من العيش الهني بهيجه
بلد بها ابدى الندى ترصيعه ... واجاد وشي ربيعهــا تدبيجه
هي جنة الدنيا تبيح اخا الاسى ... تفريحه وتنيله تفريجه
وارتع بواديها فقد زان الحيا ... ببساط انوار الربيع مروجه
لله ما ابهـــاه من واد وما ... اسنى مرابع انسه وبروجه

اذا ضقت ذرعا في البلاد فعج على ... دمشق حمى الملهوف كهف ملاذه
تنقل بواديهـــا فأن نسيمه ... يميط عن المحرور فرط بذاذه
حكت جنة الفردوس حسنا ورونقا ... ولو لا التقى قال الورى هي هذه

قد غدت في وجنة الدنـ ... ـيا دمشق الشـــام شامه
جنة طوبى لمن حـ ... ـل بمغنــاها وشامه
كم بها حر كريم ... في ذرى يزهو كرامة
ان خطبت الود منـــه ... قال حبا وكرامه

وقال يمدح قرية برزة :

لاتمل عن رياض برزة يوما ... فهواها شفاء كل عليل

عز صبري عنها وكيف اصطباري عن رياض فيها مقام الخليل

لقد برز من هذه القرية علماء اكابر منهم عبد العزيز بن محمد المحدث وجماعة من اصحاب ابن عساكر ، فهي بلدة لطيفة ذات رياض اريضة ، وغياض جميلة :

وقال يمدح عين وادي معربا :

لله عين كدمع العين صافية تشفي المعنى وتنفي غلة الصادي
بها مرابع وادي معربا ابتهجت وطاب للقوم في ساحاتها النادي
حصباؤها من جمان وهي جوهرة سيالة قد جرت في ذلك الوادي

وقال في وصفها العالم الاديب الشيخ محمد افندي الحكيم احد اساتذتنا الكرام ورفيق الشيخ المبارك في هذه الرحلة :

وعين بوادي معربا كوثرية جرت في الحصى شبه اللجين على الدر
يروق عيون الرامقين صفاؤها ويحكي سنا لألائها الكوكب الدري

وقال الشيخ المبارك يمدح عين قرية منين :

ايا حسن عين في منين تفجرت بماء معين قد حكى طعمه درّا
بشاطئها مدة بساط زمرد تلوح حواشيه مرصعة درا

وقال يمدحها ايضا العالم الاديب السيد عبد الباقي الحسني وكان رفيقا للشيخ المبارك في هذه الرحلة :

عين تفوق صفاء وبهجة كل عين
حصباؤها كالدر ارى تجلو دجى كل عين

وقال الأستاذ العلامة النحرير الشيخ المبارك يمدح عين الصاحب قدس الله تعالى روحه ونور مرقده وضريحه :

سر بي الى سربي بعين الصاحب وانظر فديتك لي بعين الصاحب
تشفي العليل بلطفها وبرشفها تنفي الغليل من الغرام الواصب
طابت بها اقواتنا وصفت لنا اوقاتنا منها بصفو مشارب
تجري بواد ذي وهاد زاحمت اطواده شهب العلا بمناكب
او كنت انظم لؤلؤاً وجوهراً في وصفها لم اقض بعض الواجب

ويظل يشكو الجوع وارده ولا يرثى له ويرق قلب الصاحب

وقال الشاعر الاديب الشيخ امين احد رفقاء الشيخ المبارك في هذه الرحلة يمدح عين الخضراء الشهيرة :

عرج اخا ودي على الخضراء واستجلها في الروضة الخضراء
عين غدت تجري جداولها على درر تحاكي انجم الخضراء
وادربها ياصاح اقداح الهنا فزلالها يغني عن الصهباء
واغنم اويقات السرور فانها فرص تروق بغفلة الرقباء
فالدهر مد لنا بساط ربيعه وامدنا من صفوه بصفاء

وقال المبارك يمدح عين الفيجة وقريتها الفيحاء :

عرج على ارجاء عين الفيجة وانشق شذا ذاك الحمى واريجه
هو شامة في وجنة الشام التي هي جنة وبها النفوس بهيجه
فاضت به عين لقد اجرى الحيا منها الى مغنى دمشق خليجه
عين تفوق العين نضرتها فكم كرب اقاد شهودها تفريجه
عين بها افترت ثغور دمشق عن درر حسان في الرياض بهيجه
عين بها كانون اجرى دمعه مذ مزقت ايدي الرياح ثلوجه
قد كان بدر التم لما ان رأى فيها محاسنه يعاف بروجه
لكنها بردى يكدر صفوها والدهر يبدي في الصفاء مريجه
نهر بها القى عصا تسياره يرجو بحسن جوارها ترويجه
قد خال جهلا انه كفوٌ لها فصبا الى تجويزه تزويجه
لما رأته خاطبا متردياً بسبيجة هي في العيون سميجه
ابدت له بعض النفور تعززاً بعد السفور فاوجبت تهييجه
وغدت من الاعجاب تثني عطفها والتيه كم اورى الهوى وهجيجه
فكأنها تبدي التدلل كلما ابدى التذلل واستطال نشيجه
وقضت له اوطاره لما سلا اوطانه وجداً وجاب مروجه
مزجت لذيذ مجاجها بأجاجه كم لذة بمرارة ممزوجه

لو لا حلاها ما تمثل طائفـا بدمشق يبدي كالحجيج عجيجه
يزهو بهاز هر امري قد غاص في عين الحقيقة فاستطاب ولوجه
فالان قسوة مائهـا لما رأى من ذلك الصخر الاصم خروجه
فانظر بعين الاعتبار اخا النهى حكماً تجلت لي بعين الفيجه

وقال اديب الحكماء وحكيم الادباء بمدحها ايضاً :

عرج على الفيجة الفيحاء ياصاح وارشف رضابا حلا من ثغرها صاح
يا حسن يوم وردناها فاوردنا منها سلاف مسرات وافراح

وقد شطر الشيخ المبارك ابيات امير العلماء وعالم الامراء الامير عبد القادر الحسني الجزائري في مدحه قرية دمر وقصره الذي بها :

عج بي فديتك في اباطح دمر ترتع بواديها البهيج الاخضر
وادر سلاف الانس في ربواتها ذات الرياض الزاهرات النضر
ذات المياه الجاريات على الصفا كفرائد من لؤلؤ او جوهر
تصبو النفوس الى ورود حياضها فكأنها من ماء نهر الكوثر
ذات الجداول كالاراقم جريها تسبي النهى حسنا بابهى منظر
هي جنة مولاي ابدع صنعها سبحانه من خالق ومصور
ذات النسيم الطيب العطر الذي يحكي بنفحته عبير العنبر
فانشق اخا ودي شذاه فانه يغنيك عن ند ومسك اذفر
والطير في ادواحها مترنم ابداً ترنم واله متحير
كم هيج الاشجان من اهل الهوى برخيم صوت فاق نغمة مزهر
مغنى به النساك يصفو حالها فتفوق فيه بكل حظ اوفر
اوقاتها ابداً تراها تنقضي ما بين اذكار وبين تفكر
ما شئت ان تلقي بها من ناسك متأسف متلهف متحسر
او باسط كف السماحة والندى اوغائك في فتكه متطور
اين الرصافة والسدير وشعب بو ان من الروض النضير العبهري
بل ما بها من حسن اشكال والو ان اذا اصفقتني من دمر

وقد ابدع الشاعر بدر الدين الحامد في مدحه الشآم حيث قال :

من كان يطمع في الجنات مزلفة   فانما جنة الدنيـــا هي الشام
ما بين دمرها والمرج قد رفعت   لبهجة الحسن رايات واعلام
وفي مغاني الربى تجري العيون على   مهد الرياض وللارواح تنسام
معنى الجلال تجلى في مرابعها   فليس بدعاً اذا دانت لها الهام
دمشق أنت عروس الشرق خالدة   ما فيك الا هصور الخصم ضرغام
قد رامك الدهر قبلا فامتنعت ولم   تخشي وللدهر اقسار وارغام
فيك الشباب ليوث المكرمات ومن   خليقة الليث أن الليث مقدام
من عهد مروان لم يطمس مفاخرهم   كر الليالي ولم يلحق بهم ذام
دم الفخار تمشى في مفاصلهم   من قبل لما نماهم جدهم سام
راموا المعالي فهان الموت عندهم   فاستبسلوا في الوغى حباً بما راموا
فان يكن بعضهم لاقى منيته   فان موت الفتى في المجد اكرام
فجر العروبة من افق الشآم بدا   وكم تنوره ناس وأقوام
ناموا ولكنهم قد خلدوا ولهم   ذكر له في فم الأيام إعظام
الجد يعثر والايام غادرة   وفتية الشام احزاب واقسام
لهفي عليكم اذا جد القضاء بكم   ونالكم بضروب الخسف هضام
كيف الذياد وانتم في الهوى فرق   وما عملتم ليـــوم الروع آثام
اين الوشائج والارحام بينكم   ان لم تكن فالدم المسكوب أرحام

في ذمة الله ابطال عهدتهم   ملء الزمان على هام العلى قاموا
اذا تداعوا فنار العزم ملهبة   عيونهم والمنايا السود خدام
ماتوا كراماً كما شادت اوائلهم   ما ضر ياحظ المنكود لو داموا
في كل عام لذكراهم اذيل أسى   دمعي واصبر حتى ينقضي العام
هذي الخرائب في تاريخنا صور   وحقنا الضائع المهضوم رسام
يا ليتشعري أمحيا العمر في دعة   أم نقمة وأماني القلب أوهام

ومما املاه العلامة الجنيني الدمشقي : ان الخريف ربيع الانسان ، والربيع

ربيع الحيوان ، وان الربيع للعين ، والخريف للفم وفي ذلك يقول بعض شعراء دمشق يعني ان الخريف للفم :

لا اشتهي الصيف ولا ضده برد الشتا عذاب اليم
واشتهي برد خريف به فواكه تنسى جنات النعيم

سألت الغصن لم تعر شتاء وتغدو في المصيف وانت كاس
فقال لي الربيع على قدوم خلعت على البشير به لباس

احزر اخي هوى الخريف فانه مستعذب متلطف عطاف
يجري الى الاجسام في غسق الدجى بلطافة ومن اللطيف يخاف

وقال المؤرخ ابن طولون الدمشقي الصالحي في الحياة الدنيا انها متاع الغرور :

ميلوا عن الدنيا ولذاتها فانها ليست بمحموده
وابتغي الحق كما ينبغي فانها الانفاس معدوده
فاطيب المأكول من نحله وافخر الملبوس من دوده

ووجد في صخرة منقوشة في جبل طي عند مدينة حايل في جزيرة العرب هذين البيتين :

وكم قد رأينا من رجال ودولة فبادوا جميعا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علي شرفاتها رجال فبادوا والجبال جبال

اين الملوك التي عن حظها غفلت حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
تلك المدائن بالآفاق خالية امست خلاء وذاق الموت بانيها

كنا وعدنا في بدء كتابنا هذا سرد حوادث ونكبات دمشق الاخيرة التي حلت بها في سنة ١٣٤٤ هـ ١٩٢٥ م وبرا بوعدنا نذكر زبدة ما قاله الشعراء والكتاب بهذه الكارثة ووصفهم لها بعين باكية على ام الشرق العاصمة دمشق التي قضي على شيء من محاسنها من ذلك ما قاله في مصر امير شعراء الشرق شوقي بك بقصيدة فائقة قالها في حفلة عظيمة اقيمت في مصر لجمع الاعانات من اهل البر والاحسان لشقيقة بلادهم دمشق وهي :

سلام من صبا (بردى) ارق ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة اليراعـــة والقوافي جلال الرزء عن وصف يدق
وذكرى عن خواطرها لقلبي اليك تلفت ابدا وخفق
وبي مما رمتك به الليالي جراحات لها في القلب عمق
دخلتك والاصيل له ائتلاق ووجهك ضاحك القسمات طلق
وتحت جنانك الانهار تجري وملء رباك أوراق وورق
وحولي فتية غر صبـــاح لهم في الفضل غايات وسبق
على لهواتهم شعراء لسن وفي اعطافهم خطباء شدق
رواة قصـــائدي فاعجب لشعر بكل محلة يرويه خلق
غمزت اباءهم حتى تلظت انوف الاسد واضطرم المدق
وضج من الشكيمة كل حر ابي من امية فيه عتق

• • •

لحاها الله انباء توالت على سمع الولي بما يشق
يفصلها الى الدنيا بريد ويجملها الى الآفاق برق
تكاد لروعة الاحداث فيها تخال من الخرافة وهي صدق
وقيل معالم التاريخ دكت وقيل اصابها تلف وحرق
ألست دمشق للاسلام ظئرا ومرضعة الابوة لا تعق
صلاح الدين تاجك لم يجمل ولم يوسم بازين منه فرق
وكل حضارة في الارض طالت لها من سرحك العلوي عرق
سماؤك من حلى الماضي كتاب وارضك من حلى التاريخ رق
بنيت الدولة الكبرى وملكا غبار حضـــارتيه لايشق
له بالشام اعلام وعرس بشــائره باندلس تدق

• • •

رباع الخلد ويحك ما دهاها احق انها درست احق
وهل غرف الجنان منضدات وهل لنعيمهن كأس نسق
واين دمى المقاصر من حجال مهتكة واستار تشق

برزن وفي نواحي الأيك نار	وخلف الأيك افراخ تزق
اذا رمن السلامة من طريق	اتت من دونه للموت طرق
بليل للقذائف والمنايا	وراء سمائه خطف وصعق
اذا عصف الحديد احمر أفق	على جنباته واسود افق
سلي من راع غيدك بعد وهن	ابين فؤاده والصخر فرق
وللمستعمرين وان ألانوا	قلوب كالحجارة لا ترق
رماك بطيشه ورمى فرنسا	اخو حرب به صلف وحمق
اذا ما جاءه طلاب حق	يقول عصابة خرجوا وشقوا
دم الثوار تعرفه فرنسا	وتعلم انه نور وحق
جرى في ارضها فيه حياة	كمنهل السماء وفيه رزق
بلاد مات فتيتها لتحيا	وزالوا دون قومهم ليبقوا
وحررت الشعوب على قناها	فكيف على قناها تسترق
بني سورية اطرحوا الأماني	والقوا عنكم الاحلام القوا
فمن خدع السياسة ان تغروا	بالقاب الأمارة وهي رق
وكم صيد بدا لك من ذليل	كما مالت من المصلوب عنق
فتوق الملك تحدث ثم تمضي	ولا يمضي لمختلفين فتق
نصحت ونحن مختلفون دارا	ولكن كلنا في الهم شرق
ويجمعنا اذا اختلفت بلاد	بيان غير مختلف ونطق
وقفتم بين موت او حياة	فان رمتم نعيم الدهر فاشقوا
وللأوطان في دم كل حر	يد سلفت ودين مستحق
ومن يسقى ويشرب بالمنايا	اذا الاحرار لم يسقوا ويسقوا
ولا يبني الممالك كالضحايا	ولا يدني الحقوق ولا يحق
ففي القتلى لاجيال حياة	وفي الاسرى فدى لهم وعتق
وللحرية الحمراء باب	بكل يد مضرجة يدق
جزاكم ذو الجلال بني دمشق	وعز الشرق اوله دمشق

نصرتم يوم محنته اخاكم   وكل اخ بنصر اخيه حق
وما كان الدروز قبيل شر   وان اخذوا بما لم يستحقوا
ولكن ذادت وقرات ضيف   كدموع الصفا خشنو ورقوا
لهم جبل اشم له شعاف   موارد في السحاب الجون بلق
لكل لبؤة ولكل شبل   نضال دون غابته ورشق
كأن من السموءل فيه شيئا   فكل جهاته شرف وخلق

واحببنا نشر مرثية قالهـا بحق فقيد البلاد وواضع الدستور بدمشق السيد فوزي الغزي اعترافا لما قام به لتحرير هذه البلاد وارجاع حرية اهلها لها من قصيدة طويلة مطلعها :

جرح على جرح حنانك جلق   حملت ما يوهي الجبال ويرهق
يا واضع الدستور امس كخلقه   ما فيه من عوج ولا هو ضيق
يافوز تلك دمشق خلف سوادها   ترمي مكانك بالعيون وترمق
ذكرت ليالي بدرها فتلفتت   فعساك تطلع أو لعلك تشرق
بردى وراء ضفافه مستعبر   والحور محلول الضفائر مطرق
والطير في جنبات دمر نوح   بجد الهموم خليهن وبأرق
ويقول كل محدث لسميره   أبذات طوق بعد ذلك يوثق؟

يا مأتما من عبد شمس مثله   للشمس يصنع في المآت وينسق
ان ضاق ظهر الارض عنك فبطنها   عما وراءك من رفات أضيق
لما جمعت الشام من اطرافه   وافى يعزي الشام فيك المشرق
يحكي لواء من شباب امية   يحمي حمى الحق المبين ويخفق
لمست نواصيها الحصون ترومه   وتلمسته فلم تجده الفيلق
ركن الزعامة حين تطلب رأيه   فيرى وتسأله الخطاب فينطق
ويكاد من سحر البلاغة تحته   عود المنابر يستخف فيورق

فيحاء اين على جنـــاتك وردة كانت بها الدنيا ترف وتعبق
علوية تجد المسامع طيبهـــا وتحس رياها العقول وتنشق
واراتك الزهر الغصون وعرشها بد امة وجبينهـــا والمفرق
من مبلغ عني شبيبة جاق قولا يبر على الزمان ويصدق
بالله جل جلاله بمحمد بيسوع ، بالغزي ، لا تتفرقوا
قد تفسد المرعى على اخواتهـــا شاة تند من القطيع وتمرق

للعلامة الشيخ عبد المحسن افندي الاسطواني القاضي الشرعي بدمشق :

خل حكم العقل يا من حكما حير الالباب مجرى الحكم
فقضاء الله فينا احتكما هكذا الامر جرى من قدم

ايها المحجوب كن عبداً اسير ما جرى في منهج الا خضع
ودع التدبير للمولى الخبير فهو مولى الكل ما شاء صنع
كل امر من حظير وحقير في يد القدرة لاشك يقع

خلق الخلق وكانوا عدما جل من يعلم ما في العدم
وبراها وفق ما قد علما اترى يخلق ما لم يعلم

ماعلى المرء دقيق النظر ان يريح النفس من سر القدر
علم ذا ليس بطوق البشر كم حكيم عاش في اسر الفكر
عقل العقل بقيد الخطر وانثنى يخبط في عشو الحير

هذا ابليس الشقي استفهما باعتراض حكمة الامر العمي
فابتلاه الله بالطرد فما اشقى من للأمر لم يستسلم

حكمة المولى البديع الصانع خفيت والسر في ذاك الخفاء
قل لمن جال بفكر واسع وادعى عن فهمها كشف الغطاء
ويك حدث بالمصاب الفاجع فيه لا يجدي فداء او رجاء
دهم الخلق فاقنى الامما عنه فاسئل دارسات الرمم
لم يدع طفلاً وشيخاً هرما ورضيعاً في مهاد اليتم

ان تك الراحة فيه للبشر   من عنا الدنيا وغم وارد
او يكن فيه العطا مد البصر   فليصل اني بشوق زائد

ومما قاله في دمشق الجبارة شاعرها الشهير شفيق جبري احد اركان رجال المعارف بها :

سلمت دمشق فما تزحزح نكبة   الا وتنهض نكبة لطلابها
فكأنما للدهر في افيائها   وتر يذلل من رقاب صعابها
لكن جلق في ازدحام خطوبها   جبارة بكهولها وشبابها
لم تستنم لاذى ، فان هاجمتها   دهم الخطوب اوت الى اقطابها
عركت عروبتها السنين فأقلقت   عبث السنين بجدها وبنابها
ظل العروبة وارف في جلق   متمكن في ارضها وسحابها

وصف اهل هذا الزمن لبعض الشعراء :

اضحى الضياء كحالة الظلماء   من هول كل ملمة وعناء
وغدا لسان الحال ينشد قائلا   هذا زمان مذلة وبلاء
زمن يريك من العجائب ما به   تتفطر الاكباد دون شفاء
زمن اسال من المحاجر ادمعا   قد بدلت من مهجتي بدماء
زمن به راجت بضاعة فاسق   ونما الكساد بساحة الصلحاء
زمن به المفعول قد رفعت له   رايات عز بعد عقد لواء
زمن به اضحى اللئيم مقدماً   وبه الكريم مؤخرا لوراء
زمن به عظم الفجور وقد فشت   فيه الخيانة من ذوي الافتاء
زمن به كثر النفاق الا ترا   حين السلام سجود كل مراء
زمن به ان البهائم اشبهت   قبب الجوامع في علی وبناء
زمن به الدين يبم بدرهم   بئس التجارة عصبة الجهلاء
زمن به العلم صار بحجة   وبعمة نسجت بكل دهاء
ويلاه هل سمع المحدث او رأى   الرائي كمصبة هذه الفحشاء
ويلاه من هذي العجائب انها   قد شيبت عنا ذرى الرضعاء

قسماً بمن عم البرية فضله ... وبعالم السراء والضراء
ان لم يميلوا عن طريق فجورهم ... لا يهيموا ظلما كما الصعداء

ومما قاله حافظ ابراهيم شاعر مصر والاقطار العربية في هذا الباب بقصيدة طويلة رنانة مخاطبا رجال الانتداب بعد نكبات الشام ومعاتبا لهم بالفاظ شديدة لم يسع ضيق المقام ذكرها بل اكتفينا عما قاله عن لسان حال اهلها نذكر ختام قوله بها وهو :

لم يبق فينا من يمني نفسه ... بودادكم فودادكم احلام
أمن السياسة والمروءة اننا ... نشقى بكم في ارضنا ونضام
انا جمعنا للجهاد صفوفنا ... سنموت او نحيا ونحن كرام

ومما قاله الشاعر البليغ خير الدين الزركلي الدمشقي نزيل مصر وصاحب الديوان الشهير في نكبات دمشق بقصيدة غراء اخذنا منها ما وصل الينا :

الله للحدثان كيف تكيد ... (بردى) يغيض و(قاسيون) يميد
وفواجع الملوين ما لجماحها ... كبح ولا لجراحها تضميد
تفد الخطوب على الشعوب مغيرة ... لا الزجر يدفعها ولا التنديد
هل في الشآم واهله من نابس ... والنائبات لها عليه وفود
ما في دمشق لناهض من عزة ... وبها سرادق غاصب ممدود
بلد تبوأه الشقاء فكلما ... قدم استقام له به تجديد
لانت عريكة قاطنيه وما دروا ... ان الضعيف معذب منكود
لمسوا حبال حقوقهم فتشبثوا ... والحق يعوزه قنا وبنود

ما تنفع الحجج الضعيف وانما ... حق القوي معزز معضود
من للحمى أبقيه من عثراته ... طول الاناة وفي الاناة جمود
زعماؤه متنافرون واهله ... متناظرون وللعداة وعيد

ومما قاله الفاضل اللغوي الاديب سليم الجندي احد اساتذة معاهد العلم بدمشق :

تكاثرت الدعاة بكل فج ... ولكن ليس ثمة من يجيب
وهل تثق النفوس بأي قول ... وتعلم ان قائله كذوب

تخدنا خدمة الاوطان فخاً يصيد به مطامعه الاريب
فكم ملئت جيوب من نضار بذاك كأنما الوطن الجيوب
تروعنا المطامع كل يوم وتنذرنا الكوارث والخطوب
فأطراف البلاد بها لهيب وفي الاحشاء قد دب اللهيب

وما قاله الشاعر التدمري الطرابلسي من اشهر شعراء طرابلس الشام الفيحاء

أأصبو وسوريا بها النحس طالع فاني اذاً في حبها لمصانع
واي امرئ يسري السرور بباله واوطانه تجري عليها الفظائع
اذا المرء لا يرثي لبؤس بلاده فما هو الا ظالم ومخادع
تعودت قول الحق لكن في فمي من الضغط ماء فهو للقول مانع
لعمر ابي لو استطيع تكلما لافهمت اهل الغرب ما هو واقع
اذا دمت ملجوم اليراع معذبا فياموت سارع فالحياة تنازع
مصائب حلت بالديار فاقفرت مرابعها الخصباء فهي بلاقع
فلا زهرها زاه بغصن رياضه ولا ساجعات الطير فيها سواجع
تغلغل فيها الجور والضيم والشقا وامطرها صوب من الفقر هامع
وان غاب عنها من بلاها طليعة فلا تنقضي الا استهلت طلائع
فوا حر قلبي كم تلاقي بوجهها به من دماء الابرياء براقع
اسورية ويلي عليك الى متى تعانين ما تنهد منه الاضالع
آذانك اصوات الرصاص مدمدماً وتسبحك اليوم القنا والمدافع
ففي كل يوم حادث يصدع الحشا وفي كل آن مأتم وفجائع
كساد باسواق التجارة ناشر سحابا به برق المنيــة لامع
وبعض ينادي بالتفرق ساعيا وراء الاذى . اني الى الله راجع
بلاد لها عاداتها ولغاتها وتاريخها والجنس للكل جامع
فكيف يجوز اليوم تفريق شملها وقد جمعتها وحدة وطبائع
ولكن قضته للنفوس مطامع يقال انها عند القوي شرائع
رعى الله (احزاب الشمال) فانها تناضل عن مشروعنا وتدافع

رأى العدل (دريو) ان ترد حقوقنا	وذو العدل لا تحميه عنه المنافع
فقام جزاه الله خيراً مدافعاً	لإنصافنا والحق للحر دافع
اذا كان نهج الحق في الناس قد غدى	(شيوعة) أني اذا (المشايع)
نسير ونغدو غافلين وانما	تكيد لنا خلف الستار اصابع
لقينا امانين الشقاء ونابنا	من الضيم ما يدمي الفؤاد ويفطر
ضرائب سارت بالبلاد تأخرا	وكم هد اركان البلاد التأخر
لقد ضج ابناء البلاد تذمرا	ألم يكفنا يا قوم هذا التذمر
أسورية ويلي عليك فلم يعد	بافقك نجم السعد والعز يسفر
تقطع منك الجسم حتى لقد غدا	نحيلا به ريب المنية ينخر
فماذا يروم الدهر منك زيادة	ومما بعض اخصام افضالك ينكر
يعيشون من غدر كأن اسانهم	باحشائك سم أو بصدرك خنجر
وليس لهم شغل سوى الضر والاذى	وان فسد العضو المكرم يبتر
فوا حر قلبي والاسى يتبع الاسى	الى اين يمشي بالبلاد المسيطر
مصائب حلت بالديار فأهلها	تودع بالكره الديار وتهجر
هو الجور حتى يطلب المرء حتفه	ليسلم من نار به تتسعر
اذا لم يسل دمعي لما حل بالحمى	فلا انجبتني العرب فيه (وتدمر)

ومما يستملح اعادة ذكره والتاريخ يعيد نفسه قول البهائي في نكبات دمشق زمن التيمور والتتار في سنة ثلاث وثمانماية قال :

لهفي على تلك الروح وحسنها	حفت بهن طوارق الحدثان
لهفي على وادي دمشق ولطفه	وتبدل الغزلان بالثيران
وشكا الحريق فؤادها لما رأت	نور المنازل ابدلت بدخان
ابني امية اين من وليدكم	والمغل تقتل في ذرى الاركان
لم يرحموا طفلا بكى فقلوبهم	في الفتك صخر لا ابو سفيان
أعروستا لك اسوة بحماتها	في ذا المصاب فانها اختان
غابت بدور الحسن عن هالاتها	فاستبدلت من عزها بهوان

لهفي عليك منازلا ومنازهاً ومقام فردوس وباب جنان
لم ادر من ابكي واندب حسرة للبزة الفيحاء أم اللوان

وما قاله امير البيان الكاتب الشهير الامير شكيب ارسلان في ديوان الثورة للفاضل ياسين عرفه :

يقولون وجه السيف ابيض دائماً وما ابيض الا وهو احمر بالدما
فان كان دفع الشر بالرأي حازما فمازال دفع الشر بالشر احزما
تجاهل أهل الغرب كل قضية اذا لم يجيء فيها الحسام مترجماً

وهي طويلة فمن شاء يرجع اليها .

وما قاله الشاعر الاديب تيسير افندي ظبيان قصيدة غراء في نكبات دمشق نذكر منها قوله :

لا تقنطوا يا رجال الشرق قد لمعت بوارق النصر وازدانت نواحيه
ستدركون من الاعداء ثاركم رغم الانوف ويعطي القوس باريه

وما قاله الشاعر جورج افندي صيدح الدمشقي نزيل باريس من قصيدة غراء في نكباتها .

يا ربوة لفحت بالزهر هامتها في دمر ولها في المرج اردان
يا جنة الارض جفت في خمائلها منابع الرزق لن يرضاك جنان
انهارك السبع ما درت لنا عسلا ولا جرت لرضيع الثدي البان
ضاقت سماؤك فالاطيار نافرة تكاد تخلو من الاوكار اغصان
يا شاعر النيل دع للشام غفلتها فيمن تهيب وما في الحي يقظان
لم اجف قومي ولا استنقصت قدرهم اني فخور بقومي كيفما كانوا

وما قال الشاعر البليغ معروف الرصافي الشهير في نكبات دمشق من قصيدة طويلة :

ستنهض للمجد المخلد نهضة يقربها حوران عيناً ولبنان
وتعتز من ارض الشآم دمشقها وتهتز من ارض العراقين بغدان
وتطرب في البيت المقدس صخرة وترتاح في البيت المحرم اركان
وتحسن للعرب الكرام عواقب فيحمدها مفت ويشكر مطران

ولو انصفتنا ساسة الغرب لاغتدت دمشق لها من ساسة الغرب اعوان
ورقت قلوب للشآم واهله واصغت الى شكواهم اليوم آذان

ومما قاله الشاعر الكبير الدكتور احمد زكي ابي شادي المصري من قصيدة غراء في نكبات دمشق :

عيشي دمشق وان فجعت وان بكت حمقاً عليك مآثر وعظام
عيشي فما يفني بنوك وفاؤهم كلا ولن يتضاءل الاعلام
تلك الجراح وان تبق ذكرها عاراً على الجانين قد تلتام
والله ما ادري اجرحك حقه مني العزاء ام الدماء وسام

ومما قاله محمد الهاشمي العراقي عن نكبات دمشق بقصيدة طويلة مطلعها :

دمشق أصاب اهلك أي كرب عظيم تقشعر له الجلود
ديار بني أمية من هشام ومن عمر بها ومن الوليد
بها تاج انيف على قريش على فلذكرها شرف مجيد
مضيء من جوانبه محاط بتيجان على الدنيا تسود

ومما قاله شاعر دمشق خير الدين الزركلي نزيل مصر يعاتب بها من استحق العتاب في جوارها بقصيدة طويلة منها :

يا جيرة الشام اقضضتم مضاجعنا بغيا علينا وتأزيرا لمختاس
ان كان سركم ما ساء غيركم فللحوادث صبح بعد اغلاس

هذا ما قاله بعض الشعراء عن نكبات دمشق رثاء لها .

انه لحق على المؤرخ ان يعلم الى أي مدى تمتد واجباته التاريخية ، ان يضع نصب عينيه انه بحكم مهنته هذه مسئول تجاه الرأي العام فضلا ... عن شؤون بلاده اذا قصر في الذياد عن حرمها المقدس واذا تهاون في مداواة عقل قومه وراح ضارباً صفحاً عن تغزية عقول الناس بالمفيد من الابحاث القيمة التي تنير امامهم طريق الصالح والطالح ، وتلفت اذهانهم الى تمييز الغث من السمين .

والمؤرخ مفروض عليه ان يقدم الكتابة في شؤون وطنه ، والبحث في سياسة بلاده على كل الموضوعات الثانوية أي ان واجب المهنة يتطلب منه ان يقدم الاهم

من هذه الموضوعات على المهم . واذا كتب في موضوع فلا يجب ان ينصرف عنه الى سواه ما لم يشبعه درسا وبحثاً ويرى ان الناس بدأوا يدركون ما يرمي اليه ، وان افكارهم قد تهيأت للاستفادة من دعوته ، واتجهت همتهم نحو العمل المثمر الذي هو مرقاة النجاح للسلف بعد الخلف .

ان تهيأة العقول لاحدى حالات الحياة لا يتم عفواً دون تعريض . ولا تكفي الاشارة الصغيرة لجعل الناس يقبلون بقلوبهم وعقولهم على الاخذباسبابها . ويحلونها من نفوسهم مكاناً رفيعاً لا تناله يد الشك بالتهديم ، فلابد من تمهيد السبيل امامهم ، وعرض مناحي تلك الحياة على انظارهم ليروا ما فيها من معاني الحسن والجمال .

ظن دول الاستعمار ان الامم الشرقية فقدت الحياة الانسانية ، فانحطت الى حياة الانعام يستعبدها كل ظالم ، ونسيت ما للشرق من الصولة اذا كشرت له الايام عن انيابها ، وظهرت نوايا المستعمرين الذين ما وضعوا اقدامهم في الشرق الا بنية الاصلاح والمعاونة .

خذلك مثالا ما كتبه يراع احد كتاب الغرب الافرنسيين ونهج منهج الحق بالقول الصريح ، واسمه المسيو ادوار هلسي قال كما ذكرته صحف بيروت ودمشق ما ملخصه :

جميع الناس يعرفون ما هي الانتدابات الحديثة ، فان معاهدة سيفر التي قالت حق للشعوب في ان تتولى ادارة نفسها بنفسها وقد سلخت عن جسم تركيا المقهورة قسما واسعاً من ممتلكاتها التي كانت خلال عصور مديدة باسطة سلطانها على شعوب متباينة واقليات مختلفة ، كانت كثيراً ما تلح في الحصول على استقلالها . وقد كان ينشأ من ذلك ثورات عديدة وفتن بربرية ، وكان يجوز للشعوب الغربية التي مثلت دور المنقذ لتلك الشعوب المضطهدة ان لا تدعي بانها حاملة لواء المدنية ، اذ ان حقيقة الواقع يتنافى مع هذه المظاهر ، فان القضية كانت قضية اقتسام الاراضي والبلاد الشرقية وتوزيعها ، فقد كانت روسيا القيصرية تطمح الى الحوزة على البحر المتوسط بان تضع يدها على الاستانة والبوسفور ، وكانت تحلم بالتوسع

والتبسط في شمال آسيا الصغرى وهذا الذي الجأ الاتراك لدخول الحرب العامة وكانت اليونان في عهد فنزيلوس (عدو الاسلام) مجتذبة برداء مجد قديم كان يدفعه الى الاسراف في الطموح . اما ايتاليا فكانت تكدح كثيراً لتجد لها منفذاً الى قلب ازمير فتجعل منها مستعمرة خاصة . وكان اكثر ما تستهوي انكلترا اليه ذلك الثراء الباهر الذي تنعم به اموال الاراضي الطبيعية في تركيا ، فكانت تجد من مصلحتها تقسيم الحواجز بين تركيا وروسيا . وكذلك كان لفرنسا اطماعها ، ولم يكد الدب يقع على الارض حتى أخذوا يسرعون في اقتسام جلده ، ولكن هذه الغنائم التي وزعت فيما بينهم ثم دخلت الولايات المتحدة كحليفة جديدة بين تلك الدول وقد مثلت امريكا بمهارة دور الوساطة لهذه الغنائم وقبل الحلفاء باجمعهم الانصياع الى انجيل ويلسن الذي يقول بعدم اقتطاع شيء من اراضي الامم المقهورة بحق الفتح ومنذ ذلك وقر في عزمهم ان الشعوب التي عاشت في العبودية اكثر من اربعمائة عام لم تكن جديرة بأن تدرك استقلالها ، لان الاستقلال لم يعد لها ولان هذه الشعوب لم تكن لها مزايا سياسية ولا مرافق اقتصادية ولا وسائط مالية ولا نظم ادارية وان هذه الشعوب في غير شك عاجزة عن ان تتولى نفسها بنفسها . ثم جاؤا الحلفاء يبتدعون تلك السلطة المعنوية التي أسسوها على شاكلة البابابوية العثمانية والتي اطلقوا عليها اسم جمعية الامم فعهدوا اليها ان تكون ساهرة على تلك البلاد التي انتزعت من سلطة (ووقعت في سلطة ادهى وأمر) ولكن جمعية الامم نفسها ما كانت تمثل غير سلطة واهية خيالية عاجزة عن ان تأتي عملا ما بالوسائط التي تحوزها ثم هي كانت تتخلى عن حقوقها وواجباتها لبعض الدول العظمى فمنحت ايطاليا وفرنسة وانكلترا حق الوصاية على البلاد التي نشأت جديداً (بلا استفتاء رغم انف اهلها) يالها من وصايا شاقة شديدة الوقر .

ثم قال ينبغي على كل حال ان لا تكون ثمة مشاكلة بين نظام الوصاية وبين نظام المستعمرات والحماية وقد كان نظام الوصاية في البداية موقوتاً وقابلا للنقض والالغاء اذ قالت المعاهدة التي حددته ما يأتي ان الاراضي المسلوخة عن تركيا تتشكل فيها دول مستقلة وينبغي ان يساعد هذه الدول المستقلة في ادارتها مستشارون

تتخبهم الدولة الوصية أو المساعدة الى ان تصبح هذه الدول قادرة على حكم نفسها بنفسها هذا هو الانتداب عهدوا به الينا في سورية ولبنان .

وقد ذكر أيضاً مقالا رائعاً تحت عنوان انتدابنا في سورية وهل يستحق الاحتفاظ به.أليس من صالحنا أن نعهد به الى جمعية الامم وغير ذلك من الافكار الصائبة والوجدان الصحيح بانصاف هذه البلاد واعطائها حقها المشروع وغير ذلك من النصائح السديدة التي لو سردناها باجمعها لطال بنا المقال ، ختم كلامه بقوله :

ان في البلاد السورية اليوم كثيراً من الاستياء من اعمال بعض رجالنا سواء كان في جبل الدروز أو في غيرها .وان في سورية طوائف من المستحمسين والطامحين والى جانب هؤلاء بدور الصحراء في المدن الكبرى تحلم هذه العناصر المضطربة دائماً بالانتقاض واعلان الثورة بتشويق كثير من المتعلمين والسياسيين الذين ما برحوا الى الآن يتأثرون بتأثرات الدعاية الفيصلية انتهى كلامه .

نقلت من كتاب تاريخ عروش الطواويس الذي وضعه الكسندر باول الاميركي عن احوال بلادنا بعد الاحتلال وما يقال عنها في البلاد الاجنبية .

قال في معرض كلامه عن مأدبة حضرها في قصر الصنوبر في بيروت وصف بها ذلك المكان ومحاسنه ، قال قبل ان تنتهي ساعة الطعام وقف الجنرال غورو على سطحة القصر المشرف على مدخل القصر وعلى منظرة المدافع الرابضه وعليها الحرس السنغالي نظر وقال : اذا كان الفرنسيون يتمتعون في سوريا بالحكم والسيادة ومنافعها فالفضل يعود الى هذا المدفع والى هذا الحرس السنغالي لا الى السياسة الحكمية والادارة الحازمة .

وبالرغم من كل المؤثرات والتشويقات التي يستعين بها الافرنسيون في سوريا لحمل الناس موالاتهم والاخذ بناصرهم وبالرغم من التضحيات الجسيمة التي تقوم باعبائها موازنة الوزارة الخارجية في فرنسا لا يزال السوريون ينفرون من الافرنسيين مثلهم من الاتراك ومن كل دخيل يبسط عليهم سيادته واما اذا تناولنا القضية العربية لنحلل ماهيتها وعناصرها وجب علينا اولا ان نتناول المعضلة السورية لانها أعقد عقدة في المسألة العربية فقد ذهب السوريون مذاهب شتى في

في فهم وعود الحلفاء لهم وتأويلها ولكنهم أجمعوا بأكثريتهم على ان أعظم هذه الوعود هو الاستقلال وان الاستقلال لا محالة هابط عليهم من السماء أو انه (مشحون) مع حقائب الامير فيصل من فرساي هكذا كانت اماني السوريون في خلال السنتين الاولى والثانية بعد الهدنة . وماذا كان بعد لا شيء جديد تحت الشمس حكاية الضعيف مع القوي فقد قرر الحلفاء في فرساي غير ما وعدوا به ومسخوا الاستقلال الذي وعدوا به السوريين به مسخاً فظيعاً ثم حملوه اليهم على حراب السنغاليين وعمدوه باسم الانتداب ووكلوا الى الجنرال غورو حمايته والزود عن حياضه اذا ما طغى على هذا الاستقلال كأبن السعود (ملك الحجاز) وماذا كان بعد احتجاجات ومناورات ؟ واخيراً أرست من فرساي لجنة الاستفتاء لجنة (كنغ كراين) واليك نتيجة أعمالها:

اولا ان ٧٣ في المائة من السوريين طالبوا الحلفاء بوعودهم الاستقلال التام الناجز بدون حماية او وصاية ولكن المجلس الاعلى سبق وقرر وهل كان قراره هذا نزيها بريئاً . . ان السوريين لم يصلوا بعد الى درجة من الرقي والاختبار ليحكموا انفسهم بانفسهم لذلك وجب على فاعلي الخير في أوروبا ان يصونوا هؤلاء القصر ويقيموا عليهم اوصياء راشدين يلقنونهم معاني الحرية والاستقلال فاختاروا لهم ام الحرية فرنسا . . وكيف يعقل ان السوريين وهم شعب مسالم نشيط عرف منذ القدم بجده وتقدمه عمن جاوره من الشعوب وله تاريخه الطافح بالمآثر وله وراثته الروحية نعم كيف يعقل ان مثل هذا الشعب ترجه جمعية الامم في مخالب المستعمرات الافريقية المنسلخة عن الامبراطورية الالمانيـــة ويرضى بنفسه بهذا المصير وماذا بعد . . ولما كان من المقدر المحتم على الضعيف ان يخضع لمشيئة القوي فقد خضع السوريون بدورهم واعترفوا بانهم قاصرون كما شاءت جمعية الامم ان تقول عنهم ولهذا طلبوا الانتداب الاميركي وقد قدم هـذا الطلب ٦ بالمئة منهم الى لجنة الاستفتاء التي كان يرأسها كراين ليس ذلك فقط بل انه في الحالة التي يستحيل بها على اميركا اجابة طلب السوريين .

فان السوريين (١٥ بالمئة منهم) يطلبون الانتداب البريطاني ليس ذلك فقط

بل (وهنا الطامة الكبرى) ان السوريين لم يقبلوا بصورة من الصور الانتداب الافرنسي وقد اعرب عن هذه المشيئة (٦٠ بالمئة منهم) ولهذه الاسباب لم تر لجنة الاستفتاء من الموافق اسناد الانتداب على سوريا الى الجمهورية الفرنسية لكن ما الحيلة مصالح انكلترا اوصلت الحالة في سورية الى ما هي عليه اليوم. ثم قال ونزول جمعية الامم على رغبة ولسون شاءت ان تقدر المجهود الاميركي فلم تر تلك الجمعية من المصلحة والسياسة مقاومة الرئيس ولسن ! وعلى الاقل معارضته في ابتداع اسم جديد للاستعمار فنحت هذا الاسم من قاموس الرئيس واطلقت عليه لقب (الانتداب) وهكذا كان ؛ ورضي الفرنسيون بقسمتهم الضيزى .. مرغمين فاكتفوا بنصف الرغيف السوري ولشد ما كان دهشتهم والمهم عظيمين لما لمسوا في الشعب السوري المسالم الهادىء في زعمهم نفسية وثابة حساسة لا يسكت عن ضيم ولا يزال الموسيو الفيكونت دي كه الى الآن يدعو جمعية الراشدين في جنيف للاطمئنان عن صحة القاصرين وعن مفعول الشربة الانتدابية العجيبة في سوريا ولله في خلقه شؤون .

ثم ختم مقاله بقوله ولنعد الآن الى الشطر الاخير من بيت القصيد . لقد ذهب الفرنسيون مذاهب شتى في تفسير هذا البيت والبسوه حللا مختلفة اللون والهندام وقالو ان لهم على سوريا حقا ولكي نفهم الحقوق الفرنسية على سوريا وجب القول ان الفرنسيين بالرغم من الجهود التي بذلها مبشروهم الاكليركيون بامانة يسوعية في خلال عدة قرون وبالرغم من استخدامهم اللغة الافرنسية كواسطة مباشرة لنقل الثقافة اللاتينية الى اذهان الاحداث من السوريين وبالرغم من انشائهم الاديرة والمؤسسات الخيرية في سوريا وبالرغم من العلاقات التجارية المتبادلة بين الفريقين . بالرغم من كل هذا ؛ المؤثرات التي تدعها فرنسا حقوقا لها لم ينظر السوريون بارتياح الى الانتداب الافرنسي واخيرا بالرغم من كل ذلك تنهض جريدة الماتان في كل صباح وتصيح في جمعية الامم باحرف ضخمة صارخة ان لفرنسا حقوقا على سوريا .

وقد ارتكب الافرنسيون اعظم خطيئاتهم في سوريا لما اوفدوا اليها اساتذة

من المستعمرات الافريقية ليلقنوا السوريين مبادىء الحرية والحكم الذاتي والحياة البرلمانية . وليمثلوا بدمائهم الافريقية ولين عريكتهم الاستعمارية اللطف والذوق الافرنسي السليم . وقد نسوا او تناسوا انهم في بلاد لا يقل اهلوها رقيا وثقافة عن سكان اي مقاطعة من المقاطعات الافرنسية التي يفاخر بها اهلها برقيهم وتفوقهم ومهما حاول الافرنسيون انجاز الاعمال العمرانية الجليلة التي يعدون السوريين بها والتي تعود على البلاد بالنفع المادي لن يوفقوا بمحاولتهم هذه الى ارضاء السوريين واكتساب عطفهم ما دام هنالك نقطة جوهرية لم تتوطد بعد . وهذه النقطة الجوهرية هي سيادة الامة فاين تستقر (أفي قصر الصنوبر ام في جمعية الامم ام في سوريا نفسها) .

قد تكتفي بعض الجماعات من أهلها بالنفع المادي أو العمراني ولكن الجماعات المثقفة والطامحة الى المجد لن تهتم بهذا النفع المادي فقط فهي تعلم ان سوريا عربية وانها حافظت على عروبتها رغم تعسف الاتراك وان اهلها تحدروا من اصلاب البداوة وان الحرية تسري في دمهم ولذلك سيسعون لامتلاك هذه الحرية بالغالي والنفيس . قالت جريدة امريكية مقالا بقلم الكونت كارلو سفورزا وزير خارجية ايطاليا السابق استعرض فيها حوادث الهند والصين ثم قال :

واما الشرق الادنى فمصر تتمخض بشيء عظيم . والعراق تجاهد جهاد الابطال للتخلص من الانتداب البريطاني . وفي فلسطين حركة شديدة يقوم بها الوطنيون ضد الانتداب والصهيونية . واهالي سورية يطلبون معاهدة تناسب مركز استقلالهم وهدف اماني بلادهم المقطوعة لهم من قبل الدول حفظاً لحريتهم . وخلاصة القول ان الشرق يتمخض بحوادث مهمة . ولذلك لا عجب اذا رأينا كبار رجال السياسة في اوروبا وامريكا يبذلون أهم أوقاتهم لصد هذا الخطر المداهم

نحن لا نقول ان سكان الشرق سوف يجتمعون كتلة واحدة ويهجمون هجوما منقطع النظير على اوروبا فيستولون عليها ويجعلونها تحت سيطرتهم . وانما نعني أن الخطر من الشرق اذا قطع علاقته مع الغرب اذا قامت في الشرق نهضة كبيرة فيتمكن من الاستغناء عن مصنوعات الغرب ورجاله ويكتفي بما لديه من مصنوعات

لنتصور ان الهنود تمكنوا بالقوة من أخذ استقلالهم ولم يتركوا اجنبياً واحداً يعيش في بلادهم واعلنوا مقاطعة بريطانيا فماذا يكون حال بريطانيا ؟ .

أين يذهب عمالها العاطلون الذين يعدون بالملايين ، وأين يذهب كبار متعلميها الذين نراهم في كل مكان في الهند وأين تذهب مصنوعاتهم ؟

واذا تمكنت الدول العظيمة من ان تستولي على قسم من الشرق الآن بقوة الحراب والدهاء فانها لم تتمكن من ذلك غداً .

وهناك فريق من السياسيين يقولون :

ان احسن وسيلة لسد هذا الخطر هو رفع الكابوس الاوربي عن نير الشرق وكسب مودته وصداقته . وبذلك تظل العلاقات متينة الاواصر ، ويظل الغرب آمناً على مستقبله ما دامت بينه وبين الشرق صلة مودة متينة . ولكن فريقاً آخر من السياسيين يقول ان الغربي سام الشرقي سوء العذاب قروناً عديدة ، فاذا تمكن الآن من الاستقلال فسيظل يترقب الفرص ليأخذ بثأره .

ويحاول المسيو بريان ان يصد الخطر الشرقي المقبل بجامعة أوروبية ، وهو يبشر بهذه الفكرة في كل مكان ، ويحاول أن يجد له انصاراً ، ولكن هذه الفكرة غير ممكنة التنفيذ عملياً .

أما اذا قلنا جامعة شرقية ، أو جامعة اسلامية ، أو جامعة عربية ، فهذه ممكنة التنفيذ ويسعى واضعوا هذه الفكرة سعياً حثيثاً لاخراجها الى حيز العمل وأما (جامعة أوروبية) فقد حق على المسيو بريان بعد درسها عشرة اعوام ان يعلم بانها حلم يجول في الافكار وعلى اصدقائه أن ينصحوه بان يعدل عن التغني بها .

ومما يدل على تخوف الاوروبيين ولاسيما بريطانيا من انتقاض الشرقيين عليهم ما نشرته جريدة التيمس بتاريخ ١٨ مايو المنصرم وهو : « يمكننا ان تمنح الدول الشرقية استقلالها ويمكننا ان نعقد معها معاهدات صداقة لمدد معينة ولكنه لا يمكننا ان نقطع معها صلاتنا البتة وان واجب بريطانيا الاول ان تسعى منذ الآن الى تثبيت مراكزها الاقتصادية والتجارية في البلاد التي تمنحها جانباً من

الحرية فهذه البلاد اذا ابتعدنا عنها يمكنها ان تجد لها من يؤازرها غيرنا ولكننا نحن لا نجد من يؤازرنا غيرها .

وليس ما تقوله التيمس بالامر الجديد فلقد كان المستر تشامبرلن نبه الحكومة البريطانية الى هذه النقطة ذات الاهمية العظمى وكثيراً ماكان يقول في مجلس النواب : « اجعلوا علاقاتكم مع الشرقيين حسنة ولا تسيئوا اليهم فتندموا . . »

نشرت الف باء في ٢٧ آذار سنة ١٩٣٠ في عددها ٢٧٨٩ تصريح خطير لافرنسي عن سياسة فرنسا في سوريا قال :

أدلى المسيو « بينار » عضو جمعية حقوق الانسانية البارزية بعد ان زار سوريا واطلع على حقيقة سياسة دولته فيها بتصريحات خطيرة عربتها الرصيفة (اليوم) المصرية كما يلي قال :

ان للافكار الحرة الفرنسية ، سيما الفكرة التي تمخضت بها الثورة الفرنسية ، اكبر تأثير في الأمم المستعبدة .

طلب منا تحقيق المبادئ الكبيرة الحرة بتحرير الافكار واقامة المنشآت التي تحافظ على المصلحة العامة ، ضد المصلحة الشخصية ، فلم أر ى في اعمال السياسة الفرنسية في سوريا ، ما ينطبق على هذه الفكرة ، ولهذا ، قد أفلس افلاساً نهائياً !

لقد ارتكبت فرنسا في تطبيق سياستها السورية اخطاء كثيرة ذلك انها لم توجد بين العناصر السورية المختلفة ، بل عملت على تفرقتها واجتهدت حتى قسمتها على نفسها بالقوة دون ارادة الشعب الى خمس دويلات متبعة بذلك المبدأ السياسي الذي تسير عليه الآن وزارة الخارجية وهو (فرق تسد) !

لقد اوجدت فرنسا دولة لبنان الكبير ، والحقت بها منطقة طرابلس ، ذات الاكثرية الساحقة في هذه المنطقة الاسلامية ولذلك ليس من الممكن ان تهدأ الحركة في البلاد الملحقة حتى نهاية الانتداب .

وكان يجب على السياسة الفرنسية لسورية ان تمنح البلاد حكومة داخلية حرة تسيطر على الادارة المحلية وتشرف عليها بنفسها غير اننا لم نكن مع الاسف

مستعدين لتطبيق هذا الانتداب نظراً لافتقارنا الى الرجال الفنيين الذين يمكنهم وحدهم مباشرة هذا التطبيق .

نحن نعلم ان انتدابنا على سوريا هو وقتي ولكنه لم يحدد بعد . فالفرنسيون يتهمون السوريين بانهم يودون تجاهل الانتداب ورفضه والسوريون ينسبون الى الفرنسيين رغبة البقاء في بلادهم الى أجل غير مسمى ولا محدود . . ولقد كان لهذا الموقف نتائج غير مرضية بين الطرفين .

ولقد فكر الفرنسيون أن يشغلوا الرأي العام السوري بالمشاريع الاقتصادية لينسوا قضيتهم السياسية ولكن السوريين لم ينسوا ولن ينسوا .

نحن لم تكن لنا فكرة موضوعة أو خطة مرسومة ونستطيع القول ان فرنسا لم تستفيد من سورية شيئاً — و فلماذا هي باقية اذن ؟ ؟) لا لشيء سوى أن بعض الشركات الفردية التي نالت امتيازات خاصة ، ربحت وستربح منها كثيراً . واذا قدر للانتداب ان يدوم بضع سنوات أخرى فستقوم بخدمة كبرى لهذه الشركات الفردية وحدها ولكننا لن نترك من الآثار في البلاد غير النقمة الشديدة والبغض المتأصل .

لقد قنا والحق يقال بانشاء بعض الطرقات غير ان اكثرها انشيء لضرورة حربية . اما المنشآت الحديثة والمشروعات الزسمية ، فهذه لا وجود لها .

وقد علقت جريدة (اليوم) على هذه التصريحات بقولها :

هذا مجمل ما قاله المسيو (بينار) عضو جمعية حقوق الانسان الباريسية ، في سياسة دولته حيال سوريا ونحن نأمل ان يعني برأيه احرار فرنسا وان ينظروا الى سوريا والى القضية السورية بعين غير التي ينظرون بها الى الكونغو وبلاد السنغال .

كانت احدى الجرائد المحلية بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني ١٩٢٩ نشرت نص معاهدة زعمت انها ترجمة النص الاصلي للاتفاقية الموقتة المشهورة بمعاهدة كليمنصو — فيصل الموقتة في باريس عام ١٩٢٠ .

وقد تحرى الكاتب الصحفي السيد عبدالقادر القواص على نص المعاهدة الآنفة

الذكر (باللغة الفرنسية) حتى تيسر له وقوعها بيده فترجمها الى اللغة العربية، فاذا هنالك تناقض بين واختلاف صريح ومغايرات مشوهة في النصين الفرنسي والعربي بحسب ما أدرجته الجريدة المذكورة — وهذا ما يجعلنا نشك في الامر ما فيه من سوء النية والتعمد المقصود والتلاعب بالالفاظ التاريخية الثابتة الواضحة وقد أدهشنا وجعلنا في حيرة وأي حيرة اضافة مادتين (من عنديات مترجم الجريدة) على اصل المهدة بلغة الفرنسيس ، فهي ست مواد ، كما في الأصل ، ولكنها في التعريب المنوه عنه [المزيف] ٨ موادفمن اين جاءت هذه الزيادة يا ترى؟

نترك الجواب على ذلك لفرصة اخرى وننشر فيما يلي نص الترجمتين ، الاصلية ثم المزيفة ، ليطلع عليهما القارئ وليحكم بعدئذ وعلى التاريخ أن يسجل !!

وثائق تاريخية ، النص الصحيح ، اتفاق موقت

عطفاً على التصريح الافرنسي الانكليزي ٩ نوفمبر ١٩٢٨ من جهة واستناداً على المبادئ العامة لتحرير الشعوب والمعاونة الودية المعلنة من قبل مؤتمر الصلح من جهة أخرى ، تؤكد حكومة الجمهورية الافرنسية بحق الاهالي الناطقين باللغة العربية والقاطنين في الاراضي السورية من سائر المذاهب في ان يتحدوا ليحكموا أنفسهم بانفسهم بصفتهم أمة مستقلة .

يعترف صاحب السمو الملكي الامير فيصل بان مصلحة الاهلين للسوريين الكبرى — نظراً لاختلال الكيان الاداري الناشئ عن الاضطهاد التركي والخسائر اللاحقة بالبلاد اثناء الحرب — تتطلب تحقيق وحدتهم وتنظيم كيان الامة الاداري بالالتجاء الى النصائح والمعونة التي ستسجل في جمعية الامم عندما تتألف هذه الجمعية بصورة عملية فهو باسم الاهالي السوريين يطلب هذه المهمة من فرنسا .

١) — تتعهد الحكومة الافرنسية بان تمنح معونتها لسوريا ، وان تضمن استقلالها ضد كل تجاوز ضمن الحدود التي سيعترف لها به مؤتمر الصلح . وفي تعيين هذه الحدود ستبذل الحكومة الافرنسية جهدها لنيل جميع التعديلات الحقة من الوجهة الجنسية واللغوية والجغرافية .

٢) — يتعهد صاحب السمو الملكي الامير فيصل بأن يطلب من حكومة الجمهورية الافرنسية، ومن هذه الحكومة وحدها، المستشارين والمديرين والموظفين الفنيين اللازمين لتنظيم الادارتين المدنية والعسكرية. وسيرضع هؤلاء المستشارون والفنيون تحت امرة الحكومة السورية التي منها يتقبلون تعيينهم وقوائم التنفيذية التي ستحدد باتفاق مشترك بين الحكومتين بموجب عقد ينص على مدة مهمتهم والضمانات المتعلقة بها.

ان حكومة الجمهورية وصاحب السمو الملكي الامير فيصل متفقان على تطبيق نظام دستوري في سوريا ضامن لحقوق الاهلين السياسية ومثبت الحريات المكتسبة سابقاً ومطابق لامانيهم المتضمنة انشاء حكومة مسؤلة امام البرلمان.

وتوصلاً للتنظيم المالي الذي هو القاعدة الاساسية لادارة الدولة الجديدة، يشترك المستشار المالي في اعداد ميزانية النفقات والواردات ويبلغ اجبارياً جميع التعهدات النفقات لمختلف الدوائر ويراقب حصة سوريا من الديون العامة العثمانية ويكلف بالمسائل المتعلقة بتطبيق الشروط المالية في معاهدة الصلح مع تركيا في سوريا

اما مستشار الاشغال العامة فتكون الخطوط الحديدية تحت اشرافه، ويحترم النظام الخاص المتعلق بسكة حديد الحجاز. وكل تصرف يغير السير الاقتصادي للخطوط الموصلة الى دمشق لمصلحة شخص ثالث يعد لاغياً وكأنه لم يكن.

وعقب انعقاد الاتفاق الحاضر تمنح الحكومة الافرنسية معونتها لاجل تنظيم الدرك والشرطة والجيش.

يعترف صاحب السمو الملكي الامير فيصل للحكومة الافرنسية بحق الاولوية التامة بالتعهدات والقروض اللازمة لخير البلاد ما لم يتقدم وطنيون يطلبون هذه المشاريع لحسابهم ولا تكون اسهامهم معارة الى رأسماليين اجانب.

٣) — ستمثل الدولة السورية في باريس لدى الحكومة الافرنسية بمندوب سياسي مكلف بملاحقة المسائل الخارجية التي تهم الامة السورية.

وتعهد الدولة المذكورة ايضاً الى ممثلي فرنسا السياسيين وقناصلها في الخارج بتمثيل مصالح سوريا الخارجية.

٤) — يعترف صاحب السمو الملكي الامير فيصل باستقلال وسلامة لبنان تحت الانتداب الافرنسي .

وستعين الحدود في مؤتمر الصلح ويؤخذ هـذا الامر بعين الاعتبار لاتمام حقوق ومصالح واماني الاهلين .

٥) — اللغة العربية معترف بها كلغة رسمية للادارة والمدارس اما اللغة الافرنسية فتدرس بصورة اجبارية وممتازة .

٦) — دمشق تكون العاصمـة ومحل اقامة رئيس الدولة . اما المفوض السـامي ممثل فرنسا فيختار له مقراً عادياً في حلب ليكون بهذه الصورة على مقربة من كيليكيا وهي منطقة الحدود التي تعد النقطة الطبيعية لجيوش الدفاع المتجمعة . واذا أوجب الامر لدعوة هذه الجيوش الى الداخل فلا يكون ذلك الا بطلب رئيس الدولة السورية بالاتفاق مع المفوض السامي .

يبقى هذا الاتفاق الذي يعين المبادئ العامة مكتوما بين الفريقين حتى توقيع الاتفاق النهائي والمفصل الذي سيوضع نصه عند رجوع صاحب السمو الملكي الامير فيصل الى فرنسا ويعرض في الوقت الموافق على مؤتمر الصلح .

نظم عن هذا الاتفاق نسختان في ٦ كانون الثاني سنة ١٩٢٠ .

التوقيع : كليمانصو فيصل

« التحارير المربوطة المتبادلة من ٢ الى ٦ كانون الثاني ٩٢٠ عن لبنان (أن الاقليات ستستفتى عند تعيين الحدود) وعن حوران (يطبق فيه نظام استقلال نوعي داخل في الدولة السورية) وعن بيروت والاسكندرونة (تكونا مدينتين حرتين) .

ومن قراءة هذه الاسباب وغيرها المعلومة عند كل انسان ظهرت الثورة في جبل الدروز وتفاقم امرها وتحول شكلها كما اسلفنا لك ذلك في محله والآن نسرد لك مطالب السوريين في مصر على اختلاف احزابهم ليظهر لك مطالب القومية الوطنية المشروعة لروح البلاد ومحافظة حقوق الشعب وقد اعطى ذلك الطلب الى مفوض دولة فرنسا في البلاد السورية المسيو هنري دي جوفنيل المرسل حديثاً

لحل المشاكل السورية المضطربة التي اوقد نارها سلفه الجنرال سرايل لحقه وجهله ادارة البلاد التي تدار بموجب الانتـــداب المعطى لها من قبل الدول وهذا نص التقرير الهام .

ليست الحركة المنتشرة الآن في سورية سوى مظهر جديد من مظاهر العقيدة الوطنية العامة القائمة على مبدأ الجامعة القومية والاستقلال الضامن للكيان القومي بجميع مظاهره شأن كل أمة كاملة الخصائص ويكفي ان نلقي نظرة سريعة واحدة على تاريخ هذه الحركة الحديث لكي تتبين لنا القواعد العمومية التي يمكن ان يبنى عليها حل مرضي للمشاكل الناشئة الآن .

ليس التنازع الذي كان موجوداً بين العنصرين العربي والتركي في السلطنة العثمانية بخاف على من له المام بتاريخ تركيا الدستوري الحديث فقد اصطدم بمبدأ القومية التركية الذي نشره رجال تركيا الفتاة بعد اعلان الدستور العثماني على الرغم مما كان للعرب من المساواة التامة مع الترك امام القانون من جميع الوجوه وكان من جراء ذلك ان الجمعيات العربية عقدت مؤتمرها المشهور في باريس سنة ١٩١٣ للتوسع في تنظيم الحركة العربية ووضع المسئلة العربية بين امهات المسائل التي تقتضي الحل في تركيا . فشعر الترك بخطر الموقف وحاولوا تلافي الامر بالتساهل مع العرب والاعتراف لهم ببعض ما كانوا يتطلبونه ، فاصدروا ارادة سلطانية باجابة تلك المطالب . ولكن العرب لم يرضوا عنها ، لذلك كان هم الترك ان يغتنموا فرصة الاحكام العرفية اثناء الحرب الكبرى للقضاء على المسألة العربية ، فساقوا زعماء الحركة الى مجلسهم العرفي في عاليه «لبنان» واقتصوا منهم بان اصدروا حكم الاعدام على اكثرهم ، وتنفذ الحكم في ساحتي دمشق وبيروت العمومتين ولكن العرب وفي مقدمتهم السوريين لم تفتر عزائمهم فلما يئسوا من الترك ساروا مستعدين لاستمالة الحلفاء لهم الى مساعدتهم على دولتهم توسلا لاستقلالهم فلما نالوا من الحلفاء عامة ومن انكلترا وفرنسا خاصة وعوداً عديدة باستقلالهم حمل الوفا منهم على التطوع في جيوش الحلفاء وثار امير الحجاز على السلطنة العثمانية وتألف جيش خاص بزعامة اولاده لمقاتلة الترك وانتهى

الامر بفوز الحلفاء وشهد اللورد اللنبي الانكليزي نفسه في أحد تقاريره بالفضل العظيم الذي كان للحملة العربية في انتصاراته في بيت المقدس وفلسطين ضد الترك .

ولكن الغرض الاساسي الذي تكبد من اجله السوريون خاصة والعرب عامة لجميع هذه الضحايا لم يتحقق مع الاسف منه شيء وقد كانوا يعلقون آمالا كبيرة على مبدأ حق تقرير المصير الى ان جاءت اللجنة الامركانية الى سورية ووقفت على ارادة الاهالي في مصيرهم ثم سافر الامير فيصل الذي كان يحكم المنطقة الداخلية الى سورية باسم القائد البريطاني العام الى اوروبا ووصل الى تفاهم مع الوزارة الخارجية لتنظيم دولة سورية وتعيين علاقات فرنسا بها وعاد املا ان يحمل اهالي البلاد على قبول هذا الاتفاق ولكن لم يكد هذا الاتفاق يعرف حتى ثارت عليه ثائرة الاحزاب واجتمع مؤتمر سوري نادى باستقلال البلاد التام ووضع دستوراً لها واقام حكومة ديمقراطية بادرت في الحال الى تنظيم الادارة وعاشت خمسة اشهر برهنت في خلالها على ما قامت به من تنظيم فروع الادارة واقرار الامن ووضع اساسات الرقي العلمي والاقتصادي على ان السوريين لا يقلون كفاية عن كثير من الامم المستقلة في اوروبا . ولكن السلطة الفرنساوية لم تمهل هذه الحكومة فجهز الجنرال غورو حملة عسكرية اقتحم بهـا دمشق والمدن الداخلية الاخرى واحتل البـلاد والغى استقلالها وجيشها الفتي وبادر الى وضع اسس جديدة للادارة برأيه الشخصي ولكن الحركة الوطنية لم تسكت بل ظلت مستمرة في الشمال بقيادة هنانو احد الزعماء الوطنيين في حلب ودامت من سنة ٩٢٠ الى ٩٢١ وظهرت في الوقت نفسه حركة حوران على اثر احتلال دمشق دامت ستة اشهر ثم ظهرت الثورة الاولى التي قام بها سلطان باشا الاطرش في سنة ٩٢٢ ودامت ستة اشهر وكانت الادارة الفرنساوية في سوريا في خلال ذلك مضطربة لا تستقر على حال ففي أواخر سنة ٩٢٠ فرق الجنرال غورو البلاد الى خمس دول لكل منها حكومتها وعلمها ثم الفت حكومة الحلف السوري سنة ٩٢٢ وجمعت فيه بين حكومة دمشق وحلب وبلاد العلويين ولكنها رأت بعد ذلك مرة اخرى ان تضيق نطاق هذا الحلف ففي سنة ٩٢٣ عدلت عن النظـام

القديم وفصلت بلاد العلويين عن تلك الوحدة والفت الدولة السورية من حكومتي دمشق وحلب السابقين فقط .

ولم يكن هذا الحلف ايضا مرضيا لاحد بوجه من الوجوه فعندما ظهرت الثورة الحالية بادر زعماؤها الى اعلان مطالبهم بمنشور اذاعوه بكل ما لديهم من وسائل الاذاعة وتناقلته الصحف وهو يعيد اسس الحكومة التي وضعها المؤتمر السوري في دمشق سنة ١٩٢٠ تحقيقا لرغبات الامة باسرها . ولا بد لنا من الاعتراف بان الظروف الحالية في سوريا تتضمن عوامل وحقائق جديدة تستحق ان توضع موضع الاعتبار فاذا كان يراد وضع حل للمشاكل الحاضرة يبنى على الاخلاص والرغبة الحقيقية في التفاهم فلا نظن ان سوريا تأبى ذلك ولكن ليس في وسع احد في الوقت نفسه ان يشير باي حال كانت ماضي الحركة الوطنية في سوريا والدماء التي اهرقت من اجلها والجهود التي بذلت في سبيلها والضحايا العظيمة التي جاد بها اهل البلاد من اجل اغراض الحركة الوطنية الحقيقية هي التي تحترم وطنية الآخرين كما كانت تحترم نفسها . واذا سئلنا رأينا في هذا العمل بصفة احزاب تعمل لتحقيق المثل الاعلى الذى تنشده البلاد لا نستطيع سوى ان نبرز براجنا الاستقلالية ونطالب تحقيقها فاذا كان يراد بالحل المطلوب اعادة السكينة الى البلاد السورية نرى ان تتخذ القواعد التالية اساسا للبحث .

١ — تتألف الدولة السورية من جميع الاراضي التي وضعت تحت الانتداب الفرنساوي واما لبنان فيجب ان يستفتي جميع سكانه في الانضمام الى هذه الدولة او الانفصال عنها استفتاءاً حرا .

٢ — تؤسس حالا في البلاد حكومة وطنية موقتة حائزة على ثقة الامة تباشر الانتخابات للجمعية التأسيسية .

٣ — تدعى جمعية تأسيسية لاجتماع مؤلفة بالانتخاب العام المباشر وهذه الجمعية تقرر نظام البلاد الاساسي على مبدأ السيادة القومية في الداخل وفي الخارج

٤ — يلغى الانتداب وتحدد العلاقات بين فرنسا وسوريا باتفاق الى مدة معينة يحافظ فيه على مبدأ السيادة القومية ولا يعد مبرما الا بعد موافقة البرلمان السوري عليه .

٥ — يسحب جيش الاحتـلال من اراضي الدولة السورية حالما تؤسس الحكومة الوطنية الموقتة .

٦ — تسجيل الاتفاق لدى عصبة الامم ودخول سورية في عـداد اعضاء هذه الجمعية .

فاذا كانت الحكومة الفرنساوية تجد في هـذه المبادىء العامة اساساً صالحا للتفاهم فنحن نرى ان تصدر تصريحا بذلك وان تنتدب هيئة من قبلها تجتمع بهيئة تمثل القائمين بالحركة الوطنية وتضع الهيئتان بالاتفاق بينهما قواعدتوقيف القتال والاساليب اللازمةلتطبيق هذه المبادي وهاك نشرة تاريخية وزعتها الجمعية السورية المنعقدة في باريس على اعضاء مجلس النواب والاعيان وهذه صورتها . ها قد مضت اعوام ستة والحرب ما تنفك تخرب سورية باسرها فمن جهة الجنوب كانت انطاكية والقصير ومن الشمال تمرد مرجعيون ثم تأتي ثورة الشيخ صالح في جبل النصيرية فتلكلخ فبعلبك وحماة فتمرد حوران واخيرا الحرب الحاضرة في جبل الدروز وانتشارها في جميع انحاء سورية اي ان الدماء لم تنقطع عن الهدر في يوم من الايام في ذلك الوطن الشرقي وانا لنرى الرأي العام الفرنسي اليوم مهتما اكثر منه في كل وقت بامر الاطلاع على مايجري في سورية والوقوف على منشأ ذلك بيد ان الجمعية السورية العربية لم تنفك منه بعيد عن لفت انظار الحكومة الجمهورية والبرلمان الى الاسباب الحقيقة التي انتجت هذه التظاهرات الدموية التي ترى في هذه الايام .

مثل الحرب في جبل الدروز كمثل جميع الحروب التي سبقتها اي ان لها نصيبها الصحيح من انخداع هذا الشعب السوري الذي لا هم له غير العيش حرا طليقا في بلاده ولذا يكون الخطأ بمكان عظيم ان يبحث الباحث في اسبابها بصورة منفردة خاصة فيرجع الخطأ الى المفوض الفلاني والمستشار الفلاني الا ان نظام الحكم هو الاصل والسبب فيها وكذلك السعي لتطبيق هذه القاعدة المستحيلة والمتنافرة المسماة بالانتداب على شعب يتوق للاستقلال وهو اهل له ولقد آن الوقت وحان لسماع صوت هذا الشعب الذي ترى ما هو اصل جميع الآلام التي تشكو منها سورية .

ان هذا الحكم التهديدي الذي يظهر جليا في عسف الاحتلال العسكري وفي نظام الاحكام وفي طريقة الادارة مباشرة .

اما الاحتلال العسكري فهو شيء لا يخلو في عين امة فتية ناشئة , لاقت ما لاقت من فجائع الحرب العالمية وهي تنشد لنفسها منزلتها بين الامم بل هو لا يتفق فكرة الملكية والاستقلال , ولا يلتئم مع ادارة الحق والعدل وعلى طرفي نقيض من اصول الحق الشخصي ان الرؤساء العسكريين المستعمرين ومساعديهم يقومون بامور الامر والنهي في طول البلاد وعرضها اي بديل الحكام الوطنيين .

وهؤلاء الحكام على الاغلب اناس خبثاء مهينون اختيروا من بين ادنياء عائشين على حساب الامة السورية . وتراهم يركضون وراء منافعهم الخاصة مضحين منافع الوطن ليتم لهم ما ينشدونه من تمكين اطناب مراكزهم , والحصول على رضاء السلطات المحتلة .

ثم ان هذه الحكومات لبثت زمنا طويلا تسير من قبل موظفين عسكريين يتخذون من وظائفهم سلطة , تخولهم حق التدخل في كل امر وشأن وتبعث في نفوسهم وهم القدرة الملتوية على معالجة امور الحاكم والشرطة وغيرهما . نعم ربما تسنى لهؤلاء الحكام ان يكونوا ابطالا من العسكريين ولكن تراهم بقدرتهم العسكرية التي تجاوزت الحد يعدون في اسرع ما يكون حكاما مستبدين من هنا نتجت الاضطرابات التي نسعى اليوم لمعرفة الشخص الذي يستحق اللوم عليها ويكون المسئول عن الحرب الحاضرة . بل من هنا نتجت الاضطرابات التي اوقدت نيران الثورات المعروفة منذ عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٢٥

وان ننسى لا ننسى ان نشير الى هذا النوع الآخر من الادارة مباشرة , ذلك الذي يقوم في المحاكم المختلطة , والذي احتج عليه جميع السوريين في حكوماتها والمحامين في بيروت ودمشق وحلب والعلويين . ترى ما هو الدواء الناجع لانقاذ هذا الوطن الذي يشكو بأنه للوصول الى السلام , الذي طالما نشد في فرنسا وسورية ان الدواء سهل ايجاده وذلك بارجاع ملكية سورية وحقوقها المهضومة

ووحدتها المفقودة ، وانواع حرياتها المغتصبة . وبعبــارة اوضح [سورية للسوريين] . واعطاء السوريين حق العيش في ظل حياة حرة مستقلة يعود بالنفع الجزيل والمصلحة العامة على البلدين .

هنا عندما تتخلص سورية من العراقيل التي تعترضها ، تستعيد ملكيتها كلها ، وتستطيع الوصول الى حياة سلم حقيقي فتؤلف بنفسها قانونها الاساسي وتستعيض عن نظام الامر والحكم المطلق بنظام قانوني اساسي . وبعدئذ تمديدها الى محالفة او معاهدة حبية فتعقدها مع فرنسـا من حيث تكون جميع مصالحها محفوظة مؤمنة بهذه الواسطة وحدها تستطيع فرنسا ان تضع سدا منيعا لهذه (البروبا غنده) المشئومة التي يسعى اعداؤها سعيهم كي يلصقوا عارها باسمها كما ان نفوذها يغدو اكثر وضاءة وجمالا ، ويظل مشعاً متلألئا في جميع بلاد الشرق على الاطلاق .

وقد دونت الجامعة السورية الفلسطينية في مصر كتابا خاصــاً ، جمعت فيه تاريخ نكبات سورية من اولها مفصلة ذلك تفصيلا دقيقا ، وبحثت فيه عن الداء والدواء . فوجدنا ان نقتصر في كتابنـــا هذا عن كثير من الابحاث الطويله بالمقدار الذي ذكرناه .

ان السياسة الافرنسية المتبعة منذ بضع سنوات في القضية السورية لم تثمر لسوء الحظ الا زعزعة ثقة السوريين بروح فرنسا الحرة واثارة الاضطرابات التي كلفت بلادنا كثيرا من المال ومن الارواح .

ويعود السبب في ذلك الى نظام الانتداب الذي سن علينا ظلما وبدون حق والذي رفضنا الاعتراف به ، وسنتابع رفضنا قبوله لانه ينتهك حرمة سيادتنـا القومية التي يحق لنا بما فينا من كفــاية لنتمتع بها اسوة بسائر شعوب الشرق وشعوب اوربا ايضا التي لا تفوق شعبنا مدنية وثقافة .

ان ما تزعمه السلطات الافرنسية لتبرر تأييد الانتداب ، من ان هذا الانتداب هو عهد الدول لفرنسا هو خطأ من الاساس بل ان قانونية الانتداب نفسه مختلف فيها لان تركيا التي كانت تحكم سوريا قد تنزلت في عهدة لوزانــ عن حقها في

البلدان المنسلخة عن السلطنة العثمانية لهذه البلدان نفسها اي للبلدان التي انسلخت معها سوريا من تركيا وليس في فهم كلمة « البلدان المنسلخة » اقل مجال للالتباس لأن عصمت باشا رئيس الوزارة التركية قد صرح يوم كان رئيسا للوفد التركي في لوزان ، صرح علنا قبل التوقيع على المعاهدة المذكورة بان تركيا تترك الاراضي المنسلخة عنها للسكان انفسهم .

ولم يعترف هؤلاء السكان يوما بالانتداب بل انهم يصرحون ابدا بانهم يريدون ان يعيشوا في بلادهم أحراراً ، وهب ان الانتداب يقضي على فرنسا بتعهد دولي ولكنه موقت بموجب البند الثاني والعشرين من قانون عصبة الامم ، فهذا لا يمنع فرنسا من الوجهة القانونيه ان تنهي تعهدها اذ تعترف باهلية سوريا لان تحكم نفسها بنفسها وانها جديرة بالاستقلال .

ونزيد على ما تقدم ان سوريا مستعدة بدون انتداب وهذه جمعيتها المؤسسة التي اوقف ممثل فرنسا أعمالها تردد قولنا ، ان سوريا مستعدة للاشتراك في جميع العهود الدولية التي ستبرم بموافقة الامم عليها .

أما المصالح التي ستكون لفرنسا في سوريا فقد صرحت بلادنا بلسان جمعيتها المؤسسة بانها مستعدة للاعتراف بها طالما هي لا تعاكس سيادتنا القومية .

ولهذا سعت الجمعية المؤسسة لعقد معاهدة بين سوريا وفرنسا يعترف فيها بسيادة سوريا من جهة وبمصالح فرنسا من جهة ثانية .

وبدلا من القول بحل كهذا يوثق عرى الصداقة بين البلادين ، أجل ممثل فرنسه اعمال الجمعية المؤسسة تاجيلا غير معين مما يدل لسوء الحظ على نية الرجوع الى سياسة الارهاق الماضيه ، بالرغم من جميع الخطوات التي خطتها سورية الى التفاهم وقد فهم الجميع سياسة الماضي وما جرته من الخسائر مما ينذر ان تجر البلاد الى اليأس الذي لا يثمر عادة اعمالا طيبة :

اننا نناشد رشد الشعب الافرنسي وتجرده ، هذا الشعب الذي تمثله يا حضرة النائب راجين ان تبذلوا جهودكم لتحملوا الحكومة الافرنسية على الاعتراف

بسيادة سوريا القومية ، وهى الطريقة الوحيدة التي تحل بهـــا القضيه السورية فتنقذوا بذلك سمعة فرنسة الطيبة وتكتسبوا عطف البلاد العربية وتوفروا عن بلادكم تضحيات جمة .

شكوى الافرنسيين دليل حيرتهم

للافرنسيين ذهنية خاصة في ادارتهم وموقفهم تجاه الوضع الحالي في سوريا . فالذي يحدث جماعة الاحرار منهم ، يجدهم متألمين من قبولهم الانتداب وتقيدهم بمراجعة عصبة الامم . لانهم يعلمون ان وجودهم في سوريا ليس لمصلحة السوريين ولكن لمصلحة الرأسماليين ويعلمون ان اشراف العصبة هو ستار لاخفاء مطامع الرأسماليين الدولية ، فهو مقصود لتحقيق تلك المطـامع وليس مقصوداً لتحقيق الاستقلال الموعود . فلماذا تتحمل فرنسة باسم المدنية والانسانية هذا العبء لارضاء من لا يهمه امرها ؟ ولماذا يطبق الاستعمار في بلاد اهلوها اهل للاستقلال ؟ اذاً إما امساك بمعروف يرضي به السوريون ويأول الى اسعاد امتهم واستقلال بلادهم في زمن محدود ، وإما تسريح باحسان فتخرج فرنسة بشرفهـا ورضائها . وخير لنا ولها ان نكون حلفاء ، لأصدقاء ناصرونا وقت الشدة ، من ان نكون اعداء لهم يحاربوننا بالرغم عنهم في كل وقت ، وتتكلف المال والرجال لمعاداتهم واكراههم على ما لا يرضون .

والذي يحدث المستعمرين منهم ، يجدهم متألمين ليس من قبولهم الانتداب ، ولا من تقيدهم بمراجعة عصبة الامم ، ولكن من الوضع الحاضر المضطرب الذي لم يتفق ومصالحهم او لم يحقق تماماً تنفيذ خططهم التي هى الوسيلة الوحيدة لاشباع مقاصدهم ، ومقاصد الرأسماليين . والحقيقة ان كل من تحدث الى ممثلي هذه الفئة : الموظفين في سوريا ، او الذين ارسلوا اليها للتفتيش والتدقيق ، يشعر بأن محاولتهم في تبرير موقفهم وانتقاد موقف الوطنيين لا يخرج عن الشكوى من كثرة التجارب التى اضطروا لتطبيقها ففشلت . ومن عناد الوطنيين وعدم وثوقهم بحسن نيات السلطة الافرنسية . ومن عدم تقدير السوريين لخدماتهم واصلاحاتهم،

ومن دوام الاحتجاجات والثورات واضطرارهم للمقاومة بالسلاح ويقولون لك : ان الوطنيين مفرطون في مطاليبهم فيجب عليهم الاعتدال ، وان فرنسة جاءت لتنفيذ الانتداب والقيام بتعهداتها تجاه عصبة الامم . فلو اقرت الدستور كما وضعه المجلس التأسيسي لكانت مسؤولة امام الدول اذ يبطل انتدابها وعندها يجب ان تسحب جيوشها وتخرج من سوريا . وبعضهم يشتكي من استعجالنا الحوادث وعدم تقديرنا للظروف المجبرة ومن كثرة الاحزاب عندنا والطوائف

هذه هي شكايات الافرنسيين الصـــادرة عن الذهنية الاستعمارية . وكما ترى تدل على حيرة في الوضع الحاضر الذي يحوي مقاصد خفية وخططا تنفيذية . فهل هم على حق وما هو جواب السوريين عليها ؟ وهل للفريق الثاني مثل الفريق الاول شكايات عامة ؟

اننا اذا وضعنا الفرضيات الموهومة والنظريات الخيالية ، ورجعنا الى التقادير الملفقة ، والجاسوسة الساقطة والاحزاب المصطنعة واردنا معرفة الحق والجواب على دعوى المستعمرين اضعنا الغاية وضللنا في الحكم لان فهم الحقائق لا يتأتى الا عن طريق التجرد والنزاهة والنظر الى القضايا بمنطق الحوادث والعقل الراجح

اما انهم على حق فتكذبه اعمال | الانتداب | التي طبقت منذ احدى عشرة سنة والتي يجب نشرها وبيانها بصراحة ليعلم القوم وتعلم الاجيال الآتية ما هية الارشاد ونتائجه . واما ان للفريق الثاني شكايات عامة فشيء لاشك فيه وهي كثيرة اعلنت مراراً وجهاراً ولكن القوم مع علمهم بها يقولون لك ما تقولوه ، ويعجون عن مواجهة الحقائق ومداواة الامور بروح الانصاف . ولو كان للقائمين بالامر ان يخرجوا من حيرتهم ويوفقوا بين مصالحهم ومصالح الامة لهان عليهم ذلك عندما يؤمنون بان : العلاقات البشرية متى روعي فيها مبادئ الانصاف القائلة باحترام ما لكل امة من حق الحياة والعمل لتعيش بكسبها حرة شريفة دون اضرار بغيرها وترتبط مع من يبادلها النفع الضامن لمصالح المتعاقدين على السواء — امكن ازالة الاختلافات والقضاء على المنازعات القائمة على الحرص والانانية وحب التسلط .

شكوى السوريين دليل اخلاصهم وتألمهم

من الطبيعي ان الامة اذا لم يستقر حالها السياسي استقراراً ملائماً لحاجتها ومتفقاً مع امانيها لا ينتظر منها الرضى والخنوع لمن يغتصبها حقها ، ولو كان سلطانها الفاتح ، بل ينتظر منها السخط والتذمر ومقاومة الظلم .

اليس السوريون اهل شعور فيتألمون ؟ اليس لهم طبيعة حاسة سريعة التأثر فيشكون ؟ اذاً لهم الحق بعد ما تصادمت امانيهم الاستقلالية بمشروع الاستعمار وبعد ما ذاقت نفوسهم انواع الظلم والهوان ان يتألموا ويشكوا ولا يستسلموا للسياسة الغاشمة .

اينكر ان افرادهم يتجملون بالصفات النبيلة ، وانهم رجال جد وعمل ؟ وهل هم لا يحبون التجارة والصناعة ولا يعشقون العلم والمدنية ؟ لقد برهنوا على خصائصهم النبيلة وتحملهم للمشاق في جميع ادوار تاريخهم ونهضتهم ، وبرهنوا على انهم لا يزالون مالكين لجميع المقومات الاجتماعية والقومية ، فلماذا لا يحق لهم انشاء وطنهم واخذ استقلالهم ؟ والمدافعة عن حقهم ؟

اجل ! حكم العثمانيون بلادهم اربعة قرون ، والسياسة العثمانية معاومة الاساس فهل يا ترى قدرت على تمثيلهم وتغيير سجاياهم . كلا ! بل انهم رغم كل اضطهاد وسوء ادارة وتنكيل ، حافظوا على قوميتهم ولما حان الوقت للتخلص من نيرهم كانوا يداً واحدة فلم يقصروا بواجبهم ، وكان املهم الوحيد من جهادهم المقدس وتضحية الالوف من ابنائهم والملايين من اموالهم ان يستقلوا ويحرروا بلادهم فاذاً هم على حق لاجدال فيه : ومن حقهم — وقد نكبوا بما لم يكن في الحسبان — ان يشكوا عدم اتفاق مصالحهم وسياسة الاستعمار . ومن حقهم ان يعترضوا على النتائج التي وصلوا اليها بعد احدى عشرة سنة من احتلال فرنسة لسوريا ، فقد سلبتهم اقدس حقوقهم ، ورجعت بالبلاد القهقري ، ومن حقهم ان يشكوا ويستقبحوا مؤامرة (سايس — بيكو) على تجزئة الوطن العربي . وان يشكوا ويتألموا من احتلال غورو لدمشق بجيوش بلغت السبعين الفاً بمعداتها الجهنمية

ومدافعها . وقذائفها التخريبية التي كان الاولى ان توجه الى صدور الاعداء دفاعا عن شرف فرنسة وكيانها لا ان توجه الى صدور السوريين دفاعا عن مصالح الرأسماليين وتنفيذاً لمطامع المستعمرين . ومن حقهم ان يشكوا من تشكيلات (روبه ردمكه) الادارية وسياسته الطائفية واساليبه الاستعمارية .

يقول البعض ان فرنسة لا يمكن ان تتجرد عن جميع منافعها . ولكن هل شدة الحرص على سلب الغير حق الحياة وموارد العيش وحرمانه من حقوقه وثروته شريعة عادلة ؟ اننا نسلم بتبادل المنفعة ولكن لا نسلم بالقضاء على منفعة لنا ليسلم الاستعمار ! لما ذا تدعي فرنسة انها جاءت للارشاد والمعونة وصيانة البلاد السورية وهي تمنح الاتراك من حدود هذه البلاد وقراها ما ارضاهم وارضى الدائنين الافرنسيين وما ذا هذا الاتفاق الجركي الذي غل ايدي التجار والصناع لما فيه من الاجحاف والقيود . هل كان لمنفعة سوريا ام لمنفعة فرنسة ؟

اذاً من حقهم ايضاً ان يشكوا من معاهدة « فرنكلين بويون » ومن غيرها التي تعقدها السلطة باسمهم وليس لهم في الامر رأي كأنه لا يعنيهم بل يعنيها وحدها . ومن حقهم ان يشكوا التنكيل بالقرى والبيوت وتخريب المزارع ، وقتل الرجال والنساء ، وجمع الغرامات ، وفرض الضرائب ، ايام الاحتلال ، واخماد الثورات ، والفتن التي كانت نتيجة سوء السياسة والادارة ، ومن حقهم ان يشكوا عسف رجال الامن وضباط الاستخبارات وتدخلهم في ما لا يخصهم واستبدادهم

اذا جاز الصبر والتأني حتى يبر الافرنسيون في وعدهم وعهودهم ، فماذا نقول عما جرى في جبال الزاوية ، قرى حارم ، انطاكية ، الجسر ، حماه ، الغوطة ، القلمون ، حمص ، جبال النبك ، حادثة دمشق ، حادثة حلب ، جبل الدروز ، وحوران من سنة ١٩٢٠ - الى ١٩٢٨ ، مما تتناقله الاجيال ويعرفه الرجال والاطفال ، وتنشره الجرائد ، ويصعب تناسيه مع دوام الحال على اسوأ منوال .

لقد كان املهم بفرنسة وهي تنادي على نفسها بانها نصيرة الشعوب الضعيفة وحاملة لواء السلم والحرية ، وحامية الادب والفنون الجميلة ، ان تأتيهم برجال اكفياء ، نزيهين يقيمون للعدل وزناً ، وللحق قسطاساً وبمفوضين وممثلين

يرشدون الشعب الى افيد الطرق للمدنية الحديثة ويعلمون ابنائه ادارة الملك بحزم ونزاهة ، ويعطفون على البلاد عطف الوالد على بنيه او الاخ على اخيه فيمتلكون القلوب وينشرون العلم والتهذيب فتزهر البلاد بمعاونتهم ويعود اليهـا عزها ونشاطها ، وتغدو الامة لهم اعظم نصير وحليف تؤدي دينها وواجبها بقدر الاحسان والمعروف ، كانوا يؤملون هذا وينظرون تحقيقه فاذا هي تجردهم من حكومتهم الشرعية وتلغي مجلسهم الوطني المنتخب وتسرح جيشهم النظامي وتفكك عرى ترابطهم القومي والسياسي ، وتخلق لهم دولا وحكومات ومجالس ووزراء لا حاجة لهم بها ولا توافق طاقتهم وعددهم وتمطرهم قوانين واوامر اغرقتهم بالفوضى وسببت ضياع المسؤولية . فكيف لا يشكون ولا يتذمرون؟ وما عساهم يقولون عن هذه الاعمال ، اذا قرنت بمبادئ الارشاد والاسعاف الواردة في المادة ٢٢ من عهـد عصبة الامم ، وبمنشور غورو سنة ١٩٢٠ ، وبيانات ويغاند عند اعلانه الاتحاد السوري وخطاب الجنرال « بيوت » يوم افتتاح المجلس الاتحادي اذ يقول « ان ما هية الانتداب بحددها المفوض السامي بادئ بدء بانها ابداء ملاحظات واسداء نصـائح وحسم مشاكل » وقول « روبر دوكه » في ٢١ نيسان سنة ٩٢٣ « بان من فوائد الاتحاد جعل القومية السورية معروفة بين الامم ، وادخال الاقتصاد في البلاد ، وان الحكومة المنتدبة لا تقف في وجه اي قرار يقرره المجلس ولا تعاكس اي طلب لانها تفهم ان الانتداب حفظ العدالة والمسـاواة بين الاهلين واقرار الطلبات العادلة ؟ لقد اختبروا اعمال الانتداب حتى الان ، ومن الضروري ابداء ما عرفوه وما جربوه لانهم وجدوا الاقوال خلاف الاعمال ، ووجدوا المطامع التي تنطوي بين مواد « الارشاد والاسعاد » لاحد لها ولا تتفق هي ومرامي الاستقلال . اذاً كل ما قيل ويقال برق لا مع ، وسراب خلب . لا يبنى عليه اساس . والحقيقة ان السوريين يتألمون ويشكون حيث اصابهم ما لا تجيزه التعاليم الانسانية ، ولا المبادئ السلمية ، ولا الحقوق الشرعية فان كانت عصبة الامم تسعى لمنع الرقيق واستعباد الفرد ، فمن باب الوجوب ان تقـاوم استرقاق الشعب السوري واستعباده باسم « الانتداب » او « الارشاد » ؟

النكبة وابتداؤها في دمشق

كان يوم السبت السابع عشر من شهر تشرين الاول سنة ١٩٢٥م - ١٣٤٤ هـ . واذ الاخبار تتناقل في المدينة بهجوم اهالي جبل الدروز والعصابات المرابطة حولها عليها ، فاحتاطت السلطة العسكرية للامر وارسلت مفرزة من جيشها الى باب شرقي ، وقد جيء بالدبابات والمصفحات الى مبتدأ الشارع الجديد الملقب بشارع جمال باشا ، وكادت الطمأنينة تتسرب الى الافئدة لولا اشتداد ازيز الرصاص في ثاني يوم (الاحد) من جهة حي الشاغور ، والزقيبة في حي الميدان حيث تمكن الدروز ورجال العصابات من اختراقه المدينة والدخول الى الشاغور والميدان ، فباب مصلى ، فقبر عاتكة ، فباب السريجة ، فباب الجابية ، فجادة الدرويشية ، وهناك تصادموا مع رجال الدبابات التي كانت معسكرة هناك ، ثم بعد معركة خفيفة تمكن رجال العصابة من حفر خنادق اقاموا حولها الاحجار تقيهم شر وابل الرصاص وزفير القنابل والمفرقعات المنهملة عليهم من افواه بنادق الجند والمصفحات .

اخذت المدافع من المزة وقلعة دمشق تطلق من فوهاتها القنابل ، فكانت تمر فوق المدينة (الآمنة) ويتساقط بعضها في ضواحيها واطرافها من جهة حي العمارة ومسجد الاقصاب وبساتين العقيبة محرقة مدمرة . ثم في التالي (الاثنين) استأنف الثائرون هجومهم من جهة الخط الحجازي حيث كانت تعسكر فيه حامية من الجيش الافرنسي ، فتبادلوا واياها النار بصورة شديدة مخيفة كان يتخللها صوت انفجار القذائف اليدوية ، وظلت المعركة مشتدة بين الفريقين مدة طويلة . وقد حلقت الطيارات للاستكشاف مرسلة قذائفها على اماكن المدينة فخربت بعضها ، كما ان قنابل المدافع المسلطة عليها حرقت قسما عظيما من دورها الفخمة الثمينة ، وقد سقطت واحدة منها فوق قبة حمام الملكة الشهير بمحلة الدرويشية فخرقتها الى ارضه واشعلت النار فيه ، وسرت الى البيوت والمحلات المجاورة له فالتهمتها . اندلعت السنة النيران بصورة فظيعة مريعة ، فانتقلت منه

الى الصف المقابل ، فالتهمت فرن جبران ، وسرت (ليتها ما سرت) الى ما جاوره من البيوت في زقاق المبلط فما وراء سوق الحميدية ، وامتد لهيبها الى زقاق سيدي عامود فالتهمه بامه وابيه ، بسرعة لا تقف عند حد ، مما اجبر ساكنيه على النزوح عنه والنجاة بانفسهم تاركين ما بدورهم من اثاث ورياش فاخرة ثمينة ، حتى الحوائج الضرورية . سار الحريق فاخترق حمام القاضي ، ونفذ منه الى سوق مدحت باشا فالتهم محلة الحصرية باجمعها وقسما كبيراً من بيوت التجارة فيه .

سقط بعض القنابل والمفرقعات ايضاً في احياء اخرى كالقنوات ، الشاغور ، الميدانين ، الخراب والعمارة فاضطر الثائرون على الانسحاب وراء قائدهم وزعيمهم حسن الخراط خيفة ان تهدم المدينة بقنابل المدافع وقذائف الجند المرابط في القلاع والحصون ، ومفرقعات الطائرات .

سكن ازيز الرصاص ودوي المدافع ، وهدء صوت المفرقعات وانفجار القنابل ، على اثر انسحاب الثائرين واخذ يتسرب من الهدوء والطمأنينة بعض الشيء الى نفس هذا الشعب اليائس البائس ، وقد ذهب وفد من اعيان هذا البلد المصاب ، باعظم خطب واكبر مصاب ، يرتجي الحاكم العسكري اللطف والرحمة بهذا البلد الآمن ، واهله الهادئ الساكن ، الراضخ لمقدرات الدهر ؛ ويسأله الشفقة والحنان باطفال رضع لا مقترف لهم الا الرضاعة ؛ ويتوسل اليه الرأفة بشيوخ ركع لاذنب لهم الا العبادة .

اخذ اهل الاحياء السبعة التي صب عليهم وابل المدافع والطيارات ، ينقلون اطفالهم ونساءهم وامتعتهم الى حي الصالحية والمهاجرين ، اذ ظل هذا الحي هادئاً .

ياله من منظر تقشعر له الابدان ، وتتفتت له الاكباد ، من هول مشهد النساء وهن صارخات مولولات معولات باكيات ، واطفال يندبون اهلهم اما لفقدهم وضياعهم الموقت واما المؤبد . واذا انت اشرفت على دمشق في ذلك اليوم ، خلت نفسك في يوم الحشر ، وقد اخذت على الناس المسالك والمهالك ، وضاقت النفوس ذرعاً بما اصابها ووقع عليها من ويل .

وقد وقعت نكبة بعد ذلك بقليل وقبل ان تمسح دموعنا من جفوننا المقرحة الا وهي نكبة الميدان وما حل بذلك الحي من الحرق والسلب والنهب والخراب والدخول على الدور المأهولة بالنساء والاطفال من قبل الأرمن والشراكسة المتطوعين في خدمة الجيش العسكري الافرنسي ، مما اجبر اهالي الحي المذكور على النزوح منه وتركهم دورهم خاوية على عروشها ، وقد راجع الحاكم العسكري المجلس البلدي وبعض من اعيان حي الميدان على هذه الفظائع التي وقعت من المتطوعة ، فامر للحال بجمع المسلوبات من ايدي المتطوعة وردها الى اهلها وطرد كل من تصدى لمثل هذه الاعمال البربرية .

هذه بعض نبذ مما اصاب الشام ، وقد وصف ذلك بعض الأدباء بقوله :

دمشق ، ايا مهد الحضارة العربية ، وعاصمة الخلفاء ، اي نكبة نكباء ، ألمت بك فصيرتك دياراً دهياء ، فبدلت منك الارض والسماء ، ليندب الشرق بك أعظم أثر من تاريخه الخالد . وليشق العرب خاصة والاسلام عامة عليك الجيوب ، فقد أصابت شمسك الغروب أي طرف من البلاد عليك لاتدمع وأي قلب متحجر لايخشع ان النار التي اضطرمت في جوانبك قد لسعت بألسنتها قلب كل شرقي وعربي فليكن في ذلك لك بعض العزاء والحذار من اليأس فهو موت ولن تموتي قبل أن تصل اليك حقوقك المشروعة . وتأخذي المقام اللائق بك تحت الشمس

ومنها قول بعضهم كنت يا عروس الشرق يا حافظة آثار الأجداد يا أميرة المدن نائمة في حضن السلامة رائعة في بحبوحة العيش فاذا دهاك أهكذا يجازفون بحياتك ومعالمك الخالدة دون أن يشعروا بأية مسئولية تسجل على وجوههم في صفحات التاريخ . يا لها من نكبة تفتت الصخور ويرق لها قلب الجماد ألم يكفكم الحرب في البراري والجبال والقفار حتى أتيتم تخربون العاصمة المحبوبة أم المتاجر وسيدة الصناعة الذي يتألم لألمها ثلاثمائة مليون مسلم وقدمتم بها الى ساحة المصائب والآلام .

وفي سنة ١٣٤٣ هـ خطب الشيخ عبدالحميد العطار في آخر جلسة من جلسات المجلس التمثيلي في مضار توظيف غير العرب من اهل البلاد في وظائف

دولة سورية فقال . ان العصر عصر القوميات لا تقوم الامم الا تحت لوائها ولذلك ترى جمهورية تركيا الجديدة اخرجت من خدمتها حتى الآذنين من غير جنسها وان الواجب على حكومة سورية ان تخرج من خدمتها التركي الدخيل والارمني والرومي فقبل المجلس اقتراحه بالاجماع وقوبل بالتصفيق .

وفي ٢٨ ايار ١٩٢٨ انذرت بريطانيا العظمى الملك حسين بن علي ان يغادر العقبة خلال سبعة اسابيع وكان جاءها بعد ان سقط الحجاز في ايدي جيش الامام السلطان عبدالعزيز بن سعود ملك نجد — لتستلمها حكومة شرق الاردن وتضمها مع معان الى البلاد التي تديرها لانها ضمن الانتداب البريطاني ولتحافظ عليها من الوهابيين الذين فتحوا مكة والطائف واخذوهما من يد الملك حسين وبعد ايام سار الى قبرص ليقيم فيها .

كلمة تمهيدية

جاء في خطاب القاه الملك عبدالعزيز بن السعود في مؤتمر الرياض الكبير الذي عقد في سنة ١٩٢٨ لمعالجة شؤون العشائر الهامة هذه العبارة الجامعة . لقد أسست هذه المملكة دون معين ، وكان الله القدير وحده معيني وسندي ، وهو الذي انجح اعمالي . أجل ، لقد حافظ ابن السعود على مكانته الرفيعة التي بلغها بثباته وصلابة ارادته وكرمه وسخائه . ابن ملك عرف كيف ينتفع بالاختراعات الحديثة في صيانة مملكته الواسعة . ابن السعود رجل عرف انه لا يشفع في الملك العربي أن يجري دم النبل في عروقه كي يكون ملكاً مطاعاً وانما ينبغي ان يكون محبوباً من الشعب مهاباً .

واذا كان بعبقريته قدر بمعجزة على توحيد القبائل في اواسط بلاد العرب المشهورة بتنافسها وتخاذلها ، واذا كان طموحه النادر ، وفهمه نفسية البدو ووقوفه على عاداتهم هي التي ربطت الاقطار العربية المتاخمة لخليج فارس ، والمتاخمة للبحر الاحمر ، فان عقيدته الوهابية هي التي استفزته ودفعت به للاغراق في طلب المجد وهي التي حفزت روحه الطموح للعلى : التي خلقت للخلود . ابن السعود رجل

طويل القامة يدل مظهره على مهابة وقوة ، طوله ستة اقدام واربع بوصات متناسب الاعضاء ، قوي العضلات ، يبز السواد الاكبر من رعيته في متانته وصلابته وحيويته ونشاطه . وجهه طويل ، بيضاوي ، جميل يسهل عليك ان تقرأ فيه سلامة نيته وصراحته . بسيط الى أقصى حد في ثيابه وطعامه ينفر من الابهة والفخفخة ولا يهتم بزخارف الحياة ومباهجها وانما يعني بالحقائق ، عارية ، مجردة ، لا أثر للزركشة فيها ، ولا المبالغة ، ولا التزويق . .

قام علماء نجد والحجاز سنة ١٩٣١ يعترضون ان حفلة التتويج التي تقام لجلالته بمناسبة اعتلائه عرش (الحجاز ـ نجد) في الثامن من كانون الثاني سنة ١٩٣١ بدعة لا مبرر لها . وعادة أوربية اكثر منها اسلامية أوعربية فرحب جلالة الملك المتواضع بهؤلاء العلماء وسمع اعتراضهم واعترف بوجاهته ولما كان هذا الاعتراض لا يتعلق بدولته بل بشخصه وحده فقد أمر بالغاء هذا الاحتفال السنوي . هو في الواقع شديد الطموح ولكنه في الوقت عينه يغالي الى أقصى حد في تواضعه هو رجل ورع ، تقي ، يرى المباهات في النفس اثماً والكبرياء خطيئه .

ولقد عثرنا على منشور الملك حسين عام ١٩١٨ الذي وزعه على الضباط العرب بالجيش التركي احببنا اثباته لموعظته ، ونقل ما كتبه الرحالة الكبير الكونت وليمز عن جلالة ابن السعود ملك نجد والحجاز ، وعن بعض اسرار لم تنشر عليه وعلى الراحلين الملك حسين وولده الملك فيصل مما له علاقة ومناسبة في كتابنا وبلادنا خدمة للتاريخ فنقول :

اين ذهبت وعود الانكليز للعرب

بمناسبة حوادث فلسطين الاخيرة قدم محامي العرب الى لجنة التحقيق الوثيقة التاريخية التالية عن وعود الانكليز بتحرير العرب بعد انقاذهم من الترك ، وهي منشور وجهه الانكليز بامضاء جلالة الملك حسين بن علي عام ٩١٨ وقبيل احتلال فلسطين الى الضباط العرب المحاربين في صفوف الجيش التركي وأعيد نشره اليوم

للمقايسة بين الوعود وبين الحالة السيئة التي آلت اليها فلسطين بعد دخول الانكليز واليك نص ذلك المنشور التاريخي :

[الى الضباط والجنود العرب في الجيش التركي في فلسطين]

اصدر شريف مكة وملك الحجاز الحالي منشوراً الى الضباط والجنود العرب في الجيش العثماني وطلب منا ان نبلغكم اياه . فأقرأوه بتمعن واغتنموا الفرصة لتهربوا وتأتوا الينا وسنستقبلكم كاصدقاء مرحبين بكم وستلاقون منا معاملة حسنة وستجدون معنا مندوبين من قبل شريف مكة وملك الحجاز الحالي فيستقبلونكم وتساعدوهم انتم في تحرير العرب

[الى جميع العرب وسواهم من الضباط والرجال الموجودين في الجيش العثماني]

سمعنا بمزيد الاسف انكم تحاربوننا نحن الذين نجاهد في سبيل المحافظة على احكام الدين الاسلامي الشريف من التغيير والتحريف ، ولتحرير العرب قاطبة من حكم الاتراك . ونحن نعتقد ان الحقيقة الخالصة لم تصل اليكم لذلك ارسلنا لكم هذا الاشعار ممهوراً بمهرنا لنؤكد لكم اننا نحارب لاجل غايتين شريفتين وهما : حفظ الدين وحرية العرب عامة . ولقد ارسلنا الاوامر المشددة الى عموم رؤساء ورجال القبائل بأنه اذا أسرت جيوشنا أي واحد منكم يجب ان يعاملوكم بالحسنى ويرسلوكم الى أولادي حيث يرحبون بكم ويحسنون وفادتكم .

لقد كانت المملكة العربية مستعبدة تحت سلطة الاتراك مدة طويلة فقتلوا من قتلوا من اخوانكم ، وصلبوا من رجالكم ونفوا من نسائكم وعيالكم ، بعد تحريف دينكم ، فكيف تطيقون الصبر بعد ذلك وتتحملون عناء الاستمرار معهم وترضون بمعاونتهم . هلموا للانضمام الينا ، نحن الذين لاجل الدين وحرية العرب ، حتى تصبح المملكة العربية كما كانت في عهد اسلافكم ان شاء الله تعالى . والله الهادي الى سواء السبيل .

وكان للصلات الطيبة بين الانكليز وابن السعود ثمرتها في شتاء ١٩١٣—١٩١٤ تمت المعاهدة بين الامبراطورية البريطانية وابن سعود ، هذه المعاهدة التي عرف

كيف ينتفع بها في صد الخصوم عنه ، وقد استعان عند وضعها بحذقه السياسي واختباراته الشخصية عهد كان عضياً في الكويت ، ومن مراقبته لسلوك الشيخ مبارك مع الانكليز في القرن التاسع عشر وكان يقول انه في وسعه تجديد هذه المعاهدة تجديداً مستمراً الى ان تتمشى مع كل مطامعه واحلامه والى أن تنطبق على كل رغائبه ومراميه ، وانه قد اتصل بالانكليز واصبحت سلطة على البحر والمدن الساحلية فلا مناص من ان يكون سياسياً أدهى من الانكليز .

واقبل خريف سنة ١٩١٣ وأوائل سنة ١٩١٤ وابن سعود لا يزال والياً على نجد والحسا من قبل حكومة استانبول وكان لا يزال يلقب بصاحب الدولة ولم يكن ذلك الحين قد أعلن انفصاله عن الحكومة العثمانية بل كان يقول انه ما دام يتمتع بالسلطة التامة على نجد والحسا فما يمنعه من الاستمتاع بهذه السلطة التامة باسم الحكومة العثمانية ، وعلى الاخص لانه كان على يقين من منافسة الشريف حسين له في الحجاز ، وآل الرشيد في حائل ، ولكنه في الواقع لم يكن يبالي بعد ان صادق أهم دولة لها اكبر النفوذ في الخليج الفارسي بخصميه الشريف حسين وآل الرشـــيد .

تطلعت بريطانيا العظمى الى شبه جزيرة العرب لترى اذا كان بميسورها أن تجد فيها من يشترك معها في الحرب العالمية فعثرت على حلفاء في كل مكان ماعدا (اليمن) لان الامام يحيى ظل أميناً لميثاق السنوات العشر الذي قطعه على نفسه سنة ١٩١١ للاتراك بأن يظل موالياً لهم ولامارة حائل كما بقي آل الرشيد محافظين على ولائهم للدولة العثمانية وبقي ايضاً ملك ايران والامراء للبختياريين .

وفي تشرين الثاني سنة ١٩١٤ عاون الشيخ مبارك ،من الكويت ،الانكليز في الاستيلاء على البصرة بعد أن وافقوا على الاعتراف بأستقلاله عن الاتراك وان يكون تحت الحماية الانكليزية .

وفي نيسان سنة ١٩١٥ امضيت معاهدة بين الانكليز والادريسي من العسير ، وقد صارح الادريسي العثمانيين بالعداء حتى قبل الحرب العالمية .

وفي تموز سنة ١٩١٥ دارت المفاوضـــات بين الشريف حسين وابن سعود

وابرمت معاهدة بينهما في الخامس والعشرين من كانون الاول من تلك السنة وتم تصديقها في الثامن عشر من تموز سنة ١٩١٦ . ويضيق بنا المجال عن سرد تاريخ الجهود التي بذلها العرب في أثناء الحرب العالمية فهذا ما تجده مفصلا في كتاب للورانس عن بلاد العرب . وكانت صوت (الاحرار — نشرت ترجمة الكتاب تباعاً) من شاء فليرجع اليه .

[السير كوكس ومداخلاته]

أرسل الميجر السير برسي كوكس كبير الضباط السياسيين في الحملة العراقية ، والذى اشتهر بآرائه السديدة الدالة على حذر شديد أحد الضباط الى رياض وكان الضابط من أصدقاء ابن سعود ، وهو الكابتن شكسبير وعهد اليه مهمة اغراء الوهابيين بالحملة على ابن الرشيد أشد حملة ممكنة ليعصروه عصراً حتى لا يلحق الاذى بجناح الميسرة للقوات الانكليزية في العراق .

اما ابن سعود فكان يستطيب هذا التحريض ليشبع شهوة الانتقام من خصمه اللدود . وعلى هذا لم يكن القتال بين الحاكمين جديداً بل كان لا يختلف عن القتال الذي دار بينهما قبل سنة ١٩١٤ وان كان قد اشتد عما كان لدخول عناصر جديدة . . . تركيا . . . وانكلترا . . . اصابع تحرك من وراء الستار وتوقد الخصومة بين البيتين العربيين البيت السعودي والبيت الرشيدي . اما معركة « جراب » ذاتها فكانت نموذجا لمعارك الصحراء ولم يزد عدد ضحاياها من القتلى عن الثلاثمائة ولم تكن من المعارك الفاصلة .

وقد حدث ان قبيلة العجمان التي كانت موالية لابن سعود خانته وغدرت به فانقلبت عليه ونهبت كل ما امكنها ولكن الاهم من هذا من وجهة النظر الانكليزية جاءت قتل الكابتن شكسبير صديق ابن سعود الحميم في اثناء المعركة خرج هذا الكابتن في ثيابه العسكرية الرسمية لمراقبة القتال فاصابته رصاصة طائشة جرحته جرحا عميقاً واقبل بعض المقاتلين من بيت الرشيد بسيوفهم فاجهزوا عليه . وقد ترك هذا الحادث اثره العميق في نفس ابن سعود الوفي لاصدقائه حتى

انه قدم للحكومة الانكليزية تعازيه بالضابط القتيل. وفي شباط سنة ١٩١٦ تألفت «الدائرة العربية» المشهورة في القاهرة، لمساعدة الشريف حسين وارشاده. وكان السير كوكس قد قصد في كانون الاول سنة ١٩١٥ «العقير» ليبدأ المفاوضات مع ابن سعود لعقد معاهدة معه فنجح في عقد معاهدة اهم نصوصها:

١) – اعتراف الحكومة الانكليزية بان نجد والحسا والقطيف وجبيل، وموانيها على الخليج الفارسي من املاك ابن سعود واسلافه وأن الزعيم الوهابي هو الحاكم المطلق على تلك الانحاء كلها. وابن سعود هو الذي يعين خليفة من نسله شرط ان توافق الحكومة الانكليزية.

٢) – تقدم الحكومة الانكليزية كل مساعدة ممكنة لابن سعود عند مهاجمة اية دولة اجنبية للاملاك الوهابية.

٣) – يتعهد ابن سعود ان لا يرتبط بعلاقاتها مع اية دولة اجنبية.

٤) – يتعهد ابن سعود ان لا يمنح اي دولة اجنبية املاكا او امتيازات دون موافقة الحكومة الانكليزية، وان يتبع مشورات الانكليز التي لا تضر بمصالحه الذاتية.

٥) – يتعهد ابن سعود بفتح كل الطرق الموصلة الى الاماكن المقدسة في بلاد العرب وحماية الحجاج الذين يمرون فيها.

٦) – يتعهد بالامتناع عن اي توغل جديد في أملاك حليفات انكلترا: الكويت، والبحرين وعمان وغيرها من المناطق التي ارتبطت بمعاهدات مع الانكليز.

٧) – واخيراً تم الاتفاق على ابرام معاهدة جديدة في المستقبل، تكون اوفى من هذه... ومع ان هذه الوثيقة في مصلحة الوهابيين فانهم أبوا ان يحركوا ساكناً ضد الاتراك. فما علة ذلك؟

قد تكون لبعد الحامية التركية عن ابن سعود وانصراف الانكليز الى مقاتلتها وتخفيف العبء عنه ولكن الاهم من هذا تقرب الانكليز من الشريف حسين.

اجل ، انتخب الانكليز الشريف حسين ليكون وكيلهم ونائبهم في بلاد العرب، وقدموا له راتباً شهرياً قدره خمسة الاف من الجنيهات !.

وقد ظل الشريف حسين يتقاضى هذا الراتب الشهري حتى نهاية اذار سنة ١٩٢٤

وتناقل الناس الخبر وتضخم الراتب ، وتضخم كثيراً حتى بلغ ابن سعود ان خصمه الشريف حسين يتقاضى من انكلترا ، شهرياً ، مائتي الف جنيه ! فكان يقول مع سكان الرياض انه افيد للانكليز الف مرة ان يكون الوهابيون على حياد من ان يتلقوا المعونة من الشريف حسين .

واستسلم الحسين للغرور واغرق في الزهو فكان لا يتحدث الا باسم كل العرب وهذا من العوامل التي زادت الخصومة تأصلا وقوة .

واجتمع المندوب السامي في العاصمة بابن سعود وقنعه بضرورة ارسال « رسالة ودية » للحسين فاطاع ولكن الشريف حسين اعاد الرسالة دون ان يقرأها ولما عادت الرسالة من مكة دون ان تفتح ثار ابن سعود وهاج وكان هذا الحادث فاتحة عصر جديد في تاريخ الخصومة بين الحسين وابن سعود .

اجل ، كان غضب ابن سعود عظيما فصمم على خلع الحسين ليعلنه بانه هو الذي يمثل بلاد العرب حقيقة وان العرب الحقيقيين هم الذين يعترفون بولائهم للرياض ويعلنون طاعتهم لها .

ولكي ابين الى اي درجة بلغ الغضب بابن سعود اذكر الحديث الذي دار بينه وبين الكولونيل هملتون في اواخر سنة ١٩١٧ فان هذا الانكليزي لامه على عجزه عن مقاومة الشريف الحسين ، واستفزه قائلا : ان الشريف حسين قد استطاع بجهوده ان يصبح ملكا وان قوته في نمو مطرد فاجاب ان الحسين قد استطاع التوغل في شبه جزيرة العرب مستعيناً بالاجانب والامير العربي الذي يستند على المساعدات الاجنبية يبني زعامته على الرمال فسرعان ما تكتسحها اي حركة قومية عظيمة ، كالنهر يجرف في فيضانه كل ما يقف في سبيله حتى المساكن التي شيدت على ضفتيه .

ضاق صدر ابن سعود عند ما تسلم في تشرين الاول اي بعد فشله في القضاء

على ابن الرشيد في ايلول – عدة رسائل تحمل اليه انباء مكدرة منها سفر اللجنة الانكليزية التي جاءت للمفاوضة وان الملك حسين يعطف سراً على ابن الرشيد ويؤازره في الخفاء . . . وان الانكليز سيرغمونه على الانقطاع عن حملاته على حائل ، تمشياً على رغبة الملك حسين ، وانهم سيستردون منه الالف بندقية ، وكل الذخيرة الحربية التي قدموها لمندوبه في الكويت الشيخ عبد الله النفيسي . . . وان الحكومة الانكليزية هي التي كانت ترغب في التفاهم معه على الرغم من معارضة المندوب الانكليزي في مصر السير ريجنلد وينجيت الذي كان معارضاً في ارسال لجنة لتسوية حدود نجد والحجاز . وكان المستر فيلبي يعتقد ان الشرر الذي كان يتطاير من عيني الحكومة الانكليزية اللغة التهديدية التي كانت تخاطب بها ابن سعود في تشرين الاول سنة ١٩١٨ لم تكن الا نتيجة تدابير رجل واحد ، هو الشريف حسين . . .

وكانت الحكومة البريطانية لاتعتبر رجلا آخر سواه ولا تقدر كلام احد غيره

طفح كيل ابن سعود عندما سمع هذا الحديث من فيلبي فعرته رجفة غضب شديدة وقال في حدة : ومن الذي يستطيع الوثوق بالانكليز بعد كل هذه المناورات اذا كانت حكومتك تأبى العدول عن سياستها فسترى ماذا استطيع أن افعل !... والله ، ان الشريف حسين هو وحده المسؤول عن هذه الطعنات التي تطعنني بها الحكومة الانكليزية !.. واني لاعجب كيف استطاع الحسين ان يخدع الانكليز في مصر كل هذا الخداع ويموه عليهم كل هذا التمويه ؟ واني مصر على مهاجمته مهاجمة عنيفة اذا كانت حكومتك ستصر على معاملتي بمثل هذه المعاملة التي تشف عن تحيز تام للحسين . هذا ما كان يقوله ابن سعود في ساعة غضبه على الانكليز

وفي الواقع ان العالم بعد الهدنة كان في حالة اضطراب ولم تكن الامور قد استقرت . كان العالم يتخبط في حيرته وارتباكه في تردده وذبذبته في حقه وجهله في كل الشؤون التي لها علاقة ببلاد العرب فالحكومة الانكليزية بالرغم من وجود اللورد كيرزون على رأس وزارة الخارجية كانت تحت سحر الدائرة العربية في القاهرة تلك الدائرة التي كانت ترضخ للشريف حسين وتجيبه الى كل ما يريد

اعتقاداً منها ان رضا الحسين من الامور التي لامفر منها تهدئة لاعصاب العرب الذين ابلوا بلاء حسناً في الحرب العالمية .

كانت هذه الدائرة العربية في القاهرة تريد اقناع « الهويت هول » بالموافقة على منصب الحسين ملكاً على كل بلاد العرب وكانت ترى هذه المكافأة ديناً للعرب على الانكليز ولكن كان تجاهلهم ابن سعود لايدع بلاد العرب تعيش في امان وطمأنينة . وعبثاً حاول المندوب السامي في العراق تنبيه اذهان الانكليز في القاهرة الى الخطر في هذا التحيز الذي لا مبرر له وكانت له وقفات محمودة في اثناء جلسات مؤتمر الصلح ، دافع فيها عن ضرورة اعتراف الانكليز باستقلال نجد

ومرت الاسابيع سراعا والزعيم الوهابي حائر لا يدري الخطة التي سينهجها المتفاوضون في باريس ولم يكن واقف على نياتهم نحوه ، كان يخشى ان يتجاهلوه ولكنه اعد العدة لمكافأتهم على كل تجاهل يقع منهم ، ان التغاضي مؤلم ولكنه يستفز صاحبه . وفي الوقت عينه لم يكن الملك حسين — ملك الحجاز راضيا . . . فقد كان يتوقع — بناء على المراسلات التي دارت بينه وبين الحكومة الانكليزية في سنة ١٩١٥ — بان لا تنتهي الحرب حتى تكون الاقطار العربية الفسيحة — من جبال الاناضول الى المحيط الهندي ومن حدود ايران وفارس الى البحر الابيض المتوسط . . . تحت سلطانه .

ولما استفاق من حلمه رأى الانكليز قد ثبتوا اقدامهم في سوريا والصهيونين في فلسطين ، ورأى الانكليز قد ثبتوا اقدامهم ايضاً في العراق فكانت صدمة للملك حسين واي صدمة ! . . ولكن الحسين لم يستسلم للحزن واكتفى بان قال انها مؤامرة من الحلفاء على العرب وبدأ صفحة جديدة في تاريخ كفاحه مستعينا بولديه عبد الله وفيصل على التحرر من الانكليز وابعادهم عن شبه الجزيرة كما نجحوا هم في تخليص الاتراك وطردهم منها . وقد اراد ان يبدأ نضاله بالثأر من سكان خرما بعد ان فشل ثلاث مرات في التغلب عليها فعادت قواته مدحورة . وكان ابن سعود قد وعد سكان هذه القرية وعداً اميناً قاطعاً بأنه لا بد ان يحميهم من اي اعتداء جديد عليهم من الشريف حسين .

وكان يقول ان خرما كانت وهابية وستظل وهابية ولكن الشريف حسين من الناحية الاخرى كان لايقل عن ابن سعود اصراراً بضرورة ضم خرما الى الحجاز وكان يعتبرها جزءاً لا يتجزأ منه ولهذا لم يكن من الممكن ايجاد حل وسط حسما للنزاع بين الاميرين العربيين . وتأهبت الجيوش في اواخر شبـــاط سنة ١٩١٩ وكان من المتوقع ان تصطدم القوات السعودية بقوات الشريف حسين وليس من الممكن تجنب الحرب وعندما تحرجت الامور الى هذا الحد عقدت الحكومة الانكليزية مؤتمراً في العاشر من اذار لاعادة النظر في الشؤون العربية المضطربة . وقرر المؤتمرون بالاجمـــاع ضرورة قيام الحكومة الانكليزية بالتزاماتها وكانت الآراء مجمعة على انه اذا نشب القتال بين الحسين وابن سعود فالفوز مضمون للحسين ... الذي كان يتفوق على خصمه بمعـــداته الحربية ، وبخبرته الحربية الواسعة . وكان اللورد كرزون هو الذي يترأس هذا المؤتمر فوقف في ختام جلساته يصرح قائلا :

« سياستنا هي سياسة الملك حسين » . وكان المستر جون فيلبي هو وحده بين اعضاء المؤتمر يعتقد اعتقاداً لا يداخله ريب ان الحسين لا يمكن ان ينتصر اذا قامت الحرب بينه وبين خصمه اللدود ابن سعود .

وقع القتال فعاد الانكليز الى عقد مؤتمر جديد في « هويت هول » ووافق المؤتمرون على تخفيض الاعانة المالية الشهرية التي يتلقاها ابن سعود من الانكليز من خمسة آلاف جنيه الى الفين وخمسمائة جنيه ولكن السير ارلوند ولسون ، المندوب السامي في العراق ، اظهر شجاعة نادرة ، وحكمة عظيمة فحال دون تنفيذ هذا القرار . وفي الواقع ان الزعيم الوهابي لم يتبلغ من السلطات هذا القرار رسمياً . وبينما كان الانكليز يتفاوضون ، كان هو يضع الخطط للقتال ولم يكن يهتم كثيراً بالاعتبارات المالية ، بل لم يكن افتقاره للمال وحده كافياً لصده عن القتال . وشعر ابن سعود بان لا مفر من القتال وان كيان مملكته كله قد تعرض فعلا للخطر وان عليه ان يبطش قبل ان يبطش به . وقام الامير عبـــد الله ابن الحسين على رأس جيش قوي جداً لصد حملات الوهابيين .

اما الامير عبد الله فهو ذلك المقـــاتل العربي الذي استطاع بحذقه في اواخر نيسان سنة ١٩١٩ ان يجمع تحت لوائه خمسة الاف جندي فضـــلا عن البدو الذين كانوا يحتشدون حوله طمعاً في الاسلاب المنتظرة بينهم اربعة الاف جندي من السوريين والعراقيين الذين تمرنوا تمرينا كافياً في الجيوش التركية والذين كانوا قد اختبروا فنون القتال في اثناء الحرب العالمية وعرفوا كيف يستخدمون الالات الحربية الحديثة .

تحركت قوات الشريف عبد الله والطائف وتحت قيادته ووجهتها خرمة ، فمرت في طريقها على تربة ، قرية مسورة واقعة على مسافة ٤٠ ميلا من جنوبي غربي واحة خرمة ، واثقة كل الثقة من الانتصار ومعتزة كل الاعتزاز بمعداتها الحربية الحديثة . واكتشف الامير عبد الله عند وصوله الى تربه ان بعض سكانها قد اتفقوا سراً مع الوهابيين وانهم سيناصرونهم كما فعل سكان خرمة على السواء منذ سنة او سنتين ، فلم يكن منه الا ان جمع من اشتبه بامرهم وأبادهم عن آخرهم . وقد تظاهر أقارب المقتولين بالطاعة لابن الحسين ولكن خوفهم من الامير عبد الله لم يكن ليمنعهم من الاحتفاظ في قلوبهم بالولاء للقضية الوهابية ، والامانة لابن سعود فأخذوا يمدونه بالاخبار التي استطاعوا « تهريبها » ليأخذ عدته وليتأهب للطوارئ .

اما الجيوش الغازية فقد كانت راضية كل الرضا وما ذا يمنعها عن أن تكون راضية وقد خيل اليها انها طهرت المكان من الخونة وانها حصينة طبقاً لاحدث الفنون الحربية وفضلا عن هذا فان الامير عبد الله بذاته وهو من الرجال الذين يثقون بانفسهم ثقة لا حد لها هو الذي يقود هذه الجنود ازاء هذه العوامل ورأى رجال الأمير عبد الله ان يناموا ليلة اليوم الرابع والعشرين من ايار سنة ١٩١٩ وان يستغرقوا في النوم ... سمع خالد بن لوي ذلك الرجل الذي ائتمنه الحسين وأقامه حاكما من قبله على خرمة بحملة الامير عبد الله فاستشاط غضباً وصمم على القتال ... وكان من المقاتلين الثائرين الذين لا يستطيعون كبح عواطفهم فدفعته هذه الحدة وكان يقيم مع رجاله في مكان يبعد عن شرق خرمة عدة اميال

بالقرب من آبار سفا . الى مباغتة الامير عبد الله ورجاله وافناء هذه القوة عن آخرها . فقام للقتال دون تمهل بل دون ان يستشير ابن سعود ذاته . وكان قد تضايق من كبرياء رجال الامير عبد الله بقوتها .

ووصل خالد بن لؤي ورجاله ليلا الى تربه وقد بلغ بهم الغضب كل مبلغ ... وكان الظلام دامساً والهدوء يشمل الواحة فهجم خالد ورجاله على الجنود النيام واخذوا يذبحونهم وكانت هذه المجزرة التي وقعت من النوع الذي لم تشاهده بلاد العرب منذ اكثر من مائة سنة وفي الواقع انها هزت العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه ولم يبق من رجال الامير عبد الله الذين كانوا يزيدون عن خمسة الاف غير مائة رجل هربوا ليرووا الفظائع التي وقعت في تلك الليلة المشؤمة وانا نحمد الله ان حفظ حياة الامير عبد الله وابقي عليها فقد تمكن الشريف عبد الله من الهرب بقميص نومه . فقصد والده حالا واخذ يسرد له ما وقع . ثم اجتمع الامير عبد الله فوراً بممثل الحكومة الانكليزية في جدة وقص عليه امر هذه القوة الوهابية التي ابادت رجاله عن آخرهم . (وهي عبرة لمن اعتبر)

وفي اليوم التالي وصل ابن سعود الى المكان الذي وقعت فيه المجزرة - وقد اصبح الآن من الاملاك الوهابية – فمرته رجفة شديدة عندما رأى خمسة الاف جثة ولم يكن قد شاهد في حياته مثل هذا العدد من القتلى . ولما كان بطبيعته جنديا رحيما فقد دفعته الشفقة الدفينة في صدره ان يسير بين هذه الضحايا العربية الغالية والدموع تنهمر بشدة على وجنتيه . بكى ابن سعود طول الفاجعة وقال .

ان عملاً كهذا قد أثقلني وملأ قلبي غماً . وكل الذين رأوا ابن سعود في حالة حزنه والذين سمعوا اقواله في تلك النكبة . سواء كانوا من انصاره او من انصار الاشراف قد لمسوا فيه الاخلاص . وان قصصا كهذه يحفظها العرب في صدورهم ويتوارثها الابناء عن الآباء .

اما العالم الذي يهتم ببلاد العرب فلم يجزع لخبر هـــذه المذبحة الشنيعة التي وقعت في تربه قدر جزعه عندما علم بان قائداً وهابياً كخالد لا يعد شيئاً بجانب ابن سعود قد تمكن من افناء خمسة آلاف من زهرة الجيش العربي . واخـــذ

الناس يتساءلون اذا كان هذا فعل قائد صغير من قواد ابن سعود فيا بالك ببقية مجموع الاخوان؟ ومن يقف في وجه القوات الوهابية؟ أليس بامكانها ان تسود بسهولة على الاماكن المقدسة في بلاد العرب كلها؟ أليس في وسعها ان تعرض حياة الالوف من المسلمين للخطر!. أليس هؤلاء المسلمون تحت حماية الدول الاوربية؟ وهل يستطيع ابن سعود ذاته ان يكبح جماح رجاله؟.. هذه كانت الافكار التي تجول في عقول الانكليز وغير الانكليز

وفكرت الحكومة الانكليزية في ارسال قوات كبيرة لمقاومة هذا العدو المخيف ولكن مرونتها السياسية ابت عليها ذلك. وظل الطريق الى مكة وساحل البحر الاحمر مفتوحا امام هؤلاء النجديين ولم يكن هناك ادنى ريب في قدرة الوهابيين الظافرين على التوغل في الحجاز اذا شاءوا. وكان في جدة آلاف من اللاجئين المسلمين، معظمهم من الهنود وهم من رعايا الانكليز جاؤا للاراضي المقدسة في بلاد العرب قصد الحج فقصدوا القنصل الانكليزي وغيره من القناصل ليدبروا لهم البواخر التي تعيدهم الى وطنهم في اقرب وقت ممكن بعد ان بلغت مخاوفهم من الوهابيين الحد الاقصى.

ولكن ابن سعود اراد ان يطمئن العرب والهنود بانه قد توقف عن القتال وانه قد اقتصر بهذه المظاهرة التي تجلت فيها سيادته على الشريف حسين. وكان يشعر بان انتصاراً كهذا لابد ان يقنع الحكومة الانكليزية بخطأها في تقدير منزلة الشريف حسين وحقيقة الموقف الدقيق الذي تمر فيه البلاد العربية، وكان هذا الشعور وحده هو الذي حمله على الاقامة في الجهات الشرقية وقد برهن ابن سعود بتوقفه عن القتال على سياسة ودهاء وحذق فلا خطر عليه وهذا موقفه من تعرض بريطانيا العظمى له بل في وسعه ان يجتذب رضاها وهو لم ينقطع في يوم من الايام عن التودد اليها وان كانت لم تبال مبالات كبيرة بما يجري في اواسط بلاد العرب.

كما ان بريطانيا العظمى قد وجدت في الشريف حسين ملك الحجاز رجلا عنيداً لاينقاد بسهولة وهي وان كانت لم تتصل معه بأي معاهدة رسمية الا انها

كانت تجد نفسها مضطرة احتفاظاً بالشرف البريطاني وللعهود التي قطعتها على نفسها ان تقدم له كل مساعدة ممكنة في الوقت الذي يهدد الوهابيون عاصمة ملكه تهديداً حقيقياً. وليس هناك ادنى ريب في ان انتصار الوهابيين في موقعة تربه كان له اثره في اجبار الانكليز على تعديل رأيهم في ابن سعود.

انتعشت آمال الوهابيين عقيب هذا النصر الذي احرزوه، وفرحوا بما كان له من تأثير في مجرى السياسة الانكليزية في بلاد العرب فان ابن سعود كان لا يريد ان يقطع الامل من انكلترا لانه كان يرى انه اذا وفق في اجتذاب الانكليز اليه يكون قد نجح نجاحاً عظيماً.

وبلغ من اهتمام ابن سعود بالانكليز أن ارسل ابنه الثاني الامير فيصل الى لندن في مهمة « تهنئة ». وكان هذا الرسول الملكي لا يتجاوز الرابعة عشرة في ذلك الحين ولكن زيارته نبهت الانكليز الى وجوب مراعاة مصالح اخرى بجانب مصالح العائلة الهاشمية، والى أن في شبه جزيرة العرب قوة ينبغي ان يحسبوا لها حسابا. سافر الامير فيصل بن سعود من الرياض مع عمه احمد ابن ثنيان وسافر معهما المستر فيلبي الذي كان يعد المستشار الانكليزي المتخصص لشؤون نجد ولم تكن هذه الزيارة لغرض دبلوماتيكي معين ولكن نتائجها على وجه العموم كانت مرضية مفيدة.

وفي الوقت عينه وجد الشريف حسين، ملك الحجاز، بان آماله الكبيرة في الزعامة المطلقة على شبه الجزيرة لم تتحقق بعد ان فشيت اسرار اتفاق « سايكس بيكو » في سنة ١٩١٦ على تقاسم سوريا والعراق بين الفرنسيين والانكليز وعندما اعلن وعد بلفور وتعهدت بريطانيا العظمى لليهود بان تسهل لهم العودة الى فلسطين وان تجعلها وطناً قومياً لليهود. ولكن هذه الخيبة التي لاقاها الشريف حسين لم تكن شيئاً بجانب النزاع الذي هو قام بينه وبين ابنه فيصل في الحرب العالمية، فان فيصل قائد القوات العربية التي كانت تحارب في الصحراء لو لم يخالف التعليمات التي كان يتلقاها من ابيه لما استطاع ان يحقق غير جزء ضئيل من الاشياء التي استطاع تحقيقها.

وابى الشريف حسين ان يقدر موقف الحلفاء الدقيق والصعوبات التي جابهتهم عند ما حاولو التوفيق بين الوعود المتضاربة التي كانوا يقطعونها بسخاء لامراء العرب واصر على عناده فلم يبال بالامر الواقع ، ولم يكترث بحقيقة الموقف فكان يتوقع ابرام معاهدة انكليزية حجازية لا تصون مركزه في داخل بلاد العرب فحسب بل تجعل العالم كله ، خارج بلاد العرب ، يرى فيه سيد شبه الجزيرة ... اجل كان يريد المجد الشخصي ... ولكن المعـــاهدة لم توقع فتحطمت آمال الحسين . جاء لورانس الى جـــدة في سنة ١٩٢٠ وحاول اغراء الحسين بقبول شروط غير الشروط التي وضعها هو ففشل وعاد خائبا يقول بانه لا يمكن عقد اية معاهدة ترضى هذا الملك الطاعن في السن والمعجب بنفسه اعجابا يفوق الحد .

ولما وجد الحسين بان الامور تجري على غير ما تشتهي نفسه في خارج بلاد العرب صمم على توحيد كل جهوده لتوطيد مركزه في داخل شبه الجزيرة فاخذ يشير على امراء الحايل والكويت والعسير بمكافحة الوهابية وكتب عدة رسائل الى ابن الرشيد طافحة بالتحريض على الوهابيين كما انه ارسل عدة رسائل لحاكم اواسط امارة العسير .

اما خطابات التحريض هذه فقد جاء بها الجواسيس الى ابن سعود فلم تصل لاصحابها . وكان انتصار الوهابيين في موقعة خرمة قد جعل القبائل الواقعة على الحدود تستسلم للخيال وتفكر في المكان الذي ستحل به الضربة الوهابية الثانية فانه وان كان الوهابيون قد أحجموا عن الاحتشاد حول الحجاز الا انه كان من الجلي أن الاخوان في الوقت الذي يشعرون فيه بالحاجة الى « التوسيع » على انفسهم لابد أن « يتمددوا » ... على الاقل لقابليتهم للانتشار ... وان قواهم المدخرة لابد أن ينتفع بها عند الحاجة ، ولا يمكن ان تهدأ ثائرة الوهابيين بغير الفتوحات الجديدة ، والاسلاب الجديدة .

وصمم ابن سعود على تصفية الحساب مع العسير الواقعة بين الحجاز واليمن ، وكان جزء منها خاضعاً للحجاز وجزء لليمن ، وجزء للاتراك ، وجزء مستقل يتحكم فيه الادريسي وتعد العسير اول ولاية عربية اشتركت اشتراكاً فعليا في

الحرب العالمية بجانب الحلفاء. وبعد ان انتهت الحرب بين ١٩١٩ و ١٩٢١ اخذت تلعب لعبتها القديمة وتتسع على حساب جاراتها .

وفي صيف ١٩٢٠ جهز ابن سعود حملة كبيرة مؤلفة من خمسة آلاف رجل تحت قيادة ابنه الامير فيصل الذي قصد انكلترا قبل ذلك بسنة واحدة . أما أبها عاصمة نجاد العسير فتقع على مسافة سبعمائة ميل من الرياض أو مسيرة ثلاثين يوماً وكانت سفرة كهذه تعد شاقة دون ريب على قائد لا يزال صبياً ولكن هذا القائد الصبي المقتحم ، قد قام بمهمته بنجاح عجيب . ومع ان « الاخوان » قد هزموا في المناطق المنخفضة من العسير فانهم لم يحتملوا جو هذه الانحاء الفاسد وكان على النجديين أن يتقهقروا من ميناء (القنفذة) الا انهم تمكنوا من الانتصار في المناطق المرتفعة من العسير واستطاعوا الاستيلاء على عاصمتها ابها التي أصبحت اليوم من الاملاك الوهابية

وعادت حملة الامير فيصل سنة ١٩٢١ الى الرياض ظافرة مغتبطة ، ومنذ ذلك الحين والامير فيصل يسمى بطل أبها . وبينما كان ساسة الحلفاء يهدمون آمال الشريف حسين في شمال بلاد العرب ، ويحيطون مساعيه بحيلهم ومكائدهم كانوا يطلقون قوات خصمه تمرح حتى وصلت الى حدوده الجنوبية الغربية .

ولم يكتف ابن سعود بضم جزء من العسير الى أملاكه بل ذهب الى أبعد من هذا فاطلق جماعة من الاخوان ليأسروا قافلة جاءت من اليمن للحج الى مكة فوجد الشريف حسين ان الحالة لم تعد تحتمل وان مهابته اذا صبر ستضيع حتما . ولا ينبغي أن ننسى كبرياء الحسين واعتداده بنفسه ولكن ماذا عساه أن يفعل ؟ . .

انه وان كان قد ساعد الحلفاء على الانتصار في الحرب العالمية قد وجد بعناده انه أصبح في عزلة وان الحلفاء لا يبالون بوجوده بل انجاله لم يوافقوه على سياسته بل وضعوا أيديهم في أيدي الحلفاء تارة وناضلوهم تارة أخرى فاعتلى الملك فيصل بعد الحرب العالمية عرش سوريا بفضل الانكليز ولكن الفرنسيين في سنة ١٩٢٠ أخرجوه من سوريا وفي السنة عينها انتخب الامير عبدالله ليكون ملكا على

العراق ولكنه لم يذهب اليها . أتدري السبب ؟ لم يجد من المناسب ان يذهب ليحكم الشعب العراقي الذي كان لا يعرفه الا بمجرد الاسم .

ورأى الحسين ان انجاله يفكرون في تحقيق أمانيهم بوسائل أخرى غير تحدي الحلفاء وانهم لا ينوون النضال مع الوهابيين فلابد اذن من الاستعانة بغير هؤلاء الانجال على اكتساح خصومه فوقع اختياره على ابن الرشيد . وكان يناصره بل لم تكن صلات المودة قد انقطعت بينهما مطلقاً بالرغم من ميول آل الرشيد التركية وانتصارهم للاتراك في الحرب العالمية وأدرك الشريف حسين ان أسياد الحائل هم وحدهم يستطيعون قهر ابن سعود .

وأخذ الملك حسين يغري ابن الرشيد بالذهب ويمده بالاسلحة على أمل أن تنتقم قبيلة شمر والقبائل المجاورة لها من الوهابيين . أما ابن الرشيد فشعر بعزلته بعد الحرب العالمية ولهذا اغتبط بمساعدة الشريف حسين له للتشفي من ابن السعود الذي كانت العداوة بينه وبين آل الرشيد تكاد تكون موروثة . وحدثت حادثة غير منتظرة كانت السبب المباشر للاصطدام بين القوتين الرشيدية والسعودية هذه الحادثة هي اغتيال سعود بن الرشيد في أواخر سنة ١٩٢٠.

وكان هذا الزعيم على جانب عظيم من الذكاء والشجاعة بل على قسط كبير من القيادة والحنكة وهو الذي استرد اقليم الجواب المسلوب الذي اغتصبه نوري الشعلان زعيم قبيلة الرولا أثناء الحرب العالمية . وخلف سعود عبدالله بن متاب والذي لم يتمتع بالحكم غير سنة واحدة لضعفه . وشعر ابن سعود أخيراً بان الفرصة قد أصبحت سانحة للاتجاه شمالا الى القصر ولم يكن أحد اكثر من الاخوان تشوقاً واستعداداً للهجوم والقتال فانهم كانوا قد قضوا سنوات الحرب العالمية لا ينالون شيئاً من غنائم العراق والكويت .

وفي ربيع سنة ١٩٢١ وضع ابن سعود خطة الهجوم على ولاية الحايل فقسم جيوشه الى ثلاثة أقسام . قسم مع شقيقه محمد . وآخر مع فيصل الدويش زعيم قبيلة مطر المشهورة القوة رجالها المتناهية وثالث تحت سيادة نوري الشعلان . ولكن قبل ان يقوض أركان بيت الرشيد ويقضي عليه انتخب سلطاناً على نجد

وملحقاتها اذ اجتمع علماء نجد وقادالها ، واصحاب الامر والنهي فيها ، واتفقوا فيما بينهم على دعوة ابن سعود للرياض لتنصيبه على عرش نجد ولما عرضوا عليه هذه الفكرة لم يمانع ومن هو أجدر منه بعرش نجد ؟ وقد طلب أن تعترف انكلترا رسمياً بهذا العرش فاجابته الى طلبه في شهر آب فاطمئن بعض الاطمئنان للشعور الذي بدا من الانكليز ولكنه قلق عندما وجدان فيصل ابن الحسين وصل في شهر تموز الى العراق لاعتلاء عرشه .

صمم ابن سعود على مهاجمة الحايل وجعل القصيم مركزاً للقيادة العليا وأرسل فرقة تحت قيادة شقيقه محمود ، واخرى تحت قيادة ابنه سعود . وسعود هذا هو ولي العهد اليوم ونائب الملك في نجد أما شقيقه الاكبر الامير تركي الذي كان محبوباً من الوهابيين حباً نادراً فقد أصيب بالانفلونزا وتوفي بها سنة ١٩١٩ . اما حملات الوهابيين فكانت أشد من أن يحتملها الامير عبدالله ابن متاب فاخذت الضربات تتوالى عليه حتى أدهشته فلم يدر أيحارب نوري الشعلان من الشمال أم فيصل الدويش من الشرق ام القوى الوهابية الكبرى التي كانت تهاجمه من الجنوب . وقد أراد أن يكون فيلسوفاً اكثر منه جندياً فطرح نفسه تحت أقدام ابن سعود الذي أمر بأخذه أسيراً ثم عفا عنه وهو الى اليوم يقيم في العاصمة طليقاً .

وأبت الحايل الاستسلام دون نضال وقام محمد بن طلال مكان عبدالله . وكان الامير الجديد يمتاز عن سلفه بشيء من الارادة فأصر على المقاومة وحرض سكان الحايل على الثبات . ولكن قوات الوهابيين كانت عظيمة فاحتل نوري الشعلان الجوف الواقعة في الشمال . كان رجال الدويش لا يقلون عن الالفي رجل من أشد قبيلة مطير ولكنهم تريثوا فلم يبدأوا القتال حتى نفد صبر محمد وامر بالهجوم على الاخوان ودافع فيصل الدويش دفاعاً قوياً واسرع ابن سعود لنجدته فهرب محمد الى الحايل . ولم تستطع العاصمة ان تقاوم اكثر مما قاومت بعد حصار استمر ثمانية اسابيع . ولا يزال محمد يعيش اسيراً في الرياض .

وفي كتاب الاستاذ امين الريحاني عن ابن سعود فصل شائق ممتع عن عائلة الرشيد

التي اضطرت الى الاستسلام اخيراً للحكم السعودي وما زالت تعيش في امان وهدوء منذ ١٩٢٢ .

ترك الشريف حسين مكة بعد ان تخلى عن الملك في التاسع من تشرين الأول سنة ١٩٢٤ قاصداً الى جدة في سيارة (مسلحة) خشية ان يتعرض له احد رعاياه الجحودين . وبعد اسبوع ابحر من جدة ، مع اسرته الكبيرة العدد ، ومعه صناديق الذهب في يخته البخاري الخاص قاصداً العقبة الواقعة على البحر الاحمر ولم يقم الملك حسين في المدينة ذاتها بل في احدى ضواحيها . وكان بقاء الحسين في العقبة في نظر السلطات الانكليزية من اكبر العوامل على استفزاز الوهابيين للحملة على منطقة (معان — العقبة) التابعة لامارة شرق الاردن الواقعة تحت الانتداب الانكليزي ، فأوعزت الى الحسين ان يغادر تلك المنطقة .

اما هذا الملك العنيد الطاعن في السن فقد استشاط غضباً من الايعاز الانكليزي ولم يكتف الانكليز بضم هذه المنطقة للاملاك الواقعة تحت انتدابهم بل عمدوا الى طرد الحسين بعد ان رفض رفضاً باتاً قبول ايعازهم له بالرحيل .

سافر الحسين في حزيران سنة ١٩٢٥ مرغماً الى نيقوسيه من اعمال قبرص واقام في هذه الجزيرة مع اسرته . ولم ينس ان يأخذ معه خيوله العربية الاصيلة التي كان يتلهى بها وبقي في هذا المنفى الى بداية سنة ١٩٣١ ثم تركه لزيارة ابنه الامير عبدالله في عمان وهناك انتقل الى رحمة ربه في رابع حزيران ودفن خارج السور الغربي من الحرم الشريف بعد ان مشي في جنازته عشرات الآلاف من اعيان عرب فلسطين وشرق الاردن والاقطار العربية المجاورة .

وكانت سنوات الحسين الاخيرة ذات اهمية خاصة في نظر الوهابيين الذين أبوا الا فتح باب المفاوضات في قضية الحدود على مصراعيه لايجاد حل نهائي يحدد التخوم بين شرق الاردن ونجد وكان كل من الحسين وابن السعود ينظر الى منطقة (العقبة — معان) على انها جزء لا يتجزأ من الحجاز اما الانكليز فكانوا لا يشاطرون هذين العاهلين رأيهما هذا . ولما صمم ابن السعود على فتح الحجاز كان يعلم انه سيكون لحملته صدى بعيد في العالم الاسلامي لهذا بذل اقصى

جهده لتجنب انتقاد المسلمين على الحملة التي ينوي القيام بها فخاطب العالم الاسلامي قائلا : اننا مسلمون مثلكم نؤمن بالله كما تؤمنون ونعتنق دين محمد كما تعتنقون ولكننا نخشى ان يخدعكم الحسين فيسلبكم رجالكم أو اموالكم . ما نحن الا اخوة لكم نعمل لمجد الاسلام ونرى من واجبنا المقدس نحو الله ان نطهر الحجاز تطهيراً تاماً .

وفي السادس عشر من تشرين الأول سنة ١٩٢٤ ، بعد احتلال الوهابيين لمكة صرح ابن السعود بأن النجديين لا ينوون امتلاك الحجاز بل يتركون للعالم الاسلامي أن يقرر مستقبل الاراضي المقدسة لا بد من عقد مؤتمر للبت في هذه القضية . وبعد أسابيع قليلة أذاع ابن السعود وهو في الرياض بياناً على العالم الاسلامي قال فيه : لقد دخلت جيوشنا مكة في الرابع عشر من تشرين الاول سنة ١٩٢٤ واننا مغتبطون اشد الأغتباط للاحترام الذي بدا نحو الاماكن المقدسة وكان بمقدور الفاتحين ، لو ارادوا أن يشقوا لهم طريقاً بالقوة ، ويدخلوا البلاد عنوة ، ولكنهم أبوا الا احترام الأماكن المقدسة ، فلم يسفكوا دماء أحد احتراما منا لتراثنا المقدس .

واخيراً قرر الحلفاء ان يسمحوا للفرنسيين بان يحكموا سوريا ، التي حكمها فيصل زمناً قصيراً ، على ان يتركوا شقة الارض الواقعة في شرق الاردن تحت الانتداب البريطاني ! . .

وكانت هذه الحركة التي قام بها الحلفاء على اكبر جانب من الاهمية في نظر ابن السعود الذي كان لا ينقطع عن التفكير في ايجاد المواصلات بين مملكته والمملكة السورية وكان مفتاح المواصلات في يدي نوري الشعلان زعيم قبيلة الرولا المسيطر على منطقة الجوف والقرى الواقعة في وادي سرحان المشهورة باملاحها ومع هذا فان العروبا غدا الوهابية كانت تعمل عملها في هذه الاراضي التي كانت النفوس طامعة بها وليس ثمة ريب في ان ابن سعود قد ادعى بانها جزء حيوي من املاك الحايل . وكان نوري الشعلان ابعد الناس عن الطموح نظراً لكبر سنه وانغماسه في لذائذ الحياة فاسرع الى الفرنسيين وعرض الصلح

عليهم وطاب الوفاق ثم عاد الى الانكليز في شرق الاردن واعلن رضاه عن الشروط التي يطلبونها . وعلى هذا حدث في ربيع سنة ١٩٢٢ أن ارسلت حكومة شرق الاردن نائباً عنها مع ممثل الحكومة الانكليزية في تلك البلاد — المستر جون فيلبي الذي كان في ١٩١٧ — ١٩١٨ في بلاط ابن سعود في الرياض، وفي ١٩١٩ اصطحب الامير الوهابي فيصل الى لندن — لمقابلة نوري الشعلان الذي لم يعارض رغبة الانكليز في ضم امارة الرولا ومن بينها الجوف وسكاكا الى شرق الاردن .

وكان لهذه الموافقة من نوري الشعلان اثرها في نفس ابن سعود فارسل في الحال جماعة من الاخوان « لمداعبة » اهالي الجوف او بالاحرى لنهب ما يمكن نهبه منهم كما انه طلب بشدة من نوري الشعلان ان يعلن خضوعه لعظمته وعرض عليه بعض الشروط المستحيلة .

ولعب التحريض الوهابي دوره ونجح الاخوان في احداث الهياج في « سكاكا » اكبر قرية في واحة الجوف وسرعان ما ارسل ابن سعود حملة وهابية لمساعدة الثائرين ولما لم يجد الوهابيون مقاومة تذكر ضموا هذه الواحة في تموز سنة ١٩٢٢ الى الاملاك الوهابية . وكان هذا التوغل من الوهابيين لقصد حربي وتجاري معاً كما انه ساعد القبائل النجدية على الاتصال بالحضارة والعمران

واخذ الناس يتساءلون هل يستطيع الوهابيون مقاومة سحر الغنائم ، كانت التجربة اعظم من ان يحتملوها واقوى من ان يتغلبوا عليها وكانت مغناطيسية الاسلاب تجذبهم بقوة اعظم مما عندهم من قوة الارادة ففي الشهر التالي سار الف من الاخوان الاشداء الى القصر الازرق ، ذلك المركز العسكري الروماني الذي كثيراً ما تحدث عنه لورانس في مؤلفه «لورانس في بلاد العرب» ومن هناك انحدروا الى الجهة الغربية ونهبوا كل ما وجدوه بعد ان اظهروا في قتالهم وحشية فظيعة . اما ضحاياهم فكانوا ينتمون الى قبيلة بني صخر القوية .

هجم الاخوان ولا موضع للشفقة في قلوبهم على الخط الحجازي وانصبوا على اعدائهم كالشلالات الجارفة حتى استقرت اقدامهم بالقرب من قرية صغيرة تبعد

عن شرق عمان عاصمة امارة شرق الاردن خمسة عشر ميلا تسمى التنيب ولم يكن فيها غير ٣٥ شخصاً بين رجال ونساء واطفال فلم يبقوا على احد منهم وبعد تلك المذبحة الصغيرة ارادوا الانتقال الى قرية جديدة فرأتهم طيارة وسرعان ما حذر قائدها قوة الطيران الملكية في عمان ولم يكن بالامكان منع الوهابيين من تقتيل سكان القرية المجاورة .

ولكنهم لما ارادوا الاجهاز على سكان القرية الثالثة كانت الطيارات الانكليزية والسيارات المسلحة وعدد كبير من عرب بني صخر قد وصلوا لمقابلة الوهابيين فافنوهم عن آخرهم ولم يبق نجدي واحد يصف ما وقع في تلك المعركة الحامية ليحدث الاخوان عما وقع بل ليحدث العرب عما فعلوه بالعرب !

وكان هذه اول مرة تقاتل فيها الطيارات الانكليزية الوهابيين وفي الواقع ان البدوي الذي يتجول في الصحراء على جملة لا يستطيع ان ينجو من شر الطيارات التي اصبحت اقوى سلاح يمكن ان ينتفع به في مقاتلة البدو وان المخاطبات اللاسلكية والطيارات والسيارات الحربية ستحول فدافد الصحراء القاحلة الى شيء آخر .

ونكاد نجزم بان الوهابيين لا يشعرون من جانبهم بأي محبة للعراقيين او الاردنيين ، لا لشيء سوى انهم يقبلون أن يحكموا من افراد ينتمون للعائلة الهاشمية ! ...

ومن الجلي ان الوهابيين لا يثقون باحد من البيت الهاشمي كما ان عدم الثقة « امر متبادل » ! هذا ما طاب لنا اخذه لتاريخنا اتماما لما نشرناه في الجزء الاول ومتعلق به . فمن شاء التوسع في هذا المضمار فليرجع لأصل ذلك الكتاب للرحالة الكبير كونت ويلنز .

كنت ارغب نشر صك الانتداب الافرنسي على هذه البلاد لكن لما رأيت نشره غير واحد في تاريخهم ثم طبع على حدة وجدت من المناسب عدم نشره حبا في الاختصار ومراعاة لمسلك تاريخنا وفي الختام احببنا ان نذكر كلمة وجيزة عن العالم الاسلامي كيف ينهض فنقول .

لقد اتى على العالم الاسلامي حين من الدهر كانت فيه شعوبه عزيزة الجانب عظيمة الشكيمة تهابها امم الغرب العظيمة القوية . ولقد نبغ منهم اعاظم القواد الفلاسفة ومن منا ينكر شجاعة ذلك القائد القدير محمد الفاتح الذي خشيته دول أوربا بأجمعها او ينكر همة ذلك القائد الحربي العظيم صلاح الدين الايوبي الذي اعترف له ريكارد احد ملوك انكلترا بالبسالة والمقدرة .

ولقد شاءت المقادير واراد الله ان يقلب عز المسلمين ذلا ، وان يحول شغفهم بالعلوم والمعارف الى شغفهم بالملذات والشهوات ، وبعد ان كانوا يعملون على توسيع سلطتهم وازدياد سطوتهم ، اصبحوا يعملون على التخلص من ربقة الذل والعبودية ، وبعد ان كانوا مقبلين على تعاليم الاسلام الحقة . عاملين بما امرهم به هذا الدين ، اصبحوا مقبلين على مدنية اوربا السريعة الزوال وتركوا تعاليم دينهم الحقة ، واصبحوا بمنأى عن ميدان الفضيلة وسادهم الخنوع والجبن حتى اصبحوا كأنهم في سبات عميق ...

وبديهي ان كل مسلم محب لدينه ووطنه لا يرضى ضميره ان يقف امام هذه التدهور والانحطاط الذي لحق العالم الاسلامي مكتوف الايدي عازب البال ، فانه ان لم يقم ويعمل جهد طاقته على اصلاح حال المسلمين ورفعهم عما ترديوا فيه كان مسئولا امام الانسانية .

ونحن اذا نظرنا الى الكتاب وقادة الرأي في العالم الاسلامي اليوم وجدنا ان غالبيتهم قد قصروا تمام التقصير في القيام بانقاذ المسلمين مما هم فيه وتلهوا بما لا يعود عليهم وعلى العالم الاسلامي بالنفع الجزيل .

نريد كتابا يعملون على ايجاد العلاج الناجع لانتشال المسلمين من تدهورهم وانحطاطهم . نريد رجالا يكتبون بما في نفوسهم من حمية اسلامية وغيرة دينية، لا ان يكتبوا الغرض في نفوسهم أو لاكتساب شهرة جوفاء .

نريد كتابا يدافعون عن هذا الدين الحنيف كدفاع ذلك الوطني العظيم المغفور له مصطفى كامل باشا الذي قال « يخرجنا بنو الغرب وادعياء التمدن من دائرة الانسانية ، ويقف خطباؤهم والقرآن الشريف في ايديهم ويخبطون قومهم » بان

العالم لا تتم له السعادة المبتغاة الا اذا زال هذا الكتاب من الوجود ، والله يعلم والتاريخ يشهد بان القرآن حقن دماء البشر وحفظ الارواح والاعراض وصان للمسيحية اعز ابنائها الذين تفتخر بهم الآن في وقت كانت فيه الكلمة كلمته والسلطة سلطته والسلطان سلطانه .

نريد رجالا يذودون عن حياض هذه الملة الزهراء كذود المغفور لهما الشيخ محمد عبده والاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش صاحب « الاسلام غريب في بلاده » .. نريد ان نرى من علمائنا من يقوم ويعمل على انتشال العالم الاسلامي من تدهوره المزري . نود ان نسمع صيحات هؤلاء العلماء وهي تطبق الآفاق مسادين الشعوب الاسلامية كي تتحد باثين في نفوس افرادها روح النخوة الاسلامية ناشرين بينهم تعاليم الاسلام التي تركوا العمل بها ونسوها ايما نسيان .

ومما يدعو الى الاسف ان لا نجد بيننا كثيراً من الصحف الاسلامية التي توقف كتابتها على خدمة الاسلام واهله ولكننا نجد ان كثيراً من الصحف التي بيننا الآن قد كرست خدمتها على الاشتغال بالسياسة العمياء حتى اصبح الدين لديها من الامور الثانوية التي لا تعرها شطراً عظيما من العناية ..

وبلغت حال المسلمين من عدم تمسكهم بدينهم ان صاروا ينظرون الى الصحيفة ويقبلون عليها طبقاً لخطتها السياسية ، ولما تكتبه من المواضيع السياسية ، او لما تنشره من صور مخلة بالآداب أو ألفاظ مثيرة لكوامن الشهوات ، ولم ينظروا الى الصحيفة من وجهة خدمتها للدين كأنهم في واد وهذا الدين في واد آخر .

يجب ان نعرف اننا اذا ما تركنا تعاليم ديننا الاسلامي الحقة واهملنا اوامره واحكامه محال ان نتقدم في اي عمل من اعمالنا سواء أكانت اقتصادية أم سياسية .

واذا ما نظر المفكر الى شعوب العالم الاسلامي المختلفة الآن لوجد ان التفرق والتنابذ قد دب بين افرادها ، ومن هؤلاء من ناوأ أخاه المسلم وعمل على الكيد له والانتقاص من مكانته ، وساعد الاجنبي ضده مما سهل لهذا الاخير ان يقبض على سلطان المسلمين ويستولي على كثير من املاكهم .

واذا ما قام مصلح ونادى الشعوب الاسلامية بأن يتحد افرادها ويلموا شعثهم

ويؤلفوا عصبة اسلامية تضم الامم الاسلامية كهذه العصبة التي تضم امم الغرب بل وسهلت السبيل ايضاً لانضمام امم الاسلام فيها اذ ان هذه الامم الغربية تعمل دائماً على ان يكون العالم الاسلامي رهن اشارتها . لذلك سهلت لامه الدخول في هذه الجمعية التي اسست على متون استعمارية محضة وليست على متون الحق والسلام كما يدعي مؤسسوها .

نقول اذا قام المصلح ونادى بذلك لوجد حملات بعض الكتاب المغرورين قد أتت عليه من كل جانب عاملين على انتقاض فكرته وهدمها مدعين في ذلك بأن الامم الاسلامية في غاية من الضعف فكيف يمكنها ان تكون عصبة تعمل على اصلاح حالها وتقوية سطوتها .

ونحن نرد على من يقول بذلك بقولنا انه اذا كانت امم الغرب المسيحية قد كونت عصبة حتى تعمل على تقوية كلمتها وسلطانها على الامم الضعيفة الاخرى ومن بينها الامم الاسلامية . فأحرى واولى بأمم العالم الاسلامي ان تقوم وتكون عصبة منها تعمل على انتشالها من ربقة الذل والعبودية .

وهل ينكر احد ان تفرق المسلمين وتنابذهم وتطاحنهم كان سبباً في ضعفهم وضياع املاكهم ووقوعها في ايدي الغاصبين . كل ما تتمناه اوروبا ان تجد المسلمين متفرقي الكلمة وان تجد البغض والحقد قد دب بينهم حتى يمكنها ان تزيد سلطتها عليهم ويقوي نفوذها على زمام امورهم .

يجب ان يعرف كل مسلم انه مسئول امام ربه عن اهماله في قيامه بالعمل على انتشال العالم الاسلامي مما هو فيه من الذل والعبودية . يجب ان نعمل للدين قبل ان نعمل للسياسة فاننا اذا ما عملنا للاول كتب لنا النجاح في الثانية .

يجب ان نعرف ان أوروبا تعمل كل جهدها في خلق الوسائل المختلفة التي بها تقضي على الدين الاسلامي . إذ في قضائها عليه . قضاء على العالم اسلامي والمسلمين ولكن انى لها ان تنال شيئاً مما تتمناه وهيهات ان تفوز بغايتها .

يجب أن يعمل كل مسلم بما امره به دينه الاسلامي ويرتشف من مناهل العلم

ما يثقف به فكره . واجب عليه ان يعمل ويجد ويدع التواني والخمول. واجب عليه ان يخفف من تهافته على الملذات والشهوات وان لا يتعلق بمدنية أوروبا بما فيها من مفاسق واباحيات . فقد تقدمتنا امم الغرب بمراحل عظيمة في سبيل الرقي والحضارة فمن الواجب ان نثب وثبات عظيمة حتى نلحقهم فيما هم فيه من رقي وحضارة : وواجب على حكومات العالم الاسلامي ان تتبادل صلات المودة والصفا وان تكون كلها كتلة واحدة على الغاصبين وجدير بحكومة مصر الناهضة ان تكون زعيمة تلك الحكومات الاسلامية . فبذلك كله يتقدم المسلمون وتعلو كلمتهم وتزيد سطوتهم ويستعيدوا سطوة آبائهم الاولين .

اما أن ينظر كل مسلم الى منفعته الشخصية اما ان نقلد الغربيين في مجونهم وفسوقهم وندعي في ذلك التمدين والحضارة . اما أن نرشق بعضنا البعض بالسباب ونتنازع على اتفه الامور ونجعل السياسة شغلنا الشاغل وان نفكك أواصر الاتحاد بيننا . فهذا ما يرجع بالمسلمين القهقرى .

اعملوا أيها المسلمون على ما يرفع كلمتكم ويعلي مكانتكم . واعلموا ان أوروبا تعمل ليلا نهاراً على هدم دينكم فان لم تتداركوا حالكم من الآن فسوف يأتي يوم لا يرجى لكم بعد صلاح . واعلموا ان الله لا ينصر الا من عمل صالحاً يعود عليه وعلى المسلمين بالخير الجزيل وانه نعم المولى ونعم النصير .

ومما يجدر اخذه للتاريخ نقل ما كتبته مجلة الفتح مما يتعلق في العالم الاسلامي قال : من نصيحة المسلمين الواجبة حضهم على التفكير بفرض من فرائض دينهم وواجب من واجبات شريعتهم ، درسته السياسة فيما درست ، وأتت عليه التفرقة فيما أتت ، فنسيه العالم والجاهل . وترك البحث فيه القادر والعاجز . واعني به البحث في امر الخلافة الكبرى والامامة العظمى التي هي احدى الوسائل المؤدية الى لم شعث المسلمين وجمع شتاتهم والدعامة التي يرتكز عليها اصلاح امرهم .

نعم ترك الناس البحث عن امر الخلافة حتى كأنه ليس من الامور الواجبة عليهم ، وكأنه وهو رمز وحدتهم وحجر الزاوية في بناء صرح قوتهم ليس من الامور النافعة لهم ولا من الاسباب الرافعة لذكرهم .

سبحانك اللهم تخاذل المسلمون ، وتعادى قوادهم ، وتدابر اهل الرأي فيهم فكاد لهم عدوهم وقبض على صولجان الحكم فيهم ، وتسلط على موارد ثروتهم، واستعمر بلادهم ، وهدم بنيان جامعتهم ، وقوض بدسائسه بناء خلافتهم وحبب اليهم لغاته ، وزين في قلوبهم عاداته فاصبحوا ولا جامعة تجمعهم ، ولا خلافة تحوطهم وتمنعهم ، ولا وحدة تضم شتاتهم ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى وتظنهم ايقاظاً وهم رقود . زالت الخلافة منهم فأمسوا كقطيع الغنم مات راعيه فانتابته الذئاب . والفضل في هذا كله يعود على الحكام الاول فعلى يدهم تم تقويض هذا البناء العالي وبسعيهم انهار بناء هذا المجد الشامخ ، وعليهم وحدهم تحمل تبعة هذا الذل المخيم على رؤوس المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، واليهم يعزى كل أذى اصاب المسلمين من اعدائهم .

اما وقد حدث ما حدث ووقع ما وقع فما بال قواد المسلمين وزعمائهم اليوم عن تداركه ساهون لاهون بملكهم وامارتهم ؟ ما بالهم لم يجتمعوا على امير يجمعهم ولم يلتفوا حول خليفة ليكون مرجعهم ، بل ما بالهم لم يفكروا في هذا الامر اصلا ولم يعيروه التفاتا حتى كاد هذا المنصب العظيم الشأن يمحى من الاذهان كما محي من الاعيان ، فلا يذكره ذاكر ولا يبحث عنه باحث ، رغماً عن انه مناط امل الآملين وموطن الرجاء في تقدم المسلمين .

فالى التفكر في وسائل احيائه ادعوا جميع المفكرين والى الاهتمام بشأنه انادي الاحياء من المسلمين فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم (من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) اي مات كما يموت اهل الجاهلية في الضلال والفرقة .

وبهذه المناسبة نزين كتابنا بنشر ما ورد الينـــا من جلالة ملك العرب وعاهل الحجاز وسلطان نجد خطاباً عاماً يبشر به العالم الاسلامي أجمع عن حسن نياته واعماله تجاه البلاد المقدسة واهلها وشغفه باتحاد كلمة المسلمين واجتماعهم في البلد الامين لصيان كيانهم وتعارفهم قال :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود الى جناب الاجل المكرم الشيخ الفاضل السيد أديب تقي الدين الحسيني امام الجامع الاموي بدمشق ونقيب الاشراف السابق حفظه الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد وصلنا كتابكم المؤرخ ١٥ رجب سنة ١٣٤٤ وما ذكرتم به كان معلوم . خصوصا تهنئتكم لنا بما من الله علينا من الفتح المبين ، وتوفيقه لنا بتطهير الحرمين الشريفين من ادناس الظلم والجور والفساد . فنشكركم على ذلك . ونسئل الله ان ينصر دينه وكتابه ، ويعلي كلمته ويجعلنا من انصار ذلك ويعيننا على ما اوجب علينا من القيام بامر هذا الدين القويم . أما احوال الحجاز فهي لله الحمد تسر من جميع الوجوه ، فالامن مستتب في عموم أنحاء الحجاز ، والعدل باسط لوائه والشريعة الاسلامية قائمة ومنفذة احكامها . وابواب الحرمين الشريفين مفتوحة لمن يقصدهما . والمسلمين احرار في اداء شعائرهم الاسلامية ، وزيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرى حجاج هذا العام ما يسرهم من الراحة والهناء . نرجو الله ان يوزعنا شكر نعمه . هذا ما وجب بيانه والله يحفظكم والسلام عليكم هذا ما ورد الينا من المملكة الحجازية والسلطنة النجدية في ١ رمضان سنة ١٣٤٤ برقم ٤٣ ؟

المسألة السورية في صحف ايطاليا

نشرت جريدة « لا فورو فاشيستا » حديثا للجابري بك عن المسألة السورية قال فيه ان هذه المسألة مرتبطة بمسألة البلاد العربية اي بالنظام الذي اتبع في هذه الاقطار الشرقية بعد الحرب الكبرى . وقد اشتركت سوريا في الحرب الى جانب الاقطار العربية الاخرى بالاتفاق مع الحلفاء على امل الحصول على الاستقلال . واذا كان العرب قد قاتلوا الاتراك فذلك لان انكلترا كانت قد عقدت اتفاقا مع الملك حسين وعدت فيه بتحقيق الوحدة العربية ولكنها بعد الحرب لم تحفظ بهذا الوعد ورأت بالاتفاق مع فرنسا اقتسام البلاد العربية .

وقد كان يتعذر ضم هذه الاقطار العربية الى املاكها بفضل معارضة الرئيس ولسن . فأدت الحال الى ابتداع نظام الانتدابات الذي لم يمكن تطبيقه في سورية الا بوسائل القوة . ثم انتقد السياسة الفرنسوية لتجزئتها سوريا وندد بالمعاهدة الموضوعة لابرامها بين فرنسا وسوريا لانهــا لا تحقق اماني السوريين الذين يريدون الاستقلال وهو استقلال اذا احرزته سوريا تجني فرنسا منه فائدة عظيمة

عقد الوطنيون في اوائل هذا العام مؤتمرهم في حمص ، وبحثوا فيه مشروعاً عظيم الخطورة والاهمية ، طال التحدث فيه في المدد السابقة ، وكثرت الملاحظة بضرورة ذلك . هو مشروع التنظيم الذي وضع رجال الكتلة الوطنية هيكل اسسه التي سارت عليه قضية البلاد شوطاً بعيداً ، بلغ هذا التنبه مداه ان تكون الحركة في جميع انواعهــا مقيدة بنظام يتحتم احترامه فلا يحيد عنه صغير ،ولا يتجاهله كبير ، طبق شعور الامة العام ، لا يخرج عليه الا من خرج عن وطنيته ورضي بغير الايمان القومي دينا .

لقد وجدت الكتلة الوطنية يوم اعلنت الانتخابات للجمعية التــأسيسية في شباط عام ١٩٢٨ م . وانضوى تحت لوائها العاملون في حقل الوطنية ، فكان بينهم من قضى عقدين من حياته جنديا عاملا ، ومن شب وشاب على فكرة الوطنية ، غير هياب من اجلها ، ومن يباشر حياته الوطنية بمعركة الانتخابات . وقد كانت الكتلة الوطنية في ذلك الحين تحمل في يدها دستوراً عادلا للبلاد يعبر عن امانيها ، ويعتبر فاتحة مباركة لعهد استقرار البلاد . افتتحه المفوض السامي المسيو هانري بونسو ، ليصل في نهايته الى حل المشكلة السورية . ولكن ظروفاً غير محسوبة حالت دون استمرار الجمعية التأسيسية في عملها حين ابتداء اجتماعها المنعقد في دمشق في اول سنة ١٣٤٧ هـ . وانتخب اكثر اعضائها من خيرة الرجال لأجل وضع دستور البلاد ، فكان نتيجة الأمر تأجيــل ، اعقبه تأجيل ، ثم حل ، وكانت حكومة موقتة لم يطل امرها (نوهنا عنها في الجزء الثاني من كتابنا) نشر الجانب الفرنسي في عهدها دستورا من وضعه ومن مكتب الجمعية تبودلت الارا بصدده ومواده ، ارسله العميد الى وزارة الخارجية

الفرنسية لتعرضه على جمعية الامم مع الاشارة الى المواد التي عدلها الفرنسيون من انفسهم ووافقت عليها وزارة الخارجية الافرنسية وان لا ينفذ هذا الدستور الا بعد انتخاب المجلس النيابي الجديد الذي سيعقد في دمشق ويكون له الحق بالموافقة على الدستور والغاء الانتداب وقبول المعاهدة في مكانه التي يحدد فيها من جديد رضى جمعية الامم شروط تطبيق الانتداب وفقاً للمادة ٢٢ من ميثاق هذه الجمعية مراعاة لما يكون قد تم من التطور والترقي .

مذكرة الجمعية التأسيسية السورية لفخامة المفوض السامي

تعودون من رحلتكم هذه ونحن نرحب بكم راجين ان يكون التوفيق قد كلل المهمة التي تكررت رحلاتكم في سبيلها لا سيما وان الحملات الصحفية التي أثارها في العام الماضي خصوم الاتفاق بين البلدين لم تزعجكم هذه المرة ان الامل الذي اعتصمنا بحبله بالرغم من تأجيل جمعيتنا التأسيسية ثلاث مرات متواليات بعثته فينا وعودكم التي كتبتموها في رسالتكم الاخيرة الى الرئيس اذ قلتم « ان التقدم الذي بلغناه في سبيل التفاهم سيتقوم ويزداد متانة وان النجاح المنتظر سيأتي مكللا جهودنا وحسن نياتنا بالخير » .

وعلى هذا احتفظت الامة السورية بالصبر كما كنتم ترغبون وهيأت جواً هادئاً وظروفاً ملائمة لابلاغ الازمة الى منفذ امين سعينا ولم نزل نسعى معاً على ايجاده واننا لنحسب الآن ان المدة الطويلة بعد اول تأجيل للجمعية كافية للوصول الى الحل المطلوب . ولهذا يصعب على مكتب الجمعية التأسيسية ان يظن بانكم لا تحملون في عودتكم هذه الحلول التي توافق اماني البلاد . اما اذا كنتم لم توفقوا الى ذلك فان مكتبنا يرى من واجبه ان يلفت نظر فخامتكم الى ما وصلت اليه الحالة من القلق وعدم الاستقرار . والى انه قد آن الاوان لوضع حد نهائي لهذا الحال المؤسف . وكما انه « لا يمكن حل الخلاف الذي سبب انقطاع اعمال الجمعية التأسيسية عن عملها . في ظل سوء التفاهم او جهل الحقائق » — كما قلتم في رسالتكم للرئيس بتاريخ ٥ شباط ١٩٢٩ فكذلك لا يمكن حل الخلاف في ظل

الغموض او بالاغضاء عن حقائق التي سارت بمصر والعراق هذا الشوط البعيد من مراحل الاستقلال ، ولا بالاصرار على البلاد لانتزاع عهود منها تخالف امانيها ويستحيل على اية حكومة تنفيـــذها ، ولا بتحويل الانظار الى المشاريع الاقتصادية . وانما يحل ذلك الخلاف بالاذعان لمنطق الحوادث التي لاتزال تؤيد حتى اليوم ان الامة السورية لا تستكين في اي حال ما لم تحقق امانيها المشروعة هذه الاماني التي لا تنطوي على اي معنى من العداء للامة الافرنسية .

وبعد فليس في نطاق الحقوق الدولية ما يخالف العمل الذي قامت به الجمعية التأسيسية : او لم تنتخب هذه الجمعية لتضع الدستور بملء الحرية كما صرح بذلك في افتتاح المجلس المفوض من قبلكم والذي يأتمر بامركم الشيخ تاج الدين افندي ؟ ومع ذلك فقد اوقفت اعمال المجلس عندما كان يقوم بمهمته بحجة ان بعض مواد الدستور الذي اقره النواب تتعارض مع شيء اطلق عليه اسم (الحق العام) ثم ايدكم في رأيكم هذا ممثل فرنسا امام لجنة الانتدابات .

غير اننا نرى ان العراق وهو لا يختلف في شيء عن سوريا من حيث وضعه الدولي وموقفه الحقوقي الناشيء عن ذلك الحق العام الذي استنبط من البند الثاني والعشرين من عهد جمعيه الامم — ان العراق مع ذلك قد استبدل انتدابه بمعاهدات عقدت بينه وبريطانيا في ازمنة مختلفة وقد حصل هذا ولم تعارض عصبة الامم فيه ولم تر انه اخل بالحق العام ، ووافق عليه مندوب فرنسه في مجلس العصبة في جنيف . ولقد كنا نحسب ان تحويل الانتداب الى معـــاهدة قد اصبح امراً مفروغاً منه بعد ان اقره المسيو دي جوفنيل عام ١٩٢٦ ووافقتم فخامتكم على هذا الاقرار في ظروف متعددة اخصها خطابكم امام الجمعية التأسيسية يوم حزيران ١٩٢٨ اذ قلتم وعندما تنتهون من مهمتكم هذه — اي وضع الدستور — يكون قد حان الاجل لتشييد العلاقات ما بين فرنسا وسوريا على دعائم امتن تتفق مع ما تصبو اليه نفوسكم وتتوق اليه نحن ايضا لان اجراء المفـــاوضات اللازمة لابرام معاهدة تفسح لنا مجالا لاستنباط طرق الحل لجميع المسائل التي تشغلنا على السواء » . واننا نجيز لانفسنا بعد هذا البيان المختصر ان نكرر اننا لم نفقد النظر

الى حقائق الاشياء ولم تفقد الروح السياسية ولم تكن قط حيث اراد المسيو دوكه ان يضعنا في ما كتبه في تقريره لجنة الانتدابات .

وفي الختام نغتنم هذه الفرصة لنؤكد لفخامتكم اننا مع رغبتنا الحارة بدوام عهد الصداقة والتفاهم لا يسعنا الا التصريح باننا لا نؤمل نجاحاً لاية خطة ترسم لحل القضية السورية ما لم تكن قائمة على قاعدة التحرير التي اتبعت في العراق ومبنية على اساس استقلال سوريا وسيادتها القومية وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

بيان من اللجنة التنفيذية في مصر

جاءنا من اللجنة التنفيذية البيان الآتي : تبث الدعاية في داخل سوريا وخارجها للمعاهدة التي ينوي الفرنسيون عقدها مع الحكومة السورية ليجعلوا علاقاتهم بالبلاد قائمة على اساس مشروع . وهذا الاساس الذي وضعه الفرنسيون وبسطه مندوبهم في عصبة الامم يدل على ان المعاهدة المراد عقدها سينقصها الركنان الاساسيان من المطالب الوطنية اي الاستقلال الحقيقي والوحدة الصحيحة ، فان الاستقلال سيكون مقيداً فيها بقيود تلغيه ، وستكون الوحدة مقتصرة على المدن الاربع بحيث تبقى سوريا مهشمة ممزقة لا امل لها في الحياة السياسية ولا الاقتصادية . فالاستقلال والوحدة ركنان متلازمان لا ينفك احدهما عن الاخر ، وكل امل يعقده الفرنسيون بابرام معاهدة لا تقوم على هذين الركنين امل محكوم عليه بالفشل واذا كانت الامم لا تستطيع في هذا العصر ان تحيى حياة مستقلة الا بوحدتها القومية التامة فكيف يستطيع جزء صغير كسوريا العربية ان يعيش دون الكل وهو ممزق الى دويلات متعددة ؟

ولا تزال السلطة الفرنسيوية في سوريا تعتمد على الزمن وتعده العامل المهم في تحقيق غايتها الاستعمارية وخصوصا بعد ما ظنت ان في طاقتها الاستعانة بنفر من اهل البلاد قد يزعمون انهم قادرون على تخدير الاعصاب بالمواعيد الخلابة والتلبيس على الامة .

من المحتمل ان يحاول المحتلون التفريق والتمويه بنوع مشوه من الوحدة

الاقتصادية او غيرها يكون شرا من التجزئة الحالية ولكن الامة اليقظة لن تنخدع بهذا التمويه فتقبل بما يريد المحتلون فرضه عليها وهو ان تخضع الان لحكم « جمهورية المدن الاربع » التي اسسوها وتخول هذه الجمهورية ان تعقد معاهدة مع فرانسا يقال انها ستكون مقدمة لدخول عصبة الامم بعد عدة سنين ، ثم السعي الى تحقيق الوحدة واتمام الاستقلال متى شاءت الدويلات المنفصلة وشاء المستعمرون !!

فاللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني ترى من الواجب عليها بازاء هذا الخطر المحدق بالبلاد ان تدعو الامة الى الوقوف صفا واحدا تجاه كل سياسة ترمي الى تمزيق وحدتها وانتقاص حقها في الاستقلال التام وتناشدها رفض كل معاهدة لا يحترم ارادتها ولا تحقق آمالها ولا تفتح امامها باب المستقبل على مصراعيه .

انتهى الأمر وتمت ايام انتخاب المجلس النيابي بعد معركة كبيرة واختلاف شديد بين الحاكم والمحكوم . . وصفوف الأهالي واقفة بين المد والجزر ، بسبب مداخلة بعض رجال يهمهم نجاح فرقتهم وكسبهم اكثر الأصوات وتسنمهم مقاعد النيابة ووقع ما وقع مما لا يسع المقام ذكره بحذافيره . وقد تحدثت به في حينه صحف البلاد وغيرها ودونت تفاصيل تلك الوقائع الى ان انتهت هذه المعضلة التي كانت الشغل الشاغل في طول البلاد وعرضها مدة من الزمن وتعين مندوبو المدن الأربع وصدر أمر العميد السامي بتبليغهم بلزوم انعقاد البرلمان في وقته المعين في دستور البلاد . وافتتح المجلس باحتفال عظيم لأنه اول مجلس دستوري انعقد في دمشق على هذا الشكل من اشكال الحكم عام ١٩٣١ م . وفي اول جلسة منه انتخب اثنين من نوابه محمد علي بك العابد لرياسة الجمهورية وصبحي بك بركات الخالدي ومن أعيان حلب رئيساً لهذا المجلس وتشكلت الحكومة السورية على الوجه الآتي : حقي بك العظم الى رآسة الوزراء والداخلية ومظهر باشا ارسلان رئيس حكومة الاردن سابقاً ومن اعيان رجال حمص للمعارف والحقانية وجميل بك مردم للمالية والزراعة وسليم جنبرت المحامي الشهير ومن اعيان مسيحيي حلب

للنافعة . وبعد مضي مدة قليلة اضطرت الظروف والاحوال الوزيرين الكتلاويين للانسحاب من هذه الوزارة وترك التفاهم النزيه مع رجال الانتداب ، وسننشر بيان المؤتمر الوطني الذي عقد في دمشق لهذا الخصوص وكان الأهلون مستبشرون من التشكيلات المذكورة حباً بالتفاهم مع العميد السامي وأملا بالوصول الى ساحة السلامة على انتهاء المعضلة السورية وحلها على وجه تحفظ حقوق الطرفين السوري والافرنسي معا ولكل أجل كتاب .

وبذلك الوقت بعد أن تراجع الوزيران عن التفاهم تعين لمكانهما كل من الشيخ سليمان الجوخدار وشاكر نعمت بك الشعباني الحلبي ثم توالت اجتماعات المجلس النيابي في اوقاته المعينة القانونية باكثرية رجاله من المعتدلين الذي رغبت بهم رجال السلطة الافرنسية وقام القسم الباقي بسياسة المعارضة . والمجلس منح حسب عادته الثقة للوزارة الجديدة بشرط ان تحافظ على العهد الذي اقتطعته على نفسها امام المجلس بعدم امضاء معاهدة تضر بصوالح البلاد والعباد .

وفي هذه الاثناء كانت قد انتقلت وظيفة المسيو بونسو العميد السامي في سوريا ولبنان الى سفير مفوض في الغرب الداخلي وحضر مكانه فخامة العميد السامي الجديد المسيو دي مارتيل وصرح قبل حركته من باريس للصحف ولكثير من الساسة السوريين انه حريص على التفاهم النزيه مع السوريين لحل مشكلة بلادهم بصورة تجمع بين حقوقهم وحقوق دولة فرنسا حسب وصايتها من قبل جمعيـــة الأمم .

وما مضى قليل أو كثير من الزمن حتى بدى في الجو السياسي شيء من الاربداد باستقالة سليم بك جنبرت من الوزارة ثم أعقب ذلك ظهور نص المعاهدة في الصحف موقعة من هذه الحكومة ومن فخامة رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة مما يدل على ان انسحاب الوزير المشار اليه كان حذراً من قبول المعاهـــدة بهذا الشكل المخالف لأماني البلاد واهلها وكان موضع شكر الناس بالاعجاب

ثم عرضت المعاهدة على المجلس من قبل هيئة الحكومة لأجل قبولها وتصديقها

فابى أن يصدقها بعد توزيعها على النواب وقراءتها حرفياً ارتفعت الايدي للتصويت ضدها كما يظهر لك من المخابرات والوثائق التاريخية الرسمية والخطب التي القيت في الاجتماعات العامة سننشرها تباعا لتكون خالدة الذكر مدار اعجاب الناس من هذا الموقف العظيم الذي وقفه رئيس هذا المجلس ونوابه جيــل بعد جيل والله لا يضيع أجر من احسن عملا .

وبأثناء مذاكرات المجلس تبلغ رئيسه بواسطة الحكومة من قبل المفوضية العليا باغلاقه وفض اجتماعه لاجل مسمى في سنة ١٩٣٤ وبالحال اتخذ هذا المجلس قراراً في آخر جلساته بمسئولية هذه الوزارة وسحب اعتماده وثقته منها لانها كانت سببا لتوتر العلائق بين فرنسة وسوريا وطلب ان تكون مسئوليتها وفقا للمادة ٩٤ من الدستور السوري وكان امراً مقدراً مقضياً

« التظاهر بالاقوال تبررها الاعمال »

تمكنا من الحصول على نص التقرير الذي قدمه فخامة صبحي بك بركات رئيس المجلس النيابي السوري الموجود حالياً في باريس الى الحكومة الفرنسية عن اقتراحاته لحل القضية السورية . والتقرير مكتوب بصفة مذكرة (نوت) مختصرة ، وقد وزعت نسخة منه على كل من اعضــاء مجلس الوزراء الفرنسوي ليسهل عليهم قراءته والى القراء تعريبه :

[باريس في ٢٤ آب سنة ١٩٣٣]

في هذه الآونة التي يأتي فيها الى سوريا ولبنان مفوض جديد ، من الضروري بعد انتداب خمسة عشر عاماً — أن تتبع سياسة ظاهرة صريحة في البلاد . لقد تعبت سوريا من هذا التبلبل والتغير في السياسة المتبعة فيها حتى الآن فان الشعب يطلب من فرنسا ادارة واضحة صريحة ونظاماً يرضي سوريا ولبنان في آن واحد .

ان المعضلة السياسية تزداد تعقداً اذا بقيت المدن الاربع دمشق ، حلب ، حمص

وحماه منعزلة عن البحر وعن بقية أجزاء سوريا . فان حصر سوريا الداخلية في الجهة الشرقية هو بمثابة الحكم عليها بالرضوخ لجاذبية الصحراء ، وهذا ما ترغبه السياسة الانكليزية .

١) — فيجب اذن تلبية لمطالب السياسة البترولية الجديدة أن يفتح منفذ على البحر المتوسط . وبما ان طرابلس هي قاعدة للطائرات المائية كما انها نقطة انتهاء انابيب البترول فالذي يهم اذن هو تحديد موقف طرابلس .

٢) — متى حدد موقف طرابلس التي هي المرفأ الطبيعي الوحيد لدمشق ، يبقى عندئذ قضية تقرب سوريا الداخليـــة من بقية الدول الواقعة تحت الانتداب وستكون نتيجة هذا التقرب تخفيض الاعباء التي تحملها فرنسا الى درجة زهيدة . وان ارجاع الاقضية التي فصلت عن سوريا والحقت بلبنان لدواع خاصة كانت موجودة وقتئذ وتلاشت الآن ، يثبت علاقة حسن الجوار بين هاتين الدولتين ويساعدهما على التعاون بما فيه منفعتها في جو مشبع من الثقة المتبادلة .

وان لبنان متى رجع الى حدوده الطبيعية يكتسب فوائد خاصة ويجد التجانس القديم الذي فقده مؤخراً على اثر تشكيل كيانه الحالي .

وبصفتي رئيساً للاكثرية في مجلس النواب السوري وكنت على دفعتين متواليتين رئيساً منتخباً للحكومة السورية فيما مضى والان اشغل كرسي رئاسة المجلس النيابي اعتبر بصفتي الشخصية بان اتفاقاً مرضياً ومقبولا يجب ان يتم بين سوريا ولبنان وهذا الاتفاق المرغوب فيه من قبل المسلمين كما من قبل المسيحيين يسهل كثيراً مهمة المسيو دي مارتيل هناك . وان التمسك بالقواعد الاقتصـــادية الضرورية يقضي بانقاص عدد الموظفين في حكومات العلويين وجبل الدروز كما في دولتي سوريا ولبنان . لان مالية البلاد السورية متوقفة على موارد طبيعية لا تسمح لها بأن تهب نفسها كياناً نظير الكيان الموجود في فرنسا . والمبالغ التي تقصد من هذا الباب يمكن جعلها نفقات اقتصادية نافعة .

٣) — تحتاج الى برنامج اقتصادي وهذه هي امنيتنا وبخاصة بعد ان تطورت

مدينة حيفا التي هي من صنع الانكليز وخلقت قضايا حيوية جديدة فالذي يطلب منا الآن هو ان نسبق انكلترا في السرعة وان نحول الطريق التجارية الى حمص وطرابلس ففي ذلك فائدة البلاد السورية وفائدة فرنسا .

وفي الختام فاننا نرغب في الحصول على المطالب الآتية :

آ ـــ سياسة ثابتة

ب ـــ ارجاع طرابلس الى سوريا وتصحيح الحدود بين سوريا ولبنان بنوع أن يحتفظ هذا الاخير بحدوده الطبيعية والحقيقية . وهذا التصحيح في الحدود متى تم يسهل كثيراً المفاوضة في المعاهدة بين سوريا وفرنسا واتمام عقدها .

ج ـــ اصلاح اداري في منطقتي العلويين وجبل الدروز على أساس اللامركزية

د ـــ حسن الادارة في تحقيق البرنامج الاقتصادي الذي يهم الشعب السوري لان جميع معتمدي الحكومة المنتدبة صرفوا أكثر جهودهم حتى الآن في مراقبة المنازعات السياسة بينما التاريخ يعلمنا ان سوريا في مقدمة كل شيء هي بلاد تجارية وذات انتاج .

ه ـــ اصدار عفو عام عن المسائل السياسية . واننا نعتبر انه اذا روعيت هذه الاسس يستطيع الانتداب في سوريا أن يحقق اماني السوريين التي وضعوها فيه كما يحقق أماني فرنسا القائمة به .

(بيان مؤتمر الوطنيين)

ان الكتلة الوطنية بعدما درست في مؤتمرها الاخير المعقود في دمشق الموقف السياسي الحاضر وفحصته من جميع وجوهه واطلعت على ما وصلت اليه الحادثات التمهيدية بشان المعاهدة المنوى عقدها بين سورية وفرنسا قد اجمعت آراء اعضائها الموجودين في الجلسة المنعقدة بتاريخ ١٨ نيسان سنة ١٩٣٣ على تفويضنا امر النظر في اختيار الخطة التي نراها اكثر موافقة للمصلحة الوطنية ، واناطت بنا اعلانها . لذلك ولدى استعراض كل ما احاط بالقضية السورية من حوادث

وظروف وبعد الاسترشاد بالمحادثات والاراء المتبادلة في اجتماعاتنا المتكررة منذ عشرة ايام رأينا :

، ان المحادثات التي جرت حتى الآن بين المفاوض السوري ورجال المفوضية لم تخرج في مجموعها عن نطاق بيانات المفوض السامي الاخيرة في لجنة الانتداب ولا تحتوي على اي اعتراف بالوحدة السورية التي قررت الكتلة الوطنية ان لا تجري المفاوضات الا على اساس الاعتراف بتحقيقها ، واعلنت ذلك في بيان مؤتمرها المنعقد في حلب بتاريخ ١٨ شباط المنصرم وان الاستمرار على التعاون لا يجوز الا مع وجود الصراحة من الجانب الافرنسي في امر الوحدة وهذا لم يحصل حتى الآن ؟

فالجانب الوطني رغم ما في الاوضاع الحاضرة من شذوذ وعدم اطمئنان لا سيما على اساس اقامة مجلس مزيف في اكثريته قد اظهر كل ما يمكن من المسايرة والتساهل بحسن نيه واخلاص . امل الوصول الى حل يحقق رغائب البلاد في استقلالها ووحدتهـــا فلم يجد عند الجانب الافرنسي ما تستحقه هذه الرغبة الصادقة من الاعتبار .

ولذلك نرى ان من الواجب عدم الاستمرار على سياسة التعاون التي بدأ بها الجانب الوطني في المجلس والحكومة ريثما تبدو من الجانب الافرنسي بادرة تساعد على استئناف العمل . ، واننا لنغتبط بهذه المناسبة من تقدير الامة لموقف الوزيرين الوطنيين اللذين تقدما باستقالتهما والنظر باعجاب واكبار الى ما عاناه في خلال هذه التجربة القاسية من مضض وما تحملاه من عناء في سبيل تحقيق أماني الامة التي أولتهما ثقتها الغالية .

ونحمد للامة موقفها الرصين الذي وقفته في جميع الظروف العصيبة التي مرت بالبلاد بجانب الكتلة الوطنية التي هي من الامة واليها آملين أن تظل محافظة على وحدة صفوفها واتفاق كلمتها .

ابراهيم هنانو   هاشم الاتاسي

نص المعاهدة الفرنسية — السورية

دعا جناب مندوب المفوض السامي بدمشق اصحاب الصحف ومحرريها الى مكتبه ظهر اليوم (الاحد) وسلمهم نص المعاهدة السورية التي تم توقيعها من قبل الحكومة السورية والمفوض السامي مع ملحقاتها والكتب المتبادلة بشأنها فيما بين فخامتي رئيس الجمهورية والعميد السامي وهذه هي النصوص :

بلاغ من المفوض السامي

وقعت معاهدة الصداقة والتحالف الافرنسية السورية في دمشق في الـ ١٦ من هذا الشهر من قبل فخامة الكونت دو مارتل سفير فرنسا المفوض السامي للجمهورية الافرنسية ودولة حقي بك العظم رئيس مجلس الوزراء المؤهل لذلك بقرار من مجلس الوزراء المنعقد تحت رئاسة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية السورية.

وبمناسبة هذا التوقيع فقد تبادل كل من المفوض السامي ورئيس الجمهورية رسائل منها ما يتعلق في تحديد نظام حكومتي اللاذقية وجبل الدروز ومنها ما يتعلق في ربط المرجع الاعلى للقضاء « محكمة التمييز » والدوائر الوقفية في هاتين الحكومتين بالحكومة السورية .

وقد ابلغت اليوم هذه الوثائق للصحف ولقاء التصريحات والحملات الموجهة على المعاهدة قبل ان يذاع امر توقيعها او يعرف نصها رؤي من اللازم نشر هذه الوثائق لا ليتسنى لنواب الامة فقط بل للشعب السوري قاطبة ان يرى رأيه في قيمة ومدى الوثائق الحالة على البرلمان السوري .

كان توقيع المعاهدة الافرنسية السورية خاتمة سياسة الحكومة الافرنسية كما اعلنها المسيو دي جوفنيل منذ سنة ١٩٢٦ ونتيجة مفاوضة شرع بها المفوض السامي السابق في شهر تشرين الثاني ٩٣٢ مع رئيس مجلس الوازرء والوزراء الذين كانوا حينئذ في الحكم . ولا يخلو من الفائدة ان يذكر بان هذه السياسة كانت قد اتبعت

منذ عام ١٩١٩ وكان في وسعها بلا ريب ان تؤمن تطورا اسرع لو لم يحل دون تقدمها حوادث معروفة ·

ان هذه المعاهدة التي تكفل في مدة وجيزة تحقيق امور جوهرية تتفق والاماني القومية السورية باوسع مدى تستطيعه فرانسا وتدع السبيل مفتوحا للتطورات المقبلة في جميع النقاط التي يعد الذهاب الى البت فيها حالا سابقا لاوانه .

ان وضع هذه المعاهدة الذي تأخر لعدم وجود مفاوض سوري ذي صفة دستورية كان قد شرع فيه منذ سنة مع حكومة ائتلافية وتوقف ذلك بسبب استقالة بعض اعضاء هذه الحكومة في اثناء المفاوضات وقبل ان يبت فيها سلبا كان اوايجابا . ثم استؤنف الامر على الاسس السابقة نفسها وتم عقد المعاهدة مع الحكومة الحاضرة المنبعثة عن الاكثرية البرلمانية والمؤهلة لذلك بالثقة التي احرزتها من المجلس .

لذلك فان المجلس النيابي مدعو اليوم ليقول كلمته في الصكوك المعروضة عليه مجرداً عن كل نزعة حزبية . ولا ريب في انه غني عن البيان ما للجلسات المقبلة من الاهمية الحاسمة ذلك لان تصويت المجلس سيقيم لممثل الجمهورية الافرنسية ومن ثم للحكومة الافرنسية وجامعة الامم البرهان القاطع على امكان وعدم امكان تأمين تطور سوريا نحو الاستقلال الذي تصبو اليه بطريق التعاقد .

ومتى قام هذا البرهان مهما كان اتجاهه تكون الوطنية السياسية قد تعينت على شكل مستمر سواء حددت العلائق بين فرنسا وسوريا لمدة ٢٥ سنة او اثبتت التجربة الواضحة لرفض المعاهدة من قبل المجلس على نحو الازمة التي حصلت في ٣٠ نيسان الماضي . ان سوريا ليست باهل تماما لتثبيت وضعها الدولي بطريق المعاهدة .

معاهدة صداقة وتحالف بين فرنسا وسوريا

ان حكومة الجمهورية الافرنسية والحكومة السورية بالنظر للتقدم الناتج من تطبيق المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الامم في سبيل انشاء سورية كدولة مستقلة .

وبناء على الرغبة التي ابدتها الحكومة الافرنسية امام عصبة الامم في عقد

معاهدة مع الحكومة السورية مقدرة التطور الذي تم حتى الآن .

وبناء على موافقة الحكومتين على تحقيق جميع الشروط المؤدية ، باتباع طرق صريحة لقبول سوريا في جمعية الامم . فقد اتفقتا توصلا الى هذه الغاية على عقد معاهدة صداقة وتحالف تبنى على اسس الحرية التامة والسيادة والاستقلال لتحديد العلاقات التي تبقى بين الدولتين بعد انتهاء الانتداب ويعين في الاتفاقات الملحقة التي توضع موضع التنفيذ في ذات التاريخ الذي تنفذ فيه المعاهدة شروط وكيفية تطبيق بعض بنودها .

وللوصول الى هذه الغاية بصورة اكثر ملائمة فقد اتفق الطرفان الساميان المتعاقدان ايضا على ان يحددا بجلاء برنامج تطور المؤسسات الحاضرة في جميع النواحي التي يكون واجبا فيها تعاون الحكومتين تعاونا حقيقيا صادقا لتحقيق الشروط التي وضعتها جمعية الامم في الناحيتين الداخلية والدولية وفاقا للمبادىء العامة التي فرضتها تلك الجامعة ليسوغ انهاء نظام الانتداب .

ولهذه الغاية فقد افرغ الطرفان الساميان المتعاقدان اتفاقهما في ثلاثة صكوك هي : اولا — معاهدة صداقة وتحالف . ثانياً — بروتوكول « آ » بشأن الاتفاقات الملحقة بالمعاهدة والتي توضع موضع التنفيذ في ذات الوقت الذي تنفذ فيه المعاهدة عند قبول سوريا في جامعة الامم . ثالثاً — بروتوكول « ب » بشأن البرنامج المطلوب تحقيقه في غضون المدة اللازمة لتطور المؤسسات الحاضرة بطريق التعاقد وضمن نطاق القانون الاساسي بنـــاء على انتقال المسؤوليات الى الحكومة السورية تدريجاً .

لهذه الغاية فقد انتدب كل من فخامة رئيس الجمهورية الافرنسية وفخامة رئيس الجمهورية السورية مفوضين عنهما . عن فخامة رئيس الجمهورية الافرنسية الكونت دو مارتل سفير فرنسا المفوض السامي للجمهورية الافرنسية الحائز على وسام جوقة الشرف من رتبة قيما ندور الخ . . .

وعن فخامة رئيس الجمهورية السورية حقي بك العظم رئيس مجلس الوزراء الحائز على وسام جوقة الشرف من رتبة قيما ندور الخ .

وهما بعد ان تبادلا اوراق اعتمادهما ووجداها موافقة للاصول عقد ما يلي :

١) — يقوم بين فرنسا وسوريا سلم وصداقة دائمان ، انشيء تحالف بين الدولتين المستقلتين ذات السيادة تثبيتا لصداقتهما والروابط التي تربطهما دفاعا عن السلم ومحافظة على مصالحهما المشتركة .

٢) — اتفقت الحكومتان على ان تتشاورا تماماً وبدون قيد في كل أمر يتعلق بالسياسة الخارجية من شأنه أن يمس بمصالحهما المشتركة كما انهما تعهدتا بأن تتخذا أزاء الدول الاجنبية موقفا يلائم تحالفهما وأن تتجنبا ما من شأنه أن يسيء الى علائقهما مع الدول الاخرى عملا سياسياً . تؤمن الحكومة الافرنسية بواسطة عمالها حماية الرعايا السوريين ومصالحهم في كل مكان . لا تكون الحكومة السورية ممثلة فيه مباشرة وفاقا للتعامل الدولي المرعي بهذا الشأن .

٣) سيتخذ الطرفان الساميان المتعاقدان جميع التدابير اللازمة ليمكن منذ يوم انتهاء الانتداب ان ينقل الى الحكومة السورية وحدها الحقوق الواجبات الناجمة عن جميع المعاهدات والاتفاقيات وسائر العقود الدولية التي ابرمتها الحكومة الافرنسية باسم سوريا او المتعلقة بها . تساعد الحكومة الافرنسية الحكومة السورية كل المساعدة لتسهل لها تعديل الاتفاقات والتعهدات الدولية التي قد تستمر لغاية هذا التاريخ والتي قد لا تكون موافقة الوضع الدولي الجديد في سوريا يستفيد الرعايا الافرنسيون وذوو التبعة الافرنسية حكما من الحقوق التي قد تمنح عند حصول التمديد المذكور الى رعايا وذوي التبعة الاجنبية .

٤) اذا نشب بين سوريا ودولة اخرى خلاف ادى الى وضع من شأنه خطر قطع العلائق مع هذه الدول فان الحكومتين تتشاوران لحسم هذه الخلاف بالطرق السليمة وفقاً لاحكام ميثاق جامعة الامم او لاي اتفاق دولي اخر يمكن تطبيقه في مثل تلك الحالة . واذا وجدت الحكومتان رغم جهودهما المشتركة انهما مهددتان بخلاف مسلح فانهما تتشاوران حالا بشأن التدابير اللازمة للدفاع

٥) — ان مسؤولية المحافظة على النظام والدفاع عن سوريا تقع على الحكومة السورية على انه في سبيل تسهيل انفاذ الواجبات التي تترتب عليها بمقتضى احكام

هذه المعاهدة فان الحكومة الافرنسية تقبل بان توازر الحكومة السورية عسكريا مدة هذه المعاهدة وفاقا لمضمون الاتفاقية الملحقه . من المقرر ان بقاء القوى العسكرية الافرنسية الجوية والبحرية لا يعتبر احتلالا ولا يمس بحق السيادة لسوريا . تظل هذه القوى والمؤسسات المربوطة بها خاضعة لنظام خارج اراضي الدولة ، وتبقى متمتعة بالحصانة والميزات التي تكون لها عند وضع هذه المعاهدة موضع التنفيذ .

ستساعد الحكومة الافرنسية على التنظيم والتعليم والتسليح وتجهيز القوى العسكرية السورية وقوى الدرك وفاقا لمضمون الاتفاق الملحق . وستضع تحت تصرف الحكومة السورية البعثات والضباط الذين يرى الطرفان المتعاقدان وجودهم مفيدا لذلك وفقا للاتفاقية الملحقة بهذا الشأن .

المادة ٦ — تضع الحكومة الافرنسية تحت تصرف الحكومة السورية المستشارين الفنيين والقضاة والموظفين الذين يرى الطرفان المتعاقدان وجودهم مفيداً لاعمال بعض المصالح العامة وفاقا لمحتويات وتحديدات الاتفاق الملحق .

المادة ٧ — تتعهد الحكومة السورية المحتفظة على ضمانات الحق العام الدائمة المنصوص عليها في دستور دولة سوريا لصالح الافراد والجماعات وان تعطي هذه الضمانات كامل مفعولها . وتتعهد فيما يتعلق بحقوق الاقليات الجنسية والمذهبية وبأحوالها الشخصية ان تؤمن معاملة تتفق مع المبادئ العامة التي قبلت بها جامعة الامم فيما يختص بهذه الشئون .

المادة ٨ — الطرفان الساميان المتعاقدان يتفقان كل منهما فيما يخصه على انهما يريان من المناسب بقاء حالة الاشتراك القائمة في المصالح الاقتصادية في جميع الاراضي الوارد ذكرها في عهدة لندن المؤرخة في ٢٤ تموز ١٩٢٢ .

المادة ٩ — عقدت هذه المعاهدة لمدة خمس وعشرين سنة .

سيكون للاتفاقيات والعقود التي ستطبق نفس المدة المحددة للمعاهدة ما لم ينص في متنها على مدة اقصر او ان يتفق الطرفان الساميان المتعاقدان على تمديدها مراعاة لاوضاع جديدة .

يمكن بعد مرور عشرين عاماً على تنفيذ هذه المعاهدة أن تفتح مفاوضات لتجديدها أو تعديلها اذا طلبت ذلك احدى الحكومتين .

المادة ١٠ ـ ستصدق هذه المعاهدة ويجري تبادل صكوك المصادقة في أقصر وقت ممكن وتبلغ الى عصبة الامم . توضع هذه المعاهدة موضع التنفيذ في الوقت الذي تنفذ فيه الاتفاقيات والعقود الملحقة بها والمنصوص عليها في البروتوكول (آ) يوم دخل سوريا جامعة الامم .

توضع العقود الملحقة المنصوص عليها في بروتوكول (ب) والمتعلقة بالبرنامج المطلوب تحقيقه في خلال المدة التمهيدية موضع التنفيذ فوراً عند الانتهاء من تبادل صكوك المصادقة على المعاهدة .

المادة ١١ ـ اعتباراً من دخول سوريا جامعة الامم تسقط عن الحكومة الافرنسية التبعات الملقاة عليها بموجب عهدة لندن المؤرخة في ٢٤ تموز سنة ١٩٢٢

المادة ١٢ ـ حررت هذه المعاهدة باللغتين الافرنسية والعربية وكلا النصين رسميان والمعول على النص الافرنسي . اذا حصل اختلاف بشأن تفسير هذه المعاهدة أو تطبيقها ولم يمكن حسمه حسماً نهائياً عن طريق المفاوضة مباشرة فالطرفان الساميان المتعاقدان يتفقان على أن يلجأ الى أصول المصالحة والتحكيم المنصوص عليها في ميثاق جامعة الامم . حرر في دمشق اربع صور في ١٦ تشرين الثاني عام ١٩٣٣

حقي العظم دومارتيل

بروتوكول (آ) ـ بشأن الاتفاقيات والعقود التي ستوضع موضع التنفيذ في ذات الوقت الذي تنفذ فيه المعاهدة عند دخول سوريا جامعة الامم .

المادة ١ ـ الطرفان الساميان المتعاقدان متفقان على ان يتفاوضا ويعقدا بأسرع وقت . الاتفاقيات العسكرية المدون مبدأوها في المادة الخامسة من المعاهدة .

المتعلق بالموظفين المنصوص عليه في المادة السادسة من المعاهدة .

الاتفاق القضائي والاتفاقيات الاقامة والاتفاقيات المالية التي من شأنها تنفيذ احكام عهدة لندن المتعلقة بمختلف هذه الشؤون .

المادة ٢ ـ ستبلغ هذه الاتفاقيات كلها التي هي جزء متمم للمعاهدة الى جامعة

الامم وتكون نافذة منذ يوم دخول سوريا جامعة الامم الا اذا نص على خلاف ذلك .

حقي العظم دومارتيل

برتوكول (ب) – بشأن البرنامج المطلوب تحقيقه في خلال المدة التمهيدية لكي يؤمن بطريقة التعاقد وضمن نطاق القانون الاساسي تطور المؤسسات الحالية لاجل نقل التبعات الى الحكومة السورية نقلا تدريجياً .

المادة الاولى – الطرفان الساميان المتعاقدان متفقان على ان يعطى مفعول بأقرب وقت للمباحث الجارية المتعلقة بعقد عدة اتفاقيات بشأن :

١) – المسائل العسكرية وتنظيم الجيش الوطني . ٢) – المسائل المالية المنوه عنها في عهدة لندن المؤرخة في ٢٤ تموز سنة ١٩٢٢ . ٣) – حالة الموظفين الافرنسيين الداخلين في خدمة الدولة .

المادة ٢ – تشرك الحكومة الافرنسية الحكومة السورية في ادارة الشؤون الخارجية بطريقة تدريجية وفضلا عن ذلك فهي تساعد على اجراء التهيئة الديبلوماسية لنقل التبعات المنصوص عليها في المادة الثالثة من المعاهدة .

المادة ٣ – لقد اتفق الطرفان الساميان المتعاقدان على ضرورة وجود دوائر للمصالح المشتركة بين الاراضي المنوه عنها في عهدة لندن المؤرخة في ٢٤ تموز ١٩٢٢ ان تمشية هذه الدوائر ستكون موضوع اتفاق خاص يعتبر جزءاً متمماً للمعاهدة ويعقد في أقرب وقت ممكن .

المادة ٤ – تتعهد الحكومة السورية أن تضع بالاتفاق مع الحكومة الافرنسية القوانين الاساسية والاحكام الاشتراعية التي قد تكون ضرورية لتنفيذ الضمانات المدونة في دستور دولة سوريا الحالي لصالح الافراد والجماعات وعلى الاخص فيما يتعلق بالمساواة امام القانون (المادة ٦ و ٢٦) وحرية الضمير واحترام المصالح الدينية والاحوال الشخصية . (المادة ١٥) وحرية الفكر (المادة ١٦) وحرية التعليم (المادة ١٩ و ٢٨) والقبول في الوظائف العامة (المادة ٢٦) وتمثيل الاقليات المذهبية (المادة ٣٧) .

المادة ٥ – تتعهد الحكومة الافرنسية بأن تساعد على ادخال سوريا جامعة الامم

بعد تحقيق البرنامج المحدد في المواد السابقة وحالما يسمح بذلك الرقي الحاصل .
يوضع برنامج هذا التطور على أساس انتظار تحقيقه بمدة تقدر تقريباً بأربع سنوات
حرر في دمشق ١٦ تشرين الثاني ١٩٣٣ اربعة صور حقي العظم دومارتيل

فخامة المفوض السامي : ـ عطفاً على محادثاتنا الاخيرة بشأن معاهدة صداقة وتحالف بين فرنسا وسوريا وبمناسبة توقيع هذه المعاهدة أرى ان اللازم بيان وجهة نظر الحكومة السورية فيما يتعلق بالنظام الاداري للوائي (سنجق) اللاذقيه وجبل الدروز المستقلين (اوتونوم) .

تعتبر الحكومة السورية ان لوائي اللاذقيه وجبل الدروز هما جزء من سوريا انما تعترف الحكومة السورية ان الوضع الخاص لهاتين المنطقتين سيستدعي منحهما نظاماً خاصاً . وانه يجب ان يراعى في هذا النظام اماني سكان هاتين المنطقتين . وتفضلوا يا حضرة المفوض السامي بقبول فائق احترامي .

دمشق في ١٦ تشرين الثاني ١٩٣٣ رئيس الجمهورية السورية

محمد علي العابد

فخامة المفوض السامي :ـ عطفاً على توقيع معاهدة الصداقة والتحالف بين فرنسا وسوريا وعلى الرسائل التي تبودلت في بيان وجهة نظر حكومة الجمهورية السورية المتفقة مع وجهة نظر حكومة الجمهورية الفرنسوية فيما يتعلق بالنظام الخاص للوائي اللاذقية وجبل الدروز وتمهيداً للتطور الواجب الشروع فيه في هذا السبيل أتشرف بعرض ما يلي :

ان الحكومة السورية ترجو ان تتفضلوا بأخذ التدابير اللازمة لربط مرجع القضاء الاعلى (محكمة التمييز) والدوائر الوقفية في اللوائين المشار اليهما منذ اليوم بالحكومة السورية . وتفضلوا يا حضرة المفوض السامي بقبول جزيل الاحترام . دمشق في ١٦ تشرين الثاني ١٩٣٣ رئيس الجمهورية السورية

محمد علي العابد

فخامة الرئيس : عطفاً على محادثاتنا الاخيرة بشأن معاهدة صداقه وتحالف بين فرنسا وسوريا وبمناسبة توقع هذه المعاهدة قد تفضلتم بكتاب بتاريخ اليوم بيين

وجهة نظر الحكومة السورية بما يختص بنظام حكومتي اللاذقية وجبل الدروز المستقلتين ادارياً « اوتونوم » . وبعد تدوين هذه المراسلة اللطيفة لي الشرف أن أحيطكم علماً بأن الحكومة الافرنسيه تجاه هذه الامور مع أحد التطورات المقبلة في نظر الاعتبار لا يخرج عما جاء في معاهدة لندن المؤرخة في ٢٤ تموز ٩٢٢ ملخص بما يلي :

ان الحكومة الافرنسية مستعدة بأن تبحث قبيل تقديم طلب دخول سوريا في جامعة الامم التعديلات التي عن ان تطرأ على الوضع الحالي للحكومتين المتصادقتين ادارياً « اوتونوم » وان هذا البحث سيشمل ليس فقط بمعنى نظام هاتين الحكومتين بل الشروط التي تمكن بموجبها أيضاً ايفاء ضمان الاستقلال .

ومما قاله في أحدى الحفلات العامة التي أقيمت بدمشق الى فخامة رئيس المجلس صبحي بك بركات والنواب الكرام الدكتور السيد منير العجلاني .

سادتي : قد عرض لموقف النواب النبلاء الذين رفضوا المعاهدة ، فقال أنهم حفظوا كرامة أمة وتركوا للاجيال درساً خالداً في الشرف ، وانه اذا كان افضل ما يعمله الرجل ان يدخل سلوى على قلب تاعس ، فالنواب قد ادخلوا بعملهم السرور على قلب شعب بأسره . ثم قال ، اخطأ الذين زينوا للافرنسيين ان النواب في قبضة الوزارة تتصرف بهم كيف تشاء فقد ظهر اليوم ان الكثرة من النواب ليسوا حزب الوزارة ولكنهم حزب الاتحاد الوطني .

وتكلم بعد ذلك على المعاهدة ففندها واظهر التباين الموجود بين النصين ، العربي والافرنسي ، وقال ان ملاحق المعاهدة كان يجب أن تعرض معها في وقت واحد حتى يعرف مدى المنح والامتيازات وان المعاهدة في شكلها الحاضر ما هي الا محاولة لسكب الانتداب الذي كان يجب ان يتطور دائماً بحسب تطور البلاد ، في قالب تجمد فيه لا يتغير ولا يتبدل مدة ربع قرن واربع سنوات .

ثم ان قال ان فشل المعاهدة المعروضة لن يؤذي احداً ، وان الافرنسيين انفسهم

سيظفرون اذا حققوا مطالب البلاد بشيء أثمن من كل شيء . قلوب شعب نبيل يقدر الجميل ويحرص على أن تقوم بينه وبين الشعب الافرنسي صداقة صريحة وشريفة.
والتفت في آخر خطابه للنواب الشرفاء فقال لهم : ان « الشباب الوطني » الذي انتدبني لكلمة أقولها في هذا المحفل العظيم . جد فخور بموقفكم النبيل ، فقد كشفتم عن البلاد غمة ، ودفعتم نقمة ، وبدلتم اليأس رجاء ، والضعف مضاء ، والمصير الراعب بهجة وروا. . فعاش المخلصون !..

« خطاب النائب الاستاذ فائز بك الخوري »

ايها السادة : نشكر لكم هذه الحفاوة التي تقومون بها لتكريمنا نحن النواب الذي اتفقنا على مجلسنا النيابي بعد قبولها من الوزارة ونشكر الشعب السوري النبيل على ما احاطنا من العطف والتأييد في ما ذهبنا اليه عن قناعة خالصة وعقيدة راسخة
ولابد لنا من التصريح الذي قمنا به هو نتيجة طبيعية لهذه المضامين التي احتواها المشروع المعروض وواجب محتوم لا يستطاع السير على خلافه حيال تلك النصوص التي أقل ما يقال فيها انها على النقيض الصادع للاماني الوطنية وللمواثيق الحقة التي عاهدنا الله والامة على الاحتفاظ بها والوقوف الحازم الى جانبها . فاذا كنا قمنا بواجبنا تجاه امتنا وضمائرنا فلا محل اذن للشكر على الواجب .
وقد أحسن فخامة المفوض السامي الكونت دي مارتيل باعلانها ونشر نصوصها وتصريحه في بيانه الذي تقدمها بانه يفسح المجال للشعب السوري كافة من النواب وغير النواب ليطلع عليها ويبدي رأيه فيها بالحرية التامة بدون اكراه ولا اجبار فلا يؤخذ الناس على غرة ولا يستأثر بتقرير مصيرهم عدد قليل من الافراد الشاغلين للمقامات المسؤولة . وما النواب الا مرآة تنعكس عليها ارادة الشعب فهم يمثلون ناخبيهم ويستلهمون مناهجهم من رغائب الامة وميولها . واذا انحرفوا عن مقتضى هذا الالهام واختاروا غير ما تريده امتهم او أقروا ما انكره الشعب يكونون قد خرجوا عن النهج السوي وخانوا الواجب النبيل والامانة المقدسة المطوقة بها أعناقهم . وها ان الامة السورية جمعاء في داخل البلاد وساحلها . قد

اعربت عن رأيها وأجابت على السؤال الملقى عليها بصراحة جلية لا ابهام فيها ولا غموض بانكارها مشروع المعاهدة بشكله المعروض وتحذير نوابها من ركوب الشطط وعواقب الانخداع . فهل بعد هذه السيول من البرقيات والجارف من الاحتجاجات والحوافل من الاجتماعات واللواهب من الخطب والمقالات يبقى مجال للشك في رأي الشعب السوري وموقفه من هذه المعاهدة . أضف الى ذلك ان جهة الموافقة لم يبدلها صوت مرفوع حتى ولا ركز مسموع في طول البلاد وعرضها اللهم الا من اولئك النفر الذين قبلوا بها فوقعوها وجاؤوا تريدون ان يحملوا النواب على عماشايهم في هذا الطريق المظلم فساء ظنهم وباؤوا بالفشل والخسران.

ان اجماع الامة والنواب على رفض المعاهدة لم يكن اعتباطاً ولا هو رأي فطير جلد بدون تمحيص وتفكير فالامة السورية ما زالت تنكر هذا الانتداب المفروض عليها وتتوق الى حقها من الحياة الحرة في ظل الوحدة والاستقلال وقد بحت أصوات قادتها واحرارها بطلب هذا الحق وتحديد علائقها مع فرنسا بمعاهدة صداقة وتحالف فلو جاء هذا المشروع محققـاً لهذه الامنية لـكانت ترحب به وتستقبله بالتهليل والتكبير وهل يرفض السجين النجاة أو يكره المريض الشفاء، أو يأبى الظمآن زلال الماء .

وقد أشار فخامة العميـد في بيانه الى الاتفاق الذي وضعت قواعده سنة ١٩١٩ بين المرحومين فيصل وكليمنصو والى البرنامج الذي وضعه الموسيو هنري دي جوفنيل سنة ١٩٢٦ والى ما كان يريد وضعه المسيو بونسو سنة ١٩٢٨ وهو لو رجع الى نصوص تلك القواعد وتبين مداها لوجد انها كانت اقرب كثيراً الى الوحدة السورية التي ينشدها السكان من نصوص هذه المعاهدة التي تقدم بها سنة ١٩٣٣ فان اتفاق سنة ١٩١٩ قد جعل سوريا كلها وحدة سورية صحيحة لا يخرج عنها الا لبنان مع بقاء مـدينة بيروت مرفأ حراً . فهل ما رأته فرنسا بشخص وزيرها الاكبر المسيو كليمنصو من كفـاءة سوريا للوحدة مع ذلك الاستقلال النوعي سنة ١٩١٩ اصبح غير جائز لها بعد مرور اربع عشرة سنة قضتها في التدرب والتثقيف على يد التمدن الافرنسي . وبعد ان شهدت لسوريا

في جمعية الامم انها بلغت من الرقي شوطاً بعيداً يخولها الحق بالخروج من نطاق الانتـــداب .

واذا عطف نظره على خطة المسيو دي جوفنيل سنة ١٩٢٦ يجد انها ترمي الى تحقيق الوحدة السورية بصراحة تامة من جهة حكومتي اللاذقية وجبل الدروز وتعد بتعديل حدود لبنان وتأمين مواصلات سوريا البحرية بدون قيود اوشروط . اما المعاهدة الحاضرة فقد جاءت خلواً من جميع ذلك كأننا بتمادي السنين نرجع الى الوراء . هذا ما وصلت اليه قضية الوحدة في مشروع المعـــاهدة الذي عرضته الوزارة على المجلس النيـابي جاعلة هذه الامنية المحبوبة خيطاً مفصوماً وأملاً معدوماً . ولو حسنت النيات وصفت المقاصد لاستطاع الكونت دي مارتيل ان يجمع بقرار ما فرقه الجنرال غورو بقرار وأعاد الى سوريا المنكوبة كيانها الحي واعضاءها المبتورة .

أما الركن الثاني وهو السيادة فقد جاء المشروع المعروض مضرجاً مهشماً بصورة أضاعت هويته فانكره عارفوه . المجلس النيابي قرر بأجماع الآراء في تشرين السنة الماضية أن لا يوافق على معاهدة تكون فيها حقوق السوريين أقل من حقوق العراق في معاهدته الاخيرة مع بريطانيا وترامى الينا عن المراجع الافرنسية العالية ان معاهدتنا ستكون افضل من معاهدة العراق فقلنا لا يبدع ان فرنسا وهي أم الحرية وناصرة الضعفاء ان تكون اسخى من بريطانيا الموسومة بنهم الاستعمار . بيد ان هذا الامل لم تحققه الحادثة الراهنة وجاء مشروع معاهدتنا مختلفاً عن المعاهدة العراقية بامور جوهرية جداً

قرار المفوض السامي بتأجيل دورة المجلس

ان المفوض السامي للجمهورية الافرنسية :

بناء على صك الانتداب المؤرخ في ٢٤ تموز ١٩٢٢ . وبناء على مرسومي رئيس الجمهورية الافرنسية المؤرخين في ٢٣ تشرين الثاني ٩٢٠ و١٦ تموز ١٩٣٣ وبناء على الدستور السوري لا سيما المواد ٤٤ ، ١٠٠ ، ١١٦

وبناء على قرار المفوض السامي المؤرخ في ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٣ المتضمن توقيف مذاكرات مجلس النواب حتى يوم ٢٥ تشرين الثاني ١٩٣٣

وبما ان المجلس النيابي تحت تأثير التظاهرات المثارة قبل وخلال جلسة المجلس النيابي بتاريخ ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٣ قد خرق احكام المادتين ٤٤ و١٠٠ من الدستور بمناقشة في موضوع غير مشروع الموازنة الذي عرض عليه وقبل ان يودع هذا المشروع الى لجنة ما وحتى ان تؤلف هذه اللجنة .

وبما ان عمل المجلس النيابي لا يمكن ان يجري دون احترام القواعد الدستورية وكان يجب جعل مذكراته بعيدة عن التظاهرات التي من شأنها ان تخل فيها . يقرر :

مادة منفردة — توقف مذاكرات مجلس النواب طيلة الدورة الحالية .

كتاب المفوض السامي الى رئيس الوزراء

فخامة الرئيس : ان الحوادث التي جرت خلال يومي ٢٠ و ٢١ تشرين الثاني سنة ٩٣٣ تشكل بحد ذاتها برهانا كافيا على قلة استعداد مجلس النواب للاشتراك في مسؤوليات المعاهدة وعلى محاذير وضع اعباء المناقشة في نص له هذه الاهمية — منذ الآن — على عاتق مؤسسة لم ترسخ فيها بالقدر الكافي على ما يظهر ممارسة الاحكام الدستورية — والتقاليد النيابية .

ويتبين ولا شك لفخامتكم كما تبين لي ان التدبير الوحيد الذي من شأنه تذليل هذه المصاعب هو استرداد النص المودع الى المجلس النيابي بكتابكم المؤرخ في — ١٩ من هذا الشهر ولا يسعني الا الاتكال على فخامتكم بشأن تأمين هذا الاسترداد وتفضلوا يا فخامة الرئيس بقبول جزيل احترامي . (دي مارتل)

وعلى اثر هذا وضع النواب قراراً هذا نصه :

« اننا نحن النواب الموقعين ادناه قررنا في الجلسة المنعقدة بتاريخ ٢١ تشرين ثاني ٩٣٣ رد المعاهدة المتوقعة من قبل الحكومة والتي عرضت على مجلسنا لانها مناقضة لرغائب الامة وغير ضامنة لحقوق البلاد من وحدة وسيادة واستقلال فبينما كنا نتوقع ان تستقيل الحكومة التي سقطت بحكم سقوط المشروع المقدم

من قبلها فاذا بنا تفاجىء بتأجيل المجلس والغاء الدورة الحاضرة ولما كان هذا العمل هو خرق للدستور وانتهاك لحرمته فنحن نؤيد رفضنا للمعاهدة المذكورة ونعتبر ان الحكومة القائمة هي ساقطة دستوريا وان كل عمل تقوم به غير مشروع واننا كنا وما زلنا حريصين على توطيد العلائق بيننا وبين الامة الافرنسية النبيلة على اسس تضمن حقوقنا ووحدتنا واستقلالنا فاننا نعتقد ان هذا التدخل المنكر حتى بحياتنا الداخلية مما يجعلنا نرتاب في المستقبل ويعرض العلاقات بين الامتين الى التوتر واننا نحتج على هذا التأجيل ونعتبره لاغيا ونعد الحكومة ساقطة وقد فوضنا امر متابعة العمل الى لجنة مؤلفة من صبحي بك بركات وهاشم بك الاتاسي وجميل بك مردم بك وفائز بك الخوري وتقولا بك جانجي ونوري بك الاصفري وعفيف بك الصلح ونسيب بك الكيلاني . وعليه فاننا نرجو منكم ان تبلغوا صورة عن هذا القرار الى فخامة المفوض السامي والى وزارة الخارجية الافرنسية .

وقد اقترح بعض النواب ان ترسل برقية الى عصبة الامم بالمعنى نفسه فقرر ذلك : وقد وقع مضبطة سحب الثقة والاحتجاج جميع النواب الذين رفضوا المعاهدة وعددهم ستون نائبا . وكان في مقدمة الموقعين رئيس المجلس وسليم بك جنبرت ...

(بلاغ من الكتلة الوطنية ، الى الشعب السوري الكريم)

حاول القائمون بالامر في هذه البلاد ان يشفوا غليل صدورهم التي تضطرم بنيران التشفي والانتقام بعد ان نكصوا على اعقابهم في مقاومة آمال الامة وامانيها وبعد ما لقوه من خذلانها وسخطها فلجأوا الى تعطيل الصحف الوطنية راجين من وراء ذلك ان يأمنوا كل قائل ، وان تخمد الاصوات التي ترتفع من كل جانب مطالبة بما هضموه من حق واضاعوه من عدل ، وقد فاتهم ان ألسنة الصدق ستبقى حاملة الى الداني والقاصي كل ما تشتمل عليه الضمائر الشريفة من غضب لسوء المكلة ، واستنكار لفساد الحكم .

وكذلك فانهم عمدوا في دير الزور الى حل بلديتها حرصاً منهم على التخلص من رئيسها العامل الابي النائب محمد نوري بك الفتيح الذي خدم مدينته أجل

الخدمات منذ تولى رئاستها فاصلح امورها وجعل بلديتها في مقـــدمة البلديات الناجحة الزاهرة ، واستبدلوا به رجلا يعرفونه كما يعرفون انفسهم غير مبالين بصلاح المدينـــة وفسادها ، منقادين الى اغراض نفوسهم واهوائها ، وهو شر ما اتصف به الذين يتولون الحكم في امة .

ونحن لا نهنيء الذين وجدوا في هذه الوسائل آخر ما يلجأون اليه وينقبون عنه في سجل الحكومات المنبوذة المستضعفة يجربون ماجربته في هذه البلاد وغيرها من فعل الاضطهاد وحكم القوة . وقد شهدنا ما شهدناه في السنين الخوالي من حبس واعتقال وتشريد وغير ذلك من اساليب العنف والقهر التي لم تجد فائدة ، اولئك الذين عقدوا آمالهم عليها ، بل جاءت بضد ما أملوه من انتشار العقيدة وتمكنها من القلوب حتى اصبحت عامة لا يشذ عنها الا النذر اليسير من اصحاب الاهواء وارباب المطامع .

ولا بد لنا ان نقول ونحن نعالج هذا الموقف لمن يذيع اخبار بعض الاشخاص الذين سبق للامة ان أعلنت سخطها عليهم وانكرت جميع اعمالهم ، ان ذلك الدور الذي جر على البلاد اسوأ العواقب لم تزل ذكراه تملأ القلوب غيظاً واسفا للعودة الى مثل هذه التجارب المرة التي قاومتها الامة بجهدها حتى تخلصت منها بعد كره ومشقة ، لا تكون عاقبتها الا الفشل مرة اخرى بعد ان فشلت اول مرة .

ومهما يكن من امر فستبقى هذه الامة صابرة على ما يسومونها من اضطهاد الحرية وعبث بالقوانين حتى يبلغ الكتاب أجله وتدرك ما تطمح اليه من استقلال وسيادة مقدرة لابنائها البررة اعمالهم ومواقفهم وساخطة على من خرج عليها وكان مطية لاستعمار واداة لتخريب الكيان الوطني وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون .

وثائق خطيرة غير منشورة جديرة بالاخذ للتاريخ

بين رئيس المجلس السوري ومندوب المفوض

« نشرت المجلة البرلمانية الصادرة في باريس بعددها رقم ٢٤ من سنتها »

« الى ٢٩ بتاريخ ١٥ كانون الاول ١٩٣٣ نص الكتابين المتبادلين بين حضرة »
«مسيو فيبر مندوب المفوض السامي في دمشق وفخامة صبحي بك بركات رئيس »
« المجلس النيابي السوري بعد جلسة ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٣ التي ردت فيها »
المعاهدة السورية وعلقت فيها مناقشات المجلس النيابي فرأينا اثبات ترجمتها »
« كوثيقتين لها قيمتها التاريخية »

رقم ١٣١٤ — دمشق في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٣٣
الى فخامة صبحي بك بركات رئيس المجلس النيابي .

سيدي الرئيس :

اثناء جلسة مجلس النواب يوم الثلاثاء الأخير في ٢١ الجاري اضطررت أن اتلو قرار فخامة المفوض السامي بتاريخ ٢١ تشرين الثاني القاضي بتعليق مناقشات المجلس النيابي حتى السبت في ٢٥ . ان نص هذا القرار اسلمه اليك في صباح اليوم نفسه حضرة مسيو لا فاستر المندوب المعاون في حلب . وفي ظني اني ملزم بذكر الظروف التي فيها جرى تدخلي .

لقد سألك أحد النواب عما اذا كان نص المعاهدة قد طبع ، فوزعته ، وللحال قامت مناقشة عامة في المعاهدة دون أن يبدوا أي تدخل من مكتب المجلس من شأنه أن يحول دون هذه المناقشات التي كان يجب ألا تجري : اولا — لأن مشروع المعاهدة الذي عرضته الحكومة لم يكن ارسل الى اللجنة ثانياً — لأن اللجنة المكلفة درس الموازنة لم تكن ألفت . ثالثا — لأن المعاهدة لم ترسل الى لجنة . وفي هذه الظروف قام النائب جميل مردم بك الى المنبر ليتلو وثيقة اخرجها من جيبه . ومذ ما بدأت تلاوة هذه الوثيقة تلوت قرار المفوض السامي القاضي بتعليق مناقشات البرلمان

اي ان تلاوة مردم بك (المضبطة) لا يمكن ان تتابع الا بعد الابتداء من تدخلي القاضي بوقف المناقشات وعدا ذلك فان مردم بك مد يده بالوثيقة الى احد السكرتيرين البرلمانيين ولكنه اعادها حالا الى جيبه ، وعليه فان الوثيقة لم توضع بين ايدي مكتب المجلس لكي تضم الى أوراق البرلمان .

وفي اثناء حديث جرى لك يوم ٢٢ تشرين الثاني مع فخامة المفوض السامي بحضور مسيو لافاستر وحضوري انا اعترفت : اولاً ـــ ان المكتب لم يتدخل لايقاف المناقشة التي بدأت متجاوزة على القواعد الدستورية والتقاليد البرلمانية . ثانياً ـــ انه عند ما وقع تدخلي لم يكن جميل مردم بك قد انهى تلاوة المضبطة ثالثاً ـــ ان تلاوة اسماء الموقعين على هذه الوثيقة لم تكن قد بدأت .

واني اذكر هذه الايضاحات التي صدرت منك لاثبت ان تلاوة المضبطة لم تكن انتهت عندما وقع تدخلي وبناء على ذلك فان نص هذه الوثيقة لا يصح ان يظهر في محضر الجلسة . على انه نمي الي ان شيئاً من هذا لم يكن وانك قررت ان تذكر في محضر الجلسة نص المضبطة الحرفي بما فيه الاسماء التي تحملها واتباعه بنص قرار المفوض السامي الذي تلوته دون أي شيء آخر .

واني منذ الان ابدي اشد التحفظات على قيمة هذا المحضر الذي وضع على هذه الصورة لانه يشوه حقيقة الوقائع . وتراني مضطراً ان ازيد انه لا تمكن الثقة بمثل هذا المحضر ولو انه فاز بتصديق المجلس في جلسته المقبلة .

وتفضل يا فخامة الرئيس بقبول فائق اعتباري . ر . فير

دمشق في ٢٧ – ١١ – ١٩٣٣ رقم ٥٦٩

من رئيس المجلس النيابي في الجمهورية السورية الى حضرة مندوب المفوض السامي للجمهورية الفرنساوية في سوريا ولبنان ـ في دمشق .

يا سعادة المندوب :

اتشرف بان اعلمك بوصول كتابك رقم ١٣١٤ بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني ١٩٣٣ يظهر ان خطورة القضية التي كانت موضوع كتابك معدة لان تكون ذات اهمية كبرى في تاريخ سوريا وربما للاعتداء على الحياة البرلمانية في البلاد ولذلك ارى من واجبي ان اجيب على كتابك مع الرجاء ان تضيف نسخة من جوابي هذا الى نسخة من كتابك وتبعث بهما الى المراجع الايجابية لكي تسمح لها بذلك ان تطلع على رأي الفريقين في هذه القضية الخطيرة .

ففي الفقرة الاولى من كتابك تقول انك في اثناء جلسة الثلاثاء ٢١ تشرين

الثاني ١٩٣٣ دفعت الى تلاوة قرار فخامة المفوض السامي المؤرخ في ٢١ تشرين الثاني القاضي بتعليق مناقشات المجلس النيابي الى ٢٥ من هذا الشهر وان نص هذا القرار ابلغ الي في صباح ذلك اليوم بعناية المسيو لا فاستر المندوب المعاون في حلب ثم تقص ما جرى في تلك الجلسة كما استطعت ان تحفظه .

قلت انك دفعت الى تلاوة قرار فخامة العميد السامي مما يبرهن على انك كنت تحمله في جيبك من قبل الجلسة وانك كنت تتحين الدقيقة الملائمة لتلاوته ولكنك لم ترد ان تعرفنا بهذه الدقيقة فاذا كان قرار التعليق قد اعد للحالة التي فيها يتناقش المجلس باي موضوع غير موضوع الموازنة كما تلمع الى ذلك في الفقرة الرابعة من كتابك فوجب ان تقع هذه التلاوة تماما في الدقيقة التي بدأ فيها وزير المالية المناقشة باسم الحكومة فالمسؤولية الناتجة عن تأخر هذه التلاوة الى ما بعد القرار الذي اتخذه المجلس بشأن المناقشة في المعاهدة انما تقع على سعادتك وعليه ليس من العدل ان تلقيها على الاخرين .

اما فيما يتعلق باستلامي نص قرار فخامة المفوض السامي في صباح يوم الجلسة نفسه فاني اعترف بانني لم استلمه الا بعد الجلسة . وعلى ذلك حفظته في اوراق البرلمان بصفة وثيقة . ولم يكن علي الا تقيد واحد ازاء فخامة العميد السامي وهو ان امنع في قلب المجلس كل غوغاء يمكن ان تسبب اهانة الوزراء او بعض الكلمات الموجهة اليهم وهذا ما صار ابلاغه الى فخامة المفوض واني اعلن انه ليس في تاريخ البرلمانات جلسة اكثر هدوءاً واكثر سكينة من جلسة الثلاثاء في ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٣ هذه الجلسة التي طرحت على المناقشة مقدرات البلاد فقد قمت بتعهدي ولم يرفع الى فخامة العميد اي حادث من النوع الذي كان مقدراً .

وعند سردك وقائع الجلسة تقول في كتابك ان نائباً سألني عما اذا كان نص المعاهدة قد طبع فاسرعت بتوزيعه وقامت على الاثر مناقشة ولم يقع اي تدخل من مكتب المجلس من شأنه أن يحول دون هذه المناقشة التي لم يكن يجب أن تقع ولكنك لاحظت ولا شك ان وزير المالية كان اذ ذاك على المنبر آخذاً بتلاوة خطابه الطويل الذي يدافع به عن المعاهدة . واسمح لي بان اذكر سعادتك

ان القرار الذي كنت تحمله كان يجب ان يتلى تماماً في الدقيقة التي دخل فيهـا المناقشة الوزير الذي سمح لنفسه بان يخالف منطوق القرار الذي له اطلاع تام عليه والذي وضع طبعاً بالاتفاق مع الحكومة . واذا كان قطع المناقشة ضروريا فواجب التدخل يقع على سعادتك اولا ثم على الحكومة لان المعاهدة حولت الى المجلس وبالتالي كانت تحت تصرفه وفاقا لمرسوم رئيس الجمهورية رقم ٢٠٥٤ — ١٦٩٩٦ — ٥٦٧٧ بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني كما يؤيد ذلك تحويل الحكومة بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني وباكثر ايضاح بلاغ فخامة المفوض السامي الى الصحافة بتاريخ ١٩ تشرين الثاني الذي يعلن فيه ، ان المعاهدة طرحت على مجلس النواب ومن العبث التدليل على اهمية المناقشات القادمة وان المجلس مدعو اليوم ليقول كلمته في نص المعاهدة التي طرحت عليه . (وفقاً للنص العربي الذي حمل النواب على طلب المناقشة واثارة افكار الامة) .

ولا يخفى على سعادتك انه متى طرح مشروع على المجلس وتقررت المناقشة فيه فان المناقشة تتنـاول اولا مجموع المشروع حتى اذا قبل احيل الى اللجنة ولكن في حالة رفضه لا يبقى لزوم لاحالته وعليه فان المناقشة في المشروع التي اثيرت مراراً من قبل الحكومة وتلاوة السكرتير البرلماني نصه كل ذلك جرى على مسمع ومرأى منك ومن بعد ذلك قام النائب جميل مردم بك الى المنبر وتلا مضبطة النواب ومن المدهش حقاً ان تنتظر سعادتك نهاية هذا الحادث حتى تتلوا قرار فخامة العميد السامي .

واذا كنت سعادتك على عكس ذلك تتحين الفرصة الموافقة لتلاوة القرار ، او لو كنت اعطيتني نسخة عنه لكنت كلفت احد السكرتيرين تلاوته بالعربية حتى يفهم المجلس ما تريد ان تعلنـه ولكن عملت بطريقة اخرى ثم لم تختر الوقت المناسب لتلاوة الذي تلوته بالفرنساوية ومن ذلك نتج الموقف العصيب لسعادتك والقلق والاضطراب للبلاد .

واري من الضرورة ان اعيد عليك باجمال امين الحوادث التي جرت في هذه الجلسة فافسح لك المجال لتنقيح بعض اخطاء قد تكون حفظتها في ذاكرتك سوا.

من جراء ترجمة سيئة او من جراء عدم الانتباه. لقد طلب النواب ان يوزع عليهم مشروع المعاهدة فلم يسع الرئاسة منعه او انكار وجوده لا سيما بعد بلاغ فخامة المفوض السامي للصحف المعلن بان المعاهدة تحت تصرف المجلس فوزعته وقام احد النواب فالقى خطابا طويلا حول المشروع وفتح المناقشة فطلب وزير المالية الكلام باسم الحكومة وصعد الى المنبر ودخل في صميم المعاهدة التي بحثها طويلا وعنـد ذلك طلب نائب تلاوة النص فكان ما طلبه وحينئذ وقف جميل مردم بك وطلب من الرئيس الكلام وتلا مضبطة النواب وعندما اوشك الانتهاء منها ولم يبق له غير سطر او بعض السطر وقفت سعادتك وبدأت بتلاوة قرار فخامة المفوض السامي. هـذه هي حقيقة ما جرى في جلسة ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٣ وهي الحقيقة التي سجلت في محضر الجلسة المذكورة.

وتقول سعادتك في كتابك ان جميل مردم بك بعد ان مد يده بالمعاهدة الى احد السكرتيرين البرلمانيين سحبها ووضعها في جيبه وهكذا لا تكون قدمت الى قلم المجلس. انني لا استطيع ان ابين لك السبب الذي حدا بجميل مردم بك الى استرجاع هذه الوثيقة ولربما كان بسبب الضجة التي احدثتها تلاوة قرار فخامة المفوض السامي في وقت لم يكن مناسبا ومن المؤكد انه ليس من الصعب اخذ هذه الوثيقة عند افتتاح المجلس وضمها الى اوراق البرلمان وليس هذا بالامر المهم ولتسمح لي سعادتك ان اذكرك بانك نفسك فعلت مثل ذلك

وشئت ان تدون ايضاحات فهت بها عند فخامة المفوض السـامي بحضور مسيو لافاستر وحضور سعادتك وبالحقيقة انني لا استطيع ان افهم كيف اتخذت منها هذه الحجج التي عليها تبني كل هذه الاستنتاجات الخطيرة المدونة في ختام كتابك. ان مكتب المجلس لم ير من واجبه ايقاف المناقشة في المعاهدة لانه: اولا — كان من واجب سعادتك وانت تحمل قرار فخامة العميد ومكلف تلاوته ان تتلوه ولم تفعل. ثانياً — لم يكن على الحكومة ان تدخل في المناقشة وان تسمح لاحد اعضائها أن يمتدح معاهدتها ويطلب درسها.

بنـاء عليه اكون لك مديوناً جداً اذا لم تمن كثيراً بالدفاع عن القواعد

الدستورية والتقاليد البرلمانية فسعادتك تعرف جيداً من يتجاوزون عليها ومن لا يحترمونها . اما القسم الثاني من التصريحات التى عزوتها الي والتي تتعلق بان جميل مردم بك لم يكن انهى تلاوة المضبطة عندما بدأت تلاوة القرار فقد قلت واعيد القول انه لم يكن باقياً سوى سطر او بعض السطر عندما وقفت وبدأت بتلاوة قرار فخامة المفوض السامي الذي كان يجب ان يتلى قبل دخول وزير المالية في المناقشة . واخيراً ان جميل بك لم يقرأ تواقيع النواب لان العادة جرت على ان لا تقرأ التوقيع في الجلسة وانما تؤخذ في آخرها للسبب البسيط وهو اذا وجب كل مرة ان تتلى التواقيع في الوثائق الواردة الى الرئاسة كالتقارير والمشاريع والاستدعاآت والبرقيات الى آخره فلا يبقى وقت للعمل .

هذه ايضاحات قد اردت ان تعلق عليها اهمية كبرى وما هي في الحقيقة سوى مسائل بسيطة لا يمكن استخدامها اساساً لنتائج خطيرة كالتى اردت استنتاجها في سبيل تبرير الخطر . ولا اخفي عليك باحضرة المندوب دهشتي من كتابك وعجبي من التحفظات التى بينتها في آخر هذا الكتاب فاسمح لي على كل حال ان اختصر لك جوابي بما يلي :

١ — ان جلسة مجلس النواب يوم الثلاثاء ٢١ تشرين الثاني كانت هادئة جداً وساكنة جداً ولا يمكن ان تكون جلسة برلمانية في العالم تبحث فيها مقدرات الامة اكثر هدوءاً : ٢ — ان الرئاسة قامت بواجبها وطبقت النظام الداخلي واحترمت القواعد الدستورية ولم يطلب منها ولا يمكن ان يطلب منها اكثر من ذلك : ٣ — ان الحكومة التي ابلغتها تعليماتك برفض كل مناقشة في المعاهدة ارتكبت خطأ بسماحها لاحد اعضائها بالدخول باسمها في المناقشة : ٤ — ان سعادتك لم تحسن اختيار الوقت المناسب لتتلو قرار فخامة العميد السامي وهو ما عرض موقف سعادتك الى هذه النتائج : ٥ — ان التحفظات التي اردت ابداءها على محضر الجلسة لا يمكنها ان تقلل من قيمته المشروعة التي تبقى برهانا قاطعاً لبيان الحقيقة ولتبقى اساساً لتقرير الموقف : ٦ — ان ادهش عبارة لاحظتها في كتابك هي عبارة التحفظ الاخير وفيها تعلن عدم الثقة بامثال هذه المحاضر حتى

ولو صدق عليها المجلس في جلسته القادمة مما يجعلنا نفهم انك تريد ابطال اعمال المجلس قبل ان يلتئم ويعلن رأيه .

جرت عادة حملة الاخبار في تواريخهم ذكر تراجم حياتهم ، احببت ان اقتفي اثرهم بذلك واتشبه بهم مستعذبا قول الشاعر :

لي سادة اقدامهم فوق الجباه ان لم اكن منهم فلي في حبهم عز وجاه

فاقول : اني من ذرية بني تقي الدين الحصني ، الشهيرة رجالها في الاعصر السابقة ، كانت هجرتهم الى دمشق في القرن السادس ، واصلهم من الحصن ، وهي قرية من قضاء عجلون في البلقاء افتخر مع اولادي واحفادي باني من سلالتهم على مدى الدهور ، ولي المثل الأعلى بقول القائل :

ان لم تكونوا مثلهم فتشبهوا ان التشبه بالكرام فلاح

وقد نقلنا في كتابنا ما وقع في يدنا عن اخبارهم، وذكرنا ما كتبته حملة الاخبار عن تراجم احوالهم وشرفهم امثال صاحب الطبقات ، النجم الغزي ، البصروي العدوي ، ابن شقدة ، ابن خلكان ، ابن عبد الرزاق، ابن رجب ، القاضي محمود ، المحبي ، المرادي وكثير من مؤرخي البلاد العربية والتركية والفارسية فقد اتفق جميعهم على مدحهم واختصاصهم في العلوم الدينية ونشرها ، وسلوكهم في زمانهم لمنفعة البلاد والعباد ، واحترام ملوك الاسلام لهم ، وكانوا محل ثقتهم ومحبتهم اذ كانت احساناتهم تترى عليهم ، وتخصهم بالزوايا ، وتوقف لهم بعض القرى ، وتعطيهم بدل اعشارها ، وتخصص لهم الرواتب الشهرية من بيت المال ، ولذرياتهم من بعدهم ، وبقي البعض منهم يتناول هذ الحق المكتسب باسم المواساة القانونية وحصتهم الشرعية في بيت المال الى ما بعد الاحتلال الاجنبي ، ثم قطع ذلك في زمن الدولة المنتدبة لهذه البلاد التي اختارتها جمعية الامم لارشاد اهلها واسعافهم بحسب وصايتها عليهم ، لا ان تكون سببا لقطع صلاتهم وارزاقهم الصريحة فجاء املهم بالعكس ، وما كان من رجالهم وموظفيهم في سورية الا مداخلتهم في شؤنهم الجزئية والكلية ، ولذلك بقيت البلاد تدار ادارتها بواسطة

حكومات موقتة في سلوك التجارب الى يومنا هذا تابعة لاهواء وتطور الازمان تفعل ما تشاء بلا رادع ولا مراقب ولا زاجر :

ولدت في دمشق سنة ١٢٩٢ هـ ١٨٧٤ م ولما بلغت السابعة في العمر اخذت اتلقى قراءة القرآن والكتابة ومبادىء تاريخ الاسلام والانشاء والحساب في مدرسة الباغوشية الاميرية . ثم انتقلت الى المدارس الاهلية منها الريحانية ، واساتذتها الشيخ محمد المبارك ، الشيخ محمد الحكيم ومدرسة الشيخ احمد دهمان شيخ القراء ، ومدرسة الشيخ الجليل محمد الحطابي . ثم دخلت مدرسة الجقمقية وكان استاذها الشيخ محمد المرعشلي الفاضل الشهير ، فدرست مبادي اللغة التركية وقواعدها على الاصول ، وشيء من اللغة الفارسية وقسما كبيراً من مبادىء علم النحو والصرف والمنطق وخلافهم من العلوم العربية . وقد حفظت نصف القرآن والفية ابن مالك وبعض المتون والفنون وقسما من العلوم الادبية والدينية والتجويد على اساتذتي وهم : الشيخ محمد المبارك ، الشيخ محمد الحكيم ، الشيخ احمد دهمان ، الشيخ عبدالقادر المالكي والشيخ امين السفرجلاني . كما اني لازمت بعضاً من العلماء الاعلام في دروسهم العامة ، وهم الشيخ بكري العطار وابناء عمه الشيخ عمر والشيخ محمد . والشيخ محمد المنيني مفتي دمشق والشيخ انيس الطالوي ، الشيخ المعمر عبدالله السكري الركابي ، الشيخ رشيد سنان قربها ، الشيخ محسن المرادي ، الشيخ عبدالحكيم الافغاني ، الشيخ بهاءالدين . فقد لازمتهم مدة طويلة وتلقيت منهم بعضاً من العلوم العربية والدينية والفقه واصوله وقسما من التفاسير وعلم التوحيد وحضرت مدة قليلة بعض دروس خاتمة المحدثين ، معتقد الاسلام وأحد أئمة الدين مولانا الشيخ بدرالدين الشهير . والعلامة المحدث الكبير بركة الاسلام والمسلمين ، وعمدة رجال أهل اليقين صاحب المؤلفات العظيمة مولانا السيد الشيخ محمد الكتاني الشهير ، نزيل دمشق . والملا عيسى الكردي شيخ مشايخ العلماء والطريقة النقشبندية بها . وقد أجازني العلامة النحرير والمحدث الشهير الحافظ لجميع الاسانيد السيد السند عبدالحي الكتاني الشريف ، وغيره من علماء الحجاز ومصر . واني تبركا اثبت بعض اجازات هؤلاء السادة الاعلام التي

بقيت محفوظة لدي . والتي فقدت منها لا يسعني الا الدعاء للمحسنين بها على فجزاهم الله عني خير الجزاء .

١) : نحمدك اللهم على متواتر آلائك ، واشكرك على مسلسل نعمائك ، ونسألك متصل الصلوات والتسليمات على المرفوع من بين المخلوقات . وعلى آله المشهورة اخبارهم واصحابه المستفيضة آثارهم . اما بعد فان الأرشاد من الدين والآخذ به متمسك بالحبل المتين . فمن ثم عكف اهل العلم عليه ، وتوجهت مطايا هممهم اليه . ولما كان منهم مولانا الحسيب النسيب ، نقيب السلالة الطاهرة بدمشق الشام ، السيد محمد اديب تقي الدين الحصني ، وفقه الله تعالى لارشاد العباد ، وسهل لنا وله طرق السداد . طلب مني الاجازة ، التي هي امان عند اقتحام المفازه . ولست اهلا ان استجاز ، وهل يقال بهذا الجواز ، الا انه حسن فيّ ظنه ، اثابه الله تعالى على قصده الجنة . فاجزته بالمعقول والمنقول ، من فروع واصول والاحاديث الشريفة ، والآثار المنيفة . كما أجازني بذلك فضلاء العصر وجهابذة مصر (وعدد اسماءهم الكريمة) ثم قال : وأوصي المجاز المشار اليه ، نظر الله تعالى بعين العناية اليه . بمجاهدة النفس وتفريغ القلب عن الاغيار ، وتطهيره عن سفاسف هذه الدار . وبملازمة الاذكار المأثورة ، والادعية المشهورة ، والاكثار من الصلاة والسلام ، على خير الأنام . مع المشاهدة المعنوية المنتجة للمجالسة الحسية والمرجو من الشيخ المذكور ، ضاعف الله لنا وله الاجور . ان لا ينساني من دعوة صالحة ، جعل الله تجارة الجميع رابحة . وأمدنا بالمدد الاسنى ، وختم لنا بالحسنى . كتبه العبد الفقير اليه تعالى محمد بدر الدين بن يوسف عفي عنه ثم الختم

٢) : الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد فقد اجزت للاخ الشفيق والمحب الرفيق ، نقيب اشراف الشام ، الشيخ اديب ابن تقي الدين الشريف ، في سائر العلوم ، من الفقه والتفسير والحديث والعلوم الالهية والاذكار والاحزاب ، وغير ذلك من سائر العلوم ، كالتصوف والادعية وسائر الاذكار المنقولة من الكتاب والسنة والمشايخ ، نفعه الله بها وفتح عليه ، وجعله باباً للخير لا باباً للشر ، ويقضي حوائج الناس بقدر طاقته .

والفقير أخذت الاجازة من شيخي ومرشدي الى الله الشيخ قاسم الهادي ، وهو مجاز في هذه العلوم عن شيخه الشيخ ابراهيم الدلكي ، وهو مأذون في ذلك عن شيخه الشيخ رسول الخسخري ، وهو مجــاز في ذلك عن شيخه الشيخ يحيى المزوري ، وهو مأذون عن شيخه مفتي العمادي ، وهو مأذون عن شيخه الشيخ نجم الدين الى آخر السلســـلة . المجيز الداعي لكم خادم العلم الشريف ، والطريق النقشبندي المنيف . عيسى الخالدي النقشبندي عفي عنه تحريراً في ١٧ ذي الحجة سنة ١٣٣٠

٣): الحمد لله مجيز من استجازه ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد اكمل من نال الفضل وجازه ، وعلى آله والاصهـار ، وصحابته الابرار . أما بعد ، فانه لما كان العلم اجل محبوب ، وافضل مكسوب ، واحسن غنيمة ، وارفع من كل شيء ذي قيمة . وفق الله تعالى اقواماً لخدمته ، وهيأهم لحلول رياض جنته . وان ممن انتمى لعلى جنابه ، وتعــاطى ما قدر له عن وعد اسبابه . الحسيب النسيب السميدع المتقي الفقيه التاريخي الاديب السيد محمد اديب بن السيد تقي الدين الحصني الحسيني الحنفي الدمشقي . وانه التمس مني الاجازة فيما يسند اليه أو يصح لديه من قليل أو كثير ، فاسعفته لطلبته رجاء دعوته ، فقلت مستعيناً بالله ، وما توفيقي الا بالله أجزت السيد المذكور والفاضل المسطور في كل ما يجوز لي أو ينسب الي من معقول أو منقول ، وفروع وأصول وأدعية واذكار وكل جليلة المقدار وبكل مالي من رسالة أو تصنيف ، أو كتابة مفيدة أو تعريف . اجازة عامة مطلقة بشرطها المعروف وعلى نهجها المألوف . وانا أروي العلم عن والدي رحمة الله عليه وهو عمدتي في الفنون وعن الفقيه العلامة المسن البركة سيدي احمد البنــاني ، والفقيه العلامة أبي الحسن علي ظاهر الوتري المدني ، والفقية العلامة المربي سيدي مصطفى ماء العينين الشنجيطي ، وغيرهم من علماء مشارقة ومغاربة ومن المذكورين اجازتي بأجازته العامة في العلوم وغيرها .

وأوصي المجاز بتقوى الله تعالى سراً وعلناً وبتعظيم من عظمه الله تعالى قولا وفعلا وبمجانبته قرناء السوء قلباً وقالباً ، وبالتعويل على فضل الله تعالى في كل عمل

والانسلاخ عن الحول والقوة والدعوى والاعتراف بخالص العبودية لله تعالى، وحسن الظن به في كل شيء وبالتعلق بيتيمة الوجود، وعروس المملكة سيد الكائنات وافضل الموجودات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، واعتقاد انه الواسطة في الوجود وما بعده من الامدادات وانه لا غنى لمخلوق عنه ابداً، ولو بلغ ما بلغ، وتعظيم كل من له نسبة به أو تعلق من صحابي أو شريف أو منسوب. والله يوفقنا واياه ويمنحنا في الدارين برضاه آمين. قيده لسائله واذن في كتابته عبد ربه تعالى الفقير الجاني محمد بن جعفر بن ادريس الكتاني الحسني الادريسي الفاسي، نزيل المدينة المنورة ثم الشام فاتح جمادي الثانية عام تسعة وثلاثين وثلاثماية والف. واخبرني ان له من المؤلفات المتنوعة تسعة وسبعين مؤلفاً منهم ظهر للوجود وطبع ومنهم باقي مخطوطاً عنده، وقد رحل الى زيارة بلاده واهله ومريديه، وبقي هناك الى أن توفاه الله. وقد تأسف كل من بلغه نعيه عند المشارقة والمغاربة. تاركا ذرية صالحة مباركة ارشدهم العالمين النابغين السيد مكي والسيد الزمزمي بارك الله بهم جميعاً وجعلهم خير خلف لذاك السلف، بأبه اقتدى علي بالكرم، ومن يشابه ابه فما ظلم.

٤) : بعد البسملة والحمدلة والصلاة والسلام على النبي الكريم، انه من عبد ربه سبحانه احمد الشريف السنوسي الى الحسيب النسيب والاديب الشيخ تقي الدين أدام الله علاه آمين. عليكم تحية من عند الله مباركة طيبة، ومنا خير سلام ودعاء وبعد اني اجزتكم بما تجوز لي اجازته من بعض العلوم الدينية والاذكار والاحزاب والدوام عليها بقدر الاستطاعة. جعلكم الله على أحسن حال واهنأ بال وانالكم خير المقاصد وأبلغ الآمال انه تعالى سميع قدير متعال. نعم سابقاً جاء الاخوان الى طرفكم السيد محمد الشارف والشيخ المرتضى الفرياني فبررتموهم واكرمتموهم واثنوا عليكم الثناء الجميل فيما قمتم به من الواجب معهم، فجزاكم الله احسن الجزاء واقبلوا في الختام ازكى تحية واعطر سلام عن بروسه في ٢٤ رجب ١٣٢٨ الختم المقتبس نور فيض الفتح القدوسي مملوك استاذه السيد المهدي احمد الشريف السنوسي.

٥) : الحمد لله رافع من بصحيح العمل الى علي بابه استند ، وواصل من انقطع بحسن العمل الى عزيز جنـــابه وعليه اعتمد ، وواضع من تعلق في النوازل والمعضلات لضعف يقينه بسوى الفرد الصـــمد ، فليس وراء الله أحد . والصلاة والسلام على سيدنا محمد المرسل والحق في غربة واضطراب ، اشتهر ولله الحمد دينه القويم وتواتر ولو كره المعاند المرتاب . وعلى آله المسلسل مالهم من الشرف والمجد ، ولد عن والد ووالد عن جد . واصحابه مصابيح الهدى ، ونجوم الأقتداء والتابعين لهم بأحسان ، ما تكرر الجديدان .

أما بعد ، وفي كل ربع بنوسعد فيقول الفقير الحقير (ابو الاسعاد وابو الاقبال خادم السنة محمد عبدالحي ابن شيخه الامـــام وباني العصر ابي المكارم الشيخ عبدالكريم ابن شيخه الأمام القطب محمد بن عبدالواحد الحسيني الحسني الادريسي الكتاني . قد استجازني وبالخير أولاني حضرة أخينا الشيخ الفاضل الجليل تقي الدين محمد أديب بن السيد محمد تقي الدين الحصني الدمشقي لطف الله تعـــالى به آمين

فلبيت دعوته ، واجبت رغبته ، وقلت ، وعلى الله توكلت . أجيز الفاضل المذكور ذي السعي المشكور والعقل المبرور بجميع مالي من مرويات ومقروءات ومسموعات ومجازات عن قريب من ثلاثمائة نفس ما بين رجال ونساء بالمغرب الاقصى والاوسط والأدنى والحجاز ومصر والشام والعراق واليمن ، وبكل مالي من مؤلفات نحو الستين وأزيد ومؤلفـــات والدي ابي المكارم وأخي أبي الفيض وجدي أبي المفاخر وخالي ابي المواهب وسائر ما لأسلافنا الاجلاء القادات اجازة عامة مطلقة تامة ، يحدث عني بها كيف شاء ولمن شاء موصياً للسيد المجاز بتقوى الله تعالى التي هي ملاك الامر كله في السر والعلن فيما ظهر وبطن ، وان لا ينساني من صالح دعواته في خلواته وجلواته ، واسأل الله تعالى أن يطيل عمره في صحة وعافية وينفع به ، ويوفقني واياه وذويه ومحبيه وتابعيه والمسلمين لما يحبه ويرضاه آمين .

قاله وأملاه الحقير خادم الحديث محمد عبدالحي ابن الشيخ عبدالكريم غفر الله له عام ١٣٢٩ بدمشق . وفي سنة ١٣١٠ بعد وفاة والدي عهدت الي وظيفة أمامة

الحنفي في الجامع الاموي بعد أن تشكل مجلس من العلماء والمفتي تحت رآسة قاضي الشرع في اثبات اهليتي لتقلدي هذه الوظيفة الدينيـــة مع وظيفة مشيخة الحفاظ في جامع السلطان سليمان . ثم بعد سنة توجهت لدار السلطنة الاسلامية ومقر الخلافة ومحط آمال الشرقيين على اختلاف مذاهبهم ، فصدرت اذ ذاك ارادة السلطان عبدالحميد لعهدتي توجيه نقابة الاشراف في قضاء دوما مع رتبة كبار المدرسين . ثم بقيت مدة غير قليلة بهذه النقابة . ثم تحولت الى لواء الكرك ومعان عند أول تشكيل حكومة حديثة فيه وعلى رأسها المصلح الشهير حسين حلمي باشا المجدد لتنظيم ذلك الاقليم مع اعطائي رتبة ازمير العليـــة . ثم بعد مدة طويلة تحولت الى رتبة ادرنه . ثم في سنة ١٣٢٦ هـ . توجهت ايضاً الى الاستانة في آخر عهد السلطان عبدالحميد صدر الامر الملوكي بتوجيه نقابة الاشراف في البلاد الشامية لعهدتي مع رتبة مخرج مولوية قضاء مصر وضبطه عند مجيء وقته ، وقبل الاستحقاق تحولت رتبتي الى البلاد الخمس الموصلة الى رتبة الحرمين بدون اذني وطلبي . لان ذلك كان حاجزاً عن فائدتي من مرتبها المعين لها ثلاثة آلاف جنيه مصرياً وفي اوائل حكم الملك رشاد الدستوري أحسن الي بتوجيه رتبة الحرمين الشريفين مع امثالي من علماء دمشق ، وكنت حائزاً للوسامين العثماني والمجيدي الثالث ، وبقيت بهذه الوظيفة مدة طويلة ثم انتقلت عني بعد الاحتلال ومداخلة بعض الرجال الذي كان بيدهم مقاليد البلاد كما اني بينت اسباب ذلك فيما سبق .

وبهذه الوسيلة اذكر ما ورد الي من بعض افاضل الشعراء بتهنئتي في النقابة وفي بعض هذه الرتب اثبتها لهم اعترافا بفضلهم ، وتذكارا لمحبتهم شاكرا لهم حسن ظنهم ، وبقدر اهل العزم تأتي العزائم . والانسان مرآت اخيه . منها ما قاله قاضي دوما الشيخ عبد الرحمن قريطم احد علماء بيروت ومن اعضاء محكمة التمييز بها اليوم سنة ١٣٢٨ هـ مطلعها :

انعم الله بالفضـــائل دوما ... للاديب النقيب للاشراف

ســـيد كامل تقي نقيٌ ... بالتقى زاد رفعة والعفـــاف

يا له الله من همام كريم نال خلقاً مكمل الاوصاف
وهو لما بالعز وافى علينـــا وحبـــاه الله بالالطاف
قلت بالســـعد ارخو وبعز للاديب نقـــابة الأشراف

ومنها ما قاله الشاعر الاديب محمد علي بك الميداني الدمشقي :

رقصت دمشق بكل انس زاهر والسعد واصلها بعز باهر
والنفع واصل اهلها لما ارتقى عرش النقابة ذو الكمال العاطر
هذا اديب زمانه المولى الذي حاز السيادة كابرا عن كابر
هو بضعة المختار اكرم ماجد سامي المراتب ذو الصفاء السافر
ما امه ذو حاجة الا وبات مرغوب عاد من السرور الوافر
بلغت به الفيحاء خير مسرة منذ اغتدى اسمى نقيب آمر

ومنهـــا ما قاله السيد محمد البشير التواتي الشاعر الخاص للامام السيد احمد السنوسي الادريسي :

يا ايها المولى الاديب المرتضى يا جامعاً لخصال كل فضيلة
انت النقيب لسادة قد شرفوا كل البرية في جمال الصورة
انت التقي في الدين والدنيا فدم للدين والدنيا نقيب السادة
انا بلقياك استنار فؤادنا وازداد فيك القلب نور محبة
لا غرو ان كان البشير مبشر لك بالسعادة والهناء بهمة
نحن السنوسيون اهل رعاية للسادة الاشراف اهل النخوة
دوموا لكل العالمين بدورها وشموسها واما نها للنفحة

ومنها ما قاله العالم الفاضل رفاعي زاده السيد عبد الواحد الخطيب الحلاوي نقيب الاشراف في حيفا :

بلاد الخمس رتبتها تسامت مقاما في علا شرف الاديب
تقي الدين نخبة آل طه بقطر الشام ذو الفضل الحسيب
نقيب السادة الاشراف فيها كريم الجاه والطول الرحيب
هنـــاء رتبة المجد المعلى بسيد عصره المولى النسيب

ومنها ما قاله السيد محسن اسعد المدني من اشراف المدينة المنورة ومن رجال الفضل فيها :

فيا حبذا الفيحاء دام امتيازها · بخير نقيب واستقام طرازها
اديب قد طاب الشام فخرها · وان يتوالى بالسرور ارتجازها
كريم اوحد اللطف ماجد · به فرصة الايناس طاب انتهازها
حسيب نسيب بارع خير سيد · به يانعات المجد زاد اهتزازها
اديب زمان الفضل ارخوا حلا · به باية الحرمين دام اعتزازها

ومنها ما قاله صاحب الفضل والفضيلة العالم الشاعر السيد محمد رفعت تفاحة نقيب اشراف نابلس :

يا نقيبا اشرقت انواره · بحيا المختار مولاك الحبيب
انت سبط المصطفى خير الورى · وعزيز في حما المولى المجيب
قد حبوت الشام تاريخا سما · فغدا يسعدها النصر القريب
وبطبع قد بدا تاريخه · تم هذا بحيا قول اديب
يا بدر سوريا ومن · فيها غدا نعم النقيب
نورت اهل الشام في · حكم وفي قول مصيب
وغدوت فيها شامة · تجلا على وجه الحبيب
احييت ذكرى سادة · فازوا برضوان المجيب
قد تم حقا ارخو · ه كمال تاريخ الاديب

ومنها ما قاله محمد حماد عالم المدينة وشاعرها الامام والخطيب والمدرس بالحرم الشريف النبوي سنة ۱۳۳٦

انت النقيب أديب الوقت من خضعت · لعز منصبه الاطواد والاسد
اوصاف حضرته شتى فلو جمعت · لمات حاسده غيظا به الكمد
حماده عاجز عن حصر شاردها · لو رام حصرا لها يفنى به العدد
في كل يوم يرينا من محاسنه · مكارما وسجايا كلها رشد
فالله يحفظه من عين حاسده · حفظا تدوم به الايام والمدد

فيا ابن طه اتتك اليـــوم غانية من نحو طيبة حسنا عمرها الأبد
بذكر مجدك في ثوب التقى رفلت خذها اليك عروسا ثغرها برد
لا ترتجي غير ود مهرها ابداً ان الوداد هو المنشود والسند
واسلم لنا راقياً اوج العلى شرفا بطول عمر مديد عاشه لبــد
يدوم سعدك والاقدار تخدمه بطيب وقت وعيش كله رغد

ومنها ما قاله العالم الشاعر الاديب الشيخ جميل الشطي قاضي الحنبلي في الديار الشامية وامام الحنابلة في جامع بني امية في عام ١٣٣٥

اضحيت كهف العلم غوث الدين فاهنأ فانك سيد بيقين
دانت لك الايام وهي جموحة بالعز والاسعاد والتمكين
يلقى فتى جافاك غـــير مظفر ويرى فتى وافاك غير حزين
بنت السيادة منك كنزاً للنى اعظم بكنز في حماك كمين
اولاك بالحرمين سلطان الورى فزهوت من نعمائه بفنون
فلك السعادة دائر بك كله حاشاك فيه من اقل قرين
نور على نور علاك وربنــا يعمي العيون فلا تخف بعيون
دع عنك اقوال العداة فانهم من كيدهم في حيرة وظنون
يشكون ناراً منك نور كنهها فاعجب لحال بصيرة المفتون
تاهت بك الدنيا ترومك بعلها فانعم من الدنيا بحور عين
قد نلت في عهد الشباب مراتبا لم تحوها الاغيـــار في التسعين
يا خير من ام الانام وعمهم بمحاسن المفروض والمسنون
الجامع الاموي منك جماله وعليك هدر الطائر الميمون
لاحت على سيماك انوار الهدى تبدو عليك الحين بعـــد الحين
دامت اياديك العلية فوقنا والحر للاحرار خير ضمين
يعلو مقامك في الانام على المدى والناس من مثن ومن ممنون
نعم الفتى هـــذا سليل محمد هذا افتخار بهيج تقي الدين

وقد كتب الينا ايضا عند ظهور تاريخ دمشق لعالم الوجود في احدى الصحف

الدمشقية تشويقا لهمم رجال التاريخ وتحميسا لنصراء الادب ، واستنهاض هممهم بالمعاضدة لهم بالقول والعمل تحت عنوان منتخب تواريخ دمشق قال حفظه الله : كتاب ظهر حديثاً في مجلدين يحتويان على نحو ٩٠٠ صحيفة تأليف العالم النسابة ، الفاضل النقابة ، الاستاذ السيد محمد اديب تقي الدين نقيب اشراف دمشق سابقا ، عنى بجمعه من مختلف الكتب والرسائل التاريخية الموضوعة في تاريخ دمشق ورجالها ، ومن كثير التعقيب والتنقيب مشافهة ومراسلة ، مما اشغله فيه سنوات طويلة ، وقد حشر فيه اخبار وحوادث هذه المدينة العظيمة على تنوعها وتلونها في المجلد الاول ، وسيرة رجالها العظام على اختلاف طبقاتهم في المجلد الثاني مع الفوائد الكثيرة الاستطرادية فلم يبق من ذلك ولم يذر ، فترى في الكتاب الاعيان والادباء ، قرنا بعد قرن من الهجرة النبوية حتى القرن الرابع عشر . ثم ترى فيه تراجم بيوتات دمشق الشهيرة منها ، وسائر المدن السورية مما يعرف بعلم او شرف او ادب او تجارة او زراعة او صناعة ، فلا يكاد يغيب عن هذا الكتاب بيت له مزية ما ، فنحث كل دمشقي بل كل سوري على اقتنائه والاستفادة من ابحاثه الغزيرة وتراجمه اللذيذة ، ونثني على همة مؤلفه الفاضل الجليل وخدمته لهذا البلد الطيب احسن خدمة تذكر له ، ما بقيت دمشق وتاريخها وجزاه الله على عمله المبرور وسعيه المشكور خير جزاء .

ومنها ما كتبه الينا في صحيفته الف باء الفاضل الكاتب الشهير يوسف العيسى من اعيان مسيحي فلسطين ، وشيخ الصحافة بدمشق (تحت عنوان انعام في محله) بلغنا ان الدولة العلية الايرانية منحت الاستـاذ الشيخ اديب تقي الدين نقيب الاشراف السابق وامام الجامع الاموي بدمشق ، وسام الاسد والشمس (شير خورشيد) مع الحمايل الحمراء (كوردون) من الدرجة العالية تقديراً لما كتبه ونشره في حق آل بيت النبوة الشهداء الطاهرين المدفونين بدمشق في تاريخه الحديث وقد بعث بهنئه بهذا الالتفات السامي الملوكاني من اكبر دولة اسلامية اليوم ، دولة حبيب الله خان عين الملك سفير الدولة المعظمة في مملكة الحجاز ، فله منا مثل ذلك .

ومنها ما كتبه لنا في صحيفة الاستقلال الشيخ راغب افندي العثماني من علماء اللاذقية ونزيل دمشق تحت عنوان مطبوعات حديثة ، تاريخ دمشق وعمرانها وآثارها وتراجم رجالها وما طرأ عليها من الحوادث .

وضع لدمشق فضيلة الاستاذ الشيخ اديب تقي الدين نقيب الاشراف السابق وامام الجامع الاموي تاريخاً مختصرا سماه ، منتخبات التواريخ لدمشق ، ضم بين صحائفه من النبذ التاريخية المشتة المأخوذة عن اشهر كتب المؤرخين ، وما قيل في مدح دمشق نظما كان او نثرا ، وما كانت عليه من بدأ الخليقة الى اليوم ، وعن حالتها الاجتماعية والعلمية والاقتصادية قبل العرب وفي عهده ، ومن ساسها من الدول وحكمها من الامم ، وقد ذكر فيه ملحوظات جمة عن مدارس دمشق ومعاهدها وجوامعها واديرتها وكنائسها وخلاصة القول انه تاريخ لطيف يجدر بكل عربي اقتنائه ومطالعته .

ومنها ما كتبه الكاتب الفاضل ، طه بك مدور ، من اعيان بيروت وصاحب الرأي العام وسكرتير متصرف دمشق اليوم قال : اهدانا سماحة الاستاذ الفاضل السيد اديب تقي الدين هذا الكتاب الذي وضعه مؤخرا تحت عنوان منتخبات التواريخ لدمشق ، وقد تتبعناه بدقة وقرأنا فصوله الشيقة بلذة واعجاب ، فاكبرنا الجهود العظيمة التي بذلها سماحة المؤلف في سبيل رصف مؤلفه الثمين على ذلك النمط العلمي الراقي الدال على غزارة فضل الاستاذ المشار اليه ، ومن عنوان هذا السفر القيم يفهم ان ابحاثه منحصرة في تاريخ دمشق منذ العهد الاول الى اليوم غير مهمل ما تقدم هذا العهد ايضا مما يتعلق بتاريخ هذه المدينة العظيمة ، وقد كنا نود ان نتبصر في نقد هذا الكتاب وتقريظه كما تقضي علينا المصلحة الصحافية الا ان ضيق المجال حال دون ذلك ، فنشكر لسماحة المؤلف عنايته ومقدرته العلمية الغزيرة ، ونثني على تفضله باهدائه لنا نسخة من كتابه الجليل هذا ، نحض كل فاضل ومولع بتاريخ عاصمة الاسلام الكبرى دمشق ، ان يقتني نسخة من هذا الكتاب ، وهو يطلب من كل مكاتب دمشق .

ومنها ما كتبه العلامة النحرير مفتي بيروت ورئيس علماء الدين الشيخ

مصطفى نجا تحت عنوان ، دائرة الفتوى في بيروت قال : سيادة الاستاذ العالم الاديب المفضال السيد محمد اديب تقي الدين نقيب الاشراف السابق زاد فضله وعلاه ، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فقـــد تلقيت مع كتابكم الكريم الجزء الثاني من كتاب منتخبات التواريخ النفيس ، وتصفحته فوجدته نافعا مفيدا لاهل هذا العصر فريدا في حسن ترتيبه واسلوبه هاديا للطريق القويم لاشتماله على سيرة اكابر علماء الشام الاعلام ، الذين اقاموا الدين واقتدوا بخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ، فجزاكم الله خير الجزاء على تأليف هذا الكتاب المستطاب ، ونفع العباد بعلمكم وفضلكم بمنه تعالى وفضله ، ومد في حياتكم الشريفة حرر في ٢٢ ذي القعدة عام ١٣٤٧ . وقد فجعت البلاد بموته في هذا العام قدس الله روحه ، وحزنت على فقده جميع الطبقات في البلاد العربية لما كان عليه من الاخلاق الكريمة وغزارة العلم وخدمة رجال الدين .

ومنها ما كتبه نثراً ونظماً ، نخبة رجال العلم والفضل الشيخ محمـــد اديب افندي متولي جامع سنان باشا في دمشق قال : حمداً لك يا من تفردت بالوحدانية والبقاء ، واتصفت بالعظمة والجلال والكبرياء . وصلاة وسلاما على سيدنا محمد مظهر الفضل والكمال ، ومعدن الخير والجمال . وبعد فان علم التاريخ من احسن ما اعتنت بشأنه العلماء ، واحلا ماتحلت به في مجالسها الادباء . فكم فيه من فوائد الاخبار ، وآثار اعاظم مشاهير الاخيار . وكفاه نفعاً تذكاره للناظر فيه بالرحيل ، وتأسيه بما ابقاه اولئك الرجال من الذكر الجميل ، وان من حسنـــات الدهر ، ومحاسن هذا العصر ، ظهور منتخبات التاريخ في عالم المطبوعات وقد اطلعت عليه ، ومتعت طرفي بالنظر اليه . فالفيته لعمر الحق كبحر زاخر ، جمع فيه ما تشتت في كتب الاوائل والاواخر . حتى جاء بهمة مؤلفه غرة في هذا الباب ، ومجموعا يشتمل من نفائس التاريخ على اللباب . فما اعظمه واجله من كتاب يغني عن كتب ، وما اقدره على تذليل الصعاب ويأتي بالطلب عن كثب ، يشهد لجامعه بطول الباع ، وبعد الاطلاع . كيف لا وهو الفاضل الذي لا يجارى في مضمار بيانه ، والعالم الذي لا يبارى في ابداعه واتقانه . المعي الزمان ، ولوذعي الاوان . اديب

النبهاء ، ونبيه الادباء ، ونخبة الاشراف الكرماء ، صاحب الفضيلة والسيادة حضرة الشيخ اديب تقي الدين الحصني الافخم نقيب السادة الاشراف الاسبق بدمشق الشام بلغه الله تعالى اماله واحسن له الجزاء على همته العلية وايا ديه البيضاء واوصل كل خير واحسان اليه ، وادام النعمة والمنة عليه والحمد لله على الدوام في المبدأ والختام . في ٢١ مايس سنة ١٩٢٨ م ثم قال نظما :

له الله بدراً في المحافل سيداً ... عليه سلام الله ما كوكب بدا

اديب تقي الدين من آل احمد ... ومن حاز فضلا يا خليلي وسؤددا

فيا فاضلا قد شاع ذكرك في الملا ... بقيت الى التأليف ركنا مشيدا

فمن كان لا يدري مقامك جاهلا ... فمن نخب التاريخ فضلك قد بدا

وقاك اله العرش من كل حاسد ... ولا زلت محموداً ودمت مؤيدا

ومنها ما كتبه البحاثة المفضال ، والزعيم الوطني ممدوح الخصال والفعـــال . الطبيب الحاذق الشهير عبد الرحمن افندي شهبندر ، تحت عنوان « شارع الملكة نازلي رقم ١٨٢ بمصر القاهرة بجانب حدائق غمره في ٤ كانون الاول عام ١٩٢٩ م قال : »

حضرة الحسيب النسيب الأخ الاستاذ السيد محمد اديب تقي الدين لا عدمته تحية وسلاما وشوقا ، وبعـــد فقد تناولت تحفتك السنية (منتخبات التواريخ لدمشق) وشكرت لك عنايتك وفضلك ، وقرأت شيئاً مما ورد فيها من الاخبار وعن الاسر المعروفة والبيوتات المشهورة ، فرأيت التأني والتتبع باديا خصوصا في موضوع نحن احوج الناس الى تدوينه قبل فوات الفرصة لا سيما في هذا العصر وقد سددت بعملك الثمين فرضا من فروض الكفاية ، فشكرا لك ولا عدمت بلادك رجالا امثالك ، يقدمون على العمل الصعب ويتحملون تبعته طوعا واختيارا . وفي الختام ارجو اهداء ازكى سلامي وتحياتي للذين لا يزيدني بعد الدار وشطط المزار الا شوقا اليهم ، وحنينا الى لقائهم ودمت لجارك وصديقك واخيك . ومنها ما قاله الاستاذ الشيخ محي الدين البني الدمشقي ثم الفاسي :

اتحفتني بكتاب انت ناسجه ... احسنت في سبكه يا نخبة الأباء

ذكرتنا بحديث السابقين وبا   لزمان الذي ابدا لنا العجبا
فلا يمل على التكرار قارئه   لانه يرتوي من حسنه طربا

كنا نود ان ننشر جميع ما اتانا في هذا المعنى من الافاضل والشعراء كما تقتضي علينا المصلحة التاريخية ولكن ضيق المقام حال بيننا وبين امنيتنا فشكرا لهم جميعا في البدء والختام ، والى هنا وصل بنا المقام . ووقف جريان القلم وانتهى معنا الكلام . وقد قيل ما كل ما يعلم يقال ، ولكل زمان دولة ورجال ومجرى الاحوال يغني عن السؤال ، وقد وقع سهوا في اثناء الطبع تقديما وتأخير في تبويب قسم من ابواب الكتاب ، وزيادة ونقص يهتدى الى صوابها بالبداهة . فضربنا الصفح عن تكرار ذكرها وبيانها . راجيا من القراء الكرام غض النظر عن الخلل ، والصفح عن هفوات القلم . واقول كما قال صاحب كتاب الكوكب الدري المنير . الذي طبع حديثا بقوله : ما من مؤلف او ناشر او طابع كتاب الا وهو يود من صميم الفؤاد ان يكون الكتاب نقيا من شائبات الاغلاط المطبعية الجلية والدقيقة ، ويبذل كل من هؤلاء الجهد لاصدار الكتاب اجليا بالصواب ، كما يبذل الزراع جهده لانقاذ زرعه من مزاحمة الشغب والشوك . ولكن مهما بذل هؤلاء جهودهم في هذا السبيل فلا بد من تسرب الغلط لان النفوس البشرية مجبولة على الذهول والنسيان . وما سمي الانسان انسانا ، الا لنسيانه وهذا من علائم ضعفه وعجزه ، فسبحان ربي الذي لا يضل ولا ينسى والعصمة لله ولانبيائه ؟

وبالختام اقول ما قاله بعض الافاضل في ختام كتابه :

وان تجد عيبا فسد الخللا   فجل من لا عيب فيه وعلا

وكان ابتداء العمل في هذا التاريخ من عمر ولدي حيدر سنة ١٩١٨ وفقه الله لما يحب ويرضاه وبلغه في الدارين مناه .

تم الكتاب بعون الله وقوته

فهرس الكتاب

SELECTIONS
from
THE HISTORIES
of
DAMASCUS
by
AL-ḤUṢNI

with an introduction by

Dr. KAMAL. S. SALIBI

1-3

Dar Al-Afaq Al-Jadidah

BEIRUT . LEBANON